

السلسلة السلفية للترغيب والترهيب

(٩)

تَوْفِيقُ الْحَمِيدِ

في دروس القرآنية

تأليف

الشيخ فيصل بن عبد العزيز بن فيصل آل مبارك

(١٣١٣ - ١٣٣٣ هـ)

رحمته الله

مكتبة دار الحديث والدراسات الإسلامية

د. عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم آل محمد

مطبعة دار الحديث والدراسات الإسلامية

دار العاصمة

للشؤون والنشر

تَوْفِيقُ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فِي دُرُوسِ الْقُرْآنِ

تَأَلَّفَ

الشيخ فيصل بن عبد العزيز بن فيصل آل مبارك

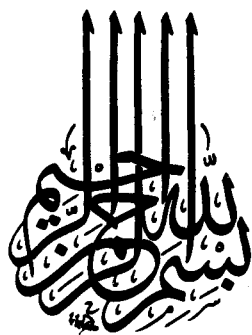
(١٣١٣ - ١٣٦٦ هـ)
رَحِمَهُ اللهُ

مَقَّمَهُ، وَضَرَعَ أُمَامَتَهُ، وَعَلَى عَلَيْهِ

عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ النَّبِيلِ آلِ حَمْدٍ

الجزء الأول

من سورة الفاتحة إلى سورة النساء آية ١٤٧



تَوْفِيقًا لِّلرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

①

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

دار العليان

للنشر والنسخ والتصوير والتجليد
وطباعة الرسائل والبحوث العلمية
القصص - بريد - ص ب : ١٨٣
هاتف : ٣٢٣٠٢٤٧ - فاكس : ٣٢٤٣٦٤٤

وزارة الثقافة

المملكة العربية السعودية
الرياض - ص ب ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي ١١٥٥١
ماتف ٤٩١٥١٥٤ - ٤٩٣٣٣١٨ - فاكس ٤٩١٥١٥٤

مقدمة المحقق

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (١).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدَّوْا وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (٢).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (٣).

أما بعد:

فإن خير ما أنفقت الأعمار في تحصيله، وخير ما بذلت الأنفاس في شرحه وتفسيره هو كتاب الله عز وجل، فهو الميدان الذي يتسابق فيه المتسابقون، ويتنافس فيه المتنافسون، وهو الصراط المستقيم الذي من تمسك به نجا، ومن تركه ضل وغوى.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٢.

(٢) سورة النساء: الآية ١.

(٣) سورة الأحزاب: الآيتان ٧٠ و ٧١.

أَعْمَى ﴿١٢٢﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتْنَا فَتَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نُخْرِجُ مِنَ أَسْرَفٍ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَهَذَا الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١٢٧﴾ ﴿١﴾ .

قال علي - رضي الله عنه - : «من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم»^(٢).

والآيات والأحاديث والآثار في بيان منزلة القرآن كثيرة جداً، وقد ذكرها المؤلف - رحمه الله - في أول كتابه فلا أطيل بذكرها ههنا. إذا علم هذا؛ فاعلم - وفقني الله وإياك لاتباع السنة، ومخالفة الشرك والضلال والبدعة - أنه لا يجوز لأحد - كائناً من كان - أن يستغني بكتاب الله عز وجل عن سنة نبيه ﷺ، فإنه لا يقول هذا إلا رجلٌ قد تلبس بلباس الدين، وأبطن عقيدة الكفرة الملحدين.

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ ﴾ ﴿٣٢﴾^(٣).
وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ﴿١٥﴾^(٤).
وقال تعالى: ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ ﴿٨٠﴾^(٥).

(١) سورة طه: الآيات ١٢٤ - ١٢٧.

(٢) روي مرفوعاً عن علي - رضي الله عنه - والصواب أنه موقوف عن علي قوله، وسيأتي تخريجه إن شاء الله تعالى.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٣٢.

(٤) سورة النساء: الآية ٦٥.

(٥) سورة النساء: الآية ٨٠.

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(١).

قال ميمون بن مهران - رحمه الله - : «الرد إلى الله إلى كتابه، والرد إلى الرسول إن قبض إلى سنته».

وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٢).

وعن أبي رافع - رضي الله عنه - يبلغ به النبي ﷺ: «لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه»^(٣).

وعن المقدم بن معدي كرب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يقعد الرجل متكئاً على أريكته يحدث بحديث من حديثي، فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه من حلالٍ استحللناه، وما وجدنا فيه من حرامٍ حرمانه، ألا وإن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله»^(٤).

وروي عن عمران بن حصين - رضي الله عنه - أنه لما سمع رجلاً يقول: «إنكم لتحدثوننا أحاديث ما نجد لها أصلاً في القرآن» غضب غضباً شديداً، وقال له: «قرأت القرآن؟ قال: نعم، قال: فهل وجدت فيه صلاة المغرب ثلاثاً، وصلاة العشاء أربعاً، والغداة ركعتين، والأولى أربعاً والعصر أربعاً... إلخ».

والآيات والأحاديث والآثار في هذا الباب كثيرة جداً - والله الحمد - وما أوردته هنا فيه كفاية لمن أراد الله هدايته.

(١) سورة النساء: الآية ٥٩.

(٢) سورة الحشر: الآية ٧.

(٣) أخرجه أحمد (٨/٦)، وأبو داود (ح/٤٦٠٥)، والترمذي (ح/٢٦٦٣)، وابن ماجه (ح/١٣)، وهو حديث صحيح.

(٤) أخرجه أحمد (٤/١٣٢)، وأبو داود (ح/٤٦٠٤)، والترمذي (ح/٢٦٦٤)، وابن ماجه (ح/١٢).

قال ابن بطة^(١) - رحمه الله - : «وليعلم المؤمنون من أهل العقل والعلم، أن قوماً يريدون إبطال الشريعة، ودروس آثار العلم والسنة، فهم يموهون على من قلَّ علمه، وضعف قلبه، بأنهم يدعون إلى كتاب الله، ويعملون به، وهم عن كتاب الله يهربون، وعنه يدبرون، وله يخالفون، وذلك أنهم إذا سمعوا سنة رويت عن رسول الله ﷺ رواها الأكابر عن الأكابر، ونقلها أهل العدالة والأمانة، ومن كان موضع القدوة والأمانة، وأجمع أئمة المسلمين على صحتها، أو حكم فقهاؤهم بها، عارضوا تلك السنة بالخلاف عليها، وتلقوها بالرد لها، وقالوا لمن رواها عندهم: تجد هذا في كتاب الله؟ وهل نزل هذا في القرآن؟ اتنوني بآية من كتاب الله حتى أصدق هذا.

فاعلموا - رحمكم الله - أن قائل هذه المقالة... يتحلَّى بحلية المسلمين، ويضمّر على طوية الملحدين، يظهر الإسلام بدعواه، ويجحد بسره وهواه، فسبيل العاقل العالم إذا سمع قائل هذه المقالة أن يقول له: يا جاهلاً في الحق، خبيثاً في الباطن، يا من خُطِيء به طريق الرشاد، وسبيل أهل السداد، إن كنت تؤمن بكتاب الله، وأنه منزل من عند الله، وأن ما أمرك به وما نهاك عنه، فرض عليك قبوله، فإن الله أمرك بطاعة رسوله، وقبول سنته؛ لأن الله - عز وجل - إنما ذكر فرائضه، وأوامره بخطاب أجمله، وكلام اختصره، وأدرجه، دعا خلقه إلى فرائض ذكر أسماءها، وأمر نبيه بأن يبين للناس معانيها، ويوقف الأمة على حدود شرائعها ومراتبها.

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ﴾^(٢). اهـ.

إذا علم هذا؛ فاعلم - وفقني الله وإياك لاتباع السنة - أنه لا يجوز لأحدٍ

(١) انظر الإبانة (١/٢٢٣ - ٢٢٤).

(٢) سورة النحل: الآية ٤٤.

كائناً من كان أن يفسر كلام الله، أو كلام رسوله ﷺ، بعقله، أو رأيه، أو ما تهواه نفسه، فإن فاعل ذلك - بلا شك - مبتدع ضال عن السنة.

فالذي يريد معرفة مراد الله ومراد رسوله ﷺ، لا بد أن ينظر إلى كلام سلف الأمة: الصحابة، ومن بعدهم - من سار على طريقهم - من أصحاب القرون الثلاثة المفضلة^(١) الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالخيرية، وكذا كلام أهل العلم من أهل السنة رحمهم الله.

قال ابن تيمية - رحمه الله - : «ولهذا تجد المعتزلة، والمرجئة، والرافضة، وغيرهم من أهل البدع يفسرون القرآن برأيهم ومعقولهم، وما تأولوه من اللغة؛ ولهذا تجدهم لا يعتمدون على أحاديث النبي ﷺ والصحابة، والتابعين، وأئمة المسلمين؛ فلا يعتمدون لا على السنة، ولا على إجماع السلف وآثارهم؛ وإنما يعتمدون على العقل واللغة، وتجدهم لا يعتمدون على كتب التفسير المأثورة، والحديث، وآثار السلف، وإنما يعتمدون على كتب الأدب، وكتب الكلام التي وضعها رؤوسهم، وهذه طريقة الملاحدة أيضاً، إنما يأخذون ما في كتب الفلسفة، وكتب الأدب واللغة، وأما كتب القرآن، والحديث والآثار؛ فلا يلتفتون إليها، هؤلاء يعرضون عن نصوص الأنبياء، إذ هي عندهم لا تفيد العلم، وأولئك يتأولون القرآن برأيهم وفهمهم، بلا آثار عن النبي ﷺ وأصحابه، وقد ذكرنا كلام أحمد وغيره في إنكار هذا، وجعله طريقة أهل البدع»^(٢). اهـ.

(١) إذا أطلق لفظ (السلف) فالمراد بهم الصحابة، ومن سار على طريقهم من أصحاب القرون الثلاثة المفضلة، أما من أتى بعدهم، ممن سار على أثرهم، وتمسك بما تمسكوا به، فلا يقال له: «إنه من السلف» بل يقال: سلفي، سني، أثري، من أهل السنة، فتنبه لهذا، واعلم أن كثيراً من أهل البدع يلقب نفسه بهذه الألقاب، ليموه بذلك على أهل السنة، بينما هو في الحقيقة: مرجيء... خارجي... يدس السَّم في العسل، فتسأل الله أن يهلكهم.

(٢) انظر: «الإيمان» ص ٩٩ ط/ المكتب الإسلامي.

فتأمل كلامه - رحمه الله - فكأنه ينظر إلى أهل عصرنا، وقد انكبوا - إلا من رحم الله - على تفاسير الجهمية، وأذناهم من المعتزلة والأشاعرة، المليئة بالتأويل والتعطيل، والمخالفة لما كان عليه السلف في تفسير كلام الله عز وجل، والخالية من الأحاديث والآثار الصحيحة الثابتة.

قال ابن بطة^(١) - رحمه الله - في معرض كلامه عن أهل البدع بعد كلام سابق: «لأن لهم كتباً قد انتشرت، ومقالات قد ظهرت، لا يعرفها الغرُّ من الناس، ولا النشء من الأحداث، تخفي معانيها على أكثر من يقرأها، فلعل الحدث يقع إليه الكتاب لرجل من أهل هذه المقالات قد ابتدأ الكتاب بحمد الله، والثناء عليه، والإطناج في الصلاة على النبي ﷺ، ثم أتبع ذلك بدقيق كفره، وخفي اختراعه وشبهه، فيظن الحدث الذي لا علم له، والأعجمي والغمر من الناس أن الواضع لذلك الكتاب عالم من العلماء، أو فقيه من الفقهاء...». اهـ.

وبفضل الله عز وجل أدرك علماء أهل السنة - رحمهم الله - ضرورة وضع تفاسير سلفية، مبنية على الكتاب والسنة، وأقوال الصحابة، ومن بعدهم من السلف الصالح؛ كي تكون فيها - بإذن الله - الغنية عن تفاسير الجهمية وأذناهم، وكان ممن ألف في التفسير من أهل السنة:

عبد الرحمن بن أبي حاتم - رحمه الله - وكتابه طبع منه بعض أجزاءه مؤخراً.

وسفيان الثوري - رحمه الله - وكتابه مطبوع.

وعبد الرزاق بن همام - رحمه الله - وكتابه مطبوع.

(١) انظر: «الإبانة» الصغرى (ص ٣٤٨).

والإمام أحمد - رحمه الله - وكتابه مفقود.

وابن جرير - رحمه الله - وكتابه مطبوع، واسمه: «جامع البيان عن تأويل آي القرآن».

وابن كثير - رحمه الله - وكتابه مطبوع، واسمه: «تفسير القرآن العظيم».

ومن هذه التفاسير ما هو المطول، ومنها ما هو المختصر.

ومن العلماء الذين لهم أثر بارز في هذا المجال، الشيخ الجليل: فيصل بن عبد العزيز آل مبارك النجدي - رحمه الله - فمن خلال تتبعي لكتب علماء نجد - رحمهم الله - وقع نظري على كتاب قيم له، في التفسير، قد التحف الغبار، وعانق الرفوف سنين طوال، فألفيته كتاباً مختصراً، نافعاً لقارئه إن شاء الله تعالى.

ومساهمة مني في إحياء كتب علماء الدعوة النجدية، وتجديد ما اندرس من آثارهم السلفية، سارعت إلى تحقيقه وتخريج ما تيسر من أحاديثه وآثاره، فأسأل الله أن يجعل ما نقوم به من نصرة لمذهب أهل السنة، وذبت عن مناهجهم في ميزان حسناتنا، وأن يجزي عنا مؤلف هذا الكتاب، وعلماء الدعوة النجدية، وأئمة أهل السنة النبوية خير الجزاء، وأن يحيينا على الإسلام والسنة، وأن يميّتنا ويبعثنا عليهما، ونسأله بأسمائه الحسنی وصفاته العلی، أن يهلك أهل البدع صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأنثاهم، إنه سميع قريب مجيب.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه الفقير إلى ربه القدير

أبو عبد الله عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزبير آل حمد

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

رياض نجد ١٤/٤/١٤١٦ هـ.



ترجمة المؤلف (١)

(١) مصادر ترجمته:

- علماء نجد خلال ستة قرون.
- مشاهير علماء نجد.
- الأعلام للزركلي.
- مستدرك معجم المؤلفين.
- الترجمة الموجودة في مقدمة كتاب «المجموعة الجليلة».
- الترجمة الموجودة في مقدمة كتاب «خلاصة الكلام» (ط/ الرشد).
- روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين.
- الحالة العلمية في حريملاء منذ عهد الشيخ محمد بن عبد الوهاب.
- العلامة المحقق والسلفي المدقق.
- «الزبد في تراجم علماء وأعيان آل حمد». وهو كتاب ما زلت أستكمل إعداده، وأجمع مادته العلمية، يسر الله تمامه على خير.
- ما أخذته شفهاً عن وكيل الشيخ، وصفي فواده، تلميذه الأمين الشيخ / عبد الله بن عبد العزيز آل عبد الوهاب — حفظه الله — ، وقد أفادني بكثير من المعلومات عن حياة المؤلف — رحمه الله — وذلك بيته العامر بالرياض في يوم الثلاثاء الموافق ١٤١٦/٣/٥هـ؛ فجزاه الله عني خير الجزاء.
- واعلم — وفقني الله وإياك لاتباع السنة — أنه كان بودي أن ألتقي بجميع تلاميذ الشيخ — رحمه الله — ومحبيه؛ ولكن مشاغل الحياة غالباً ما تكون عائقاً كبيراً أمام الإنسان في تحقيق ما يريده ويصبو إليه، والله هو المستعان وحده، وإني أرجو كل من لديه إضافات أو ملاحظات عما كتبه ههنا أن يتفضل بإرسالها على العنوان التالي: الرياض ١١٥٢٥ ص.ب. ٥٩٤٠٨، وله مني خالص الدعاء، وجزيل الشكر.

* اسمه ونسبه:

هو: فيصل بن عبد العزيز بن فيصل بن حمد بن مبارك بن عبد الرحمن بن حسن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن راشد بن علي بن سليمان آل حمد، آل أبو ربيع، الحسيني، البشري، الوائلي، النجدي.

والكلام عن نسب الشيخ وأسرته الكريمة، تجده إن شاء الله تعالى في «الزُّبْد في تراجم علماء وأعيان آل حمد» يسر الله أمره.

* مولده:

وُلد الشيخ - رحمه الله - في بيت علم وفضل، عام ١٣١٣هـ، وذلك في عاصمة بلدان الشعيب حويملاء - حرسها الله - وسائر بلاد المسلمين من كل سوء ومكروه، ولما بلغ السابعة من عمره انتقل مع بعض أفراد أسرته إلى الرياض، وبها درس القرآن على الشيخ عبد العزيز الخيال - رحمه الله - ومكث بها قرابة إحدى عشرة سنة، ثم عاد إلى حريملاء عام ١٣٣١هـ.

* نشأته:

نشأ الشيخ - رحمه الله - يتيمًا، فقد قتل والده - رحمه الله - في وقعة البكيرية، عندما كان والده يقاتل مع جيش الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن - رحمه الله وأكرم مثواه - وذلك في سنة ١٣٢٢هـ.

وبعد وفاة والده، انتقل الشيخ وأخواه: عبد الله وعبد العزيز، إلى رعاية عمهم الشيخ محمد بن فيصل - رحمه الله - فكان لهم بمثابة الأب الصالح للابن الصالح.

* طلبه للعلم:

حرص الشيخ فيصل - رحمه الله - منذ نعومة أظفاره على تلقي العلم، والجد في تحصيله، وليس هذا بغريب، فقد نشأ - رحمه الله - في بيت عريق في

الفضل والكرم والعلم، يعلم قدر العلم، وفضله ومكانته، فعمه الشيخ محمد بن فيصل كان أحد العلماء الأفاضل في حريملاء - حرسها الله - المعروف بالخير والصلاح والتقوى، وجده لأمه الشيخ ناصر بن ناصر بن محمد بن ناصر^(١)، كان - مثل عمه - معروفاً بالعلم والخير والصلاح، فاليئة التي عاش فيها الشيخ فيصل - رحمه الله - بيئة تبعث في النفس الهمة على تحصيل العلم النبوي، والميراث المصطفوي.

بفضل الله - عز وجل - حفظ الشيخ - رحمه الله - القرآن الكريم، وهو في سن الثامنة عشرة من عمره، ثم بعد ذلك حرص على تلقي الأهم فالمهم من العلم: فبدأ بالأصول الثلاثة، ثم كتاب التوحيد، ثم العقيدة الواسطية، ثم أخذ يتعلم الفقه والنحو، وكذلك علم الفرائض، حتى أصبح - بفضل الله - ذا إمام كبير بكثير من علوم الدين، كما يظهر ذلك جلياً من خلال مؤلفاته ومختصراته.

* شيوخه:

تلقى الشيخ - رحمه الله - العلم على أيدي علماء عرفوا بالصلاح، وصفاء العقيدة، كان منهم:

١ - الشيخ عبد العزيز الخيال - رحمه الله -، الذي تعلم على يديه قراءة القرآن، وحفظه عن ظهر قلب.

٢ - الشيخ محمد بن عبد اللطيف آل الشيخ - رحمه الله - الذي درس عليه كتاب التوحيد، والعقيدة الواسطية، وغيرها من كتب العقيدة السلفية.

٣ - الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ - رحمه الله - الذي تلقى منه دروساً في التوحيد والفقه وغيرهما من الفنون.

٤ - الشيخ سعد بن حمد بن عتيق - رحمه الله - الذي تلقى منه دروساً في التفسير والحديث وغيرهما.

(١) هكذا (ناصر بن ناصر...) كما ذكره لي الشيخ ناصر بن حمد الراشد وفقه الله.

- ٥ - الشيخ عبد الله بن عبد العزيز العنقري - رحمه الله - الذي تلقى على يديه شيئاً من الحديث وغيره من فنون العلم.
- ٦ - الشيخ حمد بن فارس - رحمه الله - وذلك في الفقه والنحو.
- ٧ - الشيخ محمد بن فيصل، وهو عمه - رحمه الله - الذي تلقى على يديه شيئاً من الحديث، وغيره من الفنون.
- ٨ - الشيخ ناصر بن ناصر بن محمد بن ناصر وهو جده لأمه - رحمه الله - الذي درس عليه «الأصول الثلاثة» وسيرة النبي ﷺ.
- ٩ - الشيخ عبد الله بن محمد الحجازي - رحمه الله - قاضي الشعيب والمحمل.
- ١٠ - الشيخ عبد الله بن فيصل الدوسري - رحمه الله - قاضي الشعيب والمحمل أيضاً.
- ١١ - الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع رحمه الله.
- ١٢ - الشيخ عيسى بن عكاس رحمه الله.
- ١٣ - الشيخ عبد العزيز بن بشر رحمه الله.
- ١٤ - الشيخ عبد العزيز النمر رحمه الله.
- ١٥ - الشيخ عبد الله بن راشد رحمه الله.
- ١٦ - الشيخ علي بن داود رحمه الله.

* رحلته في طلب العلم:

بدأ الشيخ - رحمه الله - بتلقي العلم أولاً عن علماء أهل بلده: حريملاء، كما كانت طريقة أهل العلم السابقين.

ثم انتقل بعد ذلك إلى الرياض ليكمل بذلك مشواره الذي قطعه في تحصيل العلم، فأخذ عن علمائها الأجلاء، ورجالها النبلاء الفضلاء، أهل العقيدة السلفية، والطريقة النبوية السوية.

وبعد أن تم فتح بلاد الأحساء عام ١٣٣١، وإخضاعها تحت ملك الإمام

عبد العزيز - رحمه الله - ارتحل إليها للاستزادة من الميراث النبوي، فدرس على الشيخ عيسى بن عكاس، والشيخ عبد العزيز بن بشر - رحمهما الله - .
ثم ارتحل بعد ذلك إلى قطر، حيث درس على الشيخ محمد بن مانع - رحمه الله - شيئاً من ضروب العلم وفنونه^(١).

* إجازة العلماء له ببعض الكتب :

حصل الشيخ - رحمه الله - على إجازتين في الحديث والتفسير، وغيرها من العلوم الشرعية، من عالمين من علماء نجد الأفاضل، هما :

(أ) الشيخ سعد بن عتيق - رحمه الله - وقد أجازته بما رواه من كتب الحديث: كالصحيحين، والسنن الأربعة، ومسند أحمد، والموطأ للإمام مالك، وغيرها من كتب السنة والحديث، كالأثبات المصنفة لأسانيد الكتب الإسلامية، وأيضاً أجازته في التفسير والفقه، وأجازته - أيضاً - بمصنفات ابن تيمية وابن القيم وغيرها من الكتب المصنفة.

(ب) الشيخ عبد الله بن عبد العزيز العنقري: أجازته أيضاً بما رواه من كتب الحديث والتفسير والفقه وغيرها من الكتب المصنفة، وأجازته بالرواية لمذهبه الإمام أحمد، وبالرواية لمصنفات ابن تيمية، وابن القيم - رحمهما الله - ، وقد أجازته الشيخ العنقري - رحمه الله - بجميع ما أجازته به شيخه ابن عتيق - رحمه الله - ، وبجميع ما أجازته به أيضاً شيخه عبد الستار بن عبد الوهاب الصديقي، وبجميع ما أجازته به مشايخه، وتلقاه عنهم رواية، وهم الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ، والشيخ حسن بن حسين بن علي آل الشيخ، والشيخ إسحاق بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، والشيخ محمد بن إبراهيم بن محمود، والشيخ محمد بن فارس - رحمهم الله - .

(١) كان الشيخ - رحمه الله - ينوي الرحيل إلى الهند؛ لدراسة الحديث هناك، فلما وصل إلى قطر؛ وجد الشيخ محمد بن مانع - رحمه الله - بها، وكان متضلماً بعلم الحديث، فأثر الجلوس عنده (أفاده الشيخ ناصر بن حمد الراشد وفقه الله).

وللأسف الشديد لم أقف على صورة ما أجاز به الشيخ سعد والشيخ العنقري - رحمهما الله - وإن كان مضمون تلك الإجازة ظاهر، وذلك من خلال ما كتبه - رحمهما الله - لبعض طلابهما؛ فلذا أوردت الصيغة العامة لصورة ما كتبه لبعض طلابهما ههنا لأن الشيخ فيصل واحد منهم، والله أعلم.

* صفاته الخَلْقِيَّةُ والخُلُقِيَّةُ :

* أما عن صفاته الخَلْقِيَّةُ: فقد كان - رحمه الله - أبيضاً، وكان بياضه مشرباً بحمرة قليلاً، متوسط الطول، ويميل إلى الطول قليلاً، جميل الوجه، حسن المنظر، ذا لحية كثة، ربعة بين الرجال.

* أما عن صفاته الخُلُقِيَّةُ: فقد كان - رحمه الله - ذا خلق رفيع كريماً، لين الجانب، سهل المعاملة، بشوش مع الناس جميعاً، لا سبباً، ولا شتأماً، ولا صخباً، ولا يغضب إلا إذا انتهكت محارم الله، وتعدت حدوده، وكان لا تأخذه في الله لومة لائم، يتوخى العدل ولا يأباه، ويجافي الظلم ولا يرضاه، متواضعاً زاهداً في حطام الدنيا، راغباً في الدار الآخرة، فرحمه الله وأكرم مثواه.

* زهده وورعه :

توفي الشيخ - رحمه الله - ولم يخلف ملكاً، أو تجارة، أو مالا كثيراً، فقد كان معرضاً عن الدنيا وحطامها الزائل، ومظهرها الخادع.

وهناك صور كثيرة، وأدلة وفيرة تدل على عزوفه - رحمه الله - عن الدنيا، من ذلك :

ما ذكره أحد تلامذته: أنه - ذات مرة - أحيا قطعة أرض، وقام بزراعتها، وحفر بها بئراً، وبنى فيها مسجداً، وزرع بها زرعاً سيراً، فلما رأى - تلميذه - ابن عبد الوهاب عمل الشيخ، أخبره بأنها ستصرفه عن أمر الآخرة، فقال له الشيخ - رحمه الله - : «أنا أحيت هذه الأرض وبنيت المسجد، وحفرت البئر لأجل إذا

مرَّ به المارة من أهل الإبل وغيرهم، أن يصلوا فيه، فيكون لهم عوناً على أداء الصلاة، أو كلاماً نحو هذا، ثم قام الشيخ - رحمه الله - وقدمها لابن عيشان، وشرط عليه أن يقيم (المدني) ويحافظ على المسجد.

ولما كتب أحدهم له ترجمة بسيرته الذاتية، وعرضها عليه، بكى، وفاضت عيناه بالدموع، فكتب عليها: «اللهم اجعلني أحسن مما يظنون، وأبرأ إليك مما يقولون»^(١).

وكان جُلُّ وقته ومعظمه إما في صلاة وعبادة، وخلوة مع ربه عز وجل يستغفر فيها ذنوبه، ويسأله فيها خيري الدنيا والآخرة، وإما مع تلاميذه ليعلمهم أمور دينهم ودنياهم، وإما مع عامة الناس لإصلاح ذات بينهم، وما يقع بينهم من اختلاف، والفصل بينهم بحكم الله - عز وجل -، وإما مع أهل بيته لينظر في شؤونهم، وما يحتاجونه، وإما في مكتبة بيته ليستزيد، ويكتب، ويؤلف.

وكان - رحمه الله - لا يأخذ من راتبه شيئاً، ولا يستلمه، بل يقوم عنه وكيله بأخذه، وصرفه على أهل بيته، وإعطاء كل ذي حق حقه من المساكين والأيتام والأرامل.

ولما سافر ذات مرة إلى مصر لأجل العلاج، بقيت في نفسه قضية أحسن أنه تأثم فيها، وظلم أحد الخصمين، فكتب إلى وكيله الشيخ عبد الله آل عبد الوهاب بأن يحضر الخصمين ويقل لهما: إن رضىتما بالحكم فالحمد لله، وإن لم ترضيا به، فإن الشيخ فيصل قد وكلني بنقضه، والحكم فيه بحكمي، فقالا: بل رضينا بحكم الشيخ.

* أعماله ومناصبه:

بعدما تلقى الشيخ - رحمه الله - العلم على يد كثير من علماء نجد وغيرهم، أحسنَّ الملك الإمام عبد العزيز - رحمه الله - أن الشيخ فيصلاً قد توفرت

(١) انظر الترجمة الموجودة في مقدمة كتابه: «المجموعة الجليلة».

لديه الأهلية لتولي القضاء، والفصل بين الخصوم والدعوة إلى الله، وإرشاد الناس وتوجيههم، فأرسله الملك عبد العزيز إلى تهامة والحجاز معلماً وواعظاً وموجهاً مع الشيخ عبد الله بن راشد وناصر بن جار الله.

ثم عينه الإمام عبد العزيز - رحمه الله - بعد ذلك قاضياً في الصبيخة (تثليت)، وجلس بها فترة من الزمان، ثم عين قاضياً في أبها، وجلس بها مدة وجيزة، ثم عاد إلى الصبيخة، وبعدها انتقل إلى الرياض، وبها تزوج.

ثم عينه الملك عبد العزيز - رحمه الله - في منطقة يقال لها (قرية) العلياً ليكون بها قاضياً، وذلك في سنة السبلة، وأثناء توليه للقضاء في هذه البلدة، يسّر الله له الحج إلى بيته الحرام، وجلس في مكة قرابة الشهرين.

ثم أرسل له الملك عبد العزيز - رحمه الله - أحد أعوانه، وقال له: «قل للشيخ يسلم عليك الإمام، ويقول لك قبض هذه السنة في تربة...».

وما كان الشيخ - رحمه الله - إلا أن قال بأدب واحترام لمن ولاه الله عليه - كما هو عمل أهل السنة مع ولاتهم - : «... ما علي إلا السمع والطاعة الرغبة ليست لي، الرغبة للإمام...» أو كلاماً نحو هذا، فقال الملك عبد العزيز - رحمه الله - بعدما سمع جواب الشيخ فيصل: «هذا ظننا فيه» وأثنى عليه خيراً.

وأقام الشيخ - رحمه الله - في تربة قرابة الستين أو أقل، قاضياً ومعلماً وموجهاً، وبها تزوج زوجته الخامسة.

ثم عين بعد ذلك - مرة أخرى - قاضياً في منطقة أبها، وذلك في آخر سنة ١٣٥١هـ بعد أن طلبه أهلها ليكون قاضياً بينهم، وجلس بها قرابة الستين.

ثم عين بعد ذلك قاضياً في القنفذة سنة ١٣٥٣هـ قرابة السنة.

ثم عين بعد ذلك قاضياً في الخرمة، ولم يمكث بها إلا يسيراً، قرابة ستة شهور.

ثم عين بعد ذلك قاضياً في رنية، ومكث بها قرابة الخمس سنوات أو ست.

ثم عين بعد ذلك قاضياً في ضرما، ولم يمكث بها سوى سنة واحدة أو نحوها.

وكان الشيخ - رحمه الله - في كل بلد من هذه البلاد، يدعو إلى التوحيد، وإلى الالتزام بشرع الله وحده، وكان أول ما يتدبّر في تعليمهم: كتاب الله، ثم عقيدة أهل السنة، وذلك من خلال كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب، وكشف الشبهات، والأصول الثلاثة، والقواعد الأربع، وغيرها من المتون السلفية الوجيزة.

* الجوف والمثوى الأخير:

شاءت أقدار الله - عز وجل - أن تكون الجوف هي المحل الأخير لتنقلات الشيخ.

فبعدما أن انتهى الشيخ - رحمه الله - من فترة توليه للقضاء في ضرماء وعاد إلى الرياض، قال له الإمام عبد العزيز - رحمه الله - : «... إني سأرسلك إلى مكان بعيد... ولكن ستجد فيه دعوة بإذن الله...» أو نحواً من هذا، فوافق الشيخ على ما قاله الإمام عبد العزيز رحمه الله.

فرحل إليها في آخر شعبان من سنة ١٣٦٢هـ، ووصل إليها في أول يوم من رمضان، وكان في وصوله إلى تلك البلاد بزوغ شمس الخير، والعلم، والتوحيد، وهدم، واضمحلال دياجير الجهل، والشرك والتنديد.

فأقام بها قرابة خمسة عشر عاماً: معلماً، وموجهاً، ومرشداً، وداعياً إلى الله على بصيرة.

* حياته اليومية في الجوف^(١):

كان - رحمه الله - إذ صَلَّى الفجر يجلس في مصلاه حتى تطلع الشمس

(١) خصصت الجوف بالذات؛ لأن المؤلف - رحمه الله - قد استقر فيها، وأقام بها إقامة دائمة إلى أن توفي، ففيها التف حول طلاب العلم من كل حدب وصوب، وفيها ألف، ودرّس، وكتب.

وترتفع قيد رمح، ثم يصلي بعد ذلك ما كتب الله له، ثم بعد ذلك يأتي مكتبته المنزلية ليطلع ويكتب، ثم يجلس بعد ذلك لطلاب العلم فأول ما يتدبّر به في بداية درسه: تعلم القرآن وقراءته قراءة صحيحة، بعيدة عن اللحن والغلط، ثم يعقبه بعد ذلك بثلاثة الأصول، ثم القواعد الأربع، ثم الواسطية، ثم عمدة الأحكام، ثم الأربعين النووية، ثم بلوغ المرام. وكل هذه المتون لا بد أن يلتزم الطالب بحفظها عن ظهر قلب.

ثم بعد أن ينتهي من الدرس، يأتي بعد ذلك دور الخصوم والمنتازعين للفصل بينهم، والحكم بينهم بشرع الله - عز وجل -، فيجلس بينهم حتى يؤذن الظهر وبعد الصلاة - أحياناً - يقرأ عليه شيء في الفقه والتفسير وغيرها، وأحياناً يذهب لحاجة أهله، وأخذ قسطاً من الراحة.

وبعد العصر يبدأ الطلاب في المسجد بقراءة القرآن، وشيء من الفرائض، وبعد صلاة المغرب يقرأ عليه الطلاب شيئاً من سيرة ابن هشام إلى أذان العشاء، وبين الأذان والإقامة يقرأ عليه أحد الطلاب شيئاً من كتاب الله عز وجل، ثم يقوم الشيخ - رحمه الله - بتفسيره وبيانه، وبعد صلاة العشاء يعود إلى بيته، ويأخذ قسطاً من الراحة، ثم يخلو بربه فيصلي ما كتب الله له أن يصلي من الليل إلى أن يؤذن للفجر، وفي إشراقه كل يوم يعاود الكرة مرة أخرى على نحو المنوال السابق، مستعيناً بالله، طالباً منه الإخلاص والمثوبة، إلى أن توفاه الله عز وجل.

* جهوده في الدعوة إلى الله :

كان للشيخ - رحمه الله - جهد كبير، وتحمل واسع في سبيل الدعوة إلى الله تعالى.

فقد انتدبه الملك عبد العزيز - رحمه الله - مع الشيخ عبد الله بن راشد بن جلعود، والشيخ ابن جار الله - رحمهما الله - إلى تهامة في الحجاز؛ لتوجيه الناس، وتعليمهم أمر دينهم.

وحين ولي القضاء في البلدان التي عين فيها، لم يأل جهداً في الدعوة إلى الله ليل نهار، وقد مر بك - أخي الكريم - كيف كان وقته اليومي في مدينة الجوف، حيث لا يدع شاردة ولا واردة إلا واستغلها: إما في عبادة وصلاة، وإما في قضاء بين الناس، وإما في تعليم الناس أمر دينهم.

وفي عام ١٣٦٢هـ كان للشيخ - رحمه الله - في مدينة الرياض درس يومي في مسجد يقال له: (مسجد محمود)، بين المغرب والعشاء، حيث يقوم القارئ، فيقرأ من كتاب الله ثم يقوم الشيخ - رحمه الله - بشرحها، وبيانها، وتفسيرها.

كما أنه كان يتخول الناس بالموعظة، فيستغل وجود الناس بعد صلاة المغرب - أحياناً - فيعظهم، ويذكرهم ومن ذلك ما حدثني به الشيخ الكريم: حسن بن عبد اللطيف المانع^(١) - حفظه الله - : أن الشيخ ذات مرة، قام بعد صلاة المغرب في مسجد (الجفرة) بالرياض، فقام وقرأ الآية من قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ ففسرها بتفسير حسن، وتحدث حولها بكلام بليغ رصين، فجزاه الله عنا خير الجزاء، وغفر له ولوالديه، ولجميع دعاة أهل السنة، إنه سميع قريب مجيب.

* تلاميذه:

ومن طلابه الذين أكثروا من ملازمته والتلقي عنه، هم:

١ - عبد الله بن عبد العزيز آل عبد الوهاب^(٢).

٢ - ناصر بن حمد الراشد.

٣ - سعد بن محمد بن فيصل آل مبارك.

(١) وذلك بيته بالرياض.

(٢) الوهبي التميمي، من أهل بلد حريملاء - حرسها الله - ، وقد استفدت منه كثيراً في إعداد هذه الترجمة للمؤلف - رحمه الله - إذ هو أكثر طلابه ملازمة له، وأخذاً عنه، فقد لازم الشيخ منذ الصغر، وكان عمره عند بداية ملازمته ما بين السابعة عشر والسادسة عشر سنة، وكانت بداية ملازمته له عام ١٣٤٨هـ، فجزاه الله عنا خير الجزاء، وأطال عمره على طاعته.

- ٤ - حمود بن متروك البليهد.
- ٥ - عبد الرحمن بن سعد.
- ٦ - إسماعيل بن بلال الدرعان.
- ٧ - عبد العزيز العقل.
- ٨ - عبد الله بن حمود.
- ٩ - صالح بن متروك البليهد.
- ١٠ - عارف بن ماضي المسعر.
- ١١ - عمر بن مريح الشمري.
- ١٢ - مصلح بن مريح الشمري.
- ١٣ - خليف المسلم.
- ١٤ - إبراهيم بن خليف المسلم.
- ١٥ - عبد الواحد الحموان.
- ١٦ - عثمان بن عطية.
- ١٧ - يوسف الحشاش.
- ١٨ - شفق المرزوق.
- ١٩ - عبد الرحمن بن عطا الشايح.
- ٢٠ - أحمد القايد.
- ٢١ - عيسى العيساوي.
- ٢٢ - عقيل بن عطا الشايح.

* مؤلفاته:

توفي الشيخ - رحمه الله - وقد ترك لنا العديد من المؤلفات في فنون العلم: في التفسير، والحديث، والفقه، والفرائض، والنحو، والرقائق وغيرها، وإليك بيانها:

١ - «توفيق الرحمن في دروس القرآن»:

وهو كتابنا هذا الذي نحن بصدد تحقيقه، وسيأتي الكلام عنه مفصلاً إن شاء الله تعالى.

وقد طبع الكتاب على نفقة حسن بن حسين رحمه الله، وذلك عام ١٣٧٦هـ. وتوجد قطعة من الجزء الرابع من هذا الكتاب في مكتبة حريملاء - عمرها الله بكتب أهل السنة - بخط المؤلف رحمه الله تعالى.

٢ - «خلاصة الكلام على عمدة الأحكام»:

وهذا الكتاب يقع في ٤٠٠ صفحة، وهو شرح وجيز، ومختصر على الأحاديث التي جمعها عبد الغني المقدسي - رحمه الله - ، وقد اعتمد في شرح هذا الكتاب على «فتح الباري» لابن حجر، وكتاب «إحكام الأحكام على عمدة الأحكام» لابن دقيق العيد، وللمؤلف - رحمه الله - تعليقات وفوائد على هذه الأحاديث لا يستغني عنها طالب علم.

وقد طبع عدة طبعات، فطبع عام ١٣٧٩هـ في مكتبة النهضة الحديثة بالرياض، وطبع عام ١٣٨٠هـ في مكتبة التوفيق بالرياض، وطبع عام ١٣٨١هـ في مكتبة عيسى البابي الحلبي بمصر، وطبع عام ١٤١٢هـ بمكتبة الرشد بالرياض. ويُذكر أن الكتاب يقع في خمسة أجزاء، ثم اختصر في جزئين، وخلاصة الجزئين هو هذا الكتاب المطبوع^(١).

٣ - «المجموعة الجلييلة»:

وهو كتاب يضم ثلاثة كتب من مؤلفات الشيخ - رحمه الله - : الأول: «كتاب مختصر الكلام على بلوغ المرام»، ويقع في ٣٨٨ صفحة، وهو شرح وجيز لكتاب بلوغ المرام، الذي ألفه ابن حجر العسقلاني، وهو كالكتاب السابق مختصر، ومبسط، لا يستغني عنه طالب علم.

(١) انظر الترجمة الموجودة في مقدمة كتاب: «المجموعة الجلييلة».

الثاني: «كتاب محاسن الدين على متن الأربعين»، ويقع في ٦٧ صفحة، وهو شرح وجيز، وسهل وميسر، على كتاب الأربعين النووية، ثم زاد عليها الأحاديث التي زادها ابن رجب الحنبلي، ليكون مجموع الأحاديث التي شرحها في هذا الكتاب خمسون حديثاً.

الثالث: «كتاب مقام الرشد بين التقليد، والاجتهاد» ويقع في ١١ صفحة، وهو رسالة وجيزة في حكم التقليد ومتى يسوغ، وأن الواجب على المسلم اتباع الدليل، وترك التعصب للمذهب وقد طبع الكتاب عدة طبعات، ولدي نسخة مصورة بخط المؤلف - رحمه الله - .

٤ - «أربع المختصرات النافعة»:

وهذا الكتاب يضم أربع مؤلفات من كتب الشيخ - رحمه الله - :
الأول: «تعليم الأحب أحاديث النووي وابن رجب». وعنوانه يدل على مضمونه، ويقع في ٦٣ صفحة.

الثاني: «الدلائل القاطعة في المواريث الواقعة»، ويقع في ١١ صفحة، وهو شرح موجز، وتعليق ميسر حول الآية الواردة في سورة النساء، والتي تتعلق بالمواريث وهذا الكتاب أو بالأحرى هذه الرسالة، أصلها رسالة أرسلها المؤلف هدية إلى الشيخ سليمان الصنيع - رحمه الله - ، وأسماها: «الحجج القاطعة في المواريث الواقعة»، ولدي نسخة خطية مصورة منها.

الثالث: «مفتاح العربية على متن الأجرومية» وهو شرح وجيز ومختصر حول متن الأجرومية في النحو، واسم الكتاب كما في النسخة الخطية التي لدي: «مفاتيح العربية» وهي بخط المؤلف - رحمه الله - .

الرابع: «غذاء القلوب ومفرج الكرب»، وهذا الكتاب جمع فيه مؤلفه الآيات والأحاديث التي بسببها يطمئن القلب، وينشرح الصدر، وهو عبارة عن

أذكار وأوراد، ويقع في ٦٠ صفحة تقريباً. وقد طبع الكتاب عدة طبعات منها في عام ١٣٦٩هـ، وفي عام ١٣٧١هـ، وفي عام ١٤٠٥هـ.

٥ - «كلمات السداد على متن الزاد»:

وهو شرح موجز حول «متن زاد المستقنع» في المذهب الحنبلي ويقع في ٢٧٠ صفحة، وهذا الكتاب عبارة عن حل ما يستشكل من العبارات الفقهية في هذا المتن، وقد طبع عدة طبعات، وكان آخرها طبعة عام ١٤٠٥هـ.

٦ - «المرتع المشيع في مواضع من الروض المربع»^(١):

وهو شرح على متن الزاد وشرحه «الروض المربع»، ويقع في أربعة أجزاء، يبدأ الجزء الأول بكتاب الطهارة وينتهي بانتهاج الكلام عن العقيدة، ويقع في ٥٩٢ صفحة.

ويبدأ الجزء الثاني بكتاب الجهاد، وينتهي بانتهاج باب أحكام أمهات الأولاد، ويقع في ٥٩٦ صفحة، وفي آخره ملحقات وزوائد على بعض الأبواب.

ويبدأ الجزء الثالث بكتاب النكاح، وينتهي بانتهاج الكلام على باب الحضانة، ويقع في ٥٩٦ صفحة، وبآخره ملحقات وزيادات على بعض الأبواب السابقة في هذا الجزء.

ويبدأ الجزء الرابع بكتاب الجنائيات، وينتهي بانتهاج الكلام على باب الحكم على المرتد، ويقع في ٣٩٥ صفحة.

(١) وفي الجزء الرابع سماه مؤلفه: «المرتع المشيع على مواضع من الروض المربع»، وأخطأ صاحب: «مشاهير علماء نجد» حيث سمى الكتاب: «الروض المربع المشيع من الروض المربع»!!، وكذا صاحب: «علماء نجد خلال ستة قرون» حيث سمى الكتاب: «الروض المشيع من الروض المربع». وكذا صاحب كتاب: «العلامة المحقق، والسلفي المدقق» حيث سمى الكتاب: «المرتع المشيع من الروض المربع».

– ومصادر المؤلف في هذا الكتاب عديدة منها: المقنع، والحاشية، وبداية المجتهد، والإفصاح، والاختيارات، وصحيح البخاري وشرحه، والشرح الكبير وغيرها من كتب الفقه والحديث.

– قسم المؤلف الكتاب إلى ٣٥٠ موضعاً تكلم فيها على الروض المربع، ويبين لنا المؤلف – رحمه الله – السبب الذي دعاه إلى تأليف هذا الكتاب قائلاً (١/٢/ب): «وقد رأيت مواضع في الزاد وشرحه تشكل على بعض الطلبة فأردت أن أوضحها؛ ليتبين لطالب العلم دليلها، ودليل المخالف فيها فيعمل بما يترجح عنده صوابه والله الموفق».

ولديّ نسخة خطية مصورة، بخط المؤلف رحمه الله تعالى.

٧ – «تطريز رياض الصالحين»:

وهو شرح مختصر على كتاب «رياض الصالحين» للنووي، والكتاب لا يزال مخطوطاً، ويقع في ٩٤٥ صفحة والذي يظهر لي – بل أكاد أجزم به – أنه بخط أحد تلامذته، أو أحد النساخ، والله أعلم.

٨ – «القول في الكرة الجسيمة الموافق للفترة السليمة»:

وفي هذا الكتاب يتحدث فيه مؤلفه عن بعض آيات الله: السموات والأرض والشمس والقمر، والنجوم والرياح والسحاب ويتحدث عن الجنة والنار، والعرش والقلم، والملائكة، والجن والشياطين، وخلق آدم، ويأجوج ومأجوج، وبعض أشراط الساعة.

ويقع الكتاب في ١٩٥ صفحة، والكتاب لا يزال مخطوطاً، ولدي نسخة مصورة، بخط المؤلف رحمه الله.

٩ – السبيكة الذهبية على متن الرحبية:

وهو شرح موجز، ويسير، على بعض أبيات الرحبية في علم الفرائض.

١٠ - «بستان الأحبار مختصر نيل الأوطار»^(١):

وعنوانه يدل على مضمونه، فقد اختصر مؤلفه كتاب «نيل الأوطار» للشوكانى، والذي يقع في أربع مجلدات، وعدد أجزائه ثمانية أجزاء، اختصره المؤلف فجعله في مجلدين، يقع المجلد الأول في ٦٦٢ صفحة، والمجلد الثاني في ٥٥٤ صفحة، وقد طبع عام ١٣٧٤هـ في المطبعة السلفية بالقاهرة.

١١ - «تجارة المؤمنين في المراجعة مع رب العالمين»:

ويقع في ٢٧١ صفحة، وقد طبع سنة ١٣٧٣هـ في مطبعة الاتحاد الشرقي بدمشق، وطبعة مرة أخرى عام ١٤٠٤هـ.

١٢ - «لذة القاري مختصر فتح الباري»:

عزاه له صاحب «المشاهير» وصاحب «الأعلام»، وأيضاً صاحب «روضة الناظرين» (١٤٩/٢) وصاحب «علماء نجد»، ولكن ذكر الأخير أن اسمه هو: «تذكرة القاري مختصر فتح الباري»، فالله أعلم، والكتاب - كما ذكروا - يقع في ثمانية مجلدات.

١٣ - له مؤلف في العقيدة كما ذكر في الترجمة الموجودة في مقدمة كتابه

«خلاصة الكلام» (ط/الرشد).

١٤ - شرح موجز حول كتاب «ملحة الإعراب»، كما في الترجمة الموجودة

في مقدمة كتابه «المجموعة الجليلة»، ويذكر صاحب هذه المقدمة أنه قد سعى فيه.

١٥ - «القول الصائب في حكم بيع اللحم بالتمر الغائب»:

رسالة وجيزة تقع في أربع صفحات من القطع المتوسط، وهي بخط المؤلف

- رحمه الله - ولدي مصورة منها.

(١) ذكر صاحب «علماء نجد...» وأيضاً صاحب «الأعلام» وصاحب «روضة الناظرين» أن

اسم الكتاب هو «بستان الأخبار» بالخاء المعجمة، وفي الترجمة لها كتبت في مقدمة

«خلاصة الكلام» (ط/الرشد) ورد فيها اسم الكتاب بـ «بستان الأخبار» بالياء، وكلاهما

خطأ، فليصحح كما هو هنا.

هذه هي مؤلفات الشيخ - رحمه الله - نسأل الله تعالى أن يجعلها في موازين حسناته، وأن يجزيه عنا خير الجزاء.

هذا؛ وإني أعمل الآن - كما ذكرت ذلك آنفاً - على جمع مؤلفات الشيخ وترتيبها، وتنقيحها، وتحقيقها تحقيقاً علمياً يليق بمقام الشيخ وبمؤلفاته، ومن ثمّ فهرستها فهرسة علمية، وبيان مواضع الفوائد والكتب والأبواب، حتى تخرج إلى النور مرة أخرى، في حلة جديدة بإذن الله تعالى، وإني أرجو كل من لديه نسخة خطية من مؤلفات الشيخ أن يتفضل بإطلاعي عليها، أو إرسالها مشكوراً على العنوان السابق، وله مني جزيل الشكر، وخالص الدعاء.

* مراسلاته:

كان بين الشيخ - رحمه الله - وبين علماء نجد مراسلات عديدة، يسألهم فيها عن بعض ما يشكل عليه من العلم، ومن ذلك:
رسالة أرسلها إلى الشيخ سعد بن عتيق - رحمه الله - يسأله فيها عن مسألتين:
الأولى: عن معنى قول الطحاوي في عقيدته: «لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات».

والثانية: عن ما يخرج الإنسان من ماله من صدقة في الاستسقاء، وصدقة في بناء المساجد، وصدقة على المساكين الذين يسألون الناس في المساجد، وإعطاء سائل هل تكون من الزكاة أم لا، وهل إذا نواها تصح كونها من الزكاة، أم لا؟ فأجابه الشيخ سعد - رحمه الله - بالجواب السديد المفيد، ولولا خشية الإطالة لأوردتها لك ههنا^(١).

ومن مراسلاته - أيضاً - رسالة أرسلها إلى الشيخ عبد الرحمن بن سعدي - رحمه الله - يسأله فيها عن بعض المسائل، هي:

(١) جواب الرسالة مطبوع ضمن: «المجموع المفيد من رسائل وفتاوى الشيخ سعد بن عتيق» (ص ٧٨).

الأولى: رجل تزوج امرأة، واشترط أبوها أن لا يخرجها من بلدها، وإن خرج بها فهي طالق ثلاثاً، وبعد ذلك رضيت المرأة بالخروج مع زوجها، وخاف الزوج من وقوع الطلاق إن أخرجها.
الثانية: حكم المعاملة بالنوط، وهي العملة الورقية. بالإضافة إلى مسائل آخر^(١).

وهناك رسالة أخرى مستقلة عن هذه الرسالة، مضمونها: السؤال عن حكم السيارة التي تمشي في طريقها المعتاد، فصادف أن نفرت منها إبل تزاحمت، فتلف بسبب نفورها رجل، فهل السائق ضامن في هذه المسألة^(٢)؟

بالإضافة إلى مراسلات كانت بينه وبين الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ - رحمه الله - كما ذكر ذلك لي تلميذ الشيخ: عبد الله آل عبد الوهاب حفظه الله.

ومراسلات الشيخ - رحمه الله - لم تكن مقصورة على سؤال أهل العلم فقط؛ بل تتعداها إلى بيان وتوضيح رأيه في مسألة ما من المسائل الشرعية، التي يراها الشيخ، مبيناً مستنده في ذلك من الكتاب والسنة وأقوال أهل العلم - رحمهم الله - ، ويظهر لك ذلك من خلال رسالته إلى الشيخ: إبراهيم بن سليمان بن ناصر آل حمد - رحمه الله - ، حينما بيّن له الشيخ - رحمه الله - رأيه في: أن للحاكم جواز تطليق المرأة من زوجها إذا أبى الزوج ذلك، وكان بينهما شقاق، ولم يتوصل الحكمان - من أهله ومن أهلها - إلى صلح أو حل. وإليك مقتطفات من هذه الرسالة:

«من فيصل بن عبد العزيز إلى حضرة الأخ المكرم الأحشم المحب الناصح الأمين الشيخ إبراهيم بن سليمان بن ناصر آل حمد سلمه الله تعالى وهداه ونصره على من عاداه، وأرشده إلى الصراط المستقيم آمين.

(١) جواب الرسالة لا يزال مخطوطاً، وهي عندي مصورة بخط ابن سعدي رحمه الله.

(٢) المرجع السابق.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ومغفرته وطيب صلواته، فنحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو بخير وعافية، عسى الله يعز الإسلام والمسلمين ويثبتنا وإياكم على الدين، وكتابكم الكريم وصل، وسرنا ما ذكرتم فيه، خصوصاً تأنيكم واستفساركم مستندنا في حكمنا، فهذا هو الواجب بين طلبة العلم، وخصوصاً المتجاورين، وزيادة على ذلك ما تعلم، والحق ضالة المؤمن.

فأقول وبالله التوفيق: ومستندي في ذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾، وقوله ﷺ لثابت بن قيس: «خذ الحديقة وطلقها تطليقة» فإذا لم يفد الحكماء بشيء، وأبى الزوج التطليق جاز للحاكم التفريق بينهما؛ لأن الضرر اللاحق من الشقاق أعظم من الضرر اللاحق من الإيلاء أو الإعسار، ولا تخفك أقوال العلماء في ذلك» ثم ذكر قول أهل العلم في ذلك، إلى أن قال: «هذا حكمنا في ذلك، فإن كان صواباً فمن الله، وأرجو منه الإثابة، وإن كان خطأ فمني، ومن الشيطان، فأرجو من الله المغفرة، هذا ما لنا، مع إبلاغ السلام، الأمير والعيال وعبد الله بن ناصر والإخوان والأشراف والجماعة، ومن لدينا: الأمير وعبد الله والإخوان والجماعة يسلمون والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته...»^(١).

ومراسلاته - رحمه الله - لم تكن مع أهل العلم فقط؛ بل كانت أيضاً مع ولاية الأمر - رحمهم الله - ومن ذلك:

رسالة أرسلها إلى الملك الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن - رحمه الله - حيث وضع فيها أن طلبة العلم قد كثروا وزادوا، وهم بحاجة إلى معونة من ولي الأمر، كي تكون دافعاً لهم على الازدياد في طلب العلم، وهذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

جلالة الملك المعظم عبد العزيز أعزه الله تعالى.

(١) الرسالة لا تزال خطية، وعندني منها صورة بخط المؤلف رحمه الله.

عندنا قراء، وطلبة علم متوجهين، إن رأيتوا تفضلون عليهم بمعاونة تنشطهم لعل الله ينفع بهم، ونظركم أعلى».

وفي هذه الرسالة دلالة صادقة، وعناية فائقة، على تفقد الشيخ - رحمه الله - لأمر طلابه، ومن حوله من الناس، وبذل كل غالٍ ونفيس في سبيل نشر العلم، وبذله للناس على سواء.

ومن مراسلاته لولاة الأمر - أيضاً - رسالة أرسلها إلى الملك سعود - رحمه الله - حيث بشره فيها بكثرة طلاب العلم، وتوجههم إليه، وهذا نصها:
«صاحب السمو الملكي ولي العهد المعظم: سعود أسعده الله تعالى، نبشركم أن القراء والطلبة كاثرين، ومتوجهين، وذلك أسبابكم الحسنة، رفع الله ذكركم...»^(١) إلخ.

* وفاته:

اختلف المترجمون في تحديد اليوم والسنة التي توفي فيها الشيخ - رحمه الله - . فذكر الشيخ عبد الله البسام في كتابه: «علماء نجد خلال ستة قرون»^(٢) أن الشيخ توفي في فجر يوم الجمعة عشرة القعدة سنة ١٣٧٧هـ.
وذكر صاحب: «مشاهير علماء نجد»^(٣) أن الشيخ توفي في ستة عشر ذي القعدة سنة ١٣٧٧هـ.

وذكر في الترجمة الموجودة في بداية كتاب: «المجموعة الجليلة»^(٤) أن الشيخ توفي في ليلة الاثنين السابع عشر من ذي القعدة عام ١٣٧٧هـ.

(١) كتب المؤلف - رحمه الله - تلك الرسائل على اللهجة الدارجة في نجد - (اللهجة العامية) - وهي لا تزال خطية، وعندي منها صورة بخط المؤلف رحمه الله.

(٢) انظر (٣/٧٥٧).

(٣) انظر (ص ٤٠١ ط / الثانية سنة ١٣٩٤هـ).

(٤) انظر (ص ٥).

وذكر صاحب: «العلامة المحقق والسلفي المدقق»^(١) أن الشيخ توفي في الثالث الأخير من ليلة الجمعة الموافق ١٦/١١/١٣٧٦هـ وهو الصواب.

* وصيته^(٢):

أورد لك أخي الكريم ههنا مقتطفات من وصية الشيخ - رحمه الله - لطلاب العلم والدين، من أهل نجد وغيرهم، ولولا خشية الإطالة لسردتها لك بكاملها، وهي موجودة بتمامها في كتاب: «الزبد في تراجم علماء وأعيان آل حمد» يسر تمامه على خير، قال رحمه الله بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«أما بعد: فأقول وأنا الفقير إلى الله تعالى وتبارك، فيصل بن عبد العزيز آل مبارك، هذه وصيتي لأولادي، وإخواني طلبة العلم والدين، من أهالي نجد وغيرهم من سائر بلدان المسلمين، قال الله - عز وجل - : ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ . وقال النبي ﷺ: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن».

إلى أن قال: «والعلم النافع هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ»، قال النبي ﷺ: «العلم ثلاثة: آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة، وما كان سوى ذلك فهو فضل».

إلى أن قال: «وأخلصوا النية في طلب العلم، وابتغوا به وجه الله تعالى والدار الآخرة».

إلى أن قال: «ولا تجعلوا الدنيا أكبر همكم، ولا مبلغ علمكم، وكونوا بما عند الله أوثق منكم بما في أيديكم».

(١) انظر (ص ٢٩).

(٢) عثرت عليها أثناء بحثي المتواصل عن كتب الشيخ المخطوط منها والمطبوع، وقد وقع الفراغ من كتابتها في شهر جمادى الأولى عام ١٣٥٤هـ.

إلى أن قال: «ولا تذلووا أنفسكم وتهينوها بالطمع، قال بعض العلماء: «أرى الناس من داناها هان عندهم ومن أكرمته عزة النفس أكرما ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما ولكن أهانوه فهان ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما» إلى أن قال: «وأعلم أن أصل العلوم وينبوع الحكم هو كلام الله تعالى».

إلى أن قال: «وطريق العلم لمن وفقه الله تعالى يسيرة على من يسرها الله عليه، فأول ذلك تخيره معلماً أديباً كاتباً تقياً، ويحفظ حروف الهجاء من الألف إلى الياء، ويردها حفظاً... ثم يبتدىء في القرآن، ويكتبه، أو يكتب له في لوح ليكون ذلك أجمع لذهنه، وأقوى لحفظه، ويجتهد في صغره، وفراغه، فالقراءة في الصغر كالنقش في الحجر... فإذا ختم القرآن رده في المصحف، وضبط حروفه عن اللحن، ودرسه على قارىء معروف بالحفظ، وهو مع ذلك يشهد الجُمع والجماعات، ومجالس الذكر، ويحافظ على لزوم الأدب والعفاف والصلة، ثم يبتدىء بحفظ القرآن في صدره ويجعل له كل يوم حزباً يحفظه على حسب قدرته، فإذا حفظه درسه حتى يتقنه ثم يبتدىء في الحزب الآخر كذلك، ولا يترك الأول عن الدرس... وينظر في التفسير، ثم يجلس على مشايخ العلم... ثم يقرأ في ثلاثة الأصول، وكتاب التوحيد للإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى - ويحفظها، ويحفظ ما استطاع من سائر مختصراته، مثل: أصول الإيمان، وفضل الإسلام، وكتاب الكبائر، ونصيحة المسلمين، وكشف الشبهات، وغيرها من مؤلفاته النافعة، ويحفظ العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - فإنه كتاب جامع لأصول الدين.

ويقرأ رياض الصالحين، ويحفظ آخره من كتاب الفضائل إلى آخره، فإنه جامع للمأمورات والمنهيات، ومؤدب لقاربه، ومرغب له في الطاعات.

ويحفظ «عمدة الأحكام» للحافظ عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور

المقدسي - رحمه الله تعالى - ومن أراد الاطلاع على أدلة المذاهب في الأحكام والراجح والمرجوح من الأقوال فليحفظ «بلوغ المرام».

ويقرأ في النحو، ولا يتوغل فيه، فيشغله عن ما هو أهم منه، فيحفظ الآجرومية، والملحة أو غيرها.

ويقرأ الرحبية في الموارث، ويحفظها، ويحفظ متناً من أصول الفقه، ومختصراً من كتب المذاهب...

ولا ينازع شيخه ولا يتتبع زلاته، ولا يكشف عن عوراته، فمن نازع شيخه حرم العلم، وليكن بحثه معه بأدب، واستعفاء، ولا تحملك محبة شيخك وتعظيمه على تصويبه في خطئه».

إلى أن قال: «ثم يقرأ في المطولات، فيبتدىء بصحيح البخاري... ثم يقرأ في صحيح مسلم والسنن الأربع، وموطأ الإمام مالك، ومسند الإمام أحمد، ومنتقى الأخبار وغيرها من كتب أهل الحديث رحمهم الله...».

إلى أن قال: «وعليك بالنظر في كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وكتب تلميذه ابن القيم، مثل: زاد المعاد، وإغاثة اللهفان، وسائر كتبه النافعة...».

ثم يطالع في كتب الخلاف، وينظر في الشروح، فإذا ترجح له قول، قد قال به أحد من الأئمة قبله، فليأخذ به، ولو كان مخالفاً للمذهب...».

* عقبه:

توفي الشيخ - رحمه الله - عن عامر يناهز ٦٣ سنة، قضاه في الدعوة إلى الله، وتعليم الناس أمور دينهم، ونشر التوحيد ومحاربة الشرك والتنديد، فجزاه الله عنا وعن المسلمين خير الجزاء.

والشيخ - رحمه الله - لم يخلف ذكوراً، إنما خلف ستاً من البنات أسأل الله أن يرزقني وإياهن صلاح القلب والعمل، وأن يجعلهن من أنصار دينه، المتبعين لسنة نبيه ﷺ، المعادين لأعداءه من أهل البدع والكفر والضلال.



تنبيهات وتعقيبات

من خلال اطلاعي السريع على المصادر والمراجع التي ترجمت للمؤلف رحمه الله، وقفت على أخطاء يجب التنبيه عليها:

١ - ففي كتاب «علماء نجد خلال ستة قرون» (٣/٧٥٤): «البشري ثم الحسيني...» وتبعه على ذلك صاحب كتاب: «العلامة المحقق» (ص ١٠)، وهو خطأ، والصواب: الحسيني ثم البشري، إذ الحسن بن بطن من السلقا، والسلقا من العمارات، والعمارات من بشر.

٢ - وفي المصدر السابق «وآل بشر من آل حسني الذين هم بطن من وائل»، وهو خطأ، وقد سبق بيانه.

٣ - وفي المصدر السابق (٣/٧٥٥) وكتاب «روضة الناظرين» (١/١٤٧): «ولد في بلد عشيرته - حريملاء - عاصمة بلدان المحمل...»، وتبعهما على ذلك صاحب كتاب: «العلامة المحقق...»، وهو خطأ، والصواب: أن حريملاء هي عاصمة بلدان الشعيب، أما عاصمة بلدان المحمل هي: ثادق.

٤ - وفي المصدر السابق (٣/٧٥٦): ولي قضاء كل من تثلث، فأبها، فبيشه، فترية، فالخرمة، فالقنفذة، فقريه، فضرمه، فالجوف».

وهنا تنبيهان:

الأول: أن الترتيب الذي ذكره الشيخ - وفقه الله - ليس بصحيح، فالصواب هكذا: تثلث، ثم أبها، ثم قريه، ثم تربة، ثم أبها مرة أخرى، ثم القنفذة، ثم الخرمة، ثم رنية - ولم يذكرها الشيخ وفقه الله من ضمن البلدان التي

ولي القضاء بها - ثم ضمها، ثم الجوف، وهذا الترتيب، هو الذي ذكره لي الشيخ عبد الله آل عبد الوهاب.

الثاني: أن الشيخ - رحمه الله - لم يعين في بيته للقضاء إطلاقاً، كما ذكره لي الشيخ عبد الله آل عبد الوهاب الملازم للشيخ في سفره وإقامته. وإن كنت لا أستبعد ذلك، لأن الترجمة الموجودة في مقدمة كتابه «المجموعة الجليلة» قد قرأها وأقرها وفيها ذكر توليه القضاء في بيته.

٥ - في المصدر السابق (٧٥٦/٣) و«الأعلام» للزركلي (١٦٨/٥): «بستان الأخبار»، والصواب: «بستان الأحبار» كما سبق بيانه عند ذكر مؤلفات الشيخ رحمه الله.

٦ - في كتاب «علماء نجد خلال ستة قرون» (٧٥٧/٣): «توفي يوم الجمعة عشرة القعدة ١٣٧٧هـ، وفي الترجمة التي أعدها أحدهم عن الشيخ، ذكر فيها أنه توفي عام ١٣٧٧ يوم الاثنين السابع عشر من ذي القعدة، وفي كتاب «مشاهير علماء نجد» (ص ٤٠١): أنه توفي في يوم الجمعة ستة عشر ذي القعدة سنة ١٣٧٧هـ، وهو خطأ، والصواب: أنه توفي في يوم الجمعة السادس عشر من ذي القعدة لعام ١٣٧٦هـ.

٧ - في المصدر السابق (٧٥٦/٣)، والترجمة الموجودة في مقدمة كتاب: «خلاصة الكلام شرح عمدة الأحكام (ط/ الرشد). - عند معرض ذكر شيوخ المؤلف رحمه الله - ما نصه: «والشيخ عبد الرحمن بن داود» والصواب علي بن داود رحمه الله.

٨ - في الترجمة الموجودة في مقدمة «المجموعة الجليلة» ما نصه: «تولى القضاء في البلدان التالية تثليث ثم نقل منها إلى أبها، ومنها نقل إلى بيته ثم نقل إلى تربة، ثم نقل إلى الخرمة، ثم أعيد إلى أبها، ومنها نقل إلى القنفذة،

ومنها نقل إلى قرية، ومنها نقل إلى ضرمي^(١)، ثم نقل إلى الجوف». راجع التنبيه رقم (٤).

٩ - في كتاب: «العلامة المحقق...» (ص ١٤) ما نصه: «كان يرأس قوافل الحجاج بأمر الحكومة...»، وقد قرأت هذا الكلام على الشيخ عبد الله آل عبد الوهاب، وقال: «لم يكن ذلك إلا مرة واحدة فقط» قلت: و (كان) إذا أتى بعدها فعل مضارع، فإنه يدل على الاستمرار!

١٠ - في المصدر السابق ص ١٧ ما نصه: «ثم يقرأ الطالب صالح بن مسعود»، والصواب: «صالح بن مرشود» رحمه الله، كما ذكر ذلك الشيخ عبد الله حفظه الله.

١١ - في المصدر السابق (ص ١٧) ما نصه: «وقبل صلاة العصر يذهب الشيخ وطلبته ليكون بضيافة الأهالي...»، ذكر لي الشيخ عبد الله آل عبد الوهاب - حفظه الله - أن هذا ليس دائماً، بل في النادر، قلت: والنادر لا حكم له.

١٢ - في المصدر السابق (ص ١٨) ما نصه: «ويعود إلى بيته بعد العصر من مسجده ليفتح الباب لطلبته ليقروا عليه القرآن...»، والصواب أن وقت القراءة التي تكون في البيت هو: وقت الضحى، وما بين المغرب والعشاء فقط، وأما ما بعد العصر فهو في المسجد، كما ذكر لي ذلك الشيخ عبد الله آل عبد الوهاب حفظه الله.

١٣ - في المصدر السابق ص ١٨ ما نصه: «وبعد صلاة العشاء يقرأ عليه الطلبة النحو (ملحمة الإعراب)^(٢) - الأجرورية^(٣)».

(١) هكذا في المصدر المنقول منه، والصواب: «ضرمًا» بالألف الممدودة.

(٢) هكذا في الكتاب المنقول منه، والصواب: «ملحة الإعراب».

(٣) هكذا في الكتاب المنقول منه، والصواب: «الآجرورية».

- ١٤ - في المصدر السابق (ص ١٩) ما نصه: «أنه اشترى مرة أرضاً...» والصواب أنه لم يشتريها، بل هي أرض موات قام الشيخ - رحمه الله - بزراعتها وحفر بئر بها، وبناء مسجد فيها كما ذكر لي ذلك الشيخ عبد الله حفظه الله.
- ١٥ - في المصدر السابق (ص ١٩) ما نصه: «فقام بإهدائها لصاحبها ابن عيشان دون مقابل»، والصواب: أنه دفعها إليه، وشرط عليه المحافظة على المسجد الذي بها، وكذلك المدي^(١).
- ١٦ - في المصدر السابق (ص ٢١) ما نصه: «ذهب إلى مدينة الطائف...» والصواب أنه ذهب إلى الشرقية كما حدثني به الشيخ عبد الله آل عبد الوهاب حفظه الله.
- ١٧ - في المصدر السابق (ص ٢٤) ما نصه: «شفيق المرزوق» وفي الترجمة الموجودة في مقدمة كتاب: «خلاصة الكلام» (ط/ الرشد): «شفيق المرزوق»، والصواب: شَفِقَ المرزوق، كما حدثني بذلك الشيخ حفظه الله.
- ١٨ - في المصدر السابق (ص ٢٤) ما نصه: «عبد الله بن عبد الوهاب رحمه الله!! وهذا الدعاء وإن كان معناه صحيحاً، لكنه يوهم القارئ، أن المترحم عليه قد توفي، وهذا خلاف الحقيقة، فالشيخ - حفظه الله - لا يزال على قيد الحياة، صحيحاً معافى، نسأل الله أن يمدد في عمره على طاعته، وأن يجزيه عنا خير الجزاء، والذي يظهر لي أن هذا وهم من مؤلف الكتاب - عفى الله عنا وعنه - ، وقد كان رسول الله ﷺ يعجبه الفأل ويكره التطير، فافهم.

(١) وهو إناء كبير يوضع فيه الماء، لأجل من يريد الوضوء.

١٩ - في المصدر السابق (ص ٢٩) ما نصه: «وهكذا انتقل بعد أن قضى في الجوف عشرين عاماً»، وأيضاً في كتاب «روضة الناظرين» (١/١٤٩): أن الشيخ ظل قاضياً في الجوف عشرين سنة، وهو خطأ، والصواب: أنه قضى في الجوف قرابة خمسة عشر عاماً، إذ قدوم الشيخ إلى الجوف سنة ١٣٦٢هـ، ووفاته بها عام ١٣٧٦هـ، فكم بينهما؟!.

٢٠ - في كتاب: «مشاهير علماء نجد» (ص ٣٩٨)، والترجمة الموجودة في مقدمة كتاب: «المجموعة الجليلة» ما نصه: «واستشهد والده عبد العزيز...»، قلت: والمعلوم من مذهب أهل السنة - رحمهم الله - أنه لا يقطع بالشهادة لأحد بأنه من أهل الجنة ولا من أهل النار، إلا لمن ورد النص على تعيينهم أنهم من أهل الجنة أو من أهل النار؛ لذا قال البخاري - رحمه الله - في صحيحه: «باب لا يقول فلان شهيد».



النسخ المعتمدة

توفّر لدي عند الشروع في تحقيق هذا الكتاب المبارك نسختان:

□ الأولى: خطية، وهي بخط المؤلف - رحمه الله - ، وللأسف الشديد ليس موجود منها سوى قطعة من الجزء الرابع فقط.

وتقع في: ٢٢٥ صفحة. ومسطرتها: ما بين ١٧ - ٢٠ سطرًا.

وعدد الكلمات في كل سطر: ما بين ٨ - ١٠ كلمات.

□ الثانية: مطبوعة، وقد طبعت سنة ١٣٧٦هـ بدار التأليف - بمصر، تحت

معرفة صاحب المكتبة الأهلية بالرياض، وذلك في أربعة مجلدات:

المجلد الأول: يقع في ٢٩٦ صفحة، يبدأ بتفسير سورة البقرة، وينتهي

بنهاية تفسير الآية ١٤٧ من سورة النساء.

المجلد الثاني: يقع في ٣٨٧ صفحة، يبدأ من الآية ١٤٨ من سورة النساء،

وينتهي بنهاية تفسير سورة الإسراء.

المجلد الثالث: ويقع في ٤٤٤ صفحة، يبدأ بتفسير سورة الكهف، وينتهي

بنهاية تفسير الآية ١٤٦ من سورة فصلت.

المجلد الرابع: ويقع في ٣٨٢ صفحة، يبدأ بتفسير الآية ١٤٧ من سورة

فصلت، وينتهي بنهاية تفسير سورة الناس.

وهذه المطبوعة قد طبعت عن النسخة التي كتبها تلميذ الشيخ: عبد العزيز آل

عقل - وفقه الله - وهو قد نقلها من خط المؤلف رحمه الله.

وقد رمزت لها بـ «الأصل»، وعليها اعتمدت في تحقيق الكتاب.



عنوان الكتاب ونسبته للمؤلف

جميع المصادر التي ترجمت للشيخ - رحمه الله - ذكرت أن للشيخ كتاباً في التفسير، وأن عنوانه هو: «توفيق الرحمن في دروس القرآن» فالحمد لله على فضله وإحسانه.

* سبب تأليفه هذا الكتاب:

بيّن المؤلف - رحمه الله - في مقدمة كتابه السبب الذي دعاه إلى تأليف هذا الكتاب قائلاً:

«إن تفسير القرآن أشرف علوم الدين، وقد صنف فيه الأئمة ما يشفي ويكفي، وما بين مختصر ومطول، ولكن لا بدّ من تفسيره للناس بلسانهم، وتبيين معانيه على قدر أفهامهم...».

* منهج المؤلف في كتابه:

- قسم المؤلف - رحمه الله - الكتاب إلى أربعة أجزاء.
- كونه من ثلاثمائة وثلاثة عشر درساً.
- كل درس من هذه الدروس يحتوي على عدد من آيات السورة المراد تفسيرها، بحسب طول السورة أو قصرها.
- يعرض المؤلف الآيات المراد تفسيرها في بداية الدرس، ثم يقوم بعد ذلك بتفسيرها، كل موضع بحسبه.

- إيراده للآيات والأحاديث، وأقوال الصحابة والتابعين، والمفسرين حول الآية المراد تفسيرها، مع مراعاة الاختصار.
- الابتعاد عن البسط والتطويل في تفسير الآيات، وإيراد المعنى العام لها غالباً.
- إعطاء المعنى العام للآية – في الغالب – وإيراد خلاصة أقوال المفسرين فيها.
- إعراضه عن تفسير الآيات في بعض المواضع، لظهور معناها من خلال سياق الآية.
- أكثر ما في هذا الكتاب قد نقله المؤلف من تفسير ابن جرير، وابن كثير، والبخاري. بالإضافة إلى بعض التفاسير، مثل: جامع البيان للحسيني.
- إذا نقل المؤلف كلام أحد المفسرين بلفظه، فإنه يعزوه، وإذا تصرف فيه لم يعزه.
- محاولته الابتعاد عن الأحاديث الإسرائيلية التي تخالف شرعنا المطهر، وكذا الأحاديث التي فيها ضعف أو وضع.



منهجي في تحقيق الكتاب

- ١ - اعتمدت النسخة المطبوعة (الأصل) أصلاً في تحقيق هذا الكتاب.
 - ٢ - اتبعت جميع ما في النسخة المطبوعة (الأصل)، إلا ما رأيته حرياً بالتصحيح، أو بالحذف، أو الإضافة.
 - ٣ - كل زيادة على النسخة المطبوعة (الأصل) سواء من النسخة الخطية، أو من كتاب نقل منه المؤلف، أو من عندي، فإني أضعها بين معقوفتين هكذا: [].
 - ٤ - حاولت قدر الإمكان أن أوثق النقول بإرجاعها إلى مصادرها.
 - ٥ - حرصت على مقابلة النص المنقول، مع مصدره الذي نقل منه، وهذه المقابلة ليست حرفية، وإنما لبيان بعض الكلمات الناقصة، أو الجمل والعبارات الزائدة أحياناً.
 - ٦ - عزوت الآيات إلى سورها.
 - ٧ - خرجت الأحاديث الواردة في الكتاب، وكذلك بعض الآثار متبعاً في ذلك الآتي:
- (أ) راعيت الاختصار في التخريج، وترك البسط والتطويل، إذ ليس هذا محله، فالكتاب كتاب تفسير، وليس كتاب حديث مسند.
- (ب) إن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بالعزو إليهما، إذ العزو إليهما مشعر بالصحة.

(ج) اكتفيت في الإحالة برقم الحديث أو الأثر، وبجانبه حرف الحاء
- أي: حديث أو أثر رقم - هكذا (ح/...) وقد أذكر رقم الجزء
والصفحة في بعض المواضع.

(ح) بعد تخريج الحديث - إن كان في غير الصحيحين أو أحدهما - أذكر
ما توصلت إليه في بيان درجته، من صحة أو ضعف، إذ القارىء
- في نظري القاصر - همه الوقوف على صحة الحديث من ضعفه
ليس إلا، فإن كان صحيحاً عمل به، وإن كان ضعيفاً تركه، وهذا هو
المطلوب.

٨ - علقت على بعض آيات الصفات.

٩ - ختمت الكتاب بفهرس للآيات التي ذكرها المؤلف في غير موضعها،
وفهرس للأحاديث والآثار المخرجة، وفهرس للأشعار.



المدرسة من مسوق للشيخ مدرسيه
والمدون
سيد الملائكة وعمران بن مهران

بسم الله الرحمن الرحيم

يا باسما اللطيف الذي خيره ما أعلن الله لك قسيسا موصفا من اولاده
والمهدي غني من واهب من الله لك خيرا ايضا يحسن
والله من لحيته وهو الطيب والنجيد وراى الله الرضا الحق
من اولاده غير هذا ثم بناه في كوكبه من الله دعاء عرف
بقبضته والرفعة عن قبضته فكأن ذبا طاهرا كالتوراة والشأك
هذا قاله ذبا في الصلاة بالجملة وان اشقى بار الله فقد

عظمها بالاولاد في

واجوز في دوام الحقة من بينه والملايكه كبقية الله عليه
على من غيره من طلاقه ان يشهد ان لا اله الا الله محمد
من حيايت فارادت تارنات عايدية في حيايت حيايت حيايت
يا رحيم الدرك آمسوق الله في مائة مائة او فحق هذا ان
والجبارة عايدية ملايكه كبقية الله عليه لا يشهد الله اما كبقية
ويكفون ما في من واما عايدية كبقية الله عليه لا يشهد الله
انما يشهدون ما في من واما عايدية كبقية الله عليه لا يشهد الله

وجملته ذكرى في البرية نشأ ثوبه عن جوار جميع اخوانه
لكن سره معانيه وشايبه وحله عن سقطه عن طغيان
~~فلا والله والحمد لله والحمد لله والحمد لله~~
ولقد مننت علي رب بانعم مالي وشكر اقلتمن ريات
فلا الحمد والمدائح كلها بخوار وبر وجوار حواسي

تَوْفِيقُ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فِي دُرُوسِ الْقُرْآنِ

تَأَلَّفَ

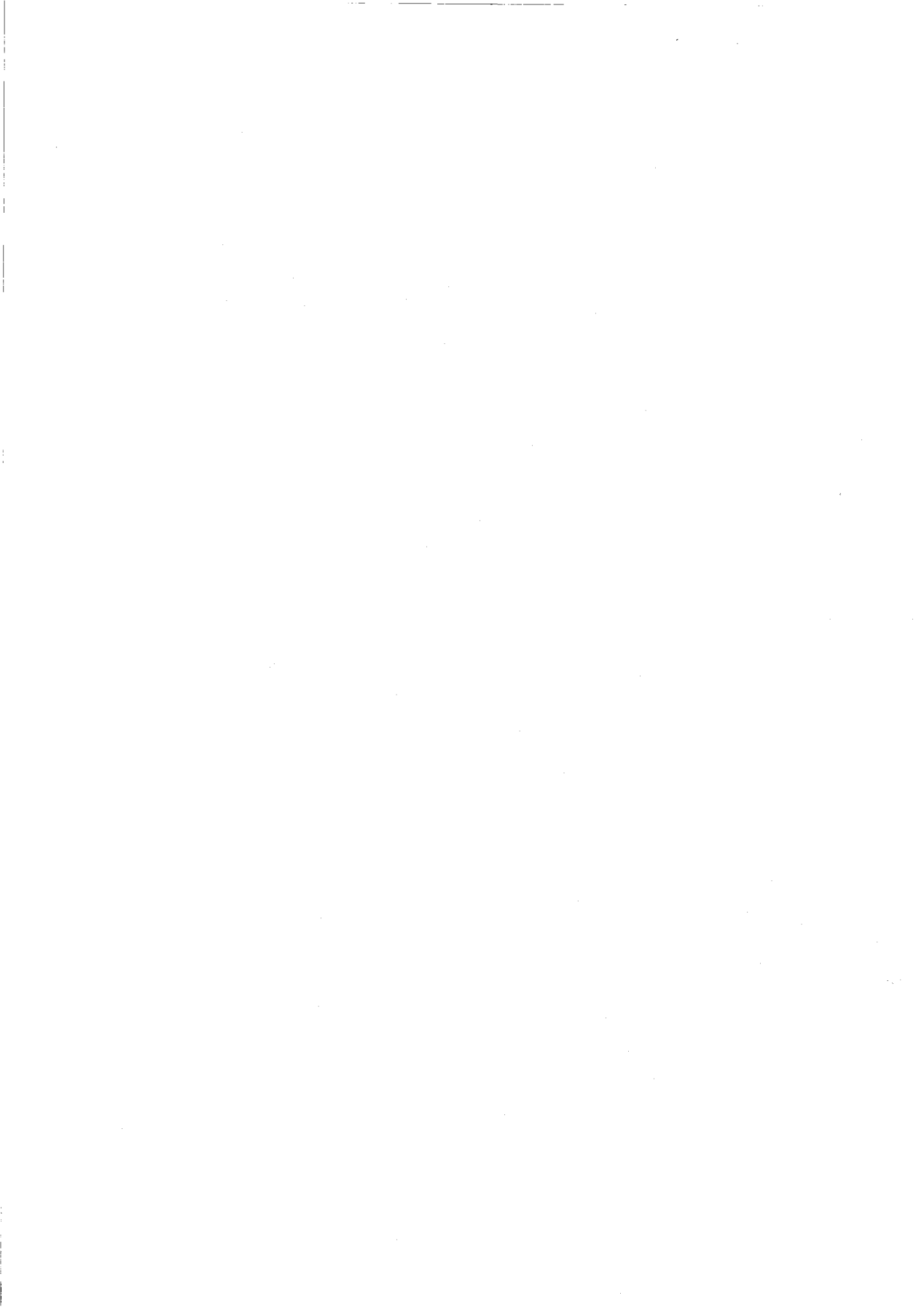
الشيخ فيصل بن عبد العزيز بن فيصل آل مبارك

(١٣١٣ - ١٣٦٦هـ)

رَحِمَهُ اللهُ

عَقَّقَهُ، وَضَرَعَ أُمَّارِيئَهُ، وَعَلَوْا عَلَيْهِ

عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الزَّيْرَالِ حَمْدٌ



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب تبياناً لكل شيء، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين، وفضّله قرآناً عربياً لقوم يعلمون.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ربّ السموات وربّ الأرض ربّ العالمين. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الصادق الأمين، صلّى الله عليه وعلى آله الطاهرين، وأصحابه الأكرمين، وسلم تسليماً.

أما بعد:

فإن تفسير القرآن أشرف علوم الدين، وقد صنف فيه الأئمة ما يشفي ويكفي، ما بين مختصر ومطول، ولكن لا بد من تفسيره للناس بلسانهم، وتبيين معانيه على قدر أفهامهم.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١).

وأكثر ما في هذا الكتاب نقلته من تفسير ابن جرير، وابن كثير، والبغوي رحمهم الله تعالى، فما كان بلفظه عزوته، وما تصرفت فيه لم أعزه.

اللهم اعصمنا من القول عليك بلا علم، واهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.

(١) سورة إبراهيم: الآية ٤.

قال صاحب «الفوز الكبير في أصول التفسير»^(١) رحمه الله تعالى: «معاني القرآن المنظوقة لا تخرج عن خمسة علوم: علم الأحكام، وعلم المخاصمة والرد على الفرق الضالة، وعلم التذكير بآلاء الله، وعلم التذكير بأيام الله، وعلم التذكير بالموت وما بعده، فوجود العقائد الباطلة سبب لنزول آيات المخاصمة، ووجود الأعمال الفاسدة وجريان المظالم فيما بينهم سبب لنزول آيات الأحكام، وعدم تيقظهم بآلاء الله، وأيام الله، ووقائع الموت وما بعده سبب لنزول آيات التذكير. قال بعض العارفين: إن الناس لما حفظوا قواعد التجويد شغلوا عن الخشوع في التلاوة. ولما ساق المفسرون الوجوه البعيدة في التفسير، صار علم التفسير نادراً كالمعدوم.

ومن المواضع الصعبة في فن التفسير معرفة الناسخ والمنسوخ، فمعنى النسخ عند المتقدمين: إزالة بعض الأوصاف من الآية بآية أخرى، إما بانتهاء مدة العمل، أو بصرف الكلام عن المعنى المتبادر، أو بيان كون قيد من القيود اتفاقياً، أو تخصيص عام، أو بيان الفارق بين المنصوص، وما قيس عليه ظاهراً، أو إزالة عادة الجاهلية أو الشريعة السابقة، فاتسع باب النسخ عندهم، وكثر جولان العقل هنالك، واتسعت دائرة الاختلاف.

والمنسوخ باصطلاح المتأخرين عدد قليل قريباً من عشرين آية، وفي أكثرها نظر، ولا يتعين النسخ إلا في خمس آيات: الأولى، قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُم إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾^(٢) منسوخة بقوله تعالى: ﴿ يُوْصِيكُمُ اللَّهُ فِيْ أَوْلَادِكُمْ ﴾^(٣) الآيات. الثانية: قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مِّمَّا

(١) انظر (ص ٤ - ١٦).

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٠.

(٣) سورة النساء: الآية ١١.

إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴿١﴾ الآية منسوخة عند الجمهور بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَضَّيْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ (٢). الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدِيرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ (٣) الآية منسوخة بالآية التي بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٤). الرابعة: قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِنْسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ مِنْهُنَّ إِذَا كَانَ مِنْكِ خُلُوفٌ فَإِنْ عَدَّ مِنْهُنَّ زَوَاجًا حُرًّا مِمَّا بَدَّلَ مِنْهُنَّ فَلَا يَحِلُّ لَكَ إِلَهُنَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ (٥) منسوخة بقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا آفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَنِسَاءَ عَمَلِكِ وَنِسَاءَ عَمَلِكِ وَنِسَاءَ خَالِكَ وَنِسَاءَ خَلْلِكَ الَّتِي هَاجَرَ مَعَكَ﴾ (٦) الآية. الخامسة: قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُحُودِكُمْ صَدَقَةٌ﴾ (٧) الآية منسوخة بالآية التي بعدها. ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُحُودِكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٨). انتهى ملخصاً مع تقديم وتأخير.

قلت: والمتفق عليه من الخمس ثلاث آيات: آية الوصية، وآية القتال (٩)، وآية النجوى (١٠).

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٣٤.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٦٥.

(٤) سورة الأنفال: الآية ٦٦.

(٥) سورة الأحزاب: الآية ٥٢.

(٦) سورة الأحزاب: الآية ٥٠.

(٧) سورة المجادلة: الآية ١٢.

(٨) سورة المجادلة: الآية ١٣.

(٩) في (الأصل): «التتار»، ولعل ما أثبتته أولى.

(١٠) في (الأصل): «النجوء». وهو خطأ.

وقال ابن جرير على قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾^(١): «قال ابن زيد: ونسخ هذا لما أمر بالجهاد. قال ابن جرير: هذا قول لا وجه له؛ لأنه ﷺ لم يزل صابراً على ما يلقي منهم حتى توفاه الله قبل أن يأذن الله بحربهم وبعده»^(٢) انتهى ملخصاً.

وقال صاحب الفوز أيضاً^(٣): «ومن المواضع الصعبة: معرفة أسباب النزول، والذي يظهر من استقرار كلام الصحابة والتابعين، أنهم لا يستعملون نزلت في كذا لمحض قصة في زمنه ﷺ، وهي سبب نزول الآية بل ربما يذكرون بعض ما صدقت عليه الآية مما كان في زمنه ﷺ أو بعده، ويقولون: نزلت في كذا، ولا يلزم هناك انطباق جميع القيود؛ بل يكفي انطباق أصل الحكم فقط، وقد يقررون حادثة تحققت في تلك الأيام المباركة، واستنبط ﷺ حكمها من آية وتلاها في ذلك الباب، ويقولون: نزلت في كذا، وربما يقولون في هذه الصورة: فأنزل الله قوله كذا، فكأنه إشارة إلى أن استنباطه ﷺ والقاؤها في تلك الساعة بخاطره المبارك أيضاً نوع من الوحي، والمنفث في الروح، فلذلك يمكن أن يقال: فأنزلت. ويمكن أيضاً أن يعبر في هذه الصورة بتكرار النزول».

إلى أن قال: «ومما ينبغي أن يعلم أن قصص الأنبياء السابقين لا تذكر في الحديث، إلا على سبيل القلة، فالقصص الطويلة العريضة التي تكلف المفسرون روايتها كلها منقولة عن علماء أهل الكتاب إلا ما شاء الله تعالى، وقد جاء في صحيح البخاري مرفوعاً: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»^(٤).

(١) سورة المعارج: الآية ٥.

(٢) انظر «جامع البيان» (٧٣/٢٩).

(٣) انظر (ص ١٨ و ١٩ و ٣٤ - ٣٥).

(٤) أخرجه البخاري (ح/٤٤٨٥ و ٧٣٦٢ و ٧٥٤٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

إلى أن قال: «وسبب النزول على قسمين:

القسم الأول: أن تقع حادثة يظهر منها إيمان المؤمنين، ونفاق المنافقين، كما وقع في أحد والأحزاب، أنزل الله تعالى مدح هؤلاء وذم أولئك؛ ليكون فيصلاً بين الفريقين، وربما يقع في مثل هذا من التعريض بخصوصيات الحادثة ما يبلغ حد الكثرة، فيجب أن يذكر شرح الحادثة بكلام مختصر ليتضح سوق الكلام على القارئ.

القسم الثاني: أن يتم معنى الآية بعمومها، من غير احتياج إلى العلم بالحادثة التي هي سبب النزول والحكم؛ لعموم اللفظ لا لخصوص السبب، وقد ذكر قدماء المفسرين تلك الحادثة بقصد الإحاطة بالآثار المناسبة للآية، أو بقصد بيان ما صدق عليه العموم، وليس ذكر هذا القسم من الضروريات، وقد تحققت أن الصحابة والتابعين كثيراً ما كانوا يقولون: نزلت الآية في كذا وكذا، وكان غرضهم تصوير ما صدقت عليه الآية، وذكر بعض الحوادث التي تشملها الآية بعمومها، سواء تقدمت القصة أو تأخرت، إسرائيلياً كان ذلك أو جاهلياً أو إسلامياً، استوعبت جميع قيود الآية أو بعضها، والله أعلم. فعلم من هذا التحقيق أن للاجتهاد في هذا القسم مدخلاً، وللقصص المتعددة هنالك سعة، فمن استحضر هذه النكتة يتمكن من حل ما اختلف من سبب النزول بأدنى عناية. انتهى ملخصاً وبالله التوفيق.

وقال ابن كثير^(١) رحمه الله تعالى: (فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: إن أصح طريق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد بسط في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة؛ فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله، محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله تعالى: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم»: (١/٣ - ٥).

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبْنَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾^(٢)، وقال: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾^(٣)، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إلا إني أوتيت القرآن ومثله معه»^(٤)، يعني: السنة).

إلى أن قال: (والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السنة؛ كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «بسم تحكم؟ قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: اجتهد رأيي. فضرب رسول الله ﷺ في صدره وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله»^(٤). وهذا الحديث في المسند والسنن بإسناد جيد كما هو مقرر في موضعه.

وحيث إذا لم نجد التفسير في القرآن، ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختلفوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح، والعمل الصالح؛ لا سيما علماءهم وكبراءهم).

إلى أن قال: (فصل إذا لم تجد التفسير في القرآن، ولا في السنة، ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين: كمجاهد بن

(١) سورة النساء: الآية ١٠٥.

(٢) سورة النحل: الآية ٤٤.

(٣) أخرجه أحمد (٤/١٣١)، وأبو داود (ح/٤٦٠٤) عن المقدم بن معديكرب رضي الله عنه مرفوعاً، وهو صحيح.

(٤) أخرجه أحمد (٥/٢٣٠ و ٢٣٦ و ٢٤٠)، وأبو داود (ح/٣٥٩٢ و ٣٥٩٣)، والترمذي (ح/١٣٢٧).

جبر، فإنه كان آية في التفسير، كما قال محمد بن إسحاق: حدثنا أبان بن صالح عن مجاهد قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند عند كل آية منه، وأسأله عنها.

وقال ابن جرير: أنبأنا أبو كريب: أنبأنا طلق بن غنام، عن عثمان المكي، عن ابن أبي مليكة، قال: رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه الواحة. قال: فيقول له ابن عباس: أكتب. حتى سأله عن التفسير كله. ولهذا كان سفیان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. وكسعيد بن جبیر، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من التابعين، وتابعيهم، ومن بعدهم فتذكر أقوالهم في الآيات، فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً، وليس كذلك. فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو بنظيره، ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد في أكثر الأماكن، فليفتن اللبيب لذلك، والله الهادي). انتهى.

وقال ابن عباس: التفسير على أربعة أوجه: تفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعلمه إلا العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله، من ادعى علمه فهو كاذب.

تنبيه: لم يبين التفسير في بعض المواضع؛ لأنه يظهر للعالم من سياق الآيات وكلام العرب الموجودين، خصوصاً من نشأ في بلادهم، وتجول فيها، فإنه يكاد يفسر القرآن ولو لم يسمع الآثار ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾^(١). وقد كنت في صغري أهاب سؤال العلماء في بعض ما يشكل عليّ من القرآن، فأسمع الكلمة

(١) سورة النور: الآية ٣٥.

من بعض الأعراب، فتزِيل عني ما أشكل، فكنت أسمع قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (١) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَيَحْمَدُونَهَا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢)، فجاءني أعرابي وأنا مع الغلمان، فقال لي: أين عمك؟ قلت له: ما هو في البيت. فقال لي: إذا جاء فقل له يقول حمود القحطاني: إذا ما جاء بين العشابين جيت. فعرفت معنى الآية.

وسمعت أعرابياً يقول: «طلعت عليّ الخيل تتبع الربيع تترأ». فعرفت معنى قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ (٣) أي: يتبع بعضهم بعضاً.

وقد نشأت - والله الحمد - في أصل العرب، وسرت في بلادهم بنجد، والحجاز، وتهامة، واليمن، والبحرين، وسمعت كلام البادية والحاضرة، وكان بعضهم - وهو أبي - إذا سمع القرآن عرف معناه بمجرد التلاوة.

وسمع أعرابي رجلاً يقرأ: ﴿وَالْمَدِينَتِ ضَبْحًا﴾ (١) ﴿فَالْمُورِيَتِ قَدْحًا﴾ (٢) ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ (٣) ﴿فَأَنْزَلَ بِهِ نَقْعًا﴾ (٤) ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ (٥)، فقال الأعرابي: الخيل الخيل.

وسمعت أعرابية رجلاً يقرأ هذه الآية. ﴿حَنَفُظُوا عَلَى الصُّكُوتِ وَالصُّكُوتِ أَلْوَسَطَى وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَسْبَتَيْنِ﴾ (٤) فقالت: ويش الصلاة الوسطى؟ قال: صلاة العصر. فقالت: على شان وقتها ضيق.

وتجادل رجلان فيما يفعله الجهال عند القبور من دعاء الموتى، وطلب الحاجات منهم، فقال أحدهما: هذا شرك؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ

(١) سورة فصلت: الآيتان ١٩ و ٢٠.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٤٤.

(٣) سورة العاديات: الآيات ١ - ٥.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٣٨.

فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾^(١)، فقال الآخر: ما يجوز لمثلي ومثلك أن يفسر القرآن . فسكت الرجل ، وكان حليماً وهو في بيت الآخر ، فخرجت عليهم جارية جميلة فقال: يا فلان من هذه؟ قال: بنتي . فقال: لو تزوجتها . فضحك به وقال: أتزوج بنتي! فقال الرجل: هل في ذلك بأس . فقال: ما تسمع قول الله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴾^(٢) فقال: إنك تقول ما يجوز لمثلي ومثلك أن يفسر القرآن .

والمقصود: أن من كان لسانه عربياً، وفطرته مستقيمة، يعرف معنى القرآن بمجرد، سماعه وكثيراً ما يسألني الأعراب، وغيرهم عن مسائل غامضة في الآيات، فأتلوا عليهم قول الله تعالى: ﴿ وَتَسْتَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطَبُوا فِي الْقُرْآنِ فَاِخْوَانِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُنْفِيسَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾^(٣)، فيعرفون الجواب بمجرد التلاوة، ويقنعون، فإذا انضم إلى العربية والفطرة السليمة معرفة سيرة النبي ﷺ كان ذلك نوراً على نور، والله الهادي والموفق للصواب .



(١) سورة الجن: الآية ١٨ .

(٢) سورة النساء: الآية ٢٣ .

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٠ .

فصل في فضائل القرآن

قال الله تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ مَن نَّقِصْ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصْرِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٧﴾﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذِيرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٣﴾ تَزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِن يُجْهَرِ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾﴾^(٣)، وقال عز وجل: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾^(٤). وقال جل وعلا: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا

(١) سورة يوسف: الآيات ١ - ٣.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٢.

(٣) سورة طه: الآيات ١ - ٨.

(٤) سورة الحشر: الآية ٢١.

يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٦﴾ تَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴿١﴾

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مّتَابِرًا نَقَشَهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ تَزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿١﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٢﴾﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مَكَّةَ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿١﴾﴾ (٥).

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ يَلْمِزْهُ﴾ (٦).

وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١﴾﴾ (٧).

وقال تعالى: ﴿الرَّكْعَتُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ (٨).

(١) سورة الواقعة: الآيات ٧٧ - ٨٠.

(٢) سورة الزمر: الآية ٢٣.

(٣) سورة فصلت: الآيات ١ - ٤.

(٤) سورة الإسراء: الآيات ٨٨ و ٨٩.

(٥) سورة الإسراء: الآية ١٠٦.

(٦) سورة الأنعام: الآية ١٩.

(٧) سورة الحجر: الآية ٩.

(٨) سورة إبراهيم: الآية ١.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿وَإِن أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُكَ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرَىٰ مُتَشَابِهَةٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَآيَاتِنَا تَأْوِيلُهُ وَمَا يَسْلُمُ تَأْوِيلُهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾ (٥).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالْبَاطِنِ هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَأَمَّنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٦﴾﴾
 وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَانَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿١٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَنَّكَ تَلَا الْمُبْتَلُونَ ﴿١٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَظِرُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿١٩﴾﴾ (٦).

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾

(١) سورة الشورى: الآية ٥٢.

(٢) سورة يونس: الآية ٥٨.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٢٠٤.

(٤) سورة التوبة: الآية ٦.

(٥) سورة آل عمران: الآية ٧.

(٦) سورة العنكبوت: الآيات ٤٦ - ٤٩.

يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَتَأْتِيهِمْ وَهُمْ لَمْ يَأْمُرُوا بِالْحَقِّ كَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴿١﴾ .

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّذَرِّينَ ﴿٢٢﴾ ﴿٢﴾ .

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُسْأَلْنَ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿٢٣﴾ ﴿٣﴾ .

وقال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴿٤﴾ .

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَعِجُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنفَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَعِبَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَأَتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿٢٦﴾ ﴿٥﴾ .

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٧﴾ ﴿٦﴾ .

وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴿٧﴾ .

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٢٩﴾ ﴿٨﴾ .

وقال تعالى: ﴿أَفَإِن هَذَا الْمَدْيِ تَسْجُبُونَ ﴿٣٠﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٣١﴾ وَأَنْتُمْ سَاهُونَ ﴿٣٢﴾ ﴿٩﴾ .

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ

(١) سورة الجن: الآيتان ١ و ٢ .

(٢) سورة الأحقاف: الآية ٢٩ .

(٣) سورة الإسراء: الآية ١٠٧ .

(٤) سورة الانشقاق: الآية ٢٠ و ٢١ .

(٥) سورة محمد: الآية ١٦ .

(٦) سورة محمد: الآية ٢٤ .

(٧) سورة المطففين: الآية ١٤ .

(٨) سورة النساء: الآية ٨٧ .

(٩) سورة النجم: الآيات ٥٩ - ٦١ .

وَتَخِذْهَا هُزْوَاً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا نَتَلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَىٰ مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعَهَا
كَانَ فِي أذُنَيْهِ وَقَرَأَ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴿١﴾ .

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٥﴾ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ
إِنَّهُمْ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴿٢﴾ ، والآيات في الباب كثيرة .

وعن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن
وعلمه»^(٣) . رواه البخاري .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصُّفَّة،
فقال: «أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو العقيق، فيأتي بناقتين كوماوين
في غير إثم ولا قطع رحم؟ فقلنا: يا رسول الله، كلنا نحب ذلك . قال: أفلا يغدو
أحدكم إلى المسجد، فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله خير له من ناقتين، وثلاث
خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدداهن من الإبل»^(٤) . رواه مسلم .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب أحبكم إذا
رجع إلى أهله أن يجد فيه ثلاث خَلِفات عظام سمان؟ قلنا: نعم . قال: فثلاث
آيات يقرأ بهن أحدكم في صلاته، خير له من ثلاث خَلِفات عظام سمان»^(٥) . رواه
مسلم .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الماهر بالقرآن مع

(١) سورة لقمان: الآيتان ٦ و ٧ .

(٢) سورة فاطر: الآيتان ٢٩ و ٣٠ .

(٣) أخرجه البخاري (ح/٥٠٢٧) .

(٤) أخرجه مسلم (ح/٨٠٣) .

(٥) أخرجه مسلم (ح/٨٠٢) .

السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن وَيَتَعَتَّعَ فِيهِ، وهو عليه شاق له أجران»^(١) متفق عليه.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا على اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار»^(٢) متفق عليه.

وعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة»^(٣) لا ربح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ربح وطعمها مر، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر»^(٤). متفق عليه.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين»^(٥) رواه مسلم.

وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: «ثلاثة تحت العرش يوم القيامة: القرآن يحاج العباد له ظهر وبطن، والأمانة، والرحم تنادي: ألا من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعته الله»^(٦) رواه [البغوي] في شرح السنة.

(١) أخرجه أحمد (٩٨/٦ و ١٧٠ و ٢٣٩ و ٢٦٦)، والبخاري (ح/٤٩٣٧)، ومسلم (ح/٧٩٨).

(٢) أخرجه أحمد (٨/٢)، والبخاري (ح/٥٠٢٦ و ٧٢٣٢ و ٧٥٢٨)، ومسلم (ح/٨١٥).

(٣) في (الأصل): «التمر»، والصواب كما أثبتته.

(٤) أخرجه أحمد (٤/٤٠٤ و ٤٠٨) والبخاري (ح/٥٠٥٩)، ومسلم (ح/٥٤٩/١) (٧٩٧).

(٥) أحمد (١/٣٥)، ومسلم (ح/٨١٧).

(٦) أخرجه العقيلي في «الضعفاء الكبير» (٥/٥)، والبغوي في «شرح السنة» (ح/٣٤٣٣)، وفي سنده كثير بن عبد الله الشكري، قال العقيلي: «كثير بن عبد الله الشكري عن الحسن بن عبد الرحمن بن عوف لا يصح إسناده».

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلت عند آخر آية تقرؤها»^(١) رواه أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب»^(٢) رواه الترمذي والدارمي، وقال الترمذي: هذا حديث صحيح.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الربُّ تبارك وتعالى من شغله القرآن عن ذكري أعطيته أفضل ما أعطي السائلين، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»^(٣) رواه الترمذي، والدارمي، والبيهقي في «شعب الإيمان»، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ﴿الم﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»^(٤) رواه الترمذي، والدارمي، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب إسناداً.

(١) أخرجه أحمد (١٩٢/٢)، وأبو داود (ح/١٤٦٤)، والترمذي (١٦٣/٥ ح/٢٩١٤) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٢٢/٥) وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٣/١)، والترمذي (ح/٢٩١٣) وقال: «حسن صحيح»، والدارمي (٣٠٨/٢)، والحاكم (٥٥٤/١) وصححه، وهو حديث حسن.

(٣) أخرجه الترمذي (١٦٩/٥ ح/٢٩٢٦) وقال: «حديث حسن غريب»، والدارمي (٣١٧/٢)، والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (٤٩/٤)، بسند ضعيف.

(٤) أخرجه الترمذي (ح/٢٩١٠)، وقال: «يروى هذا الحديث من غير وجه عن ابن مسعود، ورواه أبو الأحوص عن ابن مسعود رفعه بعضهم ووقفه بعضهم عن ابن مسعود»، وأخرجه الدارمي (٣٠٨/٢)، والطبراني في الكبير (١٤٠/٩) موقوفاً عن ابن مسعود، وهو صحيح.

وعن الحارث الأعور قال: «مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث، فدخلت على علي رضي الله عنه فأخبرته فقال: أو قد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إنها ستكون فتنة. قلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذا سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ ① يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ» من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم»^(١). رواه الدارمي.

وعن معاذ الجهني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن وعمل بما فيه، ألبس والداه تاجاً يوم القيامة، ضوءه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا، لو كانت فيكم. فما ظنكم بالذي عمل بهذا؟»^(٢) رواه أحمد وأبو داود.

(١) أخرجه الترمذي (ح/٢٩٠٦)، والدارمي (٢/٣١٢)، والبخاري في «شرح السنة» (ح/١١٨١)، وفي سننه الحارث بن عبد الله الأعور، وهو ضعيف. قال ابن كثير في «فضائل القرآن» (ص ١٥): «والحديث مشهور من رواية الحارث الأعور، وقد تكلموا فيه... وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي - رضي الله عنه - وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح على أنه قد روي له شاهد عن عبد الله ابن مسعود...».

(٢) أخرجه أبو داود (ح/١٤٥٣)، وأحمد (٣/٤٤٠)، والحاكم (١/٥٦٧ - ٥٦٨)، وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: «قلت: فيه زيان بن فائد وهو ضعيف، ويحيى بن أيوب وليس بالقوي». اهـ. قلت: وهو كما قال.

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن فاستظهره، فأحل حلاله وحرّم حرامه، أدخله الله الجنة وشفّعه في عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت له النار»^(١) رواه أحمد وابن ماجه والدارمي. قوله: فاستظهره، أي حفظه عن ظهر قلبه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا القرآن واقرووه، فإن مثل القرآن لمن تعلم فقرأ وقام به، كمثّل جراب محشو مسكاً تفوح ريحه في كل مكان. ومثّل من تعلمه فرقد وهو في جوفه، كمثّل جراب أوكى على مسك»^(٢) رواه الترمذي والنسائي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعربوا القرآن وابتغوا غرائب، وغرائب فرائضه وحدوده»^(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «قراءة القرآن في الصلاة أفضل من قراءة القرآن في غير الصلاة، وقراءة القرآن في غير الصلاة أفضل من التسبيح

(١) أخرجه أحمد (١/١٤٨)، والترمذي (ح/٢٩٠٥)، وابن ماجه (ح/٢١٦)، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده بصحيح، وحفص بن سليمان يضعف في الحديث». اهـ. وهو كما قال: ولم أقف عليه عند الدارمي.

(٢) أخرجه الترمذي (ح/٢٨٧٦)، والنسائي في الكبرى (٥/٢٢٧)، وابن ماجه (ح/٢١٧)، قال الترمذي: «هذا حديث حسن وقد رواه الليث بن سعد عن سعيد المقبري عن عطاء، موالى أبي أحمد عن النبي ﷺ مرسلًا ولم يذكر فيه عن أبي هريرة» وقال النسائي: «المشهور مرسل». قلت: وسنده ضعيف.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٠/٤٥٦)، وأبو يعلى (٦/٩٠)، والحاكم (٢/٤٣٩) وفي سنده عبد الله بن سعيد المقبري وقال الحاكم: «صحيح عند جماعة» وتعقبه الذهبي بقوله: «مجمع على ضعفه»، ووافقه العراقي وقال: «سنده ضعيف». وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/١٦٣): «فيه عبد الله بن سعيد بن أبي سعيد المقبري، وهو متروك».

والتكبير، والتسبيح أفضل من الصدقة، والصدقة أفضل من الصوم، والصوم جنة من النار»^(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد إذا أصابه الماء. قيل يا رسول الله، وما جلاؤها؟ قال: كثرة ذكر الموت، وتلاوة القرآن»^(٢). روى البيهقي الأحاديث الثلاثة في شعب الإيمان.

وعن الحسن مرسلًا أن النبي ﷺ قال: «من قرأ في ليلة مائة آية لم يحاجه القرآن تلك الليلة، ومن قرأ في ليلة مائتي آية كتب له قنوت ليلة، ومن قرأ في ليلة خمسمائة إلى الألف أصبح وله قنطار من الأجر. قالوا: وما القنطار؟ قال: اثنا عشر ألفاً»^(٣). رواه الدارمي.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تعاهدوا القرآن، فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفصيلاً من الإبل في عقلها»^(٤) متفق عليه.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بئس ما لأحدهم أن يقول نسيت آية كيت وكيت، بل نسي. واستذكروا القرآن فإنه أشد تفصيلاً من صدور الرجال من النعم»^(٥) متفق عليه.

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤١٣/٢)، وفي سنده ضعف.

(٢) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٢٥٩/١)، ومن طريقه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٨٣٢/٢) بسند موضوع. وبنحوه عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «إن للقلوب صدأ كصدأ الحديد، وجلاؤها الاستغفار»، أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٧/٢٩ و ٧٨) بسند ضعيف جداً.

(٣) أخرجه الدارمي (٣٣٤/٢ - ٣٣٥).

(٤) أخرجه البخاري (ح/٥٠٣٣)، ومسلم (ح/٧٩١).

(٥) أخرجه البخاري (ح/٥٠٣٢)، ومسلم (ح/٥٤٥).

وعن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت»^(١) متفق عليه.

وعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأوا القرآن ما اختلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه»^(٢) متفق عليه.

وعن قتادة قال: سئل أنس كيف كانت قراءة رسول الله ﷺ؟ فقال: كانت مداً مداً. ثم قرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿٣٠﴾ يمد بسم الله، ويمد بالرحمن، ويمد بالرحيم»^(٣). رواه البخاري.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن»^(٤) متفق عليه.

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت بالقرآن يجهر به»^(٥). متفق عليه.

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»^(٦) رواه البخاري.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «اقرأ عليّ». قلت: اقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال: إني أحب أن أسمعه من غيري. فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ

(١) أخرجه البخاري (ح/٥٠٣١)، ومسلم (ح/٧٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٥٠٦٠)، ومسلم (ح/٢٦٦٧).

(٣) أخرجه البخاري (ح/٥٠٤٦).

(٤) أخرجه البخاري (ح/٥٠٢٣ و ٥٠٢٤)، ومسلم (١/٥٤٥).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) أخرجه البخاري (ح/٧٥٢٧).

وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿١١﴾ ، قال: حسبك الآن. فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان»^(١) متفق عليه.

وعن أنس رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب: إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن. قال: الله سماني لك؟ قال: نعم. قال: وقد ذكرت عند رب العالمين؟ قال: نعم فذرفت عيناه»^(٢) وفي رواية: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لَتَرِيكُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ، قال: وسماني؟ قال: نعم. فبكي»^(٣). متفق عليه.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جلست في عصابة من ضعفاء المهاجرين، وإن بعضهم ليستتر ببعض من العرى، وقارئ يقرأ علينا إذ جاء رسول الله ﷺ، فقام علينا، فلما قام رسول الله ﷺ سكت القارئ، فسلم، ثم قال: «ما كنتم تصنعون؟» قلنا: كنا نستمع إلى كتاب الله. فقال: «الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم. قال: فجلس وسطنا ليعدل بنفسه فينا، ثم قال: بيده هكذا، فتحلقوا وبرزت وجوههم له، فقال: أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة، تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم، وذلك خمسمائة عام»^(٤). رواه أبو داود.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»^(٥) رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، والدارمي.

-
- (١) أخرجه البخاري (ح/٥٠٥٠)، ومسلم (ح/٨٠٠).
 (٢) أخرجه البخاري (ح/٤٩٦١)، ومسلم (٤/١٩١٥).
 (٣) أخرجه البخاري (ح/٤٩٥٩)، ومسلم (ح/٧٩٩).
 (٤) أخرجه أحمد (٣/٦٣ و ٩٦)، أبو داود (ح/٣٦٦٦)، وفي سننه العلاء بن بشير: مجهول، وله شاهد من حديث أبي هريرة عند الترمذي وابن ماجه.
 (٥) أخرجه أحمد (٤/٢٨٣ و ٢٨٥ و ٣٠٤)، وأبو داود (ح/١٤٦٨)، والنسائي (٢/١٧٩) وابن ماجه (ح/١٣٤٢)، والدارمي (٢/٣٤٠)، والحاكم (١/٥٧٥)، وهو حديث صحيح.

وعن سعد^(١) بن عباد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من امرئ يقرأ القرآن ثم ينساه إلا لقي الله يوم القيامة أجزم»^(٢) رواه أبو داود، والدارمي.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث»^(٣) رواه الترمذي، وأبو داود، والدارمي.

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة»^(٤) رواه الترمذي، وأبو داود، والنسائي، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وعن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما آمن بالقرآن من استحل محارمه»^(٥) رواه الترمذي، وقال: هذا حديث ليس إسناده بالقوي.

وعن الليث بن سعد عن ابن أبي مليكة عن يعلى بن مملك: «أنه سأل أم سلمة عن قراءة النبي ﷺ، فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً»^(٦) رواه الترمذي، وأبو داود، والنسائي.

وعن جابر رضي الله عنه قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقرأ القرآن،

(١) في (الأصل): «مسعود» وهو خطأ.

(٢) أخرجه أحمد (٢٨٤/٥)، أبو داود (ح/١٤٧٤)، والدارمي (٣١٥/٢) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه أحمد (٢/١٦٤ و ١٦٥ و ١٨٩ و ١٩٣ و ١٩٥)، وأبو داود (ح/١٣٩٠)، والترمذي (ح/٢٩٤٩)، وابن ماجه (ح/١٣٤٧)، والدارمي (٢٨٩/١) قال الترمذي: «حديث حسن صحيح»، وهو حديث صحيح.

(٤) أخرجه أحمد (٤/١٥١ و ١٥٨)، وأبو داود (ح/١٣٣٣)، والترمذي (ح/٢٩١٩)، والنسائي (٥/٨٠)، وهو حديث صحيح.

(٥) أخرجه الترمذي (ح/٢٩١٨)، وقد ضعفه كما ترى.

(٦) أخرجه أحمد (٦/٢٩٤ و ٣٠٠)، وأبو داود (ح/١٤٦٦)، والترمذي (ح/٢٩٢٣)، والنسائي (٢/١٨١).

وفينا الأعرابي والعجمي، فقال: اقرؤوا فكل حسن، وسيجيء أقوام يقيمونه كما يقام القدح يتعجلونه ولا يتأجلونه»^(١). رواه أبو داود، والبيهقي في شعب الإيمان.

يتعجلونه: أي يطلبون ثوابه في الدنيا، ولا يتأجلونه بطلب الأجر في الآخرة؛ بل يؤثرون العاجلة على الآجلة.

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل العشق، ولحون أهل الكتاب، وسيجيء بعدي قوم يرجعون بالقرآن ترجع الغناء والنوح، لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذي يعجبهم شأنهم»^(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان، ورزين في كتابه.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حسنوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً»^(٣) رواه الدارمي.

وعن طاووس مرسلًا قال: «سئل رسول الله ﷺ، أي الناس أحسن صوتاً للقرآن وأحسن قراءة؟ قال: من إذا سمعته يقرأ أنه يخشى الله»^(٤). قال طاووس: وكان طلق كذلك. رواه الدارمي.

(١) أخرجه أحمد (١٤٦/٣)، وأبو داود (ح/٨٣٠)، والبيهقي في «الشعب» (٢/٥٣٨) - (٥٣٩)، وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط كما في «مجمع البحرين» (٦/١٢٢)، والبيهقي في «الشعب» (٢/٥٤٠) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه الدارمي (٢/٣٤٠)، والحاكم (١/٥٧٥)، وهو حديث صحيح.

(٤) أخرجه الدارمي (٢/٣٣٨)، وبنحوه عن جابر أخرجه ابن ماجه (ح/١٣٣٩) بسند ضعيف.

وعن عبدة المليكى، وكانت له صحبة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يأهل القرآن لا تتوسدوا القرآن، واتلوه حق تلاوته، وأفسوه وتغنوه وتدبروا ما فيه لعلكم تفلحون، ولا تعجلوا ثوابه فإن له ثواباً»^(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان.

وعن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه»^(٢). متفق عليه^(٣).

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ قال له: يا أباي، أرسل إليّ أن أقرأ القرآن على حرف، فرددت إليه أن هوّن على أمي. فرد إليّ الثانية اقرأه على حرفين، فرددت إليه أن هوّن على أمي، فرد إليّ الثالثة اقرأه على سبعة أحرف، ولك بكل ردة رددتها مسألة تسألنيها، فقلت: اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إليّ الخلق كلهم حتى إبراهيم عليه السلام»^(٤) رواه مسلم.

وعنه قال: «لقي رسول الله ﷺ جبرائيل فقال: يا جبرائيل إني بعثت إلى أمة أميين، منهم العجوز، والشيخ الكبير، والغلام، والجارية، والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط. قال: يا محمد، إن القرآن أنزل على سبعة أحرف»^(٥) رواه الترمذي، وفي رواية لأحمد، وأبي داود «قال: ليس منها إلا شافٍ كافٍ»^(٦).

(١) أخرجه أبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (١/٢٦٠)، والبيهقي في «الشعب» (٢/٣٥٠ - ٣٥١) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري (٨/٦٤٠ ح/٤٩٩٢)، ومسلم (١/٥٦٠ ح/٨١٨).

(٣) في (الأصل): «من حديث»، بعد قوله: «متفق عليه»، وهي زيادة لا معنى فحذفتها.

(٤) أخرجه مسلم (ح/٨٢٠).

(٥) أخرجه أحمد (٥/١٣٢)، والترمذي (ح/٢٩٤٤)، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٦) أخرجه أحمد (٥/١٢٤)، وأبو داود (ح/١٤٧٧)، وهو حديث صحيح.

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه أنه مرّ على قاص يقرأ ثم يسأل، فاسترجع ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ القرآن فليسأل الله به، فإنه سيجيء أقوام يقرؤون القرآن يسألون به الناس»^(١) رواه أحمد والترمذي.

وعن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن يتأكل به الناس، جاء يوم القيامة ووجهه عظيم ليس عليه لحم»^(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله لديه طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»^(٣). رواه مسلم.

وما أحسن ما قاله الأمير محمد بن إسماعيل الصنعاني رحمه الله تعالى:

فللعمل الإخلاص شرط إذا أتى وقد وافقته سنة وكتاب
وقد صين عن كل ابتداع وكيف ذا وقد طبقت الآفاق منه عباب

(١) أخرجه أحمد (٤/٤٣٢ و ٤٣٣ و ٤٣٩)، والترمذي (ح/٢٩١٧)، وقال: «هذا حديث حسن ليس إسناده بذلك»، وللحديث شاهد من حديث أبي سعيد الخدري وجابر، وعبد الرحمن بن شبل الأنصاري رضي الله عنهم.

(٢) أخرجه ابن حبان في «المجروحين» (١/١٤٨)، والبيهقي في «الشعب» (٢/٥٣٢) - (٥٣٣)، قال ابن حبان: «لا أصل له من حديث رسول الله ﷺ...». اهـ.

(٣) أخرجه مسلم (ح/٢٦٩٩).

إلى أن قال :

سوى عزلة فيها الجليس كتاب
حواه من العلم الشريف صواب
ترى آدمًا إذ كان وهو تراب
يواريه لما أن أراه غراب
على الأرض من ماء السحاب عباب
وما قال كل منهم وأجابوا
وأكثرهم قد كذبوه وخابوا
وناد^(١) بها للمسرفين عذاب
لكل شقي قد حواه عقاب
فإن دموع العين عنه جواب
فللروح منه مطعم وشراب
تريد فما تدعو إليه تجاب
بها قطعت للملحدين رقاب
فوالله ما عنه ينوب كتاب
وليس عليه للذكي حجاب

فلم يبقى للراجي سلامة دينه
كتاب حوى كل العلوم وكل ما
فإن رمت تاريخاً رأيت عجائبها
ولاقيت هايلاً قتيل شقيقه
وتنظر نوحاً وهو في الفلك إذ طغى
وإن شئت كل الأنبياء وقومهم
ترى كل من تهوى من القوم مؤمن
وجنات عدن حورها ونعيمها
فتلك لأصحاب التقى ثم هذه
وإن ترد الوعظ الذي إن عقلته
تجده وما تهواه من كل مشرب
وإن رمت إبراز الأدلة في الذي
تدل على التوحيد فيه قواطع
وفيه الدوا من كل داء فثق به
وما مطلب إلا وفيه دليله

إلى أن قال :

تدر عليكم بالعلوم سحاب
ألوفاً تجد ما ضاق عنه حساب
يطيب بها نشر ويفتح باب
أصولاً إليها للذكي إياب

أطيلوا على السبع الطوال وقوفكم
وكم من ألوف في المئين فكن بها
وفي طي أثناء المثاني نفائس
وكم من فصول في الفصل قد حوت



(١) هكذا في (الأصل)، ولعل الصواب: «ونار» بالراء المهملة.

فصل

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف فافروا ولا حرج، ولكن لا تختموا ذكر رحمة بعذاب ولا ذكر عذاب برحمة»^(١)، وفي رواية: «أنزل القرآن على سبعة أحرف عليم، حكيم، غفور، رحيم»^(٢). رواه ابن جرير وغيره.

وعن الأعمش قال: قرأ أنس هذه الآية: ﴿إن ناشئة الليل هي أشد وطناً وأصوب قبلاً﴾، فقال له بعض القوم: يا أبا حمزة، إنما هي ﴿أقوم﴾ فقال: أقوم وأصوب واحد.

وعن ابن سيرين قال: «نبئت أن جبرائيل وميكائيل أتيا النبي ﷺ فقال له جبرائيل: اقرأ القرآن على حرفين. فقال: له ميكائيل استزده. فقال: اقرأ القرآن على ثلاثة أحرف. فقال له ميكائيل: استزده. قال: حتى بلغ سبعة أحرف». قال محمد: لا تختلف في حلال ولا حرام، هو كقولك: تعال، وهلم، وأقبل.

قال ابن جرير^(٣): (معنى قول النبي ﷺ: «نزل القرآن على سبعة أحرف» أي سبع لغات، كقول القائل: هلم، وأقبل، وتعال، وإليّ، وقصدي، ونحوي، وقربي، ونحو ذلك مما تختلف فيه الألفاظ، وتتفق فيه المعاني). انتهى ملخصاً.

وعن أبي قلابة قال: لما كان في خلافة عثمان جعل المعلم يعلم قراءة الرجل والمعلم يعلم قراءة الرجل، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين حتى كفر بعضهم بقراءة بعض، فبلغ ذلك عثمان فقام خطيباً، فقال: أنتم عندي تختلفون فيه وتلحنون، فمن نأى عني من أهل الأمصار أشد فيه اختلافاً وأشد لحناً، اجتمعوا يا أصحاب محمد فاكتبوا للناس إماماً. قال ابن

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٩/١).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١١/١ - ١٢).

(٣) المصدر السابق (٢٥/١).

جرير^(١): (فاستوثقت له الأمة بالطاعة فتركت القراءة بالأحرف الستة، فلا سبيل لأحد اليوم إلى القراءة بها لدثورها وتتابع المسلمين على رفض القراءة بها من غير جحود صحتها. فأما اختلاف القراءة في رفع حرف وجره ونصبه وتسكين حرف وتحريكه ونقل حرف إلى آخر مع اتفاق الصور فبمعزل من معنى قول النبي ﷺ: «أمرت أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف»). انتهى ملخصاً.

وقال بعض المفسرين: ذكر الحروف التي كتب بعضها على خلاف بعض في المصحف وهي في الأصل واحدة: فأول ﴿بسم الله﴾ كتب بحذف الألف التي قبل السين، وكتب ﴿اقرأ باسم ربك﴾، و ﴿سبح اسم ربك﴾، و ﴿بش الاسم الفسوق﴾ بالألف. والأصل في ذلك كله واحد، وهو أن يكتب الألف، وإنما حذفت من ﴿بسم الله﴾ فقط لأنها ألف وصل ساقطة من اللفظ كثيراً. قد كثر استعمال الناس إياها فأمنوا أن يجهل القارئ معناها. وكتب ﴿فيما﴾ موصولاً في كل القرآن إلا في البقرة ﴿في ما فعلن﴾، وفيها ﴿في ما فعلن في أنفسهن من معروف﴾، وفي الأنعام ﴿في ما أوحى إلي محرماً﴾، وفيها ﴿ليلوكم فيما آتاكم﴾، وفي الأنفال: ﴿في ما أخذتم﴾ وفي الأنعام ﴿في ما اشتهدت أنفسهم﴾، وفي النور ﴿في ما أفضتكم﴾، وفي الشعراء ﴿في ما ههنا﴾، وفي الروم ﴿في ما رزقناكم﴾، وفي الزمر ﴿في ما هم فيه﴾، وفيها ﴿في ما كانوا فيه يختلفون﴾، وفي الواقعة ﴿في ما لا تعلمون﴾، فذلكن اثنا عشر حرفاً وما سوى ذلك موصول).

إلى أن قال: (وكتب ﴿لكي لا﴾ مقطوعة في كل القرآن إلا ثلاثة مواضع: في الحج ﴿لكيلا يعلم﴾ وفي الأحزاب ﴿لكيلا يكون عليك حرج﴾، وفي الحديد ﴿لكيلا تأسوا﴾، وكتب في هود ﴿فإلم يستجيبوا لكم﴾، موصولاً مدغماً، وفي القصص ﴿فإن لم يستجيبوا لك﴾ مقطوعاً. وكتب ﴿كلما﴾ موصولاً. إلا خمسة مواضع، وكتبت ﴿الرحمة﴾ بالهاء، إلا سبعة مواضع، ﴿والنعمة﴾ بالهاء إلا أحد

(١) المصدر السابق (١/٢٨).

عشر موضعاً ﴿وامرأة﴾ بالهاء إلا سبعة مواضع. و ﴿سنه﴾ بالهاء، إلا خمسة مواضع، و ﴿معصية﴾ بالهاء إلا موضعين. وكتب ﴿الملائ﴾ بالألف إلا أربعة مواضع، فإنها كتبت بالواو. وكتب في الذاريات ﴿ساحر أو مجنون﴾ بالألف، وما سواه بغير ألف. وكتب جميع ما في القرآن من ذكر الأيدي بياء واحدة إلا في الذاريات ﴿والسماء بنيناها بأيدي﴾ فإنها كتبت ببياءين والأصل كتبه بياء واحدة، وكتب في حم السجدة ﴿سماوات﴾ بالألف وما سواه كتبت ﴿سموات﴾ بغير ألف وكتب ﴿ويمح الله الباطل﴾ بغير واو، ﴿ويمحوا الله ما يشاء﴾ بالواو والألف. وكتب ﴿الربوا﴾ بواو بعدها ألف في كل القرآن إلا قوله ﴿وما آتيتم من رباً﴾، فإنه بغير واو، وكتب ﴿إن امرؤا هلك﴾ و ﴿يتفيؤا ظلاله﴾ و ﴿تفتؤا تذكر﴾ و ﴿ويدرؤا عنها﴾ وما أشبهها بواو وألف، ولو كتب بالواو وحدها أو بالألف وحدها لجاز).

إلى أن قال: (وإنما كتبت هذه الحروف بعضها على خلاف بعض، وفي الأصل واحدة؛ لأن الكتابة بالوجهين كانت جائزة عندهم، فكتبوا بعضها على وجه، وبعضها على وجه آخر جمعاً بين المذهبين، على أنهم كتبوا أكثرها على الأصل، وكل ما كتب في المصحف على أصل لا يقاس عليه غيره من الكلام؛ لأن القرآن يلزمه لكثرة الاستعمال ما لا يلزم غيره، واتباع المصحف في هجائه واجب.

وقال جماعة من الأئمة: إن الواجب على القراء، والعلماء، وأهل الكتاب أن يتبعوا هذا الرسم في خط المصحف، فإنه رسم زيد بن ثابت، وكان أمين رسول الله ﷺ، وكتب وحيه، وعلم من هذا العلم بدعوة النبي ﷺ ما لم يعلم غيره، فما كتب شيئاً من ذلك إلا لعله لطيفة وحكمة بليغة، وإن قصر عنه رأينا، ألا ترى أنه لو كتب على ﴿صلوتهم﴾ و﴿أن صلوتك﴾ بالألف بعد الواو، وبالألف من غير واو لما دل ذلك إلا على وجه واحد، وقراءة واحدة، والله تعالى أعلم). انتهى ملخصاً.

وقال بعض العلماء:

والخط فيه معجز للناس وحائد عن مقتضى القياس

لا تهتدي لسره الفحول ولا تحوم حوله العقول
 قد خصه الله بتلك المنزلة دون جميع الكتب المنزلة
 ليظهر الإعجاز في المرسوم منه كما في لفظه المنظوم

اللهم لك الحمد على ما أنعمت به علينا من نعمك العظيمة، وآلائك
 الجسيمة، حيث أنزلت علينا خير كتبك، وأرسلت إلينا أفضل رسلك، وشرعت لنا
 أفضل شرائع دينك، وجعلتنا من خير أمة أخرجت للناس، وهديتنا لمعالم دينك
 الذي ارتضيته لنفسك، وبنيت على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً
 رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام،
 ولك الحمد على ما يسرته من تفسير كتابك العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه
 ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد،
 كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد
 وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد،
 اللهم إنا عبيدك، بنو عبيدك، بنو إمامك، نواصينا بيدك، ماض فينا حكمك، عدل
 فينا قضاؤك، نسألك اللهم بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في
 كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل
 القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا، وشفاء صدورنا، وجلاء أحزاننا،
 وذهاب همومنا وغمومنا، اللهم ذكرنا منه ما نسينا، وعلمنا منه ما جهلنا، وارزقنا
 تلاوته آناء الليل والنهار على الوجه الذي يرضيك عنا، اللهم اجعلنا ممن يحل
 حلاله، ويحرم حرامه، ويعمل بمحكمه، ويؤمن بمتشابهه، ويتلوه حق تلاوته،
 اللهم اجعلنا ممن يقيم حدوده، ولا تجعلنا ممن يقيم حروفه، ويضيع حدوده،
 اللهم اجعلنا ممن اتبع القرآن فقادته إلى رضوانك والجنة، ولا تجعلنا ممن اتبعه
 القرآن فزخ في قفاه إلى النار، واجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك
 يا رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقد فصلته ثلاثمائة وثلاثة عشر درساً، والله موفق، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الدرس الأول

﴿سورة الفاتحة﴾

مكية، وهي سبع آيات

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم،

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ مَلِكِ يَوْمِ
الْذِينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ
وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾

* * *

سورة الفاتحة لها ثلاثة أسماء: فاتحة الكتاب، وأم القرآن، والسبع المثاني.

وروى البخاري وغيره عن سعيد بن المعلى رضي الله عنه، قال: «كنت أصلي فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجه حتى صليت، قال: فأتيته، فقال: ما منعك أن تأتيني؟ قال: قلت: يا رسول الله إني كنت أصلي، قال: ألم يقل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾؟ ثم قال: لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد. قال: فأخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت: يا رسول الله إنك قلت: لأعلمنك أعظم سورة في القرآن، قال: «نعم، الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج - ثلاثاً - غير تمام». فقيل لأبي هريرة: إنا نكون خلف الإمام؟ فقال: اقرأ بها في نفسك، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ؛ فَإِذَا قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال الله: حمدني عبدي. وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، قال الله: أثنى عليَّ عبدي؛ فإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ قال الله: مجَّدني عبدي - وقال مرة: فَوَضَّ إِلَيَّ عَبْدِي - فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٤٧٤).

ولا الضالين»، قال الله: «هذا لعبدي ولعبيد ما سألت»^(١) رواه مسلم وغيره.

قوله عز وجل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

روى أبو داود وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه: «بسم الله الرحمن الرحيم»^(٢).

وروى ابن جرير^(٣) وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: إن أول ما نزل به جبريل على محمد ﷺ قال: يا محمد قل: أستعيذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قال: قل بسم الله الرحمن الرحيم، قال: قال له جبريل: «بسم الله يا محمد، يقول: اقرأ بذكر الله ربك، وقم واقعد بذكر الله تعالى».

واختلف العلماء في مشروعية قراءة البسملة في الصلاة.

فقال بعضهم: لا يقرأ بها سرا ولا جهراً.

وقال بعضهم: يقرأ بها جهراً في الجهرية، وسراً في السرية.

وقال بعضهم: يقرأ بها سرا في الجهرية. هذا القول هو الراجح وعليه تدل الأحاديث الصحيحة؛ ويشرع الجهر بها في بعض الأحيان، وتستحب البسملة في ابتداء كل عمل، تبركاً باسم الله تعالى واستعانة به، وفي الحديث: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أجذم»^(٤)، قال ابن عباس: الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين.

(١) أخرجه مسلم (ح/٣٩٥).

(٢) أخرجه أبو داود (ح/٧٨٨)، وهو صحيح.

(٣) انظر «جامع البيان» (١/٥٢). وسنده ضعيف.

(٤) أخرجه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (٢/٦٩)، والسبكي «في طبقات الشافعية الكبرى» (١/٦). بسند ضعيف جداً، وفيه: «أقطع بدل أجذم».

قوله عز وجل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قال ابن جرير^(١) رحمه الله تعالى: (الحمد لله ثناء أثنى به على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه). انتهى، قال أبو نصر الجوهري: (والحمد أعم من الشكر، وأما المدح فهو أعم من الحمد، وقال ابن عباس: الحمد لله كلمة الشكر، وإذا قال العبد: الحمد لله، قال: شكرني عبي).

قال البغوي^(٢) رحمه الله تعالى: (والحمد يكون بمعنى الشكر على النعمة، ويكون بمعنى الثناء عليه بما فيه من الخصال الحميدة، والشكر لا يكون إلا على النعمة).

وقوله تعالى ﴿الله﴾، اللام للاستحقاق، والألف واللام في الحمد لاستغراق جميع أجناس الحمد وأنواعه لله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿رب العالمين﴾، الرب: هو المالك المتصرف، والعالمين: جمع عالم بفتح اللام، وهو كل موجود سوى الله عز وجل؛ والعوالم أصناف المخلوقات، وعن ابن عباس: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ الحمد لله الذي له الخلق كله، السموات والأرض وما فيهن وما بينهن، مما نعلم ومما لا نعلم. وعن سعيد بن المسيب قال: لله ألف عالم: ستمائة في البحر، وأربعمائة في البر. وقال كعب الأحبار: لا يحصي عدد العالمين أحد إلا الله، قال الله تعالى: ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾^(٣)، وقال الزجاج: العالم كل ما خلق الله في الدنيا والآخرة.

قال القرطبي: والعالم مشتق من العلامة.

قال ابن كثير^(٤): لأنه علم دال على وجود خالقه وصانعه ووحدانيته، كما

قال ابن المعتز:

(١) انظر «جامع البيان» (١/٦٠ - ٦١).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (١/١٣).

(٣) سورة المدثر: الآية ٧.

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٢٢).

فيا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

تنبيه: المعروف عند بعض القراء أنه لا يقف على ﴿العالمين﴾، ولا على ﴿الرحيم﴾، لاتصال الصفة بالموصوف، ولا مانع من ذلك لأن المعنى ظاهر، والأصل هو الوقوف على رؤوس الآي، ويشهد لذلك ما رواه الترمذي عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته يقول: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾، ثم يقف، ثم يقول: ﴿الرحمن الرحيم﴾، ثم يقف»^(١)، فالفصل والوصل جائزان: ويحسن الفصل مع الترتيل والوصل مع الهذ وفي الحديث: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ واصعد في درج الجنة، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»^(٢)، فهو في صعود ما دام يقرأ، هذاً كان أو ترتيلاً.

قوله عز وجل: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمِ﴾.

قال ابن كثير^(٣): اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيم، وفي الأثر عن عيسى عليه السلام أنه قال: «الرحمن رحمن الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة»، وقال ابن عباس: «هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر».

وقال ابن جرير^(٤): (حدثنا السري بن يحيى التميمي، حدثنا عثمان بن زفر،

(١) أخرجه الترمذي (ح/٢٩٢٧) وقال: «حديث غريب»، وأبو داود (٤/٤٠٠١).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٢٠ و ٢٣).

(٤) انظر «جامع البيان» (١/٥٥).

سمعت العزرمي^(١) يقول: ﴿الرحمن الرحيم﴾، قال: الرحمن لجميع الخلق، الرحيم، قال: بالمؤمنين.

قال القرطبي^(٢): إنما وصف نفسه بالرحمن الرحيم بعد قوله ﴿العالمين﴾، ليكون من باب قرب الترغيب بعد الترهيب، كما قال تعالى: ﴿نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم﴾^(٣).

قوله عز وجل: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

قال ابن كثير^(٤): وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه، لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين، وذلك عام في الدنيا والآخرة؛ وإنما أضيف إلى يوم الدين، لأنه لا يدعى أحد هنالك شيئاً، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه، كما قال تعالى: ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً﴾^(٥)، وقال تعالى: ﴿وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً﴾^(٦)، وقال تعالى: ﴿يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه، فمنهم شقي وسعيد﴾^(٧)، وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿مالك يوم الدين﴾، يقول: لا يملك أحد معه في ذلك اليوم حكماً كملكهم في الدنيا، قال: و﴿يوم الدين﴾، يوم الحساب للخلائق، وهو يوم القيامة، يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، إلا من عفا عنه.

(١) في (الأصل): «العزري» وهو خطأ.

(٢) انظر «الجامع لأحكام القرآن» له (١/١٣٩).

(٣) سورة الحجر: الآيتان ٤٩ و ٥٠.

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٢٤).

(٥) سورة النبأ: الآية ٣٨.

(٦) سورة طه: الآية ١٠٨.

(٧) سورة هود: الآية ١٠٥.

قوله عز وجل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

أي: لا نعبد إلا إياك، ولا نتوكل إلا عليك، قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، فالأول: تبرؤ من الشرك، والثاني: تبرؤ من الحول والقوة، وتفويض إلى الله عز وجل، وهذا كثير في القرآن، قال تعالى: ﴿فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿هو الرحمن آمننا به وعليه توكلنا﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً﴾^(٣)، قال ابن عباس: ﴿إياك نعبد﴾، يعني إياك نوحد ونخاف، ونرجوك ياربنا لا غيرك. ﴿وإياك نستعين﴾، على طاعتك وعلى أمورنا كلها. قال البغوي^(٤): «والعبادة الطاعة مع التذلل والخضوع، وسمي العبد عبداً لذلته وانقياده».

قوله عز وجل: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

قال ابن كثير^(٥): لَمَّا تقدم الثناء على المسؤول، تبارك وتعالى، ناسب أن يعقب بالسؤال كما قال: «فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل»، وهذا أكمل أحوال السؤال، أن يمدح مسؤوله، ثم يسأل حاجته وحاجة إخوانه المؤمنين، والهداية هاهنا: الإرشاد والتوفيق.

وقال البغوي^(٦): وهذا الدعاء من المؤمنين، مع كونهم على الهداية، بمعنى التثبيت، وبمعنى طلب مزيد الهداية، لأن الألفاظ والهدايات من الله لا تتناهى.

(١) سورة هود: الآية ١٢٣.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣.

(٣) سورة المزمل: الآية ٩.

(٤) انظر «معالم التنزيل» (١/١٤).

(٥) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٢٦ و ٢٧).

(٦) انظر «معالم التنزيل» (١/١٤).

وقال ابن جرير^(١): أجمعت الأمة من أهل التأويل، على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح، الذي لا اعوجاج فيه، وقال مجاهد: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾، قال: الحق.

وروى الإمام أحمد وغيره عن النواس بن سمعان، عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جانبي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا؛ وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن فتحتة تلجه. فالصراط: الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم»^(٢).

قوله عز وجل: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: مننت عليهم بالهداية والتوفيق للإيمان، والاستقامة عليه من النبيين والمؤمنين، قال الضحاك عن ابن عباس: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾، بطاعتك، وعبادتك من ملائكتك وأنبيائك، والصديقين، والشهداء، والصالحين؛ وذلك نظير ما قال ربنا تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾^(٣).

(١) انظر «جامع البيان» (٧٣/١).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٢/٤)، والترمذي (ح/٢٨٥١)، وابن جرير (٥٨/١)، والحاكم

(٧٣/١) وصححه ووافقه الذهبي؛ وهو كما قال.

(٣) سورة النساء: الآية ٦٩.

قوله عز وجل: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ﴿٧﴾ .

قال ابن كثير^(١): «والمعنى اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم ممن تقدم وصفهم ونعمتهم، وهم أهل الهداية والاستقامة، والطاعة لله ورسوله، وامثال أوامره، وترك نواهيه وزواجره؛ غير صراط المغضوب عليهم، وهم الذين فسدت إرادتهم، فعلموا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين، وهم الذين فقدوا العلم، فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق» انتهى.

وروى الإمام أحمد وغيره عن عدي بن حاتم قال: جاءت خيل رسول الله ﷺ، فأخذوا عمتي وناساً، فلما أتوا بهم إلى رسول الله ﷺ صفوا له، فقالت: يا رسول الله نأى الوافد، وانقطع الوالد، وأنا عجوز كبيرة ما بي من خدمة، فَمَنَّ عليَّ مَنْ الله عليك، قال: «من وافدك؟» قالت: عدي بن حاتم، قال: «الذي فرّ من الله ورسوله؟» قالت: فَمَنَّ عليَّ: فلما رجع ورجل إلى جنبه ترى أنه عليّ، قال: سليه حملاناً، فسألته فأمر له، قال: فأتيتي فقالت: إنك فعلت فعلة ما كان أبوك يفعلها، فإنه قد أتاه فلان فأصاب منه، وأتاه فلان فأصاب منه، فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان — وذكر قريبهم من النبي ﷺ — قال: فعرفت إنه ليس بملك كسرى ولا قيصر، فقال: «يا عدي ما أفرّك؟ أن يقال لا إله إلا الله؟ فهل من إله إلا الله؟ ما أفرّك؟ أن يقال الله أكبر؟ فهل شيء أكبر من الله عز وجل؟» قال: فأسلمت، فرأيت وجهه استبشر، وقال: «إن المغضوب عليهم اليهود، وإن الضالين النصارى»^(٢)، وذكر الحديث.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٩/١).

(٢) أخرجه أحمد (٣٧٨/٤)، والترمذي (١٨٧، ٢٩٥٣)، وابن جرير (٧٩/١) مختصراً، قال

الترمذي: «حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث سماك بن حرب».

قال ابن كثير^(١): «مسألة، والصحيح من مذاهب العلماء، أنه يعتذر الإخلال بتحرير ما بين الضاد والطاء لقرب مخرجيهما لمن لا يميز ذلك؛ وأما حديث: «أنا أفصح من نطق بالضاد» فلا أصل له، والله أعلم» انتهى ملخصاً، قال ابن مفلح في الفروع^(٢): «وإن قرأ: غير المغضوب عليهم ولا الضالين بظاء، فالوجه الثالث يصح مع الجهل». قال في تصحيح الفروع: أحدها لا تبطل الصلاة، اختاره القاضي والشيخ تقي الدين، وقدمه في المغني والشرح وهو الصواب». انتهى؛ يعني: تصح الصلاة ولو كان يميز الضاد والطاء، والأحوط للإمام القراءة بالضاد إذا كان يميز ذلك.

وقال ابن كثير^(٣): «اشتملت هذه السورة الكريمة وهي سبع آيات على حمد الله، وتمجيده، والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنی المستلزمة لصفاته العليا، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين، وعلى إرشاده عبده إلى سؤاله والتضرع إليه، والتبرؤ من حولهم وقوتهم، وإلى إخلاص العبادة له، وتوحيده بالألوهية تبارك وتعالى، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم وهو الدين القويم، وتثبيتهم عليه حتى يقضى^(٤) لهم بذلك إلى جواز الصراط الحسي يوم القيامة، المفضي بهم إلى جنات النعيم في جوار النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتحذير من مسالك الباطل لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم والضالون». انتهى.

(١) المصدر السابق (٣٠/١).

(٢) (٤٩١/١).

(٣) المصدر السابق (٣٠/١).

(٤) هكذا في (الأصل)، وتفسير ابن كثير، ولعل الصواب: «يفضي بهم ذلك» بدليل قوله:

«المفضي بهم إلى...».

ويستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها: «آمين» في الصلاة وغيرها. ومعناها: اللهم استجب لنا. لما رواه الإمام أحمد وغيره عن وائل بن حجر رضي الله عنه قال: «سمعت النبي ﷺ قرأ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فقال: آمين، مد بها صوته». ولأبي داود: «رفع بها صوته»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا تلا: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، قال: «آمين؛ حتى يسمع من يليه من الصف الأول». رواه أبو داود وابن ماجه وزاد فيه: «فيرتج بها المسجد»^(٢).

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه»^(٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على قول: آمين، فأكثروا من قول: آمين»^(٤). رواه ابن ماجه.

وعنه قال: «بينما رسول الله ﷺ وعنده جبرائيل، إذ سمع نقيقاً فوقه، فرجع جبريل بصره إلى السماء فقال: هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط، قال: فنزل منه ملك، فأتى النبي ﷺ فقال: ابشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ حرفاً منها إلا أوتيته»^(٥). رواه مسلم والنسائي وهذا لفظه.

(١) أخرجه أحمد (٣١٨/٤)، وأبو داود (٩٣٢/ح)، والترمذي (ح/٢٤٨)، وابن ماجه (ح/٨٥٥) وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود (ح/٩٣٤)، وابن ماجه (ح/٨٥٣). بسند ضعيف.

(٣) أخرجه البخاري (ح/٧٨٠)، ومسلم (ح/٤١٠).

(٤) أخرجه ابن ماجه (ح/٨٥٧)، وابن خزيمة (ح/٥٧٤)، وهو صحيح.

(٥) أخرجه مسلم (ح/٨٠٦).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كنا في مسير لنا فنزلنا فجاءت جارية فقالت: إن سيد الحي سليم، وإن نَفَرْنَا غُيِّبٌ، فهل منكم راقٍ؟ فقام معها رجل ما كنا نأبئه برقية، فرقاه فبريء فأمر له بثلاثين شاة، وسقانا لبناً، فلما رجع قلنا له أكنت تحسن رقية، أو كنت ترقي؟ قال: لا، ما رقيت إلا بأَمِ الكتاب، قلنا: لا تحدثوا شيئاً حتى نأتي ونسأل رسول الله ﷺ، فلما قدمنا المدينة، ذكرناه للنبي ﷺ فقال: «وما كان يدريه أنها رقية؟ اقسموا واضربوا لي بسهم»^(١). رواه البخاري ومسلم، والله أعلم.



(١) أخرجه البخاري (ح/٥٠٠٧)، ومسلم (٤/١٧٢٧ و ١٧٢٨).

الدرس الثاني

﴿سورة البقرة﴾

مدنية، وهي مائتان وثمانون وست أو سبع آيات

عن معقل بن يسار رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «البقرة سنام القرآن وذروته، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً، واستخرجت الله لا إله إلا هو الحي القيوم من تحت العرش، فوصلت بها، أو فوصلت بسورة البقرة. ويس قلب القرآن، لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له، وقرؤها على موتاكم»^(١). رواه أحمد.

وروى مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، فإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان»^(٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة، لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة؛ أربع من أولها، وآية الكرسي، وآيتان بعدها، وثلاث آيات من آخرها». وفي رواية: «لم يقربه ولا أهله يومئذ

(١) أحمد (٢٦/٥)، وسنده ضعيف، ولكن صح الحديث بلفظ: «إن لكل شيء سناماً، وسنام القرآن سورة البقرة، وإن الشيطان إذا سمع سورة البقرة تقرأ خرج من البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة»، أخرجه الحاكم (٥٦١/١) من حديث ابن مسعود، وموقوفاً عنه أيضاً.

(٢) أخرجه مسلم (ح/٧٨٠).

شيطان، ولا شيء يكرهه، ولا يقرآن على مجنون إلا أفاق»^(١). رواه الدارمي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بعث رسول الله ﷺ بعثاً، وهم ذوو عدد، فاستقرأهم فاستقرأ كل واحد منهم ما معه من القرآن، فأتى على رجل من أحدثهم سناً، فقال: «ما معك يا فلان؟» فقال: معي كذا وكذا وسورة البقرة فقال: «أمعك سورة البقرة؟» قال: نعم، قال: «اذهب فأنت أميرهم». فقال رجل من أشرفهم: والله ما منعني أن أتعلم سورة البقرة، إلا أنني خشيت ألا أقوم بها. فقال رسول الله ﷺ: «تعلموا القرآن واقراءوه، فإن مثل القرآن لمن تعلمه، فقرأ وقام به، كمثّل جراب محشو مسكاً، يفوح ريحه في كل مكان ومثل من تعلمه فيرقد وهو في جوفه، كمثّل جراب أوكى على مسك»^(٢). رواه الترمذي وغيره.

قال البخاري: وقال الليث: حدثني يزيد بن الهاد عن محمد بن إبراهيم عن أسيد بن حضير رضي الله عنه قال: «بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده، إذ جالت الفرس فسكت، فسكنت. فقرأ فجالت الفرس، فسكت فسكنت. ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف. وكان ابنه يحيى قريباً منها، فأشفق أن تصيبه، فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال: اقرأ أيا ابن حضير. قال: قد أشفقت يا رسول الله على يحيى، وكان منها قريباً، فرفعت رأسي وانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء، فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها. قال: وتدرى ما ذاك؟ قال: لا. قال: تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم». ولمسلم: «عرجت في الجو»^(٣).

(١) أخرجه الدارمي (٣٢٢/٢).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٥٠١٨/٤) معلقاً مجزوماً به، ومسلم (ح/٧٩٦).

وذكر الحافظ ابن حجر^(١) أن في الحديث اختصاراً، أصله كما رواه أبو عبيد: «رفع رأسه إلى السماء، فإذا هو بمثل الظلة، فيها أمثال المصابيح عرجت إلى السماء حتى ما يراها».

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ فسمعتة يقول: «تعلموا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة». قال: ثم سكت ساعة ثم قال: «تعلموا سورة البقرة وآل عمران، فإنهما الزهراوان، يظلان صاحبهما يوم القيامة، كأنهما غمامتان أو غيابتان، أو فرقان من طير صواف، وإن القرآن يلقي صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك. فيقول: أنا صاحبك القرآن، الذي أظمأتك في الهواجر وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة. فيعطي الملك يمينه، والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والداه حلتان لا يقوم لهما أهل الدنيا، فيقولان: بم كُسينا هذا؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن. ثم يقال: «اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها، فهو في صعود ما دام يقرأ، هذا كان أو ترتيلاً»^(٢). رواه الإمام أحمد.

قال ابن العربي في «أحكام القرآن»^(٣): «اعلموا وفقكم الله أن علماءنا قالوا: إن هذه السورة من أعظم سور القرآن. سمعت بعض أشياخي يقول: فيها ألف أمر، وألف نهي، وألف حكم، وألف خبر ولعظيم فقهها أقام عبد الله بن عمر ثمان سنين في تعلمها».

(١) انظر «فتح الباري» (٦٨٢/٨).

(٢) أخرجه أحمد (٣٤٨/٥)، والدارمي (٣٢٤/٢)، بسند ضعيف، وبعض ألفاظ هذا الحديث عند مسلم.

(٣) انظر (١٥/١).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿المر ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمَنْ أَنْتَابَ مِنَ الْقَوْمِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَاطِئِنِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتِ بِمِحْرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِينَ اسْتَوْفَدُوا نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُمْ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ضُمُّ بَعْضِكُمْ عَلَى فِتْنَةٍ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي ءَادَانِهِمْ مِنَ الصَّوْعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿الْم ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ
هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ .

قال الشعبي وغيره: ﴿الم﴾. وسائر حروف الهجاء في أوائل القرآن، من
المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، وهي سر القرآن، فنحن نؤمن بظاهرها ونكل
العلم فيها إلى الله تعالى. قال أبو بكر الصديق: في كل كتاب سر، وسر الله في
القرآن وأوائل السور. وعن ابن عباس أنه قال: معنى ﴿الم﴾ أنا الله أعلم،
ومعنى ﴿المص﴾ أنا الله أعلم وأفضل. ومعنى ﴿الر﴾ أنا الله أرى. ومعنى
﴿الم﴾ أنا الله أعلم وأرى. وقال مجاهد: هذه الحروف أسماء السور.
وقال آخرون: إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور، بيانا لإعجاز القرآن،
وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله؛ وإليه ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية.

قال الزمخشري: «ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن، وإنما كررت
ليكون أبلغ في التحدي والتبكيث، كما كررت قصص كثيرة، وكرر التحدي
بالصريح في أماكن». انتهى والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾، يقول تعالى: هذا
الكتاب وهو القرآن، لا شك فيه أنه من عند الله تعالى، وأنه الحق والصدق، كما
قال تعالى: ﴿الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾^(١).

(١) سورة السجدة: الآيتان ١ و ٢.

وقوله تعالى: ﴿وهدى للمتقين﴾، أي: رشد وبيان لأهل التقوى خاصة، كما قال تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمي أولئك ينادون من مكان بعيد﴾^(١). وقال تعالى: ﴿ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾^(٢). قال ابن عباس: التقى من يتقى الشرك والكبائر والفواحش. وأنشد أبو الدرداء:

يريد المرء أن يؤتى مناه ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء: فائدتي ومالي وتقوى الله أفضل ما استفادا

والتقوى: هي طاعة الله بامثال أمره واجتناب نهيه.

وقوله تعالى: ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾، أي: الذين يصدقون بما غاب عنهم، مما أخبر الله به من أمور الآخرة والقدر وغير ذلك. قال أبو العالية: يؤمنون بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وجنته وناره، ولقائه، ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث، فهذا غيبٌ كله. وعن أبي جمعة رضي الله عنه قال: /تغدينا مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح فقال: يا رسول الله هل أحد خير منا؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك قال: نعم قومٌ من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني^(٣).

(١) سورة فصلت: الآية ٤٤.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٢.

(٣) أخرجه أحمد (١٠٦/٤)، والطبراني (٢٢/٤ - ٢٣)، وأبو يعلى (٢٢٢/٢)، والحاكم

(٨٥/٤)، وصححه ووافقه الذهبي - هو كما قال.

وقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، أي: يديمونها ويحافظون عليها في مواقيتها، بحدودها وأركانها وهيأتها، والمراد بها الصلوات الخمس. قال ابن عباس: إقامة الصلاة إتمام الركوع والسجود، والتلاوة والخشوع والإقبال عليه فيها.

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، أي: في جميع ما يلزمهم من الزكاة وغيرها. قال قتادة: هذه الأموال عَوَارٍ وودائع عندك يا ابن آدم، يوشك أن تفارقها.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ قال ابن عباس: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾، أي: يصدقون بما جئت به من الله، وما جاء به من قبلك من المرسلين، لا يفرقون بينهم ولا يجحدون ما جاء وهم به من ربهم ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، أي: بالبعث والقيامة، والجنة والنار، والحساب والميزان. قال البغوي: قوله: ﴿وَبِالْآخِرَةِ﴾، أي: بالدار الآخرة. سميت الدنيا دنيا لدنوّها من الآخرة، وسميت الآخرة آخرة لتأخرها وكونها بعد الدنيا ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾، أي: يستيقنون أنها كائنة.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. يقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾، أي: المتصفون بالإيمان وإقام الصلاة والإنفاق مما أعطاهم الله ﴿عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾، أي: على نور وبيان وبصيرة ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، أي: الناجون الفائزون، فازوا بالجنة ونجوا من النار.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ

لُنذِرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ .

يقول تعالى: إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، سواء عليهم إنذارك وعدمه، فإنهم لا يؤمنون بما جثتهم به، كما قال تعالى: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾^(١). قال البغوي^(٢): «والكفر على أربعة أنحاء: كفر إنكار، وكفر جحود، وكفر عناد، وكفر نفاق».

وقوله تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾، أي: طبع الله على قلوبهم، فلا تعي خيراً ولا تفهمه، وعلى سمعهم فلا يسمعون الحق ولا ينتفعون به، كما قال تعالى: ﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون. ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾. يقول تعالى: وعلى أبصارهم غطاء، فلا يرون الحق، ولهم عذاب عظيم في الآخرة، فالختم على القلب والسمع، والغشاوة على البصر، كما قال تعالى: ﴿أفأريت من اتخذ إلهه هواه وأضلله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان

(١) سورة يونس: الآية ٩٦.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٢١/١).

(٣) سورة الأنفال: الآيتان ٢٢ و ٢٣.

(٤) سورة الجاثية: الآية ٢٣.

لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴿١﴾، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستعتب صقل قلبه، وإن زادت زاد حتى تعلق قلبه، فذلك الران الذي قال الله تعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ (٢)». رواه ابن جرير وغيره. وقال الترمذي: «حسن صحيح». قال مجاهد: الران أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الإقفال، والإقفال أشد من ذلك كله.

قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾

هذه الآيات نزلت في المنافقين: عبد الله بن أبي وأصحابه وغيرهم ممن أظهر كلمة الإسلام واعتقد خلافها. قال ابن كثير^(٣): النفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو أنواع: اعتقادي وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وعملي

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

(٢) سورة المطففين: الآية ١٤، والحديث أخرجه أحمد (٢/٢٩٧)، والترمذي (ح/٣٣٣٤)، والنسائي في «اليوم والليلة» (ح/٤١٨)، وابن ماجه (ح/٢٤٢٤)، وابن جرير (١/٨٧) و (٣٠/٦٢)، والحاكم (٢/٥١٧)، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، قلت: وفي سنده محمد بن عجلان وهو صدوق، اختلطت عليه أحاديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٤٧).

وهو من أكبر الذنوب. قال ابن جريج: المنافق يخالف قوله فعله، وسره علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مغيبه.

وقوله تعالى: ﴿وما هم بمؤمنين﴾ كذبهم الله تعالى في قولهم: آمنا بالله وباليوم الآخر، لأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد أن المنافقين لكاذبون اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾، يقول تعالى: يخادعون الله والذين آمنوا بإظهارهم الإيمان وإبطانهم الكفر، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كنعفهم عند بعض المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وما يخدعون إلا أنفسهم﴾، أي: لأن وبال خداعهم راجع عليهم، بفضيحتهم في الدنيا وعقابهم في الآخرة. ﴿وما يشعرون﴾، أي: لا يدرون أنهم يخدعون أنفسهم، وإن وبال خداعهم يعود عليهم.

وقوله تعالى: ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾، يقول تعالى: ﴿في قلوبهم مرض﴾، أي: شك ونفاق. ﴿فزادهم الله مرضاً﴾، أي: شكاً ونفاقاً، كما قال تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أياكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وأما الذين في قلوبهم مرض

(١) سورة المنافقون: الآيات ١ - ٣.

(٢) سورة المجادلة: الآية ٦.

فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴿١١﴾.

وقوله تعالى: ﴿ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾، أي: ولهم عذاب مؤلم، موجه، يخلص حده إلى قلوبهم. ﴿بما كانوا يكذبون﴾، أي: بكذبهم في دعواهم الإيمان بالله وباليوم الآخر.

وقوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾، يقول تعالى: وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض بالكفر وتعويق الناس عن الإيمان. ﴿قالوا إنما نحن مصلحون﴾، أي: إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب. ﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ بكونه فساداً. قال أبو العالية: وكان فسادهم ذلك معصية الله، لأنه من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصيته فقد أفسد في الأرض، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٧﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت بِحَدِيثِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٩﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وإذا قيل﴾ للمنافقين: آمنوا بمحمد ﷺ وبما جاء به كما آمن الناس، قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء؟ يعنون أصحاب محمد ﷺ. ﴿ألا إنهم هم السفهاء﴾ الجهال في الدين الضعفاء الرأي. ﴿ولكن لا يعلمون﴾ ذلك.

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٤ و ١٢٥.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾. يقول تعالى: وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا: آمنا كإيمانكم مصانعة وتقية، وإذا خلوا انصرفوا ﴿إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ رؤسائهم، قالوا: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: على دينكم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ بمحمد وأصحابه نلعب بهم.

قوله تعالى: ﴿يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدَهُم فِي طغيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾. قال: يسخر بهم للنتمة منهم. وقوله تعالى: ﴿وَيَمْدَهُم فِي طغيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، أي: يملئ لهم في ضلالتهم يترددون متحيرين.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبحت تجارتهُم وما كانوا مهتدين﴾. قال ابن عباس: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ أخذوا الضلالة وتركوا الهدى. وقوله تعالى: ﴿فَمَا رَبحت تجارتهُم﴾ أي: ما ربحوا في تجارتهُم لأنهم استبدلوا الكفر بالإيمان. ﴿وما كانوا مهتدين﴾. قال قتادة: قد والله رأيتموهم، من خرجوا من الهدى إلى الضلال، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السنة إلى البدعة.

قوله عز وجل: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ضُمُّ بِكُمْ عُمَىٰ فَهَمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيهِ إِذَا يُرِيبُهُمْ مِّنَ السَّوْءِ حَدَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَنْصَرَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

قال ابن عباس: نزلت في المنافقين؛ يقول: مثلهم في نفاقهم كمثل رجل أوقد ناراً في ليلة مظلمة في مفازة، فاستدفاً ورأى ما حوله، فاتقى مما يخاف، فبينما هو كذلك إذ طفت نار، فبقي في ظلمة خائفاً متحيراً، فكذلك المنافقون بإظهار كلمة الإيمان آمنوا على أموالهم وأولادهم، وناكحوا المؤمنين، ووارثوهم وقاسموهم الغنائم، فذلك نورهم، فإذا ماتوا عادوا إلى الظلمة والخوف.

وقوله تعالى: ﴿صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾، أي: هم صم عن الحق لا يقبلونه، بكم خرس عن الحق لا يقولونه، عمي لا بصائر لهم، فهم لا يرجعون عن الضلالة إلى الحق.

وقوله تعالى: ﴿أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير﴾ هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لصف آخر من المنافقين، وهم قوم يظهر لهم الحق تارة ويشكون أخرى. والصيب: المطر، من صاب يصب، أي نزل من السماء، أي من السحاب. ﴿فيه ظلمات ورعد وبرق﴾. قال ابن عباس: الرعد اسم ملك يسوق السحاب، والبرق: لمعان سوط من نور يزجر به الملك السحاب. وعن أبي كثير قال: كنت عند أبي الخلد إذ جاء رسول ابن عباس بكتاب إليه، فكتب إليه: كثيراً تسألني عن الرعد، فالرعد: الريح، والبرق من الماء. قال السخاوي: إن سبب الرعد اضطراب أجرام السحاب واصطكاكها إذا ساقها الريح من الارتعاد. قال بعض المفسرين: وإن أطلق الرعد على الملك أيضاً فهو مشترك بين الصوت المذكور والملك الثابت في الأحاديث.

وقوله تعالى: ﴿ويجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت﴾ مخافة الهلاك؛ فهذا المثل ضربه الله للقرآن وصنيع المنافقين معه، فإن من شأنهم

الخوف الشديد والفرع، كما قال تعالى: ﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، أي: عالم بهم. قال مجاهد: يجمعهم فيعذبهم.

وقوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾، أي: وقفوا. قال ابن عباس: أي يعرفون الحق ويتكلمون به، فهم من قولهم به على استقامة، فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا، أي متحيرين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾، أي: لذهب بأسماعهم وأبصارهم الظاهرة، كما ذهب بأسماعهم وأبصارهم الباطنة، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. فصار الناس ثلاثة أقسام: مؤمنون وكفار ومانفون، وكل سيجازى بعمله. قال الله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرركم الأماني حتى جاء أمر الله وغرركم بالله الغرور فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

(١) سورة المنافقون: الآية ٤.

(٢) سورة الحديد: الآيات ١١ - ١٥.

نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير ﴿١﴾.

قال ابن مسعود: نورهم يسعى بين أيديهم على قدر أعمالهم، يمرون على الصراط، منهم مَنْ نورُه مثل الجبل، ومنهم مَنْ نورُه مثل النخلة، وأدناهم نوراً مَنْ نورُه في إبهامه يتقد مرة ويطفأ أخرى. قال ابن عباس: ليس أحد من أهل التوحيد إلا يعطى نوراً يوم القيامة، فأما المنافق فيطفأ نوره، فالمؤمن مشفق مما يرى من إطفاء نور المنافقين، فهم يقولون: ﴿ربنا أتمم لنا نورنا﴾، والله أعلم.



(١) سورة التحريم: الآية ٨.

الدرس الثالث

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ ۚ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ ۖ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي ۚ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۖ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ۚ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ۝

قوله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

يقول تعالى: يا أيها الناس وحدوا ربكم الذي خلقكم، وخلق الذين من قبلكم، لعلكم تتقون: لكي تنجوا من العذاب.

وقال بعض المفسرين: لعلكم تتقون، حال من الضمير في اعبدوا؛ كأنه قال: اعبدوا ربكم راجين أن تدخلوا في سلك المتقين الفائزين بالهدى والفلاح، المسترجين لجوار الله تعالى، ولعل في الأصل للترجي، وهي في كلام الله تعالى للتحقيق، وقيل: لعل هنا للأطماع كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾^(١).

وقال ابن جرير^(٢): معنى ذلك، اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم؛ لتتقوه بطاعته، وتوحيده، وإفراده بالربوبية والعبادة. وقال ابن عباس: كل ما ورد في القرآن من العبادة فمعناها التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا، وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

(١) سورة التحريم: الآية ٨.

(٢) انظر «جامع البيان» (١/١٦١).

يقول تعالى: اعبدوا ربكم خالقكم، وخالق من قبلكم، «الذي جعل لكم الأرض» فراشاً، أي: بساطاً، «والسماء بناءً» ﴿سقفاً مرفوعاً﴾، «وأنزل من السماء»، أي: من السحاب، «ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم» طعاماً لكم وعلفاً لدوابكم، «فلا تجعلوا لله أنداداً»، أي: أمثالاً تعبدونها كعبادة الله، وأتم تعلمون أنه واحد لا خالق معه. قال ابن عباس: فلا تجعلوا لله أنداداً وأتم تعلمون، أي: لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، وأتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه رسول الله ﷺ من التوحيد، هو الحق الذي لا شك فيه.

قال ابن كثير^(١): الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة.

قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ آلِئِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

يقول تعالى: وإن كنتم في ريب، أي: شك مما نزلنا على عبدنا محمد ﷺ فأتوا بسورة من مثله، أي: مثل القرآن، وأدعوا شهداءكم واستعينوا بالهتكم التي تعبدونها من دون الله إن كنتم صادقين، أن محمداً تقوله من تلقاء نفسه. كما قال تعالى: ﴿أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿أم يقولون افتراه

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٥٧).

(٢) سورة الطور: الآية ٣٤.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴿١﴾ ثم تحدّاهم بسورة واحدة فعجزوا.

وقوله تعالى: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة وأعدت للكافرين﴾ يقول تعالى: ﴿فإن لن تفعلوا﴾، أي: فيما مضى، ولن تفعلوا أبداً، وهذه معجزة أخرى، ﴿فاتقوا النار﴾، أي: فأمّنوا واتركوا المعاصي لتنجوا من النار، ﴿التي وقودها الناس والحجارة﴾. قال ابن عباس يعني حجارة الكبريت؛ لأنها أكثر التهايباً، «أعدت» هيئت، للكافرين الذين هم أهلها، كما قال تعالى: ﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ (٣) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «سمعنا وجبة فقلنا: ما هذه؟ فقال رسول الله ﷺ: هذا حجر ألقى به من شفير جهنم منذ سبعين سنة، الآن وصل إلى قعرها» (٤) رواه مسلم.

قوله عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

لما ذكر تعالى ما أعدّه لأعدائه الكافرين عطف بذكر حال أوليائه المؤمنين، فقال تعالى: ﴿وبشر الذين آمنوا﴾ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله ﴿وعملوا الصالحات﴾ من الأفعال والأقوال. قال معاذ: العمل الصالح الذي فيه أربعة

(١) سورة هود: الآية ١٣.

(٢) سورة الجن: الآية ١٥.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٩٨.

(٤) أخرجه مسلم (ح/٢٨٤٤).

أشياء: العلم، والنية، والصبر والإخلاص، ﴿أن لهم جنات﴾ جمع جنة والجنة البستان الذي فيه أشجار مثمرة ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾، أي: من تحت أشجارها، ومساكنها. وفي الحديث: «إن أنهار الجنة تجري في غير أخدود»^(١) ﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل﴾ قال ابن عباس وغيره: إنهم أتوا بالثمرة في الجنة فلما نظروا إليها قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل الدنيا. وقال عكرمة: معناه، مثل الذي كان بالأمس. وقال مجاهد: يقولون: ما أشبهه به، وأتوا به متشابهاً. قال ابن عباس وغيره: متشابهاً في الألوان مختلفاً في الطعوم. وقال ابن عباس: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسمي. وقال يحيى بن أبي كثير: عشب الجنة الزعفران، وكثبانها المسك، ويطوف عليهم الولدان بالفواكه فيأكلونها، ثم يؤتون بمثلها فيقول لهم أهل الجنة: هذا الذي آتيمونا آنفاً به؟ فتقول لهم الولدان: كلوا، فاللون واحد والطعم مختلف. وهو قول الله تعالى: ﴿وأتوا به متشابهاً﴾.

وقوله تعالى: ﴿ولهم فيها أزواج﴾، أي: من الحور والآدميات ﴿مطهرة﴾، أي: من الغائط والبول، والحيض والنفاس، والبصاق والمخاط، والمنى والولد، وكل قدر. قال الحسن: هن عجائزكم الغمص العمش، طهرن من قذرات الدنيا. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تدخل الجنة يوم القيامة صورة وجوههم مثل صورة القمر ليلة البدر، والزمرة الثانية على لون أحسن الكواكب في السماء لكل رجل منهم زوجتان، على كل زوجة سبعون حلة يرى مخ سوقهن دون لحومها ودمائها وحللها»^(٢).

(١) ليس بحديث، إنما هو من قول مسروق: أخرجه ابن أبي شيبة (٩٧/١٣)، وابن قتيبة في «غريب الحديث» (٥٢٢/٢)، والطبري (١٧٠/١)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (١٦٧/٢).

(٢) أخرجه أحمد (١٦/٣) الترمذي (ح/٢٥٢٢ و ٢٥٣٥)، وقال: «صحيح»، وابن =

وقوله تعالى: ﴿وهم فيها خالدون﴾، أي: دائمون لا يموتون فيها ولا يخرجون منها. وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا هل من مشمر^(١) للجنة؟ وأن الجنة لا خطر لها، وهي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمره نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام أبد في دار سليمة، وفاكهة وخضرة، وحبرة ونعمة في محلة عالية بهية. قالوا: نعم يا رسول الله، نحن المشمرون^(٢) لها. قال: قولوا إن شاء الله. قال القوم: إن شاء الله^(٣)».

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا ءَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

قال قتادة: إن الله لا يستحي من الحق أن يذكر شيئاً ما قل أو كثر، وإن الله

أبي شيبة (١٣/١٢٠)، والبغوي من «شرح السنّة» (ج/٤٣٧٣) كلهم عن طريق عطية - ما عدا أحمد فعنده «عطاء» - به. وعطية: هو العوفي ضعيف؛ لكنه لم يتفرد به، وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة، وابن مسعود رضي الله عنهم، فهو صحيح.

(١) في (الأصل): «مثمر» بالثاء وهو خطأ، والتصويب من كتب الحديث.

(٢) في (الأصل): «المشمرون»، وهو خطأ، والتصويب من كتب الحديث.

(٣) أخرجه البخاري في «الكبير» (٢/٢٣٦) وابن ماجه (ح/٤٣٣٢)، والطبراني (٤/٣٨٨)،

وابن حبان - كما في الإحسان - (٧٣٣٧)، وسنده ضعيف.

حين ذكر في كتابه الذباب والعنكبوت، قال أهل الضلالة: ما أراد الله من ذكر هذا؟
فأنزل الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾
بمحمد والقرآن ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ يعني المثل هو ﴿الْحَقُّ﴾ الصِّدْقُ ﴿مَنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا﴾
الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا﴾، أي: شيء ﴿أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا﴾ المثل ﴿مَثَلًا﴾ وعن ابن
عباس وغيره: لما ضرب الله هذين المثليين للمنافقين، يعني قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ﴾
كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ وقوله ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ الآيات الثلاث، قال
المنافقون: الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال. فأنزل الله هذه الآية إلى
قوله تعالى ﴿هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يَضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾
أجابهم الله في قولهم: ماذا أراد الله بهذا مثلاً، فقال: يضل به كثيراً من الكفار،
وذلك أنهم يكذبونه فيزدادون ضلالاً، ويهدي به كثيراً من المؤمنين، فيصدقونه
فيزيدهم هدى إلى هداهم، وإيماناً إلى إيمانهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾
أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ وَيَزِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ
الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ مِنْ يَشَاءُ
ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر^(١) وكذلك
قال ههنا ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يَضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ قال ابن
عباس: يعني المنافقين.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ
أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ هذا وصف من الله تعالى
للفاسقين المذكورين ههنا بأنهم الذين يتقضون، أي: يخالفون ويتركون عهد الله،

(١) سورة المدثر: الآية ٣١.

أمر الله، الذي عهد إليهم في كتبه وعلى السنة رسله من بعد ميثاقه توكيده، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل من الأرحام وغيرها، ويفسدون في الأرض بالكفر والظلم والمعاصي أولئك هم الخاسرون بأعياضهم الفساد عن الصلاح والعقاب عن الثواب. كما قال تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

يقول تعالى: كيف تكفرون بالله وتعبدون معه غيره! وكنتم أمواتاً في أصلاب آبائكم، فأحياكم، ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم، ثم يحييكم للبعث، ثم إليه ترجعون، فيجازيكم بأعمالكم. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾^(٢). وكقوله تعالى: ﴿قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم﴾ يقول تعالى: هو الله ربكم الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً؛ لكي تتنفعوا، فاعبدوه وحده لا شريك له. كما قال تعالى: ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾^(٤).

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٥.

(٢) سورة غافر: الآية ١١.

(٣) سورة الجاثية: الآية ٢٦.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٧٠.

وقوله تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ قال ابن عباس وغيره: أي ارتفع. ﴿فسواهن سبع سموات﴾: خلقهن مستويات لا فطور فيها، ولا صدوع، ﴿وهو بكل شيء عليم﴾. فإن بالعلم يصح الخلق، ويحكم الفعل. قال البغوي^(١): قرأ ابن جعفر، وأبو عمرو، والكسائي، وقالون، «وهو، وهي» بسكون الهاء: إذا كان قبل الهاء: واؤ، أو فاء، أو لام. زاد الكسائي وقالون: «ثم هو». وقالون: أن يملأ هو.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم﴾^(٢)، وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ قال: خلق الله الأرض قبل السماء، فلما خلق الأرض ثار منها دخان، فذلك حين يقول ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فسواهن سبع سموات﴾ قال: بعضهن فوق بعض، وسبع أرضين، يعني بعضها تحت بعض. والله أعلم.



(١) انظر «معالم التنزيل» (٣٠/١).

(٢) سورة فصلت: الآيات ٩ - ١٢.

الدرس الرابع

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلٰئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَّكِدُمْ أَنْثِيهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَتَّكِدُمْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيٰتِنَا أُولٰٓئِكَ أَصْحَابُ النَّٰرِ هُمْ فِيهَا خٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ .

يقول تعالى: واذكر يا محمد: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، أي: قوماً يخلف بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾. ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، كما فعل الجن؟ ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، أي: نشني عليك ونزهك عما لا يليق بعظمتك وجلالك.

﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. قال قتادة: فكان في علم الله، أنه سيكون في تلك الخليفة أنبياء ورسول وقوم صالحون وساكنو الجنة. وقال ابن عباس: إن أول من سكن الأرض الجن، فأفسدوا فيها وسفكوا فيها الدماء، وقتل بعضهم بعضاً، قال: فبعث الله إليهم إبليس، فقتلهم إبليس ومن معه، حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال، ثم خلق آدم فأسكنه إياها، فلذلك قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. وقال عبد الله بن عمر: وكان الجن بنو الجان في الأرض قبل أن يخلق آدم بألفي سنة، فأفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء فيها، فبعث الله جنداً من الملائكة، فضربوهم حتى ألحقوا بجزائر البحور، فقال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. وقال ابن عباس: يقول: إني قد أطلعت من قلب إبليس على ما لم تطلعوا عليه من كبره واغتراره.

قوله عز وجل: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْ عَلِمْتُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ .

قال ابن عباس: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾، قال: علمه أسماء ولده إنساناً إنساناً والدواب، فقيل: هذا الحمار، هذا الجممل، هذا الفرس .

وقال أيضاً: هي هذه الأسماء التي يتعارف الناس بها: إنسان، ودواب، وسماء، وأرض، وسهل، وبحر، وخيل، وحمار، وأشبه ذلك من الأمم، وغيرها. وقوله تعالى: ﴿ثم عرضهم﴾، أي: المسميات ﴿على الملائكة﴾ فقال أنبئوني ﴿أخبروني﴾ بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴿أنى لا أخلق خلقاً إلا وكنتم أفضل وأعلم منه﴾. ﴿قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم﴾ بخلقك ﴿الحكيم﴾ في أمرك. ﴿قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم﴾ فسمى آدم كل شيء ﴿فلما أنبأهم﴾، قال الله تعالى: ﴿ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض﴾ الظاهر والخفي ما كان وما يكون، كما قال تعالى: ﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾^(١).

﴿وأعلم ما تبذون وما كنتم تكتمون﴾. قال ابن عباس: مرَّ إبليس على جسد آدم وهو ملقى بين مكة والطائف لا روح فيه، فقال: لأمر ما خلق هذا! ثم دخل في فيه وخرج من دبره، وقال: إنه خلق لا يماسك؛ لأنه أجوف. ثم قال للملائكة الذين معه: رأيتم إن فضل هذا عليكم، وأمرتم بطاعته، ماذا تصنعون؟ قالوا: نطيع أمر ربنا. فقال إبليس في نفسه: والله لئن سلطت عليه

(١) سورة طه: الآية ٧.

لأهلكته، ولئن سلط عليّ لأعينه، فقال الله تعالى: ﴿وأعلم ما تبدون﴾، يعني ما يديه الملائكة من الطاعة ﴿وما كنتم تكتمون﴾، يعني ما يكتمه إبليس من المعصية.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

هذه كرامة عظيمة أيضاً لآدم وذريته، حيث أمر الله الملائكة أن يسجدوا له، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، أي: سجود تعظيم وتحية، كما سجد إخوة يوسف له، لا سجود عبادة، وقد كانت الأمم السالفة تفعل ذلك بدل التسليم، وحرم ذلك في شريعتنا فسجدوا طاعة لله، وتعظيماً لآدم، إلا إبليس أبى واستكبر عن السجود لآدم، وكان من الكافرين في سابق علم الله. قال قتادة: حسد عدو الله إبليس آدم عليه السلام على ما أعطاه الله من الكرامة، وقال: أنا ناري وهذا طيني. وكان بدء الذنوب الكبير. استكبر عدو الله أن يسجد لآدم عليه السلام.

قوله عز وجل: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

قال ابن إسحاق^(١): لما فرغ الله من معابة إبليس أقبل على آدم، وعلمه الأسماء كلها، فقال: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾. قال: ثم ألقيت السنة على آدم - فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة، وغيرهم من أهل العلم، عن ابن عباس وغيره - ثم أخذ ضلعاً من أضلاعه من شقه الأيسر، ولأم مكانه لحماً، وآدم نائم لم يهت من نومه، حتى خلق الله

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٧٩).

من ضلعه تلك زوجته حواء، فسواها امرأة ليسكن إليها، فلما كُشف عنه السُّنة، وهب من نومه رآها امرأة إلى جنبه، فقال - فيما يزعمون، والله أعلم - : لحمي ودمي وزوجتي. فسكن إليها، فلما رَوَّجَه اللهُ وجعل له سكناً من نفسه، قال له قبيلاً: ﴿اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ . انتهى .

وقوله تعالى: ﴿وكلا منها رغداً﴾، أي: واسعاً كثيراً ﴿حيث شئتما﴾ كيف شئتما، ومتى شئتما، وأين شئتما ﴿ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ أنفسكما بالمعصية .

قوله عز وجل: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ .

قال البغوي^(١): ﴿فأزلهما﴾ استزل الشيطان آدم وحواء أي دعاهما إلى الزلة. وقوله تعالى: ﴿عنها﴾: أي عن الجنة ﴿فأخرجهما مما كانا فيه﴾، أي: من اللباس، والمنزل الرحب، والرزق الهني، والراحة، وعن أبي بن كعب مرفوعاً: «إن الله خلق آدم رجلاً طويلاً كثير شعر الرأس، كأنه نخلة سحوق، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد في الجنة، فأخذت شعره شجرة فنازعها، فناداه الرحمن: يا آدم مني تفر؟ فلما سمع كلام الرحمن قال: يا رب لا، ولكن استحياء» .

وفي رواية: «لما ذاق آدم من الشجرة فرّ هارباً، فتعلقت شجرة بشعره، فنودي: يا آدم أفراراً مني؟ قال: بل حياء منك. قال: يا آدم اخرج من جواربي، فبعزتي لا يساكنني فيها من عصائي، ولو خلقت مثلك ملء الأرض خلقاً، ثم

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٣٤).

عصوني لأسكننهم دار العاصين»^(١) رواه ابن أبي حاتم.

﴿وقلنا اهبطوا﴾ انزلوا إلى الأرض^(٢) ﴿بعضكم لبعض عدو﴾.

قال البغوي^(٣): أراد العداوة التي بين ذرية آدم والحية، وبين المؤمنين من ذرية آدم وبين إبليس، قال الله تعالى: ﴿إن الشيطان لكما عدو مبين﴾^(٤)، وقال السدي: قال الله تعالى: ﴿اهبطوا منها جميعاً﴾ فهبطوا ونزل آدم بالهند، ونزل معه الحجر الأسود، وقبضة من ورق الجنة، فبثه بالهند فنبتت شجرة الطيب، وإنما أصل ما يجاء به من الطيب من الهند من قبضة الورق التي هبط بها آدم، وإنما قبضها أسفاً على الجنة حين أخرج منها. وعن الحسن البصري قال: أهبط آدم بالهند، وحواء بجدة، وإبليس بدستميسان^(٥) من البصرة على أميال، وأهبطت الحية بأصبهان، وعن أبي موسى قال: إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض، علمه صنعة كل شيء، وزوده من أثمار الجنة، فشاركه هذه من ثمار الجنة غير أن هذه تتغير، وتلك لا تتغير. وروى مسلم والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة. فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها»^(٦).

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» ص ٤٨ وابن جرير (١/١٦٠) و (٨/١٤٣)، وابن أبي حاتم كما عزاه له ابن كثير عن أبي بن كعب مرفوعاً، وفيه انقطاع، وأخرجه ابن جرير (٨/١٤٣) موقوفاً على أبي، قال ابن كثير (٢/٢٠٦): «والموقوف أصح إسناداً» قلت: وهو منقطع أيضاً.

(٢) في «هامش الأصل» كتب ما نصه: (والخطاب لآدم وحواء وإبليس، وقوله تعالى في «طه»: ﴿قال اهبطا منها﴾ خطاب لآدم وإبليس وحواء تبع لآدم، والحية إذا صح فيها الخبر تبع لإبليس).

(٣) المصدر السابق (١/٣٤).

(٤) سورة الأعراف: الآية ٢٢.

(٥) في (الأصل): «دستميان»، وهو خطأ، المثبت من تفسير ابن كثير، وانظر «معجم البلدان» (٢/٥١٨).

(٦) أخرجه مسلم (ح/٨٥٤).

قال بعض العارفين: كنا قوماً من أهل الجنة، فسبانا إبليس إلى الدنيا، فليس لنا إلا الهم والحزن حتى نرد إلى الدار التي أخرجنا منها، وقال الشاعر:

يا ناظراً يرنو بعيني راقداً ومشاهداً للأمر غير مشاهد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي درج الجنان ونيل فوز العابد
أنسيت ربك حين أخرج آدمياً منها إلى الدنيا بذنب واحد
وقال بعضهم:

ولكننا سبي العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم
وقوله تعالى: ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾: موضع قرار، ومتاع بلغة مستمتع
﴿إلى حين﴾ إلى انقضاء آجالكم.

قوله عز وجل: ﴿فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ

الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾.

قال سعيد بن جبير وغيره: الكلمات هي قوله: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾، وقال مجاهد عن عبيد بن عمير أنه قال: قال آدم: يا رب، خطيئتي التي أخطأت شيء كتبتة علي قبل أن تخلقني؟ أو شيء ابتدعته من قبل نفسي؟ قال: بل شيء كتبتة عليك قبل أن أخلقك. قال: فكما كتبتة علي فاغفر لي. قال: فذلك قوله تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾، وعن ابن عباس ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾. قال: قال آدم عليه السلام: يا رب، ألم تخلقني بيدك؟ قال له: بلى، ونفخت في من روحك؟ قيل له: بلى. قال: رأيت إن تبت هل أنت راجعي إلى الجنة؟ قال: نعم.

وقوله تعالى: ﴿تاب عليه﴾ تجاوز عنه ﴿إنه هو التواب﴾ على عباده
﴿الرحيم﴾ بخلقه. كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن

السيئات^(١)، وقال تعالى: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾^(٢).

قوله عز وجل: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

قال ابن كثير^(٣): يقول تعالى مخبراً عما أنذر به آدم وزوجته وإبليس، حين أهبطهم من الجنة، والمراد: الذرية، أنه سينزل الكتب، ويبعث الأنبياء والرسل، كما قال أبو العالية: الهدى، الأنبياء، والرسل، والبينات، والبيان ﴿فمن تبع هداي﴾ من أقبل على ما أنزلت به الكتب، وأرسلت به الرسل، ﴿فلا خوف عليهم﴾، أي: فيما يستقبلونه من أمر الآخرة، ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار﴾ يوم القيامة ﴿هم فيها خالدون﴾ لا يخرجون منها، ولا يموتون، فيها فنعوذ بالله من حالهم.



(١) سورة الشورى: الآية ٢.

(٢) سورة النساء: الآية ١١٠.

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٨٢/١).

الدرس الخامس

﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوْفٍ بِعَهْدِكُمْ
وَإِلَيَّ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَعَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ
وَلَا تَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِلَيَّ فَانْفُورِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا
الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾
﴿اتَّامِرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾
وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ
مُلْتَقَوْنَ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَبْنَیْ إِسْرَائِیلَ اذْکُرُوا نِعْمَتِیَ الَّتِیْ اَنْعَمْتُ عَلَیْکُمْ وَاَوْفُوا بِعَهْدِیْ اَوْفٍ بِعَهْدِکُمْ وَاِتَنِیْ فَاَرْهَبُوْنِ ﴿٤٠﴾ وَاَمْسُوْا بِمَا اَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَکُوْنُوْا اَوَّلَ کٰفِرٍ بِیْہٖ وَلَا تَشْتَرُوْا بِعَابَتِیْ ثَمٰنًا قَلِیْلًا وَاِتَنِیْ فَاَتَّقُوْنِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوْا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَکْتُمُوْا الْحَقَّ وَاَنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ ﴿٤٢﴾ وَاَقِیْمُوْا الصَّلٰوةَ وَاَتُوْا الزَّکٰوةَ وَاَزْکُرُوْا مَعَ الرَّکِیْمِ ﴿٤٣﴾ .

يقول تعالى آمراً بني إسرائيل بالدخول في الإسلام ومتابعة محمد ﷺ: يا بني إسرائيل، يا أولاد يعقوب، اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم على أجدادكم وأسلافكم، وقال الحسن: ذكر النعمة شكرها، وقال قتادة: هي النعم التي خصت بها بنو إسرائيل: فلق البحر، وإنجاؤهم من فرعون بإغراقه، وتظليل الغمام عليهم، في التيه، وإنزال المن والسلوى وإنزال التوراة في نعم كثيرة لا تحصى: ﴿وأوفوا بعهدي﴾ بامثال أمري ﴿أوف بعهدكم﴾ بالقبول والثواب^(١)، وقال أبو العالية ﴿وأوفوا بعهدي﴾ قال: عهده إلى عباده دين الإسلام، وأن يتبعوه، وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿أوف بعهدكم﴾، قال: أرضى عنكم، وأدخلكم الجنة.

وقوله تعالى: ﴿وإياي فارهبون﴾، أي: خافون، قال ابن عباس: في قوله تعالى: ﴿وإياي فارهبون﴾، أي: أن أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم

(١) في هامش الأصل كتب ما نصه: (قال الكلبي: عهد الله إلى بني إسرائيل على لسان موسى، إني باعث في بني إسماعيل نبياً أميناً، فمن اتبعه وصدقه بالنور الذي يأتي به غفرت له ذنبه، وأدخلته الجنة، وجعلت له أجرين اثنين، وهو قوله: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس﴾ يعني أمر محمد ﷺ).

من النعمات التي قد عرفتم من المسخ وغيره، وقوله تعالى: ﴿وَأْمَنُوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون﴾، يقول تعالى: ﴿وَأْمَنُوا بما أنزلت﴾، يعني القرآن. ﴿مصداقاً لما معكم﴾، أي: موافقاً لما معكم من التوراة في التوحيد، والنبوة والأخبار، ونبت النبي ﷺ، ولا تكونوا أول كافر به، أي: القرآن فتتابعكم اليهود على ذلك، قال أبو العالية: يقول: ولا تكونوا أول من كفر بمحمد ﷺ يعني من جنسكم أهل الكتاب بعد سماعكم بمبعثه.

وقوله تعالى: ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾، يقول: ولا تعترضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي بالدنيا وشهواتها؛ فإنها قليلة فانية، قال البغوي^(١): وذلك أن رؤساء اليهود وعلماءهم كانت لهم مأكلة يصيبونها من سفلتهم وجهالهم، يأخذون كل عام منهم شيئاً معلوماً من ذروعهم وضروعهم ونقودهم، فخافوا إن هم بينوا صفة محمد ﷺ وتابعوه أن تفوتهم تلك المأكلة، فغيروا نعتهم وكنموا اسمه فاختروا الدنيا على الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وإياي فاتقون﴾، أي: فاخشون، لا فوات الرياسة، قال طلق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله، رجاء رحمة الله، على نور من الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، تخاف عقاب الله.

وقوله تعالى: ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾، يقول تعالى: ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾، أي: لا تخلطوا الحق بالباطل، والصدق بالكذب، وتكتموا الحق وأنتم تعلمون، قال مقاتل: إن اليهود أقرؤا ببعض صفة محمد ﷺ، وكنموا بعضها ليصدقوا في ذلك.

قوله تعالى: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين﴾، قال

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣٦/١).

البغوي^(١): ﴿وأقيموا الصلاة﴾، يعني الصلوات الخمس بمواقيتها، وحدودها: ﴿وآتوا الزكاة﴾، وأدوا زكاة أموالكم المفروضة ﴿واركعوا مع الراكعين﴾، أي: صلوا مع المصلين محمد ﷺ وأصحابه، وذكرها بلفظ الركوع لأن الركوع ركن من أركان الصلاة، قال ابن كثير^(٢): وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة.

قوله عز وجل: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوْنَ رَبَّهُمْ وَإِنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ۝

قال قتادة: كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله، ويتقواه وبالبر، ويخالفون، فغيرهم الله عز وجل، وقال ابن عباس: يقول: أتأمرون الناس بالدخول في دين محمد ﷺ، وغير ذلك مما أمرتم به وتنسون أنفسكم؟ أي تتركون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب؟ ﴿أفلا تعقلون﴾، وهذا كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾^(٣)، وفي الحديث: «مثل العالم الذي يعلم الناس الخير ولا يعمل به، كممثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه»^(٤).

وفي الحديث الآخر: «مررت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار، قال: قلت: من هؤلاء؟ قالوا: خطباء أمتك من أهل الدنيا،

(١) المصدر السابق (١/٣٧).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (١/٨٥).

(٣) سورة هود: الآية ٨٨.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/١٦٦ و ١٦٧)، والخطيب في «اقتضاء العلم العمل» (ص ١٨٢)، وله شاهد من حديث أبي برزة: أخرجه الخطيب في المصدر السابق (ص ١٨٣)، والحديث صحيح.

ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون؟»^(١). رواه أحمد وغيره، وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتابه فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمرم بالمعروف ولا آتية، وأنهاكم عن المنكر وآتية»^(٢). رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

وقوله تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾، يقول تعالى: واستعينوا على أمور دينكم وديناكم بالصبر والصلاة. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الصبر صبران: صبر عند المصيبة حسن، وأحسن منه الصبر عن محارم الله.

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى»^(٣). رواه أبو داود، وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه نعي إليه أخوه قثم، وهو في سفر، فاسترجع، ثم تنحى عن الطريق، فأناخ فصلى ركعتين أطل فيهما السجود، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾، وقال ابن جريج: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾، قال: إنهما معيتتان على رحمة الله، وقوله تعالى: ﴿وإنها لكبيرة﴾، أي: ثقيلة، ﴿إلا على الخاشعين﴾، أي: المتواضعين، قال مجاهد: المؤمنين حقاً.

- (١) أخرجه أحمد (٣/١٢٠ و ٢٣١ و ٢٣٩) وفي سنده علي بن زيد بن جدعان: ضعيف، وأخرجه ابن حبان (١/١٣٥) وفي سنده المغيرة بن حبيب: منكر الحديث.
- (٢) أخرجه البخاري (ح/٣٢٦٧)، ومسلم (ح/١٩٨٩).
- (٣) أخرجه أحمد (٥/٣٨٨)، وأبو داود (ح/١٣١٩)، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٢٣١/١)، وهو صحيح.

وقوله تعالى: ﴿الذين يظنون﴾ يستيقنون ﴿أنهم ملاقوا ربهم﴾: محشورون إليه يوم القيامة، معروضون عليه، ﴿وأنهم إليه راجعون﴾ فيجزئهم بأعمالهم؛ والظن من الأضداد، يكون شكاً، ويكون يقيناً، كما قال تعالى: ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾، قال مجاهد: كل ظن في القرآن يقين، أي: ظننت وظنوا، يعني قوله تعالى: ﴿إني ظننت أني ملاق حسابه﴾^(١)، ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها﴾^(٢) ونحو ذلك، وفي الصحيح: «أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى. فيقول الله تعالى: أظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول الله تعالى: اليوم أنساك كما نسيتني»^(٣). والله أعلم.



(١) سورة الحاقة: الآية ٢٠.

(٢) سورة الكهف: الآية ٥٣.

(٣) أخرجه مسلم (ح/٢٩٦٨).

الدرس السادس

﴿ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾
وَأَتَقُوا يَوْمَ لَا تَجْرِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقَبَّلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا
هُم يُبْصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ بَجَّيْنَاكُمْ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ
أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ
الْبَحْرَ فَأَبْجَيْتَكُمُ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ
لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ
قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَيْدِيكُمْ عَلَىٰ رِقَابِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ
بَارِيكُمْ فَأَقْبَلُوا أَنفُسَهُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ
وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِث بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا
عَلَيْكُمْ الْعَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا
ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَبْنَیْ إِسْرَائِیلَ اذْکُرُوا نِعْمَتِیَ الَّتِیْ اَنْعَمْتُ عَلَیْکُمْ وَاَنْیْ فَضَّلْتُکُمْ عَلَی الْعَالَمِیْنَ ﴿٤٧﴾ وَاَتَّقُوا یَوْمًا لَا تَجْزِیْ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَیْئًا وَلَا یُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا یُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ یُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ .

یذکر تعالیٰ بنی اسرائیل بنعمه علی آبائهم، وما کان فضلهم به علی سائر الأمم من أهل زمانهم، من إرسال الرسل منهم، وإنزال الكتب عليهم، كما قال تعالیٰ: ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾^(١). والمراد بقوله تعالیٰ: ﴿وأنی فضلتكم علی العالمین﴾، أي: عالمي زمانهم، فإن هذه الأمة أفضل منهم، كما قال تعالیٰ: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾^(٢)، وقال النبي ﷺ: «أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها علی الله»^(٣). رواه أهل السنن. وقد قال الله تعالیٰ: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء علی الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾^(٤).

وقوله تعالیٰ: ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون﴾: يقول تعالیٰ: ﴿واتقوا يوماً﴾، أي: اخشوا عقاب يوم. ﴿لا تجزي﴾ لا تقضي نفس عن نفس شيئاً، حقاً لزمها، ولا

(١) سورة المائدة: الآية ٢٠.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١١٠.

(٣) أخرجه أحمد (٤/٤٤٧)، والترمذي (ح/٣٠٠١)، وقال: «حديث حسن»، وابن ماجه

(ح/٤٢٨٨) من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، وسنده حسن.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

ينفع فيه أحدٌ أحداً، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ولا يقبل منها شفاعة﴾، يعني: من الكافرين، فلا يقبل من كافر شفاعة، ولا تقبل فيه شفاعة، قال تعالى: ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾^(٣).
وقوله تعالى: ﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾، أي: فداء، كما قال تعالى: ﴿إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقْبَلُ منهم ولهم عذاب أليم﴾^(٤). وقوله تعالى: ﴿ولا هم ينصرون﴾، أي: لا ناصر لهم ولا مانع يمنعهم من عذاب الله.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾^(٥).

يقول تعالى: واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم ﴿إذ نجيناكم﴾، أي: أسلافكم وأجدادكم، لأنهم نجوا بنجاتهم من آل فرعون أتباعه وأهل دينه. ﴿يسومونكم﴾ يكلفونكم ويذيقونكم ﴿سوء العذاب﴾ أشد العذاب وأسوأه. ﴿يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾. قال ابن إسحاق: كان فرعون يعذب بني إسرائيل فيجعلهم خدماً وخولاً، وصنفهم في أعماله: فصنف بينون، وصنف يزرعون له، فهم في أعماله، ومن لم يكن منهم في صنعة من عمله فعليه الجزية،

(١) سورة لقمان: الآية ٣٣.

(٢) سورة فاطر: الآية ١٨.

(٣) سورة المدثر: الآية ٤٨.

(٤) سورة المائدة: الآية ٣٦.

فسامهم، كما قال الله عز وجل: ﴿سوء العذاب﴾. وقال: الذي جعلهم في الأعمال القذرة، وجعل يقتل أبناءهم، ويستحي نساءهم.

وقال ابن عباس: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم خليله، أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً، واثمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار، يطوفون في بني إسرائيل، فلا يجدون مولوداً ذكر إلا ذبحوه، ففعلوا، فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم، وأن الصغار يذبحون، قال: توشكون أن تفنوا بني إسرائيل، فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة ما كانوا يكفونكم، فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر، فقتل أبناءهم، ودعوا عاماً، فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان، فولدته علانية، حتى إذا كان القابل حملت بموسى.

وقوله تعالى: ﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾، أي: نعمة عظيمة، حيث أنجاكم منهم. وأصل البلاء الاختبار، وقد يكون بالخير والشر، كما قال تعالى: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾^(٢).

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾.

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم يا بني إسرائيل ﴿إذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم﴾ من آل فرعون ومن الغرق، وأغرقنا آل فرعون ﴿وأنتم تنظرون﴾ ليكون ذلك أشفى لصدوركم، وأبلغ في إهانة عدوكم. قال تعالى: ﴿وجاوزنا ببني

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٥.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٦٨.

إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً^(١). قال عمرو بن ميمون: فلما أتى موسى البحر، قال له رجل من أصحابه، يقال له يوشع بن نون: أين أمر ربك؟ قال: أمامك، يشير إلى البحر، فأقحم يوشع فرسه في البحر حتى بلغ الغمر، فذهب به الغمر، ثم رجع، فقال: أين أمر ربك يا موسى؟ فوالله ما كذبت ولا كذبت، فعل ذلك ثلاث مرات. ثم أوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، فضربه فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم يقول: مثل الجبل ثم سار موسى ومن معه، وأتبعهم فرعون في طريقهم، حتى إذا تاموا فيه، أطبقه الله عليهم، فلذلك قال: ﴿وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْنَا مِنَ الْعِجَلِ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم، في عفوي عنكم، لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه، عند انقضاء أمد المواعدة، وكان ذلك بعد إنجائهم من البحر.

وقوله: ﴿لعلكم تشكرون﴾، أي: لكي تشكروا عفوي عنكم وصنيعي إليكم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، الكتاب: هو التوراة، والفرقان: ما يفرق بين الحق والباطل. قال أبو العالية قوله: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، قال: يعني ذا القعدة وعشراً من ذي الحجة، وذلك حين خلف موسى أصحابه، واستخلف عليهم هارون، فمكث على الطور أربعين ليلة، وأنزل عليه التوراة في الألواح، وكانت الألواح من برد، فقرّبها الرب

(١) سورة يونس: الآية ٩.

إليه نجياً، وكلمه وسمع صرير القلم. وبلغنا أنه لم يُحدث حدثاً في الأربعين ليلة، حتى هبط من الطور.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يٰقَوْمِ إِنِّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلَ فْتُوبُوا إِلَيَّ بَارِيكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾: الذين عبدوا العجل ﴿يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل﴾ إلهاً ﴿فتوبوا إلى باريكم﴾: خالقكم. قالوا: كيف نتوب؟ قال: ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾. قال ابن عباس: أمر موسى قومه عن أمر ربه عز وجل، أن يقتلوا أنفسهم، قال: وأخبر الذين عبدوا العجل، فجلسوا وقام الذين لم يعكفوا على العجل، فأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهم ظلمة شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضاً، فانجلت الظلمة عنهم، وقد جلوا عن سبعين ألف قاتل، كل من قتل منهم كانت له توبة، وكل من بقي كانت له توبة. وقال قتادة: أمر القوم بتشديد من الأمر، فقاموا يتناحرون بالشفار، يقتل بعضهم بعضاً، حتى بلغ الله فيهم نعمته، فسقطت الشفار من أيديهم، فأمسك الله عنهم القتل، فجعل لحيهم توبة، وللمقتول شهادة.

وقوله تعالى: ﴿فتاب عليكم﴾ تجاوز عنكم ﴿إنه هو التواب﴾: القابل للتوبة ﴿الرحيم﴾: بعبادة المؤمنين.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾: لن نقرُّ لك ﴿حتى نرى الله جهرة﴾: عياناً. قال ابن عباس: علانية. وقال الربيع بن أنس: هم السبعون الذين

اختارهم موسى، فساروا معه، قال: فسمعوا كلاماً، فقالوا: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾، قال: فسمعوا صوتاً، فصعقوا، يقول: ماتوا. قال السدي: فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: ربي ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم، وقد أهلكت خيارهم؟ لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا، فأوحى الله إلى موسى: أن هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل، ثم إنه أحياهم فقاموا وعاشوا رجلاً رجلاً، ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون، فذلك قوله تعالى: ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَوَلَلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰنَ وَالسَّلْوٰى كُلُوا مِن طَيِّبٰتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم، شرع يذكرهم أيضاً بما أسبغ عليهم من النعم، فقال: ﴿وَوَلَلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ أي: السحاب، في التيه يقيمكم حر الشمس. ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰنَ وَالسَّلْوٰى﴾، قال ابن عباس: كان المن ينزل عليهم على الأشجار، فيغدون^(١) إليه فيأكلون منه ما شاءوا. وقال الشعبي^(٢): عسلكم هذا جزء من سبعين جزءاً من المن. وفي الحديث الصحيح: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين». وقال ابن عباس: السلوى طائر يشبه السمّان. وقوله تعالى: ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ واشكرون ولا تكفرون، فخالفوا فحل بهم عقابه. ﴿وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾، كما قال تعالى: ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطفوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى وإنني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾^(٣).



(١) في (الأصل): «فيغدون»، وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن كثير.

(٢) في (الأصل): «الشعيب»، وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن كثير.

(٣) سورة طه: الآيتان ٨١ و ٨٢.

الدرس السابع

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ
سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ
ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا
كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴿ وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ
فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ
رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ
طَعَامٍ وَاجِدْ لَنَا رَبِّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِنْ الْأَرْضِ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَافِهَا وَفُومَهَا
وَعَدْسِهَا وَيَصْلِبْهَا قَالَ أَسْتَبْدِلُوكَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا
مِضْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبِ
مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ
بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ
وَالصَّابِغِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ
وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ
خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ
اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمَلْنَاهَا تَكْلِيلًا لِمَآبِيَن
يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ .

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْبَلَدَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

قال ابن كثير^(١): يقول تعالى لائماً لهم على نكولهم عن الجهاد، ودخولهم الأرض المقدسة، لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى عليه السلام، فأمرُوا بدخول الأرض المقدسة التي هي ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل، وقتال من فيها من العماليق الكفرة، فنكلوا عن قتالهم وضعفوا، واستحسروا، فرماهم الله في التيه عقوبة لهم، كما ذكره تعالى في سورة المائدة. ولهذا كان أصح القولين: أن هذه البلدة هي بيت المقدس^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾، أي: هنيئاً واسعاً. ﴿وادخلوا الباب سجداً﴾: شكراً لله تعالى. قال ابن عباس في قوله: ﴿وادخلوا الباب سجداً﴾ قال: ركعاً من باب صغير. وقال مجاهد: هو باب الحطة، من باب إيلياء بيت المقدس.

﴿وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم﴾ قال ابن عباس: مغفرة، استغفروا. وقال

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٩٨).

(٢) في هامش الأصل كتب ما نصه: (المراد قال: وهذا كاف لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة، مع يوشع بن نون عليه السلام، وفتح الله عليهم عشية جمعة وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلاً، حتى أمكن الفتح، ولما فتحوها أمرُوا أن يدخلوا الباب - باب البلد - سجداً، أي: شكراً لله على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر، ورد بلدهم عليهم، وإنقاذهم من التيه والضلال).

قتادة: حطّ عنا خطايانا، أمروا بالاستغفار. ﴿وستزيد المحسنين﴾ ثواباً من فضلنا.

وقوله تعالى: ﴿فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم﴾ روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سجداً، وقولوا: حطة، فدخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبة في شعيرة»^(١).
أخرجه البخاري وغيره، وفي حديث البراء: «قيل لهم: ادخلوا الباب سجداً، قال: ركعاً وقولوا: حطة، أي: مغفرة فدخلوا على أستاههم، وجعلوا يقولون: حنطة حمراء وفيها شعيرة. فأنزل الله: ﴿فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم﴾»^(٢).

وقال البغوي^(٣): وذلك أنهم بدلوا قول: الحطة بالحنطة، فقالوا بلسانهم: حطاناً سمقاناً^(٤)، أي: حنطة حمراء، استخفافاً بأمر الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾، أي: يعصون ويخرجون عن أمر الله. قال ابن عباس: كل شيء في كتاب الله من الرجز، يعني به العذاب. وقال سعيد بن جبير: هو الطاعون.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُفُورًا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَحْنُوا فِي الْأَرْضِ مُمْسِدِينَ﴾^(٥).

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم، ﴿إذ استسقى موسى﴾، أي: طلب

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٤٧٩).

(٢) هو موقوف عن البراء - رضي الله عنه - وليس بمرفوع.

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (١/٤٤).

(٤) في تفسير البغوي: «سمقاناً»، وفي تفسير ابن كثير: «هطاً سمعاناً أزية مزياً»، وفي «فتح

الباري» (٨/١٥٥): «هطي سمقاً»، ولعله هو الصواب.

السقيا لقومه حين عطشوا في التيه ﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر﴾، قال ابن عباس: وجعل بين ظهرانيهم حجر مربع، وأمر موسى عليه السلام، فضربه بعصاه، ﴿فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾، في كل ناحية منه ثلاث عيون، وأعلم كل سبط عينهم يشربون منها، لا يرتحلون من منقله إلا وجدوا ذلك معهم.

وقوله تعالى: ﴿كلوا واشربوا من رزق الله﴾، أي: كلوا من المن والسلوى، واشربوا من الماء، فهذا كله من رزق الله الذي يأتيكم بلا مشقة.

﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾، العثي: أشد الفساد. قال السدي: لما دخل بنو إسرائيل التيه قالوا لموسى عليه السلام: كيف لنا بما ههنا، أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المن، فكان ينزل على شجر الزنجبيل. والسلوى وهو طائر يشبه السمّان أكبر منه، فكان يأتي أحدهم فينظر إلى الطير، فإن كان سميناً ذبحه وإلاً أرسله، فإذا سمن أتاه، فقالوا هذا الطعام فأين الشراب؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر ﴿فانفجرت منه اثنتا عشر عينا﴾ فشرب كل سبط من عين، فقالوا: هذا الشراب فأين الظل؟ فظلل عليهم الغمام، فقالوا: هذا الظل فأين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان، ولا يتخرق لهم ثوب، فذلك قوله تعالى: ﴿وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى﴾، وقوله: ﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاجِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهَيْطُوا مَضْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءَؤُا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ

كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١﴾ .

يقول تعالى: واذكروا إذ قلتم ﴿يا موسى لن نصبر على طعام واحد﴾، أي: مآكل واحد لا يتبدل: ﴿فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقنائنها وفومها وعدسها وبصلها﴾.

اختلف المفسرون في قوله تعالى ﴿وفومها﴾ فقيل: الثوم، وقيل: الحنطة، وقيل: كل حب يختبز، وقيل: الحبوب التي تؤكل كلها فوم، والله أعلم.

قال لهم موسى عليه السلام: ﴿أتستبدلون الذي هو أدنى﴾: أحسن، وأراد ﴿بالذي هو خير﴾: أشرف وأفضل ﴿اهبطوا مصرًا﴾ من الأمصار، ﴿فإن لكم ما سألتكم﴾: فأتي بلد دخلتموها وجدتم ذلك فيها.

وقوله تعالى: ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ يقول تعالى: ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة﴾، أي: وضعت عليهم والزموها شرعاً وقدرأ، أي: لا يزالون مستذلين، من وجدهم استذلهم وأهانهم وضرب عليهم الجزية.

وقوله تعالى: ﴿وبأوا بغضب من الله﴾، قال أبو عبيدة: واحتملوا وأقروا به. وقال الضحاك: استحقوا الغضب من الله.

﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾، أي: فيجاوزون أمر الله ويرتكبون محارمه، فغضب الله عليهم.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰبِغِينَ مِنَ ءِامَنَ

يَا اللَّهُ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ .

يخبر تعالى أن من أحسن من الأمم السالفة وأطاع، فإن الله لا يضيع عمله، كما في حديث سلمان. سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم، فذكرت في صلاتهم وعبادتهم، فنزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية. رواه ابن أبي حاتم. قال مجاهد: ﴿الصابئون﴾ قوم بين المجوس واليهود والنصارى، ليس لهم دين. وسئل وهب بن منبه عن الصابئين فقال: الذي يعرف الله وحده، وليست له شريعة يعمل بها، ولم يحدث كفراً.

وقال السدي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، الآية، نزلت في أصحاب سلمان الفارسي: «بينما هو يحدث النبي ﷺ، إذ ذكر أصحابه، فأخبره خبرهم، فقال: كانوا يصلون ويصومون، ويؤمنون بك، ويشهدون أنك ستبعث نبياً، فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم، قال له نبي الله ﷺ: يا سلمان هم من أهل النار. فاشتد ذلك على سلمان، فأنزل الله هذه الآية».

فكان إيمان اليهود، أنه من تمسك بالتوراة وسنة موسى عليه السلام حتى جاء عيسى، فلما جاء عيسى، كان من تمسك بالتوراة، وأخذ بسنة موسى فلم يدعها، ولم يتبع عيسى، كان هالكاً وإيمان النصارى، أن من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى عليه السلام، كان مؤمناً مقبولاً منه، حتى جاء محمد ﷺ، فمن لم يتبع محمداً ﷺ منهم، ويدع ما كان عليه من سنة عيسى والإنجيل كان هالكاً، عن ابن عباس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، الآية، قال: فأنزل الله بعد ذلك: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾، أي: لا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا هم يحزنون على ما يتركونه، كما قال تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلاً من غفور رحيم﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

يقول تعالى: واذكروا يا معشر يهود، ﴿إذ أخذنا ميثاقكم﴾: عهدكم، ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾: الجبل، ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾: بجد ومواظبة، ﴿واذكروا ما فيه﴾: ادرسوه واعملوا به، ﴿لعلكم تتقون﴾: لكي تنجوا من الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾^(٢). قال السدي: فلما أبوا أن يسجدوا، أمر الله الجبل أن يقع عليهم، فنظروا إليه وقد غشيهم، فسقطوا سجداً، فسجدوا على شق، ونظروا بالشق الآخر، فرحمهم الله، فكشف عنهم، فقالوا: والله ما سجدة أحب إلى الله من سجدة كشف بها العذاب عنهم، فهم يسجدون كذلك، وذلك قول الله تعالى: ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾.

وقال ابن عباس: ثم سار بهم موسى عليه السلام إلى الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعدما سكت عنه الغضب، وأمرهم بالذي أمر الله أن يبلغهم من الوظائف، فثقلت عليهم وأبوا أن يقرؤا بها، حتى نتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة،

(١) سورة فصلت: الآيات ٣٠ و ٣١.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٧١.

قال: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم.

وقوله تعالى: ﴿ثم توليتم من بعد ذلك﴾: أعرضتم من بعد ما قبلتم التوراة، ﴿فلولا فضل الله عليكم ورحمته﴾: بتأخير العذاب عنكم، وإرسال النبيين إليكم، ﴿لكنتم من الخاسرين﴾ بتعجيل عقوبتكم على نقضكم الميثاق.

قوله عز وجل ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ آَعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ فَبَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿ولقد علمتم﴾ يا معشر اليهود ﴿الذين اعتدوا منكم في السبت﴾ حين عصوا أمر الله، فمسخهم وأخزاهم.

قال البغوي^(١): كانوا في زمن داود عليه السلام بأرض يقال لها أيلة.

قال ابن كثير^(٢): يقول تعالى: ﴿ولقد علمتم﴾ يا معشر اليهود ما حل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله، وخالفوا عهده وميثاقه، فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت، والقيام بأمره، إذ كان مشروعاً لهم، فتحيلوا على اصطیاد الحيتان في يوم السبت، بما وضعوا لها من الحبال والبرك، قبل يوم السبت، على عاداتها في الكثرة، فنشبت بتلك الحبال والحيل، فلم تخلص منها يوماً ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة، وهي أشبه شيء بالأناسي، في الشكل الظاهر، وليست بإنسان حقيقة، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم، لما كانت مشابهة للحق في الظاهر، ومخالفة له في الباطن، كان جزاؤهم من جنس عملهم. وهذه القصة مبسطة في سورة الأعراف، حيث يقول تعالى: ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤٨/١).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١٠٤/١).

شُرِّعًا ويوم لا يسبِّتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون^(١). القصة بكمالها.

وقوله تعالى: ﴿فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين﴾. قال ابن عباس: يعني ﴿جعلناها﴾ بما أحللنا بها من العقوبة، عبرة لما حولها من القرى، كما قال تعالى: ﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وموعظة للمتقين﴾، أي: الذين من بعدهم إلى يوم القيامة. والله المستعان.



(١) سورة الأعراف: الآية ١٦٣.

(٢) سورة الجاثية: الآية ٢٧.

الدرس الثامن

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَ خَدُّنَاهُمْ وَهَؤُلَاءِ
 قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ
 يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَأَفْعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ ﴿٦٨﴾
 قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ
 لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا
 وَإِنَّا لَإِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا
 تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا آتِنَا جَنَّتَ بِالْحَقِّ فَدَبَّجُوهَا وَمَا كَادُوا
 يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قُنْتُمْ نَفْسًا فَاذْرَءْ ثُمَّ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا
 أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُعَذِّبُ اللَّهُ الْمُؤْمِنَ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ
 قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ
 مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ
 اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَخِذْنَا هُزُوعًا قَالُوا عُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

يقول تعالى: واذكروا ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾. قال أبو العالية: كان رجل من بني إسرائيل، وكان غنياً، ولم يكن له ولد، وكان له قريب، وكان وارثه، فقتله ليرثه، ثم ألقاه على مجمع الطريق، وأتى موسى عليه السلام، فقال له: إنه قريبي قتل، وإني إلى أمر عظيم، وإني لا أجد أحداً يبين لي من قتله غيرك يا نبي الله. قال: فنادى موسى في الناس، فقال: أنشد الله، من كان عنده من هذا علم إلا بيئته لنا. فلم يكن عندهم علم، فأقبل القاتل على موسى عليه السلام، فقال له: أنت نبي الله، فسل لنا ربك أن يبين لنا. فسأل ربه، فأوحى الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فعجبوا من ذلك، فقالوا: ﴿أَتَتَّخِذْنَا هُزُوعًا؟﴾ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض، يعني: لا هرمة ولا بكر، يعني: ولا صغيرة ﴿عوان بين ذلك﴾، أي: نصف بين البكر والهرمة. ﴿فافعلوا ما تؤمرون قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها﴾، أي: صاف لونها، ﴿تسر الناظرين﴾، أي: تعجب الناظرين. ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض﴾، أي: لم يذلها العمل. ﴿ولا تسقي الحرث﴾، يعني وليست بذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث، يعني ولا تعمل في الحرث. ﴿مسلمة﴾، يعني مسلمة من العيوب. ﴿لا شية فيها﴾ يقول: لا بياض فيها.

﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ، فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾. قال: ولو أن القوم حين أمروا بذبح بقرة، استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها، لكانت إياها، ولكن شددوا على أنفسهم، فشدد الله عليهم، ولولا أن القوم استثنوا فقالوا: ﴿وإنا إن شاء الله لمهتدون﴾، لما هُذوا إليها أبداً، فبلغنا أنهم لم يجدوا البقرة التي نعت لهم، إلا عند عجوز، وعندها يتامى وهي القيمة عليهم، فلما علمت أنه لا يزكو لهم غيرها، أضعفت عليهم الثمن، فأتوا موسى فأخبروه أنهم لم يجدوا هذا النعت إلا عند فلانة، وأنها سألت أضعاف ثمنها، فقال موسى: إن الله قد خفف عليكم فشددتم على أنفسكم فأعطوها رضاها وحكمها، ففعلوا، واشتروها، فذبحوها، فأمرهم موسى عليه السلام أن يأخذوا عظماً منها فيضربوا به القليل، ففعلوا، فرجع إليه روحه، فسمى لهم قاتله، ثم عاد ميتاً كما كان، فأخذ قاتله، وهو الذي كان أتى موسى عليه السلام فشكا إليه، فقتله الله على أسوأ عمله.

قوله عز وجل: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَأَفْعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ﴾.

يسألوه عن سننها فأخبرهم أنها نصف بين الصغيرة والهرمة.

قوله عز وجل: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْثُهَا تَسْرُّ النَّظِيرِينَ﴾.

قال ابن عباس: ﴿فاقع لونها﴾ شديد الصفرة تكاد من صفرتها تبيض.

قوله عز وجل: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهتدون﴾ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْمَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْكَنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾ ﴿٧١﴾.

قال مجاهد: لا شية فيها: لا بياض ولا سواد. وقوله تعالى: ﴿وما كادوا يفعلون﴾. قال ابن عباس: كادوا ألا يفعلوا، ولم يكن ذلك الذي أرادوا، لأنهم أرادوا ألا يذبحوها.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا كَذَلِكَ يُعَى اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

قال مجاهد: ﴿فاداراتم فيها﴾ اختلفتم. وقال ابن جريج: قال بعضهم: أنتم قتلتموه. وقال آخرون: بل أنتم قتلتموه. وقوله تعالى: ﴿والله مخرج ما كنتم تكتُمون﴾، عن المسيب بن رافع، قال: ما عمل رجل حسنة في سبعة آيات إلا أظهرها الله، وما عمل رجل سيئة في سبعة آيات إلا أظهرها الله، وتصديق ذلك في كلام الله ﴿والله مخرج ما كنتم تكتُمون﴾.

وقوله تعالى: ﴿فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾، أي: فضربوه فحيى، وقال: قتلني فلان، ثم مات. وفي ذلك دليل على كمال قدرته، قال الله تعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْعَمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك﴾ كله ﴿فهي كالحجارة﴾ التي لما تلين أبداً ﴿أو أشد قسوة﴾، أي: بل هي أشد قسوة من الحجارة. ﴿وإن من

(١) سورة لقمان: الآية ٢٨.

الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ﴿ وإن لم يكن جارياً، ﴿ وإن منها لما يهبط ﴾ ينزل من أعلى الجبل إلى أسفله ﴿ من خشية الله ﴾ وقلوبكم لا تلين ولا تخشع.

وقوله تعالى: ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾: وعيد وتهديد، وقد قال الله تعالى: ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾^(١). وروى البزار عن أنس مرفوعاً: «أربع من الشقاء: جمود العين، وقساوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا»^(٢)، والله المستعان.



(١) سورة الحديد: الآية ١٦.

(٢) أخرجه البزار - كما في مختصر زوائد البزار - (٤٥٦/٢)، وابن عدي في الكامل (١٩٣/٢)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢٤٦/١) وأيضاً في الحلية (١٧٥/٦)، بسند ضعيف.

الدرس التاسع

﴿ أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمَنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا ءَامَانِيٌّ وَإِنَّ هُمْ إِلَّا يُظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ قَوْلِ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلِ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتُحَدِّثُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يَخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ؕ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَظَّتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هُنَّالَاءَ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ

وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُمْ مِّن دِينِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُواكُم مِّنكُمْ فَتَقْتُلُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَحْقُقُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥).

يقول تعالى: ﴿أفتظعمون﴾ أيها المؤمنون، ﴿أن يؤمنوا لكم﴾ يصدقوكم ويطيعوكم، ﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾ أنهم كاذبون، ومع هذا يخالفونه عمداً، كما قال تعالى: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه﴾^(١). قال ابن عباس: ﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله﴾ هم الذين سألوا موسى رؤية ربهم، فأخذتهم الصاعقة. وقال السدي: هي التوراة حرّفوها.

قال ابن كثير^(٢): وهذا الذي ذكره السدي أعم^(٣) مما ذكره ابن عباس.

وقال ابن زيد: ﴿يسمعون كلام الله ثم يحرفونه﴾. قال: التوراة التي أنزلها الله عليهم، يحرفونها، يجعلون الحلال فيها حراماً، والحرام فيها حلالاً، والحق فيها باطلاً، والباطل فيها حقاً؛ إذا جاءهم المحق برشوة، أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برشوة، أخرجوا له ذلك الكتاب، فهو فيه محق، وإذا جاءهم أحد يسألهم شيئاً، ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء، أمره بالحق، فقال الله لهم: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾^(٤).

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا الْقَوْمُ الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا

(١) سورة المائدة: الآية ١٣.

(٢) انظر تفسيره (١١٥/١).

(٣) في (الأصل): «أهم» والمثبت من «تفسير ابن كثير»، وهو الصواب.

(٤) سورة البقرة: الآية ٤٤.

نَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ .

قال ابن عباس: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا﴾، أي: أن صاحبكم رسول الله، ولكنه إليكم خاصة. ﴿وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا﴾: لا تحدثوا العرب بهذا، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم، فكان منهم، فأنزل الله: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم﴾، أي: تقرّون بأنه نبي، وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه، وهو يخبرهم أنه النبي الذي كنا ننتظر ونجد في كتابنا، اجحدوه ولا تقرّوا به.

يقول الله تعالى: ﴿أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾. وقال السدي: هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا. وقال أبو العالية: ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾، يعني بما أنزل عليكم في كتابكم من بعث محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون﴾، يقول تعالى: ﴿ومنهم أميون﴾، أي: من اليهود أميون، لا يحسنون القراءة والكتابة. قال مجاهد: الأمي: الذي لا يحسن الكتابة.

وقوله تعالى: ﴿ولا يعلمون الكتاب إلا أمانى﴾، قال ابن عباس: يعني غير عارفين بمعاني الكتاب. ﴿وإن هم إلا يظنون﴾، أي: ولا يدرون ما فيه. وقال مجاهد: ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى﴾. قال: أناس من اليهود لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئاً، وكانوا يتكلمون بالظن بغير ما في كتاب الله.

قوله عز وجل: ﴿قَوِيلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِن عِنْدِ اللَّهِ لَئِشْتَرُوا بِهِءَ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوِيلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٨﴾ .

قال الزجاج: ﴿وويل﴾ كلمة تقولها العرب لكل واقع في هلكة. قال ابن كثير^(١): هؤلاء صنف آخر من اليهود، وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله، وأكل أموال الناس بالباطل. قال ابن عباس: ﴿فويل لهم﴾، يقول: فالعذاب عليهم من الذي كتبوا بأيديهم من ذلك الكتاب، ﴿وويل لهم مما يكسبون﴾ يقول: مما يأكلون به أموال الناس.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُمْ أَمْ نَفُوتُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَظَّتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وقالوا﴾، أي: اليهود، ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾، قال ابن عباس: اليهود قالوا: لن تمسنا النار إلا أربعين ليلة، وهي مدة عبادتهم العجل. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ: أجمعوا إليّ من كان من اليهود ههنا، فقال لهم رسول الله ﷺ: من أبوكم؟ قالوا: فلان. قال: كذبتهم، بل أبوكم فلان. فقالوا: صدقت وبررت. ثم قال لهم: هل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبتك عرفت كذبتنا كما عرفته في أبينا. فقال لهم رسول الله ﷺ: من أهل النار؟ قالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها. فقال لهم رسول الله ﷺ: اخسئوا، والله لا نخلفكم فيها أبداً. ثم قال لهم رسول الله ﷺ: هل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم. قال: هل جعلتم في هذه الشاة سمّاً؟ فقالوا: نعم. قال: فما حملكم

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/١١٧).

على ذلك؟ فقالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك^(١). رواه البخاري بنحوه وغيره.

وقوله تعالى: ﴿قل أتخذتم عند الله عهداً﴾، أي: أن لا يعذبكم إلا هذه المدة، فلن يخلف الله عهده؟ قال ابن مسعود: عهداً بالتوحيد. ﴿أم تقولون على الله ما لا تعلمون﴾، أي: بل تكذبون على الله وتفترون؟ ثم قال: ﴿بلى﴾: إثبات لما ذكر من خلود النار. ﴿من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾، أي: ليس الأمر كما تمنيتم، بل الأمر أنه ﴿من عمل سيئة﴾، يعني: الشرك. ﴿وأحاطت به خطيئته﴾ مات ولم يتب، ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾، وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً. ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً﴾^(٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه. وإن رسول الله ﷺ ضرب لهم مثلاً، كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق، فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً، فأنضجوا ما قذفوا فيها»^(٣) رواه الإمام أحمد.

(١) أخرجه أحمد (٤٥١/٢)، البخاري (ح/٣١٦٩).

(٢) سورة النساء: الآيتان ١٢٣ و ١٢٤.

(٣) أخرجه أحمد (٤٠٢/١ - ٤٠٣)، والطيالسي (ص ٥٣)، والشاشي (٢/٢٣٥)، والطبراني في الكبير (٢٦١/١٠)، بسند ضعيف، لكن له شاهد من حديث سهل الساعدي - رضي الله عنه - أخرجه أحمد (٣٣١/٥)، والطبراني في الكبير (٢٠٤/٦)، وهو

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ
وَيَآلُوَالِدِينَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ
مُعْرِضُونَ﴾ (٨٣).

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾، أي: أخلصوا له العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، ﴿وبالوالدين إحسانًا﴾، أي: وصيئناهم ببر الوالدين، والإحسان إليهما. ﴿وذوي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً﴾، قال ابن عباس: أمرهم أيضاً بعد هذا الخلق، أن يقولوا: ﴿للناس حسناً﴾: أن يأمروا بلا إله إلا الله، من لم يقلها ورغب عنها، حتى يقولوها كما قالوها، فإن ذلك قرينة من الله جل ثناؤه. وقال الحسن البصري: فالحسنى من القول: أن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويصلح ويعفو ويصفح، وقال الحسن أيضاً: لين القول من الأدب الحسن الجميل، والخلق الكريم، وهو مما ارتضاه الله وأحبه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

قال ابن جرير^(١): وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن يهود بني إسرائيل، أنهم نكثوا عهده، ونقضوا ميثاقه، بعد ما أخذ الله ميثاقهم على الوفاء له، بألا يعبدوا غيره، وأن يحسنوا إلى الآباء والأمهات، ويصلوا الأرحام، ويتعطفوا على الأيتام، ويؤدوا حقوق أهل المسكنة إليهم، ويأمروا عباد الله بما أمرهم الله به، ويحثوهم على طاعته، ويقوموا الصلاة بحدودها وفرائضها، ويؤتوا زكاة أموالهم، فخالفوا أمره في ذلك كله، وتولوا عنه معرضين، إلا من عصمه الله منهم، فوفى الله بعهده وميثاقه.

(١) انظر «جامع البيان» (١/٣٩٣).

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ
 أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ
 أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ
 وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَفْذُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْتَوْمُنُونَ
 بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ
 إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْهِ أَسَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ
 عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَحْصِفُ عَنْهُمْ
 الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾، أي: لا يسفك
 بعضكم دم بعض، ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾: لا يخرج بعضكم بعضاً
 من داره، ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾: بهذا العهد، ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾: على ذلك يا معشر
 اليهود. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾، يعني: يا هؤلاء، ﴿تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا
 مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ بالمعصية والظلم.

﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَفْذُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْتَوْمُنُونَ بِبَعْضِ
 الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾. قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد عن
 سعيد بن جبير، أو عكرمة عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ
 وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ الآية، قال: أنبأهم الله بذلك من فعلهم، وقد
 حرم عليهم في التوراة سفك دمائهم، وافترض عليهم فيها فداء أسراهم، فكانوا
 فريقين: طائفة منهم بنو قينقاع وهم حلفاء الخزرج، والنضير وقريظة وهم حلفاء
 الأوس، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب، خرجت بنو قينقاع مع
 الخزرج، وخرجت النضير وقريظة مع الأوس، يظاهر كل واحد من الفريقين
 حلفاءه على إخوانه، حتى تسافكوا دماءهم بينهم، وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ما

عليهم وما لهم، والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان، ولا يعرفون جنّة ولا ناراً، ولا بعثاً ولا قيامةً، ولا كتاباً ولا حلالاً ولا حراماً، فإذا وضعت الحرب أوزارها، افتدوا أسراهم تصديقاً لما في التوراة، وأخذاً به بعضهم من بعض، يفتدي بنو قينقاع ما كان من أسراهم في أيدي الأوس، ويفتدي النضير وقريظة ما كان في أيدي الخزرج منهم، ويطلبون ما أصابوا من دمائهم، وقتلوا من قتلوا منهم فيما بينهم، مظهرة لأهل الشرك عليهم. يقول الله تعالى ذكره، حيث أنبأهم بذلك: ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾ أي: تفادونهم بحكم التوراة وتقتلونهم؟ وفي حكم التوراة: ألا يقتل، ولا يخرج من داره، ولا يظهر عليه من يشرك بالله ويعبد الأوثان من دونه، ابتغاء عرض الدنيا، ففي ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج، فيما بلغني، نزلت هذه القصة^(١).

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾ يقول: إن وجدته في يد غيرك فديته، وأنت تقتله بيدك. ﴿فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا﴾، فكان خزي بني قريظة القتل والسبي، وخزي بني النضير الجلاء والنفي من منازلهم.

﴿ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب﴾ في النار. ﴿وما الله بغافل عما تعملون. أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب﴾ السرمدي ﴿ولا هم ينصرون﴾ نعوذ بالله من ذلك.



(١) أخرجه ابن جرير (٣٩٧/١) من طريق ابن إسحاق بسند ضعيف.

الدرس العاشر

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِسْمَا أَسْرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْحِينَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٤﴾ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ أَلْدَارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٦﴾

وَلَسَجَدَتْهُمْ أَنْحَرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوَةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ
أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزْحَجِهِ، مِّنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا
يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ
بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ
رَسُولٌ بِمَا لَمْ تُهْتَوِ أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ .

يقول تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ أعطيناه التوراة، ﴿وقفينا﴾
أتبعنا، ﴿من بعده بالرسول وآتينا عيسى ابن مريم البينات﴾ وهي المعجزات،
﴿وأيدناه﴾ قويناه، ﴿بروح القدس﴾ وهو جبريل عليه السلام، كما قال تعالى:
﴿إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك
بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً وإذا علمت الكتاب والحكمة
والتوراة والإنجيل وإذا تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً
بإذني وتبريء الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كفت بني
إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر
مبين﴾^(١).

قال البغوي^(٢): وتأيد عيسى بجبريل عليه السلام، أنه أمر أن يسير معه
حيث سار، حتى صعد به إلى السماء. ﴿أفكلما جاءكم﴾ يامعشر اليهود،
﴿رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم﴾ عن الإيمان به، ﴿ففریقاً كذبتكم﴾
مثل عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، ﴿وفريقاً تقتلون﴾ مثل زكريا
ويحيى وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام؟ وقد حاولوا قتل النبي
محمد ﷺ.

(١) سورة المائدة: الآية ١١٠.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (١/٥٧).

قوله عز وجل: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا

يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ .

يقول تعالى: ﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾، أي: في أكنة، فلا تعي ولا تفقه ما جئت به يا محمد. ﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾، أي: طردهم وأبعدهم من كل خير، ﴿فقليلًا ما يؤمنون﴾، قال قتادة: معناه لا يؤمن منهم إلا قليل. وقد قال تعالى: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلًا﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِمْ فَلَعَنَّ اللَّهُ عَلَى الْكٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ .

يقول: ﴿ولما جاءهم﴾، يعني اليهود، ﴿كتاب من عند الله﴾ وهو القرآن، ﴿مصدق﴾ موافق، ﴿لما معهم﴾، يعني: التوراة. ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾، أي: وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب، يستنصرون بمجيئه على أعدائهم.

قال محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري، عن أشياخ منهم، قال: فينا والله وفيهم - يعني في الأنصار وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم - نزلت هذه القصة، يعني. ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾، قالوا: كنا قد علوناهم قهراً، دهرأ في الجاهلية، ونحن أهل شرك، وهم أهل كتاب، وهم يقولون: إن نبياً سيبعث الآن نتبعه، قد ظل زمانه، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم،

(١) سورة النساء: الآية ١٥٥.

فلما بعث الله رسوله من قریش واتبعناه، كفروا به. يقول الله تعالى: ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿بِسْمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ قَبَاءً وَبِغْضٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾^(١).

قال مجاهد: ﴿بِسْمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ يهودشروا الحق بالباطل، وكتمان ما جاء به محمد ﷺ بأن يبينوه. وقال السدي: ﴿بِسْمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ يقول: باعوا به أنفسهم. يقول: بسما اعتاضوا لأنفسهم، فرضوا به، وعدلوا إليه، من الكفر بما أنزل الله على محمد ﷺ، عن تصديقه ومؤازرته ونصرته، وإنما حملهم على ذلك البغي والحسد والكرامية، ﴿أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ولا حسد أعظم من هذا. وقال ابن عباس في قوله: ﴿قَبَاءً وَبِغْضٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ فغضب الله عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهي معهم، وغضب عليهم بكفرهم بهذا النبي الذي بعث الله إليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾، قال ابن كثير^(٢): لما كان كفرهم سببه البغي والحسد، ومنشأ ذلك التكبر، قوبلوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(٣) أي صاغرين ذليلين.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١١).

(١) أخرجه ابن جرير (٤١١/١) بسند ضعيف.

(٢) انظر تفسيره (١٢٥/١).

(٣) سورة غافر: الآية ٦٠.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمَ آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾، يعني القرآن، ﴿قَالُوا نؤمن بما أنزل علينا﴾ يعني التوراة، ﴿ويكفرون بما وراءه﴾ أي بما سواه من الكتب، ﴿وهو الحق﴾ يعني القرآن، ﴿مصدقاً لما معهم﴾ من التوراة. ﴿قل﴾ لهم يا محمد: ﴿فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾ بالتوراة، وقد نهيتم فيها عن قتل الأنبياء عليهم السلام؟.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١١).

يقول تعالى: ﴿ولقد جاءكم﴾ يا معشر اليهود، ﴿موسى بالبينات﴾ أي بالآيات الواضحات والدلائل القاطعات، ﴿ثم اتخذتم العجل﴾ معبوداً من دون الله. ﴿من بعده﴾، أي من بعد ذهابه إلى الطور لمناجاة الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلًا جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾ (١).

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاَسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَتَسَاءَلُونَكَ يَا مُرُومٌ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٢).

يقول تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور﴾ الجبل، ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا﴾، أي: استجبوا وأطيعوا، ﴿قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم﴾، قال قتادة: أشربوا حبه حتى خلس ذلك إلى قلوبهم.

(١) سورة الأعراف: الآيتان ١٤٨ و ١٤٩.

﴿قُلْ بِشْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ أن تعبدوا العجل من دون الله، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بزعمكم، وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة، من نقضكم المواثيق، وكفركم بآيات الله، وقتلكم الأنبياء، وعبادتكم العجل. وفي الحديث عن النبي ﷺ: «حك الشيء يعمي ويصم»^(١) رواه أحمد.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾^(٩٥) وَلَنَجْذِئَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ وَمَنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَزَّحٍ مِّنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾^(٩٦).

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء اليهود: ﴿إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ يعني الجنة، ﴿عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً﴾ أي خاصة، ﴿مِنَ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾ إن كنتم صادقين، ﴿فِي قَوْلِكُمْ﴾ قال ابن عباس: لو تمنوا الموت لغص كل إنسان منهم بريقه: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ﴾، أي من الأعمال السيئة. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وهذا كما دعا رسول الله ﷺ وقد نجران من النصراني إلى المباهلة، فقال علماءهم: والله لئن باهلتهم هذا النبي لا يبقى منكم عين تطرف. فعند ذلك جنحوا للسلم، وبذلوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْذِئَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ وَمَنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾، أي: وأحرص من الذين أشركوا. ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال الحسن البصري: المنافق أحرص الناس، وأحرص من المشرك على حياة. ﴿وَمَا هُوَ

(١) أخرجه أحمد (٥/١٩٤ و ٦/٦٥٠)، أبو داود (ح/٥١٣٠)، والبخاري في تاريخه (١/٢/١٥٧)، من حديث أبي الدرداء، بسند ضعيف.

بمزحزحه من العذاب أن يعمر ﴿٩٤﴾ قال ابن عباس: أي وما هو بمنجيه من العذاب، وذلك أن المشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت، فهو يحب طول الحياة، وأن اليهودي قد عرف ما له في الآخرة من الخزي. وقال ابن زيد: يهود أحرص على الحياة من هؤلاء، وقد ودّ هؤلاء لو يعمر أحدهم ألف سنة، وليس ذلك بمزحزحه من العذاب لو عُمِّر، كما عُمِّر إبليس لم ينفعه إذ كان كافراً.

قوله تعالى: ﴿والله بصير بما يعملون﴾، أي: وسيجازي كل عامل بعمله، وقد قال تعالى: ﴿أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾^(١) وباللغة التوفيق.



(١) سورة الشعراء: الآية ٢٠٥.

الدرس الحادي عشر

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوْ كَلِمَاتٍ عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَئِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هُنُوتَ وَمُرُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَكَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوْ كَلَّمَا عَنْهُدَا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ۞ .

قال ابن عباس: «حضرت عصابة من اليهود رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي؟ فقال رسول الله ﷺ: سلوا ما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة، وما أخذ يعقوب على بنيه، لئن أنا حدثتكم عن شيء ففرقتموه لتتابعنني على الإسلام؟ فقالوا: لك ذلك. فقال رسول الله ﷺ: سلوا عما شئتم. قالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن: أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل وكيف يكون الذكر منه والأنثى؟؟ وأخبرنا بهذا النبي الأمي في التوراة ومن وليه من الملائكة؟ فقال النبي ﷺ: عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعنني؟ فأعطوه ما شاء الله من عهد وميثاق. فقال: نشدتكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب مرض مرضاً شديداً، فطال سقمه، فنذر الله نذراً، لئن عافاه الله من مرضه ليحرم من أحب الطعام والشراب إليه، فكان أحب الطعام إليه لحوم الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها؟ فقالوا: اللهم نعم!! فقال رسول الله ﷺ: اللهم اشهد عليهم، وأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على

موسى، هل تعلمون أما ماء الرجل غليظ أبيض، وأن ماء المرأة رقيق أصفر، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله عز وجل؟ وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكراً بإذن الله؟ وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله عز وجل؟ قالوا: اللهم نعم!! قال: اللهم اشهد. وأنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه، ولا ينام قلبه؟ قالوا: اللهم نعم!! قال: اللهم اشهد. قالوا: أنت الآن، فحدثنا من وليك من الملائكة؟ فعندها نجامعك أو نفارقك؟؟ قال: فإن وليي جبريل، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه. قالوا: فعندها نفارقك، ولو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك، وصدقناك. قال: فما يمنعكم أن تصدقوه؟ قالوا: إنه عدونا. فأنزل الله عز وجل: ﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدق لما بين يديه﴾ إلى قوله: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ فعندها باءوا بغضب على غضب^(١).
رواه ابن جرير.

زاد ابن إسحاق: «قالوا: فأخبرنا عن الروح؟ قال فأنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلمون أنه جبريل، وهو الذي يأتيني؟ قالوا: اللهم نعم، ولكنه عدو لنا، وهو ملك إنما يأتي بالشدة وسفك الدماء، فلولا ذلك اتبعناك. فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿قل من كان عدواً لجبريل﴾ إلى قوله: ﴿لا يعلمون﴾.

وقوله تعالى: ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون﴾. يقول تعالى: ولقد أنزلنا إليك يا محمد آيات بينات واضحات، وما يكفر بها إلا الفاسقون الخارجون عن أمر الله، ﴿أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم﴾.

قال البغوي^(٢): أو كلما واو العطف دخلت عليها ألف الاستفهام. وقال ابن

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٤٣١/١).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٦٢/١).

عباس: قال ابن صوريا لرسول الله ﷺ: يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك، فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾، وقال أيضاً: «قال مالك بن الصيف^(١) حين بعث رسول الله ﷺ وذكر لهم^(٢) ما أخذ الله عليهم من الميثاق، وما عهد إليهم في محمد ﷺ: والله ما عهد إلينا في محمد، وما أخذ علينا ميثاقاً. فأنزل الله تعالى ﴿أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم﴾.

وقال الحسن البصري في قوله: ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ قال: نعم ليس في الأرض عهد يعاهدون عليه إلا نقضوه، ونبذوه. يعاهدون اليوم ويتقضون غداً. وقال السدي: لا يؤمنون بما جاء به محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾ يقول تعالى: ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله﴾، يعني محمداً ﷺ، ﴿مصدق لما معهم﴾ من التوراة، ﴿نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم، كأنهم لا يعلمون﴾ ما فيها من صفة محمد ﷺ، كما قال تعالى في المؤمنين منهم: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾^(٣).

قال قتادة في قوله: ﴿كأنهم لا يعلمون﴾ قال: إن القوم كانوا يعلمون، ولكنهم نبذوا علمهم، وكتموه وجحدوا به. وقال الشعبي: كانوا يقرأون التوراة

(١) في (الأصل): «الصلة» وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن جرير وابن كثير.

(٢) في (الأصل): «وذكرهم»، والمثبت من تفسير ابن جرير.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

ولا يعملون بها، وقال سفيان بن عيينة: أدرجوها في الحرير، والديباج، وحلوها بالذهب والفضة، ولم يعملوا بها، فذلك نبذهم.

قوله عز وجل: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيْطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَرْوَتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَرَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لِمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿واتبعوا ما تلتو الشياطين﴾ الآية: وكان حين ذهب ملك سليمان ارتد فتام من الجن والإنس، واتبعوا الشهوات، فلما أرجع الله إلى سليمان ملكه، وقام الناس على الدين كما كان، وأن سليمان ظهر على كتبهم فدفنها تحت كرسيه، وتوفي سليمان عليه السلام حدثان ذلك، فظهر الإنس والجن على الكتب بعد وفاة سليمان، وقالوا: هذا كتاب من الله نزل على سليمان فأخفاه عنا، فأخذوا به فجعلوه ديناً، فقال تعالى: ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم﴾ الآية، واتبعوا الشهوات التي كانت تلتو الشياطين، وهي المعازف واللعب، وكل شيء يصد عن ذكر الله.

وقال أيضاً: كان آصف كاتب سليمان، وكان يعلم الاسم الأعظم، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه، فلما مات سليمان أخرجته الشياطين فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً، وقالوا: هذا الذي كان سليمان يعمل بها. قال: وكفره جهال الناس وسبوه، ووقف علماء الناس، فلم يزل جهال الناس

يسبونه حتى أنزل الله على محمد ﷺ ﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا﴾.

وقوله تعالى: ﴿يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت﴾، أي: ويعلمون الذي أنزل على الملكين أي إلهاماً وعلماً، فالإنزال هنا بمعنى الإلهام والتعليم.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (لما وقع الناس من بعد آدم عليه السلام فيما وقعوا فيه من المعاصي والكفر بالله، قالت الملائكة في السماء: يا رب هذا العالم الذي إنما خلقتهم لعبادتك وطاعتك، قد وقعوا فيما وقعوا فيه، وركبوا الكفر وقتل النفس، وأكل المال الحرام والزنا والسرقه وشرب الخمر، فجعلوا يدعون عليهم ولا يعذرونهم، فقيل: إنهم في غيب فلم يعذروهم، فقيل لهم: اختاروا من أفضلكم ملكين أمرهما وأنهاهما، فاختاروا هاروت وماروت، فأهبطا إلى الأرض وجعل لهما شهوات بني آدم، وأمرهما الله أن يعبداه ولا يشركا به شيئاً، ونهيا عن قتل النفس الحرام، وأكل المال الحرام، وعن الزنا والسرقه وشرب الخمر، فلبثا في الأرض زماناً يحكمان بين الناس بالحق، وذلك في زمان إدريس عليه السلام، وفي ذلك الزمان امرأة حسنها في النساء كحسن الزهرة في سائر الكواكب، وأنها أتيا لها، فخضعا لها في القول، وأراداها على نفسها، فأبت إلا أن يكونا على أمرها وعلى دينها، فسألاها عن دينها، فأخرجت لها صنماً، فقالت: هذا أعبد، فقالا: لا حاجة لنا في عبادة هذا، فذهبا فعبرا ما شاء الله، ثم أتيا عليها فأراداها على نفسها، ففعلت مثل ذلك، فذهبا ثم أتيا عليها، فأراداها على نفسها، فلما رأت أنهما قد أبيا أن يعبدا الصنم، قالت لهما: اختارا أحد الخلال الثلاث: إما أن تعبدا هذا الصنم، وإما أن تقتلا هذه النفس، وإما أن تشربا هذه الخمر، فقالا: كل هذا لا ينبغي، وأهون هذا شرب الخمر، فشربا الخمر فأخذت فيهما، فواقعا المرأة، فخشيا أن يخبر الإنسان عنهما، فقتلاه فلما

ذهب عنهما السكر، وعلما ما وقعا فيه من الخطيئة أرادا أن يصعدا إلى السماء، فلم يستطيعا، وحيل بينهما وبين ذلك، وكشف الغطاء فيما بينهما وبين أهل السماء، فنظرت الملائكة إلى ما وقعا فيه، فعجبوا كل العجب، وعرفوا أنه من كان في غيب فهو أقل خشية، فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لمن في الأرض، فتزل في ذلك ﴿والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض﴾^(١)، فقبل لهما: اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة، فقالا: أما عذاب الدنيا فإنه ينقطع ويذهب، وأما عذاب الآخرة فلا انقطاع له. فاختارا عذاب الدنيا، فجعلا ببابل فهما يعذبان^(٢).

قال ابن كثير^(٣): فهذا أقرب ما روي في شأن الزهرة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وما يعلمان من أحد حتى يقولاً إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾ قال ابن عباس: فإذا أتاهما الآتي يريد السحر نهياه أشد النهي، وقالا له: إنما نحن فتنة فلا تكفر، وذلك أنهما علما الخير والشر، والكفر والإيمان، فعرفا أن السحر من الكفر. قال: فإذا أبى عليهما أمراه أن يأتي مكان كذا وكذا، فإذا أتاه عاين الشيطان فعلمه فإذا تعلمه خرج منه النور.

وقوله تعالى: ﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾. قال سفيان الثوري: معناه إلا بقضائه وقدرته ومشيئته. وقال الحسن: من شاء الله سلطهم عليه، ومن لم يشأ الله لم يسلط. وقوله تعالى: ﴿ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾، أي: يضرهم في دينهم، وليس له نفع يوازي ضرره.

(١) سورة الشورى: الآية ٥.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/٧٠ب - ١/٧١)، وفي سنده ضعف، وروي مثله عن الربيع: أخرجه ابن جرير (١/٤٥٧ - ٤٥٨).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/١٤٠).

وقوله تعالى: ﴿ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق﴾. قال ابن عباس: من نصيب. وقال قتادة: ولقد علم أهل الكتاب فيما عهد الله إليهم أن الساحر لا خلاق له في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون﴾، قال ابن كثير^(١): يقول تعالى: ولبئس البديل ما استبدلوا به من السحر عوضاً عن الإيمان ومتابعة الرسول، لو كان لهم علم بما وعظوا به ﴿ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير﴾، أي: ولو أنهم آمنوا بالله ورسله واتقوا المحارم لكانت مثوبة الله على ذلك خيراً لهم مما اختاروا لأنفسهم، ورضوا به، كما قال تعالى: ﴿وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون﴾، وروي أن الوليد بن عقبة كان عنده ساحر يلعب بين يديه، فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيرد إليه رأسه، فقال الناس: سبحان الله، يحيي الموتى. ورآه رجل من صالحى المهاجرين، فلما كان الغد جاء مشتملاً على سيفه وذهب يلعب لعه ذلك، فاخترط الرجل سيفه فضرب عنق الساحر، فقال: إن كان صادقاً فليحيي نفسه، وتلا قوله تعالى: ﴿أفتأتون السحر وأنتم تبصرون﴾^(٢)، فغضب الوليد إذ لم يستأذنه في ذلك، فسجنه ثم أطلقه. وروى البزار عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «من أتى كاهناً أو ساحراً فصدق بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»^(٣).

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/١٤٤).

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٣.

(٣) أخرجه الطيالسي (ص ٥٠)، والشاشي (ح/٨٩١) والبزار (٥/٢٥٦) والطبراني (١٠/٩٣)

والبيهقي (٨/١٣٦)، وهو موقوف صحيح في حكم المرفوع.

الدرس الثاني عشر

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا
 وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
 وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ
 مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١١٠﴾ مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ
 بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١١﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٢﴾ أَمْ
 تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ
 بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١١٣﴾ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ
 يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ
 الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ءَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١٤﴾
 وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ
 اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ
 نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٦﴾
 بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
 يَحْزَنُونَ ﴿١١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ
 عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ
 بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا
 أَنْظَرْنَا وَأَسْمِعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ .

خاطب الله تعالى المؤمنين في ثمانية وثمانين موضعاً من القرآن، وهذا نهي
 من الله تعالى للمؤمنين أن يتشبهوا باليهود في قولهم: «راعنا» وذلك أن المسلمين
 كانوا يقولون: راعنا يا رسول الله، من المراعاة، أي: أراعنا سمعك، وكانت هذه
 اللفظة من الرعونة بلغة اليهود، يسبون بها النبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿من الذين
 هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا
 ليا بألسنتهم وطعنا في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان
 خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾^(١) وفي الحديث:
 «من تشبه بقوم فهو منهم»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿واسمعوا﴾، أي: ما تؤمرون به، وأطيعوا ﴿وللكافرين
 عذاب أليم﴾ .

قوله عز وجل: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا
 الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ
 يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ .

يبين تعالى عداوة الكافرين وحسدهم للمؤمنين؛ ليقطع المودة بينه
 وبينهم .

(١) سورة النساء: الآية ٤٦ .

(٢) أخرجه أحمد (٢/٥٠)، وأبو داود (ح/٤٠٣١) عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال ابن
 تيمية في «الافتضاء» (١/٢٣٦): «وهذا إسناد جيد» .

وقوله تعالى: ﴿والله يختص برحمته من يشاء﴾، أي: ممن علم فيهم خيراً.
﴿والله ذو الفضل العظيم﴾.

قوله عز وجل: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾.

قال ابن عباس: ﴿ما ننسخ من آية﴾ ما نبدل من آية. وقال قتادة: كان الله عز وجل يُنسى نبيه ﷺ ما يشاء، وينسخ ما يشاء.

وقوله تعالى: ﴿نأت بخير منها أو مثلها﴾ قال ابن عباس: يقول: خير لكم في المنفعة وأرفق بكم. وقال قتادة: آية فيها تخفيف، فيها رخصة، فيها أمر، فيها نهى.

وقوله تعالى: ﴿ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير﴾، أي: من النسخ وغيره، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه. قال البغوي^(١): (والنسخ على وجوه: أحدها: أن يثبت الخط وينسخ الحكم، مثل آية الوصية للأقارب، وآية عدة الوفاة بالحول، وآية التخفيف في القتل، وآية الممتحنة، ونحوها).

ومنها: أن يرفع أصلاً عن المصحف وعن القلوب، ثم من نسخ الحكم ما يرفع ويقام غيره مقامه، كما أن القبلة نسخت من بيت المقدس إلى الكعبة، والوصية للأقارب نسخت بالميراث.

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٦٧).

ومنها: ما يرفع ولا يقام غيره مقامه كإمتحان النساء. والنسخ إنما يعترض على الأوامر والنواهي، دون الأخبار) انتهى ملخصاً.

وقوله تعالى: ﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ يخبر تعالى أن ملك السموات والأرض ومن فيهما بيده، يفعل ما يشاء في ملكه، ويحكم ما يريد، ألا له الخلق والأمر لا يستل عما يفعل، وهم يسألون، والله يحكم لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب، وقد قال تعالى: ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل﴾.

قال ابن كثير^(٢): نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة عن كثرة سؤال النبي ﷺ عن الأشياء قبل كونها، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حلِيم قد سألتها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾^(٣) وعن ابن عباس قال: «قال رافع بن حريملة، وهب بن زيد: يا محمد، اتتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه، وفجر لنا أنهاراً نتبعك ونصدقك، فأنزل الله من قولهم ﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل﴾.^(٤)

(١) سورة النحل: الآيتان ١٠١ و ١٠٢.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/١٥٢).

(٣) سورة المائدة: الآيتان ١٠١ و ١٠٢.

(٤) أخرجه ابن جرير (١/٤٨٣) بسند ضعيف.

قوله عز وجل: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقَّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١١﴾﴾ .

يقول تعالى: ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم﴾ يا معشر المؤمنين ﴿من بعد إيمانكم كفاراً، حسداً﴾، أي: يحسدونكم حسداً، ﴿من عند أنفسهم﴾، أي: من تلقاء أنفسهم، ﴿من بعدما تبين لهم الحق﴾ في التوراة، أن قول محمد صدق، ودينه حق، ﴿فاعفوا واصفحوا﴾، اتركوا وتجاوزوا ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾، بعذابه، أي: القتل والسبي لبني قريظة، والجلاء والنفي لبني النضير. قال ابن عباس: ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾، فإن شاء هداهم، وإن شاء انتقم منهم.

وقوله تعالى: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير﴾ يحث تعالى عباده المؤمنين على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ويرغبهم في الأعمال الصالحة، ويخبرهم أنها مدخرة لهم عند ربهم، كما قال تعالى: ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً﴾ وقال تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٢﴾ بَلَىٰ مَن أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٣﴾﴾ .

(١) سورة الزلزلة: الآية ٧.

يقول تعالى: ﴿وقالوا﴾، أي: أهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ ادعت كل طائفة أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها ﴿تلك أمانيتهم﴾ قال أبو العالية: أمني تمنوها على الله بغير حق، وهذا المقام كقوله تعالى: ﴿ليس بأمانيتكم ولا أمني أهل الكتاب من يعمل سوء يجز به﴾^(١) وقوله: ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾^(٢).

قال تعالى: قل يا محمد «هاتوا برهانكم»: حججتكم، ﴿إن كنتم صادقين﴾ فيما تدعون، ثم قال رداً عليهم: ﴿بلى من أسلم وجهه﴾، أي: ليس كما قالوا، بل الحكم للإسلام، وإنما يدخل الجنة من أسلم وجهه لله، أي: أخلص دينه لله، ﴿وهو محسن﴾ في عمله، ﴿فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾، قال سعيد بن جبير: فلا خوف عليهم، يعني في الآخرة، ولا هم يحزنون، يعني لا يحزنون للموت.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۗ قَالَ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار يهود، فتنازعا عند رسول الله ﷺ، فقال رافع بن حرملة: ما أنتم على شيء. وكفر بعيسى وبالإنجيل. وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما

(١) سورة النساء: الآية ١٢٣.

(٢) سورة المائدة: الآية ١٨.

أتم على شيء. وجحد بنبوة موسى وكفر بالتوراة، فأنزل الله في ذلك من قولهما: ﴿وقالت اليهود ليست النصرارى على شيء وقالت النصرارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب﴾^(١) قال: إن كلا يتلو في كتابه تصديق من كفر به، أن يكفر اليهود بعيسى؛ وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى، وفي الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى، وما جاء من التوراة من عند الله، وكل يكفر بما في يد صاحبه.

وقوله تعالى: ﴿كذلك قال الذين لا يعلمون﴾، أي: الجهال من الأمم ﴿مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة﴾ يقضي بين المحق والمبطل ﴿فيما كانوا فيه يختلفون﴾ كما قال تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصرارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم﴾^(٣) وبالله التوفيق.



(١) أخرجه ابن جرير (٤٩٥/١) بسند ضعيف.

(٢) سورة الحج: الآية ١٧.

(٣) سورة سبأ: الآية ٢٦.

الدرس الثالث عشر

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَنَّ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَافِيَةً لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَٰؤا فَوَجَّهَ اللَّهُ إِلَيْكَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا أَخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ لَمْ يَأْتِ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٗ قَدِيْنٌ ﴿١١٦﴾ بَدِيْعُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُوْلُ لَهُ كُنْ فَيَكُوْنُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُوْنَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِيْنَا ءَايَةٌ كَذٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشٰبَهَتْ قُلُوْبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُوْنَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيْرًا وَنَذِيْرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيْمِ ﴿١١٩﴾ وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وٰلِيٍّ وَلَا نَصِيْرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتٰبَ يَتْلُوْنَهُ حَتَّىٰ تَلَٰوِيْتَهُ أُوْلٰئِكَ يُؤْمِنُوْنَ بِهِ ؕ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ؕ فَأُوْلٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُوْنَ ﴿١٢١﴾ يٰٓبَنِي إِسْرٰءِيْلَ اذْكُرُوْا نِعْمَتِيَ الَّتِيْ اَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّيْ فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعٰلَمِيْنَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُوْنَ ﴿١٢٣﴾ ۞

* * *

قوله عز وجل ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

قال قتادة: أولئك أعداء الله النصارى، حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بختنصر البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس. وقال ابن زيد: هؤلاء المشركون الذين حالوا بين رسول الله ﷺ وأصحابه يوم الحديبية، وبين أن يدخلوا مكة حتى نحر هديه بذئ طوى وهادنهم، وقال لهم ما كان أحد يصد عن هذا البيت، وقد كان الرجل يلقي قاتل أبيه وأخيه فلا يصد، فقالوا: لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باق.

وفي قوله: ﴿ وسعى في خرابها ﴾. قال: إذ قطعوا من يعمدها بذكره، ويأتيها للحج والعمرة. والآية عامة في كل من سعى في خراب المساجد بمنع العبادة فيها، أو بهدمها.

وقوله تعالى: ﴿ أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ﴾ خبر معناه الطلب، أي لا تمكنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها إلا تحت الهدنة، أو الجزية ﴿ لهم في الدنيا خزي ﴾، قال قتادة: هي القتل للحربي، والجزية للذمي. ﴿ ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ وهو النار، وفي الدعاء المأثور عن النبي ﷺ: «اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة»^(١). رواه أحمد.

(١) أخرجه أحمد (١٨١/٤)، والطبراني في الدعاء (ح/١٤٣٦)، وابن حبان - كما في الإحسان - (١٥٠/٢) عن بُسر بن أرطاة، وفي سنده ضعف والله أعلم.

قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَؤُوا فِثْمَ وَجْهِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (١١٥).

قال ابن عباس: أول ما نسخ من القرآن - فيما ذكر لنا، والله أعلم -، شأن القبلة. قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَؤُوا فِثْمَ وَجْهِ اللَّهِ، فاستقبل رسول الله ﷺ فصلى نحو بيت المقدس، وترك البيت العتيق، ثم صرفه إلى بيته العتيق، ونسخها. فقال: ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾، وعن ابن عمر: «أنه كان يصلي حيث توجهت به راحلته ويذكر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك» ويتأول هذه الآية: ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾^(١). رواه مسلم وغيره، وهذا في التطوع. وعن ابن عباس قال: «خرج نفر من أصحاب رسول الله ﷺ قبل تحويل القبلة إلى الكعبة، فأصابهم الضباب وحضرت الصلاة، فتحروا القبلة وصلوا، فلما ذهب الضباب استبان لهم أنهم لم يصيبوا، فلما قدموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فنزلت هذه الآية».

وقوله تعالى: ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾.

قال الكلبي: فثمَّ الله يعلم ويرى ﴿إن الله واسع عليم﴾ أي واسع الرحمة، عليم بالأعمال والنيات، كما قالت الملائكة: ﴿ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذٍ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم﴾^(٢).

(١) أخرجه مسلم (٤٨٦/١ - ٤٨٧).

(٢) سورة غافر: الآيات ٧ - ٩.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَلَدًا سُبْحَانَ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَدِينُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ .

يقول تعالى: ﴿وقالوا﴾ أي اليهود والنصارى وغيرهم من الكفرة، ﴿اتخذ الله ولدا﴾، كما قال تعالى: ﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿سبحانه﴾، أي: تعالى وتنزهه وتقدس عن ذلك علواً كبيراً، ﴿بل له ما في السموات والأرض﴾ ملكاً وعبيداً، «كل له قانتون». كما قال تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إداً تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدهم عدداً وكلهم آتية يوم القيامة فرداً﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم﴾^(٣)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فيزعم أنى لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله إن لي ولداً، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً﴾^(٤). رواه البخاري، وللترمذي: «وأما شتمه إياي فقوله

(١) سورة التوبة: الآية ٣٠.

(٢) سورة مريم: الآيات ٨٨ - ٩٥.

(٣) سورة الأنعام: الآيتان ١٠٠ و ١٠١.

(٤) أخرجه البخاري (ح/٤٤٨٢).

اتخذ الله، ولدأ، وأنا الله الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً
أحد»^(١).

وفي الصحيحين: «لا أحد أصبر على أذى سمعه، من الله يجعلون له ولدأ
وهو يرزقهم ويعافيهم»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: مبدعهما ومنشئهما من غير
مثال سبق. ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾، أي: إذا قدر أمراً وأراد
كونه كان بكن، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن
فَيَكُونُ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ
لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾^(٤).

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا
آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(١١٨).

قال ابن عباس: «قال رافع بن حريملة لرسول الله ﷺ: يا محمد، إن كنت
رسولاً من الله كما تقول، فقل لله فيكلمنا حتى نسمع كلامه، فأنزل الله في ذلك من
قوله: ﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية﴾، وقال أبو العالية
وغيره: هذا قول كفار العرب. ﴿كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم﴾. قال:

(١) ليست هذه الرواية عند الترمذي قطعاً، بل هي عند ابن مردويه — كما عزاها ابن كثير له
(١٦٠/١) — ولعل المؤلف — رحمه الله — لما رأى في سند ابن مردويه: «محمد بن

إسماعيل الترمذي» ظن أنه الترمذي صاحب السنن.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٦٠٩٩)، ومسلم (ح/٢٨٠٤).

(٣) سورة يس: الآية ٨٢.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٥٩.

هم اليهود والنصارى. وقد قال تعالى: ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿تشابهت قلوبهم﴾، أي: في الكفر والقسوة والعناد كما قال تعالى: ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصو به بل هم قوم طاغون﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿قد بينا الآيات لقوم يوقنون﴾، أي: قد أوضحنا الدلالات على صدق الرسل لمن أيقن وصدق، وأما من ختم الله على قلبه واتبع هواه، فلا تنفع فيه الموعظة. كما قال تعالى: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾^(٣).

قوله عز وجل: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾^(١١٩).

يقول تعالى: إنا أرسلناك «يا محمد»: بالحق أي بالصدق، «بشيراً ونذيراً»، أي: مبشراً للمؤمنين بالجنة، ومنذراً للعاصين، أي مخوفهم من النار.

وقوله تعالى: ﴿ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾، أي لا نسألك عن كفر، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

قوله عز وجل: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾^(١٢٠).

(١) سورة الفرقان: الآية ٢١.

(٢) سورة الذاريات: الآية ٥٣.

(٣) سورة يونس: الآية ٩٦.

قال ابن عباس: هذا في القبلة، وذلك أن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون النبي ﷺ حين كان يصلي إلى قبلتهم، فلما صرف الله القبلة إلى الكعبة أيسوا منه أن يوافقهم على دينهم، فأنزل الله تعالى: ﴿ولن ترضى عنك اليهود﴾ إلا باليهودية ﴿ولا النصارى﴾ إلا بالنصرانية. والملة: الطريقة.

وقوله تعالى: ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾، أي: إن هدى الله الذي بعثني به هو الدين الصحيح.

وقوله تعالى: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير﴾ فيه تهديد ووعيد شديد لمن اتبع طرائق اليهود والنصارى من هذه الأمة. قال ابن كثير^(١): وقد استدلل كثير من الفقهاء بقوله حتى تتبع ملتهم على أن الكفر كله ملة واحدة، فيرث كل منهم قريبه. والله أعلم، انتهى، ملخصاً.

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

قال ابن مسعود: والذي نفسي بيده إن حق تلاوته أن يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويقراه كما أنزل الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله. وقال الحسن: يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه.

وقوله تعالى: ﴿أولئك يؤمنون به﴾، أي: من أقام كتابه آمن بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم﴾^(٢).

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/١٦٣).

(٢) سورة المائدة: الآية ٦٨.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»^(١).

قوله عز وجل: ﴿يٰٓبَنِي إِسْرٰٓءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي اٰنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَاِنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ وَاَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

قد تقدم نظير هذه الآية في أول السورة، وكررت ههنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول محمد ﷺ، والتحذير من الحسد وكتمان العلم، وبالله التوفيق.



(١) أخرجه مسلم (ح/١٥٣)

الدرس الرابع عشر

﴿ وَإِذْ أُنزِلَتْ إِبراهيمَ ربهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٧﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٩﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٣٠﴾ ﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٥﴾ .

يقول تعالى: واذكر يا محمد ﴿ إذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن ﴾، أي: قام بجميع ما كلفه الله به من الأوامر والنواهي، كما قال تعالى: ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ (١).

قال: ﴿ إنني جاعلك للناس إماماً ﴾ يقتدى بك في الخير جزاء على ما فعل، كما قال تعالى: ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ (٢)، قال: ﴿ ومن ذريتي ﴾، أي: ومن أولادي أيضاً فاجعل منهم أئمة يقتدى بهم.

قال الله تعالى: ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾، أي: لا يصيب عهدي من كان منهم ظالماً، ومعنى الآية: لا ينال ما عهدت إليك من النبوة والإمامة من كان ظالماً من ولدك، وأنه سيكون في ذريتك ظالمون، كما قال تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴾ (٣).

قوله عز وجل: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَافِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ .

(١) سورة النجم: الآية ٣١.

(٢) سورة السجدة: الآية ٢٤.

(٣) سورة الحديد: الآية ٢٦.

قال ابن عباس: ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس﴾، يقول: لا يقضون منه وطراً يأتونه، ثم يرجعون إلى أهلهم، ثم يعودون إليه. وقال قتادة: ﴿مثابة للناس﴾، أي: مجمعا للناس. وقال أبو العالية: ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناء﴾، يقول: وأمنا من العدو وأن يحمل فيه السلاح، وقد كانوا في الجاهلية يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمته الله إلى يوم القيامة، لا يعصده شوكة، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلي خلاه، فقال العباس: يا رسول الله إلا الأذخر، فإنه لقينهم وبيوتهم، فقال رسول الله ﷺ: إلا الأذخر»^(١).

وقوله تعالى: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾، المقام: هو الحجر الذي كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه في بناء الكعبة، وفي الحديث الصحيح عن عمر: «قلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾»^(٢)، وفي حديث جابر: «استلم رسول الله ﷺ الركن، فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم فقرأ: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾، فجعل المقام بينه وبين البيت، فصلى ركعتين»^(٣). وقال قتادة: إنما أمروا أن يصلوا عنده، ولم يؤمروا بمسحه، وروى البيهقي عن عائشة رضي الله عنها: أن المقام كان زمان رسول الله ﷺ وزمان أبي بكر ملتصقاً بالبيت، ثم أخره عمر بن الخطاب.

(١) أخرجه البخاري (ح/٣١٨٩)، ومسلم (ح/١٣٥٣). من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد (١/٢٣ - ٢٤) وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه مسلم (ح/١٢١٨).

وقوله تعالى: ﴿وَعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾. قال الحسن: أمرهما الله أن يطهراه من الأذى والنجس، ولا يصيبه من ذلك شيء. وقال مجاهد: من الأوثان والرفث، وقول الزور والرجس، وقال ابن عباس: إذا كان جالسا فهو من العاكفين.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبي، أخبرنا موسى بن إسماعيل، أخبرنا حماد بن سلمة، أخبرنا ثابت، قال: قلنا لعبد الله بن عبيد بن عمير: ما أراني إلا مكلم الأمير أن أمنع الذين ينامون في المسجد الحرام، فإنهم يُجنبون ويحدثون، قال: لا تفعل، فإن ابن عمر سئل عنهم، فقال: هم العاكفون، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصِدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءَ الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْهَادِ بظلم نذقه من عذاب أليم وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَنِيسَ الْمَصِيرُ﴾^(٢).

روى البخاري وغيره عن النبي ﷺ قال: «إن إبراهيم حرم مكة ودعوت^(٢) لها، وحرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة ودعوت لها، في مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم لمكة - ولمسلم - بمثل ما دعا إبراهيم لأهل مكة»^(٣).

(١) سورة الحج: الآيتان ٢٥ و ٢٦.

(٢) في (الأصل): «ودعا لها» وهو خطأ، والمثبت من كتب الحديث.

(٣) أخرجه البخاري (ح/٢١٢٩)، ومسلم (ح/١٣٦٠).

قال ابن كثير^(١): لا منافاة بين الأحاديث الدالة على أن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم عليه السلام حرمها؛ لأن إبراهيم بلغ عن الله حكمه فيها وتحريمه إياها.

وقوله تعالى: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، قَالَ: وَمَنْ كَفَرَ فَأَمَتَهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرَّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، عن أبي بن كعب، قال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأَمَتَهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرَّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، قال: هو قول الله تعالى. وقال ابن عباس: كان إبراهيم يحجرها على المؤمنين دون الناس، فأنزل الله: ومن كفر أيضاً أرزقهم كما أرزق المؤمنين، أأخلق خلقاً لا أرزقهم؟! أمتهم قليلاً ثم اضطروهم إلى عذاب النار وبئس المصير، ثم قرأ ابن عباس: ﴿كَلَّا نَمْدُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَضْطَرَّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، أي: ثم ألجئه بعد متاعه في الدنيا وبسطنا عليه إلى عذاب النار، «وبئس المصير»، أي: المرجع يصير إليه، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾^(٣).

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ

(١) انظر تفسيره (١٧٤/١).

(٢) سورة الإسراء: الآية ٢٠.

(٣) سورة محمد: الآية ١٢.

فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٧﴾ .

يقول تعالى: واذكر يا محمد بناء إبراهيم وإسماعيل البيت، وهما يقولان: «ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم». والقواعد: الأساس.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان، خرج بإسماعيل وأم إسماعيل، ومعهم شنة فيها ماء، فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشنة، فيدر لبنها على صبيها حتى قدم مكة، فوضعها تحت دوحة ثم رجع إبراهيم إلى أهله، فاتبعته أم إسماعيل حتى بلغوا كداء فنادته من ورائه: يا إبراهيم إلى من تركنا؟ قال: إلى الله، قالت: رضيت بالله، قال: فرجعت، فجعلت تشرب من الشنة ويدر لبنها على صبيها حتى لما فني الماء، قالت: لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحداً، فذهبت فصعدت الصفا، فنظرت هل تحس أحداً، فلم تحس أحداً، فلما بلغت الوادي سعت حتى أتت المروة، وفعلت ذلك أشواطاً حتى أتمت سبعاً، ثم قالت: لو ذهبت فنظرت ما فعل الصبي، فذهبت فنظرت فإذا هو على حاله، كأنه ينشع الموت، فلم تقرها نفسها، فقالت: لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحداً، فذهبت فصعدت الصفا فنظرت ونظرت، فلم تحس أحداً حتى أتمت سبعاً، ثم قالت لو ذهبت فنظرت ما فعل، فإذا هي بصوت، فقالت: أنمت إن كان عندك خير، فإذا جبريل عليه السلام قال: فقال بعقبه هكذا، وغمز عقبه على الأرض، قال: فانبثق الماء، فدهشت أم إسماعيل، فجعلت تحفر.

قال: فقال أبو القاسم عليه السلام: لو تركته لكان الماء ظاهراً، قال: فجعلت تشرب من الماء ويدر لبنها على صبيها، قال: فمر ناس من جرحهم ببطن الوادي، فإذا هم بطير كأنهم أنكروا ذلك، وقالوا ما يكون هذا الطير إلا على ماء، فبعثوا رسولهم فنظر، فإذا هو بالماء فأتاهم فأخبرهم، فأتوا إليها، فقالوا: يا أم إسماعيل أتأذنين لنا أن نكون معك ونسكن معك؟ قالت: نعم، فبلغ ابنها ونكح منهم امرأة.

قال: ثم إنه بدا لإبراهيم عليه السلام، فقال لأهله: إني مطلع تركتي، قال: فجاء فسلم، فقال: أين إسماعيل؟ قالت امرأته: ذهب يصيد، قال: قولي له إذا جاء: غير عتبه بابك، فلما أخبرته قال: أنت ذاك، فاذهبي إلى أهلك.

قال: ثم إنه بدا لإبراهيم، فقال: إني مطلع تركتي، قال: فجاء، فقال: أين إسماعيل؟ فقالت امرأته: ذهب يصيد، وقالت: ألا تنزل فتطعم وتشرب، فقال: ما طعامكم وما شرابكم؟ قالت طعامنا اللحم، وشرابنا الماء، قال: قال اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم.

قال: فقال أبو القاسم عليه السلام: بركة بدعوة إبراهيم.

قال: ثم إنه بدا لإبراهيم عليه السلام، فقال لأهله: إني مطلع تركتي، فجاء فوافق إسماعيل من وراء زمزم يصلح نبلاً له، فقال: يا إسماعيل، إن ربك عز وجل أمرني أن أبني له بيتاً، فقال: أطع ربك عز وجل، قال: إنه قد أمرني أن تعينني عليه، فقال: إذن أفعّل، أو كما قال. قال: فقام فجعل إبراهيم بيني وإسماعيل يناوله الحجارة، ويقولان: ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾، قال: حتى ارتفع البناء، وضعف الشيخ عن نقل الحجارة، فقام على حجر المقام، فجعل يناوله الحجارة، ويقولان: ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾^(١). رواه البخاري في أحاديث الأنبياء هكذا، ورواه أيضاً من وجه آخر بسياق أبسط من هذا.

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ألم تري أن قومك حين بنوا البيت اقتصروا عن قواعد إبراهيم؟ فقلت: يا رسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم؟ قال: لولا حدثان قومك بالكفر»^(٢). فقال عبد الله بن عمر: لئن كانت عائشة سمعت هذا من النبي صلى الله عليه وسلم، ما أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك استلام الركنين اللذين

(١) أخرجه البخاري (ح/٣٣٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (ح/١٥٨٣)، ومسلم (٢/٩٦٩، ٩٧٠).

يليان الحجر، إلا أن البيت لم يتمم على قواعد إبراهيم عليه السلام، رواه البخاري وغيره.

وفي رواية لمسلم: «لولا قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض، ولجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً، وزدت فيها ستة أذرع من الحجر، فإن قريشاً اقتصرتها حيث بنت الكعبة».

قال ابن إسحاق: وكانت الكعبة على عهد النبي ﷺ ثمانية عشر ذراعاً، وكانت تكسى القباطي، ثم كسيت بعد البرود وأول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف.

وقوله تعالى: حكاية لدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾، ﴿مسلمين﴾، مخلصين، قال سلام بن أبي مطيع: كانا مسلمين ولكنهما سألاه الثبات. وقال عكرمة: ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك﴾، قال الله: قد فعلت. ﴿ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾، قال الله: قد فعلت.

وقوله: ﴿وأرنا مناسكنا﴾، قال عطاء: أخرجها لنا، علمناها، وقال مجاهد: قال إبراهيم: ﴿أرنا مناسكنا﴾، فأتاه جبريل فأتى به البيت، فقال: ارفع القواعد، فرفع القواعد وأتم البنيان؛ ثم أخذ بيده فأخرجه فانطلق به إلى الصفا، قال: هذا من شعائر الله؛ ثم انطلق به إلى المروة، فقال: وهذا من شعائر الله؛ ثم انطلق به نحو منى، فلما كان عند العقبة إذا إبليس قائم عند الشجرة، فقال: كبر وارمه، فكبر ورماه، ثم انطلق إبليس، فقام عند الجمرة الوسطى، فلما جاز به جبريل وإبراهيم، قال له: كبر وارمه، فكبر ورماه، فذهب الخبيث إبليس، وكان الخبيث أراد أن يدخل في الحج شيئاً فلم يستطع، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام، فقال: هذا المشعر الحرام، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به عرفات، قال: قد عرفت ما أريتك؟ - قالها ثلاث مرات - قال: نعم.

وقوله: ﴿وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾، طلبا من الله التوبة والرحمة؛ لأنه لا يدخل الجنة أحد بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته.

وقوله تعالى: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾، يقول تعالى إخباراً عن تمام دعوة إبراهيم وإسماعيل أنهما قالوا: ﴿ربنا وابعث فيهم﴾، أي: في الأمة المسلمة ﴿رسولا منهم﴾، أي: محمداً ﷺ، وروى أحمد وغيره عن العرياض بن سارية قال: قال رسول الله ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طيئته، وسأنبئكم بأول ذلك، دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأيت، وكذلك أمهات النبيين يرين». وفي حديث أبي أمامة: «ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام»^(١).

وقوله تعالى: ﴿يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾، قال الحسن وغيره: الكتاب القرآن، والحكمة السنة، وقيل: الحكمة الفهم في الدين، ولا منافاة.

وقوله تعالى: ﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾، أي: ﴿العزيز﴾، الذي ليس مثله أحد ولا يعجزه شيء، ﴿الحكيم﴾، في أفعاله وأقواله فيضع، الأشياء في محلها، والله أعلم.



(١) أخرجه أحمد (٤/١٢٧)، والطبراني (١٨/٢٥٣)، وفي سنده ضعف، وله شاهد من حديث أبي أمامة: أخرجه أحمد (٥/٢٦٢)، والطبراني (٨/٢٠٥ - ٢٠٦)، وفيه ضعف أيضاً، لكن قال الهيثمي في «المجمع» (٨/٢٢٢): «إسناد أحمد حسن، وله شواهد تقويه».

الدرس الخامس عشر

﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٦﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنَئِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٧﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَجِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٨﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿١٣٩﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤٠﴾ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٤١﴾ فَإِن ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقِ فَسَيْكِفِيكَهُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٤٢﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٤٣﴾ قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٤٤﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَرَ شَهَادَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾
تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ .

يقول تعالى: ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾، أي: ما يرغب عن ملة إبراهيم الحنيفية إلا سفيه ظالم لنفسه. قال الربيع: رغبت اليهود والنصارى عن ملة إبراهيم، وابتدعوا اليهودية والنصرانية وليست من الله، وتركوا ملة إبراهيم الإسلام، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿ولقد اصطفينا﴾، أي: اخترناه في الدنيا خليلاً. ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾، أي: مع الأنبياء في الجنة.

وقوله تعالى: ﴿إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾، أي: أمره الله تعالى بالإخلاص له والاستسلام والانقياد، فأجاب إلى ذلك. وقوله تعالى: ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾، أي: وصى إبراهيم بنيه بكلمة الإخلاص: لا إله إلا الله، وهي الملة الحنيفية، وكذلك وصى بها يعقوب بنيه، كما قال تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرنى فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٧.

في عقبه لعلهم يرجعون»^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِن الله اصطفى لكم الدين﴾، أي: اختار لكم دين الإسلام، ﴿فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾، أي: استقيموا عليه حتى تموتوا، كما قال تعالى: ﴿إِن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلاً من غفور رحيم﴾^(٢). وروى مسلم وغيره عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»^(٣).

قوله عز وجل: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَايَكَ إِتْرَاهِمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلهًا وَجِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(٤).

قال ابن جرير^(٤): يقول تعالى ذكره: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ أكنتم؟ ولكنه استفهم بأم، إذ كان استفهاماً مستأنفاً على كلام قد سبقه، كما قال: ﴿ألم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه﴾^(٥)، وكذلك تفعل العرب في كل استفهام ابتدأته بعد كلام قد سبقه، تستفهم فيه بأم.

وقوله تعالى: ﴿إذ حضر يعقوب الموت﴾ قيل: نزلت في اليهود حين قالوا

(١) سورة الزخرف: الآيتان ٢٦ - ٢٨.

(٢) سورة فصلت: الآيات ٣٠ - ٣٢.

(٣) أخرجه مسلم (ح/٢٨٧٧).

(٤) انظر «جامع البيان» (١/٥٦٢).

(٥) سورة السجدة: الآية ٢.

للنبي ﷺ: ألسنت تعلم أن يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية؟ وقال الكلبي: لما دخل يعقوب مصر رآهم يعبدون الأوثان والنيران، فجمع ولده وخاف عليهم ذلك. وقوله تعالى: ﴿قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾، إسماعيل عم يعقوب، والعرب تسمي العم أبا. قال ابن زيد: يقال: بدأ بإسماعيل لأنه أكبر، واستدل بالآية من جعل الجدّ أبا وحجب به الأخوة، كما هو قول الصديق، وهو مذهب أبي حنيفة وغير واحد من السلف والخلف.

وقوله تعالى: ﴿ونحن له مسلمون﴾، أي: موحدون مطيعون خاضعون.

قوله عز وجل: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْتَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

يقول تعالى: ﴿تلك أمة قد خلت﴾، أي: مضت: ﴿لها ما كسبت﴾ من العمل ﴿ولكم ما كسبتم﴾ من خير أو شر. ﴿ولا تستلون عما كانوا يعملون﴾، كما قال تعالى: ﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾^(١). وفي الحديث: «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»^(٢). قال قتادة: ﴿تلك أمة قد خلت﴾، يعني: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب الأسباط.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

قال ابن عباس: قال عبد الله بن سوريا الأعور لرسول الله ﷺ: ما الهدى إلا

(١) سورة الأنعام: الآية ١٦٤.

(٢) أخرجه مسلم (ح/٢٦٩٩). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتد. وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾، أي: قل يا محمد: لا نريد ما دعوتونا إليه، بل نتبع ﴿ملة إبراهيم حنيفاً﴾، أي: مخلصاً مستقيماً. قال ابن عباس: الحنيف المائل عن الأديان كلها إلى دين الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿وما كان من المشركين﴾.

قال ابن جرير^(١): يقول: لم يكن ممن يدين بعبادة الأوثان والأصنام، ولا كان من اليهود ولا النصارى، ﴿بل كان حنيفاً مسلماً﴾.

قوله عز وجل: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ وَلَا نَكْفُرُ بِهِمْ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. وقولوا: ﴿آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾^(٢) «الآية. وروى مسلم وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ أكثر ما يصلي الركعتين اللتين قبل الفجر ﴿بآمننا بالله وما أنزل إلينا﴾ الآية، والآخرة ﴿بآمننا بالله وأشهد بأننا مسلمون﴾^(٣). وفي رواية: «يقرأ في ركعتي

(١) انظر «جامع البيان» (١/٥٦٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٥٣.

والحديث أخرجه مسلم (ح/٧٢٧).

الفجر: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾، والتي في آل عمران ﴿تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾^(١).

قال قتادة: الأسباط بنو يعقوب إثنا عشر رجلاً، ولد كل رجل منهم أمة من الناس فسموا الأسباط. وقال البخاري: الأسباط قبائل بني إسرائيل.
قال القرطبي^(٢): والسبط الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد. قال قتادة: أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا به ويصدقوا بكتبه كلها ورسله. وفي الحديث عن النبي ﷺ: «آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل، وليسعكم القرآن»^(٣). رواه ابن أبي حاتم.

قوله عز وجل: ﴿فَإِن آٰمَنُوا بِمِثْلِ مَا آٰمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ آٰهَتَدَوْا وَإِن قَوْلُوا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

يقول تعالى: فإن آمن الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم ﴿بمثل ما آمنتم به﴾، أي: بجميع كتب الله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿فقد اهتدوا﴾ إلى الحق ﴿وإن تولوا﴾ عن ذلك، ﴿فإنما هم في شقاق﴾، أي: في خلاف ومنازعة، قاله ابن عباس. ﴿فسيكفيهم الله﴾، أي: فسيكفيك شرهم وينصرك عليهم، ﴿وهو السميع العليم﴾.

وقوله تعالى: ﴿صبغة الله﴾، أي: دين الله، سماه صبغة لأنه يظهر أثر الدين على المتدين، كما يظهر أثر الصبغ على الثوب. ﴿ومن أحسن من الله صبغة﴾.

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٤.

والحديث أخرجه مسلم (٥٠٢/١).

(٢) انظر «جامع الأحكام» (١٤١/٢).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/٩٢). بسند ضعيف جداً.

قال قتادة: إن اليهود تصبغ أبناءها يهوداً والنصارى تصبغ أبناءها نصارى، وإن صبغة الله الإسلام، فلا صبغة أحسن من الإسلام ولا أظهر، وهو دين الله الذي بعث به نوحاً والأنبياء بعده.

قوله عز وجل: ﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهِ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مِمَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ .

يقول تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المعاندين ﴿أتحاجوننا في الله﴾، أي: في توحيد الله؟ ﴿وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾، أي: لكل جزاء عمله، فكيف تدعون أنكم أولى بالله ﴿ونحن له مخلصون﴾، وأنتم به مشركون؟ قال سعيد بن جبير: الإخلاص أن يخلص العبد دينه وعمله، فلا يشرك به في دينه، ولا يرائي بعمله.

﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أنتم أعلم أم الله﴾، أي: ﴿قل﴾ يا محمد: أنتم أعلم بدينهم أم الله؟ وقد أخبر الله تعالى: أن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين، وإن أولى الناس به محمد والمؤمنون.

وقوله تعالى: ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾، قال الحسن: كانوا يقرأون في كتاب الله الذي أتاهم أن الدين الإسلام، وأن محمداً رسول الله، وأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا براء من اليهودية والنصرانية، فشهدوا لله بذلك، وأقروا على أنفسهم لله، فكتموا شهادة الله عندهم

من ذلك . وعن قتادة: قوله: ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾ . قال: الشهادة النبي ﷺ مكتوب عندهم، وهو الذي كتموا.

وقوله تعالى: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ تهديد ووعيد. ﴿تلك أمة قد خلت﴾ . أي مضت. ﴿لها ما كسبت ولكم ما كسبتم﴾ ، أي: لهم أعمالهم ولكم أعمالكم. ﴿ولا تسئلون عما كانوا يعملون﴾ ، كما قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون﴾^(١) والله أعلم.



(١) سورة الجاثية: الآية ١٥ .

الدرس السادس عشر

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ
 الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً
 وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا
 الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ
 كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّكُمْ إِنْ كَانَتِ
 بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ زُرِيَ ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً
 تَرْضَاهَا قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ
 شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا
 يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ
 بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ
 مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ
 يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ
 مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلَاهَا فَاسْتَبِقُوا الْحَيْرَاتِ إِنَّ
 مَا تَكُونُوا يَأْتِي بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ
 خَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ
 عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ

قُولُوا وُجُوهَكُمْ سَطْرًا لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمَنَىٰ عَلَيْكُمْ وَعَلَىٰكُمْ تَهَتَدُونَ ﴿١٥٦﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥٧﴾ فَأَذْكُرِكُمْ أَذْكُرِكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ ﴿١٥٨﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٩﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ءَمَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٦٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٦١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٦٢﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴿

* * *

قوله عز وجل: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ
الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ .

يقول تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾، أي: الجاهل وهم اليهود والمنافقون.
﴿مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمْ﴾، أي: شيء صرفهم وحولهم ﴿عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا
عَلَيْهَا﴾ يعني بيت المقدس.

قال ابن عباس: «لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت
المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، وكان
رسول الله ﷺ يحب قبة إبراهيم، فكان يدعو الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله عز
وجل ﴿فُولُوا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ فارتاب من ذلك اليهود وقالوا: ﴿مَا وَلَاهُمْ عَنْ
قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ فأنزل الله ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. (١)

وروى الإمام أحمد من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال
رسول الله ﷺ يعني في أهل الكتاب «إنهم لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا
على يوم الجمعة، التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها
وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين» (٢).

(١) أخرجه ابن جرير (٥/٢)، وفيه انقطاع. وبنحوه أخرجه ابن ماجه (ح/٨٥٦)، وابن خزيمة

(١/٢٨٨) عن عائشة مرفوعاً: «ما حسدتكم اليهود على شيء، ما حسدتكم على السلام

والتأمين»، وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (٦/١٣٥).

قوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

يقول تعالى: ﴿وكذلك﴾ كما هديناكم صراطاً مستقيماً، ﴿جعلناكم أمة وسطاً﴾، أي: عدلاً خياراً، كما قال تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾، أي: على الأمم بتبليغ رسلكم. وروى الإمام أحمد وغيره عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمه. قال: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾. قال: والوسط العدل. فتدعون فتشهدون له بالبلاغ، ثم أشهد عليكم»^(٢). رواه البخاري وغيره.

وفي رواية لأحمد: يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجلان، وأكثر من ذلك، فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا، فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمه، فيدعى محمد وأمه فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما أعلمكم؟ فيقولون: جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا، فذلك قوله عز وجل: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ قال: عدلاً، ﴿لتكونوا شهداء على

(١) سورة آل عمران: الآية ١١٠.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٤٨٧).

الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴿١﴾.

وروى أحمد وغيره عن النبي ﷺ: «يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم. قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: بالثناء الحسن والثناء السيئ، أنتم شهداء الله في الأرض» ﴿٢﴾.

وفي الحديث الآخر: «أبما مسلم شهد له أربعة بخير، أدخله الله الجنة، قال: فقلنا: وثلاثة؟ قال: فقال: وثلاثة. قال: فقلنا: واثنان؟ قال: واثنان. ثم لم نسأله عن الواحد» ﴿٣﴾. رواه البخاري وغيره.

وقوله تعالى: ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾، كما قال تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً﴾ ﴿٤﴾ قال قتادة: ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾، أي: أن رسلهم قد بلغت قومها عن ربها، ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ على أنه قد بلغ رسالات ربه إلى أمته.

وقوله تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله﴾ قال ابن كثير ﴿٥﴾: (يقول تعالى: إنما شرعنا لك يا محمد التوجه أولاً إلى بيت المقدس، ثم صرفناك

(١) أخرجه أحمد (٥٨/٣)، والترمذي (ح/٢٩٦١) وقال «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٢٩٢/٦)، وهو صحيح.

(٢) أخرجه ابن مردويه كما عزاه له ابن كثير وبنحوه: أخرجه أحمد (٤١٦/٣ و ٤٦٦)، وابن ماجه (ح/٤٢٢١)، قال ابن حجر في «الإصابة» (٧٧/٤): «حسن غريب». وقال الهيثمي في الزوائد: «إسناده صحيح».

(٣) أخرجه البخاري (ح/٢٦٤٣).

(٤) سورة النساء: الآيتان ٤١ و ٤٢.

(٥) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/١٩١).

عنها إلى الكعبة، ليظهر حال من يتبعك ويطيعك، ويستقبل معك حيثما توجهت ﴿ممن ينقلب على عقبيه﴾، أي: مرتدأ عن دينه. ﴿وإن كانت لكبيرة﴾، أي: هذه الفعل، وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة، أي: وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس، ﴿إلا على الذين هدى الله﴾ قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول، وإن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه، وأن الله يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، فله أن يكلف عباده بما شاء وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾، أي: صلاتكم إلى بيت المقدس. كما في الصحيح عن البراء قال: «مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس، فقال الناس: ما حالهم في ذلك؟ فأنزل الله ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾».

وقوله تعالى: ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾، أي: فلا يضيع أجورهم، فإن الله أرحم بهم من والديهم.

قوله عز وجل: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

قال ابن إسحاق: حدثني إسماعيل بن أبي خالد عن أبي إسحاق عن البراء قال: «كان رسول الله ﷺ يصلي نحو بيت المقدس، ويكثر النظر إلى السماء، ينظر أمر الله، فأنزل الله: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ فقال رجال من المسلمين: وددنا لو علمنا من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس؟ فأنزل الله ﴿وما

كان الله ليضيع إيمانكم ﴿١﴾. وقال السفهاء من الناس، وهم أهل الكتاب، ﴿وما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾ فأنزل الله: ﴿سيقول السفهاء من الناس﴾، إلى آخر الآية. انتهى.

وعن ابن عباس قال: «كان النبي ﷺ إذا انصرف من صلاته إلى بيت المقدس، رفع رأسه إلى السماء، فأنزل الله ﴿فلتولينك قبله ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ إلى الكعبة، إلى الميزاب، يؤم به جبريل عليه السلام»^(١). وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ قال: شطره قبله، وفي الحديث الصحيح: «ما بين المشرق والمغرب قبله»^(٢)، يعني لأهل المدينة ومن في سمتها، فعلى من كان مشاهداً للكعبة استقبالها، وغير الشاهد يستقبل الجهة بعد التحري.

وقوله تعالى: ﴿وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم﴾ أي استقبالكم الكعبة، ولكنهم يكتُمون ذلك ﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾ تهديد ووعيد.

قوله عز وجل: ﴿وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب﴾، يعني اليهود والنصارى، ﴿بكل آية﴾ معجزة، ﴿ما تبعوا قبلتك﴾، يعني الكعبة، ﴿وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبله بعض﴾ لأن اليهود تستقبل بيت المقدس وهو المغرب، والنصارى تستقبل المشرق، وقبلة المسلمين الكعبة.

(١) أخرجه ابن مردويه كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (١/١٩٣).

(٢) أخرجه الترمذي (ح/٣٤٢ - ٣٤٤)، وابن ماجه (ح/١٠١١) عن أبي هريرة، وأخرجه الحاكم (١/٢٠٥)، وصححه ووافقه الذهبي، هو كما قال.

وقوله تعالى: ﴿وَلئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين﴾ فيه تحذير الأمة من مخالفة الحق واتباع الهوى.

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ اتَّيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون محمداً ﷺ كما يعرفون أبناءهم، وأن ما جاء به هو الحق، ولكنهم يكتُمون ذلك، وهم يعلمون ثم قال تعالى: ﴿الحق من ربك﴾، أي: هذا الحق من الله لا شك فيه ﴿ولا تكونن من الممترين﴾ الشاكين. قال الربيع: لا تكن في شك فإنها قبلتك وقبله الأنبياء قبلك.

قال ابن جرير^(١): هذا من الكلام الذي تخرجه العرب مخرج الأمر أو النهي للمخاطب به، والمراد به غيره.

قوله عز وجل: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيَةٌ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾.

قال ابن عباس: يعني بذلك أهل الأديان، يقول: لكل قبيلة قبلة يرضونها، ووجهة الله حيث توجه المؤمنون. وقال مجاهد: لكن أمر كل قوم أن يصلوا إلى الكعبة.

وقوله تعالى: ﴿فاستبقوا الخيرات﴾، أي: بادروا بالطاعة أينما تكونوا أنتم وأهل الكتاب ﴿يأت بكم الله جميعاً﴾ يوم القيامة فيجزئكم بأعمالكم ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم

(١) انظر «جامع البيان» (٢/٢٧).

عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴿١﴾ .

قوله عز وجل : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأْتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ﴿١٥٠﴾ .

قيل : إنما كرر الأمر باستقبال القبلة لتأكيد النسخ ، لأنه أول ناسخ وقع في الإسلام .

وقوله تعالى : ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ﴾ ، قال ابن كثير^(٢) : (وقوله : ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة ﴾ ، أي أهل الكتاب ، فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة ، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين ، ولئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجه إلى بيت المقدس) . انتهى . وعن مجاهد وقتادة في قوله : ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم ﴾ قال : هم مشركو العرب ، قالوا حين صرفت القبلة إلى الكعبة : قد رجع إلى قبلتكم ، فيوشك أن يرجع إلى دينكم . قال الله عز وجل : ﴿ فلا تخشوهم واخشوني ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ولأتم نعمتي عليكم ﴾ ، أي : بهديتي إياكم إلى قبلة إبراهيم . قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : «تمام النعمة الموت على الإسلام» .

(١) سورة المائدة : الآية ٤٨ .

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/١٩٥) .

وقوله تعالى: ﴿ولعلكم تهتدون﴾، أي: لكي تهتدوا من الضلالة. ولعل وعسى من الله واجب.

قوله عز وجل: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥٦﴾ فَادْكُرُونِي أَدْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

قيل معناه: ولأنتم نعمتي عليكم ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم﴾. وقال مجاهد: يقول: كما فعلت ﴿فادكروني﴾. قال الحسن وغيره: إن الله يذكر من ذكره، ويزيد من شكره، ويعذب من كفره. وقال سعيد بن جبیر: اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي. وفي الحديث الصحيح: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه»^(١).

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٦﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ءَمُوتٌ بَلْ ءَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

الصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن محارم الله، وصبر على أقدار الله. قال ابن زيد: الصبر في باين: الصبر لله بما أحب، وإن ثقل على الأنفس والأبدان، والصبر لله عما كره وإن نازعت إليه الأهواء، فمن كان هكذا فهو من الصابرين.

وقوله تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات﴾ نزلت في قتلى بدر من المسلمين. ﴿بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾، كما قال تعالى في شهداء أحد

(١) أخرجه البخاري (ح/٧٤٠٥)، ومسلم (٤/٢٠٦٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾^(١). وفي صحيح مسلم «إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش، فاطلع عليهم ربك أطلاعة فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا وأي شيء نبغي وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا، قالوا: نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا، فنقاتل في سبيلك حتى نقتل مرة أخرى. لما يرون من ثواب الشهادة. فيقول الرب جل جلاله: إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون»^(٢).

وروى الإمام أحمد عن الإمام الشافعي عن الإمام مالك عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «نسمة المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه»^(٣).

قال ابن كثير^(٤): ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضاً.

قوله عز وجل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالشَّرْمِثِ وَبَشِيرٍ الْأَصْدِيرِ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٩.

(٢) أخرجه مسلم (ح/١٨٨٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٤٥٥/٣). ومالك في «الموطأ» (٢٤٠/١)، والنسائي (١٠٨/٣)، وابن ماجه (ح/١٤٤٩ و ٤٢٧١) من حديث كعب بن مالك، رضي الله عنه، وهو حديث صحيح.

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/١٩٧).

يقول تعالى: ﴿ولنبلونكم﴾، أي: ولنختبرنكم، ﴿بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات﴾، كما قال تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾^(٢). وفي الحديث الصحيح: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له»^(٣). ولهذا قال تعالى: ﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾.

وفي صحيح مسلم عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتى واخلف لي خيراً منها، إلا آجره الله في مصيبتى وأخلف له خيراً منها»^(٤). قالت: فلما توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله خيراً منه، رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وأولئك عليهم صلوات من ربهم﴾، أي: ثناء الله عليهم ورحمته. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: نعم العدلان ونعمت العلاوة: ﴿وأولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾، فهذان العدلان، ﴿وأولئك هم المهتدون﴾، فهذه العلاوة.

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٤.

(٢) سورة محمد: الآية ٣١.

(٣) أخرجه مسلم بنحوه (ح/٢٩٩٩).

(٤) أخرجه مسلم (٢/٦٣٢ - ٦٣٣).

وروى أحمد وغيره عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«قال الله: يا ملك الموت، قبضت ولد عبدي؟ قبضت قرّة عينه وثمره فؤاده؟ قال:
نعم. قال: فما قال؟ قال: حمدك واسترجع. قال: ابنو له بيتاً في الجنة وسموه
بيت الحمد»^(١). وبالله التوفيق.



(١) أخرجه أحمد (٤/٤١٥)، والترمذي (ح/١٠٢١)، قال حسن غريب، قلت: وهو حديث حسن.

الدرس السابع عشر

﴿ إِنَّ الصَّفاَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ حَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُمْ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرَأُ مِنْهُمْ كَمَا تَدْرَأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ .

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٥٨).

﴿شعائر الله﴾: معالم دينه، والمراد بها هنا: المناسك التي جعلها أعلاماً لطاعته وموضعاً لعبادته. روى البخاري عن أنس قال: كنا نرى أن الصفا والمروة من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنها، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ (١). وقال الشعبي: كان أساف على الصفا، وكانت نائلة على المروة، وكانوا يستلمونها، فخرجوا بعد الإسلام من الطواف بينهما، فنزلت هذه الآية. وذكر ابن إسحاق أن أسافاً ونائلاً كانا بشرين، فزنيا داخل الكعبة فمسخا حجرتين، فنصبتهما قریش تجاه الكعبة ليعتبر بهما الناس، فلما طال عهدهما عبداً، ثم حوَّلا إلى الصفا والمروة فنصبا هنالك، فكان من طاف بالصفا والمروة يستلمهما.

وفي صحيح مسلم من حديث جابر الطويل: «أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من باب الصفا وهو يقول: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾. ثم قال: أبدأ بما بدأ الله به» (٢). وفي رواية النسائي: «ابدءوا بما بدأ الله به» (٣). وفي الحديث الآخر: «اسعوا فإن الله كتب

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٤٩٦).

(٢) أخرجه مسلم (ح/١٢١٨).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٢/٤١٣).

عليكم السعي^(١). رواه أحمد.

وقوله تعالى: ﴿ومن تطوع خيراً فإن الله شاکر عليم﴾، أي: من تطوع بالحج والعمرة بعد أداء الواجب فإن الله مجاز لعبده بجميع علمه عليم بينته.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنَةُ ۗ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

قال قتادة: ﴿إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البيّنات والهدى من بعد ما بيّنناه للناس في الكتاب﴾، أولئك أهل الكتاب كتموا الإسلام وهو دين الله، وكتموا محمداً ﷺ وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل. وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾، أصل اللعن الطرد والإبعاد. قال مجاهد: إذا أجدبت الأرض قالت البهائم: هذا من أجل عصاة بني آدم، لعن الله عصاة بني آدم.

وقوله تعالى: ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا﴾، أي: رجعوا عما كانوا عليه من المعاصي وأصلحوا أعمالهم، وبينوا للناس ما كتموا. ﴿فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم﴾.

(١) أخرجه أحمد (٤٢١/٦ - ٤٢٢)، وابن خزيمة (٢٣٣/٤)، وابن سعد (٢٤٧/٨) من حديث حبيبة بنت أبي تجرة، وهو صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (٢٦٣/٢) و٣٠٥ و٣٤٤ و٣٥٣ و٤٩٥، وأبو داود (ح/٣٦٥٠)، والترمذي (ح/٢٦٤٩)، وابن ماجه (ح/٢٦٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وهو صحيح.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ .

قال قتادة: إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله، ثم تلعنه الملائكة، ثم يلعنه الناس أجمعون.

وقوله تعالى: ﴿خالدين فيها﴾، أي: في نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾، أي: لا يمهلون، كما قال تعالى: ﴿لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون بل تأتيهم بغتة فتبهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون﴾^(٢).

قال أبو العالية: لا ينظرون فيعتذروا، كقوله تعالى: ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾^(٣).

قوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُكُرُّ إِلَهٌُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ .

(١) سورة العنكبوت: الآية ٢٥.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٣٩.

(٣) سورة المرسلات: الآية ٣٦.

قال البغوي^(١): سبب نزول هذه الآية أن كفار قريش قالوا: يا محمد صف لنا ربك وانسبه. فأنزل الله تعالى هذه الآية، وسورة الإخلاص، والواحد الذي لا نظير له ولا شريك له. وذكر حديث شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن في هاتين الآيتين اسم الله الأعظم: ﴿وَالْهَكَمَ إِلهَ وَاحِدٍ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، و﴿أَلَمْ يَلَمْ أَنَّ إِلهَ الْوَاحِدِ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾^(٢)». قال أبو الضحى: «لما نزلت هذه الآية قال المشركون: إن محمداً يقول: إن إلهكم إله واحد، فليأتنا بآية إن كان من الصادقين، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية». قال عطاء: نزلت على النبي ﷺ بالمدينة ﴿وَالْهَكَمَ إِلهَ وَاحِدٍ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، فقال كفار قريش بمكة: كيف يسع الناس إله واحد؟ فأنزل الله تعالى ﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ إلى قوله: ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، فهذا يعلمون أنه إله واحد، وأنه إله كل شيء وخالق كل شيء.

قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا كَرَّةً فَتَبَرَّأْنَا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾.

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٩٣).

(٢) أخرجه أحمد (٦/٤٦١)، وأبو داود (ح/١٤٩٦)، والترمذي (ح/٣٤٧٨) وقال: «حسن

صحيح»، وابن ماجه (ح/٣٨٥٥)، وهو حديث حسن.

يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا وما لهم في الآخرة، حيث جعلوا له ﴿أنداداً﴾، أي: أمثالاً ونظراء، يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه، وهو الله لا إله إلا هو لا شريك له ولا ند له، فقال تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله﴾. قال الربيع: هي الآلهة التي تعبد من دون الله، يقول: يحبون أوثانهم كحب الله. ﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾، أي: من الكفار لأوثانهم. وقال مجاهد: ﴿يحبونهم كحب الله﴾ مباحة ومضاهاة للحق بالأنداد. ﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾ من الكفار لأوثانهم.

قال ابن كثير^(١): وقوله: ﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾ ولحبهم لله وتمام معرفتهم به، وتوقيرهم وتوحيدهم له، لا يشركون به شيئاً، بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه، ويلجأون في جميع أمورهم إليه.

وقوله تعالى: ﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب﴾، أي: ولو يعلم الذين ظلموا باتخاذ الأنداد، إذ يرون العذاب عاينوه يوم القيامة، ﴿أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب﴾، أي: لو يعلمون أن القدرة لله جميعاً، لا قدرة لأندادهم. ﴿إذ يرون العذاب﴾ يوم القيامة لندموا أشد الندامة. ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا﴾، وهم القادة، ﴿من الذين اتبعوا﴾، أي: الأتباع، ﴿ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب﴾، أي: أسباب الخلاص، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبراء منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار﴾،

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٠٢/١).

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٤.

كما قال تعالى: ﴿الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا أَنْحَنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهَدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مَجْرَمِينَ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكَرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مَغْنُونَ عَنَا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾^(٣). قال ابن كيسان: ﴿كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم﴾ أنهم أشركوا بالله الأوثان، برجاء أن تقر بهم إلى الله عز وجل، فلما عذبوا على ما كانوا يرجون ثوابه، تحسروا وندموا. وبالله التوفيق.



(١) سورة الزخرف: الآية ٦٧.

(٢) سورة سبأ: الآية ٣١ — ٣٣.

(٣) سورة غافر: الآية ٤٧ و ٤٨.

الدرس الثامن عشر

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِنَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عَمَىٰ فَهَمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِتْيَاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنْ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اٰخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلْكَاً طَيْباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ .

قال البغوي^(١): نزلت في ثقيف وخزاعة وعامر بن صعصعة وبني مدلج، فيما حرموا على أنفسهم من الحرث والأنعام، والبحيرة والسائبة، والوصيلة والحام. انتهى.

وفي صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: إن كل مال منحه عبادي فهو لهم حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم»^(٢). وفي الحديث الآخر: «الحلال ما أحل الله، والحرام ما حرم الله، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾، أي: طرائقه وأوامره. ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ بين العداوة، كما قال تعالى: ﴿يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾^(٥)، وقال تعالى: ﴿إن الشيطان لكم عدو

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٩٦).

(٢) أخرجه مسلم (ح/٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (ح/١٧٢٦)، وابن ماجه (ح/٣٣٦٧)، من حديث سلمان رضي الله عنه وهو حديث حسن.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٢٧.

(٥) سورة الكهف: الآية ٥٠.

فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴿١﴾. قال قتادة: كل معصية لله فهي من خطوات الشيطان. وقال ابن عباس: ما كان من يمين أو نذر في غضب، فهو من خطوات الشيطان، وكفارته كفارة يمين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ﴾، أي: الأفعال السيئة والفحشاء. قال ابن عباس: الفحشاء من المعاصي ما يجب فيه الحد، والسوء من الذنوب ما لا حد فيه. ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من اتخاذ الأنداد، وتحريم الحلال.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفْقَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولُو كَأَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧١﴾ وَمِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِينَ يَنْعِقُونَ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكُمْ عَمَى فَهْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧٢﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُؤُلَاءِ الْكُفْرَةَ﴾: ﴿اتبعوا ما أنزل الله﴾ على رسوله واركبوا ما أنتم عليه من الضلال، ﴿قالوا بل نتبع ما أفينا عليه آباءنا﴾، أي: ما وجدناهم عليه في العقائد والأحكام. ﴿أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾.

قال البغوي^(٢): ﴿أو لو كان آباؤهم﴾، أي: كيف يتبعون آباءهم، وآباؤهم لا يعقلون شيئاً؟ الواو في «أولو» واو العطف، ويقال لها: واو التعجب، دخلت عليها ألف الاستفهام للتوبيخ. والمعنى: أيتبعون آباءهم وإن كانوا جهالاً لا يعقلون شيئاً؟ لفظه عام ومعناه الخصوص، أي لا يعقلون شيئاً من أمور الدين، لأنهم كانوا يعقلون أمر الدنيا ولا يهتدون. ثم ضرب لهم مثلاً فقال جل ذكره: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع﴾. انتهى.

قال ابن عباس: قوله: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا﴾

(١) سورة فاطر: الآية ٦.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (١/٩٧).

دعاء ونداء ﴿﴾، كمثل البعير والحمار والشاة، إن قلت لبعضها كل لا يعلم ما تقول، غير أنه يسمع صوتك، وكذلك الكافر إن أمرته بخير، أو نهيته عن شر أو وعظته، لم يعقل ما تقول، غير أنه يسمع صوتك.

وقوله تعالى: ﴿صم بكم عمي﴾، أي: صم عن سماع الحق، بكم لا يتكلمون به، عمي عن رؤية طريقه ومسلكه ﴿فهم لا يعقلون﴾. كما قال تعالى: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لِيُغَيِّرَ اللَّهُ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَآعٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنِ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾.

الطيبات: الحلال. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾، وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾. ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟^(٢)». رواه مسلم وغيره.

وقوله تعالى: ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله﴾، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قل لا أجد فيما أوحى إلي محرماً على طاعم

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

(٢) أخرجه مسلم (ح/١٠١٥).

يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به ﴿١﴾.

قال البغوي^(٢): ولحم الخنزير أراد به جميع أجزائه، فعبر عن ذلك باللحم، لأنه معظمه. ﴿وما أهل به لغير الله﴾، أي: ما ذبح للأصنام والطواغيت. وقال الربيع بن أنس: ما ذكر عليه اسم غير الله.

وقوله تعالى: ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه﴾، أي: في أكل ذلك في غير بغى ولا عدوان، وهو مجاوزة الحد. قال قتادة: ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد﴾. قال: غير باغ في الميتة، أي: في أكله أن يتعدى حلالاً إلى حرام، وهو يجد عنه مندوحة. وقال السدي: أما باغ فيبغى فيه شهوته، وأما العادي فيتعدى في أكله، يأكل حتى يشبع، ولكن ليأكل منه قوتاً ما يمسك به نفسه، حتى يبلغ به حاجته.

وقوله تعالى: ﴿فإن الله غفور﴾، أي: لمن أكل في حال الاضطرار، ﴿رحيم﴾ حيث رخص للعباد في ذلك. وعن عباد بن شُرْحبيل الغُبَري^(٣) قال: «أصابتنا عاماً مخمصة، فأتيت المدينة، فأتيت حائطاً فأخذت سنبلًا ففركته وأكلته، وجعلت منه في كسائي، فجاء صاحب الحائط فضربني وأخذ ثوبي، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال للرجل: ما أطعمته إذ كان جائعاً، ولا علمته إذ كان جاهلاً. فأمره فرد إليه ثوبه، وأمر له بوسق من طعام، أو نصف وسق»^(٤). رواه ابن ماجه. قال ابن كثير^(٥): إسناده صحيح قوي جيد، وله شواهد كثيرة، من ذلك

(١) سورة الأنعام: الآية ١٤٥.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٩٨/١).

(٣) في (الأصل) (وتفسير ابن كثير): «العززي»، وهو خطأ، والمثبت من كتب الرجال.

(٤) أخرج أحمد (١٦٧/٤)، والنسائي (٢٤٠/٨)، وابن ماجه (ح/٢٢٩٨)، والحديث صحيح

إسناده وجوده ابن كثير كما ترى.

(٥) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٠٦/١).

حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «سئل رسول الله ﷺ عن الثمر المعلق فقال: «من أصاب منه من ذي حاجة بفيه، غير متخذ خبنة فلا شيء عليه»^(١). الحديث.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾.

نزلت في رؤساء اليهود وعلمائهم، كتموا صفة محمد ﷺ الثابتة في كتبهم، لثلا تذهب برياستهم ومآكلهم، والآية عامة في كل من كتم العلم لأجل ذلك. ﴿أولئك ما يؤكلون في بطونهم إلا النار﴾، يعني: إلا ما يؤديهم إلى النار، وهو الرشوة والحرام وثمن الدين، كما قال تعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾^(٢). وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «إنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون أبغح من بعض، فأقضي له بنحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه بشيء، فإنما أقطع له قطعة من النار، فليأخذها أو يدعها»^(٣). وفي الحديث الآخر: «الذي يشرب في إناء الذهب والفضة، إنما يجرجر في بطنه نار جهنم»^(٤).

(١) في (الأصل): «خبينة» وهو خطأ، والمثبت من كتب الحديث.

(٢) سورة النساء: الآية ١٠.

(٣) أخرجه البخاري (ح/٢٤٥٩ و ٧١٨١ و ٧١٨٥)، ومسلم (ح/١٧١٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه البخاري (ح/٧١٦٩)، ومسلم (ح/١٧١٣) عن أم سلمة رضي الله عنها.

وقوله تعالى: ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزيهم ولهم عذاب أليم﴾، قال ابن كثير^(١): وذلك لأنه تعالى غضبان عليهم، لأنهم كتموا وقد علموا، فاستحقوا الغضب، ﴿فلا ينظر إليهم﴾، ﴿ولا يزيهم﴾، أي: يثني عليهم ويمدحهم، بل يعذبهم عذاباً أليماً. ثم ذكر حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزيهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿أولئك الذين أشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار﴾، أي: أعتاضوا عن الهدى بالضلالة، وهي كتمان ما أنزل الله، واعتاضوا عن المغفرة بالعذاب، وهو ما تعاطوه من أسبابه. ﴿فما أصبرهم على النار﴾، قال الحسن وقتادة: والله ما لهم عليها من صبر، ولكن ما أجرأهم على العمل الذي يقربهم إلى النار.

وقوله تعالى: ﴿ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق﴾، أي: إنما استحقوا هذا العذاب الشديد، لأن الله نزل الكتاب بتحقيق الحق وإبطال الباطل، وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزواً، واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. ﴿وإن الذين اختلفوا في الكتاب﴾ فآمنوا ببعض وكفروا ببعض ﴿لفي شقاق﴾ خلاف وضلال ﴿بعيد﴾. وبالله التوفيق.



(١) انظر تفسيره (٢٠٦/١).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٥٦٣٤)، ومسلم (ح/٢٠٦٥) عن أم سلمة رضي الله عنها.

الدرس التاسع عشر

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ
 وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي
 الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ
 الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ
 وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَتَّخِذُ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 كِتَابَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ
 مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبْسَعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُهُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ
 فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَتَأُولَىٰ
 الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ
 خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ
 بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُّوَسِّ
 جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

البر: كل عمل خير يفضي بصاحبه إلى الجنة. قال أبو العالية: كانت اليهود تقبل قبل المغرب، وكانت النصراني تقبل قبل المشرق، فقال الله تعالى: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾. يقول: هذا كلام الإيمان وحقيقة العمل. وقال مجاهد: ولكن البر ما ثبت في القلوب من طاعة الله عز وجل. وقال الثوري: ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر﴾، الآية، قال: هذه أنواع البر كلها.

وقوله تعالى: ﴿ولكن البر من آمن بالله﴾، أي: بأنه لا إله إلا هو ولا رب سواه، وآمن باليوم الآخر وهو يوم القيامة، وصدق بوجود الملائكة الذين هم عباد الرحمن، وصدق بالكتاب، أي القرآن، وجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، وآمن بالنبين كلهم. ﴿وآتى المال على حبه﴾، أي: أعطاه وهو محب له، ﴿ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب﴾، أي: فكها من الرق، وهي عامة في المكاتبين وفي العتق وفي فداء الأسير. ﴿وأقام الصلاة﴾، أي: وأتمها في أوقاتها على الوجه المرضي. ﴿وآتى الزكاة﴾ أعطى زكاة ماله. ﴿والموفون بعهدهم﴾ فيما بينهم وبين الله عز وجل، وفيما بينهم وبين الناس. ﴿والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾، أي: في حالة الفقر

والمرض وفي القتال. ﴿أولئك الذين صدقوا﴾ في إيمانهم ﴿وأولئك هم الممتقون﴾ بتركهم المحارم وفعلهم الطاعات.

قوله: ﴿والصابرين﴾. قال أبو عبيدة: نصبها على تطاول الكلام، ومن شأن العرب أن تغير الإعراب إذا طال الكلام، ومثله في سورة النساء ﴿والمقيمين الصلاة﴾، وفي سورة المائدة ﴿والصابثون﴾. وقال الخليل: نصب على المدح.

وعن علي رضي الله عنه قال: «كنا إذا احمر البأس ولقي القوم القوم، اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، يعني إذا اشتد الحرب»^(١).

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأُولَٰئِكَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَىٰ أَلْبَابٍ لِّمَلِكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾.

قال الشعبي وغيره: نزلت هذه الآية في حيين من أحياء العرب، اقتتلوا في الجاهلية قبيل الإسلام بقليل، وكانت بينهما قتلى وجراحات، لم يأخذها بعضهم من بعض، حتى جاء الإسلام، وكان لأحد الحيين على الآخر طول في الكثرة والشرف، وكانوا ينكحون نساءهم بغير مهور، فأقسموا: لنقتلن بالعبد منا الحر منهم، وبالمراة منا الرجل منهم، وبالرجل منا الرجلين منهم، وجعلوا جراحاتهم ضعفي جراحات أولئك، فرفعوا أمرهم إلى النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأمر بالمساواة، فرضوا وأسلموا.

وقوله تعالى: ﴿كتب عليكم القصاص في القتلى﴾، أي: فرض عليكم

(١) أخرجه البغوي في تفسيره (١٠١/١)، وبنحوه من حديث البراء عند مسلم (١٤٠١/٣).

القصاص، وهو المساواة والمماثلة في الجراحات والديات: الحر بالحر، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى. قال قتادة: كان أهل الجاهلية فيهم بغي وطاعة للشيطان، فكان الحي إذا كان فيهم عدة ومنعة، فقتل عبد قوم آخرين عبداً لهم قالوا: لا نقتل به إلاّ حرّاً، تعزيراً لفضلهم على غيرهم في أنفسهم، وإذا قتلت لهم امرأة، قتلتها امرأة قوم آخرين قالوا: لا نقتل بها إلاّ رجلاً، فأنزل الله هذه الآية، يخبرهم أن العبد بالعبد، والأنثى بالأنثى، فنهاهم عن البغي. ثم أنزل الله تعالى ذكره في سورة المائدة بعد ذلك فقال: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص﴾^(١).

وقد اختلف العلماء في قتل الحر بالعبد، فذهب أبو حنيفة إلى أن الحر يقتل بالعبد لعموم آية المائدة، وذهب الجمهور إلى أنه لا يقتل الحر بالعبد وقالوا: لا يقتل المسلم بالكافر، لقوله ﷺ: «لا يقتل مسلم بكافر»^(٢). رواه البخاري. وقال أبو حنيفة: يقتل لعموم الآية. وقال الحسن وعطاء: لا يقتل الرجل بالمرأة لهذه الآية.

وخالفهم الجمهور لآية المائدة، ولقوله ﷺ: «المسلمون تكافأ دماؤهم»^(٣).

وذهب الأئمة الأربعة والجمهور إلى أن الجماعة يقتلون بالواحد.

(١) سورة المائدة: الآية ٤٥.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٣٠٤٧) من حديث أبي جحيفة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد و (٢/١٩٢ و ٢١١)، وأبو داود (ح/٢٧٥١)، وابن ماجه (ح/٢٦٨٥) من حديث ابن عمرو رضي الله عنه وسنده حسن، وأخرجه أحمد (١/١٩٩ و ٨٢٢)، والنسائي (٨/١٩ - ٢٠) من حديث علي رضي الله عنه، صحيح.

قال البغوي^(١): (ويجري القصاص في الأطراف كما يجري في النفوس، إلا في شيء واحد، وهو أن الصحيح السوي يقتل بالمرضى والزمن، وفي الأطراف لو قطع يداً شلاء أو ناقصة لا تقطع بها الصحيحة الكاملة). انتهى.

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن الربيع بنت النضر عمته، كسرت ثنية جارية، فطلبوا إليها العفو فأبوا، فعرضوا الأرش فأبوا، فأتوا رسول الله ﷺ فأبوا إلا القصاص فأمر رسول الله ﷺ بالقصاص فقال أنس بن النضر: يا رسول الله أتكسر ثنية الربيع؟ لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتهما. فقال رسول الله ﷺ: يا أنس كتاب الله القصاص. فرضي القوم فعفوا. فقال رسول الله ﷺ: إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان﴾. قال ابن عباس: ﴿فمن عفي له من أخيه شيء﴾، يعني فمن ترك له من أخيه شيء، يعني أخذ الدية بعد استحقاق الدم، وذلك العفو. ﴿فاتباع بالمعروف﴾ يقول: فعلى الطالب اتباع بالمعروف إذا قبل الدية ﴿وأداء إليه بإحسان﴾، يعني من القاتل من غير ضرر ولا معك، يعني المدافعة. وقوله تعالى: ﴿ذلك تخفيف من ربكم ورحمة﴾، يعني أخذ الدية في العمد، قال قتادة: رحم الله هذه الأمة وأطعمهم الدية، ولم تحل لأحد قبلهم، فكان أهل التوراة إنما هو القصاص وعفو ليس بينهم أرش، وكان أهل الإنجيل إنما هو عفو أمروا به، وجعل لهذه الأمة القصاص والعفو والأرش.

وقوله تعالى: ﴿فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم﴾، أي: من قتل بعد أخذ الدية فله عذاب أليم. قال ابن جريج: يتحتم قتله حتى لا يقبل العفو. وقال

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/١٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٥٠٠)، ومسلم (ح/١٦٧٥).

سعيد بن عروبة عن قتادة عن الحسن عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أعافي رجلاً قتل بعد أخذ الدية»^(١). وروى أحمد عن أبي شريح الخزاعي أن النبي ﷺ قال: «من أصيب بقتل أو خبل فإنه يختار إحدى ثلاث: إما أن يقتص، وإما أن يعفو، وإما أن يأخذ الدية، وإن أراد الرابعة فخذوا على يديه، ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالداً فيها»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون﴾. يقول تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾، أي: بقاء. قال أبو العالية: جعل الله القصاص حياة، فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يقتل. وقال قتادة: جعل الله هذا القصاص حياة ونكالاً وعظة لأهل السفه والجهل من الناس، وكم من جاهل قد هم بداهية لولا مخافة القصاص لوقع بها، ولكن الله حجز بالقصاص بعضهم عن بعض، وما أمر الله بأمر قط إلا وهو أمر صلاح في الدنيا والآخرة، ولا نهى عن أمر قط إلا وهو أمر فساد في الدنيا والدين، والله كان أعلم بالذي يصلح خلقه.

وقوله تعالى: ﴿يا أولي الألباب﴾، أي: العقول والأفهام. ﴿لعلكم تتقون﴾. قال ابن زيد: لعلك تتقي أن تقتله فتقتل به.

قال ابن كثير^(٣): والتقوى أسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات.

قوله عز وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾^(١٨٠).

(١) أخرجه أحمد (٣/٣٦٣)، أبو داود (ح/٤٥٠٧)، بسند ضعيف.

(٢) أخرجه أحمد (٤/٣١)، وأبو داود (ح/٤٤٩٦)، وابن ماجه (ح/٢٦٢٣)، بسند ضعيف.

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٢١١).

كانت الوصية فريضة في ابتداء الإسلام للوالدين والأقربين على من مات وله مال، ثم نسخت بآية الميراث. وفي السنن وغيرها عن عمرو بن خارجة قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب وهو يقول: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث»^(١). وقال قتادة: قوله: ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين﴾، فجعلت الوصية للوالدين والأقربين، ثم نسخ ذلك بعد ذلك، فجعل لهما نصيب مفروض، فصارت الوصية لذوي القرابة الذين لا يرثون، وجعل للوالدين نصيب معلوم، ولا تجوز وصية لوارث.

وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلاّ ووصيته مكتوبة عنده»^(٢). قال ابن عمر: ما مرت عليّ ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك، إلاّ ووصيتي عندي. وروى ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه أنه دخل على رجل من قومه يعبده، فقال له: أوصني، فقال له علي: إنما قال الله: ﴿إن ترك خيراً الوصية﴾، إنما تركت شيئاً يسيراً، فاتركه لولدك.

وقوله تعالى: ﴿بالمعروف﴾، قال ابن جرير^(٣): (وهو ما أذن الله فيه وأجازه في الوصية، مما يجاوز الثلث، ولم يتعمد الموصي ظلم ورثته). انتهى.

وعن حنظلة بن حذيم^(٤) بن حنيفة أن جده حنيفة أوصى ليتيم في حجره، بمائة من الإبل، فشق ذلك على بنيه، فارتفعوا إلى رسول الله ﷺ فقال حنيفة: إني

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٦ و ١٨٧ و ٢٣٨ و ٢٣٩)، وأبو داود (ح/ ٣٥٦٥)، والترمذي

(ح/ ١٢٦٥)، وابن ماجه (ح/ ٢٣٩٨) وقال: «حسن صحيح»، وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٢٧٣٨)، ومسلم (ح/ ١٦٢٧).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٢/ ١١٥).

(٤) في (الأصل)، ومسنده أحمد، وتفسير ابن كثير «ابن حذيم» بالذال، وهو خطأ، والمثبت من كتب الرجال.

أوصيت لیتیم لی بمائة من الإبل كنا نسميها المطية، فقال النبي ﷺ: «لا لا لا، الصدقة خمس، وإلا فعشر، وإلا فخمسة عشرة، وإلا فعشرون، وإلا فخمسة وعشرون، وإلا فثلاثون، وإلا فخمسة وثلاثون، فإن كثرت فأربعون»^(١). الحديث رواه أحمد.

وقال ابن عباس: لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع، فإن رسول الله ﷺ قال: «الثلث والثلث كثير»^(٢). وقال الشعبي: إنما كانوا يوصون بالخمس أو الربع. وقال الحسن البصري: يوصي بالسدس أو الخمس أو الربع. وعن نافع أن ابن عمر لم يوص، وقال: أما مالي فإله أعلم ما كنت أصنع فيه في الحياة، وأما رباعي فما أحب أن يشرك ولدي فيها أحد. رواه ابن جرير.

قوله عز وجل: ﴿فَمَنْ بَدَلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَأَنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٨١) ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٨٢).

يقول تعالى: فمن بدل الوصية فزاد فيها أو نقص، ﴿فإنما إثمهم على الذين يبدلونهم﴾، والميت بريء منه، وقد وقع أجره على الله. ﴿إن الله سميع عليم﴾، أي: قد اطلع على ما أوصى به الميت وعلى ما غيره المبدل، لا تخفى عليه خافية.

وقوله تعالى: ﴿فمن خاف من موصٍ جنفاً﴾، أي: جوراً وعدولاً عن الحق، أي ظلماً. قال السدي وغيره: الجنف الخطأ، والإثم العمد. ﴿فأصلح بينهم فلا إثم عليه﴾، قال مجاهد: معنى الآية أن الرجل إذا حضر مريضاً وهو يوصي فرآه يميل، إما بتقصير أو إسراف، أو وضع الوصية في غير موضعها، فلا حرج على من حضره أن يأمره بالعدل وينهاه عن الجنف، فينظر للموصى له والورثة. وقال ابن

(١) أخرجه أحمد (٥/٦٧ - ٦٨)، والطبراني (٤/١٣) وهو حديث حسن.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٢٧٤٢)، ومسلم (ح/١٦٢٩).

عباس في قوله: ﴿فمن خاف من موص جنفاً﴾، يعني إثمًا، يقول: إذا أخطأ الميت في وصيته أو حاف فيها، فليس على الأولياء حرج أن يردوا خطاه إلى الصواب. وقال قتادة في قوله: ﴿فمن خاف من موص جنفاً أو إثمًا﴾. قال: هو الرجل يوصي فيحيف في وصيته، فيردها الوالي إلى الحق والعدل. وقال أيضاً: من أوصى بجور أو جنف في وصيته، فردها ولي المتوفى إلى كتاب الله وإلى العدل، فذاك له، أو إمام من أئمة المسلمين. وعن شهر بن حوشب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى حاف في وصيته، فيختم له بشر عمله فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة، فيعدل في وصيته، فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة»^(١). قال أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾ الآية. رواه عبد الرزاق، يشير إلى قوله تعالى: ﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حلِيم تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿إن الله غفور رحيم﴾ فيه الحث على ترك الإثم والميل، وفعل الإصلاح، ليحصل الغفران والرحمة. وبالله التوفيق.



(١) أخرجه أحمد (٢/٢٧٨)، وابن ماجه (ح/٢٧٠٤)، بسند ضعيف.

(٢) سورة النساء: الآيات ١٢ - ١٤.

الدرس العشرون

﴿ يَتَّيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّتِي أَنزَلْنَا فِيهِ الْقُرْءَانَ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدٰنَكُمُ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أَجَلَ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنكُم كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُم وَعَفَا عَنكُم فَالَّذِينَ بَشِرْتُمْ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُوا الصِّيَامَ إِلَى الْبَيْتِ وَلَا تَبَشِّرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَنكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِّلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴿

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَلَّكُمْ تَنَقُّونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ .

يقول تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾، أي: فرض عليكم، ﴿كما كتب على الذين من قبلكم﴾ من الأنبياء والأمم. قال سعيد بن جبير: كان صوم من قبلنا من العتمة إلى الليلة القابلة، كما كان في ابتداء الإسلام. وقوله تعالى: ﴿لعلكم تنقون﴾، أي: لأن الصوم وسيلة إلى التقوى، لما فيه من قهر النفس وكسر الشهوات. كما ثبت في الصحيحين: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»^(١).

وقوله تعالى: ﴿أياماً معدودات﴾، أي: ثلاثين يوماً أو تسعة وعشرين يوماً. وقوله تعالى: ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾، أي: إذا أفطر المريض في حال مرضه، والمسافر في حال سفره صاماً عدد ما أفطراه بعد رمضان.

وقوله تعالى: ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾. روى ابن جرير عن معاذ بن جبل

(١) أخرجه البخاري (ح/١٩٠٥)، ومسلم (١٤٠٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

قال: «إن رسول الله ﷺ قدم المدينة فصام يوم عاشوراء وثلاثة أيام من كل شهر، ثم إن الله عز وجل فرض شهر رمضان، فأنزل الله تعالى ذكره ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾ حتى بلغ ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ فكان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً، ثم إن الله عز وجل أوجب الصيام على الصحيح المقيم، وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصوم، فأنزل الله عز وجل: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر﴾ إلى آخر الآية^(١).

وقال ابن عباس: في قوله تعالى: ﴿فمن تطوع خيراً فهو خير له﴾، ﴿فمن تطوع خيراً﴾، فزاد إطعام مسكين آخر ﴿فهو خير له﴾، ﴿وأن تصوموا خير لكم﴾. وقال ابن شهاب: ﴿وأن تصوموا خير لكم﴾، أي: أن الصيام خير لكم من الفدية. وعن الشعبي قال: نزلت هذه الآية للناس عامة ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾، وكان الرجل يفطر ويتصدق بطعامه على مسكين، ثم نزلت هذه الآية ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾. قال: فلم تنزل الرخصة إلا للمريض والمسافر. وقال قتادة في قوله: ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾. قال: كان فيها رخصة للشيخ الكبير والعجوز الكبيرة، وهما يطيقان الصوم، أن يطعما مكان كل يوم مسكيناً ويفطرا، ثم نسخ ذلك بالآية التي بعدها فقال: ﴿شهر رمضان﴾ إلى قوله: ﴿فعدة من أيام أخر﴾، فنسختها هذه الآية، فكان أهل العلم يرون ويرجون الرخصة تثبت للشيخ الكبير والعجوز الكبيرة، إذا لم يطيقا الصوم، أن يفطرا ويطعما كل يوم مسكيناً، وللحلبى إذا خشيت على ما في بطنها، وللمرضع إذا ما خشيت على ولدها.

وقوله تعالى: ﴿إن كنتم تعلمون﴾. قال ابن جرير^(٢): يعني إن كنتم تعلمون

(١) أخرجه ابن جرير (١٣٢/٢ - ١٣٣) وفيه انقطاع.

(٢) انظر تفسيره (١٤٤/٢).

خير الأمرين لكم أيها الذين آمنوا، من الإفطار والفدية والصوم على ما أمركم الله به .

قوله عز وجل : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتَكُم وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

يمدح تعالى هذا الشهر؛ لأنه أنزل فيه القرآن، وفرض صيامه على المسلمين. وروى الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال: «أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان»^(١). وقال ابن عباس: نزل القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر إلى هذه السماء الدنيا جملة واحدة، وكان الله يحدث لنبيه ما يشاء، ولا يجيء المشركون بمثل يخاصمون به إلا جاءهم الله بجوابه، وذلك قوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾، أي: إرشاداً للناس إلى سبيل الحق. ﴿وبينات﴾، أي: وواضحات من الهدى، يعني: من البيئات الدالة على حدود الله وفرائضه وحلاله وحرامه.

(١) أخرجه أحمد (١٠٧/٤) وابن جرير (١٤٥/٢)، والطبراني (٧٥/٢٢)، وهو حديث حسن.

(٢) سورة هود: الآية ١٢٠.

وقوله: ﴿والفرقان﴾، يعني: والفصل بين الحق والباطل. وقوله تعالى: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾، قال ابن عباس في قوله: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ قال: هو إهلاله بالدار، يريد إذا هلّ وهو مقيم.

وقوله تعالى: ﴿ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾.

قال البغوي^(١): أباح الفطر لعذر المرض والسفر، وأعاد هذا الكلام ليعلم أن هذا الحكم ثابت في الناسخ بثبوتة في المنسوخ.

وقوله تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾، عن أبي حمزة قال: سألت ابن عباس عن الصوم في السفر فقال: يسر وعسر، فخذ يسر الله. وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه: «كنا نساfer مع النبي ﷺ فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾، أي: إنما أرخص لكم في الإفطار للمرض والسفر، لإرادته بكم اليسر، وإنما أمركم بالقضاء لتكملوا عدة شهركم.

وقوله: ﴿ولتكبروا الله على ما هداكم﴾، أي: ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم، كما قال تعالى: ﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذركم آباءكم أو أشد ذكراً﴾^(٣).

قال البغوي^(٤): ﴿ولتكبروا الله﴾ ولتعظموا الله، ﴿على ما هداكم﴾ أرشدكم

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/١٠٨).

(٢) أخرجه البخاري (ح/١٩٤٧)، ومسلم (٢/٧٨٧).

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٠٠.

(٤) انظر «معالم التنزيل» (١/١٠٩).

إلى ما رضي به من صوم شهر رمضان، وخصمكم به دون سائر أهل الملل. قال ابن عباس: هو تكبيرات ليلة الفطر. ﴿ولعلكم تشكرون﴾ الله على نعمه.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (١٨٦).

قال البغوي^(١): روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: قالت يهود أهل المدينة: يا محمد كيف يسمع ربنا دعاءنا؟ وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء مسيرة خمسمائة عام؟ وأن غلظ كل سماء مثل ذلك؟ فتزلت هذه الآية. وقال الضحاك: سأل بعض الصحابة النبي ﷺ فقالوا: أقرب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾. وفيه إضمار، كأنه قال: فقلت لهم: ﴿إني قريب﴾ منهم بالعلم لا يخفى علي شيء، كما قال تعالى: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾^(٢). ثم ساق سنده عن أبي موسى الأشعري قال: «لما غزا رسول الله ﷺ خيبراً، وتوجه رسول الله ﷺ إلى خيبر، أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: «أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً، وهو معكم»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾، روى الإمام أحمد، عن أبي سعيد رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الأخرى، وإما أن يصرف عنه من السوء

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/١١٠).

(٢) سورة ق: الآية ١٦.

(٣) أخرجه البخاري (ح/٢٩٩٢)، ومسلم (ح/٢٧٠٤).

مثلها. قالوا: إذا نكث؟ قال: الله أكثر»^(١).

وقوله تعالى: ﴿فليستجيبوا لي﴾، أي: فليجيبوا لي بالطاعة أجبهم بالعطاء. وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول دعوت فلم يستجب لي»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾، أي: لكي يهتدوا.

قوله عز وجل: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةٌ اللَّيْلِ أَلْصِيَاءِ الرِّفْثِ إِلَيَّ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِّرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى الْآيِلِ وَلَا تَبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَنكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

الرفث: كناية عن جماع. قال ابن عباس: إن الله حبيبي كريم يكنى كل ما ذكر في القرآن من المباشرة والملامسة، والإفضاء والدخول والرفث، وإنما عنى به الجماع، وقال أيضاً: كان المسلمون في شهر رمضان إذا صلوا العشاء حرم عليهم النساء والطعام إلى مثلها من القابلة، ثم إن أناساً من المسلمين أصابوا من النساء والطعام في شهر رمضان بعد العشاء، منهم عمر بن الخطاب، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن﴾ الآية.

(١) أخرجه أحمد (١٨/٣)، وابن أبي شيبة (٢٠١/١٠)، والبخاري في الأدب المفرد

(ح/٧١٠)، والحاكم (٤٩٣/١)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٦٣٤٠)، ومسلم (ح/٢٧٣٥).

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلي قال: «قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله إني أردت أهلي البارحة على ما يريد الرجل أهله، فقالت: إنها قد نامت، فظننتها تعتل، فواقعتها، فنزل في عمر: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾.

وقوله تعالى: ﴿هن لباس لكم﴾، أي: سكن لكم. ﴿وأنتم لباس لهن﴾. كما قال تعالى: ﴿وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وجعلنا الليل لباساً﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه﴾^(٣)، وقال الربيع بن أنس: هن فراش لكم وأنتم لحاف لهن.

وقوله تعالى: ﴿فالآن باشروهن﴾، أي: جامعوهن. ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾. قال قتادة: وابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم بإباحة الأكل والشرب والجماع في اللوح المحفوظ.

وقوله تعالى: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾، في الصحيحين عن عدي بن حاتم قال: «لما نزلت هذه الآية وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود عمدت إلى عقالين أحدهما أسود والآخر أبيض، قال: فجعلتهما تحت وسادتي، قال: فجعلت أنظر إليهما فلما تبين لي الأبيض من الأسود أمسكت، فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بالذي صنعت، فقال: إن وسادك إذاً لعريض. إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل»^(٤)، وروى مسلم وغيره عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال،

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨٩.

(٢) سورة النبا: الآية ١٠.

(٣) سورة غافر: الآية ٦١.

(٤) أخرجه البخاري (ح/٤٥٠٩ و ٤٥١٠)، ومسلم (٢/٧٦٦ و ٧٦٧).

ولا الفجر المستطيل، ولكن الفجر المستطير في الأفق»^(١). ولأحمد والترمذي عن طلق أن رسول الله ﷺ قال: «كلوا واشربوا ولا يهدينكم الساطع المصعد، فكلوا واشربوا حتى يعترض لكم الأحمر»^(٢). وقال ابن عباس: هما فجران، فأما الذي يسطع في السماء فليس يحل ولا يحرم شيئاً، ولكن الفجر الذي يستنير على رؤوس الجبال هو الذي يحرم الشراب. رواه عبد الرزاق.

وقوله تعالى: ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ في الصحيحين عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أقبل الليل من ههنا، وأدبر النهار من ههنا، فقد أفطر الصائم». ولمسلم: «وغابت الشمس»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد﴾. قال ابن عباس: هذا في الرجل يعتكف في المسجد في رمضان، أو في غير رمضان، فحرم الله عليه أن ينكح النساء ليلاً أو نهاراً حتى يقضي اعتكافه.

وقوله تعالى: ﴿تلك حدود الله﴾، أي: التي نهاكم عنها. ﴿فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾ فينجدوا من العذاب، كما قال تعالى: ﴿هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم﴾^(٤).

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَىٰ الْمَكَامِرِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

(١) أخرجه مسلم (٢/٧٦٨ و ٢٦٩).

(٢) أخرجه أبو داود (ح/٢٣٤٨)، والترمذي (ح/٧٠٥)، وقال: «حسن غريب» وابن خزيمة (ح/١٩٣٠)، ولم أقف عليه عند أحمد، والحديث حسن، ومعنى قوله ﷺ: «ولا يهدينكم» أي: «لا تنزعجوا للفجر المستطيل، فتمتنعوا عن السحور».

(٣) أخرجه البخاري (ح/١٩٥٤) ومسلم (ح/١١٠٠).

(٤) سورة الحديد: الآية ٩.

قال ابن عباس: هذا في الرجل يكون عليه مال وليس عليه فيه بيّنة، فيجحد المال، ويخاصم إلى الحكام وهو يعرف أن الحق عليه، وهو يعلم أنه آثم آكل الحرام. وقال مجاهد: لا تخاصم وأنت ظالم. وقال قتادة: لا تدل بمال أخيك إلى الحاكم وأن تعلم أنك ظالم؛ فإن قضاءه لا يحل حراماً. وفي الصحيحين، عن أم سلمة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إنما أنا بشر، وإنما يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضى له بنحو مما أسمع، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من نار، فليحملها أو يذرها»^(١).

قال قتادة: «اعلم يا ابن آدم أن قضاء القاضي لا يحل لك حراماً، ولا يحق لك باطلاً، وإنما يقضي القاضي بنحو ما يرى، وتشهد به الشهود، والقاضي بشر يخطيء ويصيب، واعلموا أن من قضى له بباطل أن خصومته لم تنقض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة، فيقضي على المبطل للحق بأجود مما قضى به للمبطل على المحق في الدنيا». والله أعلم.



(١) أخرجه البخاري (ح/٢٦٨٠)، ومسلم (ح/١٧١٣).

الدرس الحادي والعشرون

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتٌ لِلنَّاسِ وَالْحَيِّجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ فَفَعَلْتُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمْ وَالْفِنَاءُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقْبَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ .

قال العوفي عن ابن عباس: «سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلة، فنزلت هذه الآية ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس﴾ يعلمون بها حل دينهم وعدة نسائهم ووقت حجهم».

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «جعل الله الأهلة مواقيت للناس. فصوموا لرؤيته، وافطروا لرؤيته، فإن غمَّ عليكم فعدوا ثلاثين يوماً»^(١): رواه عبد الرزاق.

وقوله تعالى: ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ روى البخاري عن البراء قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره، فأنزل الله ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها﴾.

وقوله تعالى: ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾، أي: اتقوا الله، فافعلوا ما أمركم به واتركوا ما نهاكم عنه لتفوزوا غداً إذا وقفتم بين يديه.

قوله عز وجل: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ .

(١) أخرجه عبد الرزاق (٤/١٥٦)، والبيهقي (٤/٢٠٥)، وهو حديث صحيح.

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: إن ذلك في النساء والذرية، ومن لم ينصب لك الحرب منهم. وقال ابن عباس: يقول: لا تقتلوا النساء ولا الصبيان ولا الشيخ الكبير ولا من ألقى إليكم السلام وكف يده، فإن فعلتم هذا فقد اعتديتم. وقال الربيع: هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من يقاتله، ويكف عم كف عنه حتى نزلت براءة.

قوله عز وجل: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفِفْتُهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمُوهُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُفْتَلُوا فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾.

قال البغوي^(١): أصل الثقافة الحدّ والبصر بالأمر، ومعناه: واقتلوهم حيث أبصرتم مقاتلتهم وتمكنتم من قتلهم، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم، وذلك أنهم أخرجوا المسلمين من مكة. فقال: أخرجوهم من ديارهم كما أخرجوكم من دياركم.

وقوله تعالى: ﴿والفتنة أشد من القتل﴾ قال مجاهد وغيره: يقول: الشرك أشد من القتل.

وقوله تعالى: ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم﴾.

قال ابن كثير^(٢): وقوله: ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام﴾ كما جاء في الصحيحين: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، وإنها ساعتي هذه حرام

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/١١٦).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٢٢٧).

بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شجره، ولا يختلى خلاه، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ، فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم^(١)، يعني بذلك صلوات الله وسلامه عليه قتاله أهله يوم فتح مكة، فإنه فتحها عنوة وقتل رجال منهم عند الخندمة، وقيل صلحاً؛ لقوله: «من أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن»^(٢).

وقوله: ﴿حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين﴾ يقول تعالى: ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام﴾ إلا أن يبدءوكم بالقتال فيه، فلکم حينئذ قتالهم وقتلهم دفعاً للصائل، كما بايع النبي ﷺ أصحابه يوم الحديبية تحت الشجرة على القتال؛ لما تألبت عليه بطون قريش، ومن والاهم من أحياء ثقيف، والأحباش عامئذ، ثم كفّ الله القتال بينهم، فقال: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾^(٣). وقال: ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾^(٤).

وقوله: ﴿فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم﴾، أي: فإن تركوا القتال في الحرام، وأنابوا إلى الإسلام والتوبة؛ فإن الله يغفر ذنوبهم؛ ولو كانوا قد قتلوا المسلمين في حرم الله، فإنه تعالى لا يتعاضمه ذنب أن يغفره لمن تاب منه إليه انتهى.

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (ج/ ١٧٨٠). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سورة الفتح: الآية ٢٤.

(٤) سورة الفتح: الآية ٢٥.

قوله عز وجل: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَهَبُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٩٣).

قال البغوي^(١): وقاتلهم، يعني المشركين حتى لا تكون فتنة، أي: شرك، يعني قاتلوهم حتى يسلموا، فلا يقبل من الوثني إلا الإسلام، فإن أبى قتل، يكون الدين، أي: الطاعة والعبادة لله وحده، فلا يعبد شيء دونه. قال نافع: جاء رجل إلى ابن عمر في فتنة ابن الزبير، فقال: ما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعني أن الله حرم دم أخي قال: ألا تسمع ما ذكره الله عز وجل: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾^(٢) فقال: ابن أخي، ولأن اعتبر^(٣) بهذه الآية ولا أقاتل، أحب إلي من أن اعتبر بالآية التي يقول الله عز وجل: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً﴾^(٤) قال: ألم يقل الله ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ قال: قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلاً وكان الرجل يفتن في دينه، إما يقتلونه أو يعذبونه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقتلوهم حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ قال الربيع: هم المشركون. وقال مجاهد: ﴿فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ يقول: لا تقتلوا إلا من قاتلكم.

قوله عز وجل: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعتدى عَلَيْكُمْ فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم وأتقوا الله وأعلموا أن الله مع المتقين﴾ (١٩٤).

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/١١٦).

(٢) سورة الحجرات: الآية ٩.

(٣) في هامش الأصل: «لعله اغتر»، والمثبت كما هو عند البغوي، وهو الصواب.

(٤) سورة النساء: الآية ٩٣.

قال ابن عباس وغيره: «لما سار رسول الله ﷺ معتمراً في ست من الهجرة، وحبسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت، وصدوه بمن معه من المسلمين في ذي القعدة، وهو شهر حرام، حتى قاضاهم على الدخول من قابل، فدخلها في السنة الآتية هو ومن كان معه من المسلمين، وأقصه الله منهم، فنزلت في ذلك هذه الآية ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص﴾ وعن جابر بن عبد الله قال: «لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يغزي ونغزو، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ»^(١). رواه أحمد.

وقوله تعالى: ﴿من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ سمي الجزاء باسم الابتداء، كما قال تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾^(٢) قال ابن كثير^(٣): أمر تعالى بالعدل حتى في المشركين.

وقوله تعالى: ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾ أمر لهم بطاعة الله وتقواه، وإخبار بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة.

قوله عز وجل: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١٩٥).

قال ابن عباس في قوله: ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾: ليس ذلك في القتال إنما هو في النفقة أن تمسك بيدك عن النفقة في سبيل الله، ولا تلق بيدك إلى التهلكة.

وروى أبو داود وغيره عن أسلم أبي عمران قال: «حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه، ومعنا أبو أيوب الأنصاري، فقال ناس:

(١) أخرجه أحمد (٣/٣٣٤ و ٣٣٥) بسند صحيح.

(٢) سورة الشورى: الآية ٤٠.

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٢٢٨).

ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: نحن أعلم بهذه الآية منكم، إنما نزلت فينا. صحبنا رسول الله ﷺ، وشهدنا معه المشاهد، ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر اجتمعنا معشر الأنصار نجيا، فقلنا: قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ، ونصره حتى فشا الإسلام، وكثر أهله، وكنا قد آثرنا على الأهلين والأموال والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها، فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهم، فنزل فينا ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد^(١).

وروى ابن مردويه عن النعمان بن بشير في قوله ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ أن يذنب الرجل الذنب فيقول: لا يغفر لي، فأنزل الله ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾.

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري^(٢): والأول أظهر، لتصدير الآية بذكر النفقة، فهو المعتمد في نزولها. وأما قصرها عليه ففيه نظر؛ لأن العمدة بعموم اللفظ إلى أن قال: وأما مسألة حمل الواحد على العدد الكثير من العدو، فصرح الجمهور بأنه إن كان لفرط شجاعته، وظنه أنه يهرب العدو بذلك، أو يجرىء المسلمين عليهم، أو نحو ذلك من المقاصد الصحيحة، فهو حسن. ومتى كان مجرد تهور فممنوع، ولا سيما إن ترتب على ذلك وهن في المسلمين والله أعلم انتهى.



(١) أخرجه أبو داود (ح/٢٥١٢)، والترمذي (ح/٢٩٧٢) وقال: «حديث حسن صحيح غريب»، وابن جرير (٢/٢٠٤)، والطيالسي (ح/٥٩٩)، والحاكم (٢/٨٤ و ٢٧٥)، وصححه ووافقه الذهبي. قلت: وهو صحيح.

(٢) انظر (٨/٣٤).

الدرس الثاني والعشرون

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَكْرَدُوا فَاتِكِ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَأَنْقُونِ يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْهَا فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً

وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠٧﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا^٤
وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٨﴾ * وَأذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي
يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا
أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٩﴾ *

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَأْتَمُوا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِدِهِ أَدْمَىٰ مِنْ رَأْسِهِ فَعِدْيَةٌ مِنْ صِيَامِهِ أَوْ صَدَقَةٌ أَوْ سُكٌّ﴾ .

لما ذكر تعالى أحكام الصيام وعطف بذكر الجهاد، شرع في بيان المناسك فقال: ﴿وَأْتَمُوا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ لِلَّهِ﴾. قال ابن عباس: من أحرم بحج أو عمرة فليس له أن يحل حتى يتمها. تمام الحج يوم النحر، إذا رمى جمرة العقبة وزار البيت، فقد حل من إحرامه كله، وتمام العمرة إذا طاف بالبيت وبالصفا والمروة، فقد حل.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾. قال مجاهد: الحصر الحبس، كأنه يقول: أيما رجل اعترض له في حجته وعمرته فإنه يبعث بهديه من حيث يحبس. وقال قتادة: هو الخوف والمرض والحابس إذا أصابه ذلك بعث بهديه، فإذا بلغ الهدى محله حل. وعن هشام بن عروة عن أبيه قال: كل شيء حبس المحرم فهو إحصار. وقال ابن عباس: ﴿مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ شاة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾، أي: الحرم.

قال ابن كثير^(١): (إن النبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية لما حصرهم كفار قريش عن الدخول إلى الحرم، حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم. فأما في حال

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٢٣٢).

الأمن والوصول إلى الحرم، فلا يجوز الحلق، حتى يبلغ الهدى محله، ويفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة، إن كان قارناً، أو من فعل أحدهما إن كان مفرداً أو متمتعاً، كما ثبت في الصحيحين عن حفصة أنها قالت: «يا رسول الله ما شأن الناس أحلوا من العمرة ولم تحل أنت من عمرتك؟ فقال: إني لبدت رأسي وقلدت هديي فلا أحل حتى أنحر»^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفَدِيَ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نَسْكَ﴾، عن كعب بن عجرة قال: «حملت إلى النبي ﷺ والقمل يتناثر على وجهي فقال: ما كنت أرى أن ^{المجهد} الجبل يبلغ بك هذا، أما تجد شاة؟ قلت: لا. قال: صم ثلاثة أيام، وأطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام، واحلق رأسك. فنزلت في خاصة وهي لكم عامة»^(٢). رواه البخاري وغيره.

وفي رواية لأحمد وغيره: «يؤذيك هوام رأسك؟ قلت: نعم. قال: فاحلقه وصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، أو انسك نسيكة»^(٣).

قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ مَنِ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

قال ابن كثير^(٤): (وقوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ مَنِ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾، أي: فإذا تمكنتم من أداء المناسك، فمن كان منكم متمتعاً بالعمرة إلى الحج، وهو يشمل من أحرم بهما أو أحرم بالعمرة أولاً، فلما فرغ منها

(١) أخرجه البخاري (ح/١٥٦٦)، ومسلم (ح/١٢٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (ح/١٨١٦)، ومسلم (ح/١٢٠١).

(٣) أخرجه أحمد (٤/٢٤٢).

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٢٣٣).

أحرم بالحج، وهذا هو التمتع الخاص وهو المعروف في كلام الفقهاء. والتمتع العام يشمل القسمين كما دلت عليه الأحاديث الصحاح). انتهى.

وقوله تعالى: ﴿فما استيسر من الهدى﴾، أي: فليذبح ما تيسر من الهدى وأقله شاة. ﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج﴾، أي: في أيام المناسك. قال عطاء وغيره: الأولى أن يصومها قبل يوم عرفة في العشر، أو من حين يحرم، قاله ابن عباس وغيره. وقال العوفي عن ابن عباس: إذا لم يجد هدياً فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة، فإذا كان يوم عرفة الثالث فقد تمّ صومه، وسبعة إذا رجع إلى أهله.

وهل يجوز صياهما أيام التشريق؟ فيه قولان للعلماء، والراجح الجواز، لما روى البخاري عن ابن عمر وعائشة قالا: «لم يرخص في أيام التشريق أن يصمن إلا لمن لم يجد الهدى»^(١).

وقوله تعالى: ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾. قال ابن عباس: هم أهل الحرم. وقال طاوس: المتعة للناس لا لأهل مكة، من لم يكن أهله من الحرم. وقال مكحول في قوله ذلك: ﴿لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾. قال: من كان دون الميقات. واختار ابن جرير: أنهم أهل الحرم، ومن كان منه على مسافة لا يقصر فيها الصلاة.

وقوله تعالى: ﴿واتقوا الله﴾ أي فيما أمركم ونهاكم. ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ لمن خالف أمره وارتكب نهيه.

قوله عز وجل: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ حَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَكَزُّودًا فَلَا يَخِيرَ الزَّادِ النَّقْوَى وَأَتَقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾﴾.

(١) أخرجه البخاري (ح/١٩٩٧ و ١٩٩٨).

قال ابن عباس: لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في شهور الحج، من أجل قول الله تعالى: ﴿الحج أشهر معلومات﴾. وقال ابن عمر: هي شوال وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة. قال ابن جرير^(١): وصح إطلاق الجمع على شهرين وبعض الثالث للتغليب.

وقوله تعالى: ﴿فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿فمن فرض فيهن الحج﴾ يقول: من أحرم بحج أو عمرة.

وقوله: ﴿فلا رفث﴾، أي: من أحرم بحج أو عمرة فليجتنب الرفث وهو الجماع. وكان ابن عمر يقول: الرفث: إتيان النساء، والتكلم بذلك للرجال والنساء، إذا ذكروا ذلك بأفواههم. وقال ابن عباس: الرفث: التعريض بذكر الجماع، وهي العرابة^(٢) في كلام العرب، وهو أدنى الرفث. وقال عطاء: الرفث الجماع وما دونه من قول الفحش. وقال طاوس: هو أن يقول للمرأة إذا حللت أصبتك.

وقوله: ﴿ولا فسوق﴾. قال ابن عباس وغيره: هي المعاصي. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿ولا جدال في الحج﴾. قال مجاهد: قد بين الله أشهر الحج، فليس فيه جدال بين الناس. وقال ابن عباس: ﴿ولا جدال في الحج﴾. قال: المرء في الحج. وقال ابن مسعود في قوله: ﴿ولا جدال في الحج﴾. قال: أن

(١) انظر «جامع البيان» (٢/٢٦٠).

(٢) ما قبح من الكلام، انظر «لسان العرب» مادة: عرب.

(٣) أخرجه البخاري (ح/١٥٢١)، ومسلم (ح/١٣٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تماري صاحبك حتى تغضبه، وكذا قال ابن عباس وغيره، وقال ابن عمر: الجدل في الحجج السباب والمنازعة، وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من قضى نسكه وسلم المسلمون من لسانه ويده، غفر له ما تقدم من ذنبه»^(١). رواه أحمد.

وقوله تعالى: ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾، لما نهاهم عن إتيان القبيح حثهم على فعل الجميل، وأخبرهم أنه عالم به وسيجزئهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾. روى البخاري وغيره عن ابن عباس قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزوجون، ويقولون: نحن المتوكلون فأنزل الله ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾. ^{يتزودون}

وقوله تعالى: ﴿فإن خير الزاد التقوى﴾ لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا، أرشدهم إلى زاد الآخرة، وهو استصحاب التقوى، كما قال تعالى: ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير﴾^(٢). وقال مقاتل: «لما نزلت هذه الآية ﴿وتزودوا﴾ قام رجل من فقراء المسلمين فقال: يا رسول الله ما نجد ما نتزوده، فقال رسول الله ﷺ: تزود ما تكف به وجهك عن الناس، وخير ما تزودتم التقوى»^(٣). رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿واتقون يا أولي الألباب﴾، أي: العقول والأفهام، أي احذروا عقابي وعذابي لمن خالفني وعصاني.

(١) أخرجه عبد بن حميد في المنتخب (٧٨/٣)، وسنده ضعيف، وهم المؤلف رحمه الله،

فظن أن الحديث أخرجه أحمد وليس كذلك.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٣١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١/١٣٦/١).

قوله عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾.

روى البخاري وغيره عن ابن عباس قال: «كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثموا أن يتجروا في الموسم فنزلت: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ في مواسم الحج»^(١). وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية: لا حرج عليكم في الشراء والبيع قبل الإحرام وبعده. وروى أحمد وغيره عن أبي أمامة التيمي قال: قلت لابن عمر: إنا نكري فهل لنا من حج؟ قال: أليس تطوفون بالبيت، وتأتون بالمعروف، وترمون الجمار، وتحلقون رءوسكم؟ قال: قلنا: بلى. فقال ابن عمر: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الذي سألتني فلم يجبه، حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ فدعاه النبي ﷺ فقال: أنتم حجاج»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾. روى أحمد وأهل السنن عن عبد الرحمن بن يعمر الديلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحج عرفات، ثلاثاً، فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك»^(٣). الحديث.

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٥١٩).

(٢) أخرجه أحمد (١/١٥٥)، والطبري (٢/٢٨٢)، وهو حديث حسن.

(٣) أخرجه أحمد (٤/٣٣٥)، وأبو داود (ح/١٩٤٩)، والترمذي (ح/٨٨٩)، والنسائي (٥/٢٥٦)،

وابن ماجه (٢/١٠٠٣)، والحاكم (١/٤٦٤)، وصححه ووافقه الذهبي. وهو كما قال.

وفي حديث جابر الطويل: «فلم يزل واقفاً - يعني بعرفة - حتى غابت الشمس وبدت الصفرة قليلاً، حتى غاب القرص، وأردف أسامة خلفه. ودفع رسول الله ﷺ وقد شقق للقصواء الزمام، حتى أن رأسها ليصيب مورك رحله، ويقول بيده اليمنى: أيها الناس السكينة السكينة. كلما أتى جبلاً أرخى لها قليلاً حتى تصعد، حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئاً، ثم اضطجع حتى طلع الفجر فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصوى حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة، فدعا الله وكبره وهلله ووحدته، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جدا، فدفع قبل أن تطلع الشمس»^(١). الحديث رواه مسلم.

وروى أحمد عن جبير بن مطعم عن النبي ﷺ قال: «كل عرفات موقف وادفعوا عن عرفة، وكل مزدلفة موقف وادفعوا عن محسر، وكل فجاج مكة منحرا، وكل أيام التشريق ذبح»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿واذكروه كما هداكم﴾، أي: واذكروه بالتوحيد والتعظيم كما هداكم لدينه، ومناسك حجه. ﴿وإن كنتم من قبله لمن الضالين﴾، أي: وقد كنتم من قبل هذا الهدى لمن الضالين الجاهلين بدينهم.

وقوله تعالى: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾. قال أهل التفسير: كانت قريش وحلفاؤها ومن دان بدينها وهم الحمس، يقفون بالمزدلفة ويقولون: نحن أهل الله، وقطان حرمه، فلا نخلف الحرم، ولا نخرج منه، ويتعظمون أن يقفوا مع سائر العرب بعرفات، فإذا أفاض الناس من عرفات أفاض الحمس من المزدلفة، فأمرهم الله أن يقفوا بعرفات، ويفيضوا منها

(١) أخرجه مسلم (ح/١٢١٨).

(٢) أخرجه أحمد (٤/٨٢)، والطبراني (٢/١٣٨)، والبيهقي (٥/٢٣٩)، وهو حديث صحيح.

إلى جمع مع سائر الناس . وقال الضحاك بن مزاحم: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ قال: هو إبراهيم . وروى عن ابن عباس ما يقتضي أن المراد بالإفاضة ههنا هي الإفاضة من المزدلفة إلى منى لرمي الجمار . والله أعلم .

وقوله تعالى: ﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ كثيراً ما يأمر الله بذكره واستغفاره بعد قضاء العبادات، كما ورد ذلك في أدبار الصلوات وغيرها، ومن ذلك: «اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»^(١). وكان ﷺ يستغفر بعد السلام ثلاثاً^(٢)؛ وفائدة الاستغفار الذل والانكسار بين يدي الجبار، كما في سيد الاستغفار: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت». قال رسول الله ﷺ: «من قالها في ليلة فمات في ليلته دخل الجنة، ومن قالها في يومه فمات دخل الجنة»^(٣). رواه البخاري .

قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٠٥﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠٦﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٧﴾﴾ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ

(١) أخرجه البخاري (ح/٨٣٤)، ومسلم (ح/٢٧٠٥) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم (ح/٥٩١) من حديث ثوبان رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري (ح/٦٣٠٦) . من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه .

مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٠﴾ .

يأمر تعالى بذكره دائماً والإكثار منه بعد قضاء المناسك. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم فيقول الرجل منهم: كان أبي يطعم ويحمل الحملات ويحمل الديات ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم، فأنزل الله على محمد ﷺ ﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً﴾.

وقوله تعالى: ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق﴾، أي: حظ ونصيب، قال ابن عباس: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون: اللهم اجعله عام غيث، وعام خصب، وعام ولاد حسن، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً، فأنزل الله فيهم ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق﴾، وكان يجيء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، فأنزل الله ﴿أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب﴾.

وقوله تعالى: ﴿واذكروا الله في أيام معدودات﴾. قال ابن عباس: الأيام المعدودات أيام التشريق، والأيام المعلومات أيام العشر. وفي الحديث عن النبي ﷺ: «لا تصوموا هذه الأيام - يعني أيام منى - فإنها أيام أكل وشرب وذكر لله عز وجل»^(١). رواه ابن جرير. وقال ابن عباس وغيره: الأيام المعدودات أربعة أيام: يوم النحر وثلاثة بعده.

وقوله تعالى: ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى﴾. قال قتادة: قوله: ﴿فمن تعجل في يومين﴾، أي: من أيام التشريق

(١) أخرجه أحمد (٣/٣٤٢)، والنسائي في الكبرى (٢/١٦٥) من حديث حمزة الأسلمي رضي الله عنه، وهو حديث صحيح، وأخرجه ابن جرير (٢/٣٠٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿فلا إثم عليه﴾، ومن أدركه الليل بمنى من اليوم الثاني من قبل أن ينفر، فلا نفر له حتى تزول الشمس من الغد، ﴿ومن تأخر فلا إثم عليه﴾، يقول: ومن تأخر إلى اليوم الثالث من أيام التشريق ﴿فلا إثم عليه﴾. قال ابن مسعود: ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه﴾، أي: غفر له. ﴿ومن تأخر فلا إثم عليه﴾. قال: غفر له. وقال أبو العالية: ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه﴾، قال: ذهب إثمه كله إن اتقى فيما بقي. وقال قتادة: ذكر لنا أن ابن مسعود كان يقول: من اتقى في حجه غفر له ما تقدم من ذنبه، أو ما سلف من ذنوبه.

وقوله تعالى: ﴿واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾، أي: اتقوا الله بفعل ما أمركم به وترك ما نهاكم عنه، ﴿واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ فيجزئكم بأعمالكم. والله أعلم.



الدرس الثالث والعشرون

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۗ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلِّبْنَ إِسْرَءِيلَ كَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّل نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَسَخَّرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ۗ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۗ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اٰخْتَلَفُوا فِيهِ ۗ وَمَا اٰخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ ۗ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اٰخْتَلَفُوا فِيهِ ۗ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ

مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ
أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ .

قال السدي: نزلت في الأحنس بن شريق الثقفي، وهو حليف لبني زهرة، وأقبل إلى النبي ﷺ بالمدينة فأظهر له الإسلام، فأعجب النبي ﷺ ذلك منه وقال: إنما جئت أريد الإسلام والله يعلم أنني صادق، وذلك قوله: ﴿ويشهد الله على ما في قلبه﴾، ثم خرج من عند النبي ﷺ، فمر بزرع لقوم من المسلمين وحمر، فأحرق الزرع وعقر الحمر، فأنزل الله عز وجل: ﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل﴾.

وقال أبو معشر: سمعت سعيداً المقبري يذكر محمد بن كعب فقال سعيد: إن في بعض الكتب أن الله عبداً ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر، لبسوا للناس مسوك الضأن من اللين، يجترونها الدنيا بالدين. قال الله تبارك وتعالى: أعلي يجترونها وبني يفترون؟ فبعزتي لأبعثن عليهم فتنة ترك الحليم منهم حيراناً. فقال محمد بن كعب: هذا في كتاب الله جل ثناؤه، فقال سعيد: وأين هو من كتاب الله؟ قال: قول الله عز وجل: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾، فقال سعيد: قد عرفت فيم أنزلت هذه الآية؟ فقال محمد بن كعب: إن الآية تنزل في الرجل ثم تكون عامة بعد.

وقال الضحاك: ﴿وإذا تولى﴾ أي ملك الأمر وصار والياً ﴿سعى في الأرض﴾. قال مجاهد: إذا ولي يعمل بالعدوان والظلم، فأمسك الله المطر وأهلك الحرث والنسل.

وقال قتادة: قوله: ﴿وهو ألد الخصام﴾ يقول: شديد القسوة في معصية الله، جدال بالباطل، وإذا شئت رأيته عالم اللسان جاهل العمل، يتكلم بالحكمة ويعمل بالخطيئة. وفي الحديث عن النبي ﷺ: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»^(١). رواه البخاري وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم﴾، أي: إذا وعظ هذا الفاجر حملته العزة والغضب على الفعل بالإثم. ﴿فحسبه جهنم﴾، أي: كافية ﴿ولبئس المهاد﴾ الفراش. وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذي كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير﴾^(٢). قال ابن مسعود: إن من أكبر الذنوب عند الله أن يقال للعبد: اتق الله، فيقول: عليك بنفسك.

قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(٣).

قال ابن عباس وغيره: نزلت في صهيب بن سنان الرومي، وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر فعل، فتخلص منهم وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة فقالوا له: ربح البيع، فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذلك؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية.

وعن صهيب قال: لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي ﷺ قالت لي قريش: يا صهيب قدمت إلينا ولا مال لك، وتخرج أنت ومالك؟ والله لا يكون ذلك أبداً فقلت: رأيتم إن دفعت إليكم مالي تخلون عني؟ قالوا: نعم. فدفعت إليهم مالي

(١) أخرجه البخاري (ح/٧١٨٨)، عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) سورة الحج: الآية ٧٢.

فخلوا عني، فخرجت حتى قدمت المدينة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ربح صهيب، ربح صهيب. مرتين». رواه ابن مردويه^(١).

وقال ابن عباس: نزلت في سرية الرجيع. وعن المغيرة قال: بعث عمر جيشاً فحاصروا أهل حصن، فتقدم رجل من بجيلة فقاتل فقتل، فأكثر الناس يقولون فيه: ألقى بيده إلى التهلكة. قال: فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: كذبوا، أليس الله عز وجل يقول: ﴿ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد﴾؟

قال ابن كثير^(٢): وأما الأكثرون فحملوا ذلك على أنها نزلت في كل مجاهد في سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾^(٣).

وقال ابن جرير^(٤): هي عامة في كل من باع نفسه في طاعة الله، وإن كان نزولها بسبب من الأسباب، هذا معنى كلامه.

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾.

قال ابن عباس وغيره: «ادخلوا في السلم» يعني الإسلام. «كافة» جميعاً.

(١) كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٢٤٧/١)، وسنده ضعيف.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٤٧/١).

(٣) سورة التوبة: الآية ١١١.

(٤) انظر «جامع البيان» (٣٢٢/٢).

وقال مجاهد: أي اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ فيما يأمركم به ﴿إنه لكم عدو مبين﴾.

وقوله تعالى: ﴿فإن زللتكم﴾، أي: ضللتكم ﴿من بعد ما جاءكم البينات﴾، أي: الدلالات الواضحات ﴿فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾. قال قتادة: عزيز في نقمته، حكيم في أمره.

قوله عز وجل: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

يقول تعالى مهدياً للكافرين: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله﴾ يوم القيامة ﴿في ظلل من الغمام﴾ لفصل القضاء والملائكة، كما قال تعالى: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً وجاء ربك والملك صفاً صفاً﴾^(٢). وفي حديث الصور: «ينزل الجبار عز وجل في ظلل من الغمام والملائكة، ولهم زجل من تسييحهم يقولون: سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان ذي العزة والجبروت، سبحان الحي الذي لا يموت، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت، سبحان قدوس رب الملائكة والروح، سبحان قدوس، سبحان ربنا الأعلى، سبحان ذي السلطان والعظمة، سبحانه سبحانه أبداً أبداً»^(٣). رواه ابن جرير.

قال سفیان بن عیینة: كل ما وصف الله به نفسه في كتابه، فتفسيره:

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥٨.

(٢) سورة الفجر: الآيتان ٢١ و ٢٢.

(٣) أخرجه ابن جرير (٢/ ٣٣٠ - ٣٣١) من حديث أبي هريرة، وسنده ضعيف.

قراءته^(١) والسكوت عليه، ليس لأحد أن يفسره إلا الله تعالى ورسوله^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور﴾، أي: فصل الله القضاء بين الخلق، وجزي كلُّ بعمله، ودخل كلُّ منزله: فريق في الجنة وفريق في السعير، كما قال تعالى: ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾^(٣).

(١) زاد في «الللكائي» (٣/٤٣١): «لا كيف ولا مثل».

(٢) قلت: استدل أهل السنة — رحمهم الله — بهذه الآية، وما شابهها على إثبات مجيء الله تعالى يوم القيامة، للفصل بين العباد، وهو مجيء حقيقي، يليق به تعالى، من غير تكييف، ولا تمثيل ولا تشبيه، ولا تعطيل.

واعلم — وفقني الله وإياك لاجتناب البدع والمبتدعين — أن مراد السلف من قولهم: «لا يفسر ولا يؤول» وقولهم: «لا يفسره إلا الله تعالى»، كما قاله ابن عيينة رحمه الله، وقولهم: «لا كيف ولا معنى» فمرادهم من هذا الكلام هو نفي المعنى الذي أحدثته المعطلة الجهمية، وأذنا بهم: أهل البدع والضلال من معتزلة وأشاعرة.

إذ صرفوا هذه النصوص عن ظاهرها إلى معانٍ تخالفها فأولوا «الاستواء» بالاستيلاء، وأولوا «اليد» وفسروها بالنعمة والقدرة، وهكذا في باقي آيات الصفات.

وإياك أن تفهم ما فهمه المفوض، إذ استنبط من هذا الكلام الوارد عن السلف، أن آيات الصفات تثبت لفظاً فقط دون معنى.

فهذا الفهم لا يفهمه إلا من أعرض عن كتب أهل السنة، واشتغل بكتب أهل البدع والضلال: المبنية على زبالة الأذهان، وكناسة الأفكار، وقولهم هذا يلزم عليه لوازم عديدة منها: استجهال السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وسائر الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأنهم كانوا يقرؤون هذه الآيات المتعلقة بالصفات، ولا يعرفون معنى ذلك، ولا ما أريد به، ومنها: أن رسول الله ﷺ كان يتكلم بذلك ولا يعلم معناه، وانظر مزيد بسط حول هذا المذهب الخبيث — مذهب المفوضة — كتاب ابن تيمية رحمه الله «درء تعارض العقل والنقل» (١/٢٠٧)، وكتاب ابن القيم رحمه الله «مختصر الصواعق المرسله» (١/٧٣ — ٧٤)، والله أعلم.

(٣) سورة الزمر: الآية ٧٥.

قوله عز وجل: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِّنْ آيَاتِنَا بَيْنَهُ وَمَن يَبْدِلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ .

يقول تعالى: ﴿سل﴾ يا محمد ﴿بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة﴾، أي: حجة قاطعة بصدق موسى فيما جاءهم به، كاليد، والعصا، وقلق البحر، وضرب الحجر، وتظليل الغمام، وغير ذلك من الآيات، ومع هذا أعرض كثير منهم وبدلوا وكذبوا الأنبياء، ولهذا قال: ﴿ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾، كما قال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ .

يقول تعالى: ﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا﴾ فأثروها على الآخرة، ﴿ويسخرون من الذين آمنوا﴾ حيث آثروا الآخرة وأعرضوا عما يشغلهم عنها. ﴿والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾ كما قال تعالى: ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين وإذا رأوهم قالوا: إن هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾، أي: يعطي من يشاء من خلقه عطاء كثيراً بلا حصر في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾^(٣).

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٨.

(٢) سورة المصطفين: الآيات ٢٩ - إلى نهاية السورة.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٢١.

قوله عز وجل: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ .

قال ابن عباس: كان بين نوح و آدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلّفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين .

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾، أي: الكتب بالحق، أي الصدق والعدل، ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ من أمور دينهم ودنياهم. ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ﴾، أي: الكتاب، ﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾^(١).

قال الربيع بن أنس في قوله: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾، أي: عند الاختلاف، أنهم كانوا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف، أقاموا على الإخلاص لله عز وجل وعبادته وحده لا شريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، فأقاموا على الأمر الأول الذي كان قبل الاختلاف، واعتزلوا الاختلاف، وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. قال أبو العالية: في هذه الآية المخرج من الشبهات، والضلالات، والفتن. وعن عائشة رضي الله عنها: «إن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يقول: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك

(١) سورة الشورى: الآية ١٣.

فيما كانوا فيه يختلفون، أهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(١). رواه البخاري ومسلم.

قوله عز وجل: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾^(٢).

قال عطاء: «لما دخل رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، اشتد عليهم الضر لأنهم خرجوا بلا مال، وتركوا ديارهم وأموالهم بأيدي المشركين، وآثروا مرضاة الله ورسوله، وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله ﷺ، وأسّر قوم النفاق، فأنزل الله تعالى تطيباً لقلوبهم ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا ﴾. قال مجاهد وغيره: ﴿البأساء﴾ الفقر، ﴿والضراء﴾ السقم، ﴿وزلزلوا﴾ خوفوا من الأعداء. ﴿حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾، أي: ما زال البلاء بهم حتى استبطئوا النصر. قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنَازِلَ يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾^(٣). وفي الحديث الصحيح: «واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً»^(٤). والله أعلم.



(١) أخرجه مسلم (ح/٧٧٠)، وهم ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره (٢٥٠/١) فنسب هذا الحديث إلى البخاري - رحمه الله - وليس كذلك، وقد تبعه على ذلك المؤلف - رحمه الله - فليتبّه.

(٢) سورة العنكبوت: الآيات ١ - ٣.

(٣) أخرجه أحمد (٣٠٧/١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهو حديث صحيح.

الدرس الرابع والعشرون

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كَتَبَ
عَلَيْكُمْ الْقِتَالَ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ
أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ
الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ فِيهِ كَيْدٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقِتَالِ وَلَا يَزَالُونَ
يُقْبِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ—
فَسِمْتٌ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا
وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾
﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ
وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ
اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ
الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ
الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ .

قوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ .

قال مقاتل: هذه الآية في نفقة التطوع، ومعنى الآية: يسألونك كيف ينفقون؟ فبين لهم تعالى ذلك قال: ﴿قل ما أنفقتم من خير فليلوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾، أي: اصرفوا نفقتكم في هذه الوجوه، كما في الحديث: «أمك وأباك وأختك وأخاك، ثم أذنك أذنك»^(١)، قال ميمون بن مهران: هذه مواضع النفقة، ما ذكر فيها طبل ولا مزمار، ولا تصاوير الخشب، ولا كسوة الحيطان.

وقوله تعالى: ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم﴾، أي: فيجازيكم عليه.

قوله عز وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ .

قال الزهري: الجهاد واجب على كل أحد غزا أو قعد، فالقاعد عليه إذا استعين أن يعين، وإذا استغيث أن يغيث، وإذا استنفر أن ينفر، وإن لم يحتج إليه قعد.

(١) أخرجه أحمد (٢٢٦/٢) عن أبي رمثة رضي الله عنه، والنسائي (٦١/٥) عن طارق المحاربي رضي الله عنه، وهو حديث صحيح.

وقوله تعالى: ﴿وهو كره لكم﴾، أي: شديد عليكم، ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾، لأن في الغزو إحدى الحسنين: إما الظفر والغنيمة، وإما الشهادة والجنة. ﴿وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم﴾، فإن الذل في القعود. ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾، أي: هو أعلم بعواقب الأمور منكم، وأخبر بما فيه صلاحكم.

قوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقْلِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَظَلُّوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾.

سبب نزول هذه الآية: «أن رسول الله ﷺ بعث عبدالله بن جحش في جمادى الآخرة، قبل وقعة بدر، ونفراً معه سرية، فلقوا عمرو بن الحضرمي وهو مقبل من الطائف في آخر ليلة من جمادى، وكانت أول رجب، ولم يشعروا، فقتله رجل منهم وأخذوا ما كان معه»، قال ابن عباس: وإن المشركين أرسلوا يعبرونه بذلك، فقال الله تعالى: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله﴾، إخراج أهل المسجد الحرام أكبر من الذي أصاب محمد ﷺ، والشرك أشد منه.

وقال ابن أسحاق: ﴿الفتنة أكبر من القتل﴾، أي: قد كانوا يفتنون المسلم في دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه، فذلك أكبر عند الله من القتل ﴿ولا يزالون

يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴿١﴾، أي: ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه، غير تائبين ولا نازعين.

قال البغوي^(١): قوله تعالى: ﴿قل قتال فيه كبير﴾ عظيم، تم الكلام هنا، ثم ابتداء فقال: ﴿وصد عن سبيل الله﴾.

وقال ابن جرير^(٢) في قوله تعالى: ﴿وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل﴾، (وتأويل الكلام: وصد عن سبيل الله وكفر به وعن المسجد الحرام، وإخراج أهل المسجد الحرام، وهم أهله وولاته، أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام، فالصد عن سبيل الله مرفوع بقوله: ﴿أكبر عند الله﴾، وقوله: ﴿وإخراج أهله منه﴾، عطف على الصد، ثم ابتداء الخبر عن الفتنة فقال: ﴿والفتنة أكبر من القتل﴾، يعني الشرك أعظم وأكبر من القتل، يعني: من قتل ابن الحضرمي الذي استنكرتم قتله في الشهر الحرام)، انتهى.

قال ابن هشام: وقال عبد الله بن جحش:

تعدون قتلي في الحرام عظيمة	وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
صدودكم عما يقول محمد	وكفر به والله راء وشاهد
وإخراجكم من مسجد الله أهله	لثلا يرى لله في البيت ساجد

وروى ابن جرير عن جندب بن عبد الله قال: لما كان من أمر عبد الله بن جحش وأصحابه، وأمر ابن الحضرمي ما كان، قال بعض المسلمين: إن لم يكن أصابوا في سفرهم، أظنه قال: وزراً، فليس لهم فيه أجر، فأنزل الله ﴿إن الذين

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/١٣٩).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢/٣٤٩).

آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم ﴿٢١٩﴾، قال قتادة: أثنى الله على أصحاب نبيه محمد ﷺ أحسن الثناء، هؤلاء خيار هذه الأمة، ثم جعلهم الله أهل رجاء كما تسمعون، وأنه من رجا طلب، ومن خاف هرب.

قوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْلَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾.

الخمير: ما خامر العقل، والميسر: القمار. وقال القاسم بن محمد: كل ما ألهى عن ذكر الله وعن الصلاة فهو ميسر.

وقوله تعالى: ﴿قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس﴾.

قال ابن كثير^(١): (أما إثمهما فهو في الدين، وأما المنافع فدنوية.

وقوله تعالى: ﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾، قال ابن جرير: يعني بذلك عز ذكره: والإثم بشرب هذه، والقمار بهذا، أعظم وأكبر مضرة عليهم من النفع الذي يتناولون بهما؛ وإنما كان ذلك كذلك لأنهم كانوا إذا سكروا وثب بعضهم على بعض، وقاتل بعضهم بعضاً، وإذا ياسروا وقع بينهم فيه بسببه الشر، فأداهم ذلك إلى ما يأثمون به، ونزلت هذه الآية في الخمر قبل أن يصرح بتحريمها). انتهى.

وروى الإمام أحمد وغيره عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما نزلت تحريم الخمر قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية التي في البقرة ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير﴾ فدعي عمر، فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في النساء ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾^(٢)، فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٢٥٥).

(٢) سورة النساء: الآية ٤٣.

الصلاة نادى: أن لا يقربن الصلاة سكران، فدعي عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في المائدة، فدعي عمر فقرئت عليه، فلما بلغ ﴿فهل أنتم منتهون﴾، قال عمر: انتهينا انتهينا^(١)، وزاد ابن أبي حاتم: «أنها تذهب المال وتذهب العقل»^(٢).

قوله عز وجل: ﴿وَسَأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

قال ابن عباس وغيره: العفو ما يفضل عن أهلك، وفي الحديث الصحيح: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وكذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة﴾، أي: كما فصل لكم هذه الأحكام وبينها، كذلك يبين لكم سائر الآيات في أحكامه ووعدته ووعيده. ﴿لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة﴾، أي: في زوال الدنيا وبقاء الآخرة فتعملوا لها.

قوله عز وجل: ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي تَمَىٰ قُلِ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنَّ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمُ إِنَّا اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾.

قال ابن عباس: لما نزلت ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾، و﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون

(١) أخرجه أحمد (٥٣/١) وأبو داود (٣٦٧٠/ح) والترمذي (ح/٣٠٥٣)، والنسائي (٢٨٦/٨ - ٢٨٧)، والحديث قال عن إسناده علي بن المديني: هذا إسناد صالح صحيح. وصححه الترمذي، وقال أبو زرعة: «عمر بن شرحبيل - راوي هذا الحديث عن عمر - لم يسمع من عمر».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/١٥٠/ب).

(٣) أخرجه مسلم (ح/١٠٣٤) من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه.

سعيراً، انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من شرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾، رواه ابن جرير وغيره. وقال الربيع: للولي الذي يلي أمرهم فلا بأس عليه في ركوب الدابة أو شرب اللبن أو يخدمه الخادم، وقال السدي: كان العرب يشددون في اليتيم، حتى لا يأكلوا معه في قصعة واحدة، ولا يركبوا له بعيراً، ولا يستخدموا له خادماً، فجاءوا إلى النبي ﷺ فسألوه عنه فقال: ﴿قل إصلاح لهم خير﴾، يصلح له ماله وأمره له خير، وأن يخالطه فيأكل معه ويطعمه، ويركب راحلته ويحملة، ويستخدم خادمه ويخدمه، فهو أجود.

﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾، فقال ابن زيد: والله يعلم حين تخلط مالك بماله، أتريد أن تصلح ماله، أو تفسده فتأكله بغير حق.

وقوله تعالى: ﴿ولو شاء الله لأعتنكم﴾، قال ابن عباس: لأخرجكم فضيق عليكم ولكنه وسع ويسر، فقال: ﴿ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾.

وقوله تعالى: ﴿إن الله عزيز حكيم﴾، أي: عزيز في سلطانه، حكيم فيما صنع من تدبيره وترك الأعنات.

قال ابن كثير^(١): وقوله: ﴿ولو شاء الله لأعتنكم إن الله عزيز حكيم﴾، أي: ولو شاء الله لضيق عليكم وأخرجكم، ولكنه وسع عليكم وخفف عنكم، وأباح لكم مخالطتهم بالتى هي أحسن، والله أعلم.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٢٥٧).

الدرس الخامس والعشرون

﴿ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ ۖ وَلَا أُمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ حَتَّىٰ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَا
 أُعْجَبَتْكُمْ ۚ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَا
 أُعْجَبَكُمْ ۚ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۚ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۚ وَبَيْنَ
 ۚ أَيَّتِهِ ۚ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا
 الْنِسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ
 أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاءُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا
 حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُّلَقَوهُ ۚ وَبَشِّرِ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا
 وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ
 وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبِكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ
 أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۚ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِن عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ
 عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ۚ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ ۚ وَلَا أُمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَا تُعْجَبْكُمْ ۚ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَا تُعْجَبْكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۚ وَبَيِّنُوهٖ لِنَاسٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ .

قال علي ابن ابي طلحة في قوله: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾: استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب .

وقوله تعالى: ﴿ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم﴾، قال السدي: «نزلت في عبد الله بن رواحة، كانت له أمة سوداء فغضب عليها فطمها، ثم فزع فأتى رسول الله ﷺ فأخبره خبرهما، فقال له: ما هي؟ قال: تصوم وتصلي وتحسن الوضوء، وتشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله، فقال: يا عبد الله هذه مؤمنة، فقال: والذي بعثك بالحق لأعتقنها ولأنزولجنها، ففعل فطعن عليه ناس من المسلمين وقالوا: نكح أمته، وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين وينكحوهم رغبة في أحسابهم، فأنزل الله ﴿ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبتكم﴾ .»

وقوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا﴾ .

قال البغوي^(١): هذا إجماع لا يجوز للمسلمة أن تنكح المشرك .

وقوله تعالى: ﴿أولئك يدعون إلى النار﴾، أي: معاشرتهم ومخالطتهم تبعث على إثارة الدنيا على الآخرة، وهو موجب للنار. ﴿والله يدعوا إلى الجنة والمغفرة

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/١٤٣).

بإذنه ﴿، أي بأمره، ﴿وبين آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾، وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»^(١).

قوله عز وجل: ﴿وَسَأَلُونكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾^(٢).

روى مسلم وغيره عن أنس: أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم لم يؤاكلوها، فقال النبي ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾، يعني الفرج، قاله ابن عباس وغيره، وروى الإمام أحمد وغيره عن عبد الله بن سعد الأنصاري أنه «سأل رسول الله ﷺ: ما يحل لي من امرأتي وهي حائض؟ قال: ما فوق الإزار»^(٣). وقوله تعالى: ﴿ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾، أي: لا تجامعهن حتى يطهرن من الحيض، ﴿فإذا تطهرن﴾، أي: اغتسلن، ﴿فأتوهن من حيث أمركم الله﴾. قال ابن عباس: طوهن في الفروج ولا تعدوه إلى غيره. ﴿إن الله يحب التوابين﴾، من الذنب ﴿ويحب المتطهرين﴾، أي: المنتزهين عن الأقدار والأذى، ومن ذلك إتيان الحائض والوطء في الدبر.

(١) أخرجه البخاري (ح/٥٠٩٠)، ومسلم (ح/١٤٦٦).

(٢) أخرجه مسلم (ح/٣٠٢).

(٣) أخرجه أحمد كما عناه له ابن كثير في تفسيره، ولم أجده في طبعة المسند، فلعله سقط منها. كما أنه روي مرفوعاً عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أخرجه أحمد (١/١٤).

وروي - أيضاً - مرفوعاً عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - : أخرجه أبو داود (ح/٢١٣)، وقال: ليس - يعني الحديث - بالقوي. وروي - أيضاً - مرفوعاً عن عائشة رضي الله عنها: أخرجه أحمد (٦/٧٢).

قوله عز وجل: ﴿نَسَاؤَكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِمُوا لِنَفْسِكُمْ
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَكُمْ مُلْعَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال ابن عباس: الحرت موضع الولد، ﴿فأتوا حرتكم أنى شئتم﴾، أي: كيف شئتم مقبلة ومدبرة في صمام واحد. وروى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: كانت اليهود تقول: إذا جامع الرجل امرأته من دبرها في قبلها كان الولد، أحول، فتزلت ﴿نساؤكم حرت لكم فأتوا حرتكم أنى شئتم﴾.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: «نزلت هذه الآية في أناس من الأنصار، أتوا النبي ﷺ فسألوه فقال النبي ﷺ: انتها على كل حال، إذا كان في الفرج»^(١)، وفي حديث آخر: «أقبل وأدبر واتق الدبر والحیضة»^(٢)، وروى الإمام أحمد وغيره عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعون من أتى امرأته في دبرها»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وقدموا لأنفسكم﴾، قال السدي: يعني الخير والعمل الصالح. وقال مجاهد: يعني إذا أتى أهله فليدع، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً»^(٤).

- (١) أخرجه أحمد (٢٦٨/١)، والطبراني (٢٣٧/١٢) بسنده ضعيف.
- (٢) أخرجه أحمد (٢٩٧/١)، والترمذي (ح/٢٩٨٠)، والنسائي في الكبرى (٣٠٢/٦)، والطبري (٢٣٥/٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهو حديث صحيح.
- (٣) أخرجه أحمد (٤٤٤/٢) و٢٧٩، وأبو داود (ح/٢١٦٢)، والنسائي في الكبرى (٣٢٣/٥)، وابن ماجه (ح/١٩٢٣)، وهو حديث صحيح.
- (٤) أخرجه البخاري (ح/٣٢٨٣)، ومسلم (١٤٣٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، أي: خافوا الله فلا تتركبوا ما نهاكم عنه. ﴿واعلموا أنكم ملاقوه﴾، فيجازيكم بأعمالكم. ﴿ويشرك المؤمنون﴾، المطيعين بجزيل ثواب الله لهم.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾.

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾: لا تجعلن الله عرضة ليمينك ألا تصنع الخير، ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير، وفي الصحيحين عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين، فأرى غيرها خيراً منها، إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها»^(١).

وقوله تعالى: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور رحيم﴾، عن عائشة مرفوعاً: «اللغو في اليمين هو كلام الرجل في بيته: كلا والله، وبلى والله»^(٢)، رواه أبو داود، وعنها قالت: «هم القوم يتدارءون في الأمر فيقول هذا: لا والله، وبلى والله، وكلا والله، يتدارءون في الأمر، لا تعقد عليه قلوبهم»، وقالت أيضاً: «إنما اللغو في المزاحة والهزل، وهو قول الرجل: لا والله، وبلى والله، فذاك لا كفارة فيه، إنما الكفارة فيما عقد عليه قلبه أن يفعله ثم لا يفعله»، وعن الحسن بن أبي الحسن: «مر رسول الله ﷺ بقوم يتتصلون، يعني يرمون، ومع رسول الله ﷺ رجل من أصحابه، فقام رجل من القوم فقال: أصبت والله، وأخطأت والله، فقال الذي مع النبي ﷺ للنبي ﷺ: حنث

(١) أخرجه البخاري (ح/٣١٣٣)، ومسلم (١٦٤٩).

(٢) أخرجه أبو داود (ح/٣٢٤)، والصحيح أنه موقوف.

الرجل يا رسول الله، قال: كلا، أيمان الرماة لغو لا كفارة فيها ولا عقوبة»، رواه ابن جرير^(١).

قال ابن كثير: وهذا مرسل حسن. عن الحسن وعن سعيد بن المسيب أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث، فسأل أحدهما صاحبه القسمة فقال: إن عدت تسألني عن القسمة فكل مالي في رتاج الكعبة، فقال له عمر: إن الكعبة غنية عن مالك، كفر عن يمينك وكلم أخاك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يمين عليك ولا نذر في معصية الرب عز وجل، ولا في قطعة الرحم، ولا فيما لا تملك»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يَأْخُذْكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، أي: عزمتم عليه وقصدتم به اليمين، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ يَأْخُذْكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْإِيمَانَ﴾^(٣)، ﴿والله غفور رحيم﴾، أي: غفور لزلات عباده، حلیم عليهم.

قوله عز وجل: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾.

الإيلاء هو: أن يحلف من جميع نسائه أو بعضهن لا يقربهن، فإن وقت بدون أربعة أشهر اعتزل حتى ينقضي ما وقت به، وإن وقت بأكثر منها خير بعد مضيتها بين أن يفيء أو يطلق.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾، أي: يحلفون على ترك جماعهن.

وقوله: ﴿تربص أربعة أشهر﴾، أي: ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف، ثم يوقف ويطلب بالفيئة أو الطلاق، فإن أبي طلق عليه الحاكم.

(١) أخرجه ابن جرير (٤١٢/٢) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه أبو داود (ح/٣٢٧٢) وسنده ضعيف.

(٣) سورة المائدة: الآية ٨٩.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، استدل بذلك على أنه لا كفارة عليه إذا فاء بعد الأربعة الأشهر، والجمهور أن عليه التكفير.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، قال سعيد بن المسيب: إذا مضت أربعة أشهر فإما أن يفيء، وإما أن يطلق، فإن جاوز فقد عصى الله، والله أعلم.



الدرس السادس والعشرون

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيُعْلِنْنَ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ فَأَمَّا كُمُ الْمَعْرُوفِ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يُعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ لَكُمْ وَآطَهُرٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِيمَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَاعَدُ وَلَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٣﴾

يُولَدِيهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُمْ يُولَدِيهِمْ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا
وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوهُمَا أُولَدِكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ
مَاءَ أَنْيَمٍ بِالْمَعْرُوفِ وَالْقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِعَوْلِهِنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

القرء: يطلق في اللغة على الحيض والطمهر، وقد اختلف أهل العلم في قوله تعالى: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ فذهب جماعة إلى أنها الأطهار، وهو قول الفقهاء السبعة ومالك والشافعي، وذهب جماعة إلى أنها الحيض، وهو قول الخلفاء الأربعة وابن عباس ومجاهد وأبي حنيفة، والإمام أحمد وأكثر أئمة الحديث، وهو الراجح.

وقوله تعالى: ﴿ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر﴾، أي: لا يحل للمرأة كتمان ما خلق الله في رحمها من الحيض والحمل، لتبطل حق الزوج من الرجعة والولد، أو استعجالاً لانقضاء عدتها، أو رغبة في تطويلها، بل تخير بالحق من غير زيادة ولا نقصان.

وقوله تعالى: ﴿وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً﴾، أي: أزواجهن أحق برجعتهن في حال العدة، ﴿إن أرادوا﴾ بالرجعة الإصلاح وحسن العشرة لا الإضرار بالمرأة.

وقوله تعالى: ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ أي ولهن على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن، فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه بالمعروف، كما قال رسول الله ﷺ، في خطبته في حجة الوداع: «فاتقوا الله في

النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف»^(١). رواه مسلم.

وقوله تعالى: ﴿وَالرِّجَالُ عَلَيْهِمْ دَرَجَةٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَالرِّجَالُ قَوَامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾^(٢)، وقال النبي ﷺ: «لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»^(٣). وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، أي: عزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره، حكيم فيما شرع وقدر.

قوله عز وجل: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٤).

روى ابن أبي حاتم وغيره عن عروة بن الزبير: «أن رجلاً قال لامرأته: لا أطلقك أبداً، ولا أويك أبداً، قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلق حتى إذا دنا أجلك راجعتك، فأنت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فأنزل الله عز وجل: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾»^(٤). قال ابن عباس: إذا

(١) أخرجه مسلم (ح/١٢١٨)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) سورة النساء: الآية ٣٤.

(٣) أخرجه أحمد (٤/٣٨١)، وابن صاعد في مسند عبد الله بن أبي أفي رضي الله عنه

(ص ٩٦)، وأخرجه الترمذي (ح/١١٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه

أبو داود (ح/٢١٤٠) من حديث قيس بن سعد رضي الله عنه، وهو حديث صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير (٢/٤٥٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/١٦٣/ب).

طلق الرجل امرأته تطليقتين فليتنق الله في ذلك، أي في الثالثة، فإما أن يمسكها بمعروف فيحسن صحابتها، أو يسرحها بإحسان فلا يظلمها من حقها شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾، أي: لا يحل لكم أن تأخذوا شيئاً مما أعطيتموهن إلا في حال الشقاق، ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾. وعن ابن عباس: «أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ما أعيب عليه في خلق ولا دين ولكني أكره الكفر في الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: أتردين عليه حديثه؟ قالت: نعم. قال رسول الله ﷺ: اقبل الحديث وطلقها تطليقة». وفي رواية: «قالت: لا أطيقه، يعني بغضاً»^(١). رواه البخاري. وعند الإمام أحمد^(٢): «فأمره النبي ﷺ أن يأخذ ما ساق ولا يزداد». وعند ابن ماجه^(٣) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «فردت عليه حديثه. قال: ففرق بينهما رسول الله ﷺ».

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، أي: هذه أوامر الله ونواهيه، فلا تتجاوزوها. واستدل بهذه الآية على أن جمع الثلاث التطليقات بكلمة واحدة حرام. وروى النسائي عن محمود بن لبيد قال: «أخبر رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً، فقام غضباناً فقال: أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم؟»^(٤) الحديث.

قوله عز وجل: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ

(١) أخرجه البخاري (ح/٥٢٧٣).

(٢) انظر (٣/٤) من حديث سهل بن أبي حنمة.

(٣) انظر (ح/٢٠٥٧)، وسنده حسن.

(٤) انظر (٦/١٤٢).

طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ .

يقول تعالى: ﴿فإن طلقها﴾ يعني الطلقة الثالثة ﴿فلا تحل له من بعد﴾ أي: من بعد الطلقة الثالثة ﴿حتى تنكح زوجاً غيره﴾، أي: غير المطلق فيجامعها ﴿فإن طلقها﴾، أي الزوج الثاني بعد الجماع ﴿فلا جناح عليهما أن يتراجعا﴾، أي: المرأة والزوج الأول، ﴿إن ظنا أن يقيما حدود الله﴾، أي: يكون بينهما الصلاح وحسن الصحبة. وعن ابن عمر قال: «سئل النبي ﷺ عن الرجل يطلق امرأته فيتزوجها آخر، فيغلق الباب ويرخي الستر، ثم يطلقها قبل أن يدخل بها، هل تحل للأول؟ قال: حتى تذوق العسيلة»^(١). رواه أحمد وغيره. وروى البخاري ومسلم عن عائشة: «أن رجلاً طلق امرأته ثلاثاً، فتزوجت زوجاً فطلقها قبل أن يمسه، فسئل رسول الله ﷺ: أتحل للأول؟ فقال: لا حتى يذوق من عسيلتها كما ذاق الأول»^(٢). وروى الإمام أحمد وغيره عن ابن مسعود قال: «لعن رسول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة، والواصلة والمستوصلة، والمحلل والمحلل له، وأكل الربا وموكله»^(٣).

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا أَجَلْتُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَخُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتِدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَنْخِذُوا بِآيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ لِيُعْظَمَ فِيكُمْ بِئِهِ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ .

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٥)، وفي سنده ضعف، ولكن صح الحديث بلفظ آخر كما سيأتي.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٢٦٣٩)، ومسلم (ح/١٤٣٣).

(٣) أخرجه أحمد (١/٤٤٨ و ٤٦٢)، والنسائي (٦/١٤٩)، والبخاري (٥/٤١٤)، والطبراني

(٤٦/١٠)، وهو حديث صحيح.

قال ابن عباس وغيره: كان الرجل يطلق المرأة، فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها ضراراً، لثلاث تذهب إلى غيره، ثم يطلقها فتعتد، فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق لتطول عليها العدة، فنهاهم الله عن ذلك وتوعدهم عليه فقال: ﴿ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾.

وقوله تعالى: ﴿ولا تتخذوا آيات الله هزواً﴾، روى ابن جرير عن أبي موسى: «أن رسول الله ﷺ غضب على الأشعريين، فأتاه أبو موسى فقال: يا رسول الله غضبت على الأشعريين؟ فقال: يقول أحدكم: قد طلقت، قد راجعت، ليس هذا طلاق المسلمين، طلقوا المرأة في قُبُلِ عدتها»^(١). وقال الحسن وغيره: هو الرجل يطلق ويقول: كنت لاعباً، أو يعتق أو ينكح ويقول: كنت لاعباً، فأنزل الله ﴿ولا تتخذوا آيات الله هزواً﴾ فالزم الله بذلك. وروى أبو داود وغيره من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ثلاث جدهن جدّ، وهزلهن جد: النكاح، والطلاق، والرجعة»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾، أي: في إرساله الرسول إليكم ﴿وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة﴾، أي: السنة ﴿يعظكم به﴾ يأمركم وينهاكم ﴿واتقوا الله﴾ فيما تأتون وما تذرّون ﴿واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾، أي: فلا يخفى عليه شيء من أموركم وسيجازيكم على أعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبِنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ

(١) أخرجه ابن جرير (٤٨٣/٢)، وفي سنده ضعف.

(٢) أخرجه أبو داود (ح/٢١٩٤)، والترمذي (ح/١١٩٤) وحسنه، وابن ماجه (ح/٢٠٣٩)،

والحاكم (١٩٧٢ - ١٩٨)، وقال: «صحيح، وفيه عبد الرحمن بن أدرك، وهو ثقة» قال

الذهبي متعباً: «قلت: فيه نين»، قلت: والحديث حسن.

يَنْكِحَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ .

روى أبو داود وغيره عن الحسن: «أن أخت معقل بن يسار طلقها زوجها، فتركها حتى انقضت عدتها، فخطبها فأبى معقل، فنزلت ﴿فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن﴾ .

وقوله تعالى: ﴿إذا تراضوا بينهم بالمعروف﴾، أي: بعقد حلال ومهر جائز ﴿ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر﴾، أي ردهن إلى أزواجهن. ﴿خير لكم وأطهر﴾، أي: ردهن إلى أزواجهن خير لكم وأطهر لقلوبكم ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾، أي: يعلم من حب كل واحد منهما لصاحبه ما لا تعلمون أنتم، فأتبعوا أمر الله واتركوا الحمية، فإنه تعالى أعلم بمصالح خلقه من أنفسهم.

قوله عز وجل: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنَ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِيَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَاكَّرُ وَوَالِدَةٌ إِذَا يَوْلَدَتْهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يَوْلِدُهَا وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِضَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَيْنَكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَلْقُوا اللَّهَ وَعَالَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ .

قال البغوي^(١): قوله تعالى ﴿والوالدات يرضعن أولادهن﴾، أي: المطلقات اللاتي لهن أولاد من أزواجهن، ﴿يرضعن﴾ خبر بمعنى الأمر، وهو أمر استحباب لا أمر إيجاب، لأنه لا يجب عليهن الإرضاع إذا كان يوجد من يرضع الولد، لقوله

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/١٥٦).

تعالى في سورة الطلاق: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، فإن رغبت الأم في الإرضاع فهي أولى من غيرها). انتهى. وعن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء في الثدي وكان قبل الفطام»^(١)،^(٢). رواه الترمذي. وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحرم من الرضاع إلا ما كان في الحولين»^(٣). رواه الدارقطني وغيره. قيل: إن الرضاعة بعد الحولين ربما ضرت الولد، إما في بدنه أو عقله.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾، أي: وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن، بما جرت به عادة أمثالهن بحسب قدرته، كما قال تعالى: ﴿لَيَنْفِقَنَّ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلَیَنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾^(٤). قال الضحاك: إذا طلق زوجته وله منها ولد فأرضعت له ولده، وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَضَارُّ وَالِدَةَ بَوْلُهَا وَلَا مَوْلُودَ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾. قال مجاهد: ﴿لَا تَضَارُّ وَالِدَةَ بَوْلُهَا﴾ لا تأبى أن ترضعه ليشق ذلك على أبيه ﴿وَلَا يَضَارُّ الْوَالِدَ بَوْلُهُ فَيَمْنَعُ أُمَّهُ أَنْ تَرْضِعَهُ لِيَحْزَنَهَا﴾. وقال ابن زيد: لا ينتزعه منها وهي تحب أن ترضعه فيضارها، ولا تطرحه عليه وهو لا يجد من، يرضعه ولا يجد ما يسترضعه به.

(١) في (الأصل): «العظام» وهو خطأ.

(٢) أخرجه الترمذي (ح/١١٦٢)، وقال: «حسن صحيح». وابن ماجه (ح/١٩٤٦). دون قوله: «وكان قبل الفطام»، وابن حبان - الإحسان - (٦/٢١٤)، وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٧/١٠٣)، والدارقطني (٤/١٧٤)، والصواب وقفه كما رجحه الدارقطني رحمه الله.

(٤) سورة الطلاق: الآية ٧.

وقوله تعالى: ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾، أي: وارث الصبي. قال الحسن: إذا توفي الرجل وامرأته حامل فنفقتها من نصيبها، ونفقة ولدها من نصيبه من ماله، إن كان له مال، فإن لم يكن له مال فنفقتة على عصبته. واختار شيخ الإسلام ابن تيمية أن نفقة الحامل من مال الحمل.

وقوله تعالى: ﴿فإن أرادا فصلا عن تراضٍ منهما وتشاور فلا جناح عليهما﴾. قال مجاهد: التشاور فيما دون الحولين، ليس لها أن تفضمه إلا أن يرضى، وليس له أن يفضمه إلا أن ترضى، فإن لم يجتمعا فليس لها أن تفضمه دون الحولين.

وقوله تعالى: ﴿وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف﴾. قال مجاهد: ﴿وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم﴾ خيفة الضيعة على الصبي ﴿فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف﴾. قال: حساب ما أرضع به الصبي، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يرضعن حملهن فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن واثمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾، أي: واتقوا الله في جميع أحوالكم وأقوالكم، ﴿واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾ فلا يخفى عليه شيء. والله أعلم.



(١) سورة الطلاق: الآية ٧.

الدرس السابع والعشرون

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَيَنَّ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ۗ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ۗ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۖ وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَىٰ التَّوَسُّعِ قَدْرُهُ وَعَلَىٰ الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ ۖ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ ۗ حَقًّا عَلَىٰ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ۖ إِلَّا أَنْ يَعْفُوكَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ۗ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فِرَاجًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ ۗ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۖ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ ۗ حَقًّا عَلَى الْمُتَّفِينِ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۗ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ۝

قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٣٥).

قال ابن عباس: هذه عدة المتوفى عنها زوجها إلا أن تكون حاملاً، فعدتها أن تضع ما في بطنها. وفي الصحيحين عن أم سلمة: «أن امرأة توفى عنها زوجها واشتكت عينها، فأتت النبي ﷺ تستفتيه في الكحل فقال: لقد كانت إحداكن تكون في الجاهلية في شر أحلاسها، فتمكث في بيتها حولاً إذا توفى عنها زوجها، فيمر عليها الكلب فترميه بالبعرة، أفلا أربعة أشهر وعشراً؟»^(١). وقال الربيع عن أبي العالية في قوله: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾. قال: قلت: لم صارت هذه العشر مع الأشهر الأربعة؟ قال: لأنه ينفخ فيه الروح في العشر.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾. قال مجاهد: هو النكاح الحلال الطيب. وقال ابن عباس: إذا طلقت المرأة أو مات عنها زوجها، فإذا انقضت عدتها فلا جناح عليها أن تتزين وتتصنع وتعرض للتزويج، فذلك المعروف.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، أي: فلا تعضلوهن ممن أردن نكاحه بالمعروف، فإنه لا يخفى عليه شيء من أعمالكم.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا

(١) أخرجه البخاري (ج/٥٣٣٦)، ومسلم (ج/١٤٨٨) و(١٤٨٩).

أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابَ أَجَلَهُ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ .

قال ابن عباس وغيره التعريض: أن يقول: إن أريد التزويج، وإنني أحب امرأة من أمرها ومن أمرها، يعرض لها بالقول المعروف. وقال مجاهد: يعرض للمرأة في عدتها فيقول: والله إنك لجميلة، وإن النساء لمن حاجتي، وإنك إلى خير إن شاء الله.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَكُنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾، أي: أضمرتم نكاحهن بعد العدة. ﴿علم الله أنكم ستذكروهن﴾، أي: في أنفسكم وبألستكم ﴿ولكن لا تواعدوهن سرا﴾. قال ابن عباس: يقول: لا تقل لها: إنني عاشق وعاهديني ألا تتزوجي غيري. وقال مجاهد: لا يأخذ ميثاقها في عدتها أن لا تتزوج غيره.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾، أي: التعريض بالخطبة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابَ أَجَلَهُ﴾. قال مجاهد: حتى تنقضي العدة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾، أي: فخافوا الله ولا تضمروا إلا الخير. ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾، لا يعجل بالعقوبة.

قوله عز وجل: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَىٰ الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَىٰ الْمَقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَىٰ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٢٣٦﴾ .

قال ابن عباس: المس الجماع، ولكن الله يكتفي ما يشاء بما شاء، والفريضة الصداق.

وقوله تعالى: ﴿ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين﴾. قال ابن عباس: فهذا الرجل يتزوج المرأة ولم يسم لها صداقاً، ثم يطلقها من قبل أن ينكحها، فأمر الله سبحانه أن يمتعها على قدر عسره ويسره، فإن كان موسراً متّعها بخادم أو شبه ذلك، وإن كان معسراً متّعها بثلاثة أثواب أو نحو ذلك.

قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ أَوْ يَعْفُوكَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

قال ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾، فهذا الرجل يتزوج المرأة وقد سمي لها صداقاً ثم يطلقها من قبل أن يمسه، فلها نصف صداقها ليس لها أكثر من ذلك. وقال عكرمة: إذا طلقها قبل أن يمسه وقد فرض لها، فنصف الفريضة لها عليه، إلا أن تعفو عنه فتركه.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُو الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ قال ابن عباس: هو أبو الجارية البكر جعل الله سبحانه العفو إليه، ليس لها معه أمر، إذا طلق ما كانت في حجره. وفي رواية: هو الزوج، وكذا قال مجاهد.

قوله عز وجل: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، قال ابن عباس: أقربهما للتقوى الذي يعفو: وقال الشعبي: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، وأن يعفو هو أقرب للتقوى. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. قال مجاهد: ولا تنسوا الفضل بينكم في هذا وفي غيره. وعن سعيد بن جبير بن مطعم، عن أبيه أنه دخل على سعد بن أبي وقاص فعرض عليه أبنه له فتزوجها،

فلما خرج طلقها، وبعث إليها بالصداق، قال قيل له: فلم تزوجتها؟ قال: عرضها عليّ فكرهت ردها، قال: فلم تبعث بالصداق؟ قال: فأين الفضل؟ وعن مجاهد ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ قال: إتمام الزوج الصداق، أو ترك المرأة الشرط.

قوله عز وجل: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾.

قال بعض العلماء: ذكر المحافظة على الصلوات هنا لثلاث يشغلوا بالنساء فيغفلوا عنها. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾^(١). وقال مسروق: المحافظة على الصلوات المحافظة على وقتها وعدم السهو عنها.

وقوله تعالى: ﴿والصلاة الوسطى﴾. قال علي بن أبي طالب وغيره: هي صلاة العصر. وفي الصحيحين «إن النبي ﷺ قال يوم الخندق: شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وقوموا لله قانتين﴾. قال الشعبي وغيره: مطيعين. وعن زيد بن أرقم قال: «إنا كنا لتكلم في الصلاة على عهد النبي ﷺ، يكلم أحدنا صاحبه بحاجته، حتى نزل ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾، فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام»^(٣). متفق عليه.

(١) سورة المنافقون: الآية ٩.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٦٣٩٦)، ومسلم (ح/٦٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (ح/١٢٠٠)، ومسلم (ح/٥٣٩)، وليس عند البخاري: «ونهيانا عن الكلام».

وقال مجاهد: ﴿وقوموا لله قانتين﴾ فمن القنوت طول الركوع، وغض البصر، وخفض الجناح، والخشوع من رهبة الله. كان العلماء إذا قام أحدهم يصلي يهاب الرحمن، أن يلتفت أو أن يقلب الحصى، أو يعبث بشيء، أو يحدث نفسه بشيء من أمر الدنيا إلا ناسياً.

وقوله تعالى: ﴿فإن خفتم فرجالاً أو ركبانا﴾ قال إبراهيم: عند المطاردة يصلي حيث كان وجهه ركباً أو راجلاً، ويجعل السجود أخفض من الركوع، ويصلي ركعتين يومئذ إيماء. وقال قتادة: أحل الله لك إذا كنت خائفاً عند القتال، أن تصلي وأنت راكب، وأنت تسعى تومئ برأسك من حيث كان وجهك، إن قدرت على ركعتين وإلا فواحدة.

وقوله تعالى: ﴿فإذا أمتتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾، كقوله تعالى: ﴿فإذا اطمانتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾، وقال ابن زيد في قوله: ﴿فإذا أمتتم فاذكروا الله﴾، قال: فإذا أمتتم فصلوا الصلاة كما افترض الله عليكم، إذا جاء الخوف كانت لهم رخصة.

قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ مَّتَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾

قال قتادة: كانت المرأة إذا توفى عنها زوجها كان لها السكنى والنفقة، حوياً في مال زوجها، ما لم تخرج، ثم نسخ ذلك بعد في سورة النساء، فجعل لها فريضة معلومة الثمن إن كان له ولد، والربع إن لم يكن له ولد، وعدتها أربعة أشهر وعشر. فقال تعالى ذكره: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾، فنسخت هذه الآية ما كان قبلها من أمر الحول.

وقوله تعالى: ﴿فإن خرجن فلا جناح عليكم﴾، يا أولياء الميت ﴿فيما فعلن

في أنفسهن من معروف ﴿﴾، يعني التزين للنكاح، خيرها الله تعالى بين أن تقيم حولاً ولها النفقة والسكنى، وبين أن تخرج، فلا نفقة ولا سكنى، إلى أن نسخه بأربعة أشهر وعشر.

وقوله تعالى: ﴿والله عزيز حكيم﴾، أي: عزيز في انتقامه ممن خالف أمره ونهيه وتعدى حدوده من الرجال والنساء، حكيم في أقضيته وقدره.

قوله عز وجل: ﴿وَالْمُطَلَّقاتِ مَتاعُ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾.

قال عطاء في قوله: ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين﴾ قال: المرأة الثيب يمتعها زوجها إذا جامعها بالمعروف. وقال سعيد بن جبير: لكل مطلقة متاع بالمعروف حقاً على المتقين.

وقال البغوي^(١): إنما أعاد ذكر المتعة ههنا لزيادة معنى، وذلك أن في غيرها بيان حكم غير الممسوسة، وفي هذه الآية بيان حكم جميع المطلقات في المتعة.

وقوله تعالى: ﴿كذلك﴾، أي: مثل أحكام الطلاق والعدة وغير ذلك، ﴿يبين الله لكم آياته﴾ في إحلاله وتحريمه ﴿لعلكم تعقلون﴾ تفهمون وتدبرون. والله أعلم.



(١) انظر: «معالم التنزيل» (١/١٦٧).

الدرس الثامن والعشرون

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَمْضَاعًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ آتِنَا مِنْ عَسَائِدِ الْفِتَالِ أَفَلَا تُفْقَهُوا قَوْلَنَا إِنَّا لَنُفْقِتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنَ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةَ مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ

مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمَهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۗ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا
 مِنْهُمْ ۗ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ
 بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۗ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا اللَّهَ كَمَ مِنْ فِتْنَةٍ
 قَلِيلَةٍ غَلَبَتِ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ ۗ يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا
 لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا
 وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ يَأْذِنُ اللَّهُ وَقَتَلَ دَاوُدُ
 جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا
 دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ۗ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو
 فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ
 وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ .

قال البغوي^(١): قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾، أي: ألم تعلم بإعلامي إياك، وهو من رؤية القلب، وقال أهل المعالي: هو تعجيب. يقول: هل رأيت مثلهم؟ كما تقول: ألم تر إلى ما يصنع فلان؟ وكل ما في القرآن ألم تر، ولم يعاينه النبي ﷺ، فهذا وجهه.

قال أكثر أهل التفسير: كانت قرية يقال لها داوردان^(٢) من قبَل واسط بها وقع الطاعون، فخرجت طائفة منها، وبقيت طائفة، فهلك أكثر من بقي في القرية، وسلم الذين خرجوا، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين، فقال الذين بقوا: أصحابنا كان أحزم منا لو صنعنا كما صنعوا لبقينا، ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن إلى أرض لا وباء بها. فوقع الطاعون من قابل، فهرب عامة أهلها وخرجوا حتى نزلوا وادياً أفيح، فلما نزلوا المكان الذي يبتغون فيه النجاة ناداهم ملك من أسفل الوادي، وآخر من أعلاه: أن موتوا. فماتوا جميعاً.

وساق بسنده أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام، فلما جاء

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/١٦٧).

(٢) في (الأصل): «دوردان»، وهو خطأ، والمثبت من تفسير البغوي، ومعجم البلدان (٢/٤٩٥)، ووقع في تفسير ابن كثير «ذاوردان»، وهو خطأ فليصحح.

سرغ بلغه أن الوباء قد وقع بالشام، فأخبره عبد الرحمن بن عوف: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه فرجع عمر من سرغ»^(١). والحديث في الصحيحين.

قال البغوي^(٢): وأولى الأقاويل قول من قال: كانوا زيادة على عشرة آلاف؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وهم ألوف﴾، قالوا: فمر عليهم نبي يقال له: حزقيل فجعل يتفكر فيهم متعجباً، فأوحى الله تعالى إليه: تريد أن أريك آية؟ قال: نعم. فأحياهم الله. ﴿إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَجِيحٌ عَلَيْهِمُ﴾.

يقول تعالى: وقاتلوا في سبيل الله عدوي وعدوكم من المشركين، ولا تقعدوا عن الجهاد خوف القتل، فإنه لا مفر عن الموت ولا يغني حذر عن قدر، كما قال تعالى: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾^(٣).

قوله عز وجل: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أضعافًا كثيرةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصِطُ وَإِلَيْهِ تُرجعون﴾.

قال البغوي^(٤): القرض اسم لكل ما يعطيه الإنسان ليجازي عليه، فسمى الله تعالى عمل المؤمنين له على رجاء ما أعد لهم من الثواب قرضاً؛ لأنهم يعملون

(١) أخرجه البخاري (ح/٦٩٧٣)، ومسلم (٤/١٧٤٢).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (١/١٦٧).

(٣) سورة النساء: الآية ٧٨.

(٤) انظر «معالم التنزيل» (١/١٦٨).

لطلب ثوابه. قال الكسائي: القرض ما أسلفت من عمل صالح أو شيء. وروى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: «لما نزلت ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له﴾. قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله، وإن الله عز وجل ليريد منا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدحداح. قال: أرني يدك يا رسول الله. قال: فناوله يده قال: فإني قد أقرضت ربي عز وجل حائطي. قال: وحائط له فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها، قال: فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح. قالت: لبيك. قال: اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل»^(١).

وقوله تعالى: ﴿والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾، روى ابن جرير وغيره عن أنس بن مالك قال: «غلا السعر على عهد رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله غلا السعر، فسعّر لنا؟ فقال رسول الله ﷺ: إن الله الباسط القابض الرازق، وإني لأرجو أن ألقى الله ليس أحد يطلبني بمظلمة في نفس ومال»^(٢).

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ سَوَّاهُ قُلُوبَهُمْ كَمَا سَوَّاهُ اللَّهُ لِقَوْمٍ أَهْلًا مِنْكُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ لِقَاءُ اللَّهِ أَصْحَابًا أَن يَكُونُوا قُلُوبًا كَاتِبَةً﴾^(٣)
 قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ سَوَّاهُ قُلُوبَهُمْ كَمَا سَوَّاهُ اللَّهُ لِقَوْمٍ أَهْلًا مِنْكُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ لِقَاءُ اللَّهِ أَصْحَابًا أَن يَكُونُوا قُلُوبًا كَاتِبَةً﴾
 قَالَوا لِنَبِيِّهِمْ لَهُمْ آيَاتٌ أَنْ يَسْأَلُوهُمْ فِي شَيْءٍ أَجَابُوا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ لِقَاءُ اللَّهِ أَصْحَابًا أَن يَكُونُوا قُلُوبًا كَاتِبَةً
 وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأَبْنَيْنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾

قال وهب بن منبه وغيره: كان بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام على طريق الاستقامة مدة من الزمان، ثم أحدثوا الأحداث وعبد بعضهم الأصنام، ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويقيمهم

(١) أخرجه البزار (٤٠٢/٥)، وأبو يعلى (٤٠٤/٨)، وابن جرير (٣٧١/٢)، بسند ضعيف.
 (٢) أخرجه أحمد (٢٨٦/٣)، وأبو داود (ح/٣٤٥١)، والترمذي وصححه، (ح/١٣٢٨)، وابن ماجه (ح/٢٢٠٠)، وابن جرير (٥٩٤/٢)، وهو حديث صحيح.

على منهج التوراة إلى أن فعلوا ما فعلوا، فسلب الله عليهم أعداءهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا منهم خلقاً عظيماً، وأخذوا منهم بلاداً كثيرة، واستلبوا منهم التابوت الذي كان موروثاً لآلهم عن سلفهم.

إلى أن قال: فأوحى الله إلى شمويل وأمره بالدعوة إليه وتوحيده، فدعا بني إسرائيل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً يقاتلون معه أعداءهم، وكان الملك قد باد فيهم، فقال لهم النبي: فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكاً أن لا تقاتلوا وتفوا بما التزمت من القتال معه؟ قالوا: وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا، أي وقد أخذت منا البلاد وسبيت الأولاد.

قال الله تعالى: ﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين﴾، أي: ما وفوا بما وعدوا بل نكل عن الجهاد أكثرهم والله عليم بهم.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُومَ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

قال قتادة: بعث الله طالوت ملكاً، وكان من سبط بنيامين سبط لم يكن فيهم مملكة ولا نبوة، وكان في بني إسرائيل سبطان: سبط نبوة، وسبط مملكة، وكان سبط النبوة سبط لاوي إليه موسى، وسبط المملكة يهوذا إليه داود وسليمان، فلما بعث من غير النبوة والمملكة أنكروا ذلك، وعجبوا منه، وقالوا: أنى يكون له الملك علينا؟! وليس من سبط النبوة ولا من سبط المملكة؟ فقال: ﴿إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ

الْتَابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ .

قال قتادة: ﴿فيه سكينه﴾ أي وقار. وقال عطاء: ما تعرفون من آيات الله فتسكنون إليه.

وقوله تعالى: ﴿وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون﴾. قال ابن عباس: عصا موسى ورضاض الألواح. قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمّل التابوت بين السماء والأرض، حتى وضعت بين يدي طالوت والناس ينظرون.

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَمُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَت فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ .

روى البخاري عن البراء بن عازب قال: «كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ الذين كانوا معه يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر، وما جازه معه إلا مؤمن». قال ابن عباس: فلما فصل طالوت بالجنود غازياً إلى جالوت، قال طالوت لبني إسرائيل: إن الله مبتليكم بنهر، قال: هو نهر بين الأردن وفلسطين، نهر عذب الماء طيبه.

وقال قتادة: ﴿فمن شرب منه فليس مني، ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده﴾. قال: كان الكفار يشربون فلا يروون، وكان المسلمون

يغترفون غرفة فتجزئهم ذلك . وقال ابن عباس : لما جاوزه هو والذين آمنوا معه ، قال الذين شربوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده . وقال السدي : عبر مع طالوت النهر من بني إسرائيل أربعة آلاف ، فما جاوزه هو والذين آمنوا معه فنظروا إلى جالوت رجعوا أيضاً ، وقالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده . فرجع عنه أيضاً ثلاثة آلاف وستمائة وبضعة وثمانون . وخلص في ثلاثمائة وبضعة عشر عدة أهل بدر .

وقال بعضهم في قوله تعالى : ﴿ فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله ﴾ ، هم العلماء من القليل : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمَعْلُومِينَ ﴾ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢٥٢) .

يقول تعالى : ﴿ ولما برزوا ﴾ ، يعني طالوت ومن معه من المؤمنين للعدو ﴿ قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فهزموهم ﴾ ، كسروهم ﴿ بإذن الله وقتل داود جالوت ﴾ . وكان طالوت وعده أن يزوجه ابنته إن قتل جالوت ، ويشركه في أمره ، فيما قال وهب . فالملك إلى داود ﴿ وآتاه الله الملك ﴾ ، الذي كان بيد طالوت ﴿ والحكمة ﴾ ، أي : النبوة بعد شمويل ﴿ وعلمه مما يشاء ﴾ ، من صنعة الدروع وغير ذلك . ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن

الله لقوي عزيز الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴿١﴾.

وعن مجاهد: ولولا دفاع الله بالبر عن الفاجر، وببقية أخلاق الناس بعضهم عن بعض؛ لهلك أهلها. وقال علي رضي الله عنه: لولا بقية من المسلمين فيكم لهلكتم. وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليدفع بالمؤمن الصالح عن مائة بيت من جيرانه البلاء»^(٢)، ثم قرأ ابن عمر: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾.

وأكثر كلام المفسرين على أن الآية في الجهاد، ولديّ أنها عامة فيه وفي غيره، وأسند للشيخ عبد الرحمن أنها عامة، وهذا نص كلامه، قال: (ومن ذلك ما ذكرت في آية البقرة: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾، وأن كلام المفسرين يدور على الجهاد فقط، وظنكم أنها عامة، فهو كما ظننتم؛ لأن العبرة بعموم اللفظ، وعموم المعنى لا بخصوص السبب، والجهاد جزء من أمور كثيرة يحصل فيها دفع الناس بعضهم ببعض. وإذا نزلتها على الواقع السابق واللاحق، ورأيت الأسباب المتعددة التي حصل بها عن العباد مدافعات كثيرة، ووقايات من شرور بصدد أن تقع لولا تلك الأسباب، لاتضح لك أنها عامة، وأنها من أكبر نعم الله على عباده وتمايم وقايتهم. وفي الحديث الصحيح: «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، وبأقوام لا خلاق لهم»^(٣). عام في الجهاد وغيره،

(١) سورة الحج: الآيتان ٤٠ و ٤١.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط والكبير — كما عزاه له الهيثمي في «مجمع البحرين» (١٩٠/٥ — ١٩١)، وابن جرير (٦٣٣/٢)، بسند ضعيف جداً.

(٣) أخرجه البخاري (ح/٣٧٧)، ومسلم (ح/١١٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولكن دون قوله: «وبأقوام لا خلاق لهم». وبهذه الزيادة «وبأقوام...» أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢٦٢/٦)، والضياء المختارة (٧٤/٢) عن أنس رضي الله عنه.

ونرجو الله تعالى أن يُلطف بالمسلمين وأن يقيهم شر الشرور التي يترقبها الخلق كل ساعة، ويقدر من أُلطافه ما يدفع به عن عباده المؤمنين، إنه جواد كريم). انتهى.

فالظاهر أن المراد بقوله تعالى في هذه الآية: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾، أنه عام في جميع الناس مسلمهم وكافرهم، وأن دفع الله شر بعضهم ببعض من نعمه السابقة على خلقه.

وقوله تعالى: ﴿ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾، أي: بدفع بعضهم عن بعض.

وقوله تعالى: ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾، يقول: تلك آيات الله التي اقتص فيها قصص من مضى، نتلوها عليك بالحق اليقين، وإنك يا محمد لمن المرسلين، وبالله التوفيق.



الدرس التاسع والعشرون

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ
 دَرَجَاتٍ ۗ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا
 أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ ائْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ
 ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَأْتِيهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا
 شَفَعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ
 سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ۗ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ
 يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۗ وَسِعَ
 كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ۗ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۗ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَا إِكْرَاهَ فِي
 الدِّينِ ۗ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۗ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ
 اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ
 يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۗ هُمْ فِيهَا
 خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ۝

* * *

قوله عز وجل: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۗ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اٰخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنْ أَلَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾

قال مجاهد: في قول الله تعالى: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات﴾ قال: يقول: منهم من كلم الله ورفع بعضهم على بعض درجات. يقول: كلم الله موسى، وأرسل محمداً إلى الناس كافة.

قوله تعالى: ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البيئات وأيدناه بروح القدس﴾، أي: وآتينا عيسى بن مريم الحجج، والأدلة على نبوته من إبراء الأكمه، والأبرص، وإحياء الموتى، وما أشبه ذلك مع الإنجيل.

وقوله تعالى: ﴿وأيدناه بروح القدس﴾ يعني وقويناه بروح الله، وهو جبريل.

وقوله تعالى: ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البيئات﴾ قال قتادة: من بعد موسى وعيسى.

وقوله تعالى: ﴿ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾، أي: يوفق من يشاء بفضله ورحمته، ويخذل من يشاء بعدله وحكمته، وله الحجة البالغة والحكمة التامة، وهذه الآية كقوله تعالى:

﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِي يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٢).

قال ابن جريج: قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا انفقوا مما رزقناكم﴾ قال: من الزكاة والتطوع ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾ قال قتادة: قد علم الله أن ناساً يتحابون في الدنيا، ويشفع بعضهم لبعض، فأما يوم القيامة فلا خلة إلا خلة المتقين،

وقوله تعالى: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾، أي: لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها. قال الله تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾^(٣) قال عطاء بن دينار: الحمد لله الذي قال: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ ولم يقل والظالمون هم الكافرون.

قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ۗ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۗ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ۗ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۗ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾^(٤).

عن أبي بن كعب: «أن النبي ﷺ سأله أي آية في كتاب الله أعظم؟ قال «الله ورسوله أعلم». فرددها مراراً ثم قال أبي: آية الكرسي. قال: ليهنك العلم أبا

(١) سورة هود: الآية ١١٩.

(٢) سورة لقمان: الآية ١٣.

المنذر»^(١) رواه مسلم وغيره. وفي حديث أبي هريرة عند البخاري في قصة الشيطان الذي سرق من الصدقة قال: «فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، وهذا آخر ثلاث مرات إنك تزعم أنك لا تعود ثم تعود، فقال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها. قلت: وما هي؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ حتى تختم الآية. فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخلّيت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: ما فعل أسيرك البارحة؟ قلت: يا رسول الله إنه زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخلّيت سبيله، قال: ما هي؟ قال: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي ﷺ: أما إنه صدقك وهو كذوب»^(٢). وروى أبو داود وغيره عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في هاتين الآيتين: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ و﴿الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾: «إن فيها اسم الله الأعظم»^(٣).

قال ابن كثير^(٤): وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة.

وقوله تعالى: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾.

قال ابن جرير^(٥) يقول: الله الذي له عبادة الخلق، الحي القيوم، لا إله سواه: لا معبود سواه، يعني: ولا تعبدوا شيئاً سواه، ﴿الحي القيوم﴾ الذي

(١) أخرجه مسلم (ح/٢٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٥٠١٠).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٣٠٨).

(٥) انظر «جامع البيان» (١/٣٠٨).

لا تأخذه سنة ولا نوم. قال قتادة: الحيّ حي لا يموت. وقال مجاهد: القيوم القائم على كل شيء. وقال الربيع: القوم قيم كل شيء يكلؤه ويرزقه ويحفظه. وقال الضحاك: الحي القيوم القائم الدائم.

وقوله تعالى: ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ قال ابن عباس: السنّة النعاس، والنوم هو النوم.

وقوله تعالى: ﴿له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلاّ بإذنه﴾ كقوله تعالى: ﴿وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلاّ من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء﴾ قال مجاهد: يعلم من بين أيديهم ما مضى من الدنيا، وما خلفهم من الآخرة. وقال الكلبي: ﴿ما بين أيديهم﴾، يعني الآخرة، لأنهم يقدمون عليها. ﴿وما خلفهم من الدنيا﴾، لأنهم يخلفونها. وقال السدي: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه﴾ يقول: لا يعلمون بشيء من علمه إلاّ بما شاء هو أن يعلمهم.

وقوله تعالى: ﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾ اختلفوا في الكرسي، فقال الحسن: هو العرش نفسه. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: الكرسي موضوع أمام العرش. وفي بعض الأخبار: أن السموات والأرض في جنب الكرسي كحلقة في فلاة. والكرسي في جنب العرش كحلقة في فلاة. ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن السموات السبع والأرضين السبع في الكرسي كدراهم سبعة ألقيت في ترس. وقوله تعالى: ﴿ولا يؤوده حفظهما﴾ قال ابن عباس: لا يثقل عليه. وقال قتادة: لا يجهد حفظهما.

(١) سورة النجم: الآية ٢٦.

وقوله تعالى: ﴿وهو العلي العظيم﴾.

قال البغوي^(١): ﴿وهو العلي﴾ الرفيع فوق خلقه والمتعالي عن الأشباه والأنداد. وقيل: العلي بالملك والسلطنة، العظيم الكبير الذي لا شيء أعظم منه. وقال ابن كثير^(٢): فقوله: ﴿وهو العلي العظيم﴾ كقوله: ﴿وهو الكبير المتعال﴾ وهذه الآيات، وما في معناها من الأحاديث الصحاح الأجود فيها طريقة السلف الصالح: إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه.

قوله عز وجل: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

قال ابن عباس: كانت المرأة تكون مقلاة، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوّه. فلما أجليت بني النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا. فأنزل الله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ وقال قتادة في قوله: ﴿لا إكراه في الدين﴾ قال: هو هذا الحي من العرب، أكرهوا على الدين لم يقبل منهم إلا القتل، أو الإسلام. وأهل الكتاب قبلت منهم الجزية، ولم يقتلوا. وقال الضحاك: «أمر رسول الله ﷺ أن يقاتل جزيرة العرب من أهل الأوثان، فلم يقبل منهم إلا لا إله إلا الله، أو السيف. ثم أمر فيمن سواهم بأن يقبل منهم الجزية. فقال: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾».

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/١٨٠).

(٢) انظر تفسيره (١/٣١٠)، قلت: وفي هذه الآية، وما شابهها: إثبات علو الله - عز وجل - على خلقه، وهذا هو مذهب أهل السنة من السلف الصالح - رحمهم الله - ، وأما غيرهم من الجهمية وأذئابهم من معتزلة وأشاعرة، فقد ردوا ذلك إما إنكاراً أو تأويلاً، نعوذ بالله من مذهبهم، والحمد لله على السنة، ونسأل الله الثبات على ذلك إلى أن نلقاه.

وقوله تعالى: ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾ قال مجاهد وغيره: الطاغوت الشيطان. وقال أبو العالية: الطاغوت الساحر. وقال أبو الزبير: سئل جابر بن عبد الله عن الطواغيت التي كانوا يتحاكمون إليها، فقال: كان في جهينة واحد، وفي أسلم واحد، وفي كل حي واحد، وهي كهان ينزل عليها الشيطان.

قال ابن جرير^(١): والصواب أنه كل ذي طغيان على الله فعبد من دونه، إما بقهر منه لمن عبده، وإما لطاعة ممن عبده إنساناً كان ذلك المعبود، أو شيطاناً، أو وثناً، أو صنماً، أو كائناً ما كان من شيء.

وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ قال لا إله إلا الله. وقال السدي: ﴿لا انفصام لها﴾ لا انقطاع لها. وقال مجاهد: لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥٧).

قال قتادة: قوله تعالى: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ يقول من الضلالة إلى الهدى ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت﴾ الشيطان ﴿يخرجهم من النور إلى الظلمات﴾ يقول من الهدى إلى الضلالة. قال الضحاك: والظلمات: الكفر، والنور: الإيمان. والله أعلم.



(١) انظر: «جامع البيان» (٣/١٩).

الدرس الثلاثون

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ
 إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبَدُ وَيُمِيمُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ
 يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
 الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُعْبَدُ
 هَذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا
 أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ
 يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى
 الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ
 أَوْلَيْتُمْ تَوْمِينَ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخَذَ مِنْهُ مِنَ الطَّيْرِ فَصَرَّهُنَّ إِلَيْكَ
 ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَا تَيْنُكَ سَعِيًّا وَعَلَّمَهُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
 حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَهُ اللهُ الْمَلِكَ إِذْ قَالَ إِبرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْتَبِرُ بِأَنَا أُخِيءُ وَأُمِيتُ قَالَ إِبرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ .

قال مجاهد في قول الله تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك ﴾ . قال هو نمرود بن كنعان . قال قتادة: وهو أول ملك تجبر في الأرض، وهو صاحب الصرح ببابل .

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿ إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت ﴾ ، وذكر لنا أنه دعا برجلين فقتل أحدهما، واستحيا الآخر . فقال: أنا أحيي هذا، أنا أستحيي من شئت، وأقتل من شئت . قال إبراهيم عند ذلك: ﴿ فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ .

قال البغوي^(١): ﴿ فبهت الذي كفر ﴾ ، أي: تحير ودهش وانقطعت حجته وقال ابن إسحاق: ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ ، أي: لا يهديهم في الحجة عند الخصومة لما هم عليه من الضلال) انتهى . وهو كقوله تعالى: ﴿ والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ﴾^(٢) .

(١) انظر تفسيره (١/١٨٢) .

(٢) سورة الشورى: الآية ١٦ .

وقال السدي: لما خرج إبراهيم من النار أدخلوه على الملك، ولم يكن قبل ذلك دخل عليه فكلمه وقال له: من ربك؟ قال: ربي الذي يحيي ويميت. قال نمرود: أنا أحيي وأميت. أنا أدخل أربعة نفر، فأدخلهم بيتاً فلا يطعمون ولا يسقون حتى هلكوا من الجوع، أطعمت اثنين وسقيتهما فعاشا، وتركت اثنين فماتا. فعرف إبراهيم أن له قدرة بسلطانه وملكه على أن يفعل ذلك. قال له إبراهيم: فإن ربي الذي يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، فبهت الذي كفر. وقال: إن هذا إنسان مجنون فأخرجوه ألا ترون أنه من جنونه اجترأ على آلهتكم فكسرها، وإن النار لم تأكله، وخشي أن يفتضح في قومه، أعني نمرود، وهو قول الله تعالى ذكره: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾^(١) فكان يزعم أنه رب، وأمر بإبراهيم فأخرج. وقال ابن زيد: فبعث الله عليه بعوضة فدخلت في منخره فمكث أربعمئة سنة تضرب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس به من جمع يديه، وضرب بهما رأسه وكان جباراً أربعمئة عام، فعذبه الله أربعمئة سنة كملكه، وأماته الله.

قوله عز وجل: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ جَمْرِكَ وَاجْعَلْكَ آيَةً لِلنَّاسِ^ط وَانظُرْ إِلَىٰ الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ^ط قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

(١) سورة الأنعام: الآية ٨٣.

قال البغوي^(١): قوله تعالى: ﴿أَو كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾، وهذه الآية مسوقة^(٢) على الآية الأولى. تقديره: ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه؟ وهل رأيت كالذي مر على قرية؟ وقيل: تقديره: هل رأيت كالذي حاج إبراهيم في ربه؟ وهل رأيت كالذي مر على قرية؟

وقال ابن كثير^(٣): تقدم قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ وهو في قوة^(٤)، قوله: هل رأيت مثل الذي حاج إبراهيم في ربه. ولهذا عطف عليه بقوله: ﴿أَو كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾.

قال قتادة: ذكر لنا أنه عزيز، وقال عكرمة: القرية بيت المقدس مر بها عزيز بعد إذ خربها بختنصر. وقال ابن جريج: بلغنا أن عزيزاً خرج فوقف على بيت المقدس، وقد خربه بختنصر، فوقف فقال: أبعد ما كان لك من القدس والمقالة والمال ما كان فحزن.

وقال السدي: ﴿وهي خاوية على عروشها﴾ يقول: ساقطة على سقفها، وذلك أن عزيزاً مر جاثياً^(٥) من الشام على حمار له، معه عصير وعنب وتين، فلما مر بالقرية فرأها وقف عليها، وقلّب يده وقال: كيف يحي هذه الله بعد موتها؟ ليس تكذيباً منه وشكاً، فأماته الله وأمات حماره، فهلكا ومر عليهما مائة سنة، ثم إن الله أحيا عزيزاً فقال له: كم لبثت؟ قال: لبثت يوماً أو بعض يوم. قيل له: بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك من التين والعنب وشرابك من العصير لم يتسنه الآية. وقال قتادة: ذكر لنا أنه مات ضحى، ثم بعثه قبل غيبوبة الشمس، فقال: كم لبثت؟

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/١٨٣).

(٢) في (الأصل): «مسوقة» وهو خطأ، والمثبت من تفسير البغوي.

(٣) انظر تفسيره (١/٣١٤).

(٤) في (الأصل): «قوته»، وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن كثير.

(٥) في (الأصل): «جاثياً»، والمثبت من تفسير ابن جرير.

قال: لبثت يوماً ثم التفت فرأى بقية من الشمس، فقال: أو بعض يوم. فقال: بل لبثت مائة عام. وقال الضحاك في قوله: ﴿فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه﴾ يقول: لم يتغير. وقد أتى عليه مائة عام.

وقوله تعالى: ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها﴾. قال البغوي^(١): أي نرفعها من الأرض، ونردها إلى مكانها، ونركب بعضها على بعض. وقال السدي وغيره: تفرقت عظام حماره حوله يميناً وشمالاً فنظر إليها وهي تلوح من بياضها، فبعث الله ريحاً فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة، ثم ركب كل عظم في موضعه حتى صار حماراً قائماً من عظام لا لحم عليها، ثم كساها الله لحماً وعصباً وعروقاً وجلداً، وبعث الله ملكاً فنفخ في منخري الحمار، فنهق بإذن الله عز وجل. وذلك كله بمرأى من العزيز، فعند ذلك لما تبين له هذا كله قال: أعلم أن الله على كل شيء قدير. وقال الضحاك وغيره: إنه عاد إلى قريته شاباً، وأولاده وأولاد أولاده شيوخ وعجائز، وهو أسود الرأس واللحية.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْمَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قال محمد بن إسحاق: لما جرى بين إبراهيم وبين قومه ما جرى؛ مما قصه الله في سورة الأنبياء، قال نمروذ فيهما يذكرون لإبراهيم أرايت إلهك هذا الذي تعبد وتدعو إلى عبادته، وتذكر من قدرته التي تعظمه بها على غير ما هو؟ قال له إبراهيم: ربي الذي يحيي ويميت. قال نمروذ: أنا أحبي وأميت. فقال له

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/١٨٥).

إبراهيم: كيف تحيي وتميت؟ ثم ذكر ما قص الله من حاجته إياه قال: فقال إبراهيم عند ذلك: ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى قال: أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ من غير شك في الله تعالى، ولا في قدرته ولكنه أحب أن يعلم ذلك، وناق إليه قلبه، فقال: ليطمئن قلبي، أي: ما ناق إليه إذ هو علمه. وقال سعيد بن جبير: ليطمئن قلبي، ليزداد يقيني.

وقوله تعالى: ﴿قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهم جزء ثم ادعهن يأتينك سعيًا واعلم أن الله عزيز حكيم﴾. قال ابن عباس: فصرهن: قطعهن. وقال مجاهد: ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً﴾: ثم بددهن أجزاء على كل جبل ﴿ثم ادعهن يأتينك سعيًا﴾ كذلك يحيي الله الموتى. وقال ابن جريج: فجعلهن سبعة أجزاء، وأمسك رؤوسهن عنده، ثم دعاهن بإذن الله فنظر إلى كل قطرة من دم تطير إلى القطرة الأخرى، وكل ريش تطير إلى الريشة الأخرى، وكل بضعة وكل عظم يطير بعضه إلى بعض من رؤوس الجبال حتى لقيت كل جثة بعضها بعضاً في السماء، ثم أقبلن يسعين حتى وصلت رأسها. وعن ابن المنكدر قال: التقى عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص فقال ابن عباس لابن عمرو: أي آية في القرآن أرجى عندك؟ فقال عبد الله بن عمرو: قول الله عز وجل: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾^(١) الآية. فقال ابن عباس: لكن أنا أقول: قول الله عز وجل: ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى﴾ فرضي من إبراهيم قوله: بلى. قال: فهذا لما يعترض في النفوس ويوسوس به الشيطان. رواه ابن أبي حاتم وغيره.

وقال البخاري^(٢): (باب وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى.

(١) سورة الزمر: الآية ٥٣.

(٢) انظر (ح/٤٥٣٧).

فصرهن قطعهن، وذكر حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ انتهى.

قال إسماعيل بن يحيى المزني: لم يشك النبي ﷺ، ولا إبراهيم في أن الله قادر على أن يحيي الموتى، وإنما شكوا في أنه هل يجيئهما إلى ما سألا؟

قال في فتح الباري^(١): (وقال عياض لم يشك إبراهيم بأن الله يحيي الموتى ولكن أراد طمأنينة القلب، وترك المنازعة لمشاهدة الأحياء، فحصل له العلم الأول بوقوعه، وأراد العلم الثاني بكيفيته ومشاهدته، ويحتمل أنه سأل زيادة اليقين، وإن لم يكن في الأول شك، لأن العلوم قد تتفاوت في قوتها فأراد الترقى من علم اليقين إلى عين اليقين. والله أعلم).



(١) انظر (٤٧٥/٦).

الدرس الحادي والثلاثون

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٦١) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعَهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ (٢٦٣) يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلُوهَا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقًا وَالنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَمَاتَتْ أَكْطُفُهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنَّ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفَاءُ فَاصْبَابُهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لِمَلِكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ .

قال سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾، يعني في طاعة الله. وقال ابن عباس: الجهاد والحج يضعف الدرهم فيهما إلى سبعمائة ضعف.

وقوله تعالى: ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾، أي: بحسب إخلاصه في عمله، ﴿والله واسع عليم﴾. قال ابن زيد: ﴿واسع﴾ أن يزيد من سعته، ﴿عليم﴾ عالم بمن يزيده. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: «كل عمل ابن آدم يضاعف له، الحسنة بعشرة أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة. قال الله تعالى: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، إنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي»^(١).

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴿٢٦٣﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعَهَا أَذًى وَاللَّهُ عَنِّي حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ .

قال قتادة: علم الله أن أناساً يمتنون بعطيتهم، فكره ذلك وقدم فيه فقال:

(١) أخرجه مسلم (٨٠٧/١)، وبنحوه البخاري (ج/١٨٩٤ و ١٩٠٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم﴾. وقال الضحاك: ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى﴾ يقول: أن يمسك ماله خير من أن ينفق ماله، ثم يتبعه مناً وأذى. وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: المنان بما أعطى، والمسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب»^(١). وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، ومدمن الخمر، والمنان بما أعطى»^(٢). رواه أحمد وغيره.

وقوله تعالى: ﴿والله غني حليم﴾. قال ابن عباس: الغني الذي كمل في غناه، والحليم الذي قد كمل في حلمه.

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِقَاةً لِلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ ءَآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٥﴾﴾.

قال عمرو بن حريث: إن الرجل يغزو [و] لا يسرق ولا يزني ولا يغفل، لا يرجع بالكفاف، فليل له: لم ذلك؟ قال: فإن الرجل ليخرج، فإذا أصابه من بلاء [الله]^(٤) الذي حكم عليه، سبٌ ولعن إمامه ولعن ساعة غزا، وقال: لا أعود لغزوة معه أبداً. فهذا عليه، وليس له مثل النفقة في سبيل الله يتبعها من وأذى، فقد ضرب

(١) أخرجه مسلم (ح/١٠٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢/١٣٤)، والنسائي (٥/٨٠)، وابن خزيمة في «التوحيد» (٢/٨٦٠)، وابن حبان - كما في الإحسان - (٢١٨/٢)، وهو حديث صحيح.

(٣) ما بين المعقوفتين إضافة من تفسير ابن جرير.

(٤) المصدر السابق.

الله مثلها في القرآن ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾ حتى ختم الآية .

وقال قتادة: فهذا مثل ضربه الله لأعمال الكفار يوم القيامة. يقول: ﴿لا يقدرון على شيء مما كسبوا﴾ يومئذ كما ترك هذا المطر الصفا الحجر، ليس عليه شيء أنقى ما كان عليه. وقال السدي: ﴿لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾ إلى قوله: ﴿على شيء مما كسبوا﴾: أما الصفوان^(١) الذي عليه تراب، فأصابه المطر فذهب ترابه فتركه صلداً^(٢)، فكذا هذا الذي ينفق ماله رياء الناس، ذهب الرياء بنفخته، كما ذهب هذا المطر بتراب هذا الصفا فتركه نقياً، فكذلك تركه الرياء لا يقدر على شيء مما قدم، فقال للمؤمنين: ﴿لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾، فتبطل كما بطلت صدقة الرياء.

قوله عز وجل: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيئًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَكَانَتْ أَكْطَلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٣).

قال الشعبي في قوله تعالى: ﴿وتثبيئاً من أنفسهم﴾: تصديقاً وتيقناً. وقال مجاهد: يثبتون أين يضعون أموالهم.

وقوله تعالى: ﴿كمثل جنة بربرة﴾.

قال البغوي^(٣): (وهي المكان المرتفع المستوى الذي تجري فيه الأنهار، فلا

يلعوه الماء، ولا يعلو عن الماء) انتهى. وقال ابن عباس: ﴿كمثل جنة بربرة﴾ المكان المرتفع الذي لا تجري فيه الأنهار.

(١) الصفوان: هو الصفا، وهي الحجارة الملساء.

(٢) الصلد: هو الصلب من الحجارة، الذي لا شيء عليه من نبات أو غيره.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (١/١٩١).

وقوله تعالى: ﴿أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل﴾. قال السدي: أما الطل فالندي، يقول: كما أضعفت ثمرة تلك الجنة، فكذلك يضاعف ثمرة هذا المنفق. وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله لعمل المؤمن، يقول: ليس كخيرهِ^(١) خلف، كما ليس لخير هذه الجنة خلف على أي حال، إما وابل، وإما طل.

وقوله تعالى: ﴿والله بما تعملون بصير﴾، أي: لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء.

قوله عز وجل: ﴿أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضَعْفَاءٌ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

قال السدي: هذا مثل آخر لنفقة الرياء، أنه ينفق ماله يراني الناس به، فيذهب ماله منه وهو يراني، فلا يأجره الله فيه، فإذا كان يوم القيامة واحتاج إلى نفقته، وجدها قد أحرقها الرياء فذهبت، كما أنفق هذا الرجل على جنته، حتى إذا بلغت وكثر عياله واحتاج إلى جنته، جاءت ريح فيها سموم فأحرقت جنته، فلم يجد منها شيئاً، فكذلك المنفق رياء. قال مجاهد في قول الله عز وجل: ﴿أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ كمثل المفرط في طاعة الله حتى يموت. وقال عمر بن الخطاب: هذا مثل ضربه الله للإنسان يعمل عملاً صالحاً، حتى إذا كان عند آخر عمره أحوج ما يكون إليه، عمل عمل السوء. وقال قتادة: قوله: ﴿أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية، يقول: أصابها ريح فيها سموم شديد. ﴿كذالك يبين الله لكم الآيات لعلكم

(١) في (الأصل): «ليس بخيره... بخير» والمثبت من تفسير ابن جرير (٧٣/٣).

تتفكرون ﴿ فهذا مثل، فاعقلوا عن الله عز وجل أمثاله، فإنه قال: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾. هذا رجل كبرت سنه ودق عظمه وكثر عياله، ثم احترقت جنته على بقية ذلك كأحوج ما يكون إليه، يقول: أوجب أحدكم أن يضل عنه عمله يوم القيامة، كأحوج ما يكون إليه؟

وقال البخاري^(١)، باب قوله: ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب﴾ إلى قوله: ﴿لعلكم تتفكرون﴾، وذكر حديث عمر: أنه قال يوماً لأصحاب النبي ﷺ: فيم ترون هذه الآية نزلت ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة﴾؟ قالوا: الله أعلم، فغضب عمر فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم. فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. قال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل. قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: بعمل. قال عمر: لرجل غني يعمل بطاعة الله عز وجل، ثم بعث الله له الشيطان، فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله. انتهى والله المستعان.



(١) انظر (ح/٤٥٣٨).

الدرس الثاني والثلاثون

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغِشُّوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عَنِّي حَكِيمٌ ﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِنْ تُبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا لِابْتِغَاءِ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْفُفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفِيرٌ حَمِيدٌ﴾.

قال ابن عباس: ﴿أنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾ يقول: تصدقوا. وقال مجاهد في قوله: ﴿أنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾ قال: من التجارة. وقال ابن عباس: يقول: من أطيب أموالكم وأنفسه. وعن عبيدة قال: سألت علياً عن قول الله عز وجل: ﴿ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾ قال: يعني من الحب والتمر، وكل شيء عليه زكاة. وعن البراء بن عازب في قول الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾ إلى قوله: ﴿والله غني حميد﴾ قال: نزلت في الأنصار، كانت الأنصار إذا كان أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطانها أقناء البسر، فعلقوه على جبل بين الأسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ، فيأكل فقراء المهاجرين منه، فيعمد الرجل منهم إلى الحشف فيدخله مع أقناء البسر، يظن أن ذلك جائز، فأنزل الله عز وجل فيمن فعل ذلك ﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾^(١). رواه ابن جرير.

قال قتادة: ﴿ولا تيمموا﴾ لا تعمدوا. وعن البراء: ﴿ولستم بأخذيهِ إِلَّا أَنْ تَغْمِضُوا فِيهِ﴾ يقول: لو كان لرجل على رجل فأعطاه ذلك لم يأخذه، إِلَّا أَنَّهُ يَرَى أَنَّهُ قَدْ نَقَصَهُ مِنْ حَقِّهِ. وَعَنْ ابْنِ سِيرِينَ قَالَ: سَأَلْتُ عُبَيْدَةَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا

(١) أخرجه الترمذي (ح/٢٩٨٧)، وابن ماجه (ح/١٨٢٢)، وابن جرير (٣/٨٢)، والحاكم (٢/٢٨٥) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذيهِ ﴿ فقال عبيدة: إنما هذا في الواجب، ولا بأس أن يتطوع الرجل بالتمرة، والدرهم الزائف خير من التمرة.

وقوله تعالى: ﴿واعلموا أن الله غني حميد﴾، أي: غني عن صدقاتكم، حميد بقبولها منكم، وإثباتكم على أعمالكم، وهو المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره.

قوله عز وجل: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشيطان لمة من ابن آدم، وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله وليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان، ثم قرأ: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾^(١). رواه ابن جرير وغيره.

قوله عز وجل: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

قال قتادة: الحكمة القرآن، والفقه في القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وما يذكر إلا أولوا الأبواب﴾، أي: العقول. قال الحسن: من أعطى القرآن فكانما أدرجت النبوة بين جنبيه، إلا أنه لم يوح إليه.

وقال ابن كثير^(٢): جاء في بعض الأحاديث: «من حفظ القرآن فقد أدرجت

(١) أخرجه الترمذي (ح/٢٩٨٨)، والنسائي في الكبرى (٣٠٥/٦)، والطبري (٨٨/٣)، بسند

ضعيف، والراجح أنه موقوف من قول ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣٢٢/١) وصححه ووافقه الذهبي.

النبوة بين كتفيه، غير أنه لا يوحى إليه»^(١).

قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

قال مجاهد في قوله عز وجل: ﴿وما أنفقتم من نفقة أو نذرتهم من نذر فإن الله يعلمه﴾ ويحصبه. قال ابن جرير: ثم أوعد جل ثناؤه من كانت نفقته رياء ونذوره طاعة للشيطان فقال: ﴿وما للظالمين من أنصار﴾.

قوله عز وجل: ﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

قال البغوي^(٢): (قوله تعالى: ﴿إن تبدوا الصدقات فنعمًا هي﴾ أي: نعمت الخصلة هي، وما في محل الرفع وهي في محل النصب، كما تقول: نعم الرجل رجلاً، فإذا عرفت رفعت، فقلت: نعم الرجل زيد، وأصله نعم ما، فوصلت). انتهى. قال قتادة: كل مقبول إذا كانت النية صادقة، وصدقة السر أفضل، وذكر لنا: «أن الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار».^(٣) وقال ابن عباس: ﴿إن تبدوا الصدقات فنعمًا هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ فجعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها بسبعين ضعفاً، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها، يقال بخمسة وعشرين ضعفاً، وكذلك جمع الفرائض والنوافل والأشياء كلها.

(١) أخرجه الحاكم (١/٥٥٢) - وصححه ووافقه الذهبي - ومن طريقه البيهقي في «الشعب»

(٢/٥٢٢) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه، وهو حديث حسن.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (١/١٩٤).

(٣) وذلك في حديث طويل وأوله: «لقد سألت عن عظيم» أخرجه أحمد (٥/٢٣١)، والترمذي

(ح٢٦١٦)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٢٨) من حديث بن معاذ جبل رضي الله عنه،

وهو حديث صحيح.

قوله عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا نُفْسِكُمْ ۖ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ .

عن ابن عباس: «عن النبي ﷺ أنه كان يأمر بالأل يتصدق إلا على أهل الإسلام، حتى نزلت هذه الآية ﴿ليس عليك هداهم﴾ إلى آخرها، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين» رواه ابن أبي حاتم^(١). وقال ابن زيد في قوله: ﴿يؤف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ قال: هو مردود عليك فمالك ولهذا تؤذيه وتمن عليه، إنما نفقتك لنفسك وابتغاء وجه الله والله يجزيك. وقال السدي: قوله: ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم﴾ أما ﴿ليس عليك هداهم﴾ فيعني المشركين، وأما النفقة فبين أهلها، فقال: ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله﴾ قال قتادة: أحصروا أنفسهم في سبيل الله للغزو. وقال ابن زيد كانت الأرض كلها كفرأ لا يستطيع أحد أن يخرج بيتغي من فضل الله.

وقال مجاهد في قوله: ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم﴾ قال التخشع. وقال الربيع: تعرف في وجوههم الجهد من الحاجة. وقال السدي في قوله: ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾ لا يلحفون في المسألة. وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن النبي ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي

(١) انظر تفسيره (١/٢١٣/ب).

ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفتن له فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس». وللبخاري «إنما المسكين الذي يتعفف»^(١). وعن أبي سعيد الخدري قال: سرحتني أمي إلى رسول الله ﷺ أسأله، فأتيته فقعدت قال: فاستقبلني فقال: «من استغنى أغناه الله، ومن استعف أعفه الله، ومن استكف كفاه الله، ومن سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف. قال فقلت: ناقتي الياقوتة خير من أوقية، فرجعت فلم أسأله»^(٢). رواه أحمد وغيره، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من سأل الناس أموالهم تكثراً فإنما يسأل جمراً، فليستقل أو ليستكثر»^(٣) رواه مسلم.

قوله عز وجل: ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِتِلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

قال قتادة: هؤلاء أهل الجنة، ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «المكثرون هم الأقلون. قالوا: يا نبي الله إلاً من؟ - حتى خشوا أن تكون قد مضت فليس لها رد - حتى قال: إلاً من قال بالمال هكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله، وهكذا يديه، وهكذا خلفه، وقليل ما هم، هؤلاء قوم أنفقوا في سبيل الله التي افترض، وارتضى في غير سرف ولا إملاق، ولا تبذير ولا فساد»^(٤). وبالله التوفيق.



- (١) أخرجه البخاري (١٤٧٦/٢ و ١٤٧٩ و ٤٥٣٩)، ومسلم (ح/١٠٣٩).
- (٢) أخرجه أحمد (٩/٣)، والنسائي (٩٨/٥)، وهو حديث صحيح.
- (٣) أخرجه مسلم (ح/١٠٤١).
- (٤) ورد مرفوعاً: أخرجه أحمد (٣٥٨/٢ و ٣٠٩ و ٣٩١ و ٥٢٥)، وابن ماجه (ح/٤١٣١) دون قوله: «عن يمينه وعن شماله...» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو حديث صحيح.

الدرس الثالث والثلاثون

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحُقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانِ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ۞

* * *

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ
الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ
اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى
اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ .

قال مجاهد في الربا الذي نهى الله عنه: كانوا في الجاهلية يكون للرجل على
الرجل الدين فيقول: لك كذا وكذا وتؤخر عني، فيؤخر عنه.

وقال في قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ
الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ يوم القيامة في آكل الربا في الدنيا. وقال ابن
عباس: ذلك حين يبعث من قبره. وقال سعيد بن جبير: يبعث آكل الربا يوم القيامة
مجنوناً يحنق.

وقوله تعالى: ﴿ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا﴾.

قال البغوي^(١): (أي ذلك الذي نزل بهم لقولهم هذا، واستحللهم إياه،
وذلك أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا حل ماله على غريمه فطالبه، فيقول الغريم
لصاحب الحق: زدني في الأجل حتى أزيدك في المال، فيفعلان ذلك، ويقولون:
سواء علينا الزيادة في أول البيع بالربح أو عند المحل لأجل التأخير، فكذبهم الله
تعالى وقال: ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/١٩٨).

الله، قال السدي: أما الموعظة فالقرآن، وأما ما سلف فله ما أكل من الربا.

وقوله تعالى: ﴿ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ فيه تهديد أكيد ووعيد شديد، كقوله تعالى: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً﴾^(١). وفي الحديث عن النبي ﷺ: «لعن الله آكل الربا وموكله، وكاتبه وشاهديه. وقال: هم سواء»^(٢). متفق عليه واللفظ لمسلم. وعن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مثلاً بمثل، سواء بسواء، يداً بيد، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم، إذا كان يداً بيد»^(٣). رواه مسلم.

قوله عز وجل: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾^(٤).

عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «إن الربا وإن كثر، فإن عاقبته تصير إلى قل»^(٤). رواه أحمد وغيره.

وقوله تعالى: ﴿ويربي الصدقات﴾، أي: يبارك فيها في الدنيا، ويضاعف أجرها في الآخرة. وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال

(١) سورة النساء: الآية ٩٣.

(٢) أخرجه مسلم (ح/١٥٩٨)، عن جابر رضي الله عنه، والحديث ليس متفقاً عليه كما ذكره المؤلف - رحمه الله - بل هو عنده بلفظ آخر عن أبي جحيفة فليتنبه.

(٣) أخرجه مسلم (ح/١٥٨٧).

(٤) أخرجه أحمد (١/٣٩٥) و(١/٤٢٤)، وابن ماجه (ح/٢٢٧٩)، وأبو يعلى (٨/٤٥٦)، والحاكم (٢/٣٧)، و(٤/٤١٧ - ٤١٨)، وصححه ووافقه الذهبي، وهو كما قالوا.

رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربها لصاحبها، كما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل»^(١).

وقوله تعالى: ﴿والله لا يحب كل كفار أثيم﴾.

قال ابن كثير^(٢): أي لا يحب كفور القلب، أثيم القول والفعل.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

هذا مدح من الله تعالى للمؤمنين المطيعين لأمره، المحسنين إلى خلقه، وإخبار عما أعد لهم من الكرامة يوم القيامة.

قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون﴾.

قال ابن كثير^(٣): وقد ذكر زيد بن أسلم وابن جريج ومقاتل بن حيان والسدي: «أن هذا السياق نزل في بني عمرو بن عمير من ثقيف، وبني المغيرة من بني مخزوم، كان بينهم ربا في الجاهلية، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه، طلبت ثقيف أن تأخذ منهم فتشاوروا، وقالت بنو المغيرة: لا نؤدي الربا في الإسلام بكسب الإسلام، فكتب في ذلك عتاب بن أسيد نائب مكة إلى رسول الله ﷺ،

(١) أخرجه البخاري (ح/٧٤٣٠)، ومسلم (ح/١٠١٤).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٣٣٠).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٣٣٠).

فنزلت هذه الآية، فكتب بها رسول الله ﷺ إليه: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾ فقالوا: نتوب إلى الله ونذر ما بقي من الربا، فتركوا كلهم، انتهى.

قال ابن عباس: فمن كان مقيماً على الربا لا ينزع عنه، فحق على إمام المسلمين أن يستتيه، فإن نزع وإلاً ضرب عنقه، وقال أيضاً: يقال يوم القيامة لآكل الربا: خذ سلاحك للحرب.

وقوله تعالى: ﴿وإن تبتم فلکم رؤوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون﴾. قال الضحاك: وضع الله الربا، وجعل لهم رؤوس أموالهم. وقال قتادة: ذكر لنا أن النبي ﷺ قال في خطبته: «ألا إن ربا الجاهلية موضوع كله، أول ربا ابتدء به ربا العباس بن عبد المطلب»^(١). وقال ابن زيد في قوله: ﴿فلکم رؤوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون﴾، لا تنقصون من أموالكم، ولا تأخذون باطلاً لا يحل لكم.

قوله عز وجل: ﴿وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾^(٢).

قال الضحاك: من كان ذا عسرة فنظرة إلى ميسرة، وأن تصدقوا خير لكم، قال: وكذلك كل دين على مسلم، وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: «من نفس عن غريمه أو محا عنه، كان في ظل العرش يوم القيامة»^(٢). وفي الحديث الآخر عن النبي ﷺ: «أتى الله بعبد من عبده يوم القيامة، قال: ماذا عملت لي في الدنيا؟ فقال: ما عملت لك يا رب مثقال ذرة في الدنيا أرجوك بها؟ قالها ثلاث مرات، قال العبد عند آخرها: يا رب إنك كنت أعطيتني فضل مال، وكنت رجلاً أبايع

(١) أخرجه مسلم (ح/١٢١٨)، عن جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٥/٣٠٠ و ٣٠٨)، عن أبي هريرة رضي الله عنه وهو حديث صحيح.

الناس، وكان من خُلقي الجواز، فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر. قال: فيقول الله عز وجل: أنا أحق من ييسر^(١)، ادخل الجنة^(٢)، أخرجته أبو يعلى الموصلي ونحوه في البخاري ومسلم.

قوله عز وجل: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

قال ابن عباس: هذه آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ، فقال له جبريل عليه السلام: ضعها على رأس مائتين وثمانين آية من سورة البقرة، وعاش بعدها رسول الله ﷺ إحدى وعشرين يوماً^(٣). والله أعلم.



(١) في (الأصل): «من ييسر»، والمثبت من تفسير ابن كثير.
(٢) أخرج به بنحوه البخاري (ح/٢٠٧٧ و ٢٣٩١) و(٣٤٥١ معلقاً)، ومسلم (٣/١١٩٤ - ١١٩٥) من حديث حذيفة رضي الله عنه.
(٣) أخرج البغوي في تفسيره (١/٢٦٦) بسند ضعيف.

الدرس الرابع والثلاثون

﴿يَتَّيِبَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنُمُ بَدَيْنِ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ
 وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ
 فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ
 كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعْلِلَ هُوَ فليَمْلِكِ وَلِيُهُ
 بِالْعَدْلِ وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ
 وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا
 الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ
 أَجَلٍ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ
 تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا
 إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَلَّحُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ
 وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ
 سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنَّ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِيَ
 أَمْنَتُهُ وَيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ
 وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُوبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبًا بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيَمِلْ وَلِيهِ بِالْعَدْلِ﴾ .

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تدايتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه﴾ أنزلت في السلم إلى أجل معلوم. وقال الضحاك: من باع إلى أجل مسمى، أمر أن يكتب صغيراً كان أو كبيراً إلى أجل مسمى. قال الربيع: فكان هذا واجباً، ثم قامت الرخصة والسعة، قال: ﴿فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه﴾ .

وقال قتادة في قوله: ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾ اتقى الله كاتب في كتابه، فلا يدعن منه حقاً، ولا يزيدن فيه باطلاً.

وعن مجاهد في قول الله عز وجل: ﴿ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله﴾ . قال: واجب على الكاتب أن يكتب. وقال السدي: ﴿لا يأب كاتب أن يكتب﴾ إن كان فارغاً.

وقال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿وليمللكم عليه الحق وليتق الله ربه ولا

يبخس منه شيئاً﴾ . قال: لا ينقص من حق هذا الرجل شيئاً إذا أملى .

وقوله تعالى: ﴿فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن

يمل هو فليملك وليه بالعدل﴾ . قال مجاهد: أما السفيه فالجاهل بالإملاء والأمور،

وقال أيضاً: أما الضعيف فالأحمق. وقال ابن عباس: ﴿فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليمل وليه بالعدل﴾، يقول: إن عجز عن ذلك أملى ولي صاحب الدين بالعدل. وقال الضحاك: أمر ولي السفيه والضعيف أن يمل بالعدل.

قوله عز وجل: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾.

قال مجاهد: ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم﴾. قال: الأحرار. وقال البغوي^(١): (يعني الأحرار المسلمين دون العبيد والصبيان، وهو قول أكثر أهل العلم. وأجاز شريح وابن سيرين شهادة العبيد). انتهى. وقال الربيع في قوله: ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم﴾، يقول: في الدين ﴿فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان﴾ وذلك في الدين. ﴿ممن ترضون في الشهداء﴾، يقول: عدول. وقال قتادة: علم الله أن ستكون حقوق، فأخذ لبعضهم من بعض الثقة، فخذوا بثقة الله، فإنه أطوع لربكم وأدرك لأموالكم، ولعمري لئن كان تقياً لا يزيد الكتاب إلا خيراً، وإن كان فاجراً فبالحري أن يؤدي إذا علم أن عليه شهوداً.

وقال الربيع: ﴿أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾، يقول: أن تنسى إحداهما فتذكرها الأخرى.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿ولا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ قال: لا تأب أن تشهد إذا ما دعيت إلى شهادة. وكان الحسن يقول في قوله: ﴿ولا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٢٠٣).

ما دعوا ﴿ جمعت أمرين: لا تأب إذا كانت عندك شهادة أن تشهد، ولا تأب إذا دعيت إلى شهادة.

قوله عز وجل: ﴿ وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ .

قال مجاهد: ﴿ولا تساموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله﴾. قال: هو الدّين.

وقال السدي: قوله: ﴿ذلكم أقسط عند الله﴾، يقول: أعدل عند الله.

وقال البغوي^(١): ﴿ذلكم﴾، أي: الكتاب، ﴿أقسط﴾ أعدل، ﴿عند الله﴾ لأنه أمر به واتباع أمره أعدل من تركه وأقوم للشهادة، لأن الكتابة تذكر الشهود، ﴿وأدنى﴾ وأحرى وأقرب إلى ﴿ألا ترتابوا﴾ تشكوا في الشهادة.

وقال السدي: قوله: ﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم﴾، يقول: معكم بالبلد ترونها فتؤخذ وتعطي، فليس على هؤلاء جناح ألا يكتبوها. وقال الربيع: قلت للحسن: رأيت قول الله عز وجل: ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾؟ قال: إن أشهدت عليه فهو ثقة للذي لك، وإن لم تشهد عليه فلا بأس. قال ابن كثير^(٢): وهذا الأمر محمول عند الجمهور على الإرشاد والندب، لا على الوجوب.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾. يقول: لا يأتي

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٢٠٤).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٣٣٦).

الرجل فيقول: انطلق فاكتب لي واشهد لي، فيقول: إن لي حاجة فالتمس غيري، فيقول: اتق الله فإنك قد أمرت أن تكتب لي، فهذه المضارة. ويقول: دعه والتمس غيره، والشاهد بتلك المنزلة. وقال ابن عباس: ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾، يقول: إنه يكون للكاتب والشاهد حاجة ليس منها بد فيقول: خلوا سبيله. وقال أيضاً: والضرار أن يقول الرجل للرجل وهو عنه غني: إن الله قد أمرك أن لا تأبى إذا دعيت، فيضاره بذلك وهو مكنته بغيره، فنهاه الله عز وجل عن ذلك وقال: ﴿وإن فعلوا فإنه فسوق بكم﴾، قال: والفسوق المعصية.

وقوله تعالى: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم﴾. قال الضحاك: هذا تعليم علمكموه فخذوا به.

قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكُونُوا الشَّاهِدَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

قال الربيع: قوله: ﴿وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً﴾، يقول: كاتباً يكتب لكم ﴿فرهان مقبوضة﴾. وقال الضحاك: ما كان من بيع إلى أجل فأمر الله عز وجل أن يكتب، وليشهد عليه، وذلك في المقام، فإن كان قوم على سفر تبايعوا إلى أجل فلم يجدوا فرهان مقبوضة.

وقوله تعالى: ﴿فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه﴾.

قال البغوي^(١): (فإن كان الذي عليه الحق أميناً عند صاحب الحق فلم يرتهن

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٢٠٦).

منه شيئاً لحسن ظنه به، ﴿فليؤد الذي أوّتمن أمانته﴾ أي فليقضه على الأمانة ﴿وليتق الله ربه﴾ في أداء الحق. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم﴾. قال السدي: ﴿ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾، يقول: فاجر قلبه. وقال ابن عباس: إذا كانت عندك شهادة فسألك عنها فأخبره بها، ولا تقل: أخبر بها عند الأمير، أخبره بها لعله يراجع أو يرعوي. انتهى. وقد قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾^(١). والله أعلم.



(١) سورة النساء: الآية ١٣٥.

الدرس الخامس والثلاثون

﴿ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٥﴾ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ۚ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٦﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۗ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا ۚ أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٧﴾ ۝

* * *

قوله عز وجل: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي
 أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ
 وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ .

يقول تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلفاً وملكاً
 وعبيداً. ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ
 وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. روى الإمام أحمد وغيره عن
 أبي هريرة قال: «لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي
 الْأَرْضِ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ
 وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ اشتد ذلك على أصحاب
 رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب وقالوا: يا رسول الله
 كُلفنا من الأعمال ما نطبق: الصلاة، والصيام، والجهاد، والصدقة، وقد
 أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيعها: فقال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا
 كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا
 غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما أقرّ بها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في
 أثرها ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته
 وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا
 وإليك المصير﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله ﴿لا يكلف الله نفساً إلا
 وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾
 إلى آخره».

ولمسلم: «ولما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله ﴿لا يكلف الله نفساً إلا

وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴿١﴾ قال: نعم ربنا ﴿٢﴾ ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ﴿٣﴾ قال: نعم ربنا، ﴿٤﴾ ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴿٥﴾ قال: نعم ﴿٦﴾ واعف عنا وافر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴿٧﴾ قال: نعم ﴿٨﴾.

وفي رواية له من حديث ابن عباس قال: «قد فعلت» (٢).

قال ابن حجر في «فتح الباري» (٣): (والمراد بقوله: نسختها أي أزلت ما تضمنته من الشدة، وبينت أنه وإن وقعت المحاسبة به، لكنها لا تقع المؤاخظة به؛ أشار إلى ذلك الطبري، فراراً من إثبات دخول النسخ في الأخبار، وأجيب: بأنه وإن كان خبيراً لكنه يتضمن حكماً، ومهما كان من الأخبار يتضمن الأحكام، أمكن دخول النسخ فيه كسائر الأحكام، وإنما الذي لا يدخله النسخ من الأخبار، ما كان خبيراً محضاً لا يتضمن حكماً، كالأخبار عما مضى من أحاديث الأمم ونحو ذلك؛ ويحتمل أن يكون المراد بالنسخ في الحديث: التخصيص، فإن المتقدمين يطلقون لفظ النسخ عليه كثيراً، والمراد (٤) بالمحاسبة بما يخفي الإنسان ما يصمم عليه ويشرع فيه، دون ما يخطر ولا يستمر عليه. والله أعلم انتهى.

وروى الجماعة من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها، ما لم تكلم أو تعمل» (٥).

(١) أخرجه أحمد (٤١٢/٢)، ومسلم (١٢٥/٢)، والطبري (١٤٣/٣). والطبراني (١٤٣/٣)،

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (ح/١٢٦).

(٣) انظر (٥٥/٨).

(٤) في (الأصل): «أو لعله والمراد»، والمثبت من «الفتح».

(٥) أخرجه البخاري (ح/٥٢٦٩)، ومسلم (ح/١٢٧).

قوله عز وجل: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْكَ يَدُهُ وَكَثُرَتْ رُسُلُهُ لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ .

قال ابن زيد: ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ كما صنع القوم يعني بني إسرائيل قالوا: فلان نبي وفلان ليس نبياً، وفلان نؤمن به وفلان لا نؤمن به. وعن حكيم بن جابر قال: «لما أنزلت على رسول الله ﷺ ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْكَ يَدُهُ وَكَثُرَتْ رُسُلُهُ لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾. قال جبريل: إن الله عز وجل قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك، فسل تعطه. فسأل: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾^(١). رواه ابن جرير.

قوله عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ .

قال السدي: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ طاقتها، وحديث النفس مما لا يطيقون. وقال ابن عباس: هم المؤمنون، وسع الله عليهم أمر دينهم، فقال الله جل ثناؤه: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾^(٢)، وقال: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾^(٣)، وقال: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾^(٤). وقال قتادة:

(١) أخرجه ابن جرير (٣/١٥٣ - ١٥٤)، بسند ضعيف.

(٢) سورة الحج: الآية ٧٨، وفي (الأصل): «ما جعل...» وهو خطأ.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨.

(٤) سورة التغابن: الآية ١٦.

قوله: ﴿لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها لها ما كسبت﴾، أي: من خير ﴿وعليها ما اكتسبت﴾، أي: من شر، وقوله: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ قال ابن زيد: إن نسينا شيئاً مما افترضته علينا، أو أخطأنا شيئاً مما حرّمته علينا. وقال قتادة: بلغني أن النبي ﷺ قال: «إن الله تجاوز لهذه الأمة عن نسيانها وما حدثت بها أنفسها». وروى ابن ماجه وغيره من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى وضع عن أمّتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»^(١).

وقوله تعالى: ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا﴾. قال مجاهد: ﴿إصراً﴾ عهداً. وقال ابن زيد: ﴿لا تحمل علينا﴾ ذنباً ليس فيه توبة ولا كفارة. وقال مالك: الإصر الأمر الغليظ.

وقوله: ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ قال ابن زيد: لا تفترض علينا من الدين ما لا طاقة لنا به، فنعجز عنه، ﴿واعف عنا﴾ إن قصرنا عن شيء من أمرك مما أمرتنا به، ﴿واعفر لنا﴾ إن انتهكنا شيئاً مما نهيتنا عنه، ﴿وارحمننا﴾ يقول: لأننا لا نعمل بما أمرتنا به، ولا نترك ما نهيتنا عنه إلاّ برحمتك. قال: ولم ينج أحد إلاّ برحمتك.

وقوله تعالى: ﴿أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾، ورد في بعض الآثار: «قال الله: قد عفوت عنكم وغفرت لكم ورحمتكم، ونصرتكم على القوم الكافرين». وكان معاذ رضي الله عنه إذا فرغ من هذه السورة قال: «آمين»^(٢). وعن ابن مسعود رضي الله عنه إذا فرغ من هذه السورة قال: «آمين»^(٣). وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في

(١) أخرجه ابن ماجه (ح/٢٠٤٥)، والحاكم (٢/١٩٨)، والبيهقي (٧/٣٥٦)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١/١٦١).

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١/١٦١).

ليلة كفتاه»^(١) متفق عليه. وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطهن نبي قبلي»^(٢) رواه أحمد. وعن علي رضي الله عنه قال: لا أرى أحداً عقل الإسلام، ينام حتى يقرأ آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة، فإنها من كنز أعطيه نبيكم ﷺ من تحت العرش^(٣). رواه ابن مردويه. والله أعلم.



-
- (١) أخرجه البخاري (ح/٤٠٠٨)، ومسلم (ح/٢٥٥).
- (٢) أخرجه أحمد (١٥١/٥ و ١٨٠) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وأخرجه الطبراني في الكبير (١٦٩/٣)، من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وهو حديث صحيح، وقد روي بنحوه من حديث معقل بن يسار، بسند ضعيف.
- (٣) سبق تخريجه من حديث أبي ذر وحذيفة رضي الله عنهما.

الدرس السادس والثلاثون

﴿سورة آل عمران﴾

مدنية، وهي مائتا آية

روى مسلم عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه اقرؤوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة»^(١).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الذِّكْرُ ١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَلِيُّ الْيَوْمُ ٢ ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ٤ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٦ ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ

(١) أخرجه مسلم (ح/٨٠٤).

وَأَتَّبَعَهُ تَأْوِيلُهُ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ
عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن
لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ
اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴿٩﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿الْمَ ۙ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٧﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٨﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿١٠﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۗ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١﴾ .

قال ابن إسحاق: «قدم على رسول الله ﷺ وفد نجران ستون راكباً، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، في الأربعة عشر ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم: العاقب أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه، واسمه عبد المسيح. والسيد [ثمالمهم]»^(١) وهو صاحب رحلهم ومجتمعهم، واسمه الأيهم. وأبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل^(٢)، أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدراسهم. قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، فدخلوا عليه في مسجده حين صلى العصر عليهم في ثياب الحبرات، وقد حانت صلاتهم، فقاموا يصلون في مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: دعوهم. فصلوا إلى المشرق قال: فكلّم منهم رسول الله ﷺ أبو حارثة والعاقب والأيهم، وهو من النصرانية على دين الملك، مع اختلاف أمرهم يقولون: المسيح هو الله، ويقولون: هو ولد الله، ويقولون: هو ثالث ثلاثة، إلى أن قال: فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية»^(٣).

(١) ما بين المعقوفتين من تفسير ابن جرير، والبغوي.

(٢) عند ابن جرير: «أخو بكر بن وائل».

(٣) أخرجه ابن جرير، (١٦٢/٣).

وقال الربيع في قوله: ﴿أَلَمْ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ إن النصارى أتوا رسول الله ﷺ فخاصموه في عيسى ابن مريم، وقالوا له: من أبوه؟ وقالوا له على الله الكذب والبهتان، لا إله إلا هو. لم يتخذ صاحبة ولا ولداً. فقال لهم النبي ﷺ: كنتم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه قالوا: بلى. قال: أستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت، وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟ قالوا: بلى. قال: أستم تعلمون أن ربنا قيّم على كل شيء يكلّؤه ويحفظه ويرزقه؟ قالوا: بلى. قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟ قالوا: لا. قال: أفلستم تعلمون أن الله عز وجل لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟ قالوا: بلى. قال: فهل يعلم عيسى من ذلك شيئاً إلا ما علم؟ قالوا: لا. قال: فإن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء. قال: أستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث؟ قالوا: بلى. قال: أستم تعلمون أن عيسى حملته امرأة كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غذي كما يغذي الصبي، ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث؟ قالوا: بلى. قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟ قال: فعرفوا ثم أبوا إلاّ جحوداً. فأنزل الله عز وجل: ﴿أَلَمْ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه﴾ قال مجاهد: لما قبله من كتاب أو رسول.

وقوله تعالى: ﴿وأُنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس﴾ قال قتادة: هما كتابان أنزلهما الله فيهما بيان من الله وعصمة لمن أخذ به، وصدق به، وعمل بما فيه.

وقوله تعالى: ﴿وأُنزل الفرقان﴾ قال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر ﴿وأُنزل

(١) أخرجه ابن جرير، (٣/١٦٣).

الفرقان ﴿١﴾، أي: الفصل بين الحق والباطل، فيما اختلف فيه الأحزاب من أمر عيسى وغيره.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾، أي: أن الله منتقم ممن كفر بآياته وجحد بها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ هُوَ الَّذِي يَصُورُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ قال قتادة: قادرٌ واللَّهُ ربُّنا أن يصور عباده في الأرحام كيف يشاء، من ذكر، أو أنثى، أو أسود، أو أحمر، تام خلقه وغير تام.

قوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَبَّ فِيهِ إِلَّا أَنْتَ اللَّهُ لَا يُخَلِّفُ الْأَمْعَادُ ﴿٩﴾﴾.

قال ابن عباس في قوله: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب﴾: المحكمات: ناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه، وما يؤمن به ويعمل به. قال: ﴿وأخر متشابهات﴾ والمتشابهات منسوخة ومقدمة ومؤخرة وأمثاله وأقسامه، وما يؤمن به ولا يعمل به. وقيل: المتشابهات: فواتح السور.

قال البغوي^(١): (فإن قيل: كيف فرق ههنا بين المحكم والمتشابه، وقد

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٢١٣).

جعل الله كل القرآن محكماً في مواضع أخر فقال: ﴿ألم كتاب أحكمت آياته﴾، وجعله كله متشابهاً فقال الله: ﴿نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً﴾، قيل: حيث جعل الكل محكماً أراد أن الكل حق ليس فيه عبث ولا هزل، وحيث جعل الكل متشابهاً أراد أن بعضه يشبه بعضاً في الحق والصدق وفي الحسن، وجعل ههنا بعضه محكماً وبعضه متشابهاً. انتهى.

وقال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿منه آيات محكمات هن أم الكتاب﴾ قال: هن جماع الكتاب.

وقال ابن كثير^(١): أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه.

وقوله تعالى: ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ﴾، أي: ميل عن الهدى: ﴿فيتبعون ما تشابه منه﴾ قال ابن جريج: هم المنافقون. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾ إلى قوله: ﴿أولوا الألباب﴾ فقال: إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى الله فاحذروهم». رواه أحمد وفي رواية البخاري: فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم^(٢). وقال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر: ﴿فيتبعون ما تشابه منه﴾، أي: ما تحرف منه وتصرف؛ ليصدقوا به ما ابتدعوا وأحدثوا، ليكون لهم حجة على ما قالوا وشبهة.

وقال السدي: ﴿ابتغاء الفتنة﴾ قال: إرادة الشرك. وقال مجاهد: الشبهات بها أهلكوا وأهلكوا. وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: «سمع رسول الله ﷺ قوماً يتدارءون فقال: إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، إنما أنزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضاً، فلا تكذبوا بعضه

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣٤٤/١).

(٢) أخرجه أحمد (٤٨/٦ و ٢٥٦)، والبخاري (ح/٤٥٤٧)، ومسلم (ح/٢٦٦٥).

بعض، فما علمتم منه فقولوا به، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه»^(١) رواه أحمد. وقال ابن عباس: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ يعني تأويله يوم القيامة إلا الله. وقالت عائشة في قوله تعالى: ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به﴾ كان من رسوخهم في العلم، أن آمنوا بمحكمه ومتشابهه ولم يعلموا تأويله. وقال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر: ﴿وما يعلم تأويله﴾ الذي أراد ما أراد ﴿إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به﴾ ثم ردوا تأويل المتشابه على ما عرفوا من تأويل المحكمة التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد، فأتسق بقولهم الكتاب، وصدق بعضه بعضاً، فنفذت به الحجة وظهر به العذر^(٢)، وزاح به الباطل ودمغ به الكفر. وروى ابن جرير وغيره: «أن رسول الله ﷺ سئل من الراسخ في العلم؟ قال: من برت يمينه، وصدق لسانه، واستقام قلبه، وعف بطنه وفرجه، فذلك الراسخ في العلم»^(٣).

(١) أخرجه أحمد (١٨١/٢ و ١٨٥ و ١٩٥ و ١٩٦)، وابن ماجه (ح/٨٥)، وسنده حسن، وأصله في مسلم بلفظ: «إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب» (ح/٢٦٦٦).

(٢) في (الأصل): «العذر» وهو خطأ.

(٣) أخرجه الطبري (١٨٥/٣)، والطبراني (١٧٦/٨)، بسند موضوع.

قلت: اعلم — علمني الله وإياك — أن معاني آيات الصفات، وأحاديثها ليست في المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، بل هي معلومة المعنى.

قال ابن القيم — رحمه الله —: «الصف الثالث: أصحاب التجهيل الذين قالوا: نصوص الصفات ألفاظ لا تعقل معانيها، ولا يدري ما أراد الله ورسوله منها، ولكن نقرؤها ألفاظاً لا معاني لها، ونعلم أن لها تأويلاً لا يعلمه إلا الله، وهي عندنا بمنزلة (كهيصص)، و (حم عسق) و (الم ص) فلو ورد علينا منها ما ورد لم نعتقد فيه تمثيلاً ولا تشبيهاً، ولم نعرف معناه، ونكر على من تأوله، ونكل علمه إلى الله تعالى... وبنوا هذا المذهب على أصلين: أحدهما: أن هذه النصوص من المتشابه. والثاني: أن للمتشابه تأويلاً لا يعلمه إلا الله، فتتج من هذين الأصلين استجهال السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وسائر الصحابة والتابعين لهم بأحسان، وأنهم كانوا يقرؤون هذه الآيات المتعلقة بالصفات ولا =

وقال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾، أي: لا تمل قلوبنا وإن ملنا بأجدائنا^(١): ﴿وهب لنا من لذك رحمة﴾ وعن أم سلمة رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ كان يكثر في دعائه أن يقول: اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك. قالت قلت: يا رسول الله وإن القلب ليتقلب؟ قال: نعم، ما خلق الله من بشر من بني آدم إلاّ وقلبه بين أصبعين من أصابعه، فإن شاء أقامه وإن شاء أزاعه. فنسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لذك رحمة، إنه هو الوهاب. قالت قلت: يا رسول الله ألاّ تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال: بلى قلبي: اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن»^(٢). رواه ابن جرير وغيره. وعن أبي عبد الله الصنابحي أنه صلى وراء أبي بكر الصديق المغرب قال: فدنوت منه حتى أن ثيابي لتكاد تمس ثيابه، فسمعتة يقرأ بأمر القرآن وهذه الآية في الركعة الثالثة. رواه عبد الرزاق.

وقوله تعالى: ﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه﴾، أي: يوم القيامة ﴿إنك لا تخلف الميعاد﴾، أي: فاغفر لنا واعف عنا وارحمنا، وثبتنا في الدنيا على الدين، وفي الآخرة على الصراط. وقد قال الله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ والله الموفق.



يعرفون معنى ذلك، ولا ما أريد به، ولازم قولهم: أن رسول الله ﷺ كان يتكلم بذلك ولا يعلم معناه... فهؤلاء غلطوا في المتشابه. وفي جعل هذه النصوص من المتشابه، وفي كون المتشابه لا يعلم معناه إلاّ الله. اهـ (مختصر الصواعق ١/٧٣ - ٧٤).

(١) في تفسير ابن جرير: «بأجسادنا».

(٢) أخرجه أحمد (٦/٣٠٢)، وابن جرير (٣/١٨٧ - ١٨٨)، والطبراني (٢٣/٣٣٨)، بسند

الدرس السابع والثلاثون

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ ﴿١٠﴾ كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَتَسَاءَلُ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي فِتْنَتِنَا أَلَمْ نَكُنْ بِكُمْ مِنْ قَبْلُ نَذِيرًا فَإِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَنْصِتُونَ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَسْتَأْذِنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ زِينِ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ ﴿١٤﴾ قُلْ أُوْتِيتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِمَنْ لَدُنَّ أَنْتَقُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمَّاكَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴿١٧﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَذَابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾ .

يخبر تعالى أن أموال الكفار وأولادهم لا تنفعهم يوم القيامة، ولا تنجيهم من عذاب الله، وأنهم حطب النار الذي توقد به.

وقوله تعالى: ﴿كَذَابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كفعل آل فرعون وصنيعهم في الكفر والتكذيب.

وقوله تعالى: ﴿فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، أي: شديد الأخذ، أليم العذاب لا يمتنع منه أحد.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾ .

عن ابن عباس قال: «لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً يوم بدر فقدم المدينة، جمع يهود في سوق بني قينقاع فقال: يا معشر اليهود، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً، فقالوا: يا محمد لا تغرنك نفسك أنك قتلت نفرأ من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس، وأنت لم تأت مثلنا. فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ

وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد، إلى قوله: ﴿لأولي الأبصار﴾^(١).

قال قتادة: ﴿قد كان لكم آية﴾، عبرة وتفكر. وقال ابن عباس: ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله﴾، أصحاب رسول الله ﷺ يبدر ﴿وأخرى كافرة﴾ فئة قريش الكفار، وقال الربيع في قوله: ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثلهم رأي العين﴾، قال: كان ذلك يوم بدر، وكان المشركون تسعمائة وخمسين، وكان أصحاب محمد ﷺ ثلاثمائة وثلاثة عشر.

قال ابن جرير^(٢): (فإن قال لنا قائل: فكيف قيل: يرونهم مثلهم رأي العين، وقد علمتم أن المشركين كانوا يومئذ ثلاثة أمثال المسلمين؟ قلنا لهم كما يقول القائل - وعنده عبد احتاج إلى مثله - : أنا محتاج إليه وإلى مثله، ثم يقول: احتاج إلى مثليه، فيكون ذلك خبراً عن حاجته إلى مثله، وإلى مثلي ذلك المثل) إلى آخر كلامه.

وقوله: ﴿إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾، قال قتادة: يقول: لقد كان لهم في هؤلاء عبرة وتفكير، أيدهم الله ونصرهم على عدوهم.

قوله عز وجل: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَوْبَيْتُكُمْ بِحَيْرٍ مِّنْ ذَالِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

(١) أخرجه أبو داود (ح/٣٠٠١)، وابن إسحاق كما عراه له السيوطي في الدر (١٥٨/٢)، وابن جرير (١٩٢/٣)، والبيهقي في الدلائل (١٧٣/٣ - ١٧٤)، وفي سننه ضعف والله أعلم.

(٢) انظر: «جامع البيان» (٣/١٩٥).

خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ
 بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ
 النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ
 بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لما نزلت ﴿زين للناس حب الشهوات﴾، قلت: الآن يارب حين زينتها لنا؟ فنزلت: ﴿قل أُوْنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار...﴾»^(١) الآية. رواه ابن جرير، قال ابن عباس: القنطار ألف ومائتا دينار، ومن الفضة ألف ومائتا مثقال، وقال ابن عمر: القنطار ألف ومائتا أوقية.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿والخيل المسومة﴾، قال: المطهمة الحسان، وقال ابن عباس: يعني المعلمة.

وقوله تعالى: ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾، قال السدي يقول: حسن المنقلب وهي الجنة.

وقوله تعالى: ﴿قل أُوْنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها أزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد﴾، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله تبارك وتعالى: أعطيكم أفضل من هذا؟ فيقولون: أي ربنا، أي شيء أفضل من هذا؟ قال: رضواني.

وقوله تعالى: ﴿الذين يقولون ربنا إننا آمننا فاعفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾، هذا وصف

(١) أخرجه ابن جرير (٣/١٩٩) بسند ضعيف.

عباد الله المتقين الذين وعدهم الجنة، قال قتادة: قوله ﴿الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين﴾، الصادقين يوم صدقت أفواههم، واستقامت قلوبهم وألستهم، وصدقوا في السر والعلانية، والصابرين يوم صبروا على طاعة الله، وصبروا عن محارمه، والقانتون هم المطيعون لله.

قال: ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾ هم أهل الصلاة، وقال جعفر بن محمد: من صلى من الليل ثم استغفر في آخر الليل سبعين مرة، كتب من المستغفرين بالأسحار، وفي الصحيحين وغيرهما، أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له»^(١)؟ والله أعلم.



(١) أخرجه البخاري (ح/١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨/٨).

الدرس الثامن والثلاثون

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُنْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ

أُولِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۗ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَخَفُوا مِنْهُنَّ ثِقَلًا وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَكُمْ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِنْ تُخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبَدُّوهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّرًا وَمِمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۚ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١٨).

قال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم﴾، بخلاف ما قال وفد نجران من النصارى.

﴿قائماً بالقسط﴾، أي: بالعدل. قال ابن كثير^(١): قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته، وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام.

وقوله ﴿لا إله إلا هو﴾ تأكيد لما سبق. ﴿العزیز الحکیم﴾، أي: ﴿العزیز﴾ الذي لا يرام جنبه عظمة وكبرياء. ﴿الحكيم﴾ في قوله وأفعاله وشرعه وقدره.

قوله عز وجل: ﴿ إِنْ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْضًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِتَايَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ إِلَهَهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسَلَمْتُمْ فَإِنْ أَسَلَمْتُمْ فَاقْبَلُوا هَدَايَ وَلَا تَكْفُرُوا فَإِنَّ كُفْرَكُمْ سَرِيعٌ فَأَسَلَمْتُمْ فَإِنْ كُنْتُمْ كَارِهِينَ فَاصْبِرُوا لِمَا نَزَّلْنَا بِهَذَا الْقُرْآنِ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٢٠).

قال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾، أي: ما أنت عليه يا محمد من التوحيد للرب والتصديق للرسول. وقال أبو العالية: الإسلام الإخلاص لله وحده، وعبادته لا شريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وسائر الفرائض لهذا تبع.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٣٥٣).

وقوله تعالى: ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾. قال أبو العالية: يقول بغياً على الدنيا وطلب ملكها وسلطانها، فقتل بعضهم بعضاً على الدنيا من بعد ما كانوا علماء الناس.

وقال مجاهد في قول الله عز وجل: ﴿ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾ قال: إحصاؤه عليهم. وقال ابن كثير^(١): أي فإن الله سيجازيك^(٢) على ذلك، ويحاسبه على تكذيبه، ويعاقبه على مخالفته كتابه.

وقوله تعالى: ﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن﴾. يقول تعالى: فإن جادلوك في الدين فقل: ﴿أسلمت وجهي لله﴾، أي: أخلصت عبادتي لله وحده لا شريك له، ومن اتبعني على ديني، يقول كمقالتني. قال البغوي^(٣): ﴿فقل أسلمت وجهي لله﴾، أي: انقدت لله وحده بقلبي ولساني وجميع جوارحي؛ وإنما خص الوجه لأنه أكرم الجوارح للإنسان وفيه بهاؤه، فإذا خضع وجهه للشيء، فقد خضع له جميع جوارحه.

وقوله تعالى: ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾. قال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر: الأميون الذين لا كتاب لهم. وقال البغوي^(٤): ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين﴾، أي: العرب، ﴿أأسلمتم﴾ لفظة استفهام ومعناه أمر، أي: أسلموا، كما قال ﴿فهل أنتم منتهون﴾، أي: انتهوا. ﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا﴾ فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية فقال أهل الكتاب: أسلمنا، فقال لليهود: أتشهدون أن عزيزاً عبده ورسول؟ فقالوا: معاذ الله أن يكون عزيز — عليه السلام — عبداً.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٣٥٤).

(٢) في (الأصل): «سيجانبه»، وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن كثير.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (١/٢٢٠ — ٢٢١).

(٤) المصدر السابق (١/٢٢١).

وقال للنصارى: أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبده ورسوله؟ قالوا: معاذ الله أن يكون عيسى عبداً. فقال الله عز وجل: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾، أي: تبليغ الرسالة وليس عليك الهداية ﴿وَاللَّهُ بِصِيرِ الْعِبَادِ﴾ عالم بمن يؤمن وبمن لا يؤمن. انتهى.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ
بِعَدْوٍ حَقِّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا
لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

قال ابن جريج: كان الوحي يأتي على أنبياء من بني إسرائيل، ولم يكن يأتيهم كتاب، فيذكرون قومهم فيقتلون أنبياءهم، فيقوم رجال ممن تبعهم وصدقهم، فيذكرون قومهم فيقتلون أيضاً، فهم الذي يأمرون بالقسط من الناس وفي الحديث: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتل نبياً، أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر»^(١). رواه ابن جرير وغيره.

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

قال ابن عباس: «دخل رسول الله ﷺ بيت المدراس على جماعة من يهود،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/٢٤٤/ب)، وابن جرير (٣/٢١٦)، والبغوي (١/٢٢١)، وفي سنده ضعف.

فدعاهم إلى الله، فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد: على أي دين أنت يا محمد؟ فقال: على ملة إبراهيم ودينه. فقالوا: فإن إبراهيم كان يهودياً. قال لهما رسول الله ﷺ: فاهلوا إلى التوراة فهي بيننا وبينكم، فأبيا عليه، فأنزل الله عز وجل ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون﴾، إلى قوله: ﴿ما كانوا يفترون﴾^(١).

وقوله ﴿ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات﴾. قال قتادة: قالوا لن تمسنا النار إلا تحلة القسم التي نصبنا فيها العجل، ثم ينقطع القسم والعذاب عنا. قال الله عز وجل: ﴿وغيرهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾، أي: قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه.

وقوله تعالى: ﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه﴾، وهو يوم القيامة ﴿ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ فكيف حالهم حينئذ؟

قوله عز وجل: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾.

قال ابن عباس: «لما فتح رسول الله ﷺ مكة وعد أمته ملك فارس والروم، قالت المنافقون واليهود: هيهات هيهات، من أين لمحمد ملك فارس والروم وهم أعز وأمنع من ذلك؟ ألم يكف محمداً مكة والمدينة حتى طمع في ملك فارس والروم؟ فأنزل الله هذه الآية».

(١) أخرجه ابن جرير (٢١٧/٣)، وفي سنده ضعف.

وقال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر: قوله: ﴿تؤتي الملك من تشاء﴾ الآية، أي أن ذلك بيدك لا إلى غيرك. ﴿إنك على كل شيء قدير﴾ لا يقدر على هذا غيرك بسلطانك وقدرتك.

وقوله تعالى: ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل﴾ قال ابن عباس: ما نقص من النهار يجعله في الليل، وما نقص من الليل يجعله في النهار.

وقوله تعالى: ﴿وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي﴾. قال مجاهد: الناس الأحياء من النطف، والنطف ميتة من الناس الأحياء ومن الأنعام والنبات كذلك.

وقوله تعالى: ﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾. قال الربيع: يخرج الرزق من عنده بغير حساب، لا يخاف أن ينقص ما عنده تبارك وتعالى.

قوله عز وجل: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتَ وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

قال ابن عباس: نهى الله سبحانه المؤمنين أن يلاطفوا الكفار، أو يتخذوهم وليجة من دون المؤمنين، إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين، فيظهروا لهم اللطف ويخالفوهم في الدين، وذلك قوله: ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ وقال أيضاً: التقاة التكلم باللسان، وقلبه مطمئن بالإيمان.

وقوله تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾، أي: يخوفكم الله عقوبته ﴿وإلى الله المصير﴾، أي: المرجع والمنقلب.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تَبَدُّوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ

مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ .

قال البغوي^(١): ﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم﴾ قلوبكم من مودة الكفار ﴿أو تبدوه﴾ من موالاتهم قولاً وفعلاً، ﴿يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض﴾، يعني إذا كان لا يخفى عليه شيء في السموات ولا في الأرض، فكيف تخفى عليه موالاتكم الكفار، وميلكم إليهم بالقلب؟ ﴿والله على كل شيء قدير﴾، وقال الكلبي: إن تسروا ما في قلوبكم لرسول الله ﷺ من التكذيب، أو تظهروه بحربه وقتاله، يعلمه الله ويحفظه عليكم حتى يجازيكم به .

قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ .

قال قتادة: قوله: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً﴾، يقول موفراً .

وقال السدي: قوله: ﴿وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾ مكاناً بعيداً . وعن الحسن في قوله: ﴿ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد﴾ . قال: من رأفته بهم أن حذرهم نفسه .

قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ .

قال الحسن: قال قوم على عهد نبيهم ﷺ: يا محمد إنا نحب ربنا، فأنزل الله عز وجل ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾ فجعل اتباع نبيه محمد ﷺ علماً لحبه، وعذاب من خالفه .

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٢٢٥) .

قال ابن كثير^(١): هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي، والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله. كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(٢). ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض العلماء والحكماء: ليس الشأن أن تُحِب، إنما الشأن أن تُحَب.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ﴾^(٣).

قال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ فأنتم تعرفونه، يعني الوفد من نصارى نجران، وتجدونه في كتابكم ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ على كفرهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ﴾. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى». قالوا: ومن أبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»^(٣). والله الموفق.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٣٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٢٦٩٧)، ومسلم (ح/١٧١٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري (ح/٧٢٨٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الدرس التاسع والثلاثون

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾
 ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ
 مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي
 وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي
 أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا
 نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِؤُكُمْ
 أَنَّىٰ لَئِي هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ
 دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ
 الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ
 وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي نَحْوٌ لِيَ غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي
 الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي
 آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَذَكَرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ
 بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٤١﴾ ۞

* * *

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ .

قال قتادة في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: ذكر الله أهل بيتين صالحين، ورجلين صالحين، ففضلهم على العالمين، فكان محمد من آل إبراهيم. وقال الحسن: فضلهم على العالمين بالنبوة على الناس كلهم، كانوا هم الأنبياء الأتقياء المصطفين لربهم.

وقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾، أي: من ولد بعض ﴿والله سميع عليم﴾. قال قتادة: قوله: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ يقول: في النية، والعمل، والإخلاص، والتوحيد له. وقال في جامع البيان ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾، أي: أنهم ذرية واحدة متشعبة بعضها من بعض. انتهى، ولا منافاة بين القولين.

قوله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتَهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ .

قال ابن إسحاق: تزوج زكريا وعمران أختين، فكانت أم يحيى عند زكريا وكانت أم مريم عند عمران، فهلك عمران وأم مريم حامل بمريم،

فهي جنين في بطنها. قال: وكانت فيما يزعمون قد أمسك عنها الولد حتى أسنت، وكانوا أهل بيت من الله جل ثناؤه بمكان، فبينا هي في ظل شجرة نظرت إلى طائر يطعم فرخ له، فتحركت نفسها للولد، فدعت الله أن يهب لها ولداً فحملت بمريم، وهلك عمران، فلما عرفت أن في بطنها جنيناً جعلته لله نذيرة، والنذيرة: أن تعبده الله فتجعله حسباً في الكنيسة، لا يتتفع به بشيء من أمور الدنيا. قال الشعبي في قوله: ﴿إني نذرت لك ما في بطني محرراً﴾ جعلته في الكنيسة وفرغته للعبادة. وقال الكلبي: قالت: اللهم لك عليّ إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس، فيكون من سدنته وخدمته.

وقال الربيع: كانت امرأة عمران حررت لله ما في بطنها، وكانت على رجاء أن يهب لها غلاماً، لأن المرأة لا تستطيع ذلك - يعني القيام على الكنيسة، لا تبرحها وتكنسها - لما يصيبها من الأذى. وقال السدي: ظنت أن ما في بطنها غلاماً فوهبته لله، فلما وضعت إذ هي جارية فقالت تعتذر إلى الله ﴿رب إني وضعتها أنثى وليس الذكر كالأنثى﴾ تقول: إنما يحرر الغلمان بقول الله ﴿والله أعلم بما وضعت﴾، فقالت: إني سميتها مريم. وفي الحديث عن النبي ﷺ: «كل مولود من ولد آدم له طعنة من الشيطان وبها يستهل الصبي، إلا ما كان من مريم ابنة عمران وولدها، فإن أمها قالت حين وضعتها: إني أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم، فضرب دونها حجاب فطعن في الحجاب»^(١). رواه ابن جرير وغيره.

(١) أخرجه ابن جرير (٢٣٩/٣)، وفي سنده ضعف، إلا أنه روي من طرق أخرى عن أبي هريرة - رضي الله عنه - بها يصح الحديث. والحديث أصله في البخاري (ح/٤٥٤٨)، ومسلم (ح/٢٣٦٦) بلفظ: «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسّه حين =

قوله عز وجل: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ لِمَرِيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ .

قال ابن جرير^(١): قال الله عز وجل: ﴿فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً﴾ تقبل الله من أمها ما أرادت بها الكنيسة وأجرها فيها وأنبتها، قال: نبتت في غداء الله، وقال السدي: قال الله عز وجل: ﴿فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً﴾ فانطلقت بها أمها في خرقها حين ولدتها إلى المحراب، وكان الذين يكتبون التوراة إذا جاءوا إليهم بإنسان يجربونه، اقترعوا عليه أيهم يأخذه فيعلمه، وكان زكريا أفضلهم يومئذ وكان بينهم، وكانت خالة مريم تحته، فلما أتوا بها اقترعوا عليها، وقال لهم زكريا: أنا أحقكم^(٢) بها، تحتي خالتها، فأبوا فخرجوا إلى نهر الأردن، فألقوا أقلامهم التي يكتبون بها، أيهم يقوم قلمه، فيكفلها. فجرت الأقلام، وقام قلم زكريا على قرنته كأنه في طين، فأخذ الجارية. وذلك قول الله عز وجل ﴿وكفلها زكريا﴾ فجعلها زكريا معه في بيته وهو المحراب.

وقوله تعالى: ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً﴾، قال الربيع: جعل زكريا دونها سبعة أبواب، فكان يدخل عليها فيجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء.

وقوله تعالى: ﴿قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق

= يولد، فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه، إلا مريم وابنها، ثم يقول أبو هريرة:

واقرؤوا إن شئتم: «إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم». واللفظ للبخاري.

(١) انظر «جامع البيان» (٣/٢٤١).

(٢) في (الأصل) «أحتكم»، وهو خطأ.

من يشاء بغير حساب ﴿٣٨﴾، أي: بغير إحصاء ولا عد، لأن فضله واسع وخزائنه لا تغيض.

قوله عز وجل: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ .

قال السدي: فلما رأى زكريا من حالها ذلك، يعني فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف قال: إن رباً أعطاهما هذا في غير حينه لقادر على أن يرزقني ذرية طيبة. ورغب في الولد، فقام فصلى ثم دعا ربه سرّاً فقال: ﴿رب إنني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً وإنني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيعاً﴾. وقوله: ﴿رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء﴾. وقال: ﴿رب لا تذرنني فرداً وأنت خير الوارثين﴾^(١). وقال عكرمة: فدخل المحراب وغلقت الأبواب وناجى ربه فقال: ﴿رب إنني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً﴾ إلى قوله: ﴿رب رضيعاً فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله﴾ الآية. قال قتادة: إنما سمي يحيى لأن الله أحياه بالإيمان.

وقوله تعالى: ﴿مصدقاً بكلمة من الله﴾ قال مجاهد: قالت امرأة زكريا: يا مريم إنني أجد الذي في بطني يتحرك للذي في بطنك. قال: فوضعت امرأة زكريا يحيى، ومريم عيسى، ولذا قال: ﴿مصدقاً بكلمة من الله﴾ قال: يحيى مصدقاً

(١) سورة الأنبياء: الآية ٨٩.

بعيسى . وقال الضحاك: كان يحيى أول من صدق بعيسى وشهد أنه كلمة من الله، وكان يحيى ابن خالة عيسى، وكان أكبر من عيسى .

وقوله تعالى: ﴿وسيداً﴾ قال قتادة: إي واللّه، سيد في العبادة، والحلم، والعلم، والورع .

وقوله تعالى: ﴿وحصوراً ونبياً من الصالحين﴾ قال مجاهد: الحصور الذي لا يأتي النساء — قال بعض المفسرين: وفيه دليل على أن ترك النكاح كان أفضل في تلك الشريعة — .

وقال الشيخ ابن سعدي: ﴿وسيداً﴾، أي: عظيماً عند الله وعند الخلق، لما جبله الله عليه من الأخلاق الحميدة والعلوم العظيمة والأعمال الصالحة. ﴿وحصوراً﴾، أي: ممنوعاً بعصمة الله وحفظه ووقايته، من مواقعة المعاصي، فوصفه الله بالتوفيق لجميع الخيرات والحماية من السيئات والزلات، وهذا غاية كمال العبد .

قوله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ أَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ط قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَازًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾﴾ .

قال ابن كثير^(١): فلما تحقق زكريا عليه السلام هذه البشارة، أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر، قال: ﴿رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقرة﴾ ﴿قال﴾، أي: الملك ﴿كذلك يفعل الله ما يشاء﴾، أي: هكذا أمر الله عظيم، لا يعجزه شيء ولا يتعاضمه أمر . ﴿قال رب اجعل لي آية﴾، أي: علامة

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٣٦٢).

أستدل بها على وجود الولد مني ﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا﴾،
أي: إشارة، لا تستطيع النطق مع أنك سويّ صحيح، كما في قوله: ﴿ثلاث ليال
سويّاً﴾^(١)، ثم أمر بكثرة الذكر والتكبير والتسبيح في هذه الحال، فقال تعالى:
﴿واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾، انتهى. وقال الحسن في قوله:
﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا﴾ قال: أمسك بلسانه، فجعل يومىء
بيده إلى قومه أن سبحوا بكرة وعشيّاً. والله أعلم.



(١) سورة مريم: الآية ١٠.

الدرس الأربعون

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَنُفِخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيَّنَّتْ يَدَىٰ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحْلَلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَوْيَاتِهِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبِّيكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۝

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

في الصحيحين عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نساؤها مريم بنت عمران، وخير نساؤها خديجة بنت خويلد»^(١). وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون»^(٢). رواه الترمذي وصححه. وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون. وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»^(٣). رواه البخاري وغيره.

وقوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ قال مجاهد: لما قيل لها ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ قامت حتى ورمت قدميها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، أي: كوني منهم.

قوله عز وجل: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ

(١) أخرجه البخاري (ح/٣٤٣٢)، ومسلم (ح/٢٤٣٠).

(٢) أخرجه أحمد (٣/١٣٥)، والترمذي (ح/٣٨٧٨)، وابن جرير (٣/٢٦٣)، وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه البخاري (ح/٣٤١٠)، ومسلم (ح/٢٤٣١).

يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ .

يقول تعالى: ﴿ذلك﴾ الذي ذكرت من حديث امرأة عمران وزكريا ويحيى ومريم وعيسى: ﴿من أنباء الغيب﴾، أي: من أخبار الغيب: ﴿نوحيه إليك﴾ وهذا من أعظم البراهين على نبوة محمد ﷺ، لأنه أخبره بها وهو أمي لا يكتب ولا يقرأ، كما قال تعالى: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾، أي: في كفالتها. قال قتادة: تساهموا على مريم أيهم يكفلها فقرعهم زكريا.

قوله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَايِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ .

قال ابن جرير^(٢): يعني بقوله جل ثناؤه ﴿إذ قالت الملائكة﴾ ﴿وما كنت لديهم إذ يتخصمون﴾ ﴿وما كنت لديهم﴾ أيضاً: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه﴾، يعني برسالة من الله. وعن قتادة قوله: ﴿بكلمة منه﴾ قال قوله: كُنْ، فسماه الله عز وجل كلمة، لأنه كان عن كلمته، كما يقال لما قدر الله من شيء: هذا قدر الله وقضاؤه. وقيل: إنما سمي المسيح لأنه مسح بالبركة.

قال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾، أي: هكذا كان أمره، لا ما يقولون فيه ﴿وجيهاً﴾. قال: وجيهاً في

(١) سورة هود: الآية ٤٩.

(٢) انظر: «جامع البيان» (٣/٢١٩).

الدنيا والآخرة عند الله. وقال قتادة: قوله: ﴿ومن المقربين﴾ يقول: من المقربين عند الله يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين﴾. قال ابن عباس: ﴿ويكلم الناس في المهد﴾ قال: مضجع الصبي في رضاعه. وقال مجاهد: الكهل الحليم. وقال قتادة: يكلمهم صغيراً وكبيراً. وقال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر: يخبرهم بحالاته التي يتقلب بها في عمله، كتقلب بني آدم في أعمالهم صغاراً وكباراً، إلا أن الله خصه بالكلام في مهده آية لنبوته وتعريفاً للعباد موقع قدرته. وقال ابن زيد: قد كلمهم عيسى في المهد، وسيكلمهم إذا قتل الدجال، وهو يومئذ كهل.

قوله عز وجل: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾.

قال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر: ﴿قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسنني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء﴾ يصنع ما أراد ويخلق ما يشاء من بشر أو غير بشر، أي: ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ مما يشاء وكيف يشاء، فيكون ما أراد.

قوله عز وجل: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ وَرَسُولًا إِنْ بَنَىٰ إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُنحِي الْمَوْتَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنشِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحَدٍ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ

وَأَطِيعُونَ ۖ إِنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ .

قال البغوي^(١): ﴿ويعلمه الكتاب﴾ الكتابة والخط ﴿والحكمة﴾ العلم والفقہ. قال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر: أخبر الله مريم ما يريد به فقال: ﴿ونعلمه الكتاب والحكمة والتوراة﴾ التي كانت فيهم من عهد موسى، والإنجيل كتاباً آخر أهدته إليه، لم يكن عندهم علمه إلا ذكره أنه كائن من الأنبياء قبله.

وقوله تعالى: ﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بأية من ربكم﴾، أي: ونجعله رسولاً إلى بني إسرائيل قال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر ﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بأية من ربكم﴾، أي: يحقق بها نبوتي، وإنني رسول منه إليكم.

وقوله: ﴿أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله﴾ قال ابن إسحاق: إن عيسى - صلوات الله وسلامه عليه - جلس يوماً مع غلمان من الكتاب فأخذ طيناً، ثم قال: أجعل لكم من هذا الطين طائراً، قالوا: وتستطيع ذلك؟ قال: نعم بإذن ربي. ثم هبأه حتى إذا جعله في هيئة الطائر فنفخ فيه، ثم قال: كن طائراً بإذن الله، فخرج يطير بين كفيه، فخرج الغلمان بذلك من أمره، فذكروهم لمعلمهم فأفسوه في الناس وترعرع، فهتت به بنوا إسرائيل، فلما خافت أمه عليه حملته على حمير لها ثم خرجت به هاربة.

وقوله: ﴿وأبرىء الأكمه والأبرص وأحي الموتى بإذن الله﴾ قال ابن عباس: الأكمه الذي يولد وهو أعمى.

قال ابن كثير^(٢): [قال كثير^(٣)] من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بما

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٢٣٣).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٣٦٤).

(٣) ما بين المعقوفتين إضافة من تفسير ابن كثير.

يناسب أهل زمانه، فبعث عيسى عليه السلام في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه.

وقوله: ﴿وَأَنْبِئْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قال السدي: لما كبر عيسى أسلمته أمه ليتعلم التوراة، فكان يلعب مع الغلمان، غلمان القرية التي كان فيها، فيحدث الغلمان بما يصنع أبائهم. وقال عطاء بن أبي رباح: قوله: ﴿وَأَنْبِئْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ قال: الطعام والشيء يدخرونه في بيوتهم، غيباً علّمه الله إياه. وقال قتادة: كان القوم لما سألوا المائدة، فكانت جراباً، ينزل عليه أينما كانوا ثمراً من ثمار الجنة، فأمر القوم أن لا يخونوا فيه، ولا يخبثوا، ولا يدخروا لغد، بلاء ابتلاهم الله به، فكانوا إذا فعلوا من ذلك شيئاً أنبأهم به عيسى بن مريم، فقال: ﴿وَأَنْبِئْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَأَحْلَلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ قال: ابن جريج: قال: ﴿وَأَحْلَلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ قال: لحوم الإبل والشحوم، لما بعث عيسى أحلها لهم، وبعث إلى اليهود فاختلفوا وتفرقوا.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا إِنْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، قال ابن إسحاق: عن محمد بن جعفر: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا إِنْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ تبرياً من الذين يقولون فيه، يعني ما يقول فيه النصارى، واحتجاجاً لديه عليهم: ﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، أي: هذا الذي قد حملتكم عليه وجئتكم به. والله أعلم.



الدرس الحادي والأربعون

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ
 الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا
 ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا
 وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ
 وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ
 الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا
 الَّذِينَ كَفَرُوا فَاغْزَبَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾
 وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
 الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتَلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى
 عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا
 تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ
 أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَرِيسَاءَنَا وَرِيسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ
 اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَلِيتَّ اللَّهُ
 لَهُوَ الْعَرِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَتَّاهِلَ الْكُتُبُ
 تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا
 يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا

مُسْلِمُونَ ﴿٦٥﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ
وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٦﴾ هَتَأْتُمْ هَتُؤَلَاءَ حُجَجَكُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ
عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ مَا كَانَ
إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ
أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٦﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا آزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٧﴾ .

قوله تعالى: ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر ﴾ قال مجاهد: كفروا وأرادوا قتله، فذلك حين استنصر قومه: ﴿ قال من أنصاري إلى الله قال الخواريون نحن أنصار الله ﴾. قال الضحاك: الخواريون أصفياء الأنبياء. قال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر ﴾ والعدوان ﴿ قال من أنصاري إلى الله قال الخواريون نحن أنصار الله آمنة بالله ﴾، وهذا قولهم الذي أصابوا به الفضل من ربههم ﴿ وأشهد بأنا مسلمون ﴾ لا كما يقوله هؤلاء الذين نحاجونك فيه، يعني وفد نصارى نجران.

قوله عز وجل: ﴿ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ ﴿٥٨﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٩﴾ .

قال السدي: إن بني إسرائيل حصروا عيسى وتسعة عشر رجلاً من الخواريين في بيت، فقال عيسى لأصحابه: من يأخذ صورتي فيقتل وله الجنة؟ فأخذها رجل منهم، وضعد بعيسى إلى السماء، فذلك قوله: ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾.

وقال الربيع في قوله: ﴿إني متوفيك﴾ قال يعني: وفاة المنام، ورفع الله نبي منامه. قال الحسن: قال رسول الله ﷺ لليهود: «إن عيسى لم يمّت، وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة»^(١). رواه ابن جرير. وقال الحسن في قوله: ﴿ومطهرك من الذين كفروا﴾ قال: طهره من اليهود والنصارى والمجوس، ومن كفار قومه.

وقوله تعالى: ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾. قال قتادة في قوله: ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾: هم أهل الإسلام الذين اتبعوه على فطرته وملته وسنته، فلا يزالون ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة. وقال ابن زيد في قول الله: ﴿ومطهرك من الذين كفروا﴾ قال: الذين كفروا من بني إسرائيل. ﴿وجاعل الذين اتبعوك﴾ قال: الذين آمنوا به من بني إسرائيل وغيرهم. ﴿فوق الذين كفروا﴾ النصارى فوق اليهود إلى يوم القيامة. قال: فليس بلد فيه أحد من النصارى إلا وهم فوق يهود، في شرق ولا غرب، هم في البلدان كلها مستدلون.

قوله عز وجل: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذَبْنَا عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُمِطُ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾.

قال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر: ﴿ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم﴾ القاطع الفاصل، الحق الذي لم يخلطه الباطل من الخبر عن عيسى، وعمّا اختلفوا فيه من أمره، فلا تقبلن خبراً غيره.

(١) أخرجه ابن جرير (٣/٢٨٩)، وابن أبي حاتم (٢/٢٩٠/ب). عن الحسن مرسلًا.

قوله عز وجل: ﴿إِن مَثَلٌ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِلَهُ اللَّهِ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ .

قال ابن عباس: قوله: ﴿إِن مَثَلٌ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، وذلك: «أن رهطاً من أهل نجران قدموا على محمد ﷺ، وكان فيهم السيد والعاقب فقالوا لمحمد: ما شأنك تذكر صاحبنا؟ فقال: من هو؟ قالوا: عيسى، تزعم أنه عبد الله. فقال محمد: أجل إنه عبد الله. قالوا له: فهل رأيت مثل عيسى أو أنبئت به؟ ثم خرجوا من عنده، فجاءه جبريل ﷺ بأمر ربنا السميع العليم فقال: قل لهم إذا أتوك: ﴿إِن مَثَلٌ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ إلى آخر الآية»^(١).

وقوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾. قال قتادة: يعني فلا تكن في شك من عيسى، أنه كمثل آدم عبد الله ورسوله، وكلمة الله وروحه.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ قال قتادة: «بلغنا أن نبي الله ﷺ خرج ليداعي القوم، فلما رأوه خرج هابوا وفرقوا فرجعوا». وفي حديث ابن إسحاق عن محمد بن جعفر: «فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا أن لا نلاعنك، وأن نتركك على دينك ونرجع على ديننا، ولكن

(١) أخرجه ابن جرير (٣/٣٩٥)، وابن أبي حاتم (٢/٣١/١)، بسند ضعيف.

ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء قد اختلفنا فيها من أموالنا، فإنكم عندنا رضى».

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنْ اللَّهُ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾. قال ابن زيد: إن هذا القصص الحق في عيسى، ما ينبغي لعيسى أن يتعدى هذا، ولا يجاوز أن يتعدى أن يكون كلمة الله، ألقاها إلى مريم وروحاً منه، وعبد الله ورسوله.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

قال ابن جرير^(١): يعني بذلك جل ثناؤه ﴿قل﴾ يا محمد لأهل الكتاب وهم أهل التوراة والإنجيل: ﴿تعالوا﴾ هلموا ﴿إلى كلمة﴾ يعني إلى كلمة عدل ﴿بيننا وبينكم﴾ والكلمة العدل هي أن يوحد^(٢) الله فلا يعبد غيره، وبراءاً من كل معبود سواه، فلا يشرك به شيئاً.

وقوله: ﴿ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً﴾ ولا يدين بعضنا لبعض بالطاعة فيما أمر به من معاصي الله، ويعظمه بالسجود له كما يسجد لربه. وقال ابن جرير: ﴿ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾ يقول: لا يطع بعضنا بعضاً في معصية الله. وفي حديث «أبي سفيان في قصته حين دخل على قيصر، وسأله عن النبي ﷺ قال: ثم جيء بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فأسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم

(١) انظر «جامع البيان» (٣/٣٠١ - ٣٠٢).

(٢) في تفسير ابن جرير: «أن يوحد... ونبرأ... فلا يشرك».

الأريسيين. و ﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿يَأْهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(١٥) هَتَأَنْتُمْ هَؤُلَاءَ حُجَجَتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١٧).

قال ابن عباس: «اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا عنده فقالت الأخبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً. فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون﴾؟ وبعده كانت اليهودية والنصرانية»^(٢).

وقال قتادة: قوله: ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم﴾، يقول: لما تحاجون في إبراهيم وتزعمون أنه كان يهودياً أو نصرانياً وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده؟ فكانت اليهودية بعد التوراة، وكانت النصرانية بعد الإنجيل، أفلا تعقلون؟

وقوله تعالى: ﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾. قال السدي: أما الذي لهم به علم فما حرم عليهم وما أمروا به، وأما الذي ليس لهم به علم فشان إبراهيم.

(١) أخرجه البخاري (ح/٢٩٤١)، ومسلم (ح/١٧٧٣).

(٢) أخرجه ابن جرير (٣/٣٠٥)، وفي سنده ضعف.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٨).

قال قتادة: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه﴾ على ملته وستته ومنهاجه
وفطرته ﴿وهذا النبي﴾ وهو نبي الله محمد ﷺ، ﴿والذين آمنوا﴾ معه وهم
المؤمنون الذين صدقوا نبي الله واتبعوه. كان محمد رسول الله ﷺ والذين معه من
المؤمنين أولى الناس بإبراهيم. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال
رسول الله ﷺ: ﴿إن لكل نبي ولاية من النبيين، وإن وليي منهم أبي وخليل ربي،
ثم قرأ: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي
المؤمنين﴾^(١). رواه ابن جرير وغيره. والله أعلم.



(١) أخرجه أحمد (٤٠١/١ و ٤٣٠)، والترمذي (٢٩٩٥/٤)، والبزار (٣٤٥/٥)، والشاشي
(٤٠٣/١)، وابن جرير (٣٠٨/٣)، وابن أبي حاتم (٣٤/٢)، وهو حديث
صحيح.

الدرس الثاني والأربعون

﴿ وَدَّتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٦٩) يَتَّأَهَّلُ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٥﴾
يَتَّأَهَّلُ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَطْلِ وَتَكْفُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾ وَقَالَتْ
طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهُ النَّهَارِ وَكُفِّرُوا
ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن
يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُجَازِكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن
يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٨﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ ﴿٧٩﴾ ﴿٨٠﴾ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن إِنْ تَأَمَّنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَن إِنْ
تَأَمَّنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي
الْأُمِّيَّةِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَن أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ
وَأَتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا
أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُمْ
بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ
لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي

مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ
تَدْرُسُونَ ﴿٧٦﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَالِيَةَ وَالنِّسَاءَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ
أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ يَتَّهَلَّأُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَتَّهَلَّأُ الْكِتَابَ لِمَ تَلْبَسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ .

قوله تعالى: ﴿ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلوكم﴾، أي: عن الحق حسداً وبغياً ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾، أي: إنما يعود وبال ذلك عليهم ﴿وما يشعرون﴾، ما يدرون أنه عائد عليهم، قال تعالى: ﴿ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون﴾، قال قتادة: يقول: تشهدون أن نعت محمد نبي الله ﷺ في كتابكم، ثم تكفرون به وتكفرونه، ولا تؤمنون به، وأنتم تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل؛ النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته.

وقوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾، قال ابن زيد في قول الله عز وجل: ﴿لم تلبسون الحق بالباطل﴾، قال: الحق التوراة التي أنزل الله على موسى، والباطل الذي كتبه بأيديهم، وقال قتادة: قوله: ﴿وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾، كتموا شأن محمد، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل: يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ

(١) سورة فاطر: الآية ٤٣.

الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَآكْفَرُوا آخِرُهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تَتُومِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ أَلْهَدَىٰ هُدَىٰ اللَّهُ أَنْ يُوَفَّىٰ أَحَدًا مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ .

قال قتادة في قوله: ﴿آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره﴾، فقال بعضهم لبعض: أعطوهم الرضى بدينهم أول النهار، واكفروا آخره، فإن أجدر أن يصدقوكم، ويعلموا أنكم^(١) قد رأيتم منهم ما تكروهون، وهو أجدر أن يرجعوا عن دينهم.

وقوله: ﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾، قال قتادة: هذا قول بعضهم لبعض.

وقوله تعالى: ﴿قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم﴾، قال مجاهد في قوله: ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم﴾، حسداً من يهود أن تكون النبوة في غيرهم وإرادة أن يتبعوا على دينهم.

قال ابن كثير^(٢): قوله: ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم﴾، يقولون: لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين، فيتعلمون منكم ويساوونكم فيه ويمتازون به عليكم، لشدة الإيمان به، ﴿أو يحاجوكم به عند ربكم﴾، أي^(٣): يتخذوه حجة عليكم بما في أيديكم، فتقوم به عليكم الدلالة، وتركب الحجة في الدنيا والآخرة انتهى.

(١) في (الأصل): «لكم»، وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن جرير.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم (١/٣٧٣).

(٣) في (الأصل): «أن» وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن كثير.

وذكر ابن جرير^(١) عن ابن جريج قوله: ﴿إِن الْهَدَىٰ هَدَىٰ اللَّهُ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾، يقول: هذا الأمر الذي أنتم عليه. ﴿أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يَحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾، قال: قال بعضهم لبعض: لا تخبروهم بما بين الله لكم في كتابه ليحاجوكم، قال: «ليخاصموكم»^(٢) به عند ربكم قل إن الهدى هدى الله، معترض به، وسائر الكلام متسق على سياق^(٣) واحد.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مِنْ يَشَاءِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، قال ابن جريج في قوله: ﴿قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ﴾، قال: الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، قال الربيع: يختص بالنبوة من يشاء، وقال ابن جريج: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، قال: القرآن والإسلام، ويشهد لها قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلِيفْرِحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(٤).

قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّدُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّدُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

قال مجاهد: في قوله: ﴿إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾، قال: مطالباً، وقال السدي: يعترف بأمانته ما دمت قائماً على رأسه.

وقال قتادة: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِنَ سَبِيلٌ﴾، قالت اليهود:

(١) انظر (٣/٣١٥).

(٢) في (الأصل): «ليحاجوكم»، والمثبت من تفسير ابن جرير.

(٣) في (الأصل): «ميثاق» وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن جرير.

(٤) سورة يونس: الآية ٥٨.

ليس علينا فيما أصبنا من أموال العرب سبيل، وقال ابن جريج: بايع اليهود رجال من المسلمين في الجاهلية، فلما أسلموا تفاضوهم ثمن يبيعهم فقالوا: ليس لكم علينا أمانة، ولا قضاء لكم عندنا، لأنكم تركتم دينكم الذي كنتم عليه، وادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم، فقال الله عز وجل: ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾، وعن صعصعة: قلت لابن عباس: إنا نقرأ أهل الكتاب فنصيب من ثمارهم، قال: وتقولون كما قال أهل الكتاب: ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾.

وقوله تعالى: ﴿بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين﴾، أي ليس كما قالوا، بل عليهم سبيل، ثم ابتداء فقال: ﴿من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين﴾، أي الذين ائتمروا بأوامر الله واجتنبوا محارمه.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قال عكرمة: نزلت في رؤوس اليهود، وكتبوا ما عهد الله إليهم في التوراة، في شأن محمد ﷺ وبدلوه، وكتبوا بأيديهم غيره، وحلفوا أنه من عند الله، لئلا يفوتهم المأكل والرشا التي كانت لهم من أتباعهم، وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «من اقتطع مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله وهو عليه غضبان، وقرأ: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً...﴾^(١) الآية.

قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنْ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ

(١) أخرجه البخاري (ح/٢٣٥٦ و ٢٣٥٧)، ومسلم (١/١٢٣)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

عِنْدَ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ .

قال قتادة: هم أعداء الله اليهود حرفوا كتاب الله وابتدعوا فيه، وزعموا أنه من عند الله .

قوله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُوْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكُتُبَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْكُفَّةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ .

قال ابن عباس: قال أبو رافع القرظي: «حين اجتمعت الأخبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام قالوا: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس: أو ذاك تريد منا يا محمد وإليه تدعون؟ أو كما قال: فقال رسول الله ﷺ: معاذ الله أن نعبد غير الله، أو نأمر بعبادة غيره، ما بذلك بعثني الله ولا بذلك أمرني، أو كما قال، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم: ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة... ﴾ الآية، إلى قوله: ﴿ بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ (١) .»

وقال قتادة: قوله: ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة، ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ﴾، يقول: ما كان ينبغي لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة، يأمر عباده أن يتخذوه رباً من دون الله .

وقوله تعالى: ﴿ ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾، قال الحسن في قوله: ﴿ كونوا ربانيين ﴾، قال: كونوا فقهاء علماء،

(١) أخرجه ابن جرير (٣/٣٢٥)، وفي سنده ضعف .

وقال سعيد بن جبير: حكماء أتقياء، وقال ابن زيد: الربانيون الذين يربون الناس ولاة هذا الأمر، وقال الميرد: هم أرباب العلم، سموا به لأنهم يربون العلم ويقومون به، ويربون المتعلمين بصغار العلم قبل كبارها.

قلت: والعالم الرباني هو الذي يعلم الناس أصول العلم قبل فروعه، وواضحاته قبل مشكلاته، وهذا هو معنى ما تقدم.

وقال مجاهد: الربانيون الفقهاء العلماء، وهم فوق الأحرار.

وقال ابن جرير^(١): والرباني الجامع إلى العلم والفقه، البصير بالسياسة والتدبير، والقيام بأمر الرعية وما يصلحهم في دنياهم ودينهم.

وقوله تعالى: ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾، قال ابن جريج: ولا يأمركم النبي ﷺ أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً.

قال ابن كثير^(٢): ﴿أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾، أي: لا يفعل ذلك إلا من دعا إلى عبادة غير الله، ومن دعا إلى عبادة غير الله، فقد دعا إلى الكفر، والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وبالله التوفيق.



(١) انظر «جامع البيان» (٣/٣٢٧).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٧٧).

الدرس الثالث والأربعون

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَجْعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَيَّ لِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا لَا يَخْفَىٰ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا لَنْ يُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ مِنَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ أَفْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٩١﴾ .

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ .

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾. قال ابن جرير^(١): تأويل الآية. واذكروا يا معشر أهل الكتاب ﴿إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ﴾ أيها النبيون ﴿مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ من عندي ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ﴾ يقول: لتصدقنه ولتنصرنه. وقال قتادة: ﴿أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ أن يصدق بعضهم بعضاً. وقال علي بن أبي طالب: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ الله عليه الميثاق، لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته، لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾. قال ابن عباس: ﴿إِصْرِي﴾ عهدي. وقال ابن إسحاق: أي ثقل ما حملتم من عهدي، أي ميثاقي الشديد المؤكد، وقال علي بن أبي طالب في قوله: ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا﴾ يقول: فاشهدوا على أممكم بذلك ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ عليكم وعليهم.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. قال علي بن

(١) انظر «جامع البيان» (٣/ ٣٣٠ و ٣٣٢).

أبي طالب: ﴿فمن تولى﴾ عنك يا محمد بعد هذا العهد من جميع الأمم ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ العاصون في الكفر.

قوله عز وجل: ﴿أَفَعَيِّرَ دِينَ اللَّهِ يَجْحُوتَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

قال أبو العالية في قوله: ﴿وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً﴾. قال: كل آدمي قد أقر على نفسه بأن الله ربي وأنا عبده، ممن أشرك في عبادته، فهذا الذي أسلم كرهاً، ومن أخلص من العبودية فهو الذي أسلم طوعاً. وقال مجاهد: سجد المؤمن طائعاً، وسجد ظل الكافر وهو كاره.

وقال ابن كثير^(١): فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرهاً، فإنه تحت التسخير، والقهر، والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع. وقوله تعالى: ﴿قل آما بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل﴾ الآية.

قال ابن كثير^(٢) في قوله: ﴿قل آما بالله وما أنزل علينا﴾، يعني القرآن ﴿وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب﴾، أي من الصحف والوحي ﴿والأسباط﴾ وهم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل - وهو يعقوب - الاثني عشر. ﴿وما أوتي موسى وعيسى﴾، يعني بذلك التوراة والإنجيل.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٣٧٨).

(٢) المصدر السابق (١/٣٧٩).

﴿والنبيون من ربهم﴾ وهذا يعم جميع الأنبياء جملة. ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾، يعني بل نؤمن بجميعهم. ﴿ونحن له مسلمون﴾، فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أرسل، وبكل كتاب أنزل، لا يكفرون بشيء من ذلك، بل هم يصدقون بما أنزل من عند الله، وبكل نبي بعثه الله.

وقوله تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾.

قال ابن جرير^(١): يعني بذلك جل ثناؤه: ومن يطلب ديناً غير دين الإسلام ليدين به، فلن يقبل الله منه، وهو في الآخرة من الخاسرين.

وروى الإمام أحمد عن الحسن قال: حدثنا أبو هريرة إذ ذاك ونحن بالمدينة قال: قال رسول الله ﷺ: «تجيء الأعمال يوم القيامة فتجيء الصلاة فتقول: يا رب أنا الصلاة، فيقول: إنك على خير. وتجيء الصدقة فتقول: يا رب أنا الصدقة، فيقول: إنك على خير. ثم يجيء الصيام فيقول: يا رب أنا الصيام، فيقول: إنك على خير. ثم تجيء الأعمال، كل ذلك يقول الله: إنك على خير. ثم يجيء الإسلام فيقول: يا رب أنت السلام وأنا الإسلام، فيقول الله تعالى: إنك على خير، بك اليوم آخذ وبك أعطي». قال الله في كتابه: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾^(٢).

قوله عز وجل: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا

(١) انظر: «جامع البيان» (٣/٣٣٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢/٣٦٢)، والطبراني في الأوسط كما في «مجمع البحرين» (٨/٩٨ -

٩٩)، وفي سنده انقطاع.

يُخَفِّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا
فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ .

قال قتادة: كان الحسن يقول في قوله: ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم﴾ الآية: هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، رأوا نعت محمد ﷺ في كتابهم، وأقروا به، وشهدوا أنه حق، فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب على ذلك فأنكروه، وكفروا بعد إقرارهم، حسداً للعرب حين بعث من غيرهم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ . قال مجاهد: جاء الحارث بن سويد، فأسلم مع النبي ﷺ، ثم كفر الحارث فرجع إلى قومه، فأنزله الله عز وجل في القرآن ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم﴾ إلى ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال: فحملها إليه رجل من قومه فقرأها عليه، فقال الحارث: إنك والله ما علمت^(١) لصدوق، وإن رسول الله ﷺ لأصدق منك، وإن الله عز وجل لأصدق الثلاثة. قال: فرجع الحارث فأسلم فحسن إسلامه.

وقال عكرمة: نزلت في أبي عامر الراهب والحارث بن سويد ووحوح بن الأسلت، وفي اثني عشر رجلاً رجعوا عن الإسلام، ولحقوا بقريش، ثم كتبوا إلى أهلهم: هل لنا من توبة؟ فنزلت ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الآيات. واختار ابن جرير^(٢): جواز نزولها في الفريقين، وعمومها في كل مرتد.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ نُقَبِّلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ

(١) في (الأصل): «ما علمت»، وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن جرير.

(٢) انظر «جامع البيان» (٣/٣٤٢).

يُقْبَلُ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ ۗ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
وَمَا لَهُمْ مِنْ تَصْرِيحٍ ﴿٩١﴾ .

قال قتادة: قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ هم أعداء الله اليهود كفروا بالإنجيل ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ حين بعث محمد ﷺ، فأنكروا وكذبوا به. وقال أبو العالية في قوله: ﴿لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ﴾. قال: تابوا من بعض، ولم يتوبوا من الأصل.

وقال ابن جرير^(١): حدثنا ابن المنثى قال: حدثنا عبد الأعلى قال: حدثنا داود قال: سألت أبا العالية عن هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾. قال: هم اليهود والنصارى والمجوس، أصابوا ذنوباً في كفرهم، فأرادوا أن يتوبوا منها، ولن يتوبوا من الكفر، لأنه يقول: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفْرًا فَلَنْ يَقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ ۗ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾. روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: رأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول الله: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا الشرك»^(٢) والله أعلم.



(١) انظر: «جامع البيان» (٣/٣٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٣٣٣٤)، ومسلم (ح/٢٨٠٥).

الدرس الرابع والأربعون

﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ نُفِيقُوا وَمَا نُفِيقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهٖ
 عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّيَنِّي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَىٰ
 نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنزَلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
 الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنْ
 أَوْلَّيْتُمْ أُوسَ بْنَ زَيْنَةَ أَفِيلًا لَجِئْتُمْ بِإِسْلَامِكُمْ كَيْفَ تَكْفُرُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
 آمَنُوا إِنِّي جِئْتُ بِلَايَةٍ كَثِيرَةٍ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ وَمِنْكُمْ لَشِقَّةٌ يُؤْخَذُ بِهَا مَصَصَةٌ
 وَنَارٌ تَلْهَىٰ وَالَّذِينَ يَلْمِزُونَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ مِن دُونِهِ لَعْنَةُ اللَّهِ الْكَافِرِينَ ﴿٩٦﴾
 وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيْرٌ غَبِيْرٌ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
 وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُصَدِّقُونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ مِن
 ءَامَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾
 وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رُسُلُهُ وَمَنْ يَعْصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ
 هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا
 وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ
 عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا
 حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٩﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١١١﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٢﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١١٣﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١١٤﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ .

قال عمرو بن ميمون: البرُّ الجنة. وقال قتادة: يقول ﴿لَنْ نَنَالُوا﴾ برّ ربكم ﴿حتى تنفقوا﴾ مما يعجبكم ومما تهوون من أموالكم. ﴿وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم﴾ يقول: محفوظ لكم ذلك. وعن أنس بن مالك قال: «لما نزلت هذه الآية ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله إن الله يسألنا من أموالنا، أشهد أنني قد جعلت أرضي ببيرحا لله. فقال رسول الله ﷺ: اجعلها في قرابتك. فجعلها بين حسان بن ثابت وأبي بن كعب»^(١). رواه ابن جرير وغيره. وفي رواية الصحيحين: إن الله يقول: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إليّ ببيرحا، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله تعالى»^(٢). الحديث.

قوله عز وجل: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنزَلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَأَتَوْهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ فَمَنْ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥﴾﴾ .

قال البغوي^(٣): قوله تعالى: ﴿كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم

(١) أخرجه مسلم (٢/٦٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (ح/١٤٦١ و ٥٦١١)، ومسلم (ح/٩٩٨).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (١/٢٥٤).

إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ﴿ سبب نزول هذه الآية «أن اليهود قالوا لرسول الله ﷺ: إنك تزعم أنك على ملة إبراهيم، وكان إبراهيم لا يأكل لحوم الإبل وألبانها، وأنت تأكلها فلست على ملته. فقال رسول الله ﷺ: كان ذلك حلالاً لإبراهيم عليه السلام. فقالوا: كل ما نحرمه اليوم كان ذلك حراماً على نوح وإبراهيم حتى أنتهى إلينا». فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل﴾ يريد سوى الميتة والدم، فإنه لم يكن حلالاً قط. ﴿إلا ما حرم إسرائيل على نفسه﴾ وهو يعقوب عليه السلام. ﴿من قبل أن تنزل التوراة﴾ يعني ليس الأمر على ما قالوا من حرمة لحوم الإبل وألبانها على إبراهيم، بل كان الكل حلالاً له ولبني إسرائيل، وإنما حرمها إسرائيل على نفسه قبل نزول التوراة، يعني ليست في التوراة حرمتها) انتهى.

وقال ابن عباس في: ﴿إلا ما حرم إسرائيل على نفسه﴾ قال: حرم العروق ولحوم الإبل. قال: كان به عرق النساء فأكل من لحومها فبات بليلة يزفوا - يعني: يصيح - فحلف أن لا يأكله أبداً.

قوله تعالى: ﴿فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون﴾ نزلت في اليهود، وهي عامة في كل من كذب على الله. وقوله تعالى: ﴿قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾، أي: اتبعوا ملة إبراهيم التي شرعها الله في القرآن على لسان محمد ﷺ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ عَنِي عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

قال الحسن في قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ قال: هو أول مسجد عبد الله فيه في الأرض. وقال قتادة: هو أول بيت وضعه الله عز وجل فطاف به آدم ومن بعده. وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله، أي: مسجد وضع أول؟ قال: المسجد الحرام. قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى. قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة. قلت: ثم أي؟ قال: ثم حيث أدركتك الصلاة فصلّ، فكلها مسجد»^(١). متفق عليه.

قال ابن حجر في شرح البخاري^(٢): (وهذا الحديث يفسر المراد بقوله تعالى: ﴿أَنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ ويدل على أن المراد بالبيت بيت العبادة لا مطلق البيوت، وقد ورد ذلك صريحاً عن عليّ، أخرجه إسحاق بن راهويه وابن أبي حاتم وغيرهما بإسناد صحيح عنه قال: كانت البيوت قبله، ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله.

إلى أن قال: ويؤيد قول^(٣) من قال: إن آدم هو الذي أسس كلاً من المسجدين ما ذكر ابن هشام في كتاب «التيجان»: أن آدم لما بنى الكعبة أمره الله بالسير إلى بيت المقدس وأن يبنيه فبناه، ونسك فيه، وبناء آدم للبيت مشهور، وقد تقدم قريباً حديث عبد الله بن عمرو: أن البيت رفع زمن الطوفان حتى بوأه الله لإبراهيم) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿بِكَّةَ﴾، أي: مكة قيل: سميت مكة لقلعة مائتها، وبكة: لازدحام الناس فيها. قال قتادة: بكة: بك الناس بعضهم بعضاً، الرجال والنساء يصلون بعضهم بين يدي بعض، لا يصلح ذلك إلا بمكة.

(١) أخرجه البخاري (ح/٣٤٢٥)، ومسلم (ح/٥٢٠).

(٢) انظر (٦/٤٧٠ و ٤٧١ ح/٣٣٦٦).

(٣) في (الأصل): «قوله» والمثبت من «الفتح».

وقوله تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامَ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾، كما قال تعالى: ﴿أَو لَمْ يَرَوْا أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾^(١) وقال قتادة: قوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ وهذا كان في الجاهلية، كان الرجل لو جرّ كل جريرة على نفسه ثم لجأ إلى حرم الله لم يتناول ولم يطلب، فأما في الإسلام: فإنه لا يمنع من حدود الله، من سرق فيه قطع، ومن زنى فيه أقيم عليه الحد، ومن قتل فيه قتل. وقال مجاهد في الرجل يقتل ثم يدخل الحرم قال: يؤخذ فيخرج من الحرم، ثم يقام عليه الحد.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَاجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتِطَاعٍ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾. قال ابن عباس: والسبيل أن يصح بدن العبد، ويكون له ثمن: زاد وراحلة من غير أن يجحف به. وقال ابن الزبير في قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَاجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتِطَاعٍ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قال: على قدرة القوة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، أي: من جحد وجوب الحج فقد كفر. قال ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ من زعم أنه ليس بفرض عليه.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مِن مَّا أَمَّنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

قال قتادة: قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يقول^(٢): لم تصدّون عن الإسلام وعن نبي الله من آمن بالله؟ وأنتم شهداء فيما تقرأون من

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦٧.

(٢) في (الأصل): «يقولون»، والمثبت من تفسير ابن جرير.

كتاب الله أن محمداً رسول الله، وأن الإسلام دين الله الذي لا يقبل غيره، ولا يجزي إلا به، يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل؟

قوله عز وجل: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدِ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ .

قال مجاهد: كان جماع قبائل الأنصار بطنين: الأوس، والخزرج، وكان بينهما في الجاهلية حرب ودماء وشتان، حتى من الله عليهم بالإسلام وبالنبي ﷺ، فأطفأ الله الحرب التي كانت بينهم، وألّف بينهم بالإسلام. قال: فبينما^(١) رجل من الأوس ورجل من الخزرج قاعدان يتحدثان، ومعهما يهودي جالس، ولم يزل يذكرهما أيامهما والعداوة التي كانت بينهم، حتى استبا، ثم اقتتلا، قال: فنادى هذا قومه وهذا قومه، فخرجوا بالسلاح، وصف بعضهم لبعض. قال: رسول الله ﷺ شاهد يومئذ بالمدينة، فجاء رسول الله ﷺ فلم يزل يمشي بينهم إلى هؤلاء وإلى هؤلاء، ليسكنهم^(٢) حتى رجعوا ووضعوا السلاح، فأنزل الله عز وجل القرآن في ذلك ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب﴾ إلى قوله: ﴿عذاب عظيم﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿كيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾ . قال قتادة: علما ببيتان وُجِدَانُ نبي الله ﷺ، وكتاب الله، فأما نبي الله فمضى ﷺ، وأما كتاب الله فأبقاه الله بين أظهركم، رحمة من الله ونعمه، فيه حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته .

(١) في (الأصل): «فينا»، وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن جرير .

(٢) في (الأصل): «فسكنهم»، والمثبت من تفسير ابن جرير، وابن أبي حاتم والدر المنثور .

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٥/٤) عن مجاهد مرسلأ .

وقوله تعالى: ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾، أي: واضح وسيمنه من كل سوء.

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ .

قال ابن مسعود: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر. ﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾. قال طاوس: على الإسلام وعلى حرمة الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ قال ابن مسعود في قوله: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً﴾ قال: الجماعة. وقال قتادة: حبل الله المتين، أمر أن يعتصم به، هذا القرآن. وقال أبو العالية: يقول: اعتصموا بالإخلاص لله وحده. وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بني إسرائيل افرقت على إحدى وسبعين فرقة، وإن أمتي ستفرق على اثنين وسبعين فرقة، كلهم في النار إلا واحدة. قال: فقيل: يا رسول الله وما هذه الواحدة؟ قال: فقبض يده وقال: الجماعة، ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾»^(١). رواه ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾. قال السدي: أما إذ كنتم أعداء ففي حرب، فألف بين قلوبكم بالإسلام. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «لا تحاسدوا ولا

(١) أخرجه أحمد (٣/١٤٥)، وابن ماجه (ح/٣٩٩٣)، وابن أبي عاصم (ح/٦٤)، وله

شواهد، وهو حديث صحيح.

تناجشوا ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخواناً^(١). قال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً قال لابن مسعود: كيف أصبحتم؟ قال: أصبحنا بنعمة الله إخواناً.

وقوله تعالى: ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾ قال قتادة: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً، وأشقاء^(٢) عيشاً، وأبينه ضلالة، وأعراه جلوداً، وأجوعه بطوناً، معكومين على رأس حجر بين الأسدين: فارس والروم، لا والله ما في بلادهم يومئذ من شيء يحسدون عليه، من عاش منهم عاش شقيماً، ومن مات يردى في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله لا نعلم قبيلاً يومئذ من حاضر الأرض، كانوا فيه أصغر حظاً، وأدق فيها شأناً منهم، حتى جاء الله عز وجل بالإسلام، فورثكم به الكتاب، وأحل لكم به دار الجهاد، ووضع لكم به من الرزق، وجعلكم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشاكرين، وإن أهل الشكر في مزيد الله، فتعالى ربنا وتبارك.

قال البغوي^(٣): ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار﴾، أي: على طرف حفرة مثل شفا البئر، معناه: وكنتم على طرف حفرة من النار، ليس بينكم وبين الوقوع فيها إلا [أن]^(٤) تموتوا على كفركم، فأنقذكم الله منها بالإيمان.

قوله عز وجل: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٩﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ

(١) أخرجه البخاري (ح/٦٠٦٦)، ومسلم (٤/١٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في (الأصل): «وأشقاها»، والمثبت من تفسير ابن جرير.

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (١/٢٦٣).

(٤) ما بين المعقوفتين إضافة من تفسير البغوي.

وَسَوْدٌ وَجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَبِهِمْ رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٥﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٧﴾ .

قوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير﴾، أي: الإسلام. ﴿ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾، أي: يأمرون بطاعة الله وينهون عن المعاصي ﴿وأولئك هم المفلحون﴾. وقال أبو جعفر الباقر: «قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير﴾، ثم قال: الخير اتباع القرآن وستي». رواه ابن مردويه^(١). وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾. قال ابن عباس: أمر الله جل ثناؤه المؤمنين بالجماعة، فنهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله.

وقوله تعالى: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ قال ابن عباس: «تبيض وجوه أهل السنة، وتسود وجوه أهل البدعة»^(٣) ﴿فأما الذين اسودت وجوههم

(١) كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (١/٣٩٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/١١٢).
 (٢) أخرجه مسلم (ح/٤٩)، ووهب ابن كثير - رحمه الله - وتبعه على ذلك المصنف - رحمه الله - فجعل الحديث من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - وليس كذلك، إنما هو من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - فليتنبه.
 (٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/٥٤/ب)، والخطيب (٧/٣٧٩)، واللالكائي (١/٧٢)، والسهمي في «تاريخ جرجان» (ص ١٣٢ - ١٣٣) بسند موضوع.

أكفرتم بعد إيمانكم ﴿ قال الحسن: هم المنافقون. ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾.

قال ابن كثير^(١): وهذا الوصف يعم كل كافر. ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾ يعني: الجنة. ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾ بل هو الحاكم العدل الذي لا يجور. ﴿والله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور﴾ فيجزى كلأ بعمله. والله أعلم.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٣٩٠).

الدرس الخامس والأربعون

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أذىً وَإِنْ يُقْتَلُوا يَمُوتُوا يَوْمَئِذٍ أَمْ أَلْهَىٰ أَفْئِدَتَهُمُ الْإِلَٰهَ لِيُفْتِنَهُمْ أَلَّا يَفْقَهُوا إِلَّا بَحْثِ اللَّهِ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبَاءَ وَبِعَصْبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١١﴾ ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ﴾ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَاتَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٢﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٣﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٥﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٦﴾ يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأُولُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٧﴾ هَٰئِئْتُمْ أُؤْلَاءُ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ

وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ أَلَا نُمِيزُ مِنَ
الْفَيْضِ قُلُوبَ الْمُؤْتَوِّينَ بَعِيْطِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً نَّسَوْهُمْ
وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَّفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا
إِنَّ اللَّهَ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُخِيطٌ ﴿١٢٠﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلَ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أذىً وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَذْيَارُ ثُمَّ لَا يَضُرُّوكُمْ ﴿١١١﴾﴾ .

قال مجاهد: في قوله: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ يقول: على هذا الشرط: أن تأمروا بالمعروف، وتنهوا عن المنكر، وتؤمنوا بالله.
وقوله تعالى: ﴿ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ قال قتادة: ذم الله أكثر الناس.

وقوله تعالى: ﴿لن يضرركم إلا أذى وإن يقاتلكم يولوكم الأديار ثم لا يضررون﴾، قال قتادة قوله: ﴿لن يضرركم إلا أذى﴾ قال: أذى تسمعونه منهم.

قوله عز وجل: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ أَيْنَ مَا ثَقُفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ .

قال الحسن: في قوله: ﴿ضربت عليهم الذليلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وضربت عليهم المسكنة﴾ قال: أدركتهم هذه الأمة، وأن المجوس لتجبيهم الجزية.

وقوله: ﴿إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾ قال قتادة: إلا بعهد من الله وعهد من الناس.

قال ابن كثير^(١): ﴿ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾، أي: ألزمهم الله الذلة والصغار أينما كانوا فلا يأمنون^(٢) ﴿إلا بحبل من الله﴾، أي: بذمة من الله وهو عقد الذمة لهم، وضرب الجزية عليهم وإلزامهم أحكام الملة ﴿وحبل من الناس﴾، أي: أمان منهم لهم كما في المهادن والمعاهد والأسير إذا أمنه واحد من المسلمين، ولو امرأة.

وقوله تعالى: ﴿وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق﴾، أي: إنما حملهم على ذلك الكبر والبغي والحسد، فعوقبوا بالذلة والصغار والمسكنة ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ قال قتادة: اجتنبوا المعصية والعدوان، فإن بهما أهلك من أهلك من قبلكم من الناس.

قوله عز وجل: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ فَإِذَا دُعا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَيُّ فِئَةٍ نُّقَاتِلُ يَوْمَئِذٍ جَاهِلُونَ﴾، ﴿يَوْمَئِذٍ نُّؤْتِي السُّلْطَانَ مَن نَّشَاءُ وَاللَّهُ بِمَا نَعْمَلُ خَبِيرٌ﴾، ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾.

قال ابن عباس: لما أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعية^(٣)، وأسد^(٤) بن عبيد، وأسيد بن سعية^(٥)، ومن أسلم من يهود معهم فآمنوا وصدقوا، ورجبوا في

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٣٩٦).

(٢) في (الأصل): «فلا يؤمنون»، وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن كثير.

(٣) في (الأصل): «ثعلبة بن سعيد»، وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن جرير وكتب التراجم.

(٤) في (الأصل): «وأسيد»، وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن جرير، وكتب التراجم.

(٥) في (الأصل): «بن سعيد»، وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن جرير، وكتب التراجم،

ووقع في تفسير ابن كثير، «ابن شعبة»، وهو خطأ، فليصحح.

الإسلام، ومنحوا فيه، قالت أحبار يهود، أهل الكفر منهم: ما آمن بمحمد ولا تبعه إلا شرارنا، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غير، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم: ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله﴾ إلى قوله: ﴿وأولئك من الصالحين﴾ وقال قتادة: قوله: ﴿أمة قائمة﴾ يقول: قائمة على كتاب الله وفرائضه وحدوده.

وقوله تعالى: ﴿يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾، أي: يصلون. قال قتادة: يتلون آيات الله آناء الليل، أي: ساعات الليل: ﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليهم بالمتقين﴾ قال ابن كثير^(١): ﴿وما يفعلوا من خير فلن يكفروه﴾، أي: لا يضيع عند الله بل يجزيهم به أوفر الجزاء ﴿والله عليهم بالمتقين﴾، أي: لا يخفى عليه عمل عامل، ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملاً.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾ مثل ما ينفقون في هذه الحيوة الدنيا كمثل ربيع فيها صرر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴿١١٧﴾﴾.

قال البغوي^(٢): ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً﴾، أي: لا تنفع أموالهم بالفدية، ولا أولادهم بالنصرة من الله شيئاً، أي: من عذاب الله.

وقال مجاهد في قوله عز وجل: ﴿مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا﴾

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٣٩٧).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (١/٢٦٩).

قال: نفقة الكافر في الدنيا وصدقاته، كمثل ربح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته. قال ابن عباس: ربح فيها صرير شديد وزمهير.

قال ابن كثير^(١): فكذلك الكفار يمحق الله ثواب أعمالهم في هذه الدنيا كما يذهب ثمرة هذا الحرث بذنوب صاحبه.

وقوله تعالى: ﴿وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون﴾، أي: بالكفر والمعصية.

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ مُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ إِلَّا نَائِلٌ مِّنَ الْفِتَنِ فَلَمْ يَأْتُوا بِغَيْرِهَا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً سَوْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾.

قال ابن عباس: كان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من اليهود، لما كان بينهم من الجوار والحلف في الجاهلية، فأنزل الله عز وجل فيهم، فنهاهم عن مبايحتهم تخوف الفتنة عليهم منهم: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم﴾ إلى قوله: ﴿وتؤمنون بالكتاب كله﴾^(٢)، وقال قتادة: نهى الله عز وجل المؤمنين أن يستدخلوا المنافقين أو يؤاخوهم، أي: يتولواهم من دون المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم﴾.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٣٩٨).

(٢) أخرجه ابن جرير (٤/٦١)، وفي سنده ضعف.

قال البغوي^(١): ﴿لا يألونكم خبالاً﴾، أي: لا يقصرون ولا يتركون جهدهم فيما يورثكم الشر والفساد، والخبال: الشر ﴿ودوا ما عنتم﴾، أي: يودون ما يشق عليكم من الضر والشر والهلاك، والعنت: المشقة.

وقوله تعالى: ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر﴾ قال الربيع: يقول: ما تكن صدورهم أكبر مما قد أبدوا بألسنتهم: ﴿قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون هأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله﴾ قال ابن عباس: أي بكتابكم وكتابهم مما مضى من الكتب قبل ذلك، وهم يكفرون بكتابكم، فأنتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم.

وقوله تعالى: ﴿وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور﴾ قال قتادة: إذا لقوا المؤمنين قالوا آمنا. ليس بهم إلا مخافة على دمانهم وأموالهم، فصانعوهم بذلك. ﴿وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾ يقول: مما يجدون في قلوبهم من الغيظ والكراهة لما هم عليه لو يجدون ريحاً لكانوا على المؤمنين.

قال البغوي^(٢): ﴿قل موتوا بغيظكم﴾، أي: أبقوا إلى الممات بغيظكم. ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾، أي: بما في القلوب من خير وشر.

وقوله تعالى: ﴿إن تمسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط﴾ يرشد سبحانه إلى الصبر والتقوى، والتوكل عليه. فلا حول ولا قوة إلا بالله، فمن صبر نصره، ومن توكل عليه كفاه. ودفع عنه كيد عدوه وأذاه. والله المستعان.



(١) انظر «معالم التنزيل»، (١/٢٦٩).

(٢) المصدر السابق (١/٢٧٠).

الدرس السادس والأربعون

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٦﴾ إِذْ هَمَّتْ طَلِيفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٧﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٨﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُعِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ ﴿١٢٩﴾ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٣٠﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِنُظْمِينَ قُلُوبِكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٣١﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٣٢﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٣٣﴾ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٣٤﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٥﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴿١٣٧﴾ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالنَّيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَنْ يَسْرِ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ

يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٦﴾ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ .

قال قتادة: تبوىء تهىء وتنزل. غدا نبي الله ﷺ من أهله إلى أحد ييوىء المؤمنين مقاعد للقتال، قال مجاهد: يمشي على رجليه، فجعل يصف (١) أصحابه للقتال.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. قال قتادة: وذلك يوم أحد، والطائفتان: بنو سلمة، وبنو حارثة، حارثة، حيان من الأنصار هموا بأمر فعصمهم الله من ذلك. وقد ذكر لنا أنه لما نزلت هذه الآية قالوا: لم يسرنا إنا لم نهم بالذي هممنا به، وقد أخبرنا الله أنه ولينا. وقال السدي: خرج رسول الله ﷺ إلى أحد في ألف رجل، وقد وعدهم الفتح إن صبروا، فلما رجع عبد الله بن أبي بن سلول في ثلاثمائة، فتبعهم أبو جابر السلمي يدعوهم، فلما غلبوه وقالوا له: ما نعلم قتالاً، ولئن أطعنا لترجعن معنا، وقال: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ وهم بنو سلمة وبنو حارثة هموا بالرجوع حين رجع عبد الله بن أبي فعصمهم الله، وبقي رسول الله ﷺ في سبعمائة. قال ابن عباس: الفشل الجبن.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ

(١) في (الأصل): «يحف»، وهو خطأ، والمثبت من تفسير البغوي.

الْمَلَائِكَةَ مُزْلِينَ ﴿١٢٣﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنُظْمِينَ قُلُوبِكُمْ بِهِ وَمَا لَتَصِرُوا إِلَّا مِّن عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٥﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٦﴾ .

قال ابن إسحاق: ﴿ولقد نصركم الله بيدر وأنتم أذلة﴾، يقول: وأنتم أقل عدداً وأضعف قوة، فاتقوا الله لعلكم تشكرون، أي فاتقون؛ فإنه شكر نعمتي. قال قتادة: وبدر ماء بين مكة والمدينة التقى عليه نبي الله ﷺ والمشركون، وكان أول قتال قاتله نبي الله ﷺ والمشركون. وذكر لنا أنه قال لأصحابه يومئذ: «أنتم اليوم بعدة أصحاب طالوت يوم لقي^(١) جالوت. فكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، والمشركون يومئذ ألف أو راهقوا ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾، عن ابن عباس قال: حدثني رجل من بني غفار قال: أقبلت أنا وابن عم لي حتى أصعدنا في جبل يشرف على بدر، ونحن مشرکان ننتظر الواقعة على من تكون الدائرة، فنتهب مع من ينتهب. قال: فبينما نحن في الجبل إذ دنت منا سحابة فسمعنا فيها حمحمة الخيل، فسمعت قائلاً يقول: أقدم حيزوم. قال: فأنا ابن عمي فانكشف قناع قلبه فمات مكانه، وأما أنا فكادت أهلك، ثم تماسكت. قال ابن عباس: لم تقاتل الملائكة في يوم من الأيام سوى يوم بدر، وكانوا يأتون فيما سواه من الأيام عدداً ومدداً لا يضربون.

وقوله تعالى: ﴿ويأتوكم﴾، أي: المشركون. وقال قتادة: ﴿من فورهم هذا﴾، يقول: من وجههم هذا. قال: كان يوم بدر أمدهم الله تعالى بألف من

(١) في (الأصل): «يوم كفى»، والمثبت من تفسير ابن جرير، والدرر المشهور.

الملائكة، كما قال: ﴿فاستجاب لكم ربكم أني ممدكم بألف من الملائكة﴾، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف، وقال الضحاك: كان هذا موعداً من الله يوم أحد عرضه على نبيه محمد ﷺ أن المؤمنين إن اتقوا وصبروا أمدهم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين، ففر المسلمون يوم أحد وولوا مدبرين، فلم يمدهم الله. وقال عكرمة في قوله: ﴿ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة﴾. قال: فورهم ذلك كان يوم أحد، غضبوا ليوم بدر مما لقوا — يعني الكفار —. وقال الضحاك في قوله: ﴿ويأتوكم من فورهم هذا﴾، يقول: من وجههم وغضبهم.

وقوله تعالى: ﴿بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾، أي: معلمين. قال قتادة: كان سيما خيلهم صوفاً في نواصيها. قال الربيع: كانوا يومئذ على خيل بلق. وقال ابن عباس: كان سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض قد أرسلوها في ظهورهم، ويوم حنين عمائم حمر. ولم تضرب الملائكة في يوم سوى يوم بدر.

وقوله تعالى: ﴿وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾، أي: ولما أنزل الله الملائكة ولعلمكم بذلك إلا بشارة لكم، وما النصر إلا من عند الله. قال ابن إسحاق: ﴿وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به﴾، لما عرف من ضعفكم، وما النصر إلا من عندي بسلطاني وقدرتي، وذلك أني أعرف الحكمة لا إلى أحد من خلقي. قال ابن زيد: وما النصر إلا من عند الله، لو شاء الله أن ينصركم بغير الملائكة فعل. ﴿العزيز الحكيم﴾، أي: العزيز الذي لا يغالب. الحكيم في أقواله وأفعاله.

وقوله تعالى: ﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم فينقلبوا خائبين﴾. قال الحسن: هذا يوم بدر قطع الله طائفة منهم، وبقيت طائفة. وقال ابن إسحاق: ﴿أو يكتبهم فينقلبوا خائبين﴾، أو يردهم خائبين، أو يرجع من بقي منهم خائبين لم ينالوا شيئاً مما كانوا يأملون.

قوله عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٢٨) وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ .

عن أنس قال: «قاتل النبي ﷺ يوم أحد، وكسرت رباعيته، وشج، فجعل يمسح عن وجهه الدم ويقول: كيف يصلح قوم خضبوا نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم؟! فزلت ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾^(١)، رواه ابن جرير وغيره. قال ابن إسحاق: أي ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم، أتوب عليهم برحمتي؛ فإن شئت فعلت، أو أعذبهم بذنوبهم فإنهم ظالمون، أي قد استحقوا ذلك بمعصيتهم إياي. وعن ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ كان يدعو على أربعة نفر، فأنزل الله عز وجل ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾. قال: وهداهم الله للإسلام»^(٢). رواه ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. قال ابن إسحاق: أي يغفر الذنوب، ويرحم العباد على ما فيهم.

قوله عز وجل: ﴿يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ لَا تُكَلِّمُوا الْوَهَّابَ أَوْ ضَعُفًا مُّضْعَفَةً وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٣٢) وَأَتَقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ .

(١) أحمد (٢٥٣/٣)، ومسلم (١٧٩١/٤)، والترمذي (ح/٣٠٠٢ و ٣٠٠٣)، والنسائي في الكبرى (٣١٤/٦)، والطبراني (٤/٨٦ و ٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٠٦٩) وغيره.

قال عطاء: كانت ثقيف تداين في بني المغيرة في الجاهلية، فإذا حلَّ الأجل قالوا: نزيدكم وتؤخرون. فنزلت ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾. وقال ابن زيد في قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ كان أبي يقول: إنما كان الربا في الجاهلية في التضعيف، وفي السنن^(١)، يكون للرجل فضل دين فيأتيه إذا حلَّ الأجل، فيقول له: تقضييني وتزيدني. فإن كان عنده شيء يقضيه قضي، وإلاَّ حوله إلى السنن التي فوق ذلك.

قوله عز وجل: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٣) الَّذِينَ يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ وَالْمَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ أَن يَأْتِيَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ فَسَبَّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ فِي سَبْعِ السَّمَاوَاتِ الْأُولَىٰ كُلٌّ مِّنْ حِزْبٍ مَّا بَدَّ إِلَهُكُمْ شَيْئًا فَذَرُوهُنَّ أَوْ يَحْبِسُوا أَرْجُلَهُنَّ فِي الصُّبُحِ وَالْعَصِيِّ أَوْ يَفْجُرْنَ فِي الْيَمِّ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْفَاجِرِينَ (١٣٥) أَجْرُ الْعَمَلِينَ (١٣٦).

قال ابن إسحاق: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين﴾، أي: ذلك لمن أطاعني وأطاع رسولي. قال قتادة: كانوا يرون الجنة فوق السموات السبع تحت العرش، وأن جهنم تحت الأرضين السبع.

وقال ابن عباس في قوله: ﴿الذين ينفقون في السراء والضراء﴾ يقول: في

(١) أي: سنُّ الإبل، وغيرها من البهائم، أن يقول: انظرنني إلى السنة القادمة، وأعطيك بنت مخاض، فلما حلت تلك السنة، لم يستطع الوفاء بدينه، فيقول: انظرنني إلى السنة التي بعدها وأعطيك بنت لبون، ثم حقة، ثم جذعة، ثم رباعياً وهكذا، انظر «تفسير ابن جرير» (٩٠/٤).

اليسر والعسر. وقال قتادة: قوله: ﴿الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾ قوم أنفقوا في العسر واليسر، والجهد والرخاء، فمن استطاع أن يغلب الشر بالخير فليفعل، ولا قوة إلا بالله فنعمت^(١) والله يا ابن آدم الجرعة تجرعه من صبر وأنت مغیظ، وأنت مظلوم. وعن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملاءه الله أمناً وإيماناً»^(٢) رواه ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ الفاحشة: الزنا، والكبائر.

وقوله: ﴿أو ظلموا أنفسهم﴾ أي بالصغائر. قال ابن مسعود: كانت بنو إسرائيل إذا أذنبوا ذنباً أصبح مكتوباً على باب الذنب وكفارته، فأعطينا خيراً من ذلك هذه الآية. قال ابن إسحاق: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾، أي: إن أتوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم بمعصية ذكروا نهي الله عنها، وما حرم عليهم، فاستغفروا لها، وعرفوا أنه لا يغفر الذنوب إلا هو.

وقال قتادة في قوله: ﴿ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ فإياكم والإصرار فإنما هلك المصرون الماضون قدماً، لا ينهاتهم مخافة الله عن حرام حرمه الله عليهم، ولا يتوبون من ذنب أصابوا حتى أتاهم الموت وهم على ذلك.

(١) في (الأصل): «فنعمة» وهو خطأ.

(٢) أخرجه ابن جرير (٩٤/٤)، وفي سنده ضعف، وينحوه من حديث معاذ بن أنس - رضي الله عنه - أخرجه أحمد (٤٣٨/٣)، وأبو داود (ح/٤٧٥٦)، والترمذي (ح/٢٠٩٠ و٢٦١١) وحسنه، وابن ماجه (ح/٤١٨٦)، والطبراني في الكبير (١٨٨/٢٠) بلفظ «من كظم غيظاً وهو يقدر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخير من حور العين أيتهن شاء» واللفظ للطبراني، وهو حديث حسن.

وفي الحديث الصحيح يقول الله عز وجل: «يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك»^(١).

وقوله تعالى: ﴿أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين﴾. قال ابن إسحاق: أي ثواب المطيعين. والله أعلم.



(١) أخرجه أحمد (١٥٤/٥ و ١٧٢)، والدارمي (٣٢٢/٢)، والترمذي (ح/٣٥٤٠) من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - وقال: «حديث غريب»، وهو حديث حسن.

الدرس السابع والأربعون

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
 الْمَكْذِبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا
 تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمَسُّكُمْ فَجَأٌ مَّسٌّ
 فَالْقَوْمَ فَفَرِحْ بِمِثْلِهِ وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُدَاوِلْهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ
 آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ
 آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكُفْرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ
 جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ
 فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ
 مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا
 وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا
 مُّوَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا
 وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَجْوَى قُتِلَ مَعَهُ رَيْثُيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا
 أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ
 قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا
 عَلَى الْقَوْمِ الْكُفْرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَالْتَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ
 الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ .

قوله عز وجل: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نٰظِرُونَ ﴿١٤٣﴾ .

قال مجاهد في قوله: ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ . يقول في الكفار والمؤمنين، والخير والشر. قال ابن إسحاق: استقبل ذكر المصيبة التي نزلت بهم، يعني بالمسلمين يوم أحد، والبلاء الذي أصابهم، والتمحيص لما كان فيهم، واتخاذهم الشهداء منهم، فقال تعزية لهم وتقريعاً لهم فيما صنعوا، وما هو صانع بهم ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾، أي: قد مضت مني وقائع نقمة في أهل التكذيب لرسلي، والشرك في عاد، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب مدين، فسيروا في الأرض تروا مثلات قد مضت فيهم، ولمن كان على مثل ما هم عليه مثل ذلك مني، وإن أمكنت لهم.

وقوله تعالى: ﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾ . قال قتادة: هذا بيان للناس، وهو هذا القرآن جعله الله بياناً للناس عامة، وهدى وموعظة للمتقين خاصة.

وقوله تعالى: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾. قال قتادة: يعزي أصحاب محمد ﷺ كما تسمعون، ويحثهم على قتال عدوهم، وينهاهم عن العجز والوهن في طلب عدوهم في سبيل الله. وقال ابن إسحاق: ﴿ولا تهنوا﴾، أي: لا تضعفوا. ﴿ولا تحزنوا﴾ ولا تأسوا على ما أصابكم ﴿وأنتم الأعلون﴾، أي: لكم تكون العاقبة والظهور. ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ إن كنتم صدقتم، يعني بما جاءكم به عني.

وقوله تعالى: ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾. قال قتادة: والقرح الجراحة، وذاكم يوم أحد فشا في أصحاب نبي الله ﷺ يومئذ القتل والجراحة، فأخبرهم الله عز وجل أن القوم قد أصابهم من ذلك مثل الذي أصابكم، وإن الذي أصابكم عقوبة.

وقوله تعالى: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾. قال الربيع: فأظهر الله عز وجل نبيه ﷺ وأصحابه على المشركين يوم بدر، وأظهر عليهم عدوهم يوم أحد، وقد ينال الكافر من المؤمن، ويبتلي المؤمن بالكافر؛ ليعلم الله من يطيعه ممن يعصيه، ويعلم الصادق من الكاذب، وأما من ابتلى منهم من المسلمين يوم أحد: فكانت عقوبة بمعصيتهم رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين﴾. قال قتادة: فكرم الله أوليائه بالشهادة بأيدي عدوهم، ثم تصير حوامل الأمور وعواقبها لأهل طاعة الله.

وقوله تعالى: ﴿وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾. قال ابن إسحاق: وليمحص الله الذين آمنوا، أي: يختبر الذين آمنوا حتى يخلصهم بالبلاء الذي نزل بهم، وكيف صبرهم ويقينهم. وقال ابن زيد في قوله: ﴿ويمحق الكافرين﴾: قال: يمحق من محق في الدنيا، وكان بقية من يمحق في الآخرة في النار.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ﴾ قال ابن إسحاق: أم حسبتم أن تدخلوا الجنة وتصيبوا من ثوابي الكرامة، ولم أختبركم بالشدة وأبتليكم بالمكاره حتى أعلم أصدق ذلك منكم الإيمان بي، والصبر على ما أصابكم بي.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمْنُونَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾. قال مجاهد: غاب رجل عن بدر فكانوا يتمنون مثل يوم بدر أن يلقوه، فيصيبوا من الخير والأجر مثل ما أصاب أهل بدر، فلما كان يوم أحد ولّى من ولّى منهم، فعاتبهم الله على ذلك.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٨﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٩﴾ فَكَانَتْ لَهُمْ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٥٠﴾.

قوله: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين﴾. قال قتادة: ذلكم يوم أحد حين أصابهم القرع والقتل، ثم تنازعا نبي الله ﷺ بقية ذلك، فقال أناس لو كان نبياً ما قتل، وقال ناس من عليه أصحاب

نبي الله ﷺ: قاتلوا على ما قاتل عليه محمد نبيكم حتى يفتح الله لكم، أو تلحقوا به. فقال الله عز وجل: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾. يقول: إن مات نبيكم أو قتل ارتددتم كفاراً بعد إيمانكم.

قوله تعالى: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً﴾، أي: لا يموت أحد حتى يستوفي المدة التي أجل الله له.

﴿ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين﴾. قال ابن إسحاق: أي فمن كان منكم يريد الدنيا ليست له رغبة في الآخرة نؤته منها ما قسم له منها من رزق، ولاحظ له في الآخرة، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ما وعده مع ما يجري عليه من رزقه في دنياه، ﴿وسنجزى الشاكرين﴾، أي: ذلك جزاء الشاكرين، يعني بذلك إعطاء الله إياه ما وعده في الآخرة مع ما يجري عليه من الرزق في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير﴾. قال ابن عباس: جموع كثيرة^(١): وقال ابن زيد: الربيون الأتباع، والربانيون الولاة.

وقوله تعالى: ﴿فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين﴾. قال ابن إسحاق: فما وهنوا لفقد نبيهم، وما ضعفوا عن عدوهم وما استكانوا لما أصابهم في الجهاد عن الله وعن دينهم، وذلك الصبر. والله يحب الصابرين.

وقوله تعالى: ﴿وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾ قال مجاهد في قول الله ﴿وإسرافنا في أمرنا﴾ قال: خطايانا، وظلمنا أنفسنا. وقال ابن إسحاق: أي فقولوا

(١) في (الأصل): «كثير»، والمثبت من تفسير ابن جرير.

كما قالوا، أو اعلّموا أنّما ذلك بذنوب منكم، واستغفروا كما استغفروا، وامضوا على دينكم كما مضوا، ولا ترتدوا على أعقابكم راجعين، وأسألوه كما سأله أن يثبت أقدامكم، واستنصروه كما استنصروه على القوم الكافرين، فكل هذا من قولهم قد كان، وقد قتل نبيهم فلم يفعلوا كما فعلتم.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين﴾، قال قتادة: أي والله، لآتاهم الله الفتح والظهور والتمكين، والنصر على عدوهم في الدنيا ﴿وحسن ثواب الآخرة﴾ يقول: حسن الثواب في الآخرة هي الجنة. والله أعلم.



الدرس الثامن والأربعون

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ
 أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ
 النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ
 مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾
 وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ
 وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أُرْسِلْتُمْ مَا تَحِبُّونَ مِنْكُمْ
 مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ
 لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۗ إِذْ
 تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي
 أُخْرَانِكُمْ فَأَتَيْتُكُم عَمَّا يَغْتَابُ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا
 مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً
 نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ
 الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ
 يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا
 هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ
 اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا
كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ .

قال ابن إسحاق: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتقلبوا خاسرين﴾، أي: عن دينكم، فتذهب دنياكم وآخرتكم، بل الله مولاكم إن كان ما تقولون بألسنتكم صدقاً في قلوبكم، وهو خير الناصرين، أي: فاعتصموا به ولا تستنصروا بغيره، ولا ترجعوا على أعقابكم مرتدين عن دينكم.

وقوله تعالى: ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ومأواهم النار وبئس مَثْوَى الظالمين﴾، قال السدي: لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أحد متوجهين نحو مكة، انطلق أبو سفيان حتى بلغ بعض الطريق، ثم أنهم ندموا، فقالوا: بئس ما صنعتم أنكم قتلتموهم حتى إذا لم يبق إلا الشريد تركتموهم، ارجعوا فاستأصلوهم، فقذف الله عز وجل في قلوبهم الرعب فانهزموا، فلقوا أعرابياً فجعلوه له جُعللاً، وقالوا له: إن لقيت محمداً فأخبرهم بما قد جمعنا لهم، فأخبر الله عز وجل رسوله ﷺ، فطلبهم حتى بلغ حمراء الأسد، فأنزل الله عز وجل في ذلك، فذكر أبو سفيان حين أراد أن يرجع إلى النبي ﷺ، وما قذف في قلبه من الرعب، فقال: ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ۗ مِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۗ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَابِكُمْ فَأَتْبِكُمْ عَمَّا بَغِمَ لَكُمْ لِيَكِيلًا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ .

عن ابن عباس: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه﴾، فإن أبا سفيان أقبل في ثلاث ليال خلون من شوال حتى نزل أحداً، وخرج رسول الله ﷺ، فأذن في الناس فاجتمعوا، وأمر على الخيل الزبير بن العوام ومعه يومئذ المقداد بن الأسود الكندي، وأعطى رسول الله ﷺ اللواء رجلاً من قريش، يقال له: مصعب بن عمير، وخرج حمزة بن عبد المطلب بالجيش^(١)، وبعث حمزة بين يديه، وأقبل خالد بن الوليد على خيل المشركين ومعه عكرمة بن أبي جهل، فبعث رسول الله ﷺ الزبير وقال: استقبل خالد بن الوليد فكن بإيذائه حتى أؤذنك، وأمر بخيل أخرى فكانوا من جانب آخر، فقال: لا تبرحوا حتى أؤذنكم، وأقبل أبو سفيان يحمل اللات والعزى، فأرسل النبي ﷺ إلى الزبير أن يحمل فحمل على خالد بن الوليد فهزمه ومن معه، فقال: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه﴾، يقول: تقتلونهم ﴿حتى إذا فشلتم وتنزعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون﴾، وأن الله وعد المؤمنين أن ينصرهم^(٢).

(١) في (الأصل): «بالجسر» وفي تفسير ابن جرير «بالحسر» والمثبت من: «الدر المنثور».

(٢) أخرجه ابن جرير (٤/١٢٥ - ١٢٦) بسند ضعيف.

قال ابن إسحاق: ﴿حتى إذا فشلتم﴾، أي: تجادلتم، ﴿وتنازعتم في الأمر﴾، أي: اختلفتم في أمري ﴿وعصيتم﴾، أي: تركتم أمر نبيكم ﷺ وما عهد إليكم، يعني الرماة، ﴿من بعد ما أراكم ما تحبون﴾، أي: الفتح لا شك فيه، وهزيمة القوم عن نسائهم وأموالهم، وقوله تعالى: ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾، قال الضحاك: فإن نبي الله ﷺ أمر يوم أحد طائفة من المسلمين، فقال: «كونوا مسلحة^(١) للناس»، بمنزلة أمرهم أن يثبتوا بها، وأمرهم أن لا يبرحوا مكانهم حتى يأذن لهم، فلما لقي نبي الله ﷺ يوم أحد أبا سفيان ومن معه من المشركين هزمهم نبي الله ﷺ، فلما رأى المسلمة أن الله عز وجل هزم المشركين، انطلق بعضهم وهم يتنادون: الغنيمة الغنيمة لا تفتكم، وثبت بعضهم مكانهم وقالوا: لا نريم^(٢) موضعنا حتى يأذن لنا نبي الله ﷺ، ففي ذلك نزل منكم من يريد الدنيا، ومنكم من يريد الآخرة، فكان ابن مسعود يقول: ما شعرت أن أحداً من أصحاب النبي ﷺ كان يريد الدنيا وعرضها حتى كان يوم أحد.

وقوله تعالى: ﴿ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾، قال ابن إسحاق: ثم صرفكم عنهم ليبتليكم، أي صرفكم عنهم ليختبركم، وذلك ببعض ذنوبكم.

وقال ابن جريج: في قوله: ﴿ولقد عفا عنكم﴾، قال: لم يستأصلكم، قال الحسن: هؤلاء مع رسول الله ﷺ، وفي سبيل الله، غضاب لله، يقاتلون أعداء الله، نهوا عن شيء فصنعوه، فوالله ما تركوا حتى غموا بهذا الغم، فأفسق الفاسقين اليوم يفعل كل كبيرة ويركب كل داهية ويسحب، عليها ثيابه، ويزعم أن لا بأس عليه فسوف يعلم.

(١) في (الأصل): «مسلمة» وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن جرير.

(٢) في (الأصل): «لا نريم» وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن جرير.

وقال ابن إسحاق في قوله: ﴿ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾، يقول: وكذلك من الله على المؤمنين: إن عاقبتهم ببعض الذنوب في عاجل الدنيا أدباً وموعظة، فإنه غير مستأصل لكل ما فيهم من الحق له عليهم لما أصابوا من معصيته، رحمة لهم، وعائدة عليهم لما فيهم من الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم﴾، قال قتادة: ذاك يوم أحد صعدوا في الوادي ونبي الله ﷺ يدعوهم في أخراهم، قال: «إليّ عباد الله»، قال السدي: لما شد المشركون على المسلمين بأحد فهزموهم، دخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصخرة فقاموا عليها، وجعل رسول الله ﷺ يدعو الناس: «إليّ عباد الله، إليّ عباد الله». قال ابن إسحاق: أنبئهم الله بالفرار عن نبيهم ﷺ وهو يدعوهم لا يعطفون عليه لدعائه إياهم، فقال: ﴿إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم﴾.

وقوله تعالى: ﴿فأثابكم غمّاً بغمٍ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون﴾، قال قتادة: ﴿فأثابكم غمّاً بغمٍ﴾، كانوا تحدثوا يومئذ أن نبي الله ﷺ أصيب، وكان الغم الآخر قتل أصحابهم والجراحات التي أصابتهم. وقال الربيع: الغم الأول: الجراح والقتل، والغم الآخر حين سمعوا أن رسول الله ﷺ قد قتل، فأنساهم الغم الآخر ما أصابهم من الجراح والقتل، وما كانوا يرجون^(١) من الغنيمة، وذلك حين يقول: ﴿لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون﴾.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ

(١) في (الأصل): «يرجعون» وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن جرير، والدر المنثور.

الْجَاهِلِيَّةَ يَقُولُونَ هَل لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي
 أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ
 كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي
 صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنْ الَّذِينَ
 تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ
 عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ .

قال قتادة: في قوله: ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة
 منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم...﴾ الآية، وذاكم يوم أحد كانوا يومئذ فريقين،
 فأما المؤمنون: فغشاهم النعاس أمنة منه ورحمة، والطائفة الأخرى المنافقون:
 ليس لهم همٌّ إلا أنفسهم، أجبن قوم وأرعبه، وأخذله للحق، يظنون بالله غير
 الحق، ظن الجاهلية ظنوناً كاذبة، إنما هم أهل شك وريبة في أمر الله، ﴿يقولون:
 لو كان لنا من الأمر من شيء ما قتلنا ههنا، قل: لو كتتم في بيوتكم لبرز الذين
 كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾.

قال ابن جريج: قيل لعبد الله بن أبي: قتل بنو الخزرج اليوم، قال: وهل لنا
 من الأمر من شيء؟ وعن الزبير قال: والله إنني لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس
 يغشاني ما أسمعه إلا كالحلم حين قال: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا.

وقوله تعالى: ﴿قل لو كتتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى
 مضاجعهم﴾، قال ابن إسحاق: ذكر الله تلاوم المنافقين وحسرتهم على ما
 أصابهم، ثم قال لنبية ﷺ قل: لو كتتم في بيوتكم لم تحضروا هذا الموضع الذي
 أظهر الله جل ثناؤه فيه منكم ما أظهر من سرائركم؛ لأخرج الذين كتب عليهم القتل
 إلى مواطن غيره يصرعون فيه؛ حتى يبتلي به ما في صدوركم وليمحص ما في
 قلوبكم، ﴿والله عليم بذات الصدور﴾، أي لا يخفى عليه شيء مما في صدوركم

﴿وليمحص ما في قلوبكم، والله عليم بذات الصدور﴾، أي: لا يخفى عليه شيء مما في صدورهم مما استخفوا به منكم.

وقال ابن جرير في تفسير^(١) قوله تعالى: ﴿لبرز الذين كتب عليهم القتلة﴾، يقول: لظهر للموضع الذي كتب عليه مصرعه فيه من قد كتب عليه القتلة منهم.

وقال ابن كثير^(٢): أي هذا قدر قدره الله عز وجل، وحكم حق لا محيد عنه ولا مناص منه.

وقال في جامع البيان، أي: لخرج الذين قدر عليهم القتلة إلى مصارعهم منكم، فلم يستطيعوا الإقامة في المدينة.

وقوله تعالى: ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حلِيم﴾، قال قتادة: وذلك يوم أحد، ناس من أصحاب رسول الله ﷺ تولوا عن القتال، وعن نبي الله يومئذ، وكان ذلك من أمر الشيطان وتخويفه، فأنزل الله عز وجل ما تسمعون أنه قد تجاوز لهم عن ذلك وعفا عنهم، والله أعلم.



(١) انظر: «جامع البيان» (٤/١٤٣).

(٢) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (١/٤١٨).

الدرس التاسع والأربعون

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي
 الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي
 قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ
 مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ
 تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ لَوْ كُنْتُمْ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ
 حَوْلِكُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ
 اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَضُرَّكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي
 يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ
 يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا
 يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ وَمَنْ
 الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى
 الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ
 وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لِنَبِيِّ ضَلَّالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوْ
 لَمَّا أَصَبَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلِهَا قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ
 اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فِإِذِنَ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَمَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ اذْفَعُوا قَالُوا

لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ
 بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا
 لَوْ أَطَاعُوا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا
 تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا
 آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَكَسَبَتْشُرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ
 عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا
 يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ
 لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ
 جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾
 فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِ لَمْ يَمَسَّسَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ
 عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ
 مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ .

قال ابن إسحاق: في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا﴾ الآية، أي: لا تكونوا كالمنافقين الذين ينهون إخوانهم عن الجهاد في سبيل الله، والضرب في الأرض في طاعة الله وطاعة رسوله، ويقولون إذا ماتوا أو قتلوا: لو أطاعونا: ﴿ما ماتوا أو قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم﴾ لقلّة اليقين برهم جل ثناؤه: ﴿والله يحيي ويميت﴾، أي: يجعل ما يشاء، ويؤخر ما يشاء من آجالهم بقدرته: ﴿والله بما تعملون بصير﴾ فيجازي كل عامل بعمله.

وقوله تعالى: ﴿ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون﴾، أي: الموت كائن لا بد منه، فموت في سبيل الله أو قتل خير مما يجمعون في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾ قال ابن إسحاق: ﴿ولئن متم أو قتلتم﴾، أي: ذلك كان: ﴿لإلى الله تحشرون﴾، أي: أن إلى الله المرجع فلا تغرنكم الدنيا ولا تغتروا بها.

قوله عز وجل: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ .

قوله: ﴿فبما رحمة من الله﴾ ما مزيدة للتأكيد. قال قتادة: في قوله: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ يقول: فبرحمة من الله لنت لهم. ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾، أي: والله طهره من الفظاظة والغلظة، وجعله قريباً رحيماً بالمؤمنين رؤوفاً. قال ابن عباس: ﴿لانفضوا من حولك﴾ قال: انصرفوا عنك.

وقوله تعالى: ﴿فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزم فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾ قال ابن إسحاق: ﴿فاعف عنهم﴾، أي: فتجاوز عنهم: ﴿واستغفر لهم﴾ ذنوب من قارف من أهل الإيمان منهم.

وقال قتادة في قوله: ﴿وشاورهم في الأمر فإذا عزم فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾ أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يشاور أصحابه في الأمور وهو يأتيه وحى السماء، لأنه أطيب لأنفس القوم، وأن القوم إذا شاور بعضهم بعضاً وأرادوا بذلك وجه الله، عزم لهم على أرشده.

وقوله: ﴿فإذا عزم فتوكل على الله﴾ قال الربيع: أمره الله إن عزم على أمرٍ أن يمضي فيه ويتوكل عليه.

وقوله تعالى: ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾، أي: النصر والخذلان بيده، يعز من يشاء، ويذل من يشاء.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَدَّهٖ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرَاتِهِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾.

قال ابن عباس: «إن هذه الآية نزلت: ﴿وما كان لنبي أن يغل﴾ في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر قال: فقال بعض الناس: أخذها رسول الله ﷺ. قال: فأكثرنا في ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وما كان لنبي أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة﴾»^(١). وقال الكلبي: «نزلت في غنائم أحد حين ترك الرماة المركز للغنيمة وقالوا: نخشى أن يقول النبي ﷺ: من أخذ شيئاً فهو له. وأن لا يقسم الغنائم كما لم يقسمها يوم بدر. فتركوا المركز ووقعوا في الغنائم. فقال لهم النبي ﷺ: ألم أعهد إليكم أن لا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمري؟ قالوا: تركنا بقية إخواننا وقوفاً. فقال النبي ﷺ: بل ظننتم أن نغل ولا نقسم. فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة﴾، أي: سواء كان من الغنيمة، أو الصدقة، أو غير ذلك، كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «لا ألفين أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر، ينادي: يا محمد يا محمد. فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك»^(٢).

(١) أخرجه ابن جرير (١٥٥/٤).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٣٠٧٣)، ومسلم (ح/١٨٣٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والمؤلف — رحمه الله — ذكر الحديث بمعناه.

وفي الحديث الآخر: «يا أيها الناس، من بعثناه على عمل ففعل شيئاً، جاء يوم القيامة على عنقه يحمله»^(١).

وقوله تعالى: ﴿ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ قال ابن إسحاق: ثم يجزي بكسبه غير مظلوم ولا معتدى عليه.

وقوله تعالى: ﴿أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ قال الضحاك: وقوله: ﴿أفمن اتبع رضوان الله﴾ قال: من لم يغل كمن باء بسخط من الله؟ كمن غل؟ وقال ابن إسحاق: يقول: أفمن كان على طاعتي فتوابه الجنة ورضوان من ربه، كمن باء بسخط من الله، فاستوجب غضبه، وكان مأواه جهنم وبئس المصير؟ أسوأ المثلان؟ أي فاعرفوا.

وقوله تعالى: ﴿هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون﴾ قال ابن عباس: ﴿هم درجات عند الله﴾ يقول: بأعمالهم. ﴿والله بصير بما يعملون﴾ قال ابن إسحاق: يقول إن الله لا يخفى عليه أهل طاعته من أهل معصيته.

وقوله تعالى: ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ قال ابن إسحاق: أي لقد من الله عليكم يا أهل الإيمان، إذ بعث فيكم رسولاً من أنفسكم ﴿يتلو عليكم آياته ويزكيكم﴾ فما أخذتم وفيما عملتم ﴿ويعلمكم﴾ الخير والشر: الخير لتعرفوا فتعملوا به، والشر فتتقوه، ويخبركم برضاه عنكم إذ أطعتموه لتستكثروا من طاعته، وتجتنبوا ما سخط منكم من معصيته، فتخلصوا بذلك من نعمته، وتدرکوا بذلك ثوابه من جنته. ﴿وإن كنتم من قبل لفي ضلال مبين﴾، أي: في عمى من الجاهلية لا تعرفون حسنة، ولا

(١) أخرجه بنحوه البخاري (ح/٢٥٩٧)، ومسلم (٣/١٤٦٤)، من حديث حميد الساعدي رضي الله عنه.

تستغيثون من سيئته، صم عن الحق، عمي عن الهدى.

قوله عز وجل: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مَصِيبَةً قَدِ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٩﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَا ذُنَّ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ .

قال قتادة: أصيب المسلمون يوم أحد مصيبة، وكانوا قد أصابوا مثلها يوم بدر، ممن قتلوا وأسروا، فقال الله عز وجل: ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثلها﴾ وقال عكرمة: قتل المسلمون من المشركين يوم بدر سبعين وأسروا سبعين، وقتل المشركون يوم أحد من المسلمين سبعين، فذلك قوله: ﴿قد أصبتم مثلها قلتم أنى هذا﴾ إذ نحن مسلمون نقاتل غضباً لله، وهؤلاء مشركون! ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ عقوبة لكم بمعصيتكم النبي ﷺ حين قال ما قال. وقال الحسن: معصيتهم أنه قال لهم: لا تتبعوهم يوم أحد، فاتبعوهم.

وقوله تعالى: ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فياذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا﴾ قال ابن إسحاق: أي ما أصابكم حيث التقيتم أنتم وعدوكم، فياذني كان ذلك، حين فعلتم ما فعلتم بعد أن جاءكم نصري وصدقتم^(١)، وعدي؛ ليميز بين المنافقين والمؤمنين: ﴿وليعلم الذين نافقوا منكم﴾، أي: ليظهروا ما فيهم.

(١) في (الأصل): «وصدقكم» وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون﴾ قال ابن إسحاق: «خرج رسول الله ﷺ إلى أحد في ألف رجل من أصحابه، حتى إذا كانوا بالشوط بين أحد والمدينة، انخزل عنهم عبد الله بن أبي ابن سلول بثلاث الناس، فقال: أطاعهم فخرج وعصاني، والله ما ندري على ما نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس! فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه من أهل النفاق وأهل الريب، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حزم أخو بني سلمة يقول: يا قوم أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عندما حضر من عدوكم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولكننا لا نرى أن يكون قتال، فلما استعصوا عليه، وأبو إلا الانصراف عنهم قال: أبعدم الله أعداء^(١) الله فسيغني الله عنكم. ومضى رسول الله ﷺ». يقول الله عز وجل: ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان والله أعلم بما يكتمون﴾، أي: يخفون. وقال السدي في قوله: ﴿أو ادفعوا﴾ يقول: أو كثروا^(٢).

وقوله تعالى: ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادروا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ قال ابن إسحاق: ﴿الذين قالوا لإخوانهم﴾ الذين أصيبوا معكم من عشائرتهم وقومهم: لو أطاعونا ما قتلوا. ﴿قل فادروا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾، أي: أنه لا بد من الموت، فإن استطعتم أن تدفعوه عن أنفسكم فافعلوا. قال السدي: هم عبد الله بن أبي وأصحابه.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ﴿١٦٦﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ

(١) في (الأصل): «أغنى»، وهو خطأ.

(٢) في (الأصل): «أو أكثروا»، وهو خطأ.

يَلْحَقُوا بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ
بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ .

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلمهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا، لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب. فقال الله عز وجل أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ هؤلاء الآيات»^(١). رواه ابن جرير وغيره.

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٢﴾ فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهِنَّ سَوَاءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٣﴾ إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخَوْفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ .

قال ابن إسحاق: «كان يوم أحد السبت للنصف من شوال، فلما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال، أذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو، وأذن مؤذن: لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس. فكلمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام فقال: يا رسول الله إن أبي كان خلفني على أخوات لي سبع وقال لي: يا بني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء

(١) أخرجه ابن جرير (٤/١٧٠)، وفي سنده ضعف، لكن روي بنحوه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً «أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة... الحديث أخرجه مسلم (ح/١٨٨٧).

النسوة لا رجل فيهن، ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسي، فتخلف على إخوانك فتخلفت عليهن، فأذن له رسول الله ﷺ فخرج معه، وإنما خرج رسول الله ﷺ مرهباً للعدو، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم، ليظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم.

وقوله تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ قال قتادة: «انطلق رسول الله ﷺ وعصابة من أصحابه بعدما انصرف أبو سفيان وأصحابه من أحد خلفهم، حتى كانوا بذى الحليفة، فجعل الأعراب والناس يأتون عليهم فيقولون: هذا أبو سفيان مائل عليكم بالناس فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾.

وقوله تعالى: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾ قال ابن إسحاق: ﴿والله ذو فضل عظيم﴾ لما صرف عنهم من لقاء عدوهم. وقال ابن عباس: أطاعوا الله وابتغوا حاجتهم ولم يؤذهم أحد: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾.

وقوله تعالى: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه﴾، أي: يخوفكم بأوليائه ﴿فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ قال مجاهد: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه﴾ قال: يخوف المؤمنين بالكفار.

وقال ابن كثير^(١): ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه﴾، أي: يخوفكم أولياءه، ويوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة. قال الله تعالى: ﴿فلا تخافوهم

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٤٣١).

وخافون أن كنتم مؤمنين ﴿١﴾، أي: إذا سول لكم وأوهمكم، فتوكلوا عليّ والجأوا إليّ، فإني كافيكم وناصركم عليهم، كما قال تعالى: ﴿أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلّل الله فما له من هاد ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل أفرايتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون﴾^(١)، والله أعلم.



(١) سورة الزمر: الآيات ٣٦ — ٣٨.

الدرس الخمسون

﴿ وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ
 أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ
 بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا
 نُمَلِّئُهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّئُهُمْ لِيُزَادُوا إِسْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَا كَانَ
 اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ
 لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ
 تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَآءِ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُ
 مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ
 مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ
 قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ
 وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ
 بِظَلَامٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَاهَدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ
 حَتَّىٰ يَأْتِينَا بَقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ وَإِلَّا لَذَىٰ
 قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ
 مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ
 وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْجِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ

فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٧٦﴾ * لَتُبْلَوُنَّ فِي
 أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ
 وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ
 عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧٧﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا
 تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فِيمَسَّ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٧٨﴾
 لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ
 بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٠﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطَّاً فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ .

قال مجاهد: في قوله: ﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾، أي: المنافقون ﴿إنهم لن يضرروا الله شيئاً يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة﴾. قال ابن إسحاق: أن يحبط أعمالهم ﴿ولهم عذاب عظيم﴾. ﴿إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان﴾، أي المنافقين ﴿لن يضرروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم﴾، أي: موجه.

وقوله تعالى: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم خير لأنفسهم أما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾ كقوله: ﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وترهق أنفسهم وهم كافرون﴾^(١).

وقوله: ﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين﴾^(٢).

قوله عز وجل: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِن رُّسُلِهِ مَن

(١) سورة التوبة: الآية ٥٥.

(٢) سورة القلم: الآيتان ٤٤ و ٤٥.

يَشَاءُ فَمَا تُمِئُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ
الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا
بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ .

قال مجاهد: في قول الله: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ قال: ميز بينهم يوم أحد، المنافق من المؤمن.

وقوله تعالى: ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ فتعرفوا المنافق من غيره قبل التمييز ﴿ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء﴾. قال مجاهد يخلصهم لنفسه.

وقوله تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا﴾ قال ابن إسحاق: أي ترجعوا وتوبوا ﴿فلكم أجر عظيم﴾.

وقوله تعالى: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة والله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير﴾. قال السدي: هم الذين آتاهم الله من فضله، فبخلوا أن ينفقوها في سبيل الله، ولم يؤدوا زكاتها. وقال ابن مسعود في قوله: ﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ قال: ثعبان ينقر رأس أحدهم يقول: أنا مالك الذي بخلت به. وقال رسول الله ﷺ: «ما من أحد لا يؤدي زكاة ماله، إلا مثل له شجاع أقرع يطوقه»^(١). رواه ابن جرير وغيره.

(١) أخرجه أحمد (٣٧٧/١)، والترمذي (ح/٣٠١٢)، والنسائي في «المجتبى» (١١/٥) - (١٢)، وأيضاً في الكبرى (١/٣٤٦)، وابن ماجه (ح/١٧٨٤)، والطبري (٤/١٩٢)، وابن خزيمة (ح/٢٢٥٦)، والبيهقي (٤/٨١)، وهو حديث صحيح.

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨٧﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَاهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٨﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٨﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْجِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿١٨٩﴾ ﴿لَتَسْلُوبُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ نَصَرْتُمْ وَإِنْ نَعَفْتُمْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٩٠﴾﴾ .

قال الحسن: لما نزلت ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ عجبت اليهود فقالت: إن الله فقير يستقرض. فنزلت: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار﴾. قال الكلبي: «نزلت في كعب بن الأشرف وأناس معه من اليهود، أتوا النبي ﷺ فقالوا: يا محمد تزعم أن الله تعالى بعثك إلينا رسولاً، وأنزل عليك الكتاب، وأن الله تعالى قد عهد إلينا في التوراة أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار. قال الله تعالى: ﴿قل يا محمد قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم﴾ من القربان ﴿فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين؟﴾

قال البغوي^(١): معناه تكذيبهم إياك، مع علمهم بصدقك، كقتل آبائهم الأنبياء، مع الإتيان بالقربان والمعجزات. ثم قال معزياً لنييه ﷺ: ﴿فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير﴾، أي: الواضح المضيء.

قال: في فتح البيان^(٢). ﴿البينات﴾ المعجزات ﴿والزبر﴾ الكتب المقصورة على الحكم والمواعظ ﴿والكتاب المنير﴾ الواضح المعنى، المتضمن للشرائع والأحكام.

﴿كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ كمتاع يدلس به على المتباع فيفر ويشتره، فمن اغتار بها وآثرها فهو مغرور. قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾^(٣)، أي: الشيطان.

وقوله تعالى: ﴿لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾. قال عطاء: من حقيقة الإيمان.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبَسَّ مَا بَشَرُوا لَئِن لَّمْ يَفْعَلُوا لَأَنذَرْنَا لَهُمْ آتٍ يَوْمَ يُنْفَخُ السَّمَاءُ كَالدِّهَانِ فَمَا يَسْقُونَ إِلَّا مِنْ حَمِيمٍ ۗ وَبَشَرْنَا نَبَسًا شَهِيقًا فَهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٢٩٩).

(٢) في (الأصل): «غير جامع البيان»، ولعل ما أثبتته أولى.

(٣) سورة فاطر: الآية ٥٠.

فَلَا تَحْسَبْتَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٧﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٨﴾ .

قال ابن جريج في قوله: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب﴾ لبيئته للناس ولا يكتُمونه. قال: وكان فيه أن الإسلام دين الله الذي افترضه على عباده، وأن محمداً يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل. وقال قتادة: هذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم، فمن علم شيئاً فليعلمه، وإياكم وكتمان العلم، فإن كتمان العلم هلكة، ولا يتكلمن رجل ما لا علم له به، فيخرج من دين الله، فيكون من المتكلمين؛ كأن يقال: مَثَلُ عِلْمٍ لَا يُقَالُ بِهِ كَمَثَلِ كَنْزٍ لَا يَنْفَقُ مِنْهُ، ومثل حكمة لا تخرج كمثال صنم قائم لا يأكل ولا يشرب. وكان يقال: طوبى لعالم ناطق، وطوبى لمستمع واع، هذا رجل علمَ علماً فعلمه وبذله ودعا إليه، ورجل سمع خيراً فحفظه ووعاه وانتفع به.

وقال الشعبي: في قوله: ﴿فنبذوه وراء ظهورهم﴾ قال: إنهم قد كانوا يقرأون: إنما نبذوا العمل به.

وقوله: ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة﴾، أي: منجاة ﴿من العذاب ولهم عذاب أليم﴾. قال الضحاك: فرح اليهود باجتماعهم على كفرهم بمحمد ﷺ وقالوا: قد جمع الله كلمتنا. وقالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، ونحن أهل الصلاة والصيام، وكذبوا، بل هم أهل كفر وشرك وافتراء على الله. وقال ابن زيد: هؤلاء المنافقون يقولون للنبي ﷺ: لو قد خرجت لخرجنا معك، فإذا خرج النبي ﷺ تخلفوا وكذبوا، ويفرحون بذلك، ويرون أنها حيلة احتالوا بها.

وقال البغوي^(١): ﴿يفرحون بما أتوا﴾ قال الفراء: بما فعلوا.

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٣٠٢).

وقال ابن كثير^(١): وقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسِنَ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيَحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ الآية، يعني بذلك المرأئين المتكثرين بما لم يعطوا، وذكر أقوال المفسرين ثم قال: ولا منافاة، لأن الآية عامة في جميع ما ذكر. والله أعلم. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي: فهو الغني القادر لا يحتاج إلى أحد، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾^(٢). والله أعلم.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٣٦/١).

(٢) سورة فاطر: الآيتان ١٥ و ١٦.

الدرس الحادي والخمسون

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَايَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُوكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنشِيءُ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَأَلَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ جَارِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِعَابَتِ اللَّهِ شَيْئًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ .

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا تُسَبِّحُكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَايِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ .

قال ابن جريج في قوله: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ قال: هو ذكر الله في الصلاة وفي غير الصلاة، وقراءة القرآن.

وقوله تعالى: ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾. قال ابن عوف: الفكرة: تذهب الغفلة، وتحدث للقلب الخشية، كما يحدث الماء للزرع النماء.

وقوله: ﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيتهُ وما للظالمين من أنصار﴾ عن الأشعث الجمل قال: قلت للحسن: يا أبا سعيد رأيت ما تذكر من الشفاعة حق هو؟ قال: نعم حق. قلت: يا أبا سعيد رأيت قول الله تعالى: ﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيتهُ﴾ يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها؟ فقال لي: إنك والله لا تستطيع على شيء، إن للنار أهلاً لا يخرجون منها، كما قال الله. قلت: يا أبا سعيد فيم دخلوا ثم خرجوا؟ قال: كانوا أصابوا ذنوباً في الدنيا فأخذهم الله بها، فأدخلهم بها، ثم أخرجهم بما يعلم في قلوبهم من الإيمان والتصديق به.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمَنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾، المنادي: هو القرآن. قال محمد بن كعب القرظي: هو الكتاب، ليس كلهم لقي النبي ﷺ.

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَآتْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رِسْلِكَ وَلَا تَخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾، أي لا بد من الميعاد الذي أخبرت عنه رسلك، وهو القيام بين يديك ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾، ولا تخزنا فإننا قد آمنا بك وبكتابك ونبيك.

قوله عز وجل: ﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾.

عن مجاهد قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله تذكر الرجال في الهجرة ولا تذكر النساء، فنزلت: ﴿إِنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ﴾^(١) الآية.

وقوله: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾. قال الكلبي: في الدين والنصرة والموالات.

وقال ابن كثير^(٢): أي جميعكم في ثوابي سواء.

وقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا

(١) أخرجه ابن جرير (٤/٢١٥)، وابن أبي حاتم (٢/٩٩/ب)، والحاكم (٢/٣٠٥ - ٣٠٦ و ٤١٦)، وصححه ووافقه الذهبي، وهو صحيح، وقد روي من وجه آخر يزيد قوة، والله أعلم.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٤٤١).

من عند الله والله عنده حسن الثواب ﴿١﴾، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ثلثة تدخل الجنة الفقراء المهاجرون الذين يتقي بهم المكاره، إذا أمروا سمعوا وأطاعوا، وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى السلطان لم تقض حتى يموت وهي في صدره، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها فيقول: أي عبادي الذين قتلوا في سبيلي، وأوذوا في سبيلي، وجاهدوا في سبيلي؟ أدخلوا الجنة، فيدخلونها بغير عذاب ولا حساب»^(١). رواه ابن جرير.

قوله عز وجل: ﴿لَا يَغْرَنكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ﴿١٩٧﴾ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾.

قال ابن جرير^(٢) في قوله تعالى: ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد﴾، فنهى الله تعالى ذكره نبيه ﷺ عن الاغترار بضربهم في البلاد، وإمهال الله إياهم مع شركهم وجحودهم نعمه وعبادتهم غيره. وخرج الخطاب بذلك للنبي ﷺ، والمعني به غيره من أتباعه. وقال قتادة: والله ما غروا نبي الله، ولا وكل إليهم شيئاً من أمر الله حتى قبضه الله على ذلك.

وقوله تعالى: ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلًا من عند الله وما عند الله خير للأبرار﴾. قال ابن زيد: لمن يطيع الله. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: إنما سماهم الله الأبرار؛ لأنهم بروا الآباء والأبناء.

(١) أخرجه أحمد (١٦٨/٢)، وابن جرير (٢١٦/٤) وهو حديث حسن.

(٢) انظر «جامع البيان» (٢١٧/٤).

قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشَعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوتِيَتْكُمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ .

قال قتادة في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ الآية، نزلت في النجاشي وفي ناس من أصحابه، آمنوا بنبي الله ﷺ وصدقوا به. قال: وذكر لنا «أن نبي الله ﷺ استغفر للنجاشي وصلى عليه حين بلغه موته. قال لأصحابه: صلوا على أخ لكم قد مات بغير بلادكم. فقال أناس من أهل النفاق: يصلي على رجل مات ليس من أهل دينه؟ فأنزل الله هذه الآية ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشَعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوتِيَتْكُمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(١). وقال ابن جريج: نزلت في عبد الله بن سلام ومن معه. وقال مجاهد: هم مسلمة أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

قال ابن جرير^(٢): وقد تنزل الآية في الشيء، ثم يعم بها كل من كان في معناه، فالآية وإن كانت نزلت في النجاشي، فإن الله تبارك وتعالى قد جعل الحكم

(١) صلاة النبي ﷺ على النجاشي ثابتة في الصحيحين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: «أنه نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلّى فصنّف بهم، وكبر عليه أربع تكبيرات». البخاري (ح/١٢٤٥)، ومسلم (ح/٩٥١)، وفي لفظ لمسلم (ح/٩٥٣) عن عمران بن حصين مرفوعاً: «إن أخاً لكم قد مات فقوموا فصلوا عليه». يعني: النجاشي. أما قوله: «فقال أناس من أهل النفاق»، فأخرجه ابن أبي حاتم (٢/١٠٠/ب)، وابن مردويه كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (١/٤٤٣) عن أنس رضي الله عنه بلفظ: «نستغفر لعلج مات بأرض الحبشة».

(٢) انظر «جامع البيان» (٤/٢٢٠).

الذي حكم به للنجاشي، حكماً لجميع عباده الذين هم بصفة النجاشي في اتباعهم رسول الله ﷺ، والتصديق بما جاءهم به من عند الله، بعد الذي كانوا عليه قبل ذلك، من أتباع أمر الله فيما أمر به عباده في الكتابين: التوراة والإنجيل.

وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾. قال قتادة: ﴿أي اصبروا﴾ على طاعة الله ﴿وصابروا﴾ أهل الضلالة ﴿ورابطوا﴾ في سبيل الله ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «ألا أدلكم على ما يحط الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إسباغ الوضوء عند المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط»^(١). رواه مسلم وغيره.

وقال محمد بن كعب القرظي في قوله: ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ واتقوا الله فيما بيني وبينكم؛ لعلكم تفلحون غداً إذا لقيتموني. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بت عند خالتي ميمونة فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء، فقال: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الأبواب﴾. ثم قام فتوضأ واستن، ثم صلى إحدى عشرة ركعة، ثم أذن بلال فصلى ركعتين، ثم خرج فصلى بالناس الصبح»^(٢). متفق عليه. وفي رواية لمسلم: «ثم قرأ العشر آيات الخواتم من سورة آل عمران»^(٣). وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: «من قرأ آخر آل عمران في ليلة كتب له قيام ليلة»^(٤). رواه الدارمي. والله أعلم.



- (١) أخرجه مسلم (ح/٢٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
- (٢) أخرجه البخاري (ح/١٨٣ و ٩٦٨ و ٤٥٧٠)، ومسلم (ح/٧٦٣).
- (٣) أخرجه مسلم (١/٥٢٧).
- (٤) أخرجه الدارمي (٢/٣٢٥)، وفي سننه ضعف، والله أعلم.

الدرس الثاني والخمسون

﴿سورة النساء﴾

مدنية، وهي مائة وست وسبعون آية

قال ابن مسعود: خمس آيات من النساء أحب إلي من الدنيا جميعاً ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾.

وقوله: ﴿وإن تك حسنة يضاعفها﴾.

وقوله: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾.

وقوله: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾.

وقوله: ﴿والذين آمنوا بالله ورسوله ولمن يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾
وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَالِصَاتِ بِالطَّيِّبَاتِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم مِّنْ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِمَّنْ

وَتِلْكَ وَرُبِعٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْلَمُوا فَوَاحِشَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ آدَبٌ أَلَّا تَعْلَمُوا ﴿٣﴾
 وَآتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُنَّ فَكُلُوهُ هَيْبَةً مَرْيَمًا ﴿٤﴾ وَلَا
 تَقْرَبُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالِكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا
 مَعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ
 أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ
 فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ
 حَسِيبًا ﴿٦﴾ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ
 الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ
 الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا
 مَعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلِيخَشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ
 فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا
 إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝﴾ .

قال السدي: أسكن آدم الجنة، فكان يمشي فيها وحشاً ليس له زوج يسكن إليها، فنام نومة فاستيقظ، فإذا عند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه فسألها: من أنت؟ قال: امرأة قال: ولم خلقت؟ قالت: تسكن إليّ ﴿وبث﴾ خلق ﴿منهما رجلاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾ يقول: اتقوا الله واتقوا الأرحام لا تقطعوها. وقال ابن عباس: واتقوا الله في الأرحام فصلوها، ﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾. قال مجاهد: حفيظاً. وقال ابن زيد: ﴿رقيباً﴾ على أعمالكم يعلمها ويعرفها.

قوله عز وجل: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِمَّنِّي وَتِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَفِئَتْ أَلَّا تَعْلَمُوا أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعْلَمُوا ۝٣﴾ وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَاكُلُوهُ هَيْعًا مَرِيئًا ۝٤﴾ .

قال مجاهد في قول الله تعالى: ﴿ولا تبدلوا الخبيث بالطيب﴾ قال: الحلال بالحرام. قال السدي: كان أحدهم يأخذ الشاة السمينية من غنم اليتيم ويجعل مكانها الشاة المهزولة ويقول: شاة بشاة، ويأخذ الدرهم الجيد وي طرح مكانه الزيف ويقول: درهم بدرهم. وقال ابن زيد: كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا يورثون الصغار، يأخذه الأكبر.

وقال مجاهد في قوله: ﴿ولا تأكلوا أموالكم إلى أموالكم﴾ يقول: لا تأكلوا أموالكم وأموالهم تخلطوها، فتأكلوها جميعاً ﴿إنه كان حوباً كبيراً﴾ قال ابن عباس: إنما عظيماً.

وقوله تعالى: ﴿وإن خفتن ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتن أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم﴾ عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن هذه الآية فقالت: يا ابن أختي، هي اليتيمة تكون في حجر وليها، فيرغب في مالها وجمالها، ويريد أن ينكحها بأدنى صداقتها، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يسقطوا لهن في كمال الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما سواهن من النساء. وفي رواية: هي اليتيمة تكون عند الرجل وهي ذات مال، فلعله ينكحها لمالها وهي لا تعجبه، ثم يضربها ويسيء صحبتها. وقال قتادة في قوله: ﴿وإن خفتن ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتن أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى أن لا تعولوا﴾ يقول: كما خفتن الجوار في اليتامى، همكم ذلك، فكذلك فخافوا في جميع النساء. وكان الرجل في الجاهلية يتزوج العشر فما دون ذلك، فأحل الله جل ثناؤه أربعاً، ثم الذي صيرهن إلى أربع قوله: ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾. ﴿فإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة﴾ وإن خفت أن لا تعدل في أربع، فثلاث، وإلا فاثنتين، وإلا فواحدة، وإن خفت أن لا تعدل في واحدة فما ملكت يمينك. وقال ابن عباس في قوله: ﴿ذلك أدنى أن لا تعولوا﴾ يعني أن لا تميلوا.

وقوله تعالى: ﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾. قال قتادة في قوله: ﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة﴾ يقول: فريضة. وقال ابن عباس: يعني بالنحلة المهر. ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾ يقول: إذا كان غير إضرار ولا خديعة، فهو هنيء مريء، كما قال الله جل ثناؤه. وعن أبي صالح قال: كان الرجل إذا زوج أيماً أخذ صداقتها

دونها، فنهاهم الله تبارك وتعالى عن ذلك، ونزلت ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ الآية. وقال ابن زيد: النحلة في كلام العرب الواجب، يقول: لا ينكحها إلا بشيء واجب لها صدقة، يسميها لها واجبة، وليس ينبغي لأحد أن ينكح امرأة بعد النبي ﷺ، إلا بصداق واجب، ولا ينبغي أن يكون تسمية الصداق كذباً بغير حق.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ ﴿٦﴾ وَابْتَلُوا اليتامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ ﴿٦﴾.

قال الحسن في قوله: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم﴾ لا تعطوا الصغار والنساء. وقال قتادة في قوله: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً﴾ أمر الله بهذا المال أن يخزن فيحسن خزانته، ولا يملكه المرأة السفهية والغلام السفهية.

وقوله تعالى: ﴿وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا﴾. قال ابن عباس: يقول الله سبحانه: لا تعتمد إلى مالك وما حولك الله، وجعله لك معيشة، فتعطيه امرأتك أو بنيك، ثم تنظر إلى ما في أيديهم، ولكن أمسك مالك وأصلحه، وكن أنت الذي تنفق عليهم في كسوتهم، ورزقهم ومؤنتهم. وقال مجاهد في قوله: ﴿وقولوا لهم قولا معروفا﴾ قال: أمروا أن يقولوا لهم قولا معروفا في البر والصلة. وقال ابن جريج: عدة تعدوهم.

وقوله تعالى: ﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا﴾ قال ابن عباس: ﴿وابتلوا اليتامى﴾ اختبروهم، ﴿حتى إذا بلغوا النكاح﴾. قال: عند الحلم، ﴿فإن

أنستم ﴿﴾ قال: عرفتم ﴿منهم رشدا﴾ في حالهم والإصلاح في أموالهم، ﴿فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا﴾، يعني: أكل مال اليتيم مبادراً أن يبلغ، فيحول بينه وبين ماله. وقوله تعالى: ﴿ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾، أي: بالتتي هي أحسن. قال إبراهيم: ليس بلبس الكتان ولا الحلل، ولكن ما سد الجوع ووارى العورة. وجاء أعرابي إلى ابن عباس فقال: إن في حجري أيتاماً، وإن لهم إبلاً ولي إبل، وأنا أمنح في إبلي وأفقر، فماذا يحل من ألبانها؟ قال: إن كنت تبغي ضالتها، وتهنأ جرباها، وتلوط حوضها، وتستقي عليها، فاشرب غير مضر بنسل، ولا ناهك في الحلب.

قوله تعالى: ﴿فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً﴾ قال ابن عباس: إذا دفع إلى اليتيم مال فليدفعه إليه بالشهود، كما أمره الله تعالى.

وقال ابن كثير^(١): ﴿وكفى بالله حسيباً﴾، أي: وكفى بالله محاسباً وشاهداً ورقيباً على الأولياء، في حال نظرهم للأيتام، وحال تسليمهم لأموالهم، هل هي كاملة موفرة أو منقوصة مبخوسة^(٢)، مروج حسابها، مدلس أمرها؟ الله عالم بذلك كله.

قوله عز وجل: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضَعِيفًا خَافُوا

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٥٤/١).

(٢) في (الأصل): «منحوسة» وهو خطأ.

عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿٨﴾ .

قال قتادة: كانوا لا يرثون النساء، فنزلت ﴿وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ . قال الشعبي: هي محكمة، وقال: واجب، ما طابت به نفس أهل الميراث. وقال ابن عباس: أمر الله المؤمنين عند قسمة موارثهم أن يصلوا أرحامهم ويتأمامهم بالوصية، إن كان أوصى، وإن لم تكن وصية وصل إليهم من موارثهم. وقال سعيد بن جبير والحسن: ذلك عند قسمة الميراث، إن كان الميراث لمن قد أدرك، فله أن يكسوا منه، وأن يطعم الفقراء والمساكين، وإن كان الميراث ليتامى صغار، فيقول الولي: إنه ليتامى صغار، ويقول لهم قولاً معروفاً.

وقوله تعالى: ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً﴾ . قال ابن عباس: يعني الذي يحضره الموت، فيقال له: تصدق من مالك، وأعتق وأعط منه في سبيل، فنهوا أن يأمره بذلك، يعني: أنه من حضر منكم عند الموت، فلا يأمره أن ينفق ماله في العتق، أو الصدقة، أو في سبيل الله، ولكن يأمره أن يبين ماله، وما عليه من دين، ويوصي في ماله لذوي قرابته الذين لا يرثون، ويوصي لهم بالخمس أو الربع. يقول: أليس يكره أحدكم إذا مات وله ولد ضعاف، يعني صغار أن يتركهم بغير مال. فيكونوا عيالاً على الناس؟ فلا ينبغي أن تأمروا بما لا ترضون به لأنفسكم ولا أولادكم، ولكن قولوا الحق من ذلك. وقال قتادة في قوله: ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً﴾ يقول: فليأمره بالعدل والإحسان، ولينه عن الحيف والجور في وصيته، وليخش على عياله ما كان خائفاً على عياله لو نزل به الموت.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾ قال السدي: إذا قام الرجل بأكل مال اليتيم ظلماً، يبعث يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه، ومن مسامعه ومن أذنيه، وأنفه وعينه، يعرفه من رآه بأكل مال اليتيم.

وقال ابن عباس: «لما نزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ الآية، انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالطُوهُمْ فَاخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمَصْلِحِ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم»^(١). والله أعلم.



(١) أخرجه أبو داود (ح/٢٨٧١)، والنسائي (٦/٢٥٦)، وابن جرير (٢/٣٧٠)، والحاكم (٢/٢٧٨-٢٧٩) وصححه ووافقه الذهبي. قلت: بل سنده ضعيف.

الدرس الثالث والخمسون

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ وَلَدٌ فِإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ آبَاؤُهُ فَلَهُمُ الثُّلُثُ إِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمَّهِ الشُّدُّسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينٌ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَلَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ * وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينٌ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ نُوْصَوْنَ بِهَا أَوْ دِينٌ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلِالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ .

قوله عز وجل: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾.

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ كان المال للولد، وكانت الوصية للوالدين والأقربين، فنسخ الله من ذلك ما أحب فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس مع الولد، وللزوج الشطر والربع، وللزوجة الربع والثلث.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾، يعني للبتين فما فوق الثلثان، وللنت الواحدة النصف. وعن جابر رضي الله عنه قال: «جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك في يوم أحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً، ولا ينكحان إلا ولهما مال. قال: فقال: يقضي الله في ذلك. فنزلت آية الميراث، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال: اعط ابنتي سعد الثلثين، وأمهما الثمن، وما بقي فهو لك»^(١). رواه أحمد وأبو داود وغيرهما.

قوله عز وجل: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ آبَاؤُهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ

(١) أخرجه أحمد (٣/٣٥٢)، وأبو داود (ح/٢٨٩١)، والترمذي (ح/٢٠٩٣) وصححه، وابن ماجه (ح/٢٧٢٠) وفي سننه عبد الله بن محمد بن عقيل: فيه لين، وقد تغير بأخوه.

الْأَقْرَبُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِي يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنًا وَأَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

الأبوان لهما في الإرث أحوال: أحدها: أن يجتمعا مع الأولاد فيفرض لكل واحد منهما السدس، فإن لم يكن للميت إلا بنت واحدة فرض لها النصف وللأبوين لكل واحد منهما السدس، وأخذ الأب السدس الآخر بالتعصيب.

الحال الثاني: أن ينفرد الأبوان بالميراث، فيفرض للأم الثلث، ويأخذ الأب الباقي بالتعصيب، فلو كان معهما زوج أو زوجة أخذ الزوج النصف، والزوجة الربع، وأخذت الأم ثلث الباقي، ويأخذ الأب الباقي بالتعصيب.

والحال الثالث: وهو اجتماعهما مع الأخوة سواء كانوا من الأبوين، أو من الأب، أو من الأم، فإنهم لا يرثون مع الأب شيئاً، ولكنهم مع ذلك يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس، ولا يحجبها الواحد عن الثلث.

وقوله تعالى: ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾، عن علي رضي الله عنه قال: «إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾ وأن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية»^(١) رواه ابن جرير وغيره.

قال ابن كثير^(٢): (أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدين مقدم على الوصية، وذلك عند إمعان النظر فيهم من فحوى الآية الكريمة) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا﴾. قال ابن زيد: أيهم خير لكم في الدين والدنيا، الوالد والولد الذين يرثونكم لم يدخل عليكم غيرهم فرض لهم الموارث لم يأت بأخرين يشركونهم في أموالكم.

(١) أخرجه أحمد (١/٧٩ و ١٣١ و ١٤٤)، والترمذي (٤/٢٠٩٤ و ٢٠٩٥)، وابن ماجه

(ح/٢٧١٥)، والبيهقي (٦/٢٣٢ - ٢٣٣) وغيرهم، وفي سننه ضعف.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٤٥٩).

وقوله تعالى: ﴿فريضة من الله إن الله كان عليماً حكيماً﴾ قال ابن كثير^(١):
أي هذا الذي ذكرناه من تفضيل الميراث وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض، هو
فرض من الله حكم به، وقضاه ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ
لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ
وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ
لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ
وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾.

أولاد البنين وإن سفلوا حكم أولاد الصلب، سواء كان الولد واحداً
أو جماعة، ذكراً أو أنثى، يحجبون الزوج من النصف إلى الربع، ويحجبون
الزوجة من الربع إلى الثمن، وإذا كان للرجل أكثر من زوجة اشتركن في الربع
أو الثمن.

قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ
أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ
شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً
مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وإن كان رجل يورث كلاله أو امرأة﴾. قال ابن عباس:
الكلاله من لا ولد له ولا والد. وقال قتادة: قوله: ﴿وإن كان رجل يورث كلاله
أو امرأة﴾، والكلاله الذي لا ولد له، ولا والد، [و]^(٢) لا أب، ولا جد، ولا ابن،

(١) المصدر السابق (١/٤٥٩).

(٢) ما بين المعقوفتين إضافة من تفسير ابن جرير.

ولا ابنة، فهؤلاء الإخوة من الأم. إن كان واحداً فله السدس، وإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث، ذكرهم وأنثاهم فيه سواء.

وقوله تعالى: ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين غير مضار﴾. قال قتادة: إن الله تبارك وتعالى كره الضراء في الحياة وعند الموت، ونهى عنه، وقدم فيه فلا تصلح مضارة في حياة ولا موت، وقال ابن عباس: الضرار والحيف في الوصية من الكبائر.

وقوله تعالى: ﴿وصية من الله والله عليم حكيم﴾، أي: علم بالمضار وغيره، حكيم لا يعاجل بالعقوبة.

قال ابن جرير^(١): وأما قوله: ﴿وصية﴾ فإن نصبه من قوله: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾، وسائر ما أوصى به في الأنثيين^(٢). ثم قال: ﴿وصية من الله﴾ مصدرأ من قوله ﴿يوصيكم﴾ انتهى.

قوله عز وجل: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِغِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِمٌ ﴿١٤﴾﴾.

قال ابن عباس: قوله: ﴿تلك حدود الله﴾، يعني طاعة الله، يعني الموارث التي سمي الله. وقال قتادة: تلك حدود الله التي حد لخلقه، وفرائضه بينهم من الميراث والقسمة، فانتهاوا إليها ولا تعدوها إلى غيرها.

(١) انظر «جامع البيان» (٤/٢٨٩).

(٢) في (الأصل) «الآيتين» وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين﴾.

قال ابن جرير^(١): فإن قال قائل: أو يخلد في النار من عصى الله ورسوله في قسمة الموارث؟ قيل: نعم إذا جمع إلى معصيتهما في ذلك شكاً في أن الله فرض عليه ما فرض على عباده في هاتين الآيتين، أو علم ذلك فحاد الله ورسوله في أمرهما، على ما ذكر ابن عباس من قول من قال: حين نزل على رسول الله ﷺ: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ إلى تمام الآيتين، أيورث من لا يركب الفرس، ولا يقاتل العدو، ولا يحوز الغنيمة، نصف المال أو جميع المال؟ استنكاراً منهم قسمة الله ما قسم لصغار ولد الميت، ونسائه وإناث ولده، والله أعلم.



(١) انظر «جامع البيان» (٤/٢٩١).

الدرس الرابع والخمسون

﴿ وَاللّٰحِي يٰۤاٰتِيۡنَ الْفٰجِحٰتِ مِّنۡ نِّسَابِكُمْ فَاٰسْتَشْهِدُوۡا عَلَيۡهِنَّ اَرْبَعَةً مِّنۡكُمْ فَاِنۡ شَهِدُوۡا فَاَمْسِكُوۡهُنَّ فِى الْبُيُوۡتِ حَتّٰى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ اَوْ يَجْعَلَ اللّٰهُ لِهٰنَّ سَبِيۡلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذٰنِ يٰۤاٰتِيۡنَهَا مِنْكُمْ فَاذُوهُمَا فَاِنۡ تَابَا وَاَصْلَحَا فَاَعْرِضُوۡا عَنْهُمَا اِنَّ اللّٰهَ كَانَ تَوّٰبًا رَّحِيۡمًا ﴿١٦﴾ اِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّٰهِ لِلَّذِيۡنَ يَعْمَلُوۡنَ السُّوۡءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ يَتُوۡبُوۡنَ مِنْ قَرِيۡبٍ فَاُوۡلٰٓئِكَ يَتُوۡبُ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّٰهُ عَلِيۡمًا حَكِيۡمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِيۡنَ يَعْمَلُوۡنَ السَّيِّۡاٰتِ حَتّٰى اِذَا حَضَرَ اَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ اِنِّىۡ تُبْتُ اِلٰى رَبِّىۡ وَلاَ الَّذِيۡنَ يَمُوۡتُوۡنَ وَهُمْ كُفَّارٌ اُوۡلٰٓئِكَ اَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذٰبًا اَلِيۡمًا ﴿١٨﴾ يٰۤاٰتِيۡهَا الَّذِيۡنَ ءَامَنُوۡا لَا يَحِلُّ لَكُمْ اَنْ تَرِيۡوُا النِّسَاءَ كَرۡهًا وَّلَا تَعۡضُلُوۡهُنَّ لِتَذٰهَبُوۡا بِبَعْضِ مَآءِ اَتِيۡتُمُوۡهُنَّ اِلَّا اَنْ يَأْتِيَنَّ بِفٰجِحَةٍ مُّبِيۡنَةٍ وَعَاشِرُوۡهُنَّ بِالْمَعۡرُوۡفِ فَاِنۡ كَرِهْتُمُوۡهُنَّ فَعَسَىۡ اَنْ تَكْرَهُوۡا شَيْۡئًا وَيَجْعَلَ اللّٰهُ فِيۡهِ خَيْرًا كَثِيۡرًا ﴿١٩﴾ وَاِنۡ اَرَدْتُمُ اسْتِبۡدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَّءَاتَيْتُمۡنَّ اِحۡدَهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَاۡخُذُوۡا مِنْهُ شَيْۡئًا اَتَاۡخُذُوۡنَهُ بِهَتۡمِنَا وَاِنَّمَا مُبِيۡنًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَاۡخُذُوۡنَهُ وَقَدۡ اَفۡضَىۡ بَعْضُكُمْ اِلَىۡ بَعْضٍ وَاَخَذتَ مِنْكُمْ مِّيۡثَاقًا غَلِيۡظًا ﴿٢١﴾ ﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَدْحَشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَقَّهِنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾ .

قال ابن عباس: كانت المرأة إذا زنت حُبست في البيت حتى تموت، ثم أنزل الله تبارك وتعالى بعد ذلك: ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾^(١)، فإن كانا محصنين رجما، فهذا سبيلهما الذي جعل الله لهما. وفي حديث عبادة عن النبي ﷺ: «خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً: البكران يجلدان وينفيان سنة، والشييان يجلدان ويرجمان»^(٢).

قال ابن جرير^(٣): وأولى الأقوال بالصحة في تأويل قوله تعالى: ﴿أو يجعل الله لهن سبيلاً﴾، قول من قال: السبيل التي جعلها الله جل ثناؤه للشييين المحصنين: الرجم بالحجارة، وللبكرين: جلد مائة ونفي سنة، لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ: أنه رجم ولم يجلد.

وقوله تعالى: ﴿واللذان يأتياها منكم فأذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنها إن الله كان تواباً رحيماً﴾، قال ابن عباس: يؤذى بالتعبير، وضرب النعال.

(١) سورة النور: الآية ٢.

(٢) أخرجه مسلم (ح/١٦٩٠).

(٣) انظر «جامع البيان» (٤/٢٩٤).

قال البغوي^(١): (فإن قيل: ذكر الحبس في الآية الأولى، وذكر في هذه الآية الإيذاء، فكيف وجه الجمع؟ قيل: الآية الأولى في النساء، وهذه في الرجال، وهو قول مجاهد، وقيل: الآية الأولى في الثيب، وهذه في البكر) انتهى.

وقيل: نزل ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا﴾، في اللذين يعملان عمل قوم لوط، قال مجاهد: كل ذلك نسخته الآية التي في النور بالحد المفروض.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾

وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾.

قال مجاهد في قوله: ﴿إِنَّمَا التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة﴾، من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع من معصيته.

وقوله تعالى: ﴿ثم يتوبون من قريب﴾، قال الضحاك: كل شيء قبل الموت فهو قريب له التوبة ما بينه وبين أن يعاين ملك الموت، فإذا تاب حين ينظر إلى ملك الموت فليس له ذلك، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»^(٢). رواه ابن جرير وغيره.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿وليس التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾، قال: إذا تبين الموت فيه لم يقبل الله له توبة، وقال ابن عباس: ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أبعد من التوبة. قال

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٣٢١).

(٢) أخرجه أحمد (٢/١٣٢ و ١٥٣)، والترمذي (ح/٣٥٣٧) وحسنه، وابن ماجه (ح/٤٢٥٣)

من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وهو حديث حسن.

ابن كثير^(١): يعني، أن الكافر إذا مات على كفره وشركه، لا ينفعه ندمه، ولا توبته ﴿أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾.

قوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾.

قال ابن عباس: في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾، كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجها، وإن شاءوا لم يزوجوها، وهم أحق بها من أهلها. فنزلت هذه الآية في ذلك، وقال مجاهد: كان إذا توفي الرجل كان ابنه الأكبر هو أحق بامرأته ينكحها إذا شاء إذا لم يكن ابنها، أو يُنكحها من شاء أخاه أو ابن أخيه.

وقوله تعالى: ﴿ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾، قال ابن عباس: يعني، الرجل تكون له المرأة وهو كاره لصحبتها، ولها عليه مهر فيضربها لتفتدي، وقال أبو قلابة: إذا رأى الرجل من امرأته فاحشة فلا بأس أن يضارها، ويشق عليها حتى تختلع منه، وقال ابن عباس: ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾، وهو البغض والنشوز، فإذا فعلت ذلك فقد حل منها الفدية.

وقوله تعالى: ﴿وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾.

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (١/٤٦٤).

قال ابن جرير: يعني بذلك تعالى ذكره: لا تعضلوا نساءكم لتذهبوا ببعض ما آتیتموهن من غير ريبة ولا نشوز منهن؛ ولكن عاشروهن بالمعروف. وإن كرهتموهن، فلعلکم أن تکرهوهن فتمسکوهن، فيجعل الله في إمساککم إياهن خيراً كثيراً، من ولد یرزقکم منهن، أو عطفکم عليهن بعد کراهتکم إياهن.

وقوله تعالى: ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتیتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتانا وإثماً مبيناً﴾، قال مجاهد: ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج﴾: طلاق امرأة مكان أخرى، فلا يحل له من مال المطلقة شيء وإن كثر.

وقوله تعالى: ﴿وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾، قال ابن عباس: الإفضاء الجماع، ولكن الله كريم يکنى. وقال قتادة: ﴿وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾، والميثاق الغليظ الذي أخذه للنساء على الرجال: إمساک بمعروف أو تسريح بإحسان. وفي الحديث عن النبي ﷺ: «اتقوا الله في النساء فإنکم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»^(١)، رواه مسلم. وقال الربيع بن أنس: كلمة الله هي التشهد في الخطبة، والله أعلم.



(١) أخرجه مسلم (ح/١٢١٨)، من حديث جابر رضي الله عنه.

الدرس الخامس والخمسون

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّيبَاتِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِمَّنْ نِسَاءِكُمْ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾ * وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَتَّغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ۚ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مَخْذَلَاتٍ أَخَذَانِ فَإِذَا أَحْصَيْنَ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ

ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾
يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ
ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ۝

قال ابن عباس: كان أهل الجاهلية يحرمون ما يحرم إلا امرأة الأب، والجمع بين الأختين، فأنزل الله ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف﴾ ﴿وأن تجمعوا بين الأختين﴾ وقال أيضاً: كل امرأة تزوجها أبوك وابنك، دخل أولم يدخل فهي عليك حرام. وعن البراء بن عازب: «أن رسول الله ﷺ بعث أبا بردة إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده أن يقتله، ويأخذ ماله»^(١). رواه الإمام أحمد وأهل السنن.

قوله عز وجل: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ أَلَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِمَّنْ الرِّضَاعُ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِمَّنْ نِسَائِكُمْ أَلَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۝ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ

(١) أخرجه أحمد (٢٩٢/٤)، وأبو داود (ح/٤٤٥٧)، والترمذي (ح/١٣٦٢)، وحسنه، والنسائي (١٠٩/٩ و ١١٠)، وابن ماجه (ح/٢٦٠٧).

مُحْصِنِينَ غَيْرِ مُسْتَفْهِجِينَ^٤ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ^٥ فَرِيضَةً^٤
وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ^٤ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ .

قال ابن عباس: حرم من النسب سبع، ومن الصهر سبع، ثم قرأ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ حتى بلغ ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ قال: والسابعة ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم من النساء.

قال البغوي^(١): وجملة المحرمات في كتاب الله تعالى أربع عشرة: سبع بالنسب، وسبع بالسبب.

فأما السبع بالسبب: فمنها اثنتان بالرضاع، وأربع بالصهرية، والسابعة المحصنات، وهن من ذوات الأزواج.

وأما السبع بالنسب: فقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ ويدخل فيهن الجدات وإن علون، ﴿وَبَنَاتِكُمْ﴾ ويدخل فيهن بنات الأولاد وإن سفلن، ﴿وَأُخْوَاتِكُمْ﴾ سواء كانت من قبل الأب أو الأم، ﴿وَعَمَّاتِكُمْ﴾ ويدخل فيهن جميع أخوات آبائكم وأجدادكم وإن علوا، ﴿وَأَخَالَاتِكُمْ﴾ ويدخل فيهن جميع أخوات أمهاتكم وجداتكم، ﴿وَبَنَاتِ الْأَخِ وَبَنَاتِ الْأُخْتِ﴾ ويدخل فيهن بنات أولاد الأخ والأخت وإن سفلن.

وأما المحرمات بالرضاع: فقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتِكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأُخْوَاتِكُمُ مِنَ الرِّضَاعِ﴾ وجملته أن يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب.

وأما المحرمات بالصهرية: فقوله: ﴿وَأُمَّهَاتُ نَسَائِكُمْ﴾ وجملته أن كل من عقد النكاح على امرأة فتحرم على النكاح أمهات المنكوحة وجداتها وإن علون من

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٣٢٥).

الرضاعة والنسب بنفس العقد، ﴿وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن﴾ الربائب: جمع ربيبة، وهي بنت المرأة ﴿دخلتم بهن﴾ أي جامعتموهن، ويحرم عليه أيضاً بنات المنكوحة، وبنات أولادها وإن سفلن من الرضاع، والنسب بعد الدخول بالمنكوحة حتى لو فارق المنكوحة قبل الدخول بها أو ماتت، جاز له أن ينكح بنتها، ولا يجوز له أن ينكح أمها؛ لأن الله تعالى أطلق تحريم الأمهات، وقال في تحريم الربائب: ﴿فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم﴾ يعني: أزواج أبنائكم. جملته: أنه يحرم على الرجل حلائل أبنائه، وأبناء أولاده، وإن سفلوا من الرضاع والنسب بنفس العقد. وإنما قال ﴿من أصلابكم﴾ ليعلم أن حليلة المتبنى لا تحرم على الرجل الذي تبناه، فإن النبي ﷺ تزوج امرأة زيد بن حارثة، وكان زيد قد تبناه رسول الله ﷺ.

والرابع من المحرمات بالصهرية: حليلة الأب والجد وإن علا، فتحرم على الولد، وولد الولد بنفس العقد، سواء كان الأب من الرضاع أو النسب؛ لقوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾ وكل امرأة تحرم عليك بعقد النكاح تحرم بالوطء في ملك اليمين، والوطء بشبهة.

قوله تعالى: ﴿وإن تجمعوا بين الأختين﴾ لا يجوز للرجل أن يجمع بين الأختين في النكاح سواء كانت الأخوة بينهما بالنسب، أو بالرضاع، وكذلك لا يجوز أن يجمع بين المرأة وعمتها، ولا بين المرأة وخالتها.

قوله تعالى: ﴿إلا ما قد سلف﴾ يعني: لكن ما معني فهو معفو عنه: ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾.

قوله تعالى: ﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم﴾ يعني ذوات الأزواج، لا يحل للغير نكاحهن قبل مفارقة الأزواج، وهذه السابعة من النساء

اللاتي حرمن بالسبب. قال أبو سعيد الخدري: «نزلت في نساء كنَّ يهاجرن إلى رسول الله ﷺ ولهن أزواج، فتزوجهن بعض المسلمين، ثم قدم أزواجهن مهاجرين، فنهى الله المسلمين عن نكاحهن، ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يعني السبايا اللواتي سبين ولهن أزواج في دار الحرب، فيحل لمالكهن وطؤهن بعد الاستبراء) انتهى ملخصاً.

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَالْمَحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ كل امرأة لها زوج فهي عليك حرام إلا أمة ملكتها ولها زوج بأرض الحرب؛ فهي لك حلال إذا استبرأتها.

وقوله تعالى: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، أي: كتب الله عليكم تحريم هؤلاء.

وقوله تعالى: ﴿وَأَحْلَلْ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ عن ابن جريج قال: سألت عطاء عنها، فقال: ﴿وَأَحْلَلْ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ قال: ما وراء ذات القرابة.

وقال ابن جريج^(١): إن الله جل ثناؤه بين لعباده المحرمات، بالنسب والمصهر، ثم المحرمات من المحصنات من النساء، ثم أخبرهم جل ثناؤه أنه قد أحل لهم ما عدا هؤلاء المحرمات، المبيّنات في هاتين الآيتين أن نبتغيه بأموالنا نكاحاً، وملك يمين لا سفاحاً.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ قال ابن عباس: إذا تزوج الرجل منكم المرأة ثم نكحها مرة واحدة، فقد وجب صداقها كله. والاستمتاع هو النكاح. وقال مجاهد: نزلت في نكاح المتعة. وفي

(١) انظر «جامع البيان» (١٠/٥).

الصحيحين عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن نكاح المتعة يوم خيبر، وعن لحوم الحمر الأهلية»^(١).

وقوله تعالى: ﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة إن الله كان عليماً حكيماً﴾.

قال ابن جرير^(٢): وذلك نظير قوله جل ثناؤه: ﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾.

وقال ابن كثير^(٣): وقد استدل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة، ولا شك أنه كان مشروعاً في ابتداء الإسلام، ثم نسخ بعد ذلك.

وقال البغوي^(٤): ذهب عامة أهل العلم أن نكاح المتعة حرام، والآية منسوخة. وعن سبرة^(٥) بن معبد الجهني: «أنه غزا مع رسول الله ﷺ يوم فتح مكة فقال: يا أيها الناس إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً»^(٦). رواه مسلم.

قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فَيَئِمَّتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ

(١) أخرجه البخاري (ح/٥١١٥)، ومسلم (ج/١٤٠٧).

(٢) انظر المصدر السابق (١٤/٥).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٤٧٤).

(٤) انظر «معالم التنزيل» (١/٣٢٨).

(٥) في (الأصل): «سيرة» وهو خطأ.

(٦) أخرجه مسلم (٢/١٠٢٥).

أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾ .

قال ابن عباس في قوله: ﴿ومن لم يستطع منكم طويلاً﴾ قال: من لم يكن له سعة. وقال مجاهد: الغني أن ينكح المحصنات المؤمنات: ﴿فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾ قال سعيد ابن جبير: أما من لم يجد ما ينكح الحرة تزوج الأمة.

وقوله تعالى: ﴿والله أعلم بأيمانكم بعضكم من بعض﴾، أي: كلكم من نفس واحدة، ودينكم واحد، والله يعلم سرائركم، فلينكح بعضكم من بعض.

وقوله تعالى: ﴿فانكحوهن﴾، أي: الأماء ﴿بإذن أهلهن﴾، أي: مواليهن ﴿وآتوهن أجورهن﴾، أي: مهورهن ﴿بالمعروف﴾ على ما تراضيتن به من غير مطل ولا ضرار ﴿محصنات﴾ عفاف غير مسافحات ولا متخذات أخدان ﴿قال ابن عباس: والمسافحات: المعلنات بالزنا﴾ ولا متخذات أخدان ﴿ذات الخليل الواحد. كان أهل الجاهلية يحرمون ما ظهر من الزنا، ويستحلون ما خفي. يقولون: أما ما ظهر منه فهو لوم، وأما ما خفي فلا بأس بذلك. فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾.

وقوله تعالى: ﴿فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ ليس المراد أن التزويج شرط لوجوب الحد؛ بل المراد منه التنبيه على أن المملوك وإن كان محصناً فلا رجم عليه، إنما حدّه خمسون جلدة. قال قتادة في قوله: ﴿فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ خمسون جلدة، ولا نفي ولا رجم. وفي الصحيحين، عن النبي ﷺ قال: «إذا زنت أمة أحدكم فتيين زناها فليجلدها الحد ولا يثرب عليها، ثم إن زنت

فليجلدها الحدّ ولا يثرب عليها، ثم إن زنت الثالثة فتبين زناها فليبعها ولو بحبل من شعره»^(١). وفي رواية: «سئل النبي ﷺ عن الأمة إذا زنت ولم تحصن قال: إن زنت فاجلدوها»^(٢) الحديث. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه خطب فقال: «يا أيها الناس أقيموا الحد على إيمانكم من أحصن منهن ومن لم يحصن»^(٣). رواه مسلم وعند أبي داود مرفوعاً: «أقيموا الحدود على ما ملكت أيمانكم»^(٤).

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال ابن عباس: العنت الزنا. وقال السدي: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرَ لَكُمْ﴾ يقول: وإن تصبروا ولا تنكح الأمة فيكون ولدك مملوكين فهو خير لك.

قوله عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا^(٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا^(٢٨).

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، أي: يريد الله أن يوضح لكم شرائع دينكم، ومصالح أموركم ﴿ويهديكم سنن الذين من قبلكم﴾ يعني طرائقهم الحميدة ﴿ويتوب عليكم﴾ من الإثم والمحارم ﴿والله عليم﴾ بمصالح عباده في أمر دينهم ودنياهم ﴿حكيم﴾ فيما دبر من أمورهم.

وقوله تعالى: ﴿والله يريد أن يتوب عليكم ويود الذين يتبعون الشهوات أن

(١) أخرجه البخاري (ح/٦٨٣٩)، ومسلم (ح/١٧٠٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٣/١٣٢٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (ح/٦٨٣٩).

(٤) أخرجه أحمد (١/٩٥ و ١٣٥ و ١٤٥)، وأبو داود (ح/٤٤٧٣)، بسنده ضعيف.

تميلوا ميلاً عظيماً ﴿ قال مجاهد: ﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾ أن تكونوا مثلهم تزنون كما يزنون. وقال ابن زيد: يريد أهل الباطل، وأهل الشهوات في دينهم أن تميلوا في دينكم ميلاً عظيماً، تتبعون أمر دينهم، وتتركون أمر الله وأمر دينكم.

وقوله تعالى: ﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ قال مجاهد: يريد الله أن يخفف عنكم في نكاح الأمة، وفي كل شيء فيه يسر. وقال ابن كيسان: خلق الإنسان ضعيفاً يستميله هواه وشهوته، وقال طاووس: ليس يكون الإنسان في شيء أضعف منه في النساء. والله أعلم.



الدرس السادس والخمسون

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيه نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِنْ جَحْتَبُوا كِبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ؕ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ؕ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ ؕ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ؕ فَالَّذِينَ حَتُّوا قَبْلَكَ حَفِظْتُ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّيْلِ تَحَافُونَ نُسُوزَهُمْ فَعَظُّوهُمْ وَأَهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُمْ فَإِنْ أَطَعْتُمْ فَلَا بُغْيَا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ؕ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا ؕ إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ؕ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٥﴾ ۞

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِنْ تَحْتَبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ .

قال السدي في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾، نهوا عن أكلهم أموالهم بينهم بالباطل، وبالربا والقمار، والبخس والظلم، ﴿إلا أن تكون تجارة﴾، ليربح في الدرهم ألفاً إن استطاع. قال قتادة: والتجارة رزق من رزق الله، وحلال من حلال الله، لمن طلبها بصدقها وبرها. وقد كنا نحدث أن التاجر الأمين الصدوق، مع السبعة في ظل العرش يوم القيامة.

وقال مجاهد في قول الله تبارك وتعالى: ﴿عن تراض منكم﴾ في تجارة بيع، أو عطاء يعطيه أحد أحداً. وقال الشعبي في البيعين: إنهما بالخيار ما لم يتفرقا، فإذا تصادرا فقد وجب البيع. وعن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «إذا تباع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار، ما لم يتفرقا وكانا جميعاً، أو يخير أحدهما الآخر، فإن خير أحدهما الآخر فتبايعا على ذلك فقد وجب البيع، وإن تفرقا بعد أن تباعا ولم يترك واحد منهما البيع، فقد وجب البيع»^(١). متفق عليه واللفظ لمسلم.

وقوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً﴾، عن عمرو بن

(١) أخرجه البخاري (ح/٢١١٢)، ومسلم (ح/١٥٣١)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

العاص قال: «احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيمنت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح، قال: فلما قدمنا على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له فقال: يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟ قلت: يا رسول الله إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فذكرت قول الله عز وجل: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً﴾، فتيمنت ثم صليت. فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً^(١). رواه أحمد وغيره. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: «كان رجل ممن كان قبلكم، وكان به جرح، فأخذ سكيناً فجزّ بها يده، فما رقأ^(٢) الدم حتى مات. قال الله عز وجل: عبدي بادرنبي بنفسه، حرّمت عليه الجنة»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً وكان ذلك على الله يسيراً﴾.

قال ابن كثير^(٤): أي ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه متعدياً فيه ظالماً في تعاطيه، أي عالماً بتحريمه متجاسراً على انتهاكه ﴿فسوف نصليه ناراً﴾ الآية، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد.

وقوله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً﴾، في الصحيحين عن النبي أنه قال: «اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم

(١) أخرجه أحمد (٢٠٣/٤ — ٢٠٤)، وأبو داود (ح/٣٣٤)، والحاكم (١/١٧٧)، وصححه ووافقه الذهبي، وأخرجه البخاري معلقاً بصيغة التمريض.

(٢) في (الأصل): «دفا» وهو خطأ.

(٣) أخرجه البخاري (ح/٣٤٦٣)، ومسلم (ح/١١٣) من حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه.

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٤٨٠).

الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»^(١). وعن ابن مسعود قال: «سألت النبي ﷺ ما الكبائر؟ قال: أن تدعو الله ندأ وهو خلقك، وأن تقتل ولدك من أجل أن يأكل معك، أو تزني بحليلة جارك. وقرأ علينا رسول الله ﷺ ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون﴾^(٢). رواه ابن جرير وغيره. وعن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراف بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس»^(٣). قال ابن عباس: الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب. وقال: هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع. وفي رواية: هن إلى سبعمئة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهِم ۗ ﴿٣٧﴾ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَكُمْ تَرَكَ الْوَالِدَانَ وَالْأَقْرَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَعَاثُوهُمْ نَصِيبُهُمْ إِنَّا اللَّهُ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۗ﴾

عن مجاهد قال: «قالت أم سلمة: يا رسول الله تغزو الرجال ولا تغزو، وإنما لنا نصف الميراث! فنزلت ﴿ولا تمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾، ونزلت ﴿إن المسلمين

(١) أخرجه البخاري (ح/٦٨٥٧)، ومسلم (ح/٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٧٥٣٢ و٤٤٧٧)، ومسلم (١/٩١).

(٣) أخرجه البخاري (ح/٦٦٧٥).

والمسلمات ﴿١﴾. وقال ابن عباس: لا يتمنى الرجل يقول: ليت لي مال فلان وأهله، فنهى الله سبحانه عن ذلك، ولكن ليسأل الله من فضله. وقال ابن سيرين: نهيتم عن الأمانى، ودللتم على ما هو خير منه ﴿واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليماً﴾.

قال ابن كثير^(٢): أي هو عليم بمن يستحق الدنيا فيعطيه منها، وبمن يستحق الفقر فيفقره، وعليم بمن يستحق الآخرة فيوفقه لأعمالها، وبمن يستحق الخذلان فيخذله عن تعاطي الخير وأسبابه، وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله من فضله، فإن الله يحب أن يسأل، وإن أفضل العبادات انتظار الفرج»^(٣). رواه الترمذي.

وقوله تعالى: ﴿ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيداً﴾. قال ابن عباس: ﴿ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون﴾. قال: الموالى العصبية يعني الورثة. ﴿والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيداً﴾. قال الحسن: كان الرجل يحالف الرجل ليس بينهما نسب، فيرث أحدهما الآخر، فنسخ الله ذلك في الأنفال فقال: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم﴾^(٤). وقال ابن عباس: كان الرجل يعاقد الرجل أيهما مات ورثه الآخر، فأنزل الله ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى

(١) أخرجه أحمد (٣٢٢/٦، ح/٥٠١١)، وابن جرير (٤٦/٤)، والحاكم (٣٠٥/٢ - ٣٠٦)

وصححه ووافقه الذهبي، وهو صحيح.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٨٨/١).

(٣) أخرجه الترمذي (ح/٣٨٠٥)، وابن أبي الدنيا في «القناعة والتعفف» (ح/٨٠)، وأيضاً في

«الفرج بعد الشدة» (ح/٢)، والطبراني (١٢٥/١٠)، بسند ضعيف جداً.

(٤) سورة الأنفال: الآية ٧٥.

ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفًا، يقول: إلا أن يوصوا إلى أوليائهم الذين عاقدوا وصية، فهو لهم جائز من ثلث مال الميت، وذلك هو المعروف. وقال مجاهد: ﴿والذين عقدت أيمانكم﴾ كان حلف في الجاهلية، فأمروا في الإسلام أن يعطوهم نصيبهم من العقل والنصرة والمشورة، ولا ميراث. وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حلف في الإسلام، وكل حلف كان في الجاهلية فلم يزد الإسلام إلا شدة، وما يسرني أن لي حمر النعم، وإنني نقضت الحلف الذي كان في دار الندوة»^(١). رواه ابن جرير.

وقال ابن كثير^(٢) في قوله: ﴿ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون﴾، أي: ورثة من قراباته من أبويه وأقربائه، وهم يرثون دون سائر الناس، كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فهو لأولى رجل ذكر»^(٣).

قوله عز وجل: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالضَّرِيحَاتُ قَنِينَتٌ حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّيْلِ نَحَافُونَ نُسُوزَهُمْ فَعِظُوهُمْ وَأَهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُمْ فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ

(١) أخرجه مسلم - دون قوله: «ما يسرني أني... إلخ - (ح/٢٥٣٠) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه، وأخرجه أحمد (٦١/٥)، والطبراني في الكبير (٨٦٤/١٨) عن قيس بن عاصم رضي الله عنه وهو حديث صحيح. أما حديث ابن عباس: فأخرجه ابن جرير (٥٥/٥).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٨٩/١).

(٣) أخرجه البخاري (ح/٦٧٣٢)، ومسلم (١٦١٥).

أَهْلِيهَا إِنْ يُرِيدَ إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٥﴾ .

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾، يعني أمراء عليها أن تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته، وطاعته أن تكون محسنة إلى أهله، حافظة لماله، وفضله عليها بنفقته وسعيه. وقال الضحاك: الرجل قائم على المرأة يأمرها بطاعة الله، فإن أبت فله أن يضربها ضرباً غير مبرح، أي غير مؤثر. وقال السدي: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ يأخذون على أيديهن ويؤدبهن. وقال قتادة: «صك رجل امرأته فأتت النبي ﷺ، فأراد أن يقيدها منه، فأنزل الله ﴿الرجال قوامون على النساء﴾^(١)». وقال الزهري: لو أن رجلاً شج امرأته أو جرحها لم يكن عليه في ذلك قود، وكان عليه العقل يعني الدية، إلا أن يعدو عليها فيقتلها فيقتل بها.

وقوله تعالى: ﴿فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله﴾. قال سفيان: ﴿فالصالحات﴾ يعملن بالخير ﴿قانتات﴾ قال مجاهد: مطيعات. وقال قتادة: أي مطيعات لله ولأزواجهن. ﴿حافظات للغيب بما حفظ الله﴾. قال السدي: تحفظ على زوجها ماله وفرجها حتى يرجع كما أمرها الله. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالها، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ الآية^(٢). رواه ابن جرير. قال ابن جرير^(٣): وفي الكلام متروك استغني بدلالة الظاهر من الكلام عليه عن ذكره ومعناه، ﴿فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله﴾ فأحسنوا إليهن وأصلحوا.

(١) أخرجه ابن جرير (٥٨/٥)، عن قتادة مرسلًا.

(٢) أخرجه أحمد (٢/٢٥١ و ٤٣٢ و ٤٣٨) والطيالسي (٣٠٦)، وابن جرير (٦٠/٥)،

والحاكم (٢/١٦١)، وصححه، ووافقه الذهبي، وهو حديث صحيح.

(٣) انظر «جامع البيان» (٥/٦١).

وقوله تعالى: ﴿واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً﴾. قال ابن زيد: النشوز معصية الزوج وخلافه. وقال مجاهد: إذا نشزت المرأة عن فراش زوجها يقول لها: اتقي الله وارجعي إلى فراشك، فإن أطاعته فلا سبيل عليها. وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿واهجروهن في المضاجع﴾، يعني بالهجران، أن يكون الرجل وامرأته على فراش واحد لا يجامعها. وقال قتادة: إذا خاف نشوزها وعظها، فإن قبلت، وإلا هجر مضجعها. وعن معاوية بن حيدة «أنه قال: يا رسول الله ما حق امرأة أحدنا عليه؟ قال: أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت». وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿واهجروهن في المضاجع واضربوهن﴾ قال: تهجرها في المضجع، فإن أقبلت وإلا فقد أذن الله لك أن تضربها ضرباً غير مبرح، ولا تكسر لها عظماً، فإن أقبلت، وإلا فقد حل لك منها الفدية ﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً﴾. قال: إذا ضاجعته. وقال سفيان بن عيينة: إذا فعلت ذلك لا يكلفها أن تحبه، لأن قلبها ليس في يديها.

وقوله تعالى: ﴿إن الله كان علياً كبيراً﴾. قال ابن كثير^(١): فيه تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب، فإن الله العلي الكبير وليهن، وهو منتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن. وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تضربوا إماء الله، فجاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال: ذئرن النساء على أزواجهن. فرخص رسول الله ﷺ في ضربهن، فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشتكين أزواجهن، فقال رسول الله ﷺ: لقد أطاف بآل محمد نساء كثير يشتكين من أزواجهن، ليس أولئك بخياركم»^(٢). رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٩٢/١).

(٢) أخرجه أبو داود (٢١٤٦/٢)، والنسائي في الكبرى (٣٧١/٥)، وابن ماجه (ح/١٩٨٥)

من حديث إياس بن عبد الله بن أبي ذباب، وهو حديث صحيح.

وقوله تعالى: ﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً﴾. قال السدي في قوله تعالى: ﴿وإن خفتم شقاق بينهما﴾ إن ضربها فأبت أن ترجع وشاقته، يقول: عادته. وقال سعيد بن جبير: يعظها، فإن انتهت وإلاً هجرها، فإن انتهت وإلاً ضربها، فإن انتهت وإلاً رفع أمرها إلى السلطان، فيبعث حكماً من أهله وحكماً من أهلها، فيقول الحكم الذي من أهلها: يفعل بها كذا، ويقول الحكم الذي من أهله: تفعل به كذا، فأيهما كان الظالم رده السلطان، وأخذ فوق يديه، وإن كانت ناشزاً أمره أن يخلع. وقال ابن عباس في قوله: ﴿إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾ وذلك الحكمان، وكذلك كل مصلح يوفقه الله للحق والصواب.

وقال البخاري^(١)، باب الشقاق، وهل يشير بالخلع عند الضرورة؟ وقوله تعالى: ﴿وإن خفتم شقاق بينهما﴾ الآية.

قال ابن بطال^(٢): أجمع العلماء على أن المخاطب بقوله تعالى: ﴿وإن خفتم شقاق بينهما﴾ الحكام، وأن المراد بقوله: ﴿إن يريدوا إصلاحاً﴾ الحكمان، وأن الحكمين يكون أحدهما من جهة الرجل، والآخر من جهة المرأة، إلا أن لا يوجد من أهلها من يصلح، فيجوز أن يكون من الأجانب ممن يصلح لذلك، وأنهما إذا اختلفا لم ينفذ قولهما، وإن اتفقا نفذ في الجميع بينهما من غير توكيل. واختلفوا فيما إذا اتفقا على الفرقة: فقال مالك والأوزاعي وإسحاق: ينفذ بغير توكيل ولا إذن من الزوجين. وقال الكوفيون والشافعي وأحمد: يحتاجان إلى الإذن. فأما مالك ومن تابعه فالحقوه بالعنين والمولي، فإن الحاكم يطلق عليهما، فكذلك هذا وأيضاً، فلما كان المخاطب بذلك الحكام، وأن الإرسال إليهم دل على أن بلوغ

(١) انظر (٩/٣١٤ - مع الفتح - ح/٥٢٧٨).

(٢) انظر «الفتح»، (٩/٣١٤ - ٣١٥).

الغاية من الجمع أو التفريق إليهم، وجرى الباقون على الأصل، وهو أن الطلاق بيد الزوج، فإن أذن في ذلك وإلاً طلق عليه الحاكم) انتهى .

وقال الشيخ ابن سعدي^(١): ومهما وجدا طريقاً إلى الإصلاح والاتفاق والملاءمة بينهما لم يعدلا عنها إما بتنازل عن بعض الحقوق، أو ببذل مال أو غير ذلك، فإن تعذرت الطرق كلها، ورأيا أن التفريق بينهما أصلح لتعذر الملائمة، فرقا بينهما بما تقتضيه الحال، بعوض أو بغير عوض، ولا يشترط في هذا رضى الزوج، لأن الله سماهما حكيمين لا وكيلين. ومن قال: أنهما وكيلان اشترط في التفريق رضى الزوج، ولكن هذا القول ضعيف. ولمحبة الباري للاتفاق بينهما، وترجيحه على الآخر قال: ﴿إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾ (انتهى .

وقوله تعالى: ﴿إن الله كان عليماً خبيراً﴾ .

قال ابن جرير^(٢): يعني جل ثناؤه ﴿إن الله كان عليماً﴾ بما أراد الحكمان من إصلاح بين الزوجين وغيره، ﴿خبيراً﴾ بذلك وبغيره من أمور غيرهما، لا يخفي عليه شيء منه، حافظ عليهم حتى يجازي كلاً منهم جزاءه، بالإحسان إحساناً وبالإساءة غفراناً أو عقاباً. وبالله التوفيق.



(١) انظر «تيسير الكريم الرحمن» (٦٢/٢) نحوه.

(٢) انظر «جامع البيان» (٧٠/٥).

الدرس السابع والخمسون

﴿ ٣٦ ﴾ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي
 الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ
 بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ
 مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٧﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ
 وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا
 مُّهِينًا ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقًا نَّائِسٍ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا
 بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٩﴾ وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا
 بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ
 مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكَ حَسَنَةً يُّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤١﴾ فَكَيْفَ
 إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَدْعُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٣﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٧﴾ .

قال البغوي^(١): قوله تعالى: ﴿واعبدوا الله﴾، أي: وحدوه وأطيعوه ﴿ولا تشركوا به شيئاً﴾ ثم ساق بسنده عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «كنت رديف النبي ﷺ فقال: هل تدري يا معاذ ما حق الله على الناس؟ قال قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. أتدري يا معاذ ما حق الناس على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإن حق الناس على الله أن لا يعذبهم. قال قلت: يا رسول الله أفلا أبشر الناس؟ قال: دعهم يعملون»^(٢).

قوله تعالى: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ برأ بهما وعطفاً عليهما ﴿وبذي القربى﴾، أي: أحسنوا ﴿بذي القربى واليتامى والمساكين﴾ ثم ساق بسنده عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة»

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٣٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٢٨٥٦)، ومسلم (ح/٣٠).

هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى وفرق بينهما شيئاً^(١).

وقوله تعالى: ﴿والجار ذي القربى﴾. قال ابن عباس: يعني ذا الرحم.
وقال مجاهد: جارك وهو ذا قرابتك.

وقوله تعالى: ﴿والجار الجنب﴾ قال ابن عباس: الذي ليس بينك وبينه قرابة. وقال مجاهد: البعيد في النسب وهو جار.

وقوله تعالى: ﴿والصاحب بالجنب﴾. قال مجاهد: صاحبك في السفر.
وقال علي: هي المرأة. وقال ابن عباس: ﴿الصاحب بالجنب﴾ الملازم.

قال ابن جرير^(٢): وقد يدخل في هذا الرفيق في السفر، والمرأة، والمنقطع إلى الرجل الذي يلازمه رجاء نفعه، لأن كلهم بجنب الذي هو معه وقريب منه، وقد أوصى الله تعالى بجمعهم، لوجوب حق صاحب على المصحوب؛ وساق بسنده عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إن خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وابن السبيل﴾. قال مجاهد: هو الذي يمر عليك وهو مسافر. وقال قتادة: هو الضيف.

وقوله تعالى: ﴿وما ملكت أيمانكم﴾ يعني الأرقاء. قال مجاهد: كل هذا أوصى الله به.

(١) أخرجه البخاري (ح/٥٣٠٤) من حديث سهل رضي الله عنه، وأخرجه مسلم (ح/٢٩٨٣)، عن أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه.

(٢) انظر «جامع البيان» (٥/٨٢).

(٣) أخرجه أحمد (٢/١٦٨)، والترمذي (ح/١٩٤٤) وحسنه، والحاكم (٤/١٦٤) وصححه ووافقه الذهبي، وهو حديث صحيح.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾. قال مجاهد: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا﴾. متكبراً ﴿فَخُورًا﴾، قال: بعدما أعطي، وهو لا يشكر الله. قال أبو رجاء: لا تجد سيئء الملكة إلاَّ وجدته مختالاً فخوراً، وتلا ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ ولا عاقاً إلاَّ وجدته جبّاراً شقيماً، وتلا ﴿وَبِرًّا بِالذِّمَّةِ وَلَمْ يُجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾. قال طاووس: البخل أن يبخل الإنسان بما في يديه، والشح، أن يشح على ما في أيدي الناس. قال: يحب أن يكون له ما في أيدي الناس بالحل والحرام لا يقنع. وقال قتادة في قوله: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ﴾ هم أعداء الله أهل الكتاب، بخلوا بحق الله عليهم، وكتموا الإسلام ومحمداً ﷺ، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.

قال ابن كثير^(٢): والظاهر أن السياق في البخل بالمال، وإن كان البخل بالعلم داخلًا في ذلك بطريق الأولى، فإن السياق في الإنفاق على الأقارب والضعفاء.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾. قال ابن كثير^(٣): فالبخيل جحود لنعمة الله، ولا تظهر عليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكُمْ لَشَهِيدٌ﴾^(٤)، أي: بحاله وشمائله، وقال ههنا ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ولهذا نوعدكم بقوله ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ والكفر: هو الستر والتغطية، فالبخيل يستر نعمة الله عليه ويكتمها

(١) سورة مريم: الآية ٣٢.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٤٩٦).

(٣) المصدر السابق (١/٤٩٦).

(٤) سورة العاديات: الآيتان ٦ و ٧.

ويجحدتها»، فهو كافر لنعمة الله عليه. وفي الحديث: «أن الله إذا أنعم نعمة على عبد أحب أن يظهر أثرها عليه»^(١). وفي الدعاء النبوي: «واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها عليك، قابليها، وأتممها علينا»^(٢). انتهى ملخصاً.

قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقًا لِلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾.

قال السدي: نزلت في المنافقين. قال ابن كثير^(٣): ذكر الممسكين المذمومين وهم البخلاء، ثم ذكر الباذلين المرائين الذين يقصدون بإعطائهم السمعة، وأن يمدحوا بالكرم، ولا يريدون بذلك وجه الله، وفي حديث الثلاثة الذين هم أول من تسجر بهم النار وهم: العالم، والغازي، والمنفق المراءون بأعمالهم. «يقول صاحب المال: ما تركت من شيء تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت في سبيلك. فيقول الله: كذبت إنما أردت أن يقال جواد، فقد قيل أي فقد أخذت جزاءك في الدنيا وهو الذي أردت بفعلك»^(٤). وإن رسول الله ﷺ قال لعدي بن حاتم: «إن أباك أراد أمراً فبلغه»^(٥). وفي حديث آخر أن رسول الله ﷺ «سئل عن

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب»، (١٦٣/٥) والسهمي في «تاريخ جرجان» (ص ١٠١)، وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود (ح/٩٦٩)، والطبراني (٢٣٧/١٠)، وابن حبان — كما في الإحسان — (٢/١٧٠ — ١٧١)، والحاكم (٢٦٥/١) وصححه، ووافقه الذهبي!! قلت: وفي إسناده ضعف من جهة شريك بن عبد الله القاضي. تنبيه: وقع عند أبي داود (طبعة/الدعاس): «جامع — يعني بن شداد» وهو خطأ فليصحح.

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٩٦/١).

(٤) أخرجه مسلم (ح/١٩٠٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أخرجه أحمد (٤/٢٥٨ و ٣٧٩) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه وفي سنده ضعف.

عبد الله بن جدعان: هل ينفعه إنفاقه وإعتاقه؟ فقال: لا إنه لم يقل يوماً من الدهر: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين^(١). ولهذا قال: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية، أي: إنما حملهم على صنيعهم هذا القبيح وعدولهم عن فعل الطاعة على وجهها الشيطان، فإنه سول لهم وأملى لهم، وقارنهم فحسن لهم القبائح، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾، ولهذا قال الشاعر:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

ثم قال تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ الآية، أي: وأي شيء يضرهم لو آمنوا بالله، وسلكوا الطريق الحميدة، وعدلوا عن الرياء إلى الإخلاص والإيمان بالله، رجاء موعوده في الدار الآخر لمن يحسن عمله، وأنفقوا مما رزقهم الله في الوجوه التي يحبها الله ويرضاها؟ [و] قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾، أي: وهو عليم بنياتهم الصالحة والفسادة، وعليم بمن يستحق التوفيق منهم، ويلهمه رشده ويقبضه لعمل صالح يرضى به عنه، وبمن يستحق الخذلان والطرده عن جنبه الأعظم الإلهي، الذي من طرد عن بابه فقد خاب وخسر في الدنيا والآخرة، عياداً بالله من ذلك) انتهى.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٤١﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰئِلَةٍ شَهِيدًا ﴿٤٢﴾ يَوْمَئِذٍ يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ سَوَّيْ بِهِمُ الْأَرْضَ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٣﴾.

قال ابن عباس في قوله: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ قال: رأس نملة حمراء. وقال قتادة: كان بعض أهل العلم يقول: لأن تفضل حسناتي على سيئاتي ما يزن ذرة، أحب إليّ

(١) أخرجه مسلم (ح/٢١٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

من أن تكون لي الدنيا جميعاً. وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها، الرزق في الدنيا ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بها في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة لم تكن له حسنة»^(١). رواه ابن جرير وغيره.

وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ قال: الجنة. وفي حديث الشفاعة الطويل عن رسول الله ﷺ: فيقول الله عز وجل: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، فأخرجوه من النار، فيخرجون خلقاً كثيراً. ثم يقول أبو سعيد: اقرؤوا إن شئتم ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ الآية^(٢)، متفق عليه.

وقوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾. قال ابن جريج: قوله: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾ قال: رسولها، فيشهد علينا أن قد أبلغهم ما أرسله الله إليهم. ﴿وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾. قال: «كان النبي ﷺ إذا أتى عليها فاضت عيناه». وعن ابن مسعود: أن النبي ﷺ قال له: «اقرأ عليّ». قال: يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال: إني أحب أن أسمع من غيري. قال: فقرأت سورة النساء، حتى أتيت على هذه الآية ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾. فقال: حسبك الآن. فالتفت فإذا عيناه تذرفان»^(٣). متفق عليه.

وقوله تعالى: ﴿يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً﴾ عن سعيد بن جبير قال: أتى رجل إلى ابن عباس فقال:

(١) أخرجه مسلم (ح/٢٨٠٨).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٧٤٣٩)، ومسلم (ح/١٨٣).

(٣) أخرجه البخاري (ح/٤٥٨٢)، ومسلم (ح/٨٠٠).

سمعت الله يقول: ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾، وقال في آية أخرى: ﴿ولا يكتُمون الله حديثاً﴾، فقال ابن عباس: أما قوله: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ فإنهم لما رأوا الله لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا: تعالوا فلنجدد، فقالوا: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ فختم الله على أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم، فلا يكتُمون الله حديثاً. وقال الحسن: إنها موطن: ففي موطن لا يتكلمون، ولا تسمع إلا همساً، وفي موطن يتكلمون ويكذبون، وفي موطن يسألون الرجعة، وآخر تلك المواطن أن يختم على أفواههم، وتتكلم جوارحهم، وهو قوله: ﴿ولا يكتُمون الله حديثاً﴾، والله أعلم.



الدرس الثامن والخمسون

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ أَنْظَرَ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِبْرُوتَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن يَجِدَ لَهُ

نَصِيرًا ﴿٥٦﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٧﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ
 عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم
 مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٨﴾ فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِءِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٩﴾ إِنَّ
 الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَمَا نُصَلِّيَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا أُخْرَى
 لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيمًا حَكِيمًا ﴿٦٠﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ
 وَتُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٦١﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُمْ مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَايِبِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ .

روى ابن جرير عن عليّ: أنه كان هو وعبد الرحمن ورجل آخر شربوا الخمر، فصلى ربهم عبد الرحمن فقراً: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ فخلط فيها، فنزلت: ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾. وعن أبي رزين قال: كانوا يشربون بعدما أنزلت التي في البقرة وبعد التي في النساء، فلما أنزلت التي في المائدة تركوها. وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نعس أحدكم وهو يصلي، فليصرف ولينم حتى يعلم ما يقول»^(١) رواه البخاري والنسائي. وفي بعض ألفاظه: «فلعله يذهب يستغفر فيسب نفسه»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا﴾ قال ابن عباس: قوله: ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل﴾ قال: المسافر. يقول: لا تقربوا الصلاة وأنتم جنب إذا وجدتم الماء، فإن لم تجدوا الماء فقد أحللت لكم أن تمسحوا بالأرض. وقال إبراهيم: لا بأس أن يمر الجنب في المسجد إذا لم يكن له طريق غيره.

وقوله تعالى: ﴿وإن كنتم مرضىٰ أو علىٰ سفر أو جاء أحد منكم من الغائط

(١) أخرجه البخاري (ح/٢١٣).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٢١٢)، ومسلم (ح/٧٨٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً غفوراً ﴿٤٣﴾ عن ابن أبي مليكة قال: دخل ابن عباس على عائشة فقالت: كنت أعظم المسلمين بركة على المسلمين، سقطت فلدتك بالأبواء فأنزل الله فيك آية التيمم. وقال ابن مسعود: المرض الذي قد أرخص له في التيمم هو الكسير الجريح، فإذا أصابت الجنابة الكسر اغتسل ولا يحل جراحته، إلا جراحة لا يخشى عليها. وقال سعيد بن جبير: إذا كان به جروح أو قروح يتيمم. وقال مجاهد: والمرض أن يصيب الرجل والجرح والقرح والجدري، فيخاف على نفسه من برد الماء وأذاه، يتيمم بالصعيد كما يتيمم المسافر الذي لا يجد الماء.

وقوله: ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ هو كناية عن حاجة الإنسان، والغائط في الأصل: الموضع المظتمن من الأرض. قال مجاهد: ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ قال: الغائط الوادي.

وقوله تعالى: ﴿أو لامستم النساء﴾ قال ابن عباس: هو الجماع، ولكن الله كريم يكتفي. وقال ابن مسعود: القبلة من اللمس، وفيها الوضوء. قال إبراهيم: اللمس من شهوة ينقض الوضوء. وعن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ ينال مني القبلة بعد الوضوء، ثم لا يعيد الوضوء»^(١). رواه ابن جرير. وعن ابن جريج: قلت لعطاء: ﴿فتيمموا صعيداً طيباً﴾ قال: الطيب ما حولك. قلت: مكان جرد غير بطح أيجزىء عني؟ قال: نعم. قال ابن جرير^(٢) يعني «بالطيب»: طاهراً من الأقدار والنجاسات. وعن أبي مالك قال. وضع عمار بن ياسر كفيه في التراب، ثم رفعها فنفخها فمسح وجهه وكفيه ثم قال. هكذا التيمم. قال الحسن: يصلي المتيمم

(١) أخرجه أحمد (٢١٠/٦)، وأبو داود (ح/١٧٩)؛ والترمذي (ح/٨٦)، وابن ماجه (ح/٥٠٢)، وهو حديث صحيح.

(٢) انظر «جامع البيان» (١٠٩/٥).

بتيمة ما لم يحدث. وعن علي رضي الله عنه أنه كان يقول: التيمم لكل صلاة.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وأعدل الأقوال: التيمم لوقت كل صلاة.

قوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُشْتَرُونَ
الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى
بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا
وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالسِّنِينَ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا
سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ
إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ .

قال ابن عباس: كان رفاة بن زيد بن الثابت من عظماء اليهود، إذا كلم
رسول الله ﷺ لوى لسانه وقال: راعنا سمعك يا محمد حتى نفهمك، ثم طعن في
الإسلام وعابه، فأنزل الله: ﴿ أَلَمْ تَرَ الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُشْتَرُونَ
الضَّلَالََةَ ﴾ إلى قوله: ﴿ فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾. وقال مجاهد في قوله: ﴿ يحرفون
الكلم عن مواضعه ﴾ تبديل اليهود التوراة. وقال ابن زيد في قوله: ﴿ واسمع غير
مسمع ﴾ قال: هذا قول أهل الكتاب يهود، كهيئة ما يقول الإنسان: اسمع
لاسمعت، أذى لرسول الله ﷺ وشتماً له^(١) واستهزاء.

وقوله تعالى: ﴿ وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين ﴾ قال الضحاك: كان
الرجل من المشركين يقول: أرعني سمعك، يلوي بذلك لسانه يعني يحرف معناه.
قال ابن زيد: والراعن: الخطأ من الكلام.

وقوله تعالى: ﴿ ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا وانشأنا لكان خيراً لهم
وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾ قال ابن زيد في قوله: ﴿ ولو

(١) في (الأصل): «واشتماله» وهو خطأ.

أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم ﴿ قال يقولون: اسمع منا فإننا قد سمعنا، وأطعنا، وانظرنا فلا تعجل علينا.

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آوَوْا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهَ فَرَدَّهَا عَلَىٰ أَذْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۗ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۗ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ .

قال ابن عباس: «كلم رسول الله ﷺ رؤساء من أحبار يهود، منهم عبد الله بن سوريا وكعب بن أسد فقال لهم: يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا، فوالله إنكم لتعلمون أن الذي جثتكم به لحق. فقالوا: ما نعرف ذلك يا محمد، وجحدوا ما عرفوا وأصروا على الكفر، فأنزل الله فيهم: ﴿يا أيها الذين آوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أذبارها﴾ الآية^(١). قال إبراهيم: لما سمعها كعب الأحبار قال: يا رب آمنت، يا رب أسلمت. مخافة أن تصيبه، ثم رجع فأتى أهله باليمن، ثم جاء بهم مسلمين في زمان عمر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ قال ابن عمر: كنا معشر أصحاب النبي ﷺ لانشك في عذاب آكل مال اليتيم، وشاهد الزور، وقاطع الرحم، حتى نزلت هذه الآية، فأمسكنا عن الشهادة.

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزُكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَيْبُتُ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ .

(١) أخرجه ابن جرير (١٩٤/٥)، وفي سنده ضعف.

قال الحسن في قوله: ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم﴾ هم اليهود والنصارى قالوا: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾^(١)، وقالوا: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾^(٢) وقال التيمي: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿ولا يظلمون فتية﴾ قال: ما فتلت بين أصبعيك. وقال مجاهد: الفتيل الذي في شق النواة. وقال ابن جريج: ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم﴾ قال: هم اليهود والنصارى ﴿انظر كيف يفترون على الله الكذب﴾ وعن معاوية عن النبي ﷺ قال: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإن هذا المال حلو خضر، فمن يأخذه بحقه يبارك له فيه، وإياكم والتمادح فإنه الذبح»^(٣). رواه أحمد.

قوله عز وجل: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾^(٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ نَجِدَ لَهُ نَصِيراً^(٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً^(٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا^(٥٤) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا^(٥٥).

قال ابن عباس في قوله: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطغوت﴾ الجبت: الأصنام، والطاغوت: الذين يكونون بين أيدي الأصنام يعبرون عنها الكذب ليضلوا الناس. وقال عمر: الجبت: السحر،

(١) سورة المائدة: الآية ١٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ١١١.

(٣) أخرجه أحمد (٩٢/٤ و ٩٣ و ٩٨ و ٩٩)، والطحاوي في المشكل (٢/٢٧٩)، وسنده حسن. وأوله: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» عند البخاري ومسلم من حديث معاوية رضي الله عنه أيضاً.

الطاغوت: الشيطان. قال ابن جرير: الجبت والطاغوت اسمان لكل معظم بعبادة من دون الله، أو طاعة، أو خضوع من حجر، أو إنسان، أو شيطان.

وقوله تعالى: ﴿ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾، قال مجاهد: نزلت في كعب بن الأشرف وكفار قريش، أنه قال: كفار قريش أهدى من محمد. وقال قتادة: قال كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب ما قالا، وهما يعلمان أنهما كاذبان، فأنزل الله تعالى: ﴿أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً﴾.

وقوله تعالى: ﴿أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً﴾ قال السدي: يقول: لو كان لهم نصيب من الملك إذا لم يؤتوا محمداً نقيراً، والنقير: النكتة التي في وسط النواة.

وقوله تعالى: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾ قال قتادة: حسدوا هذا الحي من العرب على ما آتاهم الله من فضله، بعث الله منهم نبياً، فحسدوهم على ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيراً﴾ قال مجاهد: ﴿فمنهم من آمن به﴾ قال: بما أنزل على محمد من يهود ﴿ومنهم من صد عنه﴾.

وقال ابن كثير^(١): ﴿فمنهم من آمن به﴾، أي: بهذا الإتياء وهذا الإنعام ﴿ومنهم من صد عنه﴾، أي: كفر به، وأعرض عنه، وسعى في صد الناس عنه، وهو منهم، ومن جنسهم، فقد اختلفوا عليهم، فكيف بك يا محمد، ولست من بني إسرائيل؟ فالكفرة منهم أشد تكديماً لك، ولهذا قال متوعداً لهم ﴿وكفى بجهنم سعيراً﴾، أي: وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسوله.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٥١٣ - ٥١٤).

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلَّمًا تَضَعَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

قال ابن عمر في قوله: ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها﴾ قال: إذا احترقت جلودهم بدلناهم جلوداً أيضاً أمثال القراطيس. قال الحسن: تنضجهم في اليوم سبعين ألف مرة.

وقوله تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلاً ظليلاً﴾ قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لهم فيها أزواج مطهرة﴾ قال: من الأقدار والأذى. وقال مجاهد: مطهرة من البول والحيض، والنخام واليزاق، والمنى والولد. وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام، لا يقطعها شجرة الخلد»^(١). رواه ابن جرير. والله أعلم.



(١) أخرجه أحمد (٤١٨/٢)، والبخاري — دون قوله: «شجرة الخلد» — (ح/٤٨٨١)، ومسلم (ح/٢٨٢٦). وبهذا اللفظ الذي أورده المؤلف — رحمه الله — أخرجه: أحمد (٢/٤٥٥) و (٤٦٢)، والطيالسي (ح/٢٨٣٣)، وابن جرير (٥/١٤٤).

الدرس التاسع والخمسون

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيمًا بَصِيرًا ﴾ ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ

تَثْبِيثًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَأَتَيْنَهُمْ مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْتَهُمْ صِرَاطًا
مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ
وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ
مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهٗ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ .

قال زيد بن أسلم: نزلت هذه آية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ في ولاة الأمر. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله، وأن يؤدي الأمانة، وإذا فعل ذلك فحق على الناس أن يسمعوا وأن يطيعوا، وأن يجيبوا إذا دعوا. وقال ابن جريج: قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ نزلت في عثمان بن طلحة قبض منه النبي ﷺ مفاتيح الكعبة ودخل بها البيت يوم الفتح، فخرج وهو يتلو هذه الآية. فدعا عثمان فدفع إليه المفتاح^(١).

قال ابن جريج^(٢): جازئ أن تكون نزلت فيه، وأريد به كل مؤتمن على أمانة، فدخل فيه ولاة أمور المسلمين، وكل مؤتمن على أمانة في دين أو دنيا.

وقال ابن كثير^(٣): وهذا من المشهورات، إن هذه الآية نزلت في ذلك، يعني مفتاح الكعبة. وسواء كانت نزلت في ذلك أو لا، فحكمها عام، ولهذا قال ابن

(١) أخرجه ابن جريج (١٤٥/٥).

(٢) انظر «جامع البيان» (١٤٦/٥).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٥١٦/١).

عباس: هي للبر والفاجر، أي: هي أمر كل أحد بأداء الأمانة. وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها، حتى يقتصر للشاة الجماء من القراء»^(١). وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»^(٢). رواه البغوي.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ قال أبو هريرة: هم الأمراء. وقال ابن عباس: يعني أهل الفقه والدين.

قال ابن كثير^(٣): والظاهر والله أعلم، أنها عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾. قال مجاهد في قوله: ﴿فردوه إلى الله والرسول﴾. قال: كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ﴿ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ قال: أحسن جزاء. وقال قتادة: أحسن ثواباً وخيراً عاقبة.

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ

(١) أخرجه مسلم (ح/٢٥٨٢) من أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٣/٢٥١) وابن أبي شيبة في «الإيمان» (ص ٥)، وابن حبان (كما في

الإحسان) (١/٢٠٨)، والبغوي في شرح السنة (١/٧٥ و ٩٠) وهو حديث صحيح.

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٥١٨).

إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنْتَهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٩﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٧٠﴾ .

قال الشعبي: كان بين رجل من اليهود؛ ورجل من المنافقين خصومة، فكان المنافق يدعو إلى اليهود لأنه يعلم أنهم يقبلون الرشوة، وكان اليهودي يدعو إلى المسلمين لأنه يعلم أنهم لا يقبلون الرشوة، فاصطلحا أن يتحاكما إلى كاهن من جهينة، فأنزل الله فيه هذه الآية: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك حتى بلغ ﴿ويسلموا تسليماً﴾ وقال قتادة: وذكر لنا أن اليهودي كان يدعو إلى النبي ﷺ ليحكم بينهما، وقد علم أن النبي ﷺ لن يجور عليه، فجعل الأنصاري يأبى عليه، وهو يزعم أنه مسلم، ويدعوه إلى الكاهن، فأنزل الله تبارك وتعالى ما تسمعون، فعاب ذلك على الذي يزعم أنه مسلم، وعلى اليهودي الذي هو من أهل الكتاب، فقال: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ إلى قوله: ﴿صدوداً﴾.

وقوله تعالى: ﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾، يعني: عقوبة حدودهم. ﴿ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا﴾ ما أردنا بالعدول ﴿إلا إحساناً وتوفيقاً﴾، أي: المدارة والمصانعة. ﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾ من النفاق ﴿فأعرض عنهم وعظّمهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾. قال الحسن: القول البليغ أن يقول لهم: إن أظهرتم ما في قلوبكم من النفاق قتلتم.

وقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾. قال مجاهد:

واجب لهم أن يطيعهم من شاء الله، لا يطيعهم أحد إلا بإذن الله.

قال ابن جرير^(١): وإنما هذا تعريض من الله تعالى ذكره لهؤلاء المنافقين، بأن تركهم طاعة الله، وطاعة رسوله والرضى بحكمه، إنما هو للسابق لهم من خذلانه وغلبته الشقاء عليهم.

وقوله تعالى: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجودوا الله تواباً رحيماً﴾. قال مجاهد: عني بذلك اليهود والمسلم اللذين تحاكما إلى كعب بن الأشرف.

قوله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾. قال مجاهد: هذا الرجل اليهودي والرجل المسلم اللذان تحاكما إلى كعب بن الأشرف. وعن الزبير بن العوام: «أنه خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدماء مع رسول الله ﷺ، في شراج من الحرة كانا يسقيان به كلاهما النخل. فقال الأنصاري: سرح الماء يمر، فأبى عليه. فقال رسول الله ﷺ: استق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك. فغضب الأنصاري وقال: يا رسول الله إن كان ابن عمتك؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: استق يا زبير ثم احبس الماء حتى يصل إلى الجذر واستوعى^(٢) رسول الله ﷺ للزبير حقه. وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير، بل أي أراد فيه الشفقة له وللأنصاري، فلما أحفظ رسول الله ﷺ الأنصاري استوعب للزبير حقه في صريح الحكم. قال فقال الزبير: ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ الآية^(٣). رواه ابن جرير. وفي رواية: «ثم قال: يا زبير احبس الماء إلى الجدر أو إلى الكعبين، ثم خل سيل الماء».

(١) انظر «جامع البيان» (٥/١٥٧).

(٢) قال ابن جرير - رحمه الله - في المصدر السابق: «والصواب: استوعب» (٥/١٥٨).

(٣) أخرجه البخاري (ح/٢٣٥٩ و ٤٥٨٥)، ومسلم (ح/٢٣٥٧)، وابن جرير (٥/١٥٨).

قال ابن جرير: غير مستحيل أن تكون الآية نزلت في قصة المحتكمين إلى الطاغوت، ويكون فيها بيان ما احتكم فيه الزبير وصاحبه الأنصاري، إذ كانت الآية دالة على ذلك.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَا كُنْبَنَا عَلَيْهِمْ أِنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثِيئًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِيَنَّهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْتَهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾.

عن مجاهد ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم﴾ كما أمر أصحاب موسى أن يقتل بعضهم بعضاً بالخناجر لم يفعلوا ﴿إلا قليلاً منهم﴾. وقال أبو إسحاق السبيعي: «لما نزلت ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليلاً منهم﴾ قال رجل: لو أمرنا لفعلنا، والحمد لله الذي عافانا، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: إن من أمتي لرجالاً، الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبل الرواسي»^(١).

وقوله تعالى: ﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به﴾ يؤمرون به من طاعة الرسول والرضى بحكمه، ﴿لكان خيراً لهم وأشد تثيئاً﴾، أي: تصديقاً. قال السدي: ﴿وإذا لا تأتيهم من لدنا أجراً عظيماً﴾، يعني: الجنة. ﴿ولهديناهم صراطاً مستقيماً﴾ في الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾ عن مسروق قال:

(١) أخرجه ابن جرير (١٦١/٥)، بسند ضعيف.

قال أصحاب رسول الله ﷺ: ما ينبغي لنا أن نفارقك في الدنيا، فإنك لو قدّمت رفعت فوقنا فلم نرك، فأنزل الله ﴿ومن يطع الله والرسول﴾ الآية. وعن ربيعة بن كعب الأسلمي قال: «كنت أبيت عند النبي ﷺ، فأتيته بوضوءه وحاجته فقال لي: سل. فقلت: يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة. فقال: أو غير ذلك؟ قلت: هو ذاك. قال: فأعني على نفسك بكثرة السجود»^(١). رواه مسلم.

وقوله تعالى: ﴿ذلك الفضل من الله﴾، أي: برحمته وفضله نالوا ذلك. ﴿وكفى بالله عليماً﴾، أي: هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق. وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «قاربوا وسددوا، واعلموا أنه لا ينجو أحد منكم بعمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضله منه ورحمة»^(٢). رواه البيهقي وغيره. وبالله التوفيق.



(١) أخرجه مسلم (ح/٤٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٦٤٦٤ و ٦٤٦٧)، ومسلم (ح/٢٨١٨)، من حديث عائشة رضي الله عنه، وأخرجه البخاري أيضاً (ح/٦٤٦٣)، ومسلم (٤/٢١٦٩ - ٢١٧٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الدرس الستون

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾
 وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ
 شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ
 يَلْتَمِسْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴿ فليقتل في سبيلِ الله
 الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقْتَلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ
 أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ
 مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا
 وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ
 الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا
 الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً
 وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ
 وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ
 فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِن تُصَبِّهْهُمُ حَسَنَةً يَقُولُوا هَٰذِهِ مِن عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصَبِّهْهُمُ سَيِّئَةً يَقُولُوا
 هَٰذِهِ مِن عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ؕ قَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا
 أَصَابَكَ مِن حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ؕ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ
 بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ۞

قوله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ
 انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ
 لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ
 وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ فَلْيُقَاتِلْ فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿خذوا حذرکم فانفروا ثبات﴾، يقول: عصبا
 يعني سرايا متفرقين. ﴿أو انفروا جميعاً﴾، يعني كلکم. وقال قتادة: الثبات
 الفرق.

وقوله تعالى: ﴿وإن منكم لبيطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله
 عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً﴾. قال ابن جريج: المنافق يبطئ المسلمین عن
 الجهاد في سبيل الله، قال الله: ﴿فإن أصابتكم مصيبة﴾. قال: بقتل العدو من
 المسلمین ﴿قال قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً﴾. قال: هذا قول
 الشامت.

وقوله تعالى: ﴿ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه
 مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً﴾.

قال ابن جرير^(١): وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن هؤلاء المنافقين، أن
 شهودهم الحرب مع المسلمین، إن شهدوها لطلب الغنيمة، وإن تخلفوا عنها

(١) انظر «جامع البيان» (١٦٦/٥).

فللشك الذي في قلوبهم، وأنهم لا يرجون لحضورها ثواباً ولا يخافون بالتخلف عنها من الله عقاباً. وكان قتادة وابن جريج يقولان: إنما قال من قال من المنافقين، إذا كان الظفر للمسلمين: ﴿يا ليتني كنت معهم﴾ حسداً منهم لهم.

وقال البغوي^(١): (قوله تعالى ﴿وإن منكم لمن ليبطئن﴾ نزلت في المنافقين، وإنما قال: ﴿منكم﴾ لاجتماعهم مع أهل الإيمان في الجنسية، والنسب، وإظهار الإسلام، لا في حقيقة الإيمان. ﴿ليبطئن﴾، أي: ليتأخرن، وليتناقلن، عن الجهاد. ﴿فإن أصابتكم مصيبة﴾، أي: قتل وهزيمة ﴿قال قد أنعم الله عليّ﴾ بالقعود ﴿إذ لم أكن معهم شهيداً﴾، أي: حاضراً في تلك الغزاة فيصيني ما أصابهم. ﴿ولئن أصابكم فضل من الله﴾ فتح وغنيمة ﴿ليقولن﴾ هذا المنافق، وفيه تقديم وتأخير.

وقوله تعالى: ﴿كأن لم تكن بينكم وبينه مودة﴾ متصل بقوله: ﴿فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً كأن لم تكن بينكم وبينه مودة﴾، أي: معرفة، أي: ﴿ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن يا ليتني كنت معهم﴾ في تلك الغزاة ﴿فأفوز فوزاً عظيماً﴾، أي: آخذ نصيباً وافراً من الغنيمة. انتهى ملخصاً.

وقوله تعالى: ﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾. قال السدي يقول: يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة. ﴿ومن يقاتل في سبيل الله فيُقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾، أي: كل من قاتل في سبيل الله سواء قتل أو غلب، فله عند الله مثوبة عظيمة وأجر جزيل.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَوْلَاهَا وَاجْعَلْ

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣٥٩/١).

لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا ءَأَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ
كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ .

قال السدي: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها﴾، يقول: وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله وفي المستضعفين، وأما القرية: فمكة. وقال ابن شهاب: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان﴾. قال: في سبيل الله وسبيل المستضعفين. قال ابن عباس: هم أناس مسلمون كانوا بمكة، لا يستطيعون أن يخرجوا منها ليهاجروا فعذرهم الله.

وقوله تعالى: ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾.

قال البغوي^(١): قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله﴾، أي: في طاعته ﴿والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾، أي: في طاعة الشيطان ﴿فقاتلوا﴾ أيها المؤمنون ﴿أولياء الشيطان﴾، أي: حزبه، وجنوده، وهم الكفار ﴿إن كيد الشيطان﴾ مكره ﴿كان ضعيفاً﴾، كما فعل يوم بدر لما رأى الملائكة خاف أن يأخذوه، فهرب وخذلهم.

قوله عز وجل: ﴿أَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٣٦٠).

قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصَبِّهْتُمْ حَسَنَةً يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصَبِّهْتُمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ قَالَ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿إلى أجل قريب﴾ أناس من أصحاب رسول الله ﷺ، وهو يومئذ بمكة قبل الهجرة، تسرعوا إلى القتال، وسارعوا إليه، فقالوا لنبي الله ﷺ: ذرنا نتخذ معاول فنقتل بها المشركين بمكة، فنهاهم نبي الله ﷺ عن ذلك. قال: ثم أمر بذلك، فلما كانت الهجرة وأمر بالقتال كره القوم ذلك، فصنعوا فيه ما تسمعون، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلًا﴾^(١). وقال السدي في قوله: ﴿لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾ هو الموت.

وقوله تعالى: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾. قال قتادة: في قصور محصنة.

قال ابن جرير^(٢): يقول: لا تجزعوا من الموت ولا تهربوا من القتال، وتضعفوا عن لقاء عدوكم، حذرا على أنفسكم من القتل والموت، فإن الموت بإزائكم أين كنتم، وواصل إلى أنفسكم حيث كنتم، ولو تحصنتم منه بالحصون المنيعه.

(١) أخرجه ابن جرير (١٧١/٥)، بسند ضعيف.

(٢) انظر «جامع البيان» (١٧٢/٥).

وقال عدي بن زيد العبادي في أبياته المشهورة.

من رأيت المنون خلد أم من ذا عليه من أن يضام خفير
أين كسرى كسرى الملوك أنوشر وإن أم أين قبله سابور
وأخو الحضرة إذ بناه وإذ دجلته تجبى إليه والخابور
شاده مرمراً وجلله كلساً فللطير في ذراه وكور
لم يُبهِه ريبُ المنون فباد المُلْك عنه فبابه مهجور

وقال آخر:

أرى الموت لا يبقي عزيزاً ولم يدع لعاد ملاذاً في البلاد ومربعا
بيت أهل الحصن والحصن مغلق ويأتي الجبال في شماريخها معا

وقوله تعالى: ﴿وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾.

قال البغوي^(١): نزلت في اليهود والمنافقين، وذلك أنهم قالوا لما قدم رسول الله ﷺ المدينة؟ ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا منذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه. وقال ابن زيد في قوله: ﴿وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك﴾، فقرأ حتى بلغ ﴿وأرسلناك للناس رسولا﴾، قال: إن هذه الآيات نزلت في شأن الحرب فقرأ ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذرکم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً﴾، فقرأ حتى بلغ ﴿وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من﴾ عند محمد عليه السلام، أساء التدبير وأساء النظر، ما أحسن التدبير ولا النظر. ﴿قل كل من عند الله﴾ النصر والهزيمة. وقال ابن عباس: ﴿قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾،

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٣٦١).

يقول: الحسنه والسيئه من عند الله، أما الحسنه فأنعم بها عليك، وأما السيئه فابتلاك بها.

وقوله تعالى: ﴿وما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾. قال السدي: من ذنبك. قال قتادة: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «لا يصيب رجلاً خدش عودٍ، ولا عشرة قدم، ولا اختلاج عرق، إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر»^(١). قال قتادة: ﴿كلُّ من عند الله﴾ النعم والمصيبات. وعن أبي صالح في قوله: ﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾. قال: بذنبك، وأنا قدزتها عليك.

قال البغوي^(٢): والخطاب للنبي ﷺ، والمراد غيره نظيره. قوله: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾^(٣).

وقونه تعالى: ﴿وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا﴾، أي: على إرسالك، وصدقك، وتبلغك ما أنزل إليك. والله أعلم.



(١) أخرجه ابن جرير (١٧٥/٥)، بسند ضعيف.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣٦١/١).

(٣) سورة الشورى: الآية ٣٠.

الدرس الحادي والستون

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانُ إِن لَّوِ كَانِ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنَيطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقِنِلسِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْلَفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيمًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّمْتُمْ بِنَجِيِّتُمْ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مِّنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ .

في الصحيحين عن النبي ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني»^(١). وعن ابن عباس قوله: ﴿ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيئت طائفة منهم غير الذي تقول﴾ وهم ناس يقولون عند رسول الله ﷺ: آمنا بالله ورسوله، ليأمنوا على دمائهم وأموالهم، وإذا برزوا من عند رسول الله ﷺ خالفوا إلى غير ما قالوا عنده، فعابهم الله فقال: ﴿بيت طائفة منهم غير الذي تقول﴾ يقول: يغيرون ما قال النبي ﷺ.

وقال البغوي^(٢): ﴿فإذا برزوا﴾ خرجوا ﴿من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول﴾ قال قتادة والكلبي: ﴿بيت﴾ أي غير وبدل الذي عهد إليهم النبي ﷺ، ويكون التبييت بمعنى التبديل. وقال أبو عبيدة والقتيبي: معناه قالوا وقدروا ليلاً غير ما أعطوك نهاراً، وكل ما قدر بليل فهو مبيت. وقال ابن كثير^(٣): ﴿بيت طائفة منهم غير الذي تقول﴾، أي: استسروا ليلاً فيما بينهم بغير ما أظهروه لك.

(١) أخرجه البخاري (ح/٢٩٥٥)، ومسلم (ح/١٨٣٩)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (١/٣٦٢).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٥٢٩).

قوله تعالى: ﴿والله يكتب ما يبيتون﴾، أي: يحفظه عليهم فيجازيهم. ﴿فأعرض عنهم وتوكل على الله﴾ فإنه كافيك ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾.

قوله عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٨٢) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٣) فَكَيْفَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ (٨٤).

عن الضحاك في قوله: ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ قال: يتدبرون النظر فيه. وقال ابن زيد: إن القرآن لا يكذب بعضه بعضاً، ولا ينقض بعضه بعضاً، ما جهل الناس من أمر فإنما هو من تقصير عقولهم وجهالتهم، وقرأ: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾. وقال قتادة: أي قول الله لا يختلف، وهو حق ليس فيه باطل، وإن قول الناس يختلف.

وقوله تعالى: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾. قال السدي يقول: إذا جاءهم أمر أنهم قد أمنوا من عدوهم وأنهم خائفون منهم، أذاعوا بالحديث حتى يبلغ عدوهم أمرهم. ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ يقول: ولو سكتوا وردوا بالحديث إلى النبي ﷺ وإلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ، حتى يتكلم هو به، ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾ يعني عن الأخبار، وهم الذين ينفرون عن الأخبار. وقال ابن جريج: ﴿ولو ردوه إلى الرسول﴾ حتى يكون هو الذي يخبرهم ﴿وإلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ الفقه في الدين والعقل. وقال مجاهد: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ الذين يسألون عنه ويتحسسونه.

وقوله تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ ما تبعتم الشيطان إلا قليلاً. قال قتادة يقول: ﴿لا تبعتم الشيطان﴾ كلكم. وقال الضحاك: هم أصحاب النبي ﷺ، كانوا حدثوا أنفسهم بأمر من أمور الشيطان، إلا طائفة منهم.

وقوله تعالى: ﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرص المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً﴾. قال قتادة: أي عقوبة.

قال البغوي^(١): (قوله تعالى: ﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك﴾ وذلك «أن النبي ﷺ واعد أبا سفيان بعد حرب أحد، موسم بدر الصغرى في ذي القعدة، فلما بلغ الميعاد، دعا الناس إلى الخروج، فكرهه بعضهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك﴾ أي لا تدع جهاد العدو، والاستنصار للمستضعفين من المؤمنين، ولو وحدك، فإن الله قد وعدك النصر. وحرص المؤمنين على القتال، أي: حضهم على الجهاد ورجبهم في الثواب، عسى الله ﴿أي لعل الله﴾ أن يكف بأس الذين كفروا، أي: قتال المشركين، وعسى من الله واجب. ﴿والله أشد بأساً﴾ أي أشد صولة وأعظم سلطاناً ﴿وأشد تنكيلاً﴾، أي: عقوبة. انتهى ملخصاً.

قوله عز وجل: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِلًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُجِّمْتُمْ بِنَجْحِتٍ فَأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾.

(١) انظر: «معالم التنزيل» (١/٣٦٣).

عن مجاهد في قوله: ﴿من يشفع شفاعه حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعه سيئة يكن له كفل منها﴾ قال: شفاعه بعض الناس لبعض. قال الحسن: ﴿من يشفع شفاعه حسنة﴾ كتب له أجره ما جرت منفعتها. وقال قتادة: ﴿من يشفع شفاعه حسنة يكن له نصيب منها﴾، أي: حفظ منها، ﴿ومن يشفع شفاعه سيئة يكن له كفل منها﴾ والكفل: هو الإثم. وقال ابن عباس: الشفاعه الحسنه هي الإصلاح بين الناس، والشفاعة السيئة هي المشي بالنميمة. وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ إذا جاءه رجل يسأل، أو طالب حاجة، أقبل علينا بوجهه فقال: اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان رسوله ما شاء»^(١). رواه البغوي وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وكان الله على كل شيء مقبلاً﴾ قال مجاهد: شهيداً حسياً حفيظاً. وقال ابن عباس: المقبيل القدير.

وقوله تعالى: ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شيء حسيباً﴾. قال السدي: إذا سلم عليك أحد فقل أنت: وعليك السلام ورحمة الله، أو تقطع إلى: السلام عليك كما قال لك. وقال قتادة: ﴿فحيوا بأحسن منها﴾ للمسلمين، ﴿أو ردوها﴾ على أهل الكتاب.

وقال ابن كثير^(٢): قوله: ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾، أي: إذا سلم عليكم المسلم فردوا عليه أفضل مما سلم، أو ردوا عليه بمثل ما سلم، فالزيادة مندوبة، والمماثلة مفروضة. وقال الحسن: السلام تطوع، والرد فريضة.

(١) أخرجه البخاري (ح/٦٠٢٧ و ٦٠٢٨)، ومسلم (ح/٢٦٢٧).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٥٣١).

وقوله تعالى: ﴿الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً﴾.

قال البغوي^(١): قوله تعالى: ﴿الله لا إله إلا هو ليجمعنكم﴾ اللام لام القسم، تقديره: والله ليجمعنكم في الموت وفي القبور ﴿إلى يوم القيامة﴾ وسميت القيامة قيامة لأن الناس يقومون من قبورهم. قال الله تعالى: ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراغاً﴾^(٢) وقيل: لقيامهم إلى الحساب. قال الله تعالى: ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً﴾^(٣)، أي: قولاً ووعداً. والله أعلم.



(١) انظر: «معالم التنزيل» (١/٣٦٥).

(٢) سورة المعارج: الآية ٤٣.

(٣) سورة المطففين: الآية ٦.

الدرس الثاني والستون

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْتَدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ ﴿٨٨﴾ وَذُوالِ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُواهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنْخِذُوا مِنْهُمْ وَوَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يَقْبَلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَبَلُوكُمْ فَإِنْ آعَزَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْبَلُواكُمْ وَأَلْفَوْا إِلَيْكُمْ أَلْسَلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ مَآخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْزَلُوكُمْ وَيُلَاقُوا إِلَيْكُمْ أَلْسَلَمَ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُواهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنًا مُّبِينًا ﴾ ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ ﴿٩٣﴾

قوله عز وجل: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أْتَرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَرَفْتُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ .

عن زيد بن ثابت قال: ذكروا المنافقين عند رسول الله ﷺ فقال فريق: نقتلهم، وقال فريق: لا نقتلهم، فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿فما لكم في المنافقين فتنين﴾ إلى آخر الآية^(١). وقال ابن عباس: ﴿والله أركسهم بما كسبوا﴾ أرداهم. وقال قتادة: أهلكهم بما عملوا. ﴿أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً﴾، أي: طريقاً إلى الحق.

وقوله تعالى: ﴿ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً﴾. قال السدي: إذا أظهروا كفرهم فاقتلوهم حيث وجدتموهم.

وقوله تعالى: ﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾. قال

(١) أخرجه البخاري (ح/١٨٨٤ و ٤٠٥٠ و ٤٥٨٩)، ومسلم (ح/١٣٨٤ و ٢٧٧٦).

السدي: فإن أحد منهم دخل في قوم بينكم وبينهم ميثاق، فأجروا عليه مثل ما تجرون على أهل الذمة.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتٌ صُدُّوهُمْ أَنْ يَقَاتِلُوكُمْ أَوْ يَقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾.

قال ابن جرير^(١): معناه: أو جاءوكم قد حصرت صدورهم. قال السدي: يقول: رجعوا فدخلوا فيكم. ﴿حَصْرَتٌ صُدُّوهُمْ﴾ يقول: ضاقت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يَقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَاءُ إِلَيْكُمْ السَّلَامُ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ عن الربيع. ﴿فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يَقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَاءُ إِلَيْكُمْ السَّلَامُ﴾. قال: الصلح. وفي صحيح البخاري في قصة صلح الحديبية: «فكان من أحب أن يدخل في صلح قريش وعهدهم، ومن أحب أن يدخل في صلح محمد وأصحابه وعهدهم»^(٢).

قوله عز وجل: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا بِآيَاتِهِمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْبِلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾^(٣).

عن مجاهد. ﴿يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم﴾ قال: ناس كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياء، فيرجعون إلى قريش فيرتكسون^(٣) في الأوثان يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا، فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا.

(١) انظر «جامع البيان» (١٩٨/٥).

(٢) انظر حديث (٤١٨٠ و ٤١٨١).

(٣) في (الأصل): «فيرتكسون» وهو خطأ.

وقوله: ﴿وَأُولَئِكَمَّ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مَبِينًا﴾، أي: حجة ظاهرة. قال عكرمة: ما كان في القرآن من سلطان فهو حجة.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾.

عن قتادة: قوله: ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ﴾ يقول: ما كان له ذلك فيما أتاه من ربه من عهد الله الذي عهد إليه.

قال ابن جرير^(١): وأما قوله: ﴿إلا خطأ﴾ فإنه يقول: إلا أن المؤمن قد يقتل المؤمن خطأ، وليس له مما جعل ربه، وهذا من الاستثناء الذي تسميه أهل العربية: الاستثناء المنقطع. قال عكرمة: «كان الحارث بن يزيد بن نبيشة من بني عامر بن لؤي، يعذب عياش بن أبي ربيعة مع أبي جهل، ثم خرج الحارث بن يزيد مهاجراً إلى النبي ﷺ، فلقبه عياش بالحرّة، فعلاه بالسيف حتى سكت، وهو يحسب أنه كافر، ثم جاء إلى النبي ﷺ فأخبر، ونزلت ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل إلا خطأ﴾ الآية، فقرأها عليه ثم قال: قم فحرر»^(٢).

(١) انظر «جامع البيان» (٥/٢٠٣).

(٢) أخرجه ابن جرير (٥/٢٠٤) عن عكرمة مرسلًا.

وقال الشعبي في قوله: ﴿فتحرير رقبة مؤمنة﴾ قال: قد صلّت وعرفت الإيمان. وقال عطاء: كل رقبة ولدت في الإسلام فهي تجزي.

قال ابن جرير^(١): وأما الدية المسلمة إلى أهل القتيل فهي المدفوعة إليهم على ما وجب لهم، موفرة غير منقصة.

وقوله تعالى: ﴿فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة﴾. قال إبراهيم: هو الرجل يسلم في دار الحرب فيقتل، قال: ليس فيه دية وفيه الكفارة.

وقوله تعالى: ﴿وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة﴾. قال إبراهيم: هذا الرجل المسلم، وقومه مشركون لهم عقد، فتكن ديته لقومه، وميراثه للمسلمين، ويعقل عنه قومه ولهم ديته. وقال ابن عباس: يقول: إذا كان كافراً في ذمتكم، فعلى قاتله الدية، مسلمة إلى أهله، وتحرير رقبة مؤمنة، أو صيام شهرين متتابعين.

قال ابن كثير^(٢): وقوله: ﴿وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ الآية، أي: فإن كان القتيل أولياؤه أهل ذمة، أو هدنة، فلهم دية قتلهم، فإن كان مؤمناً فدية كاملة، وكذا إن كان كافراً أيضاً عند طائفة من العلماء. وقيل: يجب في الكافر نصف دية المسلم، وقيل: ثلثها. ويجب أيضاً على القاتل تحرير رقبة مؤمنة.

وقوله تعالى: ﴿فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً﴾.

(١) المصدر السابق (٢٠٦/٥).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٥٣٥).

قال ابن كثير^(١): ﴿فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين﴾، أي: لا إفتار بينهما بل يسرد صومهما إلى آخرهما، فإن أفطر من غير عذر استأنف.

وقوله: ﴿توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً﴾، أي: هذه توبة القاتل خطأ، إذ لم يجد العتق صام شهرين متتابعين.

وقوله تعالى: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً﴾. قال عطاء: العمد السلاح. وقال إبراهيم: إذا خنقه بحبل حتى يموت، أو ضربه بخشبة حتى يموت فهو القود. وقال طاوس: من قتل في عصبية في رمي يكون منهم بحجارة، أو جلد بالسياط أو ضرب بالعصي، فهو خطأ دية الخطأ، ومن قتل عمداً فهو قود يديه. قال ابن عباس: أكبر الكبائر الإشراف بالله، وقتل النفس التي حرم الله، لأن الله سبحانه يقول: ﴿فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً﴾. وقال أبو صالح في قوله: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم﴾. قال: جزاؤه أن جازاه خلده في النار، وإن شاء غفر له. وقد قال الله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾^(٢).

وقال الشيخ ابن سعدي: (وأحسن ما يقال أن ذكر الخلود على بعض الذنوب التي دون الشرك والكفر، أنها من باب ذكر السبب، وأنها سبب لخلود في النار لشفاعتها، وأنها بذاتها توجب الخلود إذا لم يمنع من الخلود مانع، ومعلوم بالضرورة من دين الإسلام، أن الإيمان مانع من الخلود، فتتزل هذه النصوص على الأصل المشهور، وهو أنه لا تتم الأحكام إلاً بوجود شروطها وأسبابها وانتفاء موانعها، وهذا واضح والله الحمد). انتهى.

(١) المصدر السابق (١/٥٣٥).

(٢) سورة النساء: الآيتان ٤٨ و ١١٦.

قال ابن كثير^(١): فهذه الآية عامة في جميع الذنوب ما عدا الشرك، وهي المذكورة في هذه السورة الكريمة بعد هذه الآية وقبلها لتقوية الرجاء. والله أعلم. وثبت في الصحيحين: «خبر الإسرائيلي الذي قتل مائة نفس ثم سأل عالماً: هل لي من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أرشده إلى بلد يعبد الله فيه، فهاجر إليه فمات في الطريق، فقبضته ملائكة الرحمة»^(٢).

قال: واختلف الأئمة: هل تجب عليه كفارة؟ على قولين: فالشافعي وأصحابه وطائفة من العلماء يقولون: نعم؛ لأنه إذا وجبت عليه الكفارة في الخطأ، فلأن تجب عليه في العمد أولى. وقال أصحاب الإمام أحمد وآخرون: قتل العمد أعظم من أن يكفر، فلا كفارة فيه. وقد احتج من ذهب إلى وجوب الكفارة في قتل العمد، بما رواه الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع قال: «أتى النبي ﷺ نفر من بني سليم فقالوا: إن صاحباً لنا قد أوجب. قال: فليعتق رقبة، يفدي الله بكل عضو منها عضواً منه من النار». وفي رواية أبي داود: «أتينا رسول الله ﷺ في صاحب لنا قد أوجب - يعني النار بالقتل - . فقال: أعتقوا عنه، يعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار»^(٣) انتهى ملخصاً. والله أعلم.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٥٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٣٤٧٠)، ومسلم (ح/٢٧٦٦) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٣) أخرجه أحمد (٣/٤٩١ و ٤/١٠٧)، وأبو داود (ح/٣٩٦٤)، وفي سننه ضعف، لكن له شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «من أعتق رقبة مؤمنة، أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار، حتى فرجه بفرجه»، أخرجه البخاري (ح/٦٧١٥)، ومسلم (ح/١٠٥٩).

الدرس الثالث والستون

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيِّبُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ
 أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا
 فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِن قَبْلُ فَمَنْ أَتَىٰ
 عَلَيْكُم فَتَيَّبُوا بِإِذْنِ اللَّهِ كَانَتْ بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرًا ﴿٩٤﴾ لَا يَسْتَوِي
 الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ
 اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ
 الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
 رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُهُم مِّلَّةَ ظَالِمٍ لِّنَفْسِهِمْ قَالُوا فِيهِ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا
 مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ
 جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا
 يَسْتَطِيعُونَ حِيَلًا وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ
 غَفُورًا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ
 مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
 رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ۞

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ .

عن ابن عباس قال: لحق ناس من الناس رجلاً في غنيمة له فقال: السلام عليكم فقتلوه وأخذوا تلك الغنيمة، فنزلت هذه الآية: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا﴾، تلك الغنيمة.

وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿كذلك كنتم من قبل﴾، تستخفون بإيمانكم كما استخفى هذا الراعي بإيمانه، ﴿فمن الله عليكم﴾، فأظهر الإسلام ﴿فتبينوا﴾، قال ابن جرير^(١): يقول: فتأنوا في قتل من أشكل عليكم أمره، فلم تعلموا حقيقة إسلامه ولا كفره.

قوله عز وجل: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ .

عن زيد بن ثابت: «أن رسول الله ﷺ أنزل عليه: ﴿لا يستوي القاعدون من

(١) انظر «جامع البيان» (٥/٢٢٠).

المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله ﴿١﴾، قال: فجاء ابن أم مكتوم وهو يملئها علي فقال: يا رسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت، قال: فأنزل عليه، وفخذه على فخذي فثقلت، فظننت أن ترصّ فخذي، ثم سرّي عنه فقال: ﴿غير أولي الضرر﴾^(١)، رواه ابن جرير وغيره.

وقوله تعالى: ﴿فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة﴾، قال ابن جريج: على أهل الضرر، ﴿وكلا وعد الله الحسنى﴾، قال قتادة: هي الجنة، ﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً﴾، في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله قال: «إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض»^(٢).

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿١٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿١٩﴾ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمِثْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسِعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٠﴾﴾.

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٥٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٢٧٩٠، ٧٤٢٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه وأخرجه مسلم (ح/١٨٨٤) عن أبي سعيد رضي الله عنه، وقد وهم ابن كثير - رحمه الله - وتبعه المؤلف - رحمه الله - حيث وهما أن البخاري أخرجه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

قال ابن عباس: كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: كانوا أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكروهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم، قالوا: فيم كنتم...﴾ الآية، وقال: «كنت أنا وأمي ممن عذر الله»^(١).

قال البغوي^(٢): ثم نسخ ذلك بعد فتح مكة، فقال النبي ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح»^(٣).

وقال ابن كثير^(٤): هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهرائي المشركين، وهو قادر على الهجرة، وليس متمكناً من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكب حراماً بالإجماع، ونص هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً﴾، قال قتادة: لما أنزل الله هؤلاء الآيات، ورجل من المؤمنين يقال له ضمرة بمكة، قال: والله إن لي من المال ما يبلغني المدينة وأبعد منها، وأني لأهتدي، أخرجوني — وهو مريض حينئذ — فلما جاوز المحرم قبضه الله فمات، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله...﴾ الآية، وقال ابن عباس في قوله: ﴿مراغماً كثيراً﴾، المراغم: التحول من أرض إلى

(١) أخرجه ابن جرير (٢٣٤/٥) بسند صحيح، وقول ابن عباس: «كنت أنا وأمي...» أخرجه البخاري (ح/٤٥٨٨).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (١/٣٧٤).

(٣) أخرجه البخاري (ح/٣١٨٩)، ومسلم (ح/١٣٥٣) حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٥٤٢).

أرض، وقال مجاهد: متزحزحاً عما يكره، وقال السدي: مبتغي^(١) للمعيشة، وقال قتادة: ﴿يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة﴾، أي: والله، من الضلالة إلى الهدى، ومن العيلة إلى الغنى.

قال البغوي^(٢): وقال أبو عبيدة: المراغم المهاجر، يقال راغمت قومي وهاجرتم، وهو المضطرب والمذهب، قيل: سميت المهاجرة مراغمة؛ لأن من يهاجر يراغم قومه، ﴿وسعة﴾، أي: في الرزق، وبالله التوفيق.



(١) في (الأصل): «وينبغي»، وهو خطأ.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (١/٣٧٤).

الدرس الرابع والستون

﴿ وَإِذَا ضَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ (١٠١) وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ (١٠٢) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ (١٠٣) وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونًا فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١٠٤)

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ .

عن يعلى بن أمية قال: «قلت لعمر بن الخطاب: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ وقد أمن الناس! فقال: عجبت مما عجبت حتى سألت النبي ﷺ عن ذلك فقال: صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته»^(١). رواه ابن جرير وغيره.

وعن مجاهد عن أبي عياش الزرقى قال: «كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان، وعلى المشركين خالد بن الوليد، قال: فصلينا الظهر، فقال المشركون: كانوا على حال لو أردنا لأصبنا غرة لأصبنا غفلة. فأنزلت آية القصر بين الظهر والعصر، فأخذ الناس السلاح وصفوا خلف رسول الله ﷺ مستقبلي القبلة، والمشركون مستقبليهم، فكبر رسول الله ﷺ وكبروا جميعاً، ثم ركع وركعوا جميعاً، ثم رفع رأسه ورفعوا جميعاً، ثم سجد وسجد الصف الذي يليه وقام الآخرون يحرسونهم، فلما فرغ هؤلاء من سجودهم سجد هؤلاء، ثم نکص الصف الذي يليه وتقدم الآخرون فقاموا في مقامهم، فركع رسول الله ﷺ فركعوا جميعاً، ثم رفع رأسه فرفعوا جميعاً، ثم سجد وسجد الصف الذي يليه وقام الآخرون يحرسونهم، فلما فرغ هؤلاء من سجودهم سجد هؤلاء الآخرون، ثم استنوا معه فقعدها جميعاً، ثم سلم عليهم جميعاً. فصلاها بعسفان، وصلاها يوم بني سليم»^(٢).

(١) أخرجه مسلم (ح/٦٨٦).

(٢) أخرجه أحمد (٤/٥٩، و٦٠)، وأبو داود (ح/١١٣٦)، والنسائي (المجتبى) (٣/١٧٧ و١٧٨)، وأيضاً في الكبرى (١/٥٩٦ و٥٩٧)، وابن حبان - كما في الإحسان - (١٢٦/٧) والحاكم (١/٤٨٧ و٤٨٨)، وصححه ووافقه الذهبي، وهو كما قال.

وعن ابن عباس قال: «فرض الله الصلاة على لسان نبيكم عليه السلام في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة»^(١) وقال أيضاً: قصر الصلاة إن لقيت العدو وقد حانت الصلاة: أن تكبر الله، وتخضع رأسك إيماء، راكباً كنت أو ماشياً.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنُفِّخَنَّ مِنْهُمْ مَطَفًا مَّعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾

عن صالح بن خوات عن صلي مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف يوم ذات الرقاع: «أن طائفة صلت مع رسول الله ﷺ، وطائفة وجاه العدو، فصلى بالذين معه ركعة، ثم ثبت قائماً فأتوا لأنفسهم، ثم جاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت، ثم ثبت جالساً فأتوا لأنفسهم»^(٢). متفق عليه. قال الإمام أحمد: صحّت صلاة الخوف عن النبي ﷺ ست صفات أو سبع، كلها جائزة، وكان يعجبه هذا الحديث لأنه موافق للآية.

(١) أخرجه مسلم (ح/٦٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤١٢٩)، ومسلم (ح/٨٤٢).

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۚ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾. عن مجاهد في قوله: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ قال: أتموها. وعن عطية العوفي في قوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ قال: فريضة مفروضة. وقال ابن مسعود: إن للصلاة وقتاً كوقت الحج. وعن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ: «أن سائلاً أتاه فسأله عن مواقيت الصلاة قال: فلم يرد عليه شيئاً، ثم أمر بلالاً فأذن، ثم أمره فأقام الصلاة حين انشق الفجر فصلّى، ثم أمره فأقام الظهر، والقائل يقول: قد زالت الشمس أو لم تزل وهو كان أعلم منهم، ثم أمره فأقام العصر والشمس مرتفعة بيضاء نقية، ثم أمره فأقام المغرب حتى غابت الشمس، ثم أمره فأقام العشاء حين سقط الشفق. وقال: وصلّى الفجر من الغد والقائل يقول: طلعت الشمس ولم تطلع، وصلّى الظهر قريباً من وقت العصر بالأمس، وصلّى العصر والقائل يقول: قد احمرت الشمس، وصلّى المغرب قبل أن يغيب الشفق، وصلّى العشاء بعد ما ذهب ثلث الليل الأول. ثم قال: أين السائل عن وقت الصلاة؟ فقال: الرجل: أنا يا رسول الله. قال: ما بين هذا الوقتين وقت»^(١). رواه البغوي وغيره.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۗ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۗ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

قال قتادة يقول: لا تضعفوا في طلب القوم، فإنكم إن تكونوا تتجمعون فإنهم يتجمعون كما تتجمعون ﴿وترجون من الله﴾ من الأجر والثواب ﴿ما لا يرجون﴾.

(١) أخرجه مسلم (ح/٦١٤)، والبغوي (١/٣٧٩ - ٣٨٠).

وقال البغوي^(١): قوله تعالى: ﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم﴾ الآية، سبب نزولها: أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا يوم أحد، بعث رسول الله ﷺ طائفة في آثارهم، فشكوا ألم الجراحات، فقال الله تعالى: ﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم﴾ أي لا تضعفوا في طلب القوم: أبي سفيان وأصحابه: ﴿إن تكونوا تألمون﴾ تتوجعون من الجراح^(٢) ﴿فإنهم يألمون﴾ أي يتوجعون يعني: الكفار ﴿كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾ أي وأنتم مع ذلك تأملون من الأجر والثواب في الآخرة، والنصر في الدنيا ما لا يرجون^(٣).

﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾.

قال ابن كثير^(٤): أي هو أعلم وأحكم فيما يقدره ويقضيه وينفذه ويمضيه، من أحكامه الكونية والشرعية، وهو المحمود على كل حال. والله أعلم.



(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٣٨٠).

(٢) في (الأصل): «من الحرج»، وهو خطأ.

(٣) في (الأصل): «ما لا يرجعون»، وهو خطأ.

(٤) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (١/٥٥٠).

الدرس الخامس والستون

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ أَنْفُسُهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَافًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَتَأْتُهُمْ هَتُوءًا جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَنْ يَمَلْ سَوَاءً أَوْ يظَلِمَ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۖ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ۝

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ
 بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَافِيْنَ خَصِيْمًا ۝١٠٥ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
 غَفُورًا رَحِيْمًا ۝١٠٦ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ
 كَانَ خَوَّانًا أَثِيْمًا ۝١٠٧ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ
 يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيْطًا ۝١٠٨ هَتَأْتُمْ هَتُوْلَاءَ
 جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ أَمْ مَنْ
 يَكُوْنُ عَلَيْهِمْ وَكِيْلًا ۝١٠٩ ﴾ .

في الصحيحين عن أم سلمة: «أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب
 حجرته، فخرج إليهم فقال: ألا إنما أنا بشر، وإنما أقضي بنحو مما أسمع، ولعل
 أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما
 هي قطعة من النار، فليحملها أو يذرها»^(١).

وعن قتادة بن النعمان قال: «كان أهل بيت منا يقال لهم بنو أبيرق: بشر
 وبشير ومبشر، وكان بشير رجلاً منافقاً، وكان يقول الشعر يهجو به أصحاب
 رسول الله ﷺ، ثم ينحله بعض العرب، ثم يقول: قال فلان: كذا، وقال فلان:
 كذا، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر
 إلا الخبيث، فقال:

أوكلمما قال الرجال قصيدة أصموا وقالوا: ابن الأبيرق قالها؟!!

(١) سبق تخريجه.

قال: وكانوا أهل بيت فاقة وحاجة في الجاهلية والإسلام، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير، وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت قافلة من الشام بالدرمك^(١)، ابتاع الرجل منهم فخص به نفسه، فأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير. فقدمت قافلة من الشام، وابتاع عمي رفاعة بن زيد حملاً من الدرملك، فجعله في مشربة له، وفي المشربة سلاح له درعان وسيفاهما وما يصلحهما، فعدا عدتي من تحت الليل فنقب المشربة وأخذ الطعام والسلاح، فلما أصبح أتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي تعلم أنه قد عدتي علينا في ليلتنا هذه فنقبت مشربتنا، فذهب بسلاحنا وطعامنا. قال: فتجسسنا في الدار وسألنا، فقيل لنا: قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة، ولا نرى فيما نراه إلا على بعض طعامكم.

قال: وقد كان بنو أبيرق قالوا: ونحن نسأل في الدار: والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل، رجل منا له صلاح وإسلام، فلما سمع بذلك لبيد اخترط سيفه ثم أتى بني أبيرق فقال: والله ليخالطنكم هذا السيف ولتبيين هذه السرقة، قالوا: إليك عنا أيها الرجل، فوالله ما أنت بصاحبها. فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها، فقال عمي: يا ابن أخي لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له.

قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقلت: يا رسول الله إن أهل بيت منا أهل جفاء، عمدوا إلى عمي رفاعة فنقبوا مشربة له وأخذوا سلاحه وطعامه، فليردوا علينا سلاحنا، فأما الطعام فلا حاجة لنا به. فقال رسول الله ﷺ: سأنظر في ذلك. فلما سمع بذلك بنو أبيرق أتوا رجلاً منهم يقال له أسير بن عروة، فكلّموه في ذلك، واجتمع إليه ناس من أهل الدار، فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا

(١) الدرملك: الدقيق الأبيض الخالص النقي.

رسول الله إن قتادة بن النعمان وعمه عمدوا إلى أهل بيت منا، أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت.

قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فكلمته فقال: عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح، ترميهم بالسرقة على غير بينة ولا ثبت؟! قال: فرجعت ولوددت أني خرجت من بعض مالي، ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك. فأتيت عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ، قال: الله المستعان. فلم يلبث أن نزل القرآن: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ يعني بني أبيرق ﴿واستغفر الله﴾، أي: مما قلت لقتادة: ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ ﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم﴾ أي بني أبيرق ﴿إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً يستخفون من الناس﴾ إلى قوله: ﴿ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾، أي: أنهم إن استغفروا الله يغفر لهم. ﴿ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ قولهم للبيد. ﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك﴾ يعني أسيراً وأصحابه. ﴿وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ إلى قوله: ﴿فسوف يؤتيه أجراً عظيماً﴾ فلما نزل القرآن، أتى رسول الله ﷺ بالسلح فرده إلى رفاعة.

قال قتادة: فلما أتيت عمي بالسلح، وكان شيخاً قد عسا^(١) في الجاهلية، وكنت أرى إسلامه مدخولاً، فلما أتيت بالسلح قال: يا ابن أخي هو في سبيل الله. قال: فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً. فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين، فنزل

(١) عسا: أي كبير ووهن.

على سلافة^(١) بنت سعد بن سمية^(٢)، فأنزل الله فيه: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى﴾ إلى قوله: ﴿ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾. فلما نزل على سلافة رماها حسان بن ثابت بأبيات من شعر، فأخذت رحله فوضعت على رأسها، ثم خرجت فرمته بالأبطح، ثم قالت: «أهديت إليّ شعر حسان، كنت تأتيني بخير»^(٣). رواه ابن جرير وغيره.

قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(١١٠) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(١١١) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾^(١١٢).

عن ابن عباس قوله: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾ قال: أخبر الله عباده بحلمه، وعفوه، وكرمه، وسعة رحمته، ومغفرته، فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً، ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً، ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال.

وقوله تعالى: ﴿ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً﴾، كقوله: ﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾^(٤).

(١) في (الأصل) وتفسير ابن جرير، «والدر المنثور»، وتفسير ابن كثير: «سلافة»، والمثبت من سنن الترمذي.

(٢) في تفسير ابن جرير: (بن سهل)، وفي «الدر المنثور»: «الشهيد»، وفي (الأصل) «بن شهيد». والمثبت من سنن الترمذي، وتفسير ابن كثير.

(٣) أخرجه الترمذي (ح/٣٠٣٦)، وابن جرير (٥/٢٦٥)، وفي سنده ضعف.

(٤) سورة المائدة: الآية ٤٨.

وقوله تعالى: ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ وهذا عام في بني أبيرق وفي غيرهم.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضْلَوْكَ وََمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۗ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾.

عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إصلاح ذات البين، قال: وفساد ذات البين هي الحالفة»^(١). رواه أحمد وغيره.

وقال مجاهد في قوله: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى﴾ قال: من آلهة الباطل.

قال البغوي^(٢): ﴿ومن يشاقق الرسول﴾، أي: يخالفه ﴿من بعد ما تبين له الهدى﴾ من التوحيد والحدود ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾، أي: غير طريق المؤمنين ﴿نوله ما تولى﴾، أي: نكله في الآخرة إلى ما تولى في الدنيا ﴿ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾.

(١) أخرجه أحمد (٤٤٤/٦)، وأبوداود (ح/٤٩١٩)، والترمذي (ح/٢٥١١)، وقال: «صحيح»، وهو كما قال رحمه الله.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (١/٣٨٣).

قال ابن كثير^(١): أي إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك، بأن نحسنها في صدره ونزينها له استدراجاً له، كما قال تعالى: ﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾^(٣). انتهى والله أعلم.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٥٥٥).

(٢) سورة القلم: الآية ٤٤.

(٣) سورة الصف: الآية ٥.

الدرس السادس والستون

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (١١٦) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا يُخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيتْهُمْ وَلَا مَرَّتْهُمْ فَلَيْبَتِي كُنَّ إِذْ نَاكَ الْأَنْعَامُ وَلَا مَرَّتْهُمْ فَلْيَعْرِبْ خَلَقَ اللَّهُ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا ﴿١٢٦﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١١٦) **﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾** (١١٧) **﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾** (١١٨) **﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَا مَرْئِيَنَّهُمْ فَلَئِبَتَكُنَّ إِذَا نَكَحُوا آلَهُمْ وَلَا يُرَبُّوهُمْ فَلَئِمَّ عَمَلُهُمْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِمَّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾** (١١٩) **﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمَنِّيَنَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾** (١٢٠) **﴿أُولَئِكَ مَاؤُنْهَمُ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾** (١٢١).

قال علي رضي الله عنه: ما في القرآن آية أحب لي من هذه الآية يعني ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾. وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نفس تموت لا تشرك بالله شيئاً، إلاّ حلت لها المغفرة، إن شاء الله عذبها، وإن شاء غفر لها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾»^(١). رواه ابن أبي حاتم وغيره.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثًا﴾. قال ابن زيد: ألهمهم اللات والعزى ويساف وناثلة هم إناث يدعونهم من دون الله، وقرأ: ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾. وقال قتادة: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثًا﴾، أي: إلاّ ميتاً لا روح فيه. وعن مجاهد في قوله: ﴿إِنثًا﴾. قال: أوثاناً.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/١٤٥/أ)، بسند ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً﴾ قال قتادة: تمرد على معاصي

الله.

وقوله تعالى: ﴿لعنه الله﴾، أي: أخزاه وأقصاه وأبعده.

وقوله تعالى: ﴿وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ولأضلنهم ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولأمرنهم فليغيرن خلق الله﴾، عن الضحاك: نصيباً. قال: معلوماً. وعن قتادة في قوله: ﴿ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام﴾ قال: البتة في البحيرة والسائبة، كانوا يبتكون آذانها لطواغيتهم. وقال عكرمة: دين شرعه لهم إبليس. وعن مجاهد في قوله: ﴿ولأمرنهم فليغيرن خلق الله﴾. قال: الفطرة دين الله. وقال ابن مسعود: «لعن الله الواشمات والمتوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله»^(١). وقال عكرمة: ﴿فليغيرن خلق الله﴾ بالخصاء والوشح وقطع الأذان.

قال القرطبي^(٢): الخضاء في غير بني آدم ممنوع في الحيوان، إلا لمنفعة خاصة في ذلك، كتطيب اللحم، أو قطع ضرر عنه. قال الحافظ ابن حجر: والنهي عن الخضاء نهى تحريم في بني آدم بلا خلاف.

قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾^(١٢٢).

يقول تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾، أي: صدقت قلوبهم، وعملت جوارحهم بما أمروا به من الخيرات، وتركوا ما نهوا عنه من المنكرات ﴿سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾، ويصرفونها حيث شاءوا ﴿خالدين

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/٣٩٠).

فيها أبدأ، أي: بلا زوال ولا انتقال. ﴿وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلاً﴾، أي: لا أحد أصدق منه قولاً، فوعده واقع^(١) لا محالة.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾^(١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾^(١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾^(١٢٥) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾^(١٢٦).

قال قتادة: ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، ونحن أولى بالله منكم. وقال المسلمون: نحن أولى بالله، نبينا خاتم النبيين، وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله. فأنزل الله ﴿ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به﴾، إلى قوله: ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾، ثم أفلح الله حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان. وعن مجاهد في قوله: ﴿ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب﴾. قال: قرش وكعب بن الأشرف: ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾.

قال ابن كثير^(٢): (والمعنى في هذه الآية أن الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وفر في القلوب، وصدفته الأعمال، وليس كل من ادعى شيئاً حصل له بمجرد دعواه، ولا كل من قال أنه على الحق سمع قوله بمجرد ذلك، حتى يكون له من الله برهان، ولهذا قال تعالى: ﴿ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب من

(١) في (الأصل): «وقع»، ولعل ما أثبتته أولى.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٥٥٧).

يعمل سوءاً يجز به ﴿١﴾، أي: ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمني، بل العبرة بطاعة الله سبحانه واتباع ما شرعه على السنة الرسل الكرام). انتهى. وعن الربيع بن زياد أنه قال لأبي بن كعب: قول الله تبارك وتعالى: ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾، والله إن كان كل ما عملنا جزينا به هلكنا! قال: والله إن كنت لأراك أفاقه مما أرى، لا يصيب رجلاً خدش ولا عثرة إلاً بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر حتى اللدغة والنفخة.

وقوله تعالى: ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾، قال الضحاك: فضل الله الإسلام على كل دين فقال: ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن﴾ إلى قوله: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾، وليس يقبل فيه عمل غير الإسلام وهي الحنيفية.

قال ابن كثير^(١): وقوله: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾، وهذا من باب الترغيب في اتباعه، لأنه إمام يقتدى به، حيث وصل إلى غاية ما يتقرب به العباد له، فإنه انتهى إلى درجة الخلّة التي هي أرفع مقامات المحبة، وما ذاك إلاً لكثرة طاعته لربه، كما وصفه به في قوله: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿والله ما في السموات وما في الأرض﴾، أي: الجميع ملكه وخلقه وعبيده، وهو المتصرف في ذلك، ألا له الخلق والأمر. ﴿وكان الله بكل شيء محيطاً﴾ فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا يخفى عليه شيء، وهو على كل شيء قدير. والله أعلم.



(١) المصدر السابق (١/٥٥٩).

(٢) سورة النجم: الآية ٣٧.

الدرس السابع والستون

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَىٰ النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنَّ امْرَأَةً خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۗ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ۗ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَنْفَرَا يُعِنَ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ۗ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ۗ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ۗ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۗ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ۗ وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَعَرْتُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ۗ

قوله عز وجل: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغْبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾ .

عن ابن عباس: ﴿ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب﴾ قال: كلن أهل الجاهلية لا يورثون المولود حتى يكبر، ولا يورثون المرأة، فلما كان الإسلام قال: ﴿ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب﴾ في أول سورة في الفرائض. ﴿اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن﴾ وقالت عائشة: هذا في اليتيمة تكون عند الرجل، لعلها تكون شريكته في ماله وهو أولى بها من غيره، فيرغب عنها أن ينكحها ويعضلها لما لها، ولا ينكحها غيره، كراهية أن يشركه أحد في مالها.

وقوله تعالى: ﴿والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً﴾ عن السدي قوله: ﴿والمستضعفين من الولدان﴾ كانوا لا يورثون جارية، ولا غلاماً صغيراً، فأمرهم الله أن يقوموا لليتامى بالقسط، والقسط: أن يعطى كل ذي حق منهم حقه ذكراً كان أو أنثى، الصغير منهم بمنزلة الكبير.

قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا ثُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا

أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا
كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَنْفَرَا
يُعْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ .

عن خالد بن عرعة أن رجلاً أتى علياً رضي الله عنه يستفتيه في امرأة، خافت من بعلمها نشوزاً أو إعراضاً فقال: قد تكون المرأة عند الرجل، فتنبو عيناه عنها من دمامتها^(١) أو كبرها، أو سوء خلقها وفقرها، ففكره فراقه، وإن وضعت له من مهرها شيئاً حل له، وإن جعلت له من أيامها شيئاً فلا حرج.

وقال عمر رضي الله عنه: هذه المرأة تكون عند الرجل قد خلا من سنهها، فيتزوج المرأة الشابة يلتمس ولدها، فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: هي المرأة تكون عند الرجل فيريد أن يفارقها، وتكره أن يفارقها، ويريد أن يتزوج فيقول: إني لا أستطيع أن أقسم لك بمثل ما أقسم لها، فتصالحه أن يكون لها في الأيام، فيتراضيان على ذلك، فيكونان على ما اصطلحا عليه. وقال عبيدة: يصالحها على ما رضيت دون حقها، فله ذلك ما رضيت، فإذا أنكرت أو قالت: غرت، فلها أن يعدل عليها، أو يرضيها أو يطلقها.

وقوله تعالى: ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ قال ابن عباس: نصيبها منه. قال ابن جرير: والشح الإفراط في الحرص على الشيء.

قال ابن كثير^(٢): وقوله تعالى: ﴿وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ وإن تتجشموا مشقة الصبر على ما تكرهون منهن، وتقسموا لهن أسوة

(١) في (الأصل): «ذمامتها»، وهو خطأ.

(٢) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (١/٥٦٣).

أمثالهن^(١)، فإن الله عالم بذلك، وسيجزئكم على ذلك أوفر الجزاء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمَعْلُوقَةِ﴾ عن ابن عباس قوله: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ يعني في الحب والجماع. وعن قتادة قال: ذكر لنا أن عمر بن الخطاب كان يقول: اللهم أما قلبي فلا أملك، وأما سوى ذلك فأرجو أن أعدل. وعن الحسن: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ﴾ قال: في الغشيان والقسم.

وقوله تعالى: ﴿فَتَدْرُوهَا كَالْمَعْلُوقَةِ﴾ قال ابن عباس: هي أيم ولا ذات روح.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَلَحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ قال ابن كثير^(٢): أي وإذا أصلحتم في أموركم، وقسمتم بالعدل فيما تملكون، واتقيتم الله في جميع الأحوال، غفر الله لكم ما كان من ميل إلى بعض النساء دون بعض.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يَغْنِ اللَّهُ كِلَا مِنْ سَعْتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ عن مجاهد في قول الله: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يَغْنِ اللَّهُ كِلَا مِنْ سَعْتِهِ﴾ قال: الطلاق ﴿يَغْنِ اللَّهُ كِلَا مِنْ سَعْتِهِ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٤﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾.

(١) في (الأصل): «أمثالهن»، وهو خطأ.

(٢) المصدر السابق (١/٥٦٤).

عن علي: ﴿وكان الله غنياً حميداً﴾ قال: غنياً عن خلقه. ﴿حميداً﴾ قال: مستحماً إليهم. قال البغوي^(١): فإن قيل: فأى فائدة في تكرار قوله تعالى: ﴿وكان الله ما في السموات وما في الأرض﴾؟؟ قيل: لكل واحد منها وجه: أما الأول: فمعناه ﴿الله ما في السموات وما في الأرض﴾ وهو يوصيكم بالتقوى فاقبلوا وصيته.

وأما الثاني: فيقول: ﴿فإن الله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً﴾، أي: هو الغني فاطلبوا منه ما تطلبون.

وأما الثالث: فيقول ﴿والله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله كيلاً﴾، أي: له الملك فاتخذوه كيلاً، ولا تتوكلوا على غيره.

وقوله تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً﴾ قال قتادة: قادر والله ربنا على ذلك، أن يهلك من يشاء من خلقه ويأت بآخرين من بعدهم.

وقوله تعالى: ﴿من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سمعياً بصيراً﴾.

قال البغوي^(٢): يريد: من كان يريد بعمله عرضاً من الدنيا، ولا يريد الله عز وجل، آتاه الله من عرض الدنيا، أو دفع عنه فيها ما أراد الله، وليس له الآخرة من ثواب، ومن أراد بعمله ثواب الآخرة، آتاه الله من الدنيا ما أحب، وجزاه الجنة في الآخرة.

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٣٨٩).

(٢) المصدر السابق (١/٣٩٠).

تَتَّبِعُوا أَلْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ .

قال ابن عباس: أمر الله المؤمنين أن يقولوا الحق، ولو على أنفسهم أو آبائهم أو أبنائهم، ولا تحابوا غنياً لغناه، ولا ترحموا مسكيناً لمسكنته، وذلك قوله: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ فتدروا الحق فتجوروا ﴿وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا﴾ قال: هما الرجلان يجلسان بين يدي القاضي فيكون لِي القاضي وإعراضه لأحدهما على الآخر. وقال مجاهد. ﴿وَإِنْ تَلَوُّوا﴾، أي: تبدلوا الشهادة ﴿أَوْ تَعْرِضُوا﴾ قال: تكتموها. وقال ابن عباس: تلوي لسانك بغير الحق وهي اللجلجة، فلا تقيم الشهادة على وجهها، والإعراض: الترك.

قال ابن كثير^(١): والإعراض هو كتمان الشهادة وتركها. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْتُمهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ قال النبي ﷺ: «خير الشهداء الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسئله»^(٢). ولهذا توعدهم الله بقوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ والله أعلم.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٥٦٥).

(٢) أخرجه مسلم (ح/١٧١٩)، من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

الدرس الثامن والستون

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالِكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالِكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُتَّقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ءَأَيَّبُنَّوْنَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَن إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخْرُجُوا فِي حَدِيثِ غَيْرِهِ ءَإِنَّكُمْ إِذَا أَنطَلَقْتُمْ لَمَّا أَنتُم بَنَازِلُهُمْ ءَأَنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُتَّقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ الَّذِينَ يَدَّبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ تَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ تَسْتَحِذُوا عَلَيْنَا وَمَنعَكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ءَأَللَّهُ يَخْتَصِمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ يَخْتَضِعُونَ لِلَّهِ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ يُرَأَوْنَ النَّاسَ وَلَا يُذَكَّرُونَ ءَأَللَّهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَن يَهْدِيَهُ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ءَأُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن يَجْعَدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا

وَأَعْتَصِمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللهُ
الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَعَآمَنْتُمْ
وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا بِإِلَهِهِمْ وَرَسُولِهِمْ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِمُ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ مِن قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ .

قيل: «نزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله﴾ في مؤمني أهل الكتاب، أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير، ونكفر بما سواه من الكتاب والرسول. فقال لهم النبي ﷺ: بل آمنوا بالله ورسوله محمد، والقرآن، وبكل كتاب كان قبله، فأنزل الله هذه الآية»^(١). وقال الضحاك: أراد بهم اليهود والنصارى، يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ بموسى وعيسى ﴿آمنوا﴾ بمحمد والقرآن. وقال مجاهد: أراد بهم المنافقين، يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ باللسان ﴿آمنوا﴾ بالقلب. وقال أبو العالية: هذا خطاب للمؤمنين يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا﴾، أي: أقيموا وأثبتوا على الإيمان.

وقال ابن كثير^(٢): يأمر تعالى عباده المؤمنين، بالدخول في جميع شرائع

(١) أخرجه الثعلبي كما عناه له السيوطي في «الدر المنثور» (٤١٤/٢).

(٢) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٥٦٦/١).

الإيمان، وشعبه، وأركانه، ودعائمه، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل، وتقريره، وتثبيتته، والاستمرار عليه، كما يقول المؤمن في كل صلاة: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾، أي: بصّرنا فيه، وزدنا هدى، وثبتنا عليه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أزدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً﴾ قال قتادة: هم اليهود والنصارى، آمنت اليهود بالتوراة ثم كفرت، وآمنت النصارى بالإنجيل ثم كفرت، وكفرهم به تركهم إياه. ثم ﴿أزدادوا كفراً﴾ بالفرقان وبمحمد ﷺ. وقال ابن زيد: هؤلاء المنافقون، آمنوا مرتين وكفروا مرتين، ثم أزدادوا كفراً بعد ذلك. وعن علي رضي الله عنه قال: يستتاب المرتد ثلاثاً ثم قرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أزدادوا كفراً﴾. وقال إبراهيم، يستتاب كلما ارتد، وهو قول أكثر أهل العلم.

وقوله تعالى: ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾، أي: أقاموا على ذلك ﴿ولا ليهديهم سبيلاً﴾، أي: طريقاً إلى الحق.

وقوله تعالى: ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتنون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً﴾، كقوله تعالى: ﴿والله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْكَ إِذًا مِثْلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً﴾^(١٤٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ

(١) سورة المنافقون: الآية ٨.

فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ .

قوله: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ يشير إلى قوله في سورة الأنعام^(١) ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾. وعن هشام بن عرفة قال: أخذ عمر بن عبد العزيز قوماً على شراب فضربهم^(٢) وفيهم صائم فقالوا: إن هذا صائم، ﴿فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾.

وقوله تعالى: ﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين﴾. قال ابن جريج: إن أصاب المسلمون من عدوهم غنيمة قال المنافقون: ألم نكن معكم؟ قد كنا معكم فأعطونا غنيمة مثل ما تأخذون، وإن كان للكافرين نصيب يصيبونه من المسلمين قال المنافقون للكافرين: أم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين؟ قد كنا نثبطهم عنكم.

وقوله تعالى: ﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ عن منيع الحضرمي قال: كنت عند علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال رجل: يا أمير المؤمنين رأيت قول الله عز وجل: ﴿ولن يجعل الله

(١) سورة الأنعام: الآية ٦٨.

(٢) في (الأصل): «ففر بهم»، وهو خطأ.

للكافرين على المؤمنين سيلاً ﴿١٤٢﴾، وهم يقاتلوننا فيظهرون ويقتلون؟ قال له علي: أذنه أذنه. ثم قال: ﴿فإن الله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سيلاً﴾ يوم القيامة، قال السدي: حجة.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٣﴾ مَذْبَذِبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٤﴾﴾.

عن السدي: ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾ قال: يعطيهم يوم القيامة نوراً يمشون به مع المسلمين كما كانوا معهم في الدنيا، ثم يسلبهم ذلك النور فيطفيه، فيقومون في ظلمتهم، ويضرب بينهم السور.

وقوله تعالى: ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى﴾. قال قتادة: وإنه والله لولا الناس ما صلّى المنافق، ولا يصلي إلا رياء.

وقوله تعالى: ﴿ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾. قال الحسن: إنما قلّ لأنه كان لغير الله. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً، ولقد هممت أن أمر بالصلاة فتقام، ثم أمر رجلاً فيصلي بالناس، ثم انطلق معي برجال ومعهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار»^(١).

وفي رواية: «والذي نفسي بيده، لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقاً سميناً، أو مرامتين جنتين لشهد العشاء، ولولا ما في البيوت من النساء والذرية، لحرقت عليهم بيوتهم بالنار»^(٢). وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «تلك صلاة

(١) أخرجه البخاري (ح/٦٥٧)، ومسلم (٤٥١/١).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٦٤٤) من حديث أبي هريرة أيضاً مسلم (ح/٦٥١).

المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً^(١). رواه مسلم وغيره.

وقوله تعالى: ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾. قال قتادة في قوله: ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ يقول: ليسوا بمؤمنين مخلصين ولا مشركين مصرحين بالشرك. وعن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة، لا تدري أيهما تتبع»^(٢). رواه ابن جرير وغيره.

قوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾.

عن قتادة: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾ وإن الله السلطان على خلقه، ولكنه يقول عذراً مبيناً. وقال عكرمة: ما كان في القرآن من سلطان فهو حجة. وعن ابن مسعود: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ قال: في توابيت من حديد مبهمة عليهم. وقال حذيفة: ليدخلن الجنة قوم كانوا منافقين، ثم قرأ: ﴿إلا الذين

(١) أخرجه مسلم (ج/٦٢٢).

(٢) أخرجه مسلم (ج/٢٧٨٤).

تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فألثك مع المؤمنين وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً.

وقوله تعالى: ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾ أي: أنه لا يعذب المؤمن الشاكر. ﴿وكان الله شاكراً عليماً﴾، أي: من أطاعه صادقاً أثابه أوفر الجزاء. والله أعلم.

انتهى الجزء الأول بحمد الله،
ويليه الجزء الثاني

فَهْرَسْتُ الْمَوْضُوعَاتِ الجزء الأول

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
مقدمة المحقق	٥	وصيته	٣٤
ترجمة المؤلف	١٣	عقبه	٣٦
اسمه ونسبه	١٤	تنبيهات وتعليقات	٣٧
مولده	١٤	النسخ المعتمدة	٤٢
نشأته	١٤	عنوان الكتاب	٤٣
طلبه للعلم	١٤	نسبته إلى المؤلف	٤٣
شيوخه	١٥	سبب تأليفه	٤٣
رحلته في طلب العلم	١٦	منهج المؤلف فيه	٤٣
إجازة العلماء له	١٧	منهجي في تحقيق الكتاب	٤٥
صفاته الخلقية والخلقية	١٨	نموذج مصور للنسخة الخطية	٤٧
زهده وورعه	١٨	مقدمة المؤلف	٥١
أعماله ومناصبه	١٩	معاني القرآن لا تخرج عن خمسة علوم	٥٢
الجوف والمثوى الأخير	٢١	معرفة الناسخ والمنسوخ	٥٢
حياته اليومية في الجوف	٢١	الآيات المتفق على نسخها	٥٢
جهوده في الدعوة إلى الله	٢٢	معرفة أسباب النزول	٥٤
تلاميذه	٢٣	سبب النزول على قسمين	٥٥
مؤلفاته	٢٤	أحسن طرق التفسير	٥٥
مراسلاته	٣٠	الرجوع إلى أقوال التابعين	٥٦
وفاته	٣٣		

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١١١	الآية: ٢٥	٥٧	— أوجه التفسير التي ذكرها ابن عباس
١١٣	الآيتان: ٢٦ و ٢٧	٦٠	— فصل في فضائل القرآن
١١٥	الآيتان: ٢٨ و ٢٩	٦٠	— من القرآن
١١٧	الدرس الرابع	٦٤	— من السنّة
١١٨	الآية: ٣٠	٧٧	— فصل في الأحرف السبعة
١١٩	الآيات: ٣١ — ٣٣	٨١	الدرس الأول
١٢٠	الآيتان: ٣٤ و ٣٥	٨١	﴿سورة الفاتحة﴾
١٢١	الآية: ٣٦	٨٣	تفسير البسملة
١٢٣	الآية: ٣٧	٨٤	الآية: ٢
١٢٤	الآيتان: ٣٨ و ٣٩	٨٥	الآية: ٣
١٢٥	الدرس الخامس	٨٦	الآية: ٤
١٢٦	الآيات: ٤٠ — ٤٣	٨٧	الآيتان: ٥ و ٦
١٢٨	الآيات: ٤٤ — ٤٦	٨٨	الآية: ٧
١٣١	الدرس السادس	٩٣	الدرس الثاني
١٣٢	الآيتان: ٤٧ و ٤٨	٩٣	﴿سورة البقرة﴾
١٣٣	الآية: ٤٩	٩٣	فضلها
١٣٤	الآية: ٥٠	٩٧	الآيات: ١ — ٥
١٣٥	الآيات: ٥١ — ٥٣	١٠٠	الآيتان: ٦ و ٧
١٣٦	الآيات: ٥٤ — ٥٦	١٠١	الآيات: ٨ — ١٢
١٣٧	الآية: ٥٧	١٠٣	الآيات: ١٣ — ١٦
١٣٨	الدرس السابع	١٠٤	الآيات: ١٧ — ٢٠
١٣٩	الآيتان: ٥٨ و ٥٩	١٠٨	الدرس الثالث
١٤٠	الآية: ٦٠	١٠٩	الآيتان: ٢١ و ٢٢
١٤٢	الآية: ٦١	١١٠	الآيتان: ٢٣ و ٢٤

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٧٩	الآيات: ١٠٦ - ١٠٨	١٤٣	الآية: ٦٢
١٨١	الآيات: ١٠٩ - ١١٢	١٤٤	الآيتان: ٦٣ و ٦٤
١٨٢	الآية: ١١٣	١٤٥	الآيتان: ٦٥ و ٦٦
١٨٤	الدرس الثالث عشر	١٤٧	الدرس الثامن
١٨٥	الآية: ١١٤	١٤٨	الآية: ٦٧
١٨٦	الآية: ١١٥	١٤٩	الآيات: ٦٨ - ٧١
١٨٧	الآيتان: ١١٦ و ١١٧	١٥٠	الآيات: ٧٢ - ٧٤
١٨٨	الآية: ١١٨	١٥٢	الدرس التاسع
١٨٩	الآيتان: ١١٩ و ١٢٠	١٥٤	الآية: ٧٥
١٩٠	الآية: ١٢١	١٥٥	الآيات: ٧٦ - ٧٩
١٩١	الآيتان: ١٢٢ و ١٢٣	١٥٦	الآيات: ٨٠ - ٨٢
١٩٢	الدرس الرابع عشر	١٥٨	الآية: ٨٣
١٩٣	الآيتان: ١٢٤ و ١٢٥	١٥٩	الآيات: ٨٤ - ٨٦
١٩٥	الآية: ١٢٦	١٦١	الدرس العاشر
١٩٦	الآيات: ١٢٧ - ١٢٩	١٦٣	الآية: ٨٧
٢٠١	الدرس الخامس عشر	١٦٤	الآيتان: ٨٨ و ٨٩
٢٠٣	الآيات: ١٣٠ - ١٣٢	١٦٥	الآيتان: ٩٠ و ٩١
٢٠٤	الآية: ١٣٣	١٦٦	الآيتان: ٩٢ و ٩٣
٢٠٥	الآيتان: ١٣٤ و ١٣٥	١٦٧	الآيات: ٩٤ - ٩٦
٢٠٦	الآية: ١٣٦	١٦٩	الدرس الحادي عشر
٢٠٧	الآيات: ١٣٧ - ١٣٨	١٧٠	الآيات: ٩٧ - ١٠١
٢٠٨	الآيات: ١٣٩ - ١٤١	١٧٣	الآيتان: ١٠٢ و ١٠٣
٢١٠	الدرس السادس عشر	١٧٧	الدرس الثاني عشر
٢١٢	الآية: ١٤٢	١٧٨	الآيتان: ١٠٤ و ١٠٥

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الآية: ١٤٣	٢١٣	الآية: ١٨٥	٢٤٩
الآية: ١٤٤	٢١٥	الآية: ١٨٦	٢٥١
الآية: ١٤٥	٢١٦	الآية: ١٨٧	٢٥٢
الآيات: ١٤٦ - ١٤٨	٢١٧	الآية: ١٨٨	٢٥٤
الآيات: ١٤٩ و ١٥٠	٢١٨	الدرس الحادي والعشرون	٢٥٦
الآيات: ١٥١ - ١٥٤	٢١٩	الآيات: ١٨٩ و ١٩٠	٢٥٧
الآيات: ١٥٥ - ١٥٧	٢٢٠	الآيات: ١٩١ و ١٩٢	٢٥٨
الدرس السابع عشر	٢٢٣	الآيات: ١٩٣ و ١٩٤	٢٦٠
الآية: ١٥٨	٢٢٤	الآية: ١٩٥	٢٦١
الآيات: ١٥٩ و ١٦٠	٢٢٥	الدرس الثاني والعشرون	٢٦٣
الآيات: ١٦١ - ١٦٤	٢٢٦	الآية: ١٩٦	٢٦٦ و ٢٦٥
الآيات: ١٦٥ - ١٦٧	٢٢٧	الآية: ١٩٧	٢٦٧
الدرس الثامن عشر	٢٣٠	الآيات: ١٩٨ و ١٩٩	٢٧٠
الآيات: ١٦٨ و ١٦٩	٢٣١	الآيات: ٢٠٠ - ٢٠٣	٢٧٢
الآيات: ١٧٠ و ١٧١	٢٣٢	الدرس الثالث والعشرون	٢٧٥
الآيات: ١٧٢ و ١٧٣	٢٣٣	الآيات: ٢٠٤ - ٢٠٦	٢٧٧
الآيات: ١٧٤ - ١٧٦	٢٣٥	الآية: ٢٠٧	٢٧٨
الدرس التاسع عشر	٢٣٧	الآيات: ٢٠٨ و ٢٠٩	٢٧٩
الآية: ١٧٧	٢٣٨	الآية: ٢١٠	٢٨٠
الآيات: ١٧٨ و ١٧٩	٢٣٩	الآيات: ٢١١ و ٢١٢	٢٨٢
الآية: ١٨٠	٢٤٢	الآية: ٢١٣	٢٨٣
الآيات: ١٨١ و ١٨٢	٢٤٤	الآية: ٢١٤	٢٨٤
الدرس العشرون	٢٤٦	الدرس الرابع والعشرون	٢٨٥
الآيات: ١٨٣ و ١٨٤	٢٤٧	الآيات: ٢١٥ و ٢١٦	٢٨٦

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الآيتان: ٢١٧ و ٢١٨	٢٨٧	الآية: ٢٤٧	٣٢١
الآيتان: ٢١٩ و ٢٢٠ .. ٢٨٩ و ٢٩٠	٢٩٠	الآيتان: ٢٤٨ و ٢٤٩	٣٢٢
الدرس الخامس والعشرون	٢٩٢	الآيات: ٢٥٠ — ٢٥٢	٣٢٣
الآية: ٢٢١	٢٩٣	الدرس التاسع والعشرون	٣٢٦
الآية: ٢٢٢	٢٩٤	الآية: ٢٥٣	٣٢٧
الآية: ٢٢٣	٢٩٥	الآيتان: ٢٥٤ و ٢٥٥	٣٢٨
الآيتان: ٢٢٤ و ٢٢٥	٢٩٦	الآية: ٢٥٦	٣٣١
الآيتان: ٢٢٦ و ٢٢٧	٢٩٧	الآية: ٢٥٧	٣٣٢
الدرس السادس والعشرون	٢٩٩	الدرس الثلاثون	٣٣٣
الآية: ٢٢٨	٣٠١	الآية: ٢٥٨	٣٣٤
الآية: ٢٢٩	٣٠٢	الآية: ٢٥٩	٣٣٥
الآيتان: ٢٣٠ و ٢٣١	٣٠٤	الآية: ٢٦٠	٣٣٧
الآيتان: ٢٣٢ و ٢٣٣	٣٠٦	الدرس الحادي والثلاثون	٣٤٠
الدرس السابع والعشرون	٣٠٩	الآيات: ٢٦١ — ٢٦٣	٣٤١
الآية: ٢٣٤	٣١٠	الآية: ٢٦٤	٣٤٢
الآيتان: ٢٣٥ و ٢٣٦	٣١١	الآية: ٢٦٥	٣٤٣
الآية: ٢٣٧	٣١٢	الآية: ٢٦٦	٣٤٤
الآيتان: ٢٣٨ و ٢٣٩	٣١٣	الدرس الثاني والثلاثون	٣٤٦
الآية: ٢٤٠	٣١٤	الآية: ٢٦٧	٣٤٧
الآيتان: ٢٤١ و ٢٤٢	٣١٥	الآيتان: ٢٦٨ و ٢٦٩	٣٤٨
الدرس الثامن والعشرون	٣١٦	الآيتان: ٢٧٠ و ٢٧١	٣٤٩
الآية: ٢٤٣	٣١٨	الآيتان: ٢٧٢ و ٢٧٣	٣٥٠
الآيتان: ٢٤٤ و ٢٤٥	٣١٩	الآية: ٢٧٤	٣٥١
الآية: ٢٤٦	٣٢٠	الدرس الثالث والثلاثون	٣٥٢

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الآية: ٢٧٥	٣٥٣	الدرس التاسع والثلاثون	٣٩٢
الآية: ٢٧٦	٣٥٤	الآيتان: ٣٣ و ٣٤	٣٩٣
الآيات: ٢٧٧ - ٢٧٩	٣٥٥	الآيتان: ٣٥ و ٣٦	٣٩٣
الآية: ٢٨٠	٣٥٦	الآية: ٣٧	٣٩٥
الآية: ٢٨١	٣٥٧	الآيتان: ٣٨ و ٣٩	٣٩٦
الدرس الرابع والثلاثون	٣٥٨	الآيتان: ٤٠ و ٤١	٣٩٧
الآية: ٢٨٢	٣٥٩ و ٣٦١	الدرس الأربعون	٣٩٩
الآية: ٢٨٣	٣٦٢	الآيتان: ٤٢ و ٤٣	٤٠٠
الدرس الخامس والثلاثون	٣٦٤	الآيات: ٤٤ - ٤٦	٤٠١
الآية: ٢٨٤	٣٦٥	الآيات: ٤٧ - ٥١	٤٠٢ و ٤٠٣
الآيتان: ٢٨٥ و ٢٨٦	٣٦٧	الدرس الحادي والأربعون	٤٠٥
الدرس السادس والثلاثون	٣٧٠	الآيات: ٥٢ - ٥٥	٤٠٧
﴿سورة آل عمران﴾	٣٧٠	الآيات: ٥٦ - ٥٨	٤٠٨
الآيات: ١ - ٦	٣٧٢	الآيات: ٥٩ - ٦٣	٤٠٩
الآيات: ٧ - ٩	٣٧٤	الآية: ٦٤	٤١٠
الدرس السابع والثلاثون	٣٧٨	الآيات: ٦٥ - ٦٧	٤١١
الآيات: ١٠ - ١٣	٣٧٩	الآية: ٦٨	٤١٢
الآيات: ١٤ - ١٧	٣٨١	الدرس الثاني والأربعون	٤١٣
الدرس الثامن والثلاثون	٣٨٣	الآيات: ٦٩ - ٧١	٤١٥
الآيات: ١٨ - ٢٠	٣٨٥	الآيات: ٧٢ - ٧٤	٤١٦
الآيات: ٢١ - ٢٥	٣٨٧	الآيتان: ٧٥ و ٧٦	٤١٧
الآيتان: ٢٦ و ٢٧	٣٨٨	الآية: ٧٧	٤١٨
الآية: ٢٨	٣٨٩	الآيات: ٧٨ - ٨٠	٤١٩
الآيات: ٢٩ - ٣١	٣٩٠	الدرس الثالث والأربعون	٤٢١
الآية: ٣٢	٣٩١		

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٤٦٠	الدرس الثامن والأربعون	٤٢٢	الآيتان: ٨١ و ٨٢
٤٦٢	الآيات: ١٤٩ - ١٥١	٤٢٣	الآيات: ٨٣ - ٨٥
٤٦٣	الآيتان: ١٥٢ و ١٥٣	٤٢٥	الآيات: ٨٦ - ٨٩
٤٦٦	الآيتان: ١٥٤ و ١٥٥	٤٢٦	الآيتان: ٩٠ - ٩١
٤٦٨	الدرس التاسع والأربعون	٤٢٧	الدرس الرابع والأربعون
٤٧٠	الآيات: ١٥٦ - ١٥٨	٤٢٩	الآيات: ٩٢ - ٩٥
٤٧١	الآيتان: ١٥٩ و ١٦٠	٤٣٠	الآيتان: ٩٦ و ٩٧
٤٧٢	الآيات: ١٦١ - ١٦٤	٤٣٢	الآيتان: ٩٨ و ٩٩
٤٧٤	الآيات: ١٦٥ - ١٦٨	٤٣٣	الآيتان: ١٠٠ و ١٠١
٤٧٦	الآيات: ١٦٩ - ١٧٥	٤٣٤	الآيتان: ١٠٢ و ١٠٣
٤٧٩	الدرس الخمسون	٤٣٦	الآيات: ١٠٤ - ١٠٩
٤٨١	الآيات: ١٧٦ - ١٧٨	٤٣٨	الدرس الخامس والأربعون
٤٨٢	الآيتان: ١٧٩ - ١٨٠	٤٤٠	الآيات: ١١٠ - ١١٢
٤٨٣	الآيات: ١٨١ - ١٨٦	٤٤١	الآيات: ١١٣ - ١١٥
٤٨٥	الآيات: ١٨٧ - ١٨٩	٤٤٢	الآيتان: ١١٦ و ١١٧
٤٨٧	الدرس الحادي والخمسون	٤٤٣	الآيات: ١١٨ - ١٢٠
٤٨٨	الآيات: ١٩٠ - ١٩٤	٤٤٥	الدرس السادس والأربعون
٤٨٩	الآية: ١٩٥	٤٤٧	الآيتان: ١٢١ و ١٢٢
٤٩٠	الآيات: ١٩٦ - ١٩٨	٤٤٨	الآيات: ١٢٣ - ١٢٧
٤٩١	الآيتان: ١٩٩ و ٢٠٠	٤٥٠	الآيات: ١٢٨ - ١٣٢
٤٩٣	الدرس الثاني والخمسون	٤٥١	الآيات: ١٣٣ - ١٣٦
٤٩٣	﴿سورة النساء﴾	٤٥٤	الدرس السابع والأربعون
٤٩٥	الآيات: ١ - ٤	٤٥٥	الآيات: ١٣٧ - ١٤٣
٤٩٧	الآيتان: ٥ و ٦	٤٥٧	الآيات: ١٤٤ - ١٤٨
٤٩٨	الآيات: ٧ - ١٠		

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٥٤٥	الآيات: ٤٧ - ٥٠	٥٠١	الدرس الثالث والخمسون
٥٤٦	الآيات: ٥١ - ٥٥	٥٠٢ و ٥٠٣	الآية: ١١
٥٤٨	الآيتان: ٥٦ و ٥٧	٥٠٤	الآية: ١٢
٥٤٩	الدرس التاسع والخمسون	٥٠٥	الآيتان: ١٣ و ١٤
٥٥١	الآيتان: ٥٨ و ٥٩	٥٠٧	الدرس الرابع والخمسون
٥٥٣	الآيات: ٦٠ - ٦٥	٥٠٨	الآيتان: ١٥ و ١٦
٥٥٥	الآيات: ٦٦ - ٧٠	٥٠٩	الآيتان: ١٧ و ١٨
٥٥٧	الدرس الستون	٥١٠	الآيات: ١٩ - ٢١
٥٥٨	الآيات: ٧١ - ٧٤	٥١٢	الدرس الخامس والخمسون
٥٦٠	الآيتان: ٧٥ و ٧٦	٥١٤	الآية: ٢٢
٥٦١	الآيات: ٧٧ - ٧٩	٥١٥	الآيتان: ٢٣ و ٢٤
٥٦٤	الدرس الحادي والستون	٥١٩	الآية: ٢٥
٥٦٥	الآيتان: ٨٠ و ٨١	٥٢٠	الآيات: ٢٦ - ٢٨
٥٦٦	الآيات: ٨٢ - ٨٤	٥٢٢	الدرس السادس والخمسون
٥٦٧	الآيات: ٨٥ - ٨٧	٥٢٣	الآيات: ٢٩ - ٣١
٥٧٠	الدرس الثاني والستون	٥٢٥	الآيتان: ٣٢ و ٣٣
٥٧١	الآيات: ٨٨ - ٩٠	٥٢٧	الآيتان: ٣٤ و ٣٥
٥٧٢	الآية: ٩١	٥٣٢	الدرس السابع والخمسون
٥٧٣	الآيتان: ٩٢ و ٩٣	٥٣٣	الآيتان: ٣٦ و ٣٧
٥٧٧	الدرس الثالث والخمسون	٥٣٦	الآيتان: ٣٨ و ٣٩
٥٧٨	الآيات: ٩٤ - ٩٦	٥٣٧	الآيات: ٤٠ - ٤٢
٥٧٩	الآيات: ٩٧ - ١٠٠	٥٤٠	الدرس الثامن والخمسون
٥٨٢	الدرس الرابع والستون	٥٤٢	الآية: ٤٣
		٥٤٤	الآيات: ٤٤ - ٤٦

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٥٩٩	الدرس السابع والستون	٥٨٣	الآية: ١٠١
٦٠٠	الآية: ١٢٧	٥٨٤	الآيتان: ١٠٢ و ١٠٣
٦٠١	الآيات: ١٢٨ - ١٣٠	٥٨٥	الآية: ١٠٤
٦٠٢	الآيات: ١٣١ - ١٣٤	٥٨٧	الدرس الخامس والستون
٦٠٤	الآية: ١٣٥	٥٨٨	الآيات: ١٠٥ - ١٠٩
٦٠٥	الدرس الثامن والستون	٥٩١	الآيات: ١١٠ - ١١٢
٦٠٧	الآيات: ١٣٦ - ١٣٩	٥٩٢	الآيات: ١١٣ - ١١٥
٦٠٩	الآيتان: ١٤٠ و ١٤١	٥٩٤	الدرس السادس والستون
٦١٠	الآيتان: ١٤٢ و ١٤٣	٥٩٥	الآيات: ١١٦ - ١٢١
٦١١	الآيات: ١٤٤ - ١٤٧	٥٩٦	الآية: ١٢٢
		٥٩٧	الآيات: ١٢٣ - ١٢٦



تَوْفِيقُ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في دروس القرآنية

تأليف

الشيخ فيصل بن عبد العزيز بن فيصل آل مبارك

(١٣١٣ - ١٣٦٦ هـ)

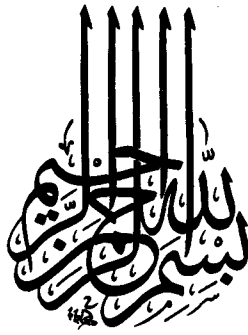
رَحِمَهُ اللهُ

حَقَّقَهُ، وَضَرَعَ أَهْلِيَّتَهُ، وَعَلَّوهُ عَلَيْهِ

عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم آل نبراس حمد

الجزء الثاني

من سورة النساء آية ١٤٨ إلى آخر سورة النساء



تَوْفِيقًا لِحَسْبِهَا

(٢)

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

دار العليان

للنشر والنسخ والتصوير والتجليد
وطباعة الرسائل والبحوث العلمية
القصص - بريدة - ص ب : ١٨٣
هاتف : ٣٢٣٠٢٤٧ - فاكس ٣٢٤٣٦٤٤

وزارة العمارة

المملكة العربية السعودية
الرياض - ص ب ٤٢٥٠٧ - المبنى البريدي ١١٥٥١
هاتف ٤٩١٥١٥٤ - ٤٩٣٣٣١٨ - فاكس ٤٩١٥١٥٤

الدرس التاسع والستون

﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيمًا عَلِيمًا ﴾ ١٤٨ ﴿ إِن يُبَدُّوا خَيْرًا أَوْ مَخْفُوهً أَوْ تَعَفُّوا عَن سُوِّ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوقًا قَدِيرًا ﴾ ١٤٩ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ ١٥٠ ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ حَقًّا ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ ١٥١ ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمُ أَجْرَهُمُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ١٥٢ ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۗ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۗ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۗ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطٰنًا مُّبِينًا ﴾ ١٥٣ ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقٰلِ عِلْمٍ ۖ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمُ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا عَلِيمًا ﴾ ١٥٤ ﴿ فِيمَا نَقُضِيهِمْ مِّثْقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيٰتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ١٥٥ ﴿ وَيَكْفُرُهُمْ وَعَقْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بِمِثْقٰنَا عَظِيمًا ﴾ ١٥٦ ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ ١٥٧ ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ ١٥٨ ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ

الْكُتُبِ إِلَّا لِيُؤْمِنَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَيُظَاهِرُ مِنْ
الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدَّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾
وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ
عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا
أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ خَفَوْهُ أَوْ تَعَفَّوْا عَنْ سُوءِ قَانَ اللَّهِ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء﴾، أي: لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً، فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه، وذلك قوله: ﴿إلا من ظلم﴾ وإن صبر فهو خير له. وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «المستبان ما قالوا، فعلى البادىء منهما ما لم يعتد المظلوم»^(١). رواه أبو داود.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ خَفَوْهُ أَوْ تَعَفَّوْا عَنْ سُوءِ قَانَ اللَّهِ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا﴾ في الحديث الصحيح: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه»^(٢).

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا رَحِيمًا ﴿١٥٢﴾ .

(١) أخرجه مسلم (ح/٢٥٨٧).

(٢) أخرجه مسلم (٤/٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة.

قال قتادة في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ يُؤْمِنُونَ أَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: أولئك أعداء الله اليهود والنصارى، آمنت اليهود بالتوراة وموسى وكفروا بالإنجيل وعيسى، وآمنت النصارى بالإنجيل وعيسى وكفروا بالقرآن وبمحمد ﷺ، فاتخذوا اليهودية والنصرانية وهما بدعتان ليستا من الله، وتركوا الإسلام وهو دين الله الذي بعث به رسله.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ كلهم، وهم المؤمنون ﴿ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً﴾، أي: غفوراً لذنوبهم، رحيماً بهم.

قوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٥﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقٰلِ عِظْمٍ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا ٱلْبَابَ مُجَدًّا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّثْقٰلًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾.

عن محمد بن كعب القرظي قال: جاء أناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن موسى جاء بالألواح من عند الله فآتانا بالألواح من عند الله حتى نصدقك، فأنزل الله ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء﴾ إلى قوله: ﴿على مريم بهتاناً عظيماً﴾^(١).

قال البغوي^(٢): وكان هذا السؤال منهم سؤال تحكم واقتراح، لا سؤال انقياد، والله تعالى لا ينزل الآيات على اقتراح للعباد.

(١) أخرجه ابن جرير (٧/٦) عن محمد بن كعب مرسلًا.

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (١/٣٩٥).

قوله: ﴿فقد سألو موسى أكبر من ذلك﴾، أي: أعظم من ذلك، يعني السبعين الذين خرج بهم موسى عليه السلام إلى الجبل ﴿فقالوا أرنا الله جهرة﴾، أي: عياناً ﴿فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾. ﴿ثم اتخذوا العجل﴾، يعني: إلهاً، وثم هنا لترتيب الأخبار لا للتعقيب، لأن اتخذهم العجل قبل سؤالهم رؤية الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾، أي: المعجزات التسع، وإهلاك فرعون وجنوده، ﴿فعفونا عن ذلك﴾ ولم نستأصلهم بالعقوبة، ﴿وأتينا موسى سلطاناً مبيناً﴾، أي: حجة بينة.

وقوله تعالى: ﴿ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾.

قال ابن جرير^(١): يعني جل ثناؤه ﴿ورفعنا فوقهم الطور﴾، يعني: الجبل، وذلك لما امتنعوا من العمل بما في التوراة وقبول ما جاءهم به موسى فيها. ﴿بميثاقهم﴾، يعني: بما أعطوا الله الميثاق والعهد لنعملن بما في التوراة.

وقوله تعالى: ﴿وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً﴾ قال قتادة: كنا نحدث أنه باب من أبواب بيت المقدس. ﴿وقلنا لهم لا تعدوا في السبت﴾ أصر القوم أن لا يأكلوا الحيتان يوم السبت، ولا يعرضوا لها، وأحل لهم ما وراء ذلك.

وقوله: ﴿وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾، يعني: عهداً مؤكداً شديداً، بأنهم يعملون ما أمرهم الله به، ويتتهون عما نهاهم الله عنه، مما ذكر في هذه الآية ومما في التوراة.

قوله عز وجل: ﴿فِيمَا نَقَضُوا مِيثَقَهُمْ وَكَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمْ

(١) انظر: «جامع البيان» (٩/٦).

الْأَنْبِيَاءَ يَغْتَرِ حَقٌّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَعَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاعُ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا ﴿١٥٩﴾ .

قال قتادة في قوله: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ يقول: فبنقضهم ميثاقهم، لعناهم ﴿وقولهم قلوبنا غلف﴾، أي: لا تفقه، ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ ولعنهم حين فعلوا ذلك.

قال في جامع البيان: ﴿فبما نقضهم﴾ ما مزيدة للتأكيد ﴿ميثاقهم﴾ فعلنا بهم ما فعلنا.

وقوله تعالى: ﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾ قال ابن عباس: يعني أنهم رموها بالزنا. ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ قال قتادة: أولئك أعداء الله اليهود، اشتبهوا بقتل عيسى بن مريم رسول الله، وزعموا أنهم قتلوه وصلبوه. وذكر لنا أن نبي الله عيسى ابن مريم قال لأصحابه أيكم يقذف عليه بشيبي فإنه مقتول؟ فقال رجل من أصحابه: أنا. فقتل ذلك الرجل، ومنع الله نبيه ورفعته إليه.

وقوله تعالى: ﴿وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا أتباع الظن وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ قال الكلبي: اختلافهم هو أن اليهود قالت: نحن قتلناه، وقالت طائفة من النصارى: نحن قتلناه، وقالت طائفة منهم: ما قتله هؤلاء، ولا هؤلاء؛ بل رفعه الله إلى السماء، ونحن ننظر إليه.

وقوله تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ قال الحسن: والله إنه الآن لحيٍّ عند الله، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون. وعن أبي مالك في قوله: ﴿إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ قال: ذلك عند نزول عيسى ابن مريم، لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد، وإني أولى الناس بعيسى ابن مريم، لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، فإنه رجل مربع الخلق إلى الحمرة والبياض، سبط الشعر كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، بين ممصرتين لعله - مهرودتين - فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال، ويقاتل الناس على الإسلام حتى يهلك الله في زمانه الملل كلها غير الإسلام، ويهلك الله في زمانه مسيح^(١) الغلالة الكذاب الدجال، وتقع الأمة^(٢) في الأرض في زمانه حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمور مع البقر، والذئاب مع الغنم، وتلعب الغلمان والصبيان بالحيات لا يضر بعضهم بعضاً. ثم يلبث في الأرض ما شاء الله، وربما قال: أربعين سنة، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون ويدفنونه»^(٣). رواه ابن جرير. وعن قتادة: ﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ يقول يكون عليهم شهيداً يوم القيامة أنه قد بلغ رسالة ربه، وأقر بالعبودية على نفسه.

قوله عز وجل: ﴿فَيُظَلِّمِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُجَلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦١﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنَّا وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَطْلِ ؕ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦٢﴾ لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ

(١) في الأصل: «مسيح» وهو خطأ.

(٢) في الأصل: «الأمة» وهو خطأ.

(٣) أخرجه أحمد (٤٠٦/١)، وابن جرير (٢٢/٦ - ٢٣)، وهو حديث صحيح.

وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٦﴾ .

عن قتادة ﴿بظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ الآية، عوقب القوم بظلم ظلموه وبغى بغوه، حرمت عليهم أشياء ببغهم وبظلمهم. وقال مجاهد في قول الله: ﴿وبصدهم عن سبيل الله كثيراً﴾ قال: أنفسهم وغيرهم عن الحق.

وقوله تعالى: ﴿وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾ .

قال ابن جرير^(١): يعني ما كانوا يأخذون من الرشا على الحكم، كما وصفهم الله في قوله: ﴿وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبس ما كانوا يعملون﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمِينَ الصلاة والمؤتُونَ الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾. قال قتادة: استثنى الله منهم ثنية من أهل الكتاب، وكان منهم من يؤمن بالله، وما أنزل عليهم، وما أنزل على نبي الله، يؤمنون به ويصدقون به، ويعلمون أنه الحق من ربهم.

وقوله تعالى: ﴿أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾ يعني الجنة. والله أعلم.



(١) انظر: «جامع البيان» (٢٤/٦).

(٢) سورة المائدة: الآية ٦٢.

الدرس السبعون

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٦٦﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٧﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٨﴾ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٧٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٧١﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٧٢﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٣﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ .

قال ابن عباس: قال سكين وعدي بن ثابت: يا محمد ما نعلم الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى، فأنزل الله في ذلك من قولهما: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾ إلى آخر الآيات^(١).
وقوله تعالى: ﴿وآتينا داود زبوراً﴾.

قال ابن كثير^(٢): والزبور الكتاب الذي أوحاه الله إلى داود عليه السلام.

قال البغوي^(٣): وكان فيه التحميد، والتمجيد، والثناء على الله عز وجل، ثم روى بسنده عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لقراءتك، لقد أعطيت مزاراً من مزامير آل داود، فقال: أما والله يا رسول الله لو علمت أنك تستمع لحبرته تحبيراً»^(٤). وكان عمر رضي الله عنه إذا رآه يقول: ذكرنا يا أبا موسى، فيقرأ عنده.

(١) أخرجه ابن جرير (٢٨/٦) بسند ضعيف.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٥٨٥).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (١/٣٩٨).

(٤) أخرجه مسلم (١/٥٤٦). دون زيادة قوله: «لو علمت أنك تستمع...».

وقوله تعالى: ﴿ورسلًا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾ في حديث أبي ذر الطويل قلت: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً. قلت: يا رسول الله كم الرسل منهم؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر، جم غفير^(١).

وقوله تعالى: ﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾ هذا تشریف لموسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات﴾^(٢) جاء رجل إلى أبي بكر بن عياش فقال: سمعت رجلاً يقرأ: وكلم الله موسى^(٣) تكليماً فقال أبو بكر: ما قرأ هذا إلا كافر. وقرأها رجل كذلك على بعض المشايخ فقال له: يابن اللخناء كيف تصنع بقوله تعالى: ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه﴾^(٤)؟ يعني أن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل. قال الفراء: العرب تسمي ما يوصل إلى الإنسان كلاماً بأيّ طريق وصل، ولكن لا تحقّقه بالمصدر، فإذا حقّق بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام. وقال ابن عباس: لما سمع موسى كلام الآدميين، مقتهم ممّا وقع في مسامعه من كلام الرب عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿رسلًا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ عن السدى: ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾، فيقولوا: ما أرسلت إلينا رسلاً. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: «لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد

(١) أخرجه الحاكم (٥٩٧/٢)، وابن حبان في المجروحين (١٢٩/٣)، بسند ضعيف جداً.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٣.

(٣) حيث نصب لفظ الجلالة «الله» فيكون المعنى: أن موسى هو الذي كلم الله. وليس العكس.

فنعوذ بالله من تحريف أهل البدع، ونسأل الله الثبات على السنة إلى أن نلقاه.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٤٣.

أحب إليه المدح من الله عز وجل، من أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العذر^(١) من الله، من أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه^(٢).

قوله عز وجل: ﴿لَئِنْ آتَىٰكَ اللَّهُ شَهِدًا بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْكَ مِنْ آيَاتِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يُشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُفْرًا بِالرَّسُولِ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَتَأْمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾.

عن ابن عباس قال: دخل على رسول الله ﷺ جماعة من يهود فقال لهم: «إني والله أعلم لتعلمون أني رسول الله» فقالوا ما نعلم ذلك، فأنزل الله ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك^{أنزل} بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا﴾^(٣). قال قتادة: شهود والله غير متهمة.

وقوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً﴾ أي كفروا في أنفسهم، فلم يتبعوا الحق وسعوا في صد الناس عن اتباعه.

وقوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً إلاً طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً﴾.

قال ابن كثير^(٤): ثم أخبر تعالى عن حكمه في الكافرين بآياته وكتابه

(١) في (الأصل): «العذر»، وهو خطأ فاحش.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٦٣٤)، ومسلم — بلفظه — (٢١١٤/٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه ابن جرير (٣١/٦)، وفي سنده ضعف.

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٥٨٩/١).

ورسوله، الظالمين لأنفسهم بذلك، بالصدّ عن سبيله، وارتكاب محارمه، وانتهاك مآثمه، بأنه لا يغفر لهم ﴿ولا يهديهم طريقاً﴾ أي: سبيلاً إلى الخير ﴿إلاّ طريق جهنم﴾ وهذا استثناء منقطع ﴿خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً﴾.

قال البغوي^(١): وهذا في حق من سبق حكمه فيهم أنهم لا يؤمنون.

وقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس قد جائكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم﴾ أي يكن الإيمان خيراً لكم، ﴿وإن تكفروا فإن الله ما في السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً﴾.

قال ابن جرير^(٢): يقول: ﴿وكان الله عليماً﴾ بما أنتم صائرون إليه من طاعته فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، ومعصيته في ذلك، وعلى علم منه بذلك منكم أمركم ونهاكم ﴿حكيماً﴾ يعني حكيماً في أمره إياكم بما أمركم به، وفي نهيه إياكم عما نهاكم عنه، وفي غير ذلك من تدبيره فيكم وفي غيركم من خلقه، والله أعلم.



(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٤٠٠).

(٢) انظر «جامع البيان» (٦/٣٣).

الدرس الحادي والسبعون

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ
 إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ
 فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ
 سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ
 وَكِيلًا ﴿١٧٦﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ
 الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيَّ جَمِيعًا ﴿١٧٧﴾
 فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ
 وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا
 إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي
 رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٨٠﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ
 يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلْبَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ
 وَهُوَ بِرِثَتِهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أُخْتَيْنِ فَلَهُمَا النِّسْبَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا
 إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ
 بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ .

قوله عز وجل: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكُتَّابُ لَاتَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَتَأْمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ أَنْتَهُمَا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ .

قال البغوي^(١): نزلت في النصارى وهم أصناف: اليعقوبية والملكانية والنسطورية والمرقسية^(٢)، فقالت اليعقوبية: عيسى هو الله، وكذلك الملكانية. وقالت النسطورية: عيسى هو ابن الله. وقالت المرقسية^(٣): ثالث ثلاثة، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وأصل^(٤) الغلوّ مجاوزة الحد.

وعن الربيع: صاروا فريقين: فريق غلوا في الدين فكان غلوهم فيه الشك فيه والرغبة عنه، وفريق منهم قصروا عنه ففسقوا عن أمر ربهم. وعن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»^(٥). رواه أحمد وغيره.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، عن قتادة ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم﴾. قال: هو قوله: كن،

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٤٠٠).

(٢) في (الأصل): «المرقسية»، والمثبت من تفسير البغوي.

(٣) في (الأصل): «المرقسية»، والمثبت من تفسير البغوي.

(٤) في (الأصل): «أجل»، وهو خطأ.

(٥) أخرجه البخاري (ح/٣٤٤٥).

فكان. وقال شاذ^(١) بن يحيى في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمْتَهُ أَلقَاهَا إِلَى مريم وروح منه﴾: ليس الكلمة صارت عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى. وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»^(٢). متفق عليه.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمْنُوا بِالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد﴾، لأن النبي إنما يجوز لمن يتصور له ولد، وذلك لا يجوز على الرب، كما قال تعالى: ﴿وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً﴾^(٣)، ولهذا قال تعالى: ﴿له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً﴾.

قوله عز وجل: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٧﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٨﴾﴾.

قال ابن جرير^(٤): يعني جل ثناؤه يقول: ﴿لن يستنكف المسيح﴾ لن يأنف

(١) في (الأصل): «شاذان»، وهو خطأ.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٣٤٣٠)، ومسلم (ح/٢٨).

(٣) سورة مريم: الآية ٩٢.

(٤) انظر «جامع البيان» (٦/٣٧ و ٣٨).

ولن يستكبر المسيح أن يكون عبداً لله. وقال قتادة: لن يحتشم المسيح أن يكون عبداً لله ﴿ولا الملائكة المقربون﴾.

وقوله تعالى: ﴿ومن يستكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً﴾.

قال البغوي^(١): قيل: الاستكاف هو التكبر مع الأنفة، والاستكبار: هو العلو والتكبر من غير أنفة. ﴿فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ من تضعيف ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿وأما الذين استنكفوا واستكبروا عن عبادته فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾.

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾.

عن قتادة: قوله: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم﴾، أي: بينة من ربكم، ﴿وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾، وهو هذا القرآن. ﴿فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً﴾. قال ابن جريج في قوله: ﴿فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به﴾. قال: بالقرآن.

وقال البغوي^(٢): ﴿فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به﴾ امتنعوا به من زيغ الشيطان ﴿فسيدخلهم في رحمة منه وفضل﴾، يعني الجنة. ﴿ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً﴾.

قال ابن جرير^(٣): يقول: ويوقفهم لإصابة فضله الذي تفضل به على أوليائه،

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٤٠١).

(٢) المصدر السابق (١/٤٠٢).

(٣) انظر «جامع البيان» (٦/٤٠).

ويسددهم لسلوك منهج مَنْ أنعم عليه من أهل طاعته ولاقتفاء آثارهم واتباع دينهم، وذلك هو الصراط المستقيم، وهو دين الله الذي ارتضاه لعباده، وهو الإسلام.

قوله عز وجل: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنَّ أَمْرًا هَلَاكًا لَيْسَ لَكُمْ وَوَالِدٌ وَأَخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَوَالِدٌ فَإِنْ كَانَتَا أَثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾ .

في الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال: «دخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل، قال: فتوضأ ثم صبر عليّ فعقلت، فقلت: إنه لا يرثني إلا كلاله فكيف الميراث؟ فأنزل الله آية الفرائض وفي لفظ: فنزلت آية الميراث ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله﴾ الآية»^(١).

وعن عمر قال: «ما سألت رسول الله ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلاله، حتى طعن بأصبعه في صدري، وقال: يكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء»^(٢). رواه أحمد وغيره.

قال ابن كثير^(٣): فسرها أكثر العلماء فيمن يموت وليس له ولد ولا والد.

قال قتادة: وذكر لنا أن أبا بكر الصديق قال في خطبته: ألا أن الآية التي نزلت في أول سورة النساء في شأن الفرائض أنزلها الله في الولد والوالد، والآية الثانية: أنزلها الله في الزوج والزوجة والإخوة من الأم، والآية التي ختم بها سورة النساء: أنزلها في الإخوة والأخوات من الأب والأم، والآية التي ختم بها سورة

(١) أخرجه البخاري (ح/٦٧٢٣) و (٧٣٠٩)، ومسلم (ح/١٦١٦).

(٢) أخرجه مسلم (ح/١٦١٧).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٥٩٢) و (١/٤٦٠).

الأنفال: أنزلها في أولي الأرحام، بعضهم أولى ببعض في كتاب الله مما جرت الرحم من العصبية.

وعن السدي: ﴿إن امرؤ هلك﴾ يقول: مات ﴿ليس له ولد﴾ ذكر ولا أنثى ﴿وله أخت﴾.

قال ابن جرير^(١): يعني وللميت أخت لأبيه وأمه، أو لأبيه ﴿فلها نصف ما ترك﴾ يقول: فلأخته التي تركها بالصفة التي وصفنا نصف تركته ميراثاً عنه دون سائر عصبته، وما بقي فلعصبته. قال: فأما إذا كان للميت ولد أنثى، فهي مع^(٢) عصبته.

وعن ابن جريج قوله: ﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾. قال: في شأن الموارث ﴿والله بكل شيء عليم﴾.

قال ابن جرير^(٣): يعني بذلك جل ثناؤه: والله بكل شيء من مصالح عباده في قسمة موارثهم وغيرها، وجميع الأشياء ﴿عليم﴾ يقول: هو بذلك كلُّه ذو علم. انتهى والله أعلم وبالله التوفيق.



(١) انظر «جامع البيان» (٤٥/٦).

(٢) في (الأصل) «معها»، والمثبت من تفسير ابن جرير.

(٣) المصدر السابق (٤٦/٦).

الدرس الثاني والسبعون

﴿سورة المائدة﴾

مدينة، وهي مائة وعشرون آية

عن عبد الله بن عمرو قال: «آخر سورة أنزلت سورة المائدة والفتح»^(١). رواه الترمذي. يعني إذا جاء نصر الله والفتح. وروى الحاكم عن جبير بن نفير قال: حججت فدخلت على عائشة فقالت لي: «يا جبير تقرأ المائدة؟» فقلت: نعم. فقالت: «أما إنها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم من حرام فحرّموه».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْمُعْهُودِ ءَأَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِيْمَةً ءَلَا تَنْعَمِ إِلَّا مَا يُتَلَّنَ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُحِلُّوْا شَعْبِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهُدَىٰ وَلَا الْفَلْتِيْدَ وَلَا ءَأَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَفِعُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن

(١) أخرجه الترمذي (ح/٣٠٦٣)، والحاكم (٢/٣١١)، وصححه ووافقه الذهبي، قلت: وسنده لا بأس به، وله شاهد يقويه وهو الحديث الآتي بعده، أخرجه أحمد (٦/١٨٨)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٣٣) والحاكم (٢/٣١١). وصححه على شرط الشيخين! ووافقه الذهبي، وهو حديث صحيح.

صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالْقَوَىٰٓ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَٰلِكُمْ فُتِنٌ يَوْمَ يُبْسُ أَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخَبَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلَّبِينَ يُعَاوَنُونَ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْتَفْحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَأَوْفُوا بِالْعُقُودِ ءَأَحَلَّتْ لَكُمْ
بِهَيْمَةَ ٱلْأَنْعَامِ ۖ إِلَّا مَا يَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مَحَلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾
يَتَأْتِيهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُحِلُّوٓا۟ شَعْبِيرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْمَهْدَىٰ وَلَا ٱلْقَلْبِدَ وَلَا
ءَأَمِينَ ٱلْبَيْتِ ٱلْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا
يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا
عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلنَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدُوْنِ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ
ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿أوفوا بالعقود﴾ يعني بالعهود. وعن مجاهد ﴿أوفوا
بالعقود﴾ ما عقد الله على العباد مما أحل لهم، وحرّم عليهم. وقال عبد الله بن
عبيدة: العقود خمس: عقدة الإيمان، وعقدة النكاح، وعقدة العهد، وعقدة البيع،
وعقدة الحلف.

وقوله تعالى: ﴿أحلت لكم بهيمة الأنعام﴾ قال الحسن: من الإبل، والبقر،
والغنم. وعن ابن عباس: أن بقرة نُحرت فوجد في بطنها جنين، فأخذ ابن عباس
بذنب الجنين، فقال: هذا من بهيمة الأنعام التي أحلت لكم.

وقوله تعالى: ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ قال قتادة: إلا الميتة، وما لم يذكر اسم
الله عليه. وعن ابن عباس: ﴿أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم﴾ هي
الميتة، والدم، ولحم الخنزير ما أهل لغير الله به. وقال مجاهد: إلا الميتة وما ذكر
معها.

وقوله تعالى: ﴿غير محلي الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد﴾ .

قال البغوي^(١): معنى الآية: أحلت لكم بهيمة الأنعام كلها إلا ما كان منها وحشياً، فإنه صيد لا يحل لكم في حال الإحرام.

وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله﴾ قال ابن عباس: كان المشركون يحجّون البيت الحرام، ويهدون الهدايا^(٢)، ويعظّمون حرمة المشاعر، ويتّجرون في حجهم، فأراد المسلمون أن يُغيروا عليهم، فقال الله عز وجل: ﴿لا تحلوا شعائر الله﴾^(٣) وسئل عطاء عن شعائر الله فقال: حرّات الله: اجتناب سخط الله واتباع طاعته، فذلك شعائر الله. وقال ابن عباس: مناسك الحج.

وقوله تعالى: ﴿ولا الشهر الحرام﴾ قال ابن عباس: يعني لا تستحلوا قتلاً فيه. قال قتادة: كان الشرك يومئذ لا يصدّ عن البيت، فأمرُوا أن لا يقاتلوا في الشهر الحرام، ولا عند البيت.

وقوله تعالى: ﴿ولا الهدي ولا القلائد﴾، أي: لا تتعرضوا للهدايا المقلّدة وغير المقلّدة. وقال قتادة: كان الرجل في الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحج، يقلّد من الشعر فلم يعرض له أحد، فإذا رجع يقلّد قلادة فلم يعرض له أحد.

وقوله تعالى: ﴿ولا أمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً﴾ قال ابن جريج: ينهي عن الحجاج أن تقطع سبلهم. وقال ابن عباس: نهى الله المؤمنين أن يمنعوا أحداً أن يحج البيت، أو يعرضوا له من مؤمن وكافر، ثم أنزل الله بعد هذا ﴿إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وإذا حللتهم فاصطادوا﴾ قال مجاهد: هي رخصة.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٢).

(٢) في (الأصل): «الهدية»، والمثبت من تفسير ابن جرير.

(٣) أخرجه ابن جرير (٥٤/٦) بسند ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿ولا يجزئكم شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾ قال قتادة: أي لا يحملنكم بغض قوم أن تعتدوا.

قال ابن كثير^(١): أي لا يحملنكم بغض قوم قد كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام، وذلك عام الحديبية على أن تعتدوا حكم الله فيهم، ففتنصوا منهم ظلماً وعدواناً، بل أحكموا بما أمركم الله به من العدل في حق كل أحد.

وقوله تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ قال ابن عباس: البر ما أمرت به، والتقوى ما نهيت عنه.

قوله عز وجل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيَّةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّبَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ بَيَّسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قال ابن كثير^(٢): وقوله: ﴿وما أهل لغير الله به﴾، أي: ما ذبح فذكر عليه اسم غير الله فهو حرام، لأن الله تعالى أوجب أن تذبح مخلوقاته على اسمه العظيم، فمتى عدل بها عن ذلك وذكر اسم غيره من صنم، أو طاغوت، أو وثن، أو غير ذلك من سائر المخلوقات، فإنها حرام بالإجماع. وقال ابن عباس: المنخنقة: التي تختنق وتموت؛ وقال قتادة هي التي تموت في خناقها، وقال أيضاً: كان أهل

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٥/٢).

(٢) المصدر السابق (٧/٢).

الجاهلية يخنقون الشاة حتى إذا ماتت أكلوها. والموقوذة: كان أهل الجاهلية يضربونها بالعصا حتى إذا ماتت أكلوها. وقال السدي: المتردية هي التي تردى من الجبل أو البئر فتموت. والنطيحة: التي تنطحها البقر والغنم فتموت، يقول هذا حرام لأن ناساً من العرب كانوا يأكلونه. وعن ابن عباس: وما أكل السبع يقول: وما أخذ السبع. قال قتادة: كان أهل الجاهلية إذا قتل السبع شيئاً من هذا أو أكل منه أكلوا ما بقي.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ﴾ قال ابن عباس: يقول: ما أدركت ذكاته من هذا كلّه يتحرك له ذنب، أو تطرف له عين، فاذبح، واذكر الله عليه، فهو حلال.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ذَبِحَ عَلَى النَّصَبِ﴾ قال قتادة: والنصب حجارة كان أهل الجاهلية يعبدونها ويذبحون لها فنهى الله عن ذلك.

قال ابن كثير^(١): فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع، وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب، حتى لو كان يذكر عليها اسم الله في الذبح عند النصب من الشرك الذي حرّمه الله ورسوله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ قال الحسن: كانوا إذا أرادوا أمراً أو سفرأ يعمدون إلى قدام ثلاثة على واحد منها مكتوب: أو مرني، وعلى الآخر: انهني، ويتركون الآخر محلاً بينهما ليس عليه شيء، ثم يحلونها فإن خرج الذي عليه: أو مرني، مضوا لأمرهم، وإن خرج الذي عليه: انهني، كفوا وإن خرج الذي ليس عليه شيء أعادوها.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ فَسَقٌ﴾ قال ابن عباس: يعني من أكل من ذلك كله فهو فسق.

(١) المصدر السابق (١١/٢).

وقال ابن كثير^(١): «وإن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق أي تعاطيه فسق وغيّ وضلالة وجهالة وشرك، وقد أمر الله المؤمنين إذا ترددوا في أمورهم أن يستخبروه.

وقوله تعالى: ﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون. اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ قال مجاهد ﴿اليوم يأس الذين كفروا من دينكم﴾، ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾: هذا حين فعلت. وقال ابن زيد في قوله: ﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم﴾ قال: هذا يوم عرفة. وقال ابن عباس: يعني أن ترجعوا إلى دينهم أبداً.

قال ابن كثير^(٢): ويحتمل أن يكون المراد أنهم يئسوا من مشابهة المسلمين، لما تميّز به المسلمون من هذه الصفات المخالفة للشرك وأهله.

وقال ابن جريج: ﴿فلا تخشوهم واخشون﴾ فلا تخشوهم أن يظهروا عليكم، «واخشون». قال ابن جرير^(٣) يقول: ولكن خافون إن أنتم خالفتهم أمري، واجترأتم على معصيتي، وتعدّيتم حدودي، أن أحلّ بكم عقابي وأنزل بكم عذابي.

وعن ابن عباس قوله: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ وهو الإسلام، قال أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، وقد أتمه الله عز ذكره فلا ينقصه أبداً، وقد رضي الله فلا يسخطه أبداً. وعن هارون بن عترة عن أبيه قال: «لما نزلت ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ وذلك يوم الحج الأكبر، بكى عمر فقال له النبي ﷺ: ما يبكيك؟ قال: أبكاني أنا كنا في زيادة من

(١) المصدر السابق (١١/٢).

(٢) المصدر السابق (١١/٢).

(٣) «جامع البيان» (٧٩/٢).

ديننا، فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص، فقال: صدقت^(١). وعن قتادة قوله: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾ الآية: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ يوم عرفة يوم الجمعة، حين نفى الله المشركين عن المسجد الحرام وأخلص للمسلمين حجهم.

قوله تعالى: ﴿فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم﴾ قال ابن عباس: ﴿في مخمصة﴾ يعني في مجاعة. وقال مجاهد ﴿غير متجانف لإثم﴾ غير متعمد لإثم، وقال السدي: يقول: غير متعرض لإثم، أي: يبتغي فيه شهوة أو يتعدى في أكله. وعن أبي واقد الليثي قال: «قلنا: يا رسول الله إنا بأرض يصيبنا فيها مخمصة، فما يصلح لنا من الميتة؟ قال: إذا لم تصطبخوا أو تغتبقوا أو تحتفتوا^(٢) بقلأ فشانكم بها^(٣). رواه ابن جرير.

قوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَانْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

روى ابن أبي حاتم عن عدي بن حاتم وزيد بن مهلهل الطائيين أنهما سألا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله قد حرم الله الميتة فماذا يحل لنا منها؟ فنزلت ﴿يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات﴾.

(١) أخرجه ابن جرير (٨٠/٦) مرسلًا.

(٢) في (الأصل): «تحتفتوا»، وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن جرير، والاحتفاء: هو اقتلاع الزرع من منبته بأطراف الأصابع، قال ابن جرير - رحمه الله - : «يروى هذا - أي: تحتفتوا - على أربعة أوجه: تحتفتوا بالهمزة، وتحتفتوا بتخفيف الياء والحاء، وتحتفتوا بتشديد الفاء، وتحتفتوا بالحاء والتخفيف، ويحتمل الهمزة». اهـ.

(٣) أخرجه ابن جرير (٨٦/٦ - ٨٧) بسند موضوع.

وعن الحسن في قوله: ﴿وما علمتم من الجوارح مكلّين﴾ قال: كل ما علم فصاد من كلب أو صقر أو فهد أو غيره.

قال ابن جرير^(١): فقوله: ﴿مكلّين﴾ صفة للقانص، وإن صاد بغير الكلاب في بعض أحيائه.

وقوله تعالى: ﴿تعلمونهن مما علمكم الله﴾.

قال البغوي^(٢): ﴿تعلمونهن﴾ تؤدّبوهن آداب أخذ الصيد ﴿مما علمكم الله﴾، أي: من العلم الذي علمكم الله. قال ابن عباس: إن المُعَلَّم من الكلاب: أن يمسك صيده، فلا يأكل منه حتى يأتيه صاحبه، فإن أكل من صيده قبل أن يأتيه صاحبه، فيدرك ذكاته^(٣) فلا يأكل من صيده. وقال طاووس: إذا أكل الكلب فهو ميتة فلا تأكل. وقال إبراهيم: إذا أكل البازي^(٤)، والصقر من الصيد فكل، فإنه لا يعلم. وروى ابن أبي حاتم عن عدي ابن حاتم قال «قلت: يا رسول الله إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة فما يحلّ لنا منها؟ قال: يحلّ لكم ما علمتم من الجوارح مكلّين تعلمونهن مما علمكم الله فلكوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه. ثم قال: ما أرسلت من كلب وذكر اسم الله عليه، فكلّ مما أمسك عليك. قلت: وإن قتل؟ قال: وإن قتل، ما لم يأكل، قلت: يا رسول الله وإن خالطت كلابنا كلاباً غيرها؟ قال: فلا تأكل حتى تعلم أنّ كلبك هو الذي أمسك، قال: قلت: إنا قوم نرمي فما يحلّ لنا؟ قال: ما ذكرت اسم الله عليه وخزفت فكلّ»^(٥).

(١) انظر «جامع البيان» (٩١/٦).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٨/٢).

(٣) في (الأصل): «ذكاته»، وهو خطأ.

(٤) في (الأصل): «البازي»، وهو خطأ.

(٥) أخرجه البخاري (ح/٥٤٧٥ و ٥٤٧٦ و ٥٤٧٧ و ٥٤٨٤ و ٥٤٨٧)، ومسلم (ح/١٩٣٠) وما

قال ابن كثير^(١): اشترط في الكلب أن لا يأكل، ولم يشترط ذلك في البزاة، فدل على التفرقة بينهما في الحكم والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ اللَّهُ سَرِيعَ الْحِسَابِ﴾ قال قتادة: إذا أرسلت كلبك المعلم، أو طيرك، أو سهمك، فذكرت اسم الله فأخذ، أو قتل، فكل. وقال الضحاك: إذا أرسلت كلبك المعلم فذكرت اسم الله حين ترسله، فأمسك، أو قتل، فهو حلال، فإذا أكل منه، فلا تأكل، وإنما أمسكه على نفسه. وقال ابن عباس: إذا أرسلت جوارحك فقل: بسم الله، إن نسيت فلا حرج.

قوله عز وجل: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾.

قال ابن جرير^(٢): يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿اليوم أحل لكم الطيبات﴾ اليوم أحل لكم أيها المؤمنون الحلال من الذبائح والمطاعم دون الخبائث منها.

وعن مجاهد: ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾ قال: الذبائح. وقال الضحاك: أحل الله لنا طعامهم ونساءهم. وعن الشعبي أنه كان لا يرى بأساً بذبائح نصارى بني تغلب، وقرأ ﴿وما كان ربك نسياً﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١٨/٢).

(٢) انظر «جامع البيان» (١٠٠/٦).

أخذان ﴿: عن مجاهد ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب﴾ قال: الحرائر. وقال الشعبي: إحصان اليهودية والنصرانية أن لا تزني وتغتسل من الجنابة. وعن ابن عباس قوله: ﴿محصنين غير مسافحين﴾ يعني ينكحونهم بالمهر والبيّنة ﴿غير مسافحين﴾ متعالين بالزنا ﴿ولا متخذي أخذان﴾ يعني يسرون بالزنا. وسئل الحسن: أيتزوج الرجل المرأة من أهل الكتاب؟ قال: ماله ولأهل الكتاب، وقد أكثر الله المسلمات؟ فإن كان لا بد فاعلاً، فليعمد^(١) إليها حصاناً غير مسافحة. وعن عطاء: أن الرخصة كانت مختصةً بذلك الوقت؛ لأنه كان في المسلمات قلة، وكان عمر لا يرى نكاح الكتابيات أصلاً، متمسكاً بقوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾.

قلت: وأكثر اليهود والنصارى في هذا الوقت دهرية، ولا يتمسكون بكتاب. وقوله تعالى: ﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ قال عطاء: الإيمان التوحيد. والله أعلم.



(١) في (الأصل): «فليعمل»، وهو خطأ.

الدرس الثالث والسبعون

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ
وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن
كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَهَّرُوا وَإِن كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ
أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ
وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ
لِيُطَهِّرَكُمْ وَليُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَأذْكُرُوا
نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الّٰذِي وَآفَقْتُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ
يَأْقِضُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ
لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا
نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ
عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

سئل عكرمة عن قول الله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾: فكل ساعة يتوضأ؟ فقال: قال ابن عباس: لا وضوء إلا من حدث. وقال السدي: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِي ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ يقول: قمتم وأنتم على غير طهر. وعن أنس قال: توضأ عمر بن الخطاب وضوءاً فيه تجوز خفيفاً، فقال: هذا وضوء من لم يُحدث. وعن بريدة قال: «كان رسول الله ﷺ يتوضأ لكل صلاة، فلما كان عام الفتح صلى الصلوات بوضوء واحد ومسح على خفيه، فقال عمر: إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله! قال: عمداً فعلته»^(١). قال ابن جرير كلاماً معناه: أنه أمرٌ فرض على المحدث، وأمرٌ ندب إن كان على طهر.

وعن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من توضأ على طهر كتب له عشر حسنات»^(٢). رواه ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ قال إبراهيم: يجزي اللحية ما سال

(١) أخرجه مسلم (ح/٢٧٧).

(٢) أخرجه أبو داود (ح/٦٢)، والترمذي (ح/٥٩)، وابن ماجه (ح/٥١٢)، بسند ضعيف.

عليها من الماء. وكان الحسن إذا توضأ مسح لحيته مع وجهه. وعن قتادة عن الحسن قال: ليس عرك العارضين في الوضوء بواجب. وقال أبو عمر: وليس عرك العارضين وتشبيك اللحية بواجب في الوضوء. وعن شعبة قال: سألت الحكم وقتادة عن رجل ذكر وهو في الصلاة أنه لم يتمضمض ولم يستنشق، فقال: يمضي في صلاته. وقال ابن عمر: الأذنان من الرأس، فإذا مسحت الرأس فامسحها؛ وعنه أنه: «كان إذا توضأ عرك عارضيه، وشبك لحيته بأصابعه أحياناً، ويترك أحياناً»^(١). وعن أم سلمة: «أن رسول الله ﷺ توضأ فخلل لحيته»^(٢). رواه ابن جرير. وعن أبي أيوب قال: «كان رسول الله ﷺ إذا توضأ تمضمض ومسح لحيته من تحتها بالماء»^(٣). رواه ابن جرير.

قال ابن جرير^(٤): الوجه الذي أمر الله جلّ ذكره بغسله، كل ما انحدر عن منابت شعر الرأس إلى منقطع الذقن طولاً، وما بين الأذنين عرضاً، مما هو ظاهر لعين الناظر.

وقوله تعالى: ﴿وأيديكم إلى المرافق﴾ قال الشافعي: لم أعلم مخالفاً في المرافق فيما يغسل.

وقال ابن جرير^(٥): فأما المرفقان^(٦) وما وراءهما، فإن ذلك من الندب.

(١) أخرجه ابن ماجه (ح/٤٣٢)، وفي سنده ضعف.

(٢) أخرجه الطبراني (٢٣/٢٩٨)، وابن جرير (٦/١٢١)، وللحديث شواهد كثيرة: من حديث أبي أمامة، وابن عمر وعائشة، وعمار بن ياسر، وعثمان بن عفان وبلال بن أبي رباح رضي الله عنهم، فالحديث صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير (٦/١٢١)، وبنحوه ابن ماجه (ح/٤٣٣)، بسند ضعيف.

(٤) انظر «جامع البيان» (٦/١٢٣).

(٥) المصدر السابق (٦/١٢٤).

(٦) في (الأصل): «المرفقات»، وهو خطأ.

وقال البغوي^(١): قوله تعالى: ﴿وأيديكم إلى المرافق﴾ أي مع المرافق، وأكثر العلماء على أنه يجب غسل المرفقين.

وقوله تعالى: ﴿وامسحوا برءوسكم﴾ في الصحيحين عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه: «أن رجلاً قال لعبد الله بن زيد: هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فقال عبد الله بن زيد: نعم، فدعا بوضوء، فأفرغ على يديه فغسل يديه مرتين مرتين، ثم مضمض واستنشق ثلاثاً، وغسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يديه مرتين إلى المرفقين، ثم مسح رأسه بيديه، فأقبل بهما وأدبر، بدأ بمقدم رأسه، ثم ذهب بهما إلى قفاه ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غسل رجله»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وأرجلكم إلى الكعبين﴾ أي واغسلوا أرجلكم مع الكعبين. وعن ابن عباس أنه قرأها فامسحوا برؤوسكم وأرجلكم بالنصب، وقال: عاد الأمر إلى الغسل. وعن ابن مسعود قال: خللوا الأصابع بالماء لا تخللها النار. وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «أسبغوا الوضوء، ويل للأعقاب من النار»^(٣). رواه مسلم: زاد البيهقي: «وبطون الأقدام»^(٤). وعن حذيفة: «أن النبي ﷺ أتى سباطة قوم فبال قائماً ثم توضأ ومسح على خفيه»^(٥). متفق عليه.

(١) انظر «معالم التنزيل» (١١/٢).

(٢) أخرجه البخاري (ح/١٨٥ و ١٨٦ و ١٩٢ و ١٩٩)، ومسلم (ح/٢٣٥).

(٣) أخرجه مسلم (ح/٢٤١) من حديث عبد الله بن عمرو، وأبي هريرة، وعائشة رضي الله عنهم.

(٤) أخرجه أحمد (٤/١٩١)، والبيهقي (١/٧٠) من حديث عبد الله بن الحارث، وهو حديث صحيح.

(٥) أخرجه البخاري (ح/٢٢٤ و ٢٢٥)، ومسلم (ح/٢٧٣).

وقوله تعالى: ﴿وإن كنتم جنباً فاطهروا﴾ أي اغتسلوا.

وقوله تعالى: ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾ فيه دليل على أن التيمم يكفي من لا يجد الماء عن الحدث الأصغر والأكبر، وكذلك المريض، إذا خاف الضرر من استعماله.

وقوله تعالى: ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾. قال مجاهد: ﴿من حرج﴾ من ضيق. وعن كعب بن مرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يتوضأ فيغسل وجهه إلا خرجت خطاياه من وجهه وإذا غسل يديه أو ذراعيه خرجت خطاياه من ذراعيه، فإذا مسح رأسه خرجت خطاياه من رأسه، وإذا غسل رجله خرجت خطاياه من رجله»^(١) رواه ابن جرير وغيره.

قوله عز وجل: ﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ وَعِمَلِكُمْ وَمِمَّا أَنْتُمْ بِمِثْقَاتِ الذَّيْنِ وَأَنْتُمْ بِهِمْ أَدْلَىٰ ذُرِّيَّةٍ عَلَىٰ أَعْيُنِ اللَّهِ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْكُمْ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتُوبًا قَوْمِيْنَ لِلّٰهِ شُهَدَآءٌ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوْا أَعْدِلُوْا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ

(١) أخرجه ابن جرير (١٣٨/٦)، وفي سننه ضعف، لكن صح الحديث بلفظ آخر، فأخرج مسلم في صحيحه (ح/٢٤٤٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «إذا توضأ العبد المسلم (أو المؤمن) فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء... الحديث.

مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَسْطُورَ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ؕ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ .

عن مجاهد: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ قال: بالنعم. وعن ابن عباس قوله: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلمتم سمعنا وأطعنا﴾ الآية يعني حيث بعث الله النبي ﷺ وأنزل الكتاب فقالوا: آمنا بالنبي ﷺ وبالكتاب.

وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا﴾ أي كونوا قوامين بالحق لله عز وجل، وكونوا ﴿شهداء بالقسط﴾ أي بالعدل لا بالجور. ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا﴾ أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد صديقاً كان أو عدواً.

وقوله تعالى: ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ أي اعدلوا في أوليائكم وأعدائكم، فالعدل أقرب إلى التقوى من تركه.

وقوله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ أي وعد الله المؤمنين الجنة ووقفهم لأعمالها، وأعد للكافرين النار بتكذيبهم وعتوهم.

وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾

عن ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر قالوا: خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير ليستعينهم على دية العامرين اللذين قتلها عمرو بن أمية الضمري، فلما جاءهم خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنكم لن تجدوا محمداً أقرب منه الآن، فمروا رجلاً يظهر هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه، فقام عمرو بن جحاش بن كعب؛ فأتى رسول الله ﷺ الخبر، وانصرف عنهم، فأنزل الله عز ذكره فيهم وفيما أراد هو وقومه ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم﴾^(١) الآية. والله أعلم.



(١) أخرجه ابن جرير (١٤٤/٦)، بسند ضعيف.

الدرس الرابع والسبعون

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالَ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيءُ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ

الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُم مِّن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ
 السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾
 وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا اللَّهَ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ
 أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ
 لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرَّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ
 وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿ ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فِيمَا نَقُضُوا مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَلِّيكَ أَخْدَانًا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

عن أبي العالية في قوله: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾. قال: أخذ الله موافقهم أن يخلصوا له ولا يعبدوا غيره. ﴿وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾.

قال ابن جرير^(١): يعني بذلك وبعثنا منهم اثني عشر كفيلاً، كفلوا عليهم بالوفاء لله بما واثقوه عليه من العهود فيما أمرهم به وفيما نهاهم عنه؛ والنقيب في كلام العرب: العريف على القوم، غير أنه فوق العريف. قال قتادة: من كل سبط رجل شاهد على قومه.

(١) انظر «جامع البيان» (٦/١٤٨).

وقوله تعالى: ﴿وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً﴾، عن مجاهد في قوله ﴿وعزرتموهم﴾. قال: نصرتموهم؛ وقال ابن زيد: التعزير والتوقير: الطاعة والنصرة.

قال ابن جرير^(١): وأما قوله: ﴿وأقرضتم الله قرضاً حسناً﴾، فإنه يقول: وأنفقتم في سبيل الله، وذلك في جهاد عدوه وعدوكم.

وقوله تعالى: ﴿لأكفرنَّ عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنّات تجري من تحتها الأنهار﴾. قال في جامع البيان: «لأكفرنَّ» جواب القسم، سدّ مسدّاً^(٢) جواب الشرط.

وقال البغوي^(٣) في قوله تعالى: (﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم﴾ ناصركم على عدوكم؛ ثم ابتداء الكلام فقال: ﴿لئن أقمتم الصلاة﴾ يا معشر بني إسرائيل، ﴿وآتيتم الزكاة وآمتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرنَّ عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنّات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلّ سواء السبيل﴾، أي: أخطأ قصد السبيل، يريد طريق الحق، وسواء كلِّ شيء: وسطه. انتهى ملخصاً.

وقوله تعالى: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به﴾، عن قتادة ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم﴾، يقول: فبنقضهم ميثاقهم لعناهم. وقال ابن عباس: هو ميثاق أخذه الله على أهل التوراة فنقضوه. ﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾، أي: يابسة لا تلين.

(١) المصدر السابق (١٥٢/٦).

(٢) في (الأصل): «سده سد»، وهو خطأ.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (١٦/٢).

﴿يحرّفون الكلم عن مواضعه﴾. قال ابن عباس: يعني حدود الله في التوراة، يقولون: إن أمركم محمد بما أنتم عليه فاقبلوه، فإن خالفكم فاحذروا. وعن الحسن في قوله: ﴿ونسوا حظاً مما ذكروا به﴾. قال: [تركوا]^(١) عرى دينهم، ووظائف الله جل ثناؤه التي لا تقبل الأعمال إلاّ بها. وقال السدي: يقول: تركوا نصيباً.

وقوله تعالى: ﴿ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلاّ قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين﴾، عن قتادة في قوله: ﴿ولا تزال تطلع على خائنة منهم﴾. قال: على خيانة وكذب وفجور. قال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

قال ابن كثير^(٢): ولهذا قال تعالى: ﴿إن الله يحب المحسنين﴾، يعني به الصفح عن أساء إليك.

وقوله تعالى: ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾، عن قتادة: ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به﴾ نسوا كتاب الله بين أظهرهم، وعهد الله الذي عهد إليهم، وأمر الله الذي أمرهم به. وعن إبراهيم النخعي في قوله: ﴿فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء﴾. قال: هذه الأهواء المختلفة والتباغض، فهو الإغراء. وقال قتادة: إن القوم لما تركوا كتاب الله، وعصوا رسله، وضيعوا فرائضه، وعطلوا حدوده، ألقى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، بأعمالهم أعمال السوء، ولو أخذ القوم كتاب الله، وأمره ما افترقوا. وقال الربيع: إن الله عز ذكره تقدم إلى بني إسرائيل أن

(١) ما بين المعقوفتين إضافة من: «تفسير ابن جرير».

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١٧/٢).

لا تشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، وعَلِّمُوا الْحِكْمَةَ وَلَا تَأْخُذُوا عَلَيْهَا أَجْرًا، فلم يفعل ذلك إلا قليل منهم، فأخذوا الرشوة في الحكم، وخانوا الحدود، فقال في اليهود حيث حكموا بغير ما أمر الله ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وقال في النصارى ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾.

عن قتادة: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا﴾، وهو محمد ﷺ، ﴿يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب﴾. قال ابن عباس: من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب، فكان الرجم مما أخفوا.

وقوله تعالى: ﴿ويعفو عن كثير﴾، أي: يعرض عن كثير مما أخفيتم فلا يتعرض له.

وقوله تعالى: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾، عن السدي ﴿من اتبع رضوانه سبل السلام﴾ سبيل الله الذي شرعه لعباده ودعاهم إليه وانبعث به رسله، وهو الإسلام، الذي لا يقبل من أحد عملاً إلا به، لا اليهودية، ولا النصرانية، ولا المجوسية.

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ

أَبْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ
 ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّكُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ
 وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا اللَّهَ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ
 خَلَقَ يَعْزُبُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
 وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ .

قال البغوي^(١): قوله تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾، وهم اليعقوبية من النصارى. ﴿قل فمن يملك من الله شيئاً﴾، أي: من يقدر أن يدفع من أمر الله شيئاً إذا قضاها؟ ﴿إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً والله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير﴾.

قال ابن جرير^(٢): يقول جل وعز: كيف يكون إلهاً يُعبد من كان عاجزاً عن دفع ما أراد به غيره من السوء، وغير قادر على صرف ما نزل به من الهلاك؟ بل الإله المعبود الذي له ملك كل شيء، وبيده تصريف كل من في السماء والأرض وما بينهما. وعن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ نعمان بن أضا^(٣) وبحري بن عمر^(٤) وشاس بن عدي فكلّموه، فكلّمهم رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الله وحذرهم نعمته، فقالوا: ما نخوفنا يا محمد، نحن أبناء الله وأحباؤه - كقول النصارى - فأنزل الله جل وعز فيهم: ﴿وقالت اليهود

(١) انظر «معالم التنزيل» (١٧/٢).

(٢) انظر «جامع البيان» (١٦٣/٦).

(٣) في (الأصل): «عثمان بن أصار»، وهو خطأ.

(٤) في (الأصل): «نجوى بن عمر»، وهو خطأ.

والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ﴿ إلى آخر الآية ^(١) .

وقوله تعالى: ﴿ قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق ﴾ كسائر بني آدم، مجزيون بالإساءة والإحسان، يغفر لمن يشاء فضلاً، ويعذب من يشاء عدلاً. ﴿ والله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير ﴾، أي: المرجع والمآب.

قوله عز وجل: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ .

قال قتادة: كانت الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ ذكر لنا أنها كانت ستمائة سنة أو ما شاء الله من ذلك. والله أعلم.



(١) أخرجه ابن جرير (١٦٤/٦)، والبيهقي في «الدلائل» (٥٣٥/٢)، وفي سننه ضعف.

الدرس الخامس والسبعون

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِمْ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مِمَّا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٦﴾ يَنْقُورِمْ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتُدُّوا عَلَيَّ آذْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا يَمْوَسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِثْمُكُمْ عَلَيْكُمْ وَعَلَى اللَّهِ فْتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا يَمْوَسَىٰ إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ .

عن ابن عيينة: ﴿اذكروا نعمة الله عليكم﴾ قال: أيادي الله عليكم، وأيامه ﴿إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً﴾ . وعن مجاهد في قوله: ﴿وجعلكم ملوكاً﴾ قال: جعل لكم أزواجاً، وخداماً، وبيوتاً.

وقوله: ﴿وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾ قال ابن عباس: أي الذين هم بين ظهرانيهم يومئذ.

وقوله: ﴿يَنْقُورِ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتُدُّوا عَلَىٰ آدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ .

قال مجاهد: ﴿الأرض المقدسة﴾: الطور وما حوله. وقال قتادة: هي الشام. وقال ابن عباس: هي أريحا. وقال مجاهد: ﴿المقدسة﴾: المباركة. وقال ابن إسحاق: ﴿التي كتب الله لكم﴾: التي وهب الله لكم: ﴿ولا تترتدوا على آدابركم فتقلبوا خاسرين﴾ أي ولا تقعدوا عن الجهاد فتبوءوا بالخسار.

وقوله: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ .

قال قتادة: ذكر لنا أنهم كانت لهم أجسام وخلق ليست لغيرهم. وقال ابن إسحاق: إن كالب بن يوقنا أسكت الشعب عن موسى ﷺ فقال لهم: إنا سنعلو الأرض ونرتها، وإن لنا بهم قوة، وأما الذين كانوا معه فقالوا: لا نستطيع أن نهذا

إلى ذلك الشعب من أجل أنهم أجراً منا، ثم إن أولئك الجواسيس أخبروا بني إسرائيل الخبر، وقالوا: إنا مررنا في أرض وأحسنناها فإذا هي تاكل ساكنها، ورأينا رجالها جساماً، ورأينا الجبابرة بني الجبابرة، وكنا في أعينهم مثل الجراد، فأرجفت الجماعة من بني إسرائيل، فرفعوا أصواتهم بالبكاء فبكى الشعب تلك الليلة، ووسوسوا على موسى وهارون، فقالوا لهما: يا ليتنا متنا في أرض مصر، وليتنا نموت في هذه البرية، ولم يدخلنا الله هذه الأرض لنقع في الحرب، فتكون نساؤنا وأبناؤنا وأثقالنا غنيمه، ولو كنا قعوداً في أرض مصر كان خيراً لنا، وجعل الرجل يقول لأصحابه: تعالوا نجعل علينا رأساً، ونصرف إلى مصر.

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾.

قال ابن عباس: فرجعوا - يعني النقباء الاثني عشر - إلى موسى فأخبروه بما عاينوا من أمرهم فقال لهم موسى: اكنتموا شأنهم، ولا تخبروا به أحداً من أهل العسكر، فإنكم إن أخبرتموهم بهذا الخبر فشلوا ولم يدخلوا المدينة. قال فذهب كل رجل منهم، فأخبر قريبه وابن عمه، إلا هذان الرجلان فإنهما كتما، هما يوشع بن نون وكلاب^(١) بن يوقنا^(٢)، فإنهما كتما ولم يخبرا به أحداً، وهما اللذان قال الله: ﴿ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ وكان قتادة يقول في بعض القراءة: ﴿ قال رجلان من الذين يخافون الله أنعم الله عليهما ﴾.

(١) في (الأصل): «وكالب»، وهو خطأ.

(٢) في (الأصل): «يوقنة»، وهو خطأ.

قال ابن جرير^(١): «أنعم الله عليهما بطاعة الله في طاعته بنبية موسى ﷺ. قال ابن إسحاق: لما همّ بنو إسرائيل بالانصراف إلى مصر حين أخبرهم النقباء بما أخبروهم من أمر الجبابرة، خرّ موسى وهارون على وجوههما سجوداً قدام جماعة بني إسرائيل، وخرق يوشع بن نون وكالب بن يوقنا ثيابهما وكانا من جواسيس الأرض، وقالوا لجماعة بني إسرائيل إن الأرض مررنا بها، وحسبناها صالحة رضيها ربنا لنا، فوهبها لنا، وإنها لم تكن تفيض لبناً وعسلاً، ولكن افعلوا واحدة، لا تعصوا الله، ولا تخشوا الشعب الذي بهما، فإنهم جنباء مدفوعون في أيدينا، إن جربناهم ذهبت منهم، وإن الله معنا فلا تخشوهم، فأراد الجماعة من بني إسرائيل [أن]^(٢) يرحمونهما بالحجارة.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾^(٢٤).

عن المقداد بن الأسود أنه قال للنبي ﷺ: «إنا لا نقول كما قالت بنو إسرائيل: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون»^(٣). رواه ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾^(٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾^(٢٦).

قال ابن عباس يقول: افض بيننا وبينهم. قال الربيع: لما قال لهم القوم ما قالوا ودعا موسى عليهم، أوحى الله إلى موسى أنها: ﴿محرمة عليهم أربعين سنة

(١) انظر «جامع البيان» (٦/١٧٨).

(٢) ما بين المعقوفتين إضافة من: «تفسير ابن جرير».

(٣) أخرجه البخاري (ح/٤٦٠٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين ﴿ وهم يومئذ فيما ذكر ستمائة ألف مقاتل، فجعلهم فاسقين بما عصوا، فلبثوا أربعين سنة في فراسخ ستة، أو دون ذلك، يسيرون كل يوم جادين لكي يخرجوا منها حتى يُمسوا، ونزلوا فإذا هم في الدار التي منها ارتحلوا، وأنهم اشتكوا إلى موسى ما فعل بهم، فأنزل عليهم المن والسلوى، وأعطوا من الكسوة ما هي قائمة لهم، ينشأ الناشء فتكون معه على هيئة، وسأل من ربه أن يسقيهم، فأتى بحجر الطور، وهو حجر أبيض إذا ما نزل القوم ضربه بعصاه، فيخرج منه اثنتا عشرة عيناً لكل سبط منهم عين، قد علم كل أناس مشربهم، حتى إذا خلت أربعون سنة، وكانت عذاباً بما اعتدوا وعصوا. وأنه أوحى إلى موسى أن يأمرهم أن يسيروا إلى الأرض المقدسة، فإن الله قد كفاهم عدوهم، وقل لهم: إذا أتوا المسجد أن يأتوا الباب، ويسجدوا إذا دخلوا، ويقولوا حطة، وإنما قولهم: حطة أن يحطّ عنهم خطاياهم، فأبى عامة القوم، وسجدوا على خدهم وقالوا: حنطة، فقال الله جل ثناؤه: ﴿فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾^(١).

وعن ابن عباس قال: لما دعا موسى قال الله: ﴿فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾ قال: فدخلوا التيه، فكل من دخل التيه ممن جاز العشرين سنة مات في التيه. قال: فمات موسى في التيه، ومات هارون قبله، قال: فلبثوا في تيههم أربعين سنة، فناهض يوشع بمن بقي معه مدينة الجبارين، فافتتح يوشع المدينة.



(١) سورة البقرة: الآية .

الدرس السادس والسبعون

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا
وَلَمْ يُقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن
بَسَطَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ
الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِيمِي وَإِيمِكَ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ
جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ
الْفَاسِقِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ
أَخِيهِ قَالَ يُوتِلُنِي أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ
مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا
بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا
فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثِيرًا
مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ
أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاؤُهُمْ
فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ
تَقْدَرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا
اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ

الَّذِينَ كَفَرُوا تَوَاتَرًا لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ
 عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا نُقِيلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنْ
 النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ
 فَاقْطِعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ مَنْ تَابَ
 مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ
 اللَّهُ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِثُ سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُورِثُنِي أَخْبَرَثُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِثُ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ ۞

عن مجاهد في قول الله ﴿إذ قربا قربانا﴾ قال: ابني آدم هايل وقايل لصلب آدم، فقرب أحدهما شاة، وقرب الآخر بقلًا، فقبل من صاحب الشاة، فقتله صاحبه.

قال البغوي^(١): وقال محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول: إن آدم كان يغشى حواء في الجنة قبل أن يصيب الخطيئة، فحملت فيها بقايل وتوأمته أقليما، فلم تجد عليهما وحماً، ولا وصباً، ولا طلقاً حتى ولدتهما، ولم تر معهما دماً، فلما هبطا إلى الأرض تغشاهما، فحملت بهابيل وتوأمته، فوجدت عليهما اللحم، والوصب، والطلق، وكان آدم إذا شب أولاده يزوج غلام هذا البطن جارية بطن أخرى، فكان الرجل منهم يتزوج أية أخواته شاء إلا توأمته

(١) انظر «معالم التنزيل» (٢٢/٢).

التي ولدت معه، لأنه لم يكن يومئذ نساء إلا أخواتهم، فلما ولد قابيل وتوأمته أقليما، ثم هايبيل وتوأمته لبودا، وكانت بينهما ستان - في قول الكلبي - وأدركوا، أمر الله تعالى آدم عليه السلام أن ينكح قابيل لبودا أخت هايبيل، وينكح هايبيل أقليماً أخت قابيل، وكانت أخت قابيل أحسن من أخت هايبيل فذكر ذلك آدم لولده، فرضي هايبيل وسخط قابيل وقال: هي أختي أنا أحق بها، ونحن من ولادة الجنة، وهما من ولادة الأرض، فقال له أبوه: إنها لا تحل لك، فأبى أن يقبل ذلك، وقال: إن الله لم يأمره بهذا، وإنما هو من رأيه، فقال لهما آدم عليه السلام: فقرباً قرباناً، فأيكما يقبل قربانه فهو أحقّ بها. وكانت القرابين إذا كانت مقبولة نزلت نار من السماء بيضاء فأكلتها، وإذا لم تكن مقبولة لم تنزل النار، وأكلته الطير والسباع؛ فخرجا ليقرباً قرباناً، وكان قابيل صاحب زرع، فقرب صبرة من طعام من أردأ زرعه، وأضمر في نفسه: ما أبالي يقبل مني أم لا، لا يتزوج أختي أبداً. وكان هايبيل صاحب غنم، فعمد إلى أحسن كبش في غنمه فقرب به، وأضمر في نفسه رضا الله عز وجل، فوضعا قربانهما على الجبل، ثم دعا آدم عليه السلام، فنزلت نار من السماء وأكلت قربان هايبيل، ولم تأكل قربان قابيل، فذلك قوله عز وجل: ﴿فتقبل من أحدهما﴾، يعني: هايبيل ﴿ولم يتقبل من الآخر﴾، يعني: قابيل، فترلوا عن الجبل وقد غضب قابيل لردّ قربانه، وكان يضمر الحسد في نفسه، إلى أن أتى آدم مكة لزيارة البيت، فلما غاب آدم أتى قابيل هايبيل وهو في غنمه قال: لأقتلك، قال: ولم؟ قال: لأن الله تعالى قبل قربانك وردّ قرباني، وتنكح أختي الحسنة، وأنكح أختك الدميمة، فيتحدث الناس أنك خير مني، ويفتخر ولدك على ولدي. قال هايبيل: وما ذنبي؟ ﴿إنما يتقبل الله من المتقين لئن بسطت﴾، أي: مددت ﴿إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين﴾.

قال عبد الله بن عمرو: وأيم الله إن كان المقتول لأشدّ الرجلين، ولكن منعه

التحرج أن يبسط إلى أخيه يده؛ وهنا في الشرع جائز لمن أريد قتله أن ينقاد ويستسلم طلباً للأجر، كما فعل عثمان رضي الله عنه. انتهى.

وقوله: ﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين﴾ عن قتادة قوله: ﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك﴾ يقول: بقتلك إياي، ﴿وإثمك﴾ قبل ذلك. وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سنّ القتل»^(١).

وقوله تعالى: ﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين﴾ عن مجاهد ﴿فطوعت له نفسه﴾ قال: شجعت.

وقوله تعالى: ﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه. قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين﴾ قال مجاهد: بعث الله غراباً يبحث في الأرض، حتى حفر لآخر ميت إلى جنبه فغيبه، وابن آدم القاتل ينظر إليه فقال: ﴿يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين﴾، قال الحسن البصري: علاه الله بندامة بعد خسران.

قوله عز وجل: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

عن قتادة قوله: ﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير

(١) أخرجه مسلم (ح/١٦٧٧).

نفس ﴿ الآيه، من قتلها على غير نفس، ولا فساد أفسدته، ﴿فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحيها فكأنما أحيأ الناس جميعاً﴾ عظم - والله - أجرها وعظم أزرها، فأحيها يا ابن آدم بمالك، وأحيها بعفوك إن استطعت، ولا قوة إلا بالله، وأنا لا نعلمه يحل دم رجل مسلم من أهل هذه القبلة إلا بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إسلامه فعليه القتل، أو زنى بعد أحصانه فعليه الرجم، أو قتل متعمداً فعليه القود. وقال سليمان بن علي: قلت للحسن: يا أبا سعيد أهي لنا كما كانت لبني إسرائيل؟ قال: إي والذي لا إله غيره، ما كانت دماء بني إسرائيل أكرم على الله من دماننا.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ عَفْوَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ .

عن الحسن: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله﴾ قال: نزلت في أهل الشرك. وعن زيد بن أبي حبيب: أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس يسأله عن هذه الآية، فكتب إليه أنس يخبره، أن هذه الآية نزلت في أولئك النفر العرنيين وهم من بجيلة، قال أنس: فارتدوا عن الإسلام، وقتلوا الراعي، واستاقوا الإبل، وأخافوا السبيل، وأصابوا الفرج الحرام.

وقال الوليد بن مسلم: قلت لمالك بن أنس: تكون محاربة في المضرة؟ قال: نعم، والمحارب عندنا من حمل السلاح على المسلمين في مضرة أو خلاء، فكان ذلك منه على غير نائرة كانت بينهم ولا دخل ولا عداوة، قاطعاً للسبيل والطريق والديار، مختفياً لهم بسلاحه، فقتل أحداً منهم، قتله الإمام كقتلة المحارب، ليس لولي المقتول فيه عفو ولا قود.

وعن ابن عباس قوله: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله﴾ إلى قوله: ﴿أو ينفوا من الأرض﴾ قال: إذا حارب فقتل فعليه القتل إذا ظهر عليه قبل توبته، ولو حارب، وأخذ المال، وقتل فعليه الصلب إن ظهر عليه قبل توبته، وإذا حارب، ولم يقتل، فعليه قطع اليد والرجل من خلاف إن ظهر عليه قبل توبته، وإذا حارب، وأخاف السبيل فإنما عليه النفي.

وقال أبو حنيفة: معنى النفي في هذا الموضع الحبس.

قال ابن جرير^(١): وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: معنى النفي عن الأرض في هذا الموضع هو نفيه من بلد إلى بلد غيره، وحبسه في السجن في البلد الذي نفي إليه، حتى يظهر توبته من فسوقه، ونزوعه من معصيته ربه.

وعن الشعبي أن حارثة بن بدر خرج محارباً فأخاف السبيل، وسفك الدم، وأخذ الأموال، ثم جاء تائباً من قبل أن يقدر عليه، فقبل علي بن أبي طالب عليه السلام توبته وجعل له أماناً منشوراً على ما كان أصاب من دم أو مال.

وقال الشافعي: تضع توبته عنه حق الله الذي وجب عليه بمحاربتة، ولا يسقط عنه حقوق بني آدم. وقال: فتحول إذا أعطاه الإمام أماناً فهو آمن، ولا يقام عليه حدٌ ما كان أصاب.

قوله عز وجل: ﴿يَنبَأُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا نُقِيلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌ ﴿٣٧﴾﴾.

(١) انظر «جامع البيان» (٦/٢١٨).

عن أبي وائل: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ قال: القربة في الأعمال. وقال ابن زيد في قوله: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ قال: المحبة تحببوا إلى الله، وقرأ ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾. وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة»^(١). رواه أهل السنن.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقَبَّلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يَرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ عن عكرمة أن نافع بن الأزرق^(٢) قال لابن عباس: يا أعمى البصر أعمى القلب، تزعم أن قوماً يخرجون من النار، وقد قال الله جل وعز: ﴿وما هم بخارجين منها﴾؟! فقال ابن عباس: ويحك، اقرأ ما فوقها، هذه للكفار.

قوله عز وجل: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٣٨) ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣٩) ﴿الَّذِي تَعَلَّمَ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٤٠).

عن إبراهيم قال في قراءة عبد الله: والسارقون والسارقات فاقطعوا أيديهما.

(١) أخرجه البخاري (ح/٦١٤).

(٢) هو نافع بن الأزرق بن قيس الحنفي، أحد رؤوس الخوارج الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ثم يعودون فيه»، وإليه تنسب فرقة الأزارقة، وهي من فرق الخوارج.

وقال الشعبي في قراءة عبد الله: والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما. وعن ابن عمر قال: «أن النبي ﷺ قطع في مجنّ قيمته ثلاثة دراهم»^(١). وعن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «تقطع اليد في ربع دينار فصاعداً»^(٢) متفق عليهما. قال قتادة: لا تأووا لهم أن تقيموا فيهم الحدود، فإنه والله ما أمر الله بأمر قط إلا وهو صلاح، ولا نهى عن أمر قط إلا وهو فساد. وكان عمر بن الخطاب يقول: اشتدوا على السراق فأقطعوهم يداً يداً، ورجلاً رجلاً. وعن عبد الله بن عمرو قال: «سرت امرأة حلياً فجاء الذين سرقتهم فقالوا: يا رسول الله سرقتنا هذه المرأة فقال رسول الله ﷺ: اقطعوا يدها اليمنى. فقالت المرأة: هل من توبة؟ فقال رسول الله ﷺ: أنت اليوم من خطيبتك كيوم ولدتك أمك. قال: فأنزل الله جل وعز ﴿فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم﴾^(٣). رواه ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض﴾، أي: هو المالك لجميع ذلك، الحاكم الذي لا معقب له، يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء. قال ابن عباس: ﴿يعذب من يشاء﴾ على الصغيرة ﴿ويغفر لمن يشاء﴾ على الكبيرة ﴿والله على كل شيء قدير﴾. والله أعلم.



- (١) أخرجه البخاري (ح/٦٧٩٥ و٦٧٩٦)، ومسلم (ح/١٦٨٦).
 (٢) أخرجه البخاري (ح/٦٧٩١)، ومسلم (ح/١٦٨٤).
 (٣) أخرجه أحمد (٢/١٧٧)، وابن جرير (٦/٢٣٠)، بسند ضعيف.

الدرس السابع والسبعون

﴿ يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَكَّعُوا لِلْكَذِبِ سَكَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ بِحَرْفٍ مِنَ الْكَلِمَةِ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِمْ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حِزْبٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَكَّعُوا لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكِمُوكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَابِقِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكُتِبَ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَاللِّسَانَ بِاللِّسَانِ وَالْجُرُوحَ فِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ

يَحْكُمُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَن أَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْنَا أَنَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَتَّيِبُهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا وَسَمِعُونَ لِلْكَذِبِ سَمْعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ بِحَرْفٍ مِنَ الْكَلِمِ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَأَحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّر قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْبُونَ لِلْحَقِّ فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَصُرُوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾

عن عبد الله بن كثير في قوله: ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾. قال: هم المنافقون. وعن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة قال: «بيننا نحن مع رسول الله ﷺ إذ جاء رجل من اليهود، وكانوا قد أشاروا في صاحب لهم زنى بعد ما أحصن، قال بعضهم لبعض: إن هذا النبي ﷺ قد بعث، وقد علمتم أن قد فرض عليكم الرجم في التوراة فكنتموه واصطلحتم بينكم عقوبة دونه، فانطلقوا فنسأل هذا النبي، فإن أفتانا بما فرض علينا في التوراة من الرجم، تركنا ذلك، فقد تركنا ذلك في التوراة فهي أحق أن تطاع وتصدق. فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، إنه زنى صاحب لنا قد

أحصن، فما ترى عليه من العقوبة؟ قال أبو هريرة: فلم يرجع إليهم رسول الله ﷺ حتى قام وقمنا مع، فانطلق يؤمّ مدارس اليهود حتى أتاهم فوجدهم يتدارسون التوراة في بيت المدراس فقال لهم: يا معشر اليهود أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى، ماذا تجدون في التوراة من العقوبة على من زنى وقد أحصن؟ قالوا: إنا نجده يحتمّ ويجلد، وسكت حبرهم في جانب البيت فلما رأى رسول الله ﷺ صمته أظّ به النشدة^(١)، فقال حبرهم: اللهم إذ نشدتنا، إنا نجد عليهم الرجم. فقال له رسول الله ﷺ: فماذا كان أول ما ترخصتم به أمر الله؟ قال: زنى ابن عم ملك فلم يرحمه، ثم زنى رجل آخر في أسرة الناس، فأراد ذلك الملك رجمه فقام دونه قومه فقالوا: والله لا ترجمه حتى ترجم فلاناً ابن عم الملك، فاصطلحوا بينهم عقوبة دون الرجم وتركوا الرجم. فقال رسول الله ﷺ: أقضي بما في التوراة، فأنزل الله في ذلك ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾، إلى قوله: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾^(٢). رواه ابن جرير.

وعن البراء بن عازب: ﴿يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا﴾. يقولون: اتوا محمداً فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا.

وقوله تعالى: ﴿سمعون للكذب أكالون للسحت﴾ قال الحسن: تلك الحكام سمعوا كذبة، وأكلوا رشوة.

وقوله تعالى: ﴿فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين﴾. قال

(١) في (الأصل): «أظ بشدة»، وهو خطأ، والمعنى: ألحّ في السؤال.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٣٣/٦)، وفي سنده ضعف، ولكن صح الحديث بلفظ آخر بنحوه عن

البراء بن عازب - رضي الله عنه - أخرجه أحمد (٢٨٦/٤)، ومسلم (ح/١٧٠٠)، فهو

شاهد يقوي حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ابن زيد: كان في حكم حبي بن أخطب: للنضريّ ديتان، وللقرظيّ دية، لأنه كان من النضير. قال: وأخبر نبيه ﷺ بما في التوراة، قال: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾ إلى آخر الآية، فلما رأت ذلك قريظة، لم يرضوا بحكم بن أخطب، فقالوا: نتحاكم إلى محمد فقال الله تبارك وتعالى: ﴿فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾ فخيرته. ﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾ الآية كلها؛ وكان الشريف إذا زنى بالدنيئة رجموها هي، وحموها وجه الشريف، وحملوه على البعير، وجعلوا وجهه من قبل ذنب البعير، وإذا زنى الدنيء بالشريفة رجموه، وفعلوا بها هي ذلك، فتحاكموا إلى النبي ﷺ فرجمهما. وعن الشعبي في قوله: ﴿فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾. قال: إذا جاءوا إلى حاكم المسلمين، فإن شاء حكم بينهم، وإن شاء أعرض عنهم، وإن حكم بينهم بما في كتاب الله. وعن مجاهد في قوله: ﴿وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط﴾. قال: بالعدل. وعن ابن عباس قوله: ﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾، يعني حدود الله، فأخبر الله بحكمه في التوراة. وعن عبد الله بن كثير ﴿ثم يتولون من بعد ذلك﴾ قال: توليهم ما تركوا من كتاب الله.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَشْرَوْا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ التَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَاللِّسْنَ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ نَصَّدَفَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾

وَقَفَيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾
 وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
 الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ .

عن عكرمة قوله: ﴿يحكم بها النبيون الذين أسلموا﴾: النبي ﷺ ومن قبله من الأنبياء، يحكمون بما فيها من الحق.

وقوله تعالى: ﴿والرهبانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله﴾. قال قتادة: الرهبانيون فقهاء اليهود، والأحبار علماؤهم. ﴿فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾. قال السدي: لا تخشوا الناس فتكتموا ما أنزلت، ولا تأخذوا طمعاً قليلاً على أن تكتموا ما أنزلت. وقال ابن زيد: ولا تأخذوا به رشوة.

وقوله تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾. قال ابن زيد: هم من حكم بكتابه الذي كتب بيده، وترك كتاب الله، وزعم أن كتابه هذا من عند الله، فقد كفر. وعن طاوس عن ابن عباس ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾. قال: هي به كفر، وليس كفراً بالله وملائكته وكتبه ورسله. وقال عطاء: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق. وقال الحسن: نزلت في اليهود، وهي علينا واجبة. وقال ابن عباس: من جحد ما أنزل الله فقد كفر، ومن أقرّ به ولم يحكم فهو ظالم فاسق.

وقوله: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له﴾. قال ابن عباس: كان على بني إسرائيل القصاص في القتل، وليس بينهم دية في نفس ولا جرح؛ قال: وذلك قول الله تعالى ذكره ﴿وكتبنا عليهم﴾ في التوراة، فخفف

الله عن أمة محمد ﷺ، فجعل عليهم الدية في النفس والجراح، وذلك تخفيف من ريبكم ورحمة؛ ﴿فمن تصدق به فهو كفارة له﴾. قال الشعبي: كفارة لمن تصدق به. وعن أبي السفر قال: دفع رجل من قريش رجلاً من الأنصار فاندقت ثنيتة، فرفعه الأنصاري إلى معاوية، فلما ألح عليه الرجل قال معاوية: شأنك وصاحبك قال: وأبو الدرداء عند معاوية فقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يصاب بشيء من جسده فيهبه، إلا رفعه الله به درجة وحوط عنه به خطيئة»^(١). فقال له الأنصاري: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: سمعته أذناي ووعاه قلبي. فخلّى سبيل القرشي. فقال معاوية: مروا له بمال. رواه ابن جرير. وقال مجاهد: إذا أصاب رجل رجلاً، ولا يعلم المصاب من أصاب، فاعترف له المصيب، فهو كفارة للمصيب.

وقوله تعالى: ﴿وقفينا على آثارهم﴾، أي: النبيين الذين أسلموا من قبلك يا محمد ﴿بعيسى ابن مريم﴾ نبياً مصداقاً لما بين يديه من التوراة ﴿وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصداقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾، أي: وأمرنا أهله أن يحكموا بما أنزل الله فيه ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾، أي: المخالفون لأمر الله، الخارجون عن طاعته.

قوله عز وجل: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ

(١) أخرجه أحمد (٤٤٨/٦)، والترمذي (١٣٩٣/ح)، وابن ماجه (٢٦٩٣/ح)، وابن جرير

(٢٦٠/٦)، وسنده ضعيف لانقطاعه.

جَمِيعًا فَيَتَّبِعْكُم بِمَا كُنتُمْ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه﴾ أميناً وشاهداً على الكتب التي خلت قبله. وقال ابن عباس: ﴿ومهيماً عليه﴾، يعني أميناً عليه يحكم^(١) على ما كان قبله من الكتب. وعن مسروق: أنه كان يحلف اليهودي والنصراني [بالله]^(٢)، ثم قرأ ﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾، وأنزل الله أن لا يشركوا به شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلبوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ عن قتادة قوله: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾، يقول: سبيلاً وسنة، والسنن مختلفة. للتوراة شريعة، وللإنجيل شريعة، وللقرآن شريعة، يحلّ الله فيها ما يشاء، ويحرّم ما يشاء، بلاءً ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، والدين واحد، الذي لا يقبل غيره، التوحيد والإخلاص لله الذي جاءت به الرسل.

وقوله تعالى: ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنونك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾، عن ابن عباس قال: قال كعب بن أسد وابن صوريا وشاس بن قيس بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن

(١) في (الأصل): «بحكم»، وهو خطأ.

(٢) ما بين المعقوفتين إضافة من: «تفسير ابن جرير».

دينه، فأتوه فقالوا: يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار يهود، وأشرافهم، وساداتهم، وأنا إن اتبعناك اتبعنا يهود، ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة، فنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونؤمن لك ونصدقك. فأبى رسول الله ﷺ فأنزل الله فيهم ﴿وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتُونَكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿لِقَوْمٍ يُوْقِنُونَ﴾^(١). والله أعلم.



(١) أخرجه ابن جرير (٦/٢٧٣ — ٢٧٤)، وفي سنده ضعف.

الدرس الثامن والسبعون

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَوُكَ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُضْيِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنفُسِهِمْ تَدْمِينًا ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْلُوآءَ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذَكَوُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُم إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوعًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِفُونَ مِمَّا إِن لَّا أَن ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَن أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنَ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَصَىٰ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنَّهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءَ وَكُمُ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ءَال اللَّهِ أَغْلَبُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ

يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَتَنَّهُمُ
 الرَّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾
 وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ
 يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ زَيِّنَاتٍ وَكُفْرًا وَالْقِيَانَا بَيْنَهُمُ الْعِدَاةَ
 وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ
 فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا
 لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ
 وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنَ الرِّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ
 أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴿

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسْتَرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ أَنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾ .

عن عطية بن سعد قال: «جاء عبادة بن الصامت من بني الحارث بن الخزرج إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن لي موالي من يهود كثير عددهم، وإنني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود، وأتولى الله ورسوله. فقال عبد الله بن أبي: إنني رجل أخاف الدوائر، لا أبرأ من ولاية موالي. فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن أبي: يا أبا الحباب؛ ما بخلت به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو إليك دونه. قال قد قبلت، فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض﴾ إلى قوله: ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض﴾ (١).

وقوله: ﴿بعضهم أولياء بعض﴾.

قال البغوي (٢): في العون والنصرة ويدهم واحدة على المسلمين ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾.

(١) أخرجه ابن جرير (٢٧٥/٦)، وسنده ضعيف.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣٦/٢).

قال ابن جرير^(١): يعني تعالى ذكره بقوله ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾: ومن يتول اليهود والنصارى دون المؤمنين فإنه منهم، يقول: فإن من تولاهم، ونصرهم على المؤمنين فهو من أهل دينهم وملتهم، فإنه لا يتولى متولاً أحداً إلا وهو به وبدينه، وما هو عليه راضٍ، وإذا رضيه ورضي دينه فقد عادى ما خالفه وسخطه، وصار حكمه حكمه.

وقوله تعالى: ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة﴾ قال قتادة: أناس من المنافقين كانوا يوادون اليهود، ويناصحونهم دون المؤمنين. ﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح﴾ قال: بالقضاء ﴿أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين﴾ من موادتهم اليهود ومن غشهم للإسلام وأهله. وقال السدي ﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح﴾ فتح مكة ﴿أو أمر من عنده﴾ قال: الأمر: الجزية. وقال مجاهد: ﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده﴾ حيثئذ ﴿يقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين﴾؟

قال البغوي^(٢): يعني يقول الذين آمنوا في وقت إظهار الله تعالى نفاق المنافقين: ﴿أهؤلاء الذين أقسموا بالله﴾ حلفوا بالله ﴿جهد أيمانهم﴾، أي: حلفوا بأغلظ الإيمان: ﴿إنهم لمعكم﴾، أي: إنهم لمؤمنون؟ يريد أن المؤمنين حيثئذ يتعجبون من كذبهم، وحلفهم بالباطل؛ قال الله تعالى: ﴿حبطت أعمالهم﴾ بطل كل خير عملوه ﴿فأصبحوا خاسرين﴾ خسروا الدنيا بافتضاحهم، والآخرة بالعذاب، وفوات الثواب.

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ

(١) انظر «جامع البيان» (٢٧٧/٦).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣٦/٢).

يَقُومُ يُجِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حَرْبَ اللَّهِ هُمُ الْقَائِلُونَ ﴿٥٦﴾ .

قال الضحاك في قوله: ﴿فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾ هو أبو بكر وأصحابه، لما ارتد من العرب عن الإسلام، جاهدهم أبو بكر وأصحابه حتى ردهم إلى الإسلام. وعن مجاهد في قول الله ﴿يحبهم ويحبونه﴾ قال: أناس من أهل اليمن. وعن عياض الأشعري قال: «لما نزلت هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾ قال: «أوما رسول الله ﷺ إلى أبي موسى بشيء كان معه فقال: هم قوم هذا»^(١). رواه ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ قال علي رضي الله عنه: أهل رقة على أهل دينهم، أهل غلظة على من خالفهم في دينهم.

وقوله تعالى: ﴿يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾ عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «أمرني خليلي ﷺ بسبع: أمرني بحب المساكين، والدنو منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر إلى من هو فوقي، وأمرني أن أصل الرحم وإن أديرت، وأمرني أن لا أسأل أحداً شيئاً، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرأاً، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة،

(١) أخرجه ابن جرير (٦/٢٨٤)، والطبراني (١٧/٣٧١)، والحاكم (٢/٣١٣) وصححه، ووافقه الذهبي. قلت: وهو مرسل.

لائم، وأمرني أن أكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها من كثر تحت العرش»^(١). رواه أحمد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ الَّذِينَ آمَنُوا يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾، أي: متخشعون في صلاتهم وزكاتهم. وعن عبد الملك قال: سألت أبا جعفر عن هذه الآية ﴿إِنَّمَا وَلِيكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ قلنا: من الذين آمنوا؟ قال: الذين آمنوا. قلنا: بلغنا أنها نزلت في علي بن أبي طالب. قال: علي من الذين آمنوا. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِن حَزَبَ اللَّهُ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ قال السدي: أخبرهم — يعني الرب تعالى ذكره — من الغالب فقال: لا تخافوا الدولة، ولا الدائرة.

قال البغوي^(٢): ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني يقول: للقيام بطاعة الله ونصرة رسوله والمؤمنين. قال ابن عباس رضي الله عنه يريد المهاجرين والأنصار. ﴿فإن حزب الله﴾ يعني: أنصار الله هم الغالبون.

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُم إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

عن ابن عباس قال: كان رفاعة بن زيد بن التابوث وسويد بن الحارث قد

(١) أخرجه أحمد (١٥٩/٥)، والطبراني — كما في «مجمع البحرين» — (٢٢٦/٨) مختصراً، والبيهقي في «الكبرى» (٩١/١٠)، وأيضاً في «الشعب» (٢٤٠/٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٥٧/٢) وهو حديث صحيح.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣٩/٢).

أظهرها الإسلام ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين يوادونها فأُنزل الله فيهما ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء﴾ إلى قوله: ﴿والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعباً ذلك بأنهم قومٌ لا يعقلون﴾ قال السدي: كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المنادي ينادي: أشهد أن محمداً رسول الله، قال: حرق الكاذب. فدخل خادمه ذات ليلة من الليالي بنار وهو نائم، وأهله نيام فسقطت شرارة، فأحرقت البيت فاحترق هو وأهله.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾^(٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكُمْ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَعَظِيبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾^(٦٠) وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾^(٦١) وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي آلَاتِهِمُ وَالْعُدُونِ وَأَكْثِلَهُمُ الشُّحَّتْ لَيْتَسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٦٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّوتُ وَالْأَحْبَابُ عَنْ قَوْلِهِمُ آلَاتِهِمْ وَأَكْثِلَهُمُ الشُّحَّتْ لَيْتَسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾^(٦٣).

قال ابن عباس: أتى رسول الله ﷺ نفر من اليهود فيهم أبو ياسر بن أخطب ورافع بن أبي رافع، فسألوه عمن يؤمن به من الرسل، قال: «أؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون» فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته، وقالوا: لا نؤمن بمن آمن به، فأُنزل الله فيهم ﴿قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وإن أكثركم فاسقون﴾.

(١) أخرجه ابن جرير (٦/٢٩٠)، وفي سنده ضعف.

قال ابن جرير^(١): معنى الكلام: هل تنعمون منا إلا إيماننا بالله وفسقكم؟ وقوله تعالى: ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل﴾ عن السدي ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله﴾ يقول ثواباً عند الله.

قال البغوي^(٢): قل يا محمد ﴿هل أنبئكم﴾ أخبركم ﴿بشر من ذلك﴾ الذي ذكرتم، يعني قولهم: لم نر أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم، ولا ديناً شراً من دينكم، فذكر الجواب بلفظ الابتداء، وإن لم يكن الابتداء شراً، لقوله: ﴿أنبئكم بشر من ذلك﴾ النار ﴿مثوبة﴾ ثواباً وجزاء ﴿عند الله من لعنة الله﴾، أي: هو ﴿من لعنه الله وغضب عليه﴾ يعني اليهود ﴿وجعل منهم القردة والخنازير﴾ فالقردة: أصحاب السبت، والخنازير: كفار مائدة عيسى عليه السلام ﴿وعبد الطاغوت﴾، أي: جعل منهم عبد الطاغوت، أي أطاع الشيطان فيما سؤل له، ﴿أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل﴾.

قال ابن جرير^(٣): قل لهم يا محمد: هؤلاء المؤمنون بالله وبكتبه الذين تستهزئون منهم، أشر؟ أم من لعنه الله؟

وقوله تعالى: ﴿وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾، هذه الآية كقوله تعالى: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾^(٤).

(١) انظر «جامع البيان» (٦/٢٩١).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٢/٤٠).

(٣) انظر «جامع البيان» (٦/٢٩٢).

(٤) سورة آل عمران: الآية ٧٢.

وقوله تعالى: ﴿وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون﴾، قال ابن زيد: هؤلاء اليهود ﴿لبئس ما كانوا يعملون﴾. ﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار﴾ إلى قوله: ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾ قال: يصنعون ويعملون واحد، قال لهؤلاء حين لم ينتهوا كما قال لهؤلاء حين عملوا. قال ابن عباس: ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية ﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت﴾ الآية. وقال الضحاك: ما في القرآن آية أخوف عندي منها، إنا لا ننهي.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

عن ابن عباس قوله: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا﴾ قال: ليس يعنون بذلك أن يد الله موثقة، ولكنهم يقولون: إنه بخيل أمسك ما عنده، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. وقال قتادة: أما قوله: ﴿يد الله مغلولة﴾ قالوا: الله بخيل غير جواد، قال الله: ﴿بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾.

قال ابن كثير^(١): ﴿غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا﴾ وهكذا وقع لهم، فإن عندهم من البخل، والحسد، والجبن، والذلة أمر^(٢) عظيم.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٧٥/٢).

(٢) في (الأصل): «أجر»، وهو خطأ فاحش.

قال ابن جرير: واختلف أهل الجدل في تأويل قوله ﴿بل يدها مبسوطتان﴾ فقال بعضهم: عنى بذلك نعمتاه، وقال آخرون منهم: عنى بذلك القوة، وقال آخرون منهم: بل يدها الله صفة من صفاته، هي يد، غير أنها ليست بجارحة كجوارح آدم، وبذلك تظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ، وقال به العلماء وأهل التأويل^(١). انتهى ملخصاً.

قال البغوي^(٢): ويد الله صفة من صفات ذاته، كالسمع والبصر والوجه، وقال جل ذكره ﴿لَمَّا خَلَقْتَ بِيَدِي﴾، وقال النبي ﷺ: «كلتا يديه يمين»^(٣). والله أعلم بصفاته. فعلى العباد فيها الإيمان والتسليم. وقال أئمة السلف من أهل السنة في هذه الصفات: أمرّوها كما جاءت بلا كيف^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وليزیدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً﴾ قال قتادة: حملهم حسد محمد ﷺ والعرب على أن كفروا به، وهم يجدونه مكتوباً عندهم.

وقوله تعالى: ﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين﴾ قال

(١) قلت: وهذا هو مذهب الصحابة، ومن تبعهم من أهل السنة: إثبات الصفات التي وصف بها نفسه، أو وصفه بها رسوله ﷺ إثباتاً حقيقياً يليق به تعالى من غير تكييف ولا تمثيل، ولا تعطيل ولا تشبيه.

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (٤١/٢).

(٣) أخرجه مسلم (ح/١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٤) فحقيقة الصفة، وكيفيةها، لا يعلمها إلا الله عز وجل، وهذا هو معنى كلام مالك — رحمه الله —: «والكيف مجهول»، وكذا كلام الأئمة: «بلا كيف». أما معاني صفات الله عز وجل فهي معانٍ معلومة ليس فيها إشكال أو غموض، وقد سبق أن نقلت كلام ابن القيم — رحمه الله — حول هذا الأمر فراجع إن شئت.

قتادة: أولئك أعداء الله اليهود، ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله﴾ فلن تلقى اليهود ببلد إلا وجدتهم من أذل أهله، لقد جاء الإسلام حين جاء وهم تحت أيدي المجوس أبغض خلقه إليه. وقال السدي: كلما أجمعوا أمرهم على شيء، فرق الله وأطفا حربهم ونارهم وقذف في قلوبهم الرعب.

وقوله تعالى: ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم﴾ قال قتادة: يقول: آمنوا بما أنزل الله، واتقوا ما حرم الله.

وقوله تعالى: ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ قال ابن عباس ﴿لأكلوا من فوقهم﴾ يعني لأرسل السماء عليهم مداراً، ﴿ومن تحت أرجلهم﴾ تخرج الأرض بركتها.

وقوله تعالى: ﴿منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون﴾ عن قتادة: قال الله فيهم ﴿أمة مقتصدة﴾ يقول: على كتابه وأمره؛ ثم ذم أكثر القوم فقال: ﴿وكثير منهم ساء ما يعملون﴾. وقال الربيع: إلا مدة المقتصدة الذين لا هم قَصَرُوا في الدين، ولا هم غلوا، والله أعلم.



الدرس التاسع والسبعون

﴿ يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَأْهَلِ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَآرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كَلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَنَّا لَنَكُونَ فَتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا بِاْكُلَانِ الطَّلَعِ

أَنْظَرَ كَيْفَ بَيَّنَّ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظَرَ أَنَّهُ يُؤَفِّكُوكَ ﴿٧٥﴾ قُلْ
 اتَّبِعُوا مَن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
 الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا
 أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَصْلُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ
 السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى
 ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ
 عَن مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ
 يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
 وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ
 إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا هُمُ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨١﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ
 النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمُ
 مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ
 وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى
 أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ
 الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ
 الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
 فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ
 أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٦٧﴾.

قال قتادة: أخبر الله نبيه ﷺ أنه سيكفيه الناس، ويعصمه منهم، وأمره بالبلاغ. وعن ابن عباس: قوله: ﴿يا أيها الرسول بلِّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾ يعني: إن كتمت آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالتي. وعن سعيد بن جبير: «لما نزلت ﴿يا أيها الرسول بلِّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾ قال رسول الله ﷺ: لا تحرسوني إن ربي قد عصمني»^(١).

قوله عز وجل: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ

(١) أخرجه ابن جرير (٣٠٧/٦) مرسلًا، وقد روي مرفوعاً من حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه الترمذي (ح/٣٠٤٦)، وقال: غريب، والحاكم (٢/٣١٣)، والبيهقي في «الدلائل» بسند ضعيف.

وروي - أيضاً - مرفوعاً من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أخرجه: الطبراني في الصغير (١/١٤٩)، بسند ضعيف أيضاً.

وروي أيضاً مرفوعاً من حديث أبي ذر - رضي الله عنه - أخرجه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (١/٢٥٥)، بسند ضعيف جداً.

وروي - أيضاً - مرفوعاً من حديث ابن عباس رضي الله عنه أخرجه الطبراني في الكبير (١١/٢٧٥) بسند ضعيف.

وروي - أيضاً - مرفوعاً من حديث عصمة بن مالك الخطمي أخرجه الطبراني - كما عزاه له ابن كثير في تفسيره - بسند ضعيف جداً.

وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنَ رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ .

عن ابن عباس قال: «جاء رسول الله ﷺ رافع بن حارثة وسلام بن مشكم^(١) ومالك بن الصيف ورافع بن حرمله فقالوا: يا محمد تزعم إنك على ملة إبراهيم ودينه، وتؤمن بما عندنا من التوراة، وتشهد إنها من عند الله حق؟ فقال رسول الله ﷺ بلى، ولكنكم أحدثتم، وجحدتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق، وكنتم منها ما أمرتم أن تبيئوه للناس، وأنا بريء من إحدائكم. قالوا: فإننا نأخذ بما في أيدينا فإننا على الحق والهدى، ولا نؤمن بك ولا نتبعك. فأنزل الله: ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم﴾ إلى ﴿فلا تأس على القوم الكافرين﴾^(٢). وقال ابن زيد: فقد صرنا من أهل الكتاب: التوراة لليهود، والإنجيل للنصارى. ﴿وما أنزل إليكم من ربكم وما أنزل إلينا من ربنا﴾، أي: ﴿لستم على شيء حتى تقيموا﴾ حتى تعملوا بما فيه، وعن السدي قوله: ﴿فلا تأس على القوم الكافرين﴾ يقول: لا تحزن.

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَرَسُولْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كَلَّمْنَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَنَّا لَنَكُونُ فَتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ .

(١) في (الأصل): «بن سكين»، وهو خطأ!!

(٢) أخرجه ابن جرير (٦/٣١٠)، وفي سنده ضعف.

عن قتادة قوله: ﴿وحسبوا أن لا تكون فتنة﴾ الآية، يقول: حب القوم أن لا يكون بلاء. ﴿فعموا ووصموا﴾ كلما عرض بلاء ابتلوا به هلكوا فيه.

وقال البغوي^(١): قوله تعالى ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل﴾ في التوحيد والنبوة ﴿وأرسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا﴾ عيسى ومحمد صلوات الله عليهما ﴿وفريقاً يقتلون﴾ يحيى وزكريا ﴿وحسبوا﴾ ظنوا ﴿أن لا تكون فتنة﴾ أي عذاب وقتل، وقيل: ابتلاء واختبار؛ أي ظنوا أن لا يتلوا، ولا يعذبهم الله ﴿فعموا﴾ عن الحق فلم ييروه ﴿وصموا﴾ عنه فلم يسمعه، يعني عموا ووصموا بعد موسى صلوات الله وسلامه عليه ﴿ثم تاب الله عليهم﴾ ببعث عيسى عليه السلام ﴿ثم عموا ووصموا كثير منهم﴾ بالكفر بمحمد ﷺ ﴿والله بصير بما يعملون﴾.

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ اتَّعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَآ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ

(١) انظر: «معالم التنزيل» (٤٤/٢).

وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ .

عن السدي: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ قال: قالت النصارى: هو المسيح وأمه، فذلك قول الله تعالى: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ .

وقوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق﴾ أي لا تتجاوزوا الحد، ولا تقولوا على الله إلا الحق؛ والغلو والتقصير مذمومان في الدين. ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل﴾ يعني رؤساء الضالة من فريقي اليهود والنصارى ﴿وأضلوا كثيراً﴾ يعني من اتبعهم على أهوائهم ﴿وضلوا عن سواء السبيل﴾، وفي الحديث المشهور عن النبي ﷺ قال: «افتترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافتترقت النصارى: على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاثة وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»^(١).

قوله عز وجل: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ وَالْآخِرِ مَا أَتَوْا بِهَذَا آيَاتِهِمْ وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ .

(١) سبق تخريجه، وهو حديث صحيح.

عن ابن عباس قوله: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم﴾ قال: لعنوا بكل لسان، لعنوا على عهد موسى في التوراة، ولعنوا على عهد داود في الزبور، ولعنوا على عهد عيسى في الإنجيل، ولعنوا على عهد محمد ﷺ في القرآن، وقال قتادة: لعنهم الله على لسان داود في زمانهم، فجعلهم قردة خاسئين، وفي الإنجيل على لسان عيسى، فجعلهم خنازير. وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل من بني إسرائيل كان إذا رأى أخاه على الذنب نهاه عنه تعذيراً^(١)، فإذا كان من الغد لم يمنعه، ما رأى منه أن يكون أكيله وخليطه وشريبه، فلما رأى ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض، ولعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى ابن مريم ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾. ثم قال: والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يدي المسيء، ولتأطرنه على الحق أطراً أو ليعزبن الله قلوب بعضكم على بعض، وليلعنكم كما لعنهم^(٢)». رواه ابن جرير.

وفي رواية أبي عبيدة: «فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ونزل فيهم القرآن، فقال: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم﴾ حتى بلغ ﴿ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾^(٣).

قوله عز وجل: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا آلِيَهُدَىٰ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا

(١) في (الأصل): «تعزيراً»، وهو خطأ.

(٢) أخرجه أحمد (٣٩١/١)، وأبو داود (٤٣٣٦/ح)، والترمذي (ح/٣٠٥٠)، وابن ماجه (ح/٤٠٠٦)، وابن جرير (٣١٨/٦)، بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير (٣١٩/٦) مرسلًا، وأبو عبيدة هو: ابن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -، وليس هو الصحابي المشهور.

نَصَرَيْكَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتِيلِينَ وَرَهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾
 وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِن
 الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا
 مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا
 جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ
 كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ .

عن مجاهد في قول الله: ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾ قال: هم الوفد الذين جاءوا مع جعفر وأصحابه من أرض الحبشة. وقوله تعالى: ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا﴾ القسيسون: العلماء، والرهبان: العباد.

قال ابن كثير^(١): وقوله تعالى: ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾ أي الذين زعموا أنهم نصارى، من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله، فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلا لما في قلوبهم - إذ كانوا على دين المسيح - من الرقة والرأفة.

وقوله تعالى: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ قال ابن عباس: مع محمد ﷺ وأمه. والله أعلم.



(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٢/٨٥).

الدرس الثمانون

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ
 اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ
 بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا
 عَقَدْتُمُ الْاَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ بِهِ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ
 كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا
 حَلَفْتُمْ وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَأْتِيهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحَنُورُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ
 لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْحَنُورِ
 وَالْمَيْسِرِ وَيُضِلَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
 الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رُسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى
 الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا ءَاحَلَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَنسَدُوا ءِبْنَ اللَّهِ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي ءَنشُرْ بِهِ ءُمُوتَكُمُ ﴿٨٨﴾ .

عن أبي مالك في هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ الآية. قال عثمان بن مظعون، وأناس من المسلمين حرموا عليهم النساء، وامتنعوا من الطعام الطيب، وأراد بعضهم أن يقطع ذكره، فنزلت هذه الآية^(١). وعن عكرمة ﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً﴾، يعني: ما أحل الله لهم من الطعام.

قوله عز وجل: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ ءِالْلُغُو فِي ءَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَدْتُمُ ءِالْءَيْمَانَ فكَفَرْتُمُ بِهِ ءِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِّنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ ءِهَلِيكُمُ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ ءِيَآمِرٍ ذَءِلكَ كَفْرَةٌ ءَيْمَانِكُمْ إِذَءَا حَلَفْتُمْ ءِءَءَقْظُوا ءَيْمَانَكُمْ كذَءِلكَ يَبِينُ لَكُمْ ءِءِئْتِيهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ .

قال ابن عباس: لما نزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ في القوم الذين كانوا حرموا النساء واللحم على أنفسهم، قالوا: يا رسول الله كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها؟ فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾^(٢) الآية. وعن الحسن: ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾

(١) أخرجه ابن جرير (٨/٧)، بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير (١٣/٧)، بسند ضعيف.

يقول: بما تعمّدت فيه المآثم فعليك الكفارة. قال قتادة: أما اللغو فلا كفارة فيه. وقالت عائشة: إيمان الكفارة: كل يمين حلف فيها الرجل على أحد من الأمور، في غضب أو غيره، ليفعلن، ليركن، فذلك عقد الأيمان التي فرض الله فيها الكفارة. وقال تعالى ذكره: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان.

وقوله تعالى: ﴿فكفاراته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة﴾ عن عبد الله بن حنش قال: سألت الأسود عن ﴿أوسط ما تطعمون أهليكم﴾ قال: الخبز والتمر والزيت والسمن، وأفضله اللحم. وقال ابن عمر: من أوسط ما يطعم أهله: الخبز والتمر، والخبز والسمن، والخبز والزيت، ومن أفضل ما يطعم الخبز واللحم. وقال الحسن: يجزيك أن تطعم عشرة مساكين أكلة واحدة حتى يشبعوا. وعن إبراهيم عن عمر قال: إني أحلف على اليمين ثم يبدو لي، فإذا رأيتني قد فعلت فأطعم عشرة مساكين، لكل مسكين مدين من حنطة. وعن عبد الكريم الجزري قال: قلت لسعيد بن جبير: أجمعهم؟ قال: لا، أعطهم مدين، مدين من حنطة: مداً لطعامه ومداً لإدامه. وقال الضحاك: لكل مسكين نصف صاع من تمر أو بر. وعن ابن عمر: مدّ من حنطة لكل مسكين. وعن عليّ: يغديهم ويعشيهم. وعن ابن عباس: ﴿من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾ قال: من عسرهم ويسرهم.

وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿أو كسوتهم﴾ قال: أدناه ثوب وأعلاه ما شئت. وقال عطاء: لا يجزي في الرقبة إلاّ صحيح، وقال: يجزي المولود في الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام﴾، أي: متتابعات. قال معتمر بن سليمان: قلت لعمر بن راشد: الرجل يحلف ولا يكون عنده من الطعام إلاّ بقدر ما يكفر، قال: كان قتادة يقول: يصوم ثلاثة أيام.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ كَفَارَةٌ أَيَّمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ بَيِّنَ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ عن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال لي النبي ﷺ: «يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الأمانة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكُلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أُعنتَ عليها، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفّر عن يمينك، وأت الذي هو خير»^(١). متفق عليه.

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

قال ابن زيد في قوله: ﴿رجس من عمل الشيطان﴾ الرجس: الشر. وعن محمد بن قيس قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة أتاه الناس، وقد كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر، فسألوه عن ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ فقالوا: هذا شيء قد جاء فيه رخصة نأكل الميسر، ونشرب الخمر ونستغفر من ذلك، حتى أتى رجل صلاة المغرب فجعل يقرأ: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد، فجعل لا يجود ذلك ولا يدري ما يقرأ، فأنزل

(١) أخرجه البخاري (ح/٦٦٢٢)، ومسلم (ح/١٦٥٢).

الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ فكان الناس يشربون الخمر حتى يجيء وقت الصلاة، فيدعون شربها ليأتون الصلاة وهم يعلمون ما يقولون، فلم يزالوا كذلك حتى أنزل الله تعالى: ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان﴾ إلى قوله: ﴿فهل أنتم متتهون﴾ فقالوا: انتهينا^(١).

وقوله تعالى: ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر﴾. قال ابن عباس: نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار، شربوا حتى إذا ثملوا عبث بعضهم على بعض، فلما صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه ولحيته فيقول: فعل بي هذا أخي فلان - وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن - والله لو كان بي رؤوفاً رحيماً ما فعل بي هذا، فوقع في قلوبهم ضغائن، فأنزل الله: ﴿إنما الخمر والميسر﴾ إلى قوله: ﴿فهل أنتم متتهون﴾؟ فقال ناس من المتكلفين: رجس في بطن فلان قتل يوم بدر، وقتل فلان يوم أحد؟! فأنزل الله: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾^(٢) الآية. وقال قتادة: لما أنزل الله تعالى تحريم الخمر في سورة المائدة بعد سورة الأحزاب، قال في ذلك رجال من أصحاب رسول الله ﷺ: أصيب فلان يوم بدر وفلان يوم أحد وهم يشربونها، فأخبرهم أنهم من أهل الجنة، فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين﴾، يقول: شربها القوم على تقوى من الله وإحسان، وهي لهم يومئذ حلال، ثم حرمت بعدهم، فلا جناح عليهم في

(١) أخرجه ابن جرير (٣٣/٧)، بسند ضعيف.

(٢) أخرجه النسائي (٢٣٣٧/٦)، وابن جرير (٣٤/٧)، والطبراني (٥٦/١٢ - ٥٧)، والحاكم

(١٤١/٤)، والبيهقي (٢٨٥/٨ - ٢٨٦)، وهو حديث صحيح.

ذلك. وفي حديث أبي هريرة عند أحمد^(١): «ثم نزلت آية المائدة فقالوا: يا رسول الله ناس قتلوا في سبيل الله وماتوا على فرشهم وكانوا يشربونها؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح﴾ الآية. فقال النبي ﷺ: لو حرم عليهم لتركوه كما تركتموه».

وقوله: ﴿إذا ما اتقوا وآمنوا﴾، أي: اتقوا الشرك وصدقوا ﴿وعملوا الصالحات ثم اتقوا﴾ الخمر والميسر بعد تحريمهما ﴿وآمنوا ثم اتقوا﴾ ما حرم الله عليهم كله ﴿وأحسنوا والله يحب المحسنين﴾. والله أعلم.



(١) (٣٥١/٢) بسند ضعيف.

الدرس الحادي والثمانون

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا يَبْلُغُوهُمْ ءَللّٰهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ ءَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ
 ٩٤ اللّٰهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهِ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا
 يَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنَّهُمْ حُرْمٌ ۖ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ
 ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَلِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّرَهُ طَعَامًا مَّسْكِينًا أَوْ عَدَلَ ذَٰلِكَ صِيَامًا
 لِّذُو قُرْبَىٰ وَبَالَ ءَأْمَرِهِ ۚ عَقَا ءَللّٰهُ عَمَّا سَفَّٰهُ وَمَن ءَادَ فَيَنْقِمِ ءَللّٰهُ مِنْهُ ۗ ءَللّٰهُ عَزِيزٌ ذُو
 ٩٥ أَنْقَامٍ ﴿٩٥﴾ أَجَلٌ لَّكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ
 الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا ءَللّٰهُ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ﴿٩٦﴾ جَعَلَ ءَللّٰهُ الْكَعْبَةَ
 الْبَيْتَ الْحَرَامَ فِيمَا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَيْدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ ءَللّٰهُ
 يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَأَنَّ ءَللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴿٩٧﴾ اَعْلَمُوا أَنَّ
 ٩٦ ءَللّٰهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ ءَللّٰهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ اِلَّا الْبَلٰغُ ۗ وَءَللّٰهُ يَعْلَمُ مَا
 تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ اَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ
 فَاتَّقُوا ءَللّٰهُ يَتَأَوَّلِي اِلَّا لِبْسٍ لَّعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴿١٠٠﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوكُمْ ءَلَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُ ٱلْغَيْبَ فَمَن ءَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَآ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النِّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُم هَدِيًّا بَلِيغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ ءَأْسَرِهِ ءَعَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَن عَادَ فَيَنْتَقِمِ ٱللَّهُ مِنهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱلنِقَامِ ﴿٩٥﴾ .

عن مجاهد في قوله: ﴿ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم﴾ قال: ﴿أيديكم﴾ صغار الصيد، أخذ الفراخ والبيض، وما لا يستطيع أن يفرو الرماح قال: كبار الصيد.

وقوله تعالى: ﴿ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم﴾ قال عطاء: يحكم عليه في العمد والخطأ والنسيان. وقال الزهري: نزل القرآن بالعمد، وجرت السنة في الخطأ، يعني في المُنْحَرِمِ يصيب الصيد.

وعن السدي قوله: ﴿ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم﴾ قال: أما ﴿جزاء مثل ما قتل من النعم﴾ فإن قتل نعامة أو حماراً فعليه بدنة، وإن قتل بقرة أو إبلًا أو أروى فعليه بقرة، أو قتل غزالاً أو أرنباً فعليه شاة، وإن قتل ضبعاً أو حرباء أو يربوعاً فعليه سخلة قد أكلت العشب وشربت اللبن. وسئل عطاء: أيغرم في صغير الصيد كما يغرم في كبيره؟ قال: ليس يقول الله تعالى: ﴿فجزاء مثل ما قتل من النعم﴾؟ وقال ابن عباس: «إذا أصاب المحرم الصيد وجب عليه جزاؤه من النعم، فإن وجد جزاءه ذبحه فتصدق به، فإن لم يجد جزاءه قوّم

الجزاء دراهم، ثم قوّم الدراهم حنطة، ثم صام مكان كل نصف صاع يوماً، قال: إنما أريد بالطعام الصوم، فإذا وجد طعاماً وجد جزءاً».

وفي رواية: «إذا أصاب الرجل الصيد حكم عليه، فإن لم يكن عنده قوّم عليه ثمنه طعاماً، ثم صام لكل نصف صاع يوماً».

وفي رواية: «فإن قتل ظبياً أو نحره فعليه شاة تذبح بمكة، فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام». وقال الضحاك: «وما كان من جرادة أو نحوها ففيه قبضة من طعام، وما كان من طير البرّ ففيه أن يقوّم ويتصدّق بثمنه، وإن شاء صام لكل نصف صاع يوماً». وقال مجاهد: «فإن لم يجد صام عن كل مُدٍّ يوماً». قال عطاء: «فكل شيء في القرآن «أو» فليختر منه صاحبه ما شاء». وقال قبيصة^(١) بن جابر: «أصبت ظبياً وأنا محرّم، فأتيت عمر فسألته عن ذلك، فأرسل إلى عبد الرحمن بن عوف، فقلت: يا أمير المؤمنين إن أمره أهون من ذلك، قال: فضرّبني بالدرة ثم قال: قتلت الصيد وأنت محرّم ثم تغمص الفتيا؟ قال: فجاء عبد الرحمن فحكما بشاة».

وفي رواية: ثم قال عمر: «يا قبيعة بن جابر إنني أراك شاب السن، فسيح الصدر، بين اللسان، وإن الشاب يكون فيه تسعة أخلاق حسنة وخلق سيئ، فيفسد الخلق السيئ الأخلاق الحسنة، فيأياك وعثرات الشباب». وعن إبراهيم قال: ما كان من دم فبمكة، وما كان من صدقة أو صوم حيث شاء. وقال عطاء: الدم والطعام بمكة، والصيام حيث شاء، واختار ابن جرير القول الأول. وقال ابن جريج: قلت لعطاء: رجل أصاب صيداً في الحج أو العمرة، فأرسل بجزائه في الحرم في المحرّم أو غيره من الشهور، أيجزى عنه؟ قال: نعم، ثم قرأ ﴿هدياً بالغ الكعبة﴾ قال يحيى: وبه نأخذ.

(١) في (الأصل): «قبيعة»، وهو خطأ.

وقال ابن جريج: قلت لعطاء: ما ﴿عفا الله عما سلف﴾؟ قال: عما كان في الجاهلية. قلت: ما ﴿ومن عاد فينتقم الله منه﴾؟ قال: من عاد في الإسلام فينتقم الله منه، وعليه مع ذلك الكفارة. وقال السدي: أما ﴿وبال أمره﴾ فعقوبة أمره.

قوله عز وجل: ﴿أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٩٦).

عن ابن عباس في قوله: ﴿أحل لكم صيد البحر﴾ قال: صيده ما صيد منه. وقال عمر: صيده ما صيد منه، وطعامه ما قذف. وقال ابن عباس: طعامه ما وجد على الساحل ميتاً. وعن عكرمة في قوله: ﴿متاعاً لكم وللسيارة﴾ قال: لمن كان بحضرة^(١) البحر، وللسيارة في السفر.

وقوله تعالى: ﴿وحرم عليكم صيد البر﴾ أي اصطياده ﴿ما دمتم حرماً﴾ وفي قصة صيد أبي قتادة فقال النبي ﷺ: «هل منكم أحد أمره أن يحمل عليها، أو أشار إليها؟ قالوا: لا. قال: فكلوا ما بقي من لحمها»^(٢). وعن أبي سلمة قال: نزل عثمان بن عفان المعرج وهو محرّم، فأهدى صاحب المعرج له قطعاً فقال لأصحابه: كلوا فإنه إنما أصيد على اسمي، فأكلوا ولم يأكل. وعن أبي الشعثاء قال: قلت: لابن عمر كيف ترى في قوم حرام لقوا قوماً حلالاً، ومعهم لحم صيد، فإما باعوههم وإما أطعموهم؟ فقال: حلال. وعن الزبير أنه كان يتزود لحوم الوحش، وهو محرّم. وعن أبي مجلز: ﴿وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً﴾ قال: ما كان يعيش في البر والبحر لا يصيده، وما كان حياته في الماء فذاك. وقال عطاء: أكثر ما يكون حيث يفرخ فهو منه.

(١) في (الأصل): «بحفرة»، وهو خطأ.

(٢) أخرجه مسلم (٢/٨٥٣ - ٨٥٤)، وبنحوه البخاري (ح/١٨٢١).

قوله عز وجل: ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ۞ .

قال مجاهد: إنما سميت الكعبة لأنها مربعة، وعن سعيد بن جبير ﴿قياماً للناس﴾ قال: صلاحاً لدينهم. وعن ابن عباس قوله: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد﴾ يعني: قياماً لدينهم ومعالم لحجهم. وقال السدي: جعل الله هذه الأربعة قياماً للناس، هو قوام أمرهم.

وقوله تعالى: ﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾ قال السدي: هم المشركون، والطيب: هم المؤمنون.

وقال ابن كثير^(١): يعني أن القليل الحلال النافع خير من الحرام الكثير الضار.

وقال البغوي^(٢): نزلت في شريح بن ضبعة^(٣) البكري، وحجاج بن بكر^(٤) بن وائل ﴿فاتقوا الله﴾ ولا تتعرضوا للحجاج. والله أعلم.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١٠٤/٢).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٥٧/٢).

(٣) في (الأصل): «خيفة» وهو خطأ.

(٤) في (الأصل): «حجاج بكر» وهو خطأ.

الدرس الثاني والثمانون

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْءَانُ تُبَدِّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بُحَيْرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيْلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ءَأُولُو كَانٍ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِئْتِنَتِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَدَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَشْنَانٍ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخِرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مَّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَدَةَ اللَّهِ إِنَّآ إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُرِيَ عَلَيْهِ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَاخْرَجَانِ يَفُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيْنَ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَدَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّآ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ أَدْفَعُ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنٌ بَعْدَ أَيْمَنِمْ ءَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمِعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِن بُدِّلَ لَكُمْ سُؤُوكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَّلَ الْقُرْءَانُ بُدِّلَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ .

قال ابن عباس: «كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاء، فيقول الرجل: مَنْ أبي؟ والرجل تضل ناقته فيقول: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية»^(١).

وعن أنس قال: سأل الناس رسول الله ﷺ حتى أحفوه بالمسألة، فصعد المنبر ذات يوم فقال: «لا تسألوني عن شيء إلا بيئت لكم». قال أنس: فجعلت أنظر يمينا وشمالا، فأرى كل إنسان لاقفا ثوبه ييكي، فأنشأ رجل كان إذا لاح يدعى إلى غير أبيه فقال: يا رسول الله من أبي؟ فقال: أبوك حذافة، قال: فأنشأ عمر فقال: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً، وأعوذ بالله من سوء الفتن. فقال رسول الله ﷺ: لم أر الشر والخير كالיום قط، إنه صوّرت لي الجنة والنار حتى رأيتهما وراء الحائط»^(٢). وكان قتادة يذكر هذا الحديث عند هذه الآية.

وفي رواية «نزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكنم تسوءكنم﴾» .

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٦٢٢).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٦٢١ و ٧٢٩٤ و ٧٢٩٥)، ومسلم (ح/٢٣٥٩).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب عليكم الحج، فقال رجل: لكلّ عام يارسول الله؟ حتى عاد مرتين أو ثلاثاً. فقال: من السائل؟ فقال: فلان. فقال: والذي نفسي بيده لو قلت: نعم لوجبت، ولو وجبت عليكم ما أطقتموه، ولو تركتموه لكفرتم، فأنزل الله هذه الآية»^(١). قال ابن جرير^(٢): نزلت الآية بالنهي عن المسائل كلها، فأخبر كل مخبر منهم ببعض ما نزلت الآية من أجله أو أجل غيره. وعن أبي ثعلبة الخشني مرفوعاً: «إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيّعوها، ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها، وعفا عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿قد سألتها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾. قال ابن عباس: نهاكم أن تسألوا عن مثل الذي سألت النصارى من المائدة، فأصبحوا بها كافرين.

قوله عز وجل: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بُحَيْرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثُرُهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا تَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا أِهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرَجِعُكُمْ جَمِيعًا فِيمَنْ تَخْتَلِفُونَ عَلَيْهِمْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

عن سعيد بن المسيب قال: «البحيرة: التي يمنع درّها للطواغيت، فلا يحلبها

(١) أخرجه ابن جرير (٨٢/٧) بسند ضعيف؛ لكن للحديث شاهد من حديث علي بن أبي طالب، وأبي أمامة، وابن مسعود، وابن عباس - رضي الله عنهم - وكل منها لا يخلو من مقال في سنده، وعلى كل فالحديث بمجموع طرقه وشواهد صحیح إن شاء الله تعالى.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٨٥/٧).

(٣) أخرجه ابن جرير (٨٥/٧) بسند ضعيف.

أحد من الناس. والسائبة: كانوا يسيئون لها لآلهتهم، فلا يحمل عليها شيء. قال: وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجرّ قصبه في النار، كان أول من سيّب السوائب». والوصيلة: الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل بأنثى، ثم تنثي بعد بأنثى، وكانوا يسيئون لها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر. والحام: فحل الإبل يضرب الضراب المعدود، فإذا قضى ضرابه، ودعوه للطواغيت، وأعفوه عن الحمل، فلم يحمل عليه شيء، وسموه الحامي^(١). رواه البخاري. وقال ابن زيد: البَحيرة: كان الرجل يجدع أذني ناقته ثم يعتقها كما يعتق جاريته وغلّامه، لا تحلب ولا تتركب. والسائبة: يسيبها بغير تجديع. وقال قتادة: قوله: ﴿وما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام﴾، لتشديد شدّده الشيطان على أهل الجاهلية في أموالهم، وتغليظ عليهم ولا يعقلون.

وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون﴾. قال ابن مسعود: وليس هذا بزمانها، قولوها ما قبلت منكم، فإذا رُدّت عليكم فعليكم أنفسكم. وقيل لابن عمر: لو جلست في هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه، فإن الله تعالى يقول: ﴿عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾، فقال ابن عمر: إنها ليست لي ولا لأصحابي، لأن رسول الله ﷺ قال: ألا فليبلغ الشاهد الغائب، فكنا نحن الشهود وأنتم الغيب، ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم. وعن أبي أمية الشعباني قال: سألت أبا ثعلبة الخشني كيف تصنع بهذه الآية. ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾؟ فقال أبو ثعلبة: سألت عنها خيراً مني، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «اتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٦٢٣)، ومسلم (ح/٢٨٥٦) مطولاً.

شحاً مطاعاً وهوى متبعاً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخويصة نفسك وذرعواتهم، فإن وراءكم أياماً أجر العامل فيها كأجر خمسين منكم»^(١). وعن قيس بن حازم قال: قال أبو بكر وهو على المنبر: «يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية على غير موضعها ﴿لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾، وإن الناس إذا رءوا الظالم فلم يأخذوا على يديه عمهم الله بعقابه»^(٢). رواهما ابن جرير. وعن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»^(٣). رواه مسلم.

قوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَدَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخِرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَدَةَ اللَّهِ إِنَّآ إِذَا لَمِنَ الْأَثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُرِيَ عَلَيْهِ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَاخْرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَىٰ لِنِيقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَدَتِهِمَا وَمَا آعْتَدْنَا إِنآ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ آدْفَةٌ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَدَةِ عَلَىٰ وَجْهَهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ آيْمَنُ بَعْدَ آيْمَنِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٤١/٢)، والترمذي (٣٠٥٨/ح) وحسنه، وابن ماجه (٤٠١٤/ح)

بسند فيه ضعف.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨/ح)، والترمذي (٢١٦٨/ح)، وأيضاً (٣٠٥٧/ح)، وابن ماجه

(ح/٤٠٠٥) موقوفاً وهو صحيح.

(٣) أخرجه مسلم (ح/٧٨).

عن سعيد بن المسيب في قوله: ﴿اثنان ذوا عدل منكم﴾. قال: من أهل دينكم أو ﴿آخران من غيركم﴾ قال: من غير أهل ملتكم. قال شريح: لا تجوز شهادة اليهودي والنصراني إلا في وصية، ولا تجوز في وصية إلا في سفر. وعن السدي: ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم﴾. قال: هذا في الحضر، أو ﴿آخران من غيركم﴾ في السفر، ﴿إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتم مصيبة الموت﴾ هذا في الرجل يدركه الموت في سفره، وليس بحضرته أحد من المسلمين، فيدعو رجلين من اليهود والنصارى والمجوس فيوصي إليهما.

وقوله تعالى: ﴿تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمناً ولو كان ذا قربي ولا نكتب شهادة الله إنا إذن لمن الآثمين﴾ عن الشعبي: أن رجلاً من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقا هذه، قال: فحضرته الوفاة فلم يجد أحداً من المسلمين يشهده على وصيته، فأشهد رجلين من أهل الكتاب، قال: فقدموا الكوفة فأتيا الأشعري فأخبراه، وقدماً بتركته ووصيته، فقال الأشعري: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد رسول الله ﷺ، قال: فأحلفهما بعد العصر بالله، ما خانا ولا كذبا، ولا بدلا ولا كتما، ولا غيراً، وأنها لوصية الرجل وتركته. قال: فأمضى شهادتهما. وقال سعيد بن جبير: إن صدقهما الورثة قبل قولهما، وإن اتهموهما أحلفا بعد صلاة العصر.

وقوله تعالى: ﴿فإن عثر على أنهما استحقا إثماً فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا إنا إذا لمن الظالمين﴾. قال سعيد بن جبير: إذا كان الرجل بأرض الشرك فأوصى إلى رجلين من أهل الكتاب، فإنهما يحلفان بعد العصر، فإذا اطلع عليهما بعد

حلفهما أنهما خانا شيئاً، حلف أولياء الميت أنه كان كذا وكذا ثم استحقوا. وعن ابن عباس قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء، فمات السهمي بأرض ليس فيها مسلم، فلما قدموا بتركته فقدوا جاماً من فضة مخصوصاً بالذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ، ثم وجد الجام بمكة، فقالوا: اشتريناه من تميم الداري وعدي بن بداء، فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا لشهادتنا أحق من شهادتهما وإن الجام لصاحبهم، قال: وفيهم أنزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم﴾^(١).

وقال البغوي^(٢): ﴿فأخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان﴾ تثنية الأولى، واستحق بضم التاء على المجهول، هذا قراءة العامة^(٣)، يعني الذين استحق عليهم أي فيهم ولأجلهم الإثم، وهم ورثة الميت استحق الحالفان بسببهم الإثم، وقرأ حفص: استحق بفتح التاء والحاء وهي قراءة عليّ والحسن، أي حق، ووجب عليهم الإثم. يقال: حق والمستحق بمعنى واحد. ﴿الأوليان﴾ نعت للأخران، أي فأخران الأوليان، ومعنى الآية إذا ظهرت خيانة الحالفين، يقوم اثنان أخران من أقارب الميت فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما، يعني يميننا أحق من يمينها. انتهى ملخصاً.

وقال ابن العربي في «أحكام القرآن»^(٤)، المسألة الخامسة والثلاثون: قوله تعالى: ﴿الأوليان﴾ وهذا فصل مشكل المعنى، مشكل الإعراب، كثر فيه الاختلاط، أما إعرابه ففيه أربعة أقوال: الأول: أنه بدل من الضمير في يقومان، ويكون التقدير: فالأوليان يقومان مقام الأولين، إلى آخر كلامه.

(١) أخرجه البخاري (ح/٢٧٨٠)، والترمذي (ح/٣٠٥٩)، وحسنه، وابن جرير (١١٥/٧).

(٢) انظر معالم التنزيل، (٦١/٢).

(٣) أي: عامة القراء.

(٤) انظر (٢٤٩/٢).

وقال في «جامع البيان»: ومرة قرأ استُحق فهو فاعل، أي: من الورثة الذين استحق عليهم الأوليان بالشهادة، أن يجردوهما للقيام بالشهادة.

وقوله تعالى: ﴿ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد إيمان بعد إيمانهم واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾. قال قتادة: ذلك أحرى أن يصدقوا في شهادتهم، وأن يخافوا العقاب، وقال ابن زيد في قوله: ﴿أو يخافوا أن ترد إيمان بعد إيمانهم﴾ قال: فتبطل إيمانهم وتؤخذ إيمان هؤلاء. والله أعلم.



الدرس الثالث والثمانون

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ ﴾
 الْغُيُوبِ ﴿١١٠﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ
 أَيَّدْتَكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ
 الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ خَلَقْنَا مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ
 يَازِئِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا يَازِئِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ يَازِئِي وَإِذْ
 تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ يَازِئِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ
 فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١١﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ
 ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١٢﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ
 يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَتَقُولُوا
 اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ
 قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ
 عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ
 الرَّازِقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا
 أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٦﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ
 اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ لِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي
 بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ

عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عَبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ
 شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تُغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ
 اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا

عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبِ ﴿١١٠﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتهم قالوا لا علم لنا﴾ إلا علم أنت أعلم به منا.

قال ابن كثير^(١): وهو من باب التأدب مع الرب جل جلاله، أي: لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء، فنحن وإن كنا قد أجبنا وعرفنا من أجابنا، ولكن منهم من كنا إنما نطلع على ظاهره، لا علم لنا بباطنه، وأنت العليم بكل شيء، المطلع على كل شيء، فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلاً علم، فإنك أنت علام الغيوب.

قوله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُخَلِّقُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِأَذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِأَذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِأَذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١١﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامِنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١٢﴾ .

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/١١٤).

عن السدي: ﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين﴾ يقول: قذفت في قلوبهم. وقال الحسن: ألهمهم الله ذلك.

قال ابن كثير^(١): ويحتمل^(٢) أن يكون المراد: وإذا أوحيت إليهم بواسطتك.

قال البغوي^(٣): والحواريون [خواص]^(٤) أصحاب عيسى عليه السلام.

قوله عز وجل: ﴿إِذ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٦﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَتَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٧﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَنَزَلُهَا عَلَيْكُمْ مِنْ كَفَرٍ بَعْدَ مِنْكُمْ فَيَنبِيءُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٩﴾﴾

عن ابن عباس، أنه كان يحدث عن عيسى عليه السلام أنه قال لربي إسرائيل: «هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوماً ثم تسأله فيعطيك ما سألتم؟ فإن أجر العامل على من عمل له، ففعلوا ثم قالوا: يا معلّم الخير، قلت لنا أن أجر العامل على من عمل له، وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوماً، ففعلنا، ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يوماً، إلا أطلعنا حين نفرغ طعاماً، فهل يستطيع ربك أن ينزل

(١) المصدر السابق (١١٥/٢).

(٢) في (الأصل): «ويحمل»، والمثبت من تفسير ابن كثير.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٦٣/٢).

(٤) ما بين المعقوفتين إضافة من تفسير البغوي.

علينا مائدة من السماء؟ قال عيسى: ﴿اتقوا الله إن كنتم مؤمنين قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين﴾ إلى قوله: ﴿لا أعذبه أحداً من العالمين﴾، قال: فأقبلت الملائكة تطير من السماء عليها سبعة أخواتٍ وسبعة أرغفة، حتى وضعتها بين أيديهم، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم^(١).

وعن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت المائدة خبزاً ولحمًا، وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا ولا يرفعوا، فخانوا وادخروا ورفعوا، فمسخوا قردة وخنازير»^(٢). رواه ابن جرير: وقال عبد الله بن عمرو: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة: من كفر من أصحاب المائدة، والمنافقون، وآل فرعون»^(٣).

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۗ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ ۗ إِنْ كُنْتَ قُلْتَهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۗ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ۗ إِنَّ آعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلِإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۗ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾.

قال السدي: لما رفع الله عيسى ابن مريم إليه قالت النصراري ما قالت،

(١) أخرجه ابن جرير (٧/١٣٠ - ١٣١)، بسند ضعيف.

(٢) أخرجه الترمذي (ح/٣٠٦)، وابن جرير (٧/١٣٤) بسند ضعيف، والصحيح أنه موقوف

كما ذكر ذلك الإمام الترمذي رحمه الله.

(٣) أخرجه ابن جرير (٧/١٣٦).

وزعموا أن عيسى أمرهم بذلك، فسأله عن قوله فقال: ﴿سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك أنك أنت علام الغيوب﴾ إلى قوله: ﴿وأنت على كل شيء شهيد﴾. وعن ابن جريج: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾؟ قال: والناس يسمعون، فراجعه بما قد رأيت، وأقر له بالعبودية عن نفسه، فعلم من كان يقول في عيسى ما يقول، أنه إنما كان باطلاً. وعن مسرة قال: قال الله تعالى: ﴿يا عيسى أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾؟ قال: فأرعدت مفاصله، وخشي أن يكون قد قالها، فقال: ﴿سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب﴾.

وقوله: ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ عن السدي في قوله: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾، ﴿وإن تغفر لهم﴾ فتخرجهم من النصرانية وتهديهم إلى الإسلام ﴿فإنك أنت العزيز الحكيم﴾، وهذا قول عيسى في الدنيا، واختاره ابن جرير. وقال سائر المفسرين: إنما يقول الله هذا القول يوم القيامة.

قال ابن كثير^(١): والذي قاله قتادة وغيره هو الأظهر، والله أعلم أن ذلك كائن يوم القيامة، ليدل على تهديد النصارى، وتقريعهم وتوبيخهم، على رؤوس الأشهاد يوم القيامة. وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: ﴿إنكم محشورون، وإن

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/١٢٠).

ناساً يؤخذ بهم ذات الشمال فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم﴾ إلى قوله: ﴿العزیز الحكيم﴾^(١). رواه البخاري.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

قال الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ يقول: يوم ينفع الموحدين توحيدهم. وفي الحديث الصحيح: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة»^(٢). والله أعلم.



(١) أخرجه البخاري (ح/٤٦٢٥)، ومسلم (ح/٢٨٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٦٠٩٤)، ومسلم (ح/٢٦٠٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

الدرس الرابع والثمانون

﴿سورة الأنعام﴾

مكية، وهي مائة وخمسة وستون آية

قال ابن عباس: «نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة واحدة، حولها سبعون ألف ملك، يجأرون حولها بالتسبيح»^(١). رواه الطبراني.

وروى مرفوعاً: «من قرأ سورة الأنعام، يصلّي عليه أولئك السبعون ألف ملك ليله ونهاره»^(٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ

- (١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢١٥/١٢)، بسند ضعيف، وأخرجه أيضاً في الأوسط - كما في «مجمع البحرين» (٢٢/٦) - من حديث أنس رضي الله عنه وأخرجه الحاكم (٣١٥/٢)، من حديث جابر رضي الله عنه وقال: «صحيح على شرط مسلم» وتعقبه الذهبي قائلًا: «لا، والله، ولم يدرك جعفر السدي، وأظن هذا موضوعاً». وأخرجه الطبراني في الصغير (٨١/١)، وأبو نعيم في الحلية (٤٤/٢) من حديث عبد الله بن عمرو، وسنده ضعيف جداً.
- (٢) أخرجه الثعلبي في تفسيره (٧٢/٢/ب) من حديث أبي بن كعب - رضي الله عنه - بسند موضوع.

كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَعْمُرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾ أَمْ يَرَوْنَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهِمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرطَابٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ لَوَلَّوْنَا لَمَّا كَانُوا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُوا بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَقَّ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنَّ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَٰكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ أَمْتًا وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسَّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْفَاہِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ

لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَبَيْتَكُمْ لَنَشْهَدَنَّ أَنْتَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ
إِلَهُ وَحْدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ
أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ
كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ ❖

* * *

قوله عز وجل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ
الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ
ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي
الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ .

قال كعب: فاتحة التوراة فاتحة الأنعام، وخاتمة التوراة خاتمة هود. وقال
ابن عباس: افتتح الله الخلق بالحمد، وختمه بالحمد. وقال ابن زيد في قوله: ﴿ثم
الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ قال: الآلهة التي عبدوها عدلوا بالله، قال: وليس لله
عدل ولا ند، وليس معه آلهة، وما اتخذ صاحبة ولا ولدًا.

وقوله تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ قال الضحاك: خلق آدم من
طين، وخلق الناس من سلالة من ماء مهين.

وقوله تعالى: ﴿ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون﴾ قال
الحسن: ﴿قضى أجلاً﴾ ما بين أن يخلق إلى أن يموت، ﴿وأجل مسمى عنده﴾
قال: ما بين أن يموت إلى أن يبعث. وقال ابن عباس: الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ثم أنتم تمترون﴾ أنتم تشكون في البعث.

وقوله تعالى: ﴿وهو الله في السموات والأرض﴾ أي هو إله من في السموات
ومن في الأرض، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهو
الحكيم العليم﴾^(١)، ﴿يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون﴾.

(١) سورة الزخرف: الآية ٨٤.

قوله عز وجل: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ۝ .

عن قتادة في قوله: ﴿مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم﴾ يقول: أعطيناهم ما لم نعطيكم.

قوله عز وجل: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُوا بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ ﴿١١﴾ ۝ .

عن ابن عباس قوله: ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم﴾ يقول: لو نزلنا من السماء صحفاً فيها كتاب، فلمسوه بأيديهم لزادهم ذلك تكديباً. وعن قتادة ﴿ولو أنزلنا ملكاً لقصي الأمر ثم لا ينظرون﴾ يقول: ولو أنهم أنزلنا إليهم ملكاً ثم لم يؤمنوا لن يُنظروا. وقال ابن عباس: لو أتاهم ملك في صورته لماتوا. وعن قتادة: ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾ يقول: في صورة آدمي. قال ابن عباس: لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة.

وقوله تعالى: ﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ قال السدي: يقول: شبهنا عليهم

ما يشبهون على أنفسهم. وقال قتادة: ما لبس قوم على أنفسهم إلا لبس الله عليهم، واللبس إنما هو من الناس.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَىءَ بِرِسْلِكَ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخَّرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، قال السدي: ﴿فحاق بالذين سَخَّرُوا مِنْهُمْ﴾ من الرسل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يقول: وقع بهم العذاب الذي استهزءوا به.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين بك، المكذبين بما أنزل الله عليك: سيروا في الأرض، فانظروا ديار المكذبين، كعاد، وثمرود، وقوم لوط، وغيرهم. قال قتادة: دمر الله عليهم وأهلكهم، ثم صيرهم إلى النار.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَارْتَبِطُوا بِالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنَّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسَلَّ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٠﴾ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْنَاهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٢١﴾﴾.

قال ابن جرير^(١): يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم: ﴿لمن ما في السموات والأرض؟﴾ يقول: لمن ملك ما في السموات والأرض؟ ثم أخبرهم أن ذلك لله الذي استعبد كل شيء، وقهر كل شيء بملكه وسلطانه، لا للأوثان والأنداد، ولا لما يعبدونه ويتخذونه إلهاً من الأصنام التي لا تملك لأنفسها نفعاً، ولا تدفع عنها ضرراً.

(١) انظر «جامع البيان» (١٥٤/٧).

وقوله: ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ يقول: قضى أنه بعباده رحيم، لا يعجل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم الإنابة والتوبة. انتهى. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «إن الله لما خلق الخلق، كتب كتاباً عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي»^(١).

وقوله تعالى: ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾.

قال البغوي^(٢): اللام فيه لام القسم، والنون نون التأكيد، مجازة والله ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة﴾ أي في يوم القيامة ﴿لا ريب فيه﴾. ﴿الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ أي لا يوحدون الله ولا يصدقون بوعدته ووعدته.

وقال ابن جرير^(٣): (يقول تعالى ذكره: ليجمعن الله الذين خسروا أنفسهم، يقول: الذين أهلكوا أنفسهم وغبنوها، بادعائهم من الندِّ والعديل، فأبقوها بإيجابهم سخط الله وأليم عقابه في المعاد). انتهى.

وقيل: الذين مبتدأ، خبره: فهم لا يؤمنون.

وقوله تعالى: ﴿قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يُطعم ولا يُطعم﴾.

قال ابن جرير^(٤): (يقول تعالى ذكره لنييه محمد ﷺ: قل يا محمد، لهؤلاء المشركين، العادلين بربهم الأوثان والأصنام، والمنكرين عليك إخلاص التوحيد لربك، الداعين إلى عبادة الآلهة والأوثان: أشيثاً غير الله تعالى أتخذ ولياً، أستنصره

(١) أخرجه البخاري (ح/٧٥٥٤)، وبنحوه البخاري — أيضاً — (ح/٣١٩٤ و ٧٤٠٤)، ومسلم

(ح/٢٧٥١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٧٢/٢).

(٣) انظر «جامع البيان» (١٥٧/٧).

(٤) المصدر السابق (١٥٨/٧).

وأستعينه على النوائب والحوادث؟ انتهى. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾^(١)؟

وقوله: ﴿فاطر السموات والأرض﴾ أي مبتدعها. وعن السدي: ﴿وهو يُطعم ولا يُطعم﴾ قال: يرزق ولا يُرزق. وقوله تعالى: ﴿قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم﴾ أي من هذه الأمة: ﴿ولا تكونن من المشركين﴾. ﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ يعني عذاب يوم القيامة ﴿من يُصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَإِن يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ. وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ. وَمَنْ بَلَغَ أَيْبُكُمْ لَنْتَشَهُدُونَ أَلَمْ مَعَ اللَّهِ. إِلَهَةٌ أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

عن مجاهد في قول الله تعالى: ﴿أي شيء أكبر شهادة﴾؟ قال: أمر محمد أن يسأل قريشاً، ثم أمر أن يخبرهم فيقول: ﴿الله شهيد بيني وبينكم﴾ وعن قتادة قوله: ﴿أي أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾ ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «يا أيها الناس بلغوا ولو آية من كتاب الله، فإنه من بلغه آية من كتاب الله، فقد بلغه أمر الله أخذه أو تركه»^(٢). وقال محمد بن كعب القرظي: من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي ﷺ.

(١) سورة الزمر: الآية ٦٤.

(٢) أوله عند البخاري بلفظ: «بلغوا عني ولو آية» (ح/٤٣٦١).

وقوله تعالى: ﴿أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون﴾، هذه الآية كقوله في الآية الأخرى ﴿فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾، عن قتادة، قوله: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ يعرفون أن الإسلام دين الله، وأن محمداً رسول الله، يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.

قال ابن جرير^(٢): وقوله: ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ مِنْ نَعْتِ الَّذِينَ الْأُولَى، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون﴾ أي المفترون والمكذبون.

قال ابن كثير^(٣): ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته﴾ أي لا أظلم ممن تقول على الله، فادعى أن الله أرسله ولم يكن أرسله، ثم لا أظلم ممن كذب بآيات الله، وحججه، وبراهينه، ودلالاته، ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ أي لا يفلح هذا ولا هذا، لا المفترى ولا المكذب. والله أعلم.



(١) سورة الأنعام: الآية ١٥٠.

(٢) انظر «جامع البيان» (١٦٤/٧).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١٢٦/٢).

الدرس الخامس والثمانون

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آيِنَ شُرَكَائِكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ ٢٢ ثُمَّ لَترَكُنْ فِتْنَتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا بِئْسَ لَهَا حِجَابٌ إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْلَيْنَا نَرُدُّ وَلَا نُكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأْتُمْ مَا كَانُوا يَحْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ إِلَّا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَهْوٌ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كَذَبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنزَلْنَاهُمْ نَصْرًا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّئِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ

تَبْنِي نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيهِمْ بِثَابِتٍ وَكُوْشَاءَ اللَّهُ لَجَمْعَهُمْ عَلَى
 الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ
 يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ
 أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ
 بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَلِكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَيْكَ رَجَبُهُمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾
 وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُورٌ وَبِكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضِلُّهُ وَمَنْ يَشَاءُ يُجْعَلُهُ
 عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ
 أَغْوَى اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ
 شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ .

* * *

قوله عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آيِنُ شُرَكَائِكُمْ
الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنَّهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾
أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ
وَجَمَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا إِلَيْهِمْ لَا يُؤْمِنُوهَا
حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ
عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ۞ .

قال معمر: قال قتادة في قوله: ﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾ قال: مقاتلهم؛
وسمعت غير قتادة يقول: معذرتهم. وعن سعيد بن جبير قال: أتى رجل ابن عباس
فقال: قال الله: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾، وقال في آية أخرى ﴿ولا يكتُمون الله
حديثاً﴾، قال ابن عباس: أما قوله: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾، فإنه لما رأوا أنه
لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام، فقالوا: تعالوا لنجحد، قالوا ﴿والله ربنا ما كنا
مشركين﴾ فختم الله على أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم ﴿ولا يكتُمون الله
حديثاً﴾. وعن قتادة ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً﴾ قال:
يسمعون بأذاتهم ولا يعون منه شيئاً، كمثل البهيمة التي تسمع النداء ولا تعي ما
يقال لها.

وعن ابن عباس قوله: ﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه﴾ يعني ينهون الناس عن
محمد أن يؤمنوا به ﴿وينأون عنه﴾ يعني يتباعدون عنه. وقال قتادة: ينهون عن
النبي ﷺ ويتباعدون عنه.

قوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْلَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ

بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يَخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ .

قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ .

قال البغوي^(١): وجواب «لو» محذوف، معناه: لو تراهم في تلك الحالة لرأيت عجباً، ﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل﴾، أي: ليس الأمر على ما قالوا، ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾، قال قتادة: ولو وصل الله لهم دنيا كدنياهم، لعادوا إلى أعمالهم أعمال السوء. وقالوا: فيه الفتح ﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل﴾، أي: أظهروا ما كانوا يكتُمون من معرفة الحق في الدنيا انتهى. وشهد لهذا قوله تعالى: ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين يحجّدون﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿قالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾، أي: ما هي إلا هذه الحياة الدنيا لا معاد بعدها.

وقوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ قال ابن عباس: هذا في موقف، وقولهم ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ في موقف آخر، وفي يوم القيامة موقف، ففي موقف يفرّون، وفي موقف ينكرون.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٧٦/٢).

(٢) سورة الأنعام: الآية ٣٣، وسقطت: «بآيات» من (الأصل).

قوله عز وجل: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ۞ .

قال السدي: ليس من رجل ظالم يموت فيدخل قبره، إلا جاءه رجل قبيح الوجه أسود اللون متن الريح، عليه ثياب دنسة حتى يدخل معه قبره، فإذا رآه قال له: ما أقبح وجهك! قال: كذلك كان عملك قبيحاً. قال: ما أنتن ريحك! قال: كذلك كان عملك متناً. قال: ما أدنس ثيابك! قال فيقول: إن عملك كان دنساً. قال: من أنت؟ قال: أنا عملك. قال: فيكون معه في قبره، فإذا بعث يوم القيامة قال له: إني كنت أحملك في الدنيا باللذات والشهوات، فأنت اليوم تحملني، قال: فيركب على ظهره فيسوقه حتى يدخله النار. فذلك قوله: ﴿يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿ قَدْ نَعَلِمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَل لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّي الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ۞ .

(١) أخرجه ابن جرير (١٧٩/٧).

عن أبي صالح قال: «جاء جبريل إلى النبي ﷺ وهو جالس حزين فقال: ما يحزنك؟ فقال: كذّبي هؤلاء. فقال له جبريل: إنهم لا يكذبونك، إنهم ليعلمون أنك صادق، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون»^(١). وعن ناجية بن كعب أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب الذي جئت به، فأنزل الله تعالى: ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾^(٢).

وعن قتادة قوله: ﴿ولقد كذّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا﴾ يعزّي نبيه ﷺ كما تسمعون، ويخبره أن الرسل قد كذّبت قبله، فصبروا على ما كذبوا حتى حكم الله وهو خير الحاكمين.

وعن ابن عباس قوله: ﴿وإن كان كبير عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء﴾ والنفق: السرب، فتذهب فيه ﴿فتأتيهم بآية﴾ أو تجعل لك سلماً فتصعد عليه ﴿فتأتيهم بآية﴾ أفضل مما أتيناهم فافعل، ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾ يقول الله سبحانه: لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين. وعن مجاهد ﴿إنما﴾^(٣) يستجيب الذين يستمعون ﴿سكوتاً﴾ المؤمنون للذكر، ﴿والموتى﴾ الكفار حين ﴿يبعثهم الله﴾ مع الموتى. وقال قتادة: هذا مثل المؤمن، سمع كتاب الله فانتفع به وأخذ به وعقله، ومثل الكافر أصمّ أبكم لا يبصر هذا ولا ينتفع به.

وقوله تعالى: ﴿وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ يقول تعالى: ﴿وقالوا﴾ يعني كفار قريش ﴿لولا﴾ هلاً أنزل عليه ﴿آية من ربه﴾ كتفجير الأنهار له، وإنزال الملائكة معه، وإلقاء

(١) أخرجه ابن جرير (١٨١/٧)، بسند ضعيف.

(٢) أخرجه الترمذي (ح/٣٠٦٤)، وابن جرير (١٨٢/٧).

(٣) في (الأصل): «فما»، وهو خطأ.

الكنوز إليه؟ ﴿قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ لأنه لو أنزلها ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة، كما قال تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُغُرُوا عَلَيْكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَاءِ اللَّهُ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَغَيَّرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾ عن مجاهد في قوله: ﴿أمم أمثالكم﴾ أصناف مصنفة تعرف بأسمائها، وقال ابن جريج: الذرة فما فوقها من ألوان ما خلق الله من الدواب.

وقال ابن عباس في قوله: ﴿ما فرطنا في الكتاب شيء﴾ ما تركنا شيئاً إلا قد كتبناه في أم الكتاب ﴿ثم إلى ربهم يحشرون﴾ قال: يعني بالحشر الموت. وعن أبي هريرة في قوله: ﴿إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾ قال: يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة، البهائم والدواب والطيور وكل شيء، فبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذ الجماء والقرناء ثم يقول: كوني تراباً، فذلك يقول الكافر: «يا ليتني كنت تراباً»^(٢). وعن أبي ذر قال: «بيننا أنا عند

(١) سورة الإسراء: الآية ٥٩، وبعد الآية ورد في الأصل زيادة: «صح»، وليس لإثباتها معنى.

(٢) أخرجه ابن جرير (١٨٨/٧ - ١٨٩)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٣١٦/١)، عن أبي هريرة موقوفاً. وروى مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «لتؤدّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» (١٩٩٧/٤).

رسول الله ﷺ إذا انتطحت عتران، فقال رسول الله ﷺ: أتدرون فيما انتطحووا؟ قالوا: لا ندري. قال: لكن الله يدري، وسيقضي بينهما^(١). رواه ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم﴾، أي: لا يسمعون الخير ولا يتكلمون به، ﴿في الظلمات﴾ في ضلالات الكفر، ﴿من يشاء الله يضلله﴾ فيموت على الكفر، ﴿ومن يشاء يجعله على صراط مستقيم﴾، أي: الإسلام.

﴿قل أرأيتم﴾. قال البغوي^(٢): هل رأيتم؟ والكاف فيه للتأكيد، وقال الفراء رحمه الله: العرب تقول: أرأيتك، وهم يريدون أخبرنا، كما يقول: أرأيتك إن فعلت كذا، ماذا نفعل أي أخبرني؟ قال ابن عباس: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿أرأيتم إن أتاكم عذاب الله﴾ قبل الموت ﴿أو أتكم الساعة﴾ يعني يوم القيامة ﴿أغير الله تدعون﴾ في صرف العذاب عنكم ﴿إن كنتم صادقين﴾ وأراد أن الكفار يدعون الله في حال الاضطراب، كما أخبر الله عنهم: ﴿وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين﴾، ثم قال: ﴿بل إياه تدعون﴾، أي: تدعون الله ولا تدعون غيره ﴿فيكشف ما تدعون إليه إن شاء﴾ قيد الإجابة بالمشيئة، والأمور كلها بمشيئته، ﴿وتنسون﴾ وتركون ﴿ما تشركون﴾، والله أعلم.



(١) أخرجه ابن جرير (١٨٩/٧) بسند ضعيف.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٧٩/٢).

الدرس السادس والثمانون

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿٤٢﴾
 فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا
 كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ
 شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ
 الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ
 وَخَمَّ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مَنَ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظَرَ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِمَن نَّهْمُ
 يَصْدِقُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا
 الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ
 فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا
 يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي
 مَلَكٌ إِن أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾
 وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ
 لَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا
 عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ
 مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَن آتَىٰ اللَّهُ
 عَلَيْهِمْ مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ

يَعَايَنُنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُمْ مِنْ عَجَلٍ
مِنْكُمْ سُوءًا يَجْهَلُونَ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَلِكَ
نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ أَلْبَسُوا الْأَلْبَامَ ﴿٥٥﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾، يعني تركوا ما ذكروا به. وعن قتادة في قوله: ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾. قال: يعني الرخاء وسعة الرزق. ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة﴾. قال: أعجب ما كانت إليهم وأعزها لهم. ﴿فإذا هم مبلسون﴾، قال السدي: فإذا هم مهلكون، فتغير حالهم. وقال البغوي: ﴿فإذا هم مبلسون﴾، آيسون من كل خير. وقال أبو عبيدة: المبلس النادم الحزين. وروى عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: ﴿إذا رأيت الله يعطي العبد ما يحب وهو مقيم على معصيته، فإنما ذلك استدراج، ثم تلا ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ الآية^(١). رواه أحمد وغيره. وقال ابن زيد في قوله: ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا﴾، قال: استؤصلوا ﴿والحمد لله رب العالمين﴾.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِقُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُم مِّمَّا تُكْفِرُونَ مَاءً مَّهِلًا فَذُكِّرْتُمْ بَلْ يَأْتِيكُمْ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٤٧﴾﴾ .

(١) أخرجه أحمد (٤/١٤٥)، وابن جرير (٧/١٩٥)، والطبراني في الكبير (١٧/٣٣١)، والدولابي في الكنى (١/١١١)، وهو حديث صحيح.

الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يُمَسِّمُهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا
يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ .

قال مجاهد في قوله: ﴿ثم هم يصدفون﴾ يعرضون، وقال ابن عباس:
يعدلون.

وقال ابن جرير^(١): ﴿انظر كيف نصرَف الآيات﴾، يقول: انظر كيف نتابع
عليهم الحجج ونضرب لهم الأمثال والعبر، ليعتبروا، ويذكروا، فينبوا، ﴿ثم هم
يصدفون﴾، يقال: صدف فلان عني بوجهه، أي عدل وأعرض.

وقال ابن كثير^(٢): ﴿ثم هم يصدفون﴾، أي: ثم هم مع هذا البيان
﴿يصدفون﴾، أي يعرضون عن الحق، ويصدون الناس عن اتباعه.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ
وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن آتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ
أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَيَّ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ
دُونِي وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ
فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا
أَهْؤُلَاءَ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ
الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ

(١) انظر «جامع البيان» (١٩٦/٧).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١٣٣/٢).

أَنْتُمْ مَنْ عَمِلْتُمْ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلِكُمْ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنْتُمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لَتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ .

عن قتادة في قوله: ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير﴾. قال الأعمى: الكافر الذي قد عمي عن حق الله، وأمره، ونعمه عليه، والبصير: العبد المؤمن الذي أبصر بصرًا نافعًا فوحد الله وحده، وعمل بطاعة ربه، وانتفع بما آتاه الله.

وقوله تعالى: ﴿وأُنذِرْ بِهِ﴾، أي القرآن: ﴿الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم﴾، أي: يخافون هول يوم الحشر، كما قال تعالى: ﴿ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾^(١). ﴿ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع﴾ يشفع لهم بغير إذنه ﴿لعلهم يتقون﴾ فيتركون معاصيه، ويفعلون ما أمرهم. وعن ابن مسعود قال: مرّ الملاء من قريش بالنبي ﷺ وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب، ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد رضيت بهؤلاء من قومك، أهؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا، أنحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم أن نتبعك، فنزلت هذه الآية ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه وكذلك فتننا بعضهم ببعض﴾^(٢) إلى آخر الآية.

وعن مجاهد في قول الله: ﴿الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾. قال: الصلاة المكتوبة، وقال إبراهيم: هم أهل الذكر، وقال أبو جعفر: كان يقرئهم القرآن، وعن ماهان أن قوماً جاءوا إلى النبي ﷺ [فقالوا: يا محمد أصبنا ذنوباً عظيماً، فما أخاله ردّ عليهم شيئاً، فانصرفوا]^(٣) فأنزل الله هذه الآية ﴿وإذا جاءك الذين

(١) سورة الرعد: الآية ٢١.

(٢) أخرجه أحمد (٤٢٠/١)، وابن جرير (٢٠٠/٧)، والطبراني في الكبير (٢٦٨/١٠) بسند ضعيف، لكن صح من وجه آخر عن سعد رضي الله عنه بنحوه، أخرجه مسلم (ح/٢٤١٣): نزلت في ستة أنا وابن مسعود منهم، وكان المشركون قالوا له: «تُدني هؤلاء».

(٣) ما بين المعقوفتين إضافة من تفسير ابن جرير.

يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ﴿١﴾ الآية. وقال مجاهد: من عمل بمعصية الله فذاك منه جهل حتى يرجع.

وقوله تعالى: ﴿وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين﴾. قال ابن زيد: الذين يأمرونك بطرد هؤلاء.

وقال البغوي^(٢): (﴿وكذلك نفصل الآيات﴾، أي وهكذا، وقيل معناه: وكما فصلنا لك في هذه السورة دلائلنا وأعلامنا على المشركين ﴿كذلك نفصل الآيات﴾، أي: نميز ونبين لك حجتنا في كل حق ينكره أهل الباطل، ﴿ولتستبين سبيل المجرمين﴾، أي طريق المجرمين) انتهى، والله أعلم.



(١) أخرجه ابن جرير (٢٠٧/٧)، بسند ضعيف.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٨٣/٢).

الدرس السابع والثمانون

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِيهِمْ أَهْوَاءُكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ إِلَّا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنَ ظِلْمَتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَدْوِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظِرْ كَيْفَ نُصْرَفُ الْأَلْبَتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبَلٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا

فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ^{٦٨} وَمَا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ^{٦٩} وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَا كُنْ ذِكْرِى
لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ^{٧٠} وَذَرِ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لِبَعَابٍ وَهُمْ لَا يَخْتَصِمُونَ
الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِمْ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا
شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَلَ كُلُّ قَدْلٍ لَّا يُؤَخِّدُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا
لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ^{٧١} قُلْ أَدْعُوا مِنْ
دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا اللَّهُ كَالَّذِي
اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أِقْتِنَا قُلْ
إِنِّي هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرًا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ^{٧٢} وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ
وَأَتَّقُوا وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ^{٧٣} وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ
وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ
فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ^{٧٤} .

* * *

قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَآ

أُنْبِئُكُمْ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يُقْضَىٰ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾

عن السدي: ﴿وعنده مفاتيح الغيب﴾ قال يقول: خزائن الغيب. وقال ابن عباس: هن خمس: ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث﴾ إلى ﴿إن الله عليم خبير﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ قال البغوي: يعني الكل مكتوب في اللوح المحفوظ.

قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ

(١) ورد مرفوعاً من حديث ابن عمر: «مفاتيح الغيب خمس، إن الله عنده علم الساعة...» الآية، أخرجه البخاري (ح/٤٦٢٧).

الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ ۗ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾ .

عن السدي: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ أما ﴿يتوفاكم بالليل﴾ ففي النوم، وأما ﴿يعلم ما جرحتم بالنهار﴾ فيقول: ما اكتسبتم من الإثم. وعن قتادة ﴿ثم يبعثكم فيه﴾ في النهار، والبعث: اليقظة عن السدي ﴿ليقضى أجل مسمى﴾ قال: هو أجل الحياة في الموت.

وعن قتادة قوله: ﴿وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾ يقول: حفظة يا ابن آدم، يحفظون عليك عملك ورزقك وأجلك، إذا توفيت ذلك قبضت إلى ربك.

وعن إبراهيم في قوله: ﴿توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾ قال: أعوان ملك الموت.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَدِيئِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْكِرُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ۗ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ ﴿٦٥﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية﴾. يقول: إذا أضل الرجل الطريق دعا الله: لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين. وعن السدي: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ فعذاب السماء، ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ فيخسف بكم الأرض. وعن مجاهد ﴿أو يلبسكم شيعاً﴾ الأهواء المفترقة. وعن ابن عباس: ﴿ويذيق بعضهم بأس

بعض ﴿ قال: يسلط بعضكم على بعض بالقتل والعذاب. وعن جابر: ﴿لما أنزل الله تعالى على النبي ﷺ: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم﴾. قال: أعوذ بوجهك، ﴿أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض﴾. قال: هاتان أيسر أو أهون^(١).

قوله عز وجل: ﴿وَكَذَّبَ بِهٖ قَوْمُكَ وَهٗوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبِإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَٰكِنْ ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

عن السدي: ﴿وكذب به قومك وهو الحق﴾ يقول: كذب قریش بالقرآن ﴿وهو الحق﴾، وأما الوكيل فالحفيظ، وأما ﴿لكل نبأ مستقر﴾ فكان نبأ القرآن استقر يوم بدر بما كان يعدهم من العذاب. وعن مجاهد ﴿لكل نبأ مستقر﴾ لكل نبأ حقيقة، إما في الدنيا وإما في الآخرة ﴿وسوف تعلمون﴾ ما كان في الدنيا فسوف ترونه، وما كان في الآخرة فسوف يبدو لكم.

وعن قتادة في قوله: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾. قال: نهاه الله أن يجلس مع الذين يخوضون في آيات الله يكذبون بها، فإن نسي فلا يقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين. وقال السدي: فإذا ذكرت فقم. وقال ابن جريج: كان المشركون يجلسون إلى النبي ﷺ: يحبون أن يسمعوا منه، فإذا سمعوا استهزءوا، فنزلت.

وقوله تعالى: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكري لعلهم يتقون﴾.

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٦٢٨).

قال البغوي^(١): روي عن ابن عباس أنه قال: لما نزلت هذه الآية. ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ قال المسلمون: كيف نقعد في المسجد الحرام، ونطوف بالبيت وهم يخوضون أبدأ؟.

وفي رواية: «قال المسلمون: فإننا نخاف الإثم حين نتركهم ولا ننهاهم، فأنزل الله عز وجل ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الخوض ﴿مِنْ حِسَابِهِمْ﴾، أي: من إثم الخائضين ﴿مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكَرُوا﴾، أي: ذكروهم وعظوهم بالقرآن ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الخوض إذا وعظتهم، فرخص في مجالستهم على الوعظ.

قوله عز وجل: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَاطِلٍ وَلَهُمْ وَأَعْرَتَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَذَكَرِيهِمْ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَلَ كُلُّ قَدْلٍ لَدَى اللَّهِ لَأُقَدِّحَهُنَّ لَوْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

عن مجاهد في قول الله: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَاطِلٍ وَلَهُمْ﴾ قال: كقوله: ﴿ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَذَكَرْ بِهِ﴾، أي: القرآن. ﴿أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾. قال ابن عباس: تهلك ﴿ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها﴾. قال قتادة: لو جاءت بملء الأرض ذهباً لم يقبل منها.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا اللَّهُ كَالَّذِي آسَتْهُوهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى أَتَيْنَا قُلُوبَهُ هُدًى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرًا لِلْسَّلَامِ﴾

(١) انظر «معالم التنزيل» (٨٧/٢).

(٢) سورة المدثر: الآية ١١.

لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ
كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمَلَكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَلَيْكُمْ الْغَيْبُ
وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ .

عن السدي: ﴿قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا﴾ قال المشركون للمؤمنين: أتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد، فقال الله تعالى ذلك: ﴿قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا﴾ هذه الآلهة ﴿ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله﴾ فيكون مثلنا كمثل ﴿الذي استهوته الشياطين في الأرض﴾، يقول: مثلكم إن كفرتم بعد الإيمان، كمثل رجل كان مع قوم على الطريق، فضل الطريق فحيرته الشياطين، واستهوته في الأرض، وأصحابه على الطريق، فجعلوا يدعونه إليهم يقولون: ائتنا فإننا على الطريق، فأبى أن يأتيهم، فذلك مثل من يتبعكم بعد المعرفة بمحمد ﷺ، ومحمد الذي يدعو إلى الطريق، والطريق هو الإسلام. وقال ابن عباس: كالذي استغوته الغيلان في المهامة، فأضلوه فهو حائر بائر.

وقوله تعالى: ﴿قوله الحق﴾، أي: الصدق ﴿وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير﴾ والصور: قرن ينفخ فيه إسرافيل. قال تعالى: ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات. ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾^(١) والله أعلم.



(١) سورة الزمر: الآية ٦٨.

الدرس الثامن والثمانون

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازِرْ أَتَتَّخِذُ آبِنَا مَا ءَالِهَةً إِيَّكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ وَكَذَلِكَ نَرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالِ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأَأْتِيَنَّ ٱلْأَفْلٰكِ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ ٱلْقَمَرَ بَازِعًا قَالِ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ ٱلسَّمْسَ بَازِعَةً قَالِ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالِ يَقُومِ إِيَّيَّ بِرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِيَّيَّ وَجْهَتْ وَجْهِي لِلذِّى فَطَرَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ خَيفًا وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّجُو قَوْمَهُ قَالِ ٱتَّخَجُّوْنِي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدٰنِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ؕ إِلَّا أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطٰنًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمٰنَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرٰهِيْمَ عَلٰى قَوْمِهِ تَرْفَعُ دَرَجٰتٍ مِّنْ نَّشَآءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهٰرُونَ وَكَذٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَذَكَرْنَا وَيْحَ عِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلِّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا ﴿٨٦﴾

وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَأَجْنِبَاتِهِمْ
 وَهَدَيْتَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
 وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ
 وَالنَّبُوءَةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَتُّوْلَاهُ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوْا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ
 هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ أَقْتَدَهُ قُلْ لَا آسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
 لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَأَزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَىٰ أَرْبَابَكَ وَوَعْمَلَكِ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأَبْلُغَنَّ لَوْ لَا أَجِبُ الْآفَلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِ فِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُنْقِضُ إِلَيَّ رَبِّي مِمَّا فُتِّرُكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ .

قال ابن إسحاق: أزر أبو إبراهيم، وكان - فيما ذكر لنا والله أعلم - رجلاً من أهل كوثي من قرية بالسواد، سواد الكوفة. وعن ابن عباس قوله: ﴿نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض﴾، أي: خلق السموات والأرض.

قال البغوي^(١): ﴿وكذلك نري إبراهيم﴾، أي: كما أريناه البصيرة في دينه، والحق في خلاف قومه، كذلك نريه ملكوت السموات والأرض. قال مجاهد: تفرجت لإبراهيم السموات السبع حتى العرش فنظر فيهن، وتفرجت الأرض السبع فنظر فيهن.

وعن قتادة: ﴿فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين﴾، علم أنه ربه دائم لا يزول، فقرأ حتى بلغ ﴿هذا ربي هذا أكبر﴾، رأى خلقاً هو أكبر من الخلقين الأولين وأنور.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٨٩/٢).

وقال ابن إسحاق: قال ذلك إبراهيم حين خرج من السرب الذي ولدته أمه فيه حين تخوفت عليه من نمرود بن كنعان.

قال ابن كثير^(١): والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مبيّناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام.

وقال الشيخ ابن سعدي: (والمناظرة تخالف غيرها في أمور كثيرة، منها أن المناظر يقول الشيء الذي لا يعتقد له ليني عليه حجته، وليقيم الحجة على خصمه، كما قال في تكسيره الأصنام لما قالوا له: أنت فعلت هذا بالهتنا يا إبراهيم؟ فأشار إلى الصنم الذي لم يكسره فقال: بل فعله كبيرهم هذا، ومعلوم أن غرضه إلزامهم بالحجة وقد حصلت، فهذا يسهل علينا فهم معنى قوله: ﴿هذا ربي﴾، أي: إن كان يستحق الإلهية بعد النظر في حالته ووصفه فهو ربي، مع أنه يعلم العلم اليقيني أنه لا يستحق من الربوبية والإلهية مثقال ذرة، ولكن أراد أن يلزمهم بالحجة) انتهى.

قوله عز وجل: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَدِّثُونَ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَبْنَا وَلَا آخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ آخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّنَا حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/١٥١).

عن ابن جريج: ﴿وحاجه قومه قال أتحتاجوني في الله وقد هدان﴾. قال: دعا قومه مع الله إلهاً، وخوفوه بالهتهم أن يصيبه منها خيل، فقال إبراهيم: ﴿أتحتاجوني في الله وقد هدان﴾؟ قال: قد عرفت ربي لا أخاف ما تشركون به ﴿وسع ربي كل شيء شيء علماء أفلا تتذكرون وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون﴾ أمن يعبد رباً واحداً أم من يعبد أرباباً كثيرة؟

قال ابن إسحاق: يقول الله تعالى ذكره: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم﴾، أي: الذين أخلصوا كإخلاص إبراهيم ﷺ لعبادة الله وتوحيده ﴿ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾، أي: شرك ﴿أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ الأمن من العذاب، والهدى في الحجة بالمعرفة والاستقامة. يقول الله تعالى: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَأَجْنِبَتِهِمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ اللَّهُ بِهِنَّ مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَتَبَ الْكُتُبَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَهُ قُلْ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

قال البغوي^(١): ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاً هدينا﴾ وفقنا وأرشدنا ﴿ونوحاً هدينا من قبل﴾، أي: من قبل إبراهيم ﴿ومن ذريته﴾، أي: من ذرية نوح عليه السلام، لأنه ذكر في جملتهم يونس ولوطاً ولم يكونا من ذرية إبراهيم.

قال ابن كثير: إذا أوصى الرجل لذريته أو وقف على ذريته أو وهبهم، دخل أولاد البنات فيهم.

وعن مجاهد في قول الله تعالى: ﴿واجتبيناهم﴾ قال: أخلصناهم.

وقوله تعالى: ﴿أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم﴾، يعني الفهم والنبوة. ﴿فإن يكفر بها هؤلاء﴾، يعني أهل مكة، ﴿فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾، قال في «جامع البيان»: يعني المهاجرين والأنصار ومن تبعهم إلى يوم القيامة. وقال قتادة: يعني النبيين، واختاره ابن جرير، ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾^(٢). وعن مجاهد أنه سأل ابن عباس: «أفي (ص) سجدة؟ فقال: نعم، ثم تلا ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ إلى قوله: ﴿فبهداهم اقتده﴾، ثم قال: هو منهم»^(٣). رواه البخاري.

وقوله تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً﴾، أي: لا أطلب منكم على إبلاغي إياكم هذا القرآن أجره ﴿إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾ كقوله: ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجرين إلا على رب العالمين﴾^(٤)، والله أعلم.



(١) انظر «معالم التنزيل» (٩٣/٢).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١٥٥/٢).

(٣) أخرجه البخاري (ح/٤٦٣٢).

(٤) سورة الشعراء: الآية ١٠٩.

الدرس التاسع والثمانون

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ لِيَجْعَلُوهُ قَرَأٰطيسَ تُبَدُّونَهَا وَنُحْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُهُ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ ءَايَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ لِيَجْعَلُوهُ قُرْآنًا يَّسَّرُ تَجْوِيزًا وَيُحْفِنُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنَّكُمْ وِلَاآءَ آبَاءِكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ .

قال ابن كثير^(١): ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ وما عظموا الله حق تعظيمه ﴿إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء﴾. قال ابن عباس: نزلت في قريش ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً﴾، قال مجاهد: هم اليهود.

وقال البغوي^(٢): قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء.

وقال سعيد بن جبیر: «جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف يخاصم النبي ﷺ بمكة، فقال له النبي ﷺ: أنشدك الله الذي أنزل التوراة على موسى أما تجد في التوراة أن الله ييغض الحبر السمين؟ وكان حبراً سميناً، فغضب وقال: والله ما أنزل على بشر من شيء»^(٣). وقال السدي: نزلت في فنحاص بن عازوراء وهو

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١٥٦/٢).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٩٤/٢).

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٦٧/٧) بسند ضعيف، وأخرجه أيضاً من طريق عكرمة، وسنده - أيضاً - ضعيف.

قائل هذه المقالة. وفي القصة: أن مالك بن الصيف لما سمعت منه اليهود تلك المقالة عتبوا عليه وقالوا: أليس أن الله أنزل التوراة على موسى؟ فلم قلت: ﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾؟ فقال مالك بن الصيف: أغضبني محمد فقلت ذلك، فقالوا له: وأنت إذا غضبت تقول على الله غير الحق؟! فنزعوه من الحبرية وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف^(١).

وقوله تعالى: ﴿وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾، قال مجاهد: وعلمتم معشر العرب ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم.

وقوله تعالى: ﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾، أي: قل: الله أنزله، ثم دعهم في غيهم، وجهلهم يلعبون، فسوف يعلمون عاقبة ذلك. وعن ابن عباس ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس قل الله﴾ أنزله.

قال ابن كثير^(٢): وهذا الذي قاله ابن عباس هو المتعين في تفسير هذه الكلمة، لا ما قاله بعض المتأخرين من أن المعنى: ﴿قل الله﴾، أي: لا يكون خطابك لهم إلا هذه الكلمة، كلمة الله؛ وهذا الذي قال هذا القائل يكون أمراً بكلمة مفردة من غير تركيب، والآيتان بكلمة مفردة لا يفيد في لغة العرب فائدة يحسن السكوت عليها.

وقوله تعالى: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾، قال ابن عباس: أم القرى مكة، ومن حولها الأرض كلها. ﴿والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به﴾، أي: بالقرآن ﴿وهم على صلاتهم يحافظون﴾، أي: يداومون عليها، ويقىمونها في أوقاتها.

(١) وهناك قولان آخران: فقيل: إن المراد بذلك جماعة من اليهود، وقيل: إن المراد بذلك كفار قريش.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١٥٧/٢).

وقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ .

قال ابن كثير^(١): يقول تعالى: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً، أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله، فجعل له شركاء أو ولدًا، أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يرسله، ولهذا قال تعالى: ﴿أو قال أوحى إليّ ولم يوح إليه شيء﴾. قال عكرمة وقتادة: نزلت في مسيلمة الكذاب.

﴿ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾، أي: ومن ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي، بما يفتره من القول، كقوله تعالى: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾^(٢) الآية.

وقوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت﴾، أي: سكراته ﴿والملائكة باسطوا أيديهم﴾ قال ابن عباس: والبسط الضرب. وقال السدي: ﴿والملائكة باسطوا أيديهم﴾ بالعذاب.

وقال ابن جرير^(٣): يقولون لهم: ﴿أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب

(١) المصدر السابق (٢/١٥٨).

(٢) سورة الأنفال: الآية ٣١.

(٣) انظر «جامع البيان» (٧/٢٧٥).

الهون ﴿ وهو عذاب جهنم ﴾ بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴿ .

وقوله تعالى: ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ﴾ قال السدي: ﴿ وتركتم ما خولناكم ﴾ من المال والخدم ﴿ وراء ظهوركم ﴾ في الدنيا. وقال الحسن البصري: «يؤتى بابن آدم يوم القيامة كأنه بَدَجٌ فيقول الله عز وجل: يا ابن آدم، فيقول: يا رب جمعت وتركته أوفر ما كان، فيقول له: يا ابن آدم أين ما قَدَمْتَ لنفسك؟ فلا يراه قَدَمَ شيئاً، وتلا هذه الآية ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ﴾ (١) الآية.

قال في «القاموس» (٢): «الْبَدَجُ محرّكة: ولد الضأن».

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفנית، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟ وما سوى ذلك فذاهب وتاركة للناس» (٣).

وقوله تعالى: ﴿ وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ﴾ . قال السدي: فإن المشركين كانوا يزعمون أنهم كانوا يعبدون الآلهة لأنهم شفعاء لهم، يشفعون لهم عند الله، وأن هذه الآلهة شركاء لله.

وقوله تعالى: ﴿ لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ عن مجاهد ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ قال: تواصلهم في الدنيا ﴿ وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ قال

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/٩٤/ب)، وعزاه السيوطي لـ «عبد حميد» انظر: «الدر المنثور» (٣/٦٠).

(٢) انظر (١/٣٨٠) مادة: «بذج».

(٣) أخرجه مسلم (ح/٢٩٥٨)، من حديث عبد الله بن الشَّخِيرِ رضي الله عنه.

ابن عباس: يعني الأرحام والمنازل. وعن السدي: ﴿لقد تقطع بينكم﴾ يقول: تقطع ما بينكم.

وقال ابن كثير^(١): وقوله: ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾ تقريع لهم، وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في الدنيا من الأنداد، والأصنام، والأوثان، ظانين أنها تنفعهم في معاشهم ومعادهم، إن كان ثمّ معاد، فإذا كان يوم القيامة تقطعت بهم الأسباب، وانزاح الضلال، وضلّ عنهم ما كانوا يفترون، ويناديهم الربّ جلّ جلاله على رؤوس الخلائق ﴿أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾؟ ﴿وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو يتنصرون﴾؟ ولهذا قال ههنا ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾، أي: في العبادة لهم فيكم قسط في استحقاق العبادة لهم، ثم قال تعالى: ﴿لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾. والله أعلم.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/١٥٨).

الدرس التسعون

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ^ط يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَى ^ع ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَإِنِّي تَوَفَّكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَوْعِدٌ ^ط وَمُسْتَوْدَعٌ ^ط قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَاءَكُم بِصَافِرٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِيُنَبِّئَنَّهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَن

الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ
 بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ
 كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾
 وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ
 وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْسَدَتَهُمْ وَابْصَرَتَهُمْ كَمَا لَمْ
 يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴿١١٠﴾ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ
 الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ
 يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴿١١١﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ط يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ .

قال السدي: أما ﴿فالق الحب والنوى﴾ ففالق الحب عن السنبلة، وفالق النواة من النخلة. وقال مجاهد: الشقان اللذان فيهما. وقال: ﴿فالق الإصباح﴾ إضاءة الفجر. وعن ابن عباس في قوله: ﴿والشمس والقمر حسباناً﴾، يعني عدد الأيام، والشهور، والسنين ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾.

﴿وهو الذين جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾.

قال في «جامع البيان»: الفقه تدقيق النظر، فهو أليق بالاستدلال بالأنفس لدقته، بخلاف الاستدلال بالآفاق ففيه ظهور، ولهذا قال في الأول: ﴿لقوم يعلمون﴾.

وعن سعيد بن جبير في قوله: ﴿فمستقر ومستودع﴾. قال: مستودعون ما كانوا في أصلاب الرجال، فإذا قروا في أرحام النساء، أو على ظهر الأرض وفي بطنها، فقد استقروا.

قوله عز وجل: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٦﴾ .

عن السدي قوله: ﴿منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً﴾ فهذا السنبل. وعن قتادة قوله: ﴿من طلعتها قنوان دانية﴾ قال: عذوق متهدلة.

﴿وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه﴾، أي: مشتبهاً ودقهما، مختلفاً ثمرهما.

وقيل: مشتبه في النظر، مختلف في الطعم.

﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه﴾. قال ابن عباس: نضجه، ﴿إن في ذلكم آيات قوم يؤمنون﴾.

قوله عز وجل: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحٰنَكَ وَقَعٰلَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١١٠﴾ بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ۗ اَنۡتَۤ اَيُّۤ كٰوۡنُ لَہٗۤ وَاَلَدٌۭ وَاَلَمْ تَكُنۡ لَہٗۤ صٰحِبۡةً وَاَخۡلَقۡ كُلَّ شَیۡءٍ وَّہُوَ بِكُلِّ شَیۡءٍ عَلِیۡمٌ ﴿١١١﴾ ذٰلِکُمۡ اِلٰہُ رَبِّکُمۡ لَا اِلٰہَ اِلَّا ہُوَ خَلِقُ کُلَّ شَیۡءٍ فَاَعۡبُدُوۡہُ وَہُوَ عَلٰی کُلِّ شَیۡءٍ وَّکِیۡلٌ ﴿١١٢﴾ لَا تُدۡرِکُہُ الۡاَبۡصٰرُ وَہُوَ یَدۡرِکُ الۡاَبۡصٰرَ وَہُوَ اللّٰطِیۡفُ الْخَبِیۡرُ ﴿١١٣﴾ .

قال ابن عباس: ﴿وجعلوا لله شركاء الجن والله خلقهم وخرقوا له بنين وبنات﴾، يعني أنهم تخرصوا. وقال السدي يقول: قطعوا له بنين وبنات؛ قالت العرب: الملائكة بنات الله، وقالت اليهود والنصارى: المسيح وعزير أبناء الله. وقال مجاهد: ﴿خرقوا﴾ كذبوا.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿بديع السموات والأرض﴾. قال: هو الذي ابتدع خلقهما، جلّ جلاله، فخلقهما ولم يكونا شيئاً قبله. ﴿أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾، والولد إنما يكون من الذكر والأنثى، ولا ينبغي أن يكون لله سبحانه صاحبة فيكون له ولد، وذلك أنه هو الذي خلق كل شيء، يقول: فإذا كان لا شيء إلا الله خلقه، فأنى يكون لله ولد ولم تكن له صاحبة فيكون له منها ولد؟؟

﴿ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل﴾ يدبرهم ويرزقهم.

﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾. قال ابن عباس يقول: لا يحيط بصر أحد بالملك. وقال قتادة: هو أعظم من أن تدركه الأبصار. وعن عطية العوفي في قوله: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾. قال: هم ينظرون إلى الله، لا تحيط أبصارهم به من عظمته، وبصره يحيط بهم؛ فذلك قوله: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾. قال أبو العالية: لطيف باستخراجها، خبير بمكانها.

قوله عز وجل: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِيُقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

قال ابن زيد: البصائر الهدى، بصائر في قلوبهم لدينهم ﴿وكذلك نصرف الآيات﴾، لهؤلاء العادلين بربهم، كما صرفتها في هذه السورة، ولثلا يقولوا: ﴿درست﴾ أي قرأت الكتب، ﴿ولنبينه﴾، أي: القرآن ﴿لقوم يعلمون﴾، وقيل: اللام لام العاقبة، أي عاقبة أمرهم أن يقولوا درست. وعن قتادة قال: كان المسلمون يستون أصنام الكفار فيسب الكفار الله، فأنزل الله ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم﴾^(١)، أي: اعتداءً وجهلاً؛ ﴿كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنَقَلِبْ أَفئِدَتَهُمْ وَأَبْصُرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾.

قال مجاهد: سألت قريش محمداً ﷺ أن يأتيهم بآية، واستحلفهم ﴿ليؤمنن بها﴾، ﴿وما يشعركم﴾ وما يدريكم ﴿أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾؟ ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾. قال: نحول بينهم وبين الإيمان، ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنوا، كما حُلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة. وقال ابن عباس: لما جحد المشركون ما أنزل الله، لم تثبت قلوبهم على شيء، ﴿ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾. قال عطاء: نخذلهم وندعهم في ضلالتهم يتمادون.

وقوله تعالى: ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾.

(١) وروي عن ابن عباس - رضي الله عنه - بنحوه أخرجه: ابن جرير (٣٠٩/٧) بسند ضعيف.

قال ابن جرير^(١): يقول تعالى ذكره لنييه محمد ﷺ: يا محمد إيش^(٢) من فلاح هؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام، القائلين لك: لئن جئتنا بأية لنؤمنن لك، فإننا لو نزلنا إليهم الملائكة حتى يروها عياناً، وكلمهم الموتى بإحيائنا إياهم حجة لك، ودلالة على نبوتك، وأخبروهم أنك محق فيما تقول، وأن ما جئتهم به حق من عند الله، وحشرنا عليهم كل شيء، فجعلناهم لك قُبلاً، ما آمنوا ولا صدقوك ولا اتبعوك، إلا أن يشاء الله ذلك لمن شاء منهم، ولكن أكثرهم يجهلون.

وعن ابن عباس: ﴿وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً﴾. قال: معاينة، يقول: لو استقبلهم ذلك كله لم يؤمنوا إلا أن يشاء الله. والله أعلم.



(١) انظر «جامع البيان» (١/٨).

(٢) في (الأصل): «آيس».

الدرس الحادي والتسعون

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٦﴾
 وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْعَدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ
 مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٧﴾ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ أَتَّبَعِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ
 مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
 الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٨﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ
 الْعَلِيمُ ﴿١١٩﴾ وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ
 إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ
 أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢١﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِعَايَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾
 وَمَا لَكُمْ إِلَّا أَنْ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا
 اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِيُضِلُّوا بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ
 بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١٢٣﴾ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِنْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِنْمَ سَيَجْزَوْنَ
 بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ
 الشَّيْطَانَ لِيُوحِيَ إِلَيْهِ أَوْلِيَاءِهِمْ لِيُجَدِّدُوا لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢٥﴾
 أَوْ مَنْ كَانَ مِيثًا فَأَحْبَبْتَهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي
 الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٦﴾
 وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْتَكِرُوا فِيهَا وَمَا

يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٤﴾ وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٥﴾

﴿١٢٦﴾ لَّهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرِ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَلَلَيْنَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَمْعَشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُذَكِّرُونَكَ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَعَرَّثَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَلِكَ أَنْ لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمْ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنْ مَا تَوْعَدُونَ لَأْتِي وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَنْقُومُ الْعَمَلُ عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنْ عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَنقَبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٦﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٧﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٨﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٩﴾﴾.

عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر هل تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن؟ قال قلت: يا رسول الله هل للإنس من شياطين؟ قال: نعم»^(١). رواه ابن جرير. قال قتادة: من الجن شياطين ومن الإنس شياطين، يوحى بعضهم إلى بعض.

وعن عكرمة قوله: ﴿زخرف القول غروراً﴾ قال: تزيين الباطل بالألسنة.

وقال ابن عباس في قوله: ﴿ولتصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ قال: لتميل. وقال ابن زيد: وليهووا ذلك ﴿وليرضوه﴾.

(١) أخرجه أحمد (١٧٨/٥)، وابن جرير (٤/٨ و ٥)، بسند ضعيف. وروي من حديث أبي أمامة أن أبا ذر جاء فجلس إلى النبي ﷺ، فأقبل عليه فقال: «يا أبا ذر هل تعوذت من شر شياطين...». أخرجه أحمد (٢٦٥/٥ - ٢٦٦)، والطبراني في الكبرى (٢٥٩/٨)، بسند ضعيف.

وعن ابن عباس: ﴿وليقترفوا ما هم مقترفون﴾ وليكتسبوا ما هم مكتسبون.
وقال قتادة في قوله: ﴿وتمت كلمت ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته﴾
يقول: صدقاً وعدلاً فيما حكم.

قوله عز وجل: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل
الله إن يكفون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴿١١٦﴾ إن ربك هو أعلم من يضل عن
سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴿١١٧﴾ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته
مؤمنين ﴿١١٨﴾ وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم
عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيراً ليضلون بآهوائهم يفتري علم إن ربك هو
أعلم بالمعتدين ﴿١١٩﴾ وذروا ظهراً الأثر وباطنهم الذين يكسبون الأثم
سيجزون بما كانوا يقترفون ﴿١٢٠﴾ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه
لفسق وإن الشيطان ليوحيون إلى أوليائهم ليجدلوكم وإن أطمعتمهم إنكم
لمشركون ﴿١٢١﴾ .

قال عكرمة: لما نزل تحريم الميتة، أوحى فارس إلى أوليائها من قريش، أن
خاصموا محمداً، وكانت أولياءهم في الجاهلية، وقولوا له: إن ما ذبحت فهو
حلال وما ذبح الله، - قال ابن عباس - بـشـمـشـارٍ من ذهب فهو حرام، فأنزل الله
هذه الآية: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾، قال الشياطين فارس،
وأولياؤهم قريش.

وفي رواية: فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء، فنزلت ﴿وإنه
لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾^(١) الآية.

(١) أخرجه ابن جرير (١٦/٧) بسند ضعيف.

وعن ابن عباس قوله: ﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين﴾ قال قالوا: يا محمد أما ما قتلتم وذبحتم فتأكلونه، وأما ما قتل ربكم فتحرمونه؟ فأنزل الله ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾ وإن أطعتموهم في أكل ما نهيتكم عنه إنكم إذا لمشركون^(١). وقال ابن عباس: «المسلم يكفيه اسمه، إن نسي أن يسمي حين يذبح، فليذكر اسم الله وليأكله»^(٢).

قوله عز وجل: ﴿أَوْ مِنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

عن ابن عباس ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾ يعني من كافر كان فهديناه ﴿وجعلنا له نوار يمشي به في الناس﴾ يعني بالنور: القرآن، من صدق به وعمل به ﴿كمن مثله في الظلمات﴾ يعني بالظلمات: الكفر والضلالة.

قوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

عن مجاهد ﴿أكابر مجرميها﴾ قال: عظاماؤها. وقال ابن جريج: يمكرون بدين الله ونبيه عليه السلام وعباده المؤمنين. وقال السدي: الصغار: الذلة.

(١) أخرجه ابن جرير (١٧/٧) بسند ضعيف.

(٢) روي مرفوعاً، لكن الصواب وقفه على ابن عباس رضي الله عنه.

قوله عز وجل: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَمْ دَارِ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ .

عن أبي جعفر قال: «سئل النبي ﷺ عن هذه الآية: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ قالوا: كيف يشرح صدره يا رسول الله؟ قال: نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح. قالوا: فهل لذلك من أمانة يعرف بها؟ قال: الإجابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت»^(١). رواه ابن جرير. وعن عمر بن الخطاب أنه قرأ هذه الآية ﴿ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً﴾ بنصب الرء، وقرأ بعض من عنده من أصحاب رسول الله ﷺ: ضيقاً حرجاً، فقال عمر: ابغوني رجلاً من كنانة، واجعلوه راعياً، وليكن مدلجياً، فاتوه به فقال له عمر: يا فتى ما الحرجة؟ قال: الحرجة فينا: الشجرة تكون بين الأشجار، التي لا تصل إليها راعية، ولا وحشية، ولا شيء. فقال عمر: كذلك قلب المنافق، لا يصل إليه شيء من الخير. وعن عطاء. ﴿كأنما يصعد في السماء﴾ يقول: مثله كمثل الذي لا يستطيع أن يصعد في السماء. وقال ابن جريج ﴿كأنما يصعد في السماء﴾ من شدة ذلك عليه ﴿كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾ قال ابن عباس: الرجس الشيطان. وقال ابن زيد: الرجس عذاب الله.

وقوله تعالى: ﴿وهذا صراط ربك مستقيماً﴾ قال ابن عباس: يعني به الإسلام. ﴿قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما

(١) أخرجه ابن جرير (٢٦/٨ و ٢٧) وهو حديث موضوع، وأخرجه - أيضاً - من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - بسند ضعيف.

كانوا يعملون ﴿ قال السدي: هو السلام، والدار الجنة.

قوله عز وجل: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَنْمَعَشِرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ
مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا
الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَلِيدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ
عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾

عن قتادة ﴿يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس﴾ قال: قد أضللتكم كثيراً من الإنس.

وعن ابن جريج قوله ﴿ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾ قال: كان الرجل في الجاهلية ينزل الأرض فيقول: أعوذ بكبير هذا الوادي، فذلك استمتاعهم، فاعتذروا يوم القيامة، وأما استمتاع الجن والإنس، فإنه كان فيما ذكر ما ينال الجن من الإنس من تعظيمهم إياهم في استعازتهم بهم، فيقولون: قد سُدنا الجن والإنس. وقال محمد بن كعب: هو طاعة بعضهم بعضاً، وموافقة بعضهم لبعض.

وقوله تعالى: ﴿وكذلك نؤلي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾، أي: نسلط بعضهم على بعض. وقال قتادة: يتبع بعضهم بعضاً في النار. وعن ابن عباس: أن الله تعالى إذا أراد بقوم خيراً ولى أمرهم خيارهم، وإذا أراد بقوم شراً ولى أمرهم شرارهم. وعن قتادة: فجعل بعضهم أولياء بعض، فالمؤمن وليّ المؤمن أينما كان، والكافر وليّ الكافر حيث كان.

قوله عز وجل: ﴿ يَنْمَعَشِرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ
عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُذَرُّونَكُم لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ
لِحَيَاةِ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ
رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ يَظْلِمِ وَأَهْلَهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا

رَبُّكَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۗ ﴿١٣٦﴾
 يَذُوبُ كَمَا يَذُوبُ السَّمَكُ فِي الْبَحْرِ مِمَّا يَتَذَوَّبُ بِهِ ۗ لَن يَنصُرَهُ فِي الْيَوْمِ الْقِيَامِ ۗ ﴿١٣٧﴾
 قَوْمٍ ءَاخِرِينَ ۗ ﴿١٣٨﴾ ۗ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ۗ ﴿١٣٩﴾ قُلْ
 يَفْعَلُ اللَّهُ بِأَعْيُنِنَا ۖ سَوْفَ يُعْطَى الَّذِينَ يَسْعَىٰ ۗ ﴿١٤٠﴾
 عَقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ۗ ﴿١٤١﴾

قال البغوي^(١): ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾ يعني في الثواب والعقاب،
 على قدر أعمالهم في الدنيا. وعن ابن عباس ﴿على مكانتكم﴾ يعني على
 ناحيتكم. قال الزجاج: اعملوا على ما أنتم عليه ﴿إني عامل فسوف تعلمون من
 تكون له عاقبة الدار أنه لا يفلح الظالمون﴾ والله أعلم.



(١) انظر «معالم التنزيل» (١٠٩/٢).

الدرس الثاني والتسعون

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْذُوهُمْ وَيَلِيسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءَ بِرِزْقِهِمْ وَأَنْعُمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعُمٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِدُكُونِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ

مُبِينٌ ﴿١٤٧﴾ ثَمَنِيَّةَ أَرْوَجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالَّذِكْرَتَيْنِ
 حَرَّمَ أَرِ الْأُنثِيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ ﴿١٤٨﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالَّذِكْرَتَيْنِ حَرَّمَ أَرِ
 الْأُنثِيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ
 وَضَعَكُمُ اللَّهُ يَهْدِيًا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ
 بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا
 عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ
 رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ
 رَّحِيمٌ ﴿١٥٠﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَجَمَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَيْنَا فَمَا كَانُوا يَشْكُرُونَ﴾ (١٣٦) ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءَهُمْ لِيُزِدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (١٣٧).

قال مجاهد: يسمون الله جزءاً من الحرث، ولشركائهم وأوثانهم جزءاً، فما ذهبت به الريح مما سموا الله إلى جزء أوثانهم تركوه، وما ذهب من جزء أوثانهم إلى جزء الله رموه، وقالوا: الله غني عن هذا؛ والأنعام: السائبة والبحيرة التي سموا. قال قتادة: وكانوا إذا أصابتهم السنة استعانوا بما جزءوا الله، وأخروا ما جزءوا لشركائهم، قال الله: ﴿ساء ما يحكمون﴾.

وقوله تعالى: ﴿وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون﴾ عن مجاهد في قول الله ﴿قتل أولادهم شركاؤهم﴾ شياطينهم، يأمرونهم أن يبدوا أولادهم خيفة العيلة.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرِزْقِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ طَهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِمْ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (١٣٨).

عن مجاهد ﴿وحرث حجر﴾ يقول: حرام. وعن قتادة قوله: ﴿هذه أنعام

وحرث حجر ﴿ الآية، تحريم كان عليهم من الشياطين في أموالهم وتغليظ وتشديد. وقال ابن زيد في قوله: ﴿ هذه أنعام وحرث حجر ﴾ نحتجرها على من نريد وعمن نريد، لا نطعمها إلا من شاء بزعمهم، قال: إنما احتجروا ذلك لآلهتهم، وقالوا نحتجرها ونجعلها للرجال.

وقال السدي: أما ﴿ أنعام حرمت ظهورها ﴾ فهي: البحيرة والسائبة والحام، وأما ﴿ الأنعام التي لا يذكرون اسم الله عليها ﴾ إذا ولدوها، ولا إن نحروها. وقال أبو وائل: لا يحججون عليها. وقال مجاهد كان من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها، ولا في شيء من شأنها، لا إن ركبوها، ولا إن حلبوها، ولا إن حملوا، ولا إن منحوا، ولا إن عملوا شيئاً.

قوله عز وجل: ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مِّمَّةً فَهِيَ لِشُرَكَائِهِمْ سَيِّئٌ مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ إِنَّهُ خَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ .

عن مجاهد ﴿ ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ﴾ السائبة والبحيرة. وقال السدي: فهذه الأنعام ما ولد منها حي فهو خالص للرجال دون النساء وأما ما ولد من ميت فيأكله الرجال والنساء.

وعن مجاهد في قوله: ﴿ سيجزئهم وصفحهم ﴾ قال: قولهم الكذب في ذلك.

قوله عز وجل: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ .

قال السدي: ثم ذكر ما صنعوا في أولادهم وأموالهم فقال: ﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله ﴾ قال قتادة: هذا صنيع أهل

الجاهلية، كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السباء والفاقة، وجعلوا بحيرة وسائبة ووصيلة وحاماً تحكماً من الشياطين في أموالهم. وقال ابن عباس: إذا سرك أن تعلم جهل العرب، فاقراً ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراءً على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمَاتُ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاتٌ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾

قال السدي في قوله: ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات﴾ أما جنات: فالبساتين، وأما المعروشات: فما عرش كهيئة الكرم. وعن ابن جريج قوله: ﴿متشابهاً وغير متشابه﴾ قال: متشابهاً في المنظر، وغير متشابه في الطعم.

وقوله تعالى: ﴿كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده﴾ قال عطاء: من النخل والعنب والحب كله. وقال مجاهد: إذا حضرك المساكين طرحت لهم منه، وإذا أنقته وأخذت في كيله حثوت لهم منه، وإذا علمت كيله عزلت زكاته.

وقال محمد بن جعفر عن أبيه: ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ قال: شيئاً سوى الحق الواجب.

وعن السدي: ﴿ولا تسرفوا﴾ لا تعطوا أموالكم فتقعوا فقراء. وقال عطاء في قوله: ﴿ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ ينهى عن السرف في كل شيء، ثم تلا: ﴿لم يسرفوا ولم يقتروا﴾.

وقوله تعالى: ﴿ومن الأنعام حمولة وفرشاً كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا

خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴿ قال ابن عباس: الحمولة: هي الكبار، والفرس: الصغار من الإبل. وقال السدي: أما الحمولة، فالإبل، وأما الفرس: فالفصلان والعجاجيل والغنم، وما حمل عليه: فهو حمولة.

قوله عز وجل: ﴿ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾.

عن الضحاك: ﴿من الضأن اثنين﴾ ذكر وأنثى. قال ابن جريج يقول: من أين حرمت هذا، من قبل الذكرين أم من قبل الأنثيين، أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين؟ وإنها لا تشتمل إلا على ذكر أو أنثى، فمن أين جاء التحريم؟ فأجابوهم: وجدنا آباءنا كذلك يفعلون. وقال السدي: فما حرمت عليكم ذكراً ولا أنثى من الثمانية، إنما ذكر هذا من أجل ما حرموا من الأنعام وعن ابن عباس قوله: ﴿ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين﴾ فهذه أربعة أزواج، ﴿ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين﴾. ﴿قل الذكرين حرم أم الانثيين﴾ يقول: لم أحرم شيئاً من ذلك ﴿نبئوني بعلم إن كنتم صادقين﴾ يقول: كله (١) حلال.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿أم كنتم شهداء إذا وصاكم الله بهذا﴾ الذي تقولون؟ وقال السدي: كانوا يقولون يعني الذين كانوا يتخذون البحائر والسوائب: إن الله أمر بهذا، فقال الله: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم﴾.

(١) في (الأصل): «كيله»، وهو خطأ.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤٥).

قال ابن جرير^(١): يقول جل ثناؤه لنبية محمد ﷺ: ﴿قل﴾ يا محمد — لهؤلاء الذين جعلوا الله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، ولشركائهم من الآلهة والأنداد مثله، والقائلين: «هذه أنعام وحرث لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم»، والمحرمين من أنعام آخر ظهورها، والتاركين ذكر اسم الله على آخر منها، والمحرمين بعض ما في بطون بعض أنعامهم على إناثهم وأزواجهم ومحليه لذكورهم، المحرمين ما رزقهم الله افتراء على الله، وإضافة منهم ما يحرمون من ذلك، إلى أن الله هو الذي حرّمه عليهم — : أجاكم من الله رسول الله بتحريمه ذلك عليكم؟ فأنبئونا به، أم وصاكم الله بتحريمه، مشاهدة منكم له، فسمعتم منه تحريمه ذلك عليكم، فحرّمتموه؟ فإنكم كذبتم إن ادعيتم ذلك، ولا يمكنكم دعواه إذا ادعيتموه، علم الناس كذبكم، فإني لا أجد فيما أوحى إليّ من كتابه وآي تنزيله شيئاً محرّماً على أكل يأكله، مما تذكرون أنه حرّمه من هذه الأنعام، التي تضيفون تحريم ما حرّم عليكم منها إلى الله، ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ قد ماتت بغير تذكية ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ وهو النصب، أو إلا أن يكون ﴿لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا﴾ يقول: أو إلا أن لا يكون فسقاً يعني بذلك: أو إلا أن يكون مذبوحاً، ذبحه ذابح من المشركين من عبدة الأوثان لصنمه وآلهته، فذكر عليه اسم وثنه، فإن ذلك الذبح فسق نهى الله عنه وحرّمه، ونهى من آمن به عن أكل ما ذبح كذلك لأنه ميتة، وهذا إعلام من الله جل ثناؤه للمشركين الذين جادلوا نبي الله وأصحابه في تحريم الميتة بما جادلوهم به، إن الذي جادلوهم فيه من ذلك هو الحرام الذي حرّمه الله، وإن الذي زعموا أن الله حرّمه حلال قد أحله الله، وإنهم كذبة في إضافتهم تحريمه إلى الله.

(١) انظر «جامع البيان» (٦٩/٨).

ثم ساق بسنده عن ابن طاوس عن أبيه في قوله: ﴿قل لا أجد فيما أوحى إليّ محرماً﴾ قال: كان أهل الجاهلية يحرمون أشياء ويحلّون أشياء، فقال الله قل: لا أجد فيما كنتم تحرمون وتستحلّون إلّا هذا: ﴿إلّا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهلّ لغير الله به﴾.

وعن عكرمة ﴿أو دماً مسفوحاً﴾ قال: لولا هذه الآية لتبّع المسلمون من العروق ما تتبعت اليهود. وعن ابن عمر أنه سئل عن القنفذ فقراً: ﴿قل لا أجد فيما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه﴾ الآية، فقال شيخ عنده: سمعت أبا هريرة يقول: ذكر عند النبي ﷺ فقال: «خبث من الخبائث»^(١). فقال ابن عمر: إن كان النبي ﷺ قاله فهو كما قال. رواه أبو داود.

وقوله تعالى: ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم﴾ أي من اضطر إلى كل ما حرّمه الله ﴿غير باغ﴾ أي في أكله تلذذاً من غير ضرورة ﴿ولا عاد﴾ أي غير متجاوز في أكله، فلا حرج عليه. قال مجاهد ﴿غير باغ﴾ يبتغيه ﴿ولا عاد﴾ يتعدى على ما يمسك نفسه. وقوله تعالى: ﴿فإن ربك غفور رحيم﴾.

قال البغوي^(٢): أباح الله أكل هذه المحرّمات عند الاضطرار في غير العدوان. والله أعلم.



(١) أخرجه أبو داود (ح/٣٧٩٩)، بسند ضعيف، وعزاه السيوطي في «الدر» (٣/٩٦)، إلى سعيد بن منصور وابن أبي حاتم، وابن مردويه.
(٢) انظر «معالم التنزيل» (٢/١١٤).

الدرس الثالث والتسعون

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالغَنَمِ
 حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ
 بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو
 رَحْمَةٍ وَسِعَتْ وَلَا يُرَدُّ بِأَسْئَةٍ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ
 شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ
 مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ
 إِلَّا الظَّنَّ وَإِن أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ
 أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا
 تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
 بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي كُفَّ
 عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ
 إِمْلَأَتْ نَفْسٌ نَّرْزُقَكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا
 بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَنَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ
 تَتَّقُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا
 الكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ

كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَيَهْدِي اللَّهُ أَوْفَوْا ذَٰلِكُمْ وَصَنِّعْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾
وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ
ذَٰلِكُمْ وَصَنِّعْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَسِعَتْ وَلَا يُرَدُّ بِأَسْئُرِهِ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ .

عن ابن عباس ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر﴾ قال: البعير والنعامة ونحو ذلك من الدواب. وعن قتادة: ﴿ومن البقر حرمنا عليهم شحومهما﴾ الثروب، ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «قاتل الله اليهود، حرم عليهم الثروب ثم أكلوا أثمانها»^(١). وقال ابن جريج: إنما حرم عليهم الثرب، وكل شحم كان كذلك ليس في عظم. وقال السدي: الثرب وشحم الكليتين، وكانت اليهود تقول: إنما حرّمه إسرائيل فنحن نحرّمه.

وعن ابن عباس: ﴿إلا ما حملت ظهورهما﴾ يعني ما علق بالظهر من الشحوم. وقال أبو صالح: الإلية مما حملت ظهورهما. وعن مجاهد: الحوايا المبرع والمربض. وعن ابن جريج: ﴿أو ما اختلط بعظم﴾ قال: شحم الإلية بالعصعص فهو حلال، وكل شيء في القوائم، والجنب، والرأس، والعين ﴿وما اختلط بعظم﴾ فهو حلال.

(١) الثروب: هو الشحم الذي على الأمعاء والكرش، انظر «مختار الصحاح» مادة «ثرب» والحديث بنحوه أخرجه البخاري (ح/٢٢٢٣)؛ ومسلم (ح/١٥٨٢) من حديث عمر رضي الله عنه.

وعن قتادة: ﴿ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون﴾ إنما حرم ذلك عليهم عقوبة ببغيهم.

وقوله تعالى: ﴿وإنا لصادقون﴾، أي: فيما أخبرنا من تحريمنا ذلك عليهم، لا كما زعموا أن إسرائيل حرّمه. وقال السدي: كانت اليهود يقولون: إنما حرّمه إسرائيل — يعني الثرب وشحم الكليتين — فنحن نحرّمه، فذلك قوله: ﴿فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين﴾ انتهى. والآية عامة في جميع المكذبين.

قوله عز وجل: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البَليغةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلَمْ شَهِدْكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آبائنا﴾ قال: ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾، ثم قال: ﴿ولو شاء الله ما أشركوا﴾ فإنهم قالو: عبادتنا الآلهة تقربنا إلى الله زلفى، فأخبرهم الله أنها لا تقربهم.

وقوله: ﴿ولو شاء الله ما أشركوا﴾. يقول الله سبحانه: لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين. وعن مجاهد: ﴿ولا حرّمنا من شيء﴾ قال: قول قریش يعني: أن الله حرّم هذا البحيرة والسائبة.

وقوله تعالى: ﴿إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم ألا تخرضون﴾ كقوله تعالى:

﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿قل لله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾. قال الربيع بن أنس: لا حجة لأحد عصى الله، ولكن لله الحجة البالغة على عباده، وقال: ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾. قال: لا يستل عما يفعل وهم يستلون. وعن السدي قوله: ﴿هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا﴾ يقول: أروني الذين يشهدون أن الله حرم هذا مما حرمت العرب، وقالوا: أمرنا الله به، قال الله لرسوله: ﴿فإن شهدوا فلا تشهد معهم﴾.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١٥١).

قال ابن عباس: الإملاق الفقر، قتلوا أولادهم خشية الفقر. وعن قتادة: ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ سرها وعلانيتها.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُمْ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَأَلِيمِينَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(١٥٢).

(١) سورة الزخرف: الآية ٢٠.

عن مجاهد ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾. قال: التجارة فيه. وقال الضحاك: يتبغي له فيه، ولا يأخذ من ربحه شيئاً؛ وقال ابن زيد: قال الله ﴿ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾. وعن ربيعة في قوله: ﴿حتى يبلغ أشده﴾ قال: الحلم. وعن مجاهد ﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾ بالعدل.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿وإذا قلتم فاعدلوا﴾ قال: قولوا الحق. وقال السدي: هؤلاء الآيات التي أوصى بها من محكم القرآن. وعن الربيع بن خيثم أنه قال لرجل: هل لك في صحيفة عليها خاتم محمد؟ ثم قرأ هؤلاء الآيات ﴿قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَفَرَقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

عن مجاهد في قول الله ﴿ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ قال: البدع والشبهات. وعن ابن مسعود قال: «خط لنا رسول الله ﷺ يوماً خطاً فقال: هذا سبيل الله، ثم خطّ عن يمين ذلك الخطّ وعن شماله خطوطاً فقال: هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها، ثم قرأ هذه الآية ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾»^(١). وقال ابن زيد: سبيله الإسلام.

وعن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم يباعدني على هؤلاء الآيات الثلاث؟ ثم تلا ﴿قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم﴾ حتى فرغ من ثلاث آيات،

(١) أخرجه أحمد (١/٤٣٥ و ٤٦٥) و (٣/٣٩٧)، والدارمي (١/٦٧)، والحاكم (٢/٣١٨)، وصححه ووافقه الذهبي، قلت: وهو كما قال.

ثم قال: ومن وقى بهنّ فأجره على الله، ومن انتقص منهّن فأدركه الله في الدنيا كانت عقوبته، ومن آخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله، إن شاء أخذه وإن شاء عفا عنه^(١). رواه ابن أبي حاتم والله أعلم.



(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٣/١٢٣/ب)، والحاكم (٢/٣١٨) وصححه، ووافقه الذهبي، قلت: وفي سنده سفيان بن حسين الواسطي، صدوق، إلا أن في روايته عن الزهري خاصة اضطراب وضعف، وهو هنا قد رواه عن الزهري. لكن قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه إنما اتفقا جميعاً على حديث الزهري عن أبي إدريس عن عبادة: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً» وقد روى سفيان بن حسين الواسطي كلا الحديثين عن الزهري، فلا ينبغي أن ينسب إلى الوهم في أحد الحديثين إذا جمع بينهما والله أعلم».

الدرس الرابع والتسعون

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَالَمِهِمْ يَلْقَاءُ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٩﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٨﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفِيلِينَ ﴿١٥٧﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجِرِي الَّذِينَ يَصِدْقُونَ عَنْ آيَاتِنَا سِوَةَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصِدْقُونَ ﴿١٥٦﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَوَ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٤﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرٌ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١٦﴾ قُلِ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١٥﴾ قُلِ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٦﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١١٧﴾ قُلِ اغْتَبِرْ أَلِلَّهِ رَبِّي وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِرْ وَأَزِدْهُ وَزِدْ أُخْرَىٰ ثُمَّ لِي رِيكُم مَرَجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ

بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ خَلْقًا وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ
بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَسْبُلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَنَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ آلِ الْكِتَابِ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْرِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ .

قال ابن جرير^(١): يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب ﴾، ثم قل بعد ذلك يا محمد: أتى ربك موسى الكتاب. وعن مجاهد: ﴿تماماً على الذي أحسن﴾، قال: المؤمنين. وعن الربيع ﴿ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن﴾ فيما أعطاه الله. وقال قتادة: من أحسن في الدنيا تمم له ذلك في الآخرة. ﴿وتفصيلاً لكل شيء﴾ فيه حلاله وحرامه.

﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك﴾ وهو القرآن الذي أنزله على محمد عليه السلام ﴿فاتبعوه﴾ يقول: فاتبعوا حلاله وحرّموا حرامه ﴿لعلكم ترحمون﴾.

وعن ابن عباس قوله: ﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿وإن كنا عن دراستهم﴾ تلاوتهم ﴿لغافلين﴾. وقال ابن زيد: الدراسة القراءة والعلم.

وعن السدي ﴿أو تقولوا لو أننا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد

(١) انظر: «جامع البيان» (٨٩/٨).

جاءكم بينة من ربكم، يقول: قد جاءكم بينة لسان عربي مبين، حين لم تعرفوا دراسة الطائفتين، وحين قلتهم: لو جاءنا كتاب لكننا أهدي منهم.

وعن ابن عباس ﴿وصدف عنها﴾، يقول: أعرض عنها، ﴿سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون﴾، قال قتادة: يعرضون.

قوله عز وجل: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِكَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

عن مجاهد ﴿إلا أن تأتيهم الملائكة﴾ يقول: عند الموت حين توفاهم، ﴿أو يأتي ربك﴾ ذلك يوم القيامة. ﴿أو يأتي بعض آيات ربك﴾ طلوع الشمس من مغربها. وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها﴾ طلوع الشمس من مغربها»^(١). رواه ابن جرير.

وعن السدي ﴿يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً﴾، يقول: كسبت في تصديقها خيراً: عملاً صالحاً، فهؤلاء أهل القبلة، وإن كانت مصدقة ولم تعمل قبل ذلك خيراً، فعملت بعد أن رأت الآية لم يقبل منها، وإن عملت قبل الآية خيراً ثم عملت بعد الآية خيراً قبل منها. وقال الضحاك: من أدركه بعض الآيات وهو على عمل صالح مع إيمانه، قبل الله منه العمل بعد نزول الآية، كما قبل منه قبل ذلك.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مِنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٧١)، وقال: «حسن غريب»، وابن جرير (٩٧/٨) بسند ضعيف، لكن صح من وجه آخر من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا اطلعت فرأها الناس آمن من عليها فذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل»، أخرجه البخاري (ح/٤٦٣٥)، ومسلم (ح/٢٤٨).

وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ .

عن قتادة ﴿إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً﴾ من اليهود والنصارى . وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ في هذه الآية: « ﴿إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء﴾ وليسوا منك، هم أهل البدع وأهل الشبهات وأهل الضلالة من هذه الأمة»^(١). رواه ابن جرير. وعن سعيد بن جبیر قال: لما نزلت ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾. قال رجل من القوم: فإن لا إله إلا الله حسنة، قال: نعم أفضل الحسنات. وعن قتادة قوله: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون﴾ ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «الأعمال ستة، موجبة، وموجبة، ومضعفة، ومضعفة، ومثل؛ فأما الموجبتان: فمن لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقي الله مشركاً به دخل النار، والضعف: فنفقة المؤمن في سبيل الله سبعمائة ضعف، ونفقته على أهل بيته عشر أمثالها، وأما مثل ومثل: فإذا هم العبد بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، وإذا هم بسيئة ثم عملها كتبت عليه سيئة»^(٢).

(١) أخرجه ابن جرير (١٠٥/٨)، وفي سنده: عباد كثير وهو متروك، وليث بن أبي سليم وهو ضعيف وقد وهم عباد بن كثير ههنا، فرواه مرفوعاً، وخالفه سفيان فرواه موقوفاً، وهو الصواب، وأخرجه الطبراني كما عزاه له الهيثمي في «مجمع البحرين» (٢٤/٨) وفي سنده معلل بن نفي، لم يوثقه غير ابن حبان على عادته في توثيق المجاهيل. وللحديث شاهد من حديث عمر رضي الله عنه بنحوه أخرجه ابن جرير (١٠٥/٨)، والطبراني كما عزاه له الهيثمي في المصدر السابق (٢٤/٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٣/١٢٩/أ)، وفي سنده بقية الوليد، ومجالد بن سعيد، وكلاهما ضعيف.

(٢) أخرجه أحمد (٣٤٥/٤)، والطبراني (٢٠٦/٨ و ٢٠٧)، وهو حديث صحيح، ولفظه: «الناس أربعة والأعمال ستة... والأعمال موجبتان، ومثل بمثل، وعشرة أضعاف، وسبعمائة ضعف فالموجبتان من مات مسلماً مؤمناً لا يشرك بالله شيئاً وجبت له الجنة، ومن مات كافراً وجبت له النار، ومن هم بحسنة فلم يعملها فعلم الله أنه قد أشعرها قلبه، =

قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ
 إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ
 رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَمْ وَيَذَلِكْ أَمَرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِّي رِزْقًا
 وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزْرًا وَازِرَةً وَذَرَّ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ
 رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مَخْلِفِينَ
 الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ
 الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ .

يقول تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام.
 ﴿إني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيمياً﴾. قال ابن جرير يقول: مستقيماً؛
 وذكر قراءتين ثم قال: والصواب من القول في ذلك عندي: أنهما قراءتان
 مشهورتان في قراءة الأمصار متفقتا المعنى، فبأيهما قرأ القارئ فهو للصواب
 مصيب، غير أن فتح القاف وتشديد الياء أعجب إليّ لأنه أفصح اللغتين وأشهرهما.
 وعن قتادة ﴿ونسكي﴾. قال: ذبحي. ﴿وأنا أول المسلمين﴾، أي: أول المسلمين
 من هذه الأمة. وقوله تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾، أي: جعلكم
 تعمرونها جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، وخلفاً بعد سلف.

قال ابن زيد وغيره: ﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾، أي: فاوت
 بينكم في الأرزاق والأخلاق ﴿ليبلوكم فيما آتاكم﴾، أي: ليختبركم فيما أنعم به
 عليكم ﴿إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ ترهيب لمن عصاه، وترغيب
 لمن أطاعه، والله أعلم.



= وحرص عليها كتبت له حسنة، ومن هم بسيئة لم تكتب عليه، ومن عملها كتبت واحدة، ولم
 تضاعف عليه، ومن عمل حسنة كانت عليه بعشر أمثالها، ومن أنفق نفقة في سبيل الله عز
 وجل كانت بسبعمئة ضعف.

الدرس الخامس والتسعون

﴿سورة الأعراف﴾

[مكية^(١)، وهي مائتان وستون آية]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْمَصَّ ①﴾ كِتَابٌ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ
وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ② أَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنَ الرِّبَا وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ
قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ③ وَكَمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بِأَسْنَابَيْتَا أَوْهَمَ فَأُولَئِكَ ④
فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَابٌ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ⑤ فَلَنَسْتَلِزَّ
الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلِزَّ الْمُرْسَلِينَ ⑥ فَلَنَقْضِيَنَّهُمْ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا
عَآبِدِينَ ⑦ وَالْوَزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ ⑧ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا
يَظْلِمُونَ ⑨ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيْشٌ قَلِيلًا مَّا
تَشْكُرُونَ ⑩ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ
فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ⑪ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ
قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ⑫ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ

(١) ما بين المعقوفتين من إضافتي.

تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجَ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا يَبِيئُهُمُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَبَكَدُمْ أَشْكُنَ أَنْتَ وَزَوْجَكَ الْجَنَّةَ فَكَلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّهُمَا بِمُرُوْرٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُ تَيْهَمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَهبطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿الْمَصَّ ١﴾ كَتَبْنَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ .

قال أبو العالية: ﴿حرج﴾، أي: ضيق، معناه: لا يضيق صدرك بالإبلاغ وتأدية ما أرسلت به. ﴿اتبعوا﴾، أي: وقل لهم ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ تطيعونهم في معصية الله ﴿قليلًا ما تذكرون﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَكَمْ مِّن قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بِأَسْنَاءٍ بَيْنَنَا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَاءٍ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْتَلْنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلِبَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ .

قال الزجاج في قوله تعالى: ﴿بياتاً أو هم قائلون﴾ أو: لتصرف العذاب، أي مرة ليلاً ومرة نهاراً.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فلنستلن الذين أرسل إليهم ولنستلن المرسلين﴾ يسأل الله الناس عما أجابوا المرسلين، ويسأل المرسلين عما بلغوا.

وعن السدي في قوله: ﴿والوزن يومئذ الحق﴾ قال: توزن الأعمال، وعن حذيفة قال: «صاحب الموازين يوم القيامة جبريل عليه السلام، قال: يا جبريل زِنْ

بينهم فَرَدَّ مِنْ بَعْضٍ عَلَى بَعْضٍ، قَالَ: وَلَيْسَ ثُمَّ ذَهَبَ وَلَا فَضَّةً، فَإِنْ كَانَ لِلظَّالِمِ حَسَنَاتٌ أَخَذَ مِنْ حَسَنَاتِهِ فَرَدَّ عَلَى الْمَظْلُومِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ حَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ، فَيَرْجِعُ الرَّجُلُ وَعَلَيْهِ مِثْلُ الْجِبَالِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ (١).

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (١٠) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (١١) ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُمْ مِنْ طِينٍ﴾ (١٢) ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (١٣) ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٤) ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ (١٥) ﴿قَالَ فِيمَا آغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١٦) ﴿ثُمَّ لَا يَأْتِيهِمْ مِنَ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (١٧) ﴿قَالَ أَخْرَجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٨).

عن قتادة ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ قال: خلق الله آدم من طين ﴿ثم صورناكم﴾ في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق، علقه ثم مضغه ثم عظاماً، ثم كسى العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر. وعن مجاهد في قول الله ﴿ولقد خلقناكم﴾ قال: آدم ﴿ثم صورناكم﴾ قال في ظهر آدم. وقال ابن جرير: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ معناه: ولقد خلقنا، أباكم آدم، ثم صورناه ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾.

قال ابن كثير^(٢): وذلك أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام بيده من طين

(١) أخرجه ابن جرير (١٢٣/٨)، واللالكائي (ح/٢٢٠٩) بسند ضعيف.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٢٠٢).

لازب، وصوره بشراً سوياً، ونفخ فيه من روحه، أمر الملائكة بالسجود له تعظيماً
 لشأن الله تعالى وجلاله، فسمعوا كلهم وأطاعوا، إلا إبليس لم يكن من
 الساجدين.

وقوله تعالى: ﴿قال ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني
 من نار وخلقته من طين﴾ قال ابن عباس: أول من قاس إبليس فأخطأ القياس، فمن
 قاس الدين بشيء من رأيه قرنه الله مع إبليس.

وقوله تعالى: ﴿قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من
 الصاغرين قال انظرني إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين﴾، أي: المؤخرين عن
 الموت إلى يوم الوقت المعلوم، حين يموت جميع الناس، وهي النفخة الأولى،
 ﴿قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ قال مجاهد: الحق.

وعن ابن عباس في قوله ﴿ثم لا تينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن
 أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ يقول: أشككهم في آخرتهم
 ﴿ومن خلفهم﴾ أرغبهم في دنياهم ﴿وعن إيمانهم﴾ أشبه عليهم أمر دينهم ﴿وعن
 شمائلهم﴾ أشهي لهم المعاصي. وقال قتادة: أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه
 لا بعث ولا جنة ولا نار، ومن خلفهم من أمر الدنيا فزيتها لهم ودعاهم إليها، وعن
 أيمانهم من قبل حسناتهم بطأهم عنها، وعن شمائلهم زين لهم السيئات والمعاصي
 ودعاهم إليها، وأمرهم بها. أتاك يا ابن آدم من كل وجه، غير أنه لم يأتك من
 فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله.

وعن ابن عباس ﴿قال اخرج منها مذؤماً﴾ يقول: صغيراً منقياً. وقال
 السدي: أما ﴿مذؤماً﴾ فممنقياً، وأما ﴿مدحوراً﴾ فمطروداً. وعن ابن عباس
 ﴿مذؤماً﴾ ممقوتاً. انتهى.

والمذؤم: هو المذموم وهو المعيب، والمذؤم بالهمز أبلغ في العيب. وعن

قتادة ﴿ اخرج منها مذموماً مدحوراً ﴾ لعيناً شقيماً ﴿ لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾ .

قوله عز وجل : ﴿ وَبَنَادِمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ ﴿٢١﴾ .

قال وهب بن منبه: كان عليهما نور لا ترى سواتهما. وقال قتادة: فحلف لهما بالله حتى خدعهما، وقد يُخدع المؤمن بالله، فقال: إني خلقت قبلكما، وأنا أعلم منكما، فاتبعاني أرشدكما.

قوله عز وجل : ﴿ فَذَلَّهُمَا يَبُورٌ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ .

عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «كان آدم كأنه نخلة سحوق، كثير شعر الرأس، فلما وقع بالخطيئة بدت له عورته، وكان لا يراها، فانطلق فاراً فتعرضت له شجرة فحبسته بشعره فقال لها: أرسليني، فقال لست بمرسلتك، فناداه ربه: يا آدم أمني تفر؟ قال: لا، ولكني أستحيك»^(١). رواه ابن جرير.

وعن ابن عباس ﴿ وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ قال: جعلتا يأخذان من ورق الجنة يجعلان على سواتهما، وقال: لما أكل آدم من الشجرة قيل

(١) أخرجه ابن جرير (١٤٢/٨) بسند ضعيف وقال ابن كثير: «رواه ابن جرير وابن مردويه... مرفوعاً، والموقوف أصح».

له: لم أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها؟ قال: حواء أمرتني، قال: فإنني قد أعقبتها أن لا تحمل إلا كرهاً ولا تضع إلا كرهاً، فرئت حواء عند ذلك فقيل لها: الرثة عليك وعلى ولدك.

وعن الضحاك في قوله ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكون من الخاسرين﴾ قال: هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه. وعن قتادة قال: قال آدم عليه السلام: يا رب أرأيت إن تبت واستغفرتك؟ قال: إذا أدخلك الجنة. وأما إبليس فلم يسأله التوبة، وسأل النظرة فأعطي كل واحد منهما ما سأل.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

عن السدي: ﴿اهبطوا بعضكم لبعض عدو﴾ قال: اهبطوا إلى الأرض: آدم وحواء إبليس والحية.

قال ابن كثير^(١): والعمدة في العداوة: آدم وإبليس، ولهذا قال تعالى في سورة طه ﴿اهبطا منها جميعاً﴾ وحواء تبع لآدم والحية، إن كان ذكرها صحيحاً، فهي تبع لإبليس.

وعن أبي العالية في قوله: ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾ قال: هو. قوله: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾. وقال ابن عباس: القبور. ﴿ومتاع إلى حين﴾ إلى يوم القيامة، وإلى انقطاع الدنيا. والله المستعان.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٢٠٦).

الدرس السادس والتسعون

﴿ يَبْقَىٰ ءَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكْمٌ وَرَيْشًا وَلِبَاسُ الْفَقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (٢٦) يَبْقَىٰ ءَادَمَ لَا يَفِينَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَيْهَمًا إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَىٰ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيْطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهم مُهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ يَبْقَىٰ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَبْقَىٰ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنْ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ

النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ
أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكُذِّبِ حَقًّا إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا آيِنَ مَا
كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَيَّ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا
كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا
دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَاهُمْ لِأَوْلَانِهِمْ رَبَّنَا
هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَجَاءَتْهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾
وَقَالَتْ أَوْلَانَهُمْ لِأَخْرَيْنَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا
كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ
السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُلَاجِ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي
الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ فَجَرَى مِنْ
تَحْتِهِمُ الْآبَاقُورُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَن هَدَانَا اللَّهُ
لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أُوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَبْقَىٰ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ بَعْضِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِمَّا آتَيْنَا اللَّهُ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ .

قال عروة بن الزبير: اللباس الثياب. وقال ابن عباس: الريش المال. وعن قتادة ﴿ولباس التقوى﴾ هو الإيمان. وعن عوف الجهني: هو الحياء. وعن ابن عباس ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾ قال: لباس التقوى العمل الصالح. وعن عثمان مرفوعاً: ﴿ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله﴾ قال: السميت الحسن^(١). وقال عروة بن الزبير: لباس التقوى، خشية الله. وكل هذه الأقوال متفقة المعنى.

قوله عز وجل: ﴿يَبْقَىٰ آدَمَ لَا يَفْنَىٰ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ بَعْضُهُمَا إِنَّمَا جِئْتُم بِرِيشٍ وَمِنْ الْجَنَّةِ نَارٌ لَّنَا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ .

عن ابن عباس في قوله: ﴿ينزع عنهما لباسهما﴾ قال: كان لباسهما الظفر، فلما أصابا الخطيئة نزع عنهما، وتركت الأظفار تذكرة وزينة. وقال وهب بن المنبه: كان لباس آدم وحواء نوراً على فروجهما.

(١) أخرجه ابن جرير (١٤٩/٨)، بسند ضعيف.

وعن مجاهد قوله: ﴿إنه يراكم هو وقبيله﴾ قال: الجن والشياطين. وقال مالك بن دينار: إن عدواً يراك ولا تراه لشديد المؤنة، إلا من عصم الله.

وعن مجاهد في قوله: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا﴾ فاحشتهم أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة. ﴿قل أمر ربي بالقسط﴾ بالعدل.

وعن الربيع في قوله: ﴿وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد﴾ قال: في الإخلاص لا تدعوا غيره، وأن تخلصوا له الدين.

وعن الحسن ﴿كما بدأكم تعودون﴾ قال: كما بدأكم في الدنيا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء. وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «يحشر الناس عراة غرلاً، وأول من يكسى إبراهيم ﷺ، ثم قرأ: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾^(١) رواه ابن جرير وغيره.

قوله عز وجل: ﴿يَبْقَىٰ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾^(٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(٣٤).

عن ابن عباس: ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ قال: الثياب. وقال مجاهد: ما وارى العورة ولو عباءة.

(١) أخرجه البخاري (ح/٣٤٤٧)، ومسلم (٤/٢١٩٤ - ٢١٩٥).

وعن ابن عباس في قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ قال: أحلّ الله الأكل والشرب ما لم يكن سرفاً أو مخيلة، وقال: إن الجاهلية كانوا يحرمون أشياء أحلّها الله من الرزق وغيرها، فأنزل الله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يعني يشارك المسلمون المشركين في الطيبات في الحياة الدنيا، ثم يخلص الله الطيبات في الآخرة للذين آمنوا، وليس للمشركين فيها شيء^(١).

وعن مجاهد في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قال: نهى عن الإثم وهي المعاصي كلها، وأخبر أن الباغي بغيه كائن على نفسه.

قوله عز وجل: ﴿يَبْنَیْ ءَادَمَ إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي ۖ فَمَنْ أَتَقَىٰ ۖ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

قال في فتح البيان: «إن» حرف شرط، «وما» مزيدة لتأكيد معنى الشرط. ﴿يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي﴾ التي فيها الفرائض والأحكام ﴿فمن اتقى﴾ الشرك منكم ﴿وأصلح﴾ عمله ﴿فلا خوف عليهم﴾ في الآخرة ﴿ولا هم يحزنون﴾ وهذا الشرط والجزاء، جزاء ﴿إما يأتينكم﴾. ﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ منكم، عطف على أتقى ﴿واستكبروا عنها﴾ فتركوا العمل بها ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

قوله عز وجل: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكُذْبِ حَقٌّ ۚ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُنذِرُونَهُمْ قَالُوا آيْنَ مَا

(١) أخرجه ابن جرير (١٦٤/٨).

كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَيَّ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا
 كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا
 دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُمُوهَا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَاهُمْ لِأَوْلَادِهِمْ رَبَّنَا
 هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتِنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾
 وَقَالَتْ أُولَئِكَ لِأُخْرَيْنَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكَ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا
 كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ .

عن مجاهد ﴿أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾ ما كتب لهم من الشقاوة
 والسعادة. وقال ابن عباس: من عمل خيراً جزى به، ومن عمل شراً جزى به.
 وقال ابن زيد: من الأعمال والأعمار والأرزاق. وعن السدي: ﴿كلما دخلت أمة
 لعنت أختها﴾ يقول: كلما دخلت أهل ملة لعنوا أصحابهم على ذلك الدين، يلعن
 المشركون المشركين، تلعن الآخرة الأولى.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتَحُ لَهُمْ
 أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْبِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي
 الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي
 الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا
 أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلِيٍّ يُجْرَىٰ مِنْ
 تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ
 لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ
 تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ .

عن ابن عباس: ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ قال: عنى بها الكفار، إن
 السماء لا تفتح لأرواحهم وتفتح لأرواح المؤمنين. وقال مجاهد: لا يصعد لهم

كلام ولا عمل. وعن البراء «أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر، وأنه يصعد بها إلى السماء قال: فيصعدون بها فلا يمرّون على ملاء من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون فلان، بأقبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء، فيستفتحون له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمّ الخياط﴾^(١). رواه ابن جرير وغيره. وعن الحسن ﴿حتى يلج الجمل في سمّ الخياط﴾ قال: حتى يدخل البعير في خرق الإبرة. وعن محمد بن كعب ﴿لهم من جهنم مهاد﴾ قال: الفراش ﴿ومن فوقهم غواش﴾ قال: اللحف.

وقوله تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلاّ وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ قال الضحاك: العداوة. عن أبي نضرة قال: يحبس أهل الجنة دون الجنة حتى يقضى لبعضهم من بعض، حتى يدخلوا الجنة حين يدخلونها، ولا يطلب أحد منهم أحداً بقلامة ظفر ظلمها إياه، ويحبس أهل النار دون النار حتى يقضى لبعضهم من بعض، فيدخلوا النار ولا يطلب أحد منهم أحداً بقلامة ظفر ظلمها إياه. وعن أبي هريرة^(٢) قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى منزله من النار فيقولون: لو هدانا الله فتكون عليهم حسرة، وكل أهل الجنة يرى منزله من النار فيقولون: لولا أن هدانا الله، فهذا شكرهم»^(٣). رواه ابن جرير، وعن عاصم بن

(١) أخرجه أحمد (٢٨٧/٤ و ٢٨٨ و ٢٩٥ و ٢٩٦)، وأبو داود (ح/٤٧٥٣)، والنسائي

(٧٨/٤) مختصراً، وابن ماجه (ح/٤٢٦٩)، والحاكم (١/٣٧ - ٤٠)، وصححه على

شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وهو حديث صحيح.

(٢) في تفسير ابن جرير (أبي سعيد)، وتبعه على ذلك المؤلف - رحمه الله - وهو خطأ كما سيأتي.

(٣) أخرجه أحمد (٥١٢/٢)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٤٧)، والحاكم (٢/٤٣٥ - ٤٣٦)،

والخطيب (٥/٢٤) كلهم من أبي بكر بن عياش عن الأعمش عن أبي صالح عن =

ضمرة عن عليّ قال: ذكر عمر شيئاً لا أحفظه، ثم ذكر الجنة فقال: يدخلون فإذا شجرة يخرج من تحت ساقها عينان، قال: فيغتسلون من إحداهما، فتجري عليهم نضرة النعيم، فلا تشعث أشعارهم ولا تغيّر أبشارهم، ويشربون من الأخرى فيخرج كل قذى وقدر أو شيء من بطونهم، قال: ثم يفتح باب الجنة فيقال لهم: ﴿سلام عليكم طبتم فأدخلوها خالدين﴾ قال: فتستقبلهم الولدان فيحفون بهم كما تحفّ الولدان بالحميم إذا جاء من غيبة، ثم يأتون فيبشرون أزواجهم فيسمّونهم بأسمائهم وأسماء آبائهم فيقلن: أنت رأيتيه؟ قال: فيستخفهنّ الفرح، قال: فيجئن حتى يقفن على أسكفة الباب قال: فيجيئون فيدخلون، فإذا أسّ بيوتهم بجندل اللؤلؤ، وإذا صروح صفر وخضر وحممر ومن كل لون، وسرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة، فلولا أن الله قدرها لهم لالتمعت أبصارهم مما يرون فيها، فيعانقون الأزواج ويقعدون على السرر ويقولون: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾^(١) الآية.

وعن الأغر ﴿ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ قال: نودوا أن صحّوا فلا تسقموا، واخلدوا فلا تموتوا، وانعموا فلا تبأسوا وقال أبو سعيد: ينادي مناد: إن لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبداً. وبالله التوفيق.



= أبي هريرة رضي الله عنه، قال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي، وهو حديث صحيح. وقد ورد الحديث عند ابن جرير في تفسيره (١٨٤/٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، لكن في سنده أبو هشام الرفاعي وهو مجمع على ضعفه، وقد خالف الثقات في رواية هذا الحديث من طريق أبي بكر بن عياش، عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) أخرجه ابن جرير (١٨٤/٨)، وابن أبي حاتم (١٤٨/٣) ب) وأبو نعيم في «صفة الجنة» (١٢٨/٢)، وفي سنده أبو إسحاق السبيعي، وهو مدلس وقد عنعن هنا، ومع ذلك فقد صحح الحديث صاحب «المطالب العالية» (٤٠٠/٤).

الدرس السابع والتسعون

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا
 وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ
 عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ
 يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَمَّا يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾
 ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ
 أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ
 تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهْتُولَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ
 عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا
 مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ
 اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا
 نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِتَابِعِينَ يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُوهُمْ بِكُتُبٍ
 فَصَلَّنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي
 تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِن شُفْعَاءَ
 فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا
 كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٥٣﴾ ۞

قوله عز وجل: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ .

عن السدي: ﴿ونادي أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم﴾، وجد أهل الجنة ما وعدوا من ثواب وأهل النار ما وعدوا من عقاب.

قوله عز وجل: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَنَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ .

قال مجاهد: الأعراف حجاب بين الجنة والنار. وقال السدي: وهو السور. وقال ابن عباس: «إن الأعراف تلّ بين الجنة والنار، حبس عليه ناس من أهل الذنوب [بين الجنة والنار]»^(١).

وعنه قوله: ﴿وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم﴾. قال: «يعرفون أهل النار بسواد الوجوه، وأهل الجنة ببياض الوجوه، قال: وهم في ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام» ﴿لم يدخلوها وهم يطمعون﴾ أن يدخلوها، وهم داخلوها إن شاء الله.

وقال الحسن: «والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم إلاً لكرامة يريد بها بهم»^(٢). وقال حذيفة: «هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار، وقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة، ف﴿إذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا

(١) أخرجه ابن جرير (١٨٩/٨)، وما بين المعقوفتين أضافه من تفسير ابن جرير.

(٢) أخرجه ابن جرير (١٩٦/٨).

لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴿٤٨﴾ فينا هم كذلك اطلع إليهم ربك تبارك وتعالى فقال: اذهبوا وادخلوا الجنة فإني قد غفرت لكم ﴿٤٩﴾.

قوله عز وجل: ﴿٤٨﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا لَا يَعْرِفُونَهُمْ بِسْمَتِهِمْ قَالُوا مَا آغَىٰ عَنْكُمْ جَمْعَكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تُسْتَكَرُّونَ ﴿٤٨﴾ أَهْوَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾.

عن ابن عباس: ﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالاً﴾ في النار ﴿يعرفونهم بسماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم﴾ وتكبركم؟

وقال البغوي^(٢): قال الكلبي: ينادون وهم على السور: يا وليد بن المغيرة، ويا أبا جهل بن هشام، ويا فلان، ثم ينظرون إلى الجنة فيرون فيها الفقراء والضعفاء ممن كانوا يستهزئون بهم، فيقول أصحاب الأعراف لأولئك الكفار ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾، أي: حلفتهم أنهم لا يدخلون الجنة؟ ثم يقال لأصحاب الأعراف ﴿ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾، وقال أبو مجلز: هذا خبر من الله عن أمره أهل الجنة بدخولها.

قوله عز وجل: ﴿٤٩﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَٰعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِتَابِعِينَ يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾.

قال ابن زيد في قوله: ﴿أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾ قال: يستطعمونهم ويستسقونهم فأجابهم أهل الجنة: إن الله حرم الماء والطعام على الذين جحدوا توحيدهم، وكذبوا في الدنيا رسله. وقال ابن عباس: ينادي الرجل

(١) أخرجه ابن جرير (٨/١٩٠).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٢/١٣٦).

أخاه وأباه فيقول: قد احترقت، أفض عليّ من الماء، فيقال لهم: أجيئوهم، فيقولون: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

وعن مجاهد: ﴿فاليوم ننسأهم كما نسأ لقاء يومهم هذا﴾ قال: نسأ في العذاب. وقال ابن عباس: نتركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا، وقال نسيهم الله من الخير ولم ينسهم من الشر.

وقال ابن جرير^(١): وتأويل الكلام: فاليوم نتركهم في العذاب، كما تركوا العمل في الدنيا للقاء الله يوم القيامة، وكما كانوا بآيات الله يجحدون.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَلَّنَاهُ عَلَيْهٖ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ فَمَا ظَنَنْتُمْ فَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لَمَّا آتَوْهُم بِآيَاتِنَا فَكَفَرُوا سَوَاءً أَلَمْ يَكُن لَكُمْ آيَاتٌ مِمَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٥٣﴾﴾

عن قتادة: ﴿هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله﴾ عاقبته. وقال مجاهد: جزاؤه. وقال الربيع بن أنس: فلا يزال يقع تأويله أمراً بعد أمر حتى يأتي تأويله يوم القيامة، ففي ذلك أنزل ﴿هل ينظرون إلا تأويله﴾ حيث أثناب الله تبارك وتعالى أوليائه وأعداءه ثواب أعمالهم. ﴿يقول﴾ يومئذ ﴿الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ الآية. وقال مجاهد: ﴿نسوه﴾ أعرضوا عنه.

وقوله تعالى: ﴿قد خسروا أنفسهم وذل عنهم ما كانوا يفترون﴾ قال ابن كثير^(٢): أي خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها ﴿وذلل عنهم ما كانوا يفترون﴾، أي: ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله، فلا يشفعون فيهم، ولا ينقذونهم مما هم فيه. والله أعلم.



(١) انظر «جامع البيان» (٨/٢٠٢).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٢٢٠).

الدرس الثامن والتسعون

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسْحَرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ اذْعُوا رَبَّكُمْ نَضِرُكُمْ وَخُفِيَةً إِنَّهُمْ لَا يَجِبُ الْمَعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا بِقَالَا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيْتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ كَذَلِكَ يُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۗ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُهُ إِلَّا نَكِدًا ۗ كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿إِن رَّبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسْحَرَاتٍ بِأَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ .

قال ابن جرير^(١): يقول الله تعالى ذكره: إن سيّدكم، ومصالح أموركم أيها الناس، هو المعبود الذي له العبادة من كل شيء، الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام، وذلك يوم الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة، انتهى.

وقال ابن إسحاق: كان أول ما خلق الله تبارك وتعالى النور والظلمة، ثم ميّز بينهما، فجعل الظلمة ليلاً أسود مظلماً، وجعل النور نهاراً مضيئاً مبصراً، ثم سمك السموات السبع من دخان – يقال والله أعلم: من دخان الماء – حتى استقلن ولم يحبكهن، وقد أغطش في السماء الدنيا ليلها وأخرج ضحاها، فجرى فيها الليل والنهار، وليس فيها شمس ولا قمر ولا نجوم، ثم دحى الأرض وأرساها بالجبال، وقدر فيها الأقوات، وبث فيها ما أراد من الخلق، ففرغ من الأرض وما قدر فيها من أقواتها في أربعة أيام، ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾ كما قال، فحبكهن وجعل في السماء الدنيا شمسها وقمرها ونجومها، ﴿وأوحى في كل سماء أمرها﴾ فأكمل خلقهنّ في يومين، ففرغ من خلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم استوى في اليوم السابع فوق سمواته، ثم قال للسموات وللأرض: ﴿اتبيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾ انتهى.

(١) انظر «جامع البيان» (٨/٧٠٥).

وقال ابن جرير^(١) في قوله تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم﴾^(٢) وأولى المعاني بقول الله جلّ ثناءه ﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن﴾ علا عليهن وارتفع، فدبرهن^(٣) بقدرته وخلقهن سبع سموات.

وقال البغوي^(٤) في قوله تعالى: ﴿ثم استوى على العرش﴾. قال الكلبي ومقاتل: استقر، وقال أبو عبيدة سعد؛ وأولت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء؛ فأما أهل السنة يقولون: الاستواء على العرش صفة لله تعالى بلا كيف، يجب على الرجل الإيمان به، ويكل العلم فيه إلى الله عز وجل^(٥). وسأل رجل مالك بن أنس

(١) المصدر السابق (١/١٩٢).

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٩.

(٣) في (الأصل): «قد دبرهن»، والمثبت من تفسير ابن جرير.

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٢/١٣٧).

(٥) وههنا إشكال: فإن كان يريد البغوي من قوله: «ويكل العلم فيه إلى الله عز وجل» العلم بكيفية العرش، وصفته، وكنهه، فنقول: نعم؛ وهذا هو قول أهل السنة، وهو المراد بقولهم: «أمرها كما جاءت بلا كيف».

وأظن أن هذا لا يريده البغوي، ولا يعنيه، بدليل أنه لما فسر قوله تعالى في سورة البقرة: الآية ٢١٠: «هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام...» قال: «والأولى في هذه الآية وفيما يشاكلها أن يؤمن الإنسان بظاهاها، ويكل علمها إلى الله، أو يعتقد أن الله عز اسمه منزّه عن سمات الحدث».

قلت: وهذا هو مذهب المفوضة بعينه، فهم يؤمنون بظاهر الآيات — آيات الصفات — ولا يثبتون لها معنى، فهم ينفون المعنى، ومذهب أهل السنة — رحمهم الله — إثبات الصفات التي أثبتها الله لنفسه، وأثبتها له رسوله ﷺ، إثباتاً حقيقياً — إثباتاً لفظاً، وإثباتاً للمعنى — يليق بجلاله، من غير تكييف ولا تمثيل، ولا تشبيه ولا تعطيل، فأهل السنة ينفون الكيفية — أي كيفية الصفة —، ويثبتون معناها.

وقد ذكرت ذلك فيما سبق، وبينت — بأقوال أهل العلم — أن هذا هو مذهب المفوضة، =

عن قوله: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ كيف استوى؟ فأطرق رأسه ملياً وعلاه الرخصاء ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به

= وأنه من شر مذاهب أهل البدع وأخبثها، ثم قول البغوي: «أو يعتقد أنه عز اسمه منزّه عن سمات الحدث» فهذا قول أهل البدع، الذين يموهون على العوام بهذا الكلام أنهم يتزهون الله تعالى عن مشابهة المخلوقين، وهم يعنون بذلك تعطيل الصفات الثابتة لله عز وجل: كالاستواء، والنزول والمجيء.

قال ابن تيمية - رحمه الله - في «الدرء» (١٠/٢): «وكانت المعتزلة تقول: إن الله منزّه عن الأعراض، والأبعاض، والحوادث، والحدود ومقصودهم: نفي الصفات، ونفي الأفعال، ونفي مبايئته لخلقهم، وعلوه على عرشه». اهـ.

وقال ابن القيم - رحمه الله - في «الصواعق» (٣/٩٣٤): «ويقولون نحن ننزه الله تعالى عن الأعراض، والأغراض، والأبعاض، والحدود، والجهات، وحلول الحوادث، فيسمع الغر المخدوع هذه الألفاظ فيتوهم منها: أنهم يتزهون الله عما يفهم من معانيها عند الإطلاق من العيوب، والنقائص والحاجة، فلا يشك أنهم يمجّدونه ويعظمونه، ويكشف الناقد البصير ما تحت هذه الألفاظ، فيرى تحتها الإلحاد، وتكذيب الرسل، وتعطيل الرب تعالى عما يستحقه من كماله». اهـ.

والذي أكاد أجزم به أن الشيخ فيصل - رحمه الله - لا يريد ما أراده البغوي ههنا لأمر: الأول: ما علم عن الشيخ - رحمه الله - من العقيدة السلفية الصافية من شوائب أهل البدع والضلال، يدري بذلك من عاصر الشيخ، وعرفه، ولازمه.

الثاني: أن الشيخ - رحمه الله - قد تلقى عقيدته على فطاحل علماء نجد، المعروفون بصفاء العقيدة، وكان على رأسهم الإمام الشيخ: محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله. الثالث: أن الشيخ - رحمه الله - لما أراد أن يفسر الآية ٢١٠، من سورة البقرة لم يذكر كلام البغوي الذي سقته ههنا، بل ضرب عنه صفحاً، ونقل الكلام الذي بعده مباشرة.

الرابع: أن الشيخ - رحمه الله - نقل في هذا المقام بعض كلام أهل السنة: كابن جرير، وابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير، وكل هؤلاء اتفقوا على أن آيات الصفات معلومة المعنى، فهم لا ينفون في آيات الصفات إلا الكيفية، أما المعنى فهم يثبتونه، فأهل السنة يثبتون آيات الصفات لفظاً ومعناً، والله أعلم.

واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أظنك إلا ضالاً، ثم أمر به فأخرج. وروي عن سفيان الثوري والأوزاعي والليث بن سعد وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك، وغيرهم من علماء السنة، في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهات: أمروها كما جاءت بلا كيف. انتهى.

وقال ابن كثير^(١): (وأما قوله تعالى: ﴿ثم استوى على العرش﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً، ليس هذا موضع بسطها، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح، مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه، وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه، وهو السميع البصير، بل الأمر كما قال الأئمة، منهم نعيم بن حماد الخزازي شيخ البخاري قال: من شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله، ونفى عن الله تعالى النقائص، فقد سلك سبيل الهدى) انتهى.

وقال في جامع البيان: أجمع السلف على أن استواءه على العرش صفة له بلا كيف، تؤمن به، ونكل العلم إلى الله تعالى^(٢).

وقال البخاري^(٣): باب ﴿وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم﴾. قال أبو العالية ﴿استوى إلى السماء﴾ ارتفع ﴿فسواهن﴾ خلقهن. وقال مجاهد:

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٢/٢٢٠).

(٢) وهذا الكلام فيه نظر. وراجع لازماً ما ذكرته في الصفحة السابقة.

(٣) انظر (١٣/٤١٦ - الفتح ح/٧٤١٨).

﴿استوى﴾ علا على العرش، ثم ذكر حديث عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء». الحديث.

وقال البيهقي^(١): «اتفقت أقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير، وأنه جسم خلقه الله، وأمر ملائكته بحمله».

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني^(٢): (وقد نقل أبو إسماعيل الهروي في كتاب الفاروق بسنده إلى داود بن علي قال: كنا عند أبي عبد الله بن الأعرابي، يعني محمد بن زياد اللغوي، فقال له رجل: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾، فقال: هو على العرش كما أخبر، قال: يا أبا عبد الله إنما معناه: استولى، فقال: اسكت، لا يقال استولى على الشيء إلا أن يكون له مضاد).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية^(٣): (وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله الإيمان بما أخبر الله به في كتابه، وتواتر عن رسوله، وأجمع عليه

(١) انظر كتاب «الأسماء والصفات» (١٣٤/٢) للبيهقي، وللفائدة: فالبيهقي أشعري جلد وقد نبه على أشعريته، شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه «درء تعارض العقل والنقل» في غير ما موضع، فاحذر وتنبه، واستعن بالله ثم بكتب أهل السنة، فإن فيها — والله — النجاة والعصمة من مزالق أهل البدع والضلال، نسأل الله الثبات على الإسلام والسنة حتى نلقاه.

(٢) انظر «الفتح» (٤١٧/١٣)، وللفائدة: ففي «الفتح» مواضع كثيرة — وخاصة عند شرح كتاب التوحيد — خالف فيها ابن حجر أهل السنة، متبعاً في ذلك أقوال أهل البدع من الأشاعرة، فاحذر وتنبه، وكن على بينة من أمر دينك، واسأل الله عز وجل الثبات على السنة، ومجانبة، ومباغضة أهل البدع، فإنهم في هذه الأزمان كثيرون لا كثرهم الله.

(٣) انظر (ص ١٦٩) ط دار الإفتاء. الثانية مراجعة وتصحيح الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله.

سلف الأمة من أنه سبحانه فوق سمواته على عرشه، علا على خلقه وهو سبحانه معهم أينما كانوا، يعلم ما هم عاملون، كما جمع بين ذلك في قوله: ﴿هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير﴾^(١)، وليس معنى قوله: ﴿وهو معكم﴾ أنه بالخلق مختلط، فإن هذا لا توجهه اللغة، وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق، بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته، وهو موضوع في السماء، وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان، وهو سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه، مهيمن عليهم مطلع عليهم، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته، وكل هذا الكلام الذي ذكره الله من أنه فوق العرش وأنه معنا، حق على حقيقته، لا يحتاج إلى تأويل، ولكن يسان عن الظنون الكاذبة، مثل أن يظن أن ظاهر قوله: ﴿في السماء﴾ أن السماء ثقله أو تظله، وهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان، فإن الله قد وسع كرسيه السموات والأرض، وهو الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) انتهى.

وقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

شهدت بأن وعد الله حق؛ وأن النار مشوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا
وتحملة ملائكة شداد ملائكة الإله مسوّمينا

وقال عبد الله بن المبارك: (نعرف ربنا بأنه فوق سبع سمواته، على العرش استوى، بائن من خلقه، ولا نقول كما قالت الجهمية).

(١) سورة الحديد: الآية ٤.

وقال أبو عمرو الظلمنكي: (أجمع المسلمون من أهل السنة على أن الله استوى على عرشه بذاته).

وقال أيضاً: (أجمع أهل السنة على أن الله استوى على عرشه، على الحقيقة لا على المجاز) انتهى.

وقال ابن القيم في «الجوش الإسلامية» — لما ذكر إثبات استواء الرب على العرش بالآيات القرآنية، والأحاديث الصحيحة النبوية، وأقوال الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة وغيرهم —: (والاستواء معلوم في اللغة، وهو العلو والارتفاع والتمكن، ومن الحجّة أيضاً في أن الله سبحانه وتعالى على العرش فوق السموات السبع، أن الموجودين أجمعين إذا كرمهم أمر رفعوا وجوههم إلى السماء يستغيثون الله ربهم. وقوله ﷺ للأمة التي أراد مولاها أن يعتقها: «أين الله؟ فأشارت إلى السماء، ثم قال لها: «من أنا؟ قالت: أنت رسول الله. قال: «اعتقها فإنها مؤمنة». فافتى رسول الله ﷺ منها برفع رأسها إلى السماء) انتهى.

وقال الطحاوي في «العقيدة السلفية»: (والعرش والكرسي حق، وهو سبحانه مستغن عن العرش وما دونه، محيط بكل شيء وفوقه، وقد أعجز عن الإحاطة خلقه)^(١). انتهى وبالله التوفيق. وقد قال تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾.

وقوله تعالى: ﴿يغشى الليل والنهار يطلبه حثيثاً﴾، أي: سريعاً كما قاله ابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾.

(١) انظر «شرح العقيدة الطحاوية» (٢/٣٦٤ و ٣٧٢).

قال ابن كثير^(١): أي الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيتته، ولهذا قال منبهاً: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾، أي: له الملك والتصرف ﴿تبارك الله رب العالمين﴾.

قوله عز وجل: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٥﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ قال: السر أنه لا يحب المعتدين في الدعاء ولا في غيره. وقال ابن جريج: يكره رفع الصوت والنداء والصياح بالدعاء، ويأمر بالتضرع والاستكانة. ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾، أي: لا تفسدوا فيها بالشرك والمعاصي ﴿بعد إصلاحها﴾، أي: ببعث الرسل وبيان الشريعة. ﴿وادعوه خوفاً﴾ من عقابه ﴿وطمعاً﴾ في ثوابه ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾.

قال ابن كثير^(٢): أي أن رحمته مرصدة للمحسنين، الذي يتبعون أوامره ويتركون زواجره، كما قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون﴾^(٣) الآية، وقال: ﴿قريب﴾ ولم يقل: قريبة، لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب، أو لأنها مضافة إلى الله، فهذا قال: ﴿قريب من المحسنين﴾. وقال مطر الوراق: استنجزوا موعود الله بطاعة الله، فإنه قضي أن رحمته قريب من المحسنين. رواه ابن أبي حاتم.

قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٢٢١).

(٢) المصدر السابق (٢/٢٢٢).

(٣) سورة الاعراف: الآية ١٥٦.

حَوْثٍ إِذَا أَقْلَتِ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ .

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض، وأنه المدبر لخلقه، وأمر بدعائه، نبه على أنه الرازق، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال: ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾، أي: قدام المطر ﴿حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾. قال مجاهد: إذا أراد الله أن يخرج الموتى، أمطر السماء حتى تنشق عنهم الأرض، ثم يرسل الأرواح فتعود كل روح إلى جسدها، فذلك يحيي الموتى بالمطر كإحيائه الأرض. وعن قتادة ﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا﴾. قال: هذا مثل ضربه الله في الكافر والمؤمن. وقال ابن عباس: المؤمن طيب وعمله طيب، كما البلد الطيب ثمره طيب، والكافر هو الخبيث وعمله خبيث. والله أعلم.



الدرس التاسع والتسعون

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ ۗ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَنْقُورِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَجْبَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ ۗ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَنْقُورِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۖ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَخَدَعَهُ وَنُدْرَ مَا كَانَ يَمْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَابِإِنَّمَا تَعْبُدُونَ ۖ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَضِبْتُمُ أَنْتُمْ سَمَاءُ سَمِيَّتُمْوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۖ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَنظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَجْبَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ

يَرْحَمُوْنَا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ شَمُودَ
أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ
جَاءَ تَكْمٌ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ
فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ آلِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ
خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا
وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ يُؤْتُونَ فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا
لِمَن ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ إِنَّكَ صَالِحًا مَّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ
بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنُمْ بِهِ
كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَكَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَصْلِحُ أَثِنًا بِمَا
تَعْدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ
جِثِيمٍ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُ لَقَدْ أَتَلَفْتُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ
وَلَكِن لَّا تَحِبُّونَ النَّصِيحَ ﴿٧٩﴾ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَجْشَةَ مَا
سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَأَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ
النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا
أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهَرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَمَجَّيْنَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَ أُنْتُمْ
كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ
الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ لَيْسَ بِي ضَالَّةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ .

أي عن الحق. قال البغوي^(١): قوله تعالى: ﴿أو عجبتم﴾ ألف استفهام دخلت على واو العطف. وعن زيد بن أسلم: كان قوم نوح قد ضاق بهم السهل والجبيل. وعن ابن عباس: أنه نجا مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً؛ والقصة مبسطة في سورة هود وسورة نوح.

قوله عز وجل: ﴿وإلى عادِ آخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ

(١) انظر «معالم التنزيل» (٢/١٤١).

جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ .

عن قتادة: ﴿واذكروا آية الله﴾، أي: نعمة الله. وقال ابن إسحاق: كانت منازل عاد وجماعتهم حين بعث الله فيهم هوداً الأحقاف، والأحقاف: الرمل بين عُمان إلى حضرموت فاليمن كله، وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض كلها، وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله.

قوله عز وجل: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحَدُّهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأِنَّا بِمَا نَعْبُدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَدُّونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَاَنْظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَجِئْتَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنُنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ .

قال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا﴾ قال: استأصلناهم، وقد قال الله تعالى: ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿وَإِن تَسُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عَيرٍ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ

(١) سورة الحاقة: الآيتان ٦ و ٧.

لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ
 آلِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ
 تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجِبُونَ الْجِبَالَ بَيْوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ
 وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ
 لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوهُ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ آتَمَلُّونَ أَنْ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ
 قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِءُ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي
 ءَامَنْتُمْ بِهِءُ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا
 يَصْلِحُ أَتَيْنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ
 فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورِ لَقَدْ أَتَلَفْتُمْ رَسُولًا
 رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ ﴿٧٩﴾ .

عن أبي الطفيلي قال: قالت ثمود لصالح: اتتنا بآية إن كنت من الصادقين،
 قال: فقال لهم صالح: اخرجوا إلى هضبة من الأرض، فخرجوا فإذا هي تتمخض
 كما تتمخض الحامل، ثم إنها انفرجت فخرجت من وسطها الناقة، فقال صالح:
 ﴿هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب
 آليم﴾ ﴿لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾ فلما ملّوها عقروها، فقال لهم:
 ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾ .

وذكر أهل التفسير: أن ثمود أصبحوا يوم الخميس، وهو اليوم الأول من أيام
 النظرة ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح عليه السلام، وأصبحوا في اليوم الثاني
 ووجوههم محمرة، وأصبحوا في اليوم الثالث ووجوههم مسودة، فلما أصبحوا من
 يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه، عياداً بالله من ذلك،
 لا يدرون ماذا يفعل بهم ولا كيف يأتيهم العذاب، وأشرقت الشمس، جاءتهم

صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت النفوس في ساعة واحدة، فأصبحوا في دارهم جاثمين.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهَرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ .

قال عمرو بن دينار: ما نزل ذكر على ذكر في الدنيا حتى كان قوم لوط.

وعن قتادة في قوله: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهَرُونَ﴾ قال: عابوهم بغير عيب، وذمّوهم بغير ذم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾، أي: الباقيين في العذاب.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾، أي: حجارة، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سَجِيلٍ مَنْضُودٍ مَسْوُومَةٍ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبْعِيذٍ﴾^(١). والله أعلم.



(١) سورة الحجر: الآية ٧٤.

الدرس المائة

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَعْلَمَ بِكِنَّةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ أَمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِنُخْرِجَكَ بِشُعَيْبٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرِينًا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوْلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْرَتْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِن عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِن آتَيْتُم شُعَيْبًا إِتَّكُرَ إِذَا لَخِيسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذْتُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِيحِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَان لَمْ يَفْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِي رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَأْسَىٰ عَلَىٰ

قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ
 وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَلْنَا مَا كَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ
 مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ
 الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بِرِكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا
 فَأَخَذْنَهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ
 نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًىٰ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾
 أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أُولَٰئِكَ يَهْدِي
 اللَّهُ لِدِينٍ يَّرْتُوتِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّو نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ
 عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقِصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبِيَآئِهَا وَلَقَدْ
 جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ
 يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا
 أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَمْشِيًا هُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِءِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ؕ وَأذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمُ ؕ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِأَلَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِءِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ .

قوله: ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ .

قال ابن كثير^(١): هذه دعوة الرسل كلهم. ﴿قد جاءتكم بينة من ربكم﴾ ، أي: قد أقام الله الحجج والبيّنات على صدق ما جئتكم به، ثم وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا الكيل والميزان، ولا يبخسوا الناس أشياءهم أي لا يخونوا الناس في أموالهم، ويأخذوها على وجه البخس وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليساً انتهى.

وعن ابن عباس قوله: ﴿ولا تقعدوا بكل صراطٍ توعدون وتصدون عن سبيل الله﴾ قال: كانوا يجلسون في الطريق فيخبرون من أتى عليهم، أن شعيباً عليه السلام كذب فلا يفتنكم عن دينكم. وعن السدي ﴿ولا تقعدوا بكل صراط

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٢٣١).

توعدون ﴿ قال: العشارون وعن مجاهد ﴿وتصدون عن سبيل الله﴾ قال: أهلها ﴿وتبغونها عوجاً﴾ تلتمسون لها الزبيغ.

وقوله تعالى: ﴿حتى يحكم الله﴾.

قال ابن كثير^(١): أي يفصل: ﴿وهو خير الحاكمين﴾ فإنه سيجعل العاقبة للمتقين، والدمار على الكافرين.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَفَرِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفْتَحَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَصِيحِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

قوله: ﴿أو لو كنا كارهين﴾. قال ابن كثير^(٢): (يقول: أو أنتم فاعلون ذلك، ولو كنا كارهين ما تدعوننا إليه؟ فإنا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه، فقد أعظمتنا الفرية على الله) انتهى.

وقال السدي يقول: ما ينبغي لنا أن نعود في شرككم بعد إذ نجانا الله منها، إلا أن يشاء الله ربنا، فالله لا يحب الشرك، ولكن يقول: إلا أن يكون الله قد علم شيئاً، فإنه وسع كل شيء علماً.

وعن قتادة ﴿افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾ اقض بيننا وبين قومنا بالحق. وعن ابن عباس: ما كنت أدري ما قوله ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾ حتى سمعت ابنة ذي يزن تقول لزوجها: انطلق أفاتحك.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَبِئْسَ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِذْ كَفَرُوا﴾

(١) المصدر السابق (٢/٢٣٢).

(٢) المصدر السابق (٢/٢٣٢) ٨

إِذَا الْخَسِرُونَ ﴿١٦﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمٍ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿١٧﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأَ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿١٧﴾ .

عن قتادة ﴿كان لم يغنوا فيها﴾ كان لم يعيشوا، كان لم ينعموا. وعن ابن عباس قوله ﴿فكيف آسى﴾ يعني فكيف أحزن. قال ابن إسحاق: أصاب شعيباً على قومه حزن لما يرى بهم من نعمة الله، ثم قال يعزّي نفسه فيما ذكر الله عنه ﴿يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين﴾ .

قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آءَابَاءُنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ يقول: مكان الشدة الرخاء. وعن مجاهد في قول الله ﴿مكان السيئة الحسنة﴾ والرخاء: الرخاء والمال والولد ﴿حتى عفوا﴾ قال: كثرت أموالهم وأولادهم.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٦﴾﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿١٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّو شَاءَ أَصَابْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطَّبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ .

عن ابن عباس قوله ﴿أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها﴾ يقول: أو لم يتبين لهم. وقال ابن زيد: أو لم نبين لهم ﴿أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾ قال: والهدى: البيان الذي بعث هادياً لهم مبيّناً حتى يعرفوا، لولا البيان لم يعرفوا.

قال الزجاج قوله: ﴿ونطبع﴾ منقطع عما قبله، لأن قوله ﴿أصبناهم﴾ ماضٍ ﴿ونطبع﴾ مستقبل.

قوله عز وجل: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

عن أبي بن كعب ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾ قال: كان في علمه يوم أقرّوا له بالميثاق.

وقال ابن كثير^(١): «الباء» سببية أي فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق، أول ما ورد عليهم؛ حكاة ابن عطية رحمه الله، وهو متجه حسن، كقوله ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾^(٢) ولهذا قال هنا ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين﴾ ﴿وما وجدنا لأكثرهم﴾، أي: لأكثر الأمم الماضية من عهد ﴿وإن وجدنا أكثرهم لفاسيقين﴾ والله أعلم.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٢٣٥).

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٠٩.

الدرس الواحد بعد المائة

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ
 كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ
 رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ
 الصَّادِقِينَ ﴿١٠٩﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ
 لِلنَّظِيرِينَ ﴿١١١﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿١١٢﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ
 مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٣﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١٤﴾
 يَا تَوْكُ يَا كُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿١١٥﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ
 كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٧﴾ قَالُوا يَمْوَسَّىٰ إِمَّا أَنْ
 تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٨﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ
 النَّاسِ وَاسْتَهْبَهُهُمْ وَجَاءَهُمْ بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٩﴾ ﴿١٢٠﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ
 عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١٢١﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ فَغَلَبُوا
 هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١٢٣﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِدِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ
 الْعَالَمِينَ ﴿١٢٥﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٦﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا
 لَمَكْرٌ مَكْرَتُمْؤُهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٧﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ

وَأَرْجُلِكُمْ مِّنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأَضِلَّ لَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نُنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّئْنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ
إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ
جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ
فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿١٠٩﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَنَزَعَ
يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنّٰظِرِينَ ﴿١١١﴾ .

قال البغوي^(١): قوله تعالى: ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا﴾ بأدلتنا
﴿إلى فرعون وملئه فظلموا بها﴾ فجحدها بها.

وقوله: ﴿حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق﴾ أي أنا خليق بأن لا أقول
على الله إلا الحق.

وعن قتادة ﴿فألقي عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾ قال: تحولت حية عظيمة.
وقال ابن عباس: ألقى عصاه فتحولت حية عظيمة فاغرة فاها، مسرعة إلى فرعون،
فلما رأى فرعون أنها قاصدة إليه اقتحم عن سريره فاستغاث بموسى أن يكفها عنه
ففعل.

وقوله: ﴿ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ يقول: من غير برص. قال
مجاهد: وكان موسى رجلاً آدم، فأخرج يده فإذا هي بيضاء، أشد بياضاً من اللبن
من غير سوء، قال: من غير برص آية لفرعون.

(١) انظر «معالم التنزيل» (١٥٤/٢).

قوله عز وجل: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا السِّحْرُ عَلِيمٌ ﴿١١٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١٢١﴾ يَا تَأُوكُ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿١٢٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١٢٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٢٤﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿ أرجه وأخاه ﴾ قال: آخره ﴿ وأرسل في المدن حاشرين ﴾ قال: الشُّرط، فحشر له كل ساحر متعالِم، فلما أتوا فرعون، قالوا: بم^(١) يعمل هذا الساحر قالوا: يعمل بالحيات، قالوا: والله ما في الأرض قوم يعملون بالسحر، والحيات، والحبال، والعصي أعلم منا، فما أجرنا إن غلبنا؟ فقال لهم: أنتم قرابتي وخاصتي، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتم.

قوله عز وجل: ﴿ قَالُوا يَمْوَسِيَّ إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١٢٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءَهُمْ بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١٢٦﴾ * وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَىٰ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١٢٧﴾ فَوَقَّعَ الْحَقُّ وَيَظَلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٨﴾ فَغَلِبُوا هَنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١٢٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَدِينٍ ﴿١٣٠﴾ قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٣٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمِنْتُ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَأَذِّنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنهَا ءَأَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٣٣﴾ لَأَقْطَعَنَّ ءَأَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأَضِلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٣٥﴾ وَمَا نُنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْتَ ءَأَمَّنَّا بِتَايَتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَهُ تَبَّءَأُ رَبِّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّءَأُ مُسْلِمِينَ ﴿١٣٦﴾ .

قال مجاهد: ﴿ يافكون ﴾ يكذبون، وعن السدي قال: ﴿ قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فألقوا حبالهم وعصيهم ﴾ وكانوا بضعة وثلاثين ألف رجل، ليس

(١) في (الأصل): «بما»: وهو خطأ.

منهم رجل إلا معه حبل وعصا، ﴿فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم﴾ يقول: فرّقوهم، فأوجس في نفسه خيفة موسى. وقال ابن عباس: ألقوا حبلاً غلاظاً، وخشياً طوالاً، قال: فأقبلت: ﴿يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾.

وقال السدي: أوحى الله إلى موسى: لا تخف وألق ما في يمينك تلقف ما يأفكون، فألقى عصاه فأكلت كل حية لهم، فلما رأوا ذلك سجدوا وقالوا: آمنا برب العالمين رب موسى وهارون. وقال ابن إسحاق: أوحى الله إليه أن ألق ما في يمينك، فألقى عصاه من يده فاستعرضت ما ألقوا من حبالهم وعصيتهم، وهي حيات في أعين فرعون، وأعين الناس تسعى، فجعلت تلقفها: تبتلعها حية، حتى ما يرى بالوادي قليل ولا كثير مما ألقوا، ثم أخذها موسى فإذا هي عصاه في يده كما كانت، ووقع السحرة سجداً، قالوا: آمنا برب العالمين رب موسى وهارون، لو كان هذا سحراً ما غلبنا

وعن مجاهد في قوله: ﴿فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون﴾ قال: ظهر الحق، وذهب الإفك الذي كانوا يعملون. وقال ابن عباس: لما رأت السحرة ما رأت عرفت أن ذلك أمر من السماء، وليس بسحر، فخروا سجداً، وقالوا: آمنا برب العالمين رب موسى وهارون وأمير السحرة، فقال له موسى: أرايتك إن غلبتك أتؤمن لي، وتشهد أن ما جئت به حق؟ قال الساحر: لآتين غداً بسحر لا يغلبه سحر، فوالله إن غلبتني لأؤمننّ به ولأشهدنّ أنك حق، وفرعون ينظر إليهم؛ فهو قول فرعون ﴿إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة﴾ إذا التقيتما لتظاهرا فتخرجا منها أهلها. وعن السدي ﴿لأقطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ فقتلهم وصلبهم، كما قال عبد الله بن عباس: حين قالوا: ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾ قال: كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء. والله أعلم.

الدرس الثاني بعد المائة

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ
 وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقْبِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ
 مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا ۗ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ
 عِبَادِهِ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا
 جِئْنَا ۗ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ كُمْ فِي الْأَرْضِ
 فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالْسِينِ وَنَقَصْنَا مِنْ
 الشَّرَابِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَاذْجَأَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذَا ۗ وَإِن تُبْصِرْهُمْ
 سَيَعْتَهُ ۗ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرْتَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
 يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِينَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾
 فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ۗ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا
 وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَىٰ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ۖ بِمَا
 عِهْدَ عِنْدَكَ ۗ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ۖ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي
 إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ آجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ
 يَنْكُشُونَ ﴿١٣٥﴾ فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا
 غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ
 وَمَغْرِبَهَا ۗ الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا

صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾
 وَجَنَازُنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَانٍ لَهُمْ قَالُوا
 يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَذِهِ لَأُمَّمُوتٌ مِمَّا
 هُمْ فِيهِ وَيَنْظُرُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ
 فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أُنجَيْنَاكُمْ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ
 يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي
 ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْتَرِ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرِكَ وَءِ الْهَتَكَ قَالَ سَنُقَدِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أَوْذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ .

قال البغوي^(١): قوله تعالى: ﴿وقال الملأ من قوم فرعون﴾ له ﴿أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض﴾ وأرادوا بالإفساد في الأرض دعاءهم الناس إلى مخالفة فرعون في عبادته ﴿ويذرك﴾، أي: وليذرك ﴿والهتك﴾ فلا يعبدك ولا يعبدها. قال ابن عباس: كان لفرعون بقرة يعبدها، وكان إذا رأى بقرة حسناء أمرهم أن يعبدوها، فلذلك أخرج السامري لهم عجلاً. وقال السدي: كان فرعون قد اتخذ لقومه أصناماً، وأمرهم بعبادتها، وقال لقومه: هذه آلهتكم، أراد بها: أنه^(٢) ربها وربكم، فذلك قوله ﴿أنا ربكم الأعلى﴾. وقال ابن عباس: لما آمنت السحرة اتبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل.

وقال مجاهد في قول الله: ﴿قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعدما جئتنا﴾ من إرسال الله إياك وبعده ﴿قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٢/١٥٧).

(٢) في (الأصل): «وأنا»، وهو خطأ.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيِّرُوا يَمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرْتَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣١).

عن ابن مسعود ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾ قال: سني الجوع. وقال مجاهد: الجائحة ﴿ونقص من الثمرات﴾ دون ذلك. وقال قتادة: أخذهم الله بالسنين: بالجوع عاماً فعاماً ﴿ونقص من الثمرات﴾، فأما السنين: فكان ذلك في باديتهم وأهل مواشيتهم، وأما بنقص من الثمرات: فكان ذلك في أمصارهم وقراهم.

وقال مجاهد في قوله: ﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾ العافية والرخاء ﴿قالوا لنا هذه﴾ نحن أحق بها ﴿وإن تصيبهم سيئة﴾ بلاء وعقوبة ﴿يطيروا﴾ يتشاءموا ﴿بموسى ومن معه﴾.

وقال ابن عباس: ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ قال: الأمر من قبل الله ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا تَخْنُ لَكَ يَمُومِينَ﴾ (١٣٢) فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ۗ آيَاتٍ مُفَضَّلَاتٍ فَاذْكُرُوا ۚ وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمُوسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِيُنزِلَ عَلَيْنَا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ آجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ (١٣٥).

قال ابن عباس: لما جاء موسى بالآيات، كان أول الآيات الطوفان، فأرسل

الله عليهم السماء، وقال: القمّل هو السوس الذي يخرج من الحنطة. وقال سعيد ابن جبير: لما أتى موسى فرعون قال له: أرسل معي بني إسرائيل، فأبى عليه، فأرسل الله عليهم الطوفان، وهو المطر، فصبّ عليهم منه شيئاً خافوا أن يكون عذاب، فقالوا لموسى ﴿ادع لنا ربك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل﴾ فدعا ربه، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل.

فأنبت الله لهم في تلك السنة شيئاً لم ينبت لهم قبل ذلك، من الزرع، والتمر، والكلأ، فقالوا: هذا ما كنا نتمنى، فأرسل الله عليهم الجراد فسلبه على الكلأ، فلما رأوا أثره في الكلأ عرفوا أنه لا يبقى الزرع، فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك فيكشف عنا الجراد، فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه، فكشف عنهم الجراد، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل.

فداسوا وأحرزوا في البيوت، فقالوا: أحرزنا، فأرسل الله عليهم القمل وهو السوس الذي يخرج منه، فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحا فلا يردّ منها ثلاثة أفقزة، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا القمل فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه، فكشف عنهم، فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل.

فبينما هو جالس عند فرعون، إذ سمع نقيق ضفدع، فقال لفرعون: ما تلقى أنت وقومك من هذا؟ فقال: وما عسى أن يكون كيد هذا؟ فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفدع، ويهمّ أن يتكلم فتشب الضفدع في فيه، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفدع، فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم، فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل.

فأرسل الله عليهم الدم، وكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار، أو ما كان في أوعيتهم وجدوه دماً عبيطاً، فشكوا إلى فرعون فقالوا: إنا قد ابتلينا بالدم، وليس لنا شراب، فقال: إنه قد سحركم، فقالوا: من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا

شيئاً من الماء إلا وجدناه دماً عبيطاً؟ فأتوه فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم، فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل.

قوله عز وجل: ﴿ فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنَّا غَفِيلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا الَّتِي بَنَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ .

عن الحسن في قوله ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾ قال: الشام.

وقال البغوي^(١): يعني مصر والشام ﴿التي باركنا فيها﴾ بالماء والأشجار والثمار والخصب والسعة.

وعن مجاهد في قول الله ﴿وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل﴾ قال: ظهور قوم موسى على فرعون، وتمكين الله لهم في الأرض ما ورثهم منها.

وعن ابن عباس قوله ﴿وما كانوا يعرشون﴾ يقول: بينون. وقال مجاهد ﴿يعرشون﴾ بينون البيوت والمسكن ما بلغت، وكان عندهم غير معروش، وقد قال تعالى: ﴿فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾^(٢).

قوله عز وجل: ﴿ وَجَنُوزَنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ

(١) انظر «معالم التنزيل» (٢/١٦٢).

(٢) سورة الشعراء: الآية ٥٨ — ٦٠.

عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَنْمُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ
 تَجْهَلُونَ ﴿١٣٧﴾ إِنَّ هَذِهِ لَمُتَّبِعَةٌ مَّا فِيهِ وَيَطِلُّ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٨﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ
 أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ
 فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ
 وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤٠﴾ .

عن أبي واقد الليثي قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين، فمررنا
 بسدرة قلت: يا بني الله اجعل لنا هذه ذات أنواط، كما للكفار ذات أنواط، وكان
 الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة يعكفون حولها، فقال النبي ﷺ: الله أكبر، هذا
 كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿اجعل لنا إلها كما لهم آلهة﴾، إنكم ستركبون سنن
 الذين من قبلكم»^(١). رواه ابن جرير وغيره وعن السدي ﴿إن هؤلاء متبر ما هم
 فيه﴾ يقول: مهلك ما هم فيه.

قال البغوي^(٢): والتبشير: الإهلاك ﴿وباطل﴾ مضمحل وزائل ﴿ما كانوا
 يعملون﴾ قال: يعني موسى ﴿أغير الله أبغىكم﴾، أي: أبغى لكم وأطلب إلها
 ﴿وهو فضلكم على العالمين﴾، أي: على عالمي زمانكم؟ وقوله تعالى: ﴿وإذ
 أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم
 وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾، أي: اختبار من الله لكم، وقيل: للإشارة إلى
 الإنجاء، فالبلاء بمعنى المنحة لا المنحة. والله أعلم.



(١) أخرجه أحمد (٢١٨/٥)، والترمذي (ح/٢١٨٠)، وابن جرير (٤٥/٩)، وابن حبان — كما
 في الإحسان — (ح/١٨٣٥)، والطبراني في الكبير (ح/٣٢٩٠ و ٣٢٩٤)، وهو حديث
 صحيح.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (١٦٢/٢).

الدرس الثالث بعد المائة

﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمَ مِيقَتِ رَبِّهِ ۗ
 أَزْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ
 سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٦﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ
 إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا
 تَبَعَّىٰ رَبُّهُ لِالْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ
 بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٧﴾ قَالَ يَمْوَسَىٰ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ
 بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٨﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي
 الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ
 يَأْخُذُوا بِأَحْسَنهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفٰسِقِينَ ﴿١٤٩﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ
 فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ
 لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا
 بِعَايَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غٰفِلِينَ ﴿١٥٠﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِعَايَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ
 أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥١﴾ وَاتَّخَذَ قَوْمٌ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ
 مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَدٌ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا
 اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظٰلِمِينَ ﴿١٥٢﴾ وَكَانَ سُقُوطٌ فِي أَيَدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا
 قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخٰسِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا

رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعْجَلْتُمُ أَمْرَ رَبِّكُمْ
 وَاللَّيَالِي الْأَلْوَا ح وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا
 يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ
 اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ
 اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَلِكَ نَجْزِي
 الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا
 لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَىٰ الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَا حَ وَفِي نُحُوتِهَا
 هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمَ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٤٢).

عن مجاهد: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة﴾ هو ذو القعدة، وعشر من ذي الحجة فذلك قوله: ﴿فتم ميقات ربه أربعين ليلة﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٤٣).

عن ابن عباس قوله: ﴿أرني أنظر إليك﴾ قال: أعطني. وعن أبي بكر الهذلي قال: لما تخلف موسى عليه السلام بعد الثلاثين حتى سمع كلام الله، اشتاق إلى النظر إليه فقال: ﴿رب أرني أنظر إليك قال لن تراني﴾ وليس لبشر أن يطيق أن ينظر إليّ في الدنيا، من نظر إليّ مات، قال: إلهي سمعت منطلقك، واشتقت إلى النظر إليك، ولأن أنظر إليك ثم أموت أحب إليّ من أن أعيش ولا أراك، قال: ﴿فانظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾.

وعن ابن عباس في قول الله: ﴿فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكًّا﴾ قال: ما تجلّى منه إلا قدر الخنصر ﴿جعلته دكًّا﴾ قال: تراباً ﴿وخرّ موسى صعقاً﴾ قال: مغشياً عليه، فمّرت به الملائكة، وقد صعق فقالت: يا ابن النساء الحيض، لقد سألت ربك أمراً عظيماً، ﴿فلما أفاق قال سبحانك﴾ لا إله إلا أنت ﴿تبت إليك وأنا

أول المؤمنين ﴿ قال: أنا أول من آمن أنه لا يراك أحد من خلقك، يعني في الدنيا.

قوله عز وجل: ﴿ قَالَ يَمْوسَىٰ إِنَّيَأَصْطَفَيْتَكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي
وَبِكَلِمَى فَاخْذُ مَا ءَاتَيْتَكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن
كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا
بِحَسْنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ .

عن السدي: ﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل
شيء ﴾ من الحلال والحرام. وقال سعيد بن جبير: ما أمروا ونهوا عنه.

وعن السدي: ﴿ فخذها بقوة ﴾ بجهد واجتهاد ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾
بأحسن ما يجدون فيها.

وقال ابن عباس قوله: ﴿ وكتبنا له في الألواح ﴾ يريد ألواح التوراة.

وعن مجاهد في قوله: ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ قال: مصيرهم في الآخرة.

وقال ابن كثير^(١): أي سترون عاقبة من خالف أمري وخرج عن طاعتي.

قوله عز وجل: ﴿ سَأَصْرَفُ عَن ءآيَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كَلَّ ءآيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ
سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِءآيَاتِنَا وَكَانُوا
عَنهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِءآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ
يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ .

قال ابن عيينة في قول الله: ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض
بغير الحق ﴾ يقول: انزع عنهم فهم القرآن، وأصرفهم عن آياتي.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٢٤٦).

قوله عز وجل: ﴿ وَأَخَذَ قَوْمٌ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُمْ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا أَخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ .

قال البغوي^(١): ﴿ولما سقط في أيديهم﴾، أي: ندموا على عبادة العجل؛ تقول العرب لكل نادم على أمر: قد سقط في يديه.

قوله عز وجل: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ فِي الْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ .

عن ابن عباس: ﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا﴾ يقول: أسفاً حزينا، فأخذ برأس أخيه يجره إليه، وألقى الألواح من الغضب.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتِرِينَ ﴿١٥٠﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَعَمِنُوا إِنَّا رَبُّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَنَنْفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥١﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي سُخْرِيهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٢﴾ .

قال ابن كثير^(٢): أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادتهم العجل، فهو

(١) انظر «معالم التنزيل» (١٦٨/٢).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٤٩/٢).

أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضاً، كما تقدم في سورة البقرة؛
وأما الذلّة فأعقبهم ذلك ذلّةً وصغاراً في الحياة الدنيا ﴿وكذلك نجزي المفترين﴾،
قال أبو قلابة: هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة. وقال ابن عيينة: كل صاحب
بدعة ذليل.

وقوله تعالى: ﴿ولما سكت﴾، أي: سكن ﴿عن موسى الغضب﴾، ﴿أخذ
الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾.

قال ابن كثير^(١): يقول تعالى: ﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾، أي:
غضبه على قومه ﴿أخذ الألواح﴾، أي: التي كان ألقاها من شدة الغضب على
عبادتهم العجل، غيرة لله وغضباً له ﴿وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم
يرهبون﴾ يقول كثير من المفسرين: إنه لما ألقاها تكسّرت، ثم جمعها بعد ذلك.
والله أعلم.



(١) المصدر السابق (٢/٢٤٩).

الدرس الرابع بعد المائة

﴿ وَأَخَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ
 شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِنِّي لَأَتْلُكُنَا بِمَافَعَلِ السُّفَهَاءِ مِنَّا إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ
 بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾
 ﴿ وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا وَإِلَيْكَ قَالِ عَادِي
 أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ
 وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ
 الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَا أُمَّرَهُم
 بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
 الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا
 بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ
 الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَتَّيْبُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ
 مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ
 الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾
 وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهُودُوكَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ أَشْنَاقَ عَشْرَةٍ
 أَسْبَاطًا أُمَّةً وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ أَنْ يَضْرِبَ بِعَصَاكَ
 الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ أَهْنَاءُ عَشْرَةٍ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ ۚ

وَضَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّانَ وَالسَّلْوَى كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا
رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ
لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ
وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَفِّرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ سَنَزِيدُ
الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَإِخْرَاجَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا رِّبِّيًّا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتَّهَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَكَتُبْنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا وَإِلَيْكَ ﴿١٥٦﴾ .

قال السدي: إن الله أمر موسى عليه السلام أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موعداً، واختار موسى من قومه سبعين رجلاً على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا، فلما أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة، فإنك قد كلمته فأرانا، فأخذتهم الصاعقة، فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله، ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم، ﴿لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾؟

قال في «جامع البيان»: من التجاسر على طلب الرؤية، فإن بعضاً من السبعين طلبوا الرؤية، أو من عبادة العجل، ولذلك قيل: علماؤهم ما عبدوا العجل ﴿إن هي إلا فتنتك﴾ اختبارك وامتحانك. ﴿تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك﴾ عن ابن جريج ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة﴾ قال: مغفرة ﴿وفي الآخرة إنا هدنا إليك﴾ قال ابن عباس: تبنا إليك.

وقال البغوي^(١): ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة﴾ النعمة والعافية ﴿وفي

(١) انظر «معالم التنزيل» (١٧١/٢).

الآخرة ﴿ أي وفي الآخرة جنة، أي المغفرة والجنة ﴾ ﴿إنا هدنا إليك﴾ أي تبنا إليك.

قوله عز وجل: ﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي جَاءَهُمْ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ .

قال أبو بكر الهذلي: فلما نزلت: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ قال إبليس: أنا من الشيء، ففزعاها الله من إبليس؛ قال ﴿فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ فقال اليهود: نحن نتقي، ونؤتي الزكاة، ونؤمن بآيات ربنا، ففزعاها الله من إبليس ومن اليهود، وجعلها لهذه الأمة. وعن الحسن وقتادة في قوله: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ قالوا: وسعت في الدنيا البر والفاجر، وهي يوم القيامة للذين اتقوا خاصة. وعن ابن عباس ﴿فسأكتبها للذين يتقون﴾ يعني الشرك. وقال قتادة: يتقون معاصي الله.

وعن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: «أجل، والله إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ وحرزاً للأمين أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صحاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن نقبضه حتى نقيم به الملة

العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فنقيم به قلباً غلفاً وأذاناً صمّاً وأعيناً عمياً^(١). رواه ابن جرير.

وعن ابن عباس ﴿ويحرّم عليهم الخبائث﴾ وهو لحم الخنزير والربا، وما كانوا يستحلّونه من المحرّمات من المآكل التي حرّمها الله: ﴿ويضع عنهم إصرهم﴾ قال: عهدهم. وقال الحسن: العهود التي أعطوها من أنفسهم. وعن قتادة ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ فجاء محمد ﷺ بإقالة منه وتجاوز عنه. وقال مجاهد: من اتبع محمداً ودينه من أهل الكتاب، وضع عنهم ما كان عليهم من التشديد في دينهم ﴿فالذين آمنوا به وعزّروه﴾ قال ابن عباس: حموه ووقروه.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولٌ أَلَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَتَمَنُّوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ، وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾.

في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلّت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصّة وبعثت إلى الناس عامة»^(٢). وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة^(٣) قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٨٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٣٣٥)، ومسلم (ح/٥٢١).

(٣) وهم ابن كثير وتبعه المؤلف - رحمهما الله - ، فجعلنا هذا الحديث من رواية أبي موسى، والصواب أنه من رواية أبي هريرة رضي الله عنه.

نفسى بيده، لا يسمع بي رجل من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا أدخل النار»^(١).

قوله عز وجل: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾^(١٥٩) وَقَطَعْنَهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيطًا أُمَّةً وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ: أَيْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّانَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَفِّرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾^(١٦٢).

يقول تعالى: ﴿ومن قوم موسى﴾ بني إسرائيل ﴿أمة يهدون﴾ الناس ﴿بالحق﴾ وبه يعدلون ﴿في الحكم﴾، وهم الثابتون على الحق قرناً بعد قرن، ومن آمن منهم بمحمد ﷺ كعبد الله بن سلام وأتباعه، كما قال تعالى: ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب﴾^(٣). والله أعلم.

(١) أخرجه مسلم (ح/١٥٣).

(٢) سورة آل عمران: الآيتان ١١٣ و ١١٤.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٩٩.

الدرس الخامس بعد المائة

﴿ وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي
السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا
تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ
قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّايَ رَبِّكَرُ وَلَعَلَّهُمْ
يَنْتَفُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ
ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا
قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رِبِّكَ لِبَيْعَتِنَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَمَةِ مِنْ
يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنْ رَبُّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾
وَقَطَعْنَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَسْمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ
بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرثُوا الْكِتَابَ
يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ
عَلَيْهِمْ مِثْلُ الْقِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللِّدَارُ الْآخِرَةُ
خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يَمَسُكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴿ وَإِذْ نُنَقِّنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ
وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

قوله عز وجل: ﴿ وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ
الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا
وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (١٦٣).

قال ابن عباس: هي قرية يقال أيلة بين مدين والطور، على شاطئ البحر
﴿ إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ﴾ يقول: ظاهرة على الماء من كل مكان
﴿ ويوم لا يستتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾.

قال ابن كثير^(١): ﴿ كذلك نبلوهم ﴾، أي: نختبرهم بإظهار السمك لهم على
ظهر الماء، في اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائها عنهم في اليوم الحلال لهم
صيده. ﴿ كذلك نبلوهم ﴾ نختبرهم ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ يقول: بفسقهم عن طاعة
الله، وخروجهم عنها، وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله، بما تعاطوا من
الأسباب الظاهرة، التي معناها في الباطن تعاطي الحرام، ثم ذكر حديث أبي هريرة
أن رسول الله ﷺ قال: «لا تتركبوا ما ارتكب اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى
الحيل»^(٢).

وقال قتادة: أتاهم الشيطان فقال: إنما حرّم عليكم أكلها يوم السبت. وقال
ابن عباس: ابتدعوا السبت فابتلوا فيه، فحرمت عليهم، فكانوا إذا كان يوم السبت
شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها في البحر، فإذا انقضى السبت ذهبت فلم تر حتى
السبت المقبل، فإذا جاء السبت جاءت شرعاً، فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٢٥٧).

(٢) أخرجه ابن بطه، كما عزاه له ابن كثير في تفسيره، والسيوطي في «الدر المنثور». قال ابن
كثير عن سنده: «وهذا إسناد جيد».

كذلك، ثم إن رجلاً منهم أخذ حوتاً، فحزمه بأنفه، ثم ضرب له وتداً في الساحل وربطه وتركه في الماء، فلما كان الغد أخذه فشواه فأكله، ففعل ذلك وهم ينظرون، لا ينكرون، ولا ينهاهم منهم أحد، إلاّ عصبه منهم نهوه حتى ظهر ذلك في الأسواق، وفعل علانية.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّنَا وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَیِّنٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٦﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهَوُّا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٧﴾ .

عن عكرمة قال: قال ابن عباس: نسمع الله يقول: ﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئس﴾ فلا أدري ما فعل بالفرقة الساكنة. قال عكرمة: قلت له: جعلني الله فداك، ألا تراهم قد أنكروا وكرهوا ما هم عليه وقالوا: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم﴾. وإن لم يقل الله: أنجيتهم، لم يقل: أهلكتهم، فأعجبه قولي، فرضي، وأمر لي ببردين فكسانيهما، وقال: نجت الفرقة الساكنة.

وعن قتادة ﴿فلما عتوا عما نهوا عنه﴾ يقول: لما مرد القوم على المعصية ﴿قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ فصاروا قردة لها أذنان تعاوي، بعدما كانوا رجالاً ونساء.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ .

عن مجاهد ﴿وإذ تأذن ربك﴾ قال: أمر ربك. وعن ابن عباس ﴿وإذ تأذن ربك ليعبثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾ قال يهود: وما ضرب عليهم من الذلة والمسكنة.

قوله عز وجل: ﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِّنْهُمْ الَّذِينَ خَلَفُوا مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلَهُ يَأْخُذُوهُ ۗ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّالَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۝

عن ابن عباس: ﴿ وقطعناهم في الأرض أمة ﴾ قال: كل أرض يدخلها قوم من اليهود.

وقوله تعالى: ﴿ منهم الصالحون ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يريد الذين أدركوا رسول الله ﷺ وآمنوا به. ﴿ ومنهم دون ذلك ﴾ يعني الذين بقوا على الكفر. ﴿ وبلوناهم بالحسنات ﴾.

قال البغوي^(١): بالخصب والعافية ﴿ والسيئات ﴾ الجذب والشدة ﴿ لعلمهم يرجعون ﴾ لكي يرجعوا إلى طاعة ربهم ويتوبوا.

وعن مجاهد في قوله: ﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ﴾ قال: ما أشرف لهم من شيء في اليوم من الدنيا حلال أو حرام يأخذونه، ويبتغون المغفرة، فإن يجدوا الغد مثله يأخذوه. وقال قتادة: إي والله، لَخُلْفُ سَوْءٍ.

قال ابن كثير^(٢): ثم أتى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ، كما هو مكتوب فيه، فقال تعالى: ﴿ والذين يمسكون ﴾

(١) انظر «معالم التنزيل» (١٧٦/٢).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٦٠/٢).

بالكتاب ﴿﴾، أي: اعتصموا به واقتدوا بأوامره، وتركوا زواجره ﴿﴾ وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴿﴾.

وقال في «جامع البيان»: (أي أجرهم لإصلاحهم) انتهى.

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء. قيل: من هم؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس»^(١). وفي رواية: «الذي يصلحون ما أفسد الناس من سنتي»^(٢).

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ نُنَقِّنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿٧١﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿وَإِذْ نُنَقِّنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ﴾ فقال لهم موسى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ يقول: من العمل بالكتاب، وإلَّا خَرَّ عَلَيْكُمُ الْجَبَلُ فَأَهْلَكِكُمْ، فقالوا: بل نأخذ ما آتانا الله بقوة، ثم نكثوا بعد ذلك. وقال قتادة: نزعهُ اللهُ مِنْ أَصْلِهِ ثُمَّ جَعَلَهُ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ فَقَالَ: لِتَأْخُذَنَّ أَمْرِي أَوْ لِأَرْمِيَنَّكُمْ بِهِ. وقال الحسن: لما نظروا إلى الجبل، خَرَّ كُلُّ رَجُلٍ سَاجِداً عَلَى حَاجِبِهِ الْأَيْسَرِ، وَنَظَرَ بَعَيْنَهُ الْيَمْنَى فَرَقاً مِنْ أَنْ يَسْقُطَ عَلَيْهِ، وَلِذَلِكَ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ يَهُودِي يَسْجُدُ إِلَّا عَلَى حَاجِبِهِ الْأَيْسَرِ، يَقُولُونَ: هَذِهِ السَّجْدَةُ الَّتِي رُفِعَتْ عَنَّا بِهَا الْعُقُوبَةُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.



(١) أخرجه مسلم (١٤٥/٥) حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) روي هذا الحديث - بهذا اللفظ - عن جمع من الصحابة رضي الله عنهم، وهم: جابر بن عبد الله، وعبد الرحمن بن سنة، وأبو الدرداء، وأبو أمامة، ووائلة بن الأسقع، وأنس بن مالك، وقد خرجتها - والله الحمد - في كتاب: «كشف ما ألقاه إبليس» للشيخ عبد الرحمن بن حسن - رحمه الله - فراجعهُ هنالك، ص ١٩٠ و ١٩١، وخلاصة القول: أن أسانيد هذا الحديث بهذه الزيادة جميعها ضعيفة.

الدرس السادس بعد المائة

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٦﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٧﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٨﴾ وَآتَىٰ عَلِيهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٩﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٨٠﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسِهِمْ كَانُوا بِظُلْمٍ ﴿١٨١﴾ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٨٢﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَمْ تَلْبَسُوا لَبَاسَهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آفَاقٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٨٣﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٤﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ

لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ وَأَمَلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ
جَنَّةٍ إِن هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٨﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ
اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَن عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٩﴾ مَن
يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلا هَادِي لَمْ يَدْرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٩٠﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٦﴾ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَنُهَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٧﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٨﴾﴾

في الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي»^(١). وقال ابن عباس: «إن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وتكفل لهم بالأرزاق، ثم أعادهم في صلبه، فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به، نفعه الميثاق الأول، ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يف به، لم ينفعه الميثاق الأول، ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر، مات على الميثاق الأول على الفطرة»^(٢).

قوله عز وجل: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٩﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ

(١) أخرجه البخاري (ح/٣٣٣٤)، ومسلم (ح/٢٨٠٥)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن جرير (١١٢/٩)، بسند ضعيف.

تَرَكَّهُ يَلْهَثٌ ذَاكَ مِثْلَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ
لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا
يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِيٌّ وَمَنْ يُضِلِّمْ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ .

عن عكرمة قال في ﴿الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها﴾، قال: هو بلعم (١).
وقال ابن مسعود وغيره: هو رجل من مدينة الجبارين وكان يعلم اسم الله الأعظم،
وملخص ما ذكره المفسرون: أنه كان مجاب الدعوة، وأن قومه، طلبوه أن يدعو
على موسى وقومه فأبى، فلم يزالوا به حتى أجابهم ودعا، فكان يدعو على قومه
فقالوا له: ويحك إنك تدعو علينا! فقال: لا أملك إلا ذلك، فاندلع لسانه على
صدره فقال: قد ذهبت دنياي وآخرتي ولم يبق إلا المكر والحيلة، فأخرجوا النساء
إلى العسكر مروهن أن لا يمتنعن ممن أرادهن، فإنهم إن زنوا أكفيتموهم، فخرج
النساء إلى بني إسرائيل، فزنى رجل من أشرافهم فوق عليهم الطاعون.

فهلك منهم عشرون ألفاً في ساعة من النهار، وجعل الطاعون يجوس في بني
إسرائيل، فأخذ رجل من أشرافهم حربته ثم دخل على الزاني قبته وهما متضاجعان
فانتظمهما بحربته، وكانت من حديد كلها، ثم خرج بالرجل والمرأة وجعل يقول:
اللهم هكذا يفعل بمن يعصيك، ورفع الطاعون. وعن مجاهد ﴿فمثلته كمثل الكلب
إن تحمل عليه يلهث﴾ قال: تطرده، هو مثل الذي يقرأ الكتاب ولا يعمل به. وعن
ابن عباس قوله: ﴿فمثلته كمثل الكلب إن تحمل عليه﴾ الحكمة لم يحملها، وإن
ترك لم يهتد لخير، هو الكلب إن كان رابضاً لهث وإن طرد لهث.

وقوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا
يَظْلِمُونَ﴾ .

(١) في (الأصل): «بلعام»، والمثبت من تفسير ابن جرير، وابن كثير، والبغوي، والسيوطي.

قال ابن كثير: يقول تعالى^(١): ﴿سَاءَ مَثَلًا﴾ مثل ﴿القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾، أي: ساء مثلهم أن شُبِّهوا بالكلاب التي لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾

عن ابن عباس ﴿ولقد ذرأنا لجهنم﴾ خلقنا. وقال مجاهد: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ شيئاً من أمر الآخرة ﴿ولهم أعين لا يبصرون بها﴾ الهدى ﴿ولهم آذان لا يسمعون بها﴾ الحق، ثم جعلهم كالأنعام، ثم جعلهم أسوأ شراً من الأنعام فقال: ﴿بل هم أضل﴾، ثم أخبر أنهم ﴿هم الغافلون﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر»^(٢). زاد الترمذي: «هو الله الذي لا إله إلا هو، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز الجبار، المتكبر، الخالق، الباري، المصور الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكيم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم،

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٢٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٧٣٩٢)، ومسلم (ح/٢٦٧٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق،
الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المميت،
الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، القادر،
المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي،
البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك، الملك، ذو الجلال، والإكرام،
المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي،
البدیع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور»^(١).

قوله تعالى: ﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾ الإلحاد: هو الميل عن
القصـد. قال ابن عباس: إلحاد الملحدين أن دعوا اللات في أسماء الله، وقال
مجاهد: اشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز. وقال قتادة: ﴿يلحدون﴾
يشركون.

قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾^(١٨١)
وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ^(١٨٢) وَأَمْ لِي لَهُمْ
كِتَابٌ مِّثْلُ مَا يُصَاحِبُهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ^(١٨٣)
أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ

(١) أخرجه الترمذي (ح/٣٥٠٧)، والحاكم (١٦/١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات»
(٢٨/١٠ - ٢٩)، قال الترمذي - رحمه الله - : «هذا حديث غريب... وقد روي هذا
الحديث من غير وجه عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولا نعلم في كثير شيء من الروايات له
إسناد صحيح ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث»، وقال ابن كثير - رحمه الله - (٢/٢٦٩):
«والذي عدل عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه... ثم
ليعلم أن الأسماء الحسنی غير منحصرة في تسعة وتسعين بدليل قوله ﷺ: «أسألك بكل
اسم هو لك سميت به نفسك أن أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به
في علم الغيب عندك...». اهـ. ملخصاً.

قَدْ أَقْرَبَ أَجْلَهُمْ قِيَامِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيِّ لَهْمٍ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ بلغنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: إذا قرأها: «هذه لكم، وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها ﴿وممن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾»^(١).

وقوله تعالى: ﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾. قال سفيان الثوري: نسيخ عليهم النعمة وننسيهم الشكر. وقال قتادة: ذكر لنا «أن نبي ﷺ كان على الصفا فدعا قريشاً، فجعل يفخذهم فخذاً فخذاً: يا بني فلان يا بني فلان، فحذّره بأس الله ووقائع الله، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون، بات يصوت إلى الصباح، فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين﴾»^(٢). والله أعلم.



(١) أخرجه ابن جرير (١٣٥/٩)، بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير (١٣٦/٩)، بسند ضعيف.

الدرس السابع بعد المائة

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْ قُبِهَا إِلَّا هُوَ
 نَقَلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا
 عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ
 اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا
 نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا
 زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّيْهَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ
 دَعَا اللَّهَ رَبِّهَا لِيْنِءَاتَيْنَا صَٰلِحًا لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَٰلِحًا
 جَعَلَا لَهُ شُرَكَآءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيْشُرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا
 وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى
 الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاكُمْ عَلَيْهِمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَٰحِبُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَاذْعُوهُمْ فَلَيْسَ جِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آعِينٌ
 يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا
 تُنظَرُونَ ﴿١٩٥﴾ إِنْ وَلِيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ
 مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى
 الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَدَّهُمْ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ

وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْفِتَنِ ثُمَّ لَا يُلْقِيهِمُ اللَّهُ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِنَايَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْنَاهَا قُلُوبَنَا لَوْلَا نَزَّلْنَا الْبُكُورَ لَكِنَّا فَكَّرْنَا وَرَجَعْنَا إِلَى الْبَنَاتِ أُولَئِكَ سَبِيلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُمْ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٥﴾ ﴿٢٠٦﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً ۚ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ .

عن السدي قوله: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها﴾ يقول: متى قيامها ﴿قل إنما علها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو﴾ يقول: لا يرسلها لوقتها إلا هو ﴿ثقلت في السموات والأرض﴾ يقول: خفيت في السموات والأرض، فلم يعلم قيامها متى تقوم ملك مقرب، ولا نبي مرسل. وقال ابن جريج: إذا جاءت انشقت السماء وانتشرت النجوم، وكورت الشمس، وسيرت الجبال، وكان ما قال الله، فذلك ثقلها.

وعن قتادة ﴿لا تأتيكم إلا بغتة﴾ قضى الله أنها لا تأتيكم إلا بغتة، وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «إن الساعة تهيج بالناس، والرجل يصلح حوضه، والرجل يسقي ماشيته، والرجل يقيم سلعته في السوق، ويخفض ميزانه ويرفعه»^(١) ﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾ قال مجاهد: استحفيت عنها السؤال حتى علمتها ﴿قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ .

قوله عز وجل: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۚ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ .

(١) أخرجه ابن جرير (١٤٠/٩)، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «للقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما، فلا يتبايعانه، ولا يطويانه» واللفظ للبخاري. أخرجه البخاري (ح/٦٥٠٦ و ١٧٢١) مطولاً، ومسلم نحوه (٤/٢٢٧٠).

عن ابن عباس ﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير﴾، أي: من المال. وفي رواية: لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه، فلا أبيع شيئاً إلاّ ربحت فيه ولا يصيبني الفقر. وقال ابن زيد في قوله ﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء﴾ قال: لاجتنبت ما يكون من الشر واتقيته.

قوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيئاً فَمَرَّتَ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِن آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا أَتَتْهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾.

عن قتادة ﴿فلما تغشّاهما حملت حملاً خفيفاً فمرت به﴾ استبان حملها. وقال السدي: ﴿فلما أثقلت﴾ كبر الولد في بطنها ﴿دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكوننّ من الشاكرين﴾ قال ابن عباس: أشفقا أن يكون بهيمة.

وقال سعيد بن جبير: لما هبط آدم وحواء ألقى الشهوة في نفسه فأصابها، فليس إلاّ أن أصابها حملت، فليس إلاّ أن حملت تحرك في بطنها ولدها قال: فجاءها إبليس فقال: ما هذا أتري في الأرض إلاّ ناقة أو بقرة أو ضائنة أو ماعزة أو بعض ذلك؟ قالت والله ما من شيء إلاّ وهو يضيق عن ذلك، قال: فأطعيني وسمّيه عبد الحارث تلدي شيهكما مثلكما، قالت: لآدم عليه السلام فقال: هو صاحبنا الذي قد أخرجنا من الجنة، فمات ثم حملت بآخر فجاءها فقال: أطعيني وسمّيه عبد الحارث، وكان اسمه في الملائكة «الحارث»، وإلاّ ولدت ناقة أو بقرة أو ضائنة أو ماعزة أو قتلت، فإني أنا قتلت الأول، قال: فذكرت ذلك لآدم، فكانه لم يكرهه، فسمته عبد الحارث، فذلك قوله: ﴿لئن آتيتنا صالحاً﴾^(١) يقول: شبها

(١) أخرجه ابن جرير (١٤٥/٩)، بسند ضعيف، فائدة: قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره (٢/٢٧٥): «وليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من =

مثلنا ﴿فلما آتاهما صالحاً﴾ قال: شبههما مثلهما ﴿جعلاً له شركاء فيما آتاهما﴾.

قال ابن عباس: أشركاه في طاعته في غير عبادة، ولم يشركا بالله ولكن أطاعاه. وقال قتادة: أشركا في الاسم، ولم يشركا في العبادة. وقال الحسن: عني بهذا ذرية آدم، من أشرك منهم بعده، يعني بقوله ﴿فلما آتاهما صالحاً جعلاً له شركاء فيما آتاهما﴾ وعن السدي قوله ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ يقول: هذه فصل من آية آدم خاصة في آلهة العرب.

قوله عز وجل: ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَمِيمُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْتَطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيََّ اللَّهَ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾.

قال البغوي قوله تعالى^(١): ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئاً﴾ يعني إبليس والأصنام ﴿وهم يخلقون﴾، أي: هم مخلوقون ﴿ولا يستطيعون لهم نصراً﴾، أي: الأصنام لا تنصر من أطاعها ﴿ولا أنفسهم ينصرون﴾ قال الحسن: لا يدفعون عن

= ذريته، ولهذا قال الله: «فتعالى الله عما يشركون» ثم قال: فذكر آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدها من الوالدين، وهو كالأستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس».

(١) انظر «معالم التنزيل» (١٨٦/٢).

أنفسهم مكروه من أرادهم بكسر ونحوه؛ ثم خاطب المؤمنين فقال: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى﴾ وإن تدعو المشركين إلى الإسلام لا يتبعوكم ﴿سواء عليكم أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ إلى الدين ﴿أم أنتم صامتون﴾ عن دعائهم لا يؤمنون.

﴿إن الذين تدعون من دون الله﴾ يعني الأصنام ﴿عباد أمثالكم﴾ يريد أنها مملوكة ﴿فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين﴾ أنها آلهة.

﴿ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها﴾؟ أراد أن قدرة المخلوقين تكون بهذه الجوارح والآلات وليست للأصنام، فأنتم مفضلون عليها، فكيف تعبدون من أنتم أفضل وأقدر منهم ﴿قل ادعوا شركاءكم﴾ يا معشر المشركين ﴿ثم كيدون﴾ أنتم وهم ﴿فلا تنظرون﴾، أي: لا تمهلوني.

﴿إن ولي الله الذي نزل الكتاب﴾ يعني القرآن ﴿وهو يتولى الصالحين والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون﴾ يعني الأصنام ﴿وتراهم﴾ يا محمد ﴿ينظرون إليك﴾ يعني الأصنام ﴿وهم لا يبصرون﴾ هذا قول المفسرين^(١). وقال الحسن ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى﴾ يعني المشركين ﴿لا يسمعون﴾ لا يعقلون ذلك بقلوبهم ﴿وتراهم ينظرون إليك﴾ بأعينهم ﴿وهم لا يبصرون﴾ بقلوبهم انتهى ملخصاً.

قوله عز وجل: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(١١٦)
 وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٧﴾
 الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿١١٨﴾
 وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُم فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿١١٩﴾.

(١) في (الأصل): «المفسدين»، وهو خطأ فاحش.

وعن مجاهد في قوله ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قال: عفو أخلاق الناس وعفو أمورهم.
وعن قتادة ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ قال: أخلاق أمر الله بها نبيه ﷺ ودلّه عليها. وعن ابن عباس قال: (استأذن الحرّ بن قيس لعينته بن حصن عند عمر بن الخطاب، فأذن له فدخل عليه فقال: يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى همّ أن يوقع به، فقال له الحرّ: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقافاً عند كتاب الله عز وجل^(١) راوه البخاري.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ قال: فكيف بالغضب يا رب؟ قال: ﴿وَأَمَا يَتَزَعَّتْكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. وعن مجاهد في قوله: ﴿طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ قال: الغضب. وعن السدي ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ يقول: إذا زلوا تابوا.

وعن ابن عباس ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾، قال: لا الإنس يقصرون عما يعملون من السيئات، ولا الشياطين تمسك عنهم.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِيَهُمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا أُجْتَبِئَتْهَا قُلْ إِنَّمَا أْتِيْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ لِّئَلَّامُ الْفُجُورِ﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِمْ لَهْ وَأَنْصِتْ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾ .

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٦٤٢ و٧٢٨٦).

عن قتادة قوله: ﴿وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها﴾، أي: لولا آتينا بها من قبل نفسك، هذا قول كفار قريش. وعن ابن عباس قوله: ﴿لولا اجتبيتها﴾ يقول: لولا تلقيتها، وقال مرة أخرى: لولا أحدثتها بإنشائها.

وقال البغوي^(١): قال الكلبي: كان أهل مكة يسألون النبي ﷺ الآيات تعنتاً، فإذا أخرت قالوا ﴿لولا اجتبيتها﴾، أي: هلاً أحدثتها وأنشأتها من عندك ﴿قل﴾ لهم يا محمد ﴿إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي﴾.

وقوله تعالى: ﴿وإذا قرء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾ يأمر تعالى بالإنصات عند تلاوة القرآن إعظاماً له واحتراماً، ويتأكد ذلك في الصلاة، كما وردت به الأحاديث.

وقوله تعالى: ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخفية ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين﴾ عن عبيد بن عمير قال: يقول الله: «إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني عبدي وحده ذكرته وحدي، وإذا ذكرني في ملاء ذكرته في أحسن منهم وأكرم»^(٢). ﴿إن الذين عند ربك﴾ يعني الملائكة ﴿لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون﴾. والله أعلم.



(١) انظر «معالم التنزيل» (٢/ ١٨٩٠).

(٢) سبق تخريجه.

الدرس الثامن بعد المائة

﴿سورة الأنفال﴾

مدنية، وهي خمس وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ
 بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا
 ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
 يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ
 الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَا أَخْرَجَكَ
 رَبُّكَ مِنَ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ
 بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَانَمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى
 الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ
 أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ
 كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِآلِيفٍ مِّنَ
 الْمَلَأِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا
 النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ

وَيُرِزَلْ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ يُطَهِّرُكُمْ بِهِ، وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ
 عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبُ فَأَضْرِبُوا قُوقَ الْأَعْنَاقِ
 وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ
 عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ
 الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدْهُمْ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقَوْلِ أَوْ مُتَحَرِّفًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ
 فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمَّ تَقَاتَلُوهُمْ
 وَلَكَرَّ اللَّهُ قَلْبَهُمْ وَمَارَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكَرَّ اللَّهُ رَمَىٰ وَلِيَسْبِي الْمُؤْمِنِينَ
 مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كِيدِ
 الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ
 وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدُّ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ .

قال مجاهد: الأنفال الغنائم. وقال ابن عباس: نزلت في بدر. وعن عبادة بن الصامت قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرًا، فالتقى الناس فهزم الله تعالى العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه، وأحدثت طائفة برسول الله ﷺ، لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا، نحن منعنا عنها العدو وهزمناهم، وقال الذين أحرقوا برسول الله ﷺ: خفنا أن يصيب العدو منه غرة، فاشتغلنا به فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين: وكان رسول الله ﷺ إذا أغار في أرض العدو نفل الربع، فإذا أقبل راجعاً نفل الثلث، وكان يكره الأنفال^(١). رواه أحمد وغيره.

وعن عكرمة قال: «لما كان يوم بدر، قال النبي ﷺ: من صنع كذا فله من النفل كذا، فخرج شبان الرجال فجعلوا يصنعونه، فلما كان عند القسمة قال الشيوخ: نحن أصحاب الرايات وقد كنا رداءً لكم، فأنزل الله في ذلك: ﴿قُلِ

(١) أخرجه أحمد (٣٢٤/٥)، والحاكم (١٣٥/٢)، والبيهقي في الكبرى (٢٩٢/٦)، قال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي.

الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴿١﴾ .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ .

قال ابن عباس: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون على الله، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدّون زكاة أموالهم، فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ فأدّوا فرائضه ﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾ يقول: تصديقاً ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ يقول: لا يرجون غيره، وعن سفيان قال: سمعت السدي يقول في قوله: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ قال: هو الرجل يريد أن يظلم، أو قال: يهّم بمعصية الله، أحسبه قال: فينزع عنه. وعن الربيع ﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾ قال: خشية.

قوله عز وجل : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ

(١) أخرجه ابن جرير (١٧٢/٩)، وروي مرفوعاً من حديث ابن عباس - رضي الله عنه - أخرجه أبو داود (ح/٢٧٣٧)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٤٨ - ٣٤٩)، وابن جرير (١٧٢/٩)، والحاكم (٢/٢٢١ - ٢٢٢ و ٣٢٦)، وصححه ووافقه الذهبي.

ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُوْثُ لَكُمْ وَيُرِيْدُ اللهُ أَنْ يُّحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِيْنَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَطْلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُوْنَ ﴿٨﴾ .

قال المبرد في قوله تعالى: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾ تقديره: الأنفال لله والرسول وإن كرهوا، كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن كرهوا. وقال عكرمة: ﴿فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾ الآية، إن هذا خير لكم، كما كان إخراجك من بيتك بالحق خير لك. وعن مجاهد ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾ قال: كذلك يجادلونك في الحق. وعن ابن عباس قال: «لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام، ندب إليهم المسلمين وقال: هذه غير قريش فيها أموالهم، فأخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها، فانتدب الناس فخفت بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً»^(١). وقال أيضاً: «لما شاور النبي ﷺ في لقاء القوم، وقال له سعد بن عباد ما قال، وذلك يوم بدر، أمر الناس فتعبوا للقتال، وأمرهم بالشوكة، وكره ذلك أهل الإيمان، فأنزل الله: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾»^(٢). قال ابن إسحاق: أي كراهة للقاء القوم، وإنكاراً لمسير قريش حين ذكروا لهم.

وعن قتادة قوله: ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾ قال: الطائفتان: إحداهما أبو سفيان بن حرب، إذ أقبل بالعبير من الشام، والطائفة الأخرى: أبو جهل معه نفر من قريش، فكره المسلمون الشوكة والقتال، وأحبوا أن يلقوا العير، وأراد الله ما أراد.

(١) أخرجه ابن جرير (١٨٢/٩) من طريق ابن إسحاق حدثني ابن شهاب وعاصم، وعبد الله بن أبي بكر عن عروة وغيره عن ابن عباس، والسند من ابن إسحاق إلى ابن عباس صحيح.
(٢) أخرجه ابن جرير (١٨٣/٩) بسند ضعيف.

وقال ابن زيد في قول الله: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ أن يقتل هؤلاء الذين أرادوا أن يقطع دابرهم، هذا خير لكم من العير.

قوله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

عن ابن عباس: حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لما كان يوم بدر ونظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وعدتهم، ونظر إلى أصحابه نيحاً على ثلاثمائة، فاستقبل القبلة فجعل يدعو يقول: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض. فلم يزل كذلك حتى سقط رداؤه، وأخذ أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فوضع رداءه عليه ثم التزمه من ورائه، ثم قال: كفاك فداك يا نبي الله أبي وأمي مناشدتك ربك، فإنك سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾^(١). قال مجاهد: ما مد النبي ﷺ مما ذكر الله غير ألف من الملائكة مردفين، وذكر الثلاثة والخمسة بشري، ما مدوا بأكثر من هذا الألف الذي ذكر الله عز وجل في الأنفال، وأما الثلاثة والخمسة كانت بشري.

قوله عز وجل: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الشَّيْطَانِ وَيَلْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

(١) أخرجه مسلم (٣/١٣٨٣ - ١٣٨٤).

فَكَرَّ اللَّهُ شَدِيدَ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ .

قال ابن مسعود: النعاس في القتال أمانة من الله عز وجل، وفي الصلاة من الشيطان. وعن سعيد بن المسيب ﴿وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان﴾ قال: طش كان يوم بدر فثبت الله به الأقدام. وعن مجاهد: رجز الشيطان وسوسته، أطفأ الله بالمطر الغبار، ولبد به الأرض، وطابت به أنفسهم، وثبت به أقدامهم.

وقوله تعالى: ﴿إذ يوحى ربك إلى الملائكة أتي معكم فثبتوا الذين آمنوا سألني في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ قال ابن عباس: يعني بالبنان الأطراف.

قال البغوي^(١): وروي عن أبي داود المازني، وكان شهد بدرًا قال: إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه، إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنه قد قتله غيري.

﴿ذلك بأنهم شاقوا الله﴾ خالفوا الله ورسوله. ﴿ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾. ﴿ذلكم﴾، أي: هذا العذاب والضرب الذي عجلته لكم أيها الكفار بيدر، ﴿فذوقوه﴾ عاجلاً ﴿وأن للكافرين﴾، أي: واعلموا وأيقنوا أن للكافرين آجلاً في المعاد ﴿عذاب النار﴾.

قوله عز وجل: ﴿يَكَايِتُهُ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُمْ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِنَالٍ أَوْ مَتَحَرِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ .

(١) انظر «معالم التنزيل» (٢/١٩٩).

عن الضحاك ﴿إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مَتَحَرِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ﴾ قال: المتحرّف: المتقدم من أصحابه أن يرى عورة من العدو فيصيبها، قال: والمتحرّز: الفارّ إلى النبي ﷺ وأصحابه، كذلك من فرّ اليوم إلى أميره وأصحابه. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: «أنه عدّ الفرار من الزحف في السبع الموبقات»^(١).

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّ تَقَاتَلُوهُمْ وَلَئِنْ أَلَّهَ فَنَلَّهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَئِنْ أَلَّهَ رَمَىٰ وَإِلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلََاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾﴾.

عن مجاهد في قول الله: ﴿فلم تقتلوهم﴾ لأصحاب محمد ﷺ حين قال: هذا قتلت وهذا قتلت ﴿وما رميت إذا رميت﴾ قال لمحمد حين حصب الكفار. وقال محمد بن كعب القرظي: «لما دنا القوم بعضهم من بعض، أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب فرمى، بها في وجوه القوم، وقال: شامت الوجوه، فدخلت في أعينهم كلهم، وأقبل أصحاب رسول الله ﷺ يقتلونهم ويأسرونهم، وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله ﷺ، وأنزل الله ﴿وما رميت إذا رميت ولكن الله رمى﴾ الآية. إلى ﴿إن الله سميع عليم﴾»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين﴾ قال البغوي: ذلكم الذي ذكرت من القتل والرمي والبلاء الحسن، ﴿وأن الله﴾ قيل: فيه إضمار أي واعلموا أن الله ﴿موهن﴾ مضعف ﴿كيد الكافرين﴾.

قوله عز وجل: ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَفَدِّجَاءُ كُمْ أَلْفَتْحٌ وَإِنْ تَنْهَوْا

(١) أخرجه البخاري (ح/٢٧٦٦ و ٦٨٥٧)، ومسلم (ح/١٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٠٥/٩) عن محمد بن كعب مرسلًا.

فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَّ عَنْكُمْ فِئَتِكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ .

عن الزهري في قوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ قال: استفتح أبو جهل بن هشام فقال: اللهم أيّنا كان أفجر لك، وأقطع للرحم فاحنه اليوم، يعني محمداً عليه الصلاة والسلام ونفسه؛ قال الله عز وجل: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ فضربه به ابنا عفراء وأجهز عليه ابن مسعود. وعن مجاهد قوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ كفار قريش في قولهم ربنا افتح بيننا وبين محمد وأصحابه، ففتح بينهم يوم بدر.

وعن ابن إسحاق في قوله: ﴿وَإِن تَنْتَهُوا فهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ قال: يقول لقريش: ﴿وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ﴾ لمثل الوقعة التي أصابتكم يوم بدر ﴿وَلَن تُغْنِيَّ عَنْكُمْ فِئَتِكُمْ شَيْئاً شَيْئاً وَلَوْ كَسَرْتُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وإن كثر عددكم في أنفسكم لن تغني عنكم شيئاً ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ينصرهم على من خالفهم. والله أعلم.



الدرس التاسع بعد المائة

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۚ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ بِحَوْلِ بَيْتِ الْمَرَّةِ وَقَلْبِهِ ۚ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَذَكَرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ ۚ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَخَوَّنُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فَتِنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنَقَّوْا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ثَلَمَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ۖ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابٍ

أَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ
 يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
 وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾
 وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا
 كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ
 اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى
 جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ
 عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُمْ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ
 الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ
 يُوَدُّوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَلِيلٌ مِنْهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ
 وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا كُلُّهُمْ لِيٍّ فَإِنَّ أَنْتَهُوا قَاتِلُ اللَّهِ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾
 وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ نَعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنَعَمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا
عَنهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾
﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ
خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ .

عن ابن إسحاق قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا
تولوا عنه وأنتم تسمعون﴾ أي تخالفون أمره وأنتم تسمعون أقواله .

وعن مجاهد في قول الله: ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم
لا يسمعون﴾ قال: عاصون .

وقال ابن زيد في قوله: ﴿إن شر الدواب عند الله﴾ قال: الدواب الخلق
الصم، البكم، الذين لا يعقلون، وليس بالأصم في الدنيا، ولا بالأبكم، ولكن
صم القلوب، وبكمها وعميها، وقرأ: ﴿فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب
التي في الصدور﴾^(١) .

وقال ابن جريج قوله: ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم﴾
قالوا: ائت بقرآن غير هذا، وقالوا: لولا اجتبيتها، ولو جاءهم بقرآن غيره لتولوا
وهم معرضون .

قوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ
لِمَا يَحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ

(١) سورة الحج: الآية ٤٦ .

تَحْشُرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا
 أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ
 تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
 لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ .

عن مجاهد في قول الله ﴿لم يحييكم﴾ قال: الحق. وقال قتادة هو هذا
 القرآن فيه الحياة، والعفة، والعصمة في الدنيا والآخرة.

وعن ابن عباس ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ قال: يحول بين
 المؤمن والكفر، وبين الكافر والإيمان. وعن مجاهد في قوله: ﴿يحول بين المرء
 وقلبه﴾ أي حتى يتركه لا يعقل. وعن أنس بن مالك قال: «كان النبي ﷺ يكثر أن
 يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». قال فقلنا: يا رسول الله آمنة بك
 وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله
 تعالى يقلبها»^(١). رواه أحمد وغيره.

وعن ابن عباس ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ قال: أمر
 الله المؤمنين أن لا يقرؤا المنكر بين أظهرهم، فيعمهم الله بالعذاب. وقال ابن زيد:
 الفتنة الضلالة.

وعن عكرمة قوله: ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن
 يتخطفكم الناس﴾ قال: يعني بمكة مع النبي ﷺ، ومن تبعه من قريش،
 وحلفائها، ومواليها قبل الهجرة. ﴿فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات﴾
 يعني بالمدينة.

(١) أخرجه أحمد (١١٢/٣ و ٢٥٧)، والترمذي (ح/٢١٤٠) وحسنه، وابن أبي شيبة في
 المصنف (٢٠٩/١٠)، والحاكم (٢٥٦/١)، وصححه ووافقه الذهبي. قلت: وسنده
 حسن. وأخرجه ابن ماجه (ح/٣٨٣٤) بسند ضعيف.

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا ءَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ .

قال ابن زيد في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول﴾ قال: نهاكم أن تخونوا الله والرسول، كما صنع المنافقون. وقال ابن عباس: ﴿لا تخونوا الله﴾ يقول: بترك فرائضه ﴿والرسول﴾ يقول: بترك سنته، وارتكاب معصيته، ﴿وتخونوا أماناتكم﴾ والأمانة: الأعمال لا تنقصوها.

وقوله تعالى: ﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم﴾ قال ابن مسعود: ما منكم أحد إلا مشتمل على فتنة، فمن استعاذ منكم فليستعذ بالله من مضلات الفتن.

وعن ابن إسحاق ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تقوا الله يجعل لكم فرقانا﴾ أي فصلاً بين الحق والباطل ﴿ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذْ أَنْتَ عَلَىٰ آلِهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنْ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَتْ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ لِيُعَذِّبَهُمْ وَاللَّهُ يَسْتَعْفِفُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۗ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّفُونَ

وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً
وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ .

قال البغوي^(١): قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذه الآية معطوفة على قوله: ﴿وَإِذْ كَفَرُوا إِذَا أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ واذكر ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ﴾ لأن هذه السورة مدنية، وهذا المكر والقول إنما كان بمكة، ولكن الله ذكّرهم بالمدينة، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾^(٢) وكان هذا المكر على ما ذكر ابن عباس وغيره من أهل التفسير، أن قريشاً فرّقوا لما أسلمت الأنصار أن يتعالى أمر رسول الله ﷺ، فاجتمع نفر من كبارهم في دار الندوة ليتشاوروا في أمر رسول الله ﷺ، فاعترضهم إبليس - لعنه الله - في صورة شيخ، فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال شيخ من نجد سمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم، ولن تعدموا مني رأياً ونصحاً، قالوا: ادخل، فدخل، فقال أبو البخترى: أما أنا فأرى أن تأخذوا محمداً وتحبسوه في بيت، وتشدوا وثاقه، وتسدوا باب البيت، غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه، وتربصوا به ريب المنون حتى يهلك فيه كما هلك من قبله من الشعراء. قال: فصرخ عدو الله الشيخ النجدي وقال: بش الرأي رأيتم، والله لئن حبستموه في بيت فخرج أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فيوشك أن يثبوا عليكم، ويقاتلوكم، ويأخذوه من أيديكم. قالوا: صدق الشيخ النجدي.

فقال هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي: أما أنا فأرى أن تحملوه على بعير وتخرجه من بين أظهركم، فلا يضركم ما صنع، ولا أين وقع إذا غاب عنكم واسترحتم منه. فقال إبليس لعنه الله: ما هذا لكم برأي تعمدون عليه، تعمدون

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٢٥٥).

(٢) سورة التوبة: الآية ٤٠.

إلى رجل قد أفسد أحلامكم، فتخرجونه إلى غيركم فيفسدهم؟ ألم تروا إلى حلاوة منطقته وفصاحة لسانه، وأخذ القلوب بما تسمع من حديثه؟ والله لئن فعلتم ذلك ليذهبن، وليستميلن قلوب قوم، ثم يسير بهم إليكم، فيخرجكم من بلادكم. قالوا: صدق الشيخ النجدي.

فقال أبو جهل: والله لأشيرن عليكم برأي ما أرى غيره، إني أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شاباً نسيباً وسبطاً فتياً، ثم يعطى كل فتى، منهم سيفاً صارماً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها، ولا أظن هذا الحي من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلها، وإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل فتؤدي قريش ديته. فقال إبليس: صدق هذا الفتى، وهو أجودكم رأياً، القول ما قال، لا أرى رأياً غيره.

فتفرقوا على قول أبي جهل وهم مجتمعون له. فأتى جبريل النبي ﷺ وأخبره بذلك، وأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي يبيت فيه، فأذن الله له عند ذلك بالخروج إلى المدينة، فأمر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب أن ينام في مضجعه. وقال له: «أشخ ببردتي هذه، فإنه لا يخلص إليك منهم أمر تكرهه» ثم خرج النبي ﷺ فأخذ قبضة من تراب فأخذ الله أبصارهم عنه، فجعل ينثر التراب على رؤوسهم وهو يقرأ: ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾^(١).

ومضى إلى الغار من ثور هو وأبو بكر، وخلف علياً بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده، وكانت الودائع تودع عنده ﷺ لصدقه وأمانته، وبات المشركون يحرسون علياً في فراش رسول الله ﷺ يحسبون أنه النبي ﷺ، فلما

(١) سورة يس: الآيتان ٨ و٩.

أصبحوا ثاروا إليه فرأوا علياً رضي الله عنه فقالوا: أين صاحبك؟ قال: لا أدري، فافتقوا أثره وأرسلوا في طلبه، فلما بلغوا الغار رأوا على بابهِ نسج العنكبوت فقالوا: لو دخله لم يكن نسج العنكبوت على بابهِ، فمكث فيه ثلاثاً ثم قدم المدينة، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِي كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(١). قال ابن إسحاق: فمكرت لهم بكيدي المتين ثم خلصتكم منهم.

وقال ابن جريج قوله: ﴿وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ قال: كان النضر بن الحارث يختلف تاجراً إلى فارس، فيمر بالعباد وهم يقرؤون الإنجيل ويركعون ويسجدون، فجاء مكة فوجد محمد ﷺ قد أنزل عليه وهو يركع ويسجد، فقال النضر: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ الذي سمع من العباد، فنزلت: ﴿وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ قال: فقصّ ربنا ما كانوا قالوا بمكة، وقصّ قولهم إذ قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾^(٢) الآية. وقال قتادة: قال ذلك سفهة هذه الأمة وجهلتها، فعاد الله بعائذته، ورحمته، على سفهة هذه الأمة، وجهلتها. وقال ابن عباس: لم يعذب الله قرية حتى يخرج النبي منها والذين آمنوا، ويلحق بحيث يأمن، فقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يعني المسلمين، فلما خرجوا قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الآية، فعذبهم الله يوم بدر.

(١) أخرجه ابن جرير (٢٢٧/٩)، وأبو نعيم في «الدلائل» (٢٥٨/١ - ٢٦١) عن ابن عباس رضي الله عنه، وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣٨٩/٥ - ٣٩٠)، وابن سعد (٢٢٧/١) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٣١/٩).

وعن ابن عباس قوله: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصديّة﴾
المكاء: التصفيق، والتصديّة: التصفيق.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقِيلُوا هُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَكُمْ بَصِيرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾.

قال الضحاك في قوله: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله﴾ الآية. قال: هم أهل بدر.

وقيل: نزلت في المطعمين منهم.

وقيل: نزلت في أبي سفيان.

قال ابن كثير^(١): وعلى كل تقدير فهي عامة، وإن كان سبب نزولها خاصاً.

وعن ابن عباس قوله: ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ فيميز أهل السعادة من أهل الشقاوة.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٣٠٧).

وقال ابن إسحاق في قوله: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين﴾ أي من قتل منهم يوم بدر.

وعن ابن عباس ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ يعني حتى لا يكون شرك.

وقال ابن جريج: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ أي لا يفتن مؤمن عن دينه ويكون التوحيد لله خالصاً ليس فيه شرك، ويخلع ما دونه من الأنداد.

وعن ابن إسحاق ﴿وإن تولوا﴾ عن أمرك إلى ما هم عليه من كفرهم ﴿فاعلموا أن الله مولاكم﴾ الذي أعزكم ونصركم عليهم يوم بدر في كثرة عددهم، وقلة عددكم ﴿نعم المولى ونعم النصير﴾. والله أعلم.



الدرس العاشر بعد المائة

﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَىٰ
عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّفَاقُتِ أَجْمَعَيْنِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنْتُمْ
بِالْمُدَوَّةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْمُدَوَّةِ الْآخِرَةِ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ
لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ
هَلَكَ عَنْ بَيْنَتِهِ وَيُحْيِيَ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيْنَتِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ
يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكٍ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَادَكُمُ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَلَسْتُمْ بِعِزَّةٍ
فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّكُمْ عَلَيْهِ إِذَاتِ الضُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ
التَّقِيَمِ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ
مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيْتُمْ فَنُكَّةً فَاتَّبَتُوا
وَأذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَسْزَعُوا
فَنَفْسُلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِشَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا
يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ أَيَّوْمَ
مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفُتَاتِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي
بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ

يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُمْ وَهُمْ يَتَوَكَّلُ
 عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَرِيبٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا
 الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا
 قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ
 مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ
 الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ لَمَّ يَكُ مُعَذِّبًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغِيرُوا مَا بَأْنَفْسِهِمْ
 وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا
 بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَانُوا
 ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ
وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنْتُمْ
بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ
مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا
كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ
وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكٍ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَادَكُمُ
كَثِيرًا لَفَسَلَتُمْ وَلِنَنْزَعَنَّهُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِ يُدَات
الضُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَاقُتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي
آعْيُنِهِمْ لِيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ .

قال ابن عباس: «كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا خمس الغنيمة،
فضرب ذلك الخمس في خمسة ثم قرأ ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة
وللرسول﴾^(١). قال: قوله: ﴿فإن لله خمسة﴾ مفتاح كلام ﴿لله ما في السموات وما
في الأرض﴾ فجعل الله سهم الله والرسول واحداً».

وعن الأعمش عن إبراهيم قال: كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يجعلان
سهم النبي ﷺ في الكراع والسلاح، فقلت لإبراهيم: ما كان علي رضي الله عنه
يقول فيه؟ قال: كان علي أشدهم فيه^(٢).

(١) أخرجه ابن جرير (٣/١٠)، بسندٍ ضعيف جداً.

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/١٠).

وعن حكيم^(١) بن سعد عن علي رضي الله عنه قال: يعطى كل إنسان نصيبه من الخمس، ويولي الإمام سهم الله ورسوله.

وعن ابن عباس قوله: ﴿يوم الفرقان﴾، يعني بالفرقان يوم بدر، فرّق الله فيه بين الحق والباطل. وعن قتادة قوله: ﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى﴾ وهما شفير الوادي ﴿والركب أسفل منكم﴾، يعني أبا سفيان انحدر بالغير حتى قدم بها مكة.

وقوله تعالى: ﴿ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد﴾. قال كعب بن مالك: إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون غير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.

وقوله تعالى: ﴿ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾. قال ابن إسحاق: أي ليقضي الله ما أراد بقدرته. ﴿ليهلك من هلك عن بينة﴾ لما رأى من الآيات والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك ﴿وإن الله لسميع عليم﴾.

وعن مجاهد ﴿إذ يريكم الله في منامك قليلاً﴾. قال: أراهم الله إياه في منامه قليلاً، وأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك، فكان تثبيتاً لهم ﴿ولو أراكم كثيراً لفشلتم ولتنازعتهم في الأمر ولكن الله سلّم﴾. قال ابن عباس يقول: سلّم الله لهم أمرهم حتى أظهرهم على عدوهم.

وعن ابن جريج قوله: ﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً﴾. قال ابن مسعود: قلّلوا في أعيننا حتى قلت لرجل: تراهم يكونون مائة؟ وقال السدي: قال ناس من المشركين: إن العير قد انصرفت فارجعوا، فقال أبو جهل: الآن إذ برز لكم محمد وأصحابه؟ فلا ترجعوا حتى تستأصلوهم، وقال: يا قوم

(١) في (الأصل): «حكيم بن سعد» وهو خطأ.

لا تقتلوهم بالسلاح، ولكن خذوهم أخذاً فاريطوهم بالحبال، يقوله من القدرة في نفسه.

وعن ابن إسحاق ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾، أي: ليؤلف بينهم على الحرب، للنعمة، ممن أراد الانتقام منه، والإنعام على من أراد إتمام النعمة عليه من أهل ولايته، ﴿والى الله ترجع الأمور﴾.

قوله عز وجل: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنزَعُوا فَفَشَلُوا وَيَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَكْفُرُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُمْ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾. قال: نصركم. قال: وذهبت ريح أصحاب رسول الله ﷺ حين تنازعوا يوم أحد. وقال محمد بن كعب القرظي: لما خرجت قريش من مكة إلى بدر، خرجوا بالقيان والدفوف، فأنزل الله ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورثاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط﴾^(١).

وعن ابن عباس قال: خرج إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه، رأته

(١) أخرجه ابن جرير (١٨/١٠).

في صورة رجل من بني مدلج، في صورة سراقه بن مالك بن جعشم. فقال الشيطان للمشركين: ﴿لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم﴾ فلما اصطف الناس، أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها وجوه المشركين فولّوا مدبرين، وأقبل جبريل إلى إبليس، فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين، انتزع إبليس يده فولّى مدبراً وشيعته، فقال الرجل: يا سراقه تزعم أنك لنا جار، قال: ﴿إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله، والله شديد العقاب﴾، وذلك حين رأى الملائكة^(١).

وعن الشعبي في هذه الآية ﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غرّ هؤلاء دينهم﴾. قال: كان ناس من أهل مكة تكلموا بالإسلام، فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا: ﴿غرّ هؤلاء دينهم﴾.

وقوله تعالى: ﴿ومن يتوكّل على الله فإن الله عزيز حكيم﴾، أي: من اعتصم بالله نصره.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٦﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥٧﴾ كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يَذُّوْبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ يَذُّوْبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

عن مجاهد قوله: ﴿إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم

(١) أخرجه ابن جرير (١٨/١٠) بسند ضعيف.

وأدبارهم ﴿١﴾. قال: يوم بدر. وعن الحسن قال: «قال رجل: يا رسول الله إني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشراك فما ذاك؟ قال: ضرب الملائكة»^(١). رواه ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾، أي: ويقولون لهم: ﴿وذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾. وعن مجاهد ﴿كذاب آل فرعون﴾ كفعل آل فرعون، كسنت آل فرعون.

وعن السدي ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ يقول: نعمة الله محمد ﷺ أنعم به على قريش وكفروا، فنقله إلى الأنصار.

وقال ابن كثير^(٢): (يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه، بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه).

وقوله تعالى: ﴿كذاب آل فرعون﴾، أي: كصنعه آل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته، أهلكهم بسبب ذنوبهم، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم، وما ظلمهم الله في ذلك، بل كانوا هم الظالمين) انتهى ملخصاً، والله أعلم.



(١) أخرجه ابن جرير (٢٢/١٠) بسند ضعيف.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٣٢٠).

الدرس الحادي عشر بعد المائة

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَمَا تَتَّقُهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكُرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِنَّمَا تَخَافُونَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَإِنِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِرُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِتَضَرُّعِهِ وَإِنَّمَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَالْفَتْحِ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبَكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرِيضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَدِيرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ أَكُنْ خَفَافًا عَلَى قُلُوبِكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مِرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثَقَفْتَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْزِلْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُنَافِقِينَ ﴿٥٨﴾ .

عن مجاهد قوله ﴿الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم﴾ قال: قريظة مالووا على محمد يوم الخندق أعداءه. وعن ابن عباس قوله: ﴿فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم﴾ يقول: نكل بهم من وراءهم.

وقال البغوي^(١): ﴿وإما تخافن من قوم﴾ معاهدين ﴿خيانة﴾ بما يظهر لكم من آثار الغدر، كما ظهر من قريظة والنضير ﴿فانبد إليهم﴾ فاطرح إليهم عهدهم ﴿على سواء﴾ يقول: أعلمهم قبل حربك إياهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم، حتى تكون أنت وهم في العلم بنقض العهد سواء، فلا يتوهمون أنك نقضت العهد بنصب الحرب معهم ﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾. وعن عمرو بن عبسة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ولا يشدها، حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء»^(٢). رواه أحمد وغيره.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٢/٢١٦).

(٢) أخرجه أحمد (٤/٣٨٥ — ٣٨٦)، وأبو داود (ح/١٧٥٩)، والترمذي (ح/١٥٨٠)، والنسائي في الكبرى (٥/٢٢٣ — ٢٢٤)، وهو حديث صحيح.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾^(٥٩)
 وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ
 وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾^(٦٠).

عن السدي ﴿ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون﴾ يقول:
 لا يفوتون.

قال البغوي^(١): ﴿سبقوا﴾، أي: فاتوا، نزلت في الذين انهزموا يوم بدر من
 المشركين. وعن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «قال
 الله ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾ ألا إن القوة الرمي ألا إن
 القوة الرمي ثلاثاً»^(٢).

قال ابن كثير^(٣): ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة
 والإمكان والاستطاعة فقال ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل
 ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾.

وقوله تعالى: ﴿وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ قال ابن زيد:
 هم المنافقون. وعن ابن إسحاق ﴿وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم
 وأنتم لا تظلمون﴾، أي: لا يضيع لكم عند الله أجره في الآخرة، وعاجل خلفه في
 الدنيا.

قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ

(١) انظر «معالم التنزيل» (٢/٢١٧).

(٢) أخرجه مسلم (ح/١٩١٧).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٣٢١)،

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصْرِهِ
وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ
بَيْتَ قُلُوبِهِمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنِهِمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ .

قال ابن كثير^(١): يقول تعالى: إذا خفت من قوم خيانة، فانبذ إليهم عهدهم على سواء، فإن استمروا على حربك ومناذرتك فقاتلهم ﴿وإن جنحوا﴾، أي: مالوا ﴿للسلم﴾، أي: المسالمة، والمصالحة، والمهادنة ﴿فاجنح لها﴾، أي: فمل إليها واقبل منهم ذلك، لهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ أجابهم إلى ذلك، مع ما اشترطوا من الشروط الأخر. انتهى.

وعن ابن إسحاق ﴿إن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله﴾ هو من وراء ذلك ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم﴾ على الهدى الذي بعثك به إليهم ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾ بدينه الذي جمعهم عليه، يعني الأوس والخزرج. وقال ابن مسعود: «نزلت هذه الآية في المتحابين في الله»^(٢).

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٦٤﴾

(١) المصدر السابق (٣٢٢/٢).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٣٥٢/٦)، والبراني (٢٦/١٠)، وابن أبي الدنيا في «الأخوان» (ح/١٤)، والبزار (ح/٢٠٧٧)، والحاكم (٣٢٩/٢)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. قلت: وفي سنده أبو إسحاق السبيعي مع تدليسه نحو قد اختلط بآخره، وقد صرح في بعض الطرق بالتحديث فزالت علة التدليس، وبقيّة علة الاختلاط، وقد جاء في بعض الطرق أن فضيل بن غزوان قال: «لقيت أبا إسحاق بعدما ذهب بصره فالتزمني» والله أعلم.

يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدِيرُونَ يَغْلِبُوا
مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا
يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ
مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ
الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ .

عن الشعبي في قوله ﴿يا أيها النبي حسبك الله، ومن اتبعك من المؤمنين﴾ قال: حسبك الله وحسب من كان معك. وعن عطاء في قوله ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ قال: كان الواحد لعشرة، ثم جعل الواحد باثنين، لا ينبغي له أن يفرّ منهما. وعن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية ثقلت على المسلمين، وأعظموا أن يقاتل عَشْرُونَ مِائَتِينَ وَمِائَةٌ أَلْفًا، فخَفَّفَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَنَسَخَهَا آيَةَ الْأُخْرَى فَقَالَ: ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ﴾^(١) قال: وكانوا إذا كانوا على الشطر من عدوهم، لم يبع لهم أن يفرّوا منهم، وإن كانوا دون ذلك، لم يجب عليهم أن يقاتلوا، وجاز لهم أن يتحوّزوا عنهم.

قال البغوي^(٢): وقرأ عاصم وحمزة: ﴿ضعفًا﴾ بفتح الضاد^(٣) ههنا، وفي سورة الروم، والباقون بضمّها. والله أعلم.



(١) أخرجه البخاري (ح/٤٦٥٣).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٢/٢١٩).

(٣) في (الأصل): «بفتح الفاء»، وهو خطأ.

الدرس الثاني عشر بعد المائة

﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ لَهُمْ حَتَّىٰ يُتَخَيَّرَ فِي الْأَرْضِ يُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ تَوَلَّا كَيْتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنَ لَّيْتِهِم مِّنَ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولَئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ ۞

* * *

قوله عز وجل: ﴿مَا كَان لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يَبْخَسَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ تَوَلَّا كَيْتَبٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يبخس في الأرض﴾ وذلك يوم بدر، والمسلمون يومئذ قليل، فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله تبارك وتعالى بعد هذا في الأسارى ﴿فإما منا بعد وإما فداء﴾^(١) فجعل الله النبي والمؤمنين في أمر الأسارى بالخيار، إن شاءوا قتلوهم وإن شاءوا استعبدوهم، وإن شاءوا فادوهم^(٢). وعن مجاهد قال: الإثنان: القتل.

وعن ابن عباس قال: ﴿لما أسروا الأسارى، يعني يوم بدر، قال رسول الله ﷺ: أين أبو بكر وعمرو وعلي؟ قال: ما ترون في الأسارى؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة، وأرى أن تأخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار، وعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ فقال: لا والذي لا إله إلا هو، ما أرى الذي رأى أبو بكر يا نبي الله، ولكن أرى أن تمكنتنا منهم فتمكّن علينا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكّنتي من فلان نسيب لعمر فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت، قال عمر: فلما كان من الغد جثت

(١) سورة محمد: الآية ٤.

(٢) أخرجه ابن جرير (٤٢/١٠)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٤/٢/٤)، بسند ضعيف.

إلى رسول الله ﷺ، فإذا هو وأبو بكر قاعدان يبكيان فقلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تابكيت، فقال رسول الله ﷺ: أبكي للذي عرض علي أصحابكم في أخذهم الفداء، ولقد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة، شجرة قريبة من رسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ وأحلّ الله الغنمية لهم^(١).

وعن الحسن في قوله: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ الآية. قال: إن الله كان مطعم هذه الأمة الغنيمة، وأنهم أخذوا الفداء من أسارى بدر قبل أن يؤمروا به، قال: فعاب الله ذلك عليهم ثم أحله الله.

قوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لَمَّا فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ^(٧١).

عن ابن عباس قوله: ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى﴾ إلى قوله: ﴿والله غفور رحيم﴾ يعني بذلك من أسر يوم بدر يقول: إن عملتم بطاعتي ونصحتم لرسولي آتيتكم خيراً مما أخذ منكم وغفرت لكم، قال: وكان العباس أسر يوم بدر فافتدى نفسه بأربعين أوقية، من ذهب، فقال العباس حين نزلت هذه الآية: لقد أعطانا الله خصلتين ما أحب أن لي بهما الدنيا: أني أسرت يوم بدر ففديت نفسي بأربعين أوقية فآتاني أربعين عبداً، وأنا أرجوا المغفرة التي وعدنا الله.

(١) أخرجه مسلم بنحوه (ح/١٧٦٣).

وعن السدي: ﴿وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم﴾
يقول: قد كفروا بالله ونقضوا عهده فأمكن منهم بيدر.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض﴾، يعني: في الميراث، جعل الميراث للمهاجرين والأنصار دون الأرحام، قال الله: ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾ يقول: مالكم من ميراثهم من شيء، وكانوا يعملون بذلك حتى أنزل الله ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولي ببعض في كتاب الله﴾ في الميراث، فنسخت التي قبلها، وكان الميراث لذوي الأرحام. ﴿وإن استنصروكم في الدين﴾، يعني: إن استنصركم الأعراب المسلمون أيها المهاجرون والأنصار على عدوهم ﴿فعلَيْكم﴾ أن تنصروهم ﴿إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ وعن أبي مالك قال: قال رجل: نورث أرحامنا من المشركين، فنزلت ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾ الآية.

وعن ابن عباس قوله: ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾، يعني: في الميراث ﴿إلا تفعلوه﴾ يقول، إلا تأخذوا في الميراث بما أمرتكم به ﴿تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾؛ وقال ابن جريج: إلا تعاونوا وتناصروا في الدين ﴿تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾.

وقال البغوي^(١): فالفتنة في الأرض قوة الكفر، والفساد الكبير ضعف الإسلام.

وقال ابن كثير^(٢): أي إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين، وإلّا وقعت فتنة في الناس، وهو التباس الأمر، واختلاط المؤمنين بالكافرين، فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل.

قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾.

المهاجرون على طبقتين: أهل الهجرة الأولى، وهم السابقون الأولون الذين هاجروا قبل صلح الحديبية، والطبقة الثانية: الذين هاجروا بعد الحديبية وقبل الفتح، كما قال تعالى: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعدُ وقاتلوا وكَلَّا وعد الله الحسنى﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم﴾. قال قتادة: كان لا يرث الأعرابيّ المهاجر حتى أنزل الله ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ واستدل بعموم الآية على توريث الخال ونحوه من ذوي الأرحام.

وقال ابن كثير^(٤): «الآية عامة تشمل جميع القرابات». انتهى والله أعلم.



(١) انظر «معالم التنزيل» (٢/٢٢٢).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٣٣٠).

(٣) سورة الحديد: الآية ١٠.

(٤) المصدر السابق (٢/٣٣١).

الدرس الثالث عشر بعد المائة

﴿سورة التوبة﴾

مدنية، وهي مائة وتسع وعشرون آية

عن ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المثين، وقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر «بسم الله الرحمن الرحيم»، ووضعتموها في السبع الطوال، ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: «إن رسول الله ﷺ كان مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا أنزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هذه الآية في السورة الذي يذكر فيها كذا وكذا». وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، وخشيت أنها منها، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها في السبع الطوال»^(١) رواه الترمذي وغيره.

(١) أخرجه أحمد (٦٩/١ و ٥٧٥)، وأبو داود (ح/٧٦٨)، والترمذي (ح/٣٠٨٦)، والنسائي في الكبرى (١٠/٥)، والحاكم (٢/٢٢١ و ٣٣٠)، وصححه، ووافقه الذهبي!! قلت: وفي سنده يزيد الفارسي وهو مجهول، وليس هو يزيد بن هرمز الثقة، وقال أحمد شاکر عن هذا الحديث: «ضعيف جداً؛ بل هو حديث لا أصل له» ثم قال بعدما ذكر أنه من رواية الفارسي: «فلا يقبل منه مثل هذا الحديث يتفرد به، وفيه تشكيك في معرفة سور القرآن، =

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۚ فَسِيحُوا فِي
الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۚ ۞ وَأَذِّنْ
مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ
فَإِنْ تَبَتُّمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ
الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۚ ۞ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ
يَنْفُصُواكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِيَّايَ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۚ ۞ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ
وَخَذُوهُمْ وَاحْضَرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا
الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۚ ۞ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ
اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّلغَهُ مَأْمَنَةً ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا
يَعْلَمُونَ ۚ ۞ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا
الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۚ ۞ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً
يَرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَسِيقُونَ ۚ ۞ اشْتَرَوْا بِعَائِدَتِ اللَّهِ
ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۚ ۞ لَا يَرْقُبُونَ فِي
مُؤْمِنِينَ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ۚ ۞ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنَفَصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۚ ۞ وَإِنْ

= الثابتة بالتواتر القطعي، قراءة وسماعاً وكتابةً في المصاحف، وفيه تشكيك في إثبات
البسمة في أوائل السور، كأن عثمان كان يثبتها برأيه وينفيها برأيه وحاشاه من ذلك فلا
علينا إذا قلنا: إنه «حديث لا أصل له». اهـ. قلت: وهو كلام في غاية التحقيق، فراجعه
إن شئت. انظر «المسند لأحمد بن حنبل» تحقيق: أحمد شاكر (١/٣٩٨ - ٣٩٩).

كَفَرُوا أَيَّمَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَبِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ
 إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تَقْنَلُونَ قَوْمًا نَكَرُوا
 أَيْمَنَّهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدءُوكُمْ أُولَئِكَ مَرْفُءٌ
 اتَّخَشَوْنَهُمْ فَأَلَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ
 بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾
 وَيَذْهَبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ
 حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ
 وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ١ ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ ٢ ﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ٣ ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا لِيَتِيمَهُمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ٤ ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ٥

قال ابن إسحاق: بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج من سنة تسع، ليقيم للناس حجهم، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم، فخرج أبو بكر ومن معه من المسلمين، ونزلت سورة براءة في نقض ما بين رسول الله ﷺ وبين المشركين من العهد الذي كانوا عليه فيما بينه وبينهم، أن لا يصد عن البيت أحد جاءه، وأن لا يخاف أحد في الشهر الحرام؛ وكان ذلك عهداً عاماً بينه وبين الناس من أهل الشرك، وكانت بين ذلك عهد بين رسول الله ﷺ وبين قبائل من العرب خصائص إلى أجل مسمى، فنزلت فيه وفيمن تخلف عنه من المنافقين في تبوك، وفي قول من قال منهم، فكشف الله فيها سرائر أقوام كانوا يستخفون بغير ما يظهرون، منهم من سمي لنا ومنهم من لم يسم لنا، فقال: ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾، أي: لأهل العهد

العام من أهل المشركين من العرب ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ إلى قوله: ﴿إن الله بريء من المشركين ورسوله﴾، أي: بعد هذه الحجّة.

وعن أبي هريرة قال: بعثني رسول الله ﷺ مع أبي بكر في الحجّة التي أمره رسول الله ﷺ عليها. قبل حجّة الوداع في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر: «الآن لا يحجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»^(١). قال الزهري: فكان حميد يقول: يوم النحر الأكبر. رواه ابن جرير وغيره.

وعن ابن إسحاق ﴿إلّا الذين عاهدتم من المشركين﴾، أي: العهد الخاص إلى الأجل المسمى ﴿ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فاتّموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله لا يحب المتقين﴾.

وعن مجاهد في قوله ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرام﴾ إنها الأربعة التي قال الله ﴿فسيحوا في الأرض﴾ قال: هي الحرم من أجل أنهم أنظروا فيها حتى يسيحوها. وفي الحديث الصحيح: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلّا بحق الإسلام وحسابهم على الله تعالى»^(٢) رواه مسلم.

قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قال ابن إسحاق: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك﴾، أي: من هؤلاء الذين أمرتك بقتالهم ﴿فأجره﴾ قال مجاهد: إنسان يأتيك، فيسمع ما تقول، ويسمع ما أنزل عليك فهو آمن، حتى يأتيك فيسمع كلام الله، وحتى يبلغ مأمنه حيث جاء. قال السدي: كلام الله القرآن.

(١) أخرجه البخاري (ح/١٢٢)، ومسلم (ح/١٣٤٧).

(٢) أخرجه مسلم (ح/٢٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

قوله عز وجل: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ .

قال ابن كثير^(١): بيّن لك حكمته في البراءة من المشركين، ونظرته إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ثقفوا فقال تعالى: ﴿كيف يكون للمشركين عهد﴾، أي: أمان، ويتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله.

﴿إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام﴾ يعني يوم الحديبية. قال ابن إسحاق: هم قبائل بني بكر الذين كانوا دخلوا في عهد قريش وعقدهم يوم الحديبية، إلى المدة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين قريش، فلم يكن نقضها إلا هذا الحي من قريش وبنو الدليل من بكر، فأمر بإتمام العهد لمن لم يكن نقض عهده من بني بكر إلى مدته، ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين﴾ .

وقوله تعالى: ﴿كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة﴾، أي: كيف يكون لهؤلاء المشركين الذين نقضوا عهدهم، أو لمن لا عهد له منهم عهد وذمة، وهم إن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة؟ قال ابن عباس: الإل: القرابة، والذمة: العهد، وقال الشاعر:

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٣٣٧).

أفسد الناس خلفو خلفوا قطعوا الإلّ وأعراف^(١) الرحم

وقوله تعالى: ﴿يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون﴾، أي:

لا عهد لهم.

وقوله تعالى: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون﴾. قال ابن مسعود: أمرتم بالصلاة والزكاة فمن لم يرك فلا صلاة له. وقال الربيع عن أنس مرفوعاً: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وعبادته لا يشرك به، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، فارقها والله عنه راضٍ»^(٢). رواه البزار.

قوله عز وجل: ﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقللوا أيمّة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون﴾^(١٢) أَلَا نُقَلِّبُوكُمْ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَ اللَّهَ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١٣) قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَضْرِبُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾^(١٤) وَيَذْهَبُ غِيظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَهًا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١٦).

عن ابن عباس قوله: ﴿وإن نكثوا إيمانهم﴾ يعني أهل العهد من المشركين،

(١) في (الأصل): «وأعراض»، وهو خطأ.

(٢) أخرجه ابن ماجه (ح/٧٠) والبزار كما في تفسير ابن كثير (٢/٣٣٨)، والحاكم (٢/٣٣٢)،

بسند ضعيف.

سمّاهم: أئمة الكفر، وهم كذلك، يقول الله لنبيه: وإن نكثوا العهد الذي بينك وبينهم، فقاتل ﴿أئمة الكفر﴾ لأنهم لا إيمان لهم ﴿لعلهم يتتهون﴾.

وعن السدي قوله ﴿ألاً تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسول﴾ يقول: همّوا بإخراجه فأخرجوه ﴿وهم بدؤوكم أول مرة﴾ بالقتال. قال مجاهد: قتال قريش حلفاء محمد ﷺ.

وقوله: ﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ قال السدي خزاعة يشف صدورهم من بني بكر ﴿ويذهب غيظ قلوبهم﴾ حين قتلهم بنو بكر وأعانهم قريش.

وقوله: ﴿ويتوب الله من بعد ذلك على من يشاء﴾، أي: فيهديه إلى الإسلام ﴿والله عليم حكيم﴾. وقال ابن زيد في قوله ﴿أم حسبتم أن تتركوا﴾ إلى قوله ﴿وليجة﴾ قال: إني أتركهم دون التمحيص.

قال البغوي^(١): ﴿وليجة﴾ بطانة وأولياء يوالونهم ويفيضون إليهم أسرارهم. والله أعلم.



(١) انظر «معالم التنزيل» (٢/٢٣١).

الدرس الرابع عشر بعد المائة

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ۗ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۗ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۖ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَالْحَامِيَةِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۗ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ ۗ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۗ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۖ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ

عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ حُنُودًا لَهُمْ تَرَوُّهَا وَعَذَبَ الَّذِينَ كَفَرُوا^٤
وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾

* * *

قوله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَيْهِ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ .

قال ابن إسحاق: ثم ذكر قول قريش: إنا أهل الحرم، وسقاة الحاج، وعمارة هذا البيت، ولا أحد أفضل منا، قال: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾، أي: أن عمارتكم ليست على ذلك ﴿إنما يعمر مساجد الله﴾، أي: من عمرها بحقها ﴿من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله﴾ فأولئك عمارها ﴿فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ «وعسى» من الله حق.

وعن ابن عباس قوله: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر﴾ قال العباس بن عبد المطلب حين أسر يوم بدر: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعمل المسجد الحرام ونسقي الحاج ونفك العاني، قال الله: ﴿أجعلتم سقاية الحاج﴾ إلى قوله: ﴿الظالمين﴾ يعني أن ذلك كان في الشرك، ولا أقبل ما كان في الشرك.

وقال السدي: افتخر علي، وعباس، وشيبة بن عثمان، فقال العباس: أنا أفضلكم، أنا أسقي حجاج بيت الله، وقال شيبة: أنا أعمار مسجد الله، وقال علي: أنا هاجرت مع رسول الله ﷺ وجاهدت معه في سبيل الله، فأنزل الله ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله﴾ إلى ﴿نعيم مقيم﴾ وعن جابر بن عبد الله قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله سبحانه: أعطيتكم أفضل من هذا، فيقولون: ربنا أي شيء أفضل من هذا؟ قال: رضواني»^(١).

قوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَأَلَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾».

قال البغوي^(٢): لما نزلت الآية الأولى قال الذين أسلموا ولم يهاجروا: إن نحن هاجرنا ضاعت أموالنا وذهبت تجارتنا، وخربت دورنا وقطعنا أرحامنا، فنزلت: ﴿قل إن كان آباؤكم﴾ الآية. والله أعلم.

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ

(١) أخرجه ابن حبان (٢٦٥/٩) (الإحسان)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢٨٢/١)، وأيضاً في «صفة الجنة» (ح/٢٨٣)، والحاكم (٨٢/١) وقال: صحيح على شرط الشيخين! ووافقه الذهبي!! قلت: وهو صحيح.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٢/٢٣٤).

الْأَرْضِ بِمَا رَحِمْتُمْ ثُمَّ وَإِنتُمْ مُدْرِيرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ
وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ
جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ .

حُتَيْن: موضع بين مكة والطائف، اجتمعت فيه هوازن وثقيف بعد الفتح،
فخرج عليهم النبي ﷺ في اثني عشر ألفاً، عشرة من المهاجرين والأنصار، وألفان
من الطلقاء، فقال رجل أصحاب النبي ﷺ: لن نُغلب اليوم من قلة، فلما التقوا
انهزم المسلمون، وثبت رسول الله ﷺ ومعه العباس وأبو سفيان بن الحارث ابن
عم النبي ﷺ ونفرٌ معهم، فلما غشيه المشركون نزل عن بغلته وهو يقول: «أنا
النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»، قال البراء بن عازب: فما رأي يومئذ أحد
من الناس كان أشدَّ منه. وقال رجل كان في المشركين يوم حنين: لما التقينا نحن
وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين، لم يقوموا لنا حلب شاة، قال: فلما كشفناهم
جعلنا نسوقهم في أديارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء، فإذا هو
رسول الله ﷺ قال: فتلقانا عنده رجال بيض الوجوه حسان الوجوه، فقالوا لنا:
شاهت الوجوه ارجعوا، قال: فانهزمتنا وركبوا أكتافنا فكانت إياها. وقال السدي:
نادى رسول الله ﷺ يوم حنين: «أين الأنصار؟ أين الذين بايعوا تحت الشجرة؟
فترجع الناس، فأنزل الله الملائكة بالنصر، فهزموا المشركين يومئذ، وذلك قوله:
﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾^(١) الآية.
والله أعلم.



(١) أخرجه مسلم (٣/١٣٩٨ - ١٣٩٩) بنحوه، وبعضه في البخاري انظر (ح/٢٧٦٤ و ٢٨٧٤ و ٢٩٣٠ و ٣٠٤٢ و ٤٣١٥ و ٤٣١٦ و ٤٣١٧).

الدرس الخامس عشر بعد المائة

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ
 الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
 إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَنِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا
 بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ
 الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾
 وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ
 ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ
 قَنِلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ
 أَرْكَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا
 إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾
 يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ
 الْكٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى
 الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ كَثُرَ
 مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَطْلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ
 سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْفُرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُخْتَمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا

جَاهُهُمْ وَجَنُوبِهِمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنٌ لَهُمْ سُوءٌ أَعْمَلِيهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ .

عن الضحاك في قوله: ﴿إنما المشركون نجس﴾ قال: قدر، وقيل: خبيث. وعن قتادة قوله: ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ وهو العام الذي حج فيه أبو بكر، ونادى علي - رحمه الله عليهما^(١) - بالأذان، وذلك لتسع سنين مضين من هجرة رسول الله ﷺ، وحج نبي الله ﷺ من العام المقبل حجة الوداع.

وقال ابن عباس: لما نفى الله المشركين عن المسجد الحرام، ألقى الشيطان في قلوب المؤمنين الحزن قالوا: من أين تأكلون وقد نفى المشركون وانقطعت عنكم العير؟ فقال الله: ﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء﴾ فأمرهم بقتال أهل الكتاب وأغناهم من فضله.

وعن مجاهد: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ حين أمر محمد وأصحابه بغزوة تبوك.

(١) الأولى ههنا التعبير بالترضي عنهما، كما قال تعالى في حق الصحابة أجمعين: «لقد رضي الله على المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة... الآية». وقوله: «رضي الله عنهم ورضوا عنه» وهذا الدعاء صفة لازمة للصحابة رضي الله عنهم به يميز من ليس منهم.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَنَلَهُمُ اللَّهُ أَن يَكُونُوا يَأْتِخُدُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحٰنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

عن ابن عباس قوله: ﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله﴾ وإنما قالوا هو ابن الله من أجل أن عزيزاً كان في أهل الكتاب، وكانت التوراة عندهم يعملون بها ما شاء الله أن يعملوا، ثم أضاعوها وعملوا بغير الحق، وكان التابوت فيهم، فلما رأى الله أنهم قد أضاعوا التوراة وعملوا بالأهواء، رفع الله عنهم التابوت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم، وأرسل الله عليهم مرضاً فاستطلقت بطونهم، حتى جعل الرجل يمشي كبده، حتى نسوا التوراة ونسخت من صدورهم، وفيهم عزيز فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا بعدما نسخت التوراة من صدورهم وكان عزيز قبل من علمائهم، فدعا عزيز الله، وابتهل إليه، أن يرد إليه الذي نسخ من صدورهم من التوراة، فبينما هو يصلي مبتهلاً إلى الله، نزل نور من الله فدخل جوفه فعاد إليه الذي كان ذهب من جوفه من التوراة، فأذن في قومه فقال: يا قوم قد آتاني الله التوراة ورددتها إليّ، فعلق يعلمهم، فمكثوا ما شاء الله وهو يعلمهم؛ ثم إن التابوت نزل بعد ذلك، وبعد ذهابه منهم، فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان فيه على الذي كان عزيز يعلمهم فوجدوه مثله، فقالوا: والله ما أوتي عزيز هذا إلا أنه ابن الله. وعن السدي: ﴿يضاهئون قول الذين كفروا من قبل﴾ قال: النصارى يضاهئون قول

اليهود في عزير. وعن ابن عباس: قالوا مثل قول أهل الأوثان، قاتلهم الله، يقول: لعنهم الله، وكل شيء في القرآن قتل فهو لعن.

وقوله تعالى: ﴿أَنى يُؤفكون﴾. قال البغوي^(١): أنى يصرفون عن الحق بعد قيام الأدلة عليه؟ وعن الحسن ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً﴾ قال: في الطاعة. وفي حديث عدي بن حاتم عن النبي ﷺ: «كانوا يحلّون لهم ما حرّم الله فيستحلّونه، ويحرّمون ما أحلّ الله فيحرّمونه»^(٢).

وعن السدي ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم﴾ يقول: يريدون أن يطفئوا الإسلام بكلامهم وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى، فقلت: يا رسول الله إن كنت لأظنّ حين أنزل الله عز وجل ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون﴾ أن ذلك تامّ، قال: إنه سيكون من ذلك ما شاء الله عز وجل، ثم يبعث الله ريحاً طيبة، فيتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم»^(٣). رواه مسلم.

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ

(١) انظر «معالم التنزيل» (٢/٢٤١).

(٢) أخرجه الترمذي (ح/٣٠٩٥)، وابن جرير (١٠/١١٤)، والبيهقي (١٠/١١٦)، قال الترمذي: «حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث»، قلت: وضعفه الدارقطني، وللحديث شاهد عن حذيفة موقوفاً: أخرجه ابن جرير (١٠/١١٥)، والبيهقي (١٠/١١٦)، وفي سنده انقطاع، والحديث حسنه شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في كتابه «الإيمان» ص ٦٤.

(٣) أخرجه مسلم (ح/٢٩٠٧).

بِعَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ
وَجُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ
تَكْتُمُونَ ﴿٣٥﴾ .

عن السدي: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأخبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل﴾ أما الأخبار فمن اليهود، وأما الرهبان فمن النصارى، وأما سبيل الله فمحمد ﷺ. وعن ابن عمر قال: «كل مال أديت زكاته فليس بكنز، وإن كان مدفوناً في الأرض، وكل مال لم تؤد زكاته فهو الكنز الذي ذكره الله في القرآن، يُكْوَى به صاحبه وإن لم يكن مدفوناً».

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الَّذِي يُقِيمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَ عَامًا وَيُحْرِمُونَ عَامًا لِيُؤَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ رَبِّينَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ .

عن ابن عمر قال: خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع بمنى في أوسط أيام التشريق فقال: «يا أيها الناس، إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، أولهن رجب مضر بين جمادى وشعبان وذو القعدة وذو الحجة والمحرم»^(١). رواه ابن جرير وغيره.

(١) أخرجه ابن جرير (١٢٥/١٠) بسند ضعيف. لكن الحديث ثابت من حديث أبي بكره - رضي الله عنه - أخرجه البخاري (ح/٤٦٦٢)، ومسلم (ح/١٦٧٩).

وقال ابن زيد في قوله: ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ قال: الظلم العمل بمعاصي، الله والترك لطاعته.

وعن ابن عباس قوله: ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ في كلهن، ثم خصّ من ذلك أربعة أشهر، فجعلهن حراماً، وعظّم حرّمتهنّ، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم ﴿وقاتلو المشركين كافة﴾ يقول: جميعاً. وقال: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾ يقول: يتركون المحرّم عاماً، وعاماً يحرمونه. وقال مجاهد: كان رجل من بني كنانة يأتي كل عام في الموسم على حمار له فيقول: أيها الناس، إني لا أعاب، ولا أحاب، ولا مردّ لما أقول، إنا قد حرّمنا المحرّم، وأخرنا صفر، ثم يجيء العام المقبل بعده، فيقول مثل مقالته ويقول: إنا قد حرّمنا صفر، وأخرنا المحرّم، فهو قوله: ﴿ليواطئوا عدة ما حرّم الله﴾ قال: يعني الأربعة ﴿فيحلّوا ما حرّم الله﴾ لتأخير هذا الشهر الحرام. والله أعلم.



الدرس السادس عشر بعد المائة

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا أَثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعْنَا فَاَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيْدِيَهُمْ يُجْزَوْنَ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السُّعْيَةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَفِذُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَفِذُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَزَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَرَادُوا

الْخُرُوجَ لِأَعْدَاؤِ لَكُمْ عُدَّةً وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ
 أَقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا ضَعُفًا
 خَلَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾
 لَقَدْ ابْتِغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ
 اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُوا ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذَن لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي
 الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِنْ تُصِيبَكَ
 حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ
 وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ
 مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بِنَا إِلَّا
 إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَتَحْنُ نَرْتَبِصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ
 أَوْ يَأْتِيَنَا فَرْتَبِصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرْتَضُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ
 يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِتْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ
 نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ
 كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهِونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ
 إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾
 وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيْتَهُمْ لِمَنْكُمُ وَمَا هُمْ بِمَنْكُرٌ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ
 يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَبَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَالَكُمُ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَنْفِرُوا بِعَذَابِكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا أَتَيْنَ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ مَعَنَا فَنَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

قال مجاهد: أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح، وبعد الطائف، وبعد حين أمروا بالنفير في الصيف، حين خرفت النخل، وطابت الثمار، واشتهوا الظلال، وشق عليهم المخرج. وقال ابن عباس: «إن رسول الله ﷺ استنفر حياً من أحياء العرب فأتاقلوا عنه، فأمسك عنهم المطر، فكان ذلك عذابهم، فذلك قوله: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا بِعَذَابِكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾» (١).

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا أَتَيْنَ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ مَعَنَا فَنَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(١) أخرجه ابن جرير (١٣٤/١٠) بسند ضعيف.

حكيم ﴿. قال مجاهد: ذكر ما كان في أول شأنه حين بعثه، يقول الله: فأنا فاعل ذلك به وناصره كما نصرته إذ ذاك، وهو ثاني اثنين. وقال قتادة: فكان صاحبه أبو بكر، وأما الغار فجبل بمكة يقال له ثور. وعن أنس: أن أبا بكر رضي الله عنه حدثهم قال: «بينما أنا مع رسول الله ﷺ في الغار، وأقدام المشركين فوق رؤوسنا، قلت: يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه أبصرنا، فقال: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»^(١).

وعن ابن عباس: ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى﴾ وهي: الشرك بالله ﴿وكلمة الله هي العليا﴾ وهي: لا إله إلا الله.

وقوله تعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ عن الحسن في قوله: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ قال: شيئاً وشباناً، وقال الحكم: مشاغيل وغير مشاغيل.

قوله عز وجل: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِآلِهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٦﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَسْتَفْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ إِنَّمَا يَسْتَفْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَرْدَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ أُنْعَابَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٥١﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضِعُوا خِلَالَكُمْ بِبَعُونِكُمْ أَلْفَنَّةً

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٦٦٣)، ومسلم (ح/٢٣٨١).

وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدْ آتَيْنَا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُوا ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُمْ مَّن يَكْفُرُ أَتَدْنُ لِي وَلَا تَنْفَتِيَّ إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿لو كان عرضاً قريباً﴾ إلى قوله: ﴿لكاذبون﴾ أنهم يستطيعون الخروج، ولكن كانت ثبطة من عند أنفسهم والشيطان، وزهادة في الخير.

وعن مجاهد: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ قال: ناس قالوا: استأذنوا رسول الله، فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا. وقال قتادة: عاتبه كما تسمعون، ثم أنزل الله التي في سورة النور، فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء، انتهى.

قلت: نزول هذه الآية بعد نزول آية النور، لأنها نزلت في غزوة تبوك، وآية النور نزلت في الخندق وهو في سنة خمس. والله أعلم.

قال ابن عيينة: انظروا إلى هذا اللطف، بدأ بالعفو قبل أن يخبره بالذنب.

وعن ابن عباس قوله: ﴿لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ فهذا تعبير للمنافقين حين استأذنوا في القعود عن الجهاد من غير عذر، وعذر الله المؤمنين فقال: لم يذهبوا حتى يستأذنوه.

وقوله تعالى: ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبّطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾ قال ابن إسحاق: كان الذين استأذنوه فيما بلغني من ذوي الشرف، منهم: عبد الله بن أبي ابن سلول والجد بن قيس، وكانوا أشرفاً في قومهم، فثبّطهم الله لعلمه بهم، أن يخرجوا معه فيفسدوا عليه جنده.

وعن قتادة: ﴿وَلَا وَضَعُوا خِلالَكُمْ﴾ قال: لأسرعوا خلالكم ﴿يَبْغُونَكُمْ﴾ الفتنه ﴿بذلك﴾ وفيكم ﴿من يسمع كلامهم﴾. ﴿لقد ابغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور﴾ قال ابن إسحاق: أي ليخذلوا عنك أصحابك ويردوا عليك أمرك ﴿حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون﴾.

وعن ابن عباس: ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني﴾ قال: هو الجد بن قيس قال: قد علمت الأنصار أنني إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أفتن، ولكن أعينك بمالي.

وقوله تعالى: ﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾ قال ابن إسحاق: أي إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم.

وقال البغوي^(١): ﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾، أي: في الشرك والإثم وقعوا، بنفاقهم وخلافهم أمر الله ورسوله ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾.

قوله عز وجل: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسُؤِهِمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ قَرِحُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿إن تصيبك حسنة تسؤهم﴾ إن كان فتح للمسلمين كبر ذلك عليهم وساءهم ﴿وإن تصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل﴾ قال مجاهد: حذرنا.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٢/٢٥٣).

وعن ابن عباس قوله: ﴿هل تریصون بنا إلا إحدی الحسنین﴾ يقول: فتح أو شهادة. ﴿ونحن نتریص بكم أن یصیبکم الله بعذاب من عنده﴾ بالموت ﴿أو بأیدینا﴾ قال: القتل.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُنْقَبَلَ مِنْكُمْ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهِونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِمَنْكُرٍ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَبَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ .

عن الحسن: ﴿إنما يريد ليعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾ قال: بأخذ الزكاة والنفقة في سبيل الله.

وعن ابن عباس قوله: ﴿لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون﴾ ملجأ يقول: حرزاً ﴿أو مغارات﴾، يعني: الغيران ﴿أو مدخلا﴾ يقول: ذهاباً في الأرض، وهو النفق في الأرض، وهو السرب.

قال البغوي^(١): ومعنى الآية أنهم لو يجدون مخلصاً منكم، ومهرباً لفارقوكم. والله أعلم.



(١) انظر «معالم التنزيل» (٢/٢٥٤).

الدرس السابع عشر بعد المائة

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُتَنَفِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزَؤْا إِنَّا اللَّهُ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذَرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن تَعْفَ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ تُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُتَنَفِقُونَ وَالْمُتَنَفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيهِمْ

إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفٰلسِفُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ
وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكٰفِرَ نَارَ جَهَنَّمَ خٰلِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ لِهَؤُمْ
عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا
وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خٰضُوا أَوْلِيٰك حِيَطَتْ أَعْمٰلُهُمْ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَأَوْلِيٰك هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرٰهِيمَ وَأَصْحٰبِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ
أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ يٰبَيِّنَاتٍ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ وَلٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيٰءُ بَعْضٍ يٰمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلٰوةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكٰوةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ أَوْلِيٰك سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسٰكِنَ طَيِّبَةً فِي
جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوقِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ .

عن قتادة قوله ﴿ومنها من يلزمك في الصدقات﴾ يقول: ومنها من يطعن عليك في الصدقات؛ وذكر لنا «أن رجلاً من أهل البادية حديث عهد بأعرابية، أتى نبي الله ﷺ وهو يقسم ذهباً وفضة فقال: يا محمد والله لئن كان الله أمرك أن تعدل ما عدلت. فقال نبي الله ﷺ: ويحك فمن جاء يعدل عليك بعدي؟ ثم قال نبي الله ﷺ: احذروا هذا وأشباهه، فإن في أمتي أشباه هذا، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، فإذا خرجوا فاقتلوهم، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم»^(١).

وقوله تعالى: ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون﴾.

قال البغوي^(٢): وجواب «لو» محذوف، أي لكان خيراً لهم وأعوذ عليهم.

وعن الحسن ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ قال: الفقير الجالس في بيته، والمساكين الذي يسعى. وقال ابن عباس: المساكين الطوافون، والفقراء

(١) أخرجه البخاري (ح/٣٦١٠ و٥٠٥٨ و٦١٦٣ و٦٩٣١ و٦٩٣٣)، ومسلم (ح/١٠٦٤).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٢/٢٥٥).

فقراء المسلمين. وقال مجاهد: الفقير الذي لا يسأل، والمسكين الذي يسأل. وقال ابن أُنزَي: كان ناس من المهاجرين لأحدهم الدار، والزوجة، والعبد، والناقة يحجّ عليها ويغزو، فنسبهم الله إلى أنهم فقراء وجعل لهم سهماً في الزكاة.

وعن قتادة ﴿والعاملين عليها﴾ قال: جُباتها الذين يجمعونها ويسعون فيها.

وعن ابن عباس قوله ﴿والمؤلفة قلوبهم﴾ وهم قوم كانوا يأتون رسول الله ﷺ قد أسلموا، وكان رسول الله ﷺ يرضخ لهم من الصدقات، فإذا أعطاهم من الصدقات فأصابوا منها خيراً قالوا: هذا دين صالح، وإن كان غير ذلك عابوه وتركوه وعن أبي جعفر قال: في الناس اليوم المؤلفة قلوبهم. وعن الحسن ﴿وفي الرقاب﴾ قال: هم المكاتبون.

وعن مجاهد في قوله: ﴿والغارمين﴾ هم قوم ركبتهم الديون في غير فساد ولا تبذير، فجعل الله لهم في هذه الآية سهماً.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿وفي سبيل الله﴾ قال: الغازي في سبيل الله.

وعن مجاهد ﴿وابن السبيل﴾ قال: لابن السبيل حق من الزكاة وإن كان غنياً، إذا كان منقطعاً به. وعن حذيفة في قوله: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها﴾ قال: إن شئت جعلته في صنف واحد، أو صنفين، أو لثلاثة. وقال عطاء: لو وضعتها في صنف واحد من هذه الأصناف أجزاءك، ولو نظرت إلى أهل بيت من المسلمين فقراء متعقّفين، فجبّرتهم بها كان أحبّ إليّ.

قوله عز وجل: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤَدُّونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ

وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنِ
يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ
الْعَظِيمُ ﴿٦٨﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ
قُلِ اسْتَزِرُّوهُ وَإِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٩﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا
كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧٠﴾ لَا
تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ
كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٧١﴾

عن ابن عباس قوله ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن﴾ يسمع من كل أحد.

وقوله: ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ يعني يؤمن بالله ويصدق المؤمنين. وقال ابن إسحاق: يقول الله ﴿قل أذن خير لكم﴾، أي: يستمع الخير ويصدق به. وقال قتادة: ذكر لنا «أن رجلاً من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، وإن كان ما يقول محمد حقاً لهم شرٌّ من الحمير. قال: فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد حقٌّ ولأنت شرٌّ من الحمار. فسعى بها الرجل إلى نبي الله ﷺ، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال له: ما حملك على الذي قلت؟ فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك. قال: وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب. فأنزل الله في ذلك ﴿يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين﴾^(١).

وعن مجاهد ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة﴾ يقول: يقولون القول بينهم، ثم يقولون: عسى الله أن لا يفسى سرنا علينا. وقال قتادة: كانت تسمى هذه السورة: الفاضحة، فاضحة المنافقين. وعن ابن عمر قال: «قال رجل في غزوة

(١) أخرجه ابن جرير (١٧٠/١٠) بسند ضعيف.

تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قرأتنا هؤلاء أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبين عند اللقاء. فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك النبي ﷺ، ونزل القرآن. قال عبد الله بن عمر: فأنا رأيت متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أبالله وآياته ورسوله كتتم تستهزون لا تعتذوا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿إن نعت عن طائفة منكم نعتب طائفة بأنهم كانوا مجرمين﴾ قال ابن إسحاق: كان الذي عفى عنه فيما بلغني مخشي بن حمير^(٢) الأشجعي حليف بني سلمة، وذلك أنه أنكر منهم بعض ما سمع.

قوله عز وجل: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيهِمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِمَخْلَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِمَخْلَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِمَخْلَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّةٌ آَعَمْنَاهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٦٣/٤ ب)، وابن جرير (١٧٢/١٠)، وله شاهد بنحوه عن كعب بن مالك أخرجه ابن أبي حاتم (٦٤/٤ ب). كما أنه روي مرسلًا عن قتادة، وزيد بن أسلم، ومحمد بن كعب القرظي، وبمجموعها يكون الحديث حسن إن شاء الله تعالى.

(٢) في (الأصل): «عمير»، وهو خطأ.

قَوْمٍ تُوجِّعُ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمَ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ
 أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ
 يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ .

عن مجاهد في قول الله ﴿ويقبضون أيديهم﴾ قال: لا يسطونها بنفقة في حق. وقال قتادة ﴿يقبضون أيديهم﴾ عن كل خير. ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ نسوا من الخير ولم ينسوا من الشر.

وقوله تعالى: ﴿كالذين من قبلكم﴾ .

قال البغوي^(١): أي فعلتم كفعل الذين من قبلكم، بالعدول عن أمر الله، فلعنتم كما لعنوا. وقال ابن عباس: ما أشبه الليلة بالبارحة ﴿كالذين من قبلكم﴾ هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم. وعن الحسن ﴿فاستمعوا بخلاقهم﴾ قال: بدينهم.

وقال البغوي^(٢): فتمتعوا وانتفعوا ﴿بخلاقهم﴾ بنصيبيهم من الدنيا باتباع الشهوات، رضوا به عوضاً عن الآخرة ﴿فاستمعتم بخلاقكم﴾ أيها الكفار والمنافقون ﴿كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم﴾ وسلكتهم سبيلهم ﴿وخضتم﴾ في الباطل والكذب على الله وتكذيب رسله والاستهزاء بالمؤمنين ﴿كالذي خاضوا﴾، أي: كما خاضوا. وساق حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ: «لتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم. قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن»^(٣).

قوله عز وجل: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ يَأْمُرُونَ

(١) انظر «معالم التنزيل» (٢/٢٦٠).

(٢) المصدر السابق (٢/٢٦١).

(٣) أخرجه البخاري (ح/٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله

بِالْمَعْرُوفِ وَرَتَّهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَّ اللَّهُ
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ
طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ .

قال ابن كثير^(١): لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة، عطف بذكر صفات المؤمنين الحميدة فقال ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾، أي: يتناصرون ويتعاضدون.

وقوله تعالى: ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومسكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم﴾ عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: أنا أعطيتكم أفضل من ذلك. قالوا: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ قال: أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»^(٢). متفق عليه والله أعلم.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣٦٩/٢).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٦٥٤٩ و ٧٥١٨)، ومسلم (ح/٢٨٢٩).

الدرس الثامن عشر بعد المائة

﴿يَأْتِيهَا النَّجِيُّ جَهْدِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوِيَهُمْ جَهَنَّمُ
وَبئسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ
إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ
يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَوَلُّوا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا
لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وِليٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ * وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ يَأْتِيَنَّكَ مِنْ
فَضْلِهِ لَنَصَدَقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُمُ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ
وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ
مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ
وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جَهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ
سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ
سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ
يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ
حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾
فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعَذُّوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا

وَلَنْ نُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِذْ كُنْتُمْ رَضِيئِينَ بِالْقُعُودِ أَوْلَىٰ مَرْفَقًا فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٢﴾ وَلَا تَصِلْ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۗ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ۗ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْفَاعِلِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولِيَّتِكَ هُمْ الْخَيْرَاتُ ۗ وَأُولِيَّتِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿٧٦﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَعْذِبْنَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٦﴾﴾.

عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿جاهد الكفار والمنافقين﴾ قال: بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلمه، فإن لم يستطع فليكفهر في وجهه. وعن ابن عباس قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾ فأمره الله بجهاد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان، وأذهب الرفق عنهم؛ وعنه قال: «كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة فقال: إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا جاء فلا تكلموه، فلم يلبث أن طلع رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: علام تشمتني أنت وأصحابك؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا وما فعلوا، حتى تجاوز عنهم، فأنزل الله ﴿يحلفون بالله ما قالوا﴾ ثم نعتهم جميعاً إلى آخر الآية»^(١).

وعن حذيفة بن اليمان قال: «كنت أخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به وعمار يسوق الناقة، حتى إذا كنا بالعقبة، فإذا أنا باثني عشر راكباً قد اعترضوه فيها، قال فانبهت رسول الله ﷺ بهم فصرخ بهم فولوا مدبرين، فقال لنا رسول الله ﷺ: هل عرفتم القوم؟ قلنا: لا يا رسول الله قد كانوا مثلثمين، ولكننا قد

(١) أخرجه ابن جرير (١٨٥/١٠ - ١٨٦).

عرفنا الركاب، قال: هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة، وهل تدرون ما أرادوا؟ قلنا: لا. قال: أرادوا أن يزاحموا رسول الله في العقبة. قلنا: يا رسول الله أفلا تبعث إلى عشائركم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ قال: لا، أكره أن تتحدث العرب بينهما أن محمداً قاتل بقوم، حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم»^(١).

قوله عز وجل: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنِ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبِ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾

عن ابن عباس قوله: ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله﴾ الآية، وذلك أن رجلاً يقال له ثعلبة بن أبي حاطب من الأنصار، أتى مجلساً فأشهدهم فقال: لئن آتاني الله من فضله آتيت منه كل ذي حقّ حقه، وتصدقت منه، ووصلت منه القرابة، فابتلاه الله فاتاه من فضله، فأخلف الله ما وعده، وأغضب الله بما أخلف ما

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٥/٢٦٠ - ٢٦١). وفي سنده انقطاع. وله شاهد من حديث أبي الطفيل - رضي الله عنه - أخرجه أحمد (٤٥٣/٥)، بسند لا بأس به. وشاهد من حديث عروة - رضي الله عنه - : أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٥/٢٥٦ - ٥٧) وفي سنده ابن لهيعة وهو ضعيف، غير أنه لا بأس له في المتابعات، والشواهد.

وعده، فقصّ الله شأنه في القرآن ﴿ومنها من عاهد الله﴾ الآية إلى قوله: ﴿يكذبون﴾^(١). وفي الحديث الصحيح: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»^(٢). وعن ابن عباس قوله: ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات﴾ قال: «جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى النبي ﷺ، وجاءه رجل من الأنصار بصاع من طعام، فقال بعض المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء، وقالوا: إن كان الله ورسوله لغنيين عن هذا الصاع»^(٣).

وعن ابن عباس قوله: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ إلى قوله: ﴿القوم الفاسقين﴾ فقال رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية: «اسمع ربي قد رخص لي فيهم، فوالله لأستغفرنّ أكثر من سبعين مرة فلعلّ الله أن يغفر لهم». فقال الله من شدة غضبه عليهم: ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾^(٤).

(١) أخرجه ابن جرير (١٨٩/١٠)، بسند، ضعيف وبنحو من عن أبي أسامة - رضي الله عنه - أخرجه ابن جرير (١٨٩/١٠)، وابن أبي حاتم (٧٢/٤ ب - ٧٣/أ)، والطبراني في الكبير (٢٦٠/٨ - ٢٦١)، والبيهقي في «الدلائل» (٢٩٠/٥ - ٢٩١) بسند ضعيف جداً. فالقصة لم تثبت بسند صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٣٣ و ٢٦٨٢ و ٢٧٤٩)، ومسلم (ح/٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه ابن جرير (١٩٤/١٠)، وابن أبي حاتم (٧٣/٤ ب) بسند ضعيف. وله شاهد من حديث أبي سلمة: أخرجه ابن جرير (١٩٥/١٠)، وابن أبي حاتم (٧٤/٤ أ) وشاهد آخر من حديث أنس أو غيره أخرجه ابن أبي حاتم (٧٣/٤ ب). كما أنه روي مرسلًا عن قتادة، ومجاهد، والربيع بن أنس.

(٤) أخرجه ابن جرير (٢٠٠/١٠) بسند ضعيف، لكن صح الحديث من وجه آخر بأطول من هذا من حديث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ، وفيه فقال رسول الله ﷺ: «آخر عني يا =

قوله عز وجل: ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعَذُّوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَائِلِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ ۞

قال ابن إسحاق: ذكر قول بعضهم لبعض حين أمر رسول الله ﷺ بالجهاد، وأجمع السير إلى تبوك على شدة الحر وجذب البلاد، يقول الله جل ثناؤه ﴿وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا﴾.

وعن ابن عباس قوله: ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً﴾ قال: هم المنافقون والكفار الذين اتخذوا دينهم هزواً ولعباً، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فليضحكوا قليلاً﴾ في الدنيا ﴿وليبكوا كثيراً﴾ في النار.

وعن جابر بن عبد الله أن رأس المنافقين مات بالمدينة، فأوصى أن يصلى عليه النبي ﷺ، وأن يكفن في قميصه، فكفنه في قميصه وصلى عليه وقام على قبره، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ولا تصل على أحد منهم

= عمر» فلما أكثر عليه قال: «إن خيرت، فاخترت، لو أعلم أنني إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها» فصلى عليه رسول الله ﷺ، فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة». أخرجه البخاري (ج/١٣٦٦ و ٤٦٧١)، وبنحوه مسلم (ج/٢٧٧٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴿١﴾.

قوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَلْعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَوْلِيَّتِكُمْ هُمْ الْخَيْرَاتُ وَأُولِيَّتِكُمْ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿استأذنتك أولوا الطول منهم﴾ يعني: أهل الغنى والخوالف، هن النساء. والله أعلم.



(١) أخرجه ابن ماجه (ح/١٥٢٤)، وابن جرير (٢٠٥/١٠) بسند ضعيف.

الدرس التاسع عشر بعد المائة

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذَّبُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضَّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحَدٌ مَّا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ وَسِيرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَرَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْعَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيُعْرَضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآ وَنَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَلَا يَرْضَى اللَّهُ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا
قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَالسَّيِّئُونَ
الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ .

قال الفراء: ﴿المعذرون﴾ المعتذرون، أدغمت التاء في الذال ونقلت حركة التاء إلى العين. قال أبو عمرو بن العلاء: كلا الفريقين كان مسيئاً، قوم تكلفوا عذراً بالباطل وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله: ﴿وجاء المعذرون﴾، وقوم تخلفوا من غير تكلف عذر فقعدوا جرأة على الله تعالى وهم المنافقون.

وعن ابن عباس قوله: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾ إلى قوله: ﴿حزناً أن لا يجدوا ما ينفقون﴾ وذلك «أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن يبعثوا غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل المزني فقالوا: يا رسول الله احملنا، فقال لهم رسول الله ﷺ: والله ما أجد ما أحملكم عليه، فتولوا ولهم بكاء، وعزيرٌ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ومحملاً، فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه فقال: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج﴾ إلى قوله: ﴿فهم لا يعلمون﴾^(١).

(١) أخرجه ابن جرير (٢١١/١٠) بسند ضعيف.

قوله عز وجل: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ بَيَّنَّا اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَمَنْ تَرَدُّوتْ إِلَىٰ عَلَيْهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَا وَنَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ .

قال كعب بن مالك في حديثه المشهور: لما قدم رسول الله ﷺ من تبوك جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ووكّل سرائرهم إلى الله؛ وصدّقته حديثي، فوالله ما أنعم الله عليّ من نعمة قطّ بعد أن هداني للإسلام، أعظم في صدقي رسول الله ﷺ، أن لا أكون كذبه فأهلك كما هلك الذين كذبوا، إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرّ ما قال لأحد ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس، وما واهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون﴾ إلى قوله: ﴿فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُودِ الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ ذَايِرَةٌ السَّوَاءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا يَأْتِيَ قُرْبَةً لَهُمْ سَيَدِّخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩﴾ وَالسَّيِّفُوتِ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ

(١) انظر حديث في البخاري (ح/٤٤١٨)، ومسلم (٤/٢١٢٠ - ٢١٢٨).

يَا حَسَنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩٧﴾ .

عن إبراهيم قال: جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه،
وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند فقال: إن حديثك ليعجبني، وإن يدك لتريني،
فقال زيد: وما يريك من يدي؟ إنها الشمال، فقال الأعرابي: والله ما أدري اليمين
تقطعون أم الشمال. فقال زيد بن صوحان: صدق الله: ﴿الأعراب أشدّ كفراً ونفاقاً
وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾. قال ابن جرير: يقول: وأخلق
أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله. وقال قتادة: هم أقلّ علماً بالسنن.

وقوله تعالى: ﴿ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرمًا﴾ قال عطاء: لا يرجو
على إعطائه ثواباً، ولا يخاف على إمساكه عقاباً، إنما ينفق خوفاً ورياء ﴿ويتربص
بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم
الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول﴾. قال قتادة: دعاء الرسول
﴿ألا إنها قرية لهم سيدخلون الله في رحمته إن الله غفور رحيم﴾.

وعن سعيد بن المسيب قوله: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين
والأنصار﴾ قال: هم الذين صلّوا القبليتين جميعاً. وقال الشعبي: هم الذين بايعوا
بيعة الرضوان.

قال ابن جرير^(١): (وأما الذين اتبعوا المهاجرين والأنصار بإحسان، فهم
الذين أسلموا وسلّكوا منهاجهم في الهجرة والنصرة وأعمال الخير) انتهى.

﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعدّ لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين
فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾ فيا ويل من سبهم وأبغضهم، وقد أخبر الله أنه راضٍ
عنهم. والله أعلم.



(١) انظر «جامع البيان» (٨/١١).

الدرس العشرون بعد المائة

﴿ وَمَنْ حَوْلَكَ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى
الْإِفْقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ
عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ
يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ
عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ
التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا
فَسَيَرَىٰ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْبِ الْعَقِيبِ وَالشَّهَادَةِ
فَيُنشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَآخَرُونَ مُرْجُونَ لِلْأَمْرِ إِمَامًا يَعَذِّبُهُمْ وَإِمَامًا يَتُوبُ
عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا
بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْكَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا
إِلَّا الْحُسْنَ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى
التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَّهَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أُسِّسَ بُيُوتُهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ
مَنْ أُسِّسَ بُيُوتُهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَاتَّهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ
قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ
 الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ
 يُرَدُّوْنَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا
 وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً
 تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ
 يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ
 الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّوْنَ إِلَىٰ
 عَذَابِ الْعَذَابِ وَالشَّهَادَةُ فَيُنْتَشَرُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَآخَرُونَ مُرْجُونَ لَأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا
 يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ .

عن ابن إسحاق ﴿ومن أهل المدينة مردوا على النفاق﴾، أي: لجأوا فيه وأبوا
 غيره. وعن ابن عباس في قول الله ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل
 المدينة مردوا على النفاق﴾ إلى قوله ﴿عذاب عظيم﴾ قال: «قام رسول الله ﷺ
 خطيباً يوم الجمعة فقال: اخرج يا فلان فإنك منافق، اخرج يا فلان فإنك منافق،
 فأخرج من المسجد ناساً منهم، فضحهم فلقبهم عمر وهم يخرجون من المسجد
 فاخْتَبَأَ مِنْهُمْ حِيَاءٌ أَنَّهُ لَمْ يَشْهَدْ الْجُمُعَةَ، وَظَنَّ أَنَّ النَّاسَ قَدْ انصرفوا واخْتَبِئُوا هُمْ مِنْ
 عَمْرٍ، ظَنُّوا أَنَّهُ قَدْ عَلِمَ بِأَمْرِهِمْ، فَجَاءَ عَمْرٌ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا النَّاسُ لَمْ يَصَلُّوا،
 فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: أَبْشِرْ يَا عَمْرُ فَقَدْ فَضَحَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ الْيَوْمَ. فَهَذَا
 الْعَذَابُ الْأَوَّلُ حِينَ أُخْرِجَهُمْ مِنَ الْمَسْجِدِ، وَالْعَذَابُ الثَّانِي، عَذَابُ الْقَبْرِ»^(١).

(١) أخرجه ابن جرير (١٠/١١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٩١/٤) ب - (٩٢/أ) والطبراني
 - كما في «مجمع البحرين» (٣٣/٦) بسند ضعيف.

وقال ابن زيد: ﴿سنعذبهم مرتين﴾ قال: أما عذاب الدنيا: فالأموال والأولاد وقرأ قول الله ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾ بالمصائب فيهم، هي لهم عذاب، وفي المؤمنين أجر.

وقوله تعالى: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم﴾ قال ابن زيد: هم الثمانية الذين ربطوا أنفسهم بالسواري، منهم: كردم^(١) ومرداس وأبو لبابة. وقال قتادة: كانوا تخلّفوا عن غزوة تبوك. وقال ابن أبي ذئب: سمعت أبا عثمان يقول: ما في القرآن آية أرجى عندي بهذه الأمة من قوله ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ إلى ﴿والله غفور رحيم﴾. وعن ابن عباس قال: ﴿جاؤوا بأموالهم - يعني أبا لبابة وأصحابه - حين أطلقوا، فقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا، قال: ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً، فأنزل الله ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها﴾ يعني بالزكاة: طاعة الله والإخلاص ﴿وصلّ عليهم﴾ يقول: استغفر لهم ﴿إن صلاتك سكن لهم﴾ يقول: رحمة لهم^(٢).

وعن عبد الله بن أبي أوفى قال: «كان النبي ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلّى عليهم، فاتاه أبي بصدقته فقال: اللهم صلّ على آل أبي أوفى»^(٣) رواه مسلم. وعن ابن مسعود قال: «إن الصدقة تقع في يد الله قبل أن تقع في يد السائل، ثم قرأ ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم﴾»^(٤) قال ابن عباس: يعني إن استقاموا. وعن مجاهد ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ قال: هذا وعيد

(١) في (الأصل): «كرد»، وهو خطأ.

(٢) أخرجه ابن جرير (١١/١٦)، والبيهقي في «الدلائل»، بسند ضعيف.

(٣) أخرجه البخاري (ح/١٤٩٧ و ٤١٦٦ و ٦٣٣٢)، ومسلم (٢/٧٥٦ - ٧٥٧).

(٤) أخرجه ابن جرير (١١/١٩)، وابن أبي حاتم (٤/٩٥/أ).

﴿وسترّدون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وآخرون مرجون﴾، أي: مؤخرون ﴿لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم﴾ قال مجاهد: هم هلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وكعب بن مالك. وقال الضحاك: هم الثلاثة الذين خلفوا عن التوبة، يريد غير أبي لبابة وأصحابه، ولم ينزل الله عذرهم ﴿فضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾ وكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول: هلكوا حين لم ينزل الله فيهم ما أنزل في أبي لبابة وأصحابه، وتقول فرقة أخرى: عسى الله أن يعفو عنهم، وكانوا مرجئين لأمر الله، ثم أنزل الله رحمته ومغفرته، فقال ﴿لقد تاب الله على النبي ﷺ والمهاجرين﴾ الآية، وأنزل الله ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ الآية.

قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحْيُونَ أَنْ يَبْطُغُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُظْهِرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أُسِّسَ بُيُوتُهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُيُوتُهُ عَلَى شِقَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَتَّهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنِيتُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ .

عن ابن عباس ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً﴾ وهم أناس من الأنصار ابتنوا مسجداً فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجدكم واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر مالك الروم فأتي بجند من الروم، فأخرج محمداً وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحبت أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة، فأنزل الله ﴿لا تقم فيه أبداً لمسجد

أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ﴿ إلى قوله: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ (١).

وعن قتادة قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال لأهل قباء: «إن الله قد أحسن عليكم الثناء في الطهور، فما تصنعون؟ قالوا: إنا نغسل عنا أثر الغائط والبول» (٢).
وعن جابر قال: «رأيت المسجد الذي بني ضراراً يخرج منه الدخان على عهد رسول الله ﷺ» (٣). رواه ابن جرير.

وعن ابن عباس قوله ﴿لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم﴾ يعني شكاً ﴿إلا أن تقطع قلوبهم﴾ يعني الموت. وقال قتادة يقول: حتى يموتوا. وقال خلف بن ياسين: رأيت مسجد المنافقين الذي ذكره الله تعالى: في القرآن، وفيه حجر يخرج منه الدخان، وهو اليوم مزبلة. والله أعلم.



(١) أخرجه ابن جرير (٢٤/١١)، وابن أبي حاتم (٩٥/٤ ب - ٩٦/أ)، بسند ضعيف.

(٢) روي هذا مرفوعاً عن جمع من الصحابة وهم:

١ - عويم بن ساعدة - رضي الله عنه - : أخرجه أحمد (٤٢٢/٣)، وابن جرير (٣٠/١١) وابن أبي حاتم (٩٨/٤ أ) والحاكم (١٥٥/١) وصححه ووافقه الذهبي، قلت وفي سنده عبد الله بن عبد الله بن أويس الأصبعي، وشرحبيل بن سعيد وكلاهما ضعيف.

٢ - أبو هريرة - رضي الله عنه - : أخرجه الترمذي (ح/٣١٠٠)، وابن ماجه (ح/٣٥٧)، والبيهقي (١/١٠٥)، وفي سنده يونس بن الحارث ضعفه غير واحد.

٣ - محمد بن عبد الله بن سلام - رضي الله عنه - : أخرجه أحمد (٦/٦)، وابن جرير (٢٩/١١)، وفيه شهر بن حوشب، مختلف فيه. والراجح أنه صدوق.

٤ - أبو أيوب، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك الأنصاريون: أخرجه ابن ماجه (ح/٣٥٥)، وابن أبي حاتم (٩٧/٤ ب)، والدارقطني (٦٢/١)، والحاكم (١/١٥٥)، والبيهقي (١/١٠٥)، والحديث صححه الحاكم، ووافقه الذهبي، قلت: وفي سنده عتبة بن أبي حكيم: ضعفه غير واحد. وعلى كل فالحديث حسن إن شاء الله لتعدد شواهد.

(٣) أخرجه ابن جرير (١١/٣٢ - ٣٣)، وابن أبي حاتم (٩٨/٤ ب).

الدرس الواحد والعشرون بعد المائة

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآتٍ لَهُمُ
 الْجَنَّةُ يُقَدِّلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي
 التَّوْبَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا
 بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٦﴾ التَّائِبُونَ
 الْعَمِيدُونَ الْحَدِيثُونَ الشَّاهِدُونَ أَلْرَّكِعُونَ السَّاجِدُونَ
 الْأَمِيرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالشَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ
 وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٧﴾ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ
 وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٨﴾ وَمَا
 كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتَاءَهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ
 أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٩﴾ وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا
 بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ
 مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَتَّبِعُهُ وَيُؤْتِي وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا
 نَصِيرٍ ﴿١٢١﴾ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ
 اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ
 تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٢﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا
 صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ

اللَّهُ إِلَا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ بِتَابِهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَدِّلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعِّكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٦﴾

التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ
الْمُسْكِرُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ
لِحُدُودِ اللَّهِ وَيَبْرُرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٧﴾ .

عن قتادة أنه تلا هذه الآية: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ قال: ثامنهم الله فأغلى لهم الثمن. وعن شمر بن عطية قال: «ما من مسلم إلا والله في عنقه بيعة، وفي بها أو مات عليها، في قول الله: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين﴾ إلى قوله: ﴿وذلك هو الفوز العظيم﴾. ثم حلاهم فقال: ﴿التائبون العابدون﴾ إلى ﴿وبشر المؤمنين﴾.

وقال ابن عباس: ﴿السائحون﴾ الصائمون. وقالت عائشة: سياحة هذه الأمة الصيام^(١). وروى أبو داود أن النبي ﷺ قال: «سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله»^(٢).

(١) أخرجه ابن جرير (٣٧/١١)، بسند ضعيف جداً وروي مرفوعاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أخرجه ابن جرير (٣٧/١١) بسند ضعيف جداً. وروي موقوفاً عن جمع من الصحابة.

(٢) أخرجه أبو داود (ح/٢٤٨٦)، وابن أبي حاتم (٤/١٠١/أ)، والطبراني (٨/١٩٨ و ٢١٥)، والحاكم (٧٣/٢) وصححه، ووافقه الذهبي والبيهقي في «الشعب» (٤/١٤)، وهو حديث حسن.

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: «يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفرّ بدينه من الفتن»^(١).

قوله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتَاءَهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ ۝

عن عمرو بن دينار أن النبي ﷺ قال: «استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك،

فلا أزال أستغفر لأبي طالب حتى ينهاني عنه ربي. فقال أصحابه: لنستغفرن لأبائنا كما استغفر النبي ﷺ لعمره، فأنزل الله: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾ إلى قوله: ﴿تبرأ منه»^(٢). وعن ابن عباس قال: لم يزل إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما مات لم يستغفر له، وقال عطاء: ما كنت أدع الصلاة على أحد من أهل هذه القبلة، ولو كانت خبيثة حبلى من الزنا، لأنني لم أسمع بحجب الصلاة إلا عن المشركين.

وقوله تعالى: ﴿إن إبراهيم لأواه حلیم﴾. قال ابن مسعود: الأواه: الدعاء، وقال مرة: الرحيم. وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «الأواه: الخاشع المتضرع»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (ح/١٩).

(٢) أخرجه ابن جرير (١١/٤١ - ٤٢) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير (١١/٥١)، وابن أبي حاتم (٤/١٠٣/ب) بسند ضعيف.

وعن مجاهد ﴿وما كان الله ليضلّ قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون﴾ قال: بيان الله للمؤمنين أن لا يستغفروا للمشركين خاصة، وفي بيان طاعته ومعصيته عامة، فافعلوا وذروا.

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَهْمٌ وَوَفَّ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَّتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾

عن معمر عن عبد الله بن محمد بن عقيل: ﴿في ساعة العسرة﴾ قال: خرجوا في غزوة تبوك الرجلان والثلاثة على بعير، وخرجوا في حرّ شديد، وأصابهم يومئذ عطش شديد، فجعلوا ينحرون إبلهم فيعصرون أكراشها ويشربون ماءه، وكان ذلك عسرة من الماء، وعسرة من الطهر، وعسرة من النفقة. قال قتادة: فتاب الله عليهم وأقبلهم من غزوهم. وقال ابن عباس: من تاب الله عليه لم يعذبه أبداً.

وقوله تعالى: ﴿وعلى الذين خلفوا﴾ قال كعب بن مالك في حديثه الطويل: خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل رسول الله ﷺ توبتهم حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾^(١). وعن نافع قال: قيل للثلاثة الذين خلفوا ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ محمد وأصحابه. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) سبق تخريجه.

«عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»^(١). متفق عليه والله أعلم.



(١) سبق تخريجه.

الدرس الثاني والعشرون بعد المائة

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا يَخَمَصُكُمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِنًا يَغِيظَ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنَ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَعْمَالَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَاتَبُ لَكُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هِدًىءٌ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ

جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ
عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا
إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ۗ ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا أَلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُفْقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ۝

عن قتادة قوله: ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ﴾ هذا إذا غزا نبي الله بنفسه، فليس لأحد أن يتخلف. ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: «لولا أن أشق على أمتي ما تخلفت خلف سرية تغزو في سبيل الله، لكني لا أجد سعة فأنتقل بهم معي ويشق عليّ أن أدهم بعدي»^(١). وقال قتادة: ما زاد قوم في سبيل الله بعداً إلاّ ازدادوا من الله قرباً.

وقال الضحاك في قوله: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ الآية. كان

(١) أخرجه ابن جرير (١١/٦٤ - ٦٥). وابن أبي حاتم (٤/١٠٩/ب) عن عمرو بن مالك عن بعض أصحاب النبي ﷺ.

نبي الله إذا غزا بنفسه لم يحلّ لأحد من المسلمين أن يتخلف عنه إلا أهل العذر، وكان إذا أقام فأسرت السرايا لم يحلّ لهم أن ينطلقوا إلا بإذنه، فكان الرجل إذا أسرى فنزل بعده قرآن تلاه نبي الله على الصحابة القاعدين معه، فإذا رجعت السرية قال لهم: الذين أقاموا مع رسول الله ﷺ: «إن الله أنزل بعدكم على نبيه قرآناً فيقرئونهم ويفقهونهم في الدين».

وقيل: نزلت هذه الآية حين نزل أحياء العرب المدينة، فغلت أسعارهم وفسدت طرقهم. وفي الحديث الصحيح: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(١).

وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين﴾ قال البغوي: أمروا بقتال الأقرب فالأقرب إليهم في الدار والنسب.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أُولَٰئِكَ يَرْوَنَ أَنَّهُمْ يَفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنَ الْاِحْتِزَامِ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ﴾

(١) سبق تخريجه.

إيماناً ﴿ قال: كان إذا نزلت سورة آمنوا بها، فزادهم الله إيماناً وتصديقاً، وكان يستبشرون.

وقوله تعالى: ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض﴾، أي: شك ونفاق ﴿فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ فعند نزول كل سورة ينكرونها، ويزداد كفرهم.

وقوله تعالى: ﴿أولا يرون أنهم يفتنون﴾ يختبرون ﴿في كل عام مرة أو مرتين﴾. قال مجاهد: بالقحط والشدة؛ وقال حذيفة: كنا نسمع في كل عام كذبة أو كذبتين، فيضلل بها فئام من الناس.

وقوله تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾.

قال ابن كثير^(١): هذا أيضاً إخبار عن المنافقين، أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ: ﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾، أي: تلفتوا ﴿هل يراكم من أحد ثم انصرفوا﴾، أي: تولوا عن الحق وانصرفوا عنه، وهذا حالهم في الدنيا لا يثبتون عند الحق، ولا يقبلونه، ولا يفهمونه.

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

عن جعفر بن محمد [عن أبيه]^(٢) في قوله: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية. قال: وقال النبي ﷺ: ﴿إني

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٠٣/٢).

(٢) ما بين المعقوفتين إضافة من المصادر التي خرجت الحديث.

خرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح»^(١). وقال قتادة: جعله الله من أنفسهم ولا يحسدونه. وعن ابن عباس في قوله ﴿عزیز علیہ ما عنتم﴾ قال: ما ضللتهم. وقال القتيبي: ما أعتتكم وضرّكم. وعن قتادة: ﴿حريص عليكم﴾ حريص على ضالّهم أن يهديه الله. وقال أبيّ بن كعب: أحدث القرآن عهداً بالله الآيتان ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ إلى آخر السورة. وقال أبو الدرداء: «من قال إذا أصبح وإذا أمسى: حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات إلاّ كفاه الله ما أهمّه»^(٢). والله أعلم.



(١) أخرجه ابن جرير (٧٦/١١)، وابن أبي حاتم (١١٤/٤ ب)، والبيهقي (١٩٠/٧)، عن محمد بن جعفر عن أبيه مرسلًا، وقد روي مرفوعاً عن عائشة وعلي، وابن عباس رضي الله عنهم، بمجموعها يكون الحديث حسناً إن شاء الله تعالى.

(٢) أخرجه أبو داود (ح/٥٠٨١) موقوفاً عن أبي الدرداء.

الدرس الثالث والعشرون بعد المائة

﴿سورة يونس عليه السلام﴾

مكية ، وهي مائة وتسع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ
مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ
الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي
سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَكُمْ
اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا
إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي
جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ
مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي آخِذَاتِ آلِيلِ
وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ
الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا
غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ

ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي
 جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۗ وَآخِرُ دَعْوَتِهِمْ
 أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴿١١﴾ وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ
 اسْتَعْبَاهُمْ بِالْخَيْرِ لَفَصَّىٰ لَهُمْ أَعْيُنَهُمْ فَذُرُّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي
 طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا
 فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّهِ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ
 مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ
 رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ
 خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا
 بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتَتْ بِشْرًا وَإِنْ خَيْرٍ هَذَا أَوْ بَدَّلَتْهُ قُلُوبُ مَا
 يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدَلَهُ مِنْ تِلْقَائِي أَنفُسِي ۗ إِنَّهُمْ لَأَنْفُسِي أَعْمَىٰ ﴿١٦﴾ وَإِنِ اتَّخَفْتُمْ
 عَصِيْبَتِ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٧﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا
 أَدْرَبْتُكُمْ بِهِ ۗ فَقَدْ لَيْسْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٨﴾ فَمَنْ
 أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّكُمْ لَا يُفْلِحُ
 الْمُجْرِمُونَ ﴿١٩﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ .

قال ابن كثير^(١): ﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾، أي: هذه آيات القرآن المحكم المبين. وعن ابن عباس قال: لما بعث الله محمداً رسولاً أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد، فأنزل الله تعالى: ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم﴾ وقال: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً﴾. ﴿وبشر الذين آمنوا أن لهم قد صدق عند ربهم﴾^(٢) يقول: أجزاً حسناً بما قدموا من أعمالهم.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْمَرْسِ يَدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ نُورًا لِّعَلَّامُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٤٠٥).

(٢) أخرجه ابن جرير (١١/٨١) بسند ضعيف.

خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي آخِلَافِ اللَّيْلِ
وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ .

عن مجاهد: ﴿يدبر الأمر﴾ قال: يقضيه وحده. ﴿يبدأ الخلق ثم يعيده﴾
قال: يحييه ثم يميته ثم يحييه. ﴿ليجزى الذين آمنوا و عملوا الصالحات بالقسط﴾
قال: بالعدل. ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا
عدد السنين والحساب﴾ .

قال ابن كثير^(١): فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور
والأعوام.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا
كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ
بِإِذْنِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ
اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِهِمْ فِيهَا سَلَّمُوا وَآخِرُ دَعْوَانَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ .

قال قتادة: بلغنا أن نبي الله ﷺ قال: «إن المؤمن إذا خرج من قبره، صور
له عمله في صورة حسنة فيقول له: ما أنت؟ فوالله إنني لأراك أمراً صدق فيقول: أنا
عملك، فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة؛ وأما الكافر إذا خرج من قبره، صور له
عمله في صورة سيئة وبشارة سيئة فيقول: ما أنت؟ فوالله لأراك أمراً سوء فيقول:
أنا عملك، فينطلق به حتى يدخله النار»^(٢).

(١) المصدر السابق (٢/٤٠٧).

(٢) أخرجه ابن جرير (١١/٨٨)، وابن أبي حاتم (٤/١١٩/ب) بسند ضعيف.

وعن مجاهد في قول الله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ قال: يكون لهم نوراً يمشون به.

وقوله تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ﴾، أي: قولهم وكلامهم. ﴿فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجَ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ افتتحوا كلامهم بالتسبيح وختموه بالتحميد. وعن ابن جريج قال: أخبرت أن دعواهم فيها: سبحانك اللهم، قال: إذا مرّ بهم الطير فيشتهونه قالوا: سبحانك اللهم، وذلك ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ فيأتيهم الملك بما اشتهاوا فيسلم عليهم فيردون عليه، فذلك قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ قال: وإذا أكلوا حمدوا الله ربهم، فذلك قوله: ﴿وَأَخْرَجَ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

عن مجاهد في قوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ النَّاسَ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ قال: قول الإنسان إذا غضب لولده وماله: لا بارك الله فيه ولعنه. وقال ابن زيد في قوله: ﴿لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ قال: لأهلكناهم.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

قال قتادة: ذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «صدق ربنا، ما جعلنا خلفاء إلا لينظر كيف أعمالنا، فأروا الله من أعمالكم خيراً بالليل والنهار والسر والعلانية»^(١).

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا تَخَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتِ بِشْرَاءٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدَّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّكُمْ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قال ابن كثير^(٢): يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركي قريش، الجاحدين الحق، المعرضين عنه، أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله وحجته الواضحة قالوا له: ﴿أنت بقرآن غير هذا﴾، أي: ردّ هذا وجئنا بغيره من نمط آخر ﴿أو بدله﴾ إلى وضع آخر. قال الله تعالى لنبية ﷺ: ﴿قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي﴾، أي: ليس هذا إليّ إنما أنا عبد مأمور ورسول مبلغ عن الله ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إليّ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾. ثم قال محتجاً عليهم في صحة ما جاءهم به ﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به﴾، أي: هذا إنما جئتمكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيئته وإرادته، والدليل على أنني لست أتقوله من عندي ولا افتريته، أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله عز وجل، لا تتقدون عليّ شيئاً تغمصونني به، ولهذا قال:

(١) أخرجه ابن جرير (٩٤/١١)، وابن أبي حاتم (١٢١/٤) ب (١٢٢/أ)، بسند ضعيف.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٤١٠).

﴿فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون﴾ انتهى .

وقوله تعالى: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون﴾ يقول تعالى: لا أحد أظلم ولا أشدّ جرماً ممن تقوّل على الله وزعم أن الله أرسله وهو كاذب، كما قال تعالى: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إليّ ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾^(١) وكذلك لا أحد أظلم ممن كذب بالحق الذي جاءت به الرسل، كما قال تعالى: ﴿فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين﴾^(٢) والله أعلم .



(١) سورة الأنعام: الآية ٩٣ .

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٦٨ .

الدرس الرابع والعشرون بعد المائة

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعْتُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْتَبِهُونَ اللَّهُ يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِّن رَّبِّنَا قُلْ إِنَّمَا الْقَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِيَمِينِ رِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أُجِيبْتَنَا مِن هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَجْنَبَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ بِتَأْيِهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَقِيَّتْكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ وَمِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا وَعَلَيْهَا أَتَتْهَا آيَاتٌ أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَقَفْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَقْضِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ

السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ * لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَسْئِفَةٍ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمِثِلُهَا وَيَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنْ آيَلٍ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَلَّلْنَا بَيْنَهُمْ ثُمَّ شَرَكَاؤُهُمْ مَّا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلَوْنَ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا لَتُنْقُونَ ﴿٣١﴾ فذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالَةُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ .

ينكر تعالى على المشركين عبادتهم غيره من الأصنام والأوثان ﴿ما لا يضرهم﴾ إن تركوا عبادته ﴿ولا ينفعهم﴾ إن عبدوه، ﴿ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبؤون﴾ أتخبرون ﴿الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض﴾ .

قال البغوي^(١): ومعنى الآية أتخبرون الله أن له شريكاً، وعنده شفيعاً بغير إذنه، ولا يعلم الله لنفسه شريكاً في السموات ولا في الأرض، سبحانه وتعالى عما يشركون، وقال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام، ثم وقع الاختلاف بين الناس، فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين.

وقوله تعالى: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ أي بأن جعل لكل أمة أجلاً معيناً ﴿لقضى بينهم﴾ عاجلاً فيما فيه يختلفون ﴿ويقولون﴾ أي: مشركو أهل مكة ﴿لولا﴾ أي: هلا ﴿أنزل عليه﴾ أي على محمد ﴿آية من ربه﴾ على ما يقترحونه كقولهم: ﴿لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾^(٢) ونحو ذلك ﴿فقل﴾

(١) انظر «معالم التنزيل» (٢/٢٩٤).

(٢) سورة الإسراء: الآية ٩٠.

إنما الغيب لله، أي: ما تطلبونه غيب، وهو القادر عليه ﴿فانتظروا﴾ قضاء الله بيني وبينكم ﴿إني معكم من المنتظرين﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْأَبْرِ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِيَمِ بَرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لِيْنَ أُنجِيتَنَا مِنْ هَذَا وَمِن لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْبِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

عن مجاهد إذا لهم مكر في آياتنا قال استهزاء وتكذيب.

وقال البغوي^(١) ﴿قل الله أسرع مكرًا﴾، أي: أعجل عقوبة، وأشد أخذًا، وأقدر على الجزاء.

وقال ابن كثير^(٢): أي أشد استدراجاً وإمهالاً، حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، ثم يؤخذ على غرة منه) انتهى. وهذا كقوله تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾^(٣).

وعن قتادة في قوله: ﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾ قال إذا مسهم الضر في البحر أخلصوا له الدعاء.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٢/٢٩٥).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٤١٢).

(٣) سورة الأنعام: الآية ٤٤.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغِيكُم عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

قال البغوي^(١): ومعناه إنما بغيكم متاع الحياة الدنيا لا يصلح زاداً لمعادكم لأنكم تستوجبون به غضب الله. وقرأ حفص متاع بالنصب أي تمتعون متاع الحياة الدنيا.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا آتْنَاهَا أَمْرًا لَّيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِرٍ كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض﴾ قال: اختلط فنبت بالماء كل لون ﴿مما يأكل الناس﴾ كالحنطة، والشعير وسائر حبوب الأرض، والبقول، والثمار، وما يأكله الأنعام والبهائم من الحشيش والمراعي.

وعن قتادة قوله: ﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها﴾ الآية، أي والله لئن تشبث بالدنيا وحذب عليها لتوشك الدنيا أن تلفظه.

وقوله: ﴿كأن لم تغن بالأمس﴾.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٢/٢٩٥).

قال ابن جرير^(١): يقول: كأن لم تكن تلك الزروع والنبات ثابتة قائمة على الأرض قبل ذلك بالأمس.

وعن قتادة في قوله: ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ قال: الله هو السلام، وداره الجنة. وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم طلعت فيه شمسهُ إلا بجنتيها ملكان يناديان، يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم، إن ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى، وأنزل ذلك في القرآن في قوله: ﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾»^(٢).
رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. وعن أبي بكر الصديق ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ قال: «النظر إلى وجه الله تعالى»^(٣). وعن أبي بن كعب: «أنه سأل رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ قال: الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله»^(٤) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. وعن ابن

(١) انظر «جامع البيان» (١١/١٠٢).

(٢) أخرجه ابن جرير (١١/١٠٤)، وابن أبي حاتم (٤/١٢٥/ب)، والبيهقي في «الشعب» (٣/٢٣٣) وفي سنده ضعف.

(٣) أخرجه ابن جرير (١١/١٠٤)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (ح/٥١ و ٥٢)، واللالكائي (ح/٧٨٤)، والآجري (ص ٢٥٧)، وابن أبي عاصم (ح/٤٧٣).

(٤) أخرجه ابن جرير (١١/١٠٧)، وابن أبي حاتم (٤/١٢٦/ب)، واللالكائي (ح/٧٨٠)، وفي سنده ضعف. وقد روي في تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله عن جمع من الصحابة كابن مسعود وابن عباس وحذيفة، ومن التابعين وغيرهم أيضاً: ابن المسيب، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وعبد الرحمن بن سابط، ومجاهد، وعكرمة، وعامر بن سعد، وعطاء والضحاك، والحسن، وقتادة، والسدي وابن إسحاق وغيرهم.

وروي مسلم في صحيحه (ح/١٨١) عن صهيب رضي الله عنه قال: «قرأ رسول الله ﷺ: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ فقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى منادى يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم =

عباس قوله: ﴿ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة﴾ قال: سواد الوجوه.

وقوله تعالى: ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها﴾، كقوله تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون﴾^(١). وعن ابن عباس قوله: ﴿وترهقهم ذلة﴾ قال: تغشاهم ذلة وشدة.

قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فزَيْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلَأُونَ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْنَ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيَّتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فسيقولون اللَّهُ فقل أفلا نتقون ﴿٣١﴾ فذلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَدَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَهُ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يُتَّبَعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنَّ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ .

= يتقل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة؟ ويجرنا من النار؟ فيكشف الحجاب فينظرون إلى الله فما شيء أعطوه أحسن إليهم من النظر إليه وهو الزيادة.

(١) سورة الأنعام: الآية ١٦٠.

قال البغوي^(١): (قوله تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم﴾ أي الزموا مكانكم ﴿أنتم وشركاؤكم﴾ يعني الأوثان، معناه: ثم نقول للذين أشركوا: الزموا أنتم وشركاؤكم مكانكم ولا تبرحوا. ﴿فزيّلنا﴾ ميّزنا وفرّقنا بينهم، أي بين المشركين وشركائهم، وقطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا، وذلك حين يتبرأ كل معبود من دون الله ممن عبده) انتهى.

وقال مجاهد: ﴿إن كنا عن عبادتكم لغافلين﴾ قال يقول: ذلك كل شيء كان يعبد من دون الله.

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿ومن أضلّ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم من دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾^(٢)، وكقوله تعالى: ﴿ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت وليّنا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾^(٣).

وعن مجاهد: ﴿هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت﴾ قال: تختبر. وقال ابن زيد في قوله: ﴿وردوا إلى الله مولاهم الحق وضلّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ قال: ما كانوا يدعون معه من الأنداد والآلهة.

وقال البغوي^(٤): (قوله تعالى: ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض﴾ أي من السماء بالمطر، ومن الأرض بالنبات، ﴿أم من يملك السمع والأبصار﴾ أي من أعطاكم السمع والأبصار ﴿ومن يخرج الحيّ من الميت ويخرج الميت من الحي﴾ يخرج الحيّ من النطفة والنطفة من الحيّ ﴿ومن يدبّر الأمر﴾ أي يقضي الأمر

(١) انظر «معالم التنزيل» (٢/٢٩٦).

(٢) سورة الأحقاف: الآية ٥ و ٦.

(٣) سورة سبأ: الآية ٣٤.

(٤) المصدر السابق (٢/٢٩٧).

﴿فسيقولون الله﴾ هو الذي يفعل هذه الأشياء ﴿فقل أفلا تتقون﴾ أفلا تخافون عقابه في شرككم؟ ﴿فذلكم الله ربكم﴾ الذي يفعل هذه الأشياء هو ﴿ربكم الحق﴾، ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون﴾ أي فأنى تصرفون عن عبادته وأنتم مقرّون به ﴿كذلك﴾؟ قال الكلبي: هكذا ﴿حقّت﴾ وجبت ﴿كلمة ربك﴾ حكمه السابق ﴿على الذين فسقوا﴾ كفروا ﴿أنهم لا يؤمنون﴾. ﴿قل هل من شركائكم﴾ أوثانكم ﴿من يبدأ الخلق﴾ ينشئ الخلق من غير أصل ولا مثال ﴿ثم يعيده﴾ ثم يحييه من بعد الموت كهيبته؟ فإن أجابوك، وإلا فقل أنت ﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون﴾ أي تصرفون عن قصد السبيل؟ ﴿قل هل من شركائكم من يَهْدِي﴾ يرشد إلى الحق؟ فإذا قالوا: لا، ولا بدّ لهم من ذلك ﴿قل الله يَهْدِي للحق﴾ أي إلى الحق، ﴿أفمن يَهْدِي إلى الحق أحقّ أن يتَّبَع آمن لا يَهْدِي إلا أن يُهْدَى﴾ معنى الآية: الله الذي يهدي إلى الحق أحقّ بالاتباع أم الصنم الذي لا يهدي ﴿إلا أن يُهْدَى﴾ أي لا ينتقل من مكان إلى مكان إلا أن يُحمل) انتهى ملخصاً.

قال ابن كثير^(١): وقوله: ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾ أي فما بالكم؟ أين يذهب بعقولكم؟ كيف سوّيتم بين الله وبين خلقه، وعدلتم هذا بهذا، وعبدتم هذا وهذا؟ وهلاً أفردتم الربّ جل جلاله، المالك الحاكم الهادي من الضلالة، بالعبادة وحده وأخلصتم له الدعوة والإنابة؟ ثم بيّن تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً، وإنما هو ظن منهم، أي توهم وتخيل، وذلك لا يغني عنهم شيئاً، ﴿إن الله عليم بما يفعلون﴾ تهديد لهم ووعد شديد، لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء. والله أعلم.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٤١٧).

الدرس الخامس والعشرون بعد المائة

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلْعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا بَأْنَاهُمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمَنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيغُونَ وَمَا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَانُوا لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِقَوْلِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّمَا تَرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَاإِنَّمَا تَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُهُمْ بَيِّنَاتٌ أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ءَأَلْفَنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ

سَتَجِدُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ
تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ * وَتَسْتَيْسِرُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ وَمَا أَنْتُمْ
بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ
لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُجِيءُ
وَيُيَسِّرُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ *

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيْعُونَ مِمَّا آعَمَلُ وَأَنَا بَرِيْعٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ .

قال الفراء: قوله تعالى: ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله﴾ معناه: وما ينبغي لمثل هذا القرآن أن يفترى من دون الله، كقوله تعالى: ﴿وما كان لنبي أن يغفل﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿ولكن تصديق الذي بين يديه﴾، أي: من التوراة والإنجيل ﴿وتفصيل الكتاب﴾ تبين ما في القرآن من الحلال، والحرام، والأحكام ﴿لا ريب فيه من رب العالمين﴾.

﴿أم يقولون افتراه﴾، أي: اختلق محمد القرآن من قبل نفسه ﴿قل فاتوا

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦١.

بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ﴿٤٥﴾ ليعينوكم على ذلك ﴿٤٦﴾ إن كنتم صادقين ﴿٤٧﴾ أن محمداً افترأه ﴿٤٨﴾ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴿٤٩﴾ يعني لما رأوا القرآن مشتملاً على أمور ما عرفوا حقيقتها، سارعوا بجهلهم إلى التكذيب ﴿٥٠﴾ ولما يأتهم بعد تأويله ﴿٥١﴾، أي: عاقبة ما وعد الله في القرآن ﴿٥٢﴾ كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴿٥٣﴾ آخر أمرهم بالهلاك.

﴿ومنهم من يؤمن به﴾، أي: من قومك من يؤمن بالقرآن ﴿ومنهم من لا يؤمن به﴾ لعلم الله السابق فيهم إنهم لا يؤمنون ﴿وربك أعلم بالمفسدين﴾.

﴿وإن كذبوك فقل لي عملي﴾ وجزاؤه ﴿ولكم عملكم﴾ وجزاؤه ﴿أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾.

﴿ومنهم من يستمعون إليك﴾ بأسماعهم الظاهرة فلا ينفعهم ﴿أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون﴾؟ فإن الأصم العاقل ربما يتفّرّس. ﴿ومنهم ينظر إليك﴾ ويعاينون أدلة صدقك لكن لا يصدقون ﴿أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون﴾؟ أي أفتطمع أنك تقدر على فاقد البصر والبصيرة؟ فإن العمي مع الحق جهد البلاء ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ بالكفر والمعاصي.

قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّمَا نُزِّلْنَاكَ بَعْضَ آيَاتِنَا لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ لَمْ يَرْجِعْهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَجِرُّونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ آرَاءَ يَتَّبِعُونَ

أَتْنَكُم عَذَابُهُ بَيِّنَاتًا أَوْ تَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَتَشْرُ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ءَأَلْتَنَّهُ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴿٥٣﴾ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قَوْلٌ أَمْ وَرِيحٌ إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى: ﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا﴾، أي: في الدنيا ﴿إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم﴾ كمعرفتهم في الدنيا.

وعن مجاهد ﴿وما نرينك بعض الذين نعدهم﴾ من العذاب في حياتك ﴿أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾، ﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم﴾ قال: يوم القيامة ﴿قضي بينهم بالقسط﴾ قال: بالعدل ﴿وهم لا يظلمون﴾ كما قال تعالى: ﴿وجيء بالنبئين والشهداء﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿أئنم إذا ما وقع آمنتهم به الآن وقد كنتم به تستعجلون﴾؟ قال البغوي^(٢): فيه إضمار، أي: يقال لكم: الآن تؤمنون حين وقع العذاب ﴿وقد كنتم به تستعجلون﴾ تكذيباً واستهزاء.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا الْقَدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ إِلَّا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْآلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾

قال ابن جرير^(٣): يقول تعالى ذكره ﴿ولو أن لكل نفس﴾ كفرت بالله،

(١) سورة الزمر: الآية ٦٩.

(٢) انظر «معالم التنزيل»، (٣٠١/٢).

(٣) انظر «جامع البيان»، (١٢٣/١١).

وظلمها في هذا الموضع عبادتها غير من يستحق عبادة، وتركها طاعة من يجب عليها طاعته، ﴿ما في الأرض﴾ من قليل أو كثير ﴿لافتدت به﴾ يقول: لافتدت بذلك كله من عذاب الله إذا عايته.

وقوله: ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾ يقول: وأخفت رؤساء هؤلاء المشركين من وضعائهم وسفلتهم الندامة، حين أبصروا عذاب الله قد أحاط بهم، وأيقنوا أنه واقع بهم.

وقوله تعالى: ﴿وقضي بينهم بالقسط﴾، أي: بالعدل ﴿وهم لا يظلمون﴾. ﴿إلا إن الله ما في السموات والأرض ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون هو يحيي ويميت وإليه ترجعون﴾.

قال ابن كثير^(١): يخبر تعالى إنه مالك السموات والأرض فإنه وعده حق كائن لا محالة، وأنه يحيي الموتى وإليه مرجعهم، وأنه تعالى القادر على ذلك، العليم بما تفرّق من الأجساد، وتمزق في سائر أقطار الأرض والبحار والقفار. والله أعلم.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٢٤٠).

الدرس السادس والعشرون بعد المائة

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْم مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى
 وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا
 يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا
 قُلْ ءَآلَ اللَّهِ أَرْبَابٌ لَّكُمْ أَمْرٌ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ
 الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
 يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا
 كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ
 وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ
 اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾
 لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيل لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ
 الْقَوْلُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ
 الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ
 يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا
 يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ
 فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ هُوَ
 الْعَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُم مِّن سُلْطٰنٍ بِهٰذَا

أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا
يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ
بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَآلَهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ .

عن أبي سعيد الخدري في قول الله ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾ قال ﴿بفضل الله﴾ القرآن ﴿وبرحمته﴾ أن جعلكم من أهله. وعن هلال بن يساف ﴿قل بفضل الله وبرحمته﴾ قال: بالإسلام والقرآن ﴿فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ من الذهب والفضة.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿قل أرايتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً﴾ قال: إن أهل الجاهلية كانوا يحرمون أشياء أحلها الله، وهو قول الله ﴿أرايتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً﴾ قال: الحرث والأنعام. وقال مجاهد: البحائر والسيب.

﴿قل الله أذن لكم أم على الله تفترون وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة﴾ .

قال البغوي^(١): أيحسبون أن الله لا يؤاخذهم به ولا يعاقبهم عليه؟

﴿إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ .

(١) انظر «معالم التنزيل» (٢/٣٠٢).

قال ابن كثير^(١): بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم ويضيّقون على أنفسهم، فيجعلون بعضاً حلالاً وبعضاً حراماً.

وقال ابن جرير^(٢) يقول: ولكن أكثر الناس لا يشكرونه على تفضله عليهم، بذلك وبغيره من سائر نعمه.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِلَّهِ لِكَلِمَتِهِ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾.

قال ابن عباس في قوله: ﴿إذ تفيضون فيه﴾ يقول: إذ تفعلون. ﴿وما يعزب عن ربك﴾ يقول: ما يغيب عنه ﴿مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

قال البغوي^(٣): وهو اللوح المحفوظ. وعن ابن عباس ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ قال: «الذين يُذَكَّرُ اللهُ لرؤيتهم»^(٤). وعن

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٢١/٢).

(٢) انظر «جامع البيان» (١٢٨/١١).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣٠٣/٢).

(٤) أخرجه الطبري (١٣١/١١)، عن ابن عباس موقوفاً، وفي سننه ضعف. وقد روي مرفوعاً من حديث ابن عباس: أخرجه النسائي في الكبرى (٣٦٢/٦)، وابن المبارك في الزهد (ح/٢١٨)، والطبراني في الكبير (ح/١٢٣٢٥)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١/٢٣١)، وهو حديث حسن، وله شواهد عديدة من حديث أسماء بنت يزيد، وعمرو بن الجموح، وعبادة بن الصامت، وأنس، وغيرهم.

أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء، قيل: من هم يا رسول الله فقلنا نحبهم؟ قال: هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب، وجوههم من نور على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، وقرأ ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١). رواه ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾، أي: يتقون الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه. قال ابن زيد: أباي أن يُتَقَبَلَ الإيمان إلا بالتقوى. وعن أبي الدرداء قال: «سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿لَهُمُ الْبَشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ فقال النبي ﷺ: الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له»^(٢). رواه أحمد وغيره. وفي رواية أخرى: «وبشراه في الآخرة الجنة». وقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾، أي: لا تغيير لقوله ولا خلف لوعده ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١٥) **أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ** ﴿١٦﴾ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ**

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٣٦٢/٦)، وابن جرير (١١/١٣٢)، وأبو يعلى (ح/٦١١٠)، بسند حسن. وللحديث شواهد يرتقي بها إلى درجة الصحيح.

(٢) أخرجه أحمد (٦/٤٥٢)، والترمذي (ح/٣١٠٦)، وابن جرير (١١/١٣٣ و ١٣٤)، وابن أبي حاتم (٤/١٣٥/ب)، وفي سنده ضعف. لكن جاء من طريق آخر بسند حسن: أخرجه ابن جرير (١١/١٣٦)، وللحديث شاهد من حديث عبادة، وأبي هريرة، وجابر، وابن عباس، وأبي الطفيل وغيرهم — رضي الله عنهم — ، وبها يرتفع الحديث إلى درجة الصحيح لغيره، والله أعلم.

فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَ هُوَ
الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا
أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِبْرَاهِيمَ الْذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا
يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ
بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ .

قوله تعالى: ﴿ولا يحزنك قولهم﴾ يعني قول المشركين، واستعن بالله عليهم
﴿فإن العزة لله جميعاً﴾ كما قال تعالى: ﴿والله العزة ولسوله وللمؤمنين﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿الآن إن لله من في السموات ومن في الأرض وما يتبع الذين
يدعون من دون الله شركاء﴾، أي: ما يتبعون شركاء على الحقيقة وإن كانوا
يسمونهم شركاء ﴿إن يتبعون إلا الظن﴾، أي: يظنون أنهم يقربونهم إلى الله زلفى
﴿وإن هم إلا يخرصون﴾ يكذبون.

وقوله تعالى: ﴿قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السموات وما
في الأرض إن عندكم من سلطان بهذا﴾، أي: ليس عندكم دليل على ما تقولونه
من الكذب والبهتان ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون قل إن الذين يفترون على الله
الكذب لا يفلحون متاع قليل﴾ يتمتعون به في الدنيا إلى انقضاء آجالهم ﴿ثم إلينا
مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾. والله أعلم.



(١) سورة المنافقون: الآية ٨.

الدرس السابع والعشرون بعد المائة

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِتَايَبَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرْتُمْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِتَايَبَتِنَا فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَدْرِبِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِتَايَبَتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَنْتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ كُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِنَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَهُ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالِي فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ

فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ
أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَمَا يَبْصُرُ بِيُوتِنَا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ وَأَشْدُدْ عَلَيْنَا قُلُوبَهُمْ
فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمْ فَاَسْتَقِيمَا وَلَا
تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴿٩٠﴾ وَجَنُوزَنَا بِسَبْحِ إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَاتَّبَعَهُمْ
فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَاَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
الَّذِي ءَاَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ ءَاَلْتَنَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ
مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩٢﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لِتَكُونَ لِمَن خَلَقَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ
النَّاسِ عَن ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٣﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَآتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَّقُوا إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي إِيَّائِي فَفَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَدَبِّرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ .

يقول تعالى: ﴿واتل﴾ يا محمد ﴿عليهم نبأ نوح﴾، أي: خبره مع قومه ﴿إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر﴾، أي: عظم وفضل ﴿عليكم مقامي﴾ مكثي فيكم وطول عمري ﴿وتذكيري﴾ ووعظي ﴿بآيات الله﴾ فعزمت على قتلي وطردي ﴿فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم﴾، أي: أحكموا أمركم واعزموا عليه ﴿وشركاءكم﴾، أي: وادعوا شركاءكم أي آلهتكم التي تدعون من دون الله فاستعينوا بها معكم، فإنها لا تضر ولا تنفع ﴿ثم لا يكن أمركم عليكم غمة﴾، أي: خفيًا مبهمًا ﴿ثم اقضوا إلي ولا تنظرون﴾، أي: مهما قدرتم فافعلوا، فإني واثق بنصر الله.

﴿فإن توليتم﴾ أعرضتم عن قولي ولم تقبلوا نصحي ﴿فما سألتكم﴾ على تبليغ الرسالة والدعوة ﴿من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين﴾، أي: وأنا ممثل ما أمرت به من الإسلام لله عز وجل.

﴿فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف﴾، أي: جعلنا الذين

معه سكان الأرض خلفاً عن الهالكين ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾. ﴿ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل﴾، أي: بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم ﴿كذلك نطبع على قلوب المعتدين﴾ كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَاجْتَنَّا لِتَأْتِنَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَقُولُونَ بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرُ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ الْقَوْمَا أَتُنْتُمُ مَلْفُوتٌ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

عن مجاهد: ﴿وتكون لكم الكبرياء في الأرض﴾ قال: السلطان في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿قال موسى ما جئتم به السحر﴾، أي: الذي جئتم به السحر ﴿إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾ وفي بعض الآثار: أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تعالى، تقرأ في إناء فيه ماء ثم يصب على رأس المسحور. ﴿فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون﴾، وقوله في السورة

(١) سورة الأنعام: الآية ١١٠.

الأخرى ﴿فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وألقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون﴾^(١). وقوله تعالى: ﴿إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾^(٢).

قوله عز وجل: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾^(٨٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾^(٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٨٥) وَبِحَنَاءٍ بِرَحْمَتِكَ مِّنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(٨٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٨٧).

عن ابن عباس: ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم﴾. قال: كان الذرية التي آمنت لموسى من أناس غير بني إسرائيل، من قوم فرعون يسير، منهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه.

وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه﴾ قال: أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات أبائهم.

وعن أبي مجلز في قوله: ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾ قال: لا يظهروا علينا فيروا أنهم خير منا، وقال مجاهد: لا تسلطهم علينا فيفتنونا.

وعن ابن عباس: ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾ قال: مساجد، وقال: كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا في بيوتهم وقال مجاهد: كانوا لا يصلون إلا في البيع

(١) سورة الأعراف: الآيات ١١٨ — ١٢٢.

(٢) سورة طه: الآية ٦٩.

وكانوا لا يصلون إلا خائفين، فأمرنا أن يصلوا في بيوتهم.

قوله عز وجل: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ زِينَةَ وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ وَأَشْدُدْ عَلَيْنَا قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۝ .

قال ابن جرير في قوله (١): ﴿ربنا ليضلوا عن سبيلك﴾ يقول موسى لربه: ربنا أعطيتهم ما أعطيتهم من ذلك ﴿ليضلوا عن سبيلك﴾! وعن مجاهد: ﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾ قال: أهلكها. وقال ابن عباس: بلغنا أن الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحاً وأنصافاً وأثلاثاً.

وعن مجاهد: ﴿وأشدد على قلوبهم﴾ بالضلالة ﴿فلا يؤمنوا﴾ بالله فيما يرون من الآيات ﴿حتى يروا العذاب الأليم﴾. قال ابن عباس: واستجاب الله له وحال بين فرعون وبين الإيمان، حتى أدركه الغرق فلم ينفعه الإيمان.

وعن أبي صالح قال: ﴿قد أجيب دعوتكما﴾ قال: دعا موسى وأمن هارون. قال ابن عباس: ﴿فاستقيما﴾ فامضيا لأمري وهي الاستقامة ﴿ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾ قال ابن جريج: يقولون: إن فرعون مكث بعد هذه الآية أربعين سنة.

قوله عز وجل: ﴿ وَجَنُودَنَا بَعَثْنَا لِمَلَائِكَةِ آلِ مُوسَىٰ إِذْ أَسْرَىٰ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْبَحْرِ فَأَنْجَاهَهُمْ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْفُقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِن

(١) انظر (جامع البيان) (١١/١٥٦).

الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَأَلَيْوَمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ آيَاتِنَا لَغَفْلُونَ ﴿٩٢﴾ .

قال عبد الله بن شداد: «اجتمع يعقوب وبنوه إلى يوسف، وهم اثنان وسبعون، وخرجوا مع موسى من مصر حين خرجوا وهم ستمائة ألف، فلما أدركهم فرعون فأروه قالوا: يا موسى أين المخرج؟ فقد أدركنا، قد كنا نلقى من فرعون البلاء؛ أوحى الله إلى موسى ﴿أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم﴾ وبيس لهم البحر، وكشف الله عن وجه الأرض، وخرج فرعون على فرس حصان أدهم، وكانت تحت جبريل عليه السلام فرس وديق^(١)، وميكائيل يسوقهم، لا يشدّ رجل منهم إلّا ضمّه إلى الناس، فلما خرج آخر بني إسرائيل دنا منه جبريل ولصق به، فوجد الحصان ربح الأنثى، فلم يملك فرعون من أمره شيئاً وقال: أقدموا فليس القوم أحق بالبحر منكم، ثم ﴿أتبعهم فرعون﴾ حتى إذا همّ أولّهم أن يخرجوا ارتطم ونادى فيها ﴿آمنت أنه لا إله إلّا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾ ونودي ﴿آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾؟

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله: «لما قال فرعون: آمنت أنه لا إله إلّا الذي آمنت به بنو إسرائيل، قال: قال لي جبريل: لو رأيتني وقد أخذت من حال البحر فلدستته في فيه، مخافة أن تناله الرحمة»^(٢). رواه أحمد وغيره، وعن

(١) أي: أرادت الفحل، وحرصت عليه.

(٢) أخرجه أحمد (١/٢٤٥ و ٣٠٩)، والترمذي (ح/٣١٠٧)، وابن جرير (١١/١٦٣)، وابن أبي حاتم (٤/١٤٣/أ)، بسندٍ ضعيف. لكن روي من طريق آخر عن ابن عباس - رضي الله عنه - مرفوعاً، بسند حسن: أخرجه أحمد (١/٢٤٠ و ٣٤٠)، والترمذي (٣١٠٨)، وحسنه، وابن جرير (١١/١٦٣)، والحاكم (١/٥٧)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، إلّا أن أكثر أصحاب شعبة أوقفوه على ابن عباس»، وقال الذهبي مقرأ له: =

قيس بن عباد وغيره قال: قالت بنوا إسرائيل لموسى: إنه لم يمت فرعون، قال: فأخرجه الله إليهم ينظرون إليه مثل الثور الأحمر. وقال قتادة: لما أغرق الله فرعون لم تصدق طائفة من الناس بذلك، فأخرجه الله آية وعظة. والله أعلم.



= «وعامة أصحاب شعبة أوقفوه»، قلت: وبما أن السند صح إلى ابن عباس — رضي الله عنه — موقوفاً، فهو في حكم المرفوع، إذ لا يمكن أن يقال هذا من جهة الرأي والله أعلم، وللحديث شواهد يرتقي بها إلى درجة الصحيح: منها حديث لأبي هريرة، وابن عمر، وأبي أمامة رضي الله عنهم.

الدرس الثامن والعشرون بعد المائة

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِبَيِّنَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آبَارِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلِ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنْ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلِ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا آعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ آعْبُدُوا اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّعُكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقْرَبَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا

يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ يَضُرَّ فَلَا
كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ
فَمَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ
بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصِرْ حَتَّىٰ يَخُوكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ
الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقرءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيَةً ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسَّسُ لِمَا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ .

عن الضحاك ﴿مبوءاً صدق﴾ قال: منازل صدق: مصر والشام. وقال قتادة: بؤأهم الله الشام وبيت المقدس.

قال ابن كثير^(١): وقوله: ﴿فما اختلفوا حتى جاءهم العلم﴾ أي ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم، أي ولم يكن لهم أن يختلفوا وقد بين الله لهم وأزال عنهم اللبس. وقد ورد في الحديث: «إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاثة وسبعين فرقة، منها واحدة في الجنة وثلثان وسبعون في النار، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي»^(٢). رواه الحاكم في مستدركه بهذا اللفظ، وهو في السنن والمسانيد؛ ولهذا قال الله تعالى:

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٣١/٢).

(٢) سبق تخريجه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وقال الضحاك في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني أهل التقوى وأهل الإيمان من أهل الكتاب، ممن أدرك النبي ﷺ. وقال قتادة: بلغنا أن نبي الله ﷺ قال: «لَا أَشْكُ وَلَا أَسْأَلُ»^(١).

قال ابن كثير^(٢): وهذا فيه تثبيت للأمة وإعلام لهم أن صفة نبيهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة.

وعن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: حَقَّ عَلَيْهِمْ سَخَطُ اللَّهِ بِمَا عَصَوْهُ.

وعن ابن عباس قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ يقول: لم تكن قرية آمنت ينفعها الإيمان إذا نزل بها بأس الله إلا قرية يونس. وعن سعيد بن جبير قال: لما أرسل يونس إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام وترك ما هم عليه، قال: فدعاهم فأبوا، ف قيل له: أخبرهم أن العذاب مصبّحهم فقالوا: إنا لم نجرب عليه كذباً، فانظروا فإن بات فيكم فليس بشيء، وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبّحكم. فلما كان في جوف الليل أخذ مخلاته فتزوّد فيها شيئاً ثم خرج، فلما أصبحوا تغشاهم العذاب كما يتغشى الإنسان الثوب في القبر، ففرقوا بين الإنسان وولده وبين البهيمة وولدها، ثم عجزوا إلى الله فقالوا: آمنا بما جاء به يونس وصدّقنا، فكشف الله عنهم العذاب، فخرج يونس ينظر العذاب فلم ير شيئاً. قال: جرّبوا عليّ كذباً، فذهب مغاضباً لربه حتى أتى البحر.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً﴾

(١) أخرجه ابن جرير (١٦٨/١١). بسند ضعيف.

(٢) المصدر السابق (٤٣٢/٢).

أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾ .
 ﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله﴾ ونحو هذا في القرآن، فإن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبره أنه لا يؤمن من قومه إلا من قد سبق له من الله السعادة في الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاوة في الذكر الأول.

وعن قتادة قوله: ﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ يقول:
 وقائع الله في الذين خلوا من قبلهم: قوم نوح وعاد وثمود. وقال الربيع: خوفهم عذابه ونقمته وعقوبته.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّعُكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَوْفَىٰ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِذَا يُرِيدُ بِرَدِّكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ

بُوكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُذَكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ
الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ .

قال ابن جرير^(١) في تفسير قوله تعالى: ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين﴾، يقول تعالى ذكره: ولا تدع يا محمد من دون معبودك وخالقك شيئاً، لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يضرك في دين ولا دنيا، يعني الآلهة والأصنام يقول: لا تعبدها راجياً نفعها وخائفاً ضرّها، فإنها لا تنفع ولا تضر، فإن فعلت ذلك فدعوتها من دون الله ﴿فإنك إذا من الظالمين﴾ يقول: من المشركين بالله الظالم لنفسه.

وقال ابن كثير^(٢): ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾، أي: وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين به، وإنما أنا نذير لكم، والهداية على الله تعالى.

وقوله: ﴿واتبع ما يوحى إليك واصبر﴾ أي تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه إليك، ﴿واصبر﴾ على مخالفة من خالفك من الناس ﴿حتى يحكم الله﴾ أي يفتح بينك وبينهم ﴿وهو خير الحاكمين﴾ أي خير الفاتحين بعدله وحكمته، والله أعلم.



(١) انظر «جامع البيان» (١١/١٧٦).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٤٣٥).

الدرس التاسع والعشرون بعد المائة

﴿سورة هود﴾

[مكية، وهي مائة وثلاث وعشرون آية]

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قال أبو بكر: يا رسول الله قد شئت!
قال: شيتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت».
رواه الترمذي. وفي رواية: «شيتني هود وأخواتها»^(١).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَضَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا
اللَّهَ إِنِّي لَكُرْمَةٌ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُعْطِيَكُمْ مَنَّاعًا حَسَنًا
إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَّا إِنْتُمْ بِتُؤَنُونَ صُدُورَهُمْ
لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ
بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾ ﴿٦﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا

(١) أخرجه الترمذي (ح/٣٢٩٧)، وحسنه، وابن سعد في «الطبقات» (١/٤٣٥)، وأبو نعيم في
«الحلية» (٤/٣٥٠)، والحاكم (٢/٣٤٤ و ٤٧٦)، وصححه على شرط البخاري، ووافقه
الذهبي، وهو صحيح.

وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِن أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُمْ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِن أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ بِهَا كَفُورًا ﴿٩﴾ وَلَئِن أَدَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّةٍ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَمَّا كَذَّبْنَا كُرْهُوا فَكُفِرُوا كَأَنَّهُمْ كَذَّبُوا عَلَيْنَا لَوْلَا أَنزَلْنَا عَلَيْهِ كِتَابًا مِّن سَمَوَاتٍ لَّخَسِرَ أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَئِن لَّمْ يَكْفُرُوا لَيَكْفُرُنَّ أَكْثَرًا وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْإِنسَانِ لَكَاذِبٌ كَرِيمٌ ﴿١٢﴾ أَفَتَرَىٰ الَّذِينَ أَفْرَأُوا قُلُوبَهُمْ قُلُوبًا مَّغْفُورَةً وَأَعْرَضُوا عَنْهَا قُلُوبًا مَّغْفُورَةً ﴿١٣﴾ أَفَتَرَىٰ الَّذِينَ أَفْرَأُوا قُلُوبَهُمْ قُلُوبًا مَّغْفُورَةً وَأَعْرَضُوا عَنْهَا قُلُوبًا مَّغْفُورَةً ﴿١٤﴾ أَفَتَرَىٰ الَّذِينَ أَفْرَأُوا قُلُوبَهُمْ قُلُوبًا مَّغْفُورَةً وَأَعْرَضُوا عَنْهَا قُلُوبًا مَّغْفُورَةً ﴿١٥﴾ أَفَتَرَىٰ الَّذِينَ أَفْرَأُوا قُلُوبَهُمْ قُلُوبًا مَّغْفُورَةً وَأَعْرَضُوا عَنْهَا قُلُوبًا مَّغْفُورَةً ﴿١٦﴾ أَفَتَرَىٰ الَّذِينَ أَفْرَأُوا قُلُوبَهُمْ قُلُوبًا مَّغْفُورَةً وَأَعْرَضُوا عَنْهَا قُلُوبًا مَّغْفُورَةً ﴿١٧﴾ أَفَتَرَىٰ الَّذِينَ أَفْرَأُوا قُلُوبَهُمْ قُلُوبًا مَّغْفُورَةً وَأَعْرَضُوا عَنْهَا قُلُوبًا مَّغْفُورَةً ﴿١٨﴾ أَفَتَرَىٰ الَّذِينَ أَفْرَأُوا قُلُوبَهُمْ قُلُوبًا مَّغْفُورَةً وَأَعْرَضُوا عَنْهَا قُلُوبًا مَّغْفُورَةً ﴿١٩﴾

وَيَبْتَغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ
وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ
وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَفْتُرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾
* مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا
نَذْكُرُونَ ﴿٢٤﴾ *

* * *

قوله عز وجل: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرِّمَةٌ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَنِّعْكُمْ مَنَّاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَىٰ اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَّا يَأْتِيَهُمْ يَتُونٌ صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخَفُوا مِنْهُ الْأَحْيَاءُ يَسْتَعْشُونَ نِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾ .

عن الحسن في قوله: ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت﴾ قال: أحكمت بالأمر والنهي، وفصلت بالثواب والعقاب. وقال قتادة: أحكمها الله من الباطل، ثم فصلها بعلمه فيبين حلاله، وحرامه، وطاعته، ومعصيته.

وعن مجاهد ﴿يمتلككم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى﴾ قال: الموت ﴿ويؤت كل ذي فضل فضله﴾ قال: ما احتسب به من ماله، أو عمل بيده، أو رجليه، أو كلمه، أو ما تطوع به من أمره كله.

وقوله تعالى: ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه﴾. قال مجاهد: يثنون صدورهم شكاً وامترأء في الحق ﴿ليستخفوا﴾ من الله إن استطاعوا. وعن ابن عباس ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم﴾ يقول: يكتمون ما في قلوبهم ﴿ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم﴾ ما عملوا بالليل والنهار. وعن الحسن في قوله: ﴿ألا أنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه﴾ قال: من جهالتهم به؛ قال الله ﴿ألا حين يستغشون ثيابهم﴾ في ظلمة الليل في أجواف بيوتهم، يعلم تلك الساعة ﴿ما يسرون وما يعلنون إنه عليهم بذات الصدور﴾.

قوله عز وجل: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخْرَنَّا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسٌ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ كَفُورًا ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَدْقْنَاهُ نِعْمَاءً بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ .

عن ابن عباس ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ قال: كل دابة. قال الضحاك: والناس منهم. وقال ابن عباس ﴿يعلم مستقرها﴾ حيث تأوي ﴿ومستودعها﴾ حيث تموت. وقال مجاهد ﴿مستقرها﴾ في الرحم ﴿ومستودعها﴾ في الصلب.

وقوله تعالى: ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء﴾ قال قتادة: يبتئكم ربكم تبارك وتعالى كيف كان بدأ خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض. وعن أبي رزين العقيلي قال قلت: يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض؟ قال: «كان في عمام ما فوقه هواء وما تحته هواء، ثم خلق عرشه على الماء»^(١). رواه ابن جرير وغيره. وعن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «اقبلوا البشرى يا بني تميم، قالوا قد بشرتنا

(١) أخرجه أحمد (٤/١١ و ١٢)، والترمذي (ح/٣١٠٩)، وابن ماجه (ح/١٨٢)، والطيالسي

(ص ١٤٧)، بسند ضعيف.

فأعطنا، قال: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن، قالوا: قد قبلنا فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان؟ قال: كان الله قبل كل شيء، وكان عرشه على الماء، وكتب في اللوح المحفوظ، ذكر كل شيء^(١). الحديث متفق عليه. وعن سعيد بن جبير قال: سئل ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿وكان عرشه على الماء﴾ على أي شيء كان الماء؟ قال: «على متن الريح»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة﴾ قال ابن عباس: إلى أجل محدود ﴿ليقولن ما يحبسهم﴾؟ قال ابن جريج: للتكذيب به. ﴿الآن يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحق بهم ما كانوا به يستهزئون ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور﴾ قال ابن جريج: يا ابن آدم، إذا كانت بك نعمة من الله من السعة والأمن والعافية، فكفور لما بك منها، وإذا نزعت منك يتبغي لك فراغك، فيؤوس من روح الله قنوط من رحمته؟! كذلك المرء المنافق والكافر ﴿ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني﴾ غره بالله وجرأه عليه ﴿إنه لفرح فخور إلا الذين صبروا﴾ عند البلاء ﴿وعملوا الصالحات﴾ عند النعمة ﴿أولئك لهم مغفرة﴾ لذنوبهم ﴿وأجر كبير﴾ قال: الجنة.

قوله عز وجل: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ وَضَاقَ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ كُنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٣١٩٠ و ٤٣٦٥ و ٤٣٨٦)، ولم أقف عليه عند مسلم بهذا اللفظ، وهذا وهم من الشيخ رحمه الله.

(٢) أخرجه الدارمي في «الرد على بشر المريسي» ص ٨٧، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٥٨/١)، وابن جرير (٥/١٢)، وابن أبي حاتم (٤/١٥٣/أ)، والحاكم (٤٣١/٢)، وصححه ووافقه الذهبي.

وَادْعُوا مِنِ اسْتَطَعْتُمْ مَن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتم مَّسْلُومُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهَرَفْنَا لَا يِيخْسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَدِّلْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابٌ مُّوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِّنَ الْأَحْزَابِ فَالْتَأَارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ .

قال مجاهد: قال الله لنبية ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك﴾ أن تفعل فيه ما أمرت وتدعو إليه كما أرسلت، ﴿أن يقولوا لولا أنزل عليه كتراً﴾ لا نرى معه مالا، أين المال ﴿أو جاء معه ملك﴾ ينذر معه، إنما أنت منذر، فبلغ ما أمرت.

وعن سعيد بن جبير ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾ قال: من عمل للدنيا وفيه في الدنيا. وقال مجاهد: هم أهل الرياء ﴿لا يبخسون﴾ لا ينقصون.

وقوله تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾، أي: برهانه. وعن ابن عباس قوله: ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ يعني محمداً ﷺ: ﴿على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾ فهو جبريل شاهد من الله بالذي يتلو من كتاب الله.

وقال ابن كثير^(١): يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله التي فطر الله عليها عباده، من الاعتراف بأنه لا إله إلا هو، كما قال تعالى: ﴿فأقم

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٤٤٠).

وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴿١﴾ الآية، إلى أن قال: وذلك أن المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة، والتفاصيل تؤخذ من الشريعة، والفطرة تصدقها وتؤمن بها، ولهذا قال تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾ وهو القرآن بلغه جبريل إلى النبي ﷺ إلى أمته.

وقال البغوي^(٢): قيل: في الآية حذف، ومعناه: أفمن كان على بينة من ربه كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها، أو كمن هو في الضلالة والجهالة. وعن سعيد بن جبير قال: كنت لا أسمع بحديث عن النبي ﷺ على وجهه إلا وجدت تصديقه في القرآن فبلغني أن النبي ﷺ قال: «لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني فلا يؤمن بي إلا دخل النار»^(٣). فجعلت أقول: أين مصداقه في كتاب الله؟ حتى وجدت هذه الآية ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾ قال: من الملل كلها، ﴿فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ يُضَعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

(١) سورة الروم: الآية ٣٠.

(٢) انظر «معالم التنزيل»، (٢/٣١٨).

(٣) سبق تخريجه.

وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴿٢٤﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْبَرَ وَالْبَصِيرَ وَالسَّمِيعَ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ .

عن ابن جريج قوله: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ قال: الكافر والمنافق ﴿أولئك يعرضون على ربهم﴾ فيسألهم عن أعمالهم ﴿ويقول الأشهاد﴾ الذين كانوا يحفظون أعمالهم عليهم في الدنيا: ﴿هؤلاء الذين كذبوا على ربهم﴾. وقال الضحاك ﴿الأشهاد﴾ الأنبياء والرسل. وعن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل يدني المؤمن، فيضع عليه كفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته. وأما الكفار والمنافقون فيقول ﴿الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم إلا لعنة الله على الظالمين﴾»^(١) متفق عليه.

وعن قتادة قوله: ﴿ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون﴾ صم على الحق فما يسمعون، بكم فما ينطقون به، عمي فلا يبصرونه ولا ينتفعون به.

وقوله تعالى: ﴿لا جرم﴾.

قال البغوي^(٢): حقاً، وقيل: بلى. وقال الفراء: لا محالة أنهم في الآخرة هم الأخرسون. وقال في القاموس ﴿لا جرم﴾، أي: لا بد أو حقاً لا محالة، أو هذا أصله ثم كثر حتى تحول إلى معنى القسم.

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٦٨٥)، ومسلم (ح/٢٧٦٨).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٢/٣١٩).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. قال قتادة: الإخبات التخشع والتواضع.

وقال ابن عباس: ﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع﴾ قال: الأعمى والأصم والكافر، والبصير والسميع المؤمن. وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن، فأما الكافر فصمّ عن الحق فلا يسمعه، وعمي عنه فلا يبصره، وأما المؤمن فسمع الحق فانتفع به وأبصره، فوعاه وعمل به، يقول تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفْلا تَذَكَّرُونَ﴾ والله أعلم.



الدرس الثلاثون بعد المائة

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۗ
 إِتَىٰ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيُسْرِ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا
 نَزَّلَكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا وَمَا نَزَّلَكَ إِلَّا الَّذِي هُمْ أَرَادُوا بِكُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ
 وَمَا نَزَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ أَرءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ
 عَلَىٰ يَمِينٍ مِّن رَّبِّي وَءَالِنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعَمِيَتَ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَاهُمْ مَكُومًا وَأَنْتُمْ لَهَا
 كَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَتَقَوَّمُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ
 الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُّلتَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَتَقَوَّمُ مَنْ
 يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَفْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا
 أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ
 خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِتَىٰ إِذَا لِمَنِ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَنْشُحُ قَدْ جَدَلْنَا
 فَأَكْثَرْتَ جِدَلْنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ
 اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ
 اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرْتَهُ قُلْ إِنْ
 أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ
 مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ ءَامَنَ فَلَا يَتَّبِعْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا
 وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَصْنَعُ الْفُلَكَ وَكُلَّمَا
 مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا

تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحْمِلْ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِلًا ﴿٣٩﴾
 حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ
 إِلَىٰ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا
 بِسْمِ اللَّهِ جَعِدْبِهَا وَمُرْسَهًا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ
 كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ
 الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَتَأْتِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَْعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ
 أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ
 ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأَكِ أَقْلِي وَيَغِيضِ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ
 بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ
 الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ
 فَلَا تَتَلَوَّنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنْ أَعْطَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي
 أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْكَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ
 الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ
 وَأُمَّمٌ سَنَمَتُّهُمْ ثُمَّ يَمْشُهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا
 إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ
 لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْآسِمْ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَبِكَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلَنَا وَمَا نَرَبِكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَتٍ مِنْ رَبِّي وَءَانِنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزِلُكُمْ مِثْلَهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا تَسْتُلْكُمْ عَلَيْهِ مَا إِلَّا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْتَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجَاهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَنْتُوخُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَبُّهُ قُلُوبُ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يَنْجُرِمُونَ ﴿٣٥﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾ قال: ما ظهر لنا.

وقال ابن جرير (١): فيما نرى (٢) ويظهر لنا.

(١) انظر «تفسير ابن جرير» (١٢/٢٧).

(٢) في تفسير ابن جرير: «يرى».

وعن ابن جريج: ﴿قال نوح يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي﴾ قال: قد عرفتها وعرفت بها أمره، وأنه لا إله إلا الله هو ﴿وأتاني رحمة من عنده﴾ الإسلام والهدى والإيمان والحكم والنبوة ﴿فعميت﴾.

قال البغوي^(١): أي شبهت وألبست^(٢) عليكم ﴿أنلزمكموها﴾، أي: البيّنة والرحمة ﴿وأنتم لها كارهون﴾ لا تريدونها؟ قال قتادة: لو قدر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يلزموا قومهم لألزموا، ولكن لم يقدرُوا.

وعن ابن جريج قوله: ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ التي لا يفنيها شيء فأكون إنما أَدْعُوكم لتتبعوني عليها لأعطيكم منها ﴿ولا أقول إني ملك﴾ نزلت من السماء برسالة، ما أنا إلا بشر مثلكم ﴿ولا أعلم الغيب﴾ ولا أقول: اتبعوني على علم الغيب.

وقوله تعالى: ﴿أم يقولون افتراه﴾، أي: يقول المشركون: افتري محمد هذا الخبر ﴿قل إن افتريته فعلي إجرامي﴾، أي: إثمِي ﴿وأنا بريء مما تجرمون﴾ بتكذيبكم هذا القرآن وليس بمفتري.

قوله عز وجل: ﴿وَأَوْحِي إِلَيْكَ نُوحٍ إِنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَتَّبِعِيسَ يَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ نَعْلَمُوكَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُعْزِيزُهُ وَيَجْلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ وذلك حين دعا عليهم ﴿قال رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾^(٣).

(١) انظر «معالم التنزيل» (٢/٣٢١).

(٢) في «تفسير البغوي»: «والتبست».

(٣) سورة نوح: الآية ٢٦.

قوله: ﴿فلا تبتئس﴾ يقول: فلا تأس ولا تحزن. وعن ابن عباس قوله: ﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾ وذلك أنه لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه أن تصنعها على مثل جؤجؤ الطائر. وعن قتادة في قوله: ﴿بأعيننا ووحينا﴾ قال: بعين الله ووحيه^(١). وعن ابن جريج: ﴿ولا تخاطبني﴾ قال يقول: ولا تراجعني، قال: تقدم أن لا يشفع لهم عنده.

وقوله تعالى: ﴿ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾ عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «لو رحم الله أحداً من قوم نوح لرحم أم الصبي، قال رسول الله ﷺ: كان نوح مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله، حتى كان آخر زمانه غرس شجرة فعظمت وذهبت كل مذهب، ثم قطعها ثم جعل يعمل سفينة، ويمرّون فيسألونه فيقول: أعملها سفينة، فيسخرون منه ويقولون: يعمل سفينة في البر! فكيف تجري؟ فيقول: سوف تعلمون، فلما فرغ منها، وفار التنور، وكثر الماء في السكك، خشيت أم الصبي عليه، وكانت تحبه حباً شديداً، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء خرجت حتى بلغت ثلثي الجبل، فلما بلغها الماء خرجت

(١) وقد استدل السلف من أهل السنة - رحمهم الله تعالى - بهذه الآية وما شابهها من الآيات والأحاديث، على أن الله عز وجل عينين حقيقتان تليقان بجلاله، من غير تكيف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل.

وإياك أن تفهم ما فهمه الجهمي إذ قال: ظاهر هذه الآية أثبات أن الله عز وجل أعين كثيرة، فيدل على خلقين، وعلى ذوات متعددة، فيجب تأويلها أو إنكارها! فإنه لا يقول هذا إلا بليد الذهن، غبي الطبع، فلو تأمل كلام الله عز وجل حق التأمل، وكلام رسوله ﷺ، والسلف الصالح، لما قال مثل هذا الهذيان.

وصدق القائل:

يا خاسراً هانت نفسه إذ باعها بالغبن من أعدائه
لو كنت تعلم قدر ما قد بعته لفسخت هذا البيع قبل وفائه
أو كنت كفراً للرشاد وللهدى أبصرت، لكن لست من أكفائه

حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبتهما رفعته بين يديها حتى يذهب بها الماء، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي»^(١). رواه ابن جرير.

قوله عز وجل: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ حَمِيمًا ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوْحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ أَرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَتَأْتِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَّعِصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَتَّزِقُ أَبْلَىٰ مَاءِكِ وَيَسْمَأُ أَقْلِي وَيَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ .

عن ابن عباس ﴿حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور﴾ قال: إذا رأيت تنور أهلك يخرج منه الماء فإنه هلاك قومك. وعن مجاهد: ﴿وفار التنور﴾ قال: انبجس الماء منه؛ آية أن يركب بأهله ومن معه في السفينة.

قوله: ﴿من كل زوجين اثنين﴾ قال: ذكر وأنثى من كل صنف. قال الحسن: لم يحمل نوح في السفينة إلا ما يلد ويبيض، فأما ما يتولد من الطين فلم يحمل منها شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿وأهلك إلا من سبق عليه القول من آمن﴾.

(١) أخرجه ابن جرير (٣٥/١٢)، وابن أبي حاتم (٤/١٦٣/أ)، والحاكم (٢/٣٤٢ و ٥٤٦)، وصححه، وتعقبه الذهبي قائلًا: «إسناده مظلم، وموسى ليس بذلك!» قلت: وموسى هذا هو ابن يعقوب الزمعي ذكره الذهبي في الكاشف وقال: «فيه لين!» وموسى مختلف فيه، والراجح أنه لا بأس به. قال ابن كثير — رحمه الله — بعدما ذكره في تفسيره: «هذا حديث غريب من هذا الوجه». وقال في «البداية والنهاية» (١/١١٤): «وقد روي عن كعب الأحبار ومجاهد، وغير واحد تنبيه لهذه القصة، وأحرى بهذا الحديث أن يكون موقوفاً متلقى عن مثل كعب الأحبار، والله أعلم». اهـ.

قال البغوي^(١): أي واحمل أهلك وعيالك إلا من سبق عليه القول بالهلاك، يعني: امرأته وأهله وابنه كنعان. ﴿ومن آمن﴾ يعني واحمل من آمن بك، كما قال الله تعالى: ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾ قال ابن إسحاق: كانوا عشرة سوى نساءهم. وقال ابن عباس: كان في سفينة نوح ثمانون رجلاً.

وعن مجاهد: ﴿بسم الله مجراها ومرساها﴾ قال: حين يركبون ويجرون ويرسون، وقال: الجودي: جبل بالجزيرة.

قوله عز وجل: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٤٥) قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّخِذْ مِنْهُ شُرَكَاءَ لِلَّذِينَ هُمَا بِكُفْرٍ أَكْبَرُ أَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِكَ فَأَكْفُرْ بِهِ يَا مُؤْمِنُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَنْتُوخُ أَهْبِطْ بِسَلْمٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنَمَتُّهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

عن ابن عباس قال: ما بغت امرأة نبي قط، قال: وقوله: ﴿إنه ليس من أهلك﴾ الذين وعدتهم أن أنجيهم معك، وقال: هو ابنه غير أنه خالفه في العمل والنية؛ وسئل عن قول الله تعالى: ﴿فخانتاهما﴾ قال: أما إنه لم يكن بالزنا، ولكن كانت هذه تخبر الناس أنه مجنون، وكانت هذه تدل على الأضياف.

وقوله تعالى: ﴿إنه عمل غير صالح﴾.

قال البغوي^(٢): قرأ الكسائي ويعقوب: عَمِلَ أَي عَمِلَ الشَّرْكَ وَالتَّكْذِيبَ، وَقَرَأَ الْآخَرُونَ: عَمَلٌ مَعْنَاهُ أَنْ سَأَلَكَ إِيَّايَ أَنْ أُنْجِيَهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٢/٣٢٣).

(٢) المصدر السابق (٢/٣٢٥).

وقال في جامع البيان: ﴿إنه عمل غير صالح﴾، أي: إنه ذو عمل فاسد ولا ولاية بين المؤمنين والكافر، قيل: ﴿إنه﴾، أي: سؤالك إياي بنجاته عمل فاسد. وعن الضحاك في قوله: ﴿إنه ليس من أهلك﴾ قال: ليس من أهل دينك، ولا ممن وعدتك أن أنجيه ﴿إنه عمل غير صالح﴾ يقول: كان عمله في شرك. ﴿فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكونن من الجاهلين﴾.

قال البغوي^(١): يعني أن تدعو بهلاك الكفار ثم تسأل نجاة كافر. ﴿قال نوح رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾. قال محمد بن كعب دخل في ذلك السلام: كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة. وعن قتادة: ودخل في ذلك العذاب والمتاع: كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة.

قوله: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ القرآن وما كان علم محمد ﷺ وقومه ما صنع نوح وقومه، لولا ما بين الله له في كتابه.

وقوله تعالى: ﴿فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾.

قال ابن كثير^(٢): فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك، وأذاهم لك، فإننا سننصرك ونحوطك بعنايتنا، ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين بعترتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾^(٣). والله أعلم.



(١) المصدر السابق (٣٢٦/٢).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٤٩/٢).

(٣) سورة غافر: الآيتان ٥١ و ٥٢.

الدرس الواحد والثلاثون بعد المائة

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِن
 أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنِ اجْتَبَيْتُمُوهُ فَلَا تَعْلَمُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ
 عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا
 يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ
 بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسْمِ اللَّهِ ۗ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَأُعَذِّبَنَّهُمْ
 وَبِئْسَ مَا تَشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكَيْدُوهُنَّ جَمِيعًا ۗ لَئِن لَّمْ يَظْهَرِ لَّهُنَّ الْآيَاتُ
 لَيَبْغِيَنَّ مِنَ اللَّهِ وَرَبِّهِمْ مَّآ مِنْ دَابَّةٍ ۗ إِلَّا هُوَ ۗ أَخَذُ بِمَا مَكَّنَّ لَهُمْ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٥﴾
 فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۖ وَسَخَّلْتُ لِرَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ
 شَيْئًا ۗ إِن رَّبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٦﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا لَبَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ
 بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٧﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا
 رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٨﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِن
 عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بَعْدَ إِعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴿٥٩﴾ وَإِلَىٰ نَمُودٍ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ
 يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۗ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا
 فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۗ إِنَّ رَبِّي قَرِيمٌ مُّجِيبٌ ﴿٦٠﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ
 هَذَا ۗ أَنْتَ هُنَا أَمَّا بَنُوكَ مِن قَبْلِكَ ۗ إِنَّا لَنَنظُرُكَ بِمَقَامِكَ ۗ وَإِنَّا لَنَنظُرُكَ بِمَقَامِكَ ۗ وَإِنَّا لَنَنظُرُكَ بِمَقَامِكَ ۗ وَإِنَّا لَنَنظُرُكَ
 بِمَقَامِكَ ۗ وَإِنَّا لَنَنظُرُكَ بِمَقَامِكَ ۗ وَإِنَّا لَنَنظُرُكَ بِمَقَامِكَ ۗ وَإِنَّا لَنَنظُرُكَ بِمَقَامِكَ ۗ وَإِنَّا لَنَنظُرُكَ بِمَقَامِكَ ۗ
 يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۗ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا
 فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۗ إِنَّ رَبِّي قَرِيمٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ
 هَذَا ۗ أَنْتَ هُنَا أَمَّا بَنُوكَ مِن قَبْلِكَ ۗ إِنَّا لَنَنظُرُكَ بِمَقَامِكَ ۗ وَإِنَّا لَنَنظُرُكَ بِمَقَامِكَ ۗ وَإِنَّا لَنَنظُرُكَ بِمَقَامِكَ ۗ
 يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۗ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا
 فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۗ إِنَّ رَبِّي قَرِيمٌ مُّجِيبٌ ﴿٦٢﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ
 هَذَا ۗ أَنْتَ هُنَا أَمَّا بَنُوكَ مِن قَبْلِكَ ۗ إِنَّا لَنَنظُرُكَ بِمَقَامِكَ ۗ وَإِنَّا لَنَنظُرُكَ بِمَقَامِكَ ۗ وَإِنَّا لَنَنظُرُكَ بِمَقَامِكَ ۗ
 يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۗ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا
 فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۗ إِنَّ رَبِّي قَرِيمٌ مُّجِيبٌ ﴿٦٣﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ
 هَذَا ۗ أَنْتَ هُنَا أَمَّا بَنُوكَ مِن قَبْلِكَ ۗ إِنَّا لَنَنظُرُكَ بِمَقَامِكَ ۗ وَإِنَّا لَنَنظُرُكَ بِمَقَامِكَ ۗ وَإِنَّا لَنَنظُرُكَ بِمَقَامِكَ ۗ

مِنْ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُمْهُمَا نَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَنْقُورُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ
 آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾
 فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾
 فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ
 يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا
 فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٦٧﴾ كَانَتْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا آلَ إِنْ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا
 لِتَمُودَ ﴿٦٨﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۚ إِن كُنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا اسْتَلْكُمْ عَلَيْهِ جَنًّا إِن آجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿مداراراً﴾ قال: يتبع بعضها بعضاً.

قال ابن جرير^(١): وقوله: ﴿ولا تتولوا مجرمين﴾ يقول: ولا تدبروا عما أدعوكم إليه من توحيد الله، والبراءة من الأوثان والأصنام ﴿مجرمين﴾، يعني: كافرين بالله.

قوله عز وجل: ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوِّهِ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ بِاللَّهِ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكَيْدُوْنِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِن رَّبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَىٰ كُفْرٍ وَسَنَخْلِفُ رِبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِن رَّبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ .

عن مجاهد: ﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾ قال: أصابتك الأوثان بجنون. وقال قتادة: ما يحملك على ذم آلهتنا إلا أن أصابك منها سوء. وعن مجاهد: ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾ الحق.

(١) انظر «جامع البيان» (٥٨/١٢).

قال ابن جرير^(١): يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَذَلِكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدَ لِعَادٍ قَوْمٍ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾.

قال البغوي^(٢): ﴿وتلك عاد﴾ رده إلى القبيلة ﴿جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله﴾، يعني: هوداً، ذكره بلفظ الجمع، لأن من كذب رسولاً واحداً كان كمن كذب جميع الرسل.

قوله عز وجل: ﴿وَإِن تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ أَغْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٦٢﴾﴾.

عن مجاهد في قول الله: ﴿واستعمركم فيها﴾ قال: أعماركم فيها.

وقال ابن جرير يقول^(٣): وجعلكم عمّارها فيها.

وقال ابن كثير: أي جعلكم عمّاراً تعمرونها وتشغلونها ﴿فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب﴾، ﴿قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوًّا قبل هذا﴾.

قال ابن جرير^(٤): أي كنا نرجو أن تكون فينا سيِّداً قبل هذا القول الذي قلته لنا، من أنه مالنا من إله غير الله ﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا﴾ يقول: أتنهانا أن

(١) المصدر السابق (٦١/١٢).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣٢٨/٢).

(٣) انظر «جامع البيان» (٦٢/١٢).

(٤) المصدر السابق (٦٣/١٢).

نعبد الآلهة التي كانت آباؤنا تعبدها؟ ﴿وإننا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب﴾
يعنون: أنهم لا يعلمون صحة ما يدعوهم إليه من توحيد الله .

قوله عز وجل: ﴿قَالَ يَنْفَقُونَ أَرْهَ يَتَمَّرُ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي
وَأَتَانِي مِّنْهُ رَحْمَةٌ فَمَنْ يُنصِرُنِي مِّنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾
وَيَنْفَقُونَ هَذِهِ نَاقَةٌ لِّكُم مَّا آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا
تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ .

قال ابن كثير^(١): ﴿قال يا قوم أرايتم إن كنت على بيتة من ربي﴾ فيما
أرسلني به إليكم على يقين وبرهان ﴿وأتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن
عصيته﴾ وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده؟ فلو تركته لما نفعتموني،
ولما زدتموني ﴿غير تخسير﴾، أي: خسارة، ﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية﴾،
وذلك أن قوماً طلبوا منه أن يخرج ناقة عشراء من هذه الصخرة، فدعا صالح عليه
السلام فخرجت منه ناقة وولدت في الحال ولدًا، فقال لهم: ﴿ذروها تأكل في
أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب﴾ .

قوله عز وجل: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ
ذَٰلِكَ وَعَدُّ غَيْرٍ مَّكَذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا
مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ
الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمٍ ﴿٦٧﴾ كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا آلَا
إِنَّ شَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِشَمُودَ ﴿٦٨﴾ .

عن قتادة: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾ قال: بقية آجالهم، وذكر لنا أن
صالحاً حين أخبرهم أن العذاب أتاهم، لبسوا الأنطاع والأكسية وقيل لهم: إن آية
ذلك أن تصفرّ ألوانكم أول يوم، ثم تحمرّ في اليوم الثاني، ثم تسودّ في اليوم
الثالث .

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٤٥١).

وقوله تعالى: ﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جائمين﴾
﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ قال ابن عباس: كأن لم يعيشوا فيها، وفي حديث عمرو بن
خارجة: «فلما أصبحوا لليوم الرابع، أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل
صاعقة، وصوت كل شيء له صوت في الأرض، فتقطعت قلوبهم في صدورهم،
فأصبحوا في دارهم جائمين»^(١). وعن ابن عباس أن النبي ﷺ حين أتى على قرية
ثمود قال: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا
باكين فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم ما أصابهم»^(٢). والله أعلم.



(١) أخرجه ابن جرير (١٢/٦٥ — ٦٦)، بسند ضعيف جداً.
(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٣٣)، ومسلم (ح/٢٩٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما،
وليس هو من حديث ابن عباس — رضي الله عنهما — كما توهمه المؤلف رحمه الله.

الدرس الثاني والثلاثون بعد المائة

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوَجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِهِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَنْتَوِلِحُ عَدُوِّي وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَنْتَجِدِينَ مِنَ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةً وَاللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَى مُجْتَمِعَةً فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لِعَدَابٍ عَذَابٍ غَيْرَ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ يَوْمٍ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوِرُ هُنَا لَأَنْ يَتَّخِذَ مِنْ بَنَاتِكُمْ تُخْزَوْنَ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِبْ إِلَىٰ هَاهُنَا بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْمُوكَ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴿

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجَلٍ حَنِيدٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِهِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَنْوِلْنِي أَءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ .

قال البغوي^(١): ﴿قالوا سلاماً﴾ أي سلموا سلاماً، ﴿قال﴾ إبراهيم ﴿سلام﴾ أي عليكم السلام. وعن مجاهد ﴿فما لبث أن جاء بعجل حنيد﴾ قال: بعجل حسيل البقر، والحنيد، المشويّ النضيج. وعن مجاهد ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة﴾ وكانت العرب إذا نزل بهم ضيف فلم يطعم من طعامهم، ظنوا أنه لم يجيء به بخير وأنه يحدث نفسه بشر، وقال: لما أوجس إبراهيم خيفة في نفسه، حدثه عند ذلك بما جاءوا فيه، فضحكت امرأته وعجبت من أن قوماً أتاه العذاب وهم في غفلة.

وقال ابن إسحاق: ﴿فضحكت﴾ يعني سارة، لما عرفت من أمر الله جل ثناؤه، ولما تعلم من قوم لوط، فبشروها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، بابن وبابن ابن، فقالت - وصكت وجهها يقال: ضربت على جبينها - ﴿يا ويلتي ألد وأنا عجوز﴾ إلى قوله: ﴿إنه حميد مجيد﴾.

وقال ابن كثير^(٢): ﴿قالوا أتعجبين من أمر الله﴾ أي قالت الملائكة لها: لا تعجبي من أمر الله، فإنه إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون، فلا تعجبي من

(١) انظر «معالم التنزيل» (٢/٣٣٠).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٤٥٢).

هذا وإن كنت عجوزاً عقيماً وبعلك شيخاً كبيراً، فإن الله على ما يشاء قدير ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾ أي هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله، محمود ممجد في صفاته وذاته.

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ مُجْدِلًا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرَ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروع﴾ قال: الفرق ﴿وجاءته البشري﴾ بإسحاق ﴿يجادلنا﴾ يخاصمنا ﴿في قوم لوط﴾.

وقال سعيد بن جبير: لما جاءه جبريل ومن معه قالوا لإبراهيم: ﴿إنها مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين﴾ قال لهم إبراهيم: أتهلكون قرية فيها أربعمائة مؤمن؟ قالوا: لا، قال: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا، قال: أتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟ قالوا: لا، فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك: ﴿إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته﴾ فسكت عنهم واطمأنت نفسه.

وقوله تعالى: ﴿إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾، قال مجاهد: ﴿أواه منيب﴾: القانت الرجاع. وفي حديث ابن إسحاق قال: رأيتم إن كان رجلاً واحداً مسلماً؟ قالوا: لا، فلما لم يذكروا لإبراهيم أن فيها مؤمناً واحداً قال: ﴿إن فيها لوطاً﴾ يدفع به عنهم العذاب، قالوا: ﴿نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾ قالوا: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ

قَالَ يَفْقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴿٧٩﴾
 قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنصُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَاهِي مِنَ الظَّالِمِينَ بِعِيدٍ ﴿٨٣﴾ .

قال ابن إسحاق: خرجت الرسل فيما يزعم أهل التوراة من عند إبراهيم إلى لوط بالمؤتفكة، فلما جاءت الرسل لوطاً: ﴿سيء بهم وضاق بهم ذرعاً﴾ وذلك من تخوف قومه عليهم أن يفضحوه في ضيفه فقال: ﴿هذا يوم عصيب﴾ قال ابن عباس: شديد.

وعن مجاهد: ﴿وجاءه قومه يهرعون إليه﴾ قال: يهرولون، وهو الإسراع في المشي. وقال سفيان بن عيينة: يهرعون إليه كأنهم يدفعون. وقال الضحاك: يسعون إليه. ﴿ومن قبل كانوا يعلمون السيئات﴾ قال ابن عباس: يقول: من قبل مجيئهم إلى لوط كانوا يأتون الرجال من أدبارهم. ﴿قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم﴾.

قال في فتح البيان: ﴿قال يا قوم هؤلاء بناتي﴾ أي فتزوجهن واتركوا أضيافهم، وكانوا يطلبونهن قبل ذلك ولا يجيبهم، وكان تزويج المسلمة من الكافر جائزاً، أو المراد من البنات نساؤهم، وأضاف إلى نفسه لأن كل نبي أبو أمته.

وقال الشيخ ابن سعدي: (فجاءه قومه يهرعون إليه، يريدون فعل الفاحشة بأضياف لوط) ﴿فقال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم﴾ لعلمه أنه لا حق لهم فيهن، كما عرض سليمان للمراتين حين اختصمتا في الولد فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينكما، ومن المعلوم أنه لا يقع ذلك، وهذا مثله، ولهذا قال في قومه: ﴿لقد

علمت ما لنا في بناتك من حقّ وإنك لتعلم ما نريد ﴿﴾ ، وأيضاً يريد بعض العذر من أضيافه، وعلى هذا التأويل لا حاجة إلى العدول إلى قول بعض المفسرين: ﴿هؤلاء بناتي﴾ يعني زوجاتهم). انتهى.

وقال ابن إسحاق: ﴿لقد علمت ما لنا في بناتك من حقّ﴾ أي من أزواج ﴿وإنك لتعلم ما نريد﴾ أي إن بغيتنا لغير ذلك، فلما لم يتناهاوا ولم يردّهم قوله، ولم يقبلوا منه شيئاً مما عرض عليهم من أمور بناته.

﴿قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد﴾ أي عشيرة تمنعني أو شيعة تنصرني، لَحَلْتُ بينكم وبين هذا. وقال ابن جريج: بلغنا أنه لم يُبعث نبي بعد لوط إلا في ثروة قومه، حتى النبي ﷺ.

وقال ابن كثير^(١): ولهذا ورد في الحديث من طريق محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «رحمة الله على لوط، لقد كان يأوي إلى ركن شديد، يعني الله عز وجل، فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه»^(٢)، فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسل الله إليه، وأنهم لا وصول لهم إليه ﴿قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك﴾. وقال السدي: لما قال لوط: ﴿لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد﴾ بسط حينئذ جبرائيل عليه السلام جناحيه ففقا أعينهم، وخرجوا يدوس بعضهم في أذبار بعض عمياناً يقولون: النجاة النجاة، فإن في بيت لوط أسحر قوم في الأرض، فذلك قوله: ﴿ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم﴾.

و ﴿قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا أمرتكم إنه مصيبها ما أصابهم﴾ واتبع أذبار أهلك، يقول: سر بهم وامضوا حيث تؤمرون، فأخرجهم الله إلى الشام، وقال لوط: أهلكوهم

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٤٥٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢/٢٣٢)، والترمذي (٢/٣١١٦)، وابن جرير (١٢/٨٧)، وابن أبي حاتم

(٤/٨٠/ب)، والحاكم (٢/٥٦١) وصححه ووافقه الذهبي، قلت: وهو حديث صحيح.

الساعة فقالوا: إنا لم نؤمر إلا بالصبح ﴿أليس الصبح بقريب﴾؟ فلما أن كان السحرُ خرج لوط وأهله معه امرأته، فذلك قوله: ﴿إلا آل لوط نجيناهم بسحر﴾ وقال قتادة: ذكر لنا أنه كانت مع لوط حين خرج من القرية امرأته، ثم سمعت الصوت فالتفتت، وأرسل الله عليها حجراً فأهلكها.

وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها﴾ قال: لما أصبحوا غدا جبريل على قريتهم، ففتقها من أركانها، ثم أدخل جناحه ثم حملها على حوافي جناحه، بما فيها، ثم صعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم، ثم قلبها فكان أول ما سقط منها شرافها، فذلك قول الله: ﴿جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل﴾. قال مجاهد: لم يصب قوماً ما أصابهم، إن الله طمس على أعينهم، ثم قلب قريتهم، وأمطر عليهم حجارة من سجيل. قال ابن عباس: وهي بالفارسية حجارة من طين. وقال الربيع بن أنس في قوله: ﴿منضود﴾ قال: نضد بعضها على بعض. وعن مجاهد: ﴿مسومة﴾ معلمة.

وقوله تعالى: ﴿وما هي من الظالمين ببعيد﴾.

قال ابن كثير^(١): أي وما هذه النعمة ممن تشبه بهم في ظلمهم ببعيد عنه. وقد ورد في الحديث المروي في السنن عن ابن عباس مرفوعاً: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به»^(٢). وذهب الإمام الشافعي في قول عنه وجماعة من العلماء إلى: أن اللائط يقتل سواء كان محصناً أو غير محصن، عملاً بهذا الحديث، وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أنه يلقي من شاهق ويتبع بالحجارة، كما فعل الله بقوم لوط) انتهى.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٤٥٥).

(٢) أخرجه أحمد (١/٢٦٩)، وأبو داود (ح/٤٤٦٢)، والترمذي (ح/١٤٥٦)، والنسائي في الكبرى (٤/٣٢٢)، وابن ماجه (ح/٢٥٦٤)، وهو حديث صحيح.

وقال الشوكاني^(١): قال ابن الطلاع في أحكامه: لم يثبت عن رسول الله ﷺ أنه رجم في اللواط، ولا أنه حكم فيه، وثبت عنه أنه قال: «اقتلوا الفاعل والمفعول به»^(٢). رواه عنه ابن عباس وأبو هريرة رضي الله عنهما. وأخرج البيهقي عن عليّ عليه السلام^(٣) أنه رجم لوطياً، قال الشافعي: وبهذا نأخذ برجم اللوطي محصناً كان أو غير محصن. وأخرج البيهقي أيضاً عن أبي بكر — رضي الله عنه — أنه جمع الناس في حق الناس في حق رجل ينكح كما تنكح النساء، فسأل أصحاب رسول الله ﷺ عن ذلك، فكان من أشدهم يومئذ قولاً عليّ بن أبي طالب قال: هذا ذنب لم تعص به أمة من الأمم إلا أمة واحدة، صنع الله بها ما قد علمتم، نرى أن تحرقه بالنار، فاجتمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن يحرقه بالنار، فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد يأمره أن يحرقه بالنار. وفي إسناده إرسال. وروي من وجه آخر عن جعفر بن محمد عن أبيه عن عليّ في غير هذه القصة قال: «يرجم

(١) انظر «نيل الأوطار» (١١٦/٧ — ١١٧).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) تخصيص علي — رضي الله عنه — بهذا الدعاء — ومثله كرم الله وجهه — دون غيره من الصحابة، خلاف ما عليه السلف من أهل السنة — رحمهم الله —، فهناك من الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان — رضي الله عنه — هم أفضل من علي — رضي الله عنه — بأجماع أهل السنة ومع ذلك لم يتقل عن أحد من السلف الصالح أنه قد دعى بهذا الدعاء لهم، بل المنقول عنهم الترضي عليهم، كما قال تعالى: «رضي الله عنهم ورضوا عنه»، بل تخصيص علي — رضي الله عنه — أو غيره من الصحابة بهذا الدعاء هو من علامة أهل البدع، خاصة الرافضة، ومن لم يسعه ما وسع السلف — رحمهم الله — فلا وسع الله عليه، ومن لم يرتض ما رضي السلف الصالح لهم من أهل السنة فلا رضي الله عنه، والله أعلم. قال ابن كثير في تفسيره (٥١٨/٣): «وقد غلب هذا في عبارة كثير من النساخ للكتب، أن يفرد علياً — رضي الله عنه — بأن يقال: عليه السلام من دون سائر الصحابة، أو كرم الله وجهه، وهذا وإن كان معناه صحيحاً، لكن ينبغي أن يُسوّى بين الصحابة في ذلك فإن هذا من باب التعظيم والتكريم، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان أولى بذلك — رضي الله عنهم — أجمعين». اهـ.

ويحرق بالنار». وأخرج البيهقي أيضاً عن ابن عباس أنه سئل عن حد اللوطي فقال: «ينظر أعلى بناء في القرية فيرمى به منكساً، ثم يتبع الحجارة». وذهب عمر وعثمان إلى أن يلقي عليه حائط. وقد حكى صاحب الشفاء إجماع الصحابة على القتل، وما أحقّ مرتكب هذه الجريمة ومقارن هذه الرذيلة الذميمة، بأن يعاقب عقوبة يصير بها عبرة للمعتبرين، ويعذب تعذيباً يكسر شهوة الفسقة المتمردّين، فحقيق بمن أتى بفاحشة قوم ما سبقهم بها من أحد من العالمين، أن يصلى من العقوبة بما يكون في الشدة والشناعة مشابهاً لعقوبتهم، وقد خسف الله تعالى بهم، واستأصل بذلك العذاب بكرهم وشيئهم) انتهى ملخصاً والله أعلم.



الدرس الثالث والثلاثون بعد المائة

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَقَوْمِ أَزِفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَشْعَيْبُ أَصَلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُمْ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَجِيمٌ وَدُوْدٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَشْعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُّحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُّجْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِيبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْغَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمٍ ﴿٩٤﴾ كَانَ لَمْ يَعْنُوا فِيهَا إِلَّا بَعْدَ الْمَدْيَنِيِّ كَمَا بَعَدَتْ شَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَانَكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَقَوْمِ أَتَوْا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفَعَلْنَا فِي أُمُورِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ .

عن قتادة في قوله: ﴿إني أراكم بخير﴾ قال: يعني خير الدنيا وزينتها.

وقوله: ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ يقول: لا تظلموا الناس أشياءهم.

وقوله تعالى: ﴿ولا تعتوا في الأرض مفسدين﴾.

قال ابن جرير^(١) يقول: ولا تسيروا في الأرض تعملون فيها بمعاصي الله. وعن مجاهد ﴿بقية الله خير لكم﴾ قال: طاعة الله خير لكم، وقال ابن عباس: بقية الله رزقاً، يعني ما أبقى لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن خير مما تأخذون بالتطفيف. ﴿قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾؟ قال ابن عباس: كان شعيب عليه السلام كثير الصلاة ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ قال: أرادوا: السفه الغاوي، والعرب تصف الشيء بضده. وقال ابن جرير: يستهزئون.

قوله عز وجل: ﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيْنَتٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي

(١) انظر «جامع البيان» (١٢/١٠٠).

مِنَهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَدَكُم عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ
مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَنْفَوِّرُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ
شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ
مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ
وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ .

قال ابن جرير^(١): يقول تعالى ذكره ﴿قال﴾ شعيب لقومه: يا قوم إن كنت
على بيان وبرهان من ربي فيما أدعوكم إليه من عبادة الله، والبراءة من عبادة
الأوثان والأصنام، وفيما أنهاكم عنه من إفساد المال ﴿ورزقني منه رزقاً حسناً﴾
يعني حلالاً طيباً. وعن قتادة ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ لم أكن
لأنهاكم من أمر أركبه أو آتبه ﴿إن أريد إلا الإصلاح﴾ يقول: ما أريد فيما أمركم به
وأنهاكم عنه إلا إصلاحكم وإصلاح أمركم ﴿ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه
توكلت وإليه أنيب﴾ قال مجاهد: أرجع.

وعن قتادة قوله: ﴿لا يجرمنكم شقائي﴾ يقول: لا يحملنكم فراقى ﴿أن
يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح﴾ الآية. وقال ابن جريج: عداوتي وبغضائي
وفراقى.

وقوله: ﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾، أي: في الزمان والمكان.

وقوله: ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾.

قال ابن كثير^(٢): ﴿واستغفروا ربكم﴾ من سالف الذنوب ﴿ثم توبوا إليه﴾
فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة ﴿إن ربي رحيم ودود﴾، أي: لمن تاب.

قوله عز وجل: ﴿قَالُوا يَنْشَعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ

(١) المصدر السابق (١٢/١٠٣).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٤٥٧).

فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿١١﴾ قَالَ يَنْقَوْمِ أَرَهْطِي
 أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
 مُحِيطٌ ﴿١٢﴾ وَيَنْقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَعِلُّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ
 عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿١٣﴾ .

عن سعيد بن جبیر ﴿وإنا لنراك فينا ضعيفاً﴾ قال: كان ضرير البصر. قال
 سفيان: وكان يقال له خطيب الأنبياء.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿ولولا رهطك لرجمناك﴾ لولا أن نتقي قومك
 ورهطك لرجمناك.

وعن ابن عباس قوله: ﴿قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه
 وراءكم ظهرياً؟﴾ قال: قفاً وذلك أن قوم شعيب ورهطه كانوا أعز عليهم من الله،
 وصغر شأن الله عندهم، عز ربنا وجل ثناؤه. وعن مجاهد ﴿واتخذتموه وراءكم
 ظهرياً﴾ قال: نبذتم أمره.

قال ابن كثير^(١): لما يش نبي الله شعيب من استجابتهم له قال: ﴿يا قوم
 اعملوا على مكانتكم﴾، أي: طريقتمكم، وهذا تهديد شديد ﴿إني عامل على
 طريقتي سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب﴾ مني ومنكم
 ﴿وارتقبوا﴾، أي: انتظروا ﴿إني معكم رقيب﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ
 مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْئَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِينِهِمْ جُنْجُمَاتٍ ﴿١٤﴾ كَانُوا لَرَبِّعْتَنَا
 فِيهَا الْأَبْدَانِ لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ شُعُودٌ ﴿١٥﴾﴾ .

قال السدي: إن الله بعث شعيباً إلى مدين وإلى أصحاب الأيكة، وهي
 الغيضة من الشجر، وكانوا مع كفرهم يبخسون الكليل والميزان، فدعاهم فكذبوه

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، (٤٥٨/٢).

فقال لهم ما ذكر الله في القرآن، وما ردّوا عليه، فلما عتوا وكذبوه سألوه العذاب، ففتح الله عليهم باباً من أبواب جهنم فأهلكهم الحر منه، فلم ينفعهم ظلّ ولا ماء، ثم إنه بعث سحابة فيها ريح طيبة، فوجدوا برد الريح وطيبها، فتنادوا: الظلّة عليكم بها، فلما اجتمعوا تحت السحابة رجالهم ونساؤهم وصبيانهم، انطبقت عليهم فأهلكتهم، فهو قوله: ﴿فأخذهم عذاب يوم الظلة﴾.

قال ابن كثير^(١): وقوله: ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾، أي: يعيشوا في دارهم قبل ذلك ﴿إلاً بُغداً لمدين كما بعدت ثمود﴾ وكانوا جيرانهم قريباً منهم في الدار، وشبيهاً بهم في الكفر وقطع الطريق، وكانوا عرباً مثلهم.

وقال ابن جرير^(٢): يقول تعالى ذكره: ألاً أبعد الله مدين من رحمته، بإحلال نعمته بهم كما بعدت ثمود. والله أعلم.



(١) المصدر السابق (٢/٤٥٨).

(٢) انظر «جامع البيان» (١٢/١٠٩).

الدرس الرابع والثلاثون بعد المائة

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَيْكَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَفْقَهُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ
النَّارَ وَيَبْسُ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَبْسُ الرِّقْدُ
الْمَرْقُودُ ﴿٩٩﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا
ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا
أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ
الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ
مَعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمَنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا
الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَلِيلَيْنَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ
وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي
الْجَنَّةِ خَلِيلَيْنَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ ﴿١٠٨﴾
فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا
لَمَوْفُونَ بِمَا نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ فَأَخْلَفَ فِيهِ
وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنتِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كَلِمَةً
لَمَّا يُؤْفِقُنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَفْتِمُوهَا كَمَا أُمِرْتُمْ وَمَنْ
تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا

فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٦﴾ وَأَقِمِ
 الصَّلَاةَ طَرَفَى النَّهَارِ وَرَافِعًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَى
 لِلذَّكِرِينَ ﴿١١٧﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ
 الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهَوَّنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أُنجَيْنَا
 مِنْهُمُ وَأَتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَّفَقُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٩﴾ وَمَا كَانَ
 رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ
 أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١٢١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ
 رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٢﴾ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ
 مَا نَشِئْتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٣﴾ وَقُلِ لِلَّذِينَ
 لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٢٥﴾ وَاللَّهُ غَيْبُ
 السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ
 عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٦﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَسَّ الْوَرْدُ الْمَوْزُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هُدَاهُ لَعْنَةُ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَسَّ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهِمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿بئس الرفد المرفود﴾ قال: لعنة الدنيا والآخرة ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد﴾ يعني بالقائم: قرى عامرة، والحصيد: قرى خامدة. وقال ابن زيد: اعتذر - يعني ربنا جل ثناؤه - إلى خلقه فقال: ﴿وما ظلمناهم﴾ مما ذكرنا لك من عذاب من عذبنا من الأمم ﴿ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تبييب﴾ قال مجاهد: تخسير. وفي الصحيحين عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾﴾ (١).

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمُوعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٦٨٦)، ومسلم (ح/٢٥٨٣).

النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴿١٠٨﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوزٍ ﴿١٠٨﴾ .

عن الضحاك قوله: ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾ قال: يوم القيامة يجتمع فيه الخلق كلهم، ويشهده أهل السماء وأهل الأرض.

وعن ابن عباس قوله: ﴿لهم فيها زفير وشهيق﴾ يقول: صوت شديد وصوت ضعيف. وقال قتادة: صوت الكافر في النار صوت الحمار، أوله زفير وآخره شهيق. ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك﴾ قال: الله أعلم بشيئه، وذكر لنا أن ناساً يصيبهم سفع النار بذنوب أصابوها ثم يدخلهم الجنة.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك﴾، فقرأ حتى بلغ ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ قال: وأخبرنا بالذي يشاء لأهل الجنة فقال: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار. وعن ابن عباس ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ يقول: عطاء غير مقطوع. وقال ابن زيد: غير منزوع عنهم. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «اعملوا فكلُّ ميسرٍ لما خلق له أما أهل السعادة فميسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فميسرون لعمل أهل الشقاوة»^(١).

قوله عز وجل: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١١٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَأَخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكِّ مِمَّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٧﴾ وَإِنَّ كَلَامَنَا لِيُوقِنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١٨﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطَّعُوا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

(١) أخرجه البخاري (ح/٦٥٩٦ و ٧٥٥١)، ومسلم (ح/٢٦٤٩) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

بَصِيرًا ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فْتُمْسِكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ
 أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ أَيْلٍ إِنَّ
 الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ يَدَاهِنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
 الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ .

عن ابن عباس: ﴿وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص﴾ قال: ما وعدوا فيه
 من خير أو شر.

وقوله تعالى: ﴿وإن كلاً لما ليوفيتهم ربك أعمالهم﴾ أي أن جميعهم والله
 ﴿ليوفيتهم ربك أعمالهم﴾ .

قال البغوي^(١): الأصل فيه: وإن كلاً لمن ما فوِّصَلتَ «من» الجارة «بما»
 فانقلبت النون ميماً للإدغام، فاجتمعت ثلاث ميّات فحذفت إحداهنّ فبقيت «لماً»
 بالتشديد، و «ما» هنا بمعنى «من»، وهو اسم لجماعة الناس.

وعن سفيان في قوله: ﴿فاستقم كما أمرت﴾ قال: استقم على القرآن.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿ولا تطغوا﴾ قال: الطغيان خلاف الله وركوب
 معصيته ذلك الطغيان.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾ يعني
 الركون إلى الشرك. وقال أبو العالية: لا ترضوا أعمالهم. وعن ابن عباس:
 لا تميلوا. وقال ابن زيد: الركون الإرهاق.

وعن مجاهد ﴿أقم أصلاة طرفي النهار﴾ قال: الفجر وصلاتي العشي، يعني
 الظهر والعصر ﴿زلفاً من الليل﴾ قال: المغرب والعشاء ﴿إن الحسنات﴾ الصلوات
 ﴿يُدْهِنُ السَّيِّئَاتِ﴾ وعن ابن مسعود قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا
 رسول الله إني وجدت امرأة في بستان، ففعلت بها كل شيء، غير أنني لم أجتمعها،
 قبلتها ولزمتها ولم أفعل غير ذلك، فافعل بي ما شئت، فلم يقل له رسول الله ﷺ

(١) انظر «معالم التنزيل» (٢/٣٤٠).

شيئاً، فذهب الرجل فقال عمر: لقد ستر الله عليه، فلو ستر على نفسه، فأتبعه رسول الله ﷺ بصره فقال: فردّوه فقرأ عليه: ﴿أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾ فقال معاذ بن جبل: أله وحده يا نبي الله أم للناس كافة؟ فقال: بل للناس كافة^(١) رواه ابن جرير وغيره.

قوله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَاؤُنَّ مُحْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

قال في جامع البيان ﴿فلولا﴾ فهلاً ﴿كان من القرون من قبلكم أولو بقية﴾ أي هلاً كان منهم من فيه خير ينهى عن الفساد؟ وهذا تحريض لأمة محمد عليه الصلاة والسلام، كما قال ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير﴾^(٢) الآية. وقال ابن زيد: اعتذر فقال: ﴿فلولا كان من القرون من قبلكم﴾ حتى بلغ ﴿إلا قليلاً ممن أنجينا منهم﴾ فإذا هم الذين نجوا حين نزل عذاب الله، وقرأ: ﴿واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه﴾ وعن قتادة ﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم﴾ أي لم يكن من قبلكم من ينهى عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم. وقال ابن جريج: يستقلهم الله من كل قوم.

وقوله تعالى: ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾.

(١) أخرجه مسلم (٤/٢١١٦)، وابن جرير (١٢/١٣٤)، وبنحوه عند البخاري (ح/٥٢٦)

و (٤٦٨٧)، ومسلم (ح/٢٧٦٣) من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - أيضاً.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

قال البغوي^(١): أي لا يهلكهم وأهلها مصلحون فيما بينهم، يتعاطون الإنصاف ولا يظلم بعضهم بعضاً، وإنما يهلكهم إذا تظالموا.

وعن قتادة قوله: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ يقول: لجعلهم مسلمين كلهم وعن عطاء ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ قال: اليهود والنصارى والمجوس ﴿إلا من رحم ربك﴾ قال: هم الحنيفية. وعن مجاهد ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ قال: أهل الباطل ﴿إلا من رحم ربك﴾ قال: أهل الحق ﴿ولذلك خلقهم﴾ قال الفراء: خلق أهل الرحمة للرحمة وأهل الاختلاف للاختلاف. وقال الحسن: أما أهل رحمة الله فإنهم لا يختلفون اختلافاً يضرهم.

قوله عز وجل: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنشِئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ .

عن ابن جريج قوله: ﴿وكلأ نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾ قال: لتعلم ما لقيت الرسل قبلك من أممهم.

وقوله تعالى: ﴿وجاءك في هذه الحق موعظة وذكرى للمؤمنين﴾.

قال البغوي^(٢): خص هذه السورة تشريفاً، وإن كان قد جاءه الحق في جميع السور. والله أعلم.



(١) انظر «معالم التنزيل» (٢/٣٤٢).

(٢) المصدر السابق (٢/٣٤٣).

الدرس الخامس والثلاثون بعد المائة

﴿سورة يوسف عليه السلام﴾

مكية، وهي مائة وإحدى عشرة^(١) آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَبْنَؤُ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُنمِّئُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلْمُتَسَابِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَبْحَلُ لَكُمْ وَجْهٌ أَيْكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾

(١) في (الأصل): «عشر»، وهو خطأ، والذي يظهر أنه خطأ من الناسخ، وليس من المؤلف

— رحمه الله — إذ تكرر هذا من الناسخ عدة مرات والمؤلف كتبها في نسخته على الصواب

(انظر آخر الجزء الرابع يظهر لك ذلك)، والله أعلم.

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنْصَحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُمُوعِ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ وَنُرَكِّعُكَ نُيُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكْكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَهُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمِ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَى هَذَا عَلِمْتُمْ وَأَسْرُوهُ بِضَعَّةٍ وَاللَّهُ عَلَيْهِ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَّوهُ بِشَعْبٍ بِخَيْسِ دَرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مَرْأَتِي أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿الرَّيَّةَ لَكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ .

عن مجاهد في قول الله تعالى: ﴿الر تلك آيات الكتاب المبين﴾ قال: بين حلاله وحرامه. وقال الزجاج: مبيّن الحق من الباطل والحلال من الحرام.

وقال ابن كثير^(١): أي الواضح الجلي الذي يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسرها ويبيّنها. وعن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا، فنزلت ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾^(٢).

وعن قتادة ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ من الكتب الماضية، وأمور الله السالفة في الأمم ﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾.

قوله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَبْنَئُ لَا نَقُصُّ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آئِلٍ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ .

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٦٦/٢).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٥٠/١٢) بسند ضعيف، وينحوه عن عبد الله بن عون، وعمرو بن قيس مرسلًا. أخرجه ابن جرير (١٥٠/١٢)، وينحوه عن سعد بن أبي وقاص: أخرجه ابن جرير (١٥٠/١٠)، وابن أبي حاتم (١٩٧/٤ ب)، والحاكم (٣٤٥/٢)، وصححه ووافقه الذهبي. قلت: وهو حديث حسن.

عن ابن عباس في قوله: ﴿إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾ قال: كانت رؤيا الأنبياء وحيّاً. وقال قتادة: الكواكب إخوته، والشمس والقمر أبواه. وقال السدي: نزل يعقوب الشام فكان همه يوسف وأخاه، فحسده إخوته لما رأوا حبّ أبيه له، ورأى يوسف في المنام كأن أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين، فحدّث أباه بها فقال ﴿يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾.

وعن قتادة قوله: ﴿وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾ فاجتباها واصطفاه وعلمه من عبر الأحاديث. وقال مجاهد: عبارة الرؤيا. قال ابن زيد: وكان يوسف أعبر الناس.

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْمُتَسَاءِلِينَ﴾ ٧ ﴿ذَقُوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَ اللَّهِ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ آبَاءَنَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ٨ ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ آيِكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ ٩ ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ١٠ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنْصِحُونَ﴾ ١١ ﴿أَرْسَلَهُ مَعَنَا خَدًا يَزْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ١٢ ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ ١٣ ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ﴾ ١٤ ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ١٥ ﴿وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ ١٦ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْلَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ ١٧ ﴿وَجَاءَ عَلَى قَعِيصِهِ بِدَمِيرٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ ١٨

قال ابن إسحاق: إنما قصّ الله تبارك وتعالى على محمد خبر يوسف، وبغي إخوته عليه وحسداهم إياه حين ذكر رؤياه، لما رأى رسول الله ﷺ من بغي قومه وحسده، حين أكرمه الله عز وجل بنبوته ليتأسى به.

وعن السدي ﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه أحبّ إلى أبينا منا﴾ قال: يعنون بنيامين، قال: وكانوا عشرة ﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾ قال: في ضلال من أمرنا. وقال ابن زيد: العصبة الجماعة.

وعن السدي ﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين﴾ قال: تتوبون مما صنعتم. وقال مقاتل: يصلح أمركم فيما بينكم وبين أبيكم.

وعن قتادة ﴿قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف﴾ ذكر لنا أنه روي، كان أكبر القوم وهو ابن خالة يوسف، فنهاهم عن قتله ﴿والقوه في غيابة الجب﴾ يقول: في بعض نواحيها. وقال ابن عباس: والجب بئر بالشام. ﴿يلتقطه بعض السيارة﴾ قال: التقطه ناس من الأعراب.

وعن قتادة قوله ﴿أرسله معنا غداً يرتع ويلعب﴾ قال: ينشط ويلهو.

قال ابن كثير^(١): فيقال: إن يعقوب عليه السلام لما بعثه معهم ضمّه إليه وقتله ودعا له، فذكر السدي وغيره أنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له إلا أن غابوا عن عين أبيه وتواروا عنه، ثم شرعوا يؤذونه بالقول والفعل، ثم جاؤوا به إلى ذلك الجبّ الذي اتفقوا على رميه فيه، فربطوه بحبل ودلّوه فيه، فجعل إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشمته، وإذا تشبّث بحافات البئر ضربوا على يديه، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة فسقط في الماء فغمره، فصعد إلى صخرة تكون في وسطه يقال لها الراعوفة فقام فوقها، قال الله تعالى: ﴿وأوحينا إليه لتنبئتهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾، قال مجاهد: أوحى إلى يوسف وهو في الجبّ أن

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٤٧٠).

سينبئهم بما صنعوا، وهم لا يشعرون بذلك الوحي. وقال ابن عباس: لما دخل إخوة يوسف ﴿فعرّفهم وهم له منكرون﴾ قال: جيء بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطنّ فقال: إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أيكم يقال له: يوسف، يدينه دونكم، وإنكم انطلقتم به فألقيتموه في غيابة الجبّ، قال: ثم نقره فطنّ: فأتيتم أباكم فقلتم: إن الذئب أكله، وجئتم على قميصه بدم كذب قال: فقال بعضهم لبعض: إن هذا الجام ليخبره بخبركم! قال ابن عباس: فلا نرى هذه الآية نزلت إلاّ فيهم ﴿لتنبئتهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ قال: ثم إنهم ذبحوا سخلة وجعلوا، دمها على قميص يوسف عليه السلام.

﴿وجاؤوا أباهم عشاء يبكون﴾.

قال البغوي^(١): قال أهل المعاني جاؤوا في ظلمة العشاء ليكون أجراً على الاعتذار بالكذب. وروي أن يعقوب عليه السلام سمع صياحهم وعويلهم فخرج وقال: ما لكم يا بنيّ هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا، قال: فما أصابكم؟ وأين يوسف؟ ﴿قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾، أي: وما أنت بمصدق لنا لسوء ظنك بنا. وعن ابن عباس ﴿وجاؤوا على قميصه بدم كذب﴾ قال: لو أكله السبع لخرق القميص، وعنه الحسن قال: لما جاء أخوة يوسف بقميصه إلى أبيهم جعل يقلّبه فيقول: ما عهدت الذئب حلماً، أكل، ابني وأبقى على قميصه.

وعن قتادة قال ﴿بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً﴾ يقول: بل زينّت لكم أنفسكم أمراً ﴿فصبر جميل﴾، قال مجاهد: ليس فيه جزع ﴿والله المستعان على ما تصفون﴾ قال قتادة أي على ما تكذبون.

قوله عز وجل: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوًا قَالَ يَبِشْرَى

(١) انظر «معالم التنزيل» (٢/٣٤٩).

هَذَا عَلَّمَ وَأَسْرُوهُ بِضْعَةَ^{١٩} وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَّوهُ بِشَمْنٍ بَخْسٍ
 دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ
 لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا
 لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ
 أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ .

عن قتادة ﴿فأرسلوا واردهم﴾ يقال: أرسلوا رسولهم، فلما ﴿أدلى دلوه﴾
 تشبَّث بها الغلام ﴿قال يا بشرى هذا غلام﴾ تباشروا به حين أخرجوه. وعن مجاهد
 ﴿وأسرَّوه بضاعة﴾ قال صاحب الدلو ومن معه، قالوا لأصحابهم: إنما استبضعناه،
 خيفة أن يشركوهم فيه إن عملوا بشمنه، وتبعهم إخوته يقولون للمدلي وأصحابه:
 استوثق منه لا يأبق، حتى وقفوه بمصر.

وقوله تعالى: ﴿وشروه بشمن بخرس دراهم معدودة﴾ قال ابن عباس: باعه
 إخوته بشمن بخرس. قال الضحاك: البخرس الحرام. وقال الشعبي: قليل. وقال ابن
 عباس: عشرون درهماً. وعن الضحاك ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾ قال: إخوته
 زهدوا فيه فلم يعلموا منزلته من الله ونبوته ومكانه.

وقوله تعالى: ﴿وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه﴾ قال قتادة:
 وهي امرأة العزيز. وقال ابن مسعود: أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرس في
 يوسف فقال لامرأته: ﴿أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾، وأبو بكر حين
 تفرس في عمر، والتي قالت ﴿يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي
 الأمين﴾.

وقوله تعالى: ﴿وكذلك مكَّنَّا ليوسف في الأرض﴾.

قال ابن كثير^(١): يقول تعالى: كما أنقذنا يوسف من إخوته ﴿كذلك مكَّنَّا

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٤٧٣).

ليوسف في الأرض ﴿ يعني بلاد مصر ﴾ ولنعلمه من تأويل الأحاديث ﴿ قال مجاهد والسدي: هو تعبير الرؤيا ﴾ والله غالب على أمره ﴿ ، أي: إذا أراد شيئاً فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف، بل هو الغالب لما سواه. قال سعيد بن جبير في قوله: ﴿ والله غالب على أمره ﴾ ، أي: فعّال لما يشاء.

وقوله: ﴿ ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون ﴾ يقول: لا يدرون حكمته في خلقه، وتلطّفه وفعله لما يريد. والله أعلم.



الدرس السادس والثلاثون بعد المائة

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَوَدَتْهُ
الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ۖ وَعَلَّقَتْ الْأَبْرَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۗ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ
إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا
لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ۗ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۗ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا
الْمُخْلِصِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ ۗ وَأَلْفَيَْا سَيْدَهَا لَدَا
الْبَابِ ۗ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ
رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي ۖ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ۗ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ
فَصَدَقَتْ ۖ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ ۖ وَهُوَ مِنَ
الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ ۗ إِنَّ كَيْدَكُنَّ
عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا ۖ وَأَسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۗ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ
الْفَاطِطِينَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَوِّدُ فَتَنَهَا ۖ عَنْ نَفْسِهِ ۗ قَدْ
شَغَفَهَا حُبًّا ۗ إِنَّا لَنَرْنَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ
لَهُنَّ مَكْئَلًا ۖ وَهِيَ كُلُّ وَجْدَةٍ مِنَّنَّ سَكِينًا ۖ وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيَّهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ
أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا ۖ إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي
لُمْتُنِّي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ۖ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا
مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي
كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ۖ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۗ إِنَّهُ

هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آلِئْتِ لَيْسُجُنَّتَهُ حَتَّىٰ جِئَ ﴿٣٥﴾
 وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي
 أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأْتُكَ مِنَّا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ
 الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا
 ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمْتَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ
 كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِيْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ
 نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
 لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْحَجِي السِّجْنَ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّاحِدُ
 الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا
 أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ
 وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَصْحَجِي السِّجْنَ أَمَا أَحَدَكُمَا فَيَسْقِي
 رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ
 تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ
 الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ
 سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ
 يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَثُ
 أَحْلَمَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا
 أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ
 يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى
 النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ
 إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا
 مِّمَّا تَحْصِتُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ

الْمَلِكُ أَتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ الْمِسْوَةِ الَّتِي
 قَطَعَنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنِ
 نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَن حَصْحَصَ
 الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ
 وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا
 مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُونِي بِهِ اسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا
 كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي
 حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ
 بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا تَجْرُ الْأَخْرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴿٥٧﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٢) وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِهِمْ وَهُمْ بِهَا ثَوَالٍ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّي كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ .

عن مجاهد قال: سمعت ابن عباس يقول في قوله: ﴿ولما بلغ أشده﴾ قال: بضعاً وثلاثين سنة. وقال الضحاك. عشرين سنة. وروي عن ابن عباس أنه قال: ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين. وقال الشعبي ومالك: الأشد الحلم.

وعن مجاهد ﴿آتيناه حكمةً وعلماً﴾ قال: العقل والعلم قبل النبوة. وعن ابن إسحاق: ﴿ولما بلغ أشده راودته التي هو في بيتها عن نفسه﴾ امرأة العزيز ﴿وقالت هيت لك﴾ قال سعيد بن جبيرة قالت: تعاله. وعن ابن عباس ﴿هيت لك﴾ قال: هلم لك. وقال مجاهد: تدعوه بها إلى نفسها.

﴿قال معاذ الله﴾ قال ابن جرير^(١): يقول: اعتصم بالله من الذي تدعوني إليه

(١) انظر «جامع البيان» (١٢/١٨٢).

وأستجير به منه . وعن ابن إسحاق : ﴿ قال معاذ الله أنه ربي ﴾ يقول : إنه سيدي ﴿ أحسن مثواي ﴾ أمتني على بيته وأهله ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ قال : هذا الذي تدعوني إليه ظلم ولا يفلح من عمل به .

وعن السدي ﴿ ولقد همّت به وهمّ بها ﴾ قال قالت له : يا يوسف ما أحسن شعرك ! قال : هو أول ما ينتثر من جسدي ، قالت : يا يوسف ما أحسن وجهك ! قال : هو للتراب يأكله ، فلم تزل حتى أطعمته فهمت به وهمّ بها ، فدخل البيت ﴿ وغلقت الأبواب ﴾ وذهب ليحلّ سراويله ، فإذا هو بصورة يعقوب قائماً في البيت قد عصّ على أصبعه يقول : يا يوسف تواقّعها؟ وإنما مثلك ما لم تواقّعها ، مثل الطير في جو السماء لا يطاق ، ومثلك إذا واقّعها ، مثله إذا مات ووقع إلى الأرض ، لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ، ومثلك ما لم تواقّعها ، مثل الثور الصعب الذي لا يعمل عليه ، ومثلك إن واقّعها مثل الثور حين يموت ، فيدخل النمل في أصل قرنيه ، لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ، فربط سراويله ، وذهب ليخرج يشتدّ ، فأدركته فأخذت بمؤخر قميصه من خلفه فخرقته حتى أخرجته منه وسقط ، وطرحه يوسف واشتدّ نحو الباب ﴿ وألفيا سيدها لدى الباب ﴾ قال : جالسا عند الباب ، وابن عمها معه ، فلما رأته ﴿ قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ ؟ إنه راودني عن نفسي فدفعته عن نفسي فشقت قميصه ، قال يوسف : بل هي راودتني عن نفسي وفررت منها فأدركتني فشقت قميصي ، فقال ابن عمها : تبيان هذا في القميص ، فإن كان القميص ﴿ قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ﴾ فيأتي بالقميص فوجده قد من دبر ﴿ قال إنه من كيدك إن كيدك عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ . وقال نوف الشيباني : ما كان يوسف يريد أن يذكره حتى قالت : ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ ؟ فغضب فقال : ﴿ هي راودتني عن نفسي ﴾ .

قوله عز وجل : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا

عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرِيهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَأًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ أَخْرِجْ عَلَيَّ هُنَّ فَلَمَّا رَأَيْتَهُنَّ أَكْبَرْتَهُنَّ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِينَ لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ فَصَرَفَ عَنْهُمْ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِنَا لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴿٣٥﴾ .

عن مجاهد قوله: ﴿قد شغفها حباً﴾ قال: كان حباً في شغفها. وقال الضحاك: هو الحب اللازق بالقلب.

وعن السدي ﴿فلما سمعت بمكرهن﴾ يقول: بقولهن. وقال ابن إسحاق: لما أظهر النساء ذلك من قولهن: تراود عبدها، مكرأ بها لتريهن يوسف، وكان يوصف لهن بحسنه وجماله ﴿فلما سمعت بمكرهن﴾ أرسلت إليهن وأعدت لهن متكأً ﴿قال سعيد بن جبير: طعاماً وشراباً ومتكأً، قال السدي: يتكئن عليه. وعن ابن عباس﴾ وأعدت لهن متكأً وآتت كل واحدة منهن سكيناً ﴿قال: أعطتهن أترجاً﴾ وأعطت كل واحدة منهن سكيناً وقالت أخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه ﴿قال ابن زيد: فخرج فلما رأينه أعظمته وبهتن﴾ وقطعن أيديهن ﴿قال السدي: جعل النسوة يحزرن أيديهن يحسبن أنهن يقطعن الأترج﴾ وقلن حاش لله ما هذا بشراً ﴿قال ابن زيد: ما هكذا تكون البشر.

وقال البغوي^(١): أي معاذ الله أن يكون هذا بشراً ﴿إن هذا إلا ملك كريم﴾ وعند السدي ﴿قالت فذلكن الذي لمتني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾

(١) انظر «معالم التنزيل» (٢/٣٥٦).

تقول: بعد ما حلّ السراويل استعصى، لا أدري ما بدا له. وقال ابن عباس: ﴿فاستعصم﴾ يقول: فامتنع.

وعن السدي ﴿قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه﴾ من الزنا.

قال البغوي^(١): وإنما صرّحت به لأنها علمت أن لا ملامة عليها منهم، وقد أصابهن ما أصابها من رؤيته، فقلن له: أطع مولاتك، فقالت راعيل ﴿ولئن لم يفعل ما أمره ليسجننّ وليكوناً من الصاغرين﴾.

﴿قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه﴾ والأصل تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴿قال ابن زيد: إلا يكن منك أنت العون والمنعة، لا يكن مني ولا عندي﴾.

وعن ابن إسحاق ﴿فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم﴾ أي نجّاه من أن يركب المعصية فيهن ﴿ثم بدا لهم من بعدما رأوا الآيات﴾ ببراءته مما اتهم به من شقّ قميصه من دبر ﴿ليسجننه حتى حين﴾ قال السدي: إلى الوقت الذي يرون فيه رأيهم، جعل الله ذلك الحبس ليوسف فيما ذكر عقوبة له من همه بالمرأة وكفارة لخطيئته.

وقال ابن كثير^(٢): يقول تعالى: ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين، أي إلى مدة وذلك بعدما عرفوا براءته، وظهرت ﴿الآيات﴾ وهي الأدلة على صدقه في عفته ونزاهته، وكأنهم والله أعلم إنما سجنوه لما شاع الحديث، إيهاماً أنه راودها عن نفسها وأنهم سجنوه على ذلك.

قوله عز وجل: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرِنِّي أَخَصِرُ خَمْراً وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرِنِّي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْتَنَا يَا وَيْلَهُ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَا بَيْتَكُمْ طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَاتُكُمَا

(١) المصدر السابق (٢/٣٥٦).

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم، (٢/٤٧٧).

يَتَأْوِيلُهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي^{٤٢} إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ابْتِهَامًا وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ^{٤٣} مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسُ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْصِجِي السِّجْنََاءَ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ^{٤٤} ذَلِكَ الَّذِينَ أَفْقِمُوا وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٥﴾ يَصْصِجِي السِّجْنَءَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ فُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤٦﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا أذْكَرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنَسَّهُ الشَّيْطَانُ ذَكَرَ رَبَّهُ فَلَيْتَ فِي السِّجْنِ يَضَعُ سِنِينَ ﴿٤٧﴾ .

قال ابن إسحاق: فطرح في السجن يعني يوسف: ﴿ودخل معه السجن فتيان﴾ غلامان، كانا^(١) للملك الأكبر الريان بن الوليد، كان أحدهما على شرابه والآخر على بعض أمره، في سخطة سخطها عليهما. وقال السدي: إن الملك غضب على خبازه، بلغه أنه يريد أن يسمه فحبسه، وحبس صاحب شرابه، ظن أنه ماله^(٢) على ذلك فحبسهما جميعاً.

وقوله تعالى: ﴿قال أحدهما إنني أعصر خمراً وقال الآخر إنني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين﴾ .

قال ابن كثير^(٣): والمشهور عند الأكثرين أنهما رأيا مناماً وطلبا تعبيره.

وعن الضحاك في قوله: ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ قال: كان يوسع للرجل في مجلسه ويتعاهد المرضى.

(١) في (الأصل): «كان»، وهو خطأ.

(٢) في (الأصل): «مالاً»، والمثبت من تفسير ابن جرير.

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٤٧٨).

قال البغوي^(١): فلما قصّا عليه الرؤيا كره يوسف أن يعبرّ لهما لما سألاه، لما علم في ذلك من المكروه على أحدهما، فأعرض عن سؤالهما، وأخذ في غيره من إظهار المعجزة والدعاء إلى التوحيد و ﴿قال لا يأتيكما طعام ترزقانه﴾ قيل: أراد به في النوم يقول: ﴿لا يأتيكما طعام ترزقانه﴾ في نومكما ﴿إلا نبأتكما بتأويله﴾ في اليقظة، وقيل: أراد به في اليقظة يقول: ﴿لا يأتيكما طعام﴾ من منازلكما ﴿ترزقانه﴾ تطعمانه وتأكلانه ﴿إلا نبأتكما بتأويله﴾ بقدره ولونه والوقت الذي يصل فيه إليكما ﴿قبل أن يأتيكما﴾، مثل معجزة عيسى عليه السلام، ﴿ذلكم مما علّمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ ثم دعاهما إلى الإسلام فقال: ﴿يا صاحبي السجن أرياب متفرّقون﴾ أي آلهة شتى ﴿خير أم الله الواحد القهار ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدون إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ثم فسّر رؤياهما فقال: ﴿يا صاحبي السجن أما أحدكما﴾ وهو صاحب الشراب ﴿فيسقي ربه خمراً﴾ والعناقيد الثلاثة: ثلاثة أيام يبقى في السجن ثم يدعوه الملك بعد الثلاثة ويردّه إلى منزلته التي كان عليها، ﴿وأما الآخر﴾ يعني صاحب الطعام فيدعوه الملك بعد ثلاثة أيام، والسهال الثلاث: ثلاثة أيام يبقى في السجن ثم يخرج به فيأمر به ﴿فيصلب فتأكل الطير من رأسه﴾ قال ابن مسعود: ولما سمعا قول يوسف قالاً: ما رأينا شيئاً إنما كنا نلعب، قال يوسف ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ أي فرغ من الأمر الذي عنه تسألان، ووجب حكم الله عليكما بالتي أخبرتكما به، رأيتما أو لم تريا. وقال — يعني يوسف — عند ذلك ﴿للذي ظن﴾ علم ﴿أنه ناج منهما﴾ وهو الساقى ﴿اذكرني عند ربك﴾ يعني سيدك الملك وقل له: إن غلاماً محبوساً ظلماً طال حبسه ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾ قيل: أنسى

(١) انظر «معالم التنزيل» (٢/٣٥٨).

الشیطان الساقی ذکر یوسف للملك، تقدیره: فأنساه الشیطان ذكره. وقال ابن عباس — وعلیه الأکثرون — : أنسى الشیطان یوسف ذکر ربه حين ابتغى الفرج من غیره، واستعان بمخلوق، وتلك غفلة عرضت لیوسف من الشیطان ﴿فلبت في السجن بضع سنین﴾ وأكثر المفسرین علی أن البضع في هذه الآیة سبع سنین. انتهى ملخصاً.

قوله عز وجل : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ ﴿٤٩﴾ .

قال السدي: إن الله أرى الملك في منامه رؤيا هالته، فرأى ﴿سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات﴾ فجمع السحرة، والكهنة، والقافة، فقصها عليهم ﴿فقالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾ وعن ابن عباس قوله: ﴿أضغاث أحلام﴾ قال: مشتبهة. وقال الضحاك: هي الأحلام الكاذبة.

وقال ابن كثير^(١): اعتذروا إليه بأنها ﴿أضغاث أحلام﴾ أي أخلط أحلام اقتضته رؤياك هذه ﴿وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾ أي لو كانت رؤيا صحيحة

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٤٨٠).

من أخلاط لما كان لنا معرفة بتأويلها، وهو تعبيرها، فعند ذلك تذكر الذي نجا ذينك الفتيين، وكان الشيطان قد أنساه ما وصّاه به يوسف من ذكره أمره للملك، فعند ذلك تذكر ﴿بعد أمة﴾ أي مدة، فقال لهم - أي للملك والذين جمعهم لذلك - : ﴿أنا أنبئكم بتأويله﴾ أي بتأويل هذا المنام ﴿فأرسلون﴾ أي فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن ومعنى الكلام، فبعثوه فجاء فقال: ﴿يوسف أيها الصديق أفتنا﴾.

وقال البغوي^(١): والصدّيق الكثير الصدق؛ ﴿أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات﴾ فإن الملك رأى هذه الرؤيا ﴿لعلّي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون﴾ فقال له يوسف معبراً ومعلماً: أما البقرات السمان، والسنبلات الخضر، فسبع سنين مخصيب، والبقرات العجاف، والسنبلات اليابسات، فالسننات المجذبة، فذلك قوله تعالى إخباراً عن يوسف ﴿قال تزرعون سبع سنين دأباً﴾ هذا خبر بمعنى الأمر، يعني: ازرعوا سبع سنين على عادتكم في الزراعة، والدأب: العادة، وقيل: بجذّ واجتهاد ﴿فما حصدم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون﴾ أمرهم بحفظ الأكثر، والأكثر بقدر الحاجة ﴿ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهنّ إلا قليلاً مما تحصنون﴾ تحرزون وتدخرون للبذر ﴿ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون﴾ معناه: يعصرون العنب خمراً والزيتون زيتاً والسّمسم دهنًا انتهى ملخصاً، وقال ابن عباس: ﴿ثم يأتي من بعد ذلك﴾ قال: أخبرهم بشيء لم يسألوه عنه، وكان الله قد علّمه إياه ﴿عام فيه يغاث الناس﴾ بالمطر ﴿وفيه يعصرون﴾ يعني يحتلبون. وقال قتادة: يعصرون الأعناب، والزيتون، والثمار من الخصيب، هذا علم آتاه الله يوسف لم يسئل عنه.

وقال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي: فإن قيل: من أين أخذ قوله ﴿ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون﴾؟ فإن بعض المفسرين قال: هذه

(١) انظر «معالم التنزيل» (٢/٣٦١).

زيادة من يوسف في التعبير بوحى أوحى إليه، فالجواب: ليس الأمر كذلك، وإنما أخذها من رؤيا الملك، فإن السنين المجدبة سبع فقط، فدل على أنه سيأتي بعدها عام عظيم الخصب كثير البركات، يزيل الجذب العظيم الحاصل من السنين المجدبة، الذي لا يزيلها عام خصب عادي، بل لا بد فيه من خلاف العادة، وهذا واضح وهو من مفهوم العدد.

قوله عز وجل: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهِ؟ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ؟ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ أَمْرَأَتُ الْعَزِيزِ الَّتِي حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّمَا لِمَنِ الصِّدْقَاتُ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبْرئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ۞ .

قال السدي: لما أتى الملك رسوله فأخبره قال: ﴿ اتنوني به ﴾ فلما أتاه الرسول، ودعاه إلى الملك أبي يوسف من الخروج معه و﴿ قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴾ الآية. قال ابن عباس: لو خرج يوسف يومئذ قبل أن يعلم الملك بشأنه، ما زالت في نفس العزيز منه حاجة، يقول: هذا الذي راود امرأته. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله يوسف إن كان ذا أناة، فلو كنت أنا المحبوس ثم أرسل إلي لخرجت سريعاً، إن كان لحليماً ذا أناة»^(١). رواه ابن جرير وغيره.

(١) أخرجه ابن جرير (٢٣٤/١٢) بسند ضعيف، لكن ورد من وجه آخر عن أبي هريرة مرفوعاً: «لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي» أخرجه البخاري (ح/٣٣٧٢ و ٣٣٨٧ و ٤٦٩٤)، ومسلم (ح/١٥١)، وبنحوه مرفوعاً: «لو كنت أنا لأسرعت الإجابة، وما ابتغت العذر» أخرجه أحمد (٢/٣٤٦ و ٣٨٩)، وابن جرير (١٢/٢٣٥)، والحاكم (٢/٣٤٧) وصححه على شرط مسلم.

وعن ابن جريج قوله: ﴿ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾ قال: أراد يوسف العذر قبل أن يخرج من السجن. قال ابن جرير عن ابن إسحاق: فلما جاء الرسول الملك من عند يوسف بما أرسله إليه، جمع النسوة و﴿قال ما خطبكن إذا راودتن يوسف عن نفسه﴾؟ ويعني بقوله: ﴿ما خطبكن﴾ ما كان أمركن وما كان شأنكن ﴿إذ راودتن يوسف عن نفسه﴾؟ فأجبه ﴿فقلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق﴾ تقول: الآن تبين الحق وانكشف فظهر ﴿أنا راودته عن نفسه﴾.

﴿ذلك ليعلم أنني لم أخنه بالغيب﴾.

قال ابن كثير^(١): تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسي ليعلم زوجي أنني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع، فلهذا اعترفت ليعلم أنني بريئة، ﴿وأن الله لا يهدي كيد الخائنين وما أبرئ نفسي﴾ تقول المرأة: ولست أبرئ نفسي، فإن النفس، تتحدث، وتتمنى ولهذا راودته لأن النفس أمارة بالسوء ﴿إلا ما رحم ربي﴾ أي إلا من عصمه الله تعالى ﴿إن ربي غفور رحيم﴾، وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام. انتهى.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصَ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٥﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ ﴿٥٦﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَلَا جُرْأَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

قال ابن إسحاق: ﴿وقال الملك﴾ يعني ملك مصر الأكبر، حين تبين عذر يوسف، وعرف أمانته وعلمه، قال لأصحابه ﴿اتنوني به أستخلصه لنفسي﴾ يقول:

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٨١/٢).

أجعله من خلصائي ﴿ فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ .

قال ابن كثير^(١): مدح نفسه، ويجوز للرجل ذلك إذا جهل أمره للحاجة .
﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴾ يعني أرض مصر ﴿ يتبوا منها حيث يشاء ﴾ .

قال ابن جرير^(٢): يتخذ منها منزلاً حيث يشاء بعد الضيق والحبس . وقال السدي: يتصرف فيها كيف يشاء . ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ .

قال ابن كثير^(٣): أي وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز، فلهذا أعقبه الله — عز وجل — السلامة والنصر والتأييد ﴿ ولا نضيع أجر المحسنين ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ كقوله في حق سليمان عليه السلام ﴿ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾^(٤) . والله أعلم .



(١) المصدر السابق (٢/٤٨٢) .

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٦/١٣) .

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٤٨٢) .

(٤) سورة ص: الآية ٣٩ و ٤٠ .

الدرس السابع والثلاثون بعد المائة

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنَ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ، فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَتَرُوهُ عَنْهُ آبَاؤُهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَّكَتَلُ وَإِنَّا لَمُحْفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبُغِي هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَنَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنَأُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتِيَ بِهٖ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَبْنَئِي لَأُدْخِلُوهُنَّ مِنْ بَابٍ وَجِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قُضِيَهَا وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسْرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا

تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقِدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ
 زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا
 سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي
 رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ
 أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
 فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ
 عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ * قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي
 نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾
 قَالُوا يَا أَبَتِهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ
 الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعِنَا بِهِ إِنَّا إِذَا
 لَطَلِمُوا ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا
 أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ
 أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ
 آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا
 لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسئَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا
 لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا جَمِيلٌ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ
 يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَفَىٰ
 عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبِضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُوا
 تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ
 إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِيَّ وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَبْنَؤُ
 أَذْهُبُوا فَتَحَسَّنُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رُوحِ
 اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ * .

قوله عز وجل: ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ ٥٨ ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِمَّنْ أَيْكُمُ الْآلَاءُ تَرَوْتَنِي أَنِّي أَوْرِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ ٥٩ ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلاَ نَقْرُبُونَ ﴾ ٦٠ ﴿ قَالُوا سَتَرُوهُ عَنْهُ آبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ ٦١ ﴿ وَقَالَ لِفَتَاتِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ٦٢ .

قال ابن إسحاق: لما اطمأن يوسف في ملكه، وخرج من البلاء الذي كان فيه، وختل السنون المخصبة، جهد الناس في كل وجه، وضربوا إلى مصر يلتمسون بها الميرة^(١) من كل بلد، وكان يوسف حين رأى ما أصاب الناس من الجهد قد واسى بينهم، وكان لا يحمل للرجل إلا بعيراً واحداً، تقسيطاً بين الناس، وتوسعياً عليهم، فقدم إخوته فيمن قدم عليه، يلتمسون الميرة من مصر ﴿ فعرّفهم وهم لم منكرون ﴾ لما أراد الله أن يبلغ يوسف عليه السلام ما أراد.

وقال السدي: أصاب الناس الجوع، حتى أصاب بلاد يعقوب التي هو بها، فبعث بنيه إلى مصر، وأمسك أخا يوسف بنيامين ﴿ فلما دخلوا على يوسف عرفهم وهم له منكرون ﴾ فلما نظر إليهم قال: أخبروني ما أمركم؟ فإني أنكر لسانكم، قالوا: نحن قوم من أرض الشام قال: فما جاء بكم؟ قالوا: جئنا نمتاز طعاماً، قال: كذبتُم أنتم عيون، كم أنتم؟ قالوا: عشرة، قال: أنتم عشرة آلاف، كل رجل منكم أمير ألف، فأخبروني خبركم، قالوا: إنا إخوة، بنو رجل صديق، وإنا كنا اثني عشرة وكان أبونا يحب أخانا، وإنه ذهب معنا للبرية، فهلك منا فيها، وكان أحبنا إلى أبينا، قال: فإلى من سكن أبوك بعده؟ قالوا: إلى أخ لنا أصغر منه، فكيف تخبروني أن أباكم صديق، وهو يحب الصغير منكم دون الكبير؟ اتنوني

(١) الميرة: أي الطعام.

بأخيكم هذا حتى أنظر إليه ﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون قالوا سناود عنه أباه وإنا لفاعلون﴾. وعن مجاهد ﴿وأنا خير المنزلين﴾ يوسف يقول: أنا خير من يضيف بمصر.

وقال ابن إسحاق: لما جهزهم يوسف فيمن جهز من الناس، حمل لكل رجل منهم بعيراً بعدتهم، ثم قال لهم ﴿أتتوني بأخ لكم من أبيكم﴾ أحمل لكم بعيراً آخر، أو كما قال ﴿الأترون أنني أوفي الكيل﴾، أي: لا أبخس الناس شيئاً ﴿وأنا خير المنزلين﴾، أي: خير لكم من غيري؟ ﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون﴾ لا تقربوا بلدي ﴿قالوا سناود عنه أباه وإنا لفاعلون﴾ ثم أمر بيضاعتهم التي أعطاهم بها ما أعطاهم من الطعام، فجعلت في رحالهم وهم لا يعلمون.

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَىٰ آبَائِهِمْ قَالُوا يَتَابَأَنَا مَنَعَنَا الْكَيْلَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَّكَتَلُ وَإِنَّا لَهُمْ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ عَلَيَّ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَأَلَّهَ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَتَابَأَنَا مَا نَبَغِيَ هَٰذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ آخَانًا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِن بَابِ وَحْدٍ وَادْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَمْتُمْ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لُدُو عَلِيمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

قال ابن إسحاق: خرجوا حتى قدموا على أبيهم، وكان صاحب بادية له شاء، وإبل فقالوا: يا أبانا قدمنا على خير رجل، أنزلنا فأكرم منزلنا، وكال لنا فأوفانا، ولم يبخسنا، وقد أمرنا أن نأتيه بأخ لنا من أبنينا، وقال: إن أنتم لم تفعلوا

فلا تقرّبني، ولا تدخلنّ بلدي، فقال لهم يعقوب ﴿هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين﴾.

قال البغوي^(١): أي كيف آمنكم عليه وقد فعلتم بيوسف ما فعلتم؟ ﴿فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين﴾.

وقال ابن كثير^(٢) في قوله: ﴿هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل﴾ أي: هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل؟ تغيّبونه علي وتحولون بيني وبينه ﴿فالله هو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين﴾ وسيرحم كبري، وضعفي، ووجدي بولدي، وأرجو من الله أن يرده عليّ، ويجمع شملي به إنه أرحم الراحمين.

وقوله تعالى: ﴿ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي﴾ قال قتادة: ما نبغي من وراء هذا؟ إن بضاعتنا ردت إلينا، وقد أوفى لنا الكيل ﴿ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتني به إلا أن يحاط بكم﴾^(٣) قال مجاهد: إلا أن تهلكوا جميعاً ﴿فلما آتوه موثقهم﴾ عهدهم ﴿قال الله على ما نقول وكيل وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ قال الضحاك: خاف عليهم العين. وعن قتادة ﴿وإنه لذو علم لما علمناه﴾، أي: مما علمناه، وقال أيضاً: إنه لعامل بما علم ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوْسَتْ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ

(١) انظر «معالم التنزيل» (٢/٣٦٦).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٤٨٤).

(٣) قال البغوي: «أي شيء نطلب بالكلام، فهذا هو العيان من الإحسان والإكرام، أوفى لنا الكيل، وردّ علينا الثمن، أرادوا تطيب نفس أبيهم، «ونمير أهلنا» أي: نشترى لهم الطعام فنحمله إليهم «ونحفظ أخانا» بنيامين، أي: مما تخاف عليه «ونزداد» على أحمالنا «كيل بعير»، أي: حمل بعير يكال لنا أجله، لأنه كان يعطي باسم كل رجل حمل بعير». اهـ.

السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٧﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنَفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ .

قال ابن إسحاق: لما دخلوا على يوسف قالوا: هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به قد جئناك به، فذكر لي أنه قال لهم: قد أحسستم وأصبتم، وستجدون ذلك عندي أو كما قال، ثم قال: إني أراكم رجالاتاً، وقد أردت أن أكرمكم، ودعا ضافته فقال: أنزل كل رجلين على حدة، ثم أكرمهما وأحسن ضيافتهما ثم قال: إني أرى هذا الرجل الذي جئتم به ليس معه ثان، فسأضمه إلي فيكون منزله معي، فأنزلهم رجلين رجلين في منازل شتى، وأنزل أخاه معه، فأواه إليه فلما خلا به ﴿٧٦﴾ قال إني أنا أخوك ﴿٧٧﴾ أنا يوسف ﴿٧٨﴾ فلا تبتئس ﴿٧٩﴾ بشيء فعلوه فيما مضى، فإن الله قد أحسن إلينا، ولا تعلمهم شيئاً مما أعلمتكم.

وعن قتادة قوله ﴿٧٦﴾ فلما جهزهم بجهازهم ﴿٧٧﴾ يقول: لما قضى لهم حاجتهم ووفاهم كيلهم ﴿٧٨﴾ جعل السقاية في رحل أخيه ﴿٧٩﴾ قال الحسن: الصواع والسقاية سواء، هم الإناء الذي يشرب فيه. قال ابن إسحاق: ثم جهزهم بجهازهم، وأكرمهم، وأعطاهم، وأوفاهم، وحمل لهم بعيراً بعيراً، وحمل لأخيه بعيراً باسمه كما حمل لهم، ثم أمر بسقاية الملك وهو الصواع، وزعموا أنها كانت من فضة، فجعلت في رحل أخيه بنيامين، ثم أمهلهم حتى إذا انطلقوا وأمعنوا من القرية، أمر

بهم فأدركوا فاحتبسوا، ثم نادى مناد ﴿أيتها العير إنكم لسارقون﴾ قفوا، وانتهى إليهم رسوله، فقال لهم — فيما يذكرون — : ألم يكرمكم ضيافتكم ويوفقكم كيلكم، ويحسن منزلتكم، ويفعل بكم ما لم يفعل بغيركم، وأدخلناكم علينا في بيوتنا ومنازلنا؟ أو كما قال لهم، قالوا: بلى وما ذاك؟ قال: سقاية الملك فقدناها، ولا نتهم عليها غيركم ﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين﴾ .

قال البغوي^(١) : فإن قيل : كيف قالوا : لقد علمتم ، ومن أين علموا ذلك ؟ قيل قالوا : لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض ، فإننا منذ قطعنا هذا الطريق لم نرأ أحداً شيئاً فاستلوا عنا من مررنا به : هل ضررنا أحداً؟ وعن ابن عباس في قوله : ﴿نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم﴾ يقول : كفيل .

وقال معمر : بلغنا في قوله : ﴿قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين﴾ ؟ أخبروا يوسف بما يحكم في بلادهم ، أنه من سرق أخذ عبداً ، فقالوا ﴿جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه﴾ قال ابن إسحاق : أي سلم به ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾ أي كذلك نضع بمن سرق منا .

وعن قتادة قوله : ﴿فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه﴾ ذكر لنا أنه كان لا ينظر في وعاء إلا استغفر الله تائباً مما قذفهم به ، حتى بقي أخوه ، وكان أصغر القوم قال : ما أرى هذا أخذ شيئاً قالوا : بلى فاستبره^(٢) ، ألا وقد علموا حيث وضعوا سقايتهم ﴿ثم استخرجها من وعاء أخيه﴾ قال ابن إسحاق : فأخذ برقبته فانصرف به إلى يوسف ، يقول الله ﴿كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله﴾ قال مجاهد : إلا فعلة كادها الله فاعتل بها يوسف .

وعن قتادة قوله ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله﴾ يقول : ما كان ذلك في قضاء الملك أن يتعبد رجلاً بسرقة . وقال معمر : كان في حكم الله أن من سرق ضوعف عليه الغرم .

(١) انظر : «معالم التنزيل» (٢/٣٦٩) .

(٢) أي : أطلب براءته ، وأصلها : استبره ، فحذفت الهمزة للأمر .

وعن السدي ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ولكن صنعنا له بأنهم قالوا ﴿فهو جزاؤه﴾ .
وقال ابن جريج قوله: ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ يوسف وإخوته أوتوا علماً فرفعنا
يوسف فوقهم في العلم .

وعن ابن عباس ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ قال: يكون هذا أعلم من هذا،
وهذا أعلم من هذا، والله فوق كل عالم .

قال ابن إسحاق: لما رأى بنو يعقوب ما صنع أخو يوسف ولم يشكوا أنه
سرق، قالوا أسفاً عليهم لِمَا دخل عليهم في أنفسهم تائباً له ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ
أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلٍ﴾ فلما سمعها يوسف قال: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا﴾ سرّاً في نفسه ﴿ولم
يبيدها لهم والله أعلم بما تصفون﴾ . قال مجاهد: أول ما دخل على يوسف من
البلاء أن عمته ابنة إسحاق، وكانت أكبر ولد إسحاق، وكانت إليها منطقة إسحاق،
وكانوا يتوارثونها بالكبر، وكان من اختبأها ممن وليها كان له سلماً لا يتنازع فيه
يصنع فيه ما يشاء، وكان يعقوب حين ولد له يوسف كان قد حضنته عمته، فكان
معها وإليها، فلم يحب أحد شيئاً حبها إياه، حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات وقعت
نفس يعقوب عليه، فأتاها فقال: يا أختي سلمى إليّ يوسف، فوالله ما أقدر على أن
يغيب عني ساعة، فقالت: والله ما أنا بتاركته، والله ما أقدر أن يغيب عني ساعة،
قال: فوالله ما أنا بتاركة، قالت: فدعه عندي أياماً أنظر إليه، وأسكن عنه لعل ذلك
يسليني عنه، أو كما قالت، فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة
إسحاق، فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه، ثم قالت: لقد فقدت منطقة إسحاق
فانظروا من أخذها ومن أصابها، فالتمست ثم قالت: اكشفوا أهل البيت،
فكشفوهم فوجدوها مع يوسف، فقالت: والله إنه لي لسلم أصنع فيه ما شئت قال:
وأناها يعقوب، فأخبرته الخبر، فقال لها: أنت وذاك، إن كان فعل ذلك فهو سلم
لك ما أستطيع غير ذلك، فأمسكته فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت، قال: فهو
الذي تقول إخوة يوسف ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلٍ﴾ .

وعن قتادة ﴿فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم﴾ أما الذي أسر في نفسه
فقوله ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا﴾ والله أعلم بما تصفون .

وقال السدي: لما استخرجت السرقه من رحل الغلام انقطعت ظهورهم وقالوا: يا بني راحيل ما يزال لنا منكم بلاء، حتى أخذت هذا الصواع، فقال بنيامين: بل بنو راحيل الذين لا يزال فيهم منكم بلاء ذهبتم بأخي فأهلكتموه في البرية، ووضَع هذا الصواع في رحلي الذي وضع الدراهم في رحالكم، فقالوا: لا تذكر الدراهم فنؤخذ بها.

قوله عز وجل: ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ۗ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عَنْدَهُ ۗ إِنَّا إِذَا لَطَمْتُمُ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمَنْ قَبْلَ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ سَرَقْتَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسئِلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۗ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَفْهُىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَبْنَئِي أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ ۝

قال ابن كثير^(١): لما تعين أخذ بنيامين، وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم، شرعوا يترفقون له ويعطفونه عليهم ﴿فقالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخاً

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٨٦/٢).

كبيراً﴾ يعنون: وهو يحبه حبه حباً شديداً ويتسلى به عن ولده الذي فقده ﴿فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون﴾.

قال البغوي^(١): ولم يقل: إلا من سرق تحرزاً من الكذب ﴿إنا إذا لظالمون﴾ إن أخذنا بريئاً بمجرم. قال ابن إسحاق ﴿فلما استياسوا منه﴾ يتسوا منه ورأوا شدته في أمره ﴿خلصوا نجياً﴾، أي: خلا بعضهم ببعض ثم قالوا: ماذا ترون؟ فقال: روييل، كما ذكر لي، وكان كبير القوم ﴿ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله لتأتنتي به إلا أن يحاط بكم﴾ ﴿ومن قبل ما فرطتم في يوسف﴾.

قال ابن كثير^(٢): قال لهم ﴿ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله﴾ لتردونه إليه؟ فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك، مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه ﴿فلن أبرح الأرض﴾، أي: لن أفارق هذه^(٣) البلدة ﴿حتى يأذن لي أبي﴾ في الرجوع إليه راضياً عني ﴿أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا﴾، أي: قد وجدت السرقة في رحله، ونحن ننظر لا علم لنا بالغيب ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾.

﴿واسأل القرية التي كنا فيها﴾ قال ابن عباس: يعنون مصر ﴿والعير التي أقبلنا فيها﴾ قال ابن إسحاق: أي فقد علموا ما علمنا، وشهدوا ما شهدنا إن كنت لا تصدقنا ﴿إنا لصادقون﴾.

﴿قال بل سؤلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم﴾ قال ابن إسحاق: اتهمهم، وظن أن ذلك كفعلتهم بيوسف ﴿وتولى عنهم﴾ أعرض عنهم وتنام حزنه ﴿قال يا أسفي على يوسف﴾.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٢/٣٧١).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٤٨٧).

(٣) في (الأصل): «بعده»، وهو خطأ.

قال البغوي^(١): والأسف أشد الحزن ﴿وابيضت عيناه من الحزن﴾ يعني عمي بصره ﴿فهو كظيم﴾ قال الضحاك: كتيب حزين، وقال قتادة: ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق. قال الحسن: كان بين خروج يوسف من حجر أبيه إلى يوم التقى معه ثمانون عاماً، لا تجفّ عينا يعقوب، وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب.

وعن قتادة قوله: ﴿قالوا تالله تفتنوا تذكر يوسف﴾ قال: لا تزال تذكر يوسف حتى تكون حرصاً ﴿هرماً﴾ أو تكون من الهالكين ﴿قال: أو تموت﴾ قال ابن إسحاق: لما ذكر يعقوب بيوسف قالوا — يعني ولده الذين حضروه في ذلك الوقت جهلاً وظلماً — : ﴿تالله تفتنوا تذكر يوسف حتى تكون حرصاً﴾ أي فاسداً لا عقل لك ﴿أو تكون من الهالكين﴾ قال يعقوب عن علم بالله ﴿إنما أشكو بشي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ لما رأى من فظاظتهم وغلظتهم، لم أشك ذلك إليكم ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾.

قال البغوي^(٢): والبث أشد الحزن، وسمي بذلك لأن صاحبه لا يصبر عليه حتى يبثه أي يظهره.

وعن ابن عباس في قوله ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ يقول: أعلم أن رؤيا يوسف صادقة وأني ساجد له. وقال قتادة: ذكر لنا أن يعقوب لم ينزل به بلاء قط إلا أتى حسن ظنه بالله من ورائه. قال ابن إسحاق: ثم إن يعقوب قال لبنيه وهو على حسن ظنه بربه، مع الذي هو فيه من الحزن ﴿يا بني اذهبوا﴾ إلى البلاد التي منها جئتم ﴿فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله﴾، أي: من فرجه ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾. والله أعلم.



(١) انظر «معالم التنزيل» (٢/٣٧٣).

(٢) المصدر السابق (٢/٣٧٣).

الدرس الثامن والثلاثون بعد المائة

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَوَ تَكُ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَأَلَّوْا لِقَدِّ إِسْرَافِكُمْ فَانْتَبِهُوا وَاللَّهُ عَلِيمٌ غَائِبٌ ﴿٩١﴾ وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيلِينَ ﴿٩٢﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومٌ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٣﴾ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقَوْهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿٩٥﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٦﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ قَالُوا يَا بَنَا آدَمَ اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٨﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٩﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿١٠٠﴾ وَرَفَعَ أَبْوِيهِ عَلَىٰ الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠١﴾ ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي
 بِالصَّالِحِينَ ﴿١١٦﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا
 أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١١٧﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا
 تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١١٩﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَاتٍ فِي
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٢٠﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ
 بِإِلَهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ
 بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٢﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ
 اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا
 نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ
 عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٢٤﴾ حَتَّىٰ إِذَا
 اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّى مَنْ نَشَاءُ وَلَا يَرُدُّ
 بِأَسْتِنَاعِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢٥﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ
 حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ
 وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٦﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُرْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَوَ آتَاكَ لِأَنَّتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْفِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيبِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومٌ يَعْفُرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُوفِ بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ .

قال ابن إسحاق: وخرجوا إلى مصر راجعين إليها ﴿ببضاعة مزجاة﴾، أي: قليلة لا تبلغ ما كانوا يتبايعون به، إلا أن يتجاوز لهم فيه، وقد رأوا ما نزل بأبيهم، وتتابع البلاء عليه في ولده وبصره، حتى قدموا على يوسف ﴿فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز﴾ رجاء أن يرحمهم في شأن أخيهم ﴿مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة﴾ قال ابن عباس: [رثة المتاع] (١): خَلَقَ الجبل، والغِرَارَةَ، والشيء (٢). وقال الضحاك: كاسدة لا تنفق.

﴿فأوف لنا الكيل﴾ قال ابن إسحاق: أي أعطنا ما كنت تعطينا قبل، فإن ببضاعتنا مزجاة ﴿وتصدق علينا﴾ قال السدي: تفضل علينا. وعن سعيد بن جبير ﴿فأوف لنا الكيل وتصدق علينا﴾ لا تنقصنا من السعر من أجل ردي دراهمنا ﴿إن الله يجزي المتصدقين﴾ قال ابن إسحاق: وذكر لي أنهم لما كلموه بهذا الكلام

(١) ما بين المعقوفين إضافة من تفسير ابن جرير.

(٢) في (الأصل): «خلق الغرارة والجبل والشيء»، والمثبت من تفسير ابن جرير وتفسير ابن أبي حاتم و«الدر المنثور».

غلبته نفسه فافترض دمه باكياً، ثم باح لهم بالذي يكتنم منهم، فقال ﴿هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون﴾ ولم يعن بذكر أخيه ما صنعه فيه حين أخذه، ولكن للتفريق بينه وبين أخيه، إذ صنعوا بيوسف ما صنعوا.

قال البغوي^(١): ﴿إذ أنتم جاهلون﴾ بما يؤول إليه أمر يوسف.

وقال ابن كثير^(٢): أي إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه، كما قال بعض السلف كل من عصى الله فهو جاهل، وقرأ ﴿ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة﴾ الآية.

قال ابن إسحاق: لما قال لهم ذلك كشف الغطاء، فعرفوه، فقالوا ﴿أنتك لانت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ وقال السدي: لما قال لهم ذلك اعتذروا إليه و﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين﴾ فيما كنا صنعنا بك.

وعن ابن إسحاق ﴿قال لا تثريب عليكم اليوم﴾، أي: لا تأنيب عليكم اليوم عندي فيما صنعتم ﴿يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ حين اعترفوا بذنوبهم وعن السدي: قال لهم يوسف: ما فعل أبي؟ قالوا: لما فاته بنيامين عمي من الحزن ﴿قال اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً واتنوني بأهلكم أجمعين﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفِنْدُونِ﴾ ﴿١٦﴾ قَالُوا تالله إنك لفي ضلالك القديم ﴿١٥﴾ فلما أن جاء البشير ألقنه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٨﴾.

(١) انظر: «معالم التنزيل» (٣٧٥/٢).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٨٩/٢).

عن ابن عباس في قوله: ﴿ولما فصلت العير قال أبوه إنني لأجد ريح يوسف﴾ قال: هاجت ريح فجاءت بريح يوسف من مسيرة ثمان ليال، فقال: ﴿إنني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون﴾ قال تسفّهون ﴿قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾ يقول: خطئك القديم. قال سفيان: من حبك ليوسف.

قال ابن إسحاق: ﴿فلما أن جاء البشير﴾ ألقى القميص على وجهه ﴿فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم﴾ قال ابن جريج: آخر ذلك إلى السحر.

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيُّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

قال السدي: فحملوا إليه أهلهم وعيالهم، فلما بلغوا مصر كلم يوسف الملك الذي فوقه فخرج هو والملوك يتلقونهم، فلما بلغوا مصر ﴿قال ادخلوا مصر إن شاء الله آمين﴾.

﴿فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبوه﴾. قال حجاج: بلغني أن يوسف والملك خرجا في أربعة آلاف يستقبلون يعقوب وبنيه: وعن ابن إسحاق ﴿فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبوه﴾ قال: أباه وأمه. وعن مجاهد ﴿ورفع أبوه على العرش﴾ قال: السرير ﴿وخرّوا له سجدا﴾ قال ابن إسحاق: وقعوا له سجوداً، وكانت تلك تحية الملوك في ذلك الزمان، أبوه وأمه وإخوته. وعن سلمان

الفارسي قال: كان بين رؤيا يوسف إلى أن رأى تأويلها أربعون سنة. وقال ابن مسعود: دخل بنو إسرائيل مصر وهم ثلاثة وستون إنساناً، وخرجوا منها وهم ستمائة ألف.

وعن قتادة قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ لطف ليوسف وصنع له، حتى أخرجته من السجن، وجاء بأهله من البدو، ونزع من قلبه نزغ الشيطان، وتحريشه على إخوته.

وقال قتادة: لما جُمع ليوسف شمله، وتكاملت عليه النعم سأل لقاء ربه فقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾. وقال ابن إسحاق: قال يوسف حين رأى ما رأى من كرامة الله وفضله عليه وعلى أهل بيته، حين جمع الله شمله وردّه على والده، وجمع بينه وبينه فيما هو فيه من الملك والبهجة ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، ثم ارعوى يوسف وذكر أن ما هو فيه من الدنيا بائد وذاهب، فقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ ﴿١١٦﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١١٧﴾ وَمَا تَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١١٨﴾ وَكَأَيُّنَ مِنْ آيَاتِهِ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُوتَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١١٩﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٢٠﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢١﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٢﴾.

عن قتادة قوله ﴿وما كنت لديهم﴾ يعني محمداً ﷺ يقول: ما كنت لديهم وهم يلقونه في غيابة الجب ﴿وهم يمكرون﴾، أي: بيوسف.

وعن قتادة أيضاً في قوله: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ قال: تسألهم: من خلقهم ومن خلق السموات والأرض؟ فيقولون: الله، فذلك إيمانهم بالله، وهم يعبدون غيره.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيره﴾ قال: ﴿هذه سبيلي﴾ هذا أمري، وستي، ومنهاجي ﴿أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ قال: وحق والله على ما أتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه، ويذكر بالقرآن والموعظة، وينهي عن معاصي الله.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

عن قتادة: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم من أهل القرى﴾ لأنهم كانوا أعلم وأحلم من أهل العمود. وعن ابن عباس ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم كذبوا﴾ أي الرسل من قومهم أن يصدقوهم، وظن قومهم أن الرسل قد كذبتهم. وعن قتادة ﴿حتى إذا استيأس الرسل﴾ قال: من قومهم ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ قال: وعلموا أنهم قد كذبوا ﴿جاءهم نصرنا﴾.

وقال ابن كثير^(١): يذكر تعالى أن نصره ينزل على رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين عند ضيق الحال، وانتظار الفرج من الله، في أحوج الأوقات إلى

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٩٧/٢).

ذلك، كقوله تعالى: ﴿وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾^(١) الآية.

وقوله تعالى: ﴿فنجي من نشاء﴾.

قال البغوي^(٢): قرأ العامة بِنُونَيْنِ، وقرأ ابن عامر وحمزة وعاصم بِنُونٍ واحدة مضمومة. وعن ابن عباس: فنجي من نشاء: فنجي الرسل من نشاء ﴿ولا يرد بأسناً عن القوم المجرمين﴾ وذلك أن الله تبارك وتعالى بعث الرسل، فدعوا قومهم وأخبروهم أنه من أطاع نجا ومن عصا عذب وغوى.

وقوله تعالى: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾.

قال ابن كثير^(٣): يقول تعالى: لقد كان في خير المرسلين مع قومهم، وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين ﴿عبرة لأولي الألباب﴾ وهو العقول.

وقوله تعالى: ﴿ما كان حديثاً يفترى﴾ قال قتادة: والفرية الكذب ﴿ولكن تصديق الذي بين يديه﴾ والفرقان تصديق الكتب التي قبله، ويشهد عليها ﴿وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم مؤمنون﴾.

وقال البغوي^(٤): في قوله تعالى: ﴿وتفصيل كل شيء﴾ مما يحتاج العباد إليه من الحلال والحرام، والأمر والنهي والله أعلم.



(١) سورة البقرة: الآية ٢١٤.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٢/٢٨١).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٤٩٨).

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٢/٢٨٢).

الدرس التاسع والثلاثون بعد المائة

﴿سورة الرعد﴾

مدنية ، وآياتها ٤٣ ، نزلت بعد سورة محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْمَرَّةَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسٍ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ وَصِنَوَانٌ غَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَمْ نَأْتِيهِ خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَابُ فِي آعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾ وَاسْتَعْجِلُونَا بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّنَا لَذُو غَفْرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّنَا لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنْ مَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾

سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِأُتَيْلٍ وَسَارِبٌ
 بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُمْ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا
 يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ
 دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ
 الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيَسْخِبُ الرَّعْدَ بِحِمْدِهِ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ، وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ
 فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحِمَالِ ﴿١٣﴾ لَهُ دَعْوَةٌ
 لُحُوقٌ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفْتِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا
 هُوَ بِبَالِغِهِ، وَمَا دَعَا الْكُفْرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾ وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا
 وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ
 مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ
 سَتَوَى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ
 كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ
 السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَلِكَ يَضْرِبُ
 اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ
 يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ
 أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِمْ أُولَئِكَ هُمْ سُوءُ الْحِسَابِ
 وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ لِلَّذِينَ هَادُوا ﴿١٨﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿الْمَرْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسٍ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّمْرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّضُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ .

قال مجاهد: ﴿المر﴾ فواتح يفتح بها كلامه.

وقوله تعالى: ﴿تلك آيات الكتاب﴾ أي هذه آيات الكتاب. قال ابن عباس: أراد بالكتاب القرآن ﴿والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾.

وقوله تعالى: ﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها﴾ قال قتادة: رفعها بغير عمد.

وقال ابن كثير^(١): يخبر تعالى عن كمال قدرته، وعظيم سلطانه، أنه الذي يأذنه وأمره رفع السموات بغير عمد، بل يأذنه وأمره وتسخييره رفعها عن الأرض بعداً لا تنال، ولا يدرك مداها.

وقوله تعالى: ﴿وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الشمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٤٩٩).

قال ابن كثير^(١): أي من كل شكل صنفان. وقال في فتح البيان: أي صنفين أسود وأبيض، أكبر وأصغر، حلواً وحامضاً. وعن مجاهد ﴿وفي الأرض قطع متجاورات﴾ قال: السبخة والعذبة، والمالح والطيب. وقال ابن عباس متجاورات جميعاً، تنبت هذه، وهذه إلى جنبها لا تنبت.

وعن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان﴾ قال: مجتمع وغير مجتمع ﴿تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾ قال: الأرض الواحدة يكون فيها الخوخ، والكمثرى، والعنب الأبيض والأسود، وبعضها أكثر حملاً من بعض، وبعضه حلو وبعضه حامض، وبعضه أفضل من بعض. وقال مجاهد: كمثل صالح بني آدم وخبيثهم، أبوهم واحد.

قوله عز وجل: ﴿وَإِن تَعَجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَيْ ذَا كُنَّا تَرَابًا أَيْ تَأْتِي خَلْقِي جَدِيدٌ أَوْلِيكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأَوْلِيكَ الْآغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأَوْلِيكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾ وَتَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَلْتَ مِنْ قِبَلِهِمُ الْمَثَلَتِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَعْفَرٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنْ مَأْنَى أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿إن تعجب فعجب﴾ إن عجبت يا محمد ﴿فعجب قولهم﴾ أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد ﴿عجب الرحمن تبارك وتعالى من تكذيبهم بالبعث بعد الموت. وقال ابن زيد في قوله: ﴿وإن تعجب فعجب قولهم﴾ قال: إن تعجب من تكذيبهم، وهم قد رأوا من قدرة الله وأمره، وما ضرب لهم من الأمثال، فأراهم من حياة الموات في الأرض الميتة، إن تعجب من هذه فتعجب من قولهم ﴿أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد﴾، ولا يرون أننا خلقناهم من نطفة، فالخلق من نطفة أشد أم الخلق من تراب وعظام؟

(١) المصدر السابق (٢/٥٠٠).

وعن قتادة ﴿ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة﴾ قال بالعقوبة قبل العافية ﴿وقد خلت من قبلهم المثالات﴾ قال: العقوبات ﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ هذا قول مشركي العرب، قال الله: ﴿إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾ لكل قوم داع يدعوهم إلى الله.

قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ. وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُمْ مَعْقَبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾﴾.

عن ابن عباس ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد﴾ قال: ما رأت المرأة من يوم دماً على حملها زاد في الحمل يوماً، وقال أيضاً: ﴿وما تغيض الأرحام﴾ يعني السقط ﴿وما تزداد﴾ يقول: ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً، وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومنهن من تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تزيد في الحمل، ومنهن من تنقص، فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله، وكل ذلك بعلمه.

﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾ قال قتادة: أي والله لقد حفظ عليهم رزقهم وأجالهم، وجعل لهم أجلاً معلوماً.

وعن الحسن في قوله تعالى: ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه﴾ قال: الملائكة: ﴿يحفظونه من أمر الله﴾ قال ابن عباس: فإذا جاء القدر خلوا عنه. وقال مجاهد: ما من عبد إلا به ملك موكل يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منهم شيء يأتيه يريد إلا قال: وراءك، إلا شيئاً يأذن الله فيصيبه ﴿إن الله لا يغير ما بقوم﴾.

قال البغوي^(١): من العافية والنعمة ﴿حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ من الحال الجميلة فيعصوا ربهم ﴿وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له وما لهم من دونه من وال﴾.

قوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ١٢﴾ وَيَسْبِغُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُوتُ مِنْ خَيْفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ١٣﴾ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفْتِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دَعَا الْكُفْرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا لَهُمُ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ١٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقَ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ١٦﴾.

قوله تعالى: ﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ السحاب الثقال﴾ قال مجاهد: الذي فيه الماء، ﴿ويسبغ الرعد بحمده والملائكة من خيفته﴾ عن الأسود بن يزيد أنه كان إذا سمع الرعد قال: (سبحان الذي يسبغ الرعد بحمده والملائكة من خيفته). وروي عن النبي ﷺ أنه كان إذا سمع صوت الرعد الشديد قال: «اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك»^(٢). وعن ابن عباس مرفوعاً: «إذا سمعتم الرعد فاذكروا الله، فإنه لا يصيب

(١) انظر «معالم التنزيل» (٧/٣).

(٢) أخرجه أحمد (١٠٠/٢)، والترمذي (ح/٣٤٥٠) وقال: «حديث غريب»، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (ح/٩٢٨)، وابن السني (ح/٣٠٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (ح/٧٢١)، والطبراني في «الدعاء» (ح/٩٨١)، والحاكم (٤/٢٨٦)، وصححه قلت: ومداره على أبي مطر وهو مجهول.

ذاكراً^(١). رواه الطبراني. وعن أبي سعيد مرفوعاً: «تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة»^(٢). وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً أنكر القرآن وكذب النبي ﷺ، فأرسل الله صاعقة فأهلكته، وأنزل الله ﴿ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال﴾ أي القوة والحيلة.

وعن ابن عباس ﴿له دعوة الحق﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وعن علي ﴿له دعوة الحق﴾ قال: التوحيد ﴿والذين يدعون من دون الله لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه﴾ قال: كالرجل العطشان يمد يديه إلى البئر لترفع الماء إليه ﴿وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ قال قتادة: هذا مثل ضربه الله، أي هذا الذي يدعون من دون الله هذا الوثن وهذا الحجر، لا يستجيب له شيء أبداً، ولا يسوق إليه خيراً ولا يدفع عنه سوءاً، حتى يأتيه الموت، كمثل هذا الذي بسط ذراعيه إلى الماء ليبلغ فاه، ولا يبلغ فاه ولا يصل إليه ذلك حتى يموت عطشاً.

﴿والله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً﴾ فأما المؤمن فيسجد طائعاً، وأما الكافر فيسجد كارهاً. ﴿وظلالهم بالغدو والآصال﴾ قال ابن عباس: يعني حين يفيء ظل أحدهم عن يمينه أو شماله.

وقوله تعالى: ﴿قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً﴾؟

قال البغوي^(٣): قوله تعالى: ﴿قل من رب السموات والأرض﴾ أي خالقهما ومدبرهما ﴿فسيقولون الله﴾ لأنهم يقرّون بأن الله خالقهم وخالق السموات والأرض، فإذا أجابوك فقل أنت أيضاً يا محمد ﴿الله﴾ ثم قال الله لهم لزاماً للحجة ﴿قل أفاتخذتم من دونه أولياء﴾ معناه أنتم مع إقراركم بأن الله خالق السموات

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/١٦٤)، وأيضاً في «الدعاء» (ح/٩٨٢)، بسند ضعيف.

(٢) أخرجه أحمد (٣/٦٤) بسند صحيح.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/٩).

والأرض اتخذتم من دونه أولياء فعبدتموهم من دون الله؟ يعني الأصنام، ﴿وهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرراً قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور﴾؟ قال مجاهد أما الأعمى والبصير: فالكافر والمؤمن، وأما الظلمات والنور: فالهدى والضلالة ﴿أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم﴾ قال مجاهد: خلقوا كخلقه فحملهم ذلك على أن شكوا في الأوثان. وقال البغوي: ﴿أم جعلوا﴾ أي جعلوا لله شركاء ﴿خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم﴾ أي اشتبه ما خلقوه بما خلقه الله تعالى، فلا يدرون ما خلق الله وما خلق آلهتهم. ﴿قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار﴾. قال ابن كثير^(١): (وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة، هم معترفون أنها مخلوقة له عبيد له، كما كانوا يقولون في تليبتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، وكما أخبر تعالى عنهم في قوله: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً﴾^(٣) فإذا كان سَمَّوا الجميع عبيداً، فلم يعبد بعضهم بعضاً؟ انتهى ملخصاً.

قوله عز وجل: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَرَدٍ لَكُمْ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ لِلْهَادِثِينَ ﴿١٨﴾

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٥٠٧ - ٥٠٨).

(٢) سورة الزمر: الآية ٣.

(٣) سورة مريم: الآية ٩٣.

عن ابن عباس: ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها﴾ فهذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله، وهو قوله: ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء﴾ وهو الشك ﴿وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ وهو اليقين، كما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه، ويترك خبثه في النار، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك. وقال مجاهد. هما مثلان للحق والباطل. وقال عطاء: ضرب الله مثلاً للحق والباطل، فضرب مثل الحق كمثل السيل الذي يمكث في الأرض، وضرب مثل الباطل كمثل الزبد الذي لا ينفع الناس.

وقوله تعالى: ﴿للذين استجابوا لربهم الحسنى﴾ قال قتادة: هي الجنة ﴿والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في السموات والأرض جميعاً مثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب﴾. قال النخعي: ﴿سوء الحساب﴾ أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يغفر له منه شيء ﴿ومأواهم جهنم وبئس المهاد﴾.

قال ابن جرير^(١) يقول: وبئس الفراش والوطاء جهنم التي هي مأواهم يوم القيامة. والله أعلم.



(١) انظر «جامع البيان» (١٣/١٣٨).

الدرس الأربعون بعد المائة

﴿ أَمَّنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْدَكُرُ أُولَئِذَا الْأَنْبِيَاءُ ٢١﴾ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ ٢٢﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ٢٣﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرُسُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ٢٤﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ٢٥﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ ٢٦﴾ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ٢٧﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ٢٨﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ٢٩﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ٣٠﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَجْرُ الْمُؤْمِنِينَ ٣١﴾ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتْلُوا عَلَيْهِمُ آيَاتِنَا الَّتِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ٣٢﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْمَوْتُ بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِيسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَرَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا تَصِيبَهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تَحُلُّ قَرْبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ

اللَّهُ إِنْ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتَ لِلَّذِينَ
 كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا
 كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنْتَوِنَهُمْ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَظْهَرُ
 مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ
 هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ
 وَاقٍ ﴿٣٤﴾ * مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكْلُهَا دَائِمٌ
 وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
 الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ
 أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَعَابِدُ ﴿٣٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا
 وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾
 وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ
 إِلَّا يَأْذِنَ اللَّهُ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٍ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ
 الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ مَا نُرِيدَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ
 وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا
 مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ
 جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ
 عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿۲۵﴾ أَمَّنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿۲۶﴾ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَتَّقُونَ اللَّهَ وَلَا يَتَّقُونَ الْمِيثَاقَ ﴿۲۷﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿۲۸﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿۲۹﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿۳۰﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿۳۱﴾ .

عن قتادة في قوله: ﴿أمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق﴾ قال: هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب الله وعقلوه ووعوه، قال الله: ﴿كمن هو أعمى﴾ قال: عن الخير فلا يبصره ﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ فبين من هم فقال: ﴿الذين يوفون بعهد الله ولا يتقون الميثاق﴾ قال: وذكر لنا أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»^(١). وقال ابن زيد في قوله: ﴿ويدرءون بالحسنة السيئة﴾ قال: يدفعون الشر بالخير، لا يكافؤون الشر بالشر ولكن يدفعون. وعن أبي عمران الجوني أنه تلا هذه الآية ﴿سلام عليكم بما صبرتم﴾ ثم قال: على دينكم.

قوله عز وجل: ﴿۳۲﴾ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿۳۳﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ﴿۳۴﴾ .

(١) سبق تخريجه.

عن ابن عباس قال: أكبر الكبائر الإشراك بالله، لأن الله يقول ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير﴾ ونقض العهد، وقطيعة الرحم، لأن الله يقول ﴿أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾.

وعن مجاهد في قوله ﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ متاع﴾ قال: قليل ذاهب. وعن عبد الرحمن بن سابط في قوله: ﴿وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ متاع﴾ قال: كزاد الراعي يزوده أهله الكفّ من التمر، أو الشيء من الدقيق، أو الشيء يشرب عليه اللبن.

قوله عز وجل: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ إِلَهَ اللَّهِ يُمِيزُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنَاصِبُ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَتَابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الذِّكْرَ أَوْحِينَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَن قُرْءَانَا سُرَّتْ بِهِ أَلْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ أَلْمُوقٌ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِسَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّو يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُ بِرُسُلِي مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ يقول: سكنت إلى ذكر الله. وعن عكرمة في قوله: ﴿طوبى لهم﴾ قال: مآلهم. وقال ابن عباس يقول: فرح وقرّة عين. وقال قتادة: هذه كلمة عربية، يقول الرجل: طوبى لك أي أصبت خيراً. وعن مجاهد ﴿طوبى لهم﴾ قال: الجنة. وعن ابن عباس: لما خلق الله الجنة وفرغ منها، قال: ﴿الذين آمنوا عملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب﴾ وذلك حين أعجبه. وعن شهر بن حوشب قال: ﴿طوبى﴾ شجرة في الجنة، كل

شجر الجنة منها أغصانها، من وراء سور الجنة. وقال عكرمة ﴿طوبى﴾ قال: نِعَمَ ما لهم. وقال قتادة يقول: حسن لهم، وهي كلمة من كلام العرب. وعن الضحاك ﴿طوبى لهم﴾ غبطة لهم ﴿وحسن مآب﴾ قال: حسن منقلب.

وقوله تعالى: ﴿كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن﴾ قال البغوي^(١): سبب نزولها أن أبا جهل سمع النبي ﷺ وهو في الحجر يدعو: «يا الله يا رحمن»، فرجع إلى المشركين فقال: إن محمداً يدعو إلهين، يدعو الله ويدعو إلهاً آخر يسمى الرحمن، ولا نعرف الرحمن إلاّ رحمن اليمامة، فنزلت هذه الآية، ونزل قوله تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنی﴾^(٢).

وعن قتادة قوله: ﴿ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى﴾ ذكر لنا أن قريشاً قالوا: إن سرّك يا محمد أن نتبعك فسير لنا جبال تهامة، أو زد لنا في حرمنا حتى نتخذ قطائع نحترف فيها، أو أخي لنا فلاناً وفلاناً ناساً ماتوا في الجاهلية، فأنزل الله تعالى: ﴿ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى﴾ يقول: لو فعل هذا بقرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم^(٣).

وعن ابن عباس ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾ يقول: يعلم.

وقال ابن كثير^(٤): وقوله: ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾، أي: من إيمان جميع الخلق ويعلموا ويتبينوا ﴿أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً﴾ فإنه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في العقول من هذا القرآن وعن قتادة قوله: ﴿ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة﴾، أي: بأعمالهم أعمال السوء ﴿أو تحلّ

(١) انظر «معالم التنزيل» (١٤/٣).

(٢) سورة الإسراء: الآية ١١٠، وأخرجه ابن جرير (١٨٢/١٥) عن ابن عباس بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير (١٥٢/١٣)، بسند ضعيف.

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٥١٥/٢).

قريباً من دارهم ﴿ قال الحسن: أو تحل القارعة قريباً من دراهم ﴾ حتى يأتي وعد الله ﴿ قال: يوم القيامة ﴾ إن الله لا يخلف الميعاد ﴿ .

قوله عز وجل: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبًا قَلَّ سَمُوهُمْ ۗ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ ۗ أَمْ يَبْظَاهِرُونَ الْقَوْلَ ۗ بَلْ زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٢﴾ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَعَذَابٌ الْأٰخِرَةِ ۗ أَسْخَىٰ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۗ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ ۗ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۗ أُكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ ۗ .

عن قتادة قوله: ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ ذلكم ربكم تبارك وتعالى قائم على بني آدم، بأرزاقهم، وأجالهم، وحفظ عليهم واللّه أعمالهم، وقال الضحاك في قوله: ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ فهو الله قائم على كل نفس، برّ وفاجر يرزقهم ويكلؤهم ثم يشرك به منهم من أشرك ﴿ وجعلوا لله شركاء قل سمّوهم ﴾ ولو سمّوهم آلهة لكذبوا، وقال في ذلك غير الحق، لأن الله واحد ليس له شريك. قال الله ﴿ أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض أو بظاهر من القول ﴾ يقول: لا يعلم الله في الأرض إلهاً غيره. وعن مجاهد قوله: ﴿ بظاهر من القول ﴾ بظنّ ﴿ بل زين للذين كفروا مكرهم ﴾ قال: قولهم.

وقال البغوي^(١): ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ جوابه محذوف تقديره: كمن ليس بقائم، بل عليم عن نفسه.

قلت: وما أحسن قول الأعرابية حين قدمت العينية^(٢)، والمشركون عكوف عند قبر زيد بن الخطاب، فقال لها السدنة: قربي لزيد، فقالت: أين زيد؟ قالوا: في القبر، قالت: تحت الرضم؟ قالوا: نعم، قالت: ما نفع نفسه فينفعني ﴿ بل زين

(١) انظر «معالم التنزيل» (١٦/٣).

(٢) في (الأصل): «العينية» وهو خطأ.

للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضل الله فما له من هاد لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشقّ وما لهم من الله من واق ﴿٣٦﴾ .

وقوله تعالى: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار﴾، أي: صفتها أن الأنهار تجري من تحتها ﴿أكلها دائم﴾ لا ينقطع ﴿وظلها﴾ لا يزول ﴿تلك عقبى الذين اتقوا﴾، أي: الجنة عاقبة المتقين ومنقلبهم ﴿وعقبى الكافرين﴾ ومصيرهم ﴿النار﴾ .

قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَقَابِلُ ﴿٣٧﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن لِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ .

قال ابن زيد في قوله: ﴿والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك﴾ قال: هذا من آمن برسول الله ﷺ من أهل الكتاب، يفرحون بذلك، وقرأ ﴿ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به﴾ .

وفي قوله: ﴿ومن الأحزاب من ينكر بعضه﴾ قال: الأحزاب الأمم: اليهود والنصارى والمجوس، منهم من آمن به ومنهم من أنكره. ﴿وكذلك أنزلناه حكماً عربياً﴾ .

قال البغوي^(١): نسب إلى العرب لأنه نزل بلغتهم ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعدما جاءك من العلم مالك من الله ولي ولا واق﴾ يعني من ناصر ولا حافظ. قال ابن كثير^(٢): وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً

(١) انظر «معالم التنزيل» (١٧/٣).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٥١٨/٢).

وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا يَأْذِنَ اللَّهُ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا
 يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ مَا نُرِيدَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ
 نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ
 أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ
 مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَعِلَهُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِبَى
 الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي
 وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾ .

قال ابن كثير في قوله^(١): ﴿لكل أجل كتاب﴾، أي: لكل مدة مضروبة كتاب
 مكتوب بها ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾ وعن ابن عباس أنه قال في هذه الآية:
 ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ قال: الكتاب كتابان: كتاب يمحو
 الله منه ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب. وعن عمر بن الخطاب أنه كان يقول:
 «اللهم إن كنت كتبت عليّ شقوة أو ذنباً فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك
 أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة»^(٢). وعن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن
 الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرده القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر
 إلا البر»^(٣). رواه أحمد وغيره. وعن ابن عباس ﴿وعنده أم الكتاب﴾ يقول:
 وجملة ذلك عنده في أم الكتاب، الناسخ المنسوخ، وما يبدل وما يثبت، كل ذلك

(١) المصدر السابق (٥١٩/٢).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٦٧/١٣ — ١٦٨)، وسنده حسن كما قاله ابن كثير، وروي مثله عن
 ابن مسعود رضي الله عنه وأبي وائل، ومجاهد.

(٣) أخرجه أحمد (٢٧٧/٥ و ٢٨٠ و ٢٨٢)، وابن ماجه (ح/٩٠ و ٤٠٢٢)، والطبراني في
 الكبير (ح/١٤٤٢)، وابن حبان «الإحسان» (ح/١٠٩٠)، والحاكم (٤٩٣/١)، بسند
 ضعيف، لكن للحديث شاهد — دون قوله: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» — من
 حديث سلمان الفارسي — رضي الله عنه — أخرجه الترمذي (ح/٢١٣٩)، والطحاوي في
 «المشكل» (٤/١٦٩)، والطبراني في الكبير (ح/٦٢١٨)، بسند لا بأس به، فالحديث
 حسن بهذا الشاهد؛ لكن دون قوله: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» والله أعلم.

في كتاب. وقال كعب: علم الله ما هو خالق وما خلَّقه عاملون، فقال بعلمه: كن كتاباً فكان كتاباً.

وقال البغوي^(١): قوله تعالى: ﴿وإما نرينك بعض الذي نعدهم﴾ من العذاب قبل وفاتك ﴿أو نتوفينك﴾ قبل ذلك ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ ليس عليك إلا ذلك ﴿وعلينا الحساب﴾ الجزاء يوم القيامة.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿أنا نأتي الأرض نقصها من أطرافها﴾ قال: أو لم يروا إلى القرية تخرب حتى يكون العمران في ناحية. وقال ابن جريج: خرابها وهلاك الناس. وعن ابن عباس قوله: ﴿نقصها من أطرافها﴾ يقول: نقصان أهلها وبركتها.

وعن قتادة قوله: ﴿ويقول الذين كفروا لست برسلاً﴾ قال قول مشركي قريش ﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾ أناس من أهل الكتاب كانوا يشهدون بالحق ويقرون به ويعلمون أن محمداً رسول الله، كما يُحدِّث أن منهم عبد الله بن سلام. انتهى والله أعلم.



(١) انظر «معالم التنزيل» (١٨/٣).

الدرس الواحد والأربعون بعد المائة

﴿سورة إبراهيم عليه السلام﴾

مكية، وهي إحدى^(١) وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُبَلِّغَ قَوْمَهُ لِسَانًا قَوْمَهُ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبُّونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا

(١) في (الأصل): «واحد»، وهو خطأ.

فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفِيرٌ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنَ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَرِّجَكُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلْنَا وَلَنْصَبِرَ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَٰدِرٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَحِيتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ

وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا
أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا
أَشْرَكْتُمُونَ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ
تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ .

عن قتادة في قوله: ﴿لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾ أي من الضلالة إلى الهدى.

وقوله تعالى: ﴿إلى صراط العزيز الحميد الله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾.

قال البغوي^(١): قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر «الله» بالرفع على الاستئناف وخبره فيما بعد، وقرأ الآخرون بالخفض نعتاً للعزيز الحميد، وكان يعقوب إذا وصل خفض.

وعن قتادة في قوله: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ أي بلغة قومه ما كانت. قال الله عز وجل: ﴿ليبين لهم الذي أرسل إليهم﴾ ليتخذ بذلك الحجّة، قال الله عز وجل: ﴿يفضل من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ

(١) انظر «معالم التنزيل» (٢٠/٣).

عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَحْنَاكُمْ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْعُونَ
 أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ
 عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ
 عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ
 حَمِيدٌ ﴿٨﴾ .

عن مجاهد في قول الله: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا قال: التسع البيئات
 ﴿أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله﴾ قال: بنعم الله. وقال
 ابن زيد: أيامه التي انتقم فيها من أهل معاصيه من الأمم، خوفهم بها وحذرهم
 إياها، وذكرهم أن يصيبهم كما أصاب الذين من قبلهم.

وعن قتادة في قول الله عز وجل: ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾
 قال: نعم العبد عبد إذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر.

وعن ابن عيينة في قوله: ﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم﴾
 أيادي الله عندكم وأيامه. وقال ابن زيد في قوله: ﴿وإذ تأذن ربكم﴾ وإذ قال
 ربكم، ذلك التأذن.

وقال ابن كثير^(١): ﴿وإذ تأذن ربكم﴾ أي آذنكم وأعلمكم بوعده لكم ﴿لئن
 شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾. وفي الحديث: «إن العبد ليحرم
 الرزق بالذنب يصيبه»^(٢).

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ نَبَّأُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ
 وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
 بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي آفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي
 شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٥٢٣).

(٢) سبق تخريجه، والحديث بهذا اللفظ سنده ضعيف.

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْ يُضِلَّهُمْ عَلَىٰ مَا أَذْبَحْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ .

عن ابن عباس أنه قال: بين إبراهيم وبين عدنان ثلاثون قرناً، لا يعلمهم إلا الله تعالى. وعن ابن مسعود أنه قال بعد ما قرأ هذه الآية: كذب النسابون. وعن مجاهد في قول الله: ﴿فردّوا أيديهم في أفواههم﴾ قال: ردّوا عليهم قولهم وكذبوهم.

وقال ابن كثير^(١) في قوله: ﴿فأتونا بسطان مبین﴾ أي خارق نقترحه عليكم ﴿قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده﴾ أي بالرسالة والنبوة ﴿وما كان لنا أن نأتيكم بسطان﴾ على وفق ما سألتهم ﴿إلا بإذن الله﴾ أي بعد سؤالنا إياه وإذنه لنا في ذلك ﴿وعلى الله فليتكول المتوكلون﴾ أي في جميع أمورهم.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَٰكِدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٥٢٥/١).

شَيْءٌ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ .

وعن قتادة ﴿ولنسكننكم الأرض من بعدهم﴾ قال: وعدهم النصر في الدنيا والجنة في الآخرة. وعن مجاهد في قوله: ﴿واستفتحوا﴾ قال: الرسل كلها استنصروا ﴿وخاب كل جبار عنيد﴾ قال: معاند للحق مجانبه. وقال ابن زيد: كان استفتحهم بالبلاء، كما استفتح قوم هود ﴿اثنتا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾^(١).

وقال ابن كثير^(٢): ويحتمل أن يكون هذا مراداً وهذا مراداً. وعن مجاهد في قوله: ﴿من ماء صديد﴾ قال: قيح ودم ﴿يتجرّعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت﴾ قال: تعلق نفسه عند حنجرتة فلا تخرج.

وقال ابن جرير^(٣): وقوله: ﴿ومن ورائه عذاب غليظ﴾ يقول: ومن وراء ما هو فيه من العذاب يعني أمامه وقدامه ﴿عذاب غليظ﴾.

وعن ابن عباس قوله: ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف﴾ يقول: الذين كفروا بربهم وعبدوا غيره فأعمالهم يوم القيامة ﴿كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدر على شيء﴾ من أعمالهم ينفعهم، كما لا يقدر على الرماد إذا أرسل عليه الريح في يوم عاصف ﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾.

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ تَرَأَتِ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَدَنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ

(١) سورة الأعراف: الآية ٧٠.

(٢) المصدر السابق (١/٥٢٥).

(٣) انظر «جامع البيان» (١٣/١٩٥).

صَبْرًا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ .

عن ابن جريج قوله: ﴿وقال الضعفاء﴾ الأنباة ﴿للذين استكبروا﴾ قال: للقادة. وقال ابن زيد: إن أهل النار قال بعضهم لبعض: تعالوا فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بيكائهم وتضرعهم إلى الله، فتعالوا نبكي وتضرع إلى الله، قال: فبكوا فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا: تعالوا فما أدرك أهل الجنة الجنة إلا بالصبر، تعالوا نصبر، فصبروا صبراً لم ير مثله، فلم ينفعهم ذلك فعند ذلك قالوا: ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾ .

وعن الحسن في قوله: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان﴾ قال: إذا كان يوم القيامة قام إبليس خطيباً على منبر من نار فقال: ﴿إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم﴾ إلى قوله: ﴿وما أنتم بمصرخي﴾ قال بناصري ﴿إني كفرت بما أشركتمون من قبل﴾ قال: بطاعتكم إياي في الدنيا. وقال قتادة: يقول: ما أنا بمغيثكم وما أنتم بمغيثي.

وقوله تعالى: ﴿وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام﴾. قال ابن جريج: الملائكة يسلمون عليهم في الجنة.

وقال البغوي^(١): يسلم بعضهم على بعض، وتسلم عليهم الملائكة. والله أعلم.



(١) انظر «معالم التنزيل» (٢٦/٣).

الدرس الثاني والأربعون بعد المائة

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ
 وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ
 لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ
 مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يَثِّبْتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي
 الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾
 ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ
 يَصَلُّونَهَا وَيَنَسُّوْنَ الْقَرَارِ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا
 فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا
 رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ
 وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۗ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾
 وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَاكُمْ مِنْ
 كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنْسَانَ لظَلُومٌ
 كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْعَلْنِي وَمَنْ
 عَبَدَ الْأَوْثَانِ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّلَنِي كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُمْ مِنِّي وَمَنْ
 عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ
 بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ

وَأَرْزُقُهُمْ مِّنَ الشَّجَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمْ مَا نَخْفَىٰ وَمَا نُعَلِّمُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ يُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أُولَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِيفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تَبَدَّلَ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطْرَانٍ وَتَعَشَىٰ وُجُوهُهُمْ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَيَلْعَلُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿الَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيْبَةً كَشَجَرَةٍ طَيْبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۗ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾ .

عن رجال ابن عباس قوله: ﴿كلمة طيبة﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله ﴿كشجرة طيبة﴾ قال مجاهد: كنخلة. وعن ابن عمر قال: «كنا عند رسول الله ﷺ فأتى بحمار فقال: من الشجر شجرة مثلها مثل الرجل المسلم، فأردت أن أقول: هي النخلة، فنظرت فإذا أنا أصغر القوم، فقال رسول الله ﷺ: هي النخلة»^(١). متفق عليه.

وقوله: ﴿ومثل كلمة خبيثة﴾ قال ابن عباس: وهو الشرك ﴿كشجرة خبيثة﴾ قال أنس بن مالك: هي الحنظلة.

وقوله تعالى: ﴿اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار﴾ أي ليس لها أصل ثابت في الأرض، ولا فرع صاعد في السماء، كذلك الكافر لا خير فيه، ولا يصعد له قول طيب، ولا عمل صالح.

وقوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ عن البراء بن عازب قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتبهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأنَّ على رؤسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في

(١) أخرجه البخاري (ح/٧٢)، ومسلم (٤/٢١٦٤ - ٢١٦٥).

الأرض، فرفع رأسه فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة، نزلت إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدّ البصر، ثم يجيئهم ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس المؤمنة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السماء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها، فلا يمرّون بها، يعني على ملام من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولو: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمّونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له، فيتبعه من كل سماء مقرّبوها إلى السماء التي تليها، حتى يُنتَهَى بها إلى السماء السابعة، فيقول الله: اكتبوا كتاب عبدي في علّين وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى. قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك، فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فأمنت به وصدّقت، فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا به باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من رَوْحها وطيبها، ويُفسح له في قبره مدّ بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يأتي بالخير، فيقول: أنا عمّلك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي، قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجوه معهم المسوح، فجلسوا منه مدّ البصر، ثم يجيئهم ملك الموت فيجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال:

فتفرق في جسده فانتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، فيخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرّون على ملامن الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمّى بها في الدنيا، فيستفتح له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾^(١) فيقول الله: اكتبوا كتابه في سجّين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طراحاً، ثم قرأ: ﴿وَمَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾^(٢) فتعاد روحه في جسده: ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما دينك، فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي مناد من السماء: أن كذب عبدي فافرشوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرّها وسّمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلّاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب متنن الرياح فيقول له: أبشر بالذي يسوءك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: ومن أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر، فيقول: أنا عمك الخبيث، فيقول رب لا تقم الساعة^(٣). رواه أحمد وغيره.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قال: ذلك إذا قيل في القبر: من ربك؟ وما دينك؟ فيقول: ربي الله وديني الإسلام، ونبي محمد ﷺ جاء بالبينات من عند الله فأمنت به وصدّقت، فيقال له: صدقت، على هذا عشت وعليه متّ، وعليه تبعث^(٤). رواه ابن جرير.

(١) سورة الأعراف: الآية ٤٠.

(٢) سورة الحج: الآية ٣١.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه ابن جرير (٢١٥/١٣) بسند حسن.

قوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَنْسِكُ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ ﴿٣٣﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٤﴾ وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٥﴾ .

عن علي في قول الله: ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ قال: هم كفار قريش. وقال عمر: هم قريش، ومحمد ﷺ نعمة الله. وعن قتادة ﴿ وجعلوا لله أندادا ﴾ والأنداد الشركاء.

وقوله تعالى: ﴿ قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرّاً وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِي وَلَا خِلَالَ ﴾ قال قتادة: إن الله تبارك وتعالى، قد علم أن في الدنيا بيوعاً وخلافاً يتخالون بها في الدنيا، فينظر الرجل من يخالل وعلام يصاحب، فإن كان لله فليداوم، وإن كان لغير الله فإنها ستنتقطع. وعن ابن عباس في قوله: ﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ﴾ قال: دؤبهما في طاعة الله.

وقوله تعالى: ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾. قال ابن كثير^(١): يقول: هيأ لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألون بحالكم وقالكم ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظالم كفار ﴾. قال طلق بن حبيب: إن حق

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٥٤٠).

الله أثقل من أن تقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن تحصيها العباد، ولكن أصبحوا تائبين^(١) وأمسوا تائبين.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَلَنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ يَبْعُنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَتَّكْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

قال إبراهيم التيمي: من يأمن البلاء بعد خليل الله إبراهيم حين يقول رب اجنبنني وبني أن نعبد الأصنام.

وعن قتادة قوله: ﴿أضللن كثيراً من الناس﴾ يعني الأوثان. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص: «أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم: ﴿رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾، وقول عيسى: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ فرفع يديه ثم قال: اللهم أمتي اللهم أمتي وبكى، فقال الله تعالى: يا جبرائيل اذهب إلى محمد، وربك أعلم، فاسأله ما يبكيه؟ فأتاه جبرائيل فسأله فأخبره رسول الله ﷺ ما قال قال: فقال الله: يا جبرائيل اذهب إلى محمد وقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك»^(٢) رواه ابن جرير.

(١) في (الأصل): «توابين»، والمثبت من تفسير ابن كثير.

(٢) أخرجه مسلم (ح/٢٠٢).

وعن قتادة قوله: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع﴾ قال: مكة، لم يكن بها زرع يومئذٍ ﴿عند بيتك المحرم﴾ قال: وإنه بيت طهره الله من السوء وجعله قبله وجعله حرمة اختاره نبي الله إبراهيم لولده.

وقوله: ﴿ربنا ليقموا الصلاة﴾ أي أسكنتهم كي يقيموا الصلاة عند بيتك ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾ قال مجاهد: لو قال: أفئدة الناس تهوي إليهم لازدحمت عليه فارس والروم.

وقوله: ﴿وارزقهم من الثمرات﴾ أي ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك ﴿لعلهم يشكرون﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٧﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنَدْتُمْ هَوَاهُمْ ﴿٤٨﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَا نَبِيَّهُمُ الْعَذَابُ الَّذِي ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّحِبُّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعُ الرَّسُولَ أَوْلَمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٩﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَنَبَّيْتُ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٥٠﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرَهُمْ وَإِن كَانَتْ مَكَرَهُمْ لِنَزُولٍ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٥١﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِيفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٥٢﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٥٣﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٥٤﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِّن قَطْرِانٍ وَتَشْنَىٰ وَجُوهُهُمْ النَّارُ ﴿٥٥﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥٦﴾ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ لِيُنذَرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٧﴾﴾.

عن ميمون بن مهران في قوله: ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون﴾

قال: هي وعيد للظالم ﴿إنما يؤخّروهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ قال قتادة: شخصت فيه واللّه أبصارهم، فلا تردّ إليهم ﴿مهطعين﴾ قال: مسرعين ﴿مقنعي رؤوسهم﴾ قال مجاهد: رافعيها ﴿لا يرتدّ إليهم طرفهم﴾ قال ابن عباس: شاخصة أبصارهم. وعن قتادة في قوله: ﴿وأفئدتهم هواء﴾ قال: هواء ليس فيها شيء خرجت من صدورهم فنشبت^(١) في حلوقهم.

وعن مجاهد قوله: ﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب﴾ قال: يوم القيامة ﴿فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب﴾ قال: مدة يعملون فيها من الدنيا، وعن مجاهد قال: ﴿أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال﴾، كقوله: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾^(٢)، ثم قال: ﴿مالكم من زوال﴾ قال: الانتقال من الدنيا إلى الآخرة.

وقال ابن جرير^(٣): ﴿أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال﴾ يقول: مالك من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، وأنكم إنما تموتون ثم لا تبعثون.

وقوله تعالى: ﴿وقد مكروا مكروهم وعند الله مكروهم وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال﴾.

قال في فتح البيان: وقد مكروا مكروهم العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم، وعند الله مكتوب مكروهم فهو مجازيهم: ﴿وإن كان مكروهم﴾ في العظم ﴿لتزول منه الجبال﴾ مهياً لإزالة الجبال، وقال بعضهم: وما كان مكروهم لتزول منه الجبال.

وعن قتادة ﴿وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال﴾ يقول: شركهم، كقوله تعالى: ﴿تكاد السموات يتفطرن منه﴾^(٤) الآية، وقرأ بعضهم بفتح اللام.

(١) في (الأصل): «فثبت»، وهو خطأ.

(٢) سورة النحل: الآية ٣٨.

(٣) انظر «جامع البيان» (١٤١/١٣).

(٤) سورة مريم: الآية ٩٠.

وعن ابن مسعود في قوله: ﴿يَوْمَ تَبْدَلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ قال: «تبدّل أرضاً بيضاء نقيّة كأنها فضة، لم يسفك فيها دم حرام ولم يعمل فيها خطيئة». وقال كعب: تصير السموات جناناً، ويصير مكان البحر ناراً، قال: وتبدّل الأرض غيرها. وعن مجاهد: ﴿يَوْمَ تَبْدَلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ قال: أرضاً فيها فضة، والسموات كذلك أيضاً. وفي الصحيحين عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي، ليس فيها علم لأحد»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ قال قتادة: ﴿مُقْرَنِينَ﴾ في القيود والأغلال. قال ابن زيد في قوله: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ﴾ قال: السراويل القمص. وعن الحسن ﴿مِنْ قَطْرَانٍ﴾ أي قطران الإبل^(٢). ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ هذا بلاغ للناس ﴿أَيُّ الْقُرْآنِ﴾ ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكروا أولوا الألباب ﴿أَيُّ الْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ﴾. والله أعلم.



(١) أخرجه البخاري (ح/٦٥٢١)، ومسلم (ح/٢٧٩٠).

(٢) وقيل — أيضاً — : النحاس، أي انتهى حره في الشدة.

الدرس الثالث والأربعون بعد المائة

﴿سورة الحجر﴾

مكية، وهي تسع وتسعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الرَّيَّةَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ رَبَّمَا يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ
 كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُهُمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ ﴿٣﴾
 وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا
 يَسْتَخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا
 بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا
 مُنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي
 شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ
 نَسَلَكُهُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ
 فَحَنَّا عَلَيْهِمْ أَبَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ
 نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٦﴾
 وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنْ أَسْرَفَ أَتْبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾
 وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا
 لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهَا بِرَزْقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا
 نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

فَأَسْقَيْنَكُمُوهُ وَمَا أَنسَهُ لَكُم بِخَدْرَيْنِ ﴿٢٧﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهُ وَنَحْنُ
 الْوَارِثُونَ ﴿٢٨﴾ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَخْرِينَ ﴿٢٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ
 بِحَشْرِهِمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٣٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٣١﴾ وَالْجَانَّ
 خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٣٢﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ
 صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ
 سَاجِدِينَ ﴿٣٤﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٥﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ
 السَّاجِدِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ
 لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٨﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ
 عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٤١﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
 الْمُنْظَرِينَ ﴿٤٢﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٤٣﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي
 الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٤﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ هَذَا
 صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤٦﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ
 الْفَاسِقِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٨﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ
 مَقْسُومٌ ﴿٤٩﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٠﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ ﴿٥١﴾ وَنَزَعْنَا
 مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٢﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا
 هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٥٣﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿الرَّتِّلَكَ أَيْتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانِ مُبِينٍ ﴿١﴾ رَبَّمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمْلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَفْخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا يَتَأْتِيهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْخِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَدَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ .

قال في جامع البيان: ﴿الر تلك﴾ إشارة إلى آيات السورة ﴿آيات الكتاب﴾ القرآن ﴿وقرآن مبين﴾، أي: تلك آيات جامعة لكونها آيات كتاب كامل وقرآن يبين الأحكام. وعن أبي موسى قال: «بلغنا أنه إذا كان يوم القيامة واجتمع أهل النار في النار، ومعهم من يشاء الله من أهل القبلة، قال الكفار لمن في النار من أهل القبلة. أستم مسلمين؟ قالوا: بلى قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها، فسمع الله ما قالوا: فأمر بكل من كان من أهل القبلة في النار فأخرجوا، فقال من في النار من الكفار: يا ليتنا كنا مسلمين، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾»^(١) رواه ابن جرير.

(١) أخرجه ابن أبي عاصم (ح/٨٤٣)، وابن جرير (٢/٤)، وابن أبي حاتم كما عناه له =

وعن الزهري في قوله: ﴿ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾ قال: نرى أنه إذا حضر أجله فإنه لا يؤخر ساعة ولا يقدم، وأما ما لم يحضر أجله فإن الله يؤخر ما شاء ويقدم ما شاء.

وقوله تعالى: ﴿وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر﴾، أي: القرآن ﴿إنك لمجنون لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين﴾، أي: هلاً تأتينا بالملائكة شاهدة لك؟ قال الله ﴿ما تنزل الملائكة إلا بالحق﴾ قال مجاهد: بالرسالة والعذاب ﴿وما كانوا إذا منظرين﴾.

قال البغوي^(١): ومعناه أنهم لو نزلوا أعياناً لزال الإمهال عن الكفار وعذبوا في الحال.

وعن قتادة قوله: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ وقال في آية أخرى ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ فأنزله الله ثم حفظه، فلا يستطيع إبليس أن يزيد فيه باطلاً ولا ينقص منه حقاً، حفظه الله من ذلك.

وقال ابن كثير^(٢): (ثم قرّر تعالى أنه هو الذي أنزل عليه الذكر وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل).

قلت: والحكمة في حفظ الله تعالى للقرآن دون سائر كتبه أنه آخرها، وأن الذي جاء به خاتم الأنبياء، فأبقاه الله محفوظاً حجة على خلقه.

وعن ابن عباس ﴿ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين﴾ يقول: أمم الأولين. وعن قتادة ﴿كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به﴾ قال إذا كذبوا سلك في قلوبهم أن لا يؤمنوا به ﴿وقد خلت سنة الأولين﴾ قال: وقائع الله فيمن خلا قبلكم من الأمم.

= السيوطي في «الدر» (١٧٢/٤)، وابن كثير في تفسيره (٥٤٦/٢)، والطبراني - كما عناه له ابن كثير (٥٤٦/٢) - والحاكم (٣٥٣/٢)، وصححه ووافقه الذهبي، وهو صحيح.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣٦/٣).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٥٤٧/٢).

وعن ابن عباس قوله: ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلّوا فيه يعرجون﴾ يقول: لو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلّت الملائكة تعرج فيه، لقال أهل الشرك: إنما أخذت أبصارنا، وشبّه علينا، وإنا سُحِرْنَا، فذلك قولهم ﴿لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين﴾.

وعن قتادة قوله: ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلّوا فيه يعرجون﴾ قال قتادة: كان الحسن يقول: لو فعل هذا ببني آدم ﴿فظلّوا فيه يعرجون﴾، أي: يختلفون لقالوا ﴿إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مِنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رُوسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَمْ يَرْزُقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ بِمُخْتَلِفِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِحَشْرِهِمْ لَأَنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

عن مجاهد في قوله: ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً﴾ قال: كواكب.

وقوله: ﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾ قال ابن عباس: تصعد الشياطين أفواجا تسترق السمع قال: فينفرد^(١) المارد منها فيعلو فيرمى، بالشهاب، فيصيب جبهته، أو جنبه، أو حيث شاء الله منه، فيلتهب، فيأتي أصحابه وهو يلهب، فيقول: إنه كان من الأمر كذا وكذا، قال: فيذهب أولئك إلى أخوانهم من الكهنة، فيزيدون عليه أضعافه من الكذب،

(١) فيه (الأصل): «فيفرد»، والمثبت من تفسير ابن جرير.

فيخبرونهم به، فإذا رأوا شيئاً مما قالوا قد كان، صدقوهم بما جاؤوهم به من الكذب. وقال الضحاك: كان ابن عباس يقول: إن الشهب لا تقتل، ولكن تحرق، وتخبل، وتجرح من غير أن تقتل. وقال ابن جريج: الرجيم الملعون.

وقوله تعالى: ﴿وَالأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِوَاسِي وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ قال ابن عباس: معلوم. وقال مجاهد: مقدور بقدر ﴿وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين﴾ قال مجاهد: الدواب والأنعام وعن ابن مسعود قال: ما من عام بأمطر من عام، ولكن الله يقسمه حيث شاء، عاماً ههنا و عاماً ههنا، ثم قرأ ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾.

وقال الضحاك في قوله: ﴿وَأرسلنا الرياح لواقح﴾ الرياح يبعثها الله على السحاب فتلقحه فتمتلئ ماء. وعن عبيد بن عمير قال: تبعث المبرشة فتكتم الأرض قماً، ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر، ثم تلا عبيد ﴿وَأرسلنا الرياح لواقح﴾. وقال قتادة: لواقح للسحاب، وإن من الريح عذاباً وإن منها رحمة. وقال ابن مسعود: يبعث الله الريح فتلقح السحاب، ثم تمر به فتدر كما تدر اللقحة ثم تمطر.

وقال سفيان: ﴿وما أنتم له بخازنين﴾ بمعانين. وعن عكرمة في قوله: ﴿ولقد علمنا المتقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾ قال: هم خلق الله كلهم، قد علم من خلق منهم إلى اليوم، وقد علم من هو خالقه بعد اليوم ﴿وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ (٢٦) **وَالْجَبَانَ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُورِ** (٢٧) **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ** (٢٨) **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** (٢٩) **فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ** (٣٠) **إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ** (٣١) **قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ** (٣٢) **قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ**

لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ .

قال ابن عباس: ﴿خلق الإنسان من صلصال من حمإٍ﴾ و ﴿من طين لازب﴾ وأما اللازب فالجيد اللازق، وأما الحمأ فالحمأة، وأما الصلصال فالتراب المدقق، وإنما سمي إنساناً لأنه عهد إليه فنسي. وقال قتادة: الصلصال الطين اليابس يسمع له صلصلة. وعن مجاهد ﴿من حماء مسنون﴾ قال: متتن.

وعن قتادة ﴿والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾ وهو إبليس خلق قبل آدم، وإنما خلق آدم آخر الخلق، فحسده عدو الله إبليس على ما أعطاه من الكرامة، فقال أنا نارِي وهذا طيني، فكانت السجدة لآدم والطاعة لله تعالى ذكره فقال: ﴿أخرج منها فإنك رجيم﴾. وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم»^(١).

وقوله تعالى: ﴿قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾ قال الضحاك: يعني المؤمنين. وعن مجاهد في قوله: ﴿هذا صراط علي مستقيم﴾ قال: الحق يرجع إلى الله، وعليه طريقه، لا يعرج على شيء. وفي بعض الآثار: «أن نبياً من الأنبياء قال لإبليس: أخبرني بأي شيء تغلب ابن آدم؟ قال: آخذه عند الغضب والهوى»^(٢).

(١) أخرجه مسلم (ح/٢٩٩٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه ابن جرير (٣٤/١٤) بسند ضعيف.

وعن عكرمة في قوله: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ قال: لها سبعة أطباق. وقال علي رضي الله عنه: أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيمتلىء الأول ثم الثاني ثم الثالث ثم تمتلىء كلها. وقال ابن جريج ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُنْتَقِينَ فِي جَنَّتِ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ أَدْخُلُوهَا بِسَلْوَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

عن أبي أمامة قال: «لا يدخل مؤمن الجنة حتى ينزع الله ما في صدورهم من غلٍّ، ثم ينزع منه مثل السبع الضاري»^(١). وعن إبراهيم قال: جاء ابن جرموز قاتل الزبير استأذن على علي فحجبه طويلاً، ثم أذن له فقال له: أما أهل البلاء فتجفؤهم! قال علي يفيك التراب، إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ إخواناً على سرر متقابلين﴾. وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «يخلص المؤمنون من النار فيحسبون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتصر لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة»^(٢). والله أعلم.



(١) أخرجه ابن جرير (٣٦/١٤) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٢٤٤٠).

الدرس الرابع والأربعون بعد المائة

﴿ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ
 الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَبَنِيَّتَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ
 وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ
 الْكِبَرُ فِيمَ بَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ
 وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾
 قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾
 إِلَّا أَمْرًا تَدْرَأُوهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لِمَنِ الْغَدِيرُ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ
 إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ
 بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْقُوكَ
 مِنْكَ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ
 مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَتُولَاءِ ضَيْفِي فَلَا
 تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَأَنْقَرُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ تَنْهَكْ عَنِ الْعَلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ
 هَتُولَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَعَالِينَ ﴿٧١﴾ لَعَنَّا لِنِي سَكْرَتِهِمْ يَوْمَئِذٍ فَأَخَذَتْهُمُ
 الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٢﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٣﴾ إِنَّ
 فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّالْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٤﴾ وَإِنَّمَا لِسَبِيلٍ مُقِيمٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٦﴾
 وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٨﴾ وَلَقَدْ

كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨١﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨٢﴾ وَكَانُوا
 يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٣﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا
 كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ
 السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ
 ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ
 أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ
 الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾
 فَوَرَّيكَ لِنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَأَصْدَعِ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ
 الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ
 فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
 وَكُنْ مِنَ السَّجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿ نَبِيَّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْتَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِتْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا نَوْجَلُ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ ﴿٥٣﴾ قَالَ أْبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيهِ تَبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمَنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرًا تَدْرَأُوهُ إِنَّا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ ۞ .

قوله تعالى: ﴿ نبيء عبادي اني انا الغفور الرحيم وان عذابي هو العذاب الاليم ﴾ روي «أن النبي ﷺ خرج على أصحابه وهم يضحكون فقال: أتضحكون وبين أيديكم النار؟ فنزل جبريل بهذه الآية وقال: يقول لك ربك يا محمد لم تقنط عبادي؟»^(١).

وعن مجاهد في قوله: ﴿ أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون ﴾ قال: عجب من كبره وكبر امرأته.

قوله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكَرُّونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا

(١) أخرجه ابن جرير (٣٩١/١٤)، عن عطاء بن أبي رباح عن رجل من أصحاب النبي ﷺ بسند ضعيف، وأخرجه ابن أبي حاتم — كما عناه له كثير في تفسيره (٥٥٣/٢) — عن مصعب بن ثابت مرسلًا، وأخرجه البزار — كما في «مختصر زوائد البزار» (ح/٢٢٢٣) — من حديث عبد الله بن الزبير، بسند ضعيف.

لَصَدِقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَسِرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ
وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿١٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ
مُّصْبِحِينَ ﴿١٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا
تَفْضَحُونِ ﴿١٨﴾ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ ﴿١٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نُنْهَكْ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ قَالَ
هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَعَلِينَ ﴿٢١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ
الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٢٤﴾ إِنْ
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّا لَنَسِيبِلِ مُقِيمٍ ﴿٢٦﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾
وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٢٨﴾ فَانقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ .

عن قتادة ﴿واتبع أدبارهم﴾ قال: أمر أن يكون خلف أهله يتبع أدبارهم في
آخرهم إذا مشوا. وعن مجاهد ﴿ولا يلتفت منكم أحدا﴾ لا يلتفت وراءه أحد ولا
يعرج.

وقال ابن عباس قوله: ﴿إن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾ يعني استئصال
هلاكهم مصبحين. وعن قتادة قوله: ﴿وجاء أهل المدينة يستبشرون﴾ استبشروا
بأضياف نبي الله ﷺ حين نزلوا، لما أرادوا أن يأتوا إليهم من المنكر، وقال
في قوله: ﴿أو لم ننهك عن العالمين﴾ ألم ننهك أن تضيف أحدا؟

وعن ابن عباس في قول الله ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ قال: ما
حلف الله تعالى بحياة أحد إلا بحياة محمد ﷺ، قال: وحياتك يا محمد وعمرك
وبقائك في الدنيا ﴿إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ أي في ضلالتهم ﴿يعمهون﴾،
أي: يلعبون. وقال مجاهد: يترددون. وعن ابن عباس أيضاً: يتمادون. وقال
بعض المفسرين: ثم قالت الملائكة للوط عليه السلام ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم
يعمهون﴾ فكيف يقبلون قولك؟

وعن ابن جريج ﴿فأخذتهم الصيحة مشرقين﴾ قال: حين أشرقت الشمس.

وعن مجاهد في قوله: ﴿إِن فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال: للمتفرسين. وقال قتادة: للمعتبرين.

وعن قتادة ﴿إِنهَا لَسَبِيلٌ مَّقِيمٌ﴾ يقول: بطريق واضح. وعن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «احذروا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ويتوفيق الله»^(١). وعن سعيد بن جبير في قوله: ﴿إِن فِي ذَلِكَ لآيَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: هو كالرجل يقول لأهله: علامة ما بيني وبينكم أن أرسل إليكم خاتمي، أو آية كذا وكذا.

وقال ابن جريج قوله: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ﴾ قال: قوم شعيب. قال ابن عباس ﴿الأيكة﴾ ذات آجام وشجر كانوا فيها. وقوله تعالى: ﴿وَإِنهَمَا﴾.

قال البغوي^(٢): يعني مدينتي قوم لوط وأصحاب الأيكة ﴿لِيَأْمُرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لبطريق واضح مستبين.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٥﴾ وَعَايَنَاهُمُ عَايِنَتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨٦﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ ﴿٨٨﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

عن عبد الله بن عمر قال: «مررنا مع النبي ﷺ على الحجر فقال لنا رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، حذراً أن يصيبكم ما أصابهم. ثم زجر فأسرع حتى خلفها»^(٣). رواه ابن جرير وغيره.

(١) أخرجه ابن جرير (٤٧/١٤)، وأبو نعيم في الحلية (٨١/٤)، بسند ضعيف جداً، وروي

مثله عن أبي هريرة، وأبي سعيد، وأبي أمامة وابن عمر، بأسانيد ضعيفة.

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (٤٥/٣).

(٣) سبق تخريجه، وهو حديث صحيح.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّهُ فَاصِّحٌ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ أَنْكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ .

عن ابن عباس أنه قال في قول الله تعالى: ﴿ولقد آتيناك سبعا من المثاني﴾ قال: هي فاتحة الكتاب، فقرأها ستاً ثم قال: بسم الله الرحمن الرحيم الآية السابعة. وعن قتادة ﴿سبعا من المثاني﴾ قال: فاتحة الكتاب تشي في كل ركعة مكتوبة وتطوع. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: أم القرآن السبع المثاني التي أعطيتها^(١). رواه ابن جرير وغيره.

وعن مجاهد في قوله: ﴿والقرآن العظيم﴾ قال: سائره، يعني سائر القرآن مع السبع من المثاني. ﴿لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم﴾ قال: الأغنياء، الأمثال: الأشباه. وقال ابن عباس: يعني الرجل أن يتمنى مال صاحبه.

وقال البغوي^(٢): قوله تعالى: ﴿واخفض جناحك﴾ ألن جانبك للمؤمنين وارفق بهم، والجناحان من ابن آدم جنباه. ﴿قل إني أنا النذير المبين كما أنزلنا

(١) أخرجه ابن جرير (٥٨/١٤) وهو حديث صحيح.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤٧/٣).

على المقتسمين ﴿ قال الفراء: مجازة: أنذرکم عذاباً كعذاب المقتسمين. حكي عن ابن عباس أنه قال: هم اليهود والنصارى الذين ﴿ جعلوا القرآن عزين ﴾ جزؤوه فجعلوه أعضاء، فأمنوا ببعضه وكفروا ببعضه. وقال مجاهد: قسّموا كتابهم ففرّقوه وبذلوه.

وقال ابن كثير^(١): وقوله: ﴿المقتسمين﴾، أي: المتحالفين، أي تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم. وعن عطاء ﴿الذين جعلوا القرآن عزين﴾ قال: المشركون من قريش عضوا القرآن فجعلوه أجزاء، فقال بعضهم: ساحر، وقال بعضهم: شاعر، وقال بعضهم: مجنون، فذلك العضون. وعن أبي العالية ﴿فوربتك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ قال: يسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة: عما كانوا يعبدون، وعما أجابوا المرسلين. وعن مجاهد في قوله: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ قال: بالقرآن. وعن عبد الله بن عبيدة قال: ما زال النبي ﷺ متخفياً حتى نزلت ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾ فخرج هو وأصحابه.

وقوله تعالى: ﴿إنا كفيناك المستهزئين﴾ قال ابن إسحاق: كان عظماء المستهزئين — كما حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير — خمسة نفر من قومه، وكانو ذوي أنساب وشرف في قومهم: الأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والحارث بن الطلائع، فلما تمادوا في الشر، وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء، أنزل الله تعالى ذكره: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين﴾ إلى قوله: ﴿فسوف يعلمون﴾.

فحدثني يزيد بن رومان: أن جبرائيل أتى رسول الله ﷺ وهم يطوفون

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (ح/٥٥٨).

بالبيت، فقام وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه، فمرّ به الأسود بن المطلب، فرمى في وجهه بورقة خضراء فعمي، ومرّ به الأسود بن عبد يغوث، فأشار إلى بطنه، فاستسقى بطنه، فمات منه حَبْتًا، ومرّ به الوليد بن المغيرة، فأشار إلى أسفل جرحه بأسفل كعب رجله، كان أصابه قبل ذلك بسنين، فانتقض به فقتله، ومرّ به العاص بن وائل، فأشار إلى أخمص رجله، فخرج على حمار له يريد الطائف، فوقص على شبرقة، فدخل في أخمص رجله منها شوكة فقتله، ومرّ به الحارث بن الطلائة فأشار إلى رأسه، فامتخط قبحاً فقتله^(١).

وقوله تعالى: ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما تقولون فسيح بحمد ربك﴾
قل: سبحان الله وبحمده ﴿وكن من الساجدين﴾، أي: المصلّين ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾، أي: الموت؛ نسأل الله الاستقامة على طاعته وبالله التوفيق.



(١) أخرجه ابن جرير (٧٠/١٤) بسند ضعيف.

الدرس الخامس والأربعون بعد المائة

﴿سورة النحل﴾

مكية، وآياتها ١٢٨ آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَنزَلَ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ
الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾
خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ
فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ
تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَوْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِلَيْفِهِ إِلَّا يَسْقِ الْإِنْفُسِ
إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَاللَّيْلَ وَالنَّجْمَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً
وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ
ثَمِيمٌ ﴿١٠﴾ يُبْدِ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ
كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ
الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ

لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ
لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا مَّوَسَّوْتًا وَتَرَى الْقَلَائِدَ مَوْاخِرَ فِيهِ
وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَالْقَلَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ
نَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَرَ وَسْبَلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتِ بِالْحَبِمْ هُمْ
يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ
لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾
وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرَ أَحْيَاءٍ وَمَا
يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ۗ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ
مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَاجِرَمَ أَنْتَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوتَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ لَا
يُحِبُّونَ الْمُتَّكِبِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَادَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا اسْطِيرُ
الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ
يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِيسَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمْ
الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ بَيْنَ
شُرَكَائِهِمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ
الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا
السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا
أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَّكِبِينَ ﴿٢٩﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا
مَادَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ ۗ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَلِلَّذِينَ

خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ نُوَفِّقُهُمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٧﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٨﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٩﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ .

قال ابن كثير^(١): في تفسير قوله تعالى: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها، معبراً بصيغة الماضي، الدال على التحقيق والوقوع لا محالة، كقوله: ﴿اقتراب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فلا تستعجلوه﴾ كقوله: ﴿يستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون﴾^(٣)، ﴿يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾^(٤).

وعن ابن عباس قوله: ﴿ينزل الملائكة بالروح﴾ يقول: بالوحي. وقال قتادة: إنما بعث الله المرسلين أن يوحد الله وحده ويطاع أمره ويجتنب سخطه.

وقوله تعالى: ﴿خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون﴾ نزه نفسه عن مشاركة غيره ﴿خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾ يجادل بالباطل.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٥٦١).

(٢) سورة الأنبياء: الآية ١.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٥٣.

(٤) سورة العنكبوت: الآية ٥٤.

قوله عز وجل: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَنْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِلَيْغِهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْحَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَىٰ اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً حَلِيقَةً تَلْسُوتُوهَا وَتَرَىٰ الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتْنِي بِالْقَلَمِ وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُهَا إِلَّا بِرَحْمَةٍ مِّنْ رَبِّكَ وَأَنْتَ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ أَمْنَ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون﴾ يعني بالدفء: الثياب والمنافع: ما يتفنعون به من الأطعمة والأشربة. وقال قتادة يقول: لكم فيها لباس ومنفعة وبلغت ﴿ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾ وذلك أعجب ما يكون إذا راحت عظاماً ضروعها، طوالاً أسنمتها ﴿وحين تسرحون﴾ إذا سرحت لرعيها. وعن عكرمة ﴿وتحمل أنقالكم إلى بلد لم

تكونوا بالغيه إلا بشقّ الأنفس ﴿ قال: لو تُكَلَّفونَه لم تبلغوه إلاّ بجهد شديد.

وقوله تعالى: ﴿والخيل والبغال والحمير﴾ لكم أيضاً ﴿لتركبوها وزينة﴾.

قال ابن جرير^(١): يقول تعالى ذكره: وخلق الخيل والبغال والحمير لكم أيضاً ﴿لتركبوها وزينة﴾ يقول: وجعلها لكم زينة تتزينون بها، مع المنافع التي فيها لكم للركوب وغير ذلك) انتهى.

وفي الصحيحين عن جابر قال: «نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية، وأذن في لحوم الخيل»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾.

قال في جامع البيان، أي: ويخلق لكم ما لم يحط به علمكم.

وعن ابن عباس قوله: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ يقول: على الله البيان، أن يبيّن الهدى والضلالة ﴿ومنها جائر﴾ يعني الأهواء المختلفة.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ قال: لو شاء لهداكم أجمعين لقصد السبيل الذي هو الحق، وقرأ: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون﴾ قال الضحاك: ترعون أنعامكم.

وعن قتادة قوله: ﴿وما ذراً لكم في الأرض﴾ يقول: وما خلق لكم مختلفاً ألوانه من الدواب ومن الشجر والثمار، نِعْمُ من الله متظاهرة فاشكروا الله. قال في القاموس: ذراً خلق، والشيء أكثره ومنه الذرية.

(١) انظر «جامع البيان» (٧٨/١٤).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٥٥٢٠)، ومسلم (ح/١٩٤١).

(٣) سورة يونس: الآية ٩٩.

وعن قتادة في قوله: ﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً﴾ قال: منهما جميعاً ﴿وتستخرجوا منه حلية تلبسونها﴾ قال: هذا اللؤلؤ.

وعن عكرمة في قوله: ﴿وترى الفلك مواخر فيه﴾ قال: هي السفينة، تقوى بالماء هكذا يعني تشقه. وعن مجاهد ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ قال: تجارة البر والبحر ﴿ولعلكم تشكرون﴾.

وقوله تعالى: ﴿وألقي في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾ قال مجاهد: أن تكفأ بكم. وقال الحسن: لما خلقت الأرض كادت تميد فقالوا: ما هذه بمقرّة على ظهرها أحد، فأصبحوا وقد خلقت الجبال، فلم تدر الملائكة مم خلقت الجبال.

وعن ابن عباس ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾ يعني بالعلامات معالم الطرق بالنهار ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ بالليل.

وعن قتادة قوله: ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون﴾ والله هو الخالق الرزاق، وهذه الأوثان التي تعبد من دون الله تخلق ولا تخلق شيئاً ولا تملك لأهلها ضرراً ولا نفعاً، قال الله: ﴿أفلا تذكرون﴾.

وقال البغوي^(١): ﴿أفمن يخلق﴾ يعني الله تعالى: ﴿كمن لا يخلق﴾ يعني الأصنام ﴿أفلا تذكرون﴾. ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور﴾ لتقصيركم في شكر نعمه ﴿رحيم﴾ بكم حيث وسع عليكم النعم ولم يقطعها عنكم بالتقصير والمعاصي.

قوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٥٣).

مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنْ اللَّهُ يَعْلَمَ مَا يَسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِيسَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ بَيْنَ يَدَيْهِمْ أَلَمْ نَكْفِكُمْ أَلَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ الْأَعْلَمُ إِنَّ الْآخِرَىٰ أَلْيَوْمَ وَالسَّوَاءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا أَلَسْتُمْ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فليسَ مَثْوًى الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٩﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبغثون﴾ وهي هذه الأوثان التي تعبد من دون الله ﴿أموات﴾ لا أرواح، فيها ولا تملك لأهلها ضراً ولا نفعاً.

وقوله تعالى: ﴿إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة﴾ قال قتادة: لهذا الحديث ﴿وهم مستكبرون﴾ عنه.

وقوله تعالى: ﴿لا جرم﴾، أي: حقاً ﴿أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾.

قال في جامع البيان، أي: حق أن الله تعالى يعلم سرهم وعلايتهم حقاً.

وعن قتادة قوله: ﴿ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين﴾ قال: ذلك قوم من مشركي العرب كانوا يقعدون بطريق من أتى نبي الله ﷺ، فإذا مرّ بهم أحد من المؤمنين يريد نبي الله ﷺ قالوا لهم: ﴿أساطير الأولين﴾ يريدون أحاديث الأولين وباطلهم.

وعن مجاهد قوله: ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلّونهم بغير علم﴾ ذنوب أنفسهم وذنوب من أطاعهم، ولا يخفف ذلك عن أطاعهم من العذاب شيئاً. وعن ابن عباس قوله: ﴿وقد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد﴾ قال: هو نمروذ حين بنى الصرح. وقال قتادة في قوله: ﴿قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد﴾ أي: والله لأنّهم أمر الله من أصلها ﴿فخرّ عليهم السقف من فوقهم﴾ والسقف أعالي البيوت؛ فانتكست بهم بيوتهم فأهلكهم الله ودمرهم ﴿وأناهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾.

وقوله: ﴿ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم﴾، أي: تخالفون المؤمنين، ما لهم لا يحضرونكم فيدفعون عنكم العذاب؟ قال الذين أتوا العلم إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ﴿ماتوا على الكفر﴾ فألقوا السلم ﴿، أي: استسلموا وقالوا: ﴿ما كنا نعمل من سوء﴾ فقليل لهم: ﴿بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبس مثوى المتكبرين﴾.

قوله عز وجل: ﴿﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِلَّذِينَ اتَّقَوْا خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تُوَفَّقَهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾﴾.

قال البغوي^(١): ﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً﴾ ثم ابتداء فقال: ﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا﴾ كرامة من الله ﴿ولدار الآخرة خير ولنعم دار

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٥٥).

المتقين جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون كذلك يجزي الله المتقين الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ﴿ وعن مجاهد في قوله: ﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين﴾ .

قال: أحياء وأمواتاً قدر الله ذلك لهم. وقال محمد بن كعب القرظي: إذا احتضرت نفس العبد المؤمن جاءه ملك فقال: السلام عليك وليي الله، الله يقرأ عليك السلام، ثم نزع بهذه الآية ﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ .

قوله عز وجل: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾ .

عن مجاهد ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة﴾ يقول: عند الموت حين تتوفاهم ﴿أو يأتي أمر ربك﴾ يوم القيامة .

وقوله تعالى: ﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾ أي كفروا كما كفروا ﴿وما ظلمهم الله﴾ بتعذيبه إياهم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ . ﴿فأصابهم سيئات ما عملوا﴾ عقوبات كفرهم، وأعمالهم الخبيثة ﴿وحاق بهم﴾ نزل بهم ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾ . والله أعلم .



الدرس السادس والأربعون بعد المائة

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا
 آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ
 إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ
 وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ
 فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴿٣٦﴾ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى
 هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ
 جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ
 لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا
 كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ
 هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنْبُوَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ
 كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ
 إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ
 وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ
 الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا
 يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ
 رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيوْا ظِلَالَهُ عَنِ الِيمِينِ

وَالشَّمَايِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
 مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا
 يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا لِلنَّهْيِ أَتَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي
 فَأَرْهَبُونَ ﴿٥١﴾ وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الَّذِينَ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا يَكُمُ
 مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَأَلَيْهِ تَجْزِعُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضَّرُّ
 عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ
 تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُتِبَ
 تَفَرُّونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ
 بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ بِنَوَارِيٍّ مِنَ الْقَوَارِيءِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ
 أَيَسِّرُكُمْ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّكُمْ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
 بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ
 بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا
 يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ
 أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْمُسْتَقَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ
 لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ
 عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى
 وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴿٣٦﴾ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ .

قال البغوي^(١) في قوله: ﴿فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾، أي: ليس إليهم الهداية إنما إليهم التبليغ.

قوله تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا﴾، أي: كما بعثنا فيكم ﴿أن عبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ وهو كل معبود من دون الله ﴿فمنهم من هدى الله﴾، أي: هداه الله إلى دينه ﴿ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾، أي: وجبت بالقضاء السابق حتى مات على كفره.

قوله عز وجل: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبْوِّتَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ .

(١) انظر «معالم التنزيل» (٥٦/٣).

عن أبي العالية: قال كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه، فكان فيما تكلم به: والذي أرجوه بعد الموت أنه لكذا، فقال المشرك: إنك تزعم أنك تبعث بعد الموت؟ فأقسم بالله جهد يمينه لا يبعث الله من يموت، فأنزل الله ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ بَلَىٰ وَعَدَآءٌ عَلَيْهِمْ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١). وعن قتادة قوله: ﴿لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قال: للناس عامة.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنبُوئْتُهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قال قتادة: هؤلاء أصحاب محمد ظلمهم أهل مكة، فأخرجوهم من ديارهم، حتى لحق طوائف منهم بالحبيشة، ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك، فجعلها لهم دار هجرة، وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين، قال الله ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ واللَّهُ لَمَّا يَشِيهَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ حَسَنَةٍ أَكْبَرُ ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيَ إِلَيْهِمْ فَتَسْأَلُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٤٧) ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ﴾^(٤٨) ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٤٩) ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾^(٥٠) ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٥١) ﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَيَتَفَتَّحُونَ ظِلَالَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾^(٥٢) ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾^(٥٣) ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٥٤).

قال ابن عباس: لما بعث الله محمداً رسوله أنكرت العرب ذلك، أو من أنكرت

(١) أخرجه ابن جرير (١٠٥/١٤) بسند ضعيف.

منهم فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد، فأنزل الله ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم﴾^(١) وقال ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر﴾^(٢). ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾ يعني أهل الكتب الماضية أبشراً كانت الرسل التي أتتهم أم ملائكة؟ وقال مجاهد ﴿البينات﴾ الآيات ﴿والزبر﴾ الكتب.

وقوله تعالى: ﴿أفأمن الذين مكروا السيئات﴾، أي: عملوها ﴿أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون أو يأخذهم في تقلبهم﴾، أي: في تعرضهم واشتغالهم ﴿فما هم بمعجزين﴾ ﴿أو يأخذهم على تخوف﴾ قال ابن عباس يقول: إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك؛ وعن قتادة: أو يأخذهم على تخوف فيعاقب أو يتجاوز ﴿فإن ربكم لرؤوف رحيم﴾.

قوله تعالى: ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمال سجداً لله وهم داخرون﴾ قال مجاهد: صاغرون. وقال قتادة: أما اليمين فأول النهار، وأما الشمال فآخر النهار.

وقوله تعالى: ﴿والله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ كقوله تعالى: ﴿والله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال﴾^(٣). وقوله: ﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب﴾^(٤). وعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما

(١) سورة يونس: الآية ٢.

(٢) أخرجه ابن جرير (١٠٩/١٤) بسند ضعيف.

(٣) سورة الرعد: الآية ١٥.

(٤) سورة الحج: الآية ١٨.

لا تسمعون، أظت السماء وحق لها أن تظ، والذي نفسي بيده ما فيها موضع أربع أصابع، إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله^(١). الحديث رواه البغوي وغيره.

قوله عز وجل: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحِيدٌ فَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ ﴿٥١﴾ وَلَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضَّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتَسْتَأْذِنَنَّ عَمَّا كُتِبَتْ تَقْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ ۞ .

عن ابن عباس ﴿وله الدين واصباً﴾ قال: دائماً.

قال البغوي^(٢) معناه: ليس من أحد يدان له ويطاع إلا انقطع عنه ذلك بزوال أو هلاك غير الله عز وجل.

وعن مجاهد في قوله: ﴿فإليه تجأرون﴾ قال: تضرعون دعاء. وقوله تعالى: ﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾.

قال البغوي^(٣): وهذه اللام تسمى لام العاقبة، أي: حاصل أمرهم هو كفرهم بما أعطيناهم من النعماء وكشف الضراء والبلاء.

(١) أخرجه أحمد (١٧٣/٥)، والترمذي (ح/٢٣١٢) وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (ح/٣١٩٠)، والطحاوي في «المشكل» (٤٤/٢)، وأبو نعيم في الدلائل (ص ٢٧٩)، والحاكم (٢/٥١٠)، وصححه، وسكت عليه الذهبي قلت: وفي سنه إبراهيم بن مهاجر، وهو ضعيف. لكن للحديث شاهد من حديث عائشة - رضي الله عنها - وحكيم بن حزام، وبهما يكون الحديث حسن إن شاء الله تعالى، والله أعلم.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/٥٩).

(٣) المصدر السابق (٣/٥٩).

وعن قتادة قوله: ﴿ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم﴾ وهم مشركو العرب جعلوا لأوثانهم نصيباً من أموالهم.

قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يَوَاجِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ فِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْمُسْقَىٰ لَا جَرَيمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَرَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ .

عن ابن عباس ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون﴾ وقال ﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم﴾ إلى آخر الآية يقول ﴿يُجْعَلُونَ لله البنات﴾ ترضونهم لي ولا ترضونهم لأنفسكم، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية إذا ولد للرجل منهم جارية أمسكها على هون أو دسها في التراب وهي حية. قال قتادة: هذا صنيع مشركي العرب، أخبرهم الله تعالى ذكره بخبث صنيعهم، فأما المؤمن فهو حقيق أن يرضى بما قسم الله له، وقضاء الله خير من قضاء المرء لنفسه، ولعمري ما يدري أنه خير، لربّ جارية خير لأهلها من غلام.

وقال ابن كثير^(١) في قوله ﴿أيمسكه على هون﴾، أي: إن أبقاها مهانة لا

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٥٧٣).

يورثها ولا يعتني بها، ويفضّل أولاده الذكور عليها ﴿أم يدسه في التراب﴾، أي: يثدها ﴿ألا ساء ما يحكمون﴾.

قال البغوي^(١): بشس ما يقضون لله البنات ولأنفسهم البنين.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّءِ﴾.

قال ابن جرير^(٢): وهو القبيح من المثل، وما يسوء من ضرب له ذلك المثل.

وقال البغوي^(٣): يعني لهؤلاء الذين يصفون لله البنات ولأنفسهم البنين مثل السوء، صفة السوء من الاحتياج إلى الولد وكراهية الإناث وقتهلنّ خوف الفقر ﴿والله المثل الأعلى﴾ الصفة العليا، وهي التوحيد وأنه: لا إله إلا هو.

وقال ابن كثير^(٤): ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّءِ﴾، أي: النقص، إنما ينسب إليهم ﴿والله المثل الأعلى﴾، أي: الكمال المطلق من كل وجه وهو منسوب إليه ﴿وهو العزيز الحكيم﴾. وعن أبي الأحوص قال: كاد الجُعَل أن يعذب بذنب بني آدم، وقرأ ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة﴾.

وعن مجاهد قوله ﴿ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى﴾ قول قريش: لنا البنون وله البنات. وقال يمان: يعني بالحسنى الجنة في المعاد، يقولون: نحن في الجنة إن كان محمد صادقاً بالوعد في البعث، لا جرم

(١) انظر «معالم التنزيل» (٦٠/٣).

(٢) انظر «جامع البيان» (١٤/١٢٥).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٦٠/٣).

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٥٧٣/٢).

حقاً. قال ابن عباس: بلى إن لهم النار في الآخرة، ﴿وأنهم مفرطون﴾ منسيون فيها؛ وقال قتادة معجلون إلى النار.

﴿تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك﴾ كما أرسلناك إلى هذه الأمة ﴿فزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ الخبيثة ﴿فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه﴾ من الدين والأحكام ﴿وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾، أي: ما أنزلناه إلا بياناً للناس وهدى ورحمة للمؤمنين. والله أعلم.



الدرس السابع والأربعون بعد المائة

﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لَتُنظِرَكُمْ بِهَا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ ابْنَاءُ
خَالِصًا سَائِعًا لِلشَّيْرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا
وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ
بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا
يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ
يَنْفَكِرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُدْرِكُ إِلَى أَزْدِلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ
عِلْمِ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ
فُضِّلُوا بِرَادِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ
يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَعْلَمَ لَكُمْ مِنْ أَنْزَلِكُمْ
بَيْنَ وَحَفْدَةٍ وَرِزْقِكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبِطْلِ يُؤْمِنُونَ وَبِعِزَّةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾
وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا
يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ * ضَرَبَ
اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْنَا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ
مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ
اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْيَكُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ

أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ
 مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحٍ الْبَصَرِ
 أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ
 أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ
 تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ
 إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا
 وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ
 أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئْتًا إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا
 خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ
 تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتَذَرُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ
 لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ
 ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾

* * *

قوله عز وجل : ﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِيُقَاتِلَ فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمِرٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّخْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ .

قال الفراء في قوله : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ رد الكناية إلى النعم، والنعم والأنعام واحد، ولفظ النعم مذكر.

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ قال البغوي : والكناية في « منه » عائدة إلى ما محذوف أي ما تتخذون منه . وقال ابن عباس : السكر ما حرّم من ثمرتها، والرزق الحسن ما أحلّ من ثمرتها . وقال مجاهد : السكر الخمر قبل أن تحرّم، والرزق الحسن الرطب والأعناب .
وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّخْلِ ﴾ .

قال البغوي^(١)، أي : ألهمها وقذف في أنفسها ففهمته ﴿ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ وقد جرت العادة أن أهلها بينون لها الأماكن فهي تأوي إليها . وعن مجاهد ﴿ فاسلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا ﴾ قال : لا يتوغّر عليها مكان سلكته . وقال قتادة : أي مطيعة . وقال ابن زيد : الذلول الذي يقاد

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٦٢).

ويذهب به حيث أراد صاحبه، فهم يخرجون بالنحل ينتجعون بها ويذهبون وهي تتبعهم.

وعن قتادة قوله: ﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾^(١) فيه شفاء كما قال الله تعالى من الأدواء، وقد كان ينهى عن تفريق النحل وعن قتلها. وقال ابن مسعود: العسل شفاء من كل داء، والقرآن شفاء لما في الصدور.

قوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧٢﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنًا وَحَقْدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبِطْلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

قال البغوي^(١) قوله تعالى: ﴿والله خلقكم ثم يتوفاكم﴾ صبياناً أو شباناً أو كهولاً ﴿ومنكم من يرد إلى أردل العمر﴾ أردته، قال مقاتل: يعني الهرم، وقال قتادة: أردل العمر تسعون سنة، وروي عن عليّ قال: أردل العمر خمس وسبعون سنة، وقيل: ثمانون سنة ﴿لكيلا يعلم بعد علم شيئاً﴾ لكيلا يعقل بعد عقله الأول شيئاً: ﴿إن الله عليم قدير﴾. وساق بسنده حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «أعوذ بك من البخل والكسل وأردل العمر، وعذاب القبر وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات»^(٢). وعن ابن عباس قوله: ﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادّي رزقهم على ما ملكت أيمانهم﴾

(١) المصدر السابق (٣/٦٢ - ٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٧٠٧)، ومسلم (٤/٢٠٨٠).

يقول: لم يكونوا يشركون عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني؟ فذلك قوله: ﴿أفبئعنا الله بجهدون﴾.

وعن مجاهد في قوله: ﴿برأدي رزقهم على ما ملكت أيمانهم﴾ قال: مثل آلهة الباطل مع الله تعالى ذكره.

وقوله تعالى: ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾ قال ابن عباس: هم الولد وولد الولد. وقال ابن مسعود: الحفدة الأصهار.

قوله عز وجل: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُفِئِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾.

قال مجاهد: ﴿الأمثال﴾ الأشباه. وعن ابن عباس قوله: ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾ يعني اتخاذهم الأصنام يقول: لا تجعلوا معي إلهاً غيري فإنه لا إله غيري.

وعن قتادة قوله: ﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء﴾ هذا مثل ضربه الله للكافر، رزقه الله مالاً فلم يقدم فيه خيراً ولم يعمل فيه بطاعة الله؛ قال الله تعالى ذكره: ﴿ومن رزقناه منا رزقاً حسناً﴾ فهذا المؤمن أعطاه الله مالاً يعمل فيه بطاعة الله، وأخذ بالشكر، ومعرفة الله، فأثابه الله على ما رزقه الرزق المقيم،

الدائم لأهله في الجنة، وعن مجاهد: هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى، فهل يستوي هذا وهذا؟

وقوله تعالى: ﴿وَضْرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ قال قتادة: هو الوثن ﴿هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل﴾ قال: الله ﴿يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم﴾ وقال الكلبي: يعني يدلکم على صراط مستقيم.

قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يَمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

عن قتادة ﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر﴾ هو أن يقول: كن فهو كلمح البصر، فأمر الساعة كلمح البصر أو ﴿أقرب﴾ يعني يقول: أو هو أقرب من لمح البصر.

قوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئْتًا إِلَىٰ مِئَاتَيْنِ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ بِأَسْكُمُ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسَلِّمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْعُ الْمَمِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

عن مجاهد في قول الله تعالى: ﴿من بيوتكم سكناً﴾ تسكنون فيه. وعن ابن عباس: ﴿أثاثاً﴾، قال: يعني بالأثاث المال، ﴿ومتاعاً إلى حين﴾ يعني زينة، يقول: ينتفعون به ﴿إلى حين﴾ قال قتادة: إلى أجل وبلغة. ﴿والله جعل لكم مما خلق ظلالاً﴾ قال: الشجر ﴿وجعل لكم من الجبال أكناناً﴾ يقول: غيراناً. ﴿وجعل لكم سراويل تقيكم الحر﴾ من القطن والكتان والصوف.

قال البغوي^(١): قال أهل المعاني: أراد الحر والبرد أكتفاء بذكر أحدهما لدلالة الكلام عليه. ﴿وسراويل تقيكم بأسكم﴾ يعني الدروع ولباس الحرب. وقال عطاء: إنما أنزل القرآن على قدر معرفتهم فقال: ﴿وجعل لكم من الجبال أكناناً﴾ وما جعل لهم من السهول أكثر وأعظم، ولكنهم كانوا أصحاب جبال.

وقوله تعالى: ﴿يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون﴾ قال ابن جريج: قال عبد الله بن كثير: يعلمون أن الله خلقهم، وأعطاهم ما أعطاهم، فهو معرفتهم نعمته، ثم إنكارهم إياها كفرهم بعد.

وقال ابن كثير^(٢): أي يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك، وهو المتفضل به عليهم، ومع هذا ينكرون ذلك، ويعبدون معه غيره، ويسندون النصر والرزق إلى غيره.



(١) انظر «معالم التنزيل» (٦٦/٣).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٥٨٠/٢).

الدرس الثامن والأربعون بعد المائة

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ (٨٤) وَإِذْ رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذْ رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٩٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِءً وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْتَلْنَ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا

الشُّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ
ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ
وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾
مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ .

عن قتادة ﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيداً﴾ وشاهدها نبيها، على أنه قد بلغ رسالات ربه، قال الله تعالى: ﴿وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾.

وعن مجاهد ﴿فألقوا إليهم القول﴾ حدّثوهم. وعن قتادة ﴿وألقوا إلى الله يومئذ السلم﴾ يقول: ذلّوا واستسلموا يومئذ ﴿وضلّ عنهم ما كانوا يفترون﴾. وعن ابن مسعود في قوله: ﴿زدناهم عذاباً فوق العذاب﴾ قال: أفاعي. وعن عبد الله بن عمرو قال: إن لجهنم سواحل فيها حيات وعقارب، أعناقها كأعناق البُخت.

وعن ابن جريج في قوله: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيناً لكل شيء﴾ قال ما أمروا به ونهوا عنه. وقال ابن مسعود: أنزل في هذا القرآن كل علم وكل شيء، قد تبين لنا في القرآن، ثم تلا هذه الآية.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِمْ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَاقُمْ بَعْدَ نُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أُنتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ .

قال ابن مسعود: إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ إلى آخر الآية. وقال قتادة: إنه ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به، وليس من خلق سيئ كانوا يتعابرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم فيه، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها. وروي أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية على رجل من الكفار فقال: «إن له والله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما هو بقول البشر»^(١).

(١) قائل هذا الكلام هو الوليد بن المغيرة، وذلك عندما قرأ عليه النبي ﷺ شيئاً من القرآن، ولم تذكر كتب السير والحديث - فيما وقفت عليه - أن النبي ﷺ قد قرأ عليه هذه الآية التي عنها المؤلف، رحمه الله، والله أعلم.

وقال نافع بن يزيد: سألت يحيى بن سعيد عن قول الله ﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾ قال: العهود. وعن مجاهد ﴿وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً﴾ قال: وكيفلاً.

وعن قتادة قوله: ﴿ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً﴾ فلو سمعتم بامرأة نقضت غزلها من بعد إبرامه لقلتم: ما أحق هذه، وهذا مثل ضربه الله لمن نكث عهده.

وقوله تعالى: ﴿ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة﴾.

قال ابن جرير^(١): ﴿دخلاً بينكم﴾ يقول: خديعة وغروراً ليطمئنوا إليكم، وأنتم مضمرون لهم الغدر، وترك الوفاء بالعهد. وقال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز، فينقضون حلف هؤلاء، ويحالفون هؤلاء الذين هم أعز منهم، فنهوا عن ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله﴾.

قال ابن كثير^(٢): لأن الكافر إذا رأى المؤمن قد عاهده، ثم غدر به لم يبق له وثوق بالدين، فانصدّ بسببه عن الدخول في الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ ينهى تعالى عن نقض العهد ويحث على الوفاء به والصبر على ذلك. وعن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب دنياه أضّر

(١) انظر «جامع البيان» (١٤/١٦٨).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٥٨٤).

بآخرتة، من أحبّ آخرتة أضّرّ بدنياه، فأثروا ما يبقى على ما يفنى»^(١). رواه البغوي.

وقوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾ قال ابن عباس: الحياة الطيبة الرزق الحلال في الدنيا. وقال الحسن: هي القناعة. وقال الضحاك ﴿من عمل صالحاً﴾ وهو مؤمن في فاقة أو ميسرة فحياته طيبة، ومن أعرض عن ذكر الله فلم يؤمن ولم يعمل صالحاً فعيشته ضنكة لا خير فيها. وعن عبد الله ابن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقتعه الله بما آتاه»^(٢).

وعن ابن عباس: ﴿ولنجزيتهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ قال: إذا صاروا إلى الله جزاهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون. والله أعلم.



(١) أخرجه أحمد (٤/٤١٢)، وعبد بن حميد (١/٤٩٧)، والحاكم (٤/٣٠٨ و ٣١٩)، والبيهقي في «الزهد» (ح/٤٤٨)، والقضاعي في مسند الشهاب (ح/٤١٨)، والبغوي في شرح السنة (١٤/٢٣٩)، بسند ضعيف.

(٢) أخرجه مسلم (ح/١٠٥٤).

الدرس التاسع والأربعون بعد المائة

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِيَاتِيَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ لِيَتَّبِعُوهُ يَمْنَنَ اللَّهُ بِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّمَا يَقْرَأُ الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٤﴾ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهَا عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٨﴾ ثُمَّ إِنَّكَ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فِتْنَاوْا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١٠﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٨﴾
 إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ
 عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿٢٠﴾ .

هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه ﷺ، إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم.

قال ابن كثير^(١): والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة؛ لثلا يلبس على القارئ قراءته؛ ويخلط عليه، ويمنعه من التدبر والتفكير.

وقوله تعالى: ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ قال الثوري: ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه ﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه﴾ قال مجاهد يطيعونه ﴿والذين هم به مشركون﴾ يعدلون بالله وقال الضحاك عدلوا إبليس بربهم، فإنهم بالله مشركون، وقال ابن عباس السلطان على من تولى الشيطان، وعمل بمعصية الله.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَيَّفُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ نَعَلِمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبْنِي وَهَذَا لِسَانُ عَرَبٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٥٨٥ - ٥٨٦).

يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٢﴾ .

عن قتادة قوله ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية﴾ هو كقوله ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾^(١). وقال ابن زيد في قوله ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر﴾ تأتي بشيء وتنقضه فتأتي بغيره، قال: وهذا التبديل ناسخ، ولا تبدل آية مكان آية إلا بالنسخ.

وقوله تعالى: ﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق﴾. قال محمد بن كعب القرظي ﴿روح القدس﴾ جبرائيل. وقال ابن إسحاق: كان رسول الله ﷺ - فيما بلغني - كثيراً ما يجلس عند المروة إلى غلام نصراني، يقال له: جبر عبد لبعض بني الحضرمي، فأنزل الله ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾.

وقوله تعالى: ﴿إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون﴾.

قال ابن كثير^(٢): يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره، وتغافل عما أنزله على رسول الله ﷺ، ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته، وما أرسل به رسوله في الدنيا ﴿ولهم عذاب أليم﴾ موجه في الآخرة، ثم أخبر تعالى أن رسوله ﷺ ليس بمفتر ولا كذاب، لأنه إنما يفتري الكذب على الله وعلى رسوله شرار الخلق، الذين لا يؤمنون بآيات الله من الكفرة والملحدين، المعروفين بالكذب عند الناس، والرسول محمد ﷺ كان أصدق الناس، وأبرهم، وأكملهم علماً وعملاً، وإيماناً،

(١) سورة البقرة: الآية ٧٥.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٥٨٧).

وإيقاناً، معروفاً بالصدق في قومه، لا يشك في ذلك أحد منهم بحيث لا يُدعى بينهم إلاً بالأمين محمد، لهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها من صفة رسول الله ﷺ، كان فيما قال له: «هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، فقال هرقل: فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله عز وجل»^(١) انتهى.

قوله عز وجل: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ وَأَوْلَتْكَ هُمْ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّكَ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجَدِيلٍ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهِيَ لَا يَظْلُمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ إلى آخر الآية، «وذلك أن المشركين أصابوا عمار بن ياسر فعذبوه ثم تركوه، فرجع إلى رسول الله ﷺ فحدثه بالذي لقي من قريش الذي قال، فأنزل الله تعالى عذره»^(٢). وعن أبي عبيدة ابن محمد بن عمار بن ياسر قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى باراهم في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئناً بالإيمان. قال

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٥٥٣ و ٥٩٨٠ و ٦٢٦٠) من حديث أبي سفيان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن جرير (١٤/١٨١)، بسند ضعيف.

النبي ﷺ: «فإن عادوا فعد»^(١). رواه ابن جرير وفي رواية البيهقي فقال: يا رسول الله ما تركت حتى سببتك وذكرت آلهتهم بخير؛ وفي ذلك أنزل الله ﴿إِلَّا مَنْ أَكَرَهْ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾.

قال ابن كثير^(٢): اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاءً لمهجته، ويجوز له أن يأبى كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك، وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ويأمرونه بالشرك بالله، فيأبى عليهم وهو يقول: أحد أحد، ويقول: والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها، رضي الله عنه وأرضاه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنْ رِبْكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فَتَنَّا﴾، أي: عذبوا ومنعوا من الإسلام ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبِرُوا إِنْ رِبْكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قال البغوي^(٣): نزلت في عياش بن أبي ربيعة، وأبي جندل بن سهيل، والوليد بن الوليد^(٤)، وسلمة بن هشام، وعبد الله بن أبي أسيد الثقفي، فتنهم المشركون فأعطوهم بعض ما أرادوا ليسلموا من شرهم، ثم إنهم هاجروا بعد ذلك وجاهدوا.

قال ابن كثير^(٥): فأخير تعالى أنه ﴿مَنْ بَعْدَهَا﴾، أي: تلك الفعلة، وهي الإجابة إلى الفتنة ﴿لِغَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ لهم ﴿رَحِيمٍ﴾ يوم معادهم ﴿يَوْمَ يَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تَجَادُلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾. والله أعلم.



(١) أخرجه ابن جرير (١٨٢/١٤)، بسند ضعيف.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٥٨٨/٢).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٧٢/٣).

(٤) ابن المغيرة.

(٥) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٥٨٨/٢).

الدرس الخمسون بعد المائة

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٩﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ السِّتْرُكُمُ الْكُذْبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَّنْفَتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١٢١﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٢٢﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٢٣﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٥﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَيْهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢٦﴾ وَمَا تَتْلُو فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَإِنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ لَكِن الصَّالِحِينَ ﴿١٢٧﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَن اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٨﴾ إِنَّمَا جَعَلُ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ ائْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٩﴾ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ

وَالْمَوْعِظَةَ الْحَسَنَةَ وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ
سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ
وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ
عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ
هُمُ أَحْسَنُونَ ﴿١٢٨﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة﴾ يعني مكة ﴿يأتيها رزقها رغداً من كل مكان﴾ .

قال البغوي^(١): من البر والبحر ﴿فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ .

﴿ولقد جاءهم رسول منهم﴾ قال قتادة: أي والله يعرفون نسبه وأمره ﴿فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون﴾ فأخذهم الله بالجوع والخوف والقتل .

قوله عز وجل: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلْالًا طَيِّبًا وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتِكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا سَرَّمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَنَّمَ

(١) المصدر السابق (٣/٧٢) .

تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾ .

عن قتادة قوله ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم﴾ الآية، وأن الإسلام طهره الله من كل سوء، وجعل لك فيه يا ابن آدم سعة إذا اضطرت إلى شيء من ذلك .
قوله: ﴿فمن اضطر غير باغ﴾ في أكله ﴿ولا عاد﴾ أن يتعدى حلالاً إلى حرام وهو يجد عنه مندوحة .

وقوله تعالى: ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب﴾ .

قال ابن كثير^(١): «وما» مصدرية أي ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم ﴿هذا حلال وهذا حرام﴾ قال مجاهد: في البحيرة والسائبة .

قال ابن كثير^(٢): ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، أو حلّل شيئاً مما حرّم الله، أو حرّم شيئاً مما أباح الله بمجرد رأيه وتشهيه .
وعن قتادة قوله: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل﴾ قال: ما قص الله تعالى في سورة الأنعام حيث يقول: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر﴾^(٣) الآية .

وقوله تعالى: ﴿ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا﴾ أي استقاموا على الطاعة ﴿إن ربك من بعدها﴾ أي التوبة ﴿لغفور رحيم﴾ قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل .

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٥﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٦﴾ وَعَايَنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٧﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٥٩٠) .

(٢) المصدر السابق (٢/٥٩٠) .

(٣) سورة الأنعام: الآية ٥٠ .

حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله﴾ قال: كان إمام هدى مطيع تتبع سنته وملته. وعن مسروق قال؛ قرأت عند عبد الله هذه الآية ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله﴾ فقال: كان معاذ أمة قانتاً، قال: هل تدري ما الأمة؟ الأمة: الذي يعلم الناس الخير، والقانت: الذي يطيع الله ورسوله.

وقال ابن جرير^(١) في قوله: ﴿حنيفاً﴾ يقول: مستقيماً على دين الإسلام ﴿ولم يك من المشركين﴾ وقال مجاهد: ﴿كان إبراهيم أمة﴾ أي مؤمناً وحده والناس كلهم إذ ذاك كفار. وعن مجاهد ﴿وآتيناه في الدنيا حسنة﴾ قال: لسان صدق.

وقوله تعالى: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾.

قال البغوي^(٢): وقال أهل الأصول: كان ﷺ مأموراً بشريعة إلا ما نسخ في شريعته، وما لم ينسخ صار شرعاً.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه﴾ قال: كانوا يطلبون يوم الجمعة فأخطؤوه وأخذوا يوم السبت فحق عليهم. وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي عرض عليهم فاختلّفوا فيه، فهدانا الله له، فالتاس لنا فيه تبع: اليهود غداً، والنصارى بعد غد»^(٣).

(١) انظر «جامع البيان» (١٤/١٩١).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/٧٤).

(٣) أخرجه البخاري (ح/٨٧٦)، ومسلم (ح/٨٥٥).

قوله عز وجل: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي صَبَقِ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

عن مجاهد ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ أعرض عن أذاهم إياك.

وقال ابن كثير^(١): يقول تعالى أمراً رسوله محمد ﷺ: أن يدعو الخلق إلى الله ﴿بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ أي بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس، ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى. وقوله ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن، برفق ولين وحسن خطاب، كقوله تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم﴾^(٢) الآية، فأمره تعالى بلين الجانب، كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله: ﴿فقولا له قولاً ليّنّاً لعلّه يتذكّر أو يخشى﴾^(٣).

وعن مجاهد ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولا تعتدوا﴾.

وقال ابن كثير^(٤): وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن، فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل، كما في قوله: ﴿وجزاء سيئة سيئة

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٥٩١).

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٤٦.

(٣) سورة طه: الآية ٤٤.

(٤) المصدر السابق (٢/٥٩٢).

مثلها^(١) ثم قال: ﴿فمن عفى وأصلح فأجره على الله﴾. وقال قتادة: ذكر لنا أن هَرَمَ بن حيان العبدى لما حضره الموت قيل له: أَوْصِ قال: ما أدري ما أوصي، ولكن بيعوا درعي فاقضوا عني ديني، فإن لم يف فبيعوا فرسي، فإن لم تف فبيعوا غلامي، وأوصيكم بخواتيم سورة النحل ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾. ذكر لنا أن نبي الله ﷺ لما نزلت هذه الآية قال: «بل نصبر»^(٢).

وعن الحسن ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ قال: اتقوا الله فيما حرّم عليهم، وأحسنوا فيما افترض عليهم. والله أعلم.



(١) سورة الشورى: الآية ٤٠.

(٢) أخرجه ابن جرير (١٩٩/١٤) بسند ضعيف.

الدرس الحادي والخمسون بعد المائة

﴿سورة الإسراء﴾

مكية ، وآياتها مائة وإحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا لَهُ قَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانُوا عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقَ كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنَّ أَحْسَنَهُ أَحْسَنَتْهُ لِنَفْسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْسُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عُلُوا تَبَرُّرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عَلَيْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ

عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١١﴾ وَيَبْعُ الْإِنْسَانَ بِالْشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا
 أَيْلَةَ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ فَحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن
 رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٣﴾ وَكُلَّ
 إِنْسَانٍ أَلْمَنَهُ طَلَبَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٤﴾ أَقْرَأَ
 كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٥﴾ مَن آهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدَىٰ لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ
 فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نُزِرْ وَأُزِرْ وَزُرْ أَخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٦﴾
 وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٧﴾
 وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٨﴾ مَن
 كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا
 مَدْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٩﴾ وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ
 كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا ﴿٢٠﴾ كَلَّا نُمَدِّ هَتُولَاءَ وَهَتُولَاءَ مِن عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ
 عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢١﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَىٰ بَعْضٍ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ
 وَأَكْبَرُ تَفْصِيلًا ﴿٢٢﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ السَّمَاءِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ آلَا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بالبراق - وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه - فركبته فسار بي حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التي يربط فيها الأنبياء ثم دخلت فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فأتاني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن، فقال جبريل: أصبت الفطرة، قال: ثم عُرج بي إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عُرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا فإذا بابن الخالة يحيى وعيسى فرحبا بي ودعوا لي بخير، ثم عُرج بي إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا فإذا أنا بيوسف عليه السلام، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عُرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب بي ودعا لي بخير، ثم يقول الله تعالى: ﴿ورفعناه مكاناً

عليّاً، ثم عُرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل، فقيل: ومن معك؟ قال: محمد، فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد بُعث إليه، ففُتح لنا فإذا أنا بهارون فرحّب بي ودعا لي بخير، ثم عُرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، فقيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه، ففُتح لنا فإذا أنا بموسى عليه السلام فرحّب بي ودعا لي بخير، ثم عُرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، فقيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه، ففُتح لنا فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، فإذا أوراقها كأذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيّرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من حسنها، قال: فأوحى الله إليّ ما أوحى وفرض عليّ في كل يوم وليلة خمسين صلاة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى قال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة في كل يوم وليلة قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، وإنني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم قال: فرجعت إلى ربي فقلت: أي رب خفف عن أمتي، فحطّ عني خمساً، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فقال: ما فعلت؟ فقلت: قد حطّ عني خمساً، فقال: إن أمتك لا تطيق ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى ويحطّ عني خمساً خمساً، حتى قال: يا محمد هن خمس صلوات في كل يوم وليلة، بكل صلاة عشرة فتلك خمسون صلاة، ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت عشراً، ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب، فإن عملها كتبت سيئة واحدة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فقال رسول الله ﷺ: لقد

رجعت إلى ربي حتى استحييت»^(١). رواه أحمد ومسلم.

وفي رواية البخاري: «فلما خلصت - يعني إلى السماء الدنيا - فإذا فيها آدم عليه السلام، قال: هذا أبوك آدم، فسلم عليه، فسلمت عليه فرد السلام ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح، وفيها: فلما خلصت - يعني إلى السماء الرابعة - فإذا إدريس عليه السلام قال: هذا إدريس قال: فسلمت عليه فرد السلام ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح، وفيها: وقال - يعني إبراهيم - مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح»^(٢).

وفي حديث أبي ذر: «ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جبال اللؤلؤ وإذا ترابها المسك»^(٣). وفي حديث جابر: «لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس، قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه»^(٤). وعند البيهقي عن سعيد بن المسيب: ثم رجع رسول الله ﷺ إلى مكة، فأخبر أنه أسري به، فافتتن أناس كثير كانوا قد صلوا معه، قال أبو سلمة: فقال ناس لأبي بكر: هل لك في صاحبك؟ يزعم أنه جاء إلى بيت المقدس ثم رجع إلى مكة في ليلة واحدة! فقال أبو بكر: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: فأنا أشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أفتصدقه في أن يأتي الشام في ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح؟ قال: نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء. قال أبو سلمة: فيها سمي أبو بكر «الصديق»^(٥).

وقوله تعالى: ﴿وآتينا موسى الكتاب﴾، يعني: التوراة ﴿وجعلناه هدى لبني﴾

(١) أخرجه مسلم (ح/١٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٣٨٨٧) من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (ح/٣٤٩).

(٤) أخرجه البخاري (ح/٣٨٨٦)، ومسلم (ح/١٧٠).

(٥) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/٣٦٠) عن أبي سلمة بن عبد الرحمن مرسلًا.

إسرائيل أن لا تتخذوا من دوني وكيلاً، أي: معبوداً، قال مجاهد: شريكاً.

وقوله تعالى: ﴿ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً﴾.

قال ابن كثير^(١): فيه تهيج وتنبيه على المنبه، أي: يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة، تشبهوا بأبيكم ﴿إنه كان عبداً شكوراً﴾. وقد ورد في الحديث وفي الأثر من السلف: «أن نوحاً عليه السلام كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله فهذا سمي عبداً شكوراً»^(٢).

قوله عز وجل: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ٤ ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ ٥ ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ ٦ ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْسُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَأُ مَا عَلُوا تَنْبِيرًا﴾ ٧ ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ ٨.

عن ابن عباس في قوله: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾ يقول: أعلمناهم. وقال قتادة: قضاه الله على القوم كما تسمعون. وقال ابن عباس: بعث الله عليهم جالوت فجاس خلال ديارهم، وضرب عليهم الخراج والذل، فسألوا الله أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون في سبيل الله، فبعث الله طالوت فقاتلوا جالوت، فنصر الله بني

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٤/٣).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٩/١٥)، والطبراني في الكبير (٣٢/٦) من قول سعيد بن مسعود، وروى نحوه عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قوله. أخرجه ابن جرير (١٩/١٥).

إسرائيل وقُتل جالوت بيدي داود، وأرجع الله إلى بني إسرائيل ملكهم.

وعن مجاهد: ﴿فإذا جاء وعد الآخرة ليسوا وجوهكم﴾ قال: بعث ملك فارس ببابل جيشاً وأمر عليهم بختنصر، فأتوا بني إسرائيل فدمروهم. وعن ابن عباس قال: بعث عيسى ابن مريم يحيى بن زكريا في اثني عشر من الحواريين يعلمون الناس، قال: فكان فيما نهاهم عن نكاح ابنة الأخ، قال: وكانت لملكهم ابنة أخ تعجبه يريد أن يتزوجها، وكانت لها كل يوم حاجة يقضيها، فلما بلغ ذلك أمها قالت لها: إذا دخلت على الملك فسألك حاجتك فقولي: حاجتي أن تذبح لي يحيى بن زكريا، فلما دخلت عليه سألتها حاجتها، فقالت: حاجتي أن تذبح يحيى بن زكريا، فقال: سلي غير هذا، فقالت: ما أسألك إلا هذا، قال: فلما أبت عليه دعا يحيى ودعا بطشت فذبحه، فبدرت قطرة من دمه على الأرض، فلم تزل تغلي حتى بعث الله بختنصر عليهم، فجاءته عجوز من بني إسرائيل فدلته على ذلك الدم، قال: فألقى الله في نفسه أن يقتل على ذلك الدم منهم حتى يسكن، فقتل سبعين ألفاً منهم من سنٍّ واحد فسكن.

وعن قتادة: ﴿وليتبروا ما علو تتبيرا﴾ قال: يدمروا ما علوا تدميراً، قال: هو بختنصر أبغض خلق الله إليه، فسبى، وقتل، وخرّب بيت المقدس وسامهم سوء العذاب. وعن ابن عباس قال: قال الله تبارك وتعالى بعد الأولى والآخرة: ﴿عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا﴾ قال: فعادوا فسلب الله عليهم المؤمنين.

وعن قتادة: ﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾ قال: مجلساً حصوراً. وقال ابن عباس: سجناً.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١١﴾ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالسَّيْرِ دُعَاءَهُ بِالْحَنِيءِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ مَجْزُولًا ﴿١٢﴾﴾

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحُونًا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ .

قال ابن زيد: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ قال: للتي هي أصوب، هو الصواب، وهو الحق. وعن قتادة: ﴿ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً﴾ قال: يدعو على نفسه بما لو استجيب له هلك، أو على خادمه أو على ماله. وعن رفيع بن أبي كثير قال: قال عليّ رضوان الله عليه: سلوا عما شئتم، فقام ابن الكواء فقال: ما السواد الذي في القمر؟ فقال: قاتلك الله هلاً سألت عن أمر دينك وآخرتك؟ قال: ذلك محو الليل.

وعن قتادة قوله: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾، أي: منيرة، وخلق الشمس أنور من القمر وأعظم ﴿لتبتغوا فضلاً من ربكم﴾ قال: جعل سبحانه طويلاً: ﴿ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً﴾، أي: بيّناه تبييناً.

قوله عز وجل: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأَ كِتَابِكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَن أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَاِزْدَرٌ وَزَرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿وكل إنسان أَلزَمْنَاهُ طائرته في عنقه﴾ قال: عمله وما قدّر عليه فهو ملازمه أينما كان، فزائل معه أينما زال ﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً

يلقاه منشوراً ﴿ قال: هو عمله الذي عمل أحصي عليه، فأخرج له يوم القيامة ما كتب عليه من العمل.

﴿يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ قال قتادة: قد عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك، سيقراً يومئذ من لم يكن قارئاً في الدنيا. وعن أبي هريرة قال: «إذا كان يوم القيامة جمع الله تبارك وتعالى نسمة الذين ماتوا في الفترة، والمعته والأصم والأبكم، والشيوخ الذين جاء الإسلام وقد خرفوا، ثم أرسل رسولاً أن: ادخلوا النار، فيقولون: كيف ولم يأتنا رسول؟ وأيم الله لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً، ثم يرسل إليهم فيطيعه من كان يريد أن يطيعه قبل، قال أبو هريرة اقرؤوا إن شئتم ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾. قال ابن عباس: ﴿أمرنا مترفيها﴾ قال: بطاعة الله فعصوا. وعن قتادة قوله: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مت فيها ففسقوا فيها فحق عليها القول﴾ يقول: أكثر ناس فيها أي جابرتها ﴿فسقوا فيها﴾ عملوا بمعصية الله ﴿فدمرناها تدميراً﴾ وكان يقال: إذا أراد الله بقوم صلاحاً بعث عليهم مصلحاً، وإذا أراد فساداً بعث عليهم مفسداً، وإذا أراد أن يهلكها أكثر مترفيها.

وقوله تعالى: ﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح﴾ أي: كعاد وشمود وغيرهم ممن عصى الله وكذب رسله ﴿وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً﴾.

(١) أخرجه ابن جرير (٥٤/١٥)، عن أبي هريرة موقوفاً، وفي سنده ضعف. لكن صح الحديث عنه مرفوعاً بنحوه: أخرجه إسحاق بن راهويه (١٢٣/١)، وأحمد (٢٤/٤)، ومن طريقه الضياء في «المختارة» (٥٥/٤) والبيهقي في الاعتقاد (ص ١٣٥)، وهو حديث صحيح. وروي نحوه - أيضاً - عن الأسود بن سريع، وأبي سعيد الخدري، ومعاذ، وأنس رضي الله عنهم.

قوله عز وجل: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كَلَّا نُمَدِّهُتُوْلَاءَ وَهَتُوْلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ۗ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد﴾ يقول: من كان الدنيا همه وطلبه ونيته، عجل الله له فيها ما يشاء ثم اضطره إلى جهنم، قال: ﴿ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً﴾، ﴿مذموماً﴾ في نعمة الله ﴿مدحوراً﴾ في نقمة الله.

﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾ شكر الله لهم حسناتهم وتجاوز عن سيئاتهم، ﴿كلاً نمدد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً﴾، أي: منقوصاً، وإن الله عز وجل قسم الدنيا بين البر والفاجر، والآخرة خصوصاً عند ربك للمتقين. وقال ابن جريج: ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ قال: ممنوعاً.

وقوله تعالى: ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾، أي: في الدنيا ﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾. والله أعلم.



الدرس الثاني والخمسون بعد المائة

﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعَدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿ زُيِّنَ لَكُمْ أَعْلَامُ مَا فِي نَفْسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿ وَآتَاكَ مَا لَمْ تُحِسُّ بِحَقِّهِ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَلَا تُبْذِرْ بِنْدِيبٍ ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبْدِينِ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿ وَإِمَّا تَعْرِضْ عَنْهُمْ ذَرَاهُ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعَدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خِطَاً كَبِيرًا ﴾ ﴿٣١﴾ ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِتْمًا كَانَ فَنَجْشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولًا ﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطِ السِّتْقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ

مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُمْ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَنكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثَاءً إِنَّكُمْ لنتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَآبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾^(٢٢)
 ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ
 أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا نَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾^(٢٣)
 ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾^(٢٤)
 ﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّلِينَ
 غَفُورًا﴾^(٢٥).

عن قتادة قوله: ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعذ مذموماً مخذولاً﴾، يقول:
 ﴿مذموماً﴾ في نعمة الله، وهذا الكلام وإن كان خرج على وجه الخطاب
 للنبي ﷺ، فهو معني به جميع من لزمه من عباد الله جل وعز.

وعن ابن عباس ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه﴾ يقول: أمر. وقال
 مجاهد: وأوصى ربك ﴿أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك
 الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف﴾، حين ترى الأذى، وتميط عنهما
 الخلاء والبول، كما كانا يميطان عنك صغيراً ولا تؤذهما. وعن عطاء بن أبي رباح
 في قوله: ﴿ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما﴾ قال: لا تنفض يدك على والديك
 ﴿وقل لهما قولاً كريماً﴾. قال ابن جريج: أحسن ما تجد من القول ﴿واخفض
 لهما جناح الذل من الرحمة﴾. قال عروة بن الزبير: هو أن تلين لهما حتى لا تمتنع
 من شيء أحباه. وعن قتادة ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقول رب
 ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾ هكذا علمتم وبهذا أمرتم، خذوا تعليم الله وأدبه.

وعن سعيد بن جبير ﴿ربكم أعلم بما في نفوسكم﴾. قال: البادرة تكون من

الرجل إلى أبويه، لا يريد بذلك إلا الخير فإنه لا يؤاخذ به، فقال: ﴿ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا﴾. وقال سعيد بن المسيب: الأواب الذي يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب. وقال سعيد بن جبير وغيره: هم الراجعون إلى الخير.

قوله عز وجل: ﴿وَمَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تَعْرِضْنَ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ قال: هو أن تصل ذا القرابة والمسكين وتحسن إلى ابن السبيل ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾. قال: المبذّر المنفق في غير حق. وقال ابن زيد في قوله: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ﴾ إن المنفقين في معاصي الله ﴿كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾.

وعن إبراهيم ﴿وَإِمَّا تَعْرِضْنَ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ قال: انتظار الرزق ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ قال: ليتأتوهم.

وعن الحسن في قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ قال: لا تجعلها مغلولة عن النفقة ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا﴾ تبذّر بسرف ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ قال ابن عباس: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ يقول: يلوم نفسه على ما فات من ماله ﴿مَّحْسُورًا﴾، يعني ذهب ماله كله فهو محسور. وقال قتادة: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ في عباد الله ﴿مَّحْسُورًا﴾ يقول: نادماً على ما فرط منك.

وقال ابن زيد: ثم أخبرنا تبارك وتعالى كيف يصنع فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ

الرزق لمن يشاء ويقدر ﴿ قال: ﴿يقدر﴾ يقل، وكل شيء في القرآن يقدر كذلك، ثم أخبر عباده أنه لا يرزوه ولا يؤوده أن لو بسط عليهم، ولكن نظراً لهم منه فقال: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير﴾ .

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق﴾، أي: خشية الفاقة، وقد كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الفاقة، فوعظهم الله في ذلك، وأخبرهم أن رزقهم ورزق أولادهم على الله فقال: ﴿نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأ كبيراً﴾ قال ابن جرير: أي إثماً وخطيئة.

وقوله تعالى: ﴿ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾ .

قال ابن جرير^(١): يقول تعالى ذكره وقضى أيضاً أن ﴿لا تقربوا﴾ أيها الناس ﴿الزنا إنه كان فاحشة﴾، يقول: إن الزنا كان فاحشة ﴿وساء سبيلاً﴾، يقول: وساء طريق الزنا طريقاً، لأنه طريق أهل معصية الله والمخالفين أمره، فأسوأ به طريقاً يورد صاحبه إلى جهنم.

وعن قتادة قوله: ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾، وإنا والله ما نعلم يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: إلا رجلاً قتل متعمداً فعليه القود، أو زنى بعد إحصائه فعليه الرجم، أو كفر بعد إسلامه فعليه القتل. ﴿ومن قتل

(١) انظر «جامع البيان» (٨٠/١٥).

مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً ﴿٣٤﴾. قال ابن عباس: بيّنة من الله عز وجل أنزلها يطلبها وليّ المقتول: العقل والقود، وذلك السلطان.

وعن قتادة ﴿فلا يسرف في القتل﴾ قال: لا يقتل غير قاتله، من قتل بحديدة قتل بحديدة، ومن قتل بخشبة قتل بخشبة، ومن قتل بحجر قتل بحجر. وعن طلق بن حبيب في قوله: ﴿فلا يسرف في القتل﴾ قال: لا يقتل غير قاتله ولا يمثل.

قال ابن كثير^(١): وقوله: ﴿إنه كان منصوراً﴾، أي: أن الوليّ منصور على القاتل شرعاً وغالباً وقديراً.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٥﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٧﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٨﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٩﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُنْقَلَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

قال الضحاك في قوله: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾ يتغى له فيه ولا يأخذ من ربحه شيئاً. وعن الحسن ﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾ قال: القَبَان^(٢). قال في القاموس^(٣): القبان كشداد، القسطاس والأمين، وقال أيضاً: وقفان كل شيء جماعته واستقصاء عمله، والقَبَان والأمين.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٩).

(٢) في (الأصل): «القفان»، والمثبت من تفسير ابن جرير.

(٣) انظر «القاموس المحيط» (٤/٣٦٤ — ٣٦٩).

وقوله تعالى: ﴿ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ قال قتادة: أي خير ثواباً وعاقبة. وأخبرنا أن ابن عباس كان يقول: يا معشر الموالي إنكم ولّيتم أمرين بهما هلك الناس قبلكم: هذا المكيال، وهذا الميزان، قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه، ليس به إلا مخافة الله، إلا أبدله في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك»^(١). وعن قتادة: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾ لا تقل: رأيت ولم تر وسمعت ولم تسمع، فإن الله تبارك وتعالى سائلك عن ذلك كله. وقال مجاهد: لا ترم أحداً بما ليس لك به علم. قال القتيبي: لا تتبعه بالحدس والظن.

وقوله تعالى: ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾، أي بطراً وكبراً، فإن ذلك لا يبلغ بك الجبال ولا تخرق الأرض بكبرك وفخرك.

وقوله تعالى: ﴿كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً﴾.

قال البغوي^(٢): ومعناه كل الذي ذكرناه في قوله: ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه﴾ ﴿كان سيئه﴾، أي: سييء ما عددنا عليك ﴿عند ربك مكروهاً﴾ لأن فيما عددنا أموراً حسنة، كقوله: ﴿وأت ذا القربى حقه﴾ ﴿واخفض لهما جناح الذل﴾، وغير ذلك.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾ قال: القرآن.

قال البغوي^(٣): وكل ما أمر الله به أو نهى عنه فهو حكمة. ﴿ولا تجعل مع

(١) أخرجه ابن جرير (٨٥/١٥) بسند ضعيف.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٩٥/٣).

(٣) المصدر السابق (٩٥/٣).

الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً. قال ابن عباس: مطروداً. وقال قتادة: ﴿ملوماً﴾ في عبادة الله ﴿مدحوراً﴾ في النار.

قال البغوي^(١): خاطب النبي ﷺ في هذه الآيات، والمراد منه الأمة.

قوله عز وجل: ﴿أَفَأَصْفَكَ رِثِيكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَقَائِلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ (٤٠) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (٤١) ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ (٤٢) ﴿سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (٤٣) ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٤٤).

قال البغوي^(٢): قوله عز وجل: ﴿أَأَصْفَاكُمْ رَبِّكُمْ﴾، أي: اختاركم فجعل لكم الصفة ولنفسه ما ليس بصفة، يعني اختاركم بالبنين ﴿واتخذ من الملائكة إنثاً﴾ لأنهم كانوا يقولون: الملائكة بنات الله ﴿إنكم لتقولون قولاً عظيماً﴾ يخطب مشركي مكة. ﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن﴾، يعني العبر والحكم والأمثال، والأحكام والحجج والأعلام ﴿ليذكروا﴾، أي: ليتذكروا ويتعظوا ﴿وما يزيدهم﴾ تصريفنا وتذكيرنا وتكريرنا ﴿إلا نفوراً﴾ ذهاباً وتباعداً عن الحق. ﴿قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا﴾، يعني الآلهة ﴿إلى ذي العرش سبيلاً﴾ بالمغالبة والقهر ليزيلوا ملكه، كفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض.

ثم نزهة نفسه فقال عز من قائل: ﴿سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهم وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾.

(١) المصدر السابق (٩٦/٣).

(٢) المصدر السابق (٩٦/٣).

قال ابن كثير^(١): وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات. وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنته فقال: إني قاصّ عليكما الوصية: آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين: أنهاكما عن الشرك بالله والكبر، وأمركما «بلا إله إلا الله»، فإن السموات والأرض وما فيهما لو وضعت في كفة الميزان ووضعت «لا إله إلا الله» في الكفة الأخرى، كانت أرجح، ولو أن السموات والأرض كانتا حلقة فوضعت «لا إله إلا الله» عليهما لقصمتهما أو لقصمتهما، وأمركما بسبحان الله ويحمده فإنهما صلاة كل شيء وبها يزرق كل شيء»^(٢). رواه أحمد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾. قال قتادة: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا﴾ عن خلقه فلا يعجل كعجلة بعضهم على بعض ﴿غَفُورًا﴾ لهم إذا تابوا. وبالله التوفيق.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤١/٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٥/٢) بسند صحيح.

الدرس الثالث والخمسون بعد المائة

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٤٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا آءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفْنَا أَمْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴿٥٠﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥١﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْخِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥٢﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَنْتَوْنُ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٣﴾ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٥٤﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٥﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٦﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَيْكَ رِيحَهُمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٨﴾ وَإِنْ مِنْ قَرِيبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ أَلْقِيَاكُمْ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ

مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَإِنَّا لَمُودِّ
الْتَّاقَةَ مُبْصِرَةٌ فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ
أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرِّءْيَا آلَهِ أَرْسِيَّتَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي
الْقُرْآنِ وَنُحُوفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٤٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ .

عن قتادة قوله ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ الحجاب المستور أكنة على قلوبهم أن يفقهوه، وأن ينتفعوا به، أطاعوا الشيطان فاستحوذ عليهم. ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ وأن المسلمين لما قالوا: لا إله إلا الله أنكر ذلك المشركون وضاق بها إبليس وجنوده، فأبى الله إلا أن يُمضِيهَا، وينصرها، ويفلجها، ويظهرها على من ناوأها، إنها كلمة من خاصم بها فلج، ومن قاتل بها نصر، إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة من المسلمين التي يقطعها الراكب في ليال قلائل، ويسير الدهر في فنام من الناس لا يعرفونها ولا يقرّون بها.

وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ قال قتادة: ونجواهم أن زعموا أنه مجنون وأنه ساحر، وقالوا: أساطير الأولين. وعن مجاهد ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ مخرجاً، الوليد بن المغيرة وأصحابه.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا أَوَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرُفْنَا أَوَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْتُمُونَ فِي صُدُورِهِمْ

فَسَيَقُولُونَ مِنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ .

عن مجاهد ﴿قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم﴾
قال: ما شئتم فكونوا فسيعيدكم الله ما كنتم.

وعن قتادة ﴿فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة﴾، أي: خلقكم
﴿فسينغضون إليك رؤوسهم﴾ يقول: فإنك إذا قلت لهم ذلك فسيهزّون إليك
رؤوسهم برفع وخفض. وقال ابن عباس: يحرّكون رؤوسهم يستهزّون ﴿ويقولون
متى هو قل عسى أن يكون قريباً يوم يدعوكم﴾ من قبوركم ﴿فتستجيبون بحمده﴾
قال ابن عباس: بأمره.

وقال ابن كثير^(١): أي وله الحمد على كل حال. وعن قتادة ﴿وتظنون إن
لبئتم إلا قليلاً﴾، أي: في الدنيا في أنفسهم، وقلت: حين عاينوا يوم القيامة.

قوله عز وجل: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ
بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يُرْحَمَكُمُ أَوْ
إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبِكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ .

عن الحسن في هذه الآية ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن﴾ قال ﴿التي
هي أحسن﴾ لا يقول له مثل قوله، يقول له: يرحمك الله يغفر الله لك. ﴿إن
الشیطان ينزع بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً﴾. في الصحيحين عن

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٥/٣).

أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزع في يده، فيقع في حفرة من النار»^(١). وعن ابن جريج قوله: ﴿ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم﴾ قال: فتؤمنوا ﴿أو إن يشاء يعذبكم﴾ فتموتوا على الشرك كما أنتم. انتهى. وقد قال تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾. وعن قتادة قوله: ﴿وربك أعلم بمن في السموات والأرض ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾ اتخذ الله إبراهيم خليلاً، وكلم الله موسى تكليماً، وجعل الله عيسى كمثل آدم، خلقه من تراب، ثم قال له: كن فيكون، وهو عبد الله ورسوله وكلمة الله وروحه، وأتى سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وأتى داود زبوراً، كنا نحدث دعاء علمه داود: تحميد وتمجيد ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود، وغفر لمحمد ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

قوله عز وجل: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفِ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾^(٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾^(٥٧).

عن ابن عباس قوله: ﴿قل ادعوا الذين زعتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً﴾ قال: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة وعزيراً، وهم ﴿الذين يدعون﴾ يعني الملائكة والمسيح وعزيراً ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾ قال مجاهد: عيسى ابن مريم وعزير والملائكة. وقال ابن عباس ﴿الوسيلة﴾ القرية. وقال قتادة: القرية والزلفى. قال الزجاج ﴿أيهم أقرب﴾ يبتغي الوسيلة إلى الله تعالى ويتقرب إليه بالعمل الصالح. قال ابن مسعود:

(١) أخرجه البخاري (ح/٧٠٧٢)، ومسلم (ح/٢٦١٧)، والمراد بقوله: «ينزع في يده» أي: يرمي في يده، فيصيب رميته ولا يخطأها.

«نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن، فأسلم الجنيون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم»^(١).

وقال ابن كثير^(٢): يقول تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله ﴿ادعوا الذين زعمتم من دونه﴾ من الأصنام والأنداد، فارغبوا إليهم ﴿فإنهم لا يملكون كشف الضر عنكم﴾، أي: بالكلية ﴿ولا تحويلاً﴾ بأن يحولوه إلى غيركم، والمعنى أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر.

وقال ابن جرير^(٣): يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين يدعوهم هؤلاء المشركون أرباباً ﴿يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾ يقول: يبتغي المدعون أرباباً إلى ربهم القربة والزلفة، لأنهم أهل إيمان به، والمشركون بالله يعبدونهم من دون الله، أيهم أقرب إليه بصالح أعماله واجتهاده في عبادته أقرب عنده زلفة ﴿ويرجون﴾ بأفعالهم تلك ﴿رحمته﴾ ﴿ويخافون﴾ بخلافهم أمره ﴿عذابه﴾ ﴿إن عذاب ربك﴾ يا محمد ﴿كان محذوراً﴾ متقى.

قوله عز وجل: ﴿وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيمة أو معدبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾ ﴿وإننا نعوذ الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرزق إلا أن نرسلك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرءان ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾ ﴿٦٠﴾.

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٧١٤ و ٤٧١٥)، ومسلم (ح/٣٠٣٠).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٦/٣).

(٣) انظر «جامع البيان» (١٠٤/١٥).

عن مجاهد في قول الله عز وجل ﴿وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة﴾ فمبيدوها ﴿أو معذبوها﴾ بالقتل والبلاء، قال: كل قرية في الأرض سيصيبها بعض هذا.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾ قال: في أم الكتاب.

قال ابن كثير^(١): في اللوح المحفوظ. قال: وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، كما قال تعالى عن الأمم الماضين ﴿وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم﴾. وعن ابن عباس قال: «سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحّي عنهم الجبال فيزرعوا فقبل له: إن شئت أن نستأني بهم لعلنا نجتبي منهم، وإن شئت أن نؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلك من قبلهم، فقال: بل تستأني بهم، فأنزل الله ﴿وما معنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة﴾^(٢) قال قتادة: أي بيّنة ﴿فظلموا بها﴾.

قال ابن جرير^(٣): وذلك أنهم قتلوها وعقروها.

وعن قتادة قوله ﴿وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾ وإن الله تخوف الناس بما شاء من آية لعلهم يعتبرون أو يذكرون أو يرجعون. ذكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود فقال: يا أيها الناس إن ربكم يستعقبكم فأعتبوه.

وقوله تعالى: ﴿وإذا قلنا لك إن ربك أحاط بالناس﴾ قال مجاهد: فهم في قبضته. وقال قتادة: أي منعك من الناس حتى تبلغ رسالة ربك.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٧/٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٨/١) والنسائي في الكبرى (٣٨٠/٦)، وابن جرير (١٠٨/١٥)، والحاكم (٣٦٢/٢) وصححه ووافقه الذهبي، وهو صحيح.

(٣) انظر «جامع البيان» (١٠٩/١٥).

وعن ابن عباس ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ قال: هي رؤيا أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به ﴿والشجرة الملعونة في القرآن﴾ شجرة الزقوم. وعن الحسن في قوله: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ قال: قال كفار أهل مكة: أليس من كذب ابن أبي كبشة أنه يزعم أنه سار مسيرة شهرين في ليلة؟ وعن قتادة قوله: ﴿والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾ وهي شجرة الزقوم خوفاً من الله بها عباده، فافتنوا بذلك حتى قال قائلهم، أبو جهل بن هشام: زعم صاحبكم هذا أن في النار شجرة، والنار تأكل الشجر، وإنا والله ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد فترقموا، فأنزل الله تبارك وتعالى حين عجبوا أن يكون في النار شجرة ﴿إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعتها كأنه رؤوس الشياطين﴾ إني خلقتها من النار، وعذب بها من شئت من عبادي. وبالله التوفيق.



الدرس الرابع والخمسون بعد المائة

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ مَا أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَأَسْتَفْرِزُ مِنْ أَسْطَظَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكَيْلًا ﴿٦٥﴾ رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَلَغْنَا إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وَكَيْلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا يُجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧١﴾ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أُوْقِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٢﴾ وَمَنْ كَانَ فِي هُدًى أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٣﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَةً وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ

خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا
لَأَذْفَنَّاكَ لِيُضَعِفَ الْحَيَاةَ وَضَعِفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِنْ
كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقْرِ
الصَّلَاةَ لِلدُّلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ
مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا
مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ
سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنَزَلَ
مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا
أَنفَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَىٰ
شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ
عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُلْ لَئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لَا
يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ مَا أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزَزَ مِنِّي اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمُ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعُدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ .

عن مجاهد في قول الله تعالى: ﴿لأحتنكن ذريته إلا قليلاً﴾ قال: لأحتويتهم ﴿قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً﴾ قال: وافراً. وقال قتادة: عذاب جهنم جزاؤهم، ونقمة من الله من أعدائه فلا يعدل عنهم من عذابها شيء.

وعن مجاهد ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك﴾ قال باللغو والغناء. وقال ابن عباس: صوته كل داع دعا إلى معصية الله. ﴿وأجلب عليهم بخيلك ورجلك﴾ قال: خيله كل راكب في معصية الله، ورجله كل راجل في معصية الله. وقال قتادة: إن له خيلاً ورجلاً من الجن والإنس، وهم الذين يطيعونه.

وقال ابن جرير^(١): ﴿واستفزز﴾ واستخف واستجهل، والجلبة الصوت.

وعن قتادة في قوله: ﴿وشاركهم في الأموال والأولاد﴾ قال: قد والله شاركهم في أموالهم، وأعطاهم الله أموالاً فأنفقوها في طاعة الشيطان، في غير حق

(١) انظر «جامع البيان» (١١٨/٦٥).

الله تبارك اسمه. وقال الحسن: ﴿شاركهم في الأموال﴾: أمرهم أن يكسبوها من خبيث وينفقوها في حرام. وقال ابن عباس: مشاركته إياهم في الأولاد: سموا عبد الحارث، وعبد شمس، وعبد فلان. وقال الحسن: قد والله شاركهم في أموالهم وأولادهم، فمَجَسُوا، وهَوَدُوا، ونَصَرُوا وصَبَغُوا، غير صبغة الإسلام، وجزؤوا من أموالهم جزءاً للشيطان.

وقال ابن جرير^(١): كل ولد ولدته أنثى عصى الله في تسميته ما يكرهه الله، أو يادخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله، أو بالزنا بأمه، أو وأده، أو غير ذلك من الأمور التي يعصى الله بفعله به أو فيه، فقد دخل في مشاركة إبليس فيه.

وعن قتادة قوله: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلًا﴾ وعباده المؤمنون؛ وقال الله في آية أخرى: ﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾^(٢) وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً»^(٣).

قوله عز وجل: ﴿رَبِّكُمْ الَّذِي نُزِّيَ لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُمْ كَانَتْ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿١٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ فَلَمَّا بَجَّكَرُوا إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿١٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وُكَيْلًا ﴿١٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا

(١) المصدر السابق (١٥/١٢١).

(٢) سورة النحل: الآية ١٠٠.

(٣) أخرجه البخاري (ح/١٤١ و ٣٢٧١)، ومسلم (ح/١٤٣٤) من حديث ابن عباس رضي الله

عنهما.

تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ * وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أُوْقِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ آعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ آعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله﴾ يقول: يُجْري الفلك .

وقوله تعالى: ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه﴾ .

قال البغوي^(١): أي بطل وسقط من تدعون من الآلهة ﴿إلا إياه﴾ فلم تجدوا معيناً سواه ﴿فلما نجاكم﴾ أجاب دعاءكم وأنجاكم من هول البحر، وأخرجكم ﴿إلى البر أعرضتم﴾ عن الإيمان والإخلاص والطاعة، كفرأ منكم لنعمه ﴿وكان الإنسان كفوراً﴾ .

وعن قتادة قوله: ﴿أفأمتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً﴾ يقول: حجارة من السماء ﴿ثم لا تجدوا لكم وكيلاً﴾ أي منعة، ولا ناصرأ . ﴿أم أمتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى﴾ أي في البحر مرة أخرى ﴿فيرسل عليكم قاصفاً من الريح﴾ وهي التي تقصف ما مرت به فتحطمه ﴿فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا﴾ يقول: لا يتبعنا أحد بشيء من ذلك . وعن مجاهد ﴿ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا﴾ قال: نصيراً ثائراً .

وقوله تعالى: ﴿ولقد كرّمنا بني آدم﴾ أي بالعقل وحسن الصورة ﴿وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات﴾ في المآكل والملابس والمشارب

(١) انظر «معالم التنزيل» (١٠٢/٣) .

﴿وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ قال ابن جريج: وفضلناهم في اليدين، يأكل بهما ويعمل بهما، وما سوى الإنس يأكل بغير ذلك؟

وقوله تعالى: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾ قال مجاهد: نبئهم. قال بعض السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث، لأن إمامهم النبي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم ولا يظلمون فتيلاً﴾. قال قتادة: الذي في شق النواة.

وقوله تعالى: ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً﴾ قال قتادة: ﴿ومن كان في هذه أعمى﴾ في الدنيا فيما أراه الله من آياته، من خلق السموات والأرض والجبال والنجوم ﴿فهو في الآخرة﴾ الغائبة التي لم يرها ﴿أعمى وأضل سبيلاً﴾، وقال بعض السلف: من كان في هذه الدنيا أعمى عن الاعتبار، فهو في الآخرة أعمى عن الاعتذار.

قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرٌ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ حَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

قال قتادة: أطافوا به ليلة فقالوا: أنت سيدنا وابن سيدنا، فأرادوه على بعض ما يريدون، فهم أن يقارفهم في بعض ما يريدون، ثم عصمه الله، فذلك قوله: ﴿لقد كدت تركن إليهم﴾. وقال مجاهد قالوا له: ائت آلهتنا فامسسها.

وعن ابن عباس قوله: ﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ يعني ضعف عذاب الدنيا والآخرة.

قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ

مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةً مِّن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رَّسُلِنَا وَلَا تَحِدْ لِسُنَّتِنَا مَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ أَيْلٍ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ أَيْلٍ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿وإن كادوا ليسنفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذن لا يلبثون خلافك إلا قليلاً﴾ وقد هم أهل مكة بإخراج النبي ﷺ من مكة، ولو فعلوا ذلك لما توطنوا، ولكن الله كفهم عن إخراجه حتى أمره، ولقلما مع ذلك لبثوا بعد خروج النبي ﷺ من مكة حتى بعث الله عليهم القتل يوم بدر.

وقوله تعالى: ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ قال ابن عباس: دلوك الشمس: زيغها بعد نصف النهار، يعني الظل، وغسق الليل: بدو الليل ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ قال ابن عباس: دلوك الشمس: زيغها بعد نصف النهار، يعني الظل، وغسق الليل: بدو الليل ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ يعني صلاة الصبح.

قال البغوي^(١): فدلوك الشمس يتناول صلاة الظهر والعصر، و﴿غسق الليل﴾ يتناول المغرب والعشاء، و﴿قرآن الفجر﴾ هو صلاة الصبح انتهى. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون، درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/١٠٦).

الفجر». يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾^(١).

وعن ابن عباس قوله: ﴿من الليل فتهجد به نافلة لك﴾ يعني بالنافلة أنها للنبي ﷺ خاصة، أمر بقيام الليل، وكتب عليه ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ قال: المقام المحمود مقام الشفاعة.

وقال ابن جرير^(٢): قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذي يقوم محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم.

وعن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ بمكة، ثم أمر بالهجرة، فأنزل الله تبارك وتعالى اسمه ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾^(٣). قال قتادة: وإن نبي الله علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً، لكتاب الله عز وجل، ولحدود وفرائض الله، وإقامة دين الله، وإن السلطان رحمة من الله جعلها بيد عباده، لولا ذلك لأغار بعضهم على بعض، فأكل شديدهم ضعيفهم ﴿وقل جاء الحق﴾ قال: القرآن ﴿وزهو الباطل﴾ قال: الشيطان ﴿إن الباطل كان زهوقاً﴾ وعن ابن مسعود قال: «دخل رسول الله مكة وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنها ويقول: جاء الحق وزهو الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾^(٤). متفق عليه.

وعن قتادة قوله: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ إذا

(١) أخرجه البخاري (ح/٦٤٨)، ومسلم (١/٤٥٠).

(٢) انظر «جامع البيان» (١٥/١٤٥).

(٣) أخرجه أحمد (١/٢٢٣)، والترمذي (ح/٣١٣٩)، وقال: «حسن صحيح»، وابن جرير (١٥/١٤٨ - ١٤٩)، والطبراني في الكبير (١٢/١٠٩)، وفي سننه ضعف.

(٤) أخرجه البخاري (ح/٢٤٧٨ و ٤٧٢٠)، ومسلم (ح/١٧٨١).

سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾ إنه لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه، وإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن سَأَلْتَنَا لَنَدَّهْبَنَ بِالَّذِي أُوْحِينَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُكَ بِهِ عَالِمًا وَكَيْلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنْ فَضَلْتَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُلْ لَئِن أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾.

عن مجاهد قوله ﴿ونأى بجانبه﴾ قال: تباعد منا ﴿إذا مسه الشر كان يؤوساً﴾ قال قتادة يقول: إذا مسه الشر يشس وقلظ. ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾ يقول: على ناحيته ونيتيه. وقال ابن زيد: على دينه.

قال ابن كثير^(١): وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى.

﴿فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾ منا ومنكم، وسيجزى كل عامل بعمله. وعن ابن عباس قال: قالت قريش ليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل فقالوا: سلوه عن الروح، فنزلت ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ قالوا: أوتينا علماً كثيراً أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً، قال: وأنزل الله ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾^(٢). رواه أحمد.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٦٠/٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٥/١)، والترمذي (ح/٣١٤٠)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٩٢)، =

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: «بينما أنا أمشي مع النبي ﷺ في حرت بالمدينة وهو متوكئ على عسيب، إذ مرّ اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فسألوه فأمسك النبي ﷺ فلم يردّ عليهم شيئاً، فعلمت أنه يوحى إليه فقمتم مقامي، فلما نزل الوحي قال: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ الآية»^(١).

قال ابن كثير^(٢): وهذا البيان يقتضي فيما يظهر بادي الرأي أن هذه الآية مدنية، وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة كلها مكية، وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك، أو أنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه، وهي هذه الآية.

وعن ابن عباس في قوله ﴿ويسألونك عن الروح﴾ الآية، وذلك «أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: أخبرنا عن الروح، وكيف تعذب الروح التي في الجسد؟ وإنما الروح من الله؛ ولم يكن نزل عليه شيء فلم يُحرز إليهم شيئاً، فأتاه جبريل فقال له: ﴿قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ فأخبرهم النبي ﷺ بذلك فقالوا: من جاءك بهذا؟ قال: جاءني به جبريل من عند الله، فقالوا: والله ما قاله لك إلا عدوّنا، فأنزل الله ﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصداقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين﴾»^(٣).

= والحاكم (٥٣١/٢)، وصححه ووافقه الذهبي، قلت: وهو صحيح، والآية في سورة الكهف: الآية ١٠٩.

(١) أخرجه البخاري (ح/١٢٥ و ٤٧٢١)، ومسلم (ح/٧٩٤).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٦٠/٣).

(٣) سورة البقرة: الآية ٩٧، والحديث أخرجه ابن جرير (١٥٦/١٥)، وابن مردويه كما عناه له السيوطي في «الدر» (٣٦١/٤)، بسندٍ ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً إلاّ رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيراً﴾ قال ابن مسعود: «أقرأوا القرآن قبل أن يرفع، فإنه لا تقوم الساعة حتى يرفع، يسري عليه ليلاً فيرفع ما في صدورهم فيصبحون لا يحفظون شيئاً، ولا يجدون في المصاحف شيئاً، ثم يفيضون في الشعر»^(١). وعن عبد الله بن عمرو قال: «لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل، له دويّ حول العرش كدويّ النحل، فيقول الرب: مالك؟ وهو أعلم فيقول: يا رب أتتلى ولا يُعْمَلُ بي»^(٢).

وعن ابن جريج قوله: ﴿لئن اجتمعت الإنس والجن﴾ إلى قوله: ﴿ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ قال: معيناً. قال يقول: لو برزت الجن وأعانهم الإنس فتظاهروا، لم يأتوا بمثل هذا القرآن.

قال البغوي^(٣): نزلت حين قال الكفار: ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ فكذبهم الله تعالى، فالقرآن معجز في النظم والتأليف والإخبار عن الغيوب، وهو كلام في أعلى طبقات البلاغة لا يشبه كلام الخلق.

قال ابن كثير^(٤): وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا نظير له ولا مثيل له ولا عدل له؟ والله أعلم.



(١) أخرجه سعيد بن منصور (٣٣٥/٢)، وابن أبي شيبة (٥٣٤/١٠) و(١٠٢/١٤)، وابن جرير (١٥٨/١٥)، والحاكم (٥٠٤/٤)، والبيهقي في «الشعب» (٥٨٧/٤) عن ابن مسعود قوله، وهو صحيح.

(٢) عزاه السيوطي في «الدر» (٣٦٤/٤) إلى ابن نصر المروزي في «الصلاة» ولم أقف عليه عنده.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (١١٢/٣).

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٦٢/٣).

الدرس الخامس والخمسون بعد المائة

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا
كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ
لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَعَنْبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَافَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ
كَمَا زَعَمْتِ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالِهٍ وَالْمَلَائِكَةَ قِيَلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ
زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ
سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى
إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا لَمَلِكًا يَمْشُوتُ
مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا
بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ
يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِيَائًا وَبِكَمَا
وَصَّمُوا مَا وُضِعَ فِيهِمْ كَلِمًا حَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ
كَفَرُوا بِعَايِنُنَا وَقَالُوا آءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفْنَاءَ آءِذَا لَمَبَعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ * أَوَلَمْ
يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ
أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُلْ لَوْ أَنَّكُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ
رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَنُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى قِسْعَ
عَايِنَتِ بَيْنَتِ فَسَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى

مَسْحُورًا ﴿١١١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَٰبِرٍ وَإِنِّي
 لَأَظُنُّكَ يَنْفِرَعَوْتُ مَثْبُورًا ﴿١١٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ
 جَمِيعًا ﴿١١٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا
 بِكُمْ لَٰفِيفًا ﴿١١٤﴾ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلُهُ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١١٥﴾ وَقُرْءَا أَنَا
 فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْتٍ وَنَزَلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿١١٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّا لِلَّذِينَ
 أُوْتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحٰنَ رَبِّنَا إِن
 كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١١٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١١٩﴾ قُلْ
 ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا
 تُخَافُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٢٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ
 فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وِليٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا ﴿١٢١﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتِ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ .

قال البغوي^(١): قوله عز وجل: ﴿ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ من كل وجه من العبر والأحكام والوعد والوعيد وغيرها.

﴿فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ .

قال ابن كثير^(٢): أي جحوداً للحق ورداً للصواب.

وقوله تعالى: ﴿وقالوا﴾، أي: مشركو قريش ﴿لن نؤمن لك﴾ لن نصدقك ﴿حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ قال قتادة: عيوناً.

وقوله: ﴿كسفا﴾ قال: قطعاً ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾ نعينهم معاينة.

وعن ابن عباس: ﴿أو يكون لك بيت من زخرف﴾ يقول: من ذهب، وعنه: أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث، وأبا البخثري بن هشام، والأسود بن عبد المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/١١٢).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣٦/٦٢).

المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، ونيبهاً ومنبهاً ابني الحجاج اجتمعوا ومن اجتمع معهم بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه: أن أشرف قومك قد اجتمعوا ليكلّموك، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً وهو يظن أنه بدا لهم في أمره بدء، وكان عليهم حريصاً يحبّ رشدهم، حتى جلس إليهم فقالوا: يا محمد إنا بعثنا إليك لنعذر فيك، وإنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفّته الأحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة فما بقي أمر قبيح إلاّ وقد جثته فيما بينك وبيننا، فإن كنت جثت بهذا الحديث تطلب به مالاّ جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاّ، وإن كنت تطلب الشرف سوّدناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الأمر الذي بك رئي تراه حتى قد غلب عليك لا تستطيع ردّه، بذلنا لك أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك، وكانوا يسمّون التابع من الجن الرئي، فقال رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف عليكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوه مني فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» فقالوا: يا محمد إن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك، فقد علمت أنه ليس أحد أضيق منا بلاداً ولا أشدّ منا عيشاً، فسل لنا ربك الذي بعثك فليسيّر عنا هذه الجبال التي قد ضيّقت علينا وييسط لنا بلادنا، ويفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن منهم قصي بن كلاب فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل؟ فإن صدّقوك صدّقناك، فقال رسول الله ﷺ: «ما بهذا بعثت، فقد بلغتكم ما أرسلت به فإن تقبلوه مني فهو حظكم في الدنيا والآخرة،

وإن تردّوه أصبر لأمر الله». قالوا: فإن لم تفعل هذا، فسل ربك أن يبعث لنا ملكاً يصدّقك، وسله أن يجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه. فقال: «ما بعث بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً». قالوا: فأسقط السماء كما زعمت أن ربك لو شاء فعل، فقال: «ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم». وقال قائل منهم: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبلاً، فلما قالوا ذلك قام رسول الله ﷺ، وقام معه عبد الله بن أبي أمية وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب فقال: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك أموراً يعرفون بها منزلتك من الله فلم تفعل، ثم سألوك أن تجعل لهما ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل، فوالله لا أؤمن لك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ترقى فيه وأنا أنظر، حتى تأتيها وتأتي بنسخة منشورة معك ونفر من الملائكة يشهدون لك بما تقول، وأيم الله لو فعلت ذلك لظننت أن لا أصدّقك. فانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً لما رأى، فأنزل الله عز وجل: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾^(١) الآيات.

وقوله تعالى: ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾، أي: وليس ما سألتكم في طوق البشر.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾^(١٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمَشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾^(١٥) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِبَيَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا﴾^(١٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمياً وَكُفماً وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعيراً﴾^(١٧) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ

(١) أخرجه ابن جرير (١٦٤/١٥)، وفي سنده ضعف.

كَفَرُوا بِعَايِنِنَا وَقَالُوا آءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرُفَّتًا آءِذَا نَالَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿١٠٠﴾ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠١﴾ ﴿١٠٢﴾ .

قال البغوي^(١): ﴿مطمئنين﴾ مستوطنين مقيمين ﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾ أني رسوله إليكم.

وقوله تعالى: ﴿كلما خبت﴾ قال ابن عباس: سكنت أي سكن لهيها. وفي الصحيحين عن أنس قال: «قيل: يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم؟ قال: الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكنم خشية الإنفاق﴾ قال قتادة: أي خشية الفاقة ﴿وكان الإنسان قتورا﴾ قال: بخيلاً ممسكاً.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَقَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفْرَعَوْتُ مَسْجُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات﴾ قل: يد موسى وعصاه، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والسنين، ونقص من الثمرات.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/١١٤).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٧٦٠ و ٦٥٢٣)، ومسلم (ح/٢٨٠٦).

وروي عن الحسن ﴿فاسأل بني إسرائيل﴾. قال: سؤالك إياهم نظرك في القرآن.

وقال البغوي^(١): ﴿فاسأل﴾ يا محمد ﴿بني إسرائيل إذ جاءهم موسى﴾ يجوز أن يكون الخطاب معه والمراد غيره، ويجوز أن يكون خاطبه عليه السلام وأمره بالسؤال، ليتبين كذبهم مع قومهم.

وقال في جامع البيان: ﴿فاسأل﴾ يا محمد ﴿بني إسرائيل﴾ عن الآيات ليطمئن قلبك ويظهر للمشركين صدقك.

وقال بعض المفسرين: والسؤال سؤال استشهاد لمزيد الطمأنينة والإيقان، لأن الأدلة إذا تظاهرت كان ذلك أقوى وأثبت، والمسؤولون مؤمنو بني إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر﴾.

قال ابن كثير^(٢): أي حججاً وأدلة على صدق ما جئتك به ﴿وإني لأظنك يا فرعون مشوراً﴾، أي: هالكا.

وقوله تعالى: ﴿فأراد أن يستفزهم﴾، أي يخرجهم ﴿من الأرض﴾، يعني: أرض مصر ﴿فأغرقتنا ومن معه جميعاً وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيماً﴾. قال قتادة: أي جميعاً أولكم وآخركم.

قوله عز وجل: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْنَا وَمَا أَنْزَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا

وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى حُكْمٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ءَوْ

لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ

سُبْحَانَ رَبِّنَا ۚ إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ

خَشُوعًا ﴿١٠٩﴾

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/١١٥).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٦٧).

عن ابن عباس قوله: ﴿وَقَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ﴾ يقول: فصلناه. وعن قتادة قوله: ﴿وَقَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾. قال: لم ينزل في ليلة ولا ليلتين ولا سنة ولا سنتين، ولكن كان بين أوله وآخره عشرون سنة وما شاء الله.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾.

قال البغوي: هذا على طريق الوعيد والتهديد ﴿إِنَّ الَّذِينَ أوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِ﴾.

قال ابن كثير: أي من صالحى أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابهم ولم يبدلوه ﴿إِذَا يَتْلَى عَلَيْهِمْ يَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾، قال ابن عباس: ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾ للوجوه ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾.

قال في جامع البيان: إنه ﴿كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا﴾ في الكتب السالفة بإرسال رسول خاتم الرسل ﴿لَمَفْعُولًا﴾ واقعاً كائناً.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ الدَّلِيلِ وَكَبِيرَةٌ ﴿١١١﴾﴾.

عن ابن عباس قال: «كان النبي ﷺ ساجداً يدعو: يا رحمن يا رحيم، فقال المشركون: هذا يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو مثني، فأنزل الله تعالى ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ الآية»^(١). وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً كلهن في القرآن، من أحصاهن دخل الجنة»^(٢). رواه ابن جرير.

(١) سبق تخريجه، وفي سنده ضعف.

(٢) سبق تخريجه، وهو صحيح.

وعن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾. قال: «كانوا يجهرون بالدعاء، فلما نزلت هذه الآية أمروا أن لا يجهروا ولا يخافتوا»^(١). وعن عائشة قالت: «نزلت في الدعاء»^(٢). وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: «نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ متوارٍ بمكة ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾. قال: كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن وسبوا من أنزله ومن جاء به، قال: فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبون القرآن ﴿ولا تخافت بها﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾»^(٣).

وعن القرظي في هذه الآية ﴿الحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا﴾ الآية قال: إن اليهود والنصارى قالوا: اتخذ الله ولدًا، وقالت العرب: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، وقال الصابئون والمجوس: لولا أولياء الله لذل، فأنزل الله هذه الآية ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذلّ وكبره تكبيراً﴾. والله الموفق^(٤).

انتهى الجزء الثاني بحمد الله،
ويليه الجزء الثالث

(١) أخرجه ابن جرير (١٨٣/١٥) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٢٣)، ومسلم (ح/٤٤٧).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٢٢ و ٧٤٩٠)، ومسلم (ح/٤٤٦).

(٤) كتب بعد ذلك في (الأصل) ما نصه: «تم الجزء الثاني من «توفيق الرحمن في دروس القرآن» ويليه الجزء الثالث؛ بقلم الفقير إلى الله تعالى «عبد العزيز آل محمد العقل» غفر الله له ولوالديه ولمشايقه والمسلمين. وصلى الله وسلم على سيدنا ونبينا محمد ﷺ في ٢٢ شهر رمضان المبارك سنة ١٣٧١هـ.

فَهْرَسْتُ الْمَوْضُوعَاتِ

الجزء الثاني

الموضوع	الصفحة الموضوع	الصفحة
الدرس التاسع والستون	٥	الآية: ٦ ٣٦
تمة ﴿سورة النساء﴾	٥	الآيات: ٧ - ١١ ٤٠
الآيات: ١٤٨ - ١٥٢	٧	الدرس الرابع والسبعون ٤٢
الآيات: ١٥٣ و ١٥٤	٨	الآيات: ١٢ - ١٤ ٤٤
الآيات: ١٥٥ - ١٥٩	١٠	الآيات: ١٥ و ١٦ ٤٧
الآيات: ١٦٠ - ١٦٢	١٢	الآيات: ١٧ و ١٨ ٤٨
الدرس السبعون	١٣	الآية: ١٩ ٤٩
الآيات: ١٦٣ - ١٦٥	١٤	الدرس الخامس والسبعون ٥٠
الآيات: ١٦٦ - ١٧٠	١٦	الآيات: ٢٠ - ٢٢ ٥١
الدرس الحادي والسبعون	١٨	الآية: ٢٣ ٥٢
الآية: ١٧١	١٩	الآيات: ٢٤ - ٢٦ ٥٣
الآيات: ١٧٢ و ١٧٣	٢٠	الدرس السادس والسبعون ٥٥
الآيات: ١٧٤ و ١٧٥	٢١	الآيات: ٢٧ - ٣١ ٥٧
الآية: ١٧٦	٢٢	الآية: ٣٢ ٥٩
الدرس الثاني والسبعون	٢٤	الآيات: ٣٣ و ٣٤ ٦٠
﴿سورة المائدة﴾	٢٤	الآيات: ٣٥ - ٣٧ ٦١
الآيات: ١ و ٢	٢٦	الآيات: ٣٨ - ٤٠ ٦٢
الآية: ٣	٢٨	الدرس السابع والسبعون ٦٤
الآية: ٤	٣١	الآيات: ٤١ - ٤٣ ٦٦
الآية: ٥	٣٣	الآيات: ٤٤ - ٤٧ ٦٩
الدرس الثالث والسبعون	٣٥	

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١١١	الدرس الثالث والثمانون	٧١	الآيات: ٤٨ - ٥٠
١١٣	الآيات: ١٠٩ - ١١١	٧٣	الدرس الثامن والسبعون
١١٤	الآيات: ١١٢ - ١١٥	٧٥	الآيات: ٥١ - ٥٣
١١٥	الآيات: ١١٦ - ١١٨	٧٧	الآيات: ٥٤ - ٥٦
١١٧	الآيتان: ١١٩ و ١٢٠	٧٨	الآيتان: ٥٧ و ٥٨
١١٨	الدرس الرابع والثمانون	٧٩	الآيات: ٥٩ - ٦٣
١١٨	﴿سورة الأنعام﴾	٨١	الآيات: ٦٤ - ٦٦
١٢١	الآيات: ١ - ٣	٨٤	الدرس التاسع والسبعون
١٢٢	الآيات: ٤ - ١١	٨٦	الآية: ٦٧
١٢٣	الآيات: ١٢ - ١٦	٨٧	الآيات: ٦٨ - ٧١
٢٥	الآيات: ١٧ - ٢١	٨٩ - ٨٨	الآيات: ٧٢ - ٧٧
١٢٧	الدرس الخامس والثمانون	٩٠ - ٨٩	الآيات: ٧٨ - ٨١
١٢٩	الآيات: ٢٢ - ٢٦	٩١	الآيات: ٨٢ - ٨٦
١٣٠	الآيات: ٢٧ - ٣٠	٩٢	الدرس الثمانون
١٣١	الآيات: ٣١ - ٣٧	٩٣	الآيات: ٨٧ - ٨٩
١٣٣	الآيات: ٣٨ - ٤١	٩٥	الآيات: ٩٠ - ٩٣
١٣٥	الدرس السادس والثمانون	٩٨	الدرس الحادي والثمانون
١٣٧	الآيات: ٤٢ - ٤٥	٩٩	الآيتان: ٩٤ و ٩٥
١٣٨	الآيات: ٤٦ - ٤٩	١٠١	الآية: ٩٦
١٣٩	الآيات: ٥٠ - ٥٥	١٠٢	الآيات: ٩٧ - ١٠٠
١٤١	الدرس السابع والثمانون	١٠٣	الدرس الثاني والثمانون
١٤٣	الآيات: ٥٦ - ٥٩	١٠٤	الآيتان: ١٠١ و ١٠٢
١٤٤	الآيات: ٦٠ - ٦٥	١٠٥	الآيات: ١٠٣ - ١٠٥
١٤٥	الآيات: ٦٦ - ٦٩	١٠٧	الآيات: ١٠٦ - ١٠٨

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الآية: ٧٠	١٤٦	الآيتان: ١٣٩ و ١٤٠	١٧٨
الآيات: ٧١ - ٧٣	١٤٧	الآيتان: ١٤١ و ١٤٢	١٧٩
الدرس الثامن والثمانون	١٤٨	الآيتان: ١٤٣ و ١٤٤	١٨٠
الآيات: ٧٤ - ٧٩	١٥٠	الآية: ١٤٥	١٨١
الآيات: ٨٠ - ٨٣	١٥١	الدرس الثالث والتسعون	١٨٣
الآيات: ٨٤ - ٩٠	١٥٢	الآيتان: ١٤٦ و ١٤٧	١٨٥
الدرس التاسع والثمانون	١٥٤	الآيات: ١٤٨ - ١٥٠	١٨٦
الآيتان: ٩١ و ٩٢	١٥٥	الآيتان: ١٥١ و ١٥٢	١٨٧
الآيتان: ٩٣ و ٩٤	١٥٧	الآية: ١٥٣	١٨٨
الدرس التسعون	١٦٠	الدرس الرابع والتسعون	١٩٠
الآيات: ٩٥ - ٩٨	١٦٢	الآيات: ١٥٤ - ١٥٧	١٩٢
الآيات: ٩٩ - ١٠٣	١٦٣	الآية: ١٥٨	١٩٣
الآيات: ١٠٤ - ١٠٨	١٦٤	الآيتان: ١٥٩ و ١٦٠	١٩٤
الآيات: ١٠٩ - ١١١	١٦٥	الآيات: ١٦١ - ١٦٥	١٩٥
الدرس الحادي والتسعون	١٦٧	الدرس الخامس والتسعون	١٩٦
الآيات: ١١٢ - ١١٥	١٦٩	﴿سورة الأعراف﴾	١٩٦
الآيات: ١١٦ - ١٢١	١٧٠	الآيات: ١ - ٩	١٩٨
الآيات: ١٢٢ - ١٢٤	١٧١	الآيات: ١٠ - ١٨	١٩٩
الآيتان: ١٢٥ - ١٢٧	١٧٢	الآيات: ١٩ - ٢٣	٢٠١
الآيتان: ١٢٨ و ١٢٩	١٧٣	الآيتان: ٢٤ و ٢٥	٢٠٢
الآيات: ١٣٠ - ١٣٥	١٧٤	الدرس السادس والتسعون	٢٠٣
الدرس الثاني والتسعون	١٧٥	الآيات: ٢٦ - ٣٠	٢٠٥
الآيات: ١٣٦ - ١٣٨	١٧٧	الآيات: ٣١ - ٣٤	٢٠٦

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الآيتان: ٣٥ و ٣٦	٢٠٧	الدرس الثاني بعد المائة	٢٤٢
الآيات: ٣٧ - ٤٣	٢٠٨	الآيات: ١٢٧ - ١٢٩	٢٤٤
الدرس السابع والتسعون	٢١١	الآيات: ١٣٠ - ١٣٥	٢٤٥
الآيات: ٤٤ - ٤٧	٢١٢	الآيتان: ١٣٦ و ١٣٧	٢٤٧
الآيات: ٤٨ - ٥١	٢١٣	الآيات: ١٣٨ - ١٤١	٢٤٨
الآيتان: ٥٢ و ٥٣	٢١٤	الدرس الثالث بعد المائة	٢٤٩
الدرس الثامن والتسعون	٢١٥	الآيتان: ١٤٢ و ١٤٣	٢٥١
الآية: ٥٤	٢١٦	الآيات: ١٤٤ - ١٤٧	٢٥٢
الآيتان: ٥٥ و ٥٦	٢٢٣	الآيات: ١٤٨ - ١٥٤	٢٥٣
الآيتان: ٥٧ و ٥٨	٢٢٤	الدرس الرابع بعد المائة	٢٥٥
الدرس التاسع والتسعون	٢٢٥	الآية: ١٥٥	٢٥٧
الآيتان: ٥٩ - ٦٤	٢٢٧	الآيتان: ١٥٦ و ١٥٧	٢٥٨
الآيات: ٦٥ - ٧٢	٢٢٨	الآية: ١٥٨	٢٥٩
الآيات: ٧٣ - ٧٩	٢٢٩	الآيات: ١٥٩ - ١٦٢	٢٦٠
الآيات: ٨٠ - ٨٤	٢٣٠	الدرس الخامس بعد المائة	٢٦١
الدرس المائة	٢٣١	الآية: ١٦٣	٢٦٢
الآيات: ٨٥ - ٨٧	٢٣٣	الآيات: ١٦٤ - ١٦٧	٢٦٣
الآيتان: ٨٨ و ٨٩	٢٣٤	الآيات: ١٦٨ - ١٧٠	٢٦٤
الآيات: ٩٠ - ١٠٠	٢٣٥	الآية: ١٧١	٢٦٥
الآيتان: ١٠١ و ١٠٢	٢٣٦	الدرس السادس بعد المائة	٢٦٦
الدرس الواحد بعد المائة	٢٣٧	الآيات: ١٧٢ - ١٧٤	١٦٨
الآيات: ١٠٣ - ١٠٨	٢٣٩	الآيات: ١٧٥ - ١٧٨	٢٦٩
الآيات: ١٠٩ - ١٢٦	٢٤٠	الآيتان: ١٧٩ و ١٨٠	٢٧٠

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣٠٢	الآيات: ٤١ - ٤٤	٢٧٢	الآيات: ١٨٦ - ١٨١
٣٠٤	الآيات: ٤٥ - ٤٩	٢٧٣	الدرس السابع بعد المائة
٣٠٥	الآيات: ٥٠ - ٥٤	٢٧٥	الآيتان: ١٨٧ و ١٨٨
٣٠٧	الدرس الحادي عشر بعد المائة	٢٧٦	الآيتان: ١٨٩ و ١٩٠
٣٠٨	الآيات: ٥٥ - ٥٨	٢٧٧	الآيات: ١٩١ - ١٩٨
٣٠٩	الآيتان: ٥٩ و ٦٠	٢٧٨	الآيات: ١٩٩ - ٢٠٢
٣١٠	الآيات: ٦١ - ٦٣	٢٧٩	الآيات: ٢٠٣ - ٢٠٦
٣١١	الآيات: ٦٤ - ٦٦	٢٨١	الدرس الثامن بعد المائة
٣١٢	الدرس الثاني عشر بعد المائة	٢٨١	﴿سورة الأنفال﴾
٣١٣	الآيات: ٦٧ - ٦٩	٢٨٣	الآية: ١
٣١٤	الآيتان: ٧٠ و ٧١	٢٨٤	الآيات: ٢ - ٤
٣١٥	الآيتان: ٧٢ و ٧٣	٢٨٥	الآيات: ٥ - ٨
٣١٦	الآيتان: ٧٤ و ٧٥	٢٨٦	الآيتان: ٩ و ١٠
٣١٧	الدرس الثالث عشر بعد المائة	٢٨٧	الآيات: ١١ - ١٦
٣١٧	﴿سورة التوبة﴾	٢٨٨	الآيتان: ١٧ و ١٨
٣٢٠	الآيات: ١ - ٥	٢٨٩	الآية: ١٩
٣٢١	الآية: ٦	٢٩٠	الدرس التاسع بعد المائة
٣٢٢	الآيات: ٧ - ١١	٢٩٢	الآيات: ٢٠ - ٢٣
٣٢٣	الآيات: ١٢ - ١٦	٢٩٣	الآيات: ٢٤ - ٢٦
٣٢٥	الدرس الرابع عشر بعد المائة	٢٩٤	الآيات: ٢٧ - ٢٩
٣٢٧	الآيات: ١٧ - ٢٢	٢٩٥	الآيات: ٣٠ - ٣٥
٣٢٨	الآيتان: ٢٣ و ٢٤	٢٩٨	الآيات: ٣٦ - ٤٠
٣٢٩	الآيات: ٢٥ - ٢٧	٣٠٠	الدرس العاشر بعد المائة

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣٦٤	الدرس العشرون بعد المائة	٣٣٠	الدرس الخامس عشر بعد المائة
٣٦٥	الآيات: ١٠٦ - ١٠١	٣٣٢	الآيتان: ٢٨ و ٢٩
٣٦٧	الآيات: ١٠٧ - ١١٠	٣٣٣	الآيتان: ٣٠ و ٣٣
٣٦٩	الدرس الواحد والعشرون بعد المائة	٣٣٥	الآيات: ٣٤ - ٣٧
٣٧١	الآيتان: ١١١ و ١١٢	٣٣٧	الدرس السادس عشر بعد المائة
٣٧٢	الآيات: ١١٣ - ١١٦	٣٣٩	الآيات: ٣٨ - ٤١
٣٧٣	الآيات: ١١٧ - ١١٩	٣٤٠	الآيات: ٤٢ - ٤٩
٣٧٥	الدرس الثاني والعشرون بعد المائة	٣٤٢	الآيات: ٥٠ - ٥٢
٣٧٧	الآيات: ١٢٠ - ١٢٣	٣٤٣	الآيات: ٥٣ - ٥٧
٣٧٨	الآيات: ١٢٤ - ١٢٧	٣٤٤	الدرس السابع عشر بعد المائة
٣٧٩	الآيتان: ١٢٨ و ١٢٩	٣٤٦	الآيات: ٥٨ - ٦٠
٣٨١	الدرس الثالث والعشرون بعد المائة	٣٤٨	الآيات: ٦١ - ٦٦
٣٨١	﴿سورة يونس﴾	٣٥٠	الآيات: ٦٧ - ٧٠
٣٨٣	الآيتان: ١ و ٢	٣٥١	الآيتان: ٧١ و ٧٢
٣٨٤	الآيات: ٣ - ١٠	٣٥٢	الدرس الثامن عشر بعد المائة
٣٨٥	الآيات: ١١ - ١٤	٣٥٤	الآيتان: ٧٣ و ٧٤
٣٨٦	الآيات: ١٥ - ١٧	٣٥٥	الآيات: ٧٥ - ٨٠
٣٣٨	الدرس الرابع والعشرون بعد المائة	٣٥٧	الآيات: ٨١ - ٨٥
٣٩٠	الآيات: ١٨ - ٢٠	٣٥٨	الآيات: ٨٦ - ٨٩
٣٩١	الآيات: ٢١ - ٢٣	٣٥٩	الدرس التاسع عشر بعد المائة
٣٩٢	الآيات: ٢٤ - ٢٧	٣٦١	الآيات: ٩٠ - ٩٣
٣٩٤	الآيات: ٢٨ - ٣٦	٣٦٢	الآيات: ٩٤ - ٩٦
٣٩٧	الدرس الخامس والعشرون بعد المائة	٣٦٣	الآيتان: ٩٧ - ١٠٠

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الآيات: ٣٧ - ٤٤	٣٩٩	الآيات: ٢٥ - ٣٥	٤٣٥
الآيات: ٤٥ - ٥٦	٤٠١	الآيات: ٣٦ - ٣٩	٤٣٦
الدرس السادس والعشرون بعد المائة	٤٠٣	الآيات: ٤٠ - ٤٤	٤٣٨
الآيات: ٥٧ - ٦٠	٤٠٥	الآيات: ٤٥ - ٤٩	٤٣٩
الآيات: ٦١ - ٦٤	٤٠٦	الدرس الواحد والثلاثون بعد المائة	٤٤١
الآيات: ٦٥ - ٧٠	٤٠٨	الآيات: ٥٠ - ٥٧	٤٤٣
الدرس السابع والعشرون بعد المائة	٤٠٩	الآيات: ٥٨ - ٦٢	٤٤٤
الآيات: ٧١ - ٧٤	٤١١	الآيات: ٦٣ - ٦٨	٤٤٥
الآيات: ٧٥ - ٨٢	٤١٢	الدرس الثاني والثلاثون بعد المائة	٤٤٧
الآيات: ٨٣ - ٨٧	٤١٣	الآيات: ٦٩ - ٧٣	٤٤٨
الآيتان: ٨٨ و ٨٩	٤١٤	الآيات: ٧٤ - ٧٦	٤٤٩
الآيات: ٩٠ - ٩٢	٤١٥	الآيات: ٧٧ - ٨٣	٤٥٠
الدرس الثامن والعشرون بعد المائة	٤١٧	الدرس الثالث والثلاثون بعد المائة	٤٥٥
الآيات: ٩٣ - ٩٨	٤١٩	الآيات: ٨٤ - ٨٧	٤٥٦
الآيات: ٩٩ - ١٠٣	٤٢١	الآيات: ٨٨ - ٩٠	٤٥٧
الآيات: ١٠٤ - ١٠٩	٤٢٢	الآيات: ٩١ - ٩٥	٤٥٨
الدرس التاسع والعشرون بعد المائة	٤٢٣	الدرس الرابع والثلاثون بعد المائة	٤٦٠
﴿سورة هود﴾	٤٢٣	الآيات: ٩٦ - ١٠٢	٤٦٢
الآيات: ١ - ٥	٤٢٦	الآيات: ١٠٣ - ١٠٨	٤٦٣
الآيات: ٦ - ١١	٤٢٧	الآيات: ١٠٩ - ١١٥	٤٦٤
الآيات: ١٢ - ١٧	٤٢٩	الآيات: ١١٦ - ١١٩	٤٦٥
الآيات: ١٨ - ٢٤	٤٣١	الآيات: ١٢٠ - ١٢٣	٤٦٦
الدرس الثلاثون بعد المائة	٤٣٣		

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الدرس الخامس والثلاثون بعد المائة	٤٦٧	الدرس التاسع والثلاثون بعد المائة	٥٠٨
﴿سورة يوسف﴾	٤٦٧	﴿سورة الرعد﴾	٥٠٨
الآيات: ١ - ٦	٤٦٩	الآيات: ١ - ٤	٥١٠
الآيات: ٧ - ١٨	٤٧٠	الآيات: ٥ - ٧	٥١١
الآيات: ١٩ - ٢١	٤٧٣	الآيات: ٨ - ١١	٥١٢
الدرس السادس والثلاثون بعد المائة	٤٧٥	الآيات: ١٢ - ١٦	٥١٣
الآيات: ٢٢ - ٢٩	٤٧٨	الآيتين: ١٧ و ١٨	٥١٥
الآيات: ٣٠ - ٣٥	٤٨٠	الدرس الأربعون بعد المائة	٥١٧
الآيات: ٣٦ - ٤٢	٤٨٢	الآيات: ١٩ - ٢٦	٥١٩
الآيات: ٤٣ - ٤٩	٤٨٤	الآيات: ٢٧ - ٣٢	٥٢٠
الآيات: ٥٠ - ٥٣	٤٨٦	الآيات: ٣٣ - ٣٥	٥٢٢
الآيات: ٥٤ - ٥٧	٤٨٧	الآيتين: ٣٦ و ٣٧	٥٢٣
الدرس السابع والثلاثون بعد المائة	٤٥٩	الآيات: ٣٨ - ٤٣	٥٢٤
الآيات: ٥٨ - ٦٢	٤٩١	الدرس الواحد والأربعون بعد المائة	٥٢٦
الآيات: ٦٣ - ٦٨	٤٩٢	﴿سورة إبراهيم﴾	٥٢٦
الآيات: ٦٩ - ٧٧	٤٩٤	الآيات: ١ - ٤	٥٢٩
الآيات: ٧٨ - ٨٧	٤٩٧	الآيات: ٥ - ٨	٥٣٠
الدرس الثامن والثلاثون بعد المائة	٥٠٠	الآيات: ٩ - ١٢	٥٣١
الآيات: ٨٨ - ٩٣	٥٠٢	الآيات: ١٣ - ١٨	٥٣٢
الآيات: ٩٤ - ٩٨	٥٠٣	الآيات: ١٩ - ٢٣	٥٣٣
الآيات: ٩٩ - ١٠١	٥٠٤	الدرس الثاني والأربعون بعد المائة	٥٣٤
الآيات: ١٠٢ - ١٠٨	٥٠٥	الآيات: ٢٤ - ٢٧	٥٣٦
الآيات: ١٠٩ - ١١١	٥٠٦	الآيات: ٢٨ - ٣٤	٥٣٩

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الآيات: ٣٥ - ٤١	٥٤٠	الآيات: ٥١ - ٥٦	٥٧٥
الآيات: ٤٢ - ٥٢	٥٤١	الآيات: ٥٧ - ٦٤	٥٧٦
الدرس الثالث والأربعون بعد المائة	٥٤٤	الدرس السابع والأربعون بعد المائة	٥٧٩
﴿سورة الحجر﴾	٥٤٤	الآيات: ٦٥ - ٦٩	٥٨١
الآيات: ١ - ١٥	٥٤٦	الآيات: ٧٠ - ٧٢	٥٨٢
الآيات: ١٦ - ٢٥	٥٤٨	الآيات: ٧٣ - ٧٦	٥٨٣
الآيات: ٢٦ - ٤٤	٥٥٠	الآيات: ٧٧ - ٨٣	٥٨٤
الآيات: ٤٥ - ٤٨	٥٥١	الدرس الثامن والأربعون بعد المائة	٥٨٦
الدرس الرابع والأربعون بعد المائة	٥٥٢	الآيات: ٨٤ - ٨٩	٥٨٨
الآيات: ٤٩ - ٦٠	٥٥٤	الآيات: ٩٠ - ٩٧	٥٨٩
الآيات: ٦١ - ٧٩	٥٥٥	الدرس التاسع والأربعون بعد المائة	٥٩٢
الآيات: ٨٠ - ٨٤	٥٥٦	الآيات: ٩٨ - ١٠٠	٥٩٣
الآيات: ٨٥ - ٩٩	٥٥٧	الآيات: ١٠١ - ١٠٥	٥٩٤
الدرس الخامس والأربعون بعد المائة	٥٦٠	الآيات: ١٠٦ - ١١١	٥٩٥
﴿سورة النحل﴾	٥٦٠	لدرس الخمسون بعد المائة	٥٩٧
الآيات: ١ - ٤	٥٦٣	الآيتان: ١١٢ - ١١٣	٥٩٩
الآيات: ٥ - ١٨	٥٦٤	الآيات: ١١٤ - ١١٩	٦٠٠
الآيات: ١٩ - ٢٩	٥٦٧	الآيات: ١٢٠ - ١٢٤	٦٠١
الآيات: ٣٠ - ٣٢	٥٦٨	الآيات: ١٢٥ - ١٢٨	٦٠٢
الآيتان: ٣٣ و ٣٤	٥٦٩	الدرس الحادي والخمسون بعد المائة	٦٠٤
الدرس السادس والأربعون بعد المائة	٥٧٠	﴿سورة الإسراء﴾	٦٠٤
الآيات: ٣٥ - ٤٢	٥٧٢	الآيات: ١ - ٣	٦٠٦
الآيات: ٤٣ - ٥٠	٥٧٣	الآيات: ٤ - ٨	٦٠٩

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٦٢٧	الآيات: ٥٦ و ٥٧	٦١١	الآيات: ٩ - ١٢
٦٢٨	الآيات: ٥٨ - ٦٠	٦١١	الآيات: ١٣ - ١٧
٦٣١	الدرس الرابع والخمسون بعد المائة	٦١٣	الآيات: ١٨ - ٢١
٦٣٣	الآيات: ٦١ - ٦٥	٦١٤	الدرس الثاني والخمسون بعد المائة
٦٣٥	الآيات: ٦٦ - ٧٢	٦١٦	الآيات: ٢٢ - ٢٥
٦٣٦	الآيات: ٧٣ - ٧٥	٦١٧	الآيات: ٢٦ - ٣٠
٦٣٧	الآيات: ٧٦ - ٨٢	٦١٨	الآيات: ٣١ - ٣٣
٦٣٩	الآيات: ٨٣ - ٨٨	٦١٩	الآيات: ٣٤ - ٣٩
٦٤٢	الدرس الخامس والخمسون بعد المائة	٦٢١	الآيات: ٤٠ - ٤٤
٦٤٤	الآيات: ٨٩ - ٩٣	٦٢٣	الدرس الثالث والخمسون بعد المائة
٦٤٧	الآيات: ٩٤ - ١٠٤	٦٢٥	الآيات: ٤٥ - ٤٨
٦٤٨	الآيات: ١٠٥ - ١٠٩	٦٢٦	الآيات: ٤٩ - ٥٥
٦٤٩	الآيات: ١١٠ و ١١١		



السلسلة السلفية للرسائل والكتب النجدية (٩)

تَوْفِيقُ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فِي دُرُوسِ الْقُرْآنِ

تَأَلَّفَ

الشيخ فيصل بن عبد العزيز بن فيصل آل مبارك

(١٣١٣ - ١٣٦٦هـ)

رَحِمَهُ اللهُ

حَقَّقَهُ، وَضَرَعَ أُهَارِيئَهُ، وَعَلَّوْهُ عَلَيْهِ

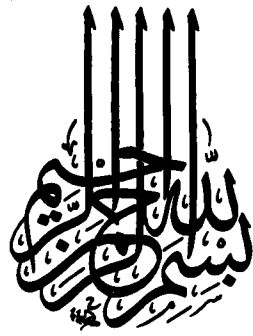
عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزبير آل حمد

الجزء الثالث

من سورة الكهف إلى سورة فصلت

دار العنقا
للنشر والتوزيع

دار العليان



تَوْفِيقًا لِحَسْبِ

٣

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

دار العليان

للنشر والنسخ والتصوير والتجليد
وطلب الرسائل والبحوث العلمية
القصص - بريدة - ص ب : ١٨٣
هاتف : ٣٢٣٠٣٤٧ - فاكس ٣٢٤٣٦٤٤

وزارة العمارة

للمملكة العربية السعودية
الرياض - ص ب ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي ١١٥٥١
هاتف ٤٩١٥١٥٤ - ٤٩٣٣٣١٨ - فاكس ٤٩١٥١٥٤

الدرس السادس والخمسون بعد المائة

﴿سورة الكهف﴾

مكية، وهي مائة وإحدى عشرة آية

روى مسلم وغيره عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال»^(١). وعن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين»^(٢). رواه الحاكم وصححه.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا ﴿١﴾ قِيَمًا لِيُنذِرَ
بِأَسَاسٍ شَدِيدًا مِنَ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا
حَسَنًا ﴿٢﴾ مَكِّيِّينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا
لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا

(١) أخرجه مسلم (ح/٨٠٩).

(٢) أخرجه الحاكم (٢/٣٦٨)، ومن طريقه البيهقي (٣/٣٤٩)، قال الحاكم: «صحيح الإسناد»، وتعقبه الذهبي بقوله: «نعيم ذو مناكير». قلت: ونعيم هو ابن حماد الخزاعي، إمام في السنة - رحمه الله - وثقه غير واحد كأحمد، وابن معين، والعجلي، وقال أبو حاتم: محله الصدق، وضعفه النسائي، فأقل أحواله أنه حسن الحديث. ومع ذلك هو لم يتفرد بهذه الرواية، بل تابعه غير واحد، فالحديث صحيح كما قال الحاكم.

كَذِبًا ﴿٦﴾ فَلَعَلَّكَ بِنَجْعِ نَفْسِكَ عَلَيَّ ءَاثِرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾
 إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا
 عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا
 عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا ءِإِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةٌ وَهِيَئَ لَنَا مِنْ
 أَمْرِنَا رِشْدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ
 لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ
 ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ ءِإِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَتُوْلَاءِ قَوْمُنَا
 اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءِإِلَهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ
 أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذْ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْدُوا إِلَى الْكَهْفِ
 يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿١٦﴾ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا
 طَلَعَتْ تَزَوُّرَ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي
 فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ
 وِلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ آيَةً ظَالِمًا وَهُمْ رُفُودٌ وَنُقِلَبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ
 وَكَلْبُهُمْ بَسِيطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ
 مِنْهُمْ رُعبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ
 لَبِثْنَا قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا
 أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ
 بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ
 يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَلِكَ

أَعَزَّنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ
 بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ
 أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ
 خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي
 أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تَحَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَّةً ظَهَرَ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ
 مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ
 وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشْدًا ﴿٢٤﴾ وَلِيَتَّوَأ
 فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيَتَّوَأ لَهُ غَيْبُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي
 حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴿

* * *

قوله عز وجل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا ﴿١﴾ قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَلَائِكِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بِخُجُوعِ نَفْسِكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿ولم يجعل له عوجاً قيمياً﴾ يقول: أنزل الكتاب عدلاً قيمياً ﴿ولم يجعل له عوجاً﴾. وقال قتادة: معناه ﴿أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً﴾ ولكن جعله ﴿قيماً لينذر بأساً شديداً﴾ قال ابن إسحاق: عاجل عقوبة في الدنيا، وعذاباً في الآخرة ﴿من لدنه﴾، أي: من عند ربك الذي بعثك رسولاً.

﴿ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ماكين فيه أبداً﴾، أي: في دار خلد لا يموتون فيه، الذين صدقوك بما جئت به عن الله وعملوا بما أمرتهم ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾ يعني قريشاً في قولهم: إنما نعبد الملائكة وهن بنات الله ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم﴾ قولهم: إن الملائكة بنات الله ﴿إن يقولون إلا كذباً﴾.

وعن قتادة ﴿فلعلك باخع نفسك﴾ قاتل نفسك ﴿على آثرهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾ قال: حزناً عليهم. قال ابن إسحاق: يعاتبه على حزنه عليهم، حين فاته ما كان يرجو منهم، أي: لا تفعل.

﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ اختباراً لهم، أيهم أتبع لأمري وأعمل بطاعتي. وقال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «إن الدنيا خَصْرَةٌ حلوة، وإن الله مستخلفكم فيها، فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء»^(١).

وعن ابن إسحاق ﴿وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرّزاً﴾ يعني الأرض إن ما عليها لفان وبائد، وإن المرجع إليّ، فلا تأس ولا يحزنك ما ستسمع وترى فيها.

قال ابن كثير^(٢): وقد ذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه السورة الكريمة فقال: حدثني شيخ من أهل مصر قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة عن ابن عباس قال: بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة فقالوا لهم: سلوهم عن محمد ووصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجوا حتى أتيا المدينة، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم أمره وبعض قوله وقالوا: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإلا فهو رجل متقول قروا فيه رأيكم؛ سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؟ فإنهم قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف بلغ في مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبأه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم، فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالوا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور فأخبروهم بها، فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد أخبرنا، فسأله عما أمرهم به فقال لهم رسول الله ﷺ: «أخبركم غداً عما سألتهم عنه» ولم يستثن، فانصرفوا عنه، ومكث

(١) أخرجه مسلم مرفوعاً (ح/٢٧٤٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٧١/٣).

رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنهم من أمر الفتية والرجل الطواف، وقول الله عز وجل: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾^(٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾^(١٠) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾^(١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾^(١٢).

عن مجاهد: ﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً﴾ يقول: قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك. وقال ابن عباس: الرقيم وإد دون فلسطين وهو قريب من أيلة. وعن سعيد بن جبير قال: الرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف ثم وضعوه على باب الكهف.

وعن قتادة قوله: ﴿ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً﴾ يقول: ما كان لواحد من الفريقين علم، لا لكفارهم ولا لمؤمنيهم. وعن مجاهد ﴿أمداً﴾ قال: عدداً.

قال ابن كثير^(٢): هذا إخبار من الله تعالى عن قصة أصحاب الكهف على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك.

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٥، والحديث أخرجه ابن جرير (١٥/١٩١)، وفي سنده ضعف.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٧٢).

قوله عز وجل: ﴿ تَحْنُ نَفْسُ عَلَيَّكَ نَبَاهُمْ بِالْحَقِّ إِيْتَهُمْ فَتِيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هُنَّ ءَوْلَاءُ قَوْمِنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَإلهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذْ أَعْرَضْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْأَىٰ إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ .

قال ابن إسحاق: مرج أهل الإنجيل، وعظمت فيهم الخطايا، وطغت فيهم الملوك حتى عبدوا الأصنام، وذبحوا للطواغيت، وفيهم بقايا على دين المسيح متمسكين بعبادة الله وتوحيده، فكان ممن فعل ذلك من ملوكهم ملك من الروم يقال له دقيوس^(١)، كان قد عبد الأصنام، وذبح للطواغيت، وقتل من خالقه في ذلك.

وقال مجاهد: كان أصحاب الكهف أبناء عظماء مدينتهم وأهل سوقهم، فخرجوا فاجتمعوا وراء المدينة على غير ميعاد، فقال رجل منهم هو أسنهم: إني لأجد في نفسي شيئاً ما أظن أن أحداً يجده، قالوا: ماذا تجد؟ قال: أجد في نفسي أن ربي رب السماوات والأرض، وقالوا: نحن نجد، فقاموا جميعاً: ﴿فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذا شططاً﴾ فاجتمعوا أن يدخلوا الكهف وعلى مدينتهم إذ ذاك جبار يقال له دقيوس، فلبثوا في الكهف ﴿ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً﴾ رقداء.

وعن قتادة قوله: ﴿وربطنا على قلوبهم﴾ يقول: بالإيمان ﴿إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذا شططاً﴾ يقول: كذباً. وقال ابن زيد: الشطط الخطأ من القول. وقال ابن كثير ﴿شططاً﴾، أي: باطلاً وكذباً وبهتاناً.

(١) في (الأصل): وتفسير البغوي: «دقيانوس»، والمثبت من تفسير ابن جرير، وفي (الدر): «دقيوس».

وقوله تعالى: ﴿وَيَهَيِّءْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ قال البغوي^(١): ﴿ويهيئ لكم﴾ يسهل لكم ﴿من أمركم مرفقاً﴾، أي: ما يعود إليه يسركم ورفقكم.

قوله عز وجل: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴿١٨﴾.

عن ابن عباس ﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال﴾ يقول: تميل عن كهفهم يمينا وشمالا، وقال: لو أن الشمس تطلع عليهم لأحرقتهم، ولو أنهم لا ينقلبون لأكلتهم الأرض. وعن سعيد بن جبير قال: ﴿وإذا غربت تقرضهم﴾ تركهم ﴿ذات الشمال﴾.

وعن قتادة ﴿وهم في فجوة منه﴾ يقول: في فضاء من الكهف ﴿ذلك من آيات الله﴾ قال ابن قتيبة: كان كهفهم مستقبل بنات نعش. وقال ابن كثير^(٢): ﴿وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال﴾، أي: تدخل إلى غارهم من شمال بابه.

وقوله تعالى: ﴿وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود﴾ قيل: إن أعينهم كانت مفتحة ﴿ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد﴾ قال ابن عباس يقول: بالفناء. وقال ابن جريج: يحرس عليهم الباب، ﴿لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً﴾، أي: أنه تعالى ألقى عليهم المهابة فلا يقدر أحد أن يدنو منهم.

قوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/١٢٧).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٧٥).

كَمْ لَيْسَتْ قَالُوا لَيْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسَتْ فَابْتَعُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيًّا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ .

عن عكرمة قال: كان أصحاب الكهف أبناء ملوك الروم رزقهم الله الإسلام، فتعوذوا بدينهم، واعتزلوا قومهم، حتى انتهوا إلى الكهف، فضرب الله على سمعهم فلبثوا دهرًا طويلًا، حتى هلكت أمتهم وجاءت أمة مسلمة وكان ملكهم مسلمًا، فاختلفوا في الروح والجسد فقال قائل: يبعث الروح والجسد جميعًا، وقال قائل: يبعث الروح فأما الجسد فتأكله الأرض فلا يكون شيئًا، فشق على ملكهم اختلافهم، فانطلق فلبس المسوح وجلس على الرماد، ثم دعا الله تعالى: أي رب قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث لهم آية تبيّن لهم، فبعث الله أصحاب الكهف، فبعثوا أحدهم يشتري لهم طعامًا، فدخل السوق فجعل ينكر الوجوه ويعرف الطرق، ويرى الإيمان بالمدينة ظاهرًا، فانطلق وهو مستخف حتى أتى رجلًا يشتري منه طعامًا، فلما نظر الرجل إلى الورق أنكرها فقال له الفتى: أليس ملككم فلان؟ قال: بل ملكنا فلان، فلم يزل ذلك بينهما حتى رفعه إلى الملك، فسأله فأخبره الفتى خبر أصحابه، فبعث الملك في الناس فجمعهم فقال: إنكم قد اختلفتم في الروح والجسد، وإن الله قد بعث لكم آية، فهذا رجل من قوم فلان - يعني ملكهم الذي مضى - فقال الفتى: انطلقوا بي إلى أصحابي، فركب الملك وركب معه الناس حتى انتهوا إلى كهف، فقال الفتى: دعوني أدخل إلى

أصحابي، فلما أبصرهم ضرب على أذنه وعلى آذانهم، فلما استبطؤوه دخل الملك ودخل الناس معه، فإذا أجساد لا ينكرون منها شيئاً غير أنها لا أرواح فيها، فقال الملك: هذه آية بعثها الله لكم.

وقوله تعالى: ﴿قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً﴾ قال ابن كثير^(١): حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين: أحدهما أنهم المسلمون منهم، والثاني أهل الشرك منهم، فالله أعلم، والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ، ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر، لأن النبي ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحهم مساجد»^(٢). يحذر ما فعلوه انتهى.

قوله عز وجل: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تَحْمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلِيُثَبِّتُ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيُثَبِّتُوا لَمْ يَغِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ، وَأَسْمَعُ مَا لَمْ يَلْمَسْ مِنْ دُونِهِ، مِنْ وَلِيِّ وَلَا يَشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾.

عن قتادة ﴿ما يعلمهم إلا قليل﴾ يقول: قليل من الناس. وعن ابن عباس ﴿ما يعلمهم إلا قليل﴾ قال: أنا من القليل، كانوا سبعة. ﴿فلا تمار فيهم إلا مرءاء﴾

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٧٨/٣).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٣٥ و ٤٣٦)، ومسلم (ح/٥٣١) من حديث عائشة وابن عباس

— رضي الله عنهما — وفيه قصة.

ظاهراً ﴿ يقول: إلا بما قد أظهرنا لك من أمرهم. وقال قتادة، أي: حسبك ما قصصنا عليك من شأنهم وعن ابن عباس ﴿ ولا تستفت فيهم منهم أحدا ﴾ قال: هم أهل الكتاب. وعن أبي العالية في قوله: ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت ﴾ ثم ذكرت فاستثنى.

وقوله تعالى: ﴿ وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً ﴾ قال ابن كثير^(١)، أي: إذا سئلت عن شيء لا تعلمه فاسأل الله تعالى فيه، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك. وعن مجاهد ﴿ ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ﴾ قال: عدد ما لبثوا. وعن قتادة ﴿ أبصر به وأسمع ﴾ فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع تبارك وتعالى.



(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٧٩/٣).

الدرس السابع والخمسون بعد المائة

﴿ وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ
 دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْفَدْوَىٰ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ
 وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن
 ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ
 شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ
 كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ
 تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ
 وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا
 رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كَلَّمَا
 الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْلُهُمَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَاهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَمْ تُرْمَرْ فَقَالَ
 لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ
 لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ
 إِلَيَّ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَمْ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي
 خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَنَكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي
 أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنُّنًا أَنَا أَقَلُّ

مِنَكَ مَا لَّا وَوْلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا
 مِّنَ السَّمَاءِ فَنُصَبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا غُورًا فَلَن نَسْتَطِيعَ لَكَ طَلَبًا ﴿٤١﴾
 وَأَحِيطَ بِشَمْرُوهٍ فَاصْبِحْ يَقْلِبُ كَفْتِيهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي
 لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ﴿٤٣﴾
 هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَأَضْرَبَ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ
 اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ
 خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَا لَهُمْ فَلَمَّ
 نَعَادِرٍ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ
 زَعَمْتُمْ أَلَّن نَجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ
 وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا
 وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَأْتَلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ ٢٧ ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا نَطْعَ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ ٢٨ ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَزَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ ٢٩ ﴿.

عن مجاهد ﴿ملتحداً﴾ قال: ملجأ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ قال ابن عباس: لا تجاورهم إلى غيرهم. وعن سعد بن أبي وقاص قال: «كنا مع النبي ﷺ ستة، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾^(١). رواه مسلم.

وقوله تعالى: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾ قال مجاهد: ضياعاً.

وقوله تعالى: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾. قال البغوي^(٢): هذا على طريق التهديد والوعيد كقوله ﴿اعملوا ما شئتم﴾.

(١) أخرجه مسلم (٤/١٨٧٨).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/١٣٢).

وعن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ قال: حائط من نار ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل﴾ قال: هو ماء غليظ مثل دردي الزيت. وقال الضحاك: ماء جهنم أسود وهي سوداء وشجرها أسود وأهلها سود. وقال سعيد بن جبير: المهمل هو الذي قد انتهى حرّه. وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ويسقى من ماء صديد يتجرّعه﴾ قال: «يقرب إليه فيتكرهه، فإذا قرب منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شرب قطع أمعاءه، يقول الله: ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب﴾»^(١) رواه ابن جرير.

وعن مجاهد ﴿وساءت مرتفقاً﴾ قال: مجتمعاً.

وقال ابن كثير: ﴿وساءت مرتفقاً﴾، أي: وساءت النار نزلًا ومقيلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق، كما في الآية الأخرى ﴿إنها ساءت مستقرّاً ومقاماً﴾.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجْلُونَ فِيهَا مِن أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

لما ذكر تعالى حال الأشقياء، ثنى بذكر السعداء الذين آمنوا بالله ورسله وعملوا بما أمرهم به.

قال ابن كثير^(٢): والأرائك جمع أريكة وهي السرر تحت الحجلة والحجلة كما يعرفه الناس في زماننا هذا بالبشخانة والله أعلم.

(١) أخرجه أحمد (٢٦٥/٥)، والترمذي (ح/٢٥٨٣)، وقال: «حديث غريب»، والنسائي في الكبرى (٣٧١/٦)، وابن جرير (٢٤١/١٥)، والحاكم (٣٥١/٢ و ٣٦٨ - ٣٦٩)، وصححه، ووافقه الذهبي!! وأبو نعيم في الحلية (١٨٢/٨)، وفي سننه عبيد الله بن بسر، ويقال عبد الله، وهو مجهول.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٨٢/٣).

قوله عز وجل: ﴿ وَأَصْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْتَنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٣٢﴾ كَلَّمَا الْجِنَّتَيْنِ ءَأَنْتَ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظَلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُمُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبَحَ يَقْلَبُ كَفْتِهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُمُ فِتْنَةٌ بَصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ .

لما ذكر سبحانه وتعالى الكافرين المستكبرين والمؤمنين المستضعفين، ضرب لهم مثلاً بهذين الرجلين؛ قال قتادة في قوله: ﴿ فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً ﴾ تلك والله أمنيّة الفاجر كثرة المال وعزة النفس ﴿ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبعد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة ﴾ كفور لنعم ربه مكذب بلفائه متمن على الله .

وقوله تعالى: ﴿ قال له صاحبه وهو يحاوره ﴾، أي: يجادله ﴿ أكفرت بالذي خلقتك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً لكننا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً ﴾ .

قال البغوي^(١) وأصله: «لكن إنا» فحذفت الهمزة طلباً للتخفيف، لكثرة استعمالها، ثم أدغمت إحدى النونين في الأخرى.

وقال ابن كثير^(٢): «لكننا هو الله ربي»، أي: لكن أنا لا أقول بمقالتك، بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية «ولا أشرك بربي أحداً»، أي: بل هو الله المعبود وحده لا شريك له.

وقوله تعالى: «ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً»، أي: فتكبرت وتعظمت عليّ: قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله. «فعمسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك»، أي: في الآخرة «ويرسل عليها حساباً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً» قال قتادة: «حساباً» عذاباً «فتصبح صعيداً زلقاً» قال ابن عباس: مثل الجز «أو يصبح ماؤها غوراً» قال قتادة: ذاهباً قد غار في الأرض «فلن تستطيع له طلباً». «وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها» متلهفاً على ما فاته وهو «يقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً». وعن مجاهد في قول الله عز وجل: «ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله» قال: عشيرته «وما كان متصراً» قال قتادة: ممتعاً.

وقوله تعالى: «هنالك الولاية لله الحق».

قال ابن كثير^(٣): أي هنالك كل أحد مؤمن أو كافر، يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: «فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين»^(٤). «وهو خير ثواباً»، أي: جزاء «وخير عُقْباً»، أي: الأعمال التي تكون لله عز وجل ثوابها خير وعاقبتها حميدة رشيدة.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/١٣٥).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٨٣).

(٣) المصدر السابق (٣/٨٤).

(٤) سورة غافر: الآية ٨٤.

قوله عز وجل: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا الْحَيَوةَ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ أَمْوَالٌ وَالْبُنُونَ زِينَةُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسِِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ جِئَعَلَّ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿والباقيات الصالحات﴾ قال: هي ذكر الله قول: لا إله إلا الله والله أكبر، وسبحان الله والحمد لله، وتبارك الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله وصلى الله على رسول الله، والصيام والصلاة والحج، والصدقة والعتق والجهاد والصلة، وجميع أعمال الحسنات، وهنّ الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة ما دامت السموات والأرض.

وعن مجاهد ﴿وترى الأرض بارزة﴾ قال: لا حجر فيها ولا غيابة، ولا شجر ولا بناء ولا جبال فيها. وعن قتادة قوله: ﴿ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾ اشتكى القوم كما تسمعون الإحصاء، ولم يشتك أحد ظلماً، فإياكم والمحقرات من الذنوب، فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه. ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يضرب لها مثلاً يقول: «كمثل قوم انطلقوا يسيرون حتى نزلوا بفلاة من الأرض، وحضر صنيع القوم، فانطلق كل رجل يحتطب، فجعل الرجل يجيء بالعود ويجيء الآخر بالعود، حتى جمعوا سواداً كثيراً وأججوا ناراً، فإن الذنب الصغير يجتمع على صاحبه حتى يهلكه»^(١).

(١) أخرجه ابن جرير (٢٥٨/١٥)، وبنحوه مرفوعاً من حديث سعد بن جنادة رضي الله عنه: أخرجه الطبراني (٥٢/٦) بسند ضعيف.

الدرس الثامن والخمسون بعد المائة

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۖ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمَجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عِنَّا مَصْرَفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَمْبَشِرِينَ وَنَذِيرِينَ وَمُبَدِّلَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أَنْذَرُوا هُزُوعًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْبِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ۖ .

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ .

قال ابن كثير^(١): يقول تعالى منتبهاً بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم، ومقرراً لمن اتبعه منهم وخالف خالقه ومولاه، وهو الذي أنشأه وابتدأه بالطفاه ورزقه غداه، ثم بعد هذا كله والى إبليس وعادى الله فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ ، أي: خانه أصله، فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وَصَفَ لَكُمْ»^(٢). فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه وخانه الطبع عند الحاجة، وذلك أنه قد توسم بأفعال الملائكة وتشبه بهم وتعبد وتنسك فلهذا دخل في خطابهم وعصى بالمخالفة. انتهى.

وعن مجاهد في قول الله تعالى: ﴿ففسق عن أمر ربه﴾ قال: عصى في السجود لآدم ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني﴾ قال: ذريته هم الشياطين. قال قتادة: وهم يتوالدون كما يتوالد بنو آدم ﴿وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾ بئسما استبدلوا بعبادة ربهم إذ أطاعوا إبليس. ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾ قال: أعواناً.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٨٨/٣).

(٢) سبق تخريجه.

وقال ابن كثير^(١): يقول تعالى: أنا المستقلّ بخلق الأشياء كلها ومدبرها ومقدرها وحدي، ليس معي في ذلك شريك ولا وزير ولا مشير.

قوله عز وجل: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿وجعلنا بينهم موبقاً﴾ قال: مهلكاً. وقال الحسن: جعل بينهم عداوة يوم القيامة. وقوله تعالى: ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها﴾ قال قتادة: علموا.

وقال ابن كثير^(٢): أي أنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تقاد سبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك، فإذا رأى المجرمون النار تحقّقوا لا محالة أنهم مواقعوها، ليكون ذلك من باب تعجيل الهّم والحزن لهم، فإنّ توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز. وقوله: ﴿فلم يجدوا عنها مصرفاً﴾، أي: ليس لهم طريق يعدل بهم عنها، ولا بد لهم منها.

قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا لِمُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۗ وَمُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَطْلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۗ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ .

قال ابن زيد في قوله: ﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾ قال: الجدل

(١) المصدر السابق (٣/٨٩).

(٢) المصدر السابق (٣/٩٠).

الخصومة، خصومة القوم لأنبيائهم وردّهم عليهم ما جاءوا به. وفي الصحيحين عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ طرده وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة فقال: ألا تصليان؟ فقلت: يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إليّ شيئاً، ثم سمعته وهو مولّ يضرب فخذه ويقول: ﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين﴾، أي: في إهلاكهم إن لم يؤمنوا ﴿أو يأتيهم العذاب قبلاً﴾ قال ابن عباس: عياناً وقال مجاهد: فجأة، أي: ما منعهم من الإيمان إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عياناً.

وقوله تعالى: ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين﴾، أي: قبل العذاب ﴿ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُنَا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ۗ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً ۗ وَذَلِكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَمَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ۗ﴾.

عن قتادة في قوله: ﴿ونسي ما قدمت يداه﴾، أي: نسي ما سلف من الذنوب. وعن ابن عباس قوله: ﴿لن يجدوا من دونه موثلاً﴾ يقول: ملجأ. وعن مجاهد قوله: ﴿لمهلكهم موعدا﴾ قال: أجلاً.



(١) أخرجه البخاري (ح/ ١١٢٧ و ٤٧٢٤)، ومسلم (ح/ ٧٧٥).

الدرس التاسع والخمسون بعد المائة

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿١٨﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ ءَإِنَّا غَدَاءٌ نَأْكُلُ لَقِيْنَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَضَبًا ﴿١٩﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتِنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٢٠﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٢١﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَإِيْتَنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٢٢﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مَنْ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿٢٣﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٢٤﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ءَ خَبْرًا ﴿٢٥﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٢٦﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٢٧﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٢٨﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٢٩﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٣٠﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي بِنَافْسِي بَغَيْرِ زَكَاةٍ يُضَفَّفُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٣١﴾ ﴿٣٢﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٣٣﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٣٤﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَنبَأَ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبْوَأَا أَنْ يُضَيَّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَآقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٣٥﴾ ﴿٣٦﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّتُكَ بِبَنَائِيلٍ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٣٧﴾ أَمَا

السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ
كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا
وَكَفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا كَفَرُوا وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ
فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ
رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي
ذَلِكَ تَأْوِيلًا مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتْلِهِ لَا أَسْبَحُ حَتَّىٰ أَتْلُغَ
مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا
فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتْلِهِ إِيْنَا عَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ
سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتِنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا
أَنْسَيْتُهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ
فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَايَتْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا
وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿ حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾ والبحران: بحر فارس والروم،
وبحر الروم مما يلي الغرب، وبحر فارس مما يلي الشرق. وعن ابن عباس قوله
﴿ أو أمضي حقباً ﴾ قال: دهرًا. وقال عبد الله بن عمر: والحُقْبُ ثمانون سنة.

وقال ابن عباس: ﴿ فاتخذ سبيله في البحر سرباً ﴾ وحلَّق بيده. وعن مجاهد

قوله ﴿في البحر عجباً﴾ قال: موسى يعجب من أثر الحوت في البحر ودوراته التي غاب فيها، فوجدا عندها خطراً.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿١٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿١٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿١٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿١٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلِنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٢٠﴾ .

عن ابن عباس قال: ﴿فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً﴾ يعني عن شيء أصنعه حتى آبين لك شأنه.

قوله عز وجل: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿لقد جئت شيئاً إمراً﴾، أي: عجباً، إن قوماً لججوا سفينتهم فخرقتها كأحوج ما تكون إليها؟! ولكن علم من ذلك ما لم يعلم نبي الله موسى، ذلك من علم الله الذي آناه، وقد قال لنبي الله موسى عليه السلام ﴿فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً﴾.

قوله عز وجل: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا رَكِيَةً يُغَيِّرُ نَفْسِي لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ .

قال سعيد بن جبیر: وجد خضر غلاماناً يلعبون، فأخذ غلاماً ظريفاً فأضجعه ثم ذبحه بالسكين. وعن قتادة ﴿لقد جئت شيئاً نكراً﴾ والنكر أشد من الأمر. وعن أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «رحمة الله علينا، وعلى موسى، لو لبث مع

صاحبه لأبصر العجب، ولكنه قال: ﴿إِنْ سَأَلْتِكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تَصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِي عَذْرًا﴾^(١) رواه ابن جرير.

قوله عز وجل: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَنِيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رُحْمًا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا كُنَّا بِمَعْلُومِينَ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.

عن سعيد بن جبیر قال: قلت لابن عباس: أن نوحاً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر عليه السلام ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل، قال ابن عباس: كذب عدو الله، حدثنا أبي بن كعب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل: أي الناس أعلم؟ قال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه أن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رب وكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله بمكتل،

(١) أخرجه ابن جرير (٢٨٨/١٥)، وبنحوه مسلم (١٨٥١/٤) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه مرفوعاً: «رحمة الله علينا وعلى موسى، لولا أنه عجل لرأى العجب، ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة - أي حياءً وشفقة - قال: «إن سألتك...»، وبنحوه - أيضاً - البخاري (ج/٤٧٢٥ و ٤٧٢٧)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه مرفوعاً: «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما».

فحيثما فقدت الحوت فهو ثمّ، فأخذ حوتاً فجعله بمكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون عليه السلام، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر ﴿فاتخذ سبيله في البحر سرباً﴾ وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغداة ﴿قال﴾ موسى ﴿لفتاه آتانا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾ ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به ﴿قال﴾ له فتاه ﴿أرأيت إذا أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره فاتخذ سبيله في البحر عجباً﴾ قال: فكان للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجباً، فقال: ﴿ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً﴾ قال: فرجعا يقصّان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى بثوب، فسلم عليه موسى فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام؟ فقال: أنا موسى، فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال: أتيتك لتعلمني ﴿مما علّمت رشداً قال إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ يا موسى، إني على علم من علم الله علّمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علّمكه الله لا أعلمه، فقال موسى ﴿ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً﴾ قال له الخضر: ﴿فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً فانطلقا﴾ يمشيان على ساحل البحر، فمرّت سفينة فكلّموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قد حملونا بغير نول فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرأاً؟!﴾ قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً.

قال: وقال رسول الله ﷺ: فكانت الأولى من موسى نسياناً. قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة أو نقرتين، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر، ثم خرجا

من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل، إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى ﴿أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً﴾؟! ﴿قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾؟ قال: وهذه أشد من الأولى ﴿قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض﴾، أي: مائلاً، فقال الخضر بيده ﴿فأقامه﴾ فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا؟! ﴿لو شئت لاتخذت عليه أجراً﴾ قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً؛ فقال رسول الله ﷺ: «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما». قال سعيد بن جبير: كان ابن عباس يقرأ: وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً، وكان يقرأ: وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين^(١) رواه البخاري. وفي رواية: وفي أصل الصخرة عين يقال لها الحياة لا يصيب من مائها شيء إلا حَيِيَ، فأصاب الحوت من ماء تلك العين فتحرك وانسل من المکتل فدخل البحر. وفي رواية: فرجعا فوجدا خضراً على طنفسة خضراء على كبد البحر؛ وفيها قال سعيد: وجد غلماناً يلعبون فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً فأضجعه ثم ذبحه بالسكين، فقال: ﴿أقتلت نفساً زكية﴾ لم تعمل الخبث؟! وفيها كانت الأولى نسياناً والثانية شرطاً والثالثة عمداً. وعن ابن عباس في قوله: ﴿وكان أبوهما صالحاً﴾ قال: حُفِظَا بِصِلَاحِ أَبِيهِمَا.



(١) أخرجه البخاري (ح/٤٧٢٥)، ومسلم (ح/٢٣٨٠).

الدرس الستون بعد المائة

﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَانَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبِيلًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَنْدَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْتَ تُعَذِّبُ وَإِنَّمَا أَنْتَ تَتَّخِذُ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبِيلًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلِعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبِيلًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَنْدَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوجُ وَمَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٤﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قَطْرًا ﴿٩٥﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٦﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٧﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فُجِعَتْنَهُمْ جَمْعًا ﴿٩٨﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿٩٩﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠٠﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ آلِهَاتٍ إِنَّا أَعَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠١﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ

أَعْمَلًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ
 الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾
 ذَلِكَ جَزَاءُهمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوعًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُلْ
 لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ
 مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ
 فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيًّا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْنَؤُا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ نَعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَىٰ وَسَنُقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيًّا﴾ يقول: علماً ﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾ يعني بالسبب المنزل. وقال مجاهد: منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب.

قال ابن كثير^(١): يسر الله له الأسباب، أي الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم، وكسر الأعداء. وقال وهب بن منبه: سخر الله له النور والظلمة فجعلهما جنداً من جنوده. وروي عن علي رضي الله عنه: سخر له السحاب، ومدت له الأسباب، وبسط له النور، وأحب الله وأحبه.

قال بعض المفسرين: والسبب في اللغة: الحيل، والمراد ههنا: كل ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة.

وقال البخاري^(٢): باب قول الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿سَبِيًّا﴾ قال الحافظ: في إيراد المصنف ترجمة ذي القرنين قبل إبراهيم، إشارة إلى توهين قول من زعم أنه الإسكندر اليوناني.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١٠١/٣).

(٢) انظر الصحيح (٤٥٨/٢).

إلى أن قال: والذي يظهر أن الإسكندر لقب بذى القرنين تشبهاً به لسعة ملكه، والذي يقوي أن ذا القرنين من العرب كثرة ما ذكروه في أشعارهم. وقال الربيع بن ضبيع والصعب: ذو القرنين عمر ملكه ألفين، أمسى بعد ذلك رميمًا.

وعن ابن عباس: ﴿وجدها تغرب في عين حمئة﴾ قال: في طين أسود. قال ابن كثير^(١): وقوله ﴿وجدها تغرب في عين حمئة﴾، أي: رأوا الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه، وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة فيه لا تفارقه؛ والحمئة: مشتقة على إحدى القراءتين من الحمأة، وهو الطين أي طين أملس. وعن ابن عباس: وجدها تغرب في عين حامية، أي: حارة، ولا منافاة بين معنيها، إذ قد تكون حارة لمجاورتها وضح الشمس عند غروبها، وملاقاتها الشعاع بلا حائل، وحمئة في ماء وطين أسود.

وعن قتادة في قوله: ﴿أما من ظلم فسوف نعذبه﴾ قال: هو القتل. وقوله: ﴿ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً﴾، يقول: ثم يرجع إلى الله تعالى بعد قتله فيعذبه عذاباً عظيماً. وعن مجاهد قوله: ﴿من أمرنا يسراً﴾ قال: معروفاً. وقال البغوي^(٢): أي تلين له القول وتعامله باليسر.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلِعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾.

عن قتادة ﴿ثم أتبع سبباً﴾ منازل الأرض ومعالمها ﴿حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً﴾. قال ابن جرير^(٣): وذلك أرضهم لا جبل فيها ولا شجر ولا تحتل بناء فيسكنوا^(٤) البيوت، وإنما يغورون في المياه أو يسربون في الأسراب.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١٠٢/٣).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (١٤٩/٣).

(٣) انظر جامع البيان (١٤/١٦).

(٤) في (الأصل): «فيسكن»، والمثبت من تفسير ابن جرير، وهو الصواب.

وقوله تعالى: ﴿كذلك﴾، أي: كما حكم في القوم الذين هم عند مغرب الشمس حكم في هؤلاء ﴿وقد أحطنا بما لديه خبراً﴾.

قال البغوي^(١): يعني بما عنده ومعه من الجند والعدة والآلات ﴿خبراً﴾، أي: علماً.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿١٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا بَنِي آدَمَ إِنَّا فَجَوْحٌ وَمَأْجُوجٌ مُّفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ يُجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿١٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿١٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿١٦﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لِمِ نَقَبًا ﴿١٧﴾﴾.

عن قتادة في قوله: ﴿بين السدين﴾ قال: هما جبلان. قال أبو عبيدة: السد إذا كان بخلق الله فهو بضم السين، وإذا كان من عمل العباد فهو بالفتح. قال بعض المفسرين والردم أكبر من السد.

وقال ابن كثير في «البداية والنهاية»^(٢): أما السد فقد تقدم أن ذا القرنين بناه من الحديد والنحاس، وساوى به الجبال الصمّ الشامخات الطوال، فلا يعرف على وجه الأرض بناء أجلّ منه ولا أنفع للخلق منه في أمر دنياهم. قال البخاري: «وقال رجل للنبي ﷺ: رأيتُ السد قال: وكيف رأيتَه؟ قال: مثل البردِ المُحَبَّرِ، فقال: رأيتَه»^(٣). وعن قتادة قال: ذكر لنا «أن رجلاً قال: يا نبي الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج، قال أنعته، قال: كأنه البردُ المُحَبَّرِ، طريقة سوداء وطريقة

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/١٤٩).

(٢) انظر (٢/١١١).

(٣) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم (٢/٤٥٨).

حمراء، قال: قد رأيت^(١). وعن الضحاك في قوله: ﴿بين الصدفين﴾ يعني الجبلين، وهما من قبل أرمينية وأذربيجان.

قال ابن كثير: وقد بعث الخليفة الواثق في دولته بعض أمرائه، وجهاز معه جيشاً سرية، لينظروا إلى السد ويعاينوه وينعتوه له إذا رجعوا، فتوصلوا من بلاد إلى بلاد ومن مُلك إلى مُلك حتى وصلوا إليه، ورأوا بناءه من الحديد ومن النحاس، وذكروا أنهم رأوا فيه باباً عظيماً، وعليه أقفال عظيمة، ورأوا بقية اللبن والعمل في برج هناك، وأن عنده حرساً من الملوك المتاخمة له، وأنه عال منيف شاق لا يُستطاع ولا ما حوله من الجبال، ثم رجعوا إلى بلادهم، وكانت غيبتهم أكثر من سنتين، وشاهدوا أهوالاً وعجائب. انتهى.

قلت: ولا يشكل على ذلك أن الدول المتأخرة لم تكتشفه، فإنها وإن أعطيت ما أعطيت من القوة والآلة، فلم يبلغوا معشار ما أوتي ذو القرنين، فإن الله يسر له الأسباب والوسائل لفتح المدائن والأقاليم، وأطال عمره ووسع ملكه وكسر أعداءه، وسخر له النور والظلمة، فجعلهما جنداً من جنوده، وكان إذا انتهى إلى بحر أو مخاضة بنى سفناً من ألواح صغار أمثال النعال، فنظمها ثم جعل فيها جميع من معه من تلك الأمم والجنود، فإذا قطع الأنهار والبحار فتقها ثم دفع إلى كل إنسان لوحاً فلا يكرثه حملة، وكان إذا البحر الجامد ألقى عليه ما يذيبه فخاضه، وإذا أراد أن يجمد الماء ألقى عليه ما يجتده فمشى فوقه، وبعث النور والظلمة على ما يريد بحسب حاجته، وذلك مدد من الله تعالى، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وآتيناها من كل شيء سبباً﴾.

قال وهب بن منبه: ما بين الصدفين مائة فرسخ، فلما أنشأ في عمله حفر له أساساً حتى بلغ الماء، ثم جعل عرضه خمسين فرسخاً، وجعل حشوه الصخور، وطينه النحاس يذاب ثم يصب عليه، فصار كأنه عرق من جبل تحت الأرض، ثم علاه وشرّفه بزبر الحديد والنحاس المذاب.

(١) أخرجه ابن جرير (٢٣/١٦) عن قتادة مرسلًا.

وعن ابن جريج ﴿فما اسطاعوا أن يظفروه﴾ قال: يعلوه ﴿وما استطاعوا له نقباً﴾، أي: ينقبوه من أسفله. قال وهب بن منبه: وهو في منقطع أرض الترك مما يلي مَشْرِق الشمس، بُعْدُ ما بينهما مائة فرسخ، وجعل خلاله عرقاً من نحاس أصفر، فصار كأنه بُرْدٌ مُحَبَّرٌ من صفرة النحاس وحمرة وسواد الحديد.

وقال ابن كثير^(١): وقوله: ﴿وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً﴾، أي: لاستعجاب كلامهم وبعدهم عن الناس.

وقال البغوي^(٢): أي لا يفقهون كلام غيرهم. قال ابن عباس: لا يفقهون كلام أحد ولا يفهم الناس كلامهم. وقال في جامع البيان ﴿وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً﴾ يعني لعجمهم وقلة فطانتهم، لا يفهمون كلام أحد، ومن قرأ بضم الياء وكسر القاف، أي: لا يفهمون السامع لغرابة ألسنتهم.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾.

روى ابن جرير وغيره عن أبي هريرة عن نبي الله ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج يحفرونه كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فتحفرونه غداً، فيعيده الله وهو كهيئته، حتى إذا جاء الوقت قال: إن شاء الله، فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشقون المياه، ويتحصن الناس في حصونهم فيرمون، بسهامهم إلى السماء، فيرجع فيها كهيئة الدماء، فيقولون: قهرنا أهل الأرض، وعلونا أهل السماء، فيبعث الله عليهم نغماً في أفقائهم فتقتلهم، فقال

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/١٠٤).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/١٥٠).

رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، إن دواب الأرض لتسمن وتشكر من لحومهم»^(١).

وعن زينب بنت جحش رضي الله عنها قالت: «استيقظ النبي ﷺ من نومه وهو محمّر وجهه وهو يقول: لا إله إلا الله، ويل للعرب من شرّ قد اقترب، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلّق بأصبغه الإبهام والتي تليها، فقلت: يا رسول الله أفنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث»^(٢). متفق عليه.

وفي رواية: وعقد وهب تسعين. قال الحافظ العسقلاني: وعقد التسعين أن يجعل طرف السبابة اليمنى في أصلها ويضمها ضمّاً محكماً، بحيث تنطوي عقدتها حتى تصير مثل الحية المطوّقة. وقال: المراد بالردم السد الذي بناه ذو القرنين.

وقوله تعالى: ﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض﴾ قال السدي: ذاك حين يخرجون على الناس، أي: في زمان عيسى قبل يوم القيامة وبعد الدجال، كما قال تعالى: ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق﴾.

وقوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً﴾، أي: يوم القيامة ﴿وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعاً﴾، أي: تعاموا وتصامموا وتغافلوا عن قبول الحق واستماع القرآن، كما قال تعالى: ﴿صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ وفي الصحيحين: «إن الله تعالى يقول: يا آدم فيقول: لبيك وسعديك، فيقول: ابعث بعث النار؛ فيقول: ما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة، فحينئذ يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها،

(١) أخرجه أحمد (٢/٥١٠ و ٥١١)، والترمذي (ح/٣١٥٣)، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (ح/٤٠٨٠)، وابن جرير (٢١/١٦) د والحاكم (٤/٤٨٨)، وصححه، ووافقه الذهبي، وهو كما قال.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٣٣٤٦ و ٣٥٩٨ و ٧٠٥٩)، ومسلم (ح/٢٨٨٠).

فقالوا: يا رسول الله وأئنا ذلك الواحد؟ فقال: إن فيكم أمّتين ما كانتا في شيء إلاّ كثرناه: يأجوج ومأجوج^(١).

قوله عز وجل: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٧﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿١٠٩﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١١١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا ﴿١١٢﴾﴾.

عن ابن جريج في قوله: ﴿أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء﴾ قال: يعني من يعبد المسيح ابن مريم والملائكة، وهم عباد الله ولم يكونوا للكفار أولياء. عن مصعب بن سعد قال: قلت لسعد: يا أبت ﴿هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً﴾ أهم الحرورية؟ فقال: لا ولكنهم أصحاب الصوامع، ولكن الحرورية قوم زاغوا فأزاغ الله قلوبهم. وفي رواية: ولكن الحرورية الذين ﴿ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون﴾، فكان سعد يسميهم الفاسقين^(٢).

وعن عليّ بن أبي طالب أن ابن الكوّاء سأله عن قول الله عز وجل: ﴿هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً﴾ فقال: أنت وأصحابك. وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال: اقرأوا إن شئتم ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾^(٣). متفق

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٧٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (ح/٤٧٢٩)، ومسلم (ح/٢٧٨٥).

عليه. وفي الصحيحين أيضاً: «إذا سألتهم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنها أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفتح أبواب الجنة»^(١).

قال ابن كثير^(٢): وقوله تعالى: ﴿نَزَلًا﴾، أي: ضيافة ﴿خالدين فيها لا يغيغون عنها حولًا﴾ قال ابن عباس: لا يريدون أن يتحولوا عنها، كما ينتقل الرجل من دار إذا لم توافقه إلى دار أخرى.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنْفَذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾^(١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(١١٠).

عن قتادة قوله: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي﴾ إذا ﴿لنفذ﴾ ماء البحر ﴿قبل أن تنفذ كلمات﴾ الله وحكمه.

وقوله تعالى: ﴿ولو جئنا بمثله مددا﴾.

قال ابن كثير^(٣): أي بمثل البحر آخر ثم آخر وهلمّ جزأً، بحور تمدّه ويكتب بها لما نفذت كلمات الله، كما قال تعالى: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفذت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾^(٤).

وقوله تعالى: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾، أي: فأني لا أعلم الغيب إلا ما أطلعني الله عليه من خبر أصحاب الكهف وذي القرنين وغير ذلك ﴿يوحى إليّ أنما

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٧٢٩)، ومسلم (ح/٢٧٨٥). أخرجه البخاري (ح/٢٧٩٠ و٧٤٢٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ووهم المؤلف - رحمه الله - فظن الحديث عند مسلم أيضاً.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١٠٨/٣).

(٣) المصدر السابق (١٠٨/٣).

(٤) سورة لقمان: الآية ٢٧.

إلهكم إله واحد ﴿ قال ابن عباس: علّم الله رسوله التواضع لئلا يزهو على خلقه، فأمره الله أن يقرّ فيقول: أنا آدمي مثلكم إلا أنّي خُصّصْتُ بالوحي، وأكرمني الله به ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾.

قال ابن جرير^(١): فمن يخاف ربه يوم لقائه ويراقبه على معاصيه ويرجو ثوابه على طاعته ﴿فليعمل عملاً صالحاً﴾ يقول: فليخلص له العبادة وليفرد له الربوبية. وعن سعيد بن جبير ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ قال: ثواب ربه. قال البغوي: فالرجاء يكون بمعنى الخوف والأمل جميعاً.

وقوله تعالى: ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ قال سفيان: لا يرائي. وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ يرويه عن الله عز وجل أنه قال: «أنا خير الشركاء، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا بريء منه هو والذي أشرك»^(٢). رواه أحمد.



(١) انظر «جامع البيان» (٣٩/١٦).

(٢) أخرجه أحمد (٣٠١/٢)، وبنحوه ومسلم (ح/٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الدرس الحادي والستون بعد المائة

﴿سورة مريم عليها السلام﴾

مكية، وهي ثمان وتسعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كَهَيْعَاصَ ۙ ١﴾ ذَكَرْ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ۙ ٢﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۙ ٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۙ ٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۙ ٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ أُمَّالِ يَعْقُوبُ ۙ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۙ ٦﴾ يَنْزَكِرِيًّا إِنَّا نَبِئُكَ بِغُلَامٍ اَسْمُهُ يَجِيءُ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۙ ٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۙ ٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْدٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۙ ٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَاتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۙ ١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۙ ١١﴾ يَذِيحِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحَكْمَ صَبِيًّا ۙ ١٢﴾ وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ۙ ١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۙ ١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۙ ١٥﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿كَهَيْعَصَ ﴿١﴾ ذَكَرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَأْيِ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِن آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾، أي: سراً، وإن الله يعلم القلب النقي ويسمع الصوت الخفي ﴿قال رب إني وهن العظم مني﴾، أي: ضعف ﴿واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً﴾ قال ابن جريج يقول: قد كنت تعرفني الإجابة فيما مضى ﴿وإني خفت الموالى من ورائي﴾ قال ابن عباس: يعني بالموالي الكلالة الأولياء أن يرثوه، فوهب الله له يحيى. قال قتادة: هم العصابة.

وقوله تعالى: ﴿يرثني ويرث من آل يعقوب﴾ قال مجاهد: كان وراثته علماً، وكان زكريا من ذرية يعقوب. وقال الحسن: يرث نبوته وعلمه.

قال البغوي^(١): وقال الزجاج: والأولى أن يحمل على ميراث غير المال، والمعنى أنه خاف تضييع بني عمه دين الله وتغيير أحكامه، على ما كان شاهد من بني إسرائيل من تبديل الدين وقتل الأنبياء، فسأل ربه ولدًا صالحاً يأمنه على أمته ويرث نبوته وعمله، لئلا يضيع الدين، وهذا معنى قول عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله: ﴿واجعله رب رضيعاً﴾.

(١) انظر «معالم التنزيل» (١٥٨/٣).

قال ابن كثير^(١): أي مَرَضِيًّا عندك وعند خلقك، تحبه وتحببه إلى خلقك في دينه وخلقِهِ.

قوله عز وجل: ﴿يَنْزِكْرِيًّا إِنَّا نَبِّشُرُكَ بِغُلَامٍ اَسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۗ﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۚ﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۚ﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۚ﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۚ﴾.

عن قتادة قوله: ﴿يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى﴾ عبد أحياء الله للإيمان ﴿لم نجعل له من قبل سمياً﴾ قال: لم يسمّ قبله أحد بهذا الاسم. وقال ابن عباس: لم تلد العواقر مثله ولداً قط. وقال مجاهد ﴿عتياً﴾ يعني تحول^(٢) العظم. وعن ابن عباس ﴿ثلاث ليال سويّاً﴾ قال: اعتقل لسانه من غير مرض. قال قتادة: وإنما عوقب بذلك لأنه سأل آية بعدما شافهته الملائكة مشافهة، أخذ بلسانه حتى ما كان يفض الكلام إلا أوماً إيماء.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويّاً﴾ وأنت صحيح، قال: فحبس لسانه فكان لا يستطيع أن يكلم أحداً، وهو في ذلك يسبح ويقرأ التوراة، ﴿فخرج على قومه من المحراب﴾ قال: المحراب مصلاه ﴿فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً﴾ وهو لا يكلمهم.

قوله عز وجل: ﴿يَنبَحِينَ حَذِ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ وَأَنبَتَهُ الْخُكْمُ صَبِيًّا ۚ﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ۚ﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۚ﴾

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/١١١).

(٢) في (الأصل): «فحول»، وهو خطأ.

وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ .

عن مجاهد ﴿خذ الكتاب بقوة﴾ قال: بجِدِّ. وقال ابن زيد: القوة أن يحمل ما أمره الله به، ويجانب فيه ما نهاه الله. قال ابن جبير وقوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحَكْمَ صَبِيًّا﴾ يقول تعالى ذكره: وأعطيناه الفهم بكتاب الله في حال صباه قبل بلوغه أسنان الرجال.

وقوله: ﴿وَحَنَانًا مِّنَ لَّدُنَّا﴾ يقول تعالى ذكره: ورحمة منا به ومحبة له ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحَكْمَ صَبِيًّا﴾. وعن ابن عباس قوله: ﴿وَحَنَانًا مِّنَ لَّدُنَّا﴾ يقول: ورحمة من عندنا. وقال الضحاك: رحمة من عندنا لا يملك عطاءها أحد غيرنا. وعن مجاهد قوله: ﴿وَحَنَانًا مِّنَ لَّدُنَّا﴾ قال: تعطفاً من ربه عليه. وعن قتادة قوله: ﴿وَزَكَاةً﴾ قال: الزكاة العمل الصالح. وعن ابن عباس: ﴿وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ قال: طُهِرَ فلم يعمل بذنوب. وقال ابن عطية: أوحش ما يكون الخَلْقُ في ثلاثة مواطن: يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يُبْعَثُ فيرى نفسه في محشر عظيم؛ قال: فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصه بالسلام عليه فقال: ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾. وقال الحسن: إن عيسى ويحيى التقياء، فقال له عيسى: استغفر لي أنت خير مني، فقال له الآخر: استغفر لي أنت خير مني، فقال له عيسى: أنت خير مني، سلّمْتُ على نفسي وسلّم الله عليك، فعرف والله فضلهما.

قال ابن كثير^(١): وقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَارًا عَصِيًّا﴾ لما ذكر تعالى طاعته لربه وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة وتقى، عطف بذكر طاعته لوالديه، وبرّه بهما، ومجانبته عقوقهما، قولاً وفعلاً، أمراً ونهياً، ولهذا قال: ﴿ولم يكن جباراً عصياً﴾ ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/١١٣).

الدرس الثاني والستون بعد المائة

﴿ وَأذْكَرٌ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَاتِهِ مُنْذَرٌ ﴿٢١﴾ وَلَنَجْعَلَنَّهَا آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢٢﴾ ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٣﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِنَّكِ حَيْضٌ فَخَلَّتْ بِغِيْبٍ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴿٢٤﴾ فَنَادَتْهَا مِنْ أَلْفِ مَسِيرٍ قَالَتْ يَا حَسْبُ عِلْمِي أَنَّي إِذْ جَاءَنِي الْمَاجِدُ فَأَخَذَنِي وَقَدِ الْخَلَّةُ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا حِينًا ﴿٢٥﴾ فَكَلِمَةَ أَشْرَىٰ وَقَرْيَةٍ عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَتَأَخَذَتِ هُنَّ مِنْكَ آيَةً وَإِن كَانِ مِنكُ بِغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَ اللَّهِ إِذَا قُضِيَ

أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ
مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَأَخْلَفَ الْأَحْرَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوِيلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾
وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ
وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لِكَ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ .

عن قتادة في قوله: ﴿واذكر في الكتاب مريم إذا انتبذت﴾، أي: انفردت ﴿من أهلها﴾ قال السدي: خرجت مريم إلى جانب المحراب لحيض أصابها، وهو قوله: ﴿فانتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾ في شرقي المحراب ﴿فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً﴾ قال وهب بن منبه: أرسل الله جبريل إلى مريم، وقال السدي: فلما طهرت من حيضها إذا هي برجل معها قالت: ﴿إني أعوذ﴾ بالله ﴿منك إن كنت تقياً﴾ قال ابن زيد: قد علمت أن التقي ذو نهيمة ﴿قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً﴾ قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسنني بشر ولم أك بغياً﴾ قال جبريل: ﴿كذلك قال ربك هو علي هين﴾ وإن لم يكن لك بعل ولا يوجد منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قادر، ولهذا قال ﴿ولنجعله آية للناس﴾، أي: علامة على قدرة الله ﴿ورحمة منا﴾ للمؤمنين ﴿وكان أمراً مقضياً﴾ لا يرد ولا يبذل. وقد قال تعالى: ﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾^(١). قال وهب بن منبه: لما أرسل الله جبريل إلى مريم نفخ في جيب درعها، حتى وصلت النفخة إلى الرحم فاشتملت.

(١) سورة الأنبياء: الآية ٩١.

قوله عز وجل: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا نَسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَزَيْتُكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكَلِمَى وَأُشْرِبِي وَقَرِي عَيْنًا فِيمَا تَرِينَ مِنْ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾ .

عن ابن عباس ﴿فانتبذت به مكاناً قاصياً﴾ قال: مكاناً نائياً. وعن قتادة ﴿فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة﴾ قال: اضطرها إلى جذع النخلة. وقال السدي: ﴿قالت﴾ وهي تطلق استحياء من الناس ﴿يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً نسياً﴾ قال قتادة تقول: لا أعرف ولا يدري من أنا. وقال ابن زيد ﴿فناداها من تحتها﴾ قال: عيسى ناداها ﴿ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً﴾ قال البراء بن عازب: هو الجدول. وقال ابن عباس: وهو نهر عيسى. وقال سعيد بن جبير: هو الجدول، النهر الصغير، وهو بالنبطية سري. وعن ابن عباس ﴿وهزي إليك بجذع النخلة﴾ قال: كان جذعاً يابساً، فقال: هُزِيه ﴿تساقط عليك رطباً جنياً﴾ قال عمرو ابن ميمون: ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب.

وقوله تعالى: ﴿فكلمي واشربني وقرّي عيناً فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ قال الضحاك: كان من بني إسرائيل من إذا اجتهد صام من الكلام كما يصوم من الطعام، إلا من ذكر الله.

قوله عز وجل: ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَتَأَخَتُ هَهُنَا مَا كَانَ أَبُوكِ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ

يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ
الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ
لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ .

عن قتادة ﴿لقد جئت شيئاً فريباً﴾ قال: عظيماً ﴿يا أخت هارون ما كان أبوك
امراً سوء وما كانت أمك بغياً﴾ قال: كانت من أهل بيت يُعرفون بالصلاح ولا
يُعرفون بالفساد، قال: وكان من بني إسرائيل رجل صالح يسمى هارون، فشبّهوا
به يعني في الصلاح. وعن المغيرة بن شعبة قال: «بعثني رسول الله ﷺ إلى أهل
نجران فقالوا لي: ألستم تقرأون ﴿يا أخت هارون﴾؟ قلت: بلى، وقد علمتم ما
كان بين عيسى وموسى، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: ألا أخبرتهم
أنهم كانوا يسمّون بأنبيائهم والصالحين قبلهم»^(١). رواه مسلم وغيره.

وعن وهب بن منبه ﴿فأشارت إليه﴾ يقول: أشارت إليه أن كلموه ﴿قالوا
كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾ فأجابهم عيسى عنها فقال لهم ﴿إني عبد الله
آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ الآية. وقال عكرمة ﴿آتاني الكتاب﴾ قضي أن يؤتيني
الكتاب. وعن مجاهد ﴿وجعلني مباركاً أينما كنت﴾ قال: مقاماً. وقال سفيان:
معلماً للغير. وقال قتادة: ذكر لنا أنه كان يقول: سلوني فإن قلبي لئن، وإني
صغير في نفسي، مما أعطاه الله من التواضع. وقال بعض السلف: لا تجد عاقاً إلا
وجدته جباراً شقياً، ولا تجد سيئاً المَلَكَةَ إلا وجدته مختالاً فخوراً.

وعن قتادة قوله ﴿ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون﴾ امترت
اليهود والنصارى، فأما اليهود فزعموا أنه ساحر كذاب، وأما النصارى فزعموا أنه
ابن الله، وثالث ثلاثة، وإله، وكذبوا كلهم، ولكنه عبد الله ورسوله، وكلمته
وروحه.

(١) أخرجه مسلم (ح/٢١٣٥).

قوله عز وجل: ﴿فَأَخْلَفَ الْأَخْرَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَا تَوَنَّا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَرْنَا الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ .

قال قتادة: ذكر لنا أنه لما رفع ابن مريم انتخبت بنو إسرائيل أربعة من فقهاءهم فقالوا للأول: ما تقول في عيسى؟ قال: هو الله هبط إلى الأرض فخلق ما خلق وأحيا ما أحيا، ثم صعد إلى السماء، فتابعه على ذلك ناس من الناس فكانت اليعقوبية من النصارى، وقال الثلاثة الآخرون: نشهد أنك كاذب؛ فقالوا للثاني: ما تقول في عيسى؟ قال: هو ابن الله، فتابعه على ذلك ناس من الناس فكانت النسطورية من النصارى، وقال الاثنان الآخران: نشهد إنك كاذب؛ فقالوا للثالث: ما تقول في عيسى؟ قال: هو إله وأمه إله والله إله، فتابعه على ذلك ناس من الناس فكانت الإسرائيلية من النصارى، فقال الرابع: أشهد أنك كاذب، ولكنه عبد الله ورسوله، هو كلمة الله وروحه، فاختمت القوم فقال المرء المسلم: أنشدكم الله ما تعلمون أن عيسى كان يَطْعَمُ الطعام، وأن الله تبارك وتعالى يُطْعَمُ الطعام؟ قالوا: اللهم نعم، قال: ما تعلمون أن عيسى كان ينام؟ قالوا: اللهم نعم، قال: فخصمهم^(١) المسلم.

وقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَا تَوَنَّا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، أي: ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة. قال قتادة: سمعوا حين لا ينفعهم السمع، وأبصروا حين لم ينفعهم البصر. وقال ابن زيد: هذا في القيامة، فأما في الدنيا فلا، كانت على أبصارهم غشاوة وفي آذانهم وقراً.

وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار فيقال: يا أهل

(١) في (الأصل): «فخصمهم»، وهو خطأ.

الجنة هل تعرفون هذا؟ قال: فيشربون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، قال: فيقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال: فيشربون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، قال: فيؤتى به فيذبح، قال ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون﴾ وأشار بيده ثم قال: أهل الدنيا في غفلة الدنيا^(١).
رواه أحمد وغيره.

وكتب عمر بن عبد العزيز لبعض عماله: «أما بعد فإن الله كتب على خلقه حين خلقهم الموت فجعل مصيرهم إليه، وقال فيما أنزل في كتابه الصادق الذي حفظه بعلمه وأشهد ملائكته على حفظه، أنه يرث الأرض ومن عليها وإليه ترجعون».



(١) أخرجه أحمد (٩/٣ و ٥٦)، والبخاري (ح/٤٧٣٠)، ومسلم (ح/٢٨٤٩).

الدرس الثالث والستون بعد المائة

﴿ وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ^{٤٤} إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ^{٤٤} إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ^{٤٥} يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ^{٤٦} يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ^{٤٧} يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ^{٤٨} قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ^{٤٩} قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ^{٤٩} إِنَّهُمْ كَانُوا فِي حَافِيًّا ^{٤٩} وَأَعْتَزَلْتُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ^{٥٠} فَلَمَّا أَعْتَزَلْتُمْ وَمَا يَعْْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمُ اسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ^{٥٠} وَكَلَّمْنَا جَعْلَانَ نَبِيًّا ^{٥١} وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ^{٥١} وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ^{٥٢} إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ^{٥٢} وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ^{٥٣} وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ^{٥٣} وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ^{٥٤} إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ^{٥٤} وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ^{٥٥} وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ^{٥٥} إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ^{٥٥} وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ^{٥٦} أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ^{٥٦} إِذَا نُنَادَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ^{٥٦} ﴿ خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ

غِيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ
 شَيْئًا ﴿٦٠﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَا
 يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ
 مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُمْ مَأْكِنٌ أَيْدِينَا وَمَا خَلَقْنَا وَمَا
 بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ
 لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيَّ سَا سْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ .

قال البغوي^(١): الصديق الكثير الصدق القائم عليه وعن الحسن ﴿واهجرتني ملياً﴾ قال طويلاً. قال ابن إسحاق يقول: دهرأ والدهر الملي وعن ابن عباس [قوله] «إنه كان بي حفياً» يقول لطيفاً.

قال ابن جرير^(٢): وقوله: ﴿وأعتزلكم وما تدعون من دون الله﴾ يقول وأجتنبكم وما تدعون من دون الله من الأوثان والأصنام ﴿وأدعو ربي﴾، يقول: وأدعو ربي بإخلاص العبادة له وإفراده بالربوبية ﴿عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً﴾، يقول: عسى أن لا أشقى بدعاء ربي، ولكن يجيب دعاء ربي، ويعطني ما أسأله.

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلْتُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ .

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/١٦٥).

(٢) انظر «جامع البيان» (١٦/٩٢).

عن ابن عباس قوله: ﴿وجعلنا لهم لسان صدق علياً﴾ يقول الثناء الحسن.

قوله عز وجل: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾.

قال البغوي: ﴿مخلصاً﴾، أي: مختاراً اختاره الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿ونادينا من جانب الطور الأيمن﴾، أي: جانبه الأيمن من موسى حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة.

وعن ابن عباس ﴿وقربناه نجياً﴾ قال: أذني حتى سمع صريف القلم ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾ قال: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد وهب له نبوته.

قوله عز وجل: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾.

عن مجاهد في قوله: ﴿إنه كان صادق الوعد﴾ قال: لم يعد شيئاً إلا وفى به. قال بعض السلف: إنما قيل له: صادق الوعد لأنه قال لأبيه: ستجدني إن شاء الله من الصابرين، فصدق في ذلك. وقد قال النبي ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»^(١).

قوله عز وجل: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا نُتِلَّىٰ عَلَيْهِمُ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾.

(١) سبق تخريجه.

عن مجاهد ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ قال: السماء الرابعة. وفي حديث المعراج في الصحيحين أنه ﷺ لما عرج به إلى السماء قال: «أتيت على إدريس في السماء الرابعة»^(١). وعن الأعمش عن إبراهيم قال: قرأ عمر بن الخطاب سورة مريم فسجد، فقال: «هذا السجود فأين البكي؟»^(٢).

قوله عز وجل: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَٰعِدِهِمْ خَلْفًا أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُمْ كَانُوا وَعْدُ مَا نَبَأُوا ﴿٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ فِيهَا زُكُورَةٌ وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُمْ مَأْكِنٌ أَيْدِينَا وَمَا كُنَّا وَفَا عِبْدَهُمْ وَأَصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُمْ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾.

عن ابن مسعود أنه قيل له: إن الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ و﴿على صلاتهم دائمون﴾ و﴿على صلاتهم يحافظون﴾ فقال ابن مسعود رضي الله عنه: على مواقيتها، قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على الترك، قال: «ذاك الكفر»^(٣).

وعن مجاهد قوله: ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيًّا﴾ قال: عند قيام الساعة وذهاب صالح أمة محمد ﷺ، ينزرو بعضهم على بعض في الأزقة. وعن أبي عبيدة عن أبيه عبد الله أنه قال في

(١) سبق تخريجه في أول سورة الإسراء.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (ص ٣٠٣ و ٣٠٤)، وابن جرير (٩٨/١٦)، وابن

أبي حاتم (كما عز له ابن كثير في تفسيره) (١٢٧/٣)، وسنده صحيح، وصحح ابن كثير

في مسند الفاروق (٥٩٥/٢) إسناده.

(٣) أخرجه ابن جرير (٩٩/١٦).

هذه الآية ﴿فسوف يلقون غياً﴾ قال: نهر في جهنم خبيث الطعم بعيد القعر يعذب فيه الذين يتبعون الشهوات^(١).

وقوله تعالى: ﴿إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً﴾ جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب ﴿﴾، يعني: أنهم لم يروها ﴿إنه كان وعده مأثياً﴾، أي: العباد صائرون إلى ما وعدهم الله، ووعدته آت لا محالة. وعن قتادة قوله: ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيّاً﴾ فيها ساعتان: بكرة وعشيّ، فإن ذلك لهم لبس ثم ليل، إنما هو ضوء ونور، وقال: كانت العرب إذا أصاب أحدهم الغداء والعشاء يحجب له، فأخبرهم الله أن لهم في الجنة بكرة وعشيّاً قدر ذلك الغداء والعشاء. وقوله تعالى: ﴿تلك الجنة التي نورث من عبادنا ممن كان تقياً﴾ قال ابن جرير يقول: من كان بكرة وعشيّاً قدر ذلك الغداء والعشاء ذا اتقاء عذاب الله، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، وعن ابن عباس: «أن محمداً قال لجبرائيل: ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فنزلت هذه الآية ﴿وما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً﴾. قال: هذا الجواب لمحمد ﷺ. رواه ابن جرير وغيره. وقال سعيد بن جبير ﴿له ما بين أيدينا﴾ من أمر الآخرة ﴿وما خلفنا﴾ ما مضى من الدنيا. وعن مجاهد ﴿وما كان ربك نسياً﴾ قال: ما نسيتك ربك. وعن قتادة قوله: ﴿هل تعلم له سميّاً﴾ لا سميّ الله ولا عدل له، كل خلقه يقوله، ويعترف: الله خالقه، ويعرف ذلك ثم يقرأ هذه الآية ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾. وعن مجاهد في هذه الآية ﴿هل تعلم له سميّاً﴾ قال: هل تعلم له شبيهاً؟ هل تعلم له مثلاً تبارك وتعالى؟.



(١) أخرجه ابن جرير (١٦/١٠٠)، والطبراني (٩/٢٥٩) والحاكم (٢/٣٧٤)، وصححه، ووافقه الذهبي!! قلت: بل سنده ضعيف، فأبو عبيدة لم يسمع من أبيه شيئاً، كما ذكر ذلك ورجحه العديد من الحفاظ، وأبو إسحاق السبيعي مدلس، وقد عنعنه.

الدرس الرابع والستون بعد المائة

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِثُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا
خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَتَرْيَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَيْكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ
حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ
لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا
مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نَسْجِي الَّذِينَ أَتَقَوْا وَنَدْرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا نُتِلَّىٰ عَلَيْهِمْ
ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ
أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِعِيًّا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ
الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ
مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَيِّنَاتُ الصَّلَاحُتُ
خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِءَايَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا
وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ
وَنُمَدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنُرْثِيهِ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَأَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ
ءَالِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ
أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكٰفِرِينَ تَوْرُهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ
عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ
وَرْدًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا أَخَذَ

الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ
الْأَرْضُ وَنَحَرَ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ
وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُنْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ
وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ
الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ
أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا ﴿٩٨﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَيْدَا مَا مِثْ لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوْلَا
يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَيْكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ
وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ
أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِيبًا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِنْ مَنَعْتُمْ إِلَّا
وَارِدَهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ تَنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا
جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ .

في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وأذاني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما أذاه إياي فقوله: إن بها ولدًا وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»^(١).

وعن ابن عباس قوله: ﴿ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً﴾، يعني: القعود، وهو مثل قوله: ﴿تري كل أمة جائية﴾^(٢). ﴿ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً﴾ يقول: أيهم أشد للرحمن معصية، وهي معصيته في الشرك. وقال أبو الأحوص: نبدأ بالأكبر فالأكبر جرماً.

وقوله تعالى: ﴿ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً﴾.
قال البغوي^(٣): أي أحق بدخول النار، يقال: صلى يصلي^(٤) صلياً إذا دخل النار وقاسى حرّها.

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٩٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سورة الجاثية: الآية ٢٨.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/١٧٠).

(٤) في (الأصل): «صلى يعني صلياً»، والمثبت من تفسير البغوي، وهو الصواب.

وقال ابن كثير^(١): ثم ههنا لعطف الخبر على الخبر، والمراد أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى بنار جهنم ويخلد فيها، وبمن يستحق تضعيف العذاب.

وعن ابن عباس قوله: ﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً﴾، يعني: البر والفاجر. وعن ابن مسعود ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ قال: داخلها. وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يردها الناس كلهم ثم يصدّرون عنها بأعمالهم»^(٢). رواه أحمد وغيره. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار إلاّ تحلّة القَسَم»^(٣).

وعن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يوضع الصراط بين ظهري جهنم، عليه حسك كحسك السعدان ثم يستجيز الناس فناج مسلمٌ ومجروح به، ثم ناجٍ ومحتبس ومكدس فيها، حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد، تفقّد المؤمنون رجالاً كانوا معهم في الدنيا، يصلّون صلاتهم ويزكّون زكّاتهم، ويصومون صيامهم ويحجّون حجهم ويغزون غزوهم فيقولون: أي ربنا، من عبادك كانوا معنا في الدنيا يصلّون صلاتنا ويزكّون زكّاتنا، ويصومون صومنا ويحجّون حجنا ويغزون غزونا، لا نراهم! فيقول: اذهبوا إلى النار فمن وجدتم فيها منهم فأخرجوه، فيجدونهم قد أخذتهم النار على قدر أعمالهم، فمنهم من أخذته النار إلى قدميه، ومنهم من أخذته إلى نصف ساقه، ومنهم من أخذته إلى ركبتيه، ومنهم من أخذته إلى ثديه، ومنهم من أخذته إلى عنقه، ولم تغشّ الوجوه، فيستخرجونهم منها فيطرحونهم في ماء الحياة، قيل: وما ماء الحياة يا

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١٣١/٣).

(٢) أخرجه أحمد (٤٣٥/١)، والترمذي (ح/٣١٥٩)، وحسنه، والدارمي (٢/٣٣٦)، والحاكم (٢/٣٧٥ و ٤/٥٨٦)، وقال صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وهو كما قالاً.

(٣) أخرجه البخاري (ح/١٢٥١)، ومسلم (٢/٢٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

رسول الله؟ قال: غسل أهل الجنة فينبتون كما تنبت الزرعة في غشاء السيل، ثم تُشْفَعُ الأنبياء في كل من كان يشهد أن لا إله إلا الله مخلصاً، فيستخرجونهم منها، ثم يتحنن الله برحمته على من فيها، فما يترك فيها عبداً في قلبه مثقال ذرة من الإيمان إلا أخرجته منها^(١). رواه ابن جرير.

وعن حفصة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إني لأرجو أن لا يدخل النار إن شاء الله أحد شهد بديراً والحديبية، قالت فقلت: أليس الله يقول: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾. قالت: فسمعتة يقول: ﴿ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾^(٢). رواه أحمد وغيره.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيعًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَن هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَيْتُ الصَّلَاحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾.

عن ابن عباس: ﴿وإذا تلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا، أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً﴾، قال: المقام المسكن، والندي المجلس والنعمة والبهجة. قال قتادة: رأوا أصحاب رسول الله ﷺ في عيشهم خشونة، وفيهم قشافة فعرض أهل الشرك بما تسمعون ﴿وكم أهلكنا قبلهم من

(١) أخرجه أحمد (١١/٣)، وابن ماجه (ح/٤٢٨٠) مختصراً، وابن جرير (١١٣/١٦) وهو حديث حسن.

(٢) أخرجه أحمد (٢٨٥/٦) وبنحوه من حديث جابر رضي الله عنه، أخرجه أحمد (٣٩٦/٣)، وهو حديث صحيح وبنحوه - أيضاً - من حديث أم بشر - رضي الله عنها - : أخرجه مسلم (ح/٢٤٩٦)، وأحمد (٣٩٢/٦) (ح/٢٤٩٦) إلا أن فيه: «أصحاب الشجرة».

قرن هم أحسن أثاثاً ورثياً ﴿ قال: أكثر متاعاً وأحسن منزلةً ومستقراً، فأهلك أموالهم وأفسد صورهم عليهم، تبارك وتعالى. وقال ابن عباس: الرثي المنظر الحسن.

وعن مجاهد قوله: ﴿ في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً ﴾ فليدعه الله في طغيانه.

وقوله تعالى: ﴿ حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما ﴾، أي: في الدنيا ﴿ وإما الساعة ﴾ فيدخلون النار ﴿ فسيعلمون ﴾ عند ذلك ﴿ من هو شر مكاناً وأضعف جنداً ﴾ أهم أم المؤمنون؟ ﴿ ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ﴾، أي: إيماناً و يقيناً على يقينهم ﴿ والباقيات الصالحات ﴾، أي: الأذكار وجميع الأعمال الصالحة التي تبقى لصاحبها ﴿ خير عند ربك ثواباً وخير مردداً ﴾، أي: عاقبة ومرجعاً.

قوله عز وجل: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُمُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنُرِثُهُمْ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾.

في الصحيحين عن خباب بن الأرت قال: «كنت رجلاً قيناً وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أنقاضه منه فقال: لا والله لا أفضيك حتى تكفر بمحمد فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث قال: فإنني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد فأعطيتك، فأنزل الله ﴿ أفرايت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا ﴾ إلى قوله: ﴿ ويأتينا فردا ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿ أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً كلاً ﴾.

قال البغوي: ردّ عليه، يعني لم يفعل ذلك.

(١) أخرجه البخاري (ح/٢٠٩١ و ٢٢٧٥ و ٤٧٣٢)، ومسلم (ح/٢٧٩٥)، والمراد بالقيين أي: الحداد والصانع.

وقال ابن كثير: وقوله: ﴿كَلَّا﴾ هي حرف ردع لما قبلها، وتأکید لما بعدها. وعن مجاهد قوله: ﴿ونرثه ما يقول﴾ ماله وولده ﴿ويأتينا فرداً﴾ قال قتادة: لا مال له ولا ولد.

قوله عز وجل: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِّيَكُونُوا لَهُم عِزًّا ۗ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۗ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ۗ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعِدُّ لَهُمْ عَذَابًا ۗ يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ آتَىٰ وَنَسُوا الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِثًا ۗ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۗ﴾.

قال الضحاك في قوله: ﴿ويكونون عليهم ضداً﴾ قال: أعداء. وقال مجاهد: عدنا عليهم نخاصمهم ونكذبهم.

وقوله تعالى: ﴿ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً﴾ قال ابن عباس إغراء في الشرك. وقال ابن زيد: تشليهم أشلاء على معاصي الله.

وعن ابن عباس قوله: ﴿إنما نعد لهم عداً﴾ يقول: أنفاسهم التي يتنفسون في الدنيا، فهي معدودة وأجالهم. وعن عليّ في قوله: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ قال: «أما والله ما يحشر الوفد على أرجلهم ولا يساق سوقاً، لكنهم يؤتون بنوقٍ لم ير الخلائق مثلها، عليها رحال الذهب وأزمتها الزبرجد، فيركبون عليها حتى يضرّبوا أبواب الجنة»^(١).

وعن ابن عباس قوله: ﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾ يقول: عطاشاً ﴿لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ قال: العهد شهادة أن لا إله إلا الله، ويتبرأ إلى الله من الحول ولا يرجو إلا الله. قال ابن جريج: المؤمنون يومئذ بعضهم لبعض شفعاء.

(١) أخرجه ابن جرير (١٢٦/١٦) بسند ضعيف، وعزاه السيوطي في «الدر» إلى ابن مردويه.

قوله عز وجل: ﴿ وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٨﴾ ۗ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشِقُ الْأَرْضُ وَيَنْخَرُّ لِجِبَالِ هَذَا ﴿٩١﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُنَّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ۗ .

عن ابن عباس قوله: ﴿لقد جئتم شيئاً إدا﴾ يقول: لقد جئتم شيئاً عظيماً، وهو المنكر من القول ﴿تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هذا أن دعوا للرحمن ولدا﴾ قال: إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت أن تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين؛ وقال رسول الله ﷺ: «لَقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله، فمن قالها عند موته وجبت له الجنة، قالوا: يا رسول الله فمن قالها في صحته؟ قال: تلك أوجب وأوجب، ثم قال: والذي نفسي بيده لو جيء بالسموات والأرض وما فيهن وما بينهن وما تحتهن، فوضعن في كفة الميزان، ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى لرجحت بهن»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا﴾، أي: ما يليق به اتخاذ الولد ﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا﴾، أي: الخلق كلهم عبده ﴿لقد أحصاهم وعدهم عدا﴾ وكلهم آتية يوم القيامة فردا. قال ابن جرير^(٢): يقول: وجميع خلقه سوف يرد عليه يوم تقوم الساعة وحيداً لا ناصر له من الله ولا دافع عنه.

(١) أخرجه ابن جرير (١٣٠/١٦)، والطبراني (٢٥٤/١٢) عن علي رضي الله عنه. بسند ضعيف، ويشهد لآخره حديث البطاقة، وسيأتي تخريجه.

(٢) انظر «جامع البيان» (١٣٢/١٦).

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَل يُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾ .

عن مجاهد في قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ قال: محبة في المسلمين في الدنيا. وقال ابن عباس: يحبهم ويحببهم يعني إلى المؤمنين.
وقوله تعالى: ﴿فإنما يسرناه﴾، أي: سهلنا القرآن ﴿بلسانك﴾ يا محمد ﴿لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لُدًّا﴾ قال قتادة: أي جдалاً بالباطل، ذوي لدد وخصومة.
وقوله تعالى: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا﴾ قال قتادة: هل ترى عيناً أو تسمع صوتاً؟



الدرس الخامس والستون بعد المائة

﴿سورة طه﴾

مكية، وهي مائة وخمس وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿١﴾ طه ﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذِيرًا لِمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ يُجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَنْمُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ يَمِينِكَ يَنْمُوسَى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مِشَارِبٌ أُخْرَى ﴿١٨﴾ قَالَ أَفَتَهَا يَنْمُوسَى ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَى ﴿٢٢﴾ لِئُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ أَذْهَبَ

إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ
 مِن لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰزُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ
 أَرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَىٰ تُسَيِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَتَذَكَّرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا
 بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا
 إِلَيْكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ
 عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُمْ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِنُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ
 فَفَقُولِ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُمْ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَىٰ تَنْفَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَلَّتَ
 نَفْسًا فَجَجَيْتَكَ مِنَ الْعَمَرِ وَفَنَّكَ فَنُونًا فَلَيْتَ سَيِّئِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ
 يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ أَذْهَبَ أَنتَ وَأَخْوَكُ بِتَابِعِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾
 أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّمُكَ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَ رَبَّنَا
 إِنَّا نَخَافُ أَن يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ
 وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأُنْيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ
 جِئْنَاكَ بِتَابِعٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْمُدْحَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ
 عَلَيَّ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ
 خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا
 يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَىٰ ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ
 مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُّوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
 لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ﴿٥٥﴾ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً
 أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾

قوله عز وجل: ﴿طه﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا تَذَكُّرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾ .

عن ابن عباس قوله تعالى: ﴿طه﴾ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴿﴾ فإن قومه قالوا: لقد شقي هذا الرجل بربه، فأنزل الله تعالى ذكره ﴿طه﴾ يعني يا رجل ﴿﴾ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴿﴾ وقال قتادة ﴿﴾ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴿﴾ لا والله ما جعله شقاء، ولكن جعله رحمة ونوراً ودليلاً إلى الجنة ﴿﴾ إلا تذكرة لمن يخشى ﴿﴾ وأن الله أنزل كتابه وبعث رسله رحمة رحم الله بها العباد، ليتذكر ذاكراً وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله وهو ذاكراً له، أنزل الله فيه حلاله وحرامه فقال: ﴿تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى الرحمن على العرش استوى﴾ .
قال ابن جرير^(١): يقول تعالى ذكره: الرحمن على عرشه ارتفع وعلا^(٢).

﴿له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى﴾ قال

(١) انظر «جامع البيان» (١٦/١٣٨).

(٢) قلت: وفي هذه الآية إثبات استواء الله - عز وجل - على عرشه حقيقة يليق بجلاله تعالى وعظمته، وهذا هو مذهب أهل السنة، بخلاف مذهب غيرهم من الجهمية وأذنانهم من المعتزلة والأشاعرة الذين أنكروه وأولوه فراراً من التشبيه، فوقعوا في شر مما فروا منه إذ غاية مذهبهم التعطيل نعوذ بالله من أهل البدع والأهواء، ونسأل الله الثبات على الإسلام والسنة إلى أن نلقاه.

محمد بن كعب: أي ما تحت الأرض السابعة. ﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾ قال ابن عباس: السر ما علمته أنت، وأخفى ما قذف الله في قلبك مما لم تعلم. وفي رواية: السر ما أسر الإنسان في نفسه، وأخفى ما لم يعلمه الإنسان مما هو كائن.

﴿الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى﴾.

قال ابن كثير^(١): أي الذي أنزل عليك القرآن هو الله الذي لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى.

قوله عز وجل: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنستُ نَارًا لعلِّي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ﴿١٠﴾ فلما أننها ثودى بموسى ﴿١١﴾ إني أنا ربك فأخضع نعليك إناك بالواد المقدس طوى ﴿١٢﴾ وأنا اخترتك فاستمع لما يوحي ﴿١٣﴾ إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴿١٤﴾ إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ﴿١٥﴾ فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى ﴿١٦﴾﴾.

قال البغوي^(٢): ﴿هل أتاك حديث موسى﴾، أي: وقد أتاك، استفهام بمعنى التقرير، وقال في جامع البيان: فيه تعظيم لشأن الحديث، وتبيين على أنه إنما عرفه بالوحي.

قال ابن عباس: لما قضى موسى الأجل سار بأهله فضل الطريق، وكان في الشتاء ورفعت لهم نار، فلما رآها ظن أنها نار وكانت من نور الله ﴿قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلِّي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى﴾ يقول: من يدل على الطريق. وقال وهب بن منبه: خرج موسى نحوها، فإذا هي شجر من

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١٤٣/٣).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (١٧٨/٣).

العليق؛ وبعض أهل الكتاب يقول: في عوسجة، فلما دنا، استأخرت عنه، فلما رأى استخارها رجع عنها، وأوجس في نفسه منها خيفة، فلما أراد الرجعة دنت منه ثم كلمه من الشجرة، فلما سمع الصوت استأنس، وقال الله تبارك وتعالى له: يا موسى^(١) ﴿اخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى﴾. قال قتادة: كانتا من جلد حمار، فقيل له: اخلعهما. وقال الحسن: كانتا من بقر، لكن إنما أراد الله أن يباشر بقدميه بركة الأرض، وكان قد قدس مرتين. وقال مجاهد: طوى اسم الوادي.

وقوله تعالى: ﴿وأنا اخترتك﴾، أي: اصطفيتك ﴿فاستمع لما يوحي إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾ قال مجاهد: إذا صلى ذكر ربه. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها، فيصلها إذا ذكرها فإن الله تعالى قال: ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾»^(٢). وعن ابن عباس قوله: ﴿إن الساعة آتية أكاد أخفيها﴾ يقول: لا أظهر عليها أحداً غيري. وفي مصحف عبد الله بن مسعود أكاد أخفيها من نفسي، فكيف يعلمها مخلوق؟ وقيل: أخفيها فلا أقول هي آتية.

﴿لتجزى كل نفس بما تسعى﴾، أي: بما تعمل من خير وشر ﴿فلا يصدنك عنها﴾، أي: عن التصديق بالساعة ﴿من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى﴾ فتهلك.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْؤُسُونَ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقَهَا يَمْؤُسُونَ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ حُذِّهَا وَلَا تَخَفُ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَأَضْمَمُ يَدَكَ إِلَيَّ جَنَاحَكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرْيِكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾.

(١) قلت: وفي هذه الآية إثبات صفة الكلام لله — عز وجل — على ما يليق بجلاله تعالى، وهذا

هو مذهب أهل السنة بخلاف مذهب الجهمية وأذناهم من المعتزلة والأشاعرة.

(٢) أخرجه مسلم (ح/٣١٦) من حديث أنس رضي الله عنه.

قال البغوي^(١): قوله عز وجل: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾؟ سؤال تقرير، والحكمة في هذا السؤال تنبيهه وتوقيفه على أنها عصا، حتى إذا قلبها حية علم أنها معجزة عظيمة.

وقوله تعالى: ﴿قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي﴾ قال السدي يقول: أضرب بها الشجر للغنم فيقع الورق.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ قال: حوائج أخرى قد علمتها ﴿قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هي حية تسعى قال خذها ولا تخف سعيدها سيرتها الأولى﴾، أي: عصا كما كانت.

وعن مجاهد قوله: ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ قال كفه تحت عضده ﴿تخرج بيضاء من غير سوء﴾ قال: من غير برص ﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾ قال ابن جرير^(٢): كي نريك من أدلتنا الكبرى على عظيم سلطاننا وقدرتنا.

قوله عز وجل: ﴿أَذْهَبَ إِلَيْكَ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰنُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ تُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَتَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾.

قال مجاهد في قوله: ﴿واحلل عقدة من لساني﴾ قال: لجمرة نار أدخلها في فيه عن أمر امرأة فرعون، تردّ به فرعون حين أخذ بلحيته.

وعن ابن عباس قوله: ﴿أشدد به أزري﴾ يقول: أشدد به ظهري.
وقوله: ﴿وأشركه في أمري﴾.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/١٨١).

(٢) انظر «جامع البيان» (١٦/١٥٨).

قال البغوي^(١): يعني في النبوة وتبليغ الرسالة ﴿كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً﴾ قال ابن جرير^(٢) يقول: ﴿إنك كنت بنا بصيراً﴾ لا يخفى عليك من أفعالنا شيء.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنْ اقْذِيفِي فِي التَّابُوتِ فَأَقْذِيفِي فِي الْيَمِّ فَلْيَلْقِهُ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَكَ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَنَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَلَلْتَ فَنَسَاءً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِتِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

قال البغوي^(٣): ﴿إذ أوحينا إلى أمك﴾ وحي إلهام ﴿ما يوحى﴾ ما يلهم؛ ثم فسر ذلك الإلهام وعدد نعمته عليه فقال: ﴿أن اقذفيه في التابوت فاقدفيه في اليم﴾ يعني نهر النيل، قال ابن إسحاق: لما ولدت موسى أمه أرضعته، حتى إذا أمر فرعون بقتل الغلمان من سنته تلك، عمدت إليه فصنعت به ما أمرها الله تعالى، جعلته في تابوت صغير ومهدت له فيه، ثم عمدت إلى النيل، فقذفته فيه، وأصبح فرعون في مجلس له، كان يجلس على شفير النيل كل غداة، فبينما هو جالس إذ مرّ النيل بالتابوت، فقذف به، وآسية ابنة مزاحم امرأته جالسة إلى جنبه، فقال: إن هذا الشيء في البحر فائتوني به، فخرج إليه أعوانه حتى جاؤوا به، ففتح التابوت فإذا فيه صبي في مهده، فألقى الله عليه محبته وعطف عليه نفسه.

وعن قتادة قوله: ﴿ولتصنع على عيني﴾ قال: هو غذاؤه. قال ابن إسحاق ﴿قالت﴾ يعني أم موسى ﴿لأخته قُصِيه﴾ فانظري ما يفعلون به، فخرجت في ذلك

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/١٨٢).

(٢) انظر «جامع البيان» (١٦/١٦٠).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/١٨٢).

﴿فبصُرْتُ به عن جنب وهم لا يشعرون﴾ وقد احتاج إلى الرضاع والتمس الثدي، وجمعوا له المراضع حين ألقى الله محبتهم عليه، فلا يؤتى بأمرأة فيقبل ثديها، فيرضعهم ذلك، فيؤتى بمرضع بعد مرضع فلا يقبل شيئاً منهم، فقالت لهم أخته حين رأت من وُجِدَهم به وحرصهم عليه ﴿هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾؟ أي لمنزلته عندكم وحرصكم على مسرة الملك؟ قالوا: هاتي، فأتت أمه فأخبرتها فانطلقت معها حتى أتتهم، فناولوها إياه فلما وضعته في حجرها أخذ ثديها، وسروا بذلك منه وردّه الله إلى أمه ﴿كي تقرّ عينها ولا تحزن﴾ فبلغ لطف الله لها وله أن ردّها عليها ولدها، وعطف عليها نفع فرعون وأهل بيته، مع الأُمَّة من القتل الذي يُتخَوَّف على غيره.

وعن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ، فقال الله له ﴿وقتل نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتوناً﴾^(١). قال ابن كثير^(٢): «فنجيناك من الغم» وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله، ففرّ منهم هارباً حتى ورد ماء مدين.

وعن ابن عباس قوله: «وفتناك فتوناً» يقول: اختبرناك اختباراً ﴿فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى﴾ قال ابن عباس يقول: لقد جئت ليمقات يا موسى. وقال قتادة: قدر الرسالة والنبوة.

قوله عز وجل: ﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخْوَاكَ بِتَابِتِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ أَذْهَبَا إِلَيَّ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقَوْلَا لَهُ قَوْلَا لَنَا لَعَلَّهُ يُتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٤٦﴾ فَأَنْبِأَهُ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ

(١) أخرجه ابن جرير (١٦٤/١٦) بسند حسن.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١٤٨/٣).

وَلَا تُعَذِّبُهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٤٨﴾ .

قال ابن كثير^(١): وقوله: ﴿واصطنعتك لنفسي﴾، أي: اصطفتيك واجتبيتك رسولا ﴿لنفسي﴾، أي: كما أريد، وأشاء. وعن ابن عباس قوله: ﴿ولا تنيا في ذكري﴾ لا تبثنا. وقال مجاهد: لا تضعفا. وقال ابن زيد: الواني هو الغافل المفرط. وعن السدي ﴿فقولا له قولا لينا﴾ قال: كنياه.

وعن ابن عباس قوله: ﴿لعله يتذكر أو يخشى﴾ يقول: هل يتذكر أو يخشى. وقال ابن كثير^(٢): أي لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة ﴿أو يخشى﴾ أي يوجد طاعة من خشية ربه.

قال البغوي^(٣): فإن قيل: كيف قال: ﴿لعله يتذكر﴾ وقد سبق في علمه أنه لا يتذكر ولا يُسَلِّم؟ قيل: معناه اذها على رجاء منكما وطمع، وقضاء الله وراء أمركما.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى﴾ قال: نخاف أن يعجل علينا إذ نبلغه كلامك وأمرك ﴿يفرط﴾ ويعجل، وقرأ ﴿لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى﴾. وقال ابن جرير ﴿والسلام على من اتبع الهدى﴾ يقول: والسلامة لمن اتبع هدى الله، وهو بيانه. وعن قتادة قوله: ﴿إن العذاب على من كذب وتولى﴾ عن طاعة الله.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي

(١) المصدر السابق (٣/١٥٣).

(٢) المصدر السابق (٣/١٥٣).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/١٨٤).

كِتَابٌ لَا يُضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٧﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا
سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٨﴾ كُلُوا وَارْعَوْا
أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴿٥٩﴾ مِنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنَّمَا
نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٦٠﴾ .

عن ابن عباس قوله ﴿أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ يقول: خلق لكل شيء
زوجه ثم هداه لمنحه ومطعمه ومشربه ومسكنه ومولده.

وقوله تعالى: ﴿قال فما بال القرون الأولى﴾، أي: ما بالهم عبدوا غير الله
﴿قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى﴾ قال ابن عباس:
لا يخطيء ربي ولا ينسى.

قال ابن كثير^(١): لما أخبره موسى أن ربه الذي أرسله، هو الذي خلق
ورزق وقدّر فهدى، شرع يحتجّ بالقرون الأولى، أي الذين لم يعبدوا الله، أي
فما بالهم إذا كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره؟ فقال له موسى في
جواب ذلك: هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم سيجزيهم
بعملهم.

وقوله تعالى: ﴿فأخرجنا به أزواجاً﴾.

قال البغوي^(٢): أصنافاً ﴿من نبات شتى﴾ مختلف الألوان والطعوم والمنافع
﴿كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى﴾ لذوي العقول ﴿منها﴾ أي
الأرض ﴿خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ يوم البعث.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/١٥٥).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/١٨٦).

الدرس السادس والستون بعد المائة

﴿ وَلَقَدْ آرَيْنَهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴿٥٧﴾ فَلَمَّا أَبَيْتَكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوِيًّا ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشَّرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمُ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴿٦١﴾ فَتَنَزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَذَا لَسِحْرَانٌ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرْيِقَتِكُمُ الْمُثَلَّى ﴿٦٣﴾ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَنتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلِ الْفَوْأُ إِذَا دُجِيَ جَاهُهُمْ وَعَصَبَتُهُمْ يُجِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسَعَى ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٦٩﴾ فَأَلْقَى السِّحْرَ سُجْدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنَّا لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَاصْلَيْتِكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾ إِنَّهُمْ مِّنْ يَّاتٍ رَبِّهِمْ يُحْجَرُونَ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا

يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ
الْعُلَى ﴿٧٥﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٧٦﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَمَّا آتَيْنَكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَأَجَعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضَحَىٰ ﴿٥٩﴾﴾ .

عن مجاهد في قوله: ﴿مكاناً سوى﴾ قال: منصفاً بينهم. وعن ابن عباس قوله: ﴿قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى﴾ فإنه يوم زينة يجتمع الناس إليه ويحشر الناس له.

قوله عز وجل: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِن هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ اللَّئِنَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمَعُوا كَيْدَهُمْ ثُمَّ أَتَوْا صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿فيسحطكم بعذاب﴾ يقول: فيهلككم. وقال قتادة: يستأصلكم.

وقوله تعالى: ﴿فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى﴾ قال قتادة: قال السحرة بينهم: إن كان هذا ساحراً فإننا سنغلبه، وإن كان من السماء فله أمر. وقال وهب بن منبه: جمع كل ساحر حباله وعصيته، وخرج موسى معه أخوه يتكئ على عصاه، حتى أتى المجمع، وفرعون في مجلسه معه أشرف أهل مملكته قد استكف له الناس، فقال موسى للسحرة حين جاءهم ﴿ويلكم

لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افتري ﴿ فتراود السحرة بينهم، وقال بعضهم لبعض: ما هذا بقول ساحر.

وقال ابن كثير^(١): وقوله: ﴿ويذهب بطريقتكم المثلى﴾، أي: ويستبدأ بهذه الطريقة وهي السحر. وقال ابن عباس: يعني ملكهم الذي هم فيه والعيش. وقال علي بن أبي طالب: يصرفان وجوه الناس إليهما.

قال ابن كثير^(٢): وقوله: ﴿فأجمعوا كيدكم ثم اتوا صفًا﴾، أي: اجتمعوا كلكم صفًا واحداً، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة لتبهروا الأبصار وتغلبوا هذا وأخاه ﴿وقد أفلح اليوم من استعلى﴾ منا ومنه.

قوله عز وجل: ﴿قَالُوا يَمْوَسِيَّ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ ﴿١٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيَّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿١٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿١٨﴾ وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَىٰ ﴿١٩﴾ .

عن السدي قال: ﴿قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين قال لهم موسى ألقوا فألقوا بحبالهم وعصيهم﴾ وكانوا بضعة وثلاثين ألف رجل ليس منهم رجل إلا ومعه جبل وعصا. وعن وهب بن منبه قال: ﴿قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى قال بل ألقوا﴾ فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون، ثم أبصار الناس بعد، ثم ألقى كل رجل منهم ما في يده من العصي والحبال، فإذا هي حيات كأمثال الحبال، قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/١٥٧).

(٢) المصدر السابق (٣/١٥٧).

﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى﴾ لما رأى ما ألقوا من الجبال والعصي خيل إليه أنها تسعى، فأوحى الله أن ﴿ألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ وفرح موسى فألقى عصاه من يده، فاستعرضت لما ألقوا من جبالهم وعصيهم، وهي حيات في عين فرعون وأعين الناس تسعى، فجعلت تلقفها حية حية حتى ما يرى بالوادي قليل ولا كثير مما ألقوا، ثم أخذها موسى فإذا هي عصا في يده كما كانت، ووقع السحرة سجداً قالوا: آمنا برب هارون وموسى، لو كان هذا سحراً ما غلبنا.

وقال ابن عباس في قوله: ﴿ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ لا يسعد حيث كان.

قوله عز وجل: ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٧٥﴾ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُمْ لَكَبِيرٌ كُفُّوا أَلْقُوا السَّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَأَصْلَبَنَّاكُمْ فِي جُدُوعٍ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ آيَاتُنَا شَدِيدًا وَابْقَى ﴿٧٦﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْفِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٧﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَابْقَى ﴿٧٨﴾ إِنَّهُمْ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُمْ مَجْرِمًا فَإِنَّ لَكُمْ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٩﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٨٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ ﴿٨١﴾﴾.

قال وهب بن منبه: لما قالت السحرة ﴿آمنا برب هارون وموسى﴾ قال لهم فرعون وأسف ورأى الغلبة البيّنة: ﴿آمتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾، أي: لعظيم السحار الذي علمكم. وعن السدي: قال فرعون: ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل﴾

فقتلهم وقطعهم، كما قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه حين قالوا: ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾ وقال: كانوا أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء.

وعن وهب بن منبه ﴿لن نؤثرك على ما جاءنا من البيئات والذي فطرنا﴾، أي: على الله ﴿فاقض ما أنت قاض﴾ اصنع ما بدا لك ﴿إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾، أي: ليس لك سلطان إلا فيها ثم لا سلطان لك بعد. وقال ابن زيد في قوله: ﴿وما أكرهتنا عليه من السحر﴾ قال: أمرهم بتعلم السحر، قال: تركوا كتاب الله وأمروا قومهم بتعليم السحر. وعن ابن إسحاق: ﴿والله خير وأبقى﴾ خير منك ثواباً وأبقى عذاباً.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خطب فأتى على هذه الآية ﴿إنه من يأت ربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى﴾ قال النبي ﷺ: «أما أهلها الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون، وأما الذين ليسوا من أهلها فإن النار تمسهم ثم يقوم الشفعاء فيشفعون، فتجعل الضبائر فيؤتى بهم نهراً يقال له الحياة أو الحيوان، فينبتون كما ينبت العشب في حميل السيل»^(١). رواه ابن أبي حاتم. وعن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة ومنها تخرج الأنهار الأربعة، والعرش فوقها فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس»^(٢). رواه

(١) أخرجه ابن أبي حاتم - كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٣/١٥٩)، وينحوه أخرجه مسلم

(ح/١٨٥)، وأحمد (٣/٢٥ - ٢٦)، والغبائر، أي: الجماعة المتفرقة. وحميل السيل،

أي: ما يحمله السيل حيث انجرافه من الطين ونحوه.

(٢) أخرجه أحمد (٥/٣١٦ و ٣٢١)، والترمذي (ح/٢٥٣١)، وابن أبي شيبة (١٣/١٣٨)،

والحاكم (١/٠) وصححه وأقره الذهبي من حديث عبادة بن الصامت، وأخرجه أحمد

(٥/٢٤٠)، والترمذي (٢٥٣٠)، وابن ماجه (ح/٤٣٣١) من حديث معاذ رضي الله عنه،

وهو حديث صحيح.

أحمد وغيره. وفي الصحيحين: «إن أهل عليّين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء لتفاضل ما بينهم، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء؟ قال: بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»^(١).



(١) أخرجه البخاري (ح/٣٢٥٦)، ومسلم (ح/٢٨٣١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

الدرس السابع والستون بعد المائة

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ۗ ﴿٧٧﴾ فَأَتَتْهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشَّيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشَّيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ بَيْنَ يَدَيْهِ إِسْرَائِيلَ قَدْ أَجْنَيْتُمْ مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحِلِّدْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَنَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمْوَسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَنرَىٰ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلِنَكِنَّا حُمَلَانَا أَوْ زَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدْ فَتَنَهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُمُ خَوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسَىٰ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُرْجَعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَنْهَرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِحِجَّتِي وَلَا بَرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن

تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿١٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَمِيرِيُّ ﴿١٥﴾
قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا
وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿١٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ
لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ يُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا
لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿١٧﴾ إِنَّكُمْ إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٨﴾ ﴿

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ
طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ۖ فَاَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ
مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۗ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ۖ﴾.

عن مجاهد قوله: ﴿يبسًا﴾ قال: يابساً. وعن ابن عباس في قوله:
﴿لا تخاف دركاً ولا تخشى﴾ يقول: لا تخاف من آل فرعون دركاً، ولا تخشى من
البحر غرقاً.

﴿فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما
هدى﴾.

قال البغوي^(١): وهذا تكذيب لفرعون في قوله: ﴿وما أهديكم إلا سبيل
الرشاد﴾.

قوله عز وجل: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ قَدْ أَجَبْنَاكَ مِنَ عِدْوِكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ
الْطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّلْوَىٰ ۗ كَلُوا مِن طَيْبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا
تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحِلِّدْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ۗ وَإِنِّي لَنَفَّارٌ
لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ۖ﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿ولا تطغوا فيه﴾ يقول: ولا تظلموا ﴿ومن يحلل عليه
غضبي فقد هوى﴾، يقول: فقد شقي ﴿وإني لنفّار لمن تاب﴾ من الشرك
﴿وآمن﴾ يقول: وعد الله ﴿وعمل صالحاً﴾ يقول: أدى فرائضي ﴿ثم اهتدى﴾ قال
قتادة: ثم لزم الإسلام حتى يموت عليه.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/١٩٠).

قوله عز وجل: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِّنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدْ فَتَنَهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ .

قال ابن إسحاق: وعد الله موسى حين أهلك فرعون وقومه، ونجاه وقومه ﴿ ثلاثين ليلة ثم أتمناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة ﴾ تلقاه فيها بما شاء، فاستخلف موسى هارون في بني إسرائيل ومعه السامري يسير بهم على أثر موسى ليلحقهم به، فلما كلم الله موسى قال له: ﴿ ما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى قال فإننا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا ﴾. قال ابن عباس يقول: حزينا.

﴿ قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ﴾.

قال البغوي^(١): صدقاً، أن يعطيكم التوراة ﴿ أفضال عليكم العهد ﴾ مدة مفارقتي إياكم ﴿ أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتكم موعدي قالوا ما أخلفنا موعدك بمَلِكِنَا ﴾ قال ابن كثير^(٢): أي عن قدرتنا واختيارنا.

(١) المصدر السابق (٣/١٩١).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/١٦٢).

﴿وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾. وعن ابن عباس: ﴿وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾، فهو ما كان مع بني إسرائيل من حلّي آل فرعون، يقول: خطؤنا مما أصبنا من حلّي عدونا، وقال قتادة: كان الله وقت لموسى ثلاثين ليلة ثم أتمها بعشر، فلما مضت الثلاثون قال عدو الله السامري: إنما أصابكم الذي أصابكم عقوبة بالحلّي الذي كان معكم، فهلموا، وكانت حلّيّاً استعاروها من آل فرعون، فساروا وهي معهم فقذفوها إليه فصوّرها صورة بقرة، وكان قد صرّ في عمامته أو في ثوبه قبضة من أثر فرس جبرائيل، فقذفها مع الحلّي والصورة.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجْلاً جَسَداً لَهُ خَوَارٍ﴾ فجعل يخور خوار البقرة فقال: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾. وفي رواية: ﴿قَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ ولكن موسى نسي ربه عندكم، قال الله: ﴿أَفَلَا يَرُونَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ﴾ ذلك العجل الذي اتخذوه ﴿قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً﴾؟

قال ابن كثير^(١): وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورّعوا عن زينة القوم، فألقوها وعبدوا العجل، فتورّعوا عن الحقير وفعّلوا الأمر الكبير، كما قال ابن عمر: انظروا إلى أهل العراق، قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ وهم يسألون عن دم البعوضة.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَنْقُورٍ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾ ﴿١٠١﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿١٠٢﴾ قَالَ يَهْتَرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿١٠٣﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِيَ ﴿١٠٤﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿١٠٥﴾.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/١٦٢).

قال ابن عباس: لما قال القوم: ﴿لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾ أقام هارون فيمن تبعه من المسلمين ممن لم يفتن، وأقام من يعبد العجل على عبادة العجل، وتخوف هارون إن سار بمن معه من المسلمين أن يقول له موسى: ﴿فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾ وكان له هائباً مطيعاً.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَمِيرِيُّ﴾ ﴿١٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿١٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسٌ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَنَّهُ وَآنْظُرْ إِلَى إِلٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿١٧﴾ إِنَّمَا إِلٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٨﴾ .

قال ابن زيد في قوله: ﴿فما خطبك يا سامري﴾ قال: ما أمرك؟ ما شأنك؟ ما هذا الذي أدخلك فيما دخلت فيه؟ ﴿قال بصرت بما لم يبصروا به﴾. قال قتادة: يعني فرس جبريل ﷺ ﴿فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبتها وكذلك سولت لي نفسي﴾. قال ابن زيد: كذلك حدثني نفسي. وقال قتادة: كان والله السامري عظيمًا من عظماء بني إسرائيل من قبيلة يقال لها سامرة، ولكن عدو الله نافق بعدما قطع البحر مع بني إسرائيل.

وقال ابن كثير^(١): ﴿وكذلك سولت لي نفسي﴾ أي حسنته وأعجبها إذ ذاك ﴿قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس﴾ أي كما أخذت ومست ما لم يكن لك أخذه ومسه من أثر الرسول، فعقوبتك في الدنيا ﴿أن تقول لا مساس﴾، أي: لا تماس الناس ولا يمسونك ﴿وإن لك موعدا﴾ أي: يوم القيامة ﴿لن تخلفه﴾ أي: لا يحيد لك عنه.

(١) المصدر السابق (٣/١٦٤).

وقوله: ﴿وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً لئحرقنه ثم لنسفنه في اليمّ نسفاً﴾. قال ابن عباس: فحرقه ثم ذراه في اليمّ.

وقال ابن جرير^(١): وقوله: ﴿إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً﴾، يقول: ما لكم أيها القوم معبود إلا الذي له عبادة جميع الخلق، لا تصلح العبادة لغيره، ولا تنبغي أن تكون إلا له ﴿وسع كل شيء علماً﴾ يقول: احتاط بكل شيء علماً وعلمه، فلا يخفى عليه شيء ولا يضيق عليه علم جميع ذلك.



(١) انظر «جامع البيان» (٢٠٤/١٦).

الدرس الثامن والستون بعد المائة

﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَنْ
 أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُفْعَلُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَخْحَفْتُونَ إِلَيْهِمْ وَإِنْ
 لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا
 يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾
 لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ
 الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفِيعَةَ إِلَّا مَنْ أَدِنَ لَهُ
 الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ عِلْمًا ﴿١١٠﴾
 ﴿ وَعَنْتِ الْأَوْجُهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ
 الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا
 وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ
 وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ .

* * *

قوله عز وجل : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿١٠١﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٢﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٤﴾ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٥﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٦﴾ .

يقول تعالى لنبى محمد ﷺ: كما قصصنا عليك خبر موسى كذلك نقص عليك من الأخبار الماضية كما وقعت ﴿وقد آتيناك من لدنا﴾ من عندنا ﴿ذكرًا﴾ وهو القرآن ﴿من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرًا﴾ قال مجاهد: إثمًا ﴿خالدين فيه﴾، أي: مقيمين في عذاب الوزر ﴿وساء لهم يوم القيامة حملًا﴾، أي: بثما حملوا على أنفسهم من الإثم.

﴿يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زُرْقًا يتخفتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا﴾ قال ابن عباس: ﴿يتخفتون﴾ يتساررون ﴿نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يومًا﴾، أي: في الدنيا قاله ابن جرير.

قال البغوي^(١): قصر ذلك في أعينهم في جنب ما استقبلهم من أهوال يوم القيامة؛ وقيل: نسوا مقدار لبثهم لشدة ما أهتمهم.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/١٩٤).

وعن شعبة في قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ امْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ يقول: أعلمهم في أنفسهم
﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾، وقيل: المراد مدة مكثهم في القبور.

قوله عز وجل: ﴿وَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١١٥﴾ فَيَذَرُهَا
قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١١٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١١٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ
لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١١٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا
مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُمْ قَوْلًا ﴿١١٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ
بِشَيْءٍ عِندَهُ ﴿١٢٠﴾ وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١٢١﴾ وَمَنْ
يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١٢٢﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ يقول: مستويًا لا نبات فيه ﴿لا ترى
فيها عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ يقول: وادياً ﴿وَلَا أَمْتًا﴾ يقول: رابية.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ يقول:
سكنت ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ قال: وطء الأقدام.

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ أن يشفع ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾
يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماء ﴿قَالَ قَتَادَةَ﴾: يعلم ما بين
أيديهم ﴿مَنْ أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ وما خلفهم ﴿مَنْ أَمْرُ الدُّنْيَا﴾.

﴿وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ قال ابن عباس: ذلت ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ
ظُلْمًا﴾ قال: خسر من أشرك بالله. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «الظلم
ظلمات يوم القيامة»^(١).

(١) أخرجه البخاري (ح/٢٤٤٧)، ومسلم (ح/٢٥٧٩) من حديث ابن عمر رضي الله
عنهم.

وقوله تعالى: ﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾ قال قتادة: ﴿ظلماً﴾ أن يزداد في سيئاته ولا يهضم من حسناته. وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مثل مد البصر ثم يقول: أنتكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتني الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ قال: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فيقول: احضر وزنك، فيقول: يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم. قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء»^(١). رواه الترمذي وابن ماجه.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم في بعض فيأتون آدم فيقولون: اشفع إلى ربك - وفي رواية - قال: يجلس المؤمنون يوم القيامة حتى يهيموا بذلك فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا، فيأتون آدم فيقولون: أنت آدم أبو الناس، خلقك الله بيده وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول: لست هناك، ويذكر خطيئته التي أصاب: أكله من الشجرة وقد نُهي عنها، ولكن اتوا نوحاً أول نبي بعثه الله إلى أهل الأرض، فيأتون نوحاً فيقول: لست هناك، ويذكر خطيئته التي أصاب: سؤاله ربه بغير علم، ولكن اتوا إبراهيم خليل الرحمن، قال: فيأتون إبراهيم فيقول: إني لست هناك، ويذكر

(١) أخرجه أحمد (٢١٣/٢ و ٢٢١)، والترمذي (ح/٢٦٣٩) وحسنه، وابن ماجه (ح/٤٣٠٠)، والحاكم (١/٦ و ٢٥٩)، وصححه على شرط مسلم، وأقره الذهبي، وأخرجه البغوي في «شرح السنة» (١٥/١٣٣ و ١٣٤)، وهو حديث صحيح.

ثلاث كذبات كذبهنّ، ولكن اتتوا موسى عبداً آتاه الله التوراة وكلمه وقرّبه نجياً، قال: فيأتون موسى فيقول: إني لست هناك، ويذكر خطيئته التي أصاب: قتله النفس، ولكن اتتوا عيسى عبد الله ورسوله وروح الله وكلمته، قال: فيأتون عيسى فيقول: لست هناك، ولكن اتتوا محمداً عبداً غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، قال: فيأتوني فأستأذن على ربّي في داره فيؤذن لي عليه، فإذا رأيته وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقول: ارفع محمد، وقل تُسمع واشفع تُشَفِّع وسل تعطه. قال: فأرفع رأسي فأثني على ربّي بثناء وتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحدّ لي حدّاً، فأخرج فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة، ثم أعود الثانية فأستأذن على ربّي في داره فيؤذن لي عليه، فإذا رأيته وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقول: ارفع محمد وقل تُسمع، واشفع تُشَفِّع وسل تعطه. قال: فأرفع رأسي فأثني على ربّي بثناء وتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحدّ لي حدّاً، فأخرج فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة، حتى ما يبقى في النار إلّا من قد حبسه القرآن، أي: وجب عليه الخلود، ثم تلا هذه الآية: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ قال: وهذا المقام المحمود الذي وُعدّه نبيكم^(١). متفق عليه. وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج من النار قوم بالشفاعة كأنهم الثعالب قلنا: ما الثعالب؟ قال: إنه الضغائيس^(٢). متفق عليه. وعن عثمان بن عفان رضي الله

(١) وهم المؤلف - رحمه الله - فجعل هذا الحديث مما اتفق عليه البخاري ومسلم بهذا اللفظ!! مع أنه ليس في البخاري ومسلم بهذا اللفظ، فضلاً عن القول بأنهم قد اتفقا عليه، والذي عندهما بنحوه البخاري (ح/٧٥١٠ و ٦٥٦٥)، ومسلم (١/١٨٢ - ١٨٣)، والحديث بهذا السياق أخرجه أحمد (٣/٢٤٤)، وابن أبي عاصم في «السنّة» (ح/٨٠٤ و ٨٠٥)، وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه البخاري بلفظه (ح/٦٥٥٨)، ومسلم (١/١٧٨) مختصراً جداً، الثعالب: القثاء الصغار، شبهوا بها لأن القثاء ينمي سريعاً (النهاية ١/٢١٢)، الضغائيس: صغار القثاء (النهاية ٣/٨٩).

عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء»^(١). رواه ابن ماجه.

قوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٦﴾ فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٧﴾﴾.

قال البغوي^(٢): ﴿وكذلك﴾، أي: كما بيّنا في هذه السورة ﴿أنزلناه﴾، يعني: أنزلنا هذا الكتاب ﴿قرآنًا عربيًّا﴾، أي: بلسان العرب ﴿وصرّفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً﴾ عبرة وعظة. قال قتادة: ﴿لعلهم يتقون﴾ ما حذروا به من أمر الله وعقابه ووقائعه بالأمر قبلهم ﴿أو يحدث لهم﴾ القرآن ﴿ذكراً﴾، أي: حذراً وورعاً.

وقوله تعالى: ﴿فتعالى الله الملك الحق﴾، أي: عما يصفه به المشركون. ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه﴾ قال مجاهد: لا تتله على أحد حتى نبينه لك ﴿وقل رب زدني علماً﴾.

قال ابن جرير^(٣): يقول تعالى ذكره: ﴿وقل﴾ يا محمد ﴿رب زدني علماً﴾ صحيحاً إلى ما علّمتني أمره بمسألته من فوائد العلم ما لا يعلم. قال ابن عيينة: ولم يزل ﷺ في زيادة حتى توفاه الله عز وجل. وفي الحديث الذي رواه الترمذي وغيره أنه ﷺ كان يقول: «اللهم انفعني بما علّمتني، وعلّمني ما ينفعني، وارزقني

(١) أخرجه ابن ماجه (ح/٤٣١٣)، والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (٣/٣٦٧) وابن عبد البر في «جامع البيان» (١/٣٠) بسند موضوع، فيه عبد الرحمن بن عنبسة القرشي، رُمي بالوضع.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/١٩٥).

(٣) انظر «جامع البيان» (١٦/٢١٩).

علماً ينفعني، وزدني علماً الحمد لله على كل حال وأعوذ بالله من حال أهل النار^(١).



(١) أخرجه الترمذي (ح/٣٥٩٩)، وابن ماجه (ح/٢٥١)، والطبراني في «الدعاء» (ح/١٤٠٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفي سنه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف، وللحديث شاهد بنحوه من حديث أنس - رضي الله عنه - أخرجه الحاكم (١٨١/١٠) وصححه، ووافقه الذهبي، وأخرجه - أيضاً - الطبراني في المصدر السابق (ح/١٤٠٥).

الدرس التاسع والستون بعد المائة

﴿ وَقَدْ عٰهَدْنَا اِلٰهَ اٰدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَاِذْ قُلْنَا
لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوْا لِاٰدَمَ فَسَجَدُوْا اِلَّا اِبْلِيسَ اَبٰى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يٰۤاٰدَمُ اِنَّ هٰذَا
عَدُوُّكَ وِلِزْوَجِكَ فَلَا يُخْرِجُكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقٰى ﴿١١٧﴾ اِنَّ لَكَ اَلَّا تَجُوْعُ فِيْهَا وَلَا
تَعْرٰى ﴿١١٨﴾ وَاَنْتَ لَا تَظْمَؤُا فِيْهَا وَلَا تَضْحٰى ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ اِلَيْهِ الشَّيْطٰنُ قَالَ
يٰۤاٰدَمُ هَلْ اٰدُلُكَ عَلٰى شَجَرَةٍ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلٰى ﴿١٢٠﴾ فَاَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا
سَوَءٌ لَّهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفٰنِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَّرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصٰى اٰدَمُ رَبَّهُ فَغَوٰى ﴿١٢١﴾ ثُمَّ
اٰجْبَنَهُ رَبُّهُ فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدٰى ﴿١٢٢﴾ قَالَ اٰهِيْطَا مِنْهَا جَمِيْعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ
فَاِمَّا يٰۤاٰنِسَ كُمْ مِّنِّيْ هُدٰى فَمَنْ اَتَّبَعَ هُدٰى فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقٰى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ اَعْرَضَ
عَنْ ذِكْرِيْ فَاِنَّ لَّهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَّنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ اَعْمٰى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ
حَشَرْتَنِيْ اَعْمٰى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيْرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذٰلِكَ اٰتٰنَاكَ اٰيٰتِنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذٰلِكَ الْيَوْمَ
نُنْسِيْ ﴿١٢٦﴾ وَكَذٰلِكَ نَجْزِيْ مَنْ اَشْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيٰتِ رَبِّهٖٓ وَلَعَذَابُ الْاٰخِرَةِ اَشَدُّ وَاَبْقٰى ﴿١٢٧﴾
اَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ اَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُوْنِ يَمْسُوْنَ فِيْ مَسٰكِنِهِمْ اِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَآيٰتٍ
لِّاُولِيْ الْاَلْبٰبِ ﴿١٢٨﴾ وَوَلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لِيَكَانَ لِزَامًا وَاَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاَصْبِرْ
عَلٰى مَا يَقُوْلُوْنَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوْعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوْبِهَا وَمِنْ اٰنَآئِ الْاَيْلِ
فَسَبِّحْ وَاَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضٰى ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ اِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ اَزْوَاجًا مِنْهُمْ
زَهْرَةَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا لِيَفْتِنَهُمْ فِيْهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَّاَبْقٰى ﴿١٣١﴾ وَاْمُرْ اَهْلَكَ بِالصَّلٰوةِ

وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَنُقِبَةُ لِلنَّفَقَى ﴿١٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَا تِينَا
يَتَايَعِرُ مِنْ رَبِّهِ ؕ أَوْلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٣٧﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ
بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعُ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ
نُنزِلَ وَنَخْزِي ﴿١٣٨﴾ قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ
السَّوِيِّ وَمَنْ أَهْتَدَى ﴿١٣٩﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ إِلَّا جُوعٌ فِيهَا وَلَا تَعْرِى ﴿١١٨﴾ وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١١٩﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَّرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢٢﴾﴾ .

عن ابن عباس في قوله: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل نفسي﴾ يقول: فترك ﴿ولم نجد له عزمًا﴾ يقول: حفظاً. قال ابن زيد: العزم المحافظة على ما أمره الله تبارك وتعالى بحفظه والتمسك به، قال له: ﴿يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿لا تظماً فيها ولا تضحى﴾ وقرأ حتى بلغ ﴿وملك لا يبلى﴾ قال: نفسي ما عهد إليه في ذلك قال: وهذا عهد الله إليه، قال: ولو كان له عزم ما أطاع عدوه الذي حسده وأبى أن يسجد له، وعصى الله الذي كرمه وشرفه وأمر ملائكته فسجدوا له. وعن ابن عباس قال: إنما سمي الإنسان لأنه عهد إليه نفسي. وعن سعيد بن جبير قال: أهبط إلى آدم ثور أحمر، فكان يحرث عليه ويمسح العرق من جبينه، فهو الذي قال الله ﴿فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى﴾ .

وقوله تعالى: ﴿إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وإنك لا تظماً فيها ولا تضحى﴾ قال ابن عباس يقول: لا يصيبك فيها عطش ولا حر.

﴿فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد﴾ .

قال البغوي^(١): يعني على شجرة إن أكلت منها بقيت مخلداً؟ ﴿وملك لا يبلى﴾ لا يبلى ولا يفنى؟ ﴿فأكلا منها فبدت لهما سواتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ قال السدي: أقبلا يغطيان عليهما بورق التين ﴿وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى﴾ ووقفه للتوبة.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ أَهِيطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١٢٧﴾﴾ .

عن ابن عباس قال: تضمن الله لمن قرأ القرآن واتبع ما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم تلا هذه الآية ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً﴾ يقول: الشقاء. وعن الضحاك ﴿فإن له معيشة ضنكاً﴾ قال: الكسب الخييث. وقال سعيد بن جبير: يسلبه القناعة حتى لا يشبع. وعن ابن عباس قال: كل مال أعطي العبد قل أو كثر، فلم يتق فيه، فلا خير فيه وهو الضنك في المعيشة، وإن أقواماً أعرضوا عن الحق وكانوا أولي سعة من الدنيا مكثرين، فكانت معيشتهم ضنكاً، وذلك أنهم يرون أن الله ليس بمخلف لهم معاشهم، من سوء ظنهم بالله.

وقوله تعالى: ﴿ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ قال ابن عباس: أعمى البصر ﴿قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً﴾ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى ﴿قال مجاهد في قوله: ﴿كذلك أتتك آياتنا فنسيتها﴾ قال: فتركتها

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/١٩٧).

﴿وكذلك اليوم تنسى﴾ وكذلك اليوم تُترك في النار. قال قتادة: نُسُوا من الخير ولم يُنسُوا من العذاب.

وقوله تعالى: ﴿وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه﴾.

قال البغوي^(١) أي: وكما جزينا من أعرض عن القرآن ﴿كذلك نجزي من أسرف﴾ أشرك ﴿ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد﴾ مما نعتبهم به في الدنيا والقبر ﴿وأبقى﴾ وأدوم.

قوله عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهْيِ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿أفلم يهد لهم﴾ يبين لهم القرآن ﴿كم أهلكتنا قبلهم من القرون يمشون في مساجدهم﴾ كديار عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وغيرهم ﴿إن في ذلك آيات لأولي النهي﴾ لذوي العقول. قال ابن عباس: ﴿لذوي النهي﴾ يقول: التقى.

وعن مجاهد قوله: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى﴾ الأجل المسمى: الدنيا.

قال ابن جرير^(٢): ومعنى الكلام: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاماً.

قال البغوي^(٣): والكلمة الحكم بتأخير العذاب عنهم وأجل مسمى وهو القيامة ﴿لكان لزاماً﴾، أي: لكان لازماً لهم في الدنيا كما لزم القرون الماضية.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/١٩٨).

(٢) انظر «جامع البيان» (١٦/٢٣٢).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/١٩٨).

﴿فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها﴾
قال ابن عباس: الصلاة المكتوبة. قال البغوي ﴿ومن آناء الليل﴾ ساعاته ﴿فسبح﴾
يعني صلاة المغرب والعشاء. قال ابن عباس: يريد أول الليل ﴿وأطراف النهار﴾
يعني صلاة الظهر، وسمي وقت الظهر أطراف النهار لأنه وقته عند الزوال، وهو
طرف النصف الأول انتهاء، وطرف النصف الآخر ابتداء. انتهى.

وقيل: التسبيح ههنا محمول على التنويه والإجلال، والصواب أن الآية عامة
لصلاة المكتوبة وصلاة التطوع، والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير.

وقوله تعالى: ﴿لعلك ترضى﴾ قال ابن زيد: ترضى ما يثيبك الله على ذلك.
وفي الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: «كنا جلوساً عند
رسول الله ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: إنكم سترون ربكم كما ترون هذا
القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع
الشمس وقبل غروبها فافعلوا، ثم قرأ هذه الآية»^(١).

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرَ عَلَيْهَا لَا
تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿زهرة الحياة الدنيا﴾، أي: زينة الحياة الدنيا ﴿لنفتنهم فيه﴾
قال: لنبتليهم فيه ﴿ورزق ربك خير وأبقى﴾ مما متعنا به هؤلاء من هذه الدنيا.
وكان هشام بن عروة إذا رأى ما عند السلاطين دخل داره فقال: ﴿ولا تمدن عينيك
إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى
وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى﴾ ثم
ينادي: الصلاة الصلاة يرحمكم الله. وعن زيد بن ثابت قال: سمعت رسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخاري (ح/٥٥٤ و ٥٧٣ و ٤٨٥١)، ومسلم (ح/٦٣٣).

يقول: «من كانت الدنيا همّة فرّق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه، لم يأت من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع له أمره وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»^(١). رواه ابن ماجه.

قوله عز وجل: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ؕ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنزِلَ وَنَخْزِي ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلُّ مُرْتَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَن أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ .

يقول تعالى: ﴿وقالوا﴾ يعني المشركين ﴿لولا يأتينا بآية من ربه﴾، أي: بآية يقترحونها ﴿أو لم تأتهم بيّنة ما في الصحف الأولى﴾ يعني بيان ما فيها وهو القرآن، كما قال تعالى: ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أو لم يفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾^(٢).

﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذلّ ونخزى﴾، أي: قالوا ذلك حين رأوا العذاب يوم القيامة. وعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «يحتج على الله يوم القيامة ثلاثة: الهالك في الفترة، والمغلوب على عقله، والصببي الصغير، فيقول المغلوب على عقله: لم تجعل لي عقلاً انتفع به، ويقول الهالك في الفترة: لم يأتني رسول ولا نبي ولو أتاني لك رسول أو نبي لكنت أطوع خلقك لك وقرأ ﴿لولا أرسلت إلينا رسولاً﴾، ويقول الصببي الصغير: كنت صغيراً لا أعقل. قال: فترفع لهم نار، ويقال لهم: ردوها قال: فبردوها من كان في علم الله أنه سعيد، وتلكأ عنها من كان

(١) أخرجه أحمد (١٨٣/٥)، وابن ماجه (ح/٤١٠٥) بسند صحيح.

(٢) سورة الملك: الآية ٢٦.

في علم الله، أنه شقي، فيقول: إياي عصيتم فكيف برسلي لو أتتكم؟^(١) رواه ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿قل كل متربص﴾ وذلك أن المشركين قالوا: نتربص بمحمد حوادث الدهر، فقال الله سبحانه ﴿قل﴾ لهم يا محمد ﴿كل متربص﴾ منا ومنكم ﴿فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي﴾، أي: الطريق المستقيم نحن أم أنتم ﴿ومن اهتدى﴾ إلى الحق وسبيل الرشاد، كما قال تعالى: ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً﴾.



(١) أخرجه ابن جرير (٢٣٨/١٦)، والبيهقي في «المجمع» (٢١٩/٧) إلى البزار وفي سننه العوفي، وهو ضعيف، لكن للحديث شواهد عديدة من حديث أبي هريرة، والأسود بن سريع ومعاذ، وأنس رضي الله عنهم، فالحديث بشواهد يرتقي إلى درجة الحسن، وقد سبق تخريجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الدرس السبعون بعد المائة

﴿سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام﴾

مكية، وهي مائة واثننا عشرة آية

عن عبد الله بن مسعود قال: «بني إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، هن من العتاق الأول، وهن من تلادي»^(١) رواه البخاري.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْمِزُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِّثْلَكُم مَّا أَفْتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِّن قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَتَشَاءُ أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٧٣٩) مرفوعاً.

ذِكْرِكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْلِكَ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا
 آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَبُوا أَنَّ بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا
 أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْتَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا بُولَاقَانَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ
 تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا
 بَيْنَهُمَا الْعِيبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ آيَاتٍ لَأَخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ
 نَقْدِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُمْ مَنْ
 فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾
 يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنَ الْأَرْضِ هُمْ
 يُبَشِّرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا
 يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا قُلْ
 هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ
 مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
 فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا
 يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ
 وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ
 إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾
 مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً
 قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ
 السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ
 السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَنْتُ أَحْلَمِ بَلْ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا
 بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ
 يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ .

عن أبي سعيد عن النبي ﷺ: ﴿ وهم في غفلة وهم معرضون ﴾ قال: في الدنيا^(١).

وقوله تعالى: ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ
 لَاهِيَةً قُلُوبِهِمْ ﴾، أي: غافلة.

قال ابن جرير^(٢): يقول تعالى ذكره: ما يحدث الله من تنزيل شيء من هذا القرآن للناس ويذكرهم به ويعظهم ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبِهِمْ﴾. وعن قتادة قوله: ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم مُّحَدَّثٍ ﴾ الآية، يقول: ما ينزل عليهم من شيء من القرآن ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾. وقال ابن عباس: ما لكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم، وقد حرّفوه وبدّلوه وزادوا فيه ونقصوا منه، وكتابكم أحدث الكتب بالله تقرؤونه محضاً لم يُشَبَّ!؟

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٤٠٧/٦) بسند صحيح، وأخرجه ابن جرير (١/١٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بسند صحيح أيضاً، وعزاه السيوطي في «الدر» (٥٦٣/٤) إلى ابن مردويه.

(٢) انظر «جامع البيان» (٢/١٧).

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلَكُمُ أَفْتَاتُونَ السَّحْرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾ قال ابن زيد: قاله أهل الكفر لنيهم لما جاء به من عند الله، زعموا أنه ساحر وأن ما جاء به من سحر قالوا: أتأتون السحر وأنتم تبصرون؟ ﴿قال﴾، أي: محمد، وفي قراءة: ﴿قل ربي يعلم القول في السماء والأرض﴾ لا يخفى عليه خافية، وهو الذي أنزل هذا القرآن ﴿وهو السميع﴾ لأقوال الخلق ﴿العليم﴾ بأحوالهم.

﴿بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾ عن ابن عباس قوله: ﴿أضغاث أحلام﴾ قال: مشتبهة. وعن قتادة قوله: ﴿أضغاث أحلام﴾، أي: فعل حالم، إنما هي رؤيا رآها ﴿بل افتراه بل هو شاعر﴾ كل هذا قد كان منهم.

قال البغوي^(١): يعني أن المشركين اقتسموا القول فيه وفيما يقوله فقال بعضهم: أضغاث أحلام، وقال بعضهم: بل هو فرية، وقال بعضهم: بل محمد شاعر وما جاءكم به شعر، فليأتنا بآية إن كان صادقاً كما أرسل الأولون؛ قال الله تعالى مجيباً لهم ﴿ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم﴾ الرسل إذا جاؤوا قومهم بالبينات فلم يؤمنوا لم ينظروا.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٧﴾ ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ ﴿٨﴾ ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿٩﴾.

عن قتادة قوله: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ يقول: فاسألوا أهل التوراة والإنجيل.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢٠١).

قال ابن جرير^(١): أراه أنا يقول: يخبروكم أن الرسل كانوا رجالاً يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق.

وقال الضحاك في قوله: ﴿وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام﴾ يقول: لم أجعلهم جسداً لا يأكلون الطعام.

قال ابن كثير^(٢): أي قد كانوا بشراً من البشر يأكلون ويشربون مثل الناس. وعن قتادة قوله ﴿وما كانوا خالدين﴾، أي: لا بدّ لهم من الموت. ﴿ثم صدقناهم الوعد﴾ بإنجاء المؤمنين وإهلاك المكذبين ﴿فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين﴾.

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٥﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَا إِذْ هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٧﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّسَلُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَبِيدِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

عن ابن عباس في قوله: ﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم﴾ يقول: شرفكم ﴿أفلا تعقلون﴾؟ ﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة﴾ قال مجاهد: أهلكتها ﴿وأنشأنا بعدها قوماً آخرين﴾.

﴿لا تركضوا﴾ لا تفرّوا ﴿وارجعوا إلى ما أترفتم فيه﴾ قال قتادة يقول: ارجعوا إلى دنياكم التي أترفتم فيها ﴿لعلكم تسألون﴾ من دنياكم شيئاً، استهزاء بهم ﴿قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً﴾

(١) انظر «جامع البيان» (٥/١٧).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/١٧٤).

خامدين ﴿ قال قتادة: فلما رأوا العذاب وعايينوه لم يكن لهم مجير إلا قولهم: يا ويلنا إنا كنا ظالمين، حتى دمر الله عليهم وأهلكهم.

قوله عز وجل: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَآتَخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَكُمْ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعيين﴾ يقول: ما خلقناها عبثاً ولا باطلاً. وعن مجاهد في قوله: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهوا﴾ قال: زوجة ﴿لاتخذناه من لدنا﴾ من عندنا، وما خلقنا جنة ولا ناراً ولا موتاً ولا بعثاً. وعن قتادة قوله: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهوا﴾ الآية، أي: أن ذلك لا يكون ولا ينبغي. وقوله: ﴿إن كنا فاعلين﴾ يقول: ما كنا فاعلين، وقيل: إن كنا ممن يفعل ذلك لاتخذناه من لدنا، ولكننا لم نفعله لأنه لا يليق بالربوبية.

﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾، أي: فبطل كذبهم بما نبين من الحق؛ ثم أوعدهم فقال: ﴿ولكم الويل مما تصفون﴾ الله بما لا يليق به من الصاحبة والولد والشريك.

﴿وله من في السموات والأرض﴾ خلقاً وملكاً وعبيداً ﴿ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون﴾ قال قتادة: لا يعيون. وقال ابن زيد: لا يملون ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ قال قتادة: يقول: الملائكة الذين هم عند الرحمن لا يستكبرون عن عبادته ولا يسأمون فيها؛ وذكر لنا «أن نبي الله ﷺ بينما هو جالس مع أصحابه إذ قال: تسمعون ما أسمع؟ قالوا: ما نسمع من شيء يا

نبي الله . قال: إني لأسمع أطيح السماء، وما تلام أن تتط، وليس فيها موضع راحة إلا وفيه ملكٌ ساجد أو قائم»^(١).

قوله عز وجل: ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُشْرُونَ ﴾^(٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبَّحَنَّا اللَّهَ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾^(٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾^(٢٣) أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾^(٢٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾^(٢٥).

قال ابن زيد في قوله: ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يُشْرُونَ ﴾ يقول: أفي آلهتهم أحد يُخيبي؟ ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾، كما قال تعالى: ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾^(٢).

وقال الضحاك في قوله: ﴿ لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ﴾ لا يُسأل الخالق عما يقضي في خلقه، والخلق مسؤولون عن أعمالهم.
وقال البغوي^(٣): ﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ.

﴿ قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي ﴾ قال ابن جريج:

(١) روي مرفوعاً من حديث أنس رضي الله عنه، أخرجه الطحاوي في المشكل، وابن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (ح/٢٥٠)، والطبراني في الكبير (٣/٢٢٤ - ٢٢٥) من حديث حكيم بن حزام، وهو حديث صحيح، وله شاهد من حديث أنس عند أبي نعيم في «الحلية» (٦/٢٦٩)، وفيه ضعف، وشاهد آخر من حديث جابر عند الطبراني (٢/٢٠٠)، وفيه ضعف أيضاً، وشاهد من حديث العلاء بن سعد عند ابن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (ح/٢٥٥)، وشاهد من حديث أبي ذر - رضي الله عنه - وسبق تخريجه.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٩١.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢٠٣).

حديث مَنْ مَعِيَ وَحْدِي مَنْ قَبْلِي. وعن قتادة قوله: ﴿هَذَا ذَكَرَ مِنْ مَعِيَ﴾ يقول: هذا القرآن فيه ذكر الحلال والحرام ﴿وَذَكَرَ مِنْ قَبْلِي﴾ يقول: ذكر أعمال الأمم السالفة، وما صنع الله بهم وإلى ما صاروا، ﴿بَلْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن كتاب الله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ به أرسلت الرسل بالإخلاص والتوحيد.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكُنَّ نَجْرِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾.

قال البغوي^(١): نزلت في خزاعة حيث قالوا: الملائكة بنات الله.

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ﴾ قال مجاهد: لمن رضي الله عنه. وقال ابن عباس: الذي ارتضى لهم شهادة أن لا إله إلا الله.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾، أي: خائفون أن يعصوه ويخالفوا أمره فيعذبهم، ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

(١) المصدر السابق (٣/٢٠٤).

قال ابن جرير^(١): يقول تعالى ذكره: ﴿ومن يقل ﴿من الملائكة ﴿إني إله من دونه فذلك﴾ الذي يقول ذلك منهم ﴿نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾.

قال البغوي^(٢): الواضعين الإلهية والعبادة في غير موضعهما. وقال ابن كثير^(٣): ﴿ومن يقل منهم إني إله من دونه﴾، أي: من ادعى منهم أنه إله من دون الله أي مع الله ﴿فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾، أي: كل من قال ذلك، وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه، كقوله: ﴿إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾^(٤)، وقوله: ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكوننّ من الخاسرين﴾^(٥).



-
- (١) انظر «جامع البيان» (١٧/١٧).
 - (٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢٠٤).
 - (٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/١٧٦).
 - (٤) سورة الزخرف: الآية ٨١.
 - (٥) سورة الزمر: الآية ٦٥.

الدرس الواحد والسبعون بعد المائة

﴿ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا
 وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ
 بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا
 مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ
 وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَّا يَنْتَهِمُ
 الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا
 تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا هُمْ يَرْجُفُونَ
 الَّذِي يَذْكُرُ آيَاتِهِمْ وَهُمْ يَنْكُرُوهَا وَالَّذِي هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٣٦﴾ خَلَقَ
 الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ فَأَسْأَلُكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُوهَا ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ
 إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ
 وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً
 فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ
 قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَنْ
 يَكْلُوكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ
 مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ
 أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ

عَلَيْهِمُ الْعَمْرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ
الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا
يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا
ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ
كَانَ مِنْ قَالِ حَبْكَةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُوْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً﴾ يقول: ملتصقتين ﴿ففتقناهما﴾ فرفع السماء ووضع الأرض. وقال مجاهد: ففتقهن سبع سموات بعضهن فوق بعض، وسبع أرضين بعضهن تحت بعض. وقال عطية: كانت السماء رتقاً لا تمطر، والأرض رتقاً لا تنبت، ففتق السماء بالمطر وفتق الأرض بالنبات، وجعل من الماء كل شيء حي ﴿أفلا يؤمنون﴾ قال قتادة: كل شيء حي خلق من الماء.

قال ابن جرير^(١) وقوله: ﴿أفلا يؤمنون﴾ يقول: أفلا يصدقون بذلك ويقرّون بالوهة من فعل ذلك، ويفردونه بالعبادة؟

وقوله تعالى: ﴿وجعلنا في الأرض رواسي﴾، أي: جبالات ﴿أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً﴾ بين الجبال ﴿لعلهم يهتدون﴾.

قال ابن جرير^(٢): يقول تعالى ذكره: جعلنا هذه الفجاج في الأرض ليهتدوا إلى السير فيها.

وقوله تعالى: ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً﴾ قال قتادة: سقفاً مرفوعاً

(١) انظر «جامع البيان» (٢٠/١٧).

(٢) المصدر السابق.

وموجاً مكفوفاً ﴿وهم عن آياتها معرضون﴾ . قال مجاهد: الشمس والقمر والنجوم آيات السماء ﴿وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون﴾ قال مجاهد: فلك كهيئة حديدة الرحي ﴿يسبحون﴾ يَجْرُونَ .

قوله عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مِّن قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَايِنَ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةٌ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ .

قال ابن جرير^(١): يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وما خلدنا أحداً من بني آدم يا محمد قبلك في الدنيا فنخلدك فيها، ولا بد لك من أن تموت كما مات من قبلك ﴿أفإن متَّ فهم الخالدون﴾؟ يقول: فهؤلاء المشركون بربهم هم الخالدون في الدنيا بعدك؟ لا ما ذلك، قيل: نزلت هذه الآية حين قالوا: نتربص بمحمد ريب المنون، وفي هذه الآية دلالة ظاهرة على أن الخضر عليه السلام ميت، لأن الله لم يجعل الخلد في الدنيا لأحد من بني آدم .

﴿كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾ قال ابن عباس يقول: نبتليكم بالشدة والرخاء والسقم والغنى والفقر، والحلال والحرام والطاعة والمعصية والهدى والضلال . وقال ابن زيد: نبلوهم بما يحبون وبما يكرهون، نختبرهم بذلك، لننظر كيف شكرهم فيما يحبون، وكيف صبرهم فيما يكرهون .

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَوْاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾

(١) انظر «جامع البيان» (٢٤/١٧) .

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا
حِينَ لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهُمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ
يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ آسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا
بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾ .

يقول تعالى: ﴿وإذا رآك﴾ يا محمد هؤلاء المشركون ﴿إن يتخذونك إلا هزوا﴾ سخرياً يقول بعضهم لبعض ﴿أهذا الذي يذكر آلهتكم﴾ يعيها؟ ﴿وهم يذكر الرحمن هم كافرون﴾، كما قال تعالى: ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ قال سعيد بن جبير: لما دخلت الروح في رأس آدم وعينه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخلت في جوفه اشتهى الطعام، فوثب قائماً قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عَجلاً إلى ثمار الجنة فوق. ﴿سأريكم آياتي فلا تستعجلون﴾.

قال البغوي^(٢): هذا خطاب للمشركين، كانوا يستعجلون بالعذاب.

﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ قال الله تعالى: ﴿لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون﴾ لا يدفعون ﴿عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون﴾ يُمنعون من العذاب، أي: لو علموا لما أقاموا عن كَفهم ولما استعجلوا ﴿بل تأتِيهم﴾، أي: النار ﴿بغْتة فتبْهتُهُم فلا يستطيعون رَدَّها ولا هم ينظرون﴾ يمهلون ﴿ولقد استهزئء برسُل من قبلك﴾ فاصبر كما صبروا ﴿فحاق بالذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانوا به يستهزؤون﴾، أي: نزل بهم العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه.

(١) سورة الرعد: الآية ٣٠.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٢٠٦/٣).

قوله عز وجل: ﴿ قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ
 عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا
 يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءِ
 وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ
 أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصَّمَّةُ
 الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا
 إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ .

قال ابن عباس في قوله: ﴿قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن﴾ قال:
 يحرسكم ﴿بل هم عن ذكر ربهم معرضون أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا
 يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون﴾ يجأرون، أي: الآلهة لا يستطيعون
 نصر أنفسهم فكيف ينصرون عابديهم.

﴿بل متعنا هؤلاء﴾ في الدنيا ﴿وآباءهم حتى طال عليهم العمر﴾ فاغتروا
 ﴿أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ قال ابن عباس: تخرب القرية
 حتى يكون العمران في ناحية ﴿أفهم الغالبون﴾ أم نحن؟

وعن قتادة قوله: ﴿قل إنما أُنذركم بالوحي﴾، أي: بهذا القرآن ﴿ولا يسمع
 الصم الدعاء إذا ما ينذرون﴾ يقول: إن الكافر قد صم عن كتاب الله لا يسمعه ولا
 يشفع به ولا يعقله ﴿ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك﴾ يقول: عقوبة ﴿ليقولنَّ يا
 ويلنا إنا كنا ظالمين﴾ ندموا حين لا ينفعهم الندم.

قوله عز وجل: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ
 شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِسَاءِ
 حَسِيبٍ ﴿٤٧﴾ .

عن عائشة رضي الله عنها «أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ جلس بين يديه فقال: يا رسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني، وأضربهم وأشتمهم، فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول الله ﷺ: يحسب ما خانوك وما عصوك وكذبوك وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتصر لهم منك الفضل الذي بقي قبلك، فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله ﷺ ويهتف، فقال رسول الله ﷺ: ما له لا يقرأ كتاب الله ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ولا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾؟ فقال الرجل: يا رسول الله ما أجد شيئاً خيراً من فراق هؤلاء، يعني عبيده، إني أشهدك أنهم أحرار كلهم»^(١). رواه أحمد.



(١) أخرجه أحمد (٦/٢٨٠)، والترمذي (ح/٣١٦٥) وهو حديث صحيح.

الدرس الثاني والسبعون بعد المائة

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَائِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُدُثًا إِلَّا كِبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِ لَكُمْ وِلْمًا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ

الْأَخْسَرِينَ ﴿٧١﴾ وَجَعَلْنَاهُ لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾
 وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۗ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً
 يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ
 الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدٌ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا إِذْ أَنبَتْهُ حُكْمًا وَعَلَّمْنَا وَجَعَلْنَاهُ مِنَ
 الْقَرَبِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبْثِ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ
 فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ
 فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا
 بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَهُ وَذَكَرَ الْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان﴾ التوراة حلالها وحرامها، فرق الله بين الحق والباطل. وقال ابن زيد: الفرقان الحق، آتاه الله موسى وهارون فرق بينهما وبين فرعون، وقضى بينهم بالحق، وقرأ: ﴿وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان﴾ قال: يوم بدر.

وقوله تعالى: ﴿وضياء وذكراً للمتقين﴾، أي: تذكيراً لهم وعظة؛ ثم وصفهم فقال: ﴿الذين يخشون ربهم بالغيب﴾، أي: يخافونه ولم يروه ﴿وهم من الساعة مشفقون﴾، أي: خائفون وجلون، ﴿وهذا﴾، يعني: القرآن ﴿ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون﴾ وهو في غاية الجلاء والظهور؟ قال البغوي^(١): وهذا استفهام توبيخ وتعيير.

قوله عز وجل: ﴿﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا اجْتِنَّا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِبِينَ ﴿٥٧﴾﴾ .

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢٠٨).

عن مجاهد قوله: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل﴾ قال: هديناه صغيراً. وقوله تعالى: ﴿وكنا به عالمين﴾، أي: أنه أهل للهداية والنبوة ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل﴾، يعني: الأصنام ﴿التي أنتم لها عاكفون﴾، أي: على عبادتها مقيمون؟ ﴿قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين﴾ فاقتدينا بهم ﴿قال﴾ إبراهيم ﴿لقد كنتم أنتم وأباؤكم في ضلال مبين﴾ بعبادتكم إياها ﴿قالوا أجبثنا بالحق أم أنت من اللاعبين﴾ يعنون: أجاد أنت فيما تقول أم لاعب؟ ﴿قال بل ربكم السموات والأرض الذي فطرهن﴾ خلقهن ﴿وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾ أنه لا إله إلا الله الذي لا يستحق العبادة غيره.

﴿وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين﴾ قال مجاهد: إنما قال إبراهيم هذا سراً من قومه، ولم يسمع ذلك إلا رجل واحد فأفشاه عليه.

قوله عز وجل: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَشَاءُواهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَوْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

قال السدي: إن إبراهيم قال له أبوه: يا إبراهيم إن لنا عيداً، لو قد خرجت معنا إليه قد أعجبك ديننا، فلما كان يوم العيد فخرجوا إليه، خرج معهم إبراهيم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه ﴿وقال إني سقيم﴾ يقول: أشككي رجلي، فلما مضوا نادى في آخرهم، وقد بقي ضعفاء الناس ﴿تالله لأكيدن أصنامكم بعد أن

تولوا مدبرين ﴿ فسمعوا منه، ثم رجع إبراهيم إلى بيت الآلهة، فإذا هنّ في بهو عظيم، مستقبل باب البهو صنم عظيم، إلى جنبه أصغر منه بعضها إلى بعض، كل صنم يليه أصغر منه حتى بلغوا باب البهو، وإذا هم قد جعلوا طعاماً فوضعوه بين أيدي الآلهة، قالوا: إذا كان حين نرجع رجعنا وقد برّكت الآلهة في طعامنا فأكلنا، فلما نظر إليهم إبراهيم وإلى ما بين أيديهم من الطعام قال: ﴿ألا تأكلون﴾؟ فلما لم تجبه قال: ﴿ما لكم لا تنطقون﴾؟ ﴿فراغ عليهم ضرباً باليمين﴾ فأخذ فأس حديد فنقر كل صنم في حافتيه ثم علّق الفأس في عنق الصنم الأكبر ثم خرج، فلما جاء القوم إلى طعامهم نظروا إلى آلهتهم ﴿قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين﴾ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴿وعن قتادة: ﴿لعلهم إليه يرجعون﴾ قال: كادهم بذلك لعلهم يتذكرون أو يبصرون.

وعن ابن إسحاق قوله: ﴿سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾ سمعناه يسبّها ويعيبها ويستهزئ بها، لم نسمع أحداً يقول ذلك غيره، وهو الذي نظن أنه صنع هذا بها ﴿قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون﴾ قال ابن إسحاق: بلّغ ما فعل إبراهيم بآلهة قومه نمروود وأشرف قومه، فقالوا: ﴿فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون﴾، أي: ما يُصنع به، ولما أتى به واجتمع له قومه عند ملكهم نمروود ﴿قالوا أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ غضب من أن يعبدوا معه هذه الصغار وهو أكبر فكسرهنّ. وعن قتادة قوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ وهي هذه الخطة التي كادهم بها.

قال ابن إسحاق: ﴿فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون﴾ قال: ارعوا ورجعوا عنه فيما ادعوا عليه من كسرهنّ إلى أنفسهم فيما بينهم، فقالوا: لقد ظلمناه وما نراه إلا كما قال، ثم قالوا: ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾، أي: لا تتكلم فتخبرنا من صنع هذا بها وما تبطش بالأيدي فنصدقك، يقول الله: ﴿ثم نكسوا على رؤوسهم﴾ في الحجّة عليهم لإبراهيم حين جادلهم، فقال عند ذلك

إبراهيم — حين ظهرت الحجّة عليهم بقولهم: ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ —
﴿قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من
دون الله أفلا تعقلون﴾؟.

قوله عز وجل: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾
قُلْنَا يَنْتَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ
الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

قال ابن إسحاق: أجمع نمرود وقومه في إبراهيم ﴿فقالوا حرّقه وانصروا
آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾، أي: لا تنصروها منه إلا بالتحريق بالنار إن كنتم
ناصريها. وعن السدي قال قالوا: ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم، فحبسوه في
بيت وجمعوا له حطباً، حتى إن كان الطير لتمرّ بها فتحترق من شدّة وهجها،
فعمدوا إليه فرفعوه على رأس البنيان، فرفع إبراهيم ﷺ رأسه إلى السماء وقال:
اللهم أنت الواحد في السماء، وأنا الواحد في الأرض، ليس في الأرض أحد
يعبدك غيري^(١)، حسبني الله ونعم الوكيل. فحذفوه في النار فقال: ﴿يا نار كوني
برداً وسلاماً على إبراهيم﴾. قال أبو العالية: السلام لا يؤذيه بردها، ولولا أنه قال
﴿وسلاماً﴾ لكان البرد أشدّ عليه من الحر. وقال كعب الأحبار: ما أحرقت النار
من إبراهيم إلا وثاقه. وعن أبي هريرة قال: إن أحسن شيء قاله أبو إبراهيم لما
رفع عنه الطبق وهو في النار، وجده ترشح جبينه فقال عند ذلك: نعم الرب ربك يا
إبراهيم.

قال ابن يسار: فقال نمرود لإبراهيم: إني مقرّب إلى إلهك قرباناً، لِمَا رأيت
من قدرته وعزّته فيما صنع بك، حيث أبيت إلاّ عبادته وتوحيده، إني مقرّب له
أربعة آلاف بقرة. فقال له إبراهيم: إذا لا يقبلها منك ما كنت على دينك حتى

(١) روي مرفوعاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ولفظه: «لما ألقى إبراهيم في النار قال:
اللهم إنك في السماء واحد وأنا في الأرض واحد أعبدك». وسنده ضعيف.

تفارقه إلى ديني، فقال: لا أستطيع ترك ملتي وملكي، ولكن سوف أذبحها، فذبحها له نمرود ثم كفّ عن إبراهيم ومنعه الله منه.

قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَاهُ لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۗ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

عن قتادة ﴿ونجيناه لوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾ كانا بأرض العراق فأنجيا إلى أرض الشام، وكان يقال للشام عماد دار الهجرة وما نقص من الأرض زيد في الشام وما نقص من الشام زيد في فلسطين، وكان يقال: هي أرض المحشر والمنشر وبها مجمع الناس، وبها ينزل عيسى ابن مريم، وبها يهلك الله شيخ الضلالة الكذاب الدجال.

وعن عطاء في قوله: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة﴾ قال عطية: ﴿وكلاً جعلنا صالحين﴾.

قال ابن كثير^(١)، أي: الجميع أهل خير وصلاح. وقال ابن عباس: ﴿ووهبنا له إسحاق﴾ ولداً ﴿ويعقوب﴾ ابن ابن ﴿نافلة﴾.

قال ابن كثير^(٢): يعني أن يعقوب ولد إسحاق، كما قال: ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾.

وعن قتادة قوله: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا﴾ جعلهم الله أئمة يقتدى بهم في أمر الله ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/١٨٥).

(٢) المصدر السابق (٣/١٨٥).

قال ابن كثير^(١): أي فاعلين لما يأمرون الناس به .

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ .

قال البغوي^(٢): ﴿ولوطاً آتيناه حكماً﴾، يعني: الفصل بين الخصوم بالحق ﴿وعلماً ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث﴾، يعني: سدوماً وكان أهلها يأتون الذكران في أدبارهم ﴿إنهم كانوا قوم سوء فاسقين وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين﴾ .

قوله عز وجل: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ .

قال البغوي^(٣): ﴿ونوحاً إذا نادى﴾ دعا ﴿من قبل﴾، يعني: من قبل إبراهيم ولوط ﴿فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم﴾ قال ابن عباس: من الغرق وتكذيب قومه؛ وقيل: لأنه كان أطول الأنبياء عمراً وأشدّهم بلاء، والكرب أشد الغم ﴿ونصرناه﴾ معناه ﴿من القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ أن يصلوا إليه بسوء . وقال أبو عبيدة: يعني على القوم ﴿إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين﴾ .



(١) المصدر السابق (٣/١٨٥) .

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢١٣) .

(٣) المصدر السابق (٣/٢١٣) .

الدرس الثالث والسبعون بعد المائة

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يُفَوِّضُ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَيَّنَّا لَهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يُعَيِّنُ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رِعَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ ﴿٩٠﴾ وَالَّتِي أَحْصَيْنَا فَزَجَّهَا

فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ
هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ
بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهِنَا رَجُوعٌ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُيُوتٌ ﴿٩٤﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ .

عن مجاهد في قول الله ﴿إذ نفشت في غنم القوم﴾ قال: أعطاهم داود رقاب الغنم بالحرث، وحكم سليمان بجزء الغنم وألبانها لأهل الحرث، وعليهم رعايتها على أهل الحرث، ويحرث لهم أهل الغنم حتى يكون لهم الحرث، كهيئة يوم أكل ثم يدفعونه إلى أهله ويأخذون غنمهم. وقال شريح: كان النفش ليلاً^(١).

وقال الحسن: كان الحكم بما قضى به سليمان، ولم يعتف الله داود في حكمه. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير﴾ قال وهب: كانت الجبال تجاوبه بالتسبيح وكذلك الطير. ﴿وكنا فاعلين﴾، أي: ما ذكرهن: التفهيم وإيتاء الحكم والتسخير.

وقوله تعالى: ﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم﴾، أي: الدروع قال قتادة: كانت قبل داود صفائح، وكان أول من صنع الحلق وسرد داود.

(١) والنفش: هو الرعي بالليل.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٧٣٥٢)، ومسلم (ح/١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

قوله عز وجل: ﴿وَلَسَلِمْنَ الرَّيْحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَفْضُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

قال قتادة: ورث الله سليمان داود، فوزثه نبوته وملكه، وزاده على ذلك أن سخر له الريح والشياطين. وقال ابن زيد في قوله: ﴿ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره﴾ قال: عاصفة شديدة ﴿تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها﴾ قال: الشام. قال البغوي^(١): وذلك أنها كانت تجري بسليمان وأصحابه حيث شاء سليمان، ثم يعود إلى منزله بالشام.

قوله عز وجل: ﴿﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾﴾.

قال يزيد بن ميسرة: لما ابتلى الله أيوب عليه السلام بذهاب الأهل والمال والولد، قال: أحمدك رب الأرباب الذي أحسنت إليّ أعطيتني المال والولد، فلم يبق من قلبي شعبة إلا قد دخله ذلك، فأخذت ذلك كله مني وفرغت قلبي، فليس يحول بيني وبينك شيء، لو يعلم عدوي إبليس بالذي صنعت حسدني.

وقال الحسن: قال إبليس: يا رب سلطني على جسده، فإن أصابه الضر فيه أطاعني وعصاك، قال: تسلط على جسده، فأتاه فنفخ فيه نفخة فرح من لدن قرنه إلى قدمه، قال: فأصابه البلاء بعد البلاء حتى حُمِلَ فوُضِعَ على مزبلة كناسة لبني إسرائيل، فلم يبق له مال ولا ولد ولا صديق ولا أحد يقرُّه غير زوجته، صبرت معه بصدق وكانت تأتيه بطعام، وتحمد الله معه إذا حمد، وأيوب على ذلك لا يفتر عن ذكر الله والتحميد والثناء على الله، والصبر على ما ابتلاه الله؛ قال: ومرّ به

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢١٥).

رجلان، ولا والله ما على ظهر الأرض يومئذ أكرم على الله من أيوب، فقال أحد الرجلين لصاحبه: لو كان لله في هذا حاجة ما بلغ به هذا، فلم يسمع أيوب شيئاً كان أشدّ عليه من هذه الكلمة.

وقال ابن عباس: لما مسّه الشيطان بُنْصِبٍ وعذاب، أنساه الله الدعاء أن يدعوه فيكشف ما به من ضرّ، غير أنه كان يذكر الله كثيراً، ولا يزيده البلاء في الله إلاّ رغبة وحسن إيمان، فلما انتهى الأجل وقضى الله أنه كاشف ما به من ضرّ، أذن له في الدعاء ويسرّه له، وكان قبل ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿لا ينبغي لعبدي أيوب أن يدعوني ثم لا أستجيب له﴾، فلما دعا استجيب له وأبدلّه بكل شيء ذهب له ضعفين، ردّ إليه أهله ومثلهم معهم، وأثنى عليه فقال: ﴿إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب﴾^(١).

وفي خبر وهب بن منبه^(٢): فركض برجله وانفجرت له عين، فدخل فيها فاغتسل، فأذهب الله عنه كل ما كان به من البلاء، ثم خرج فجلس وأقبلت امرأته تلمسه في مضجعه فلم تجده، فقامت كالوالهة متلددة، ثم قالت: يا عبد الله هل لك علم بالرجل المبتلى الذي كان ههنا؟ قال: لا، ثم تبسّم فعرفته بمضحكه فاعتنقته. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: «لما عافى الله أيوب أمطر عليه جراداً من ذهب، فجعل يأخذ منه بيده ويجعله في ثوبه فقيل له: يا أيوب أما تشيع؟ قال: يا رب ومن يشبع من رحمتك؟»^(٣).

وعن مجاهد في قوله ﴿وآتيناه أهله ومثلهم معهم﴾ قال قيل له: إن شئت

(١) أخرجه ابن جرير (٧٢/١٧) بسند ضعيف.

(٢) وذلك عند قوله تعالى: ﴿أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾ (سورة ص: الآية ٤٢).

(٣) أخرجه الحاكم (٥٨٢/٢) وصححه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي وزاد أيضاً على شرط مسلم وعزاه ابن كثير (١٨٩/٣) لابن أبي حاتم، والحديث أصله في الصحيحين كما ذكره ذلك ابن كثير رحمه الله.

أحييناهم لك وإن شئت كانوا لك في الآخرة وتعطى مثلهم في الدنيا، فاختار أن يكونوا في الآخرة ومثلهم في الدنيا. وعن محمد بن كعب القرظي في قوله: ﴿رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾ قال: أيما مؤمن أصابه بلاء فذكر ما أصاب أيوب فليقل: قد أصاب من هو خير منا، نبياً من الأنبياء.

قوله عز وجل: ﴿وَإِسْكِعِلْ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّادِقِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

عن مجاهد في قوله: ﴿وذا الكفل﴾ قال: رجل صالح غير نبي تكفل لنبى قومه أن يكفيه أمر قومه، ويقمه لهم ويقضي بينهم بالعدل، ففعل ذلك فسمي ذا الكفل.

قوله عز وجل: ﴿وَذَا التَّوْنِ إِذْ ذَهَبَ مُغْلَضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُمْ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَرِّ وَكَذَلِكَ نُنشِئُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

قال وهب بن منبه: إن يونس بن متى كان عبداً صالحاً، وكان في خُلُقِهِ ضيق، فلما حملت عليه أثقال النبوة، ولها أثقال لا يحملها إلا قليل، تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل، فقذفها بين يديه وخرج هارباً منها، يقول الله لنبى ﷺ ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾^(١) ﴿فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت﴾^(٢).

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: بعثه الله — يعني يونس — إلى أهل

(١) سورة الأحقاف: الآية ٣٥.

(٢) سورة القلم: الآية ٤٨.

قريته، فردّوا عليه ما جاءهم به وامتنعوا منه، فلما فعلوا ذلك أوحى الله إليه: إني مرسل عليهم العذاب في يوم كذا وكذا، فأخرج من بين أظهرهم، فأعلم قومه الذي وعده الله من عذابه إياهم فقالوا: ارمقوه فإن خرج من بين أظهركم فهو والله كائن ما وعدكم، فلما كانت اللية التي وُعدوا بالعذاب في صباحها أدلج، ورآه القوم فخرجوا من القرية إلى بَرّاز من أرضهم، وفرّقوا بين كل دابة وولدها، ثم عَجّوا إلى الله فاستقالوه فأقالهم، وانتظر يونس الخبر عن القرية وأهلها حتى مرّ به مارٌّ فقال: ما فعل أهل القرية؟ قال: فعلوا أن نبيهم خرج من بين أظهرهم، عرفوا أنه صدقهم ما وعدهم من العذاب، فخرجوا من قريتهم إلى بَرّاز من الأرض، ثم فرّقوا بين كل ذات ولد وولدها، وعَجّوا إلى الله وتابوا إليه فقبل منهم وأخر عنهم العذاب، قال: فقال يونس عند ذلك — وغضب — والله لا أرجع إليهم كذاباً أبداً، وعدتهم العذاب في يوم ثم رُدّ عنهم، ومضى على وجهه مغاضباً.

وفي رواية: فخرج يونس لينتظر العذاب فلم ير شيئاً، قال: جرّبوا عليّ كذباً، فذهب مغاضباً لربه حتى أتى البحر.

وعن ابن عباس: ﴿فظن أن لن نقدر عليه﴾ يقول: ظن أن لن نقضي عليه عقوبة ولا بلاءً وعقوبته أخذ النون إياه. قال الحسن: وكان له سلف من عبادة وتسييح، فتداركه الله بها فلم يدعه للشيطان. وعن قتادة ﴿فنادى في الظلمات﴾ قال: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل. وقال ابن عباس: ﴿نادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ معترفاً بذنبه من خطيئته. وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اسم الله الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى، دعوة يونس بن متى، قال فقلت: يا رسول الله هي ليونس بن متى خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: هي ليونس بن متى خاصة وللمؤمنين عامة، إذا دَعُوا بها، ألم تسمع قول الله تبارك وتعالى: ﴿فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾

واستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴿١﴾ رواه ابن جرير. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: «من قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذب» ﴿٢﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْـَٔرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ ﴿٩٠﴾ وَالَّتِي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا فَفَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿وأصلحنا له زوجته﴾ كانت عاقراً فجعلها الله ولوداً. ﴿ووهبنا له﴾ منها ﴿يحيى﴾. وقال عطاء: كان في خلقها شيء فأصلحها الله. وعن ابن جريج أنهم ﴿كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً﴾ قال: رغباً في رحمة الله ﴿ورهباً﴾ من عذاب الله.

وقوله تعالى: ﴿وكانوا لنا خاشعين﴾، أي: متواضعين. قال قتادة: ذللاً لأمر الله. وقال مجاهد: الخشوع هو الخوف اللازم في القلب. وقوله تعالى: ﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ يعني مريم عليها السلام، حفظت فرجها من الحرام، وأمر الله جبريل فنفخ في جيب درعها

(١) أخرجه ابن جرير (٨٢/١٧) بسند ضعيف؛ لكن جاء الحديث بلفظ آخر عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، مرفوعاً: «دعوة ذي النون إذ دعا بها وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت لظالمين، لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له»، أخرجه أحمد (١٧٠/١) مطولاً، والترمذي (ح/٣٥٠٥)، والنسائي في «اليوم والليلة» (ح/٦٥٧)، والحاكم (١/٥٠٥ و ٢/٣٨٢ و ٥٨٣) وصححه، وأقره الذهبي، قلت: وسنده حسن.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٦٠٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فدخلت في فرجها فحملت بعيسى، فكان من أم بلا أب ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿١٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كَمَا كُنْتُمْ أَقْبَامًا ﴿١٣﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُوبٌ ﴿١٤﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿أمتكم أمة واحدة﴾ يقول: دينكم دين واحد. وقوله تعالى: ﴿وتقطعوا أمرهم بينهم﴾ قال البغوي^(١)، أي: اختلفوا في الدين فصاروا فرقاً وأحزاباً ﴿كل إلينا راجعون﴾ فنجزهم بأعمالهم ﴿فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون﴾، أي: لعمله حافظون.



(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢٢٥).

الدرس الرابع والسبعون بعد المائة

﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْبَةٍ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُجِّحَتْ
يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَأَقْرَبَ الْوَعْدِ الْحَقُّ
فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْوِلُنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ
كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ
أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَتُولَاءِ ٱللَّهِ مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ
لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَهُمْ فِي مَا
أَسْتَهْتُمْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَلَاقَتْهُمُ
ٱلْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمَهُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ
كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ وَعَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا
فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا
عِبَادِي الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا
أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ ٱللَّهُ
وَنِعْدُهُ هَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنُكُمْ عَلَىٰ سَوَءٍ وَإِنْ
أَدْرَيْتَ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ
مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُمْ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قُلْ رَبِّ
أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ۞

قوله عز وجل: ﴿ وَحَرَّمَ عَلَىٰ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنْتُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾
 حَقُّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾
 وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَوَّلْنَا قَدْ
 كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلَّ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ .

عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون﴾ قال: لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة.

وعن ابن جريج قوله: ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج﴾ قال: أمتان من وراء ردم ذي القرنين. وقال عمرو البكالي: إن الله جزأ الأنفس عشرة أجزاء: فتسعة منهم يأجوج ومأجوج، وسائر الإنس جزء. وقال ابن زيد في قوله: ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون﴾ قال: هذا مبتدأ يوم القيامة ﴿واقترب الوعد الحق﴾ قال: اقترب يوم القيامة منهم ﴿فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا﴾ فلا تكاد تطرف من شدة ذلك اليوم يقولون ﴿يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين﴾.

وعن النواس بن سمعان الكلابي قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات يوم فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في ناحية النخل فقال: «غير الدجال أخوفني عليكم، فإن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فكل امرئ حجيح نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، وإنه شاب جعد قطط، عينه طافية، وإنه يخرج خلة بين الشام والعراق فعات يميناً وشمالاً، يا عباد اثبتوا»، قلنا: يا رسول الله ما لبثه في الأرض؟ قال: «أربعون يوماً يوم كسنة ويوم كشهريوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم»، قلنا: يا رسول الله فذاك اليوم الذي هو كسنة، أيكفينا فيه صلاة يوم وليلة؟ قال: «لا، اقدروا له قدره»، قلنا: يا رسول الله فما إسرعه في الأرض؟ قال: «كالغيث اشتدت به الريح، قال: فيمرّ بالحيّ فيدعوهم

فيستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت، وتروح عليهم سارحتهم وهي أطول ما كانت ذرى وأمدّه خواصر وأسبغه ضروعاً، ويمرّ بالحيّ فيدعوهم فيردّون عليه قوله، فتتبعه أموالهم فيصبحون ممحلين ليس لهم من أموالهم شيء، ويمرّ بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيغاسيب النحل قال: ويأمر برجل فيقتل فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعو فيقبل إليه، فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين، واضعاً يديه على أجنحة ملكين، فيتبعه فيدركه فيقتله عند باب لدّ الشرقي، قال: فبينما هم كذلك إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم عليه السلام: إني قد أخرجت عبداً من عبادي لا يدان لأحد بقتالهم، فحرز عبادي إلى الطور، فبيعث الله عز وجل يأجوج ومأجوج، كما قال تعالى: ﴿وهم من كل حذب ينسلون﴾.

فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل، فيرسل الله عليهم نغفاً في رقابهم فيصبحون موتى كموت نفس واحدة، فيهبط عيسى وأصحابه فلا يجدون في الأرض بيتاً إلاّ قد ملأه زهمهم ونتاجهم، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل، فيرسل الله عليهم طيراً كأعناق البخت فتحملهم فطرحهم حيث شاء الله، قال: ويرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر أربعين يوماً، فيغسل به الأرض حتى يتركها كالزلفة، ويقال للأرض: أنبتي ثمرك ورُدّي بركتك. قال: فيومئذ يأكل النفر من الرمانة فيستظلون بقحفها، ويبارك في الرسل حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر تكفي الفخذ، والشاة من الغنم تكفي أهل البيت، قال: فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مسلم — أو قال: مؤمن — ويبقى شرار الناس يتهاججون تهاجج الحُمُر وعليهم تقوم الساعة^(١) رواه مسلم وغيره.

(١) أخرجه مسلم (ح/٢١٣٧).

وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ليحجّن هذا البيت وليعتمرنّ بعد خروج يأجوج ومأجوج»^(١). رواه البخاري وغيره.

وقال كعب الأحبار: فبينما الناس كذلك — يعني بعد هلك يأجوج ومأجوج، إذ أتاهم الصريخ أنّ ذا السويقتين يريد، قال: فيبعث عيسى ابن مريم طليعة سبعمائة، حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله ريحاً يمانية طيبة، فيقبض فيها روح كل مؤمن، ثم يبقى عجاج الناس فيتسافدون كما تتسافد البهائم، فمثل الساعة كمثل رجل يطيف حول فرسه متى تضع.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿١٧﴾ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءَ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٨﴾ لَهُمْ فِيهَا زُفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿٢٠﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا أُسْتَهتَ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿٢١﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ وَعَدَّا عَلَيْهَا وَإِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

عن ابن عباس: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ يقول: وقودها. وقال الضحاك: يُرمى بهم فيها. وقال ابن زيد في قوله: ﴿لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون﴾ قال: العابد والمعبود. وقال الحسن البصري: ثم استثنى فقال: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ فقد عبّدت الملائكة من دون الله، وعزير وعيسى من دون الله. وقال ابن إسحاق: جلس رسول الله ﷺ فيما بلغني يوماً مع الوليد بن المغيرة، فجاء النضر بن الحارث

(١) أخرجه البخاري (ح/١٥٩٣).

حتى جلس معهم، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر بن الحارث، وكلمه رسول الله ﷺ حتى ألجمه ثم تلا عليه وعليهم ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون﴾ إلى قوله: ﴿وهم فيها لا يسمعون﴾، ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزبير حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبير: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفاً وما قعد، وقد زعم، أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله بن الزبير: أما والله لو وجدته لخصمته، فسلوا محمداً: أكل من عبد من دون الله في جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيزاً، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم، فعجب الوليد بن المغيرة ومن كان في المجلس من قول عبد الله بن الزبير، ورأوا أنه قائد خاصم واحتج، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ من قول ابن الزبير فقال رسول الله ﷺ: «نعم كل من أحب أن يُعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنما يعبدون الشياطين، ومن أمرهم بعبادتهم؟» فأنزل الله عز وجل: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ إلى ﴿خالدون﴾، أي: عيسى ابن مريم وعزير، ومن عبدوا من الأخبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله فاتخذهم من بعدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله، فأنزل الله فيما ذكروا أنهم يعبدون الملائكة وأنها بنات الله: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿يوم نظوي السماء كطي السجل للكتب﴾ قال ابن عباس يقول: كطي الصحف. وروى البخاري وغيره عن النبي ﷺ: «يقبض الله الأرض

(١) أخرجه ابن جرير (٩٦/١٧ - ٩٧)، وبنحوه عن ابن عباس: أخرجه الطبراني (١٥٣/١٢)

ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟^(١) وقد قال الله تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾^(٢).

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١١٠﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١١١﴾﴾.

عن مجاهد في قوله: ﴿الزبور﴾ قال: الكتاب ﴿من بعد الذكر﴾ قال: أم الكتاب عند الله. وقال ابن زيد: الزبور الكتب التي أنزلت على الأنبياء، والذكر أم الكتاب الذي تكتب فيه الأشياء قبل ذلك ﴿أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ قال: الجنة، وقرأ قول الله جل ثناؤه ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين﴾.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ قال: تمت الرحمة لمن آمن به في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن به عوفي مما أصاب الأمم قبل.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١١٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنِ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١١٣﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٤﴾ وَإِنِ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنِّعٌ إِلَيَّ حِينٍ ﴿١١٥﴾ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

عن ابن جريج ﴿وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون﴾ قال: الأجل. وعن

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٨١٢ و ٦٥١٩)، ومسلم (ح/٢٧٨٧).

(٢) سورة الزمر: الآية ٦٧.

ابن عباس: ﴿وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين﴾ يقول: لعلّ ما أقرب لكم من العذاب والساعة أن يؤخر عنكم لمدتكم ﴿ومتاع إلى حين﴾ فيصير قولي ذلك لكم فتنة. ﴿قال رب احكم بالحق﴾ قال: لا يحكم بالحق إلاّ الله، ولكن إنما استعجل بذلك في الدنيا يسأل ربه على قومه.

وقال ابن كثير^(١) وقوله: ﴿وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾، أي: على ما يقولون ويفترون من الكذب. وقال البغوي: فإن قيل: كيف قال: ﴿احكم بالحق﴾ والله لا يحكم إلاّ بالحق؟! قيل: الحق ههنا بمعنى العذاب، لأنه استعجل العذاب لقومه فعذبوا يوم بدر، نظيره قوله تعالى: ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾^(٢).



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢/٣٠٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية ٨٩.

الدرس الخامس والسبعون بعد المائة

﴿سورة الحج﴾

مكية، وقيل مدنية، وهي ثمان وسبعون آية

قال البغوي^(١): سورة الحج مكية، إلا ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾ الآيتين، أو إلا ﴿هذان خصمان﴾ الست آيات، فمدنيتان.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِقُوا رَبَّكُمْ إِنَّكَ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّكَ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَنْوَفُّ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدِّ إِلَىٰ أَزْدِلِ الْعُمْرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ

(١) انظر معالم التنزيل، (٣/٢٣٠).

الْأَرْضِ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأُنبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ
بِهَيْجٍ ﴿٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتِينَ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ
السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ
فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهٗ
فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَّ نُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ
اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ إِن كُنْتُمْ لِرَبِّكُمْ تَارِعِينَ﴾^(١) ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾^(٢).

روى ابن جرير وغيره عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاها إسرافيل، فهو واضع على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر قال أبو هريرة: يا رسول الله وما الصور؟ قال: قرن. قال: فكيف هو؟ قال: قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات: الأولى نفخة الفرع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين؛ يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول: انفخ نفخة الفرع، فيفزع أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله، ويأمره فيمدها ويطولها ولا يفتر، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوْاقٍ﴾^(١) فتسير الجبال فتكون سرايا، وترج الأرض رجاً، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾^(٢) فتكون الأرض كالسفينة الموثقة في البحر تضربها الأمواج تكفاً بأهلها، وكالقنديل المعلق بالعرش ترجحه الأرواح فتميد الناس على ظهرها فتذهل المراضع وتضع الحوامل ويشيب الولدان، وتطير الشياطين هاربة حتى تأتي الأقطار فتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع، ويولّي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُوَلَّوْنَ مَدْبِرِينَ مَا لَكُمْ

(١) سورة ص: الآية ١٥.

(٢) سورة النازعات: الآية ٥.

من الله من عاصم ﴿ فيبينما هم على ذلك إذا انصدعت الأرض من قطر إلى قطر ورأوا أمراً عظيماً، فأخذهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به، ثم نظروا إلى السماء فإذا هي كالمهل، ثم خسف شمسها وقمرها وانتشرت نجومها، ثم كُشِطت عنهم؛ قال رسول الله ﷺ: والأموات لا يعلمون بشيء من ذلك - قال أبو هريرة - : فمن استثنى الله حين يقول: ﴿ففرع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾^(١)؟ قال: أولئك الشهداء، وإنما يصل الفرع إلى الأحياء، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون، ووقاهم الله شر ذلك اليوم وأمنهم، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه، وهو الذي يقول: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾^(٢). وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث يوم القيامة منادياً: يا آدم إن الله يأمرك أن تبعث بعثاً من ذريتك إلى النار، فيقول آدم: يا رب مَنْ هم؟ فيقال له من كل مائة تسعة وتسعون، فقال رجل من القوم: من هذا الناجي منا بعد هذا يا رسول الله؟ قال: هل تدرون؟ ما أنتم في الناس إلا كالشامة في صدر البعير»^(٣). رواه أحمد.

وفي الصحيحين عن أبي سعيد قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك، فينادى بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار، قال: يا رب وما بعث النار؟ قال: من كل ألف - أراه قال - تسعمائة وتسعة وتسعون، فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد ﴿وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم، قال النبي ﷺ: «من يأجوج ومأجوج

(١) سورة النمل: الآية ٨٧.

(٢) أخرجه ابن جرير (١١٠/١٧) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه أحمد (٣٨٨/١)، وفي سنده ضعف، لكن يغني عنه الحديث الذي بعده.

تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد، أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، فكبرنا ثم قال: ثلث أهل الجنة، فكبرنا ثم قال: شطر أهل الجنة، فكبرنا»^(١).

قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾.

قال مجاهد: ﴿تولاه﴾ اتبعه. وعن قتادة ﴿كتب عليه أنه من تولاه﴾ قال: كتب على الشيطان أنه من اتبع الشيطان من خلق الله.

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّ أَجَلَ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَّن يُرْدَىٰ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ يَأْنِي أَنَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾.

عن قتادة في قول الله ﴿مخلقة وغير مخلقة﴾ قال: تامّة وغير تامّة. قال ابن جرير: المخلقة المصوّرة خلقاً تاماً، وغير المخلقة أسقط قبل تمام خلقه. وقال

(١) أخرجه البخاري (ح/٣٣٤٨ و٤٧٤١)، ومسلم (ح/٢٢٢).

ابن زيد في قوله: ﴿ونقرّ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى﴾ قال: الأجل المسمى إقامته في الرحم حتى يخرج.

وعن ابن جريج في قوله: ﴿وترى الأرض هامدة﴾ قال: لا نبات فيها ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾ قال قتادة: حسنت وعرف الغيث في ربوها ﴿وأنبئت من كل زوج بهيج﴾ قال: حسن. وقال ابن جرير ﴿في كل زوج﴾ من كل نوع. قال ابن كثير^(١): ﴿وأنبئت من كل زوج بهيج﴾، أي: حسن المنظر طيب الريح قال البغوي^(٢): فهذا دليل آخر على البعث. ﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾، أي: لتعلموا أن الله هو الحق ﴿وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمِيرٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾.

قال البغوي^(٣): ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثاني عطفه﴾ متبخراً لتكبره، وقال ابن كثير^(٤): لما ذكر تعالى حال الضلال الجهال المقلدين في قوله: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد﴾ ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع فقال: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾، أي: بلا عقل صحيح ولا نقل صريح، بل بمجرد الهوى ﴿ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٠٨/٣).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٢٣٢/٣).

(٣) المصدر السابق (٢٣٣/٣).

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٠٨٣).

الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴿ وقال ابن زيد ﴿ثاني عطفه ليضلّ عن سبيل الله﴾ قال: لا وياً رأسه معرضاً مولياً لا يريد أن يسمع ما قيل له، وقرأ ﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رؤوسهم ورأيتهم يصدّون وهم مستكبرون﴾^(١) ﴿وإذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً﴾^(٢).



(١) سورة المنافقون: الآية ٥.

(٢) سورة لقمان: الآية ٧.

الدرس السادس والسبعون بعد المائة

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾
يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾
يَدْعُوا لَمَن صَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا
يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبِّ إِلَى
السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ
يَبَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ
وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ
اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمٰوٰتِ وَمَن فِي
الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ
وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا
يَشَاءُ ﴿١٨﴾ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ
ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يَصَّبُ مِّن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ
وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقْعَعُمٌ مِّن حديدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ
عُيِدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّلْحَتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُكَلِّفُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ
ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٢﴾ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا
إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ﴿٢٣﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِن أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِن أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ .

عن مجاهد قوله ﴿على حرف﴾ قال: على شك ﴿فإن أصابه خير﴾ رخاء وعافية استقر ﴿وإن أصابته فتنة﴾ عذاب ومصيبة ﴿انقلب﴾ ارتد ﴿على وجهه﴾ كافراً. وقال ابن زيد: هذا المنافق إن صلحت له دنياه أقام على العبادة، وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت انقلب، ولا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه، وإذا أصابته شدة أو فتنة أو اختبار أو ضيق ترك دينه ورجع إلى الكفر.

وقال قتادة: ﴿فإن أصابه خير﴾ يقول: كثر ماله وكثرت ماشيته ﴿اطمأن﴾ وقال: لم يصبني في ديني هذا منذ دخلته إلا خير ﴿وإن أصابته فتنة﴾ يقول: وإن ذهب ماله وذهبت ماشيته ﴿انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة﴾.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه﴾ يكفر بعد إيمانه ﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾. ﴿يدعو لمن ضره﴾، أي: في الدنيا ﴿أقرب من نفعه لبس المولى ولبس العشير﴾ قال ابن زيد: العشير هو المعاشر الصاحب. وقال مجاهد: هو الوثن. قال ابن كثير^(١): يعني بلس هذا الذي دعاه من دون الله مولى يعني ولياً وناصرأ ﴿ولبس العشير﴾ وهو المخالط والمعاشر.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٢١٠).

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (١٤) مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴿١٦﴾ .

قال قتادة: من كان يظن أن لن ينصر الله نبيه ﷺ ﴿فليمدد بسبب﴾ يقول: بحبل إلى سماء البيت ﴿ثم ليقطع﴾ يقول: ثم ليختنق ﴿فليظن هل يذهبن كيده ما يغيظ﴾؟

وقال البغوي^(١): ﴿وكذلك﴾، أي: مثل ذلك يعني ما تقدم من آيات القرآن ﴿أنزلناه﴾ يعني القرآن ﴿آيات بينات وإن الله يهدي من يريد﴾ .

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالصَّالِحِينَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١٧) .

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين ومن سواهم، إنه يحكم بينهم بالعدل فيدخل الجنة من آمن به وأطاعه، ويدخل النار من كفر به وعصاه. قال قتادة: الصابئون قوم يعبدون الشمس والقمر والنيران ﴿والذين أشركوا﴾ يعبدون الأوثان؛ والأديان ستة: خمسة للشيطان، وواحد للرحمن.

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ تَرَأَتِ اللَّهَ يُسْجِدُ لَهُمْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢٣٥).

وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ .

هذه الآية كقوله تعالى ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيثوا ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون﴾^(١). وقال أبو العالية: ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع ساجداً حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له. وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أتدري أين تذهب هذه الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وكثير من الناس﴾ قال مجاهد: المؤمنون ﴿وكثير حق عليه العذاب﴾ قال البغوي: وهم الكفار لكفرهم وتركهم السجود، وهم مع كفرهم يسجد ظالمهم لله عز وجل: ﴿ومن يهين الله فما له من مكرم﴾، أي: من يذله الله فلا يكرمه أحد ﴿إن الله يفعل ما يشاء﴾.

قوله عز وجل: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لُهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقْلَعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُكَلِّفُ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ .

(١) سورة النحل: الآية ٤٨.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٣١٩٩ و ٤٨٠٢ و ٤٨٠٣)، ومسلم (١/١٣٩).

قال عطاء: نزلت هؤلاء الآيات ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾ في الذين تبارزوا يوم بدر: حمزة وعلي وعبيدة^(١) بن الحارث وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة، إلى قوله ﴿وهُدُوا إلى صراط الحميد﴾^(٢).

وقال مجاهد: هم الكافرون والمؤمنون اختصموا في ربهم ﴿فالذين كفروا قُطعت لهم ثياب من نار﴾ قال: الكافر قُطعت له ثياب من نار، والمؤمن يدخله الله جنات تجري من تحتها الأنهار. وروى ابن جرير وغيره عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الجحيم يصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه، فيسلت ما في جوفه حتى يبلغ قدميه، وهو الصَّهر، ثم يعاد كما كان»^(٣). وروى ابن جرير عن أبي ظبيان قال: النار سوداء مظلمة لا يضيء لهيبها ولا جمرها، ثم قرأ ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها﴾ وقد ذكر أنهم يحاولون الخروج من النار حين تجيش جهنم فتلقي من فيها إلى أعلى أبوابها، فيريدون الخروج فتعيدهم الخزان فيها بالمقامع، ويقولون لهم إذا ضربوهم ﴿ذوقوا عذاب الحريق﴾.

ولما ذكر تعالى حال أعدائه في النار، ذكر حال أوليائه في الجنة فقال: ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا ولبسوا فيها حريراً﴾. وفي الصحيح: «لا تلبسوا الحرير فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»^(٤). وورد في الحديث الآخر: «الذهب والحرير

(١) في (الأصل): «وعبيدة»، وهو خطأ.

(٢) وروي مثله عن أبي ذر - رضي الله عنه - أخرجه البخاري (ح/٣٩٦٦ و ٣٩٦٨ و ٣٩٦٩)، ومسلم (ح/٣٠٣٣).

(٣) أخرجه أحمد (٢/٣٧٤)، والترمذي (ح/٢٥٨٢) وصححه، وابن جرير (١٧/١٣٤)، والحاكم (٢/٣٨٧)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه مسلم (٣/١٦٤٢) من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنه.

حرام على ذكور أمّتي حلّ لإناثهم»^(١).

وقال ابن زيد في قوله: ﴿وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ قال: هُدُوا إِلَى الكلام الطيّب: لا إله إلاّ الله والله أكبر والحمد لله. قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيّب والعمل الصالح يرفعه وهُدُوا إِلَى صراط الحميد﴾^(٢) قال البغوي^(٣): إلى دين الله وهو الإسلام.



(١) أخرجه الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢٥١/٤)، والطبراني في الكبير (٢١١/٥)، والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (١٧٤/١) من حديث زيد بن أرقم، وسنده ضعيف، لكن قال العقيلي بعدما ساقه سنداً ومتمناً: «ويروي بغير هذا الإسناد بأسانيد صالحة». قلت: وله شاهد من حديث علي رضي الله عنه بنحوه أخرجه أحمد (٩٦/١ و ١١٥)، وأبو داود (ح/٤٠٥٧)، والنسائي (١٦٠/٨ - ١٦١)، وابن ماجه (ح/٣٥٩٥)، وشاهد من حديث وائلة بن الأسقع - رضي الله عنه - أخرجه الطبراني (٩٧/٢٢)، وبها يتقوى الحديث.

(٢) سورة فاطر: الآية ١٠.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٢٣٧/٣).

الدرس السابع والسبعون بعد المائة

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَكْفِ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِالْحَافِ يُظَلَمِ نُذُوقَهُ مِن عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ وَمَن يُعْظَمَ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَىٰ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَلِكَ وَمَن يُعْظَمَ شَعْبِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُرْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهُمْ كَرِهُوا اللَّهَ وَإِنَّهُمْ عَادُوا عَلَىٰ رِجْلِهِمْ فَأَسْلَمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾

وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّنْ شَعْتِيرِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَكُم فِيهَا خَيْرٌ ۚ فَأذْكُرُوا أَنسَمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ
فَإِذَا وَجِيتَ جُنُوبَهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ ۚ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ النُّقُورَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَلِكَ
سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْنَاكُمْ ۚ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ
يُظَلَمِ نُذُوقُهُ مِن عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿سواء العاكف فيه والباد﴾ يقول: ينزل أهل مكة
وغيرهم في المسجد الحرام. وعن مجاهد وعطاء ﴿سواء العاكف فيه والباد﴾ هما
في حرمة سواء. وعن مجاهد: ﴿ومن يرد فيه بالحد بظلم﴾ قال: يعمل فيه عملاً
سيئاً ﴿نذقه من عذاب أليم﴾ قال الضحاك: إن الرجل ليهم بالخطيئة بمكة وهو في
بلد آخر، ولم يعملها فتكتب عليه.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ
بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ .

قال البغوي^(١): قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾، أي:
وطأنا. قال ابن عباس: جعلنا، وقيل: بيتاً.

وعن مجاهد في قوله: ﴿وطهر بيتي﴾ قال: من الشرك. وعن عطاء في
قوله: ﴿وطهر بيتي للطائفين والقائمين﴾ قال: القائمون في الصلاة. وقال ابن
زيد: القائم الراكع والساجد هو المصلي، والطائف هو الذي يطوف به. قال ابن
كثير^(٢): هذا فيه تبريع وتوبيخ لمن عبد غير الله وأشرك به، في البقعة التي أسست
من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢٣٩).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٢١٥).

قوله عز وجل: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكُم مِّنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِآبَاتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ .

قال ابن عباس: «لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قيل له ﴿أذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ قال: يا رب وما يبلغ صوتي؟ قال: أذِّنْ وَعَلِيَّ الْبَلَاغِ، فنادى إبراهيم: أيها الناس كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ فَحُجُّوا. قال: فسمعه ما بين السماء والأرض، أفلا ترى الناس يجيئون من أقصى الأرض يُلَبِّتُونَ^(١)؟ وفي رواية: «فأسمع مَنْ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ، فَأَجَابَهُ مَنْ آمَنَ مِمَّنْ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنْ يَحِجَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ: لِيَبْكَ اللَّهُمَّ لِيَبْكَ»^(٢).

﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ قال: على أرجلهم ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ قال: الإبل ﴿يَأْتِينَ مِّنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ قال: بعيد ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ قال: هي الأسواق. وقال مجاهد: التجارة، وما يرضي الله من أمر الدنيا والآخرة ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ قال ابن عباس: يعني أيام التشريق ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ قال الضحاك: يعني البُذْنُ ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ قال مجاهد: هي رخصة، إن شاء أكل وإن شاء لم يأكل ﴿وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ قال ابن عباس: يعني الزَّمَنَ الْفَقِيرَ.

﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قال ابن عمر: التفت المناسك كلها. وقال ابن عباس:

(١) أخرجه ابن جرير (١٧/١٤٤)، والحاكم (٢/٣٨٨) ومن طريقه البيهقي في الكبرى (٥/٢٧٦) قال الحاكم: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي. قلت: وفيه قابوس بن أبي ظبيان. وفيه ضعف.

(٢) أخرجه ابن جرير (١٧/١٤٤) بسند ضعيف.

التفت حلق الرأس وأخذ من الشاربين، ونف الإبط وحلق العانة، وقص الأظفار والأخذ من العارضين، ورمي الجمار والموقف بعرفة والمزدلفة ﴿وليوفوا نذورهم﴾ قال: نحو ما نذروا من البُذُن. وقال مجاهد: نذر الحج والهدي، وما نذر الإنسان من شيء يكون في الحج ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ قال قتادة: عتق من الجابرة. وقال ابن زيد: العتيق القديم. وعن عطاء في قوله: ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ قال: طواف يوم النحر.

قوله عز وجل: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾

قال مجاهد في قوله: ﴿ذلك ومن يعظم حرمات الله﴾ قال: الحرمه مكة والحج والعمرة، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها.

وقوله تعالى: ﴿وأحلَّتْ لكم الأنعام إلا ما يُلَى عليكم﴾ قال قتادة: إلا الميتة وما لم يذكر اسم الله عليه ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾ قال ابن عباس: يقول تعالى ذكره: واجتنبوا طاعة الشيطان في عبادة الأوثان. وعن مجاهد قوله: ﴿قول الزور﴾ قال: الكذب. وعن ابن عباس قوله: ﴿واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به﴾، يعني: الافتراء على الله والتكذيب. وعن ابن مسعود قال: تعدل شهادة الزور بالشرك، وقرأ ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾^(١). وعن قتادة: ﴿فكأنما خر من

(١) أخرجه ابن جرير (١٥٤/١٧)، والطبراني (١١٤/٩) بسند حسن، وروي مرفوعاً من حديث خريم بن فاتك الأسدي: أخرجه أحمد (٣٢١/٤ و ٣٢٢)، وأبو داود (ح/٣٥٩٩)، =

﴿السماء﴾ قال: هذا مثل ضربه الله لمن أشرك بالله في بُعده من الهدى وهلاكه ﴿فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾ قال مجاهد: بعيد.

قوله عز وجل: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْمَ شَعْبِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ .

قال محمد بن أبي موسى: الوقوف بعرفة من شعائر الله، والجمع من شعائر الله، ورمي الجمار من شعائر الله والبُدن من شعائر الله، ومن يعظمها فإنها من شعائر الله.

في قوله: ﴿ومن يعظم شعائر الله﴾ فمن يعظمها ﴿فإنها من تقوى القلوب﴾ . وعن ابن عباس في قوله: ﴿ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾ قال: استعظامها واستحسانها واستمسакها ﴿لكم فيها منافع إلى أجل مسمى﴾ قال: ما لم يُسَمَّ بُدْنًا. وعن عطاء ﴿لكم فيها منافع إلى أجل مسمى﴾ قال: هو ركوب البدن وشرب لبنها إن احتاج ﴿ثم محلُّها إلى البيت العتيق﴾ إلى مكة. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة قال: «اركبها، قال: إنها بدنة، قال: اركبها ويحك، في الثانية أو في الثالثة»^(١). وفي حديث آخر عند مسلم قال: اركبها بالمعروف إذا لُجِئَتْ إليها»^(٢).

قوله عز وجل: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهُمْ كَرِهُوا لَّهُ وَجَدُوا فَلَهُ اسْلَمُوا وَيَشْرِ الْمُخْتَبِينَ ﴿٣٤﴾

= وابن ماجه (ح/٢٣٧٢)، والطبراني (٢٠٩/٤) بسند ضعيف، وأيضاً روي مرفوعاً من حديث أيمن بن خريم: أخرجه أحمد (١٧٨/٤)، والترمذي (ح/٢٢٩٩) وابن جرير (١٧/١٥٤)، بسند ضعيف.

(١) أخرجه البخاري (ح/١٦٨٩ ١٧٠٦)، ومسلم (ح/٣٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (ح/١٣٢٤) من حديث جابر عبد الله رضي الله عنه.

الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ .

عن مجاهد ﴿ولكل أمة جعلنا منسكاً﴾ قال: إهراق الدماء ﴿ليذكروا اسم الله﴾ عليها ﴿فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشّر المحبتين﴾ المطمئنين إلى الله .

وقال ابن زيد في قوله: ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ قال: لا تقسوا قلوبهم ﴿والصابرين على ما أصابهم﴾ من شدة في أمر الله ونالهم من مكروه في جنبه ﴿والمقيمي الصلاة﴾ المفروضة ﴿ومما رزقناهم﴾ من الأموال ﴿ينفقون﴾ في الواجب عليهم إنفاقها فيه، في زكاة ونفقة عيال، ومن وجبت عليه نفقته، وفي سبيل الله .

قوله عز وجل: ﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجِئْتُ مِنْهَا فَأَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَالْمَعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ الْقَوِيُّ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ .

قال عطاء: ﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله﴾ قال: البقرة والبعير . وقال مجاهد: إنما البدن من الإبل، ويشهد له قوله ﷺ: «من اغتسل يوم الجمعة ثم راح في الساعة الأولى، فكأنما قرب بدنة ومن راح في الساعة الثانية، فكأنما قرب بقرة»^(١) الحديث .

وعن مجاهد في قول الله ﴿لكم فيها خير﴾ قال: أجر ومنافع في البدن . وعن ابن عباس في قوله: ﴿فاذكروا اسم الله عليها صواف﴾ قال: الله أكبر الله أكبر، اللهم منك ولك قيامها على ثلاث أرجل، فقيل لابن عباس: ما نضغ بجلودها؟

(١) أخرجه البخاري (ح/٨٨١)، ومسلم (ح/٨٥٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

قال: تصدقوا بها واستمتعوا بها. وعن مجاهد ﴿فإذا وجبت جنوبها﴾ سقطت إلى الأرض ﴿فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر﴾ قال ابن عباس يقول: يأكل منها ويطعم. وقال الحسن: القانع الذي يقنع إليك ويسألك، والمعتر الذي يتعرض لك ولا يسألك. وقال زيد بن أسلم: القانع المسكين الذي يطوف، والمعتر الصديق والضعيف الذي يزور. وقال ابنه: القانع المسكين الذي يعتز للقوم للحمهم وليس بمسكين، ولا تكون له ذبيحة، يجيء إلى القوم من أجل لحمهم، والبائس الفقير: هو القانع. وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إني كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فكلوا وادخروا ما بدا لكم». وفي رواية: «فكلوا وأطعموا وتصدقوا»^(١).

وعن إبراهيم في قول الله: ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾ قال: ما أريد به وجهه الله. قال البغوي^(٢): وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا تحروا البدن لطحوا الكعبة بدمائها قربة إلى الله فأنزل الله هذه الآية ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم﴾ أرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه ﴿وبشّر المحسنين﴾.



(١) أخرجه أحمد (٧٦/٥)، وأبو داود (ح/٢٨١٣) من حديث نبيشة رضي الله عنه، وهو حديث صحيح وينحوه من حديث عبد الله بن واقد رضي الله عنه أخرجه مسلم (ح/١٩٧١)، وينحوه أيضاً - من حديث جابر رضي الله عنه أخرجه ومسلم (ح/١٩٧٢)، وينحوه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أخرجه مسلم (ح/١٩٧٣).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢٤٤).

الدرس الثامن والسبعون بعد المائة

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ غَلِيبٌ ﴿٤١﴾ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ ۖ كَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مَعْطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا

أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَنْبِيَّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّوْا أَلْفَى الشَّيْطَانُ فِي أَمْنِيَّتِهِ
 فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٤﴾
 لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ
 الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٥﴾ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ
 رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ
 مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيضَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً
 بَآئِنَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٧﴾ الْمَلِكُ يُومِدُ لِلَّهِ بِحُكْمٍ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
 بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ
 الرَّزُقِينَ ﴿٦٠﴾ لِيَدْخُلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٦١﴾
 ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ
 إِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ ﴿٦٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ
 وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ
 وَأَبَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَبَّ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ
 الْكَبِيرُ ﴿٦٤﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ ﴿٢٨﴾ أذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الصَّوْمِعُ وَيَبِيعُ وَصَلَوَاتٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٣٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُم فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ ﴿٣١﴾ .

قال ابن عباس: لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن، قال ابن عباس: فأنزل الله عز وجل ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير﴾ قال أبو بكر رضي الله عنه: فعرفت أنه سيكون قتال. رواه ابن جرير وغيره؛ زاد أحمد: قال ابن عباس: وهي أول آية نزلت في القتال^(١).

وروي ابن جريج أيضاً عن ابن عباس قوله: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير﴾، يعني: محمداً وأصحابه إذ أخرجوا من مكة إلى المدينة، يقول الله: ﴿فإن الله على نصرهم لقدير﴾ وقد فعل.

وعن ابن جريج قوله: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾ دفع المشركين بالمسلمين. وقال ابن زيد: لولا القتال والجهاد لهدمت صوامع قال مجاهد:

(١) أخرجه أحمد (٢١٦/١)، والترمذي (ح/٣١٧١) وحسنه، وابن جرير (١٧٢/١٧)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/٦٦ و ٢٤٦ و ٣٩٠) و (٧/٣)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/٢٩٤)، وهو صحيح.

صوامع الرهبان ﴿وَبِيعَ﴾ قال: وكنائس. وقال الضحاك: اليبعُ بيعُ النصراني. وعن قتادة ﴿وصلوات﴾ كنائس اليهود ﴿ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾ قال: المساجد مساجد المسلمين ﴿يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾.

قال البغوي^(١): ومعنى الآية ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، لهدم في شريعة كل نبي مكان صلاتهم، لهدم في زمن موسى الكنائس، وفي زمن عيسى اليبع والصوامع وفي زمن محمد ﷺ المساجد. ﴿ولينصرون الله من ينصره﴾، يعني: ينصر دينه ونبيه ﴿إن الله لقوي عزيز﴾.

وعن أبي العالية في قوله: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ قال: كان أمرهم بالمعروف أنهم دعوا إلى الإخلاص لله وحده لا شريك له، ونهيههم عن المنكر أنهم نهوا عن عبادة الأوثان وعبادة الشيطان. وقال زيد بن أسلم ﴿ولله عاقبة الأمور﴾ وعند الله ثواب ما صنعوا. وقال عمر بن عبد العزيز: ألا أنبتكم بما لكم على الوالي، وبما للوالي عليكم؟ إن لكم على الوالي أن يأخذكم بحقوق الله عليكم، وأن يأخذ لبعضكم من بعض، وأن يهديكم للتي هي أقوم ما استطاع، وإن عليكم الطاعة غير المبزوزة ولا المستكثر بها ولا المخالف سرها علانيتها.

قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مُعْتَلِةٌ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢٤٤).

قال البغوي^(١): ﴿فكيف كان نكير﴾، يعني: إنكاري، أي: كيف أنكرت عليهم ما فعلوا من التكذيب بالعذاب والهلاك، يخوف به من يخالف النبي ﷺ ويكذبه.

وقوله تعالى: ﴿فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها﴾ قال الضحاك: خاؤها خرابها و﴿عروشها﴾ سقوفها و﴿وبئر معطلة﴾ قال: لا أهل لها. وقال قتادة: عطّلها أهلها، تركوها. وعن عكرمة في قوله: ﴿وقصر مشيد﴾ قال: مجصص. وقال قتادة: كان أهله سدّوه وحصّنه فهلكوا وتركوه.

وقوله تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها﴾ فيعتبرون ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ قال قتادة: البصر الظاهر بلُغَةٌ ومُتَعَّةٌ، وبصر القلب هو البصر النافع، وما أحسن ما قاله بعض الشعراء:

يا من يُصَيِّخُ إِلَى دَاعِي الشَّقَاءِ وَقَدْ	نادى به الناعيان: الشَيْبُ وَالْكِبَرُ
إِنْ كُنْتَ لَا تَسْمَعُ الذِّكْرَى فَمِمَّ تَرَى	في رأسك الواعيان: السَّمْعُ وَالْبَصْرُ
لَيْسَ الْأَصْمُ وَلَا الْأَعْمَى سِوَى رَجُلٍ	لَمْ يَهْدِهِ الْهَادِيَانِ: الْعَيْنُ وَالْأَنْثَرُ
لَا الدَّهْرُ يَبْقَى وَلَا الدُّنْيَا وَلَا الْفَلَكُ	الْأَعْلَى وَلَا النَّيِّرَانِ: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
لِيَرْحَلَنَّ عَنِ الدُّنْيَا وَإِنْ كَرِهَا	فراقها الشاويان: البدو والحضرُ

قوله عز وجل: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرِيْبَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿٤٨﴾﴾.

قال ابن عباس: مقدار الحساب يوم القيامة ألف سنة. وعن أبي هريرة أن

(١) المصدر السابق (٣/٢٤٥).

رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم خمسمائة عام»^(١). رواه ابن أبي حاتم وغيره.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَأَلْذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾.

قال ابن جريج قوله: ﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم﴾ قال: الجنة. وعن ابن عباس ﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين﴾ قال: مشاقين. وقال مجاهد: يثبطون الناس عن متابعة النبي ﷺ. وقال قتادة: كذبوا بآيات الله فظنوا أنهم يعجزون الله، ولن يعجزوه ﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٧﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٨﴾ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾.

عن محمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس قالوا: جلس رسول الله ﷺ في ناد من أندية قريش كثير أهله، تمنى يومئذ أن لا يأتيه من الله شيء فينفروا عنه،

(١) أخرجه أحمد (٥١٣/٢ و ٥١٩)، والترمذي (ح/٢٣٥٣ و ٢٣٥٤)، وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في «الكبرى» (٤١٢/٦)، وابن ماجه (ح/٤١٢٢)، وابن جرير (١٨٣/١٧)، وابن أبي حاتم — كما عزا له ابن كثير في تفسيره — (٢٢٨/٣)، وهو حديث صحيح وفي الباب عن أبي سعيد، وابن عمر، وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهم.

فأنزل الله عليه ﴿والنجم إذا هوى ما ضلّ صاحبكم وما غوى﴾ فقرأها رسول الله ﷺ حتى إذا بلغ ﴿أفأنتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾ ألقى عليها الشيطان كلمتين: تلك الغرائق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى؛ فتكلّم بها ثم مضى فقرأ السورة كلّها، فسجد في آخر السورة وسجد القوم جميعاً معه، ورفع الوليد بن المغيرة تراباً إلى جبهته فسجد عليه، وكان شيخاً كبيراً لا يقدر على السجود، فرضوا بما تكلم به وقالوا: قد عرفنا أن الله يحيي ويميت، وهو الذي يخلق ويرزق، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده، إذ جعلت لها نصيباً فنحن معك، قالوا: فلما أمسى أتاه جبريل عليه السلام فعرض عليه السورة، فلما بلغ الكلمتين اللتين ألقى الشيطان عليه قال: ما جئتك بهاتين، فقال رسول الله ﷺ: «أفترئت على الله وقلت على الله ما لم يقل؟» فأوحى الله إليه ﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفترى علينا غيره﴾ إلى قوله: ﴿ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾ فما زال مغموماً مهموماً حتى نزلت عليه ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم﴾ قال: فسمع من كان من المهاجرين بأرض الحبشة أن أهل مكة قد أسلموا كلهم، فرجعوا إلى عشائرهم وقالوا: هم أحب إلينا، فوجدوا القوم قد ارتكسوا حين نسخ الله ما ألقى الشيطان^(١) رواه ابن جرير وغيره.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿١٧٧﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لَّهُ يَحْكُمُ

(١) أخرجه ابن جرير (١٧/١٨٦ - ١٨٧) مرسل، وروي بنحوه مرسلًا عن الضحاك، وسعيد بن جبیر، وعبد الرحمن بن الحارث، وأبي العالية، وقتادة، وعكرمة، وهذه القصة هي قصة الغرائق، وقد ألف بعض المتأخرين كتاباً في تضعيف هذه القصة واسماها: «نصب المجانيق لنسف قصة الغرائق»، والقصة ضعفها كثير من المشتغلين بالعلم كابن العربي، وعياض، والرازي، والقرطبي، والعيني والشوكاني، والألوسي، وصديق حسن خان، والألباني، فالقصة غير ثابتة بسند صحيح مرفوعاً.

يَنبَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ .

عن سعيد بن جبیر ﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية منه﴾ من قوله: تلك
الغرائيق العلى وإن شفاعتهن ترتجى. وعن ابن جريج ﴿ولا يزال الذين كفروا في
مرية منه﴾ قال: من القرآن ﴿حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾
قال مجاهد: يوم بدر.

وقوله تعالى: ﴿الملك يومئذ﴾ قال البغوي^(١): يعني يوم القيامة ﴿الله﴾ من
غير منازع ﴿يحكم بينهم﴾، ثم بين الحكم فقال تعالى: ﴿فالذين آمنوا وعملوا
الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب
مهيّن﴾ .

قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قَتِلُوا أَوْ
مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾
لَيَدْخُلَنَّهُمْ مُدْخَلًا رِضْوَانًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ
عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ
غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَلِكَ يَا أَيُّهَا اللَّهُ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي
الَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ يَا أَيُّهَا اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَبْرَأُ مَا يَدْعُونَ
مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَبْرَأُ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ .

عن ابن جريج ﴿ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به﴾ قال: هم المشركون
بغوا على رسول الله ﷺ، فوعده الله أن ينصره، وقال: في القصاص أيضاً. قال

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢٤٨).

البغوي^(١): والعقاب الأوّل بمعنى الجزاء. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ عفا عن مساوئ المؤمنين وغفر لهم ذنوبهم.

﴿ذلك﴾، يعني: ذلك النصر ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ القادر على ما يشاء، فمن قدرته أنه ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي ﴿العلي﴾ العلي على كل شيء ﴿الكبير﴾ العظيم الذي كل شيء دونه. قال ابن كثير^(٢): فكلّ شيء تحت قهره وسلطانه وعظمته، لا إله إلا هو ولا ربّ سواه، لأنه العظيم الذي لا أعظم منه، العليّ الذي لا أعلى منه، الكبير الذي لا أكبر منه، تعالى وتقدّس وتنزه عزّ وجلّ عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً.



(١) المصدر السابق (٣/٢٤٩).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٢٣٢).

الدرس التاسع والسبعون بعد المائة

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَمْ يَأْتِ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا اللَّهُ لَهُوَ الْغَفِيُّ الْحَكِيمُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَاءَ فِي الْأَرْضِ وَأَفْلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاذْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٧﴾ وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا نُتِيَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرُ يَكَادِبُونَ يَسْتُطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلِ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِّنْ ذَلِكَُمُ النَّارِ وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ ضَرِبَ مَثَلٌ فَأَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ

عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ
 سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾
 يَتَائِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ
 لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا
 جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَعَكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ
 وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ
 وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ
الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ لَمْ يَأْتِ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَفِيفُ الْحَكِيمُ ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ
وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ
اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ
إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿١٦﴾ .

في هذه الآيات الدالة الواضحة على قدرته وعظيم سلطانه، وإنه لا يستحق
العبادة سواه، قال ابن كثير^(١): وقوله ﴿وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن
الإنسان لكفور﴾، كقوله ﴿وكيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم
يحييكم ثم إليه ترجعون﴾^(٢) ومعنى الكلام: كيف تجعلون لله أنداداً وتعبدون معه
غيره، وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف؟

قوله عز وجل: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا
يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأُمْرِ وَاذْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧﴾ وَإِنْ جَدَلُوكَ
فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ
تَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿ولكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه﴾ يقول: عيداً.
وقال مجاهد: إهراق دم الهدي. وقال البغوي^(٣): ﴿فلا ينزاعك في الأمر﴾ يعني

(١) المصدر السابق (٣/ ٢٣٣).

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢٥٠).

في أمر الذبائح؛ نزلت في بديل بن ورقاء، وبشر بن سفيان^(١)، ويزيد بن خنيس، قالوا لأصحاب النبي ﷺ: ما لكم تأكلون مما تقتلون بأيديكم ولا تأكلون مما قتله الله؟

وقال ابن كثير^(٢): وقوله ﴿وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون﴾، كقوله ﴿وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾.

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

قال عبدة بن أبي لبابة: علم الله ما هو خالق وما الخلق عاملون، ثم كتبه.

قوله عز وجل: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾^(٧١) وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمُ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمُ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارِ وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْمَصِيرُ^(٧٢).

عن ابن عباس قوله ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ يقول: يببطشون.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارِ﴾ قال البغوي^(٣): يعني بشر لكم، وأكره إليكم من هذا القرآن الذي تسمعون؟ النار، يعني هي ﴿النار وعدّها الله الذين كفروا وبش المصير﴾. وقال ابن كثير، أي: النار وعذابها ونكالها، أشدّ

(١) في (الأصل): «بشير بن سفيان»، والمثبت من تفسير البغوي.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم (٣/٢٣٤).

(٣) انظر معالم التنزيل (٣/٢٥٠).

وأشقى وأطم وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم، إن نلتهم بزعمكم وإرادتكم.

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مِّثْلُ مَا سْتَعْمَعُوا لَهُ ۗ إِنَّكَ الْذِيكَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۗ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ .

قال ابن زيد: هذا مثل ضربه الله لآلهتهم وقرأ ﴿ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره﴾ حين يعبدون من دون الله ما لا ينتصف من الذباب ولا يمتنع منه. وقال ابن عباس: الطالب الصنم، والمطلوب الذباب، وقال: كانوا يطلون الأصنام بالزعران، فإذا جفّ جاء الذباب فاستلب منه.

قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّكَ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ .

قال البغوي^(١): ﴿الله يصطفي﴾ يعني يختار ﴿من الملائكة رسلاً﴾ وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وغيرهم ﴿ومن الناس﴾ يعني يختار من الناس رسلاً، مثل إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام، نزلت حين قال المشركون: ﴿أنزل عليه الذكر من بيننا﴾؟ فأخبر أن الاختيار إليه يختار من يشاء من خلقه.

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا آرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعَبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ .

(١) المصدر السابق (٣/٢٥١).

قال البغوي^(١): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ يعني صلّوا لأن الصلاة لا تكون إلا بالركوع والسجود ﴿واعبدوا ربكم﴾، أي: وحّدوه ﴿وافعلوا الخير﴾ قال ابن عباس: صلة الرحم ومكارم الأخلاق ﴿لعلكم تفلحون﴾ لكي تسعدوا وتفوزوا بالجنة. وروى أبو داود عن خالد بن معدان رحمه الله أن رسول الله ﷺ قال: «فضّلت سورة الحجّ على سائر القرآن بسجديتين»^(٢). وعن أبي الجهم أن عمر سجد سجديتين في الحجّ وهو بالجابية وقال: «إن هذه فضّلت بسجديتين».

قوله عز وجل: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾^(٧٨).

قال ابن عباس في قوله: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ لا تخافوا في الله لومة لائم. وقال ابن زيد في قوله: ﴿هو اجتباكم﴾ قال: هداكم. وعن ابن عباس في قوله: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ قال: الحرج الضيق، فجعل الله الكفارات مخرجاً من ذلك. وقال مقاتل: يعني الرخص عند الضرورات: كقصر

(١) المصدر السابق (٣/٢٥٢).

(٢) غاب عن المؤلف - رحمه الله - كون الحديث ورد مرفوعاً من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، أخرجه أحمد (٤/١٥١ و ١٥٥)، وأبو داود (ح/١٤٠٢)، والترمذي (ح/٥٧٨)، والطبراني (١٧/٣٠٧)، والدارقطني (١/٤٠٨)، والحاكم (١/٢٢١) و٢/٣٩٠، وصححه، قلت: وفيه ابن لهيعة ومشرح وكلاهما ضعيف؛ لكن للحديث شاهد من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وأثار عن بعض الصحابة كعمر، وعبد الله بن عباس، وابن عمر، وابن مسعود، وأبي موسى، وأبي الدرداء، وعمار أخرجهما الحاكم، وبها يتقوى الحديث، وأقل أحواله أنه حسن إن شاء الله تعالى.

الصلاة في السفر، والتميم عند فقد الماء، وأكل الميتة عند الضرورة، والإفطار بالسفر والمرض، والصلاة قاعداً عند العجز عن القيام؛ وقال ﷺ: «بعثت بالحنيفة السمحة»^(١).

وقوله تعالى: ﴿مَلَّةٌ أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾، أي: اتبعوا ملّة أبيكم إبراهيم، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا﴾ قال مجاهد: الله سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ فِي الْكُتُبِ الْمَتَّقِمَةِ ﴿وَفِي هَذَا﴾ يعني القرآن. وعن قتادة ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ﴾ قال: الله سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ. ﴿وَفِي هَذَا﴾ ليكون الرسول شهيداً عليكم ﴿بأنه بَلَّغَكُمْ﴾ وتكونوا شهداء على الناس ﴿أن أرسلهم قد بَلَّغْتَهُمْ﴾ فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله، أي: استعينوا به وتوكلوا عليه ﴿هو مولاكم﴾ يحفظكم وينصركم ﴿فنعم المولى ونعم النصير﴾. قال وهيب بن الورد: ويقول الله تعالى «ابن آدم اذكرني إذا غضبت أذكرك إذا غضبت، فلا أمحقك فيمن أمحق، وإذا ظلمت فاصبر وارض بنصرتي فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك»^(٣) رواه ابن أبي حاتم. والله أعلم وهو المستعان.



(١) أخرجه أحمد (٢٦٦/٥)، والطبراني (٢٥٧/٨)، من حديث أبي أمامة بسند ضعيف. وروي أيضاً من حديث جابر رضي الله عنه أخرجه الخطيب في تاريخه (٢٠٩/٧) بسند ضعيف أيضاً.

(٢) سورة النحل: الآية ١٢٣.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٢٣٧/٣).

الدرس الثمانون بعد المائة

﴿سورة المؤمنون﴾

وهي مائة وثمان عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ
الْفُجُورِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ غَيْرِ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ
ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ
يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ
طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُفُفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ
مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ
فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمِتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾
وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنْتَهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنْشَأْنَا
لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ تَحْتِهَا وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً

تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِلآكِلِينَ ﴿٢١﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً
نُسِقُكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٢﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ
تُحْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاحِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَقْرَبِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ آتَىٰكَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾.

سئلت عائشة رضي الله عنها: كيف كان خلقُ رسول الله ﷺ؟ قالت: «كان خلقُ رسول الله ﷺ القرآن، فقرأت: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ حتى انتهت إلى ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ قالت: هكذا كان خلقُ رسول الله ﷺ»^(١).
رواه النسائي. وعن أبي سعيد الخدري مرفوعاً قال: «خلق الله الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة وغرسها، وقال لها: تكلمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون، فدخلتها الملائكة فقالت: طوبى لك منزل الملوك»^(٢).

وعن الحسن في قوله: ﴿الذين هم في صلواتهم خاشعون﴾ قال: كان خشوعهم في قلوبهم، فغضوا بذلك البصر، وخفضوا به الجناح. وعن ابن عباس قوله: ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾ يقول: الباطل.

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (ح/٣٠٨)، والنسائي في الكبرى (٤١٢/٦)، والحاكم (٣٩٢/٢)، وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الدلائل» (٣٠٩/٢) وهو حديث حسن، وأوله: «كان خلقه القرآن» عند مسلم (ح/٧٤٦) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البزار كما في «كشف الأستار» (ح/٣٥٠٧)، ومجمع الزوائد (٣٩٧/١٠)، ومختصر زوائد البزار (ح/٢٢٥٤)، والطبراني في الأوسط كما في «مجمع البحرين» (١٤٦/٨)، ومجمع الزوائد (٣٩٧/١٠)، بسند ضعيف جداً.

وقوله تعالى: ﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾ قال البغوي: أي للزكاة الواجبة مؤدّون. وعن ابن عباس قوله: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين﴾ يقول: رضي الله لهم إتيانهم أزواجهم وما ملكت أيمانهم ﴿فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾ قال ابن زيد: الذين يتعدّون الحلال إلى الحرام.

وقوله تعالى: ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ حافظون. قال البغوي^(١): أي يحفظون ما أوتمنوا عليه، والعقود التي عاقدوا الناس عليها، يقومون بالوفاء بها؛ والأمانات تختلف فتكون بين الله تعالى وبين العباد، كالصلاة والصيام والعبادات التي أوجبها الله عليه، وتكون من العبيد كالودائع والصنائع، فعلى العبد الوفاء بجميعها. وعن مسروق ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ قال: على ميقاتها. وقال قتادة: على مواقيتها وركوعها وسجودها. وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»^(٢). وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، وإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله: ﴿أولئك هم الوارثون﴾»^(٣) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وقوله تعالى: ﴿الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾ قال قتادة: قتل

(١) انظر «معالم التنزيل» (٢٥٦/٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٧/٥ و ٢٨٢)، وابن ماجه (ح/٢٧٧)، والدارمي (١/١٣٣)، والطبراني (٢/١٠١)، وابن حبان - الإحسان - (١٨٧/٢)، والحاكم (١/١٣٠)، وصححه، ووافقه الذهبي من حديث ثوبان رضي الله عنه، وللحديث شاهد من حديث عبد الله بن عمرو، وأبي أمامة وسلمة بن الأكوع، رضي الله عنهم، وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه ابن ماجه (ح/٤٣٤١) وابن جرير (٦/١٨) بسند صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

حارثة بن سراقه يوم بدر فقالت أمه: يا رسول الله إن كان ابني من أهل الجنة لم أبك عليه، وإن كان من أهل النار بالغت في البكاء، قال: «يا أم حارثة إنها جنات في عدن، وإن ابنك قد أصاب الفردوس الأعلى من الجنة»^(١).

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾.

عن قتادة في قوله: ﴿من سلاله من طين﴾ قال: استل آدم من طين، وخلقته ذريته من ماء مهين؛ وقال النبي ﷺ: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد»^(٢). الحديث متفق عليه.

وعن أبي العالية: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ قال: نفخ الروح فيها ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ قال مجاهد: يصنعون ويصنع الله، والله خير الصانعين. وعن ابن عباس: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ يعني نقله من حال إلى حال، إلى أن خرج طفلاً، ثم نشأ صغيراً، ثم احتلم، ثم صار شاباً، ثم كهلاً ثم شيخاً ثم هرمًا.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيْتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا قَوْمَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾﴾.

(١) أخرجه ابن جرير (٦/١٨) مرسلًا، وروي بنحوه مرفوعاً من حديث أنس رضي الله عنه: أخرجه البخاري (ح/٢٨٠٩ و ٣٩٨٢ و ٦٥٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٣٣٣٢)، ومسلم (ح/٢٦٤٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال ابن زيد في قول الله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ قال: الطرائق السموات. وقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرَجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(٣).

قوله عز وجل: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾^(١٨) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَاوَكُهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾^(١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِلَّالِكِينَ﴾^(٢٠).

عن ابن عباس في قوله: ﴿من طور سيناء﴾ قال: الجبل الذي نودي منه موسى ﷺ ﴿تنبت بالدهن﴾ يقول: هو الزيت يؤكل ويدهن به. وقال ابن زيد في قوله: ﴿وصبغ للالكين﴾ قال: هذا الزيتون صبغ للالكين يأندمون به ويصطبغون به. قال ابن كثير^(٤): وطور سيناء هو طور سينين، وهو الجبل الذي كلم الله عليه

(١) سورة المجادلة: الآية ٧.

(٢) سورة سبأ: الآية ٢.

(٣) سورة هود: الآية ٦، قلت: وفي هذه الآيات إثبات معية الله لخلقه بالعلم والإحاطة، كما فسرنا بذلك السلف والخلف من أهل السنة، وسيأتي بيانها عند تفسير هذه الآيات في مواضعها إن شاء الله تعالى.

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٢٤٣).

موسى بن عمران عليه السلام، وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون.

قوله عز وجل: ﴿وَلَئِن لَّكُم فِي آلَاءِنَا لَعِبْرَةٌ لِّتُؤْتُوا مِنَّا فِي بَطُونِهَا وَلَكُم فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

قال ابن كثير^(١): يذكر تعالى ما جعل لخلقه في الأنعام من المنافع، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فرث ودم، ويأكلون من لُحْمَانِهَا، ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويركبون ظهورها، ويَحْمَلُونَهَا الأحمال الثقال إلى البلاد النائية عنهم؛ كما قال تعالى: ﴿وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشِقِّ الأنفُسِ إن ربكم لَرؤوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٢).



(١) المصدر السابق (٢٤٣/٣).

(٢) سورة النحل: الآية ٧.

الدرس الحادي والثمانون بعد المائة

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٤﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فترَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٦﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٧﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَن اصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا ووَحِينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَئِينَ وَأَهْلِكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنهُمْ وَلَا تَحْطِئْ بِنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلِ أَلَمْتُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنَا مِنَ الْقَوَمِ الْأَظْلَمِينَ ﴿٢٩﴾ وَقُلِ رَبِّ انزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٣٠﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَن كَانَ لَمْبَتَيْنِ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنَ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ وَاتَّرفَتْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ بِأَكْلِ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَئِن أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلُكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَسِرُونَ ﴿٣٥﴾ أَعِدُّوا أَنْفُسَكُمْ لِمَا تَتَّبَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْتُمْ مُّخْرَجُونَ ﴿٣٧﴾ هِيَآتْ هِيَآتٌ لِّمَا تُوْعَدُونَ ﴿٣٨﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٩﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٤١﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْحَبَنَّ نَدِيمِينَ ﴿٤٢﴾

فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ عَشَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا
مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا
رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَّا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُنَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا
لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَرَتَّبُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ .

قال البغوي^(١): ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ﴾ وحده ﴿ ما لكم من إله غيره ﴾ معبود سواه ﴿ أفلا تتقون ﴾ أفلا تخافون عقوبته إذا عبدتم غيره؟

﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ﴾، يعني: يتشرف بأن يكون له الفضل عليكم فيصير متبوعاً وأنتم له تبع ﴿ ولو شاء الله ﴾ أن لا يُعبد سواه ﴿ لأنزل ملائكة ﴾، يعني: بإبلاغ الوحي ﴿ ما سمعنا بهذا ﴾ الذي يدعوننا إليه نوح ﴿ في آبائنا الأولين ﴾ وقيل ﴿ ما سمعنا بهذا ﴾، أي: بإرسال بشر رسولاً ﴿ إن هو إلا رجل به جنة ﴾، يعني: جنون ﴿ فترتبوا به حتى حين ﴾، يعني: إلى أن يموت فتستريحوا منه.

قوله عز وجل: ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢٥٩).

الَّذِي بَعَثْنَا مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٢٩﴾
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ .

عن مجاهد في قوله: ﴿منزلاً مباركاً﴾ قال لنوح حين نزل من السفينة .
 قال ابن كثير^(١): وقوله: ﴿إن في ذلك آيات﴾، أي: أن في هذا الصنيع وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين ﴿آيات﴾، أي: لحجج ودلالات واضحات على صدق الأنبياء فيما جاؤوا به عن الله تعالى، وأنه تعالى فاعل لما يشاء، قادر على كل شيء، عليم بكل شيء. وقوله: ﴿وإن كنا لمبتلين﴾، أي: لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين .

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاعِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ بِأَكْمَلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيْعِدْكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هِيَآتْ هِيَآتْ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ .

عن ابن عباس في قوله: ﴿هيات هيات﴾ يقول: بعيد بعيد .
 قال ابن جرير^(٢): وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن قول الملأ من ثمود أنهم قالوا: ﴿هيات هيات﴾، أي: بعيد ﴿ما توعدون﴾ أيها القوم من أنكم بعد موتكم ومصيركم تراباً وعظاماً مخرجون أحياء من قبوركم، يقولون: ذلك غير كائن .

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٢٤٤).

(٢) انظر «جامع البيان» (١٨/٢٠).

وقال ابن زيد في قوله: ﴿إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ قال يقول: ليس آخرة ولا بعث، يكفرون بالبعث يقولون: إنما هي حياتنا هذه ثم نموت ولا نحيا، يموت هؤلاء ويحيا هؤلاء، يقولون: إنما الناس كالزراع يُحصد هذا وينبت هذا، يقولون: يموت هؤلاء ويأتي آخرون ﴿وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل يبئكم إذا مُزِقْتُمْ كُلَّ مَزْقٍ إنكم لفي خلق جديد﴾^(١)، ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبئن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾^(٢).

قوله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ﴾^(٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غَسَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾.

قال ابن عباس يقول: جُعِلُوا كالشيء الميت البالي من الشجر. وقال مجاهد: غشاء كالريم الهامد الذي يحتمل السيل، أولئك ثمود.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهَا قُرُونًا أُخْرِجَتْ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرًا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رَسُولَهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿ثم أرسلنا رسلنا تترًا﴾ يقول: يتبع بعضها بعضاً. وقوله تعالى: ﴿كلما جاء أمة رسولها كذبوه فاتبعنا بعضهم بعضاً﴾، أي: أهلكتناهم ﴿وجعلناهم أحاديث﴾، أي: قصصاً يتحدث بهم من بعدهم ﴿فبعداً لقوم لا يؤمنون﴾، أي: فأبعد الله قوماً لا يؤمنون بالله ولا يصدقون رسله.



(١) سورة نساء: الآية ٧.

(٢) سورة التغابن: الآية ٧.

الدرس الثاني والثمانون بعد المائة

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِبِيدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَاتَبُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَرَحَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِن هَدِيْتُمْ أُمَّتَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِن الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا تَكُلْفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْعَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ تَنكِبُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَلِيمًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُم مُنْكَرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ

جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ
السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ
مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ أَمْ قَسَمْتَ لَهُمْ خَرَجًا فَخَرَّاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّكَ
لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٨﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ
لَنَكِبُونَ ﴿٧٩﴾ * وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْصَرِعُونَ ﴿٨١﴾ حَتَّىٰ إِذَا
فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٨٢﴾ *

* * *

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ .

قال البغوي^(١): ﴿ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين﴾ يعني بحجة بيّنة من اليد والعصا وغيرهما ﴿إلى فرعون وملئه فاستكبروا﴾ تعظّموا عن الإيمان ﴿وكانوا قوماً عالين﴾ متكبرين قاهرين غيرهم بالظلم.

﴿فقالوا﴾ يعني فرعون وقومه ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا﴾ يعني موسى وهارون ﴿وقومهما لنا عابدون﴾ مطيعون متذلّلون ﴿فكذبوهما فكانوا من المهلكين﴾ بالفرق. وقال ابن زيد: قال فرعون ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون﴾ نذهب نرفعهم فوقنا ونكون تحتهم، ونحن اليوم فوقهم وهم تحتنا، كيف نصنع ذلك؟ وذلك حين أتوهم بالرسالة، وقرأ ﴿وتكون لكما الكبرياء في الأرض﴾ قال: العلو في الأرض.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَحَمَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ .

عن قتادة في قوله ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية﴾ قال: ولدته من غير أب هو له، ولذلك وجدت الآية، وقد ذكر مريم وابنها. وقوله تعالى: ﴿وآويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾ قال ابن عباس: الربوة المكان المرتفع، وهو أحسن ما يكون فيه النبات.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢٦١ - ٢٦٢).

وقوله: ﴿ذات قرار﴾ يقول: ذات خصب ﴿ومعين﴾ يعني ماء ظاهراً. وقال الضحاك وقتادة ﴿إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾ هو بيت المقدس.

قوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الرِّسْلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ مِّمَّنْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾.

قال الضحاك: ﴿كلوا من الطيبات﴾ يعني الحلال. وعن ابن جريج ﴿وأن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ قال: الملة والدين.

قوله عز وجل: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فِرْحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرَهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

عن مجاهد ﴿فتقطعوا أمرهم بينهم زبورا﴾ قال: كتبهم فرقوها قطعاً. وقال ابن زيد في قوله: ﴿فتقطعوا أمرهم بينهم زبورا﴾ كل حزب بما لديهم فرحون﴾ قال: هذا ما اختلفوا فيه من الأديان والكتب، كل معجبون برأيهم، ليس أهل هوى إلا وهم معجبون برأيهم وهواهم، وصاحبهم الذي اخترق ذلك لهم. وعن مجاهد ﴿فذرهم في غمرتهم حتى حين﴾ قال: في ضلالهم.

وقوله تعالى: ﴿حتى حين﴾ قال البغوي^(١): إلى أن يموتوا. ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين﴾ ما نعطيهم ونجعله مدداً لهم من المال والبنين في الدنيا ﴿نسارع لهم في الخيرات﴾، أي: نعجل لهم في الخيرات ونقدمها ثواباً لأعمالهم لمرضاتنا عنهم ﴿بل لا يشعرون﴾ أن ذلك استدراج لهم.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢٦٢).

وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ .

عن الحسن أنه كان يقول: إن المؤمن جَمَعَ إِحْسَانًا وَشَفَقَةً، وَإِنِ الْمَنَاقِقَ جَمَعَ إِسَاءَةً وَأَمْنًا، ثُمَّ تَلَا ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ إِلَى ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾. وعن عائشة أنها قالت: يا رسول الله، الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة، أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر؟ قال: «لا يا ابنة أبي بكر، ولكن الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه»^(١). رواه ابن جرير وغيره.

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾، أي: يبادرون إلى الأعمال الصالحات ﴿وهم لها﴾، أي: إليها ﴿سابقون﴾ قال ابن عباس: سبقت لهم من الله السعادة.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦١﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَقٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٢﴾ .

قال ابن كثير^(٢): ﴿ولدينا كتاب ينطق بالحق﴾ يعني كتاب الأعمال ﴿وهم لا يظلمون بل قلوبهم في غمرة من هذا﴾ قال مجاهد: في عمى من هذا القرآن ﴿ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون﴾ قال: الخطايا.

(١) أخرجه أحمد (١٥٩/٦ و ٢٠٥)، والترمذي (ح/٣١٧٥)، وابن ماجه (ح/٤١٩٨)، وابن جرير (٣٣/١٨)، والحاكم (٢/٣٩٣)، وصححه، ووافقه الذهبي، جميعهم عن عبد الرحمن بن سعيد الهمداني عن عائشة رضي الله عنها قلت: وفيه انقطاع فبعد الرحمن لم يدرك عائشة رضي الله عنها، وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أخرجه ابن جرير (٣٣/١٨)، وفي سنده ضعف، وعزاه السيوطي في «الدر» (٢١/٥) إلى ابن أبي الدنيا، وابن الأباري، وابن مردويه.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٢٤٩).

قوله عز وجل: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا
 جَعْرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصِرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ
 تُنكصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ۝ .

قال ابن زيد: المترفون العظماء. ﴿إذا هم يجأرون﴾ يقول: فإذا أخذناهم
 بالعذاب جأروا، يقول ضجوا واستغاثوا مما حلّ بهم من عذابنا ﴿لا تجأروا اليوم
 إنكم منا لا تنصرون﴾ قال الربيع: لا تجزعوا الآن حين حلّ بكم العذاب إنه لا
 ينفعكم، فلو كان هذا الجزع قبل نفعكم.

﴿قد كانت آياتي تلىٰ عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون﴾ قال ابن عباس
 يقول: تُدبرون ﴿مستكبرين به﴾ يقول: مستكبرين بحرم البيت أنه لا يظهر علينا فيه
 أحد ﴿سامراً﴾ يقول: يسمرون حول البيت ﴿تهجرون﴾ قال: يهجرون ذكر الله
 والحق. وقال ابن زيد: كانوا يسمرون ليلهم ويلعبون، ويتكلمون بالشعر والكهانة
 وبما لا يدرون. وعن مجاهد ﴿تهجرون﴾ قال: بالقول السيئ في القرآن.

قوله عز وجل: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ
 الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُم مِّنْكَرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ
 جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ
 السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِمْ
 مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرَاجًا فَخَرَّجَ رَبُّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ ۝ .

قال البغوي^(١): ﴿أفلم يدببروا﴾ يعني يتدببروا ﴿القول﴾ يعني ما جاءهم
 من القول وهو القرآن، فيعرفوا ما فيه من الدلالات على صدق محمد ﷺ ﴿أم
 جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين﴾؟ فأنكروا، يريد: أنا قد بعثنا من قبلهم
 رسلاً إلى قومهم، كذلك بعثنا محمداً إليهم؛ وقيل: ﴿أم﴾ بمعنى ﴿بل﴾

(١) انظر معالم التنزيل (٣/٢٦٤).

يعني: بل جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين، فلذلك أنكروا.

﴿أم لم يعرفوا رسولهم﴾ محمداً ﷺ ﴿فهم له منكرون﴾ قال ابن عباس: ليس قد عرفوا محمداً ﷺ صغيراً وكبيراً، وعرفوا نسبه وصدقه وأمانته ووفاءه بالعهود؟ وهذا على سبيل التوبيخ لهم على الإعراض عنه، بعدما عرفوه بالصدق والأمانة.

﴿أم يقولون به جنة﴾؟ جنون، وليس كذلك ﴿بل جاءهم بالحق﴾ يعني بالصدق والقول الذي لا تخفى صحته وحسنه على عاقل ﴿وأكثرهم للحق كارهون﴾.

وقوله تعالى: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن﴾ قال مجاهد وغيره: الحق هو الله. قال ابن كثير^(١): والمراد، لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى، وشرع الأمور على وفق ذلك ﴿لفسدت السموات والأرض ومن فيهن﴾، أي: لفساد أهوائهم واختلافها، كما أخبر عنهم في قولهم ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ ثم قال ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكنم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿بل أتيناهم بذكرهم﴾ قال ابن عباس، أي: بما فيه فخرهم وشرفهم يعني القرآن ﴿فهم عن ذكرهم معرضون﴾.

وقوله تعالى: ﴿أم تسألهم خرجاً فخراج ربك خير وهو خير الرازقين﴾ كقوله تعالى: ﴿قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله﴾^(٤).

(١) انظر تفسير القرآن العظيم (٣/٢٥٠).

(٢) سورة الزخرف: الآية ٣١.

(٣) سورة الإسراء: الآية ١٠٠.

(٤) سورة سبأ: الآية ٤٧.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾. قال البغوي^(١): ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ على ما جئتهم به ﴿خَرَجًا﴾ أجراً وجُعلاً ﴿فَخَرَجَ رَبُّكَ خَيْرٌ﴾ يعني ما يعطيك الله من رزقه وثوابه خير ﴿وهو خير الرازقين﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَابُونَ ﴿٧٤﴾ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

عن ابن عباس قوله ﴿وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾ يقول: عن الحق عادلون. وعن ابن جريج في قوله ﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر﴾ قال: الجوع. ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب﴾ قال: الجوع والجذب ﴿فما استكانوا لربهم وما يتضرعون﴾ قال الحسن: إذا أصاب الناس من قبل الشيطان بلاء، فإنما هي نقمة فلا تستقبلوا نقمة الله بالحمية، ولكن استقبلوها بالاستغفار وتضرعوا إلى الله.

وقوله تعالى: ﴿حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون﴾ قال ابن كثير^(٢): أي، حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة، فأخذهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون، فعند ذلك أبلسوا من كل خير، وأيسوا من كل رحمة، وانقطعت آمالهم ورجاؤهم.



(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢٦٥).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٢٥٢).

الدرس الثالث والثمانون بعد المائة

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٨) وَهُوَ
الَّذِي ذَرَأَ كُرًّا فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ
وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا
وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا
إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾
سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ
الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ مِنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ
شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى
تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا
كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ
اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُلْ
رَبِّ إِمَّا تُرِيتِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا
عَلَمْنَا أَنَّ نُرْيَاكَ مَا نَعُدُّهُمْ لِقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ أَدْفَعِ بِلَآئِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا
يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ
يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا
فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا

نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١١٦﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ
 فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
 أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١١٨﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١١٩﴾ أَلَمْ
 تَكُنْ آيَاتِي تُنَالِي عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا عَلَبْنَا عَظِيمًا سِيقُوا
 وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٢١﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ
 أَخْسِرُوا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونِ ﴿١٢٣﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ
 لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٢٤﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ
 تَضْحَكُونَ ﴿١٢٥﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١٢٦﴾ قُلْ كَمْ
 لَيْسَتْ فِي الْأَرْضِ عِدَدُ سِنِينَ ﴿١٢٧﴾ قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ فَسَلِ الْعَادِينَ ﴿١٢٨﴾ قُلْ
 إِنْ لَيْسَتْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٩﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا
 وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١٣٠﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ
 الْكَبِيرِ ﴿١٣١﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ
 إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١٣٢﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٣٣﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ .

قال البغوي^(١): ﴿ وهو الذي أنشأ لكم السمع ﴾، أي: أنشأ لكم الأسماع ﴿ والأبصار والأفئدة ﴾: لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾، أي: لم تشكروا هذه النعم. ﴿ وهو الذي ذرأكم ﴾ خلقكم ﴿ في الأرض وإليه تحشرون ﴾ تبعثون ﴿ وهو الذي يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار ﴾، أي: تدبير الليل والنهار في الزيادة والنقصان. قال الفراء: جعلهما مختلفين يتعاقبان ويختلفان في السواد والبياض ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ما ترون من صنعه فتعتبرون؟

﴿ بل قالوا مثل ما قال الأولون ﴾، أي: كذبوا كما كذب الأولون ﴿ قالوا إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ﴾ لمحشورون؟ قالوا ذلك على طريق الإنكار والتعجب. ﴿ لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا ﴾ الوعد ﴿ من قبل ﴾، أي: وعد آباءنا قوم زعموا أنهم رسل الله، فلم نر له حقيقة ﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ أكاذيب الأولين.

قوله عز وجل: ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢٦٦).

الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِقُ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ يَدِينَهُ مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ .

قال البغوي^(١): ﴿قل﴾ يا محمد مجيباً لهم ﴿لمن الأرض ومن فيها﴾ من الخلق ﴿إن كنتم تعلمون﴾ خالقها ومالكها ﴿سيقولون لله﴾ ولا بدّ لهم من ذلك، لأنهم يقرّون أنها مخلوقة، فقل لهم إذا قرّوا بذلك ﴿أفلا تذكرون﴾؟ فتعلمون أن من قدر على خلق الأرض ومن فيها ابتداء يقدر على إحيائهم بعد الموت؟

﴿قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون﴾؟ قال ابن كثير^(٢): أي إذا كنتم تعرفون بأنه رب السموات ورب العرش العظيم، أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه في عبادتكم معه غيره وإشراككم به؟

﴿قل من بيده ملكوت كل شيء﴾ قال البغوي^(٣): الملكوت الملك، والتاء فيه للمبالغة. ﴿وهو يجير﴾، أي يؤمن من يشاء ﴿ولا يجار عليه﴾؟، أي: لا يؤمن عليه.

﴿إن كنتم تعلمون سيقولون لله﴾ قال ابن كثير^(٤): فأني سيعترفون أن السيد العظيم الذي يجير ولا يجار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له ﴿قل فأني

(١) المصدر السابق (٣/٢٦٦).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٢٥٣).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢٦٦).

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٢٥٣).

تسحرون؟ أي: فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره، مع اعترافكم وعلمكم بذلك؟

ثم قال تعالى: ﴿بل أتيناهم بالحق﴾ وهو الإِعلام بأنه لا إله إلا الله، وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك ﴿وإنهم لكاذبون﴾، أي: في عبادتهم مع الله غيره، ولا دليل لهم على ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق﴾، أي: تفرّد بما خلقه فلم يرض أن يضاف خلقه وإنعامه إلى غيره، ومنع الإله الآخر عن الاستيلاء على ما خلق ﴿ولعلا بعضهم على بعض﴾، أي: طلب بعضهم مغالبة بعض، كفعل ملوك الدنيا فيما بينهم؛ ثم نزه نفسه فقال: ﴿سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون﴾.

قوله عزم وجل: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيْبِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيْكَ مَا نَعْدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ اَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

قال البغوي^(١): قوله تعالى: ﴿قل رب إما تريني﴾، أي: إن أريتني ﴿ما يوعدون﴾، أي: ما أوعدتهم من العذاب، أي: يا رب ﴿فلا تجعلني في القوم الظالمين﴾، أي: لا تهلكني بهلاكهم ﴿وإنا على أن نريك ما نعدهم﴾ من العذاب لهم ﴿لقادرون﴾. وعن مجاهد في قوله: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة﴾ قال:

(١) «معالم التنزيل» (٣/٢٦٧).

أعرض عن أذاهم إِيَّاكَ. قال الحسن: والله لا يصيبها صاحبها حتى يكظم غيظاً، ويصفح عما يكره.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين﴾ خَنَقُهُمُ الناس فذلك همزاتهم ﴿وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ في شيء من أمري. وقال ابن عباس: همزات الشياطين نزعاتهم.

وقوله تعالى: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت﴾ قال قتادة: ما تمنى أن يرجع إلى أهله وعشيرته، ولا ليجمع الدنيا ويقضي الشهوات، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله، فَرَحِمَ اللهُ امرءاً عمل فيما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. قال البغوي^(١): ﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع وزجر، أي: لا يرجع إليها ﴿إنها﴾، يعني: سؤاله الرجعة ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ ولا ينالها ﴿ومن ورائهم برزخ﴾، أي: أمامهم وبين أيديهم حاجز ﴿إلى يوم يبعثون﴾. وقال الضحاك: البرزخ ما بين الموت إلى البعث.

قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَكَفَرُوا بِهَا تَكْفِيرًا ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا عِدْنَا فِيهَا تَلْمِذُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ أَخْسِرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ مِنْ عِبَادِي

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٦٨).

يَقُولُونَ رَبَّنَا أَمَنَّا فَأَعِظِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠١﴾ فَأَتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِنَا
حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١٠٢﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ
هُمْ الْفَٰكِرُونَ ﴿١٠٣﴾ .

قال ابن مسعود: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين، ثم نادى مناد: ألا من كان له مظلمة فليجيء فليأخذ حقه، قال: فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته، وإن كان صغيراً، ومصدق ذلك في كتاب الله، قال الله تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾^(١) رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن عباس: «إن للقيامة أحوالاً ومواطن، ففي مواطن يشتدّ عليهم الخوف فيشغلهم عظم الأمر عن التساؤل فلا يتساءلون، وفي مواطن يفيقون إفاقة فيتساءلون».

وقوله تعالى: ﴿فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون﴾ قال ابن عباس يقول: عابسون. وقال ابن مسعود: ألم تر إلى الرأس المشيط بالنار وقد قلصت شفتاه وبدت أسنانه؟

وقوله تعالى: ﴿ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالّين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ قال ابن جريج: بلغنا أن أهل النار نادوا خزنة جهنم: ﴿أن ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب﴾، فلم يجيبوهم ما شاء الله، فلما أجابوهم بعد حين قالوا: ﴿ادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾، قال: ثم نادوا: ﴿يا مالك ليقض علينا ربك﴾، فسكت عنهم مالك خازن جهنم أربعين سنة، ثم أجابهم فقال: ﴿إنكم ماكنون﴾، ثم نادى الأشقياء ربهم فقالوا: ﴿ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالّين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ فسكت عنهم مثل مقدار الدنيا، ثم أجابهم بعد

(١) أخرجه ابن جرير (٥٤/١٨).

ذلك تبارك وتعالى ﴿اخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّه كَانَ فَرِيقَ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسُوكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ إِنِّي جَزَيْتَهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمُ قَالُوا: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ هَلْ تُؤَبُّونَ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾^(٢).

قوله عز وجل: ﴿قَدْ كُنَّا لَكُمْ لَبِئْسَ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾^(١١٦) ﴿قَالُوا لَبِئْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَادِينَ﴾^(١١٧) ﴿قَدْ إِنْ لَبِئْسَ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١١٨) ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^(١١٩) ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾^(١٢٠).

قال البغوي^(٣): ﴿قال كم لبستم في الأرض﴾، أي: في الدنيا وفي القبور ﴿عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾ نسوا مدة لبثهم في الدنيا لِعِظَمِ مَا هُمْ بِصَدَدِهِ مِنَ الْعَذَابِ ﴿فاسأل العادين﴾ الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم ويحسونها عليهم ﴿قال إن لبستم﴾، أي: ما لبستم في الدنيا ﴿إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً﴾، أي: لعباً وباطلاً لا لحكمة ﴿وأنكم إلينا﴾

(١) أخرجه ابن جرير (٥٧/١٨)، وبنحوه مرفوعاً من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أخرجه الترمذي (ح/٢٥٨٦)، وابن جرير (٥٩/١٨)، بسند ضعيف. قال الترمذي: «إنما نعرف هذا الحديث عن الأعمش عن شمر بن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء قوله وليس بمرفوع... قلت: وأخرجه موقوفاً ابن جرير - أيضاً - (٥٩/١٨).

(٢) سورة المصطفين: الآيات ٢٩ - ٣٦.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢٧٠).

لا ترجعون ﴿١﴾ في الآخرة للجزاء؟ كما قال تعالى: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ ﴿١﴾؟ ﴿فتعالى الله الملك الحق﴾ قال ابن كثير^(٢): أي تقدّس أن يخلق شيئاً عبثاً فإنه الملك الحقّ المنزه عن ذلك ﴿لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾ فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات، ووصفه بأنه كريم: أي حسن المنظر بهي الشكل.

قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

قال البغوي^(٣): ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به﴾، أي: لا حجة له به ولا بينة، لأنه لا حجة في دعوى الشرك ﴿فإنما حسابه﴾ جزاؤه ﴿عند ربه﴾ يجازيه بعمله، كما قال تعالى: ﴿ثم إن علينا حسابهم﴾ ﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾ لا يسعد من جحد وكذب ﴿وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾.



(١) سورة القيامة: الآية ٣٦.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٢٥٩).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢٧١).

الدرس الرابع والثمانون بعد المائة

﴿سورة النور﴾

مدنية، وهي أربع وستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ لِيُنذِرَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ عَدَايَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ .

قوله عز وجل: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣).

قال ابن كثير^(١): يقول تعالى: هذه ﴿سورة أنزلناها﴾ وفيه تنبيه على الاعتناء بها. وعن ابن عباس في قوله ﴿وفرضناها﴾ يقول: بيّناها. وعن ابن جريج ﴿وأنزلنا فيها آيات بيّنات﴾ قال: الحلال والحرام والحدود ﴿لعلكم تذكرون الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ قال عطاء: يقام حمداً لله ولا يعطلّ وليس بالقتل. وقال عمران: قلت لأبي مجلز ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما﴾ إلى ﴿واليوم الآخر﴾ إنا لنرحمهم أن يجلد الرجل حداً أو تقطع يده، قال: إنما ذاك أنه ليس للسلطان إذا رفعوا إليه أن يدعهم رحمة لهم حتى يقيم الحدّ.

وقوله تعالى: ﴿وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ قال الزهري: الطائفة الثلاثة فصاعداً. وعن ابن عباس: أن عمر قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد أيها الناس، فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فقرأناها ووعيناها، ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشي إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٢٦٠).

بترك فريضة قد أنزلها الله، فالرجم في كتاب الله حقّ على من زنى إذا أُخِصِنَ من الرجال والنساء إذا قامت البيّنة أو كان الحَبْلُ أو الاعتراف^(١). متفق عليه. وفي الصحيحين أيضاً في حديث العسيفي، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لأفضينّ بينكما بكتاب الله: الوليدة والغنم ردّاً عليك، وعلى ابنك مائة جلدة وتغريب عام، وأعد يا أنيس إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها فغدا عليها فاعترفت فرجمها»^(٢). وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: كنا نقرأ: «والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة»^(٣). رواه النسائي وغيره. قال ابن كثير^(٤): آية الرجم كانت مكتوبة، فسخ تلاوتها وبقي حكمها معمولاً به. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿الزاني لا ينكح إلاّ زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلاّ زان أو مشرك وحرّم ذلك على المؤمنين﴾ قال عبد الله بن عمرو: كانت امرأة يقال لها أم مهزول وكانت تسافح، فأراد رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن يتزوجها، فأنزل الله عز وجل: ﴿الزاني لا ينكح إلاّ زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلاّ زان أو مشرك وحرّم ذلك على المؤمنين﴾^(٥) رواه النسائي. وفي رواية الإمام أحمد: فاستأذن رسول الله ﷺ فقرأ ﴿الزاني لا ينكح إلاّ زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلاّ زان أو مشرك وحرّم ذلك على المؤمنين﴾. وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة حرّم الله عليهم الجنة: مدمن الخمر، والعاق لوالديه، والذي يقرّ في

(١) أخرجه البخاري (٦٨٣٠)، ومسلم (ح/١٦٩١).

(٢) العسيفي، أي: الأمير، أخرجه البخاري (ح/٢٦٩٥ و ٢٧٢٤ و ٢٧٢٥)، ومسلم

(ح/١٦٩٧ و ١٦٩٨) من حديث أبي هريرة زيد بن خالد الجهني رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٤/٢٧١).

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٢٦٠).

(٥) أخرجه أحمد (٢/١٥٩ و ٢٢٥)، وابن جرير (١٨/٧١)، والنسائي في الكبرى

(٦/٤١٥)، والحاكم (٢/١٩٣ - ١٩٤) وصححه، ووافقه الذهبي، قلت: وسنده لا بأس

أهله الخبث»^(١). رواه أحمد. وفي رواية: «والديوث».

قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

قال ابن كثير^(٢): المحصنة هي الحرة البالغة العفيفة. وقال الشعبي في القاذف إذا تاب وعلم منه خير: أن شهادته جائزة، وإن لم يتب فهو خلیع لا تجوز شهادته، وتوبته إكذابه نفسه. وقال الضحاك: إذا تاب وأصلح قبلت شهادته.

قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ زَوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

قوله: ﴿ويدرأ عنها العذاب أن تشهد﴾، أي: ويدفع عنها الحدّ شهادتها. وعن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا﴾ قال سعد بن عباد وهو سيّد الأنصار رضي الله عنه: أهكذا أنزلت يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيّدكم؟» فقالوا: يا رسول الله لا تلمه فإنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قطّ إلا بكراً، وما طلق امرأة قطّ فاجترأ رجل منا أن

(١) أخرجه أحمد (٦٩/٢ و ١٢٨) بسند ضعيف، وبنحوه - أيضاً - عن ابن عمر رضي الله عنه

أخرجه أحمد (١٣٤/٢)، والطبراني (٣٠٢/١٢)، بسند فيه ضعف.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٢٦٥).

يتزوجها من شدة غيـرته، فقال سعد: والله يا رسول الله إني لأعلم أنها لحق وأنها من الله، ولكنني قد تعجبت، إني لو وجدت لكاعاً قد تفخّذها رجل لم يكن لي أن أهتجه ولا أحرّكه حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله إني لا آتي بهم حتى يقضي حاجته!

قال: فما لبثوا إلّا يسيراً حتى جاء هلال بن أمية، وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، فجاء من أرضه عشاء فوجد عند أهله رجلاً، فرأى بعينه وسمع بأذنيه فلم يهتجه حتى أصبح، فغدا على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني جئت أهلي عشاء فوجدت عندها رجلاً، فرأيت بعيني وسمعت بأذني، فكره رسول الله ﷺ ما جاء به واشتدّ عليه واجتمعت الأنصار وقالوا: قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة، الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ويبطل شهادته في الناس، فقال هلال: والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجاً، وقال هلال: يا رسول الله إني قد أرى ما اشتدّ عليك مما جئت به، والله يعلم إني لصادق، فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه إذ أنزل الله على رسوله ﷺ الوحي، وكان إذا أنزل عليه الوحي عرفوا ذلك في تربد وجهه، يعني فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي، فنزلت ﴿والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلّا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله﴾ الآية، فسُرِّي عن رسول الله ﷺ فقال: «أبشر يا هلال فقد جعل الله لك فرجاً ومخرجاً»، فقال هلال: قد كنت أرجو ذلك من ربي عز وجل، فقال رسول الله ﷺ: «أرسلوا إليها»، فأرسلوا إليها فجاءت فتلاها رسول الله ﷺ عليهما، فذكّرهما وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشدّ من عذاب الدنيا، فقال هلال: والله يا رسول الله لقد صدقت عليهما، فقالت: كذب، فقال رسول الله ﷺ: «لاعنوا بينهما»، فقيل لهلال: اشهد، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، فلما كانت الخامسة قيل له: يا هلال اتق الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب، فقال: والله لا يعذبني الله

عليها كما لم يجلدني عليها، فشهد في الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين؛ ثم قيل للمرأة: اشهدي، فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، وقيل لها عند الخامسة: اتق الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب، فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف ثم قالت: والله لا أفضح قومي، فشهدت في الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ففرق رسول الله ﷺ بينهما، وقضى أن لا يُدعى ولدها لأب ولا يُرمى ولدها، ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد، وقضى أن لا بيت عليه ولا قوت لها، من أجل أنهما يفترقان من غير طلاق ولا متوفى عنها، وقال: «إن جاءت به أصيب أو حمش الساقين فهو لهلال، وإن جاءت به أورق جعداً جمالياً خدلج الساقين سابغ الأليتين فهو للذي رُميت به، فجاءت به أورق جعداً خدلج الساقين سابغ الأليتين، فقال رسول الله ﷺ: «لولا الأيمان لكان لي ولها شأن»^(١). قال عكرمة: فكان بعد ذلك أميراً على مصر، وكان يدعى لأمه ولا يدعى لأب. رواه أحمد وغيره.

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر قال: يا رسول الله مالي؟ قال: «لا مال لك إن كنت صدقت عليها، فهو بما استحلتت من فرجها، وإن كنت كذبت عليها فهو أبعد لك منها»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم﴾ قال البغوي^(٣): جواب «لولا» محذوف، يعني لعاجلكم بالعقوبة، ولكنه ستر عليكم

(١) أخرجه أحمد (٢٣٨/١)، وأبو داود (ح/٢٢٥٥)، والطيالسي (ح/٢٦٦٧)، وابن جرير (٨٢/١٨)، والبيهقي (٧/٣٩٤ - ٣٩٥)، بسند ضعيف، والحديث بنحوه عند البخاري (ح/٤٧٤٥ و ٤٧٤٦ و ٥٣٠٩)، ومسلم (ح/١٤٩٢)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وينحوه أيضاً من حديث ابن عباس أخرجه البخاري (ح/٤٧٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٥٣١١ و ٥٣١٢ و ٥٣٤٩)، ومسلم (٢/١١٣٠).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢٧٨).

ورفع عنكم الحدّ باللعان ﴿وأن الله تواب﴾ يعود على من يرجع عن المعاصي بالرحمة ﴿حكيم﴾ فيما فرض من الحدود.

وقال ابن كثير^(١): ثم ذكر تعالى رأفته بخلقه ولطفه بهم فيما شرع لهم من الفرج والمخرج من شدّة ما يكون بهم من الضيق، فقال تعالى ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾، أي: لخرجتم ولشقّ عليكم كثير من أموركم ﴿وأن الله تواب﴾، أي: على عباده، وإن كان ذلك بعد الحلف والأيمان المغلظة ﴿حكيم﴾ فيما يشرّعه ويأمر به وفيما ينهى عنه.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٢٧٤).

الدرس الخامس والثمانون بعد المائة

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ
 آمْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ وَلَوْلَا إِذْ
 سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ وَلَوْلَا
 جَاءَهُ وَعَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأَوَّلَتْكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾
 وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَسْتُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ
 عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنِّتِ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ
 هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا
 سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ
 مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَبَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ
 تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ
 لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾
 ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ
 بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ
 يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي
 الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ
 يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَافِئَاتِ

الْمُؤْمِنَاتِ لُعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ
وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَذِ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ
هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْخَيْشَتُ لِلْخَيْشِ وَالْخَيْشُوكُ لِلْخَيْشِ وَالطَّيِبَتُ لِلطَّيِبِ
وَالطَّيِبُونَ لِلطَّيِبَتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا نَحْسَبُهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ تَوَلَّى إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِنَّ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ تَوَلَّى جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾

قال الزهري: أخبرني سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعلقمة بن أبي وقاص وعبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن حديث عائشة زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله تعالى وكلهم قد حدثنني بطائفة من حديثها، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت له اقتصاصاً، وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذي حدثنني عن عائشة، وبعض حديثهم يصدق بعضاً؛ ذكروا أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج لسفر أفرع بين نسائه فأيهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة رضي الله عنها: فأفرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي وخرجت مع رسول الله ﷺ وذلك بعدما أنزل الحجاب، وأنا أُحْمَلُ في هودجي وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة، آذن ليلة بالرحيل، فقمنا حين آذن بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري، فإذا عقدٌ بها من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين يرحلونني فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أنني فيه، قالت: وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلن ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقمة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه،

وكنت جارية حديثة السنّ، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فتيّمت منزلي الذي كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون إليّ فيينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيناى فتمت، وكان صفوان بن المعطلّ السلمي ثم الذكوانيّ قد عرس من وراء الجيش، فأدلج فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رأني، وقد كان قد رأني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما كلّمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حين أناخ راحلته فوطيء على يدها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نمر الظهيرية، فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولّى كبره عبد الله بن أبي ابن سلول، فقدمنا المدينة فاشتكت حين قدمناها شهراً، والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك، ويريني في وجمي أني لا أرى من رسول الله ﷺ اللطف الذي أرى منه حين أشتكى، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول: «كيف تيكم؟» فذلك الذي يريني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نقهت، وخرجت مع أم مسطح قبل المناصع وهو متبرّزنا، ولا نخرج إلاّ ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأوّل في التنزه في البرية، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها في بيوتنا، وانطلقت أنا وأم مسطح وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثانة بن عباد بن المطلب، فأقبلت أنا وابنة أبي رهم أم مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بشس ما قلت، تسيين رجلاً شهد بدرًا؟! فقالت: أي هتاه ألم تسمعي ما قال؟ قلت: ماذا؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل عليّ رسول الله ﷺ فيسلم ثم قال: «كيف تيكم؟» فقلت له: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبليهما، فأذن لي رسول الله ﷺ فجئت

أبويّ فقلت لأمي: يا أمتاه ماذا يتحدث الناس به؟ فقالت: أي بنية هوثني عليك، فوالله لقلّما كانت امرأة قطّ وضيئة عند رجل يحبّها ولها ضرائر إلاّ أكثرن عليها، قالت فقلت: سبحان الله، وقد تحدّث الناس بها؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكي، قالت: فدعا رسول الله ﷺ عليّ ابن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبت الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الودّ، فقال أسامة: يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلاّ خيراً، وأما عليّ بن أبي طالب فقال: يا رسول الله لم يضيّق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك الخير. قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: «أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟» فقالت له بريرة: والذي بعثك بالحق إن رأيت منها أمراً قطّ أغمصه عليها، أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله، فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول. قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلاّ خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلاّ خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلاّ معي». فقام سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه فقال: أنا أعذرک منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرک، قالت: فقام سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ: كذبت، لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يُقتل؛ فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله، لنقتلته، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فتشاور الحيّان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتلوا ورسول الله ﷺ على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت رسول الله ﷺ، قالت: وبكيت يومي

ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنّان أن البكاء فالقُّ كبدي، قالت: فينما هما جالسان عندي وأنا أبكي إذ استأذنت عليّ امرأة من الأنصار فأذنت لها، فجلست تبكي معي، فيينا نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: «أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله عليه»، قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته، قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ، فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبني رسول الله ﷺ، فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، قالت: فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن: والله لقد علمتُ، لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقرّ في أنفسكم وصدّقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة، والله يعلم أنني بريئة لا تصدّقوني، ولئن اعترفت بأمر، والله يعلم أنني منه بريئة لتصدّقني، فوالله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾، قالت: ثم تحوّلت فاضطجعت على فراشي: قالت: وأنا والله أعلم حيثذ أنني بريئة وأن الله تعالى مبرّئي براءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحْيٌ يُتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يُتكلّم فيّ بأمر يُتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرّئني الله بها، قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد، حتى أنزل الله تعالى على نبيّه ﷺ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي، حتى أنه ليتحدّر منه مثل الجمان من العرق، وهو في يوم شاتٍ من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: فسُرّي عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: «أبشري يا عائشة، أما الله عزّ وجل فقد برّأك، قالت: فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله عزّ وجل، هو الذي أنزل براءتي،

وأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ العشر الآيات كلها، فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر رضي الله عنه - وكان ينفق على مسطح بن أثانة لقربته منه وفقره - : والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة، فأَنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فقال أبو بكر: بلى والله إنني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً. قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ عن أمري، فقال: «يا زينب ما علمت أو رأيت؟ فقالت: يا رسول الله احمني سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً، قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ، فعصمها الله تعالى بالورع، وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها، فهلكت فيمن هلك». متفق عليه. وعند أهل السنن قالت: «لما نزل عذري قام رسول الله ﷺ فذكر ذلك وتلا القرآن، فلما نزل أمر برجلين وامرأة فضربوا حدهم»^(١).

وعند أبي داود: «حسان بن ثابت ومسطح بن أثانة وحمنة بنت جحش»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، أي: النار في الآخرة. قال ابن عباس: «الذين افتروا على عائشة عبد الله بن أبي وهو الذي تولى كبره، وحسان ومسطح وحمنة بنت جحش»^(٣). وقال ابن زيد: أما الذي تولى كبره فعبد الله بن أبي ابن سلول الخبيث، هو الذي ابتداء هذا الكلام وقال: امرأة نبيكم

(١) أخرجه البخاري (ح/٢٦٣٧ و ٢٦٦١ و ٢٨٧٩ و ٤٠٢٥ و ٤١٤١ و ٤٦٩٠)، ومسلم (ح/٢٧٧٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٤٧٥) عن محمد بن إسحاق، وبنحوه من حديث أبي هريرة ولفظه: «فحد رسول الله ﷺ مسطحاً وصحنة وحسان، أخرجه البزار كما في «مختصر زوائد البزار» (٢٠٠/٥)، وإسناده حسن كما قال الهيثمي.

(٣) أخرجه ابن جرير (٨٧/١٨)، وفيه انقطاع.

باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقود بها. وعن محمد بن إسحاق عن أبيه عن بعض رجال لبني النجار: أن أبا أيوب خالد بن زيد قالت له امرأته أم أيوب: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك. قال: فلما أنزل الله القرآن ذكر الله من قال الفاحشة ما قال من أهل الإفك ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم﴾ وذلك من حسان وأصحابه الذين قالوا ما قالوا، ثم قال: ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين﴾ كما قال أبو أيوب وصاحبه^(١). رواه ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء﴾ قال ابن كثير: ﴿لولا﴾، أي: هلاً ﴿جاءوا عليه بأربعة شهداء يشهدون على صحة ما جاءوا به فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون﴾، أي: في حكم الله كاذبون فاجرون.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَسْتُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ .

قال ابن زيد في قوله: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ هذا للذين تكلموا فنشروا ذلك الكلام ﴿لمستكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم﴾. وعن مجاهد ﴿إذ تلقونه بالستكم﴾ قال: تروونه بعضهم عن بعض.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ

(١) أخرجه ابن جرير (٩٦/١٨) بسند ضعيف.

عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَإِنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴿٢١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا
خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ
اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا﴾ يقول: ما اهتدى منكم من الخلائق لشيء من الخير ينفع به نفسه، ولم يتق شيئا من الشر يدفعه عن نفسه. قال ابن زيد: كل شيء في القرآن من زكى أو تزكى فهو الإسلام؛ وقال مقاتل: ﴿ما زكى﴾ ما صلح؛ وقال ابن قتيبة: ما طهر.

قال البغوي^(١): والآية على العموم عند بعض المفسرين. قالوا: أخبر الله أنه لولا فضله ورحمته بالعصمة ما صلح مسلم.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة﴾ إلى آخر الآية قال: كان ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قد رموا عائشة بالقبيح وأفسوا ذلك وتكلموا به، فأقسم ناس من أصحاب رسول الله ﷺ فيهم أبو بكر أن لا يتصدق على رجل تكلم بشيء من هذا ولا يصله، فقال: لا يقسم أولوا الفضل منكم والسعة أن يصلوا أرحامهم وأن يعطوهم من أموالهم، كالذي كانوا يفعلون قبل ذلك، فأمر الله أن يغفر لهم وأن يعفو عنهم^(٢).

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢٨٣).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٨/١٠٢) بسند ضعيف.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَتْرُجُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوقِفُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ .

قال ابن جرير^(١) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ يقول تعالى ذكره: إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ بِالْفَاحِشَةِ ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾، يعني: العفيفات ﴿الْغَافِلَاتِ﴾ عن الفواحش ﴿المؤمنات﴾ بالله ورسوله وما جاء به من عند الله ﴿لعنوا في الدنيا والآخرة﴾ يقول: أبعدوا من رحمة الله في الدنيا والآخرة ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ وذلك عذاب جهنم. وعن جعفر بن برقان قال: سألت ميموناً قلت: الذي ذكر الله: ﴿الذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء﴾، إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فجعله في هذه الآية توبة، وقال في الأخرى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ قال ميمون: أما الأولى فعسى أن تكون قد قارفت، وأما هذه فهي التي لم تقارف شيئاً من ذلك. وقال ابن زيد: هذا في عائشة، ومن صنع اليوم في المسلمات فله ما قال الله.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال قتادة: ابن آدم، والله إن عليك لشهوداً غير متهمة من بدنك، فراقبهم واتق الله في سرِّك وعلانيتك، فإنه لا يخفى عليه خافية، الظلمة عنده ضوء، والسرُّ عنده علانية، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظنِّ فليفعل، ولا قوة إلا بالله.

(١) انظر «جامع البيان» (١٨/١٠٣).

وعن ابن عباس في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يوفِّهِمُ اللهُ دينهمُ الحقَّ﴾ يقول: حسابهم. وقال البغوي^(١): جزاؤهم الواجب، وقيل: حسابهم العدل ﴿ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾ يبيّن لهم حقيقة ما كان بعدهم في الدنيا. قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: وذلك أن عبد الله بن أبيّ كان يشكّ في الدين، فيعلم يوم القيامة أن الله هو الحق المبين.

وعن ابن عباس قوله: ﴿الخبِيثَاتُ للخبِيثِينَ والخبِيثُونَ للخبِيثَاتِ﴾ يقول: الخبيثات من القول للخبِيثين من الرجال، والخبِيثون من الرجال للخبِيثات من القول. وقوله: ﴿والطَّيِّبَاتُ للطَّيِّبِينَ﴾ يقول: «الطَّيِّبَاتُ من القول للطَّيِّبِينَ من الرجال، والطَّيِّبُونَ من الرجال للطَّيِّبَاتِ من القول. نزلت في الذين قالوا في زوجة النبي ﷺ ما قالوا من البهتان»^(٢). وقال ابن زيد: نزلت في عائشة حين رماها المنافق بالبهتان والفرية، فبرأها الله من ذلك؛ وكان عبد الله بن أبيّ هو خبيثاً، وكان هو أولى بأن تكون له الخبيثة ويكون لها، وكان رسول الله ﷺ طيباً، وكان أولى أن تكون له الطيبة، وكانت عائشة الطيبة، وكان أولى أن يكون لها الطيب ﴿أولئك مبرؤون مما يقولون﴾ قال ههنا: بُرئت عائشة ﴿لهم مغفرة ورزق كريم﴾.



(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢٨٤).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٨/١٠٦) بسند ضعيف.

الدرس السادس والثمانون بعد المائة

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا
 وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا
 فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمْ ارجِعُوا فَارجِعُوا هُوَ أَزكىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا
 تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَّكُمْ
 وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِن أَبْصَرِهِمْ
 وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزكىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلِ لِلْمُؤْمِنَاتِ
 يَعْضُضْنَ مِن أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ
 مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ
 ءَابَائِهِنَّ أَوْ ءَابَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ
 أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ
 التَّبَاعِيْنَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوَاتِرِ
 النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا
 أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُمْ
 وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِعُ عِلْمُهُ ﴿٣٢﴾ وَلِاسْتَعْفِفِ
 الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ
 أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِن عِلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرٌ ؕ وَمَا أَنُوهُمْ مِن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا

تُكْرَهُوا فَنِيَّتِكُمْ عَلَى الْإِغْيَاءِ إِنْ أَرَدْنَا تَحْصِينَا لِنَبْنِغُوا عَرْضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهُهُنَّ فَإِنَّ
اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ عَفْوٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ
الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها﴾ قال: الاستئناس الاستئذان. وعن قتادة: ﴿حتى تستأنسوا وتسلموا﴾ وعن أبي موسى قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليصرف»^(١). رواه البخاري. وعن جابر قال: «أتيت النبي ﷺ في دين كان على أبي، فدققت الباب فقال: من ذا؟ فقلت: أنا، قال: أنا أنا! كأنه كرهه»^(٢). رواه الجماعة. قال ابن كثير^(٣): وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لا يُعرف صاحبها حتى يفصح باسمه^(٤).

وعن عدي بن ثابت أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله إني أكون في منزلي على الحال التي لا أحب أن يراني أحد عليها، لا والد ولا ولد، وإنه لا يزال يدخل علي رجل من أهلي وأنا على تلك الحال، قال: فنزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا

(١) أخرجه البخاري (ح/٦٢٤٥)، ومسلم (ح/٢١٥٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٦٢٥٠)، ومسلم (ح/٢١٥٥).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٢٧٩).

(٤) وقيل: لأن جابراً رضي الله عنه لم يستأذن بلفظ اللام، وقيل غير ذلك.

لا تدخلوا بيوتاً ﴿١﴾ الآية. رواه ابن جرير. وقال ابن مسعود: وعليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم. وعن زينب امرأة ابن مسعود قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجته فأنتهى إلى الباب تنحنح وبزق، كراهية أن يهجم منا على أمر يكرهه.

وقوله تعالى: ﴿ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم﴾ قال مجاهد: هي البيوت التي ينزلها السفر لا يسكنها أحد. قال ابن جرير^(٢): إن الله عمّ بقوله: ﴿ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم﴾ كل بيت لا ساكن به لنا فيه متاع، ندخله بغير إذن.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿٣٠﴾.

قال ابن عباس: ﴿يغضوا أبصارهم﴾ عما يكره الله. وعن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة، فأمرني أن أصرف بصري^(٣). رواه مسلم. وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا علي لا تتبع النظرة بالنظرة، فإن لك الأولى وليس لك الآخرة»^(٤). رواه أبو داود وغيره. وقال النبي ﷺ: «من يكفل لي ما بين لحييه وما بين رجله أضمن له الجنة»^(٥). رواه البخاري. وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال:

(١) أخرجه ابن جرير (١١٠/١٨ - ١١١) بسند ضعيف.

(٢) انظر «جامع البيان» (١١٦/١٨).

(٣) أخرجه مسلم (ح/٢١٥٩).

(٤) أخرجه أحمد (٥/٣٥١ و ٣٥٣ و ٣٥٧)، وأبو داود (ح/٢١٤٩)، والترمذي (ح/٢٧٧٨)، وقال: «حديث حسن غريب»، والحاكم (٢/١٩٤)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، قلت: وفي سنده ضعف من جهة شريك القاضي، فهو ضعيف. لكن للحديث شاهد من حديث علي رضي الله عنه، أخرجه أحمد (١/١٥٩)، والدارمي (٢/٢٩٨) وفيه ابن إسحاق وهو مدلس، والحديث بمجموعها حسن إن شاء الله تعالى.

(٥) أخرجه البخاري (ح/٦٤٧٤) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

«لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في ثوب واحد»^(١). رواه البغوي.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَزكى لَهُمْ إِنْ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ في بعض الآثار: «إن النظرة سهم من سهام إبليس مسموم، يقول الله تعالى: من تركها مخافتى أبدلتها إيماناً يجد حلاوته في قلبه»^(٢).

قوله عز وجل: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَا يَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٣).

عن ابن مسعود: ﴿ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها﴾ قال: الثياب. وقال ابن عباس: الكحل والخاتم. وقال عطاء: الكفان والوجه. وقال الحسن: الوجه والثياب. قال البغوي^(٣): فما كان من الزينة الظاهرة جاز للرجل الأجنبي النظر إليه إذا لم يخف فتنة. وعن عائشة قالت: لما نزلت هذه الآية ﴿وليضربن بخمرهن﴾

(١) أخرجه مسلم (ج/٣٣٨).

(٢) روي مرفوعاً بنحوه من حديث ابن عمر رضي الله عنه، أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠١/٦) بسند ضعيف جداً.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢٨٧).

على جيوبهن ﴿ شققن البرد مما يلي الحواشي فاختمن به . رواه ابن جرير وغيره .
وقال سعيد بن جبير : ﴿ وليضربن ﴾ وليشدن ﴿ بخمرهن على جيوبهن ﴾ يعني على
النحر والصدر فلا يرى منه شيء . وعن ابن عباس : ﴿ ولا يبدین زینتهن إلا
لبعولتهن ﴾ إلى قوله ﴿ عورات النساء ﴾ قال : الزينة التي يبدینها لهؤلاء : قرطها
وقلادتها وسوارها ، فأما خلخالها ومعصدها ونحراها وشعرها فإنه لا تبدیه إلا
لزوجها . وقال قتادة : تبدي لهؤلاء الرأس . قال بعض السلف : لم يذكر العم
والخال وهما من محارمهن لئلا يصفوهن لبنينهم . وقال الحسن البصري : إنهما
كسائر المحارم في جواز النظر ، وقد يُذكر البعض لبنته على الجملة . وهذا أظهر .

وعن ابن عباس : ﴿ أو نسائهن ﴾ قال : هن المسلمات ، لا تبدیه ليهودية ولا
نصرانية ، وهو النحر والقرط والوشاح ، وما لا يحل أن يراه إلا محرّم . وعن ابن
جريج قوله : ﴿ أو نسائهن ﴾ قال : بلغني أن نساء المسلمين لا يحلّ لمسلمة أن ترى
مشركة عريتها إلا أن تكون أمة لها ، فذلك قوله ﴿ أو ما ملكت أيمانهن ﴾ . قال ابن
كثير^(١) : وقال الأكثرون : بل يجوز أن تظهر زينتها على رقيقها من الرجال والنساء ،
واستدلوا بالحديث الذي رواه أبو داود عن أنس أن النبي ﷺ أتى فاطمة بعبد قد
وهبه لها ، قال : وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجلها ، وإذا غطت
به رجلها لم يبلغ رأسها ، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال : « إنه ليس عليك بأس ،
إنما هو أبوك وغلأمك »^(٢) .

وقال البغوي^(٣) : قوله تعالى : ﴿ وما ملكت أيمانهن ﴾ اختلفوا فيها فقال
قوم : عبد المرأة محرّم لها فيجوز له الدخول عليها إذا كان عفيفاً ، وينظر إلى بدن
مولاته إلا ما بين السرة والركبة كالمحارم ، وهو ظاهر القرآن .
وعن ابن عباس قوله : ﴿ أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال ﴾ قال : كان

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٢٨٥) .

(٢) أخرجه أبو داود (ح/٤١٠٦) من حديث أنس رضي الله عنه بسند حسن .

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢٨٨) .

الرجل يتبع الرجل في الزمان الأول ولا يغار عليه، ولا ترهب المرأة أن تضع خمارها عنده، وهو الأحق الذي لا حاجة له في النساء.

وقوله تعالى: ﴿أَوِ الْبَطْلَانَ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ قال مجاهد: لم يدروا ما تم من الصغر قبل الحلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يَخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ قال ابن عباس: هو أن تفرغ الخلل بالآخر عند الرجال ويكون في رجلها خلل، فتحركهن عند الرجال، فهي الله سبحانه وتعالى عن ذلك، لأنه من عمل الشيطان.

قال ابن كثير^(١): وقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، أي: افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى عنه. والله تعالى هو المستعان.

قوله عز وجل: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَانَ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلِيَسْتَعْفِفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ كِتَابًا أَوْ كِتَابًا فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۚ وَآتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تَكْرَهُوا فَنَيْتُكُمْ عَلَىٰ الْإِغْيَاءِ إِنْ أَرَدْنَا تَحْصِينَ لِنَبْنِغُوا عَرْضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا لِّلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ .

قال ابن زيد في قوله: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ﴾ قال: أيامى النساء اللاتي ليس لهن أزواج. وعن ابن عباس قوله: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْكُمْ﴾

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٢٨٦).

عبادكم وإمائكم ﴿ قال: أمر الله سبحانه بالنكاح ورغبتهم فيه وأمرهم أن يزوجوا أحرارهم وعبيدهم، ووعدهم في ذلك الغنى فقال: ﴿إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله﴾.

قال ابن كثير^(١) وقوله: ﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله﴾ هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجاً بالتعفف عن الحرام.

وقوله تعالى: ﴿والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾ قال البغوي^(٢): سبب نزول هذه الآية ما روي أن غلاماً لحويطب بن عبد العزى سأل مولاة أن يكتبه فأبى عليه، فأنزل الله هذه الآية. فكاتبه حويطب على مائة دينار، وهب له منها عشرين ديناراً.

وعن ابن عباس قوله: ﴿فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً﴾ يقول: إن علمتم لهم حيلة ولا تلقون مؤونتهم على المسلمين. وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة حق على الله عونهم: المكاتب الذي يريد الأداء، والناكح يريد العفاف، والمجاهد في سبيل الله»^(٣). رواه البغوي.

وقوله تعالى: ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم﴾ قال ابن كثير^(٤): كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت، فلما جاء الإسلام نهى الله المؤمنين عن ذلك، وكان سبب نزول

(١) المصدر السابق (٣/٢٨٧).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢٩٠).

(٣) أخرجه الترمذي (ح/١٦٥٥) وحسنه، والنسائي (٦/٦١)، وابن ماجه (ح/٢٥١٨)،

والحاكم (٢/١٦٠) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في «الحلية»

(٨/٣٨٨)، والبغوي في شرح السنة (٩/٧)، وهو حديث صحيح.

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٢٨٨).

هذه الآية الكريمة فيما ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف، في شأن عبد الله بن أبي سلول، فإنه كان له إماء فكان يكرههن على البغاء طلباً لخواجهن ورغبة في أولادهن ورياسة منه فيما يزعم. قال: وقوله تعالى: ﴿إِنْ أُرْدُنْ تَحْصِنَا﴾ هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له.

وقوله تعالى: ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم، أي: لهن. قال ابن عباس فإن فعلتم ﴿فإن الله﴾ لهن ﴿غفور رحيم﴾ وإثمهن على من أكرههن. قال ابن كثير^(١): ولما فصل تبارك وتعالى هذه الأحكام وبينها، قال تعالى: ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات﴾ يعني القرآن فيه آيات واضحات مفسرات ﴿ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم﴾ أي خيراً عن الأمم الماضية وما حل بهم في مخالفتهم أوامر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين﴾^(٢) أي زاجراً عن ارتكاب المآثم والمحارم ﴿وموعظة للمتقين﴾ أي لمن اتقى الله وخافه. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في صفة القرآن: «فيه حكم ما بينكم، وخبر ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله»^(٣).



(١) المصدر السابق (٣/٢٨٩).

(٢) سورة الزخرف: الآية ٥٦.

(٣) سبق تخريجه.

الدرس السابع والثمانون بعد المائة

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا لُئْلِيهِمْ تَحِزَّةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلْتُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُمْ فَوْقَهُ حِسَابُهُمُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُمْ لَمْ يَكِدْ يَرُوهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَبَّحَتْ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُمُ وَتَسْبِيحَهُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ .

عن ابن عباس قوله ﴿الله نور السموات والأرض﴾ يقول: الله سبحانه هادي أهل السموات والأرض^(١) ﴿مثل نوره﴾ مثل هداه في قلب المؤمن ﴿كمشكاة﴾ قال: المشكاة كوة البيت ﴿فيها مصباح﴾ قال السدي: هو السراج، وقال أبي بن كعب: المصباح النور وهو القرآن والإيمان الذي في صدره ﴿المصباح في زجاجة﴾ وهي نظير قلب المؤمن ﴿الزجاجة كأنها كوكب دري﴾ مضيء ﴿يوقد من

(١) أخرجه ابن جرير (١٣٥/١٨)، وابن أبي حاتم (٤/ب/٤٦)، والبيهقي في «الاسماء والصفات» (١٤٣/١) بسند ضعيف. قال ابن تيمية - رحمه الله - (الفتاوى ٦/٣٩١): «فقول من قال: (نور السموات والأرض) هادي أهل السموات والأرض كلام صحيح، فإن من معاني كونه نور السموات والأرض أن يكون هادياً لهم، أما أنهم نفوا ما سوى ذلك فهذا غير معلوم...» اهـ. وراجع الفتاوى (٦/٣٧٤ - ٣٩٦) ففيها زيادة تفصيل حول هذه المسألة.

قلت: وفي هذه الآية إثبات صفة «النور» لله تعالى على ما يليق به، وكذلك هو من أسماءه تعالى. قال ابن القيم - رحمه الله - في «الجيوش» (ص ٤٤ - ٥٣): «والله سبحانه وتعالى سمي نفسه نوراً، وجعل كتابه نوراً، ورسوله ﷺ نوراً، ودينه نوراً، واحتجب عن خلقه بالنور، وجعل دار أوليائه نوراً تتلألاً... وقد فسّر: «نور السموات والأرض...» بكونه نور السموات والأرض، وهذا إنما هو فعله، وإلا فالنور الذي هو من أوصافه قائم به، ومنه اشتق له اسم النور الذي هو أحد الأسماء الحسنی، إلى أن قال: «وهذا النور يضاف إلى الله تعالى إذ هو معطيه لعبده، وواهبه إياه، ويضاف إلى العبد إذ هو محله وقابله، فيضاف إلى الفاعل والقابل...» وقد تكلم رحمه الله عن تفسير هذه الآية، ولولا خشية الإطالة لنقلته ههنا، فليراجع لزماً.

شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ﴿ قال ابن عباس: هي شجرة وسط الشجر ليست من الشرق ولا من الغرب. وقال عكرمة لا يسترها من الشمس جبل ولا واد إذا طلعت وإذا غربت. وقال مجاهد: إذا طلعت الشمس أصابتها، وإذا غربت أصابتها.﴾

﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار﴾ قال البغوي^(١): ﴿يكاد زيتها﴾ دهنها ﴿يضيء﴾ من صفائه ﴿ولو لم تمسه نار﴾، أي: قبل أن تصيبه النار. ﴿نور على نور﴾ يعني نور المصباح على نور الزجاجة. قال أبي بن كعب: هذا مثل المؤمن، فالمشكاة نفسه والزجاجة صدره والمصباح ما جعل الله في قلبه من الإيمان والقرآن ﴿يوقد من شجرة مباركة﴾ وهي الإخلاص لله وحده.

وقال السدي في قوله تعالى: ﴿نور على نور﴾ قال: نور النار ونور الزيت، حين اجتماعاً أضواء ولا يضيء واحد بغير صاحبه، كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتماعاً، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه.

﴿يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم﴾ قال ابن كثير^(٢)، أي: هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال. وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح. فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراج فيه نور. وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عَرَفَ ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها الدم والقيح، فأَي المَدَّتَيْن غلبت على الأخرى غلبت عليه»^(٣). رواه أحمد.

(١) انظر «معالم التنزيل» (١٩٣/٣).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٩١/٣).

(٣) أخرجه أحمد (١٧/٣)، والطبراني في الصغير (ح/١٠٤٨) بسند ضعيف.

قوله عز وجل: ﴿ فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمَاءُ سَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهمَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ۝

عن مجاهد في قوله: ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ﴾ قال: مساجد تبني. وقال ابن عباس في قوله ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ﴾ وهي المساجد، كره ونهى عن اللغو فيها، ثم قال: ﴿ ويذكر فيها اسمه ﴾ يقول: يُتلى فيها كتابه. وعن الحسن في هذه الآية ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يستح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ قال: هم قوم في تجارتهم وبيعهم لا تلهيهم تجارتهم ولا يبيعهم عن ذكر الله.

وقوله تعالى: ﴿ لِيَجْزِيَهمَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ روى النسائي عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، جاء مناد فنادى بصوت يُسمع الخلائق: سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم، ليقم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، فيقومون وهم قليل، ثم يحاسب سائر الخلائق»^(١).

قوله عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهمُ كَرَّابٍ يَقْبِعونَ بِحَسَبِهِ الظُّلُمَاتُ مَاءً حَمَاقًا إِذَا جَاءَهُمْ لَمِيحَةٌ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِندَهُم مَّوْجِدًا مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٦﴾ أَوْ كَطُلُمَنْتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَفْشَنُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ، مَوْجٌ مِّن

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/١٠٤ - ٤/ب/٥٤)، والبيهقي بسند ضعيف، وهم المؤلف

— رحمه الله — فقال: رواه النسائي «وليس كما قال».

فَوْقِهِ سَحَابٌ مُّظْلِمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُمُ لَمْ يَكْدِرْهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ
لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٤٠﴾ .

قال ابن كثير^(١): هذان مثلان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار، كما ضرب للمنافقين في أول البقرة مثلين نارياً ومائياً، وكما ضرب لما يقرّ في القلوب من الهدى والعلم في سورة الرعد مثلين مائياً ونارياً؛ فأما الأول من هذين المثلين فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم، الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات، وليسوا في نفس الأمر على شيء، وهذا المثل مثال لذوي الجهل المركّب، فأما أصحاب الجهل البسيط وهم الطماطم الأغشام المقلّدون لأئمة الكفر، الصمّ البكم الذين لا يعقلون فمثلهم كما قال تعالى: ﴿أَوْ كظلمات في بحر لجّي﴾ . انتهى ملخصاً.

وقال أبيّ بن كعب: ثم ضرب الله مثلاً آخر فقال: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة﴾ قال: وكذلك الكافر يجيء يوم القيامة وهو يحسب أن له عند الله خيراً، فلا يجد فيدخله النار. وعن ابن عباس قوله ﴿أَوْ كظلمات في بحر لجّي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب﴾ إلى قوله: ﴿من نور﴾ قال: يعني بالظلمات الأعمال، وبالبحر اللجّي قلب الإنسان، قال: ﴿يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب﴾ قال: ﴿ظلمات بعضها فوق بعض﴾ يعني بذلك: الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر، وهو كقوله تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾^(٢). وعن أبيّ بن كعب في قوله ﴿أَوْ كظلمات في بحر لجّي يغشاه موج﴾ الآية قال: ضرب مثلاً آخر للكافر، فهو يتقلّب في خمس من الظلم: فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة إلى النار.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٩٦/٣).

(٢) سورة البقرة: الآية ٧.

وقوله تعالى: ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ كقوله تعالى: ﴿من يضل الله فلا هادي وله ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّهُمْ يُسَبِّحُونَ اللَّهَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّاتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَبِاللَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾.

قال ابن كثير^(٢): يخبر تعالى أنه ﴿يسبح له من في السموات والأرض﴾، أي: من الملائكة والأناسي والجان والحيوان حتى الجماد، كما قال تعالى: ﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿والطير صافات﴾، أي: في حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدتها إليه، وهو يعلم ما هي فاعلة، ولهذا قال تعالى: ﴿كل قد علم صلاته وتسبيحه﴾، أي: كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله عز وجل؛ ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولهذا قال: ﴿والله عليم بما يفعلون﴾.

ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض فهو الحاكم المتصرف، الإله المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولا معقب لحكمه ﴿وإلى الله المصير﴾، أي: يوم القيامة، فيحكم فيه بما شاء، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، فهو الخالق المالك الإله الحكيم في الدنيا والآخرة، وله الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه ترجعون.



(١) سورة الأعراف: الآية ١٨٦.

(٢) المصدر السابق (٣/٢٩٧).

(٣) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

الدرس الثامن والثمانون بعد المائة

﴿الرَّتْرَ أَنْ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلْقِهِ وَيُنزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾ يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّى فِرْقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴿٥٣﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ أُمرْتَهُمْ لِيُخْرِجَنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ قُل أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٥٥﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ
أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾
لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوِنَهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ
الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿الزَّوْجَرُ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَجْعَلُهُمْ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ. وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ .

قال ابن كثير^(١): يذكر تعالى أنه يسوق السحاب بقدرته أول ما ينشئها وهي ضعيفة وهو الإزجاء ﴿ثم يؤلف بينه﴾، أي: يجمعه بعد تفرقه ﴿ثم يجعله ركاماً﴾، أي: متراكماً يركب بعضه بعضاً ﴿فترى الودق﴾، أي: المطر ﴿يخرج من خلاله﴾، أي: من خلله. قال عبيد بن عمير الليثي: يبعث الله المثيرة فتقم الأرض قمماً، ثم يبعث الله الناشئة فتنشئ السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه، ثم يبعث الله اللواحق فتلقح السحاب. وقال ابن زيد في قوله: ﴿فترى الودق يخرج من خلاله﴾ قال: الودق القطر.

وقوله تعالى: ﴿وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء﴾ قال ابن عباس: أخبر الله تعالى أن في السماء جبلاً من برد ﴿يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾ قال: ضوء برقه يذهب بالأبصار.

وقوله تعالى: ﴿يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ كقوله تعالى: ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار»^(٢). رواه البغوي وغيره.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٢٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦)، وأبعد المؤلف النجعة فقال: «رواه البغوي».

قوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتِنَا مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾ .

قال ابن كثير^(١): يذكر تعالى قدرته التامة، وسلطانه العظيم، في خلقه أنواع المخلوقات، على اختلاف أشكالها وألوانها، وحركاتها وسكناتها، من ماء واحد، فمنهم من يمشي على بطنه كالحية وما شاكلها، ومنهم من يمشي على رجلين كالإنسان والطيور، ومنهم من يمشي على أربع كالأنعام وسائر الحيوانات، ولهذا قال: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ . قال البغوي^(٢): ولم يذكر من يمشي على أكثر من أربع مثل حشرات الأرض لأنها في الصورة كالتي على الأربع، وقيل: إن في قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ تنبيهاً على سائر الأقسام.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾، أي: واضحات تدل على طريق الحق ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ .

قوله عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْخُفُ يُاتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ آرَأَيْتُمْ أَن يُخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمَ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا

(١) المصدر السابق (٣/٢٩٨).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢٩٨).

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ .

قال ابن كثير^(١): يخبر تعالى عن صفات المنافقين، الذين يُظهرون خلاف ما
يبتطنون، يقولون قولاً بألسنتهم: آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ﴿ثم يتولى فريق منهم
من بعد ذلك﴾، أي: يخالفون أقوالهم بأعمالهم، فيقولون ما لا يفعلون، ولهذا
قال تعالى: ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم
معرضون﴾، أي: إذا طلبوا إلى اتباع الهدى فيما أنزل الله على رسوله، أعرضوا
عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه، كقوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون
أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت
وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً وإذا قيل لهم
تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدّون عنك صدوداً﴾^(٢) .
وفي الطبراني عن سمرة مرفوعاً: «من دُعِيَ إلى سلطان فلم يجب فهو ظالم
لاحق له»^(٣) .

وقوله تعالى: ﴿وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين﴾، أي: وإذا كانت
الحكومة لهم لا عليهم جاءوا سامعين مطيعين، وإذا كانت عليهم أعرضوا، ولهذا
قال تعالى: ﴿أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أم يحيف الله عليهم ورسوله
بل أولئك هم الظالمون إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم
بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون﴾ . قال قتادة: ذكر لنا أن
عبادة بن الصامت وكان عقيباً بدريةً أحد نقباء الأنصار، أنه لما حضره الموت قال

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٢٩٨).

(٢) سورة النساء: الآية ٦١ .

(٣) أخرجه الطبراني (٧/٢٢٥) بسند ضعيف .

لابن أخيه جنادة بن أبي أمية: ألا أنبتك بماذا عليك وبماذا لك؟ قال: بلى قال: فإن عليك السمع والطاعة، في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك، وعليك أن تقيم لسانك بالعدل، وأن لا تنازع الأمر أهله، إلا أن يأمروك بمعصية الله بواحا، فما أمرت به من شيء يخالف كتاب الله فاتبع كتاب الله»^(١).

وقوله تعالى: ﴿ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقّه فأولئك هم الفائزون﴾. قال قتادة: يطيع الله ورسوله فيما أمراه به، ويترك ما نهياه عنه، ويخشى الله فيما مضى من ذنوبه، ويتقّه فيما يستقبل.

قوله عز وجل: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن أُمِرْتُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَآ نَقْسِمُوكُمْ بِطَاعَةٍ مَّعْرُوفَةٍ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ الْمُبِينِ ﴿٥٤﴾﴾.

قال البغوي^(٢) قوله تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهداً أيماهم﴾ جهداً اليمين أن يحلف بالله، ولا حلف فوق الحلف بالله ﴿لئن أمرتهم ليخرجن﴾ وذلك أن المنافقين كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أينما كنت نكن معك، لئن خرجت خرجنا وإن أقمت أقمنا، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا، فقال تعالى: ﴿قل﴾ لهم ﴿لا تقسموا﴾ لا تحلفوا، وقد تم الكلام؛ ثم قال: ﴿طاعة معروفة﴾، يعني: هذه طاعة بالقول وباللسان دون الاعتقاد، وهي معروفة: يعني أمرٌ عرف منكم أنكم تكذبون وتقولون ما لا تفعلون، هذا معنى قول مجاهد ﴿إن الله خير بما تعملون قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا﴾، يعني: تولوا عن طاعة الله ورسوله

(١) قلت: روي مرفوعاً بنحو عن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - أخرجه البخاري

(ح/٧٠٥٦)، ومسلم (٣/١٤٧٠).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢٩٩).

﴿فإنما عليه ما حُمِّلَ﴾، يعني: على الرسول ما كُلف وأمر به من تبليغ الرسالة ﴿وعليكم ما حُمِّلْتُمْ﴾ من الإجابة والطاعة ﴿وإن تطيعوه﴾ تهتدوا وما على الرسول إلاّ البلاغ المبين.

قوله عز وجل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا الرِّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾.

عن أبي العالية قوله: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات﴾ الآية. قال: مكث النبي ﷺ عشر سنين خائفاً يدعو إلى الله سرّاً وعلانية، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة، فمكث بها هو وأصحابه خائفين يصبحون في السلاح ويمسون فيه، فقال رجل: ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح؟ فقال النبي ﷺ: «لا تصبرون إلاّ يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملاء العظيم محتبياً ليس فيه حديدة»، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم﴾ إلى قوله: ﴿فمن كفر بعد ذلك﴾ قال: يقول: من كفر بهذه النعمة ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ وليس يعني الكفر بالله؛ قال: فأظهره الله على جزيرة العرب فآمنوا ثم تجبروا فغير الله ما بهم، وكفروا بهذه النعمة فأدخل الله عليهم الخوف الذي كان رفعه عنهم^(١).

قال ابن كثير^(٢): فالصحابه رضي الله عنهم لما كانوا أقوم الناس بعد

(١) أخرجه ابن جرير (١٨/١٥٩ - ١٦٠).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٠٠).

النبي ﷺ بأوامر الله عز وجل وأطوعهم لله، كان نصرهم بحسبهم، أظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب، وأيدهم تأييداً عظيماً، وحكموا في سائر البلاد والعباد، ولما قصر الناس بعدهم في بعض الأوامر، نقص ظهورهم بحسبهم، ولكن قد ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة»^(١). وفي رواية: «حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»^(٢).



(١) أخرجه مسلم (ح/١٩٢) من حديث ثوبان رضي الله عنه، وأيضاً (ح/١٩٢٣) من حديث

جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٥/٢٦٩) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

الدرس التاسع والثمانون بعد المائة

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعِذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ طَوْفُوتٍ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَعِذُوا كَمَا اسْتَعِذَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَمَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَوْلِيَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ مَفَاحِمِكُمْ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى

يَسْتَدِينُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَدِينُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا
 اسْتَدْنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذِنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ
 اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٦﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا
 قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلِيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ
 أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
 عَلِيمٌ ﴿٦٨﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ
الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ
بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾.

عن ابن عباس في قوله: ﴿ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم﴾ يقول: إذا خلا
الرجل بأهله بعد صلاة العشاء فلا يدخل عليه خادم ولا صبي إلا بإذن، حتى
يصلّي الغداة، فإذا خلا بأهله عند صلاة الظهر فمثل ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾، أي: بعد هذه
الأحوال الثلاث ﴿طوافون﴾.

قال في جامع البيان: أي هم طوافون، ﴿عليكم﴾ استئناف يبيّن العذر في
ترك الاستئذان ﴿بعضكم﴾ طائف ﴿على بعض﴾ أو تقديره: يطوف بعضكم على
بعض، أو فيكثرن التردد لحوائجكم، فيفتقر فيهم ما لا يفتقر في غيرهم،
﴿كذلك﴾ مثل ذلك التبیین ﴿يبين الله لكم الآيات والله عليم﴾ بأحوالكم ﴿حكيم﴾
فيما أمركم.

وقال البغوي^(١): قوله تعالى: ﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم﴾، أي:
الاحتلام، يريد الأحرار البالغين ﴿فليستأذنوا﴾، أي: يستأذنون في جميع الأوقات
في الدخول عليكم ﴿كما استأذن الذين من قبلهم﴾ من الأحرار والكبار ﴿كذلك﴾

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٠٢).

يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ﴿٦٠﴾ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴿٦١﴾ بِأُمُورِ خَلْقِهِ ﴿٦٢﴾ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ فِيمَا دَبَّرَ لَهُمْ. قَالَ: وَسئَلُ حَظِيْقَةَ: أَيَسْتَأْذِنُ الرَّجُلُ عَلَى وَالِدَتِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنْ لَمْ يَفْعَلْ رَأَى مِنْهَا مَا يَكْرَهُ.

قوله عز وجل: ﴿٦٠﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦١﴾.

قال البغوي^(١): قوله تعالى: ﴿٦٠﴾ والقواعد يعني اللاتي قعدن عن الولد والحيض من الكبر ﴿٦١﴾ اللاتي لا يرجون نكاحاً، أي: لا يردن الرجال لكبرهن ﴿٦٢﴾ فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن عند الرجال: يعني: يضعن بعض ثيابهن، وهي الجلباب والرداء الذي فوق الثياب والقناع الذي فوق الخمار، والتبرج هو أن تظهر المرأة من محاسنها ما ينبغي لها أن تستره. وعن الشعبي: ﴿٦١﴾ وأن يستعففن خير لهن ﴿٦٢﴾ قال: ترك ذلك، يعني: ترك وضع الثياب.

قوله عز وجل: ﴿٦٣﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُم مَفَاتِحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَحَيَّةٌ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٤﴾.

(١) المصدر السابق (٣/٣٠٣).

قال مجاهد: كان الرجل يذهب بالأعمى أو بالأعرج أو بالمريض إلى بيت أبيه أو أخيه، أو بعض من سمى الله في هذه الآية، فكان الزمنى يتحرّجون من ذلك يقولون: إنما يذهبون بنا إلى بيوت عشيرتهم، فنزلت هذه الآية رخصة لهم^(١).

قال ابن كثير^(٢): وقوله تعالى: ﴿ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم﴾ إنما ذكر هذا وهو معلوم، ليعطف عليه غيره في اللفظ، وليساوي به ما بعده في الحكم، وتضمّن هذا بيوت الأبناء لأنه لم ينصّ عليه، ولهذا استدلّ به من ذهب إلى أن مال الولد بمنزلة مال أبيه، وقد جاء في المسند والسنن من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أنت ومالك لأبيك»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً﴾ قال ابن عباس: «كانوا يأنفون ويتحرّجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره، فرخص الله لهم فقال ﴿ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً﴾. قال ابن كثير^(٤): فهذه رخصة من الله تعالى في أن يأكل الرجل وحده ومع الجماعة، وإن كان الأكل مع الجماعة أبرك وأفضل، كما رواه الإمام أحمد أن رجلاً قال

(١) أخرجه ابن جرير (١٦٩/١٨)، وقيل: لأنهم كانوا يتحرّجون الأكل مع الأعمى؛ لأنه لا يرى الطعام، والأعرج لأنه لا يقدر على الجلوس، والمريض لأنه لا يقدر أن يستوفي الطعام كغيره، فكروا أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم فأنزل الله هذه الآية، وهذا هو قول سعيد بن جبيرة ومقسم، وقيل: لأنهم كانوا يتحرّجون الأكل مع هؤلاء تقدراً وتعزراً ولئلا يتفضلوا عليهم، فأنزل الله هذه الآية، وهذا القول الضحّاك، وهناك أقوال أخر ذكرها ابن جرير في تفسيره فراجعها إن شئت.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٠٥).

(٣) أخرجه ابن ماجه (ح/٢٢٩١) من حديث جابر رضي الله عنه، والطبراني (١٠/٩٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، والطبراني (٧/٢٣٠) من حديث سمرة رضي الله عنه وأحمد (٢/١٧٨ و ١٧٩ و ٢٠٤ و ٢١٤)، وأبو داود (ح/٣٥٣٠)؛ وابن ماجه (ح/٢٢٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه بنحوه، وهو حديث صحيح.

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٠٥).

للنبي ﷺ: إنا نأكل ولا نشبع! قال: «لعلكم تأكلون متفرقين، اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. قال قتادة: إذا دخلت على أهلِكَ فسلم عليهم، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإنه كان يؤمر^(٢) بذلك، وحُذِّثنا أن الملائكة تردّ عليه.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال ابن زيد: الأمر الجامع حين يكونون معه في جماعة الحرب أو جمعة، قال: والجمعة من الأمر الجامع، لا ينبغي لأحد أن يخرج إذا قعد الإمام على المنبر يوم الجمعة، إلاّ بإذن سلطان، إذا كان حيث يراه أو يقدر عليه، ولا يخرج إلاّ بإذن، وإذا كان حيث لا يراه ولا يقدر عليه ولا يصل إليه، فالله أولى بالعذر. وروى أبو داود وغيره عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم، فإذا أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحقّ من الآخرة»^(٣).

(١) أخرجه أحمد (٥٠١/٣)، وأبو داود (٣٧٦٤/ح)، وابن ماجه (٣٢٨٦/ح) من حديث

وحشي بن حرب رضي الله عنه، بسند ضعيف.

(٢) في (الأصل): «يؤموا» وهو خطأ.

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٠/٢ و ٢٨٧ و ٤٣٩)، وأبو داود (٥٢٠٨/ح)، والترمذي (٢٧٠٧/ح)،

وحسنه، والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٦٥/٢ و ٤٦٦)، والطحاوي في «المشكل»

(١٣٩/٢)، وهو حديث صحيح.

قوله عز وجل: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلِيَحْذَرِ الَّذِينَ يخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ .

قال ابن عباس: كانوا يقولون: يا محمد يا أبا القاسم، فنهاهم الله عن ذلك إعظاماً لنبية، قال فقولوا: يا نبي الله يا رسول الله. وقال قتادة في قوله: ﴿قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لوذاً﴾، يعني: لوذاً عن نبي الله وعن كتابه^(١).

وقوله تعالى: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة﴾ قال ابن كثير: أي في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة ﴿أو يصيبهم عذاب أليم﴾، أي: في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك.

قوله عز وجل: ﴿الْآيَاتِ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ .

قال ابن كثير^(٢): «قد» للتحقيق، كما قال قبلها ﴿قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لوذاً﴾ قال ابن جرير^(٣): ﴿ويوم يرجعون إليه﴾ يقول: ويوم يرجع إلى الله الذين يخالفون عن أمره ﴿فينبئهم﴾ يقول: فيخبرهم حينئذ ﴿بما عملوا﴾ في الدنيا ثم يجازيهم على ما أسلفوا فيها من خلافهم ﴿والله بكل شيء عليم﴾ .



(١) واللواذ هو: الروغان بخفية.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٠٧).

(٣) انظر «جامع البيان» (١٨/١٧٩).

الدرس التسعون بعد المائة

﴿سورة الفرقان﴾

مكية، وهي سبع وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ
فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا
يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ
الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أِفْكٌ آفَکَ أَقْرَبَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا
وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا اسْطِيزُ الْآوَلِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً
وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانَ عَافُونَ
رَحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ
إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُوبُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلَقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكْوِينٌ لَهُ جَنَّةٌ
يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَشِيعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ
كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ
شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ

قُصُورًا ﴿١١﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ
 مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٣﴾ وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا صَبِيحًا مُمَرِّينَ دَعَا
 هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٤﴾ لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٥﴾ قُلْ
 أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ؕ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٦﴾
 لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ؕ كَانَ عَلَى رَيْكِ وَعَدَا مَسْئُولًا ﴿١٧﴾ وَيَوْمَ
 يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ؕ أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ
 هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ
 أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٩﴾ فَقَدْ
 كَذَّبْتُمْ بِمَا أَنْفَعْتُمْ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ
 نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَلَّا إِنَّهُمْ
 لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُوا فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً
 أَتَصْبِرُونَ ؕ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢١﴾ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ
 عَلَيْنَا الْمَلَكُوتُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًا كَبِيرًا ﴿٢٣﴾ يَوْمَ
 يَرَوْنَ الْمَلَكُوتَ لَا يُشْرِي بَشَرٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٢٤﴾ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا
 عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٥﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا
 وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ تَشْفَقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمْ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴿٢٧﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ
 الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٨﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ
 يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ يَتَوَلَّى لِيَتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَانَا حِيلًا ﴿٣٠﴾
 لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ؕ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ
 خَدُولًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَذَرُكَ إِنْ قَوْمِي أَخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٢﴾ وَكَذَلِكَ

جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ
تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ
يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سُوءُ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ .

قال ابن زيد في قوله: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ قال: النبي النذير، وقرأ: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ (١) وقرأ: ﴿وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون﴾ (٢). قال: رسل، قال: المنذرون الرسل، قال: وكان نذيراً واحداً بلغ ما بين المشرق والمغرب، ذو القرنين، ثم بلغ السدّين، وكان نذيراً ولم أسمع أحداً بحق أنه كان نبياً. ﴿وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾ (٣) قال: من بلغه القرآن من الخلق فرسول الله نذيره، وقرأ: ﴿يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ (٤) وقال: لم يرسل الله رسولاً إلى الناس عامة إلا نوحاً بدأ به، فكان رسول أهل الأرض كلهم، ومحمد ﷺ ختم به.

قال البغوي (٥): ﴿تبارك﴾ تفاعل، من البركة ﴿الذي نزل الفرقان﴾ أي القرآن ﴿على عبده﴾ محمد ﷺ ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ أي الجن والإنس ﴿الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل﴾

(١) سورة فاطر: الآية ٢٤ .

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢٨ .

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٩ .

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٥٨ .

(٥) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٠٦).

شيء ﴿ مما يطلق عليه صفة المخلوق ﴾ ﴿فقدّره تقديراً﴾ فسوّاه وهياًه لما يصلح له، لا خلال فيه ولا تفاوت. ﴿واتخذوا﴾ يعني عبدة الأوثان ﴿من دونه آلهة﴾ يعني الأصنام ﴿لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً﴾ أي دفع ضرراً ولا جلب نفع ﴿ولا يملكون موتاً ولا حياة﴾ أي إماتة وإحياء ﴿ولا نشوراً﴾ أي بعثاً بعد الموت.

قوله عز وجل: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا اسْتَطِيرُ الْأُولَىٰ ا كَتَبَهَا فِيهِ ثَمَلٌ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾ .

عن ابن جريج ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض﴾ قال: ما يُسرُّ أهل الأرض وأهل السماء.

قوله عز وجل: ﴿ وَقَالُوا مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ يَا كُلُّ الظَّعَامِ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُوبُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُنْفِثَ إِلَيْهِ كَنْزًا أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّتِ تَجْرِي مِّنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ .

قال البغوي^(١): ﴿انظر﴾ يا محمد ﴿كيف ضربوا لك الأمثال﴾ يعني الأشباه فقالوا: مسحور محتاج وغيره ﴿فضلوا﴾ عن الحق ﴿فلا يستطيعون سبيلاً﴾ إلى الهدى ومخرجاً عن الضلالة. وعن مجاهد قوله: ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك

(١) المصدر السابق (٣/٣٠٧).

خيراً ﴿ مما قالوا ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً﴾ قال: بيوتاً مبنية مشيدة. وروى البغوي وغيره عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «عرض عليّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً فقلت: لا يا رب، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً، فإذا جعت تضرّعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك»^(١).

قوله عز وجل: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَبِيحًا مُقِرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ؕ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ؕ كَانَتْ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُورًا ﴿١٦﴾ ۞

قال الضحاك: الثُّبُورُ الهلاك. وعن ابن عباس في قوله: ﴿ لهم فيها ما يشاءون خالدين كان على ربك وعداً مسؤولاً﴾ قال: فسألوا الذي وعدهم وتنجزوه. قال البغوي^(٢): وذلك أن المؤمنين سألوهم في الدنيا حين قالوا: ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك، يقول: كان أعطى الله المؤمنين جنة الخلد وعداً وعدهم على طاعتهم إياه في الدنيا ومسألتهم إياه.

قوله عز وجل: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا

(١) أخرجه أحمد (٢٥٤/٥)، والترمذي (ح/٢٣٤٧)، والطبراني (٢٤٥/٨)، والبغوي في تفسيره (٣٠٨/٣)، بسند ضعيف جداً.

(٢) المصدر السابق (٣٠٩/٣).

الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صِرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يظْلِمِ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ .

عن مجاهد في قوله: ﴿ويوم نحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء؟﴾ قال: عيسى وعزير والملائكة. وعن ابن عباس قوله: ﴿وكانوا قوماً بوراً﴾ يقول: هلكى. وقال الحسن: لا خير فيهم.

وعن مجاهد: فقد كذبوكم بما تقولون ﴿قال: عيسى وعزير والملائكة يكذبون المشركين﴾ فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً ﴿قال: المشركون. قال ابن جريج: لا يستطيعون صرف العذاب عنهم، ولا نصر أنفسهم﴾ ومن يظلم منكم ﴿قال: يشرك﴾ نذقه عذاباً كبيراً ﴿وهذه الآية كقوله تعالى:﴾ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ورُدُّوا إلى الله مولاهم الحق وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ (١).

قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَشْرَبُوا فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَتِيكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَتِيكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ .

(١) سورة يونس: الآية ٢٨.

قال ابن عباس: لما عيّر المشركون رسول الله ﷺ وقالوا: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟ أنزل الله عز وجل هذه الآية، أي ما كنت بدعاً من الرسل، وهم كانوا بشراً يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق.

﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة﴾ قال ابن عباس: أي جعلت بعضكم بلاء لبعض، لتصبروا على ما تسمعون منهم وترون من خلافهم وتتبعوا الهدى.

قال ابن كثير^(١): ﴿وكان ربك بصيراً﴾ أي بمن يستحق أن يوحى إليه، كما قال تعالى: ﴿والله أعلم حيث يجعل رسالته﴾. وقوله تعالى: ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة﴾، أي: فتخبرنا أن محمداً صادق ﴿أو نرى ربنا﴾ فيخبرنا بذلك ﴿لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً يوم يرون الملائكة﴾ عند الموت ويوم القيامة ﴿لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً﴾ قال ابن كثير^(٢): أي وتقول الملائكة للكافرين: حرام محرّم عليكم الفلاح اليوم.

وقوله تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾، أي: باطلاً لا ثواب له، كما قال تعالى: ﴿ومثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد﴾^(٣). وعن ابن عباس قوله: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾ يقول: قالوا في الغرف في الجنة، وكان حسابهم أن عرضوا على ربهم عرضة واحدة، وذلك الحساب اليسير، وهو مثل قوله: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً﴾^(٤).

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣١٣).

(٢) المصدر السابق (٣/٣١٣).

(٣) سورة إبراهيم: الآية ١٨.

(٤) سورة الإنشاق: الآية ٨.

قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَشْقَى السَّمَاءُ بِالْغَمِّمْ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ لَمْ أَخَذْ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ حَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ .

قال ابن عباس: تشقق السماء الدنيا فينزل أهلها، وهم أكثر ممن في الأرض من الجن والإنس، ثم تشقق السماء الثانية فينزل أهلها، وهم أكثر ممن في السماء الدنيا ومن الجن والإنس، ثم كذلك حتى تشقق السماء السابعة، وأهل كل سماء يزيدون على أهل السماء التي قبلها، ثم ينزل الكروبيون ثم حملة العرش. وعن مجاهد قوله: ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام﴾ قال: هو الذي قال: ﴿في ظلل من الغمام﴾ الذي يأتي الله فيه يوم القيامة.

وعن ابن عباس قوله: ﴿ويوم يعض الظالم على يديه﴾ إلى قوله: ﴿فلاناً خليلاً﴾ قال: هو أبي بن خلف كان يحضر النبي ﷺ فزجره عقبة بن أبي معيط. قال ابن كثير^(١): وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط أو غيره من الأشقياء، فإنها عامة في كل ظالم، كما قال تعالى: ﴿يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول﴾^(٢).

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي أَخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ

(١) المصدر السابق (٣/٣١٦).

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٦٦.

تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سُوءَ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ .

قال ابن زيد في قول الله: ﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾ لا يرون أن يسمعه، وإن دُعوا إلى الله قالوا: لا، وقرأ: ﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه﴾^(١) قال: ينهون عنه ويبتعدون عنه. وقال ابن عباس: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين﴾ قال: يوطن محمداً ﷺ أنه جاعل له عدواً من المجرمين كما جعل لمن قبله.

وقوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبتت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً﴾ قال ابن عباس: كان الله ينزل عليه الآية، فإذا علمها نبي الله نزلت عليه آية أخرى، ليعلمه الكتاب عن ظهر قلب ويثبت به فؤاده وعن الحسن في قوله: ﴿ورتلناه ترتيلاً﴾ قال: كان ينزل آية في آيتين وآيات، جواباً لهم إذا سألوا عن شيء، أنزله الله جواباً لهم ورداً عن الشيء فيما يتكلمون به، وكان بين أوله وآخره نحو من عشرين سنة.

وعن ابن جريج ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق﴾ قال: الكتاب بما تردّ به ما جاءوا به من الأمثال التي جاءوا بها ﴿وأحسن تفسيراً﴾. قال ابن عباس: يقول أحسن تفصيلاً.

وقوله تعالى: ﴿الذين يحشرون علىٰ وجوههم إلىٰ جهنم أولئك شرّ مكاناً وأضلّ سبيلاً﴾ في الصحيح عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال: «إن الذي أمشاه علىٰ رجله قادر أن يمشيه علىٰ وجهه يوم القيامة»^(٢).



(١) سورة الأنعام: الآية ٢٦.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٧٦٠)، ومسلم (ح/٢٨٠٦).

الدرس الحادي والتسعون بعد المائة

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾
 فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزَلْنَهُمْ نَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا
 كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا
 أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ
 الْأَمْتَلُ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا السَّوَاءَ
 أَفَلَمْ يَكُونُوا يَكْفُرُونَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا
 يَنْخِذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ
 إِلَهِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينِ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مِنَ
 أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ
 تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ
 سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ
 عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتِ لِبَاسًا
 وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ
 رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا
 خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ
 إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تَطْعَمُ

الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ * وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ
 هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا يَمِلُحٌ أجاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي
 خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا
 وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَيْنِ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾
 وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ
 خَيْرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى
 الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَأَلْ بِهِ خَيْرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا
 الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ *

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا أذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزَلْنَهُمْ نَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيْرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَكُونُوا يَكُونُوا يَكُونُوا يَكُونُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿وأصحاب الرِّس﴾ قال: هي بئر كانت تسمى الرِّس. وقال قتادة: الرِّس قرية من اليمامة يقال لها الفلج ﴿وكلأ ضربنا له الأمثال﴾ قال: كل قد أعذر الله إليه ثم انتقم منه ﴿وكلأ تبرنا تنبيرا﴾ قال البغوي^(١): يعني أهلكتنا إهلاكاً.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَنْخَـذُونَكَ إِلا هُرُورًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُوْلًا ﴿٤١﴾ إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرْوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيْلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيْلًا ﴿٤٤﴾﴾ .

عن ابن جريج قوله: ﴿إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ قال:

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣١٤).

ثبتنا عليها، قال البغوي^(١): يعني لو لم نصبر عليها لصرفنا عنها. انتهى. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب وانطلق الملائمة منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾ قال ابن عباس: أرأيت من ترك عبادة الله وخالفه، ثم هوي حجراً فعبده ما حاله عنده؟ وقال ابن كثير^(٣): ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾، أي: مهما استحسنت من شيء ورآه حسناً في هوى نفسه، كان دينه ومذهبه، كما قال تعالى: ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً﴾.

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿ألم تر إلى ربك كيف مَدَّ الظل﴾ يقول: ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿ولو شاء لجعله ساكناً﴾ يقول: دائماً ﴿ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً﴾ يقول: طلوع الشمس. وقال مجاهد: تحويه ﴿ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً﴾ قال: حوى الشمس الظل.

وقوله تعالى: ﴿وهو الذي جعل لكم الليل لباساً﴾، أي: سترأ تستترون به ﴿والنوم سباتاً﴾ راحة لأبدانكم ﴿وجعل النهار نشوراً﴾ تتشرون فيه لأشغالكم.

(١) المصدر السابق (٣/٣١٤).

(٢) سورة ص: الآيات ٤ — ٦.

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم (٣/٣٢٠).

قوله عز وجل: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنَشْحِيَ بِهِ بِلْدَةَ مِيثَا وَنُشْفِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأُنَاسِي كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ .

قال ابن عباس: ما عام بأكثر مطر من عام، ولكن الله يصرفه بين خلقه ثم قرأ ﴿ ولقد صرفناه بينهم ليذكروا ﴾ . وعن عكرمة ﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾ قال: قولهم في الأنواء.

قوله عز وجل: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا يَمْلِحُ أَجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ .

قال ابن عباس قوله: ﴿ فلا تطع الكافرون وجاهدكم به ﴾ قال: بالقرآن.

وعن مجاهد في قوله: ﴿ مرج البحرين ﴾ أفاض أحدهما على الآخر ﴿ هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً ﴾ قال: لا يختلط البحر بالعذب. وعن الحسن في قوله: ﴿ وجعلنا بينهما برزخاً وحجراً محجوراً ﴾ قال: هذا اليبس.

وقوله تعالى: ﴿ وهو الذي خلق من الماء ﴾، أي: النطف ﴿ بشراً فجعله نسباً ﴾ وهو القرابة ﴿ وصهراً ﴾ وهو الخلطة التي تشبه القرابة ﴿ وكان ربك قديراً ﴾ . وعن الحسن في قوله: ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيراً ﴾ قال: عوناً للشيطان على ربه

على المعاصي. وقال ابن زيد: والظهير العوين، وقرأ قول الله ﴿فلا تكونن ظهيراً للكافرين﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾^(٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾^(٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِرَبِّهِ خَيْرًا﴾^(٥٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾^(٦٠).

قال البغوي^(٢): قوله: ﴿وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً قل ما أسألكم عليه﴾، أي: على تبليغ الوحي ﴿من أجر﴾ فتقولوا إنما يطلب محمد أموالنا ﴿إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ هذا من الاستثناء المنقطع والمعنى: لا أسألكم لنفسي أجراً، ولكن لا أمنع من إنفاق المال في طلب مرضاة الله واتخاذ السبيل إلى جنته.

وقوله تعالى: ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى بذنوب عباده خبيراً﴾ عالماً بصغيرها وكبيرها ﴿الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً﴾ قال مجاهد في قوله: ﴿فاسأل به خبيراً﴾ ما أخبرتك من شيء فهو كما أخبرتك.

وقال ابن جرير^(٣): يقول: فاسأل يا محمد بالرحمن خبيراً بخلقه، فإنه خالق كل شيء ولا يخفى عليه ما خلق.

(١) سورة القصص: الآية ٨٦.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣١٧).

(٣) انظر «جامع البيان» (٢٧/١٩).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟ أَيْ: لا نعرفه ولا نُقَرُّ به، وكانوا ينكرون أن يسمّى الله باسمه الرحمن ﴿أَنْسَجِدَ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾، أَيْ: لمجرد قولك؟ ﴿وَزَادَهُمْ﴾ ذلك ﴿نَفُورًا﴾ عن الدين والإيمان. قال ابن كثير^(١): فأما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم، ويفردونه بالإلهية ويسجدون له.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٢٣).

الدرس الثاني والتسعون بعد المائة

﴿ نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾
 وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾
 وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا
 سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
 اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا
 وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ
 قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ
 إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ^٤ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ وَيَخَلَدْ فِيهِ مُهَانًا^٥ ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا
 فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ^٦ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ
 وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا
 بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْفُوا عَلَيْهَا
 صُمًا وَعُمِيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِن أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ
 أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا
 وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَلَائِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾
 قُلْ مَا يَعْبُؤُنِي آلُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ۞

قوله عز وجل: ﴿ نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا
وَفَكَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ
شُكُورًا ﴿٦٢﴾ .

قال قتادة: البروج النجوم. وعن مجاهد قوله: ﴿ وهو الذي جعل الليل
والنهار خلفه ﴾ قال: هذا يخلف هذا وهذا يخلف هذا ﴿ لمن أراد أن يذَّكَّرَ ﴾ ذاك آية
له ﴿ أو أراد شكوراً ﴾ قال: شكر نعمة ربه عليه فيهما.

قوله عز وجل: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا
خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا
وَقِيَمًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ
غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ
يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ .

عن مجاهد ﴿ يمشون على الأرض هوناً ﴾ قال: بالوقار والسكينة. وعن ابن
عباس قوله: ﴿ الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ بالطاعة والعفاف والتواضع. وقال
ابن زيد: لا يتكبرون على الناس ولا يتجبرون ولا يفسدون، وقرأ قول الله ﴿ تلك
الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة
للمتقين ﴾ .

وعن الحسن ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ قال: حلماء، وإن جهل
عليهم لم يجهلوا.

وقوله تعالى: ﴿ ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً ﴾ قال

البغوي^(١): يعني مُلِحاً دائماً لازماً غير مفارق مَنْ عُدِّبَ به من الكفار ﴿إنها ساءت مستقرّاً ومُقاماً﴾، يعني: بشس موضع قرار وإقامة.

وعن ابن عباس قوله: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قَوَاماً﴾ قال: هم المؤمنون لا يسرفون فينفقوا في معصية الله، ولا يقترون فيمنعون حقوق الله. وعن إبراهيم قوله: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا﴾ قال: لا يجيعهم ولا يعريهم، ولا ينفق نفقة يقول الناس: قد أسرف. وروى الإمام أحمد عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «من فقه الرجل قصده في معيشته»^(٢). وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وكان بين ذلك قَوَاماً﴾، أي: وسطاً عدلاً، وقرىء بكسر القاف، وهو ما تقام به الحاجة.

قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۗ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۗ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ۗ﴾.

عن ابن مسعود قال: «سئل رسول الله ﷺ: أي الذنب أكبر؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قال: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يُطعمَ معك، قال: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك» قال عبد الله: وأنزل الله تصديق ذلك ﴿والذين

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣١٩).

(٢) أخرجه أحمد (٥/١٩٤) بسند ضعيف.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٢٩.

لا يدعون مع الله إلهاً آخر»^(١) الآية. رواه أحمد وغيره. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»^(٢). وقال لقمان لابنه يا بني إياك والزنا، فإن أوله مخافة وآخره ندامة.

وقوله تعالى: ﴿ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً﴾ قال أبو عبيدة: الأثام العقوبة؛ وقال مجاهد: الأثام واد في جهنم. قرأ ابن كثير وحفص فيه بإشباع الكسرة، وقرأ الباقر وغير إشباع كظائرها.

وقوله تعالى: ﴿إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾ قال ابن عباس: ﴿فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾ بالشرك إيماناً، وبالقتل إمساكاً، وبالزنا إحصاناً. وقال سعيد بن المسيب: تصير سيئاتهم حسنات لهم يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً﴾، أي: رجوعاً. قال ابن كثير^(٣): أي فإن الله يقبل توبته، كما قال تعالى: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾^(٤).

قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۖ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۗ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۗ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٧٦١)، ومسلم (ح/٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٦٨٧٨)، ومسلم (ح/١٦٧٦). من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٢٨).

(٤) سورة النساء: الآية ١١٠.

وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا
وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ .

قال ابن جرير^(١) في قوله: ﴿والذين لا يشهدون الزور﴾ لا يشهدون شيئاً من الباطل، لا شركاً ولا غناء ولا كذباً ولا غيره، قال: واللغو في كلام العرب هو كل كلام أو فعل باطل لا حقيقة له، أو ما يُستقبح. وقال ابن كثير^(٢): أي لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به مرّوا ولم يتدنّسوا منه بشيء، ولهذا قال: ﴿وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراماً﴾ .

وقوله تعالى: ﴿والذين إذا ذُكِّروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صمّاً وعمياناً﴾ قال البغوي^(٣): ﴿والذين إذا ذُكِّروا بآيات ربهم لم يخروا﴾ لم يقعوا ولم يسقطوا عليها ﴿صمّاً وعمياناً﴾ كأنهم صمّ عمي، بل يسمعون ما يذكرون به فيفهمونه، ويرون الحق فيه فيتبعونه؛ قال القتيبي: لم يتغافلوا عنها كأنهم صمّ لم يسمعوها وعمي لم يروها.

وقوله تعالى: ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرّة أعين واجعلنا للمتقين إماماً﴾ عن ابن عباس قوله: ﴿هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرّة أعين﴾ يعنون: من يعمل لك بالطاعة فتنمّ بهم أعيناً في الدنيا والآخرة ﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾ يقول: أئمة يقتدى بنا. وقال مجاهد: أئمة نفتدي بمن قبلنا، ونكون أئمة لمن بعدنا.

وقوله تعالى: ﴿أولئك يجزون الغرفة﴾، أي: الدرجة العالية وهي الفردوس أعلا الجنة ﴿بما صبروا﴾ على أمر الله تعالى طاعته ﴿يُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ كما قال تعالى: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم

(١) انظر «جامع البيان» (٤٨/١٩).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٢٩).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٢٢).

عقبى الدار ﴿١﴾. ﴿خالدين فيها حسنت مستقرّاً ومقاماً﴾، أي: موضع قرار وإقامة، كما قال تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً﴾ ﴿٢﴾.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ مَا يَعْجَبُوكُمْ بِكُفْرِي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ ﴿٧٧﴾.

قال ابن كثير^(٣): أي لا يبالي ولا يكثرث بكم إذا لم تعبدوه، فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحّدوه. وقال الضحاك في قوله: ﴿فقد كذّبتم فسوق يكون لزاماً﴾ الكفار كذبوا رسول الله ﷺ وبما جاء به من عند الله ﴿فسوف يكون لزاماً﴾ وهو يوم بدر. وعن ابن عباس ﴿فسوف يكون لزاماً﴾ قال: موتاً. وقال الحسن البصري ﴿فسوف يكون لزاماً﴾، أي: يوم القيامة. وقال ابن كثير^(٤): ﴿فسوف يكون لزاماً﴾، أي: فسوف يكون تكذيبكم لزاماً لكم، يعني: مقتضياً لعذابكم وهلاككم ودماركم في الدنيا والآخرة.



(١) سورة الرعد: الآية ٢٣.

(٢) سورة الكهف: الآية ١٠٧.

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٣٠).

(٤) المصدر السابق (٣/٣٣٠).

الدرس الثالث والتسعون بعد المائة

﴿سورة الشعراء﴾

مكية، وهي مائتان وسبع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طَسَّرَ ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَلِغٌ قَلِيلًا مَلَكُوتَ الْآلَاءِ يَكُونُ
مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنْ كُنَّا نُنزِلُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ
مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُجَدِّدٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَاءَ لِمَنْ أَنْبَتُوا مَا كَانُوا
بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ صَوْغٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ
مُوسَى أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ إِلَّا يَتَّبِعُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ
يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ
فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَعِينُونَ ﴿١٥﴾ فَأَتَا
فِرْعَوْنَ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ تُرَبِّبْ
فِيْنَا وَلِيدًا وَلِئِشْتَ فِيْنَا مِنْ عُمَّرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَقَعَلْتَ فَعَلْتِكَ أَلْتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ
الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي
رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ

فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَيْنَ أَخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُودِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوْلَوْا جِثَّتْ لِسَانِي لَوْلَا أَنَّ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي يَدِي أَوْ أَنِّي ظَاهِرٌ أَوْ أَمِيرٌ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَاتِ بِهِمْ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلِكِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَتِيعْتِ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَا تَوَكَّلْ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّآ نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا أَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُثْلِقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَلَاثٌ مَأْيُوفُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِهَابَهُمْ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَمَّا رَبِّي فَأَنْصِتْ لِلَّهِ ﴿٤٧﴾ رَبِّي مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَأَمْسِرُ لَكُمْ قِبَلِ أَنْ ءَأَذَنَ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِينَ عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَاقِطَةً مِنْ أَيْدِيكُمْ وَأَنْزِلُكُمْ مِنْ خَلْفِ الْأَصْلَابِ كَمَا أَجْمَعِيكَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكُمْ فَتُتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذِهِ لَشَرِّ ذُرِّيَّةٍ لِقَالُوا فَلْيَلْوَكُمْ إِذَا كُنْتُمْ تَخَافُكُمْ وَلَا تَرْجُوا عَذَابَ اللَّهِ وَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِبُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانِ قَالِ أَصْحَابُ

مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ
أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزَلْفْنَا ثُمَّ
الْآخِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَجْمَعْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿طَسَّرَ ۙ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۚ لَعَلَّكَ بَلِغٌ فَنَسَكَ ۙ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۚ﴾ (٣) **﴿١﴾** إِنَّ شَاءَ نَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۚ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۚ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۚ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّمْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زوجٍ كَرِيمٍ ۚ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۚ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۚ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۚ ﴿٩﴾

قال ابن عباس: ﴿باخع نفسك﴾ قاتل نفسك. وقال قتادة: لعلك من الحرص على إيمانهم مخرج نفسك من جسدك.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ شَاءَ نَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ قال قتادة: لو شاء الله لنزل آية يذلون بها، فلا يلوي أحد عنقه إلى معصية الله. وقال ابن كثير^(١): أي لو نشاء لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهراً، ولكن لا نفعل ذلك لأننا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختياري.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ قال البغوي^(٢)، أي: مُحَدِّثٌ إنزاله، فهو محدث في التنزيل. قال الكلبي: كلما نزل شيء من القرآن بعد شيء فهو أحدث من الأول. وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ﴾، أي: أخبار وعواقب ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٣١).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٢٥).

وقوله تعالى: ﴿أَو لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زوجِ كَرِيمٍ﴾، أي: حسن. قال الشعبي: الناس من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لثيم.

وقوله تعالى: ﴿إِن فِي ذَلِكَ﴾، أي: دلالة على قدرة الخالق وتوحيده بالعبادة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِن رِبْكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ قال أبو العالية ﴿العزیز﴾ في نعمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره. وقال سعيد بن جبیر: ﴿الرحيم﴾ بمن تاب إليه وأتاب.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ اتَّبِعْ أَقْوَمَ الطَّلِيمِينَ ﴿١٦﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۗ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٨﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٩﴾ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٢٠﴾ قَالَ كَلَّا فَذُحْبَابًا بِمَا أَنْزَلْنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَعِينُونَ ﴿٢١﴾ فَاتَّبَعَ فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾﴾.

قال البغوي^(١): أي إلى فلسطين، ولا تستعبدهم وكان فرعون استعبدهم أربعمئة سنة، وكانوا في ذلك ستمائة ألف وثلاثين ألفاً، فانطلق موسى إلى مصر، وهارون بها فأخبره بذلك، وصاحت أمهما وقالت: إن فرعون يطلبك ليقتلك، فلو ذهبتما إليه قتلكما، فلم يمتنعا لقولها وذهبا إلى باب فرعون.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ

(١) المصدر السابق (٣/٣٢٦).

رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۗ إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۗ إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لِمَنِ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُودِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوْلَوْجِثُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ ۗ إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٣﴾ .

قال ابن زيد في قوله: ﴿وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين﴾ قال: ربيناك فينا وليداً فهذا الذي كافأنا أن قتلنا من أنفسنا وكفرت نعمتنا؟ ﴿قال فعلتها إذا وأنا من الضالين﴾ قال مجاهد: من الجاهلين. وعن السدي ﴿فوهب لي ربي حكماً﴾ والحكم النبوة. وعن مجاهد ﴿تمئها علي أن عبذت بني إسرائيل﴾ قال: قهرتهم واستعملتهم. وعن السدي ﴿وتلك نعمة تمئها علي أن عبذت بني إسرائيل﴾ وربيتني قبل وليداً!

قال ابن كثير^(١): أي وما أحسنت إلي وربيتني مقابل ما أسأت إلى بني إسرائيل، فجعلتهم عبيداً وخدماً تصرفهم في أعمالك ومشاق رعبتك، أفيتني إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم؟ أي ليس ما ذكرته شيئاً بالنسبة إلى ما فعلت بهم.

﴿قال فرعون وما رب العالمين﴾. يقول: أي شيء رب العالمين الذي تزعم أنك رسوله؟ ﴿قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين﴾ أنه خالقها، أي: إن كانت لكم قلوب موقنة تدلّكم على أن فرعون وغيره لا يخلقون ذلك ﴿قال لمن حوله ألا تستمعون﴾، أي: ألا تعجبون من هذا في زعمه أن لكم إلهاً غيري؟ ﴿قال ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ الذين كانوا قبل فرعون وزمانه ﴿قال

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٣٢).

إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون، أي: ليس له عقل؛ فزاد موسى في البيان: ﴿قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾.

فلما رأى فرعون الحجّة لزمته وانقطعت حجّته، عدل إلى قوته وسلطانه: ﴿قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين قال أو لو جئتك بشيء مبين﴾، أي: أتسجنني وإن أتيتك بحجّة بينة ﴿قال فانت به إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾ يقول: مبين له خلق حية. وقوله: ﴿ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ لمن ينظر إليها ويراها.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْنَيْهِ فِي الدُّنْيَا خَشِيشِينَ ﴿٣٦﴾ يَا تُورَكُ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لَيْقَتِ يَوْمَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَمَلْنَا نَبْحَ السَّحَرَةِ إِنْ كَانُوا هُمْ الْفَالِغِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأْجُرُكَ إِنَّا لَنُحِبُّ الْفَالِغِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِجَابَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْفَالِغُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْفَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْفَى السَّحَرَةُ سُدُجِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ءَأَمْنَا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَأَمْسُرُ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ ءَأْذَنَ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا قُطْعَانَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا أُصْلِبَنَّاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ لَنَا إِنَّا رِبَّانَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾.

كان فرعون لعنه الله وقحاً جريئاً، فلما غلب وانقلب صاعراً عدل إلى المكابرة والعناد فقال: ﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾ وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، ثم توعدهم بقطع الأيدي والأرجل والصلب فقالوا: ﴿لا ضير﴾، أي: لا يضرنا ذلك ولا نبالي به: ﴿إننا إلى

ربنا منقلبون»، أي: المرجع إلى الله عزّ وجلّ، ولا يخفى عليه ما فعلت بنا ﴿إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين﴾، أي: بسبب أننا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان بالله وآياته وتصديق رسله، فقتلهم كلهم.

﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَارْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَقْنَا نَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَخْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَطَوَّى الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾.

قال ابن كثير^(١): لما طال مقام موسى عليه السلام ببلاد مصر، وأقام بها حجج الله وبراهينه على فرعون وملئه، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال، فأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يخرج بني إسرائيل ليلاً من مصر، وأن يمضي بهم حيث يؤمر، ففعل موسى عليه السلام ما أمره به ربه عز وجل.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٣٥).

وقوله تعالى: ﴿فَأرسل فرعون في المدائن حاشرين﴾ ليجمعوا له الجند، وقال: ﴿إن هؤلاء﴾ يعني بني إسرائيل ﴿لشرذمة﴾ طائفة ﴿قليلون﴾ قال أبو عبيدة: كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً ﴿وإنهم لنا لغائظون﴾، أي: كل وقت يصل إلينا منهم ما يغيظنا ﴿وإننا لجميع حاذرون﴾، أي: مستعدون، وإني أريد أن أهلكهم، فخرجوا في طلبهم، قال الله تعالى: ﴿فأخرجناهم من جنات﴾، أي: بساتين ﴿وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بني إسرائيل فاتبعوهم مشرقين﴾، أي: لحقوهم في وقت إشراق الشمس ﴿فلما تراءى الجمعان﴾، أي: تقابلا ورأى بعضهم بعضاً: ﴿قال أصحاب موسى إنا لمدركون﴾، أي: سيدركنا قوم فرعون ولا طاقة لنا بهم ﴿قال﴾ موسى ثقة بوعد الله إياه ﴿كلاً﴾ لن يدركونا ﴿إن معي ربي سيهدين﴾ يدلني على طريق النجاة ﴿فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر﴾ فضربه ﴿فانفلق﴾، أي: انشق ﴿فكان كل فرق كالتود العظيم﴾، أي: كالجبل الكبير. قال ابن عباس: صار البحر اثني عشر طريقاً لكل سبط طريق.

وقوله تعالى: ﴿وأزلفنا ثم﴾، أي: قربنا هنالك ﴿الآخرين﴾ قال قتادة: هم قوم فرعون قربهم الله حتى أغرقهم في البحر ﴿وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين﴾ قال السدي: ودنا فرعون وأصحابه من البحر بعد ما قطع موسى ببني إسرائيل البحر، فلما نظر فرعون إلى البحر منفلقاً قال: ألا ترون البحر فرق مني؟ قد تفتح لي حتى أدرك أعدائي فأقتلهم، فذلك قول الله: ﴿وأزلفنا ثم الآخرين﴾ يقول: قربنا ثم الآخرين هم آل فرعون، فلما قام فرعون على الطرق وأبت خيله أن تقتحم، فنزل جبرائيل عليه السلام على ماذيانه، فتشامت الحصن ريح الماذيانه، فاقتحمت في أثرها، حتى إذا هم أولهم أن يخرج ودخل آخرهم، أمر البحر أن يأخذهم، فالتطم عليهم، وتفرد جبريل بمقلة من مقل البحر فجعل يدسها في فيه. وقال بكر بن عبد الله: أقبل فرعون، فلما أشرف على الماء قال أصحاب موسى: يا مكلم الله إن القوم يتبعوننا في الطريق، فاضرب بعصاك البحر فأخلطه، فأراد موسى أن يفعل فأوحى الله إليه: أن اترك البحر رهواً إنهم جند

مغرقون، إنما أمكر بهم فإذا سلكوا طريقكم أغرقتهم، قال: فلما انتهى فرعون إلى وسط البحر أوحى الله إلى البحر: خذ عبدي الظالم وعبادي الظلمة، فتعظمت تلك الفرق من الأمواج كأنها الجبال وضرب بعضها بعضاً ﴿فلما أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾ فقيل له: ﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين فالיום ننجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾.

وقوله تعالى: ﴿إن في ذلك﴾، أي: إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين ﴿لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾.



الدرس الرابع والتسعون بعد المائة

﴿ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۖ قَالُوا نَعْبُدُ
أَصْنَامًا فَنظَّلْهَا عَلَكِبَإِينَ ۖ قَالِ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ۖ أَوْ يَبْغُونَكَ أَوْ
يَضُرُّونَ ۖ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۖ قَالِ أفرمَ بَشَرًا مَّا كُنْتُمْ
تَعْبُدُونَ ۖ أَنْتُمْ وءَابَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۖ
الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۖ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۖ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ
يَشْفِينِ ۖ وَالَّذِي يُعِثِّنِي ثُمَّ يُمِتِّنِي ۖ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ
الَّذِينَ ۖ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقِي بِالصَّالِحِينَ ۖ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ
صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ۖ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ۖ وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ
الضَّالِّينَ ۖ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۖ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۖ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ
بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۖ وَأَزَلِّتِ الْجَنَّةَ لِلْمُنْفِقِينَ ۖ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۖ وَقِيلَ لَهُمْ أَنْ مَا
كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۖ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ۖ فَكَبَّكِبُوا فِيهَا هُمْ
وَالْغَاوُونَ ۖ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۖ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۖ تَأَلَّوْا لِي أَنَّ كُنَّا لِنَفِي
ضَلَّلِ مُبِينٍ ۖ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ۖ فَمَا لَنَا
مِنْ شَافِعِينَ ۖ وَلَا صِدْقٍ حَمِيمٍ ۖ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۖ ﴿

قوله عز وجل: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَافِئِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ .

قال البغوي^(١): قوله: ﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم إذا قال لأبيه وقومه ما تعبدون﴾ أي شيء تعبدون ﴿قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عافيين﴾، يعني: نقيم على عبادتها قال: ﴿هل يسمعونكم﴾، أي: هل يسمعون دعاءكم إذ تدعون قال ابن عباس: يسمعون لكم أو ينفعونكم أو يضررون إن تركتم عبادتها ﴿قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ معناه: أنها لا تسمع قولاً ولا تجلب نفعاً ولا تدفع ضرراً لكن اقتدينا بآبائنا وفيه إبطال التقليد في الدين انتهى ملخصاً.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِيقِي بِالصِّدْقِ بِالصِّدْقِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ لِأَيِّبَاتِي إِنَّكَ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ .

قال ابن جرير^(٢): ومعنى الكلام: أفرايتم كل معبود لكم ولآبائكم، فإني

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٣٢).

(٢) انظر «جامع البيان» (١٩/٨٤).

منه بريء لا أعبده ﴿إلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ الذي خلقني فهو يهدين ﴿لِلصَّوَابِ﴾ من القول والعمل ويسدوني للرشاد ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعَمُنِي وَيَسْقِينِي﴾ يقول: والذي يغذوني بالطعام والشراب ويرزقني الأرزاق. ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي﴾ يقول: وإذا سقم جسمي واعتلّ فهو يبرئني ويعافيني ﴿وَالَّذِي يَمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي﴾ يقول: والذي يميتني إذا شاء ثم يحييني إذا أراد بعد مماتي ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ فربّي هذا الذي بيده نفعي وضرّي، وله هذه القدرة والسلطان، وله الدنيا والآخرة، لا الذي لا يسمع إذا دعيت ولا ينفع ولا يضر. انتهى.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ قال ابن عباس: معرفة حدود الله وأحكامه ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ قال ابن كثير^(١): أي اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة، كما قال النبي ﷺ عند الاحتضار: «اللهم في الرفيق الأعلى»^(٢).

وعن عكرمة قوله: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾. وقوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ قال: إن الله فضله بالخلة حين اتخذه خليلاً، فسأل الله فقال: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ حتى لا تكذبني الأمم، فأعطاه الله ذلك، فإن اليهود آمنت بموسى وكفرت بعبسى، وإن النصارى آمنت بعبسى وكفرت بمحمد عليهم الصلاة والسلام، وكلّهم يتولّى إبراهيم، قالت اليهود: وهو خليل الله وهو منا، فقطع الله ولايتهم منه بعد ما أقرّوا له بالنبوة وآمنوا به فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٣) ثم ألحق ولايته بكم فقال: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤) فهذا خيره الذي عجل له، وهي

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٤٣٦ و ٤٤٣٧ و ٤٤٣٨ و ٤٤٦٣).

(٣) سورة آل عمران: الآية ٦٧.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٦٨.

الحسنة إذ يقول: ﴿وَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ وهو اللسان الصدق الذي سأله ربه .

وقوله: ﴿واجعلني من ورثة جنة النعيم﴾ قال البغوي^(١): أي ممن تعطه جنة النعيم . وقال ابن كثير^(٢): أي أنعم عليّ في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدي، وفي الآخرة بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم .

وقوله: ﴿واغفر لأبي إنه كان من الضالّين﴾ وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلاّ عن موعدة وَعَدَّهَا إِتَاءَهُ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾^(٣).

وقوله: ﴿ولا تخزني يوم يبعثون﴾، أي: أجزني من الخزي يوم القيامة ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم﴾ قال قتادة: سليم من الشرك . وقال مجاهد ليس فيه شك في الحق؛ وفي الدعاء المأثور: «اللهم إني أسألك قلباً سليماً ولساناً صادقاً ونفساً مطمئنة»^(٤).

قوله عز وجل: ﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٦﴾ وَبُرُزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿١٧﴾ وَقِيلَ لَهُمْ آيَنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١٨﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩﴾ فَكَبِكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٢٠﴾ وَخُنُودٌ أَيْلِسَ آجْمَعُونَ ﴿٢١﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٢٢﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِذْ سَأَلْتُم مَّرِيضًا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ ﴿٢٥﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿٢٦﴾ وَلَا صَاحِبِي حَمِيمٍ ﴿٢٧﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٣٠﴾ .

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٣٣).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٣٣).

(٣) سورة التوبة: الآية ١١٤ .

(٤) أخرجه أحمد (٤/١٢٣) و (١٢٥)، والترمذي (ح/٣٤٠٧) من حديث شداد بن أوس نحوه،

وفي سنده ضعف .

يقول تعالى: ﴿وأزلفت الجنة﴾، أي: قرّبت وأدليت ﴿للمتقين وأبرزت الجحيم﴾، أي: أظهرت ﴿لِلْغَاوِينَ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ؟﴾ قال ابن كثير^(١): أي ليست الآلهة التي عبدتموها من دون الله من تلك الأصنام والأنداد تغني عنكم اليوم شيئاً، ولا تدفع عن أنفسها، فإنكم وإياها اليوم حسب جهنم أنتم لها واردون.

وقوله تعالى: ﴿فكذبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون﴾ قال الزجاج: طرح بعضهم على بعض ﴿قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسوئكم برب العالمين﴾، أي: نعدلكم به فنعبدكم معه ﴿وما أضلنا إلا المجرمون﴾ قال الكلبي: إلا أولونا الذين اقتدينا بهم ﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾، أي: قريب. قال قتادة: يعلمون والله أن الصديق إذا كان صالحاً نفع، وأن الحميم إذا كان صالحاً نفع. وعن جابر بن عبد الله قال: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «إن الرجل ليقول في الجنة: ما فعل صديقي فلان؟ وصديقه في الجحيم، فيقول الله تعالى: أخرجوا له صديقه إلى الجنة، فيقول من بقي: ﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾»^(٢). رواه البغوي ﴿فلو أن لنا كرة﴾، أي: رجعة إلى الدنيا ﴿فنكون من المؤمنين﴾ لأنهم يشفعون وتنفعهم الشفاعة، وأما الكفار فلا تنفعهم شفاعة الشافعين.

وقوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ قال ابن كثير^(٣): أي أن في محاكاة إبراهيم لقومه وإقامة الحجج عليهم في التوحيد، لآية واضحة جليلة على أنه لا إله إلا الله ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ قال البغوي^(٤): ﴿العزيز﴾ الذي لا يُغْلَبُ، فالله عزيز وهو في وصف عزته رحيم.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٣٩).

(٢) أخرجه البغوي في تفسيره (٣/٣٣٤) بسند ضعيف.

(٣) المصدر السابق (٣/٣٤٠).

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٣٤).

الدرس الخامس والتسعون بعد المائة

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْقُوتَ ﴿١٠٦﴾ إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٠﴾ ﴾ قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَنْ نَمُوتَ بِتَنَاهٍ يَنْبُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنْ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَأَفْضَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحَا وَبَحِثِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَجْبَيْتُهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَاحِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نَنْقُوتَ ﴿١٢٤﴾ إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَابِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ ﴿١٣٣﴾ وَحَنَّتِ وَعُيُونِ ﴿١٣٤﴾ إِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ

لَهُمْ أَجْرُهُمْ صَلَاحٌ أَلَّا يَنْفَقُونَ ﴿١٤١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٤٣﴾ وَمَا
 أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٤﴾ أَتُزَكُّونَ فِي مَا هَاهُنَا
 آمَنِينَ ﴿١٤٥﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٦﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٧﴾ وَتَنَحُّوتَ
 مِنْ أَلْجَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٤٩﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥٠﴾
 الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥١﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٢﴾ مَا أَنْتَ
 إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٣﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ
 وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٤﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسَوْءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٥﴾
 فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٦﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
 أَكْثَرَهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهْوُ الْعَرِيزِ الرَّحِيمِ ﴿١٥٨﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ
 الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٠﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦١﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ
 وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٦٢﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾ أَتَأْتُونَ
 الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُعْقِلُونَ ﴿١٦٥﴾ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ
 عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهَ بِلُوطٍ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ
 الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ بِنِعْمِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي
 الْغَدِيرِ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي
 ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرَهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهْوُ الْعَرِيزِ الرَّحِيمِ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَابُ
 لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ
 وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا
 الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا
 النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْحِجْلَةَ

الْأُولَىٰ ﴿١٨٥﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ
الْكَذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّ
أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُم عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوا أَنْزَمْنَا لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُنَا إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْشُرْ لَكُمْ مِنَ الْمَرْجُمِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنْ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَأَفْطَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَجْبِئْهُمْ وَمَنْ مَعَهُمْ فِي الْفَلَاحِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ۞ .

قيل للحسن البصري: يا أبا سعيد أرايت قوله: ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾ و ﴿ كذبت عاد المرسلين ﴾ و ﴿ كذبت ثمود المرسلين ﴾، وإنما أرسل إليهم رسول واحد؟! قال: إن الآخر جاء بما جاء به الأول، فإذا كذبوا واحداً فقد كذبوا الرسل أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿ إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ﴾؟ قال البغوي^(١): أخوهم في النسب لا في الدين.

وقوله تعالى: ﴿ قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾ يعنون: السفلة ﴿ قال وما علمي بما كانوا يعملون ﴾ قال البغوي^(٢): أي ما أعلم أعمالهم وصنائعهم،

(١) انظر معالم التنزيل، (٣/٣٣٥).

(٢) المصدر السابق (٣/٣٣٥).

وليس عليّ من دناءة مكاسبهم وأحوالهم شيء، إنما كلّفت أن أدعوهم إلى الله ولي منهم ظاهر أمرهم ﴿إِنْ حَسَابِهِمْ﴾ ما حسابهم ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ لو تعلمون ذلك ما عبتموهم بصنائعهم. قال الزجاج: الصناعات لا تضرّ في الديانات. وعن ابن جريج قوله: ﴿إِنْ حَسَابِهِمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ قال: هو أعلم بما في نفوسهم. وعن قتادة في قوله: ﴿فافتح بيني وبينهم فتحاً﴾ قال: فاقض بيني وبينهم قضاء.

وقوله تعالى: ﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون﴾ قال ابن عباس: يعني الموقر، قال البغوي^(١): الموقر المملوء من الناس والطير والحيوان كلها. ﴿ثم أغرقنا بعد الباقي﴾ أي أغرقنا بعد إنجاء نوح وأهله من بقي من قومه ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

قوله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ آلَا نُنْفُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَنْبُونَ بِكُلِّ رِيحٍ ءَأَيَّةٌ تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِاتِّعَامِ رَبِّكُمْ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أُوَعِّظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿أتنبون بكل ريح آية تعبثون﴾ قال: بكل طريق،

(١) المصدر السابق (٣/٣٣٥).

وقال: الآية عامة. ﴿تعبثون﴾ قال: تلعبون. وعن قتادة في قوله: ﴿مصانع﴾ قال: مأخذ للماء. وعن ابن عباس قوله: ﴿لعلكم تخلدون﴾ يقول: كأنكم تخلدون.

وقوله: ﴿وإذا بطشتم﴾ قال البغوي^(١): أخذتم وسطوتم ﴿بطشتم جبارين﴾ قتلاً بالسيف وضرباً بالسوط، والجبار الذي يقتل ويضرب على الغضب.

وقوله تعالى: ﴿قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين إن هذا إلاّ خلق الأولين وما نحن بمعذبين﴾ عن ابن عباس قوله: ﴿إن هذا إلاّ خلق الأولين﴾ يقول: دين الأولين. وقال قتادة: هكذا خلقة الأولين، وهكذا كانوا يحيون ويموتون. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه لما رأى ما أحدث المسلمون في الغوطة من البنيان ونصب الشجر، قام في مسجدهم فنادى: «يا أهل دمشق، فاجتمعوا إليه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ألا تستحيون، ألا تستحيون؟ تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تدركون! إنه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون، وبينون فيوثقون، ويأملون فيطيلون، فأصبح أملمهم غروراً وأصبح جمعهم بوراً وأصبحت مساكنهم قبوراً، ألا أن عاداً ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً، فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين»^(٢)؟ رواه ابن أبي حاتم.

قوله عز وجل: ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٤٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥٠﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هُنَّآءَ آمِنِينَ ﴿١٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥٢﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْمُهَا هُضِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَتَنَجِّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَوتَا فَرِهِينَ ﴿١٥٤﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٥٥﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي

(١) المصدر السابق (٣/٣٣٦).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٣/٣٤١)، والبيهقي في الشعب

(٧/٣٩٨).

الْأَرْضِ وَلَا يُصَلِّحُونَ ﴿١٥٧﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٨﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ
بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٩﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ
مَعْلُومٍ ﴿١٦٠﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٦١﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا
نَادِمِينَ ﴿١٦٢﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٦٣﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٤﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿ونخل طلعتها هضيم﴾ يقول: أينع وبلغ فهو هضيم.
وقال عكرمة: الهضيم الرطب اللين.

وقوله: ﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين﴾ قال أبو صالح: حاذقين
بنحتها. وعن ابن عباس في قوله: ﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين﴾ يقول:
أشرين.

وقوله تعالى: ﴿قالوا إنما أنت من المسحورين﴾ قال مجاهد: من المسحورين
﴿ما أنت إلا بشر مثلنا فات بآية إن كنت من الصادقين﴾ واقترحوا عليه أن يخرج
لهم ناقة عشاء من هذه الصخرة، فقام نبي الله صالح عليه السلام فصلّى ثم دعا
الله عز وجل، فانفطرت تلك الصخرة عن ناقة عشاء فآمن بعضهم وكفر أكثرهم،
﴿قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾ يعني تردّ ماءكم يوماً ويوماً
تردونه أنتم ﴿ولا تمسوها بسوء فياخذكم عذاب يوم عظيم فعقروها فأصبحوا
نادمين فأخذهم العذاب﴾ رجفت بهم أرضهم وأخذتهم الصيحة من فوقهم
فأصبحوا في ديارهم جائمين ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك
لهو العزيز الرحيم﴾ .

قوله عز وجل: ﴿كذبت قوم لوط المرسلين﴾ ﴿١٦٦﴾ إذ قال لهم آخوهم لوطُ ألا
نتقون ﴿١٦٧﴾ إني لكم رسول أمين ﴿١٦٨﴾ فأنقوا الله وأطيعون ﴿١٦٩﴾ وما أسألكم عليه من أجرٍ
إن أجرى إلا على ربّ العالمين ﴿١٧٠﴾ أتأتون الذكّران من العالمين ﴿١٧١﴾ وتذرون ما خلق

لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ
 الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَجَنَيْنَاهُ
 وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا
 فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
 الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ .

قال ابن كثير^(١): لما نهاهم نبي الله عن ارتكاب الفواحش وغشيانهم الذكور، وأرشدهم إلى إتيان نسائهم اللاتي خلقهن الله لهم، ما كان جوابهم إلا أن ﴿قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين﴾ أي نفيك من بين أظهرنا، فلما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه وأنهم مستمرّون على ضلالتهم تبرأ منهم و ﴿قال إني لعملك من القالين﴾ أي المبغضين لا أحبه ولا أرضى به، وإني بريء منكم ثم دعا الله عليهم فقال: ﴿رب نجني وأهلي مما يعملون﴾ قال الله تعالى: ﴿فجنيناه وأهله أجمعين﴾ أي كلهم ﴿إلا عجوزاً في الغابرين﴾ وهي امرأته وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت مع من بقي من قومها، كما أخبر الله عنهم في سورة هود وغيرها.

قوله عز وجل: ﴿كذَّبَ أَحْصَبُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا
 تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ
 إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا
 بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾
 وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَى ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ
 إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَطْنُكَ لِمِنَ الْكَذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ
 كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، (٣/٣٤٤).

يَوْمِ الظَّلَّةِ إِنَّكُمْ كَانَتْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ .

قال ابن عباس قوله: ﴿كذب أصحاب الأيكة﴾ قال: أهل مدين، والأيكة: الملتقى من الشجر. وقال ابن زيد: الأيكة الشجر؛ بعث الله شعيباً إلى قومه من أهل مدين وإلى أهل البادية. وعن مجاهد قوله: ﴿والجبل الأولين﴾ قال: الخليفة.

وقال البغوي^(١): قوله: ﴿قالوا إنما أنت من المسحورين وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين قال ربي أعلم بما تعملون﴾ من نقصان الكيل والوزن، وهو مجازيكم بأعمالكم وليس العذاب إليّ، وما عليّ إلا الدعوة، فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة ﴿إنه كان عذاب يوم عظيم﴾. قال ابن جريج: لما أنزل الله عليهم أول العذاب أخذهم منه حرّ شديد، فرفع الله لهم غمامة، فخرج إليها طائفة منهم ليستظلوا بها، فأصابهم منها روح وبرد وريح طيبة، فصبّ الله عليهم من فوقهم من تلك الغمامة عذاباً، فذلك قوله: ﴿عذاب يوم الظلة﴾.

وقوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ أي ﴿العزیز﴾ في انتقامه من الظالمين ﴿الرحيم﴾ بعباده المؤمنين.



(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٣٩).

الدرس السادس والتسعون بعد المائة

﴿ وَإِنَّكُمْ لَنَزِيرٌ لِّرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّكُمْ لَفِي زُجْرٍ الْأُولِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُؤُنَا مِنِّي إِسْرَافِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَبِّتَ إِن مَّتَّعْنَاهُم سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرِيْبَةٍ إِلَّا مَا مُنْذَرُونَا ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا نُنزِّلُ بِهِ الشَّيْطَانُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ابْتَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِن عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرِنَكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيْطَانُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ .

قوله عز وجل: ﴿ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٦﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٧﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٨﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٩﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأُولِينَ ﴿٢٠٠﴾ أَوْ لَوْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٠١﴾ ۝ .

عن قتادة: ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ﴾ قال: هذا القرآن ﴿ نزل به الروح الامين ﴾ قال: جبريل.

وقوله تعالى: ﴿ وإنه لفي زبر الاولين ﴾، أي: ذكر إنزال القرآن على محمد موجود في كتب الاولين المأثورة عن انبيائهم. ﴿ أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ﴾ قال مجاهد: عبد الله بن سلام وغيره من علمائهم.

قوله عز وجل: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿٢٠٢﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٠٣﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٤﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ حَتَّىٰ يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠٥﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٦﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٧﴾ أَفِعْدَابِنَا يُسْتَعْمِلُونَ ﴿٢٠٨﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٩﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢١٠﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴿٢١١﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ إِلَّا هَا مُنذِرُونَ ﴿٢١٢﴾ ذِكْرًا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢١٣﴾ ۝ .

قال ابن كثير^(١): ثم قال تعالى مخبراً عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن: أنه لو نزل على رجل من الأعاجم ممن لا يدري من العربية كلمة، وأنزل عليه هذا الكتاب بيانه وفصاحته لا يؤمنون به، ولهذا قال: ﴿ نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين كذلك سلكناه ﴾ قال ابن عباس: أدخلنا الشرك والتكذيب في قلوب المجرمين.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٤٨).

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾؟ قال البغوي^(١): «أَيُّ لَنْؤُنٍ وَنَصْدَقٍ، يَتَمَنُّونَ الرَّجْعَةَ وَالنَّظْرَةَ. قَالَ مِقَاتِلٌ: لَمَّا أَوْعَدَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْعَذَابِ قَالُوا: إِلَىٰ مَتَىٰ تَوَعَدُنَا بِالْعَذَابِ، وَمَتَىٰ هَذَا الْعَذَابُ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفْبَعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾؟»

وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ﴾. قال البغوي^(٢): «وَالْمَعْنَىٰ أَنَّهُمْ وَإِنْ طَالَ تَمَتُّعُهُمْ بِنَعِيمِ الدُّنْيَا، فَإِذَا أَتَاهُمُ الْعَذَابُ لَمْ يَغْنِ عَنْهُمْ طَوْلُ التَّمَتُّعِ شَيْئاً، وَيَكُونُونَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا فِي نَعِيمٍ قَطُّ. قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ^(٣): وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «يُؤْتَىٰ بِالْكَافِرِ فَيُغْمَسُ فِي النَّارِ غَمْسَةً ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ خَيْراً قَطُّ؟ هَلْ رَأَيْتَ نَعِيماً قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ. وَيُؤْتَىٰ بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْساً كَانَ فِي الدُّنْيَا، فَيَصْبَغُ فِي الْجَنَّةِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ بُؤْساً قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ»^(٤)، أَيُّ: مَا كَأَنَّ شَيْئاً كَانَ.

ثم قال تعالى مخبراً عن عدله في خلقه: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذَرُونَ ذِكْرَىٰ﴾ قال البغوي^(٥): «أَيُّ رَسَلٍ يَنْذِرُونَهُمْ تَذَكُّرَةً، وَقِيلَ: مَحَلُّهَا رَفَعُ أَيُّ تِلْكَ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ فِي تَعْذِيبِهِمْ، حَيْثُ قَدَّمْنَا الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَعْذَرْنَا إِلَيْهِمْ.»

قوله عز وجل: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿٢١٦﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴿٢١٨﴾ فَلَا نَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٤١).

(٢) المصدر السابق (٣/٣٤١).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٤١).

(٤) أخرجه بنحوه مسلم (ح/٢٨٠٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٥) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٤١).

مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرِيكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلِّبَكَ فِي السَّجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أَتَيْتُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ .

عن قتادة في قوله: ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾ قال: هذا القرآن.

وفي قوله: ﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾ قال: عن سمع السماء.

وقوله تعالى: ﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يحذر به غيره يقول: أنت أكرم المخلوق عليّ، ولو اتخذت إلهاً غيري لعذبتك. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وأندر عشيرتك الأقربين﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فعمّ وخصّ فقال: «يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً، إلا أن لكم رجماً سابلها ببلالها»^(١). رواه مسلم وغيره.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾ يقول:

لن لهم.

وقوله تعالى: ﴿فإن عصوك فقل إنني بريء مما تعملون﴾، أي: من الشرك والمعاصي. وروى ابن عساكر في ترجمة عبد الواحد الدمشقي قال: رأيت أبا الدرداء رضي الله عنه يحدث الناس ويفتيهم، وولده إلى جنبه وأهل بيته جلوس في جانب المسجد يتحدثون، فقيل له: ما بال الناس يرغبون فيما عندك من العلم، وأهل بيتك جلوس لاهين؟ فقال: لأنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ازهد

(١) أخرجه مسلم (ح/٢٠٤)، وقوله: «سابلها ببلالها»، أي: سألها ولن أقطعها.

الناس في الدنيا الأنبياء، وأشدّهم عليهم الأقربون»^(١)، وذلك فيما أنزل الله عزّ وجلّ قال تعالى: ﴿وأنذر عشيرتَك الأقربين﴾ إلى قوله: ﴿فقل إني بريء مما تعملون﴾.

وقوله تعالى: ﴿وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم وتقلّبك في الساجدين﴾، أي: المصلّين. قال عكرمة: قائماً وساجداً وراكعاً وجالساً. وقال قتادة: يراك وحدك ويراك في الجمع. وقوله تعالى: ﴿إنه هو السميع العليم﴾، أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم، كما قال تعالى: ﴿وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تُفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين﴾؟ هذا جواب قول المشركين: إن الشياطين يلقون القرآن على لسان محمد، فقال تعالى: ﴿وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون﴾، ثم أخبر أنهم إنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة فقال: ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفك أئيم﴾، أي: كذاب فاجر. قال قتادة: هم الكهنة، تسترق الجنّ السمع ثم يأتون به إلى أوليائهم من الإنس.

وقوله تعالى: ﴿يلقون السمع وأكثرهم كاذبون﴾ قالت عائشة: الشياطين تسترق السمع، فتجيء بكلمة حق فيقذفها في أذن وليه، ويزيد فيها أكثر من مائة كذبة.

(١) أخرجه ابن عساكر كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٣/٣٥٢)، والسيوطي في الدرر (١٨٢/٥) بسند موضوع، وقع في تفسير ابن كثير: (عمرو بن سمرة)، وهو خطأ، والصواب: عمرو بن شمر.

(٢) سورة يونس: الآية ٦١.

قوله عز وجل: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ .

قال ابن جرير^(١): يقول تعالى ذكره: ﴿والشعراء يتبعهم﴾ أهل الغي لا أهل الرشاد والهدى. وقال مجاهد: يتبعهم الشياطين. وعن ابن عباس: ﴿ألم تر أنهم في كل واد يهيمون﴾ يقول: في كل لغو يخوضون. وقال قتادة: يمدحون قوماً بباطل ويشتمون قوماً بباطل.

وقوله تعالى: ﴿وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ قال البغوي^(٢): أي يكذبون في شعرهم، يقولون: فعلنا وفعلنا وهم كذبة. وعن ابن عباس: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً﴾ في كلامهم ﴿وانتصروا من بعد ما ظلموا﴾ قال: يردون على الكفار الذين كانوا يهجون المؤمنين. وروى البغوي عن كعب بن مالك أنه قال للنبي ﷺ: إن الله قد أنزل في الشعر ما أنزل، فقال النبي ﷺ: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكان ما ترمونهم به نضح النبل»^(٣). وعن أنس أن النبي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وابن رواحة يمشي بين يديه ويقول:

خَلُّوا بني الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهمام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

فقال له عمر: يا ابن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ، وفي حرم الله تقول الشعر؟! فقال النبي ﷺ: «خَلَّ عنه يا عمر، فلهي أسرع فيهم من نضح

(١) انظر «جامع البيان» (١٩/١٢٦).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (١٩/٣٤٤).

(٣) أخرجه أحمد (٦/٣٨٧) بسند صحيح.

النبيل»^(١). قال ابن كثير^(٢): وقوله تعالى: ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ كقوله تعالى: ﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»^(٣). قال قتادة بن دعامة في قوله تعالى: ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾، يعني: من الشعراء وغيرهم. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كتب أبي في وصيته سطرين: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبي قحافة عند خروجه من الدنيا، حين يؤمن الكافر وينتهي الفاجر ويصدق الكاذب، إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن يعدل فذاك ظني به ورجائي فيه، وإن يجرؤ يبدل فلا أعلم الغيب» ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾^(٤). رواه ابن أبي حاتم والله أعلم.



(١) أخرجه الترمذي (ح/٢٨٤٧) وقال: حسن صحيح، ومن طريقه البغوي في تفسيره (٣/٣٤٥)، وأخرجه النسائي (٥/٢٠٢ - ٢٠٣)، بسند صحيح. إلا أن الترمذي قال: «وروي في غير هذا الحديث أن النبي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء، وكعب بن مالك بين يديه، وهذا أصح عند بعض أهل الحديث لأن عبد الله بن رواحة قتل يوم مؤتة، وإنما كانت عمرة القضاء بعد ذلك».

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٥٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٧٨) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/٣٢٩).

الدرس السابع والتسعون بعد المائة

﴿سورة النمل﴾

مكية، وهي ثلاث وتسعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينَتًا لَمْ أَصْلَحْهُمْ فهُمْ يَعَٰمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ سُهُورُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسِرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَنَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ ائْتُوا بِزِينَتِكُمْ يَا مَعْشَرَ النَّبِيِّينَ وَكُلُوا وَشَابِبًا عَلَيْكُمُ الْمَثَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُورِيَ أَنَّ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحٰنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْوَسَّىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى يُعْقِبُ يَمْوَسَّىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدُنِيَ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حِسَابًا بَعْدَ سُورٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجْ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُورٍ فِي سَبْعٍ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِذْهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُجْرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَفْتِنَهَا أَنْفُسَهُمْ ظَلَمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى
وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ
يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينَتًا لَّهُمْ أَعْمَلْتُمْ فَهَمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ
الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَلْقَى الْقُرْآنِ مِنَ لَدُنِّ
حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ .

قال ابن كثير^(١): وقوله تعالى: ﴿تلك آيات﴾، أي: هذه آيات: ﴿القرآن
وكتاب مبين﴾، أي: بين واضح ﴿هدى وبشرى للمؤمنين﴾، أي: إنما تحصل
الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقه وعمل بما فيه، وأقام الصلاة
المكتوبة وآتى الزكاة المفروضة، وأيقن بالدار الآخرة والبعث بعد الموت، والجزاء
على الأعمال خيرا وشرها والجنة والنار، كما قال تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا
هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من
مكان بعيد﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿لتبشّر به المتقين وتندر به قوماً لدا﴾، ولهذا قال تعالى وهنا:
﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾، أي: يكذبون بها ويستبعدون وقوعها ﴿زينا لهم
أعمالهم فهم يعمّهون﴾، أي: حسنا لهم ما هم فيه ومددنا لهم في غيهم، فهم
يتيهون في ضلالهم، وكان هذا جزاء على ما كذبوا من الدار الآخرة، كما قال
تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٥٦).

(٢) سورة فصلت: الآية ٤٤.

يعمّهون ﴿١﴾ ﴿أولئك الذين لهم سوء العذاب﴾، أي: في الدنيا والآخرة ﴿وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾، أي: ليس يخسر أنفسهم وأهليهم سواهم من أهل الحشر.

وقوله وتعالى: ﴿وانك لتلقى القرآن﴾، أي: تؤتى القرآن ﴿من لدن حكيم عليم﴾، أي: وحياً من عند الله الحكيم في أمره ونهيه، العليم بالأمور كلها، فخبّره هو الصدق وحكمه هو العدل، كما قال تعالى: ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم﴾ (٢).

قوله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نارا سائِكِرٍ مِّنْهَا يَخَبِرُ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُورِدَىٰ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحٰنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْوَسِيٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقَىٰ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدِرِبًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوَسِيٰ لَّا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُولِ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَمَرِّجْ بِبِضَاءٍ مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي سِتْرِ آيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِذْهُمْ كَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَحَدِّثُوا بِهَا وَأُتِيَقَنَّهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وظُلُومًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

قال ابن كثير (٣): يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مذكراً له ما كان من أمر موسى عليه السلام، كيف اصطفاه الله وكلمه وناجاه، وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة والأدلة القاهرة، وابتعثه إلى فرعون وملته، فجددوا بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له، فقال تعالى: ﴿إذ قال موسى لأهله﴾، أي: اذكر حين سار

(١) سورة الأنعام: الآية ١١٠.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١١٥.

(٣) المصدر السابق (٣/٣٥٦).

موسى بأهله فأصلّ الطريق وذلك في ليل وظلام، فأنسوا من جانب الطور ناراً، أي: رأى ناراً تأجج وتضطرم فقال لأهله ﴿إني آنست ناراً سأتيكم منها بخبر﴾، أي: عن الطريق ﴿أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون﴾، أي: تستدفنون به، وكان كما قال، فإنه رجع منها بخبر عظيم واقتبس منها نوراً عظيماً، ولهذا قال تعالى: ﴿فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها﴾، أي: فلما أتاها ورأى منظراً هائلاً عظيماً، حيث انتهى إليها والنار تضطرم في شجرة خضراء لا تزداد النار إلا توقدأً، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء. قال ابن عباس وغيره: لم تكن ناراً، وإنما كانت نوراً يتوهج - وفي رواية عن ابن عباس: نور رب العالمين - فوقف موسى متعجباً مما رأى.

﴿فنودي أن بورك من في النار﴾ قال ابن عباس: تقدّس ﴿ومن حولها﴾، أي: من الملائكة. قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبو داود وهو الطيالسي حدثنا شعبة والمسعودي عن عمرو بن مرة سمع أبا عبيدة يحدث عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل - زاد المسعودي - وحجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سُبحاتُ وجهه كل شيء أدركه بصره»^(١)، ثم قرأ أبو عبيدة ﴿أن بورك من في النار ومن حولها﴾ وأصل الحديث مخرج في صحيح مسلم من حديث عمرو بن مرة.

وقوله تعالى: ﴿وسبحان الله رب العالمين﴾، أي: الذي يفعل ما يشاء، ولا يشبهه به شيء من مخلوقاته، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته، وهو العلي العظيم

(١) أخرجه مسلم (ح/٢٩٣)، إلا أن في آخره: «ما انتهى إليه بصره من خلقه».

المباين لجميع المخلوقات ولا يكتنفه الأرض والسماوات، بل هو الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات.

وقوله تعالى: ﴿يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم﴾ أعلمه أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه ﴿العزيز﴾ الذي عز كل شيء وقهره وغلبه ﴿الحكيم﴾ في أقواله وأفعاله، ثم أمره أن يلقي عصاه من يده ليظهر له دليلاً واضحاً على أنه الفاعل المختار القادر على كل شيء، فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت في الحال حياة عظيمة هائلة، في غاية الكبر وسرعة الحركة مع ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿فلما رآها تهتز كأنها جان﴾ والجآن ضرب من الحيات أسرع حركة وأكثره اضطراباً، فلما عاين موسى ذلك ﴿ولّى مدبراً ولم يعقب﴾، أي: لم يلتفت من شدة فرقه ﴿يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون﴾، أي: لا تخف مما ترى فإني أريد أن أصطفيك رسولاً وأجعلك نبياً وجيهاً. وقوله تعالى: ﴿إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم﴾ هذا استثناء منقطع وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أنه من كان على عمل سيئ ثم أقلع عنه ورجع وتاب وأناب، فإن الله يتوب عليه، كما قال تعالى: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿ومن يعمل سوء أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾ هذه آية أخرى ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار، وصدق من جعل له معجزة، وذلك أن الله تعالى أمره أن يدخل يده في جيب درعه، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة كأنها قطعة قمر، لها لمعان تتلألأ كالبرق الخاطف.

وقوله تعالى: ﴿في تسع آيات﴾، أي: هاتان اثنتان من تسع آيات أو يدك بهن وأجعلهن برهاناً لك ﴿إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾.

(١) سورة طه: الآية ٨٢.

(٢) سورة النساء: الآية ١١٠.

وقوله تعالى: ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة﴾، أي: بيّنة واضحة ظاهرة ﴿قالوا هذا سحر مبين﴾ وأرادوا معارضته بسحرهم فغلبوا وانقلبوا صاغرين ﴿وجحدوا بها﴾، أي: في ظاهر أمرهم ﴿واستيقنتها أنفسهم﴾، أي: علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ﴿ظلماً وعلواً﴾، أي: ظلماً من أنفسهم سجية ملعونة ﴿وعلواً﴾، أي: استكباراً عن اتباع الحق، ولهذا قال تعالى: ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾، أي: انظر يا محمد كيف كان عاقبة أمرهم، في إهلاك الله إياهم وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة؛ وفحوى الكلام يقول: احذروا أيها المكذبون لمحمد ﷺ، الجاحدون بما جاء به من ربه أن يصيبكم ما أصابهم.



الدرس الثامن والتسعون بعد المائة

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَخَيْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودٌ مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَنَبَسَهُ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى الْهَدْيَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَايِبِينَ ﴿٢٠﴾ لِأَعَذَّبْتَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحُطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنُنظِّرُ أَصْدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ أَذْهَبَ بِكَ نَبِيٌّ هَكَذَا فَالِقَهُ إِلَهُهُمُ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أَتِيَةٌ إِلَيْكُمْ بِبُرْهَانٍ كَرِيمٍ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُمْ مِنْ

سُلَيْمَنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٦﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَتْ
يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣٧﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ
وَأَوْلُوا بِأَسِ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا
قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرََّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٩﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ
بِهَدْيَةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أُمِّدُونَنِي بِمَالٍ فَمَا
ءَاتَنِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا ءَاتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٤١﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ
بِجُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٤٢﴾ قَالَ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي
بِعَرِشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٤٣﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ
مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٤٤﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ
يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ
أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٥﴾ قَالَ تَكَرُّوا لَهَا
عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَنْهَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ
قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوَيْدِنَا الْعِلْمُ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا
كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٨﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ
سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ
مَعَ سُلَيْمَنَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٩﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَبْتَئِهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مِنطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّا هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ .

قال البغوي^(١): قوله عز وجل: ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً﴾، يعني: علم القضاء ومنطق الطير والدواب، وتسخير الشياطين وتسييح الجبال ﴿وقالا الحمد لله الذي فضلنا﴾ بالنبوة والكتاب وتسخير الشياطين والجن والإنس ﴿على كثير من عباده المؤمنين وورث سليمان داود﴾ نبوته وعلمه وملكه دون سائر أولاده، وكان لداود تسعة عشر ابناً، وأعطى سليمان ما أعطي داود: الملك، وزيد له تسخير الريح وتسخير الشياطين. وقال مقاتل: كان سليمان أعظم ملكاً من داود وأفضى منه، وكان داود أشدَّ تعبداً من سليمان، وكان سليمان شاكراً لنعم الله تعالى.

﴿وقال يا أيها الناس علّمنا منطق الطير﴾ سمى صوت الطير منطق لحصول الفهم منه كما يفهم من كلام الناس. روي عن كعب قال: صاح ورشان عند سليمان عليه السلام فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: فإنه يقول: لدوا للموت، وابنوا للخراب. وصاح طاووس فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: فإنه يقول: كما تدين تُدان. وصاح صرد فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا قال: فإنه يقول: استغفروا الله يا مذنبين. وهدرت حمامة فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا، قال: فإنها تقول: سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه. قال: والغراب يدعو على العشا. والحدأة تقول: كل شيء هالك إلا الله. والقطة تقول: من سكت سلم. والضفدعة تقول: سبحان المذكور بكل لسان.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٤٩ - ٣٥٠).

وقوله: ﴿وَأوتينا من كل شيء﴾ قال البغوي: من كل شيء يؤتاه الأنبياء والملوك ﴿إن هذا لهو الفضل المبين﴾ وقال ابن كثير^(١): ﴿وَأوتينا من كل شيء﴾، أي: مما يحتاج إليه الملك ﴿إن هذا لهو الفضل المبين﴾، أي الظاهر البين لله علينا.

قوله عز وجل: ﴿وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمُ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فلبسَ صَاحِبًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

عن قتادة في قوله: ﴿وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون﴾ قال: يرذ أولهم على آخرهم.

قوله عز وجل: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْيَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأَعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَمَاوَاتٍ بِنُورٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٥٨).

قال ابن زيد: نزل سليمان بواد فسأل الإنس عن مائه فقالوا: ما نعلم له ماء، فإن يكن أحد من جنودك يعلم له ماء فالجن، فدعا الجن فسألهم فقالوا: ما نعلم له ماء، وإن يكن أحد من جنودك يعلم له ماء فالطير، فدعا الطير فسألهم فقالوا: ما نعلم له ماء، وإن يكن أحد من جنودك يعلمه فالهدهد، فلم تجده، قال: فذاك أول ما فقد الهدهد.

وعن مجاهد: ﴿لأعذبتَه عذاباً شديداً﴾ قال: نفث ريشه كله ﴿أو لأذبحته أو ليأتيني بسلطان مبين﴾ قال وهب بن منبه: أي بحجة، عذر له في غيبته ﴿فمكث غير بعيد﴾ ثم جاء الهدهد، فقال له سليمان: ما خلقتك؟ فقال أحطت بما لم تحط به. قال البغوي^(١) يقول: علمت ما لم تعلم وجئتك من سبأ بنياً يقين. قال ابن كثير: أي بخبر صدق حق يقين، وسبأ هم حمير وهم ملوك اليمن.

﴿إني وجدت امرأة تملكهم﴾ قال الحسن: هي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ ﴿وأوتيت من كل شيء﴾، يعني: من كل أمر الدنيا ﴿ولها عرش عظيم﴾ قال ابن عباس: سرير كريم. قال: حسن الصنعة. قال ابن كثير^(٢): سرير تجلس عليه عظيم هائل، مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر والآلئ.

﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل﴾، أي: طريق الحق فهم لا يهتدون ﴿ألا يسجدوا لله الذي يُخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾ قال ابن عباس: يعلم كل خبيثة في السماء والأرض.

قال ابن جرير^(٣): وقوله ﴿الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾ يقول تعالى ذكره: الله الذي لا تصلح العبادة إلا له، لا إله إلا هو لا معبود سواه، تصلح له العبادة فأخلصوا له العبادة وأفردوه بالطاعة، ولا تشركوا به شيئاً ﴿رب العرش

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٥٤).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٦٠).

(٣) «جامع البيان» (١٩/١٥٠ — ١٥١).

العظيم، يعني: بذلك مالك العرش العظيم، الذي كل عرش وإن عظم فدونه، لا يشبهه عرش ملكة سبأ ولا غيره.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿أحطت بما لم تحط به﴾ إلى قوله: ﴿لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾ هذا كله كلام الهدهد.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٢٧)
 أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا
 الْمَلَأُوا إِيَّايَ أَتَىٰ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ (٢٩) إِنَّكُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
 الرَّحِيمِ﴾ (٣٠) أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأْتَوْهُ مُسْلِمِينَ﴾ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوا أَفْتُونِ فِي أَمْرِي مَا
 كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسِيسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ
 فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَافَ
 أَهْلِهَا آذَنًا وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ
 الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ
 بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ (٣٦) أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأَيِّبَهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ
 مِنْهَا آذَنًا وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٣٧).

قال البغوي^(١): فلما فرغ الهدهد من كلامه قال سليمان للهدهد: ﴿سننظر
 أصدقت﴾ فيما أخبرت ﴿أم كنت من الكاذبين﴾ فدلهم الهدهد على الماء،
 فاحتضروا الركان وروى الناس والدواب، ثم كتب سليمان الكتاب وختمه بخاتمه،
 فقال للهدهد ﴿أذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم﴾ تنح عنهم فكن قريباً
 منهم ﴿فانظر ماذا يرجعون﴾ يردون من الجواب، فأخذ الهدهد الكتاب فأتى به
 بلقيس، وكانت بأرض يقال لها مأرب من صنعاء على ثلاثة أيام، فوافاها في
 قصرها وقد غلقت الأبواب، وكانت إذا رقدت غلقت الأبواب وأخذت المفاتيح

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٥٥).

فوضعتها تحت رأسها، فأتاها الهدهد وهي نائمة مستلقية على قفاها، فألقى الكتاب على نحرها، هذا قول قتادة. وقال ابن منبه وابن زيد: كانت لها كوة مستقبلة الشمس تقع الشمس فيها حين تطلع، فإذا نظرت إليها سجدت لها، فجاء الهدهد الكوة فسدها بجناحه فارتفعت الشمس ولم تعلم، فلما استبطأت الشمس قامت تنظر فرمى بالصحيفة إليها، فأخذت بلقىس الكتاب وكانت قارئة، فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت، لأن ملك سليمان كان في خاتمه، وعرفت أن الذي أرسل الكتاب إليها أعظم مُلكاً، فقرأت الكتاب وتأخر الهدهد غير بعيد، فجاءت حتى قعدت على سرير ملكها وجمعت الملاء من قومها فجاءوا وأخذوا مجالسهم، ﴿قالت﴾ لهم بلقيس ﴿يا أيها الملاء﴾ وهم أشرف الناس وكبرأؤهم ﴿إني ألقى إليّ كتاب كريم﴾ قيل: سمته كريماً لأنه كان مصدراً بيسم الله الرحمن الرحيم، ثم بيّنت الكتاب فقالت: ﴿إنه من سليمان﴾ وبيّنت المكتوب فقالت: ﴿وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا عليّ واثتوني مسلمين﴾ قال ابن عباس: أي لا تتكبروا عليّ واثتوني مسلمين: مؤمنين طائعين. انتهى ملخصاً.

وقوله تعالى: ﴿قالت يا أيها الملاء أفتوني في أمري﴾، أي: أشيروا عليّ فيما عرض لي ﴿ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون﴾، أي: تحضرون ﴿قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد﴾ وهذا تعريض منهم بالقتال إن أمرتهم بذلك، ثم قالوا: ﴿والأمر إليك﴾ في القتال ﴿فانظري﴾ من الرأي ﴿ماذا تأمرين﴾ فتمثل أمرك ونظيحه. قال الحسن: فوضعوا أمرهم إلى عُلجة تضطرب ثديها ﴿قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية﴾، أي: دخلوها عنوة ﴿أفسدوها﴾ خربوها ﴿وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾ تحذّروهم سير سليمان ودخوله بلادهم.

قال الله تعالى: ﴿وكذلك يفعلون﴾ ثم عدلت إلى المصالحة والمهادنة فقالت: ﴿وإني مرسله إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون﴾ قال قتادة: ما كان أعقلها في إسلامها وشركها، علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس ﴿فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله﴾ من النبوة والدين والحكمة والملك ﴿خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾.

ثم قال للمنذر بن عمرو أمير الوفد: ﴿ارجع إليهم﴾ بالهدية ﴿فلنأتينهم بجنود لا قبيل لهم بها ولنخرجتهم منها﴾، أي: من بلادهم ﴿أذلة وهم صاغرون﴾ إن لم يأتوني مسلمين. قال وهب بن منبه: فلما رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان قالت: قد عرفت والله ما هذا بملك وما لنا به طاقة، فبعثت إلى سليمان أني قادمة عليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك وما تدعو إليه من دينك، ثم أمرت بعرشها فجعل في آخر سبعة أبيات بعضها في بعض، في آخر قصر من سبعة قصور لها، ثم أغلقت دونه الأبواب ووكلت به حراساً يحفظونه، ثم قالت لمن خلفت على سلطانها: احتفظ بما قبلك، وسرير ملكي لا يخلص إليه أحد ولا يقربه حتى آتيك.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ يَتَابِئَهَا الْمَلَكُ أَيْنَ يُرِثُهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (٣٨) قَالَ عَفْرِيْتُ مَنْ لَجِنَ أَنَا أَيْنِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَوِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)

قال قتادة: لما بلغ سليمان أنها جائية، وكان قد ذكر له عرشها فأعجبه، وقد علم نبي الله أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم ودماؤهم فقال: ﴿يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين قال عفريت من الجن﴾ قال البغوي^(١): وهو المارد القوي ﴿أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾ قال ابن عباس: يعني قبل أن تقوم من مجلسك ﴿وإني عليه لقوي أمين﴾، أي: قوي على حمله أمين على ما فيه من الجوهر، فقال سليمان عليه السلام: أريد أعجل من ذلك ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب﴾ وهو آصف كاتب سليمان — قال قتادة — كان مؤمناً من الإنس ﴿أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ قال مجاهد: يعني إدامة النظر حتى يرتد الطرف خاسئاً، قال سليمان: هات فسجد وقال: يا ذا الجلال والإكرام، يا إلهنا وإله كل

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٥٩).

شيء إلهاً واحداً، لا إله إلا أنت، اثنتي بعرشها. قال الكلبي: فغار عرشها تحت الأرض حتى نبع عند كرسي سليمان.

﴿فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي لييلوني أشكر﴾ نعمه ﴿أم أكفر﴾ فلا أشكرها ﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه﴾، أي: يعود نفع شكره إليه ﴿ومن كفر فإن ربي غني﴾ عن شكره ﴿كريم﴾ قال ابن كثير: أي كريم في نفسه وإن لم يعبد أحد، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى حد، وهذا كما قال موسى ﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾.

وقال ابن جرير^(١): وقوله: ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب﴾ يقول جل ثناؤه قال الذي عنده علم من كتاب الله. وقال ابن عباس: هو أصف كاتب سليمان، قال أكثر المفسرين: وكان صديقاً يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَنْتَهْدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

عن ابن عباس: فلما أتته ﴿قال نكروا لها عرشها﴾ قال: وتنكير العرش أنه زيد فيه ونقص لينظر في عقلها، فوجدت ثابتة العقل. وعن قتادة ﴿فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو﴾ قال: شبهته وكانت قد تركته خلفها. قال عكرمة: كانت حكيمة لم تقل: نعم، خوفاً من أن تكذب، ولم تقل: لا، خوفاً من التكذيب ﴿قالت كأنه هو﴾.

(١) انظر «جامع البيان» (١٩/١٦٢).

قال البغوي^(١): فعرف سليمان كمال عقلها حيث لم تقرّ ولم تنكر.

قال ابن كثير^(٢): وقوله: ﴿وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾ قال مجاهد: يقوله سليمان ﴿وصدّها ما كانت تعبد من دون الله﴾ قال البغوي^(٣): أي صدّها عبادة الشمس عن التوحيد وعبادة الله.

﴿إنها كانت من قوم كافرين﴾ قال وهب بن منبه: أمر سليمان بالصرح، وقد عملته له الشياطين من زجاج كأنه الماء بياضاً، ثم أرسل الماء تحته، ثم وضع له فيه سريره فجلس عليه، وعكفت عليه الطير والجنّ والإنس، ثم قال: ﴿ادخلي الصرح﴾ ليربها ملكاً هو أعزّ من ملكها وسلطاناً هو أعظم من سلطانها ﴿فلما رآته حسبته لجة وكشفت عن ساقها﴾ لا تشكّ أنه ماء تخوضه، قيل لها: ادخلي ﴿إنه صرح ممرّد من قوارير﴾ فلما وقفت على سليمان دعاها إلى عبادة الله وعابها في عبادتها الشمس من دون الله، فقالت بقول الزنادقة، فوقع سليمان ساجداً إعظاماً لما قالت وسجد معه الناس، وسقط في يديها حين رأت سليمان صنع ما صنع، فلما رفع سليمان رأسه قال: ويحك ماذا قلت؟ قال: وأنسيت ما قالت، ف﴿قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ وأسلمت فحسن إسلامها. وعن عكرمة قال: لما تزوج سليمان بلقيس قالت: لم تمسني حديدة قطّ، قال سليمان للشياطين: انظروا ما يذهب الشعر، قالوا: النورة، فكان أول من صنع النورة. والله أعلم.



(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٦٠).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٦٥).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٦١).

الدرس التاسع والتسعون بعد المائة

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَنْقُورِ لِمَ تَسْتَعِجِلُونَ بِالْسَيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا سَتَفِيرُوكَ اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِيزْنَا بِكَ وَيَمَن مَعَكَ قَالَ طَيزُوكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شِعْرَةٌ رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَبِتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِبَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَجْمَعْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُورُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ءَاتَانُوكَ الْفَلْحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوآءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَجْمَعْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ قَدَرْنَا مَنَ الْغَدِيرِ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا نَّسَاءً مَطَرُ الْمُنذِرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ؕ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِّنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ مَّا

كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنِيسُوا شَجَرَهَا ؕ أَوْلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ
 الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ
 حَاجِزًا ؕ أَوْلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ
 وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ؕ أَوْلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا
 تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ
 بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ؕ أَوْلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ
 الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؕ أَوْلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ
 كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ
 أَيَّانَ يَبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا
 عَمُونَ ﴿٦٦﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ لِمَ نَسْتَعِجِلُونَ بِالْسَيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِيرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ .

عن مجاهد في قول الله: ﴿فريقان يختصمون﴾ قول مؤمن وكافر، قولهم صالح مرسل؟ ليس بمرسل: ﴿قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنه﴾؟ قال مجاهد: بالعذاب قبل العافية.

قال ابن كثير^(١)، أي: لم تدعون بحضور العذاب ولا تطلبون من الله رحمته؟ ولهذا قال ﴿لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا اطيرنا بك وبمن معك﴾، أي: ما رأينا على وجهك ووجوه من أتبعك خيراً. قال مجاهد: تشاءموا بهم ﴿قال طائرکم عند الله﴾ قال ابن عباس: الشؤم أتاكم من عند الله لكفركم ﴿بل أنتم قوم تفتنون﴾ تختبرون بالخير والشر.

قوله عز وجل: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ بَسْعَةٌ رَهَطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ .

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٦٧).

عن ابن عباس قوله: ﴿وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ هم الذين عقروا الناقة وقالوا حين عقروها: نبئت صالحاً وأهله فنقتلهم ثم نقول لأولياء صالح. ما شهدنا من هذا شيئاً وما لنا به علم، فدمرهم الله أجمعين.

وعن ابن إسحاق: قال التسعة الذين عقروا الناقة: هلمّ فلنقتل صالحاً فإن كان صادقاً، يعني فيما وعدهم من العذاب بعد الثلاث عجلناه قبله، وإن كان كاذباً نكون قد ألحقناه بناقته، فأتوه ليلاً ليبيتوه في أهله فدمغتهم الملائكة بالحجارة، فلما أبطأوا على أصحابهم، أتوا منزل صالح فوجدوهم مشدوخين قد رُضخوا بالحجارة.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿ومكروا مكراً﴾ قال: احتالوا لأمرهم واحتال الله لهم، مكروا بصالح مكراً ومكروا بهم مكراً، وهم لا يشعرون بمكرنا وشعرنا بمكرهم.

﴿فانظر كيف كان عاقبة مكرمهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين﴾ قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا على إهلاكه، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين. ﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا﴾، أي: بظلمهم وكفرهم ﴿إن في ذلك لآية﴾ لعلهم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيْكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَنْطَهَرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

عن ابن عباس في قوله: ﴿أنهم أناس يتطهرون﴾ قال: من الرجال والنساء

في أدبارهم. وقال مجاهد: من أدبار الرجال وأدبار النساء، استهزاء بهم. قال قتادة: عابوهم بغير عيب، أي: والله إنهم يتطهرون من أعمال السوء.

﴿فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها﴾.

قال البغوي^(١): قضينا عليها وجعلناها بتقديرنا ﴿من الغابرين﴾، أي: الباقين في العذاب ﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ وهو الحجارة ﴿فساء مطر المنذرين﴾.

قال ابن كثير^(٢): أي الذين قامت عليهم الحجة ووصل إليهم الإنذار، فخالفوا الرسول وكذبوه وهموا بإخراجه من بينهم.

قوله عز وجل: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَابًا قَدَّاحًا ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَوَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ لِّهَمَّ قَوْمٌ يَعَدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَوَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ لِّكُفْرِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَوَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَدَّكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بِشْرًا ۗ أَوَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَلَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرِزُقُهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَوَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قُلٌّ هَاكُلُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ أَدْرَاكُ عِلْمِهِمْ فِي الْآخِرَةِ ۗ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۗ بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٦٤).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٦٨).

قال مقاتل في قوله تعالى: ﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى﴾ هم الأنبياء والمرسلون.

قال ابن كثير^(١): وقوله تعالى: ﴿قل الله خيرٌ أمّا يشركون﴾؟ استفهام، إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى؛ ثم شرع تعالى يبيّن أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره، فقال تعالى: ﴿أمّن خلق السموات والأرض﴾؟ انتهى. وذكر لنا أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب — رحمه الله — مرّ بقوم في بلاد العينية عند قبر زيد بن الخطاب وهم يقولون: يا زيد يا زيد، فقال لهم: الله خير من زيد، ثم مرّ بهم مرة أخرى وهم يدعون زيدا فقال: الله خير من زيد، ثم مرّ بهم الثالثة وهم يدعونه فقال: الله خير من زيد، فقالوا: صدق الشيخ، وتركوا دعاءه.

وقوله تعالى: ﴿أمّن خلق السموات والأرض﴾؟

قال البغوي^(٢): معناه ألّهتكم خير أم الذي خلق السموات والأرض؟

وقال ابن كثير^(٣): ﴿أمّن﴾ في هذه الآيات كلها تقديره: أمّن يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها؟ هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر، لأن في قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدائقَ﴾، أي: بساتين ﴿ذات بهجة﴾، أي: منظر حسن ﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ قال ابن كثير: أي لم تكونوا تقدرّون على إنبات أشجارها، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق المستقلّ بذلك، المنفرد به دون ما سواه من الأصنام والأنداد، كما يعترف به هؤلاء المشركون ﴿ءإله مع الله﴾ يعبد وقد تبيّن لهم ولكل ذي لب أنه الخالق الرازق؟

(١) المصدر السابق (٣/٣٦٩).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٦٤).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٦٩).

وقوله تعالى: ﴿بل هم قوم يعدلون﴾، أي: يجعلون الله عدلاً ونظيراً، كما قال تعالى: ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾^(١).

وقال البغوي^(٢): قوله: ﴿أم من جعل الأرض قراراً﴾ لا تميد بأهلها ﴿وجعل خلالها﴾ وسطها ﴿أنهاراً﴾ تَطَرَّدُ بالمياه ﴿وجعل لها رواسي﴾ جبلاً ثوابت ﴿وجعل بين البحرين﴾ العذب والمالح ﴿حاجزاً﴾ مانعاً لئلا يختلط أحدهما بالآخر ﴿ءإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ توحيد ربهم وسلطانه.

وقال ابن كثير^(٣): يقول: ﴿أمن جعل الأرض قراراً﴾، أي: قارة ساكنة ثابتة لا تميد ولا تتحرك بأهلها وترجف بهم، وأنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة، بل جعلهما من فضله ورحمته مهاداً بساطاً ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك، كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء﴾^(٤).

وقوله تعالى: ﴿أمن يجيب المضطر﴾، أي: المكروب المجهود ﴿إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ سكاها يهلك قرناً وينشئ آخر ﴿ءإله مع الله قليلاً ما تذكرون﴾، أي: ما أقل تذكركم فيما يرشدكم إلى الحق، فلذلك أشركتم بالله غيره في عبادته.

وعن ابن جريج قوله: ﴿أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر﴾ والظلمات في البر ضلالة الطريق، والبحر ضلالة طريقه وموجه. وقال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: أم ما تشركون بالله خير أم الذي يهديكم في ظلمات البر والبحر إذا ضللتكم فيهما الطريق فأظلمت عليكم السبل فيهما؟

(١) سورة الأنعام: الآية ١.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٦٤).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٧٠).

(٤) سورة غافر: الآية ٦٤.

وقال ابن كثير^(١) : يقول تعالى : ﴿أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر﴾ ، أي : بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية ، كما قال تعالى : ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿أمن يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ ، أي : بعد الموت ﴿ومن يرزقكم من السماء﴾ بالمطر والأرض بالنبات ﴿ءإله مع الله قل هاتوا برهانكم﴾ حجتكم على قولكم أن مع الله إلهاً آخر ﴿إن كنتم صادقين﴾ في ذلك ، وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان ، كما قال تعالى : ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون﴾^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾ . قال البغوي^(٤) : نزلت في المشركين حيث سألوا رسول الله ﷺ عن وقت قيام الساعة . ﴿وما يشعرون أيان﴾ متى ﴿يبعثون﴾ .

وقال ابن كثير^(٥) : يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول معلماً لجميع الخلق أنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله عز وجل .

وقوله تعالى : ﴿وما يشعرون أيان يبعثون﴾ ، أي : وما يشعر الخلائق الساكنون في السموات والأرض بوقت الساعة ، كما قال تعالى : ﴿ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة﴾^(٦) . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : من زعم أنه يعلم - تعني النبي ﷺ - ما يكون في غد ، فقد أعظم على الله الفرية ، لأن

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٧٢) .

(٢) سورة النحل : الآية ١٦ .

(٣) سورة المؤمنون : الآية ١١٧ .

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٦٥) .

(٥) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٧٢) .

(٦) سورة الأعراف : الآية ١٨٧ .

الله تعالى يقول: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(١). رواه ابن أبي حاتم.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَدَارِكْ عَلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾، أي: غاب ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾. قال ابن زيد يقول: ضلّ عملهم في الآخرة، وليس لهم فيها علم ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾.

قال ابن كثير^(٢): أي في عماية وجهل كبير في أمرها وشأنها.



(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ب/٤٠٩).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٧٣).

الدرس المائتان

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا آءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَّآبَاءُنَا آيَاتًا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا
هَذَا نَحْنُ وَّآبَاءُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا
يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ
رَدْفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ
غَآيِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصِّلُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ
أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ
يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ
الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ
بِهَادِي الْعَمَىٰ عَنِ ضَلَالَتِهِمْ ۗ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾
﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا
بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ
يُبْزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ آدَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا
الْأَيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِيَّاكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ

فِي الصُّورِ فَفَرَّجَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوُهُ
 دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ
 شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَرَجِ يَوْمِئِذٍ
 مَأْمُونُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ
 تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَمْ كُلُّ شَيْءٍ
 وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أِهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي
 لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلْ لِحَمْدِ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ
 فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَيْدَا كُنَّا تَرَابًا وَآبَاؤُنَا أَيْنَا
 لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ
 الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا
 تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ
 كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ
 رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ
 صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن منكري البعث من المشركين: أنهم استبعدوا إعادة
 الأجساد بعد ذهابها فقالوا: ﴿أُنذَأَ كُنَّا تَرَابًا وَآبَاؤُنَا أَيْنَا لَمُخْرَجُونَ لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا
 نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾: أي مازلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا ولا نرى له حقيقة ولا
 وقوعاً.

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أحاديثهم وأكاذيبهم التي كتبوها، قال الله
 تعالى مجيباً لهم: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد لهؤلاء ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
 كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾، أي: المكذبين للرسول وبما جاءوهم به كيف حلت بهم
 نقمة الله، ثم قال تعالى مسلماً لنيبه ﷺ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا
 يَمْكُرُونَ﴾، أي: في كيدك ورداً ما جئت به، فإن الله مؤيدك ومظهر دينك.

﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل عسى أن يكون ردف لكم
 بعض الذي تستعجلون﴾. قال ابن عباس يقول: اقترب لكم. ﴿وإن ربك لذو فضل
 على الناس﴾ بإنعامه عليهم وتأخير العذاب عنهم مع ظلمهم لأنفسهم ﴿ولكن

أكثرهم لا يشكرون وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴿٧٦﴾ فإنه يعلم السرائر كما يعلم الظواهر.

﴿وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين﴾، أي: مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾ (١).

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَاقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَن ضَلَالَتِهِنَّ ۚ إِنَّ تَسْمَعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ .

يقول تعالى: ﴿إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل﴾ وهم أهل الكتاب التوراة والإنجيل لبيان لهم ﴿أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾ من أمر الدين، قال الكلبي: إن أهل الكتاب اختلفوا فيما بينهم فصاروا أحزاباً يطعن بعضهم على بعض، فنزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه. ﴿وإنه﴾، يعني: القرآن ﴿لهدى ورحمة للمؤمنين إن ربك يقضي بينهم بحكمه﴾ الحق ﴿وهو العزيز﴾ فلا يرد أمره ﴿العليم﴾ بأحوالهم ﴿فتوكل على الله﴾ في جميع أمورك وبلغ رسالة ربك ﴿إنك على الحق المبين﴾ وإن خالفك من خالفك.

﴿إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الدعاء إذا ولّوا مدبرين﴾ قال قتادة: الأصم إذا ولّى مدبراً ثم ناديته لم يسمع، كذلك الكافر لا يسمع ما يدعى إليه من الإيمان.

(١) سورة الحج: الآية ٧.

قال البغوي^(١): ومعنى الآية أنهم لفرط إعراضهم عما يُدْعَوْنَ إليه، كالميت الذي لا سبيل إلى إسماعه، والأصم الذي لا يسمع ﴿وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم﴾، أي: ما أنت بمرشد من أعمى الله قلبه عن الإيمان ﴿إن تسمع﴾ ما تسمع ﴿إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ مخلصون فيه مصدقون بكتبه ورسله.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

قال ابن عباس: تخاطبهم. قال ابن عمر: وذلك حين لا يؤمر بمعروف ولا يُنهى عن منكر. وعن قتادة قوله: ﴿وإذا وقع القول عليهم﴾ يقول: إذا وجب القول عليهم، والقول: الغضب ﴿أخرجنا﴾ دابة ذات زغب وريش ولها أربع قوائم تخرج من بعض أودية تهامة. وعن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم عليه السلام، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب؛ ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس، تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا»^(٢). رواه أحمد وغيره.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٦٧).

(٢) أخرجه أحمد (٧/٤)، وبنحوه مسلم (٤/٢٢٢٥ - ٢٢٢٦).

أكلته إلى فيه فلا يطعمها»^(١). رواه البخاري. قال الطيبي: الآيات أمارات الساعة، أما على قربها وأما على حصولها، فمن الأول: الدجال ونزول عيسى، ويأجوج ومأجوج والخسف؛ ومن الثاني: الدخان وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة والنار التي تحشر الناس.

وعن عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيتها كانت قبل صاحبها، فالأخرى على أثرها قريباً»^(٢). رواه مسلم.

قال الحافظ ابن حجر^(٣): فالذي يترجح من مجموع الأخبار أن خروج الدجال أول الآيات العظام المؤذنة بتغيير الأحوال العامة في معظم الأرض، وينتهي ذلك بموت عيسى ابن مريم، وأن طلوع الشمس من المغرب هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغيير الأحوال العلوية، وينتهي ذلك بقيام الساعة، ولعل خروج الدابة يقع في ذلك اليوم الذي تطلع فيه الشمس من المغرب؛ قال: والحكمة في ذلك أن عند طلوع الشمس من المغرب يغلق باب التوبة، فتخرج الدابة تميز المؤمن من الكافر، تكميلاً للمقصود من إغلاق باب التوبة، وأول الآيات المؤذنة بقيام الساعة النار التي تحشر الناس» انتهى.

وقال عبد الله بن عمر: «لا تلبثون بعد يأجوج ومأجوج إلا قليلاً حتى تطلع الشمس من مغربها، فيناديهم مناد: يا أيها الذين آمنوا قد قبل منكم، ويا أيها الذين كفروا قد أغلق عنكم باب التوبة، وجفت الأقلام وطويت الصحف»^(٤) رواه نعيم وحماد.

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٦٣٥)، ومسلم (ح/١٥٧).

(٢) أخرجه مسلم (ح/٢٩٤١).

(٣) انظر «فتح الباري» (١١/٣٦١).

(٤) أخرجه نعيم بن حماد في «الفتن» (٢/٦٥٤) مرفوعاً بسند ضعيف.

وعند مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رفعه: «يخرج الدجال في أمتي - الحديث وفيه - فبعث الله عيسى ابن مريم فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قِبَلِ الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال حبة من خير أو إيمان إلا قبضته - وفيه - فيبقى شرار الناس في خِفة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، فيتمثل لهم الشيطان فيأمرهم بعبادة الأوثان ثم يُنفخ في الصور»^(١). وروى أحمد وغيره من حديث أنس «إن أمام الدجال سنون خداعات يكذب فيها الصادق ويصدق فيها الكاذب، ويخون فيها الأمين ويؤتمن فيها الخائن، ويتكلم فيها الروبيضة»^(٢). وفي حديث أبي هريرة عند ابن ماجه قيل: وما الروبيضة؟ قال: «الرجل التافه يتكلم في أمره العامة»^(٣).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنا قعوداً عند النبي ﷺ فذكر الفتن فأكثر في ذكرها، حتى ذكر فتنة الأحلاس، قال قائل: وما فتنة الأحلاس؟ قال: «هي هَرَبٌ وَحَرْبٌ؛ ثم فتنة السراء، دَخَنُهَا من تحت قَدَمَيَّ رجل من أهل بيتي يزعم أنه متي وليس متي، إنما أوليائي المتقون، ثم يصطلع الناس على رجل كَوْرِكٍ على ضِلَعٍ؛ ثم فتنة الدَّهَيْمَاءِ، لا تدع أحداً من هذه الأمة إلا لطمته لطمه، فإذا قيل: انقضت تمادت، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً حتى يصير الناس إلى فسطاطين: فسطاط إيمان لا نفاق فيه، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه، فإذا كان ذاكم فانتظروا الدجال من يومه أو من غده»^(٤). رواه أبو داود. ولأحمد من حديث

(١) أخرجه مسلم (ح/٢٩٤٠).

(٢) أخرجه أحمد (٣/٢٢٠) بسند ضعيف، لكن يشهد له حديث أبي هريرة الآتي بعده، وهو حديث حسن.

(٣) أخرجه أحمد (٢/٢٣٨ و ٢٩١)، وابن ماجه (ح/٤٤٢)، والحاكم (٤/٤٦٥ و ٥١٢)،

وصححه، ووافقه الذهبي وقلت: وهو حديث حسن، وفي (الأصل): «الروبيضة»، وهو خطأ.

(٤) أخرجه أحمد (٢/١٣٣)، وأبو داود (ح/٤٢٤٢)، والحاكم (٤/٤٦٧)، وصححه، ووافقه =

عبد الله بن عمرو: «لا تقوم الساعة حتى يأخذ الله شريطته من أهل الأرض، فيبقى عجاج لا يعرفون معروفاً ولا يُنكرون منكراً»^(١). وله من حديث أنس: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: لا إله إلا الله»^(٢).

قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عَلِمًا أَمَّا إِذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٩﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلَ لَيْلٍ لَيْسَتْ كُنُوزًا فِيهِ وَالنَّهَارُ مُبْصِرًا إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

عن مجاهد قوله: ﴿ويوم نحشر من كل أمة فوجاً﴾ قال: زمرة زمرة ﴿ممن يكذب بآياتنا فهم يُوزعون﴾ قال: يحبس أولهم على آخرهم. وقال ابن عباس: ﴿فهم يوزعون﴾ يُدفعون. قال البغوي^(٣): يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا، ثم يساقون إلى النار ﴿حتى إذا جاءوا﴾ يوم القيامة ﴿قال﴾ الله لهم ﴿أكذبتُم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً﴾ ولم تعرفوها حق معرفتها ﴿أم ماذا كنتم تعملون﴾؟

قال ابن كثير: أي فيستلون عن اعتقادهم وأعمالهم. ﴿ووقع القول﴾ وجب العذاب ﴿عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون﴾ قال قتادة: كيف ينطقون ولا حجة

الذهبي، قال الخطابي: (قوله: «كورك على ضلع) مثل، ومعناه: الأمر الذي لا يثبت ولا يستقيم... يريد أن هذا الرجل غير خليق لعملك، والدهيماء: تصغير الدهماء، وصغرها على مذهب المذمة لها، والفسطاط: المدينة التي يجتمع فيها الناس)، «معالم السنن بهامش سنن أبي داود» (٤/٤٤٢ و ٤٤٣).

(١) أخرجه أحمد (٢/٢١٠)، والحاكم (٤/٤٣٥)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين إن كان الحسن سمعه من عبد الله عمرو» وواقفه الذهبي.

(٢) أخرجه مسلم (ح/١٤٨).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٦٩).

لهم؟ ﴿ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ يصدقون فيعتبرون^(١).

قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنُزِعَ مِنَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَخَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَيْتَ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْرَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

عن أبي هريرة أنه قال: «يا رسول الله ما الصور؟ قال: قرن. قال: وكيف هو؟ قال: قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات: الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام لله رب العالمين؛ يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول: انفخ نفخة الفزع، فيفزع أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله، ويأمره الله فيمد بها ويطولها فلا يفتر، وهي التي يقول الله: ﴿ما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق﴾^(٢) فيسير الله الجبال فتكون سراباً، وترج الأرض بأهلها رجاً، وهي التي يقول الله: ﴿يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة﴾^(٣) فتكون الأرض كالسفينة الموثقة في البحر تضربها الأمواج تكفاً بأهلها، أو كالتنديل المعلق بالوتر تؤرجحه الأرياح فتميد الناس على ظهرها فتذهل الأمراض وتضع الحوامل وتشيب الولدان، وتطير الشياطين هاربة حتى تأتي الأقطار فتتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع، ويولي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً، وهو الذي يقول الله: ﴿يوم التناد يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٧٧).

(٢) سورة ص: الآية ١٥.

(٣) سورة النازعات: الآية ٥.

عاصم^(١) ﴿١﴾ فبينما هم على ذلك إذ تصدعت الأرض من قطر إلى قطر فأرأوا أمراً عظيماً، فأخذهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به، ثم نظروا إلى السماء فإذا هي كالمهل، ثم خُسف شمسها وقمرها وانتشرت نجومها، ثم كُشِطت عنهم؛ قال رسول الله ﷺ: «والأموات لا يعلمون بشيء من ذلك» فقال أبو هريرة: يا رسول الله فمن استثنى الله حين يقول: ﴿ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾^(٢)؟ قال: «أولئك الشهداء، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء، أولئك أحياء عند ربهم يُرزقون وقاهم الله فزع ذلك اليوم وأمنهم، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه»^(٣). رواه ابن جرير.

وعن ابن عباس قوله: ﴿وكل أتوه داخرين﴾ يقول: صاغرین ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة﴾ يقول: قائمة.

قال ابن جرير^(٤): «وإنما قيل: ﴿وهي تمرّ مرّ السحاب﴾ لأنها تجمع ثم تسير فيحسب رائيها لكثرتها أنها واقفة، وهي تسير سيراً حثيثاً﴾ صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ قال ابن عباس يقول: أحكم كل شيء ﴿إنه خبير بما تفعلون﴾ فيجازيكم عليه.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿من جاء بالحسنة﴾ يقول: من جاء بلا إله إلا الله

(١) سورة غافر: الآية ٣٢.

(٢) سورة الزمر: الآية ٦٨.

(٣) أخرجه ابن جرير (١٩/٢٠)، والطبراني (٦٦/٢٥)، قال ابن كثير في تفسيره (١٤٩/٢): «هذا حديث مشهور، وهو غريب جداً، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة، وفي بعض ألفاظه نكارة، تفرد به إسماعيل بن رافع قاضي أهل المدينة، وقد اختلف فيه فمنهم من وقفه، ومنهم من ضعفه، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة كأحمد وأبي حاتم الرازي، وعمرو بن علي الفلاس، ومنهم من قال فيه: متروك، وقال ابن عدي: أحاديثه كلها فيها نظر، إلا أنه يكتب حديثه في جملة الضعفاء... اهـ.

(٤) انظر «جامع البيان» (٢١/٢٠).

﴿فله خير منها﴾ قال: فمنها يصل الخير إليه ﴿ومن جاء بالسيئة﴾ وهو الشرك ﴿فكُتِبَ وجوههم في النار﴾. وقال ابن زيد في قوله: ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾ قال: أعطاه الله بالواحدة عشرًا فصاعدًا. قال البغوي^(١): وهذا حسن.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ عَبَّدَ رَبُّكَ هَذِهِ الْبَلَدَةَ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَهُمْ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

عن مجاهد قوله: ﴿سيركم آياته فتعرفونها﴾ قال: في أنفسكم، وفي السماء والأرض والرزق. وقال ابن كثير^(٢): ﴿وقل الحمد لله سيركم آياته فتعرفونها﴾، أي: الله الحمد الذي لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجّة عليه والإنذار إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿سيركم آياته فتعرفونها﴾ كما قال تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم الحق﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾، أي: بل هو شهيد على كل شيء. وقد ذكر عن الإمام أحمد رحمه الله أنه كان ينشد هذين البيتين:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا نقل: خلوتٌ، ولكن قل: عليّ رقيبٌ
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يخفى عليه يغيبُ



(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٧١).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٧٨).

(٣) سورة فصلت: الآية ٥٣.

الدرس الواحد بعد المائتين

﴿سورة القصص﴾

مكية، وهي ثمان وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسّر ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى
وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا
شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ
الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً
وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا
مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ
عَلَيْهِ فَالْقَبِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ
الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْقَطْعَةُ آءَالِ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ
وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قَرَّتْ عَيْنِي لِي
وَلَكَّ لَا نَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذُهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ
أُمِّ مُوسَىٰ فَرِحًا إِنَّ كَادَتْ لِتُبَدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا

يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِي
يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أَبِيهِمُ كَمَا نَقَرْنَا عَيْنُهَا وَلَا
تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿طَسَّرَ ۙ تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَزُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾.

عن مجاهد ﴿وجعل أهلها شيعاً﴾، أي: فرقاً: يذبح طائفة منهم، ويستحيي طائفة، ويعذب طائفة، ويستعبد طائفة. قال الله عز وجل: ﴿يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾ قال السدي: كان من شأن فرعون أنه رأى رؤيا في منامه: أن ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر، فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل، وأحرقت بيوت مصر، فدعا السحرة والكهنة والعافة والحازة، فسألهم عن رؤياه فقالوا له: يخرج من هذه البلد الذي جاء بنو إسرائيل منه - يعنون بيت القدس - رجل يكون على وجهه هلاك مصر، فأمر ببني إسرائيل أن لا يولد لهم غلام إلا ذبحوه، ولا تولد لهم جارية إلا تركت، وقال للقبط: انظروا مملوككم الذين يعلمون خارجاً فأدخلوهم واجعلوا بني إسرائيل يُلَوْنَ تلك الأعمال القذرة، فجعل بني إسرائيل في أعمال غلمانهم وأدخلوا غلمانهم، فذلك حين يقول: ﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً﴾ يعني بني إسرائيل حين جعلهم في الأعمال القذرة.

وعن قتادة قوله: ﴿ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض﴾ قال: بنو إسرائيل ﴿ونجعلهم أئمة﴾، أي: ولاية الأمور ﴿ونجعلهم الوارثين﴾، أي: يرثون الأرض بعد فرعون وقومه: ﴿ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ شيئاً ما حذر القوم. قال: وذكر لنا أن حازياً حزاً

لعدو الله فرعون، فقال: يولد في هذا العام غلام من بني إسرائيل يسلبك ملكك، فتتبع أبناءهم ذلك العام يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم حذراً مما قال له الحازي.

قوله عز وجل: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمُّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَأَلْقَطَهُ يَدُ آلِ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَزَانَ يَجْعَلُونَ لِحُكْمِهِمْ سِحْرًا مُّزْتَبِئًا وَمَا كَانُوا يَسْمَعُونَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكِ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَجِرًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَّىٰ قَلْبَهَا لَتَأْكُفَرَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ قال: قذف في نفسها. قال السدي: أمر فرعون أن يذبح من ولد بني إسرائيل سنة ويتركوا سنة، فلما كان في السنة التي يذبحون فيها حملت بموسى، فلما أرادت وضعه حزنت من شأنه، فأوحى الله إليها ﴿أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم﴾ وهو النيل ﴿ولا تخافي ولا تحزني﴾ قال ابن زيد: ﴿لا تخافي﴾ عليه البحر ﴿ولا تحزني﴾ لفراقه ﴿إنا رآدوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ قال ابن إسحاق: ﴿إنا رآدوه إليك﴾ وباعثوه رسولا إلى هذا الطاغية، وجاعل هلاكه ونجاة بني إسرائيل مما هم فيه على يديه.

قال ابن كثير^(١): كانت دار أم موسى على حافة النيل، فاتخذت تابوتا ومهدت فيه مهداً، وجعلت ترضع ولدها، فإذا دخل عليها أحد ممن تخافه ذهبت فوضعت في ذلك التابوت وسيرته في البحر وربطته بحبل عندها، فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه فذهبت فوضعت في ذلك التابوت، وأرسلته في البحر وذهلت

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٨٠).

أن تربطه، فذهب مع الماء واحتمله، حتى مرّ به على دار فرعون، فالتقطه الجوّاري فاحتملنه فذهبن به إلى امرأة فرعون ولا يدرين ما فيه، فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه، فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه، وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلمها، ولهذا قال: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾.

قال قتادة: ﴿عدواً﴾ لهم في دينهم ﴿وحزناً﴾ لما يأتيهم ﴿إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾.

قال البغوي^(١): عاصين آثمين.

قال ابن جرير^(٢): فلذلك كان لهم موسى عدواً وحزناً. وعن محمد بن قيس قال: ﴿قالت امرأة فرعون قرّة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتّخذه ولداً﴾ قال فرعون: قرّة عين لك أمّا لي فلا. قال محمد بن قيس: قال رسول الله ﷺ: «لو قال فرعون: قرّة عين لي ولك، لكان لهما جميعاً»^(٣). وعن قتادة: ﴿وهم لا يشعرون﴾ قال: وهم لا يشعرون أن هلكتهم على يديه وفي زمانه.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً﴾ قال: فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى ﴿إن كادت لتبدي به﴾ أن تقول: يا ابنه ﴿لولا أن ربطنا على قلبها﴾.

قال البغوي^(٤): بالعصمة والصبر والتثبيت ﴿لتكون من المؤمنين﴾ المصدّقين لوعده الله حين قال لها: ﴿إنا رآؤوه إليك﴾.

وعن ابن عباس ﴿وقالت لأخته قُصِيه﴾، أي: قُصِي أثره واطلبيه، هل تسمعين له ذكراً، أحيي ابني أو قد أكلته دواب البحر وحيثانه؟ ونسيت الذي كان الله وعدّها.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٧٥).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٠/٣٢٢).

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٠/٣٣) مرسلًا.

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٧٥).

وقوله تعالى: ﴿فبصُرْتُ به عن جنب وهم لا يشعرون﴾ وقال مجاهد: عن بُعد. قال قتادة: وهم لا يشعرون أنها أخته، قال: جعلت تنظر إليه كأنها لا تريده. قوله عز وجل: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

عن مجاهد في قوله ﴿وحرمنا عليه المراضع من قبل﴾ قال: لا يقبل ثدي امرأة حتى يرجع إلى أمه. وقال السدي: أرادوا المراضعات فلم يأخذ من أحد من النساء، وجعل النساء يطلبن ذلك لينزلن عند فرعون في الرضاع، فأبى أن يأخذ، فذلك قوله: ﴿وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت﴾ أخته ﴿هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾؟ فلما جاءت أمه أخذ منها. قال ابن جريج: فعلقوها حين قالت: ﴿وهم له ناصحون﴾ قالوا: قد عرفته، قالت: إنما أردت هم للملك ناصحون.

قال البغوي^(١) وقيل: لما قالت: هل أدلكم على أهل بيت؟ قالوا لها: من؟ قالت: أمي، قالوا: ولأمك ابن؟ قالت: نعم هارون، وكان هارون ولد في سنة لا يُقتل فيها الولدان، قالوا: صدقت.

وقال ابن كثير^(٢): فلما رأتهم حائرين فيمن يرضعه قالت: هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون؟ قال ابن عباس: فلما قالت ذلك أخذوها وشكّوا في أمرها وقالوا لها: وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه؟ فقالت لهم: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في سرور الملك ورجاء منفعتهم، فأرسلوها، فلما قالت لهم ذلك وخلصت من أذاهم، ذهبوا معها إلى منزلهم فدخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، وذهب البشير إلى امرأة الملك

(١) المصدر السابق (٣/٣٧٦).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٨١ - ٣٨٢).

فاستدعت أم موسى وأحسنّت إليها وأعطتها عطاءً جزيلاً، وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة، ولكن لكونه وافق ثديها، ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه فأبت عليها وقالت: إن لي بعلًا وأولادًا ولا أقدر على المقام عندك، ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلت، فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك وأجرت عليه النفقة والصلوات والكساوي والإحسان الجزيل، فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية، قد أبدلها الله بعد خوفها أمناً في عزّ وجهه ورزق دار؛ ولهذا جاء في الحديث: «مثل الذي يعمل ويحتسب في صنعته الخير، كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها»^(١)؛ ولم يكن بين الشدة والفرج إلاّ القليل، يوم وليلة أو نحوه والله أعلم؛ فسبحان من بيده الأمر، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، الذي يجعل لمن ألقاه بعد كل هم فرجاً وبعد كل ضيق مخرجاً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فرددناه إلى أمه كي تقرّ عينها﴾، أي: به ﴿ولا تحزن﴾، أي: عليه ﴿ولتعلم أن وعد الله حق﴾، أي: فيما وعدنا من رده إليها وجعله من المرسلين، فحينئذ تحققت برّده إليها أنه كائن من رسول من المرسلين، فعاملته في تربيته ما ينبغي له طبعاً وشرعاً.

قوله تعالى: ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾، أي: حكم الله في أفعاله، وعواقبها المحمودة التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة، فربما يقع الأمر كريهاً إلى النفوس وعاقبته محمودة في نفس الأمر، كما قال تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل فيه خيراً كثيراً﴾. انتهى والله أعلم.

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، ويبدو لي أن ابن كثير ساق الحديث بمعناه، ولفظه: «مثل الذين يغزون من أمّتي، ويأخذون الجغل» - يعني يتقون على عدوهم - مثل أم موسى ترضع ولدها، وتأخذ أجرها».

أخرجه سعيد بن منصور في سننه (ح/٢٣٦١)، ومن طريقه أبو داود في مراسيله (ح/٣٣٣)، والبيهقي في الكبرى (٢٧/٩) عن جبير بن نفير عن أبيه.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢١٦.

الدرس الثاني بعد المائتين

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَأَنبَتَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾
 وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ هَٰذَا
 وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَىٰ الَّذِي مِّنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِّنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ
 قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ
 لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ
 ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ
 يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَعَوِيُّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَن أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ
 لَهُمَا قَالَ يَمْوسَىٰ أَتَرِيدُ أَن تَفْتَلَنِي كَمَا فُتِنْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تَرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ
 جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تَرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ
 قَالَ يَمْوسَىٰ ابْنَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾
 فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ
 قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً
 مِّنَ النَّكَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا
 قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ
 إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحَدُهُمَا تَمْشِي
 عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ

وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ
إِخْدَانَهُمَا يَتَأَبَّىٰ اسْتَجِرَّهُٓ إِنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ
أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَىٰ ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَّ إِنِّي فَجَّحْتُ وَإِنْ أَتَمَمْتُ عَشْرًا
فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ
الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ
وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَأَيْنَتْهُ هُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ
نَجَّيْنَا الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ
يَقْتُلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَىٰ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ
عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ
بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ
فَإِذَا الَّذِي اُسْتَنْصَرُهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَن أَرَادَ
أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ
إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ .

قال ابن إسحاق: لما بلغ موسى أشده واستوى آتاه الله حكماً وعلماً، فكانت
له من بني إسرائيل شيعة يسمعون منه ويطيعونه ويجمعون إليه، فلما استند رأيه
وعرف ما هو عليه من الحق، رأى فراق فرعون وقومه على ما هم عليه حقاً في دينه،
فتكلم وعادى وأنكر حتى ذكر ذلك منه، وحتى أخافوه وخافهم، حتى كان لا يدخل
قرية فرعون إلا خائفاً مستخفياً، فدخلها يوماً ﴿على حين غفلة من أهلها فوجد فيها
رجلين يقتلان هذا من شيعة﴾ مسلم، وهذا من أهل دين فرعون كافر ﴿فاستغاثه
الذي من شيعة على الذي من عدوه﴾ وكان موسى قد أوتي بسطة في الخلق وشدة في
البطش، فغضب بعدوهما فنازعه ﴿فوكزه موسى﴾ وكزة قتله منها وهو لا يريد قتله،
فقال: ﴿هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين﴾ وعن مجاهد ﴿فوكزه موسى﴾
قال: بجميع كفه ﴿قال ربّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور
الرحيم﴾ قال قتادة: عرف المخرج فقال: ﴿ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له﴾ .

﴿قال رب بما أنعمت علي﴾.

قال ابن كثير^(١): أي بما جعلت لي من الجاه والعز والنعمة ﴿فلن أكون ظهيراً﴾ أي معيناً ﴿للمجرمين﴾ أي الكافرين بك المخالفين لأمرك.

وعن ابن عباس قال: أتى فرعون فقيل له: إن بني إسرائيل قد قتلوا رجلاً من آل فرعون، فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم في ذلك، قال: ابغوني قاتله ومن يشهد عليه، لا يستقيم أن نقضي بغير بيّنة ولا ثبت فاطلبوا ذلك، فبينما هم يطوفون لا يجدون شيئاً، إذ مرّ موسى من الغد فرأى ذلك الإسرائيليّ يقاتل فرعونياً، فاستغاثه الإسرائيليّ على الفرعونيّ، فصادف موسى وقد ندم على ما كان منه بالأمس وكره الذي رأى، فغضب موسى فمدّ يده وهو يريد أن يبطش بالفرعونيّ، فقال للإسرائيليّ لِمَا فعل بالأمس واليوم ﴿إنك لغويّ مبين﴾ فنظر الإسرائيليّ إلى موسى بعد ما قال هذا، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس، فخاف الإسرائيليّ أن يكون إياه أراد فحاجّه فقال: ﴿يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين﴾.

وعن قتادة ﴿إن تريد إلّا أن تكون جباراً في الأرض﴾ هكذا تقتل النفس بغير النفس. وعن ابن إسحاق ﴿وما تريد أن تكون من المصلحين﴾ أي ما هكذا يكون الإصلاح.

قوله عز وجل: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرِجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدْيَنُ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾.

قال ابن عباس: انطلق الفرعونيّ الذي كان يقاتل الإسرائيليّ بالأمس إلى

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٨٢).

قومه، فأخبرهم بما سمع من الإسرائيليّ حين يقول: ﴿أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسك بالأمس﴾؟ فأرسل فرعون الذبّاحين بقتل موسى، فأخذوا الطريق الأعظم وهم لا يخافون أن يفوتهم، وكان رجل من شيعة موسى في أقصى المدينة، فاختصر طريقاً قريباً حتى سبقهم إلى موسى فأخبره الخبر.

وعن قتادة ﴿فخرج منها خائفاً﴾ من قتله النفس ﴿يتربّب﴾ أن يأخذه الطلب. وقال ابن إسحاق: ذكر لي أنه خرج على وجهه ﴿خائفاً يتربّب﴾ ما يدري أيّ وجه يسلك، وهو يقول: ربّ نجني من القوم الظالمين، فهياً الله الطريق إلى مدين، فخرج من مصر بلا زاد ولا حذاء ولا ظهر ولا درهم. وقال ابن عباس: خرج موسى متوجّهاً نحو مدين، وليس له علم بالطريق، إلّا حسن ظنه بربه، فإنه قال: ﴿عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٦﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٧﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكَ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

قال سعيد بن جبير: خرج موسى من مصر إلى مدين وبينها وبينها مسيرة ثمان، ولم يكن له طعام إلّا ورق الشجر، وخرج فما وصل إليها حتى وقع خفّ قدمه.

وقوله تعالى: ﴿وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان﴾ قال أبو مالك: تحبسان غنمهما عن الناس حتى يفرغوا ويخلوا لهم البئر.

﴿قال ما خطبكما﴾؟ قال ابن إسحاق: وجد لهما رحمة ودخلت فيهما خشية

لما رأى من ضعفهما، وغلبة الناس على الماء دونهما فقال لهم: ما خطبكما؟ أي ما شأنكما؟ ﴿قالتا لا نسقي حتى يُصدر الرعاء﴾ امرأتان لا نستطيع أن نزاحم الرجال ﴿وأبونا شيخ كبير﴾ لا يقدر أن يمَسَّ ذلك من نفسه ولا يسقي ماشيته، ونحن ننتظر الناس حتى إذا فرغوا أسقينا ثم انصرفنا.

وقوله تعالى: ﴿فسقى لهما﴾ قال ابن عباس: فجعل يغرف في الدلو ماء كثيراً، حتى كانتا أول الرعاء رياءً، فانصرفتا إلى أبيهما بغنمهما قال: وانصرف موسى إلى شجرة فاستظلّ بظلها ﴿فقال رب إنني لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾ وما يسأل الله إلا أكلة وبرد الماء، وإن خضرة البقل تُثرى في بطنه من الهزال.

وعن ابن إسحاق ﴿فجاءته إحداهما تمشي على استحياء﴾ قال: واضعة يدها على جبينها. قال السدي: لما رجعت الجاريتان إلى أبيهما سريعاً سألهما فأخبرتهما خبر موسى، فأرسل إليه إحداهما فأتته تمشي على استحياء وهو يُستحي منه ﴿قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾ فقام معها فمشت بين يديه فضربتها الريح فنظر إلى عجيزتها، فقال لها موسى: إمشي خلفي ودليني على الطريق إن أخطأت، فلما جاء الشيخ ﴿وقصّ عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾ قال ابن عباس يقول: ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان ولسنا في مملكته.

قوله عز وجل: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُسَاقَطَ عَنِّي إِسْمِي وَأَنَا مَدْمُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾

عن ابن عباس: ﴿قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت

القويّ الأمين ﴿ قال: فأحفظته الغيرة أن قال: وما يدريك ما قوّته وأمانته؟ قالت: أما قوّته فما رأيت من حين سقى لنا، لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السقي منه، وأما أمانته فإنه نظر حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم إني امرأة صوّب رأسه فلم يرفعه ولم ينظر إليّ حتى بلغته رسالتك، ثم قال: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، ولم يفعل ذلك إلاّ وهو أمين، فسُرّي عن أبيها وصدّقها وظنّ به الذي قالت.

وقال ابن زيد: ﴿قال﴾ له ﴿إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانى حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشقّ عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾ قال: وأيّهما تريد أن تنكحني؟ قال: التي دعتك، قال: لا ألا وهي بريئة مما دخل نفسك عليها، فقال: هي عندك كذلك فزوجه.

وقال ابن إسحاق: ﴿قال﴾ موسى ﴿ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيتُ فلا عدوان عليّ﴾ قال: نعم ﴿واللّه على ما نقول وكيل﴾ فزوجه وأقام معه يكفيه ويعمل له في رعاية غنمه وما يحتاج إليه منه. وقوله: ﴿أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ﴾ أي لا ظلم عليّ بأن أطالب بأكثر منهما. قال ابن عباس: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل ﴿واللّه على ما نقول وكيل﴾ قال ابن عباس: شهيد. وروى ابن ماجه في سننه عن النبي ﷺ قال: ﴿إن موسى آجر نفسه ثمانى سنين أو عشر سنين على عفة فرجه وطعام بطنه﴾^(١). والله أعلم.



(١) أخرجه ابن ماجه (ح/٢٤٤٤)، والطبراني (١٧/١٣٥) من حديث عتبة بن الندر، بسند ضعيف.

الدرس الثالث بعد المائتين

﴿ فَمَا فَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۚ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَمَا أَتَهَا نُورٌ مِّنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَ ۚ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رآها تهتُرُ كأنها جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَمْوِسُ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ ۚ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرَجَ بِيضًا مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۚ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِثْلَهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۚ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِتَابِعِنَا ۖ أَنْتُمْ وَآلُكُمْ مِنَ الْغٰلِبِينَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِتَابِعِنَا بَيْنَتَيْ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَىٰ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَابَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُمْ عٰقِبَةُ الدَّارِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلٰهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَنْهَمِنُ عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أُطِغِ إِلٰهَ إِلٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَحٰوُدُهُمْ فِي

الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ
فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاظْلَمُوا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾
وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يُدْعَوْنَ إِلَى التَّكْوِينِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ
الَّذِي كَانُوا يُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَالْيَوْمِ الْآخِرِ هُمْ مِنَ
الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿ ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَّ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوِسَّ أَقْبَلَ وَلَا يَخَفُ إِنَّكَ مِنَ الْأُمِينِ ﴿٣١﴾ أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرَّجَ يَدًا مِثْلَ بِيضَاءٍ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ .

عن قتادة: ﴿ فلما قضى موسى الأجل ﴾ قال: حدث ابن عباس قال: رعى نبي الله أكثرها وأطيبها.

وقوله تعالى: ﴿ وسار بأهله ﴾.

قال ابن كثير^(١) قالوا: لأن موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله فعزم على زيارتهم في خفية من فرعون وقومه، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره، فسلك بهم في ليلة مطيرة باردة، فنزل منزلاً فجعل كلما أورد زنده لا يضيء شيئاً، فتعجب من ذلك، فبينما هو كذلك ﴿ آنس من جانب الطور ناراً ﴾، أي: رأى ناراً تضيء على بعد ﴿ قال لأهله امكثوا إنني آنست ناراً ﴾، أي: حتى أذهب إليها ﴿ لعلي آتيكم منها يخبر ﴾ وذلك لأنه قد أضل الطريق ﴿ أوجدوه من النار ﴾ أي: قطعة منها ﴿ لعلكم تصطلون ﴾، أي: تستدفنون بها من البرد. قال

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٨٧).

الله تعالى: ﴿فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن﴾، أي: من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب، كما قال تعالى: ﴿وما كنت بالجانب الغربي إذا قضينا إلى موسى الأمر﴾^(١) والنار وجدها تضطرم في شجرة خضراء في لحف الجبل مما يلي الوادي، فوقف باهتاً في أمرها فناداه ربه ﴿من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين﴾، أي: الذي يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين الفعال لما يشاء، لا إله غيره ولا رب سواه، تعالى وتقدس وتزّه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله سبحانه.

وقوله: ﴿وأن ألق عصاك﴾، أي التي في يدك، كما قرره على ذلك في قوله تعالى: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى قال هي عصاي﴾، والمعنى: أما هذه عصاك التي تعرفها ألقها ﴿فألقاها فإذا هي حية تسعى﴾ وقال ههنا: ﴿فلما رآها تهتراً﴾، أي: تضطرب ﴿كأنها جان﴾، أي في حركتها السريعة مع عظم خلقتها ﴿ولّى مدبراً ولم يعقب﴾، أي: ولم يكن يلتفت، لأن طبع البشرية ينفر من ذلك، فلما قال الله له: ﴿يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين﴾ رجع فوقف في مقامه الأول.

ثم قال الله تعالى: ﴿اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾، أي: إذا أدخلت يدك في جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج تلاًلاً كأنها قطعة قمر في لمعان البرق، ولهذا قال: ﴿من غير سوء﴾، أي: من غير برص. انتهى ملخصاً.

وقوله تعالى: ﴿واضمم إليك جناحك من الرهب﴾ قال ابن زيد: مما دخله من الفرق من الحيّة والخوف ﴿فدانك برهانان من ربك﴾ قال السدي: العصا واليد.

قال ابن جرير^(٢) يقول: آيتان وحتّتان ﴿إلى فرعون وملئه﴾ يقول: إلى

(١) سورة القصص: الآية ٤٤.

(٢) انظر «جامع البيان» (٧٣/٢٠).

فرعون وأشراف قومه، حجة عليهم ودلالة على حقيقة نبوتك يا موسى ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾.

قوله عز وجل: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ مَوْلًى فَتَكُونُ لِلدَّارِ الْأَيْمَنِ بِمَوْلَىٰ ذَيْنَا وَمَنْ أَسْرَعُ مُمْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ ۞

عن ابن إسحاق: ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي رداءً يصدقني﴾، أي: يبين لهم عني ما أكلّمهم به. وعن مجاهد: ﴿فأرسله معي رداءً يصدقني﴾ قال: عوناً. وقال ابن زيد: لأن الاثنين أحرى أن يُصدّقاً من واحد ﴿قال سنشدّ عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً﴾ قال مجاهد: حجة ﴿فلا يصلون إليكما بآياتنا﴾. قال البغوي^(١): أي لا يصلون إليكما بقتل ولا سوء لمكان آياتنا.

﴿أنتم ومن أتبعكوا الغالبون فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات﴾ واضحات ﴿قالوا ما هذا إلا سحر مفترى﴾.

قال ابن كثير^(٢): أي مفتعل مصنوع ﴿وما سمعنا بهذا﴾ الذي تدعوننا إليه ﴿في آياتنا الأولين وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده﴾ وسيفصل بيني وبينكم، ولهذا قال: ﴿ومن تكون له عاقبة الدار﴾، أي: العقبى المحمودة في الدنيا والآخرة ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٨٣).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٨٩).

قوله عز وجل: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيَهَا آَمَلًا مَّا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَنهَمِنُّ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَل لِّي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلٰهِنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى التَّكْوٰرِ وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ۞

قال ابن كثير^(١): أمر فرعون وزيره هامان أن يوقد له على الطين، يعني يتخذ له آجرًا لبناء الصرح، وهو القصر المنيف الرفيع العالي، كما قال في الآية الأخرى ﴿وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصدّ عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب﴾^(٢) وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح الذي لم ير في الدنيا بناء أعلى منه، وإنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما يزعمه من دعوى إله غير فرعون، ولهذا قال: ﴿وإني لأظنه من الكاذبين﴾، أي: في قوله: أن ثم ربّاً غيري.

وقوله تعالى: ﴿واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون﴾، أي: طغوا وتجبروا وأكثروا في الأرض الفساد، واعتقدوا أنه لا قيامة ولا معاد ﴿نصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد﴾^(٣) ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم﴾، أي: أغرقناهم في البحر في صبيحة واحدة فلم يبق منهم أحد.

(١) المصدر السابق (٣/٣٩٠).

(٢) سورة غافر: الآية ٣٧.

(٣) سورة الفجر: الآية ١٣.

﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾ لمن سلك وراءهم وأخذ بطريقتهم في تكذيب الرسل وتعطيل الصانع ﴿ويوم القيامة لا ينصرون﴾، أي: فاجتمع عليهم خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة﴾، أي: وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على السنة المؤمنين من عباده ﴿ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ قال البغوي^(٢): ﴿من المقبوحين﴾ الملعونين. وقال ابن عباس: من المشوهين بسواد الوجوه وزرقة العيون. وقال قتادة: لعنوا في الدنيا والآخرة، قال: هو كقوله: ﴿وأُتبعُوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرُفد المرفود﴾^(٣).



(١) سورة محمد: الآية ١٣.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٨٤).

(٣) سورة هود: الآية ٩٩.

الدرس الرابع بعد المائتين

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ
بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ
قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا
فَنَطَاوَلْ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا
وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّنْ
رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾
وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا
رَسُولًا فَتَتَّبِعَ آيَاتِنَا وَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا
قَالُوا لَوْلَا آوَيْنَا مِثْلَ مَا آوَيْنَا مُوسَىٰ أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا آوَيْنَا مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا
سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ
أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا
يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ
آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا بَلَغَ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ
مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَبَدَرُوا
بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَكَبُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ
وَقَالُوا لَنَا آمَنَّا وَلكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَنْبَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ .

قال البغوي^(١): قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾، يعني: قوم نوح وعاداً وثمود وغيرهم، كانوا قبل موسى ﴿بصائر للناس﴾، يعني: ليبصروا بذلك الكتاب ويهتدوا به ﴿وهدى﴾ من الضلال لمن عمل به ﴿ورحمة﴾ لمن آمن به ﴿لعلهم يتذكرون﴾ بما فيه من المواعظ والبصائر.

﴿وما كنت﴾ يا محمد ﴿بجانب الغربي﴾، يعني: بجانب الجبل الغربي. قال قتادة والسدي: قال ابن عباس: يريد حيث ناجى موسى ربه ﴿إذا قضينا إلى موسى الأمر﴾، يعني: عهدنا إليه وأحكمنا الأمر معه بالرسالة إلى فرعون وقومه ﴿وما كنت من الشاهدين﴾ الحاضرين ذلك المقام فتذكره من ذات نفسك ﴿ولكننا أنشأنا قرونًا﴾ خلقنا أمماً من بعد موسى عليه السلام ﴿فتطاول عليهم العمر﴾، أي: طالت عليهم المهلة فنسوا عهد الله وميثاقه وتركوا أمره، وذلك أن الله تعالى قد عهد إلى موسى وقومه عهداً في محمد ﷺ والإيمان به، فلما طال عليهم العمر وخلفت القرون بعد القرون نسوا تلك العهود وتركوا الوفاء بها.

(١) المصدر السابق (٣/٣٨٤).

﴿وما كنت ثاوياً﴾ مقيماً في أهل مدين كمقام موسى وشعيب فيهم ﴿تتلو عليهم آياتنا﴾ تذكّره بالوعد والوعيد. قال مقاتل يقول: لم تشهد أهل مدين فتقرأ على أهل مدين فتقرأ على أهل مكة خبرهم ﴿ولكنّا كنا مرسلين﴾، أي: أرسلناك رسولاً وأنزلنا عليك كتاباً فيه هذه الأخبار فتتلوها عليهم، ولولا ذلك لما علمتها ولم تخبرهم بها ﴿وما كنت بجانب الطور﴾ بناحية الجبل الذي كَلَّمَ الله عليه موسى ﴿إذ نادينا ولكن رحمة من ربك﴾ قال ابن كثير^(١): أي ما كنت شاهداً لشيء من ذلك، ولكن الله تعالى أوحاه إليك وأخبرك به رحمة منه بك وبالعباد بإرسالك إليهم ﴿لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَفِيرٍ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٥١﴾.

قال البغوي^(٢): ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة﴾ عقوبة ونقمة ﴿بما قدمت أيديهم﴾ من الكفر والمعصية ﴿فيقولوا ربنا لولا﴾ هلاً ﴿أرسلت إلينا رسولاً فنتتبع آياتك ونكون من المؤمنين﴾ وجواب «لولا» محذوف: أي لعاجلناهم بالعقوبة،

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم»، (٣/٣٩١).

(٢) انظر «معالم التنزيل»، (٣/٣٨٥).

يعني: لولا أنهم يحتجّون بترك الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة بكفرهم؛ وقيل: معناه لَمَّا بعثناك إليهم رسولاً، ولكن بعثناك إليهم لثلاً يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

﴿فلما جاءهم الحق من عندنا﴾، يعني: محمد ﷺ ﴿قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾ من الآيات، قال الله تعالى: ﴿أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون﴾. قال مجاهد: يهود تأمر قريشاً أن تسأل محمداً مثل ما أوتي موسى، يقول الله لمحمد ﷺ: قل لقريش يقولوا لهم ﴿أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل﴾.

وعن قتادة قوله: ﴿قالوا سحران تظاهرا﴾ قالت ذلك أعداء الله اليهود للإنجيل والفرقان. وعن الضحاك ﴿وقالوا إنا بكل كافرون﴾ يعنون الإنجيل والفرقان، وقال ابن كثير^(١): يقول تعالى مخبراً عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجّة عليهم لاحتجّوا بأنهم لم يأتهم رسول، أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ﷺ، على وجه التعنت والعناد ﴿لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾، يعنون والله أعلم: من الآيات الكثيرة ﴿أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل﴾؟، أي: أولم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة؟ وقالوا: ﴿سحران تظاهرا﴾، أي: تعاوناً، ﴿وقالوا إنا بكل كافرون﴾، أي: بكل منهما كافرون؛ ولشدة التلازم والتصاحب والمقاربة بين موسى وهارون، دلّ ذكر أحدهما على الآخر. قال: وأما من قرأ: ﴿سحران تظاهرا﴾، فعن ابن عباس: يعنون التوراة والقرآن. انتهى ملخصاً.

وقوله تعالى: ﴿قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين﴾ قال ابن زيد: هو أهدى من هذين الكتابين الذي بعث به موسى والذي بعث به محمد ﷺ.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٩٢).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ قال ابن كثير^(١): أي فإن لم يجيبوك عما قلت لهم ولم يتبعوا الحق ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾، أي: بلا دليل ولا حجة ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾، أي: بغير حجة مأخوذة من كتاب الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وعن قتادة: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ قال: وصل الله لهم القول في هذا القرآن يخبرهم: كيف صنع بمن مضى وكيف هو صانع ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُنزَّلَ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَكَبُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

عن مجاهد قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ إلى قوله: ﴿الجاهلين﴾ قال: هم مسلمة أهل الكتاب. وفي الصحيح عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنيه ثم آمن بي، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فترجها»^(٢).

وقال ابن إسحاق: ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى، حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد فجلسوا إليه وكلموه وسألوه، ورجال من قريش في أندية حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا، دعاهم إلى الله تعالى وتلا عليهم

(١) المصدر السابق (٣/٣٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٩٧ و ٣٠١١)، ومسلم (ح/١٥٤).

القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقالوا لهم: خيبتكم الله من ركب، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال؟! ما نعلم ركباً أحقق منكم، أو كما قالوا لهم، فقالوا لهم: سلام عليكم لانجاهلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيراً، إلى أن قال: ويقال والله أعلم أن فيهم نزلت هذه الآيات ﴿والذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون﴾ إلى قوله: ﴿لانتبغي الجاهلين﴾.



الدرس الخامس بعد المائتين

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ
 بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُخَاطَفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُمْكِن لَهُمْ
 حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ وَرِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
 يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ قَبْرِكَ بَطَرْتَ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسَكِنُهُمْ لَمْ
 تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى
 حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا
 وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أُرْسِلُ مِنْ شَيْءٍ فَتَمَتَّعِ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ
 اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ءَأَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدَا حَسَنًا فَهُوَ لَئِيْقٍ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ
 مَتَّعِ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ
 شُرَكَاءِي الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ
 أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا
 شُرَكَاءَكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ
 يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعِمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا
 يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَسَعَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ
 الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ
 اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا

يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ
وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٦٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ
إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَيْلًا تَسْمَعُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ
عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ
تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَيْلًا تُبْصِرُونَ ﴿٦٩﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
لِتَشْكُرُوا فِيهِ وَتُبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ
شُرَكَاءِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧١﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا
فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٢﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ .

عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال رسول الله ﷺ: «يا عم قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: «والله لأستغفرنّ لك ما لم أنه عنك»، فأنزل الله ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى﴾ وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسول الله ﷺ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(١) رواه ابن جرير وغيره.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعَ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفَ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِئُوهُ إِلَيْهِ وَنُفِرُ كُلَّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِشَتَهَا فَنَلَّكَ مَسْكَنَتُهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿إِن نَّبِيعَ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفَ مِنْ أَرْضِنَا﴾ قال: هم أناس من قريش قالوا لمحمد: إن نتبعك يتخطفنا الناس فقال الله: ﴿أَو لَمْ نُمَكِّنْ

(١) أخرجه البخاري (ح/ ١٣٦٠ و ٣٨٨٤ و ٤٦٧٥ و ٤٧٧٢)، ومسلم (ح/ ٢٤).

لهم حرماً آمناً يُجْبَى إليه ثمرات كل شيء ﴿٦٠﴾ قال قتادة: يقول أولم يكونوا آمنين في حرمهم لا يُغزَوْنَ فيه ولا يخافون ﴿٦١﴾ يجبى إليه ثمرات كل شيء ﴿٦٢﴾ قال ابن عباس: ثمرات الأرض. قال ابن كثير^(١)، أي: من سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره، وكذلك المتاجر والأمتعة ﴿٦٣﴾ رزقاً من لدنا ﴿٦٤﴾، أي: من عندنا ﴿٦٥﴾ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴿٦٦﴾ ولهذا قالوا ما قالوا.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها﴾ قال: البطر أشر أهل الغفلة وأهل الباطل، والركوب لمعاصي الله؛ وقال: ذلك البطر في النعمة. ﴿فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً﴾ يقول: فتلك دور القوم الذين أهلكناهم خربت فلم يعمر منها إلا أقلها ﴿وكننا نحن الوارثين﴾.

وعن قتادة ﴿وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً﴾ وأم القرى مكة، وبعث الله إليهم رسولاً محمداً ﷺ.

قال البغوي^(٢): وخصّ الأمم ببعثة الرسول فيها، لأن الرسول يبعث إلى الأشراف، والأشراف يسكنون المدائن والمواضع التي هي أم ما حولها. وعن ابن عباس: ﴿وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾ قال الله: لم يهلك قرية بإيمان، ولكنه يهلك القرى بظلم إذا ظلم أهلها.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنْتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٦﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه﴾ قال: هو المؤمن

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٩٥).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٨٧).

سمع كتاب الله فصدّق به وآمن بما وعد الله فيه: ﴿كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهو هذا الكافر ليس والله كالمؤمن ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾، أي: في عذاب الله. وقال مجاهد: أهل النار أخضروها.

قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

قال البغوي^(١): قوله تعالى: ﴿ويوم ينادوهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ في الدنيا أنهم شركائي ﴿قال الذين حق عليهم القول﴾ وجب عليهم العذاب، وهم رؤوس الضلالة ﴿ربنا هؤلاء الذين أغوينا﴾، أي: دعوناهم إلى الغي وهم الأتباع ﴿أغويناهم كما غوينا﴾ أضللناهم كما ضللنا ﴿تبرأنا إليك﴾ منهم ﴿ما كانوا إيانا يعبدون﴾ بريء بعضهم من بعض وصاروا أعداء، كما قال تعالى: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو﴾^(٢).

﴿وقيل﴾ للكفار ﴿ادعوا شركاءكم﴾، أي: الأصنام لنخلصكم من العذاب ﴿فدعوه فلم يستجيبوا لهم﴾ لم يجيبوهم ﴿ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون﴾ وجواب «لو» محذوف على تقدير: لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا ما رأوا العذاب.

وقال ابن كثير^(٣): يقول تعالى مخبراً عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة حيث يناديهم ﴿فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾؟ يعني الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا من الأصنام والأنداد، هل ينصرونكم أو تنصرونه؟

(١) المصدر السابق (٣/٣٨٨).

(٢) سورة الزخرف: الآية ٦٧.

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٩٧).

وهذا على سبيل التقرير والتهديد، كما قال تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما حولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وصلّ عنكم ما كنتم تزعمون﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

قال ابن كثير^(٢): النداء الأول عن سؤال التوحيد، وهذا فيه إثبات النبوات، ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم؟ وكيف كان حالكم معهم؟ وهذا كما يسأل العبد في قبره: مَنْ رَبِّكَ؟ ومن نبيك؟ وما دينك؟ فأما المؤمن فيشهد: أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأما الكافر فيقول: هاه هاه لا أدري، ولهذا لا جواب له يوم القيامة، لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً، ولهذا قال تعالى: ﴿فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون﴾ قال مجاهد: ﴿فعميت عليهم﴾ الحجج فهم لا يتساءلون بالأنساب.

قال البغوي^(٣): ﴿فهم لا يتساءلون﴾ لا يجيبون. وقال قتادة: لا يحتجون. وقيل: يسكتون لا يسأل بعضهم بعضاً. وقوله: ﴿فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً﴾، أي: في الدنيا ﴿فعسى أن يكون من المفlichen﴾، أي: يوم القيامة، و«عسى» من الله موجبة، فإن هذا واقع بفضل الله ومنته لا محالة.

قوله عز وجل: ﴿وَرَبِّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبِّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ

(١) سورة الأنعام: الآية ٩٤.

(٢) المصدر السابق (٣/٣٩٧).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٨٩).

وَمَا يُعَلِّمُونَ ﴿٦٦﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ
الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٣﴾ .

قال ابن كثير^(١): يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار، وأنه ليس له في ذلك منازع ولا معقب. قال تعالى: ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار﴾، أي: ما يشاء، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فالأمور كلها خيرا وشرها بيده ومرجعها إليه. وقوله: ﴿ما كان لهم الخيرة﴾ نفى على أصح القولين، كقوله تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾^(٢).

إلى أن قال: ولهذا قال: ﴿سبحان الله وتعالى عما يشركون﴾، أي: من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئاً؛ ثم قال تعالى: ﴿وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون وهو الله لا إله إلا هو﴾، أي: هو المنفرد بالالوهية فلا معبود سواه، كما لا رب يخلق ما يشاء ويختار سواه: ﴿له الحمد في الأولى والآخرة﴾، أي: في جميع ما يفعله هو المحمود عليه بعدله وحكمته ﴿وله الحكم﴾، أي: الذي لا معقب له لقهره وغلبته وحكمته ورحمته ﴿وإليه ترجعون﴾، أي: جميعكم يوم القيامة فيجزى كل عامل بعمله.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٦٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ .

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٩٧).

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

قال في جامع البيان: ختم الأولى بقوله: ﴿أفلا تسمعون﴾ والثانية بقوله: ﴿أفلا تبصرون﴾ لمناسبة قوة السامعة بالليل وقوة الباصرة بالنهار.

قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعِلْمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ .

قال ابن كثير^(١): وهذا أيضاً نداء ثان على سبيل التوبيخ والتفريع لمن عبد مع الله إلهاً آخر، يناديهم الرب تعالى على رؤوس الأشهاد: ﴿فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾، أي: في دار الدنيا: ﴿ونزعنا من كل أمة شهيداً﴾ قال مجاهد: يعني رسولاً ﴿فقلنا هاتوا برهانكم﴾، أي: على صحة ما ادعيتموه من أن الله شركاء: ﴿فعلمو أن الحق لله﴾، أي: لا إله غيره، فلم ينطقوا ولا يخرو جواباً: ﴿فضل عنهم ما كانوا يفترون﴾، أي: ذهبوا فلم ينفعوهم.



(١) المصدر السابق (٣/٣٩٨).

الدرس السادس بعد المائتين

﴿ إِن قَدْرُونَ كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ۖ وَءَايَاتُهُ مِنَ الْكُتُوبِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۗ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۗ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ دُونِهِمْ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَدْرُونَ ۚ إِنَّهُمْ لَدُونَ حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ اللَّهُ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ فَتْرَةٍ يَصُورُونَ ۚ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنْ الْمُتَنَصِّرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَابُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنَّ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ الَّذِي فَرضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ

هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۗ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۗ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۗ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۗ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۗ لَهُ الْكُرْسِيُّ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّا قَرُونٌ كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآيَاتِنَا مِنَ الْكُوزِ مَا إِن مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْمُضْبَكَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ .

عن قتادة: ﴿إن قارون كان من قوم موسى﴾ كنا نحدث أنه كان ابن عمه أخي أبيه، وكان يسمى النور من حسن صوته بالتوراة، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري فأهلكه البغي، إنما بغى عليهم بكثرة ماله.

وعن مجاهد ﴿وآتيناه من الكوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة﴾ قال: مفاتح من جلود كمفاتح العيدان. وعن ابن عباس في قوله ﴿لتنوء بالعصبة﴾ قال: لتثقل بالعصبة. قال قتادة: ذكر لنا أن العصبة ما بين العشرة إلى الأربعين.

وعن مجاهد في قوله: ﴿لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾ قال: المتبذخين الأشرين البطرين، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم. وقال: هو فرح البغي.

وعن ابن عباس: ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ قال: أن تعمل فيها لآخرتك. وعن قتادة: ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ قال: طلب الحلال. قال ابن

كثير^(١): وقوله: ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾، أي: استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة في طاعة ربك، والتقرب إليه بأنواع القربات التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾، أي: مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمسكن والمناجح، فإن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، ولزورك عليك حقاً، فآت كل ذي حق حقه ﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾، أي: أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك ﴿ولا تبغ الفساد في الأرض﴾، أي: لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به في الأرض وتسيء إلى خلق الله ﴿إن الله لا يحب المفسدين﴾.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿قال إنما أوتيته على علم عندي﴾ قال: لولا رضا الله عني ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا وقرأ ﴿أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً﴾؟ الآية. وعن مجاهد: ﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ كقوله: ﴿يعرف المجرمون بسببهم﴾^(٢) زرقاً سود الوجوه، والملائكة لا تسأل عنهم قد عرفتهم. وقال الحسن: لا يسألون سؤال استعلام وإنما يسألون سؤال تفرغ وتوبيخ.

قوله عز وجل: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَدْ رُونَ إِنَّكُمْ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّكِرُونَ ﴿٨١﴾ فَخَسَفْنَا بِهِهٖ وَيَدَارِئِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ

(١) انظر تفسير القرآن العظيم (٣/٣٩٩).

(٢) سورة الرحمن: الآية ٤١.

يَقُولُونَ وَيَكْفُرُونَ وَاللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكْفُرُونَ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨١﴾ .

عن مجاهد ﴿فخرج على قومه في زنته﴾ قال: على براذين بيض عليها سروج الأرجوان عليهم المعصفرات. وعن قتادة: ﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾ ذكر لنا أنه يخسف به كل يوم قامة، وأنه يتجلجل فيها لا يبلغ قعرها إلى يوم القيامة^(١).

﴿فما كان له من فئة ينصرونه﴾، أي: جند ينصرونه، وما عنده منعة يمنع بها من الله ﴿وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن﴾ قال: ألم تر. وقال مجاهد: ألم تعلم. وقال ابن كثير^(٢): قال بعضهم: معناه ويلك اعلم وقواه، وقال: فلما خسف به أصبحوا يقولون ﴿ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر﴾، أي: ليس المال بدالاً على رضى الله عن صاحبه، فإن الله يعطي ويمنع ويضيق ويوسع يخفض ويرفع، وله الحكمة التامة والحجة البالغة؛ وهذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم، وإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب»^(٣).

﴿لولا أن من الله علينا لخسف بنا﴾، أي: لولا لطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا كما خسف به، لأننا وددنا أن نكون مثله ﴿ويكأنه لا يفلح الكافرون﴾ يعنون أنه كان كافراً ولا يفلح الكافرون عند الله لا في الدنيا ولا في الآخرة.

(١) أخرجه ابن جرير (١١٩/٢٠)، وروي موقوفاً عن سمرة بن جندب، أخرجه ابن أبي حاتم كما عزاه له السيوطي في «الدار» (٢٦٣/٥).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٠٠/٣).

(٣) أخرجه أحمد (٣٨٧/١)، والدارقطني في «العلل» (٤٤٧/٢)، والحاكم (٤٤٧/٢) وصححه، ووافقه الذهبي!! وأبو نعيم في «الحلية» (١٦٦/٤)، والبيهقي في «شرح السنة» (٩/٩)، وسنده ضعيف، والصواب وقفه كما رجح ذلك الدارقطني رحمه الله في «علله».

قوله عز وجل: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ .

عن مسلم البطين ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ﴾ قال: العلو التكبر في الأرض بغير الحق، والفساد الأخذ بغير الحق. وعن ابن جريج قوله: ﴿ للذين لا يريدون علواً في الأرض ﴾ قال: تعظيماً وتجبيراً ﴿ ولا فساداً ﴾ عملاً بالمعاصي. وعن قتادة ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾، أي: الجنة للمتقين.

وقوله تعالى: ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾.

قال ابن كثير^(١): أي ثواب الله خير من حسنة العبد، فكيف يضاعفه أضعافاً كثيرة؟ وهذا مقام الفضل؛ ثم قال: ﴿ ومن جاء بالسئنة فلا يجزي الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون ﴾ وهذا مقام العدل.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَّبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْوَعْدَ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ .

عن مجاهد في قوله: ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ قال: إلى الجنة. وقال الحسن أي والله إن له لمعاداً يبعثه الله يوم القيامة ويدخله الجنة.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٠٢/٣).

وعن ابن عباس: ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾ يقول: لرادك إلى الجنة، ثم سائلك عن القرآن؛ وعنه ﴿لرادك إلى معاد﴾ قال: إلى مكة.

قال ابن كثير^(١): ووجه الجمع بين هذه الأقوال أن ابن عباس فسّر ذلك تارة برجوعه إلى مكة، وهو الفتح الذي هو عند ابن عباس أمانة على اقتراب أجل النبي ﷺ، إلى أن قال: ولهذا فسّر ابن عباس تارة أخرى قوله: ﴿لرادك إلى معاد﴾ بالموت، وتارة بيوم القيامة الذي هو بعد الموت، وتارة بالجنة التي هي جزاؤه ومصيره، على أداء رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين الإنس والجن.

وقال البغوي^(٢): ﴿قل ربي أعلم من جاء بالهدى﴾، أي: يعلم من جاء بالهدى، وهذا جواب لكفار مكة لما قالوا للنبي ﷺ: إنك لفي ضلال مبين، فقال الله عز وجل: ﴿قل﴾ لهم ﴿ربي أعلم من جاء بالهدى﴾، أي: يعلم من جاء بالهدى، يعني: نفسه ﴿ومن هو في ضلال مبين﴾، يعني: المشركين، والله أعلم بالفريقين.

قوله تعالى: ﴿وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب﴾، أي: يوحى إليك القرآن ﴿إلا رحمة من ربك﴾ قال الفراء: هذا من الاستثناء المنقطع معناه: لكن ربك رحمك فأعطاك القرآن ﴿فلا تكوننّ ظهيراً للكافرين﴾، أي: معيناً لهم على دينهم. وقال مقاتل: وذلك حين دُعي إلى دين آبائه، فذكره الله نعمه ونهاه عن مظاهرهم على ما هم عليه ﴿ولا يصدنك عن آيات الله﴾، يعني: القرآن ﴿بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك﴾ إلى معرفته وتوحيده ﴿ولا تكوننّ من المشركين﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الخطاب في الظاهر للنبي ﷺ، والمراد به أهل دينه، أي: لا تظاهروا الكافرين ولا توافقوهم.

(١) المصدر السابق (٣/٤٠٢).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٩٤).

وقال ابن كثير^(١): وقوله: ﴿ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو﴾، أي: لا تليق العبادة إلا له ولا تنبغي الإلهية إلا لعظمته.

وقوله: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ إخبار بأنه الدائم ثم الباقي الحي القيوم الذي تموت الخلائق ولا يموت، كما قال تعالى: ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ فعبر بالوجه عن الذات، وهكذا قوله ههنا ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾، أي: إلا إياه. وقوله: ﴿له الحكم﴾، أي: الملك والتصرف ولا معقب لحكمه ﴿وإليه ترجعون﴾، أي يوم معادكم فيجزيكم بأعمالكم.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٤٠٣).

الدرس السابع بعد المائتين

﴿سورة العنكبوت﴾

مكية، وهي تسع وستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْعنكبوت﴾ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ
فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٢﴾ أَمْ حَسِبَ
الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْمِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٣﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ
فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ
لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ
جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ ءَعْلَمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَّآ مَرْجِعُكُمْ فَأُنْتَهَكُمُ بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٨﴾
وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ
وَلَيْنِ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولَنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ
الْعٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحٰمِلِينَ مِنْ

خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَنْقَالَهُمْ
وَلَيْسَ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (٣) ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٤) ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٥) ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (٦) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٧).

قال البغوي^(١): ﴿آلم أحسب الناس﴾ أظنَّ الناس ﴿أن يُتركوا﴾ بغير اختبار ولا ابتلاء ﴿أن يقولوا﴾، أي: بأن يقولوا ﴿آمنا وهم لا يفتنون﴾ لا يتلون في أموالهم وأنفسهم؟ كلا لنختبرنهم، لبيِّن المخلص من المنافق والصادق من الكاذب. وعن مجاهد ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم﴾ قال: ابتلينا الذين من قبلهم. وفي الحديث الصحيح: «أشدَّ الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل، يتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فليعلمنَّ الله الذين صدقوا وليعلمنَّ الكاذبين﴾.

قال البغوي^(٣): والله أعلم بهم قبل الاختبار، ومعنى الآية: وليظهرنَّ الله الصادقين من الكاذبين حتى يوجد معلومه. وعن قتادة قوله: ﴿أم حسب الذين

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤٠٢/٣).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٢/١ و ١٧٤ و ١٨٠ و ١٨٥)، والترمذي (ح/٢٣٩٨)، وابن ماجه (ح/٤٠٢٣)، والحاكم (٤٠/١ و ٤١) من حديث سعد بن أبي وقاص، وهو حديث صحيح.

(٣) المصدر السابق (٣٩٦/٣).

يعملون السيئات ﴿﴾، أي: أهل الشرك ﴿﴾ أن يسبقونا ﴿﴾ قال مجاهد: أن يعجزونا ﴿﴾ ساء ما يحكمون ﴿﴾.

قال ابن كثير^(١): بشس ما يظنون. ﴿﴾ من كان يرجو لقاء الله ﴿﴾، أي: في الدار الآخرة وعمل الصالحات، ورجاً ما عند الله من الثواب الجزيل، فإن الله سيحقق له. رجاءه ويوفيه عمله كاملاً موفراً، فإن ذلك كائن لا محالة لأنه سميع الدعاء بصير بكل الكائنات، ولهذا قال تعالى: ﴿﴾ من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم ﴿﴾.

وقوله تعالى: ﴿﴾ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ﴿﴾ كقوله تعالى ﴿﴾ من عمل صالحاً فلنفسه ﴿﴾، أي: من عمل صالحاً فإنما يعود نفع عمله على نفسه، فإن الله تعالى غني عن أفعال العباد، ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئاً، ولهذا قال تعالى: ﴿﴾ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين ﴿﴾. قال الحسن البصري: إن الرجل ليجاهد، وما ضرب يوماً من الدهر بسيف.

ثم أخبر تعالى أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم ومع برّه وإحسانه بهم، يجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء، وهو أنه يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون، فيقبل القليل من الحسنات ويثب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ويجزي على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح، كما قال تعالى: ﴿﴾ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴿﴾^(٢)، وقال ههنا: ﴿﴾ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزيتهم أحسن الذي كانوا يعملون ﴿﴾.

قوله عز وجل: ﴿﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، (٣/٤٠٤).

(٢) سورة النساء: الآية ٤٠.

لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا^٤ إِلَىٰ مَرَجِعِكُم مَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ .

عن قتادة: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾ إلى قوله: ﴿فأنتبئكم بما كنتم تعملون﴾ قال: نزلت في سعد بن أبي وقاص لما هاجر قالت أمه: والله لا يُظَلُّني بيت حتى يرجع، فأنزل الله في ذلك أن يحسن إليهما ولا يطيعهما في الشرك. وروى مسلم وغيره عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: نزلت في أربع آيات، فذكر قصته وقال: قالت أم سعد: أليس الله قد أمرك بالبر، والله لا أطمع طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاهاً، فنزلت: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وأنجاهك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تعطهما إليّ مرجعكم فأنتبئكم بما كنتم تعملون﴾^(١).

قال البغوي^(٢): ثم إنها مكثت يوماً وليلة لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل، فأصبحت قد جهدت، ثم مكثت يوماً آخر وليلة لم تأكل ولم تشرب، فجاء سعد إليها فقال: يا أمّاه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً، ما تركت ديني فكلي وإن شئت فلا تأكلي، فلما أيست منه أكلت وشربت، فأنزل الله تعالى هذه الآية وأمره بالبر بوالديه والإحسان إليهما وأن لا يطيعهما في الشرك، فذلك قوله عز وجل: ﴿وإنجاهك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تعطهما﴾. جاء في الحديث: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»^(٣).

(١) أخرجه مسلم (٤/١٨٧٧ و ١٨٧٨).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٩٦).

(٣) أخرجه البغوي في «شرح السنة» (١٠/٤٤) من حديث النّوّاس بن سمعان، بسند ضعيف، لجهالة الزبرقان لكن له شاهد من حديث عمران بن حصين، والحاكم بن عمرو رضي الله عنهما، مرفوعاً: «لا طاعة لأحد في معصية الله تبارك وتعالى»، أخرجه أحمد (٥/٦٦)، والطيالسي (ص ١١٥)، والحاكم (٢/٤٤٣)، وصححه، ووافقه الذهبي، فالحديث بهذا الشاهد حسن إن شاء الله تعالى.

ثم أوعد بالمصير إليه فقال: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾
أخبركم بصالح أعمالكم وسيئها فأجازيكم عليها.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾،
أي: في زمرة الصالحين وهم الأنبياء والأولياء. قال ابن جرير^(١): يقول تعالى
ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وذلك أن يؤدوا فرائض الله
ويجتنبوا محارمه ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ في مدخل الصالحين، وذلك الجنة.

قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ
فِتْنَةَ النَّاسِ كُذَّابٍ لَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولَنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ
لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ
الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله جعل
فتنة الناس كعذاب الله﴾ قال: أن يرتد عن دين الله إذا أؤذي في الله. وعن مجاهد
قوله: ﴿فإذا أؤذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾ إلى قوله: ﴿وليعلمنَّ
المنافقين﴾ قال: أناس يؤمنون بألسنتهم، فإذا أصابهم بلاء من الله أو مصيبة في
أنفسهم افتنوا، فجعلوا ذلك في الدنيا كعذاب الله في الآخرة.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا
وَلْنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ
لَكَذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا
كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

عن مجاهد قوله: ﴿اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم﴾ قال: قول كفار قريش

(١) انظر «جامع البيان» (١٣٢/٢٠).

بمكة لمن آمن منهم، يقول قالوا: لا نبعث نحن ولا أنتم فاتبعونا إن كان عليكم شيء فهو علينا.

وعن قتادة ﴿وليحملن أثقالهم﴾، أي: أوزارهم ﴿وأثقالاً مع أثقالهم﴾ يقول: أوزار من أضلّوا. وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وليسألنّ يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾، أي: سؤال توبيخ وتقرّيع.



(١) أخرجه مسلم (ح/٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الدرس الثامن بعد المائتين

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِذْ هَبْنَا شُرُوعَهُمْ لِقَوْمِهِ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتُمُ الْمُسْلِمُونَ ﴿١٦﴾ وَإِن كُنْتُمْ تَحِبُّونَ لَلْفِئَةِ أَلْفٌ عَشْرٌ فَتَلَمُّونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٨﴾ وَإِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا نُوحُ اهْبِطْ مِنَ الْكَلْبِ إِنَّكَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَاسْمِعْنَا لَكُمْ آلَافَ مَلَأْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْبًا بِمَا لَمْ يُحِبُّوا وَلَهُمْ فِي السَّمَاءِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢١﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ لِلْعَالَمِينَ آيَةً وَأَبْرَاهِيمَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتُمُ الْمُسْلِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ لِلْعَالَمِينَ آيَةً وَأَبْرَاهِيمَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتُمُ الْمُسْلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ لِلْعَالَمِينَ آيَةً وَأَبْرَاهِيمَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتُمُ الْمُسْلِمُونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ لِلْعَالَمِينَ آيَةً وَأَبْرَاهِيمَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتُمُ الْمُسْلِمُونَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ لِلْعَالَمِينَ آيَةً وَأَبْرَاهِيمَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتُمُ الْمُسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ لِلْعَالَمِينَ آيَةً وَأَبْرَاهِيمَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتُمُ الْمُسْلِمُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ لِلْعَالَمِينَ آيَةً وَأَبْرَاهِيمَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتُمُ الْمُسْلِمُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ لِلْعَالَمِينَ آيَةً وَأَبْرَاهِيمَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتُمُ الْمُسْلِمُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ لِلْعَالَمِينَ آيَةً وَأَبْرَاهِيمَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتُمُ الْمُسْلِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ لِلْعَالَمِينَ آيَةً وَأَبْرَاهِيمَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتُمُ الْمُسْلِمُونَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ لِلْعَالَمِينَ آيَةً وَأَبْرَاهِيمَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتُمُ الْمُسْلِمُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ لِلْعَالَمِينَ آيَةً وَأَبْرَاهِيمَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتُمُ الْمُسْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ لِلْعَالَمِينَ آيَةً وَأَبْرَاهِيمَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتُمُ الْمُسْلِمُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ لِلْعَالَمِينَ آيَةً وَأَبْرَاهِيمَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتُمُ الْمُسْلِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ لِلْعَالَمِينَ آيَةً وَأَبْرَاهِيمَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتُمُ الْمُسْلِمُونَ ﴿٣٦﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ لِلْعَالَمِينَ آيَةً وَأَبْرَاهِيمَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتُمُ الْمُسْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ لِلْعَالَمِينَ آيَةً وَأَبْرَاهِيمَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتُمُ الْمُسْلِمُونَ ﴿٣٨﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ لِلْعَالَمِينَ آيَةً وَأَبْرَاهِيمَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتُمُ الْمُسْلِمُونَ ﴿٣٩﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ لِلْعَالَمِينَ آيَةً وَأَبْرَاهِيمَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتُمُ الْمُسْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

لَكُمْ مِنْ تَصْرِيفِكُمْ ﴿٢٥﴾ * فَمَنْ لَّهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ
 الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ
 وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أُجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ
 قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأنتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ
 الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَيُّكُمْ لَأنتُونَ الرِّجَالُ وَتَقَطُّعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي
 نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ
 اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرني عَلَى الْقَوْمِ
 الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ
 هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنِّي فِيهَا لُوطًا قَالُوا
 نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾
 وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِوَىٰ بِهِمْ وَضَافَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا
 تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا
 مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾
 وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدِينِ أَخَاهُمْ
 شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ
 مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّحْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ
 جِثْمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْجِدِهِمْ
 وَرَبِّكَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾
 وَقَتْرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَسْتَكْبَرُوا فِي
 الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِقِينَ ﴿٤٠﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ

حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ
مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ
يُظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

عن ابن عباس قال: بعث نوح وهو لأربعين سنة، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ستين عاماً حتى كثر الناس وفشوا. وعن مجاهد قال: قال لي ابن عمر: كم لبث نوح في قومه؟ قال: قلت: ألف سنة إلا خمسين عاماً، قال: فإن الناس لم يزالوا في نقصان من أعمارهم وأحلامهم وأخلاقهم إلى يومك هذا.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ قال قتادة: أبقاها الله آية للناس بأعلى الجودي.

وقال ابن كثير^(١): أو نوعها، وهذا من باب التدرج من الشخص إلى الجنس، كقوله تعالى: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾^(٢) أي وجعلنا نوعها رجوماً، فإن التي يرمى بها ليست هي زينة للسماء.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ هَبْنَا دَاوُودَ الْأَسْبَاطَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ آعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٠٧/٣).

(٢) سورة الملك: الآية ٥.

الرِّزْقَ وَأَعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ
مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ .

قال البغوي^(١): قوله تعالى: ﴿وإبراهيم﴾ أي وأرسلنا إبراهيم ﴿إذ قال لقومه
اعبدوا الله واتقوه﴾ أطيعوه وخافوه ﴿ذلكم خير إن كنتم تعلمون إنما تعبدون من
دون الله أوثاناً﴾ أصناماً ﴿وتخلقون إفكاً﴾ تقولون كذباً، قال مقاتل: تصنعون
أصناماً بأيديكم فتسمونها آلهة ﴿إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم
رزقاً﴾ لا يقدر أن يرزقوكم ﴿فابتغوا﴾ فاطلبوا ﴿عند الله الرزق واعبدوه
واشكروا له إليه ترجعون وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم﴾ مثل عاد وثمود
وغيرهم فأهلكوا ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ .

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۗ إِنَّ
ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ
اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ
مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنشَأَ بِمَعْجِرَاتٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا
لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ
وَلِقَائِهِ ۗ أُولَٰئِكَ يَسُؤُونَ مَن رَّحِمَنِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ .

عن قتادة في قوله: ﴿أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده﴾ بالبعث
بعد الموت ﴿إن ذلك على الله يسير قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾
خلق السموات والأرض ﴿ثم الله ينشئ النشأة الآخرة﴾، أي: البعث بعد الموت.
وعن ابن عباس قوله: ﴿ثم الله ينشئ النشأة الآخرة﴾ قال: هي الحياة بعد الموت،
وهو النشور.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٩٨).

قال البغوي^(١): فكما لم يتعذر عليه إحدائها مبتدئاً لا يتعذر عليه إنشاؤها معيداً ﴿إن الله على كل شيء قدير يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون﴾ تزدون.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء﴾ قال: لا يعجزه أهل الأرضين في الأرضين، ولا أهل السموات في السموات، إن عصوه ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾.

قال البغوي^(٢): أي ﴿من ولي﴾ يمنعكم مني ﴿ولا نصير﴾ ينصركم من عذابي.

وقوله تعالى: ﴿والذين كفروا بآيات الله ولقائه﴾ أي بالقرآن وبالبعث ﴿وأولئك يسوا من رحمتي﴾ أي لا نصيب لهم فيها ﴿وأولئك لهم عذاب أليم﴾ موجع وهو عذاب النار.

قوله عز وجل: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا أَخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَمَنْ لَّهُمْ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَيْكُمْ وَإِنَّهُمُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿فما كان جواب قومه﴾ قوم إبراهيم ﴿إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأناجاه الله من النار﴾ قال: كعب ما حرقت منه إلا وثاقه ﴿إن في ذلك آيات لقوم يؤمنون﴾.

(١) المصدر السابق (٣/٣٩٩).

(٢) المصدر السابق (٣/٣٩٩).

وعن قتادة ﴿وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودةً بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين﴾ قال: صارت كل خلّة في الدنيا عداوة على أهلها يوم القيامة إلا خلّة المتقين.

وعن ابن عباس قوله: ﴿فأمن له لوط﴾ قال: صدقه لوط ﴿وقال إني مهاجر إلى ربي﴾ قال: هو إبراهيم. وقال قتادة: هاجرا جميعاً من كوثي، وهي من سواد الكوفة إلى الشام.

وقوله تعالى: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾. عن قتادة قوله: ﴿وآتيناه أجره في الدنيا﴾ قال: عافية وعملاً صالحاً وثناء حسناً، فلست بلاقٍ أحداً من الملائة إلا يرضى إبراهيم ويتولاه ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ طَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَيُّكُمْ لَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَتَيْنَا بَعْدَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

عن عمرو بن دينار في قوله: ﴿إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ قال: ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط. وعن أم هانئ قالت: سألت النبي ﷺ عن قوله: ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ قال: «كانوا يحذفون أهل الطريق ويسخرون منهم»^(١). رواه ابن جرير وغيره.

(١) أخرجه أحمد (٣٤١/٦ و ٤٢٤)، والترمذي (ح/٣١٩٠) وحسنه، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (ح/٢٨٢)، وابن جرير (١٤٥/٢٠)، والطبراني (٤١١/٢٤ و ٤١٢)، والحاكم =

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّكَ فِيهَا لَوْطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تَكُنْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى﴾ إلى قوله: ﴿نحن أعلم بمن فيها﴾ قال: فجادل إبراهيم الملائكة في قوم لوط أن يتركوا، قال فقال: أرايتم إن كان فيها عشر آيات من المسلمين أتركونهم؟ فقالت الملائكة: ليس فيها عشر آيات ولا خمسة ولا أربعة ولا ثلاثة ولا اثنان، قال: فحزن على لوط وأهل بيته ف ﴿قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجيته وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾ فذلك قوله: ﴿يجادلنا في قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾^(١) فقالت الملائكة: يا إبراهيم أعرض عن هذا، إنه قد جاء أمر ربك، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود.

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَحْزَنْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلِكَ إِلَّا أَمْرًا تَكُنْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

= (٢/٤١٠) وصححه على شرط مسلم، وقال الذهبي: «على شرط البخاري ومسلم»!! قلت: وفي سننه أبو صالح مولى أم هانئ وهو ضعيف، والبخاري ومسلم لم يخرجاه فكيف يكون على شرطهما. قوله: «يخذفون» بالحاء، أي: الضرب بالعصا، وفي رواية: «يخذفون» بالحاء، أي: الرمي بالحصا أو النواة تأخذهما بين الإبهام والسبابة. (١) سورة هود: الآية ٧٥.

عن قتادة قوله: ﴿ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً﴾ قال: بالضيافة مخافة عليهم مما يعلم من شر قومه.

وعن مجاهد قوله: ﴿ولقد تركنا منها آية بيّنة﴾ قال: عبرة. وقال ابن عباس: الآية البيّنة هي آثار منازلهم الخربة.

قوله عز وجل: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال إنقوموا آعبدوا الله وآرجوا اليوم الآخر ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴿٣٦﴾ فكذبوه فأخذتهم الرحفة فأصبحوا في دأريهم جنثيم ﴿٣٧﴾﴾.

قال ابن كثير^(١): وقوله: ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ نهاهم عن العبث في الأرض بالفساد، وهو السعي فيها والبغي على أهلها، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان ويقطعون الطريق على الناس، هذا مع كفرهم بالله ورسوله، فأهلكهم الله برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها، وعذاب يوم الظلة الذي أزهد الأرواح من مستقرها، إنه كان عذاب يوم عظيم.

قوله عز وجل: ﴿وعادا وتمودا وقد تبين لكم من مسكنهم وزيين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ﴿٣٨﴾ وقنوقا وفرعون وهنود ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سعيق ﴿٣٩﴾ فكلاً أخذنا بذنبيهم فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿٤٠﴾﴾.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤١٢/٣).

قال البغوي^(١): ﴿وعاداً وثمرود﴾، أي: وأهلكنا عاداً وثمرود. وعن قتادة: وكانوا متبصرين في ضلالتهم، معجبين بها، قال الفراء: كانوا عقلاء ذوي بصائر.

وقوله تعالى: ﴿وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين﴾، أي: فأتين من عذابنا ﴿فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ وهم عاد ﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾ يعني ثمود ﴿ومنهم من خسفنا به الأرض﴾ وهو قارون وأصحابه ﴿ومنهم من أغرقنا﴾ وهم فرعون وهامان وجنودهما ﴿وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.



(١) انظر «معالم التنزيل» (٤٠١/٣).

الدرس التاسع بعد المائتين

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أُولِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ أَخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ أَتَى مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقْرَبَ الصَّلَاةَ وَأَنَّى الصَّلَاةَ تَنَهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ وَلَا تَجِدُوا أُمَّةً أَحْسَنُ إِلَّا بَالِغِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَانَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذْ أَلَزَّتْكَ الْمُبْطَلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَظِرُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ

بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا
بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٦﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ أَخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً﴾ إلى آخر الآية، قال: ذلك مثل ضربه الله لمن عبد غيره. وقال قتادة: هذا مثل ضربه للمشرك، مثل إلهه الذي يدعوه من دون الله كمثل بيت العنكبوت واهن ضعيف لا ينفعه. وقال ابن زيد: لا يغني أولياؤهم عنهم شيئاً، كما لا يغني العنكبوت بيتها هذا.

قال ابن كثير^(١): ثم قال تعالى متوعداً لمن عبد غيره وأشرك به، أنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال، ويعلم ما يشركون به من الأنداد، وسيجزئهم وصفهم إنه حكيم عليم، ثم قال تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾، أي: وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتصلعون منه. وعن جابر أن النبي ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس ما يعقلها إلا العالمون﴾ قال: العالم من لم يغفل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه^(٢). رواه

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٤١٤).

(٢) أخرجه البغوي في تفسيره (٣/٤٠٢)، بسند موضوع.

البغوي وعن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزني، لأنني سمعت الله تعالى يقول: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾.

وقوله تعالى: ﴿خلق الله السموات والأرض بالحق﴾.

قال البغوي^(١)، أي: للحق وإظهار الحق: ﴿إن في ذلك﴾ في خلقها: ﴿آية﴾ لدلالة: ﴿للمؤمنين﴾ على قدرته وتوحيده.

قوله عز وجل: ﴿آتِلْ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِابْتِغَاءِ الصَّلَاةِ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ يقول: في الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصي الله؛ وقال: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بصلاته من الله إلا بعداً.

وعن عبد الله بن ربيعة قال: قال عبد الله بن عباس: هل تدري ما قوله: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ قال قلت: نعم، التسييح والتحميد والتكبير في الصلاة، وقراءة القرآن ونحو ذلك، قال: لقد قلت قولاً عجباً وما هو كذلك، ولكنه إنما يقول: ذكر الله إياكم عندما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه، أكبر من ذكركم إياه. وعن ابن عون في قول الله: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر. وعن ابن عباس في قوله: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ قال: لها وجهان: ذكر الله أكبر مما سواه، وذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية^(٢): والصحيح أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان،

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٤٠٢).

(٢) انظر «الفتاوى» (١٠/٧٥٣).

أحدهما أعظم من الآخر، ولما فيها من ذكر الله أكبر من نهيها عن الفحشاء والمنكر: ﴿والله يعلم ما تصنعون﴾ فيجازيكم.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَجِدُّ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٤٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ (٤٧) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبِطُونَ﴾ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْنِتُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ (٤٩).

قال ابن زيد في قوله: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾ قال: ليست بمنسوخة. انتهى. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ (١).

قال ابن كثير (٢): وقوله تعالى: ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾، أي: حادوا عن وجه الحق، وعموا عن واضح الحجّة، وعاندوا وكابروا فحينئذ ينتقل من الجدل إلى الجلاد. وعن سعيد: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم﴾ قال: أهل الحرب من لا عهد له جادله بالسيف. وعن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية فيفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون» (٣). رواه ابن جرير وغيره.

(١) سورة النحل: الآية ١٢٥.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٤١٥).

(٣) أخرجه البخاري (ح/٤٤٨٥ و ٧٣٦٢ و ٧٧٤٢).

وقوله تعالى: ﴿وكذلك أنزلنا إليك الكتاب﴾ .

قال البغوي^(١): وكذلك يعني كما أنزلنا إليهم الكتاب ﴿أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به﴾ يعني مؤمني أهل الكتاب ﴿ومن هؤلاء﴾ يعني أهل مكة: ﴿من يؤمن به﴾ وهم مؤمنو أهل مكة ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون﴾ وذلك أن اليهود وأهل مكة عرفوا أن محمداً نبيّ، والقرآن حق فجحدهوا. وقال قتادة: الجحود إنما يكون بعد المعرفة .

﴿وما كنت تتلو﴾ يا محمد: ﴿من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك﴾ يعني لم تكن تقرأ ولا تكتب قبل الوحي: ﴿إذا لارتاب المبطلون﴾ قال قتادة: إذا لقالوا: إنما هذا شيء تعلمه محمد وكتبه .

وقال الحسن في قوله: ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾ القرآن: ﴿آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾ يعني المؤمنين .
قال ابن كثير^(٢): ولهذا جاء في صفة هذه الأمة: أناجيلهم في صدورهم .

قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةٍ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ .

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٤٠٤) .

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٤١٧) .

قال ابن كثير^(١): يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعنتهم وطلبهم ﴿آيات﴾ يعنون ترشدهم إلى أن محمداً رسول الله كما أتى صالح بناتقته، قال الله تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد: ﴿إنما الآيات عند الله﴾، أي: إنما أمر ذلك إلى الله.

وقوله: ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾، أي: إنما بعثت نذيراً لكم، بين النذارة فعلي أن أبلغكم رسالة الله تعالى، و ﴿من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾^(٢).

ثم قال تعالى مبيناً كثرة جهلهم وسخافة عقولهم حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد ﷺ فيما جاءهم، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الذي هو أعظم من كل معجزة، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته، بل عن معارضة عشر سور من مثله، بل عن معارضة سورة منه، فقال تعالى: ﴿أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾، أي: أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم الذي فيه خبر ما قبلهم ونبأ ما بعدهم وحكم ما بينهم، وأنت رجل أمي لا تقرا ولا تكتب، ولم تخالط أحداً من أهل الكتاب، فجتهم بأخبار ما في الصحف الأولى ببيان الصواب مما اختلفوا فيه وبالحق الواضح؟ انتهى ملخصاً. وذكر الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من الأنبياء إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»^(٣).

وقال البغوي^(٤): ﴿إن في ذلك﴾ في إنزال القرآن: ﴿لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾، أي: تذكيراً وعظة لمن آمن وعمل بها: ﴿قل كفى بالله بيني وبينكم

(١) المصدر السابق (٤١٨/٣).

(٢) سورة الكهف: الآية ١٧.

(٣) أخرجه البخاري (ح/٤٩٨١ و ٧٢٧٤)، ومسلم (ح/١٥٢).

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٤٠٥/٣).

شهيذا ﴿ أني رسوله وهذا القرآن كتابه ﴾ يعلم ما في السموات والأرض والذين آمنوا بالباطل ﴿ قال ابن عباس: بغير الله. وقال قتادة: بعبادة الشيطان: ﴾ وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴿.

قال ابن كثير^(١): في يوم القيامة سيجزيهم على ما فعلوا ويقابلهم على ما صنعوا في تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل، كذبوا برسول الله مع قيام الأدلة على صدقهم، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل، فسيجزيهم على ذلك إنه حكيم عليم.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤١٨/٣).

الدرس العاشر بعد المائتين

﴿وَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَنْعِبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرًّا فَتَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَن مِّن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَاَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَمْتَعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُنْخَطِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفْيَابًا لِّبَطِلٍ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمَ اللَّهُ بِكَفْرِهِمْ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ؕ أَلَيْسَ

فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ .

قال ابن كثير^(١): يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم وبأس الله أن يحلّ عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٢) وقال ههنا: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾، أي: لولا ما حتمّ الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة، لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ قَرِيباً سَرِيعاً كما استعجلوه، ثم قال: ﴿وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً﴾، أي: فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، أي: يستعجلون العذاب، وهو واقع بهم لا محالة ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

قال ابن جرير^(٣): يقول جلّ ثناؤه: ﴿ويقول الله لهم ذوقوا ما كنتم تعملون﴾ في الدنيا من معاصي الله وما يسخطه فيها.

قوله عز وجل: ﴿يَنْعَبِدُونَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيْنَى فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

(١) المصدر السابق (٣/٤١٨).

(٢) سورة الأنفال: الآية ٣٢.

(٣) انظر «جامع البيان» (٨/٢١).

الصَّالِحَاتِ لِنُبُوَّتِهِمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرٍ
 الْعَمِلِينَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٦﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا
 اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥٧﴾ .

قال البغوي^(١): ﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون﴾
 قال مقاتل والكلبي: نزلت في ضعفاء مسلمي مكة، يقول: إن كنتم في ضيق بمكة
 من إظهار الإيمان فاخرجوا منها إلى أرض المدينة ﴿إن أرضي﴾، يعني: المدينة
 ﴿واسعة﴾ آمنة. قال مجاهد ﴿إن أرضي واسعة﴾ فهاجروا وجاهدوا فيها. وقال
 سعيد بن جبير: إذا عمل في الأرض بالمعاصي فاخرجوا منها، فإن أرضي واسعة.
 وقال عطاء: إذا أمرتم بالمعاصي فاهربوا، فإن أرضي واسعة، وكذلك يجب على
 كل من كان في بلد يعمل فيها بالمعاصي ولا يمكنه تغيير ذلك، أن يهاجر إلى حيث
 تنهياً له العبادة. انتهى.

وعن أبي مجلز في هذه الآية ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها
 وإياكم﴾ قال: من الدواب ما لا يستطيع أن يدخر لغد، فوقف رزقه كل يوم حتى
 يموت. وعن أبي هريرة مرفوعاً: «سافروا تربحوا، وصوموا تصحوا، واغزوا
 تغنموا»^(٢).

رواه أحمد. وروى البغوي بسنده عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال:
 «أيها الناس ليس من شيء يقربكم إلى الجنة ويباعدكم من النار، إلا وقد أمرتكم
 به، وليس من شيء يقربكم إلى النار ويباعدكم عن الجنة، إلا وقد نهيتكم عنه،

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤٠٦/٣).

(٢) لم أقف عليه عند أحمد بهذا اللفظ، والذي عنده بلفظ: «سافروا تصحوا، واغزوا تستغنوا»
 أخرجه أحمد (٣٨٠/٢) من حديث أبي هريرة، بسنده ضعيف. وروى نحوه بلفظ:
 «سافروا تصحوا وتغنموا»، أخرجه ابن عدي (٢/٢٩٩)، والخطيب في تاريخه
 (٣٨٧/١٠)، والقضاعي (٣٦٤/١) من حديث ابن عمر، بسند ضعيف جداً.

وإن الروح الأمين قد نفث في روعي: إنه ليس من نفس تموت حتى تستوفي رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله، فإنه لا يدرك ما عند الله إلا بطاعته^(١).

قوله عز وجل: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُمْ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ لَو كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾

قال ابن كثير^(٢): يقول تعالى مقررًا أنه لا إله إلا هو، لأن المشركين الذين يعبدون معه غيره، معترفون بأنه المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر، وتسخير الليل والنهار، وأنه الخالق الرازق لعباده ومقدر آجالهم واختلافها واختلاف أرزاقهم، ففاوت بينهم فمنهم الغني والفقير، وهو العليم بما يصلح كلاً منهم ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر، فذكر أنه المستقل بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك فلم يعبد غيره ولم يتوكل على غيره؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته؛ وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية، وقد كان المشركون يعترفون بذلك، كما يقولون في تلييتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي

(١) أخرجه البغوي في «شرح السنة» (٣٠٥/١٤) بسند ضعيف، وله شاهد من حديث أبي

أمامة بنحوه وسيأتي تخريجه.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٢١/٤).

الحيوان ﴿ قال مجاهد: لا موت فيها. قال ابن كثير^(١): وقوله تعالى: ﴿لو كانوا يعلمون﴾، أي: لآثروا ما يبقى على ما يفنى.

قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿١٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيَتَخَفَتِ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ءَأَيُّ الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ءَأَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩﴾﴾.

ذكر ابن إسحاق عن عكرمة بن أبي جهل أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فارتاً منها، فلما ركب في البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة فقال أهلها: يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء، فإنه لا ينجي ههنا إلا هو، فقال عكرمة: والله لئن كان لا ينجي في البحر غيره فإنه لا ينجي في البر أيضاً غيره. اللهم لك عليّ عهد لئن خرجت لأذهبن فلاضعن يدي في يد محمد، فلاجدنه رؤوفاً رحيماً، فكان كذلك.

وقال عكرمة: كان أهل الجاهلية إذا ركبوا البحر حملوا معهم الأصنام، فإذا اشتدت بهم الرياح ألقيوها في البحر.

وقوله تعالى: ﴿فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون﴾، أي: لا فائدة لهم في الإشراك إلا الكفر والتمتع بما يتمتعون به في العاجلة، من غير نصيب في الآخرة.

وعن قتادة في قوله: ﴿أولم يروا أننا جعلنا حراماً آمناً ويتخطف الناس من

(١) المصدر السابق (٣/٤٢١).

حولهم ﴿ قال: كان لهم في ذلك آية إن الناس يغزون ويتخطفون وهم آمنون ﴿أفبالباطل يؤمنون﴾، أي: بالشرك ﴿وبنعمة الله يكفرون﴾ يجحدون؟.

وقوله تعالى: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه﴾، أي: لا أحد أشدَّ عقوبة ممن كذب على الله أو كذب بكتابه، فالأول مفترٍ والثاني مكذب ﴿أليس في جهنم مثوى للكافرين﴾.

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾.
قال ابن كثير^(١): ﴿والذين جاهدوا فينا﴾، يعني: الرسول وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ﴿لنهديهم سبلنا﴾، أي: طريقنا في الدنيا والآخرة. وقال الحسن: أفضل الجهاد مخالفة الهوى. قال البغوي^(٢): ﴿وإن الله لمع المحسنين﴾ بالنصر والمعونة في دنياهم، وبالثواب والمغفرة في عقابهم.



(١) المصدر السابق (٣/٤٢٢).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/٤٠٨).

الدرس الحادي عشر بعد المائتين

﴿سورة الروم﴾

مكية، وهي ستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الذِّكْرُ ١﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ٢ فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ
سَكَنُوا ٣ فِي بَيْتِ مَسِينٍ ٤ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ
الْمُؤْمِنُونَ ٥ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٦
وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٦
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ٧ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَائِي
رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ ٨ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا
وَحَمَّاتُهُمْ رُسلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ٩ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا الشُّرَاقِبَ أَنَّ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا
يَسْتَهْزِءُونَ ١٠ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١١ وَيَوْمَ نَقُومُ
السَّاعَةَ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ١٢ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاتٌ وَكَانُوا

بِشْرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ
كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَانَ
اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا
وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ
مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿الْعَمَّ ۝ غَلَبَتِ الرُّومُ ۝ فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بَضْعِ سِنِينَ ۝ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَقْرَعُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ۝﴾ .

قال ابن عباس: كان المسلمون يحبون أن تغلب الروم لأنهم أهل الكتاب، وكان المشركون يحبون أن تغلب فارس لأنهم أهل أوثان، قال فذكروا ذلك لأبي بكر، فذكره أبو بكر للنبي ﷺ فقال: «أما إنهم سيُهزَمُونَ»، فذكر ذلك أبو بكر للمشركين قال فقالوا: أفنجعل بيننا وبينكم أجلاً؟ فإن غلبوا كان لك كذا وكذا، وإن غلبنا كان لنا كذا وكذا، قال: ففعلوا بينه وبينهم أجلاً خمس سنين، قال: فمضت فلم يغلبوا، قال: فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ فقال له: «أفلا جعلته دون العشر؟» قال سعيد: والبضع ما دون العشر. قال: فغلب الروم ثم غلبت، قال فذلك قوله: ﴿ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين﴾ قال: البضع ما دون العشر ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ قال سفيان: فبلغني أنهم غلبوا يوم بدر. وعند الترمذي من حديث آخر: «وذلك قبل تحريم الرهان»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ عن ابن عباس قوله:

(١) أخرجه أحمد (٢٧٦/١ و ٣٠٤)، والترمذي (ح/٣١٩٣)، وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في «الكبرى» (٤٢٦/٦)، وابن جرير (١٦/٢١)، والطبراني (٢٩/١٢)، والحاكم (٤١٠/٢)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الدلائل» (٣٣٠ - ٣٣١)، وهو حديث صحيح.

﴿ظاهراً من الحياة الدنيا﴾، يعني: الكفار يعرفون عمران الدنيا، وهم في أمر الدين جهال.

قوله عز وجل: ﴿أَوْلَمْ يَنْفَكُرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوَى السَّوَاءِ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾.

قال ابن كثير^(١): يقول تعالى متبهاً على التفكر في مخلوقاته الدالة على وجوده وانفراده بخلقها، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، فقال: ﴿أولم يتفكروا في أنفسهم﴾، يعني به: النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي وما بينهما من المخلوقات المتنوعة والأجناس المختلفة، فاعلموا أنها ما خلقت سدى ولا باطلاً بل بالحق، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة، ولهذا قال تعالى: ﴿وإن كثيراً من الناس بقاء ربهم لكافرون﴾.

ثم نبههم على صدق رسله فيما جاءوا به عنه، بما أيدهم به من المعجزات والدلائل الواضحات، من إهلاك من كفر بهم، ونجاة من صدقهم، فقال تعالى: ﴿أولم يسيرا في الأرض﴾، أي: بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين؟ ولهذا قال: ﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة﴾، أي: كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم قوة، أيها المبعوث

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٤٢٧).

إليهم محمد ﷺ، وأكثر أموالاً وأولاداً، وما أوتيتم معشار ما أوتوا، ومكنوا في الدنيا تمكيناً لم تبلغوا إليه، وعمروا فيها أعماراً طويلاً فعمروها أكثر منكم واستغلّوها أكثر من استغلالكم، ومع هذا فلما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا، أخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق، ولا حالت أموالهم وأولادهم بينهم وبين بأس الله، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة، وما كان الله ليظلمهم فيما أحلّ بهم من العذاب والنكال.

﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾، أي: وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله واستهزؤوا بها، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم، ولهذا قال تعالى: ﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا السواى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾.

قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾.

يقول تعالى: ﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾، أي: كما هو قادر على بداءته فهو قادر على إعادته ﴿ثم إليه ترجعون﴾، أي: يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله، ثم قال تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يُبلس المجرمون﴾ قال ابن عباس: يبأس المجرمون، وقال مجاهد: يفتضح المجرمون، وفي رواية: يكتب المجرمون

﴿ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء﴾، أي: ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى بل كفروا بهم.

ثم قال تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾ قال قتادة: هي والله الفرقة التي لا اجتماع بعدها، ولهذا قال تعالى: ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يُخَبَّرُونَ﴾ قال مجاهد: ينعمون ﴿وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب مُخَضَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تُظهِرُونَ﴾ هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده في هذه الأوقات المتعاقبة. قال ابن عباس: جمعت هاتان الآيتان مواقيت الصلاة ﴿فسبحان الله حين تمسون﴾ قال: المغرب والعشاء ﴿وحين تصبحون﴾ الفجر ﴿وعشياً﴾ العصر ﴿وحين تظهرون﴾ الظهر.

وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ قال ابن مسعود: ويخرج النطفة من الرجل ميتة وهو حي، ويخرج الرجل منها حياً وهي ميتة.

وقوله تعالى: ﴿ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تُخْرِجُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾^(١).



(١) سورة فصلت: الآية ٣٩.

الدرس الثاني عشر بعد المائتين

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ ٢٥ ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ٢٦ ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ الْمَسِينِ وَالْوَنُكْمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴾ ٢٧ ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَا مَكَّرَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاءَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ ٢٨ ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ٢٩ ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ ٣٠ ﴿ وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْءٌ لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ٣١ ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ٣٢ ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ ٣٣ ﴿ فَأَقَمَ اللَّهُ لِدِينِكُمْ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ
فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ *

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَاللُّوَيْنِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ ﴿٢٣﴾ .

عن قتادة: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب﴾ خلق آدم عليه السلام من تراب: ﴿ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ يعني ذريته. ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا﴾ خلقها لكم من ضلع من أضلاعه ﴿وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ قال البغوي^(١): وجعل بين الزوجين المودة والرحمة، فهما يتوادان ويتراحمان، وما شيء أحب إلى أحدهما من الآخر من غير رَحِمٍ بينهما: ﴿إن في ذلك آيات لقوم يتفكرون﴾ في عظمة الله وقدرته.

قوله: ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم واللوانكم﴾ يعني اختلاف اللغات من العربية والعجمية وغيرهما: ﴿واللوانكم﴾ أبيض وأسود وأحمر وأنتم ولد رجل واحد وامرأة واحدة ﴿إن في ذلك آيات للعالمين﴾ قرأ حفص بكسر اللام: ﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغائكم من فضله﴾، أي: تصرفكم في طلب المعيشة: ﴿إن في ذلك آيات لقوم يسمعون﴾ سماع نذير واعتبار.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤١٣/٣).

قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُم دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ يَكُن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْءٌ لَّمْ يَكُنْ لَكُمْ قَلْبِنُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ .

قال ابن كثير^(١): يقول تعالى: ﴿ومن آياته﴾ الدالة على عظمته أنه: ﴿يريكُم البرق خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، أي: تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة وصواعق مقلقة، وتارة ترجون وميضه. وما يأتي بعده من المطر المحتاج إليه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها﴾ وفي ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة؛ ولهذا قال: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ .

وعن قتادة: ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره﴾ قامتاً بأمره من غير عَمَدٍ: ﴿ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾ قال: دعاهم فخرجوا من الأرض. وقال ابن عباس: من القبور. قال ابن كثير: ثم قال تعالى: ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره﴾ كقوله تعالى: ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾^(٢) وقوله: ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا﴾^(٣)؛ وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا اجتهد في اليمين قال: والذي تقوم السماء والأرض بأمره، أي: قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيرها إياها، ثم إذا كان يوم القيامة بدلت الأرض غير الأرض والسموات

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٤٣٠).

(٢) سورة الحج: الآية ٦٥.

(٣) سورة فاطر: الآية ٤١.

وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعائه إياهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾ وعن ابن عباس قوله: ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره﴾ إلى ﴿كل له قانتون﴾ يقول: مطيعون، يعني الحياة والنشور والموت، وهم عاصون له فيما سوى ذلك من العبادة.

﴿وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ يقول: كل شيء عليه هين. وقال عكرمة: تعجب الكفار من إحياء الله الموتى فنزلت: ﴿وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ إعادة الخلق أهون عليه من ابتدائه. وعن مجاهد قوله: ﴿وهو أهون عليه﴾ قال: الإعادة أهون عليه من البداية، والبداة عليه هين. وعن ابن عباس قوله: ﴿وله المثل الأعلى﴾ يقول: ليس كمثل شيء. وعن قتادة: ﴿وله المثل الأعلى﴾ في السموات والأرض، قال مثله إنه لا إله إلا هو ولا رب غيره ﴿وهو العزيز الحكيم﴾.

قوله عز وجل: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنفَرْتُمْ فِيهِ سَوَاءً تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْرَعْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلٌّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

قال ابن كثير^(١): هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به، العابدين معه غيره،

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٣١/٣).

الجاعلين له شركاء من خلقه، وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له ملك له، كما كانوا يقولون: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك؛ فقال تعالى: ﴿ضرب لكم مثلاً من أنفسكم﴾، أي: تشهدونه وتفهمونه ﴿من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء﴾، أي: أيرضى أحدكم أن يكون عبده شريكاً له في ماله؟ فهو وهو فيه على السواء ﴿تخافونهم كخيفتكم أنفسكم﴾، أي: تخافون أن يقاسموكم الأموال. قال أبو مجلز: إن مملوكك لا يخاف أن يقاسمك مالك وليس له، كذلك الله لا شريك له، والمعنى أن أحدكم يأنف من ذلك فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه؟

﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون﴾ قال البغوي^(١): ينظرون إلى هذه الدلائل بعقولهم: ﴿بل اتبع الذين ظلموا﴾ أشركوا بالله: ﴿أهواءهم﴾ في الشرك: ﴿بغير علم﴾ جهلاً بما كتب عليهم: ﴿فمن يهدي من أضلّ الله﴾، أي: أضله الله ﴿وما لهم من ناصرين﴾ مانعين يمنعونهم من عذاب الله عز وجل. وقوله تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً﴾، أي: أخلص دينك لله حنيفاً مائلاً إلى التوحيد مستقيماً عليه. قال ابن زيد في قوله: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ قال: الإسلام مذ خلقهم الله من آدم جميعاً يقرّون بذلك، وقرأ: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾ قال: فهذا قول الله: ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين﴾ بعد. وعن يزيد بن أبي مريم قال: مرّ عمر بمعاذ بن جبل فقال: ما قوام هذه الأمة؟ قال معاذ: ثلاث وهنّ المنجيات: الإخلاص وهو الفطرة ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ والصلاة وهي الملة، والطاعة وهي العصمة، فقال عمر: صدقت^(٢).

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٤١٥).

(٢) أخرجه ابن جرير (٤٠/٢١).

وقوله تعالى: ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ قال مجاهد: لدين الله. وقال البخاري قوله: ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ دين الله خلق الأولين دين الأولين، الدين والفطرة الإسلام؛ ثم ذكر حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم يقول: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾»^(١).

قال البغوي^(٢): فمن حمل الفطرة على الدين قال: معناه لا تبديل لدين الله، وهو خبر بمعنى النهي، أي: لا تبدلوا دين الله. قال مجاهد وإبراهيم معنى الآية: الزموا فطرة الله، أي: دين الله، واتبعوه ولا تبدلوا التوحيد بالشرك: ﴿ذلك الدين القيم﴾ المستقيم ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

وقوله تعالى: ﴿مبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين﴾ يقول تعالى: ﴿فأقم وجهك﴾ أنت يا محمد ومن اتبعك ﴿مبين إليه﴾، أي: راجعين إليه: ﴿واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين﴾ بل كونوا من الموحدين المصلين الطائعين. قال ابن جرير: ﴿ولا تكونوا من المشركين﴾ يقول: ولا تكونوا من أهل الشرك بالله، بتضييعكم فرائضه وركوبكم معاصيه، وخلافكم الدين الذي دعاكم إليه.

وقوله: ﴿من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً﴾ يقول: ولا تكونوا من المشركين الذين بدلوا دينهم وخالفوه: ﴿وكانوا شيعاً﴾ يقول: وكانوا أحزاباً، فرقاً كاليهود والنصارى.

وقوله: ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ يقول: كل طائفة وفرقة من هؤلاء الذين فرقوا دينهم الحق، فأحدثوا البدع التي أحدثوا، ﴿بما لديهم فرحون﴾

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٧٧٥)، ومسلم (ح/٢٦٥٨).

(٢) المصدر السابق (٣/٤١٥).

يقول: بما هم به متمسكون من المذهب ﴿فرحون﴾ مسرورون، يحسبون أن الصواب معهم دون غيرهم. انتهى ملخصاً.

وقال ابن كثير^(١): فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء وملل باطلة، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء، وهذه الأمة أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة، وهم أهل السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه، كما رواه الحاكم في مستدركه، أنه سئل ﷺ عن الفرقة الناجية منهم فقال: «من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي»^(٢).



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٣٣/٣).

(٢) أخرجه الترمذي (ح/٢٦٤١)، والحاكم (١/١٢٨ — ١٢٩)، من حديث عبد الله بن عمرو، وسنده ضعيف، لكن للحديث شاهد يتقوى به عن معاوية رضي الله عنه بنحوه: أخرجه أحمد (٤/١٠٢)، وأبو داود (ح/٤٥٩٧)، والدارمي (٢/٢٤١)، والحاكم (١/١٢٨) وصححه، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (١/١٠١ — ١٠٢)، والطبراني (١٩/٨٨٤ و ٨٨٥)، وهو حديث صحيح يشهد له ما قبله وما بعده، وشاهد آخر عند أنس — رضي الله عنه —: أخرجه أحمد (٣/١٢٠ و ١٤٥)، وابن ماجه (ح/٣٩٩٢)، واللالكائي (١/١٠٠)، وفي سنده ضعف.

الدرس الثالث عشر بعد المائتين

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَكَانَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْيَتَامَىٰ وَالسُّكَّانَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ حَبْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن رَّبَا لَيْرَبَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْتَوُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْطَعُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُمْ مِثْلَ شَيْءٍ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقْرَرْنَا وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَن عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ فِيهِ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ ۞

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مَتَّهَرَةً مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٢٤﴾ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهَوْا يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٢٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ .

قال ابن كثير^(١): يقول تعالى مخبراً عن الناس أنهم في حال الاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم في حالة الاختيار يشركون بالله ويعبدون معه غيره. وقوله تعالى: ﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ هي لام العاقبة عند بعضهم، ولام التعليل عن آخرين، ولكنها تعليل لتقييض الله لهم ذلك؛ ثم توعدهم بقوله: ﴿فسوف تعلمون﴾ قال بعضهم: والله لو توعدني حارس درب لخفتُ منه، فكيف والمتوعد ههنا هو الذي يقول للشيء: كن فيكون؟

ثم قال تعالى: منكرأ على المشركين فيما اختلفوا فيه من عبادة غيره بلا دليل ولا حجة ولا برهان ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا سُلْطَانًا﴾، أي: حجة ﴿فهو يتكلم﴾، أي: ينطق بما كانوا به يشركون؟ وهذا استفهام إنكار، أي: لم يكن لهم شيء من ذلك. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ هذا إنكار على الإنسان من حيث هو، إلا من عصمه الله ووقفه، فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر وقال: ﴿ذهب السيئات عني إنه

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٤٣٤).

لفرح فخور ﴿أي يفرح في نفسه ويفخر على غيره، وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكليّة، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ﴾^(١)، أي: صبروا في الضراء وعملوا الصالحات في الرخاء، كما ثبت في الصحيح: «عجباً للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سرء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾، أي: هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله، فيوسّع على قوم ويضيق على آخرين ﴿إِن فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿فَاتِّبِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّرَبِّوًّا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوْا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

عن الحسن ﴿فَاتِّبِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ قال: هو أن توفيهم حقهم إن كان عندك يسر، وإن لم يكن عندك ﴿فقل لهم قولاً ميسوراً﴾ قل لهم الخير.

وعن ابن عباس قوله: ﴿وما آتيتم من رباً ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله﴾ قال: هو ما يعطي الناس بينهم بعضهم بعضاً، يعطي الرجل الرجل العطيّة يريد أن يعطي أكثر منها. وقال مجاهد: هي الهدايا، وقال الضحاك في قوله: ﴿وما آتيتم من رباً ليربوا في أموال الناس﴾ فهو ما يتعاطى الناس بينهم ويتهادون، يعطي الرجل العطيّة ليصيب منه أفضل منها، وهذا للناس عامة، وأما قوله: ﴿ولا

(١) سورة هود: الآية ١١.

(٢) أخرجه مسلم (ح/٢٩٩٩) من حديث صهيب رضي الله عنه.

تمنن تستكثر ﴿١﴾ فهذا للنبي خاصة، لم يكن له أن يعطي إلا الله، ولم يكن يعطي ليعطي أكثر منه. وقال ابن عباس قوله: ﴿وما آتيتم من رباً ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله﴾ قال: هي الهبة، يهب الشيء يريد أن يثاب عليه أفضل منه، فذلك الذي ﴿لا يربو عند الله﴾ لا يؤجر فيه صاحبه، ولا إثم عليه ﴿وما آتيتم من زكاة﴾ قال: هي الصدقة ﴿تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون﴾، قال قتادة: هذا الذي يقبله الله ويضعفه لهم عشر أمثالها وأكثر من ذلك.

قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِثْرَ شَيْءٍ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾ للبعث بعد الموت ﴿هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء؟ لا والله﴾ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴿سبح نفسه إذا قيل عليه البهتان.

وعن الحسن في قوله: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾ قال: أفسدهم الله بذنوبهم في بحر الأرض وبرها بأعمالهم الخبيثة ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾ وقال قتادة: لعل راجعاً أن يرجع، لعل تائباً أن يتوب، لعل مستعباً أن يستعب. وقوله تعالى: ﴿قل سيرا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل﴾.

قال البغوي^(٢): لتروا منازلهم ومسكنهم خاوية ﴿كان أكثرهم مشركين﴾ فأهلكوا بكفرهم.

(١) سورة المدثر: الآية ٦.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/٤١٨).

قوله عز وجل: ﴿فَأَقْرَهُ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَائِمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿فأقم وجهك للدين القيم﴾ الإسلام ﴿من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون﴾ فريق في الجنة وفريق في السعير.

وقوله تعالى: ﴿من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون﴾ .
قال ابن جرير^(١): يقول تعالى ذكره: من كفر بالله فعليه أوزار كفره وآثام جحوده نعم ربه ﴿ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون﴾ يقول: فلأنفسهم يستعدون ويستوون المضجع ليسلموا من عقاب ربهم ولينجوا من عذابه.

﴿ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله﴾ .

قال ابن كثير^(٢): أي يجازيهم مجازاة الفضل، الحسنه بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله ﴿إنه لا يحب الكافرين﴾ ومع هذا هو العادل فيهم الذي لا يجور.



(١) انظر «جامع البيان» (٥١/٢١).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٣٦/٣).

الدرس الرابع عشر بعد المائتين

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفَلَكَ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فترى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَأَنْظِرْ إِلَى آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَاتٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطَلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾
فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ آتَيْنَاهُ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ فَجَاءٌ وَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ .

قال ابن كثير^(١): يذكر تعالى نعمه على خلقه في إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته بمجيء الغيث عقبها، ولهذا قال تعالى: ﴿وليذيقكم من رحمته﴾، أي: المطر الذي ينزله فيحيي به البلاد والعباد ﴿ولتجري الفلك بأمره﴾، أي: في البحر ﴿ولتبتغوا من فضله﴾، أي: في التجارات والمعاش والسير من إقليم إلى إقليم وقطر إلى قطر ﴿ولعلكم تشكرون﴾، أي: تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة التي لا تعد ولا تحصى.

ثم قال تعالى: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانقمنا من الذين أجرموا﴾ هذه تسليية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ، بأنه وإن كذبه كثير من قومه ومن الناس، فقد كذبت الرسل المتقدمون مع ما جاءوا أممهم به من الدلائل الواضحات، ولكن انتقم الله ممن كذبهم وخالفهم وأنجى المؤمنين بهم ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾، أي: هو حق أوجه على نفسه الكريمة تكراً وتفضلاً، كقوله تعالى: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾^(٢).

قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٤٣٦).

(٢) سورة الأنعام: الآية ٥٤.

كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُمْ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُغِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۗ إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِن أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمَعُ الْأُصْصَاءَ إِذَا وُلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَىٰ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۗ إِن تَسْمَعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ .

قال عبيد بن عمير: الرياح أربع: يبعث الله ريحاً فتقتم الأرض قمأ، ثم يبعث الله الرياح الثانية فتثير سحاباً فيجعله في السماء كسفاً، ثم يبعث الله الرياح الثالثة فيؤلف بينه فيجعله ركاماً، ثم يبعث الله الرياح الرابعة فتمطر. وعن قتادة ﴿ويجعله كسفاً﴾، أي: قطعاً ﴿فترى الودق﴾ قال مجاهد: القطر ﴿يخرج من خلاله﴾ قال ابن كثير^(١): أي فتري المطر وهو القطر يخرج من بين ذلك السحاب. وقوله تعالى: ﴿فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين﴾ قال قتادة: قانطين. قال في جامع البيان ﴿وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم﴾ المطر ﴿من قبله﴾ تكرير للتأكيد، ومعنى التأكيد الدلالة على بُعد عهدهم بالمطر واستحكام بأسهم ﴿لمبلسين﴾ آيسين. وقوله تعالى: ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله﴾ قال البغوي^(٢): أراد برحمة الله المطر، أي: انظر إلى حسن تأثيره في الأرض، قال مقاتل: أثر رحمة الله أي أثر نعمته وهو النبت ﴿كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾. ﴿ولئن أرسلنا ريحاً باردة مضرّة فأفسدت الزرع﴾ فرأوه مصفراً، أي: رأوا

(١) المصدر السابق (٣/٤٣٧).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/٤١٩).

النبت والزرع مصفراً بعد الخضرة ﴿لظَلُّوا﴾ لصاروا ﴿من بعده﴾، أي: من بعد اصفرار الزرع ﴿يكفرون﴾ يجحدون ما سلف من النعمة. وعن قتادة قوله: ﴿فإنك لا تسمع الموتى﴾ هذا مثل ضربه الله للكافر، فكما لا يسمع الميت الدعاء كذلك لا يسمع الكافر ﴿ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولّوا مدبرين﴾ يقول: لو أن أصمّ ولّي مدبراً ثم ناديته لم يسمع، كذلك الكافر لا يسمع ولا ينتفع بما يسمع. وقال في جامع البيان: الأصمّ المقبل ربما يفتن من الكلام بمعونة مشاهدة القرائن شيئاً منه، بخلاف المدبر. ﴿وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم﴾ والكافر كمن لا عين له يضلّ الطريق، وليس بوسع أحد أن ينزع عنه العمى ويجعله بصيراً ﴿إن تسمع إلاّ من يؤمن بآياتنا﴾ ما ينفع الإسماع إلاّ لمن علم الله أنه يصدّق بآياته وما طبع على قلبه ﴿فهم مسلمون﴾ منقادون لما تأمرهم.

قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

قال البغوي^(١): قوله تعالى: ﴿الله الذي خلقكم من ضعف﴾ قرىء بضم الضاد وفتحها. فالضم لغة قريش، والفتح لغة تميم. قال ابن حجر في «فتح الباري»^(٢): فالجمهور بالضم. وقرأ عاصم وحمزة بالفتح. وقال الخليل: الضعف بالضم ما كان في الجسد، والفتح ما كان في العقل. وعن قتادة قوله: ﴿الله الذي خلقكم من ضعف﴾، أي: من نطفة ﴿ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من قوة ضعفاً وشيبة﴾ الشمط ﴿يخلق ما يشاء﴾ قال البغوي^(٣): من الضعف والقوة

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٤١٩).

(٢) انظر (٨/٣٧١).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/٤٢٠).

والشباب والشبية ﴿وهو العليم﴾ بتدبير خلقه ﴿القدير﴾ على ما يشاء.

قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

عن قتادة ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون﴾، أي: يكذبون في الدنيا، وإنما يعني بقوله: ﴿يؤفكون﴾ عن الصدق ويصدون عنه إلى الكذب.

قال ابن كثير^(١): يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً، فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة في الدنيا، ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجّة عليهم، وأنهم لم ينتظروا حتى يعذر إليهم، قال الله تعالى: ﴿كذلك كانوا يؤفكون﴾. ﴿وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث﴾، أي: فيرد عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة، كما أقاموا عليهم حجة الله في الدنيا، فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعة ﴿لقد لبثتم في كتاب الله﴾، أي: في كتاب الأعمال ﴿إلى يوم البعث﴾، أي: من يوم خلقتهم إلى أن بعثتم ﴿ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾. قال الله تعالى: ﴿فيومئذ﴾، أي: يوم القيامة ﴿لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم﴾، أي: اعتذارهم عما فعلوا ﴿ولا هم يستعتبون﴾، أي: ولا هم يرجعون إلى الدنيا، كما قال تعالى ﴿وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين﴾^(٢).

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٤٠).

(٢) سورة فصلت: الآية ٢٤.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلِيَنْ جِثَّتْهُمْ بَيَآءَ لَيْقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطَلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْمَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَصْبِرْ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَا يَسْتَخْفِكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ .

قال ابن كثير^(١): يقول تعالى: ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾، أي: قد بيننا لهم الحق ووضحناه لهم وضربنا لهم فيه الأمثال ليتبينوا الحق ويتبعوه ﴿ولئن جثتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون﴾، أي لو رأوا أي آية كانت، سواء كانت باقتراحهم أو غيره لا يؤمنون بها ويعتقدون أنها سحر وباطل، كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه كما قال تعالى: ﴿الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾^(٢)، ولهذا قال ههنا ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون فاصبر إن وعد الله حق﴾، أي: اصبر على مخالفتهم وعنادهم، فإن الله تعالى منجز لك ما وعدك من نصره إياك عليهم، وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة ﴿ولا يستخفئك الذين لا يوقنون﴾، أي: بل اثبت على ما بعثك الله به فإنه الحق الذي لا مرية فيه، ولا تعدل عنه وليس فيما سواه هدى يتبع، بل الحق كله منحصر فيه. قال سعيد عن قتادة: نادى رجل من الخوارج علياً رضي الله عنه وهو في صلاة الغداة فقال: ﴿ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾ فأنصت له علي حتى فهم ما قال، فأجابه وهو في الصلاة ﴿فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفئك الذين لا يوقنون﴾.



(١) المصدر السابق (٣/ ٤٤٠).

(٢) سورة يونس: الآية ٩٧.

الدرس الخامس عشر بعد المائتين

﴿سورة لقمان﴾

مكية، وهي أربع وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿المر ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾
الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى
مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن
سَبِيلِ اللَّهِ يَبْغِي عَلَيْهِ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ
آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَاطٌ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾
إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَقَالَتْ فِي الْأَرْضِ رَاسِيَ
أَن تَعِيدَ بِكُمْ وَيَتَّخِذُ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَأْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ
كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۗ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي
ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ
لِنَفْسِهِ ۗ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ
لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ

أُمُّهُ وَهَنَّا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَلُّهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ ﴿١٥﴾
 وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي
 الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
 تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ يَبْنِيٰ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي
 السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٧﴾ يَبْنِيٰ أَقْمِرَ الصَّلَاةِ
 وَأُمْرًا بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾
 وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾
 وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهَوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ .

قال البغوي^(١): ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾ الآية، قال الكلبي ومقاتل: نزلت في النضر بن الحارث بن كلدة وكان يتجر فيأتي الحيرة ويشتري أخبار العجم، فيحدث بها قريشاً ويقول: إن محمداً يحدثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة، فيستمعون حديثه ويتركون استماع القرآن، فأنزل الله هذه الآية. وروى ابن جرير وغيره عن أبي أمامة مرفوعاً: «لا يحلّ تعليم المغنّيات ولا بيعهنّ ولا شراؤهنّ، وثمنهنّ حرام»؛ وقد نزل تصديق ذلك في كتاب الله ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾^(٢) إلى آخر

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٤٢١).

(٢) أخرجه أحمد (٥/٢٥٧ - ٢٥٨) - والترمذي (ح/١٢٨٢ و ٣١٩٥)، وابن ماجه (ح/٢١٦٨)، وابن جرير (٢١/٦٠)، بسند ضعيف، وله شاهد من حديث عمر رضي الله عنه مرفوعاً: ثم القينة سحت، وغناؤها حرام...»، أخرجه الطبراني (١/٧٣) بسند ضعيف.

قال ابن القيم - رحمه الله - في «إغاثة اللهفان» (١/٢٥٨) ما حاصله - معلقاً على حديث أبي أمامة - : «وهذا الحديث وإن كان مداره على عبيد الله بن زمر، عن علي بن يزيد الألهاني، عن القاسم، فعبيد الله بن زمرقة، وعلي بن يزيد ضعيف؛ إلا أن للحديث شواهد ومتابعات».

الآية. وقال قتادة: بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق، وما يضرّ على ما ينفع. وعن ابن عباس في قوله: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾ قال: هو الغناء ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿وإذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً﴾

وقال ابن كثير^(١)، أي: هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب إذا تليت عليه الآيات القرآنية، ولّى عنها وأعرض وأدبر وتصامم وما به من صمم، كأنه ما سمعها لأنه يتأذى بسماعها إذ لا انتفاع له بها ولا أرب له فيها: ﴿فبشره بعذاب أليم﴾، أي: يوم القيامة يؤلمه كما تألم بسماع كتاب الله وآياته: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم خالدين فيها وعد الله حقاً وهو العزيز الحكيم﴾.

قوله عز وجل: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾﴾.

قال البغوي^(٢): ﴿هذا﴾ يعني الذي ذكرت مما تعابنون: ﴿خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾ من ألهمتكم التي تعبدونها ﴿بل الظالمون في ضلال مبين﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٦﴾ وَلِذَلِكَ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٤٢/٣).

(٢) المصدر السابق (٤٢٣/٣).

يَعْظُمُ يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ
 بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى
 الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا
 وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ
 فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَبْنِي إِنَّمَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ
 فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾
 يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْدِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنْ
 ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا
 يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ
 الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

عن مجاهد قوله: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾ قال: الفقه والعقل والإصابة
 في القول من غير نبوة، وقال عمرو بن قيس: كان لقمان عبداً أسود غليظ الشفتين
 مصفح القدمين، فأتاه رجل وهو في مجلس أناس يحدثهم فقال له: ألسنت الذي
 كنت ترعى معي الغنم؟ قال: نعم، قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: صدق
 الحديث، والصمت عما لا يعنيني. وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه
 قال: لما نزلت: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ قلنا: يا رسول الله آتينا لم
 يظلم نفسه؟ قال: ليس كما تقولون، لم يلبسوا إيمانهم بظلم، بشرك، أو لم
 تسمعوا إلى قول لقمان: يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم^(١)؟
 وقوله تعالى: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن﴾ قال ابن
 عباس: شدة بعد شدة وخلقاً بعد خلق.

وقوله تعالى: ﴿وفصاله في عامين﴾، أي: فطامه في حولين ﴿أن اشكر لي﴾

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٣٢ و ٣٣٦٠ و ٤٧٧٦)، ومسلم (ح/ ١٢٤).

بالتوحيد ﴿ولو لديك﴾ بالبر ﴿إليّ المصير﴾ فأجازيك على عملك. قال سفيان بن عيينة: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله، ومن دعا لوالديه في أديار الصلوات الخمس فقد شكرهما.

قال ابن جرير^(١): فإن قال لنا قائل: ما وجه اعتراض هذا الكلام بين الخبر عن وصيتي لقمان ابنه؟ قيل: ذلك أيضاً وإن كان خبراً من الله تعالى ذكره عن وصيته عباده به، وإنه إنما أوصى به لقمان ابنه فكان معنى الكلام: وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه: يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم، ولا تطع في الشرك به والدريك، وصاحبهما في الدنيا معروفاً، فإن الله وصى بهما؛ واستؤنف الكلام على وجه الخبر من الله، وفيه هذا المعنى، فذلك وجه اعتراض ذلك بين الخبرين عن وصيته. انتهى.

وعن قتادة: قوله: ﴿يا بُنَيُّ إنها إن تك مثقال حبة من خردل﴾ من خير وشرف ﴿فتكن في صخرة﴾، أي: جبل ﴿أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير﴾، أي: ﴿لطيف﴾ باستخراجها: ﴿خبير﴾ بمسقرها.

وعن ابن جريج في قوله: ﴿يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وإنه عن المنكر واصبر على ما أصابك﴾ من الأذى في ذلك: ﴿إن ذلك من عزم الأمور﴾ قال: إن ذلك مما عزم الله عليه من الأمور، يقول مما أمر الله به من الأمور.

وعن ابن عباس: ﴿ولا تصغر خدك للناس﴾ يقول: ولا تتكبر فتحقر عباد الله وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك. وعن الضحاك في قوله: ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾ قال: بالخيلاء: ﴿إن الله لا يحب كل مختال فخور﴾ قال مجاهد: ﴿مختال﴾ متكبر ﴿فخور﴾. قال: يعدد ما أعطى الله وهو لا يشكر الله.

﴿واقصد في مشيك﴾ قال: التواضع ﴿واغضض من صوتك﴾ قال قتادة:

(١) انظر «جامع البيان» (٧١/٢١).

أمره بالافتصاد في صوته ﴿إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتَ لَصُوتِ الْحَمِيرِ﴾ أَوْلَهُ زَفِيرٌ وَأَخْرَهُ شَهِيْقٌ .

وقد روي عن لقمان من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة فمنها قوله: إن الله إذا استودع شيئاً حفظه .

وقال: يا بني إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك .

وقال: الصمت حكم وقليل فاعله .

وقال: يا بني إذا أتيت نادي قوم فارمهم بسهم الإسلام - يعني السلام - ثم اجلس في ناحيتهم ولا تنطق حتى تراهم قد نطقوا، فإن أفاضوا في ذكر الله فأجل سهمك معهم، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحوّل عنهم إلى غيرهم . وقال خالد الربيعي: كان لقمان عبداً حبشياً فدفع مولاه إليه شاة وقال: اذبحها وائتني بأطيب مضغتين منها، فأناه باللسان والقلب؛ ثم دفع إليه شاة أخرى وقال: اذبحها وائتني بأخبث مضغتين منها، فأناه باللسان والقلب، فسأله مولاه فقال: ليس شيء أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خبثا . وعن عمر مولى غفرة قال: وقف رجل على لقمان الحكيم فقال: أنت لقمان، أنت عبد بني الحسحاس؟ قال: نعم، قال: أنت راعي الغنم؟ قال: نعم، قال: أنت الأسود؟ قال: أما سوادى فظاهر، فما الذي يعجبك من أمري؟ قال وطء الناس بساطك وغشيم بابك ورضاهم بقولك! قال: يا ابن أخي إن صغيت إلى ما أقول لك كنت كذلك، قال لقمان: غَضِي بصري، وكَفِي لساني، وعَفَّة طعمتي، وحفظي فرجي، وقولي بصدقتي، ووفائي بعهدي، وتكرمتي ضيفي، وحفظي جاري، وتركبي ما لا يعينني، فذلك الذي صيرني إلى ما ترى . والله أعلم .



الدرس السادس عشر بعد المائتين

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ
ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ
مِّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ
كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ وَمَن يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ
وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ
فَلَا يَحْزَنْكَ كُفْرُهُمْ إِنَّا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾
نُمِئْتُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّضْتُهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ
أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُمِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ
هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ
الْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ
صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا

نَجَّهْتُمْ إِلَى الْبِرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَسَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾
يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنِ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ
عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ
بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ
وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ تَرَوُا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ وَمَن يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ .

قال في جامع البيان: ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات﴾ بأن جعله أسباب منافعكم ﴿وما في الأرض﴾ و﴿أسبغ﴾ أوفى وأنتم ﴿عليكم نعمه ظاهرة﴾ محسوسة وما تعرفونه ﴿وباطنه﴾ معقولة وما لا تعرفونه. وعن قتادة ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾ ليس معه من الله برهان ولا كتاب.

قال البغوي^(١): نزلت في النضر بن الحارث وأبي بن خلف وأمّية بن خلف وأشباههم، كانوا يجادلون النبي ﷺ في الله وفي صفاته بغير علم ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آبائنا﴾ قال الله عز وجل: ﴿أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير﴾ وجواب «لو» محذوف، ومجازه: يدعوهم فيتبعونه، يعني يتبعون الشيطان وإن ﴿كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير﴾.

قوله تعالى: ﴿ومن يسلم وجهه إلى الله﴾ يعني الله، أي: يخلص دينه لله

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٤٢٥).

ويفوض أمره إلى الله ﴿وهو محسن﴾ في عمله ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾، أي: اعتصم بالعهد الأوثق الذي لا يخاف انقطاعه ﴿وإلى الله عاقبة الأمور ومن كفر فلا يحزنك كفره إنا مرجعهم فننبتهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور﴾. ﴿نمتعهم قليلاً﴾، أي: نمهلهم ليتمتعوا بنعيم الدنيا قليلاً إلى انقضاء آجالهم ﴿ثم نضطرهم﴾ ثم نلجئهم ونردّهم في الآخرة ﴿إلى عذاب غليظ﴾ وهو عذاب النار.

قوله عز وجل: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِيهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفِينَ وَجَدَّةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

قال ابن كثير^(١): يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء المشركين أنهم يعرفون أن الله خالق السموات والأرض وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلق له وملك له، ولهذا قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنَّ الله قل الحمد لله﴾، أي: إذا قامت عليكم الحجة باعترافكم ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾.

ثم قال تعالى: ﴿لله ما في السموات والأرض﴾، أي: هو خلقه وملكه ﴿إن الله هو الغني الحميد﴾، أي: ﴿الغني﴾ عما سواه وكل شيء فقير إليه ﴿الحميد﴾ في جميع ما خلق، له الحمد في السموات والأرض على ما خلق وشرع، وهو الم محمود في الأمور كلها. وعن أبي رجاء قال: سألت الحسن عن هذه الآية: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ قال: لو جعل شجر الأرض أقلاماً وجعل

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٥١/٣).

البحور مداداً. وقال الله: إن من أمري كذا، ومن أمري كذا، لنفد ماء البحور وتكسرت الأقسام. وقال قتادة: قال المشركون: إنما هذا كلام يوشك أن ينفد، قال: لو كان شجر البرّ أقالماً ومع البحر سبعة أبحر، ما كان لتنفد عجائب ربي وحكمته وخلقه وعلمه.

وعن مجاهد قوله: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ يقول: كن فيكون للقليل والكثير.

قال ابن جرير^(١): وقوله: ﴿إن الله سميع بصير﴾ يقول تعالى ذكره: ﴿إن الله سميع﴾ لما يقول هؤلاء المشركون ويفترون على ربهم، من ادعائهم له الشركاء والأنداد وغير ذلك من كلامهم وكلام غيرهم ﴿بصير﴾ بما يعملونه وغيرهم من الأعمال، وهو مجازيهم على ذلك جزاءهم.

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُمُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾.

عن قتادة قوله: ﴿ألم تر أن الله يولج الليل في النهار﴾ نقصان الليل في زيادة النهار ﴿ويولج النهار في الليل﴾ نقصان النهار في زيادة الليل ﴿وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى﴾ يقول: لذلك كله وقت معلوم لا يجاوزه ولا يعدوه.

(١) انظر «جامع البيان» (٨٣/٢١).

وقوله تعالى: ﴿ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾. عن مغيرة قال: الصبر نصف الإيمان، والشكر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله، ألم تر إلى قوله: ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ ﴿إن في ذلك لآيات للموقنين﴾ ﴿إن في ذلك لآيات للمؤمنين﴾.

وقوله تعالى: ﴿وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور﴾ قال قتادة: الختار الغدار، كل غدار بذمته كفور بربه.

قال البغوي^(١): والختر أسوأ الغدر: قال بعضهم: وإنما قال ههنا ﴿فمنهم مقتصد﴾ وقد قال فيما قبل ﴿إذا هم يشركون﴾ لأنه ذكر ههنا الموج وعظمته، ولا محالة يبقى لمثله أثر في الخيار، فيخفف شيئاً من غلو الكفر والظلم، وينزجر بعض الانزجار.

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَتْقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنِ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ ذاكم الشيطان. وعن مجاهد ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن امرأتي حبلى فأخبرني ماذا تلد؟ وبلادنا محل جذبته فأخبرني متى ينزل الغيث؟ وقد علمت متى

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤٢٧/٣).

ولدت فأخبرني متى أموت؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ﴾
إلى آخر السورة^(١). رواه ابن جرير، وروى البخاري وغيره عن ابن عمر قال: قال
رسول الله ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهنَّ إلاَّ الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ
السَّاعَةِ، وَيُنزِلُ الْغَيْثَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا،
وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾»^(٢).



(١) أخرجه ابن جرير (٨٧/٢١ - ٨٨) عن مجاهد مرسلًا.

(٢) سبق تخريجه.

الدرس السابع عشر بعد المائتين

﴿سورة السجدة﴾

مكية، وهي ثلاثون آية

في الصحيحين عن أبي هريرة قال: «كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة: ألم تنزيل السجدة، وهل أتى على الإنسان»^(١).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿المر ١﴾ تَنْزِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ
افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ
يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ
اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدِيرُ الْأَمْرَ
مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا
تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَلِكَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ
خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾
ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا

(١) أخرجه البخاري (ح/١٠٦٨)، ومسلم (ح/٨٨٠).

تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوا أءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَءَأْتَانَا لِنُؤْتِيَهُمْ جَدِيدًا بَلْ هُمْ يَلْقَاءُ رَبَّهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٥﴾ * قُلْ يَنفِقْنَكُمْ مَلِكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰ وَلَٰكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا يَمَانِسِيَّتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ نَتَجَافَىٰ جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًىٰ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَىٰ الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا

تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ
يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِلَيْهِمْ مُنْتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿الْم تَنْزِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢) أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَبَهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِمَّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه﴾ لا شك فيه، وإنما معنى الكلام: أن هذا القرآن الذي أنزل على محمد لا شك فيه أنه من عند الله، وليس بشعر ولا سجع كاهن، ولا هو مما تخرّصه محمد ﷺ، وإنما كذب جلّ ثناؤه بذلك قول الذين ﴿قالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً﴾ (١) وقول الذين قالوا: ﴿إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون﴾ قال قتادة: كانوا أمة أمية لم يأتهم نذير قبل محمد ﷺ.

قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَلِكَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ

(١) سورة الفرقان: الآية ٥ .

(٢) سورة الفرقان: الآية ٤ .

سَلَّمُوا مِنْ سُلاَلَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْتِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾ في اليوم السابع ﴿ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع﴾ .
قال ابن كثير^(١): أي بل هو المالك لأزمة الأمور، الخالق لكل شيء، المدبّر لكل شيء، القادر على كل شيء، فلا وليّ لخلقه سواه ولا شفيع إلا من بعد إذنه ﴿أفلا تتذكرون﴾، يعني أيها العابدون غيره المتوكلون على من عداه، تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك أو وزير أو نديد أو عديل، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

وقوله تعالى: ﴿يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدّون﴾ قال مجاهد: يعني بذلك نزول الأمر من السماء إلى الأرض ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد، وذلك مقداره ألف سنة لأن ما بين السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام .

وقوله تعالى: ﴿ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ قال مجاهد: أتقن كل شيء خلقه . وقال ابن عباس: أتقنه وأحكمه . وعن قتادة: ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين﴾ وهو خلق آدم ﴿ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾ والسلالة هي الماء المهين الضعيف، قال مجاهد: نطفة الرجل .

وقوله تعالى: ﴿ثم سواه﴾ .

قال البغوي^(٢): ثم سوى خلقه ﴿ونفخ فيه من روحه﴾ . ثم عاد إلى ذرّيته فقال: ﴿وجعل لكم﴾ بعد أن كنتم نطفاً ﴿السمع والأبصار والأفتدة قليلاً ما تشكرون﴾، يعني: لا تشكرون رب هذه النعم فتوحّدونه .

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٥٦/٣) .

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤٣٠/٣) .

قوله عز وجل: ﴿ وَقَالُوا آءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ ﴿ قُلْ يَتُوفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰ وَلَٰكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْإِنْسِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا يَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ نَتَجَافَىٰ جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ۞ .

عن مجاهد ﴿أذا ضللنا في الأرض﴾ يقول: أنذا هلكننا. وعن قتادة: ﴿وقالوا أنذا ضللنا في الأرض أننا لفي خلق جديد﴾ قال: قالوا: أنذا كنا عظاماً ورفاتاً أننا لمبعوثون خلقاً جديداً؟ وقال الضحاك: يكفرون بالبعث.

وعن قتادة ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّلَ بكم﴾ قال: ملك الموت يتوفاكم ومعه أعوان من الملائكة. وقال مجاهد: طويت له الأرض، فجعلت له مثل الطست يتناول منها حيث شاء. وقال ابن زيد قوله: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم﴾ قال: قد حزنوا واستحيوا. وعن قتادة: ﴿ولو شئنا لآتيننا كل نفس هداها﴾ قال: لو شاء الله لهدى الناس جميعاً، لو شاء الله لأنزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴿ولكن حق القول مني﴾ حق القول عليهم.

وقوله تعالى: ﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم﴾ قال ابن عباس: تركناكم. وقال قتادة: نسوا من كل خير، وأما الشرف فلم يُنسوا منه. وعن

أنس بن مالك: إن هذه الآية ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى القمّة. وعن مجاهد قوله: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ يقومون يصلّون من الليل. وقال ابن عباس ﴿تتجافى﴾ لذكر الله، كلما استيقظوا ذكروا الله تعالى، إما في الصلاة، وإما في قيام، أو في قعود، أو على جنوبهم، ثم يذكرون الله. وروى الإمام أحمد وغيره من حديث معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال له: «ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم قرأ ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾»^(١). وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾^(٢) متفق عليه.

قوله عز وجل: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنْذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَأَعْلَمَهُم بِرَجْعَتِمْ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

عن ابن عباس: ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى﴾ يقول: مصائب الدنيا

(١) أخرجه أحمد (٥/٢٣١ و ٢٣٣ و ٢٣٧)، والترمذي (ح/٢٦١٦)، والنسائي في الكبرى

(٤٢٨/٦)، وابن ماجه (ح/٣٩٧٣)، والطبراني (٢٠/١٣٠ - ١٣١)، والحاكم (٢/٢٦٧

و ٤١٢) وصححه، ووافقه الذهبي، وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٧٨٠)، ومسلم (ح/٢٨٢٤).

وأسقامها وبلاؤها مما يبتيلى الله به العباد حتى يتوبوا. وعن مجاهد ﴿دون العذاب الأكبر﴾ يوم القيامة ﴿لعلهم يرجعون﴾ قال أبو العالية: يتوبون.

قال ابن كثير^(١): وقوله تعالى: ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها﴾، أي: لا أظلم ممن ذكره الله بآياته وبينها له، ثم بعد ذلك تركها وجحدتها وأعرض عنها وتناساها كأنه لا يعرفها. قال قتادة: إياكم والإعراض عن ذكر الله، قال: من أعرض عن ذكره فقد اغترّ أكبر الغرة وأعوز أشد العوز، وعظم من أعظم الذنوب، ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك ﴿إنا من المجرمين منتقمون﴾، أي: سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِمْ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

عن ابن عباس قال: قال نبي الله ﷺ: «أريت ليلة أسري بي موسى بن عمران، رجلاً آدم طوالاً أجعد كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس، ورأيت مالكاً خازن النار، والدجال في آيات» أراهن الله إياه. ﴿فلا تكن في مرية من لقائه﴾ أنه قد رأى موسى ولقي موسى ليلة أسري به^(٢). رواه ابن جرير وغيره. وعن قتادة ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا﴾. قال: رؤساء في الخير ﴿لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ قال بعض العلماء: بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٦٢/٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٥١/١ - ١٥٢)، وابن جرير (١١٢/٢١). وأخرجه البخاري (ح/٣٣٩٤ و ٣٤٣٧)، دون قوله: «ورأيت مالكا» وما بعده.

قوله عز وجل: ﴿أَوْلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَاَنْظَرْنَا لَهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ .

عن ابن عباس ﴿أولم يهد لهم﴾ أولم يتبين لهم ﴿كم أهلكنا من قبلهم من القرون﴾ قال قتادة: عاد وثمود، وأنهم إليهم لا يرجعون؟

وقوله تعالى: ﴿أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجُرُزِ فنخرج به زرعاً تأكل منهم أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون﴾؟ قال قتادة: الجُرُز: المغبرة. وقال ابن عباس: الجُرُز التي لا تمطر إلا مطراً لا يغني عنها شيئاً، إلا ما يأتيها من السيول.

وقوله تعالى: ﴿ويقولون متى هذا الفتح﴾، أي: متى تُنصرون علينا ﴿إن كنتم صادقين﴾؟ ﴿قل﴾ لهم يا محمد ﴿يوم الفتح﴾، أي: إذا حلّ بكم العذاب ﴿لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم يُنظرون فأعرض عنهم﴾ ولا تبال بكلامهم ﴿وانتظر﴾ موعد النصر ﴿إنهم منتظرون﴾ حوادث الزمان عليك، وسترى عاقبة صبرك. قال تعالى: ﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون قل تربصوا فإني معكم من المتربصين﴾^(١) وقال تعالى: ﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل انتظروا إني معكم من المنتظرين ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننجي المؤمنين﴾^(٢).



(١) سورة الطور: الآية ٣١.

(٢) سورة يونس: الآية ١٠٣.

الدرس الثامن عشر بعد المائتين

﴿سورة الأحزاب﴾

مدنية، وهي ثلاث وسبعون آية

عن زر قال: «قال أبي بن كعب: كم تعدون سورة الأحزاب؟ قلت: ثلاثاً وسبعين آية، قال: فوالذي يحلف به أبي بن كعب، إن كانت لتعدل سورة البقرة وأطول، ولقد قرأنا منها: آية الرجم: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما»^(١).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ أَنْبَىٰ اللَّهِ وَلَا تَطِيعَ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً
حَكِيماً﴾ وَأَتَّبِعَ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرًا ﴿٢﴾
وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ
وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ النَّبِيِّ تَظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ
ذٰلِكُمْ قَوْلِكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ أَدْعُوهُمْ
لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ
وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ

(١) أخرجه الطيالسي (ص ٧٣)، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١٣٢/٥)، والنسائي في
الكبرى (٢٧١/٦)، والحاكم (٣٥٩/٤)، وصححه ووافقه الذهبي، والضياء في
المختارة (٣٧٠/٣ و ٣٧١).

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَآئِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ آتِيَ اللَّهِ وَلَا تُلَاحِظُوا السَّامِئِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِيَّاكَ اللَّهُ كَانَتْ عَلَيْهِمْ حَاكِمًا ﴿١﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ .

قال ابن كثير^(١): هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا، فلأن يأتمر مَنْ دونه بذلك بطريق الأولى والأخرى؛ وقد قال طلق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله مخافة عذاب الله.

وعن قتادة: ﴿واتبع ما يوحى إليك من ربك﴾، أي: هذا القرآن ﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾. قال البغوي^(٢): حافظاً لك.

قوله عز وجل: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرِجَالٍ مِنَ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِمْ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاجَكُمْ أَلْسِنَىٰ تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥﴾ .

قال ابن كثير^(٣): يقول تعالى موطناً قبل المقصود المعنوي أمراً معروفاً حسبياً

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٦٥/٣).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤٣٥/٣).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤٦٥/٣).

وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه، ولا تصوير زوجته التي يظاهر منها بقوله: أنت عليّ كظهر أمي أما له، كذلك لا يصير الدعويّ ولدًا للرجل إذا تبناه فدعاه ابناً له، فقال: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهنّ أمهاتكم﴾ كقوله عز وجل: ﴿ما هنّ أمهاتهم إن أمهاتهم إلاّ اللائي ولدنهم﴾^(١) الآية.

قوله تعالى: ﴿وما جعل أدياءكم أبناءكم﴾ هذا هو المقصود بالنفي، فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة^(٢) رضي الله عنه مولى النبي ﷺ كان النبي ﷺ قد تبناه قبل النبوة فكان يقال له: زيد بن محمد، فأراد الله أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله تعالى: ﴿وما جعل أدياءكم أبناءكم﴾ كما قال تعالى في أثناء السورة: ﴿ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيّين وكان الله بكل شيء عليمًا﴾ وقال ههنا: ﴿ذلكم قولكم بأفواهكم﴾ يعني تبنيكم لهم قولاً لا يقتضي أن يكون ابناً حقيقياً، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر، فما يمكن أن يكون له أبوان، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان ﴿والله يقول الحق وهو يهدي السبيل﴾ انتهى.

وعن قتادة ﴿ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم﴾ فإن لم تعلموا من أبوه فإنما هو أخوك ومولاك ﴿وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به﴾ يقول: إذا دعوت الرجل لغير أبيه وأنت ترى أنه كذلك ﴿ولكن ما تعمدت قلوبكم﴾ يقول الله: لا تدعه لغير أبيه متعمداً، أما الخطأ فلا يؤاخذكم الله به ولكن يؤاخذكم بما تعمدت قلوبكم. قال مجاهد: فالعمد ما أتى بعد البيان والنهي في هذا وغيره. وعن أبي بكر رضي الله عنه قال:

(١) سورة المجادلة: الآية ٢.

(٢) كما أخرجه البخاري (ح/٤٧٨٢)، ومسلم (ح/٢٤٢٥) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلمه فالجنة عليه حرام»^(١). رواه البغوي وغيره.

قوله عز وجل: ﴿الَّتِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

قال ابن زيد: ﴿النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ كما أنت أولى بعبدك ما قضى فيهم من أمر جاز كما كلما قضيت على عبدك جاز. وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ فأیما مؤمن ترك مالاً فليرثه عصبه من كانوا، وإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه»^(٢). رواه البخاري وغيره. وعن قتادة: ﴿النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم﴾ يعظم بذلك حقهن، وفي بعض القراءة: وهو أب لهم. وقال ابن زيد في قوله: ﴿وأزواجه أمهاتهم﴾ محرّمات عليهم. وعن قتادة: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين﴾ لبث المسلمون زماناً يتوارثون بالهجرة، والأعرابي المسلم لا يرث من المهاجرين شيئاً، فأنزل الله هذه الآية فخلط المؤمنین بعضهم ببعض فصارت الموارث بالملل.

وعن مجاهد قوله: ﴿إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً﴾ قال: حلفاؤكم الذين والى بينهم النبى ﷺ من المهاجرين والأنصار إمساك بالمعروف والعقل

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٣٢٦ و ٤٣٢٧)، ومسلم (ح/٦٣) من حديث سعد بن أبي وقاص، وأبي بكر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٧٨١)، وينحوه مسلم (ح/١٦١٩).

والنصر بينهم. قال ابن كثير^(١) وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾، أي: ذهب الميراث، وبقي النصر والبرّ والصلة والإحسان والوصية.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾، أي: هذا الحكم وهو: أن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض، حكم من الله مقدّر مكتوب في الكتاب الأول الذي لا يبدّل ولا يغيّر، قاله مجاهد وغير واحد؛ وإن كان تعالى قد شرع خلافه في وقت لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وهو يعلم أنه ينسخه إلى ما هو جارٍ في قدره الأزليّ وقضائه القدريّ الشرعيّ. والله أعلم انتهى.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِيَسْأَلَ الصّٰدِقِيْنَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِيْنَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾.

عن مجاهد: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ قال: في ظهر آدم. وقال البغوي^(٢): قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ على الوفاء بما حملوا، وأن يصدّق بعضهم بعضاً ويبشّر بعضهم ببعض. قال مقاتل: أخذ ميثاقهم على أن يعبدوا الله ويدعوا إلى عبادة الله ويصدّق بعضهم بعضاً وينصحوا لقومهم ﴿ومِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ﴾ خصّ هؤلاء الخمسة بالذكر من بين النبيين لأنهم أصحاب الكتب والشرائع وأولي العزم من الرسل. انتهى.

قال ابن كثير^(٣): فبدأ في هذه الآية بالخاتم لشرفه صلوات الله عليه، ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم. وقال في قوله: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصىنا به إبراهيم وموسى وعيسى أن

(١) المصدر السابق (٣/٤٦٨).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/٤٣٨).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٤٦٩).

أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴿ فذكر الطرفين والوسط الفاتح ومن بينهما على الترتيب. وعن ابن عباس قوله: ﴿وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ قال: الميثاق الغليظ العهد. وعن مجاهد: ﴿ليسأل الصادقين عن صدقهم﴾ قال: الرسل المؤيدين المبلّغين.

قال ابن كثير^(١): وقوله تعالى: ﴿وأعدّ للكافرين عذاباً أليماً﴾، أي: موجعاً. فنحن نشهد أن الرسل قد بلّغوا رسالات ربهم ونصحوا الأمم، وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة والمعاندين، فما جاءت به الرسل هو الحق، ومن خالفهم فهو على الضلال، كما يقول أهل الجنة: ﴿لقد جاءت رسلنا بالحق﴾.



(١) المصدر السابق (٣/٤٦٩).

الدرس التاسع عشر بعد المائتين

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَ تَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءَ وَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَعِذُّنَ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَمْطَارِهَا ثُمَّ سُرِيقُوا لَفْتَنَةٌ لَأَنتُوهَا وَمَا تَلَابَثُوا بِهَا إِلَّا بَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ لَا يُؤْلُوا إِلَّا دَبْرُهُ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَآسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَبُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ إِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ جِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ ؕ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ

عَنْ أَنْبَاءِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا ﴿٢٦﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٧﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ﴿٣٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَلَهُرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِبِهِمْ وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٣٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْعَمُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٣٧﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَ تَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلْظُنُونًا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ .

قال ابن إسحاق: حدثني يزيد بن رومان في قول الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها﴾ والجنود: قريش وغطفان وبنو قريظة، وكانت الجنود التي أرسل الله عليهم مع الريح الملائكة. وعن مجاهد ﴿إذا جاءوكم من فوقكم﴾ قال: عيينة بن بدر في أهل نجد ﴿ومن أسفل منكم﴾ قال أبو سفيان قال: وواجهتهم قريظة. وعن قتادة ﴿وإذ زاغت الأبصار﴾ شخصت. وعن عكرمة ﴿وبلغت القلوب الحناجر﴾ قال: من الفزع. وعن الحسن ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾ قال: ظنوناً مختلفة؛ ظن المنافقون أن محمداً وأصحابه يستأصلون، وأيقن المؤمنون أن ما وعدهم الله حق أنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

وعن مجاهد قوله: ﴿هنالك ابتلي المؤمنون﴾ قال: مُحْصُوا.

وقال البغوي^(١): ﴿هنالك ابتلي المؤمنون﴾، أي: عند ذلك اختبر المؤمنون بالحصار والقتال، ليتبين المخلص من المنافق ﴿وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾ حُرِّكُوا حركة شديدة.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٤٤٥).

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴿١٣﴾ وَيَسْتَفْزِنُ فَريقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٤﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوَاهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَئِيسًا ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلَّفُونَ الْأَدْبُرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٦﴾ قُلْ لَن يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَغْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمْنُونَ ﴿١٧﴾ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِن آرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ آرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَحِذُّونَ لَهُمْ مِّنْ ذُنُوبِ اللَّهِ رِيبًا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٩﴾﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ قال: قال ذلك أناس من المنافقين: قد كان محمد يعدنا فتح فارس والروم، وقد حصرنا هنا حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ قال البغوي: وهم أوس بن قبيص وأصحابه: يا أهل يثرب - يعني المدينة. قال أبو عبيدة: يثرب اسم أرض، ومدينة الرسول ﷺ في ناحية منها. وفي بعض الأخبار أن النبي ﷺ نهى أن تسمى المدينة يثرب، وقال: «هي طابة»^(١)، كأنه كره هذا اللفظ - لا مقام لكم فارجعوا إلى منازلكم، ويستأذن فريق منهم النبي يقولون: إن بيوتنا عورة. قال ابن عباس قالوا: بيوتنا مخليّة نخشى عليها السرق ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ .

وعن قتادة: ﴿لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾، أي: لو دخل عليهم من نواحي المدينة ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾، أي: الشرك ﴿لَآتَوَاهَا﴾ يقول: لأعطوها ﴿وَمَا

(١) ورد ذلك بلفظ: «من سمي المدينة يثرب فليستغفر الله، هي طابة، هي طابة، هي طابة»، أخرجه أحمد (٤/٢٨٥)، وابن شبه في «تاريخ المدينة» (١/١٦٥) بسند ضعيف.

تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٨﴾ يقول: إِلَّا أعطوه طيبة به أنفسهم ما يحتسبونه، ﴿ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولّون الأدبار وكان عهد الله مسؤولاً﴾ قال: كان أناس غابوا عن وقعة بدر ورأوا. ما أعطى الله أصحاب بدر من الكرامة والفضيلة فقالوا: لئن أشهدنا الله تعالى قتالاً لنقاتلن، فساق الله ذلك إليهم حتى كان في ناحية المدينة. ﴿قل لئن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تتمعون إلا قليلاً﴾ وإنما الدنيا كلها قليل.

وقوله تعالى: ﴿قل من ذا الذي يعصمكم من الله﴾.

قال البغوي^(١): يمنعكم من عذابه ﴿إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾.

قال ابن كثير^(٢): أي ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير ولا مغيث.

قوله عز وجل: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْوِفِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوا فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قُنُلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾.

وعن قتادة قوله: ﴿قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا﴾ قال: هؤلاء ناس من المنافقين كانوا يقولون لإخوانهم: ما محمد وأصحابه إلا آكلة رأس، ولو كانوا لحمماً لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه، دعوا

(١) المصدر السابق (٣/٤٤٦).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٤٧٣).

هذا الرجل فإنه هالك. قال ابن إسحاق: حدثنا يزيد بن رومان ﴿قد يعلم الله المعوقين منكم﴾، أي: أهل النفاق ﴿والقائلين لإخوانهم هلمّ إلينا ولا يأتون البأس إلّا قليلاً﴾، أي: إلّا دفعاً وتعذيراً ﴿أشحة عليكم﴾، أي: للضغن الذي في أنفسهم ﴿فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يُغشى عليه من الموت﴾، أي: إعظاماً وفرقاً منه ﴿فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد﴾ قال قتادة: أما عند القسمة فأشح قوم وأسوأ مقاسمة: أعطونا فإننا قد شهدنا معكم، وأما عند البأس فأجبن قوم وأخذله للحق.

قال ابن كثير^(١): أي ليس فيهم خير، قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير، فهم كما قال في أمثالهم الشاعر:

أفي السلم أعيار جفاء وغلظة وفي الحرب أمثال النساء العوارك
ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً﴾.

وقوله تعالى: ﴿يحسبون الأحزاب لم يذهبوا﴾ قال البغوي^(٢): ﴿يحسبون﴾، يعني: هؤلاء المنافقين ﴿الأحزاب﴾، يعني: قريشاً وغطفان واليهود ﴿لم يذهبوا﴾ لم ينصرفوا عن قتالهم جبناً وفرقاً، وقد انصرفوا ﴿وإن يأت الأحزاب﴾، أي: يرجعوا إليهم للقتال بعد الذهاب ﴿يودّوا لو أنهم بادون في الأعراب﴾، أي: يتمنّوا لو كانوا في بادية مع الأعراب، من الخوف والجبن ﴿يسألون عن أنبائكم﴾ أخبركم وما آل إليه أمركم ﴿ولو كانوا﴾، يعني: هؤلاء المنافقين ﴿فيكم ما قاتلوا إلّا قليلاً﴾ تعذيراً أي يقاتلون قليلاً يقيمون به عذرهم فيقولون: قد قاتلنا.

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا

(١) المصدر السابق (٣/٤٧٤).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/٤٤٧).

وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢١﴾
 الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ
 وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٢﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ
 شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ .

قال ابن إسحاق: حدثني يزيد بن رومان قال: ثم أقبل على المؤمنين فقال:
 ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ أن
 لا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ولا عن مكان هو به ﴿وذكر الله كثيراً﴾ يقول: وأكثر
 ذكر الله في الخوف والشدة والرخاء.

وعن ابن عباس قوله: ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله
 ورسوله وصدق الله ورسوله﴾ قال: ذلك أن الله قال لهم في سورة البقرة ﴿أم
 حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء
 والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله
 قريب﴾^(١) قال: فلما مستهم البلاء حيث رابطوا الأحزاب في الخندق، تأول
 المؤمنون ذلك ولم يزداهم ذلك إلا إيماناً وتسليماً.

وقال ابن إسحاق: حدثني يزيد بن رومان ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما
 عاهدوا الله عليه﴾، أي: وفوا الله بما عاهدوه عليه ﴿فمنهم من قضىٰ نجبه﴾، أي:
 فزع من عمله ورجع إلى ربه، كمن استشهد يوم بدر ويوم أحد ﴿ومنهم من ينتظر﴾
 ما وعد الله من نصره والشهادة على ما مضىٰ عليه الصحابة ﴿وما بدلوا تبديلاً﴾ قال
 قتادة يقول: ما شكوا وما ترددوا في دينهم ولا استبدلوا به غيره ﴿ليجزىٰ الله
 الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم﴾ يقول: إن شاء
 أخرجهم من النفاق إلى الإيمان ﴿إن الله كان غفوراً رحيمًا﴾ .

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٤ .

قوله عز وجل: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغِيظِهِمْ لَمَنَّا لَوْ خَيْرًا لَّوَكُنِيَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً﴾ وذلك يوم أبي سفيان والأحزاب، رد الله أبا سفيان وأصحابه بغيظهم ﴿لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال﴾ بالجنود من عنده والريح التي بعث عليهم. وعن أبي سعيد الخدري قال: حُسِنَا يوم الخندق عن الصلاة فلم نصل الظهر ولا العصر ولا المغرب ولا العشاء، حتى كان بعد العشاء بهوي كُفِينَا وأنزل الله ﴿وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً﴾ فأمر رسول الله ﷺ بلالاً فأقام الصلاة، وصلى الظهر فأحسن صلاتها كما كان يصليها في وقتها، ثم صلى العصر كذلك، ثم صلى المغرب كذلك، ثم صلى العشاء كذلك، جعل لكل صلاة إقامة وذلك قبل أن تنزل صلاة الخوف ﴿فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً﴾^(١) رواه ابن جرير.

قال ابن كثير^(٢): ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيداً منصوراً، ووضع الناس السلاح، فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعاء تلك المرابطة في بيت أم سلمة رضي الله عنها، إذ تبدى له جبريل عليه الصلاة والسلام معترجاً بعمامة من إستبرق على بغلة عليها قطيفة من ديباج، فقال له: وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال ﷺ: «نعم»، قال: لكن الملائكة لم تضع أسلحتها، وهذا الآن رجوعي من طلب القوم، ثم قال: إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة.

(١) أخرجه أحمد (٣/٢٥ و ٤٩ و ٦٧ و ٦٨)، والدارمي (١/٣٥٨)، وابن جرير (٢١/١٤٩).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٤٧٧)، والقصة هذه أخرجها ابن جرير (٢١/١٥٠).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صِيَاصِيهِمْ﴾،
أي: حصونهم، وهم بنو قريظة ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ
فَرِيقًا﴾ قال ابن إسحاق: حدثني يزيد بن رومان ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾،
أي: قتل الرجال وسبي الذراري والنساء ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ
وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّوها وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ قال ابن زيد في قوله:
﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ﴾ قال: قريظة والنضير أهل الكتاب ﴿وَأَرْضًا لَمْ
تَطَّوُّوها﴾ يومئذ قال: خير. وقال الحسن: هي الروم وفارس وما فتح الله عليهم.
وقال ابن جرير^(١): يجوز أن يكون الجميع مراداً ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرًا﴾.



(١) انظر «جامع البيان» (١٥٥/٢١).

الدرس العشرون بعد المائتين

﴿ يَتَأَيَّمُ النَّبِيُّ قُلًّا لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتَن تَرُدُّنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا
فَنَعَالَيْكَ أُمَّتَكُنَّ وَأَسْرَحَكُنَّ سَرًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِنْ كُنْتَن تَرُدُّنَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ
وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَنسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ
يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَحِشَةٍ مَّبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى
اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتَهَا أَجْرَهَا
مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَنسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتَنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ
أَنقَبْتَنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ
فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ
الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ
الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأذْكَرْتَنَّ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ
وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ
وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ
وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَلِشِينَ وَالْخَلِشَاتِ وَالْمُتَّصِدِّقِينَ وَالْمُتَّصِدِّقَاتِ وَالصَّامِعِينَ
وَالصَّامِعَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا
وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ
إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ

ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِيكَ بِلَاغِ رِسَالَتِهِ اللَّهُ وَمُخَشَوْنَهُمْ وَلَا يُخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسْرِخْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

روى البخاري وغيره عن عائشة رضي الله عنهما «أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله تعالى أن يختير أزواجه قالت: فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال: إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك؛ وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه، قالت: ثم قال: إن الله تعالى قال: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك﴾ إلى تمام الآيتين، فقلت له: ففي أي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله تعالى ورسوله والدار الآخرة»^(١)؛ وفي رواية: «خيرنا رسول الله ﷺ فلم يعدها علينا شيئاً»^(٢).

وروى مسلم وغيره عن جابر رضي الله عنه قال: أقبل أبو بكر رضي الله عنه يستأذن على رسول الله ﷺ، والناس ببابه جلوس، والنبي ﷺ جالس، فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر رضي الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له، ثم أذن لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فدخلا، والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه، وهو ﷺ ساكت، فقال عمر رضي الله عنه: لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك، فقال عمر: يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتني النفقة أنفاً فوجأت عنقها، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه وقال: «هنّ حولي يسألنني النفقة» فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها، وقام عمر إلى حفصة، كلاهما يقولان: تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده؟ فنهاهما رسول الله ﷺ، فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٧٨٥ و٤٧٨٦)، ومسلم (ح/١٤٧٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢/١١٠٤).

ليس عنده؛ قال: وأنزل الله عز وجل الخيار، فبدأ بعائشة رضي الله عنها^(١) الحديث.

قال قتادة: فلما اخترن الله ورسوله شكرهن الله على ذلك فقال: ﴿لا يحلّ لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن﴾ فقصره الله عليهن. قال عكرمة: وكان تحته يومئذ تسع نسوة: خمس من قريش: عائشة وحفصة وأم حبيبة بنت أبي سفيان وسودة بنت زمعة وأم سلمة بنت أبي أمية، وكانت تحته: صفية ابنة حيّ الخبيرية وميمونة بنت الحارث الهلالية وزينب بنت جحش الأسدية وجويرية بنت الحارث من بني المصطلق. وقال ابن زيد: فاخرن الله ورسوله، إلا امرأة واحدة جويرية ذهبت.

قوله عز وجل: ﴿يُنْسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفَ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

قال ابن كثير^(٢): يقول تعالى واعظاً نساء النبي ﷺ اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، واستقرارهن تحت رسول الله ﷺ، فناسب أن يخبرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء، بأن من يأت منهن بفاحشة مبيّنة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: وهو النشوز وسوء الخلق، وعلى كل تقدير فهو شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع، كقوله تعالى: ﴿ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك﴾^(٣) فلما كانت محاسنهن رفيعة ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظاً، صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع، ولهذا قال تعالى: ﴿من يأت

(١) أخرجه مسلم (ح/١٤٧٨).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٤٨١).

(٣) سورة الزمر: الآية ٦٥.

منكّن بفاحشة ميّنة يضاعف لها العذاب ضعفين ﴿٣٢﴾. قال مالك عن زيد بن أسلم ﴿يضاعف لها العذاب ضعفين﴾ قال: في الدنيا والآخرة: ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ أي سهلاً هيناً.

ثم ذكر عدله وفضله في قوله: ﴿ومن يقنت منكنّ لله ورسوله﴾ أي تطع الله ورسوله وتستجب ﴿نؤتها أجرها مرتين وأعدنا لها رزقاً كريماً﴾ أي في الجنة، فإنهن في منازل رسول الله ﷺ في أعلى عليّين فوق منازل جميع الخلائق، في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش.

قوله عز وجل: ﴿يٰۤاَيُّهَا النَّبِيُّ لَسْتَنْ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِن آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَ اللَّهُ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾.

قال البغوي^(١): ﴿يا نساء النبي لستنّ كأحد من النساء﴾ قال ابن عباس: يريد ليس قدركنّ عندي مثل قدر غيركنّ من النساء الصالحات، أنتنّ أكرم عليّ وثوابكنّ أعظم لديّ ﴿إن اتقيتنّ﴾ الله أطعنته ﴿فلا تخضعن بالقول﴾ لا تُلنّ بالقول للرجال ولا ترققن الكلام ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾ أي فجور وشهوة، والمرأة مندوبة إلى الغلظة في المقابلة إذا خاطبت الأجانب لقطع الأطماع معهم ﴿وقلن قولاً معروفاً﴾ يوجهه الدين والإسلام بتصريح وبيان من غير خضوع.

قال ابن كثير^(٢) وقوله تعالى: ﴿وقرن في بيوتكن﴾ أي الزمّن بيوتكنّ فلا

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٤٥٤ - ٤٥٥).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٤٨٢).

تخرجن لغير حاجة. وعن قتادة ﴿ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾ أي إذا خرجتن من بيوتكن؛ قال: كانت لهنّ مشية وتكسر وتغنج، يعني بذلك الجاهلية الأولى، فنهاهنّ الله عن ذلك. وقال ابن زيد في قوله: ﴿ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾ يقول: التي كانت قبل الإسلام؛ قال: وفي الإسلام جاهلية. وقال مقاتل: والتبرج أنها تلقي الخمار على رأسها ولا تشده فيواري قلائدها وقرطها وعنقها، ويبدو ذلك كله منها وذلك التبرج، ثم عمّت نساء المؤمنين في التبرج.

وقوله تعالى: ﴿وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ قال قتادة: فهم أهل بيت طهرهم الله من سوء وخصّهم برحمة منه.

قال ابن كثير^(١) وقوله تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت ههنا، لأنهنّ سبب نزول هذه الآية. وروى مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنهما قالت: خرج النبي ﷺ ذات غداة وعليه مرط مرحّل من شعر أسود، فجاء الحسن رضي الله عنه فأدخلها معه، ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثم جاء عليّ رضي الله عنه فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة رضي الله عنها فأدخلها معه، ثم جاء عليّ رضي الله عنه فأدخله معه، ثم قال رسول الله ﷺ: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾^(٢). وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: «قام فينا رسول الله ﷺ يوماً خطيباً بماء يدعى خمّاً، بين مكة والمدينة، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال: أما بعد ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله تعالى فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحثّ على كتاب الله عز وجل

(١) المصدر السابق (٣/٤٨٣).

(٢) أخرجه مسلم (ح/٢٤٢٤).

مغفرة ﴿ لذنوبهم ﴾ وأجرًا عظيمًا ﴿ في الجنة. وعن مجاهد قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله يُذكر الرجال ولا تُذكرنا فنزلت ﴿ إن المسلمين والمسلمات ﴾ الآية.

قوله عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ .

قال البغوي^(١): نزلت في زينب بنت جحش الأسدية وأخيها عبد الله بن جحش، وأمها أميمة بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ، خطب النبي ﷺ لمولاه زيد بن حارثة، وكان رسول الله ﷺ اشتري زيداً في الجاهلية بعكاظ فأعتقه وتبناه، فلما خطب رسول الله ﷺ زينب رضيت وظنت أنه يخطبها لنفسه، فلما علمت أنه يخطبها لزيد أبت وقالت: أنا ابنة عمك يا رسول الله فلا أرضاه لنفسي، وكانت بيضاء جميلة فيها حدة، وكذلك كره أخوها ذلك^(٢)، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وما كان لمؤمن ﴾ يعني عبد الله بن جحش ﴿ ولا مؤمنة ﴾ يعني أخته زينب ﴿ إذا قضى الله ورسوله أمراً ﴾ أي إذا أراد الله ورسوله أمراً، وهو نكاح زينب لزيد، ﴿ أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ قال: والخيرة الاختيار؛ والمعنى: أن يريد غير ما أراد الله أو يمتنع مما أمر الله ورسوله به. قال ابن كثير: فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار لأحد ههنا ولا رأي ولا قول، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾^(٣). وفي الحديث: «والذين نفسي

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤٥٧/٣).

(٢) أخرجه ابن جرير (١١/٢٢) عن ابن عباس بسندٍ ضعيف، وأخرجه أيضاً (١١/٢٢) عن قتادة مرسلًا.

(٣) سورة النساء: الآية ٦٥.

بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به^(١)؛ ولهذا شدّد في خلاف ذلك فقال: ﴿ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً﴾ كقوله تعالى: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾^(٢).

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَدْعِيَابِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾.

عن قتادة ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه﴾ بالإسلام ﴿وأنعمت عليه﴾ أعتقه رسول الله ﷺ ﴿أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾ قال: وكان يخفي في نفسه: ود أنه طلقها. قال الحسن: ما أنزلت عليه آية كانت أشد عليه منها، قوله: ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾ ولو كان نبي الله ﷺ كاتباً شيئاً من الوحي لكتماها ﴿وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾ قال: خشي نبي الله ﷺ مقالة الناس. وقال علي بن الحسين رضي الله عنهما: كان الله تعالى أعلم نبيه ﷺ أن زينب ستكون من أزواجه، فلما أتاه زيد يشكوها قال: ﴿اتق الله وأمسك عليك زوجك﴾. قال الله: ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾.

(١) أخرجه ابن أبي عاصم (ح/١٥)، والخطيب في تاريخه (٤/٣٦٩)، والبغوي في شرح

السنة (١/٢١٣)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه بسند ضعيف.

(٢) سورة النور: الآية ٦٣.

وعن أنس رضي الله عنه قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: «اذهب فاذكرها عليّ» فانطلق حتى أتاها وهي تخمر عجينها قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها، وأقول: إن رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي وقلت: يا زينب أبشري، أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي عز وجل، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن^(١).

وروى البخاري وغيره أن زينب بنت جحش رضي الله عنها كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ فتقول: «زوّجكّن أهاليكّن وزوّجني الله تعالى من فوق سبع سموات»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فلما قضى زيد منها وطراً﴾.

قال البغوي^(٣): أي حاجة من نكاحها ﴿زوجناكها﴾ وذكر قضاء الوطر ليعلم أن زوجة المتبني تحلّ بعد الدخول وعن قتادة قوله: ﴿لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وطراً﴾ يقول: إذا طلقوهنّ؛ وكان رسول الله ﷺ تبنى زيد بن حارثة ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾.

قال البغوي^(٤): أي كان قضاء الله ماضياً وحكمه نافذاً، وقد قضى في زينب أن يتزوجها رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له﴾.

قال ابن كثير^(٥): أي فيما أحلّ الله له وأمره به من تزويج زينب التي طلقها

(١) أخرجه أحمد (٣/١٩٥ — ١٩٦)، وبنحوه مطولاً مسلم (ح/١٤٢٨). قوله: «فاذكرها

عليّ»، أي: أخطبها لي من نفسها.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٧٢٠).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/٤٥٨).

(٤) المصدر السابق (٣/٤٥٩).

(٥) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٤٩٢).

زيد بن حارثة ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾ أي هذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبله، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج، وهذا ردّ على من توهم من المنافقين نقصاً في تزويجه امرأة زيد مولاه، ودعيته الذي كان قد تبّاه ﴿وكان أمر الله قَدراً مقدوراً﴾ أي وكان أمره الذي يقدره كائناً لا محالة وواقعاً لا محيد عنه ولا معدل، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وقوله تعالى: ﴿الذين يبلغون رسالات الله﴾.

قال البغوي^(١): يعني سنة الله في الأنبياء الذين يبلغون رسالات الله ﴿ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله﴾ أي لا يخشون قالة الناس ولائمتهم فيما أحلّ الله لهم وفرض عليهم ﴿وكفى بالله حسيباً﴾ حافظاً لأعمال خلقه ومحاسبهم.

ثم إن رسول الله ﷺ لما تزوج زينب قال الناس: إن محمداً تزوج امرأة ابنه، فأنزل الله عز وجل ﴿ما كان محمد أباً أحد من رجالكم﴾ يعني زيد بن حارثة^(٢)، أي ليس أباً أحد من رجالكم الذين لم يلداهم، فيحرم عليه نكاح زوجته بعد فراقه إياها ﴿ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ ختم الله به النبوة. وعن ابن عباس أن الله تعالى لما حكم أن لا نبي بعده، لم يعطه ولداً ذكراً يصير رجلاً ﴿وكان الله بكل شيء عليماً﴾. وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها، إلا موضع لبنة، فكان من دخلها فنظر إليها قال: ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة، فإنا موضع اللبنة، ختم بي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»^(٣). متفق عليه.



(١) انظر «معالم التنزيل» (٤٥٩/٣).

(٢) أخرجه بنحوه ابن جرير (٤٦٠/٢٢).

(٣) أخرجه البخاري (ح/٣٥٣٤)، ومسلم (ح/٢٢٨٧).

الدرس الحادي والعشرون بعد المائتين

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَيَحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ؕ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِيعِ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِن عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَعَهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ ؕ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَمِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ﴿٥١﴾ تَرْجَىٰ مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتَقْوَىٰ إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدَّىٰ أَن تَفَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَانَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ

النِّسَاءِ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ
يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿٥٧﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ
إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَظِيرِ بْنِ إِدْنَهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا
طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِفِينَ لِحَدِيثٍ إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَجِئْ
مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَجِئُ مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ
حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ
اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٨﴾
إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٩﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ فِي
ءَابَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أُمَّهَاتِهِمْ وَلَا أَسْرَائِهِمْ وَلَا نِسَائِهِمْ
وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٦٠﴾ إِنْ
اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا
تَسْلِيمًا ﴿٦١﴾ ﴿

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً ءَوَصِيلاً ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ اِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ؕ وَاَعَدَّ لَهُمْ اَجْرًا كَرِيماً ﴿٤٤﴾ .

عن ابن عباس في قوله: ﴿اذكروا الله ذكراً كثيراً﴾ يقول: لا يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها جزء معلوماً، ثم عذر أهلها في حال عذر غير الذكر، فإن الله لم يجعل له حداً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على عقله قال: ﴿اذكروا الله قياماً وعوداً وعلى جنوبكم﴾ بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حال، فقال: ﴿سبحوه بكرة وأصيلاً﴾ فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته، قال الله عز وجل: ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾.

قال ابن كثير^(١): وقوله تعالى: ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾ هذا تهيج إلى الذكر، أي: أنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم، كقوله عز وجل: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾^(٢) وقال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه»^(٣). «والصلاة من الله تعالى ثناؤه على العبد

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٤٩٥).

(٢) سورة البقرة: الآية ١٥٢.

(٣) أخرجه البخاري (ح/٧٤٠٥)، ومسلم (ح/٢٦٧٥ و ٢٠٦٨).

عند الملائكة». حكاه البخاري عن أبي العالية^(١)، ورواه أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عنه؛ وقال غيره: الصلاة من الله عز وجل الرحمة؛ وقد يقال: لا منافاة بين القولين والله أعلم انتهى.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ قال: من الضلالة إلى الهدى. وعن قتادة قوله: ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾ قال: تحية أهل الجنة السلام: ﴿وأعدّ لهم أجراً كريماً﴾، أي: الجنة.

قال ابن كثير^(٢): وقوله: ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾ الظاهر أن المراد — والله أعلم — ﴿تحيتهم﴾، أي: من الله تعالى: ﴿يوم يلقونه سلام﴾، أي: يسلم عليهم، كما قال عز وجل: ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾^(٣). قال: وقد يستدل لقول قتادة بقوله تعالى: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾.

قوله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَن لَّهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

عن قتادة: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً﴾ على أمتك بالبلاغ ﴿ومبشراً﴾ بالجنة ﴿ونذيراً﴾ بالنار ﴿وداعياً إلى الله﴾ إلى شهادة أن لا إله إلا الله ﴿بإذنه﴾، قال ابن جرير: بأمره ﴿وسراجاً منيراً﴾ يقول: وضيء لخلقه ﴿وبشير المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع﴾

(١) انظر (٨/٣٩٢ — مع الفتح).

(٢) المصدر السابق (٢/٤٩٦).

(٣) سورة يس: الآية ٥٨..

أذاهم ﴿ قال قتادة، أي: اصبر على أذاهم: ﴿وتوكل على الله وكفى بالله
وكيلاً﴾.

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ
طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ
وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم
طلقتن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها﴾ فهذا في
الرجل يتزوج المرأة ثم يطلقها من قبل أن يمسه، فإذا طلقها واحدة بانت منه
ولا عدة عليها تتزوج من شاءت، ثم قرأ: ﴿فمتعوهن وسرحوهن سراحاً
جميلاً﴾ يقول: إن كان سمي لها صداقاً فليس لها إلا النصف، فإن لم يكن
سمي لها صداقاً متعها على قدر عسره ويسره، وهو السراح الجميل؛ قال أكثر
أهل العلم: إذا قال: كل امرأة أنكحها فهي طالق فنكح لا يقع الطلاق. وروي
عن ابن مسعود: أنه يقع. وقال ابن عباس: كذبوا على ابن مسعود، إن كان
قالها فزلة من عالم؛ في الرجل يقول: إن تزوجت فلانة فهي طالق، يقول الله
تعالى: ﴿إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن﴾ ولم يقل: إذا طلقتموهن ثم
نكحتموهن.

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ
أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمِكَ وَبَنَاتِ عَمَتِكَ
وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَأُمَّرَةٌ مُؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا
لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا
فَرَضْنَا عَلَيْهِنَّ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ
حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾ ﴿ترجي من تشاء ممنهن وثقوى إيتك من

قَسَاءٌ وَمِنْ ابْتِغِيَّتِ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْفَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَخْزَتَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿٥٢﴾ .

عن مجاهد قوله: ﴿أزواجك اللاتي آتيت أجورهن﴾ قال: صدقاتهن. وقال ابن زيد: كان كل امرأة آتاها مهرًا فقد أحلها الله له. وعن أم هانئ قالت: خطبني النبي ﷺ فاعتذرت له بعذري، ثم أنزل الله عليه: ﴿إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن﴾ إلى قوله: ﴿اللاتي هاجرن معك﴾ قالت: فلم أحل له، لم أهاجر معه كنت من الطلقاء^(١).

وقوله تعالى: ﴿وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين﴾ .

قال البغوي^(٢): وكان النكاح ينعقد في حقه ﷺ بمعنى الهبة، من غير ولي ولا شهود ولا مهر، وكان ذلك من خصائصه في النكاح، لقوله تعالى: ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾ كالزيادة على الأربع، ووجوب تخير النساء كان من خصائصه لا مشاركة لأحد معه فيه. وعن مجاهد قوله: ﴿وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي﴾ بغير صداق، فلم يكن يفعل ذلك، وأحل الله له خاصة من دون المؤمنين.

وعن قتادة في قول الله: ﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم﴾ قال: كان مما فرض الله عليهم أن لا تزوج امرأة إلا بولي وصداق عند شاهدي عدل، ولا

(١) أخرجه الترمذي (ح/٣٢١٤) وقال: «حسن صحيح»، وابن جرير (٢٢/٢١)، والحاكم (٢/٤٢٠)، وصححه، ووافقه الذهبي، قلت: وفيه أبو صالح مولى أم هانئ، وهو

ضعيف.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/٤٦٢).

يحلّ لهم من النساء إلا أربع وما ملكت أيماهم. وقوله تعالى: ﴿لكيلا يكون عليك حرج﴾.

قال البغوي^(١): وهذا يرجع إلى أول الآية، أي: أحللنا لك أزواجك، وما ملكت يمينك، والموهوبة لك: ﴿لكيلا يكون عليك حرج﴾ وضيق ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾. وعن ابن عباس قوله: ﴿ترجي من تشاء منهم﴾ يقول: تؤخر. وقال مجاهد: تعزل بغير طلاق من أزواجك ﴿من تشاء وتؤوي إليك من تشاء﴾ قال: تردّها إليك. قال قتادة: فجعله الله في حلّ من ذلك، أن يدع من يشاء منهم بغير قسم، وكان نبي الله يقسم ﴿ذلك أدنى أن تقرّ أعينهنّ ولا يحزنّ ويرضين بما آتيتهنّ كلّهنّ﴾ قال: إذا علمن أن هذا جاء من الله كان أطيب لأنفسهنّ وأقلّ لحزنهنّ ﴿والله يعلم ما في قلوبكم﴾.

قال البغوي^(٢): من أمر النساء والميل إلى بعضهنّ ﴿وكان الله عليماً حليماً﴾.

وعن ابن عباس قوله: ﴿لا يحلّ لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهنّ من أزواج ولو أعجبك حسنهنّ إلا ما ملكت يمينك﴾. قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يتزوج بعد نسائه الأول شيئاً»^(٣). قال قتادة: وهنّ التسع اللاتي اخترن الله ورسوله. قال ابن جرير: ولا دلالة على نسخ حكم إحدى الآيتين حكم الأخرى. وعن قتادة: ﴿وكان الله على كل شيء رقيباً﴾، أي: حفيظاً.

قوله عز وجل: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرِ بْنِ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ

(١) المصدر السابق (٣/٤٦٣).

(٢) المصدر السابق (٣/٤٦٤).

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٢/٢٨) بسند ضعيف.

فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِيهِ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِيهِ مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾
 إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خُفِّفُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أُمَّهَاتِهِمْ وَلَا أَسْرَائِهِمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ .

عن مجاهد في قول الله: ﴿إلى طعام غير ناظرين إناه﴾ قال: متحيين نضجه. وفي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو يتهياً للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقوا، فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا﴾^(١) الآية.

وعن عمر بن الخطاب قال قلت: «يا رسول الله لو حجبت عن أمهات المؤمنين، فإنه يدخل عليك البر والفاجر، فنزلت آية الحجاب»^(٢). رواه ابن جرير وغيره.

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٧٩١)، ومسلم (٢/١٠٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٧٩٠).

وقال ابن زيد في قوله: ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً﴾ قال: ربما بلغ النبي ﷺ أن الرجل يقول: لو أن النبي ﷺ توفي تزوجت فلانة بعده، قال: فكان ذلك يؤذي النبي ﷺ، فنزل القرآن: ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبناهن﴾ الآية.

قال ابن كثير^(١): لما أمر تبارك وتعالى النساء بالحجاب من الأجنب، بين أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم، كما استثناهم في سورة النور عند قوله: ﴿ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبناهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء﴾. انتهى. قال بعض المفسرين: لم يذكر العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

قال أبو العالية: صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء. وقال ابن عباس: ﴿يصلون﴾ يركعون. وقال سفيان بن عيينة وغيره: صلاة الرب الرحمة، وصلاة الملائكة الاستغفار؛ وقد قال تعالى: ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾. وعن كعب بن عجرة قال: «لما نزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ قلنا: يا رسول الله قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك؟ قال قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٥٠٦/٣).

إبراهيم إنك حميد مجيد»^(١). متفق عليه واللفظ للبخاري. وعن أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والسرور يُرى في وجهه فقالوا: يا رسول الله إنا لنرى السرور في وجهك! فقال: «إنه أتاني الملك فقال: يا محمد أما يرضيك أن ربك عز وجل يقول: أنه لا يصلي عليك أحد من أمتك إلاّ صلّيت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلاّ سلّم عليه عشراً؟ قال: بلى»^(٢). رواه أحمد وغيره.



(١) أخرجه البخاري (ح/٤٧٩٧)، ومسلم (ح/٤٠٦).
(٢) أخرجه أحمد (٢٩/٤ و ٣٠)، والنسائي (٤٤/٣ و ٥٠)، والدارمي (٣١٧/٢)، والحاكم (٤٢٠/٢)، وصححه، ووافقه الذهبي!! وللحديث شاهد من حديث أنس، ومالك بن أوس، وعمر، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم، وهو حديث صحيح.

الدرس الثاني والعشرون بعد المائتين

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ ٥٧ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغيرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزُوجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ بَلَائِبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْفَعُ أَنْ يَعْرِفَنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾ ﴿ لَنْ لَمْ يَنْهَ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخِذُوا وَقْتِكُمْ بِالسَّيْلِ ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْعَلَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ ثَقُلَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنَا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ

ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ
وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَحِيمًا ﴿٧٣﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغيرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ .

قال عكرمة: ﴿الذين يؤذون الله ورسوله﴾ هم أصحاب المقادير. وقال قتادة سبحانه الله ما زال أناس من جهلة بني آدم حتى تعاطوا أذى ربهم. وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، أقلب ليله ونهاره»^(١). وعن عبد الله بن المغفل قال: قال رسول الله ﷺ: «[الله] الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»^(٢). وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أي الربا أرى عند الله؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أرى الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم، ثم قرأ ﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً﴾»^(٣). قال قتادة: فإياكم وأذى المؤمن، فإن الله يحوطه ويغضب له.

قوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لَلْأَزْوَاجِ كَوَيْتَانِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ ذَلِكَ آدَتُ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (٨٧/٤ و ٥٤/٥ و ٥٧)، والترمذي (ح/٣٨٦١)، وحسنه، وابن حبان (ح/٢٢٨٤)، والبغوي (٧٠/١٤ - ٧١) بسند فيه ضعف.

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢٩٨/٥)، بسند ضعيف. وله شاهد بنحوه من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه مرفوعاً: «من أرى الربا في الاستطالة في عرض مسلم بغير حق»، أخرجه أحمد (١٩٠/١)، وأبو داود (ح/٤٨٧٦)، والبخاري (ح/١٢٦٤)، الشاشي (٢٤٦/١)، والطبراني في الكبير (١١٧/١)، وهو صحيح.

رَحِيمًا ﴿٥٩﴾ لَئِن لَّمْ يَنْهَ الْأَمْنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَفْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن﴾ أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدن عينا واحدة، وقال قتادة: أخذ الله عليهن إذا خرجن أن يقتنعن على الحواجب ﴿ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذنين﴾ وقد كانت المملوكة إذا مرت تناولوها بالإيذاء، فنهى الله الحرائر يتشبهن بالإماء.

وعن عكرمة في قوله: ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾ قال: هم الزناة. ﴿والمرجفون في المدينة﴾ قال قتادة: الإرجاف الكذب، وكانوا يقولون: أتاكم عدد وعدة. ﴿لنغرينك بهم﴾، أي: لنحملتك عليهم، لنحرشك بهم ﴿ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً﴾، أي: بالمدينة ﴿ملعونين﴾ على كل حال ﴿أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً﴾ إذا هم أظهروا النفاق ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾ يقول: هكذا سنة الله فيهم إذا أظهروا النفاق ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾.

قوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُغْلَبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ .

قال ابن كثير^(١): يقول تعالى مخبراً لرسوله ﷺ أنه لا علم له بالساعة وإن سأله الناس عن ذلك، وأرشده أنه يرده علمها إلى الله عز وجل.

وقال البغوي^(٢): ﴿وما يدريك﴾، أي شيء يعلمك أمر الساعة، ومتى يكون قيامها؟، أي: أنت لا تعرفه ﴿لعل الساعة تكون قريباً﴾.

وقال ابن جرير^(٣): يقول تعالى ذكره: ﴿يسألك الناس﴾ يا محمد ﴿عن الساعة﴾ متى هي قائمة؟ قل لهم: إنما علم الساعة عند الله لا يعلم وقت قيامها غيره ﴿وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً﴾ يقول: وما يشعر يا محمد لعل قيام الساعة يكون منك قريباً، قد قرب وقت قيامها ودنا حين مجيئها. وقوله تعالى: ﴿إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون: يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا ﴿قال قتادة: أي رؤوسنا في الشر والشرك﴾ فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً﴾.

قوله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴿٦٩﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ ءَعْمَلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى عليه السلام كان رجلاً حياً ستيراً، لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فأذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب في جلده، إما برص وإما أدرة وإما آفة، وإن الله عز وجل أراد أن يبرئه مما قالوا، فخلا يوماً وحده فخلع ثيابه

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٥١٩/٣).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤٦٩/٣).

(٣) انظر «جامع البيان» (٤٩/٢٢).

على حجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملاً من بني إسرائيل فرأوه عرباناً أحسن ما خلق الله عز وجل، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً، قال: ذلك قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً﴾^(١).

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله ﴿فبرأه الله مما قالوا﴾ قال: صعد موسى وهارون الجبل، فمات هارون عليه السلام فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: أنت قتلته. كان ألين لنا منك وأشدّ حياءً، فأذوه من ذلك، فأمره الله الملائكة فحملته فمروا به على مجالس بني إسرائيل فتكلمت بموته.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسماً فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أُريدَ بها وجهُ الله، فقلت: يا عدو الله أما لأخبرنّ رسول الله ﷺ بما قلت، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فاحمّر وجهه ثم قال: «رحمة الله على موسى، لقد أؤذي بأكثر من هذا فصبر»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقلوا قولا سديدا﴾، أي: عدلاً. قال قتادة: يعني به في منطقته وعمله كله، والسديد: الصدق. قال ابن عباس: مَنْ سرّه أن يكون أكرم الناس فليتق الله.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾^(٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا

(١) أخرجه البخاري (ح/٣٤٠٤ و٤٧٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٣٣٥ و٤٣٣٦ و٦٠٥٩)، ومسلم (ح/١٠٦٢).

قال ابن عباس: الأمانة الفرائض التي افترضها الله على العباد. وقال الضحاک عن ابن عباس في قوله: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها﴾ قال: «فلما عرضت على آدم قال: أي رب وما الأمانة؟ قال قيل: إن أديتها جُزيت، وإن ضيعتها عوقبت، قال: أي رب حملتها بما فيها، قال: فما مكث في الجنة إلا قدر ما بين العصر إلى غروب الشمس حتى عمل بالمعصية فأخرج منها»^(١).

وعن الضحاک في قوله: ﴿وحملها الإنسان﴾ قال: آدم ﴿إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ قال: ﴿ظلوماً﴾ لنفسه ﴿جهولاً﴾ فيما احتمل فيما بينه وبين ربه. وعن قتادة ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات﴾ هذان اللذان خاناهما ﴿ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات﴾ هذان اللذان أدياهما ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أربع إذا كنّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليفة، وعفة طعمة»^(٢). رواه الإمام أحمد.



(١) أخرجه ابن جرير (٥٤/٢٢) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٧/٢)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (٤١/١)، والحاكم (٣١٤/٤) وسكت عنه، وكذا الذهبي، والبيهقي في «الشعب» (٢٠٥/٤ و ٥٢٥٨)، بسند حسن.

الدرس الثالث والعشرون بعد المائتين

﴿سورة سبأ﴾

وآياتها أربع وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ
الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ
وَمَا يَنْصُرُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى
وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي
الْأَرْضِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾
وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزِ أَلِيمٍ ﴿٥﴾ وَيَرَى الَّذِينَ
أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ
الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُكُمُ عَلَىٰ رَجُلٍ يَبْتَئِسُكُمْ إِذَا مَرَّكُمْ كُلُّ مُمْرِقٍ
إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ
مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَشْأَ نَحْسِفَ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ
السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّبِينٍ ﴿٩﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ
الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا
يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرَجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ .

قال ابن كثير^(١): يخبر تعالى عن نفسه الكريمة أن له الحمد المطلق في الدنيا
والآخرة، لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة، المالك لجميع ذلك،
الحاكم في جميع ذلك، كما قال تعالى: ﴿وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في
الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون﴾^(٢) ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿الحمد لله
الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾، أي: الجميع ملكه وعبيده وتحت
تصرفه وقهره، كما قال تعالى: ﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾^(٣)؛ ثم قال عز وجل:
﴿له الحمد في الآخرة﴾ فهو المعبود أبداً المحمود على طول المدى. وقوله
تعالى: ﴿وهو الحكيم﴾، أي: في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ﴿الخبير﴾ الذي
لا تخفى عليه خافية ولا يغيب عنه شيء.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي
لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا
أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي
ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزِ أَلِيمٍ ﴿٥﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٥٢٤ - ٥٢٥).

(٢) سورة القصص: الآية ٧٠.

(٣) سورة الليل: الآية ١٣.

الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ .

قال ابن كثير^(١): هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لها، مما أمر الله تعالى رسول الله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد، لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد، فأحدهن في سورة يونس عليه السلام وهي قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَبِؤُونَكَ أَحَقَّ هُوَ قَوْلُ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لِحَقٍّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾^(٢)، والثانية هذه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، والثالثة في سورة التغابن^(٣)، وهي قوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمَلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فقال تعالى: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره فقال: ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ .

قال مجاهد وقتادة: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ لا يغيب عنه، أي: الجميع متدرج تحت علمه فلا يخفى عليه شيء، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة فإنه بكل شيء عليم؛ ثم بين حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ .

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾، أي: سعوا في الصدّ عن سبيل الله تعالى وتكذيب رسله ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَجْزٍ أَلِيمٍ﴾، أي: لينعم السعداء من المؤمنين ويعذب الأشقياء من الكافرين، كما قال عز وجل: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾^(٤)، وقال تعالى: أم نجعل

(١) المصدر السابق (٣/٥٢٥).

(٢) سورة يونس: الآية ٥٣.

(٣) سورة سبأ: الآية ٥٣.

(٤) سورة الحشر: الآية ٢٠.

الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار» .

وقوله تعالى: ﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق﴾ هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها، وهي أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار، بالذي كانوا قد علموه من كتب الله تعالى في الدنيا، رأوه حينئذ عين اليقين ويقولون يومئذ أيضاً ﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾^(١) ويقال أيضاً: ﴿هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾^(٢)، ﴿لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث﴾^(٣) ﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾، ﴿العزيز﴾ هو المنيع الجنب الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد قهر كل شيء وغلبه ﴿الحميد﴾ في جميع أقواله وأفعاله وشرعه، وقدره، وهو المحمود في ذلك كله جلّ وعلا.

وقال البغوي^(٤): قوله تعالى: ﴿ويرى الذين أوتوا العلم﴾، يعني: مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه. وقال قتادة: هم أصحاب محمد ﷺ ﴿الذي أنزل إليك من ربك﴾، يعني: القرآن ﴿هو الحق﴾، يعني: أنه من عند الله ﴿ويهدي﴾ يعني: القرآن ﴿إلى صراط العزيز الحميد﴾ وهو الإسلام.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يَنْتَشِكُمْ إِذَا مُمِرَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ لِنَفْسِكُمْ لَنَفِي خَلَقَ جَدِيدًا ﴿٧﴾ أَفَتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

(١) سورة الأعراف: الآية ٤٣.

(٢) سورة يس: الآية ٥٢.

(٣) سورة الروم: الآية ٥٦.

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٣/٤٧٥).

وَمَا خَلَقَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا نَشْأً نَخِيفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسُطُّ عَلَيْهِمْ
كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾ .

قال ابن كثير^(١): هذا إخبار من الله عز وجل عن استبعاد الكفرة الملحدين قيام الساعة، واستهزائهم بالرسول ﷺ في إخباره بذلك ﴿وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مضى كل ممزق﴾، أي: تفرقت أجسادكم في الأرض وذهبت فيها كل مذهب وتمزقت كل ممزق ﴿إنكم﴾، أي: بعد هذا الحال ﴿لفي خلق جديد﴾، أي: تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك، وهو في هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين: إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله تعالى أنه قد أوحى إليه ذلك، أو أنه لم يتعمد لكن لبس عليه كما يلبس على المعتوه والمجنون، ولهذا قالوا: ﴿أفترى على الله كذباً أم به جنة﴾؟ قال الله عز وجل راداً عليهم ﴿بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد﴾، أي: ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه، بل محمد ﷺ هو الصادق البارّ الراشد الذي جاء بالحق، وهم الكذبة الجهلة الأغنياء، ﴿في العذاب﴾، أي: الكفر المفضي بهم إلى عذاب الله تعالى ﴿والضلال البعيد﴾ من الحق في الدنيا.

ثم قال تعالى منبهاً على قدرته في خلق السموات والأرض فقال تعالى: ﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾، أي: حيثما توجهوا وذهبوا فالسما مطة عليهم والأرض تحتهم، كما قال عز وجل: ﴿والسما م بناها بأيدي وإنا لموسعون والأرض فرشناها فنعم الماهدون﴾^(٢). قال عبد بن حميد: أخبرنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: ﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾ قال: إنك إن نظرت عن يمينك أو عن شمالك، أو من بين يديك أو من خلفك، رأيت السماء والأرض.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٥٢٦).

(٢) سورة الذاريات: الآية ٤٨.

وقوله تعالى: ﴿إِن نَشَأْ نُخَسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسْقُطْ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾، أي: لو شئنا لفاعلنا بهم ذلك لظلمهم وقدرتنا عليهم، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا؛ ثم قال: ﴿إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ قال معمر عن قتادة: منيب تائب. وقال سفيان عن قتادة: المنيب المقبل إلى الله تعالى، أي أن في النظر إلى خلق السموات والأرض لدلالة لكل عبد فطن لبيب رجاء إلى الله، على قدرة الله على بعث الأجساد ووقوع المعاد، لأن من قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها، وهذه الأرضين في انخفاضها وأطوالها وأعراضها، إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿لَخَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢).



(١) سورة يس: الآية ٨١.

(٢) سورة غافر: الآية ٥٧.

الدرس الرابع والعشرون بعد المائتين

﴿ وَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالُ أَوِي مَعَهُ وَالطِّيرَ وَالنَّارَ لَهُ
 الْحَدِيدَ ﴿١١﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبْعَتِ وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ وَأَعْمَلُوا صَليحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
 بَصِيرٌ ﴿١٢﴾ وَلَسَلِمَنَّ الرِّيحُ غُدُوها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَظيرِ وَمَنْ
 الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ
 السَّعيرِ ﴿١٣﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ
 رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ
 الْمَوْتَ مَا دَلَّمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ
 أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٥﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي
 مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُمْ بَلَدَهُ
 طَبِيبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٦﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ
 ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا
 وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورُ ﴿١٨﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرَى
 ظَلْهَرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٩﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ
 بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٢٠﴾

قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أَوْبَىٰ مَعَهُ
وَالطَّيْرُ وَالنَّالَةُ الْحَدِيدُ ﴿١١﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَيِّغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَلِحًا إِنِّي
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٢﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿يا جبال أوبي معه﴾ يقول: سبّحي معه.

قال ابن كثير^(١): التاوب في اللغة هو الترجيع، فأمرت الجبال والطيور أن
ترجع معه بأصواتها. وعن قتادة: ﴿والنالة الحديد﴾ يسخر له الحديد بغير نار ﴿أن
اعمل سابغات﴾ دروع، وكان أول من صنعها داود، إنما كان قبل ذلك صفائح
﴿وقدّر في السرد﴾ قال: كان يجعلها بغير نار ولا يقرعها بحديد ثم يسردها،
والسرد المسامير التي في الحلق. وعن مجاهد في قوله: ﴿وقدّر في السرد﴾ قال:
لا تصغر المسامير وتعظم الحلقة فتسلس، ولا تعظم المسامير وتصغر الحلقة فيفصم
المسامير.

قوله عز وجل: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدَوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحَهَا شَهْرٌ وَأَسْلَنَّا لَهُ
عَيْنَ الْقَطْرِ وَمَنْ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَنْزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ
مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ
وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣﴾ .

قال ابن زيد في قوله: ﴿ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر﴾ قال:
كان له مركب من خشب، وكان فيه ألف ركن، في كل ركن ألف بيت تركب فيه
الجن والإنس، تحت كل ركن ألف شيطان يرفعون ذلك المركب هم والعصار،

(١) انظر تفسير القرآن العظيم (٣/٥٢٧).

فإذا ارتفع أتت الريح الرخاء فسارت به وساروا معه؛ يُقِيل عند قوم بينه وبينهم شهر، ويمسي عند قوم بينه وبينهم شهر، ولا يدري القوم إلا وقد أظلمهم معه الجيوش والجنود. وقال الحسن: كان يغدو فيقِيل في إصطخر، ثم يروح منها فيكون رَواحها بكابل.

وعن ابن عباس قوله: ﴿وَأَسْلَنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾، يعني: عين النحاس أُسِلت. وقال قتادة: كانت بأرض اليمن.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ الْجَنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ قال قتادة: أي يعدل منهم عن أمرنا، عما أمره به سليمان ﴿نَذَقَهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ وقيل: إن الله عز وجل وكلّ بهم ملكاً بيده سوط من نار، فمن زاغ منهم عن أمر سليمان ضربه ضربة أحرقتة. قال الحسن: الجنّ ولد إبليس، والإنس ولد آدم، ومن هؤلاء مؤمنون ومن هؤلاء شركاؤهم في الثواب والعقاب، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمناً فهو وليّ الله تعالى، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافراً فهو شيطان.

وعن مجاهد في قوله: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ﴾ قال: بنيان دون القصور ﴿وَتَمَاثِيلٍ﴾ قال: من نحاس ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ قال الحسن: كالحياض ﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ قال قتادة: عظام ثابتات في الأرض لا يزلن عن أمكنتهنّ.

وقال البغوي^(١): ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ﴾، أي: المساجد والأبنية المرتفعة ﴿وَتَمَاثِيلٍ﴾، أي: صوراً من نحاس وصفر وشبه وزجاج ورخام، قال: ولعلّها كانت مباحة في شريعتهم، كما أن عيسى كان يتخذ صوراً من الطين فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله ﴿وَجِفَانٍ﴾، أي: قصاع، واحدها جفنة ﴿كَالْجَوَابِ﴾ كالحياض التي يجبى فيها الماء، واحدها جابية ﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ ثابتات لها قوائم لا تحركن عن أماكنها لعظمتهنّ، ولا يزلن ولا يقلعن، وكان يصعد

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٤٧٦).

عليها بالسلايم. ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾، أي: وقلنا: اعملوا آل داود شكراً، مجازة: اعملوا يا آل داود بطاعة الله، شكراً لله على نعمه ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾، أي: العامل بطاعتي شكراً لنعمتي. انتهى ملخصاً.

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةٌ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَاتِهِمْ فَلَمَّا خَرَ تَيَنَّتِ الْجِنُّ أَنَّ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿إِلَّا دَابَّةِ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَاتِهِ﴾ يقول: الأرض تأكل عصاه. وقال قتادة: كانت الجن تخبر الإنس أنهم كانوا يعلمون من الغيب أشياء، وأنهم يعلمون ما في غد، فابتلوا بموت سليمان، فمات فلبث سنة على عصاه وهم لا يشعرون بموته، وهم مستخرون تلك السنة يعملون دائبين.

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُمْ بَلَدَهُ طَيِّبَةً وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشِقْوٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَىٰ إِلَّا الْكُفُورُ ﴿١٧﴾﴾.

عن ابن عباس قال: إن رجلين سألا رسول الله ﷺ عن سبأ، ما هو أرجل أم امرأة أم أرض؟ قال ﷺ: «بل هو رجل ولد له عشرة، فسكن اليمن منهم ستة والشام منهم أربعة، فأما اليمانيون: فمذحج، وكندة، والأزد، والأشعريون، وأنمار، وحمير، وأما الشامية: فلخم، وجذام، وعاملة، وغان»^(١). رواه أحمد وغيره.

(١) أخرجه أحمد (٣١٦/١)، والحاكم (٤٢٣/٢)، وصححه ووافقه الذهبي، وله شاهد من حديث فروة بن مسيك المرادي بنحوه، أخرجه الترمذي (ح/٣٢٢٢) وحسنه، والحاكم (٤٢٤/٢)، وصححه، وسكت عنه الذهبي، قلت: وفيه ضعف، إلا أن ما قبله يشهد له، فهو حسن والله أعلم.

وقال قتادة في قوله: ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال﴾ قال: كانت جنتان بين جبلين، فكانت المرأة تخرج مکتلها على رأسها فتمشي بين جبلين فيمتلىء مکتلها وما مسّت يدها، فلما طغوا بعث الله عليهم دابة يقال لها جرد، فنقبت عليهم ففرقتهم فما بقي لهم إلا أثل وشيء من سدر قليل. وقال المغيرة بن حكيم: لما ملكت بلقيس جعل قومها يقتتلون على ماء واديبهم، قال: فجعلت تنهاهم فلا يطيعونها، فتركت ملكها وانطلقت إلى قصر لها وتركتهم، فلما كثر الشر بينهم وندموا أتوها فأرادوها على أن ترجع إلى ملكها فأبت، فقالوا: لترجعن أو لنقتلنك، فقالت: إنكم لا تطيعوني وليست لكم عقول ولا تطيعوني، قالوا: فإننا نطيعك، وإننا لم نجد فينا خيراً بعدك، فجاءت قال: فسدت ما بين الجبلين فحبست الماء من وراء السد، وجعلت له أبواباً بعضها فوق بعض، وبنيت من دونه بركة ضخمة، فجعلت فيها اثني عشر مخرجاً على عدّة أنهارهم، فلما جاء المطر احتبس السيل من وراء السد، فأمرت بالباب الأعلى ففتّحت فجرى ماؤه في البركة، وأمرت بالبعر فألقي فيها فجعل بعض البعر يخرج أسرع من بعض، فلم تزل تضيق تلك الأنهار وترسل البعر في الماء حتى خرج جميعاً معاً، فكانت تقسمه بينهم على ذلك، حتى كان من شأن سليمان وشأنها ما كان.

وقال البغوي^(١): والعرم - جمع عرمة - وهي المسكر الذي يحبس به الماء. قال قتادة: لما ترك القوم أمر الله بعث الله عليهم جرداً يسمى «الخلد» فنقبه من أسفله حتى غرق به جنتيهم، وخرب به أرضهم عقوبة بأعمالهم. وقال ابن عباس: أبدلهم الله مكان جنتيهم ﴿جنتين ذواتي أكل خَمَطٍ﴾ والخمط الأراك. قال قتادة: وأكله بريرة.

وقوله تعالى: ﴿ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور﴾؟ قال مقاتل: هل يكافأ بعمله السيئ إلا الكفور لله في نعمه؟

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٤٧٨).

قال ابن كثير^(١): وقوله: ﴿وشيء من سدر قليل﴾ لما كان أجود هذه الأشجار المبدل بها هو السدر، قال: ﴿شيء من سدر قليل﴾ فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين إليه بعد الثمار النضيجة، والمناظر الحسنة والظلال العميقة والأنهار الجارية، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء، والسدر ذي الشوك الكثير والتمر اللليل، وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله، وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل، ولهذا قال تعالى: ﴿ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَىٰ ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَا لَهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾.

عن مجاهد: ﴿القرى التي باركنا فيها﴾ قال: الشام. وقال الحسن في قوله: ﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة﴾ قال: قرى متواصلة؛ كان أحدهم يغدو فيقيل في قرية، ويروح فيأوي إلى قرية أخرى. وعن مجاهد قوله: ﴿قرى ظاهرة﴾ قال: السروات.

وقوله تعالى: ﴿وقدّرنا فيها السير﴾.

قال البغوي^(٢): أي قدّرنا مسيرهم في الغدوّ والرواح على قدر نصف يوم، فإذا ساروا نصف يوم وصلوا إلى قرية ذات مياه وأشجار ﴿سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين﴾ قال قتادة: لا يخالفون ظلماً ولا جوعاً ﴿فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم﴾ قال ابن عباس: فإنهم بطروا عيشهم وقالوا: لو كان جنى جناتنا أبعد مما هي، كان أجدر أن نشتهيّه، فمزّقوا بين الشام وسبأ، وبَدّلوا بجنتيهم ﴿جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل﴾. عن قتادة: ﴿فجعلناهم

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٥٣٣).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/٤٧٩).

أحاديث ومزقناهم كل ممزق ﴿ قال: قال عامر الشعبي: أما غسان فقد لحقوا بالشام، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة، وأما الأزد فلحقوا بعمان، فمزقهم الله كل ممزق؛ وقال الأعشى ميمون بن قيس:

وفي ذاك للمؤتي أسوة ومأرب عفا عليها العرم
رخام بنته لهم حميرٌ إذا مانأى ماؤهم لم يرم
فأروى الزروع وأعناؤها على سعة ماؤهم إذ قسم
صاروا أيادي ما يقدرو ن منه على شرب طفل فطم

وعن قتادة قوله: ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ كان مطرف يقول:

نعم العبد الصبار الشكور، الذي إذا أعطي شكر وإذا ابتلي صبر. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: «عجباً للمؤمن، لا يقضي الله تعالى له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»^(١).



(١) سبق تخريجه.

الدرس الخامس والعشرون بعد المائتين

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٢٠﴾ وَمَا
كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ
وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ لَا
يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِّن شَرِكٍ
وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَن أذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ
عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴿ قُلْ مَن
يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي
ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُنشَأُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ
يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أُرْوِي الَّذِينَ
الْحَقَّقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا
كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا
تَسْتَعْجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا
الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ
بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ
لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ

أَهْدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكَ بِئْسَ كُفْرًا بَلْ كُنتُمْ تُجْرِمُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ آلِيلٍ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْلَىٰ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٢٦﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءُ بِإِذَاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُّؤْمِنُونَ ﴿٢٩﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ ﴿٣٠﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُمْ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ .

عن مجاهد: ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه﴾ قال: ظن ظناً فاتبعوا ظنه. وقال ابن زيد في قوله: ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه﴾ قال: أرأيت هؤلاء الذين كرمتهم عليّ وفضلتهم وشرقتهم، لا تجد أكثرهم شاكرين، وكان ذلك ظناً منه بغير علم، فقال الله: ﴿فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين وما كان له عليهم من سلطان﴾ قال الحسن: والله ما ضربهم بعصا ولا سيف ولا سوط، إلا أمانيّ وغروراً دعاهم إليها. وعن قتادة قوله: ﴿إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك﴾ قال: وإنما كان بلاء ليعلم الله الكافر من المؤمن.

قال البغوي^(١): وأراد علم الوقوع والظهور، وقد كان معلوماً عنده بالغيب ﴿وربك على كل شيء حفيظ﴾ رقيب.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَكُمْ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَن أذِنَ لَهُمْ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ .

قال ابن كثير^(٢): بين تبارك وتعالى أنه الإله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا نظير له ولا شريك، بل هو المستقل بالأمر وحده من غير مشارك ولا منازع ولا معارض، فقال: ﴿قل ادعوا الذين زعتم من دون الله﴾، أي: من

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٤٨٠).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٥٣٦).

الآلهة التي عبدت من دونه: ﴿لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض﴾ كما قال تبارك وتعالى: ﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿وما لهم فيهما من شرك﴾، أي: لا يملكون شيئاً استقلالاً ولا على سبيل الشركة ﴿وما له منهم من ظهير﴾، أي: وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور، بل الخلق كلهم فقراء إليه عبيد لديه. قال قتادة في قوله عز وجل: ﴿وما له منهم من ظهير﴾ من عون يعينه بشيء.

ثم قال تعالى: ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾، أي: لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجترىء أحد أن يشفع عنده تعالى، إلا بعد إذنه له في الشفاعة، كما قال عز وجل: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾^(٢) وقال جلّ وعلا: ﴿وكم من مَلَك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون﴾^(٤). ولهذا ثبت في الصحيحين من غير وجه عن النبي ﷺ، — وهو سيد ولد آدم وأكرم شافع عند الله تعالى —، أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم، أن يأتي لفصل القضاء، قال: «فأسجد لله تعالى، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ويفتح عليّ بمحامد لا أحصيها الآن، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه واشفع تُشفع»^(٥) الحديث بتمامه.

وقوله تعالى: ﴿حتى إذا فُزِعَ عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق﴾ وهذا أيضاً مقام رفيع في العظمة، وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي فيسمع أهل

(١) سورة فاطر: الآية ١٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

(٣) سورة النجم: الآية ٢٦.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٢٨.

(٥) سبق تخريجه تحت حديث الشفاعة الطويل.

السموات كلامه، أَرَعَدُوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي. قال ابن مسعود رضي الله عنه ومسروق وغيرهما: ﴿حتى إذا فُزِعَ عن قلوبهم﴾، أي: زال الفزع عنها ﴿قالوا ماذا قال ربكم﴾؟ سأل بعضهم بعضاً: ماذا قال ربكم؟ فيخبر بذلك حملة العرش الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم، حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا؟ ولهذا قال تعالى: ﴿قالوا الحق﴾، أي: أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ﴿وهو العليّ الكبير﴾. وروى البغوي وغيره عن النّوَّاس بن سمعان قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله أن يوحى بالأمر تكلم بالوحي، فإذا تكلم أخذت السموات منه رجفة - أو قال: رعدة شديدة - خوفاً من الله تعالى، فإذا سمع بذلك أهل السموات صُعِقُوا وخرّوا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلّمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمرّ جبريل على الملائكة، كلما مرّ بسماء يسأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: ﴿قال الحق وهو العليّ الكبير﴾ قال: فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي حيث أمره الله»^(١). وروى البخاري وغيره عن أبي هريرة أن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله تعالى الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان: ﴿فإذا فُزِعَ عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا﴾ للذي قال: ﴿الحق وهو العليّ الكبير﴾»^(٢).

قوله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُنْشَأُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ

(١) أخرجه ابن خزيمة في «التوحيد» (٢٤٨/١)، وابن أبي عاصم (ح/٥١٥)، وابن جرير

(٩١/٢٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٢١/١)، بسند ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٨٠٠).

الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ .

عن قتادة: ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ قال: قد قال ذلك أصحاب محمد للمشركين، والله ما أنا وأنتم على أمر واحد، إن أحد الفريقين لمهتد. وقال البغوي^(١): قوله تعالى: ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض؟ فالرزق من السموات المطر، ومن الأرض النبات﴾ قل الله، أي: إن لم يقولوا: رازقنا الله، فقل أنت: إن رازقكم هو الله ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ ليس هذا على طريق الشك ولكن على جهة الإنصاف في الحجاج، كما يقول القائل للآخر: أهدنا كاذب، وهو يعلم أنه صادق وصاحبه كاذب.

وعن قتادة: ﴿قل يجمع بيننا ربنا يوم القيامة ثم يفتح بيننا﴾، أي: يقضي بيننا. وعن ابن عباس قوله: ﴿وهو الفتح العليم﴾ يقول: القاضي ﴿قل أروني الذين ألحقتهم به شركاء﴾ .

قال البغوي^(٢)، أي: أعلّموني الذين ألحقتهم به، أي: بالله، شركاء في العبادة معه، هل يخلقون؟ وهل يرزقون؟ ﴿كلا﴾ لا يخلقون ولا يرزقون بل هو الله ﴿العزیز﴾ الغالب على أمره ﴿الحكيم﴾ في تدبيره لخلقه؛ فأنى يكون له شريك في ملكه؟ وعن قتادة قوله: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾ قال: أرسل الله محمداً إلى العرب والعجم، فأكرمهم على الله أطوعهم له. ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: «أنا سابق العرب، وصهيب سابق الروم، وبلال سابق الحبشة، وسلمان سابق فارس»^(٣).

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤٨١/٣).

(٢) المصدر السابق (٤٨٢/٣).

(٣) أخرجه ابن جرير (٩٦/٢٢) مرسلًا. وروي مرفوعاً من حديث أنس رضي الله عنه، أخرجه =

قوله عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لَمَنْ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهَدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ تُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ آلِيلٍ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿لن يؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه﴾ قال: قال المشركون: لن يؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه من الكتاب والأنبياء.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا﴾ يقول: بل مكرم بنا في الليل والنهار أيها العظماء الرؤساء: ﴿إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا﴾ قال ابن كثير^(١)، أي: نظراء وآلهة معه، وتقيموا لنا شبيهاً وأشياء من المحال تصلون بها ﴿وأسرؤا الندامة لما رأوا العذاب﴾، أي: الجميع من السادة والأتباع، كل ندم على ما سلف منه ﴿وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ .

قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبٍ مِّنْ نَّذِيْرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا لَمَنْ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾

= الطبراني (٣٤/٨)، وفيه ضعف لكنه شاهد من حديث أبي أمامة: أخرجه الطبراني

(١٣١/٨)، قال الهيثمي في «المجمع» (٣٠٥/٩): «وإسناده حسن» .

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٥٣٩/٣) .

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا
 أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ
 لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَابِنَاتِنَا
 مُعْجِزِينَ أَوْلِيَٰتِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ
 مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ
 الرَّزَاقِينَ ﴿٣٩﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ قال: هم رؤوسهم وقادتهم في الشر.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً﴾ قال: وهذا قول المشركين لرسول الله ﷺ وأصحابه، قالوا: لو لم يكن الله عنا راضياً لم يعطنا هذا، كما قال قارون لولا أن الله رضي بي وبحالي ما أعطاني هذا. قال: ﴿أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا﴾^(١) قال قتادة: لا يعتبر الناس بكثرة المال والولد، لكن الكافر قد يعطى المال وربما حُبس عن المؤمن، وعن سعيد بن جبير: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يُخلفه﴾ قال: ما كان في غير إسراف ولا تقدير. وروى البغوي وغيره من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً»^(٢).

قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُوا لَآئِئِنَّا كَرَّمٌ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحٰنَكَ أَنْتَ وَلِئِنَّا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلِجِنِّ

(١) سورة القصص: الآية ٧٨.

(٢) أخرجه البخاري (ح/١٤٤٢)، ومسلم (ح/١٠١٠).

أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ .

قال ابن جرير^(١): يقول تعالى ذكره: ويوم نحشر هؤلاء الكفار بالله جميعاً، ثم تقول للملائكة: أهؤلاء كانوا يعبدونكم من دوننا؟ فتبرأ منهم الملائكة ﴿قالوا سبحانك ربنا﴾ تزيهاً لك وتبرئة مما أضاف إليك هؤلاء الشركاء والأنداد ﴿أنت ولينا من دونهم﴾ لا نتخذ ولياً دونك ﴿بل كانوا يعبدون الجن﴾ قال البغوي^(٢): فإن قيل: هم كانوا يعبدون الملائكة فكيف وجه قوله ﴿يعبدون الجن﴾ قيل: أراد أن الشياطين زينوا لهم عبادة الملائكة، فهم كانوا يطيعون الشياطين في عبادة الملائكة؛ فقوله: ﴿يعبدون الجن﴾، أي: يطيعون الجن: ﴿أكثرهم بهم مؤمنون﴾ يعني مصدقون للشياطين.

ثم يقول الله: ﴿فالיום لا يملك بعضكم لبعض نفعاً﴾ بالشفاعة ﴿ولا ضراً﴾ بالعذاب، يريد أنهم عاجزون لا نفع عندهم ولا ضرراً. وقال ابن كثير^(٣)، أي: لا يقع لكم نفع مما كنتم ترجون نفعه من الأنداد والأوثان، التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكربكم اليوم، لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً. ﴿ونقول للذين ظلموا﴾ وهم المشركون ﴿ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون﴾، أي: يقال لهم ذلك تقریباً وتوبيخاً.



(١) انظر «جامع البيان» (١٠٢/٢٢).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤٨٤/٣).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٥٤٢/٣).

الدرس السادس والعشرون بعد المائتين

﴿ وَإِذَا نَتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَابَتُنَا يَتَذَكَّرُ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ
يَعْبُدُونَ ءَابَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ
هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَاءَ آيَاتِنَاهُمْ مِّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ
مِنْ نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آيَاتِنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِيَّ
فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ * قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَجْدِي أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِيَ وَفُرُدِي
ثُمَّ تَنفَكُّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيِ عَذَابِ
شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِيهِ إِلَّا الْبَاطِلُ
وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي
إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾
وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِءِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَٰوُثُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِءِ مِن
قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَجِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ
بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ *

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا نُتِلَّىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا أَفْكَ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كِتَابٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ .

عن قتادة: ﴿وما آتيناهم من كتب يدرسونها﴾ أي يقرؤونها ﴿وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾ ما أنزل الله على العرب كتاباً قبل القرآن، ولا بعث إليهم نبياً قبل محمد ﷺ ﴿وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم﴾ يخبركم أنه أعطى القوم ما لم يعطكم من القوة وغير ذلك ﴿فكذبوا رسلي فكيف كان نكير﴾ .

قال البغوي^(١): أي إنكاري وتغييري عليهم، يحذر كفار هذه الأمة عذاب الأمم الماضية.

قوله عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَجْهِ اللَّهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْئِئًا وَقُرْدًا ثُمَّ نَنْفَكَرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِيهِ أَلْبِطْلٌ وَمَا يُعِيدُهُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ .

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٤٨٠).

عن قتادة قوله: ﴿قل إنما أعظكم بواحدة﴾ وتلك الواحدة ﴿أن تقوموا لله مثنى وفردى﴾ رجلاً ورجلين.

وقال ابن كثير^(١): يقول تبارك وتعالى: ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين إنك مجنون: ﴿إنما أعظكم بواحدة﴾، أي: إنما آمركم بواحدة، وهي ﴿أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من حجة﴾، أي: تقوموا قياماً خالصاً لله عز وجل من غير هوى ولا عصبية، فيسأل بعضكم بعضاً: هل بمحمد من جنون؟ فينصح بعضكم بعضاً، ﴿ثم تتفكروا﴾ أي ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد ﷺ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ويتفكر في ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من حجة﴾.

وقوله تعالى: ﴿إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾ روى الإمام أحمد من حديث بريدة أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدواً يأتيهم، فبعثوا رجلاً يتراءى لهم، فبينما هو كذلك أبصر العدو، فأقبل لينذرهم وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه، فأهوى بثوبه: أيها الناس أتيتم، أيها الناس أتيتم، ثلاث مرات»^(٢)؛ وقال ﷺ: «بعثت أنا والساعة جميعاً، إن كادت لتسبقني»^(٣).

وعن قتادة قوله: ﴿قل ما سألتكم من أجر﴾، أي: جعل ﴿فهو لكم﴾ يقول: لم أسألكم على الإسلام جعلاً ﴿إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد﴾.

﴿قل إن ربي يقذف بالحق﴾ بالوحي ﴿علام الغيوب﴾ قال ابن كثير^(٤): وقوله عز وجل: ﴿قل إن ربي يقذف بالحق﴾ أي: بالوحي ﴿علام الغيوب﴾

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٥٤٣).

(٢) أخرجه أحمد (٥/٣٤٨) بسند فيه ضعف.

(٣) أخرجه أحمد (٥/٣٤٨) بسند فيه ضعف، من حديث بريدة بن الحصيبي رضي الله عنه.

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٥٤٤).

كقوله تعالى: ﴿يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾^(١)، أي: يرسل الملك على من يشاء من عباده من أهل الأرض، وهو علام الغيوب فلا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد﴾، أي: جاء الحق من الله والشرع العظيم، وذهب الباطل وزهق واضمحَل، كقوله تعالى: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾^(٢) ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة، جعل يطعن الصنم منها بسنّ قوسه ويقرأ: ﴿وقل جاء زهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾، ﴿قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿قل إن ضللت فإنما أضلّ على نفسي﴾ قال البغوي^(٤): وذلك أن كفار مكة كانوا يقولون له: إنك قد ضللت حين تركت دين آبائك، فقال الله تعالى: ﴿قل إن ضللت فإنما أضلّ على نفسي﴾، أي: إثم ضلّاتي على نفسي ﴿وإن اهتديت فيما يوحي إليّ ربّي﴾ من القرآن والحكمة ﴿إنه سميع قريب﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۗ وَقَالُوا ءَأَمْنَا بِهِ ءِ وَآتَىٰ لَهُمُ التَّنَاوُسَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۗ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۗ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ۗ﴾.

(١) سورة غافر: الآية ١٥.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ١٨.

(٣) أخرجه البخاري (ح/٢٤٧٨ و ٤٢٨٧ و ٤٧٢٠)، ومسلم (ح/١٧٨١) من حديث

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٣/٤٨٥).

عن قتادة عن الحسن قوله: ﴿ولو ترى إذ فزعوا﴾ قال: فزعوا يوم القيامة حين خرجوا من قبورهم. وقال قتادة: ﴿ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب﴾ حين عاينوا عذاب الله. قال البغوي^(١): وفي الآية حذف تقديره: لرأيت أمراً تعتبر به.

وعن مجاهد قوله: ﴿وقالوا آمنا به﴾ قالوا: آمنا بالله. وقال ابن جرير^(٢): يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء المشركون حين عاينوا عذاب الله ﴿آمنا به﴾ يعني آمنا بالله وبكتابه ورسوله.

وعن ابن عباس ﴿وأتى لهم التناؤش﴾ قال: يسألون الردّ وليس بحين ردّ. وعن سعيد ﴿وأتى لهم التناؤش﴾ قال: التناول. وعن مجاهد قوله: ﴿من مكان بعيد﴾ من الآخرة إلى الدنيا. وعن قتادة ﴿وقد كفروا به من قبل﴾، أي: بالإيمان في الدنيا.

﴿ويقذفون بالغيب من مكان بعيد﴾، أي: يرمون بالظنّ يقولون: لا بعث ولا جنة ولا نار. وعن مجاهد في قوله: ﴿ويقذفون بالغيب من مكان بعيد﴾ قال قولهم: ساحر، بل هو كاهن، بل هو شاعر. ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ قال: من مال أو ولد أو زهرة ﴿كما فعل بأشياعهم من قبل﴾ قال البغوي^(٣): يعني بنظرائهم ومن كان على مثل حالهم من الكفار، أي لم يقبل منهم الإيمان والتوبة في وقت اليأس ﴿إنهم كانوا في شك﴾ من البعث ونزول العذاب بهم ﴿مريب﴾ موقع لهم الريبة والتهمة. قال قتادة: إياكم والشك والريبة، فإن من مات على شك بُعث عليه، ومن مات على يقين بُعث عليه.



(١) المصدر السابق (٣/٤٨٥).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٢/١٠٩).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/١١٠).

الدرس السابع والعشرون بعد المائتين

﴿سورة فاطر﴾

وآياتها خمس وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ مثنى
 وَثَلَاثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ
 رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَا أَيُّهَا
 النَّاسُ أذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا
 إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِنْ يَكَذِّبُونَكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ
 تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ
 بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ
 أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
 مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَمْ مَنْ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ عَمَلِهِمْ فَرَّاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ
 وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَاللَّهُ
 الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقَنَتْهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ
 النُّشُورُ ﴿٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ

الصَّالِحِ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ
يَبُورٌ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ
وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِضُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ
عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ
أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَىٰ الْفَلَكَ
فِيهِ مَوَازِرَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ
وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى
ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ
قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَا وَسْمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ
الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ ﴿١٤﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعًا يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ .

قال ابن عباس: ﴿فاطر السموات والأرض﴾، أي: بديع السموات والأرض؛ وقال: كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها، أي بدأتها. ﴿جاعل الملائكة رسلاً أولاً﴾ أجنحة مثنى وثلاث ورباع ﴿قال قتادة: بعضهم له جناحان وبعضهم ثلاثة وبعضهم أربعة﴾ ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ قال السدي: يزيد في أجنحتهم ما يشاء؛ وفي الحديث أن «رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام ليلة الإسراء وله ستمائة جناح، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب»^(١). وعن قتادة: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة﴾، أي: من خير ﴿فلا ممسك لها﴾ فلا يستطيع أحد حبسها ﴿وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾ وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ كان يقول دبر كل صلاة مكتوبة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد»^(٢).

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّاسُ أَدْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَاقٌ تُؤَفَّكُونَ ﴿٣﴾﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ

(١) سبق تخريجه عند حديث الإسراء الطويل.

(٢) سبق تخريجه.

فَقَدْ كَذَبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ .

عن قتادة: ﴿وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك﴾ يعزي نبيّه كما تسمعون. وعن ابن عباس في قوله: ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ يقول: الشيطان. وعن قتادة قوله: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا﴾ فإنه حق على كل مسلم عداوته، وعداوته أن يعاديه بطاعة الله ﴿إنما يدعو حزبه﴾ وحزبه أولياؤه ﴿ليكونوا من أصحاب السعير﴾، أي: ليسوقهم إلى النار فهذه عداوته.

وقوله تعالى: ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا﴾ قال الحسن: الشيطان زين لهم. ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾، أي: لا يحزنك ذلك عليهم ﴿فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾. وقال ابن كثير^(١): ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا﴾، يعني: الكفار والفتجار يعملون أعمالاً سيئة، وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعا، أي: أفمن كان هكذا قد أضله الله، ألك فيه حيلة؟ لا حيلة لك فيه ﴿فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾، أي: بقدره كان ذلك ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾، أي: لا تأسف على ذلك فإن الله حكيم في قدره، إنما يضل من يضل ويهدي من يهدي، لما له في ذلك من الحجّة البالغة والعلم التام، ولهذا قال تعالى: ﴿إن الله عليم بما يصنعون﴾.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٥٤٨).

قوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرٌ سَحَابًا فَسُقْنَهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيْتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِضُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَآخِرَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُوَلِّجُ الْبَلَدَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعْوَةً وَلَا يَخَافُونَ مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

عن قتادة قوله: ﴿والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا﴾ قال: يرسل الرياح فتسوق السحاب، فأحيا الله به هذه الأرض الميتة بهذا الماء، فكذلك يبعثه يوم القيامة. ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعا﴾ يقول: فليعزز بطاعة الله ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ لا يقبل الله قولاً إلا بعمل، مَنْ قَالَ وَأَحْسَنَ الْعَمَلِ قَبْلَ اللَّهِ مِنْهُ. وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا حَدَّثْنَاكُمْ بِحَدِيثِ أَتَيْنَاكُمْ بِتَصْدِيقِ ذَلِكَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى: إِنَّ الْعَبْدَ الْمُسْلِمَ إِذَا قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، تَبَارَكَ اللَّهُ، أَخَذَهُنَّ مَلِكٌ فَجَعَلَهُنَّ تَحْتَ جَنَاحِهِ ثُمَّ صَعِدَ بِهِنَّ إِلَى السَّمَاءِ، فَلَا يَمُرُّ بِهِنَّ عَلَى جَمْعٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا اسْتَغْفَرُوا لِقَاتِلَهُنَّ، حَتَّى يَجِيءَ

بهنّ وجهَ الرحمن، ثم قرأ عبد الله: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾^(١). رواه ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد﴾.

قال ابن جرير^(٢): يقول تعالى ذكره: والذين يكسبون السيئات لهم عذاب جهنّم.

وقوله: ﴿ومكر أولئك هو يبور﴾ يقول: وعمل هؤلاء المشركين يبور، فيبطل فيذهب لأنه لم يكن لله فلم ينفع عامله.

وعن قتادة: ﴿والله خلقكم من تراب﴾، يعني: آدم ﴿ثم من نطفة﴾، يعني: ذريته ﴿ثم جعلكم أزواجاً﴾ فزوج بعضهم بعضاً. وقال ابن زيد في قوله: ﴿وما يعمر من معمر ولا يُنقص من عمره إلا في كتاب﴾ قال: ألا ترى الإنسان يعيش مائة سنة، وآخر حين يولد؟

وقوله تعالى: ﴿وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج﴾ قال قتادة: والأجاج المرّ. ﴿ومن كلّ تأكلون لحماً طريّاً﴾، أي: منهما جميعاً ﴿وتستخرجون حلية تلبسوها﴾ هذا اللؤلؤ ﴿وترى الفلك فيه مواخر﴾ فيه السفن مقبلة ومدبرة بريح واحدة؛ قيل: نسب اللؤلؤ إليهما لأنه يكون في البحر الأجاج عيون عذبة، فيكون اللؤلؤ من بين ذلك.

وعن قتادة: ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ زيادة هذا في نقصان هذا، ونقصان هذا في زيادة هذا. ﴿وسخر الشمس والقمر كلّ يجري لأجل مسمى﴾ لأجل معلوم وحدّ لا يقصر دونه ولا يتعداه ﴿ذلكم الله ربكم له الملك﴾.

(١) أخرجه ابن جرير (٢٢/١٢٠)، والطبراني (٩/٢٦٦)، والحاكم (٢/٤٢٥)، وصححه

ووافقه الذهبي قلت: وفيه عبد الله بن المخارق وهو مجهول.

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٢/١٢١).

قال ابن جرير^(١): وقوله: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ يقول: الذي يفعل هذه الأفعال معبودكم - أيها الناس - الذي لا تصلح العبادة إلا له، وهو الله ربكم.

وقوله: ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ يقول تعالى ذكره: له الملك التام الذي لا شيء إلا وهو في ملكه وسلطانه.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ يقول تعالى ذكره: والذين تعبدون - أيها الناس - من دون ربكم - الذي هذه الصفة التي ذكرها في هذه الآيات صفته - ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ يقول: ما يملكون قشر نواة فما فوقها. وعن قتادة قوله: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾، أي: ما قبلوا ذلك عنكم ولا نفعوكم فيه ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ إياهم ولا يرضون ولا يقرون به. ﴿وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلَ خَبِيرٍ﴾ والله هو الخبير أنه سيكون هذا منهم يوم القيامة. انتهى.

وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَنْبَأُنَّكَ بِهِمْ وَإِذِ جُرُودِهِمْ فِي الْأَشْجَارِ أَذْهَبْتُمُ مِنْهُمْ قِطْمِيرًا لِيَتَذَكَّرَ أُولَئِكَ اللَّهُمَّ إِنِّي تَوَّابٌ﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَلَا يَلْمِزُهُمْ فِي شِرْكِكُمْ ۗ وَسَاءَ لِي مَا لَكَ اللَّهُمَّ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ عِنْدَ كُلِّ شَعْبٍ مُنَادٍ ۗ وَإِنِّي مُؤْمِنٌ بِمَا تَدْعُوا إِلَىٰ ۗ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَنْبَأُنَّكَ بِهِمْ وَإِذِ جُرُودِهِمْ فِي الْأَشْجَارِ أَذْهَبْتُمُ مِنْهُمْ قِطْمِيرًا لِيَتَذَكَّرَ أُولَئِكَ اللَّهُمَّ إِنِّي تَوَّابٌ﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۗ وَسَاءَ لِي مَا لَكَ اللَّهُمَّ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ عِنْدَ كُلِّ شَعْبٍ مُنَادٍ ۗ وَإِنِّي مُؤْمِنٌ بِمَا تَدْعُوا إِلَىٰ ۗ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَنْبَأُنَّكَ بِهِمْ وَإِذِ جُرُودِهِمْ فِي الْأَشْجَارِ أَذْهَبْتُمُ مِنْهُمْ قِطْمِيرًا لِيَتَذَكَّرَ أُولَئِكَ اللَّهُمَّ إِنِّي تَوَّابٌ﴾

(١) المصدر السابق (٢٢/١٢٤).

(٢) سورة الأحقاف: الآية ٥.

(٣) سورة سبأ: الآية ٢٣.

(٤) سورة سبأ: الآية ٤٠.

قال سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق^(١)، وقال تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلّوا السبيل قالوا سبحانه ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً﴾^(٣).



(١) سورة المائدة: الآية ١١٦.

(٢) سورة يونس: الآية ٢٩.

(٣) سورة الفرقان: الآية ١٨.

الدرس الثامن والعشرون بعد المائتين

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ
 يَشَاءُ يَذْهَبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ
 وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا
 نُذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ
 لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا
 النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۗ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ
 يَشَاءُ ۗ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ
 بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ
 قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ
 كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ
 مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾
 وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ
 عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ
 وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ
 تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوفِيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّهُ غَفُورٌ
 شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا
 فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ
 هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ
 ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ
 إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا
 نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ
 فِيمَوْتُورًا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ
 يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم
 مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ

نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۗ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّن أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ۝

عن ابن عباس قوله: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾ يقول: يكون عليه وزر لا يجد أحداً يحمل عنه من وزره شيئاً. وعن قتادة قوله: ﴿ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه﴾، أي: من يعمل صالحاً فإنما يعمله لنفسه.

وقوله تعالى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات﴾ قال ابن زيد: هذا مثل ضربه الله، فالمؤمن بصير في دين الله، والكافر أعمى، كما لا يستوي الظل ولا الحرور ولا الأحياء ولا الأموات. وقال ابن عباس: هو مثل ضربه الله لأهل الطاعة وأهل المعصية، يقول: وما يستوي الأعمى والظلمات والحرور ولا الأموات، فهو مثل

أهل المعصية، ولا يستوي البصير ولا النور ولا الظلّ والأحياء، فهو مثل أهل الطاعة. وعن قتادة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمَسْمَعٍ مِنْ فِي الْقُبُورِ﴾ كذلك الكافر لا يسمع ولا ينتفع بما يسمع. وقال البغوي: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ حتى يتعظ ويحجب: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمَسْمَعٍ مِنْ فِي الْقُبُورِ﴾ يعني الكفار شبههم بالأموات في القبور حين لم يجيئوا: ﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ما أنت إلا منذر تخوفهم بالنار.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ﴾ ما من أمة فيما مضى ﴿إِلَّا﴾ خلا ﴿سَلَفٌ﴾ فيها نذير ﴿نَبِيٍّ﴾ منذر ﴿وَإِنْ يَكْذِبُونَ﴾ فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر ﴿وَبِالْكِتَابِ﴾ وبالكتاب المنير ﴿الواضح﴾؛ كرّر ذلك الكتاب بعد ذكر الزبر على طريق التأكيد. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، أي: إنكاري. وقال ابن كثير^(١): ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم فيما جاؤوهم به، فأخذتهم، أي: بالعقاب والنكال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، أي: فكيف رأيت إنكاري عليهم عظيماً شديداً بليغاً؟ والله أعلم.

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

عن قتادة في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ أحمر وأخضر وأصفر: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ﴾، أي: طرائق بيض: ﴿وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾، أي: جبال حمر وبيض: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ هو الأسود، يعني لونه كما اختلف ألوان هذه اختلف ألوان الناس والدواب والأنعام كذلك.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٥٥٣).

وعن ابن عباس قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير. وقال قتادة: كان يقال: كفى بالرهبة علماً. وقال ابن مسعود: ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشية. وقال سعيد ابن جبير: الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله عز وجل. وقال ابن عباس: العالم بالرحمن من عباده، من لم يشرك به شيئاً، وأحلّ حلاله وحرّم حرامه، وحفظ وصيته، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾.

عن قتادة قال: كان مطرف إذا مرّ بهذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ يقول: هذه آية القراء: ﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾. وعن قتادة: ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ إنه غفور لذنوبهم، شكور لحساناتهم.

قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ لِلَّذِي هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَطَّلَعْنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ الكتب التي خلت قبله.

وعن ابن عباس قوله: ﴿ثم أورثنا الكتاب﴾ إلى قوله: ﴿الفضل الكبير﴾ هم أمة محمد ﷺ، ورثهم الله كل كتاب أنزله. وقال ابن مسعود: «هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة: ثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً، وثلث يجيئون بذنوب عظام، حتى يقول: ما هؤلاء؟ وهو أعلم تبارك وتعالى، فتقول الملائكة: هؤلاء جاؤوا بذنوب عظام، إلا أنهم لم يشركوا بك، فيقول الرب: أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي؛ وتلا عبد الله هذه الآية: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾^(١). وعن أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ ذكر هذه الآية: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات﴾. فأما السابق بالخيرات فيدخلها بغير حساب، وأما المقتصد فيحاسب حساباً يسيراً، وأما الظالم لنفسه فيصبيه في ذلك المكان من الغم والحزن، فذلك قوله: ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾^(٢). رواه ابن جرير وغيره. قال الزجاج: أذهب الله عن أهل الجنة كل الأحزان، ما كان منها لمعاش أو لمعاد.

وعن قتادة: ﴿الذي أحلنا دار المقامة من فضله﴾ أقاموا فلا يتحولون: ﴿لا يمسننا فيها نصب﴾، أي: وجع: ﴿ولا يمسننا فيها لغوب﴾ قال ابن عباس: اللغوب العناء.

قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾.

عن قتادة: ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم بالموت: ﴿فيموتوا﴾ لأنهم لو ماتوا لاستراحوا: ﴿ولا يخفف عنهم من عذابها﴾. وروى ابن

(١) أخرجه ابن جرير (١٣٤/٢٢).

(٢) أخرجه أحمد (١٩٨/٥)، وابن جرير (١٣٧/٢٢)، والحاكم (٤٢٦/١).

جرير وغيره عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، لكن ناساً — أو كما قال — تصيهم النار بذنوبهم — أو قال: بخطاياهم — فيميتهم إماتة، حتى إذا صاروا فحماً أدن في الشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر، فبثوا على أهل الجنة فقال: يا أهل الجنة: أفيضوا عليهم، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل»^(١). فقال رجل من القوم: حينئذ كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية.

قوله تعالى: ﴿وهم يصطرخون﴾، أي: يصيحون: ﴿فيها يقولون ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل﴾ فيقول الله لهم توبيخاً: ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ قال ابن عباس: العمر الذي أعذر الله إلى ابن آدم أربعون سنة. قال مسروق: إذا بلغ أحدكم أربعين سنة فليأخذ حذره من الله. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أعذر الله عز وجل إلى امرئ آخر عمره حتى بلغ ستين سنة»^(٢). رواه البخاري وغيره. وقال قتادة: اعلّموا أن طول العمر حجة، فنعوذ بالله أن نعيّر بطول العمر، قد نزلت هذه الآية: ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾ وإنّ فيهم لابن ثمانين عشرة سنة. وقال ابن زيد في قوله: ﴿وجاءكم النذير﴾ قال: النذير النبي، وقرأ: ﴿هذا نذير من النذر الأولى﴾.

قال ابن كثير^(٣): وقوله تعالى: ﴿فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾، أي: ﴿فذوقوا عذاب النار﴾ جزاء على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعماركم، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم.



(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٦٤١٩).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٥٦٠).

الدرس التاسع والعشرون بعد المائتين

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلْقًا فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُمْ لَكَانِ حَلِيمًا عَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ نَحْدِلْ سُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُمْ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابْكَةٍ وَلَا كُنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَكُنْ اللَّهُ كَانٍ يَعْجَازُ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴿٤٥﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ .

قال ابن كثير^(١): يخبر تعالى بعلم غيب السموات والأرض، وأنه يعلم ما تكته السرائر وما تنطوي عليه الضمائر، وسيجازي كل بعمله؛ ثم قال عز وجل: ﴿هو الذي جعلكم خلائف في الأرض﴾، أي: يخلف قوم لآخرين قبلهم وجيل لجيل قبلهم ﴿فمن كفر فعليه كفره﴾، أي: فإنما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره ﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً﴾، أي: كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله تعالى، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، بخلاف المؤمنين فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله ارتفعت درجته ومنزلته في الجنة وأحبه خالقه.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ .

قال ابن كثير^(٢): يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله﴾، أي: من الأصنام والأنداد ﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات﴾، أي: ألهم شيء من ذلك؟ ما

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٥٦٠).

(٢) المصدر السابق (٣/٥٦١).

يملكون من قظمير. وقوله: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾، أي: أم أنزلنا عليهم كتاباً بما يقولونه من الشرك والكفر؟ ليس الأمر كذلك ﴿بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلاّ غروراً﴾، أي: بل إنما اتّبِعُوا فِي ذَلِكَ أَهْوَاءَهُمْ وَأَرَآءَهُمْ وَأَمَانِيَهُم الَّتِي تَمَنُّوْهَا لِأَنْفُسِهِمْ، وهي غرور وباطل وزور.

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التي بها تقوم السماء والأرض عند أمره، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما فقال: ﴿إِن اللّٰهُ يُمْسِكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولَا﴾، أي: أن تضطربا عن أماكنهما، كما قال عز وجل: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمٰوٰتِ أَنْ تَقْعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(١) وقال تعالى: ﴿وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾^(٢)؛ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلنَّاسِ فِي كُلِّ بَيْتٍ كَنْزٌ مِّمَّا يَتْلُونَ فِي بُيُوتِهِمْ لَفَنَدُوا رَبَّهُمْ إِلَّا لِرِجَالٍ كَانُوا يُؤْتُونَ النَّاسَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُحْسِنُونَ﴾، أي: لا يقدر على قوامهما وإبقائهما إلاّ هو، وهو مع ذلك حلِيمٌ غَفُورٌ، أي: يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه وهو يحلم فيؤخّر ويُنظِرُ، ويؤجلّ ولا يعجل، ويستتر آخريّن ويغفر، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ قال: وثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللّٰهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفُضُ الْقَسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ أَوْ النَّارُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»^(٣).

قوله عز وجل: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٧﴾ أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

(١) سورة الحج: الآية ٦٥.

(٢) سورة الروم: الآية ٢٥.

(٣) سبق تخريجه.

قال البغوي^(١): قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، يعني: كفار مكة لما بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم قالوا: لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم، وأقسموا بالله وقالوا: لو أتانا رسول الله لنكوننَّ أهدى ديناً منهم، وذلك قبل مبعث النبي ﷺ، فلما بُعث محمد كذبوه فأنزل الله عز وجل: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ رسول ﴿ليكوننَّ أهدى من إحدى الأمم﴾ يعني من اليهود والنصارى ﴿ولما جاءهم نذير﴾ محمد ﷺ ﴿ما زادهم إلا نفوراً﴾، أي: ما زادهم مجيئه إلا تباعداً عن الهدى ﴿استكباراً في الأرض﴾ نَصَبَ «استكباراً» على البدل من «النفور». ﴿ومكر السيئ﴾، يعني: العمل القبيح، أضيف المكر إلى صفته؛ قال الكلبي: هو اجتماعهم على الشرك، وقتل النبي ﷺ. ﴿ولا يحق المكر السيئ﴾، أي: لا يحل ولا يحيط المكر السيئ ﴿إلا بأهله﴾ فقتلوا يوم بدر. وقال ابن عباس: عاقبة الشرك لا تحل إلا بمن أشرك، والمعنى: أن وبال مكرهم راجع عليهم ﴿فهل ينظرون إلا سنة الأولين﴾ إلا أن ينزل بهم العذاب كما نزل بمن مضى من الكفار؟ قال ابن كثير^(٢): وقال محمد بن كعب القرظي: ثلاث من فعلهنَّ لم ينج حتى ينزل به: مَنْ مَكَرَ أَوْ بَغَى أَوْ نَكَثَ وَتَصَدَّقَهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴿ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله﴾ ﴿إنما بغىكم على أنفسكم﴾ ﴿ومن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾.

وقوله تعالى: ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ قال بعضهم: والتبديل تغيير الصورة مع بقاء المادة، والتحويل نقل الشيء من مكان إلى مكان آخر. قال ابن كثير^(٣): وقوله عز وجل: ﴿فهل ينظرون إلا سنة الأولين﴾، يعني: عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً﴾، أي: لا تغير ولا تبدل بل هي جارية كذلك في كل مكذب ﴿ولن تجد

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٤٩٥).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٥٦٢).

(٣) المصدر السابق (٣/٥٦٢).

لسنة الله تحويلاً، أي: وإذا أراد بقوم سوء أ فلا مرد له ولا يكشف ذلك عنهم ويحوله عنهم أحد. والله أعلم.

قوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يَأْخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَأَبَىٰ اللَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾ .

عن قتادة: ﴿وكانوا أشد منهم قوة﴾ يخبركم أنه أعطى القوم ما لم يعطكم. ﴿وما كان الله ليعجزه﴾ قال البغوي^(١): أي ليفوت عنه ﴿من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً﴾. ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا﴾ من الجرائم ﴿ما ترك على ظهرها﴾، يعني: على ظهر الأرض، كناية عن غير مذكور ﴿من دابة﴾ كما كان في زمان نوح، أهلك الله ما على ظهر الأرض إلا من كان في سفينة نوح.

﴿ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد أهل طاعته وأهل معصيته. وقال ابن كثير^(٢): ﴿ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى﴾، أي: ولكن يُنظِرُهُمْ إلى يوم القيامة فيحاسبهم يومئذ، ويوقفي كل عامل بعمله، فيجازي بالثواب أهل الطاعة وبالعقاب أهل المعصية، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً﴾.



(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٤٩٦).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٥٦٢).

الدرس الثلاثون بعد المائتين

﴿سورة يس﴾

مكية وهي ثلاث وثمانون آية

روى البزار وغيره عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء قلباً، وقلب القرآن يس»^(١). وعن جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجه الله عز وجل غفر له»^(٢). رواه ابن حبان في صحيحه.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَس ١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا

(١) أخرجه البزار كما في «مختصر زوائد البزار» (ح/١٥٤٩) بسند ضعيف. وبنحوه مرفوعاً من حديث أنس رضي الله عنه، أخرجه الترمذي (ح/٢٨٨٧) والقضاعي (ح/١٠٣٥)، قال أبو حاتم: «حديث باطل لا أصل له» انظر «العلل» (٢/٥٦). قال الترمذي «وفي الباب عن أبي بكر الصديق ولا يصح من قبل إسناده، إسناده ضعيف».

(٢) أخرجه ابن حبان (ح/٢٥٦٥) كما في «الإحسان»، بسند ضعيف، وأخرجه الطبراني في «الصغير» (ح/٤٠٩)، والبيهقي في الشعب (٢/٤٨٠)، بسند ضعيف من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فَأَعْيَيْنَاهُمْ فِيهِمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾ إِنَّمَا نُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿٣﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَاهُمْ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَارٍ مُّبِينٍ ﴿٤﴾ وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿٦﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا نَكْذِبُونَ ﴿٧﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿٨﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَّعْنَا بِكُمْ لَيْنًا لَمْ نَلَمْكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠﴾ قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١١﴾ وَجَاءَ مِنَ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَنْفَوِرَ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢﴾ أَتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْتَلِكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿١٣﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٤﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً إِنْ يُرِدِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿١٥﴾ إِنْ إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦﴾ إِنْ ءَأَمَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿١٧﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿١٩﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٠﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خُلُودٌ ﴿٢١﴾ يَحْضَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَإِن كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٢٤﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَسَّ ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾
 عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ
 غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِيّ أَعْنَاقِهِمْ
 أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ
 خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ
 تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشَّرَهُ
 بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا
 وَءَأْتَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ .

عن قتادة ﴿والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين﴾ قَسَمٌ، كما تسمعون ﴿إنك
 لمن المرسلين على صراط مستقيم﴾، أي: على الإسلام ﴿تنزيل العزيز الرحيم﴾
 قال البغوي^(١): قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص «تنزيل» بنصب اللام، كأن
 قال: نزل تنزيلاً؛ وقرأ الآخرون بالرفع، أي: هو تنزيل العزيز الرحيم.

قال ابن كثير^(٢): وقوله تعالى: ﴿لتنذر قوماً ما أُنذر آبأؤهم فهم غافلون﴾
 يعني بهم العرب، فإنه ما أتاهم من نذير من قبله، وذكُرُهُمْ وحدهم لا ينفي مَنْ
 عداهم، كما أن ذِكْرَ بعض الأفراد لا ينفي العموم، وقد تقدم ذكر الآيات
 والأحاديث المتواترة الدالة على عموم بعثته ﷺ عند قوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس
 إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ .

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٤).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٥٦٣).

وقال البغوي^(١): ﴿لقد حقّ﴾ وجب العذاب ﴿على أكثرهم فهم لا يؤمنون﴾ هذا كقوله: ﴿ولكن حقّت كلمة العذاب على الكافرين﴾. وعن قتادة قوله: ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون﴾، أي: فهم مضللون عن كل خير ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً﴾ قال: ضلالات ﴿فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ هدى ولا ينتفعون به. وعن عكرمة قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً لأفعلنّ ولأفعلنّ، فأنزلت ﴿إنا جعلنا في أعناقهم﴾ إلى ﴿فهم لا يبصرون﴾ قال: فكانوا يقولون: هذا محمد فيقول: أين هو، أين هو؟ لا يبصر.

وقوله تعالى: ﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم﴾ قال قتادة: واتباع الذكر اتباع القرآن. وقوله تعالى: ﴿إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا﴾ قال قتادة: مِنْ عَمَلٍ. وعن مجاهد ﴿ما قدموا﴾ أعمالهم وآثارهم، قال: خطاهم بأرجلهم. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «يا بني سلمة، دياركم تُكْتَبُ آثاركم»^(٢). رواه مسلم وغيره. وعن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سنّ في الإسلام سنّة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»^(٣). وعن قتادة قوله: ﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ محصى عند الله في كتاب.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤).

(٢) أخرجه مسلم (ح/٦٦٥).

(٣) أخرجه مسلم (ح/١٠١٧).

قوله عز وجل: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا آخَصَبَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا نَطِيرِنَا بِكُمْ لِيْن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ .

قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وعن كعب الأحبار وعن وهب بن منبه قال: كان بمدينة أنطاكية فرعون من الفراعنة يقال له أبطيحس، يعبد الأصنام صاحب شرك، فبعث الله المرسلين وهم ثلاثة: صادق ومصدوق وسلوم، فقدم إليه وإلى أهل مدينته اثنان فكذبوهما ثم عزز الله بثالث، فلما دعت الرسل ونادته بأمر الله وصدعت بالذي أمرت به وعابت دينه وما هم عليه، قال لهم ﴿إنا نطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب اليم﴾ قالت لهم الرسل ﴿طائركم معكم﴾، أي: أعمالكم معكم. وعن قتادة ﴿أئن ذكرتم﴾، أي: إن ذكرناكم الله تطيرتم بنا؟ ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ .

قوله عز وجل: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَنَأْخُذُ مِنْ دُونِهِ ۗ إِلَهًا إِنْ يُرِيدِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنْ إِذًا لِي ضَلَالٌ مُّبِينٌ ﴿٢٤﴾ إِنْ تَأْمَنَّا بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ .

قال البغوي^(١): قوله عز وجل: ﴿وَجَاءَهُ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ وهو حبيب النجار. وقال السدي: كان قصّاراً. وقال وهب: كان رجلاً يعمل الحرير وكان سقيماً قد أسرع فيه الجذام، وكان منزله عند أقصى باب من أبواب المدينة، وكان مؤمناً ذا صدقة يجمع كسبه إذا أمسى فيقسمه نصفين فيطعم نصفاً لعياله ويتصدق بنصفه، فلما بلغه أن قومه قد قصدوا قتل المرسلين جاءهم ﴿قال يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون﴾ قال قتادة: كان حبيب في غار يعبد الله، فلما بلغه خبر الرسل أتاهم فأظهر دينه، فلما انتهى حبيب إلى الرسل قال لهم: تسألون على هذا أجراً؟ قالوا: لا. فأقبل على قومه: ف ﴿قال يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون﴾ فلما قال ذلك قالوا له: وأنت مخالف لديننا ومتابع دين هؤلاء الرسل ومؤمن باللهم؟ فقال: ﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون﴾؟

وقال ابن إسحاق فيما بلغه: ناداهم بخلاف ما هم عليه من عبادة الأصنام وأظهر لهم دينه وعبادة ربه، وأخبرهم أنه لا يملك نفعه ولا ضره غيره فقال: ﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون أأخذ من دونه آلهة؟﴾ ثم عابها فقال: ﴿إن يردن الرحمن بضر﴾ وشدّة ﴿لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون إني آمنت بربكم﴾ الذي كفرتم به ﴿فاسمعون﴾ قال: فوثبوا وثبة رجل واحد فقتلوه، واستضعفوه لضعفه وسقمه، ولم يكن أحد يدفع عنه ﴿قيل ادخل الجنة﴾ قال ابن مسعود: قال الله له: ادخل الجنة، فدخلها حياً يرزق فيها، قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحرزها ونصّبها، فلما أفضى إلى رحمة الله وجنته وكرامته ﴿قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾ قال قتادة: فلا تلقى المؤمن إلا ناصحاً ولا تلقاه غاشياً.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ إِنَّ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَجِدَةً فَإِذَا هُمْ خَمِيدُونَ ﴿٢٩﴾ يَنْحَسِرَةٌ عَلَى

(١) انظر «معالم التنزيل» (٧/٤).

الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٢﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ
مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٠﴾ .

قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن مسعود قال: غضب الله له — يعني لهذا
المؤمن لاستضعافهم إياه — غضبة لم تبق من القوم شيئاً، فعجل لهم النعمة بما
استحلوا منه وقال: ﴿وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا
منزلين﴾ يقول: ما كاثرتناهم بالجموع، أي الأمر أيسر علينا من ذلك ﴿إن كانت إلاَّ
صيحة واحدة فإذا هم خامدون﴾ فأهلك الله ذلك الملك وأهل أنطاكية، فبادوا عن
وجه الأرض فلم تبق منهم باقية.

وعن قتادة ﴿يا حسرة على العباد﴾، أي: يا حسرة العباد على أنفسها على ما
ضيّعت من أمر الله وفرطت في جنب الله ﴿ما يأتيهم من رسول إلاَّ كانوا به
يستهزئون﴾ قال مجاهد: كانت حسرة عليهم استهزاؤهم بالرسول. وعن قتادة ﴿ألم
يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون﴾ قال: عاد وثمود وقارون
وقرون بين ذلك كثير ﴿وإن كل لَمَّا جميع لدينا محضرون﴾، أي: يوم القيامة.



الدرس الواحد والثلاثون بعد المائتين

﴿وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الَّتِي أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾
 وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا
 مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ
 كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَيُّ لَّهُمُ اللَّيْلُ
 نَسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ
 تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا
 الشَّمْسُ يَلْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ
 يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَأَيُّ لَّهُمُ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ
 مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَلَنْ نُنْفِقَهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا
 وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾
 وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنْفِقُوا
 مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْطَعِمُكَ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ
 أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنْ الْأَعْيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَأَيُّ لَهُمْ﴾، أي: دلالة واضحة على وحدانية الله تعالى وقدرته التامة وإحيائه الموتى ﴿الأرض الميتة أحييناها﴾ بالمطر: ﴿وأخرجنا منها حبًّا﴾ يعني الحنطة وغيرها ﴿فمنه يأكلون وجعلنا فيها جنات﴾ بساتين ﴿من نخيل وأعاب وفجّرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره﴾، أي: من ثمر المذكور ﴿وما عملته أيديهم﴾، أي: لم تعمل الثمر. وقال في جامع البيان: ﴿وما عملته أيديهم﴾، أي: الثمر لم عمله أيدي الناس، بل خلق الله، ولهذا قال: ﴿أفلا يشكرون؟﴾ وعن بعض: أن «ما» موصولة، عطف على ثمره، والمراد ما يتخذ منه كالدبس. ﴿سبحان الذي خلق الأزواج﴾ الأنواع ﴿كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم﴾ الذكر والأنثى: ﴿ومما لا يعلمون﴾ من مخلوقات شتى.

قوله عز وجل: ﴿وَأَيُّ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُم اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مَظْلُومُونَ﴾ قال البغوي^(١): وذلك أن الأصل هي الظلمة، والنهار دَخَلٌ، فإذا غربت الشمس سلخ النهار من الليل فظهر الظلمة. وعن قتادة قوله: ﴿والشمس تجري لمستقرّ لها﴾ قال: وقت واحد لا تعدوه. وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد عند غروب الشمس، فقال ﷺ: «يا أبا ذر أتدري أين تغرب الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فذلك قوله تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾»^(٢). رواه البخاري وغيره. وفي رواية أحمد: «فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربها عز وجل، فتستأذن في الرجوع فيؤذن لها، وكأنها قد قيل لها: ارجعي من حيث جئت، فترجع إلى مطلعها، وذلك مستقرّها، ثم قرأ: ﴿والشمس تجري لمستقرّ لها﴾». وفي رواية البغوي: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها، فيقال لها: ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقرّ لها﴾»^(٣).

قال ابن جرير^(٤): وقوله: ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ يقول: هذا الذي وصفنا من جري الشمس لمستقرّ لها، تقدير العزيز في انتقامه من أعدائه، العليم بمصالح خلقه وغير ذلك من الأشياء كلها، لا تخفى عليه خافية.

وعن الحسن في قوله: ﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾ قال: كعذق النخلة إذا قدم فانحنى.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٩/٤).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (ح/٣١٩٩)، وأحمد (٥/١٥٢ و ١٧٧)، والبغوي في «تفسيره» (٩/٤) — (١٠).

(٤) انظر «جامع البيان» (٦/٢٣).

وقال ابن كثير^(١): ثم قال جل وعلا: ﴿والقمر قدرناه منازل﴾، أي: جعلناه يسير سيراً آخر يُستدلّ به على مضيّ الشهور، كما أن الشمس يُعرف بها الليل والنهار، كما قال عز وجل: ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلاّ بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر﴾ قال مجاهد: لكل منهما حدّ لا يعدوه ولا يقصر دونه، إذا جاء سلطان هذا ذهب سلطان هذا، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا ﴿ولا الليل سابق النهار﴾ قال الضحاك: لا يذهب الليل من ههنا حتى يجيء النهار من ههنا: ﴿وكلّ في فلّك يسبحون﴾ قال ابن عباس: يجرون في فلّكة كفلّكة المغزل. وقال مجاهد: الفلّك كحديدة الرّحى أو كفلّكة المغزل لا يدور المغزل إلاّ بها، ولا تدور إلاّ به.

قوله عز وجل: ﴿وَأَيُّ لُحْمٍ أُنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَدُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾.

قال البغوي^(٤): والمراد بالذرية الآباء والأجداد، واسم الذرية يقع على الآباء كما يقع على الأولاد: ﴿في الفلّك المشحون﴾، أي: المملوء، وأراد سفينة نوح، وهؤلاء من نسل من حمل مع نوح وكانوا في أصلابهم. وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: تدرون ما ﴿وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾؟ قلنا: لا، قال: هي

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٥٧٢).

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٩.

(٣) سورة يونس: الآية ٥.

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٤/١٠).

السفن جعلت لهم من بعد سفينة نوح على مثلها. وقال السدي: ألا ترى أنه قال: ﴿وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون﴾؟ قال قتادة: أي لا مُغيث لهم: ﴿إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين﴾، أي: إلى الموت.

قال البغوي: يعني إلا أن يرحمهم ويمتتعهم إلى حين آجالهم.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٤٥) ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ (٤٦) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْطِعِم مِّنْ لَّوْيسَاءِ اللَّهِ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٤٧).

قال البغوي^(١): ﴿وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم﴾ قال ابن عباس: ﴿ما بين أيديكم﴾ يعني الآخرة فاعملوا لها ﴿وما خلفكم﴾ يعني الدنيا فاحذروها ولا تغتروا بها. وقيل: ﴿ما بين أيديكم﴾ وقائع الله فيمن كان قبلكم من الأمم: ﴿وما خلفكم﴾ عذاب الآخرة، وهو قول قتادة ومقاتل. ﴿لعلكم تُرحمون﴾ والجواب محذوف تقديره: إذا قيل لهم هذا أعرضوا عن دليله ما بعده: ﴿وما تأتيتهم من آية من آيات ربهم﴾، أي: دلالة على صدق محمد ﷺ ﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾.

﴿وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله﴾ أعطاكم الله ﴿قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعِم﴾ أنرزق ﴿من لو يشاء الله أطعمه﴾؟ وذلك أن المؤمنين قالوا لكفار مكة: أنفقوا على المساكين مما زعمتم من أموالكم أنه لله، وهو ما جعلوه لله من حروثهم وأنعامهم قالوا: ﴿أنطعِم﴾ أنرزق: ﴿من لو يشاء الله أطعمه﴾ رزقه ثم لم يرزقه مع قدرته عليه، فنحن نوافق مشيئة الله فلا نطعم من لم يطعمه الله، وهذا إنما يتمسك به البخلاء يقولون: لا نعطي من حرمه الله؛ وهذا الذي يزعمون باطل لأن

(١) المصدر السابق (٤/١١).

الله أغنى بعض الخلق وأفقر بعضهم ابتلاءً، فمنع الدنيا من الفقير لا بُخلاً، وأمر الغنيّ بالإففاق لا حاجةً إلى ماله ولكن ليبلو الغنيّ بالفقير فيما أمر وفرض له في مال الغنيّ، ولا اعتراض على مشيئة الله وحكمه في خلقه ﴿إن أنتم إلا في ضلال مبين﴾ يقول الكفار للمؤمنين: ما أنتم إلا في خطأ بين في اتباعكم محمداً وترك ما نحن عليه. انتهى والله أعلم.



الدرس الثاني والثلاثون بعد المائتين

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ٤٨ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا بُولَلَاءَ مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَأَلَيْكُم مَّا نَظَلَّمَ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُحْزَنُ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنْ أَصْحَبَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَتُكَاهَنُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّلٍ عَلَى الْأَرَآئِكِ مُتَكِفُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَنَكِهَةٌ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴿ أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بِنَبِيِّ ۚءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ٦٠ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَلْذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصَلُّوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ نَعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ

الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٥﴾ أَوْلَتْ يَرَوْنَا أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمَّا فَهُمْ
 لَهَا مَلَائِكَةٌ ﴿٧٦﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٦﴾ وَهُمْ فِيهَا مَنَّعُ
 وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٧﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ
 يُنصَرُونَ ﴿٧٨﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْحَضُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَا يَحْزَنُكَ
 قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٨٠﴾ أَوْلَتْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ
 نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٨١﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْجِ
 الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٨٢﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ
 عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٤﴾
 أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ
 الْعَلِيمُ ﴿٨٥﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٦﴾ فَسُبْحَانَ
 الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٧﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ٤٨ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهَمُّ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ .

قال البغوي^(١): ﴿ويقولون متى هذا الوعد﴾، أي: القيامة والبعث ﴿إن كنتم صادقين﴾. قال الله تعالى: ﴿ما ينظرون﴾، أي: ينتظرون ﴿إلا صيحة واحدة﴾ قال ابن عباس: يريد النفخة الأولى ﴿تأخذهم وهم يخصمون﴾، يعني: يختصمون في أمر الدنيا من البيع والشراء، ويتكلمون في المجالس والأسواق. قال: وروينا أن النبي ﷺ قال: «لتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقوم الساعة وقد رفع الرجل أكلته إلى فيه فلا يطعمها»^(٢). وعن قتادة: ﴿فلا يستطيعون توصية﴾، أي: فيما في أيديهم ﴿ولا إلى أهلهم يرجعون﴾ قال: أعجلوا عن ذلك.

قوله عز وجل: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ ٥١ قَالُوا يَا نَوِيلَانَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ .

قال البغوي^(٣): ﴿ونفخ في الصور﴾ وهي النفخة الأخيرة نفخة البعث، وبين النفختين أربعون سنة.

(١) انظر «معالم التنزيل» (١١/٤).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (١٢/٤).

وعن قتادة: ﴿فإذا هم من الأجداث﴾، أي: القبور. ﴿إلى ربهم ينسلون﴾ يقول: يخرجون ﴿قالوا يا ويلنا من بعثنا من مردقنا﴾ قال: هذا قول أهل الضلالة والرقدة ما بين النفختين ﴿هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾ قال: أهل الهدى ﴿هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾. قال البغوي: وقال أهل المعاني: إن الكفار إذا عاينوا جهنم وأنواع عذابها، صار عذاب القبر في جنبها كالنوم ﴿فقالوا يا ويلنا من بعثنا من مردقنا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إن كانت إلا صيحة واحدة﴾، يعني: النفخة الأخيرة ﴿فإذا هم جميع لدينا محضرون فالיום لا تظلم نفس شيئاً ولا تُجزون إلا ما كنتم تعملون﴾.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَهُونٍ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾.

عن ابن عباس: ﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون﴾ قال: افتضاض الأبقار ﴿هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون﴾ قال: هي السرر في الحجال ﴿لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون﴾ قال البغوي: يتمنون ويشتهون ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾ أي يسلم الله عليهم ﴿قولاً﴾، أي: يقول الله لهم قولاً. ثم روى بسنده عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿بيننا أهل الجنة في نعيمهم، إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب تبارك وتعالى قد أشرف عليهم من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، فذلك قوله: ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾ فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه، حتى يحتجب عنهم فيبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم^(١).

(١) أخرجه ابن ماجه (ح/١٨٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٠٨/٦ و ٢٠٩)، والبخاري (ح/٢٢٥٣)، والبغوي في «تفسيره» (١٣/٤)، بسند ضعيف.

قوله عز وجل: ﴿وَأَمْتَنُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَنْبِئْءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ .

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة، أمر الله جهنم فيخرج منها عنق ساطع مظلم، ثم يقول: ﴿الم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان﴾ الآية. إلى قوله: ﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون﴾ «وامتازوا اليوم أيها المجرمون» فيتميز الناس ويبحثون، وهي قول الله «وترى كل أمة جاثية» الآية^(١). رواه ابن جرير. وقوله تعالى: ﴿الم أعهد إليكم يا بني آدم﴾ قال البغوي^(٢): «الم أمركم يا بني آدم ﴿أن لا تعبدوا الشيطان﴾، أي: لا تطيعوا الشيطان في معصية الله؟ ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ ظاهر العداوة ﴿وأن اعبدوني﴾ أطيعوني ووحدوني ﴿هذا صراط مستقيم﴾. «ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً»، أي: خلقاً كثيراً ﴿أفلم تكونوا تعقلون﴾ ما أتاكم من هلاك الأمم الخالية بطاعة إبليس؟ ويقال لهم لما دنوا من النار ﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون﴾ بها في الدنيا ﴿اصلوها﴾ ادخلوها ﴿اليوم بما كنتم تكفرون اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾ هذا حين ينكر الكفار كفرهم وتكذيبهم الرسل بقولهم: ما كنا مشركين، فيختم على أفواههم وتشهد عليهم جوارحهم. انتهى.

(١) أخرجه ابن جرير (٢٣/٢٢) بسند ضعيف.

(٢) المصدر السابق (٤/١٣).

وروى مسلم وغيره في حديث أبي هريرة (الطويل): «ثم يلقي الثالث فيقول: ما أنت؟ فيقول: أنا عبدك آمنت بك وبنبيك وبتكاتبك، وصمت وصليت وتصدقت، وبشي بخير ما استطاع، قال فيقال له: ألا نبعث عليك شاهداً؟ فيفكر في نفسه: من الذي يشهد عليه؟ فيختم على فيه، ويقال لفضذه: انطقي، قال: فتنتطق فضذه ولحمه وعظامه بما كان يعمل، وذلك المنافق ليعذر من نفسه، وذلك الذي يسخط الله تعالى عليه»^(١).

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾^(٦٦) ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾^(٦٧) ﴿وَمَنْ نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾^(٦٨) ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾^(٦٩) ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٧٠).

عن قتادة قوله: ﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط﴾، أي: الطريق ﴿فأنى يبصرون﴾ يقول: لو شئنا لتركناهم عمياً يترددون ﴿ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم﴾، أي: لأفعدناهم على أرجلهم ﴿فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون﴾ فلم يستطيعوا أن يتقدموا ولا يتأخروا ﴿ومن نعمه نكسه في الخلق﴾ يقول: من نمد له في العمر نكسه في الخلق ﴿لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً﴾، يعني: الهرم ﴿أفلا يعقلون﴾ قال البغوي^(٢): فيعتبروا ويعلموا أن الذي قدر على تصريف أحوال الناس يقدر على البعث بعد الموت. وعن قتادة قوله: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ قال: قيل لعائشة: هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت: «كان أبغض الحديث إليه، غير أنه كان يتمثل ببيت أخي بني قيس، فيجعل آخره أوله وأوله آخره، فقال أبو بكر: إنه ليس

(١) أخرجه مسلم (ح/٢٩٦٨).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/١٥).

هكذا، فقال نبي الله: «إني والله ما أنا بشاعر، ولا ينبغي لي»^(١)، والبيت المشار إليه قول طرفة:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ قال البغوي^(٢): ﴿إِنْ هُوَ﴾، يعني: القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ موعظة ﴿وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ في الفرائض والحدود والأحكام ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾، يعني: مؤمناً حي القلب، لأن الكافر كالميت في أنه لا يتدبر ولا يتفكر. ﴿وَيُحَقِّقُ الْقَوْلَ﴾ وتجب حجة العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ قال ابن كثير: أي هو رحمة للمؤمنين وحجة على الكافرين.

قوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُمْ فِيهَا مَنَّعُ وَمَشَارِبٌ أَفْلا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

قال البغوي^(٣): ﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا﴾ تولينا خلقه بإبداعنا من غير إعانة أحد ﴿أنعاماً فهم لها مالكون﴾ ضابطون قاهرون، أي: لم يخلق الأنعام وحشية نافرة من بني آدم لا يقدرون على ضبطها بل هي مسخرة لهم،

(١) أخرجه ابن جرير (٢٣/٢٧) بسند ضعيف. وينحوه عند أحمد (٦/٣١ و ١٤٦) عنها: «كان إذا استراث الخبر تمثل فيه ببيت طرفة: ويأتيك بالأخبار من لم تزود». وفيه انقطاع، وينحوه عند أحمد (٦/١٣٨ و ١٥٦ و ٢٢)، والترمذي (ح/٢٨٤٨) وفيه: «هل كان ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت: كان يتمثل بشعر ابن رواحة...»، وسنده ضعيف، لكن قال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) المصدر السابق (٤/١٥).

(٣) المصدر السابق (٤/١٦).

وهو قوله: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لِهَمٍّ﴾ سَخَّرْنَاهَا لِهَمٍّ ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾، أي: ما يركبون وهي الإبل ﴿ومنها يأكلون﴾ لحمانها ﴿ولهم فيها منافع﴾، أي: من أصوافها وأوبارها ونسلها ومشارب من ألبانها ﴿أفلا يشكرون﴾ رب هذه النعم؟ وقال ابن جرير^(١) يقول: ﴿أفلا يشكرون﴾ نعمتي هذه وإحساني إليهم بطاعتي، وإفراد الألوهية لي والعبادة، وترك طاعة الشيطان وعبادة الأصنام؟

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يَنْصُرُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ﴾ قال ابن كثير^(٢): يقول تعالى منكراً على المشركين في اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله، يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾، أي: لا تقدر الآلهة على نصر عابديها، بل هي أضعف من ذلك وأقل وأذل وأحقر وأدحر، بل لا تقدر على الانتصار لأنفسها ولا الانتقام ممن أرادها بسوء، لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ﴾ قال مجاهد: يعني عند الحساب، يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة محضرة عند حساب عابديها، ليكون ذلك أبلغ في حزنهم وأدلّ عليهم في إقامة الحجّة عليهم. وقال قتادة: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾، يعني: الآلهة ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ﴾ والمشركون يغضبون للآلهة في الدنيا، وهي لا تسوق إليهم خيراً ولا تدفع عنهم شراً. وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾، أي: تكذيبهم لك وكفرهم بالله ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يَسْرُونَ وَمَا يَعلنُونَ﴾ وسنجازيهم على أعمالهم.

قوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ نُطْفَةً فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْجِبُ الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ

(١) انظر «جامع البيان» (٢٣/٢٩).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٥٨٠).

الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٦﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٧﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا
أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٨﴾ فَسَبِّحْنَا الَّذِي فِي يَدَيْهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٩﴾ .

قال مجاهد وغيره: جاء أبي بن خلف - لعنه الله - إلى رسول الله ﷺ وفي
يده عظم رميم، وهو يفتنه ويدروه في الهواء وهو يقول: يا محمد أتزعم أن الله
يبعث هذا؟ قال ﷺ: «نعم. يُميتك الله تعالى ثم يبعثك، ثم يحشرك إلى النار»
ونزلت هذه الآيات من آخر سورة يس ﴿أولم ير الإنسان أن خلقناه من نطفة﴾ إلى
آخرهن^(١).

وقوله تعالى: ﴿فإذا هو خصيم مبين﴾ قال البغوي^(٢): جدل بالباطل بين
الخصومة، يعني: أنه مخلوق من نطفة ثم يخاصم، فكيف لا يتفكر في بدو خلقه
حتى يدع الخصومة! ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه﴾ بدء أمره ﴿قال من يحيي
العظام وهي رميم﴾ بالية؟ ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم.
الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً﴾ قال ابن عباس: هما شجرتان يقال
لإحدهما: المرخ والأخرى العفار، فمن أراد منهم النار قطع منهما غصنين مثل
السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء، فيسحق المرخ على العفار فتخرج
منهما النار بإذن الله عز وجل؛ تقول العرب: في كل شجر نار، واستمجد المرخ
والعفار. ﴿فإذا أنتم منه توقدون﴾ تقدحون وتوقدون النار في ذلك الشجر. ثم ذكر
ما هو أعظم من خلق الإنسان فقال: ﴿أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر
على أن يخلق مثلهم بلى﴾، أي قل: بل هو قادر على ذلك ﴿وهو الخلاق﴾ يخلق

(١) أخرجه ابن جرير (٣٠/٢٣) مرسلًا، وروي مرفوعاً عن ابن عباس رضي الله عنه: أخرجه

ابن جرير (٣١/٢٣) بسند ضعيف.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (١٦/٤).

خلقاً بعد خلق ﴿العليم﴾ بجميع ما خلق ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت﴾ ملك ﴿كل شيء وإليه ترجعون﴾ وعن حذيفة رضي الله عنه قال: «قمت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة فقرأ السبع الطوال في سبع ركعات، وكان ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: سمع الله لمن حمده ثم قال: الحمد لله ذي الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة؛ وكان ركوعه مثل قيامه، وسجوده مثل ركوعه، فانصرف وقد كادت تنكسر رجلاي»^(١). رواه أحمد. وفي حديث عوف بن مالك عند أبي داود: «ثم ركع بقدر قيامه يقول في ركوعه: سبحان ذي الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة؛ ثم سجد بقدر قيامه، ثم قال في سجوده مثل ذلك»^(٢). وعن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأوا على موتاكم سورة يس»^(٣). رواه البغوي وغيره. والله أعلم.



- (١) أخرجه أحمد (٣٨٨/٥) بسند حسن، وبنحوه من حديث عوف بن مالك، وسيأتي تخريجه، وبنحوه عن حذيفة — أيضاً — أنه صلى مع رسوله ﷺ من الليل فلما دخل في الصلاة قال: «الله أكبر ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة». أخرجه أحمد (٣٩٨/٥)، وأبو داود (ح/٨٧٤)، والترمذي في الشمائل (ح/٢٧٦)، والنسائي (١٩٩/٢)، وابن ماجه (ح/٨٩٧)، والحاكم (١/٢٧١ و ٣٢١) وصححه ووافقه الذهبي، وهو حديث صحيح.
- (٢) أخرجه أحمد (٢٤/٦)، وأبو داود (ح/٨٧٣)، والترمذي في الشمائل (ح/٣١٤)، والنسائي (١٩١/٢)، وله شاهد من حديث حذيفة السابق، فهو حديث حسن.
- (٣) سبق تخريجه، وهو حديث ضعيف.

الدرس الثالث والثلاثون بعد المائتين

﴿سورة الصافات﴾

مكية، وهي مائة وثمانون آية

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف ويؤمنا بالصافات»^(١). رواه النسائي.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ① فَالزَّجْرَاتِ زَجْرًا ② فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ③ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ④ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرُبُّ الْمَشْرِقِ ⑤ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكوكب ⑥ وحفظا من كل شيطان مارد ⑦ لا يسمعون إلى الأذن ولا يفقدون من كل جانب ⑧ نحورا وهم عذاب واصب ⑨ إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ⑩ فاستفهمهم أهد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب ⑪ بكل عجبك وتسخرون ⑫ وإذا ذكروا لا يذكرون ⑬ وإنا رأوا آية يستسخرون ⑭ وقالوا إن هذا إلا سحر مبين ⑮ أودا وينا وكنا نرابا وعظما أونا

(١) أخرجه أحمد (٢٦/٢ و ٤٠)، وعنه ابنه قراءة عليه (١٥٧/٢)، والنسائي في الكبرى (٤٤٠/٦)، وأبو يعلى (٣٣٤/٩)، والطبراني (٢٠٦/١٢)، والبيهقي (١١٨/٣)، وهو حديث حسن.

لَتَسْمَعُونَهُ ۞ (١٦) أَوْ آهَاتِنَا الْأُولَىٰ ۞ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ۞ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا
 هُمْ يَنْظُرُونَ ۞ (١٩) وَقَالُوا يَا بَنِي آدَمَ هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ۞ (٢٠) هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ
 تُكَذِّبُونَ ۞ (٢١) * أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۞ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ
 فَأَهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ۞ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ۞ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ ۞ (٢٥) بَلْ هُمْ
 الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ۞ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۞ (٢٧) قَالُوا إِنَّا كُنْتُمْ نَأْتُونََنَا عَنِ
 الْيَمِينِ ۞ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۞ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا
 طَٰغِينَ ۞ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ۞ (٣١) إِنَّا لَنَدَابِقُونَ ۞ (٣٢) فَأَعْوَبْتَكُمْ ۞ (٣٣) إِنَّا كُنَّا غَالِينَ ۞ (٣٤) فَأَنبَتَهُمْ
 يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۞ (٣٥) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۞ (٣٦) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ
 لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۞ (٣٧) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَأْكُفُّوا إِلَهُتِنَا لِسَٰعِيٍّ تَجْحُونُ ۞ (٣٨) بَلْ
 جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ۞ (٣٩) إِنَّا كُنَّا نَدَّبُهُمْ إِلَىٰ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ۞ (٤٠) وَمَا يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا
 كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ (٤١) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ۞ (٤٢) أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ۞ (٤٣) فَوَكَّلْنَا بِهِمْ
 مُكْرَمُونَ ۞ (٤٤) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۞ (٤٥) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ۞ (٤٦) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَاوِسٍ مِنْ
 مِيعِينَ ۞ (٤٧) بِيضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّرْبِيبِ ۞ (٤٨) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۞ (٤٩) وَعِنْدَهُمْ
 قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ۞ (٥٠) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۞ (٥١) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ
 يَتَسَاءَلُونَ ۞ (٥٢) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۞ (٥٣) يَقُولُ أَهِيَ تَك لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ ۞ (٥٤)
 أَوْ دَا مِنْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْ نَا لَمَدِينُونَ ۞ (٥٥) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّطَّلِعُونَ ۞ (٥٦) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي
 سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۞ (٥٧) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرِيدِينَ ۞ (٥٨) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ
 الْمَحْضَرِينَ ۞ (٥٩) أَمَّا نَحْنُ بِمَبِينٍ ۞ (٦٠) إِلَّا مَوْتِنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۞ (٦١) إِنَّ هَذَا
 هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۞ (٦٢) لِيَسْئَلِ هَذَا فَلَیَعْمَلِ الْعَمَلُونَ ۞ (٦٣) أَذَلَّكَ خَيْرٌ نَزَّلَا أَمْ شَجَرَةُ
 الرَّقُومِ ۞ (٦٤) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ۞ (٦٥) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ

الْجَحِيمِ ﴿٦٥﴾ طَلَعَهَا كَأَنَّكُمْ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَأَكَلُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْنَ مِنْهَا
الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْنَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾
إِنَّهُمْ أَفْوَاءٌ ابَاءٌ هُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّجْرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ﴿٥﴾ .

عن قتادة ﴿والصافات صفا﴾ قال: قَسَمٌ، أقسم الله بخلق ثم خلق، ﴿والصافات﴾ الملائكة صفوفاً في السماء. وعن مجاهد في قوله: ﴿فالزاجرات زجراً﴾ قال: الملائكة ﴿فالتاليات ذكراً﴾ قال: الملائكة. وعن قتادة ﴿إن إلهكم لواحد﴾ وقع القسم على هذا ﴿إن إلهكم لواحد﴾. ﴿رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق﴾ قال: مشارق الشمس في الشتاء والصيف.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكُوْكَبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِّنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خِطَفَ الْخِطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿وحفظاً من كل شيطان مارد لا يسمعون إلى الملاء الأعلى﴾ قال: مُنِعُواها ﴿ويُقَدِّفُونَ من كل جانب دحوراً﴾ قذفاً قذفاً بالشُّهْبِ ﴿ولهم عذاب واسب﴾ أي دائم ﴿إلا من خِطَفَ الخِطْفَةَ فاتبعه شهاب ثاقب﴾ من نار، وثقوبه ضوءه. قال ابن عباس: لا يُقتلون بشهاب ولا يموتون، ولكنهم تحرقهم من غير قتل وتخلل وتجرح.

قوله عز وجل: ﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِنَّا ذَكَّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا رَأَوْنَا آيَةَ

يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَوْدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْثَانًا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوْءَابَاؤُنَا الْأُولُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَنْوِيلُنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُتِبَ بِهِ تَكْذِيبُوكَ ﴿٢١﴾ احْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمْ أَلْيَوْمَ مُسْتَسْخِرُونَ ﴿٢٦﴾ .

قال ابن جرير^(١): ﴿فاستفتهم﴾ يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: فاستفت يا محمد هؤلاء المشركين الذين ينكرون البعث بعد الممات والنشور بعد البلاء، يقول: فسلمهم ﴿أهم أشد خلقاً﴾ يقول: أخلقهم أشد خلقاً أم من عددنا خلقه من الملائكة والشياطين والسموات والأرض؟ وعن ابن عباس قوله: ﴿إنا خلقناهم من طين لازب﴾ قال: هو الطين الحرّ الجيد اللزق.

وعن قتادة ﴿بل عجبت ويسخرون﴾ قال: عجب محمد عليه السلام من هذا القرآن حين أعطيه وسخر منه أهل الضلالة ﴿وإذا ذُكروا لا يذكُرُونَ﴾، أي: لا ينتفعون ولا يبصرون ﴿وإذا رأوا آية يستسخرون﴾ يسخرون منها ويستسهزون ﴿وقالوا إن هذا إلا سحر مبين إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون﴾ تكذيباً بالبعث ﴿قل نعم وأنتم داخرون﴾، أي: صاغرون ﴿فإنما هي زجرة واحدة﴾ قال السدي: هي النفخة ﴿فإذا هم ينظرون وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين﴾ قال قتادة: يدين الله فيه العباد بأعمالهم ﴿هذا يوم الفصل الذي كتتم به تكذبون﴾ يعني يوم القيامة.

وعن ابن عباس قوله: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ يعني أتباعهم ومن أتبعهم من الظلمة ﴿وما كانوا يعبدون من دون الله﴾ قال قتادة:

(١) انظر «جامع البيان» (٤١/٢٣).

الأصنام ﴿فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾ قال ابن عباس يقول: وجَّهوهم. وقال ابن مسعود: وليس أحد من الخلق كان يعبد من دون الله شيئاً إلا وهو مرفوع له يتبعه، قال: فيلقى اليهود فيقول: من تعبدون؟ فيقولون: نعبد عزيزاً؟ فيقول: هل يسركم الماء؟ فيقولون: نعم. فيريهم جهنم وهي كهيئة السراب، ثم قرأ: ﴿إنا عرضنا جهنم للكافرين عرضاً﴾ قال: ثم يلقى النصارى فيقول: من تعبدون؟ فيقولون: المسيح، فيقول: هل يسركم الماء؟ فيقولون: نعم. فيريهم جهنم وهي كهيئة السراب، ثم كذلك لمن كان يعبد من دون الله شيئاً، ثم قرأ عبد الله ﴿وقفُوهم إنهم مسؤولون﴾.

وعن قتادة قوله: ﴿ما لكم لا تناصرون﴾ لا والله لا يتناصرون ولا يدفع بعضهم عن بعض ﴿بل هم اليوم مستسلمون﴾ في عذاب الله.

قوله عز وجل: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّا كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَغَيْنَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَعْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَأَنبَأْتَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَتَارِكُوا آلَ الْهَتَمِ لِسَاعِ مَجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

عن ابن عباس ﴿إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين﴾ يقولون: كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا، لأننا كنا أذلاء وكنتم أعرءاء. وقال مجاهد: يعني عن الحق، والكفار تقوله للشياطين ﴿قالوا بل لم تكونوا مؤمنين﴾ قال ابن كثير^(١): تقول القادة من الجن والإنس للأتباع: ما الأمر كما تزعمون، بل كانت قلوبكم منكرة

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٥/٤).

للإيمان قابلة للكفر والعصيان ﴿وما كان لنا عليكم من سلطان﴾، أي: من حجة على صحة ما دعوناكم إليه.

﴿بل كنتم قوماً طاغين فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون فأغويناكم إنا كنا غاوين﴾ يقول الكبراء للمستضعفين: حقت علينا كلمة الله، إنا كنا من الأشقياء الذائقين للعذاب يوم القيامة ﴿فأغويناكم﴾، أي: دعوناكم إلى الضلالة ﴿إنا كنا غاوين﴾ أي فدعوناكم إلى ما نحن فيه فاستجبتم لنا؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون﴾، أي: الجميع في النار كل بحسبه ﴿إنا كذلك نفعل بالمجرمين إنهم كانوا﴾، أي: في الدنيا ﴿إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون﴾، أي: أن يقولوها كما يقولها المؤمنون. وعن قتادة ﴿ويقولون أننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون﴾ يعنون محمداً ﷺ ﴿بل جاء بالحق﴾ بالقرآن ﴿وصدق المرسلين﴾ أي صدق من كان قبله من المرسلين. قال البغوي^(١): أي أنه أتى بما أتى به المرسلون قبله.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَكَّكُهُ وَهُمْ مَكْرُمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُذْفَوْنَ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَنْصَرَةٌ مِنَ الظَّرْفِ عِزٌّ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾.

قال ابن كثير^(٢): يقول تعالى مخاطباً للناس: ﴿إنكم لذائقوا العذاب الأليم وما تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين، كما قال

(١) انظر «معالم التنزيل»، (٢٢/٤).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم»، (٦/٤).

تعالى: ﴿وَالْعَصْرَ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خَسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾^(١).

وعن قتادة ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ قال: هذه ثنية الله ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ في الجنة ﴿فَوَاكِهِ وَهُمْ مَكْرُمُونَ. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ. عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ. يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ قال قتادة: كأس من خمر جارية، والمعين هي الجارية ﴿بِيضَاءٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ قال مجاهد: وجع بطن ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ قال قتادة يقول: ليس فيها وجع بطن ولا صداع رأس. وقال السدي: لا تنزف عقولهم.

وعن قتادة ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ قال: قصر طرفهن على أزواجهن فلا يردن غيرهم. وعن السدي في قوله ﴿عَيْنٍ﴾ قال: عظام العين ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيضٌ مُكْنُونٌ﴾ قال: البيض حين يقشر قبل أن تمسه الأيدي.

قوله عز وجل: ﴿فَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥٦﴾ يَقُولُ أَتِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْلًا إِيَّا نَا لَمَدِينُونَ ﴿٥٨﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّظْلِعُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَطَّلَعَ فَرَّاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٦٠﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرْدِينَ ﴿٦١﴾ وَلَوْ لَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦٢﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ ﴿٦٣﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ ﴿٦٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَوْمُ الْعَظِيمُ ﴿٦٥﴾.

عن قتادة ﴿فَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ قال: أهل الجنة. وعن ابن عباس قوله: ﴿قال قائل منهم إني كان لي قرين يقول أتنتك لمن المصدقين﴾ قال: هو الرجل المشرك يكون له صاحب في الدنيا من أهل الإيمان، فيقول له المشرك: إنك لتصدق بأنك مبعوث من بعد الموت ﴿أإذا كنا

(١) سورة العصر: الآية ١.

تراباً؟ فلما أن صاروا إلى الآخرة وأدخل المؤمن الجنة، وأدخل المشرك النار.

﴿فأطلع﴾ المؤمن فرأى صاحبه ﴿في سواء الجحيم﴾ وسطها ﴿قال تالله إن كدت لتردين. ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين﴾. قال قتادة: أي في عذاب الله، ﴿أفما نحن بميتين. إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين﴾. قال ابن كثير^(١): هذا من كلام المؤمن، مغتبطاً بما أعطاه الله تعالى من الخلد في الجنة والإقامة في دار الكرامة، بلا موت فيها ولا عذاب، ولهذا قال عز وجل ﴿إن هذا لهو الفوز العظيم﴾ وعن قتادة قوله: ﴿أفما نحن بميتين﴾ إلى قوله: ﴿الفوز العظيم﴾ قال: هذا قول أهل الجنة.

قوله عز وجل: ﴿لِيَمِثِلَ هَذَا فَلَيعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ ﴿١١﴾ أذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ ﴿١٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ ﴿١٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيْطَانِ﴾ ﴿١٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا الْبَاطُونَ﴾ ﴿١٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ﴾ ﴿١٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ﴾ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آيَاءَ هُرْصَالَيْنِ﴾ ﴿١٩﴾ فَهُمْ عَلَى آثَرِهِمْ يَهْرَعُونَ﴾ ﴿٢٠﴾.

قال ابن جرير^(٢): يقول تعالى ذكره: ﴿لمثل هذا﴾ الذي أعطيت هؤلاء المؤمنين من الكرامة في الآخرة ﴿فليعمل﴾ في الدنيا لأنفسهم ﴿العاملون﴾ ليدركوا ما أدرك هؤلاء بطاعة ربهم.

وعن قتادة ﴿أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم﴾؟ حتى بلغ ﴿في أصل الجحيم﴾ قال: لما ذكر شجرة الزقوم افتتن الظلمة فقالوا: يبتئكم صاحبكم هذا أن في النار شجرة، والنار تأكل الشجرة، فأنزل الله ما تسمعون ﴿إنها شجرة تخرج في

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٨/٤).

(٢) انظر «جامع البيان» (٦٢/٢٣).

أصل الجحيم ﴿ غُدَّيت بالنار ومنها خُلقت ﴾ ﴿ طلعها كأنه رؤوس الشياطين ﴾ ﴿ شَبَّهه بذلك ﴾ ﴿ فَإِنَّهُمْ لَاكُلُونَ مِنْهَا فَمَالَتْونَ مِنْهَا الْبَطُونُ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ ﴾ ﴿ قال ابن عباس: يعني شرب الحميم على الزقوم، وقال السدي: الشوب الخلط وهو المزج.

وعن قتادة قوله: ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ ﴿ فهم في عناء وعذاب من نار جهنم، وتلا هذه الآية ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آناً ﴾. إنهم ألفوا آباءهم ضالِّين فهم على آثارهم يُهْرَعُونَ ﴿ قال مجاهد: أي يسرعون إسراعاً في ذلك.



الدرس الرابع والثلاثون بعد المائتين

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأُولِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ ﴿٧٢﴾
فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ
نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا
دُرَيْتَهُمْ هُرًّا بَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا
كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَخْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٨٢﴾
﴿ وَإِنِّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ
مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَيفكًا ءإلهةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَظَنَرَ
نَظْرَةً فِي الشُّجُورِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَاءَ الْهِنِيمِ فَقَالَ
أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ
يَزْفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا
فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى
رَبِّي سَابِقِينَ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ
السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ﴿١٠٢﴾ قَالَ يَتَأْتِيَ أَفْعَلُ
مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٣﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّمَ لِلْجِبِينِ ﴿١٠٤﴾ وَتَدَبَّرْتَهُ أَنْ
يَتَّابِرَهُمَا ﴿١٠٥﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٦﴾ إِنَّكَ هَذَا لَهُوَ الْبَلْتَأُ
الْمِينُ ﴿١٠٧﴾ وَقَدَرْتَهُ بِذَنبِ عَظِيمٍ ﴿١٠٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٩﴾ سَلَّمَ عَلَى

إِبْرَاهِيمَ ﴿١١٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَشَرَّزْنَاهُ
بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ وَوَكَّرْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ
وظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١٢٣﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ .

قوله تعالى: ﴿ولقد ضلّ قبلهم أكثر الأولين﴾، أي: من الأمم الخالية ﴿ولقد أرسلنا فيهم منذرين فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾ الكافرين، أي: كان عاقبتهم العذاب ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ قال السدي: الذين استخلصهم الله. قال ابن جرير^(١): واستثنى عباد الله من المنذرين لأن معنى الكلام: فانظر كيف أهلكنا المنذرين إلا عباد الله المؤمنين، فلذلك حسن استثناءهم منهم.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنعَمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمَ عَلَيْنَا فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٨٢﴾ .

عن قتادة: ﴿ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون﴾ قال: أجابه الله. وعن السدي: ﴿ونجيناؤه وأهله من الكرب العظيم﴾ قال: من الغرق. وعن الحسن عن سمرة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وجعلنا ذريتهم هم الباقين﴾ قال: «سام وحام ويافث»^(٢) قال قتادة: فالناس كلهم من ذرية نوح. وعن ابن عباس قوله: ﴿وتركنا عليه في الآخريين﴾ يقول: يُذَكَّرُ بخير ﴿سلام على نوح في العالمين﴾ إنا كذلك

(١) انظر «جامع البيان» (٦٦/٢٣).

(٢) أخرجه الترمذي (ح/ ٣٢٣٠) وحسنه، وابن جرير (٦٧/٢٣) بسند ضعيف.

نجزي المحسنين ﴿ قال مقاتل: جزاه الله بإحسانه الثناء الحسن في العالمين. وعن قتادة: ﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴾ قال: أنجاه الله ومن معه في السفينة وأغرق بقية قومه.

قوله عز وجل: ﴿ وَإِن مِّن شَيْعَةٍ لِّإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفِيكَاءَ آلِهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أتعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا أَبْنَاؤُا لِمِ بَنَيْنَا قَالِقُوهُ فِي الْجَعِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ﴾ يقول: من أهل دينه. وقال مجاهد: على منهاجه وسنته. وعن قتادة: ﴿ إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾ واللّه من الشرك ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون أنفكاً آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين ﴾ قال ابن كثير^(١): أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد ولهذا قال: ﴿ أنفكاً آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين ﴾ قال قتادة يعني: ما ظنكم أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم معه غيره؟

وقال البغوي^(٢): وقوله تعالى: ﴿ فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم ﴾ قال ابن عباس: كان قومه يتعاطون علم النجوم، فعاملهم من حيث كانوا لثلاً ينكروا عليه، وذلك أنه أراد أن يكايدهم في أصنامهم ليلزمهم الحجّة في أنها غير معبودة، وكان لهم من الغد عيد ومجمع، وكانوا يدخلون على أصنامهم ويفرشون لهم

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١٢/٤).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٢٦/٤).

الفراش ويضعون بين أيديهم الطعام قبل خروجهم إلى عيدهم زعموا التبرك عليه، فإذا انصرفوا من عيدهم أكلوه، فقالوا لإبراهيم: ألا تخرج غداً معنا إلى عيدنا؟ فنظر إلى النجوم فقال: إني سقيم. قال ابن عباس: مطعون، وكانوا يفرّون من الطاعون فراراً عظيماً: ﴿فتولّوا عنه مدبرين﴾ إلى عيدهم فدخل إبراهيم على الأصنام فكسرها، كما قال الله تعالى: ﴿فراغ إلى آلهتهم﴾ مال إليها ميلاً في خفية، فقال استهزاء بها: ﴿ألاً تأكلون﴾ يعني الطعام الذي بين أيديكم ﴿ما لكم لا تنطقون فراغ عليهم ضرباً باليمين﴾، أي: كان يضربهم بيده اليمنى لأنها أقوى على العمل من الشمال ﴿فأقبلوا إليه يَزْفون﴾ يسرعون، وذلك أنهم أُخبروا بصنيع إبراهيم بآلهتهم فأسرعوا إليه ليأخذوه، قال لهم إبراهيم على وجه الحجاج ﴿أتعبدون ما تنحتون﴾ بأيديكم ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ بأيديكم من الأصنام: ﴿قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم﴾ قال مقاتل: بنوا له حائطاً من الحجر طوله في السماء ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً، وملاؤه من الحطب وأوقدوا فيه النار فطرحوه فيها ﴿فأرادوا به كيداً﴾ شراً، وهو أن يحرقوه ﴿فجعلناهم الأسفلين﴾، أي: المقهورين، حيث سلّم الله تعالى إبراهيم وردّ كيدهم. انتهى ملخصاً.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام غير ثلاث كذبات: اثنتين في ذات الله تعالى قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وقوله في سارة: هي أختي»^(١). متفق عليه.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾^(١١٦) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٧﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١١٨﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴿١١٩﴾ قَالَ يَتَّبِعُكَ أَنفَعَلْ مَا تُؤْمُرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٢٠﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٢١﴾ وَنَدَيْتَهُ أَنِ اتَّبِعْهُ ﴿١٢٢﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٢٤﴾ وَفَدَيْتَهُ بِذَبْحٍ

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٣٣٥٧ و ٣٣٥٨)، ومسلم (ح/ ٢٣٧١).

عَظِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٣﴾ سَلَّمَ عَلَيَّ إِبرَاهِيمَ ﴿١١٤﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّكُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٦﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٨﴾ .

قال ابن كثير^(١): يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام: أنه بعدما نصره الله تعالى على قومه وأيس من إيمانهم بعدما شاهدوا من الآيات العظيمة، هاجر من بين أظهرهم: ﴿وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين، رب هب لي من الصالحين﴾ يعني أولاداً مطيعين يكونون عوضاً من قومه وعشيرته الذين فارقهم، قال الله تعالى: ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام، فإنه أول ولد بُشِّرَ به إبراهيم، وهو أكبر من إسحاق، باتفاق المسلمين وأهل الكتاب.

وعن ابن عباس: ﴿فلما بلغ معه السعي﴾ لما شبَّ حتى بلغ سعيه، سعي إبراهيم. قال الأصمعي: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح إسحاق كان أو إسماعيل؟ فقال: يا أصمعي، أين ذهب عقلك؟ متى كان إسحاق بمكة؟ إنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه. وقال ابن إسحاق وغيره: فلما أمر إبراهيم بذلك قال لابنه: يا بني خذ الحبل والمديّة نطلق إلى هذا الشعب نحتطب، فلما خلا إبراهيم بابنه في شعب ثبير أخبره بما أمر: ﴿قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ .

﴿فلما أسلما﴾ انقادا وخضعوا لأمر الله تعالى، قال قتادة: أسلم إبراهيم ابنه وأسلم الابن نفسه ﴿وتلّه للجبين﴾ قال ابن عباس: أضجعه على جبينه على الأرض. وعن قتادة: ﴿وتلّه للجبين﴾، أي: وكبه لفيه وأخذ الشفرة: ﴿ونادينا أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا﴾ حتى بلغ: ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ .

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١٤/٤).

وقوله تعالى: ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ قال ابن كثير^(١)، أي: هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً ﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾، أي: الاختبار الواضح الجلي حيث أمر بذبح ولده فسارع إلى ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ قال مجاهد: سمّاه عظيماً لأنه متقبّل. قال ابن عباس: الكبش الذي ذبحه إبراهيم هو الذي قرّبه ابن آدم. وقال ابن زيد في قوله: ﴿وتركنا عليه في الآخِرين﴾ قال: سألت إبراهيم فقال: ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخِرين﴾ قال: فترك الله عليه الثناء الحسن في الآخِرين، كما ترك اللسان السوء على فرعون وأشباهه، كذلك ترك اللسان الصدق والثناء الصالح على هؤلاء.

﴿سلام على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين، إنه من عبادنا المؤمنين، وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ قال ابن كثير^(٢): لما تقدّمت البشارة بالذبيح وهو إسماعيل، عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق، وقد ذكرت في سورتَي هود والحجر. وقوله تعالى: ﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ كقوله تعالى: ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾.



(١) المصدر السابق (٤/١٦).

(٢) المصدر السابق (٤/١٨).

الدرس الخامس والثلاثون بعد المائتين

﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٥﴾ وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٦﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَمَا كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٧﴾ وَأَنبَتْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٨﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٩﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٠﴾ سَلَّمْنَا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢١﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٢﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٤﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَأَنْتُمْ أَكْفَرُونَ ﴿١٢٥﴾ بَعَلًّا وَتَذَرُونِ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٦﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَالْأُولَىٰ ﴿١٢٧﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٨﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٩﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٣٠﴾ سَلَّمْنَا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ﴿١٣١﴾ إِنَّمَا نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٢﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٤﴾ إِذْ جَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٥﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٦﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٣٧﴾ وَإِنَّا لَنُؤْتِيهِم مِّنْهُم مَّصِيبًا ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْقَمَمَةُ الْحَوْثُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلِئْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴿ فَجَدَّاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَبْتُنَا عَلَيْهِ شَجَرَةٌ مِنْ يَاقُوتٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ بَيْتِ أَلْفِ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَفَاتَمُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ۞

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَاكْتَوُوا هُمُ الْفَلِيلِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْيَرِ ﴿١١٩﴾ سَلَّمْنَا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ .

وعن قتادة: ﴿ونجيناها وقومها من الكرب العظيم﴾، أي: من آل فرعون ﴿وآتيناهما الكتاب المستبين﴾ التوراة ﴿وهديناهما الصراط المستقيم﴾ الإسلام.

قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَآلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأْتَهُمْ مَحْضُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْأَخْيَرِ ﴿١٢٩﴾ سَلَّمْنَا عَلَىٰ إِيَّاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ .

عن مجاهد في قوله: ﴿أتدعون بعلاً﴾ قال: رباً. وقال ابن زيد: بعل صنم كانوا يعبدونه، كانوا يبعلك وهم وراء دمشق وكان بها البعل الذي كانوا يعبدون. وقال ابن إسحاق عن وهب بن منبه: أن الله قبض حزقيل وعظمت في بني إسرائيل أحداث، ونسوا ما كان من عهد الله إليهم، حتى نصبوا الأوثان وعبدوها دون الله، فبعث الله إليهم إلياس بن ياسين^(١) بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران

(١) في (الأصل): «نسبي»، وفي تفسير ابن كثير: «نسي»، وفي تفسير البغوي: «بشر»، =

نبيّاً، وإنما كانت الأنبياء من بني إسرائيل بعد موسى يُبعثون إليهم بتجديد ما نسوا من التوراة، فكان إلياس مع ملك من ملوك بني إسرائيل يقال له أحاب، وكان اسم امرأته أربل وكان يسمع منه ويصدقّه، وكان إلياس يقيم له أمره، وكان سائر بني إسرائيل قد اتخذوا صنماً يعبدونه من دون الله يقال له بعل. قال ابن إسحاق: وقد سمعت بعض أهل العلم يقول: ما كان بعل إلا امرأة يعبدونها من دون الله.

يقول الله لمحمد: ﴿وإن إلياس لمن المرسلين إذ قال لقومه ألا تتقون أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين الله ربك ورب آبائكم الأولين﴾ فجعل إلياس يدعوهم إلى الله وجعلوا لا يسمعون منه شيئاً، إلا ما كان من ذلك الملك، والملوك متفرقة بالشام، كل ملك له ناحية منها يأكلها، فقال ذلك الملك - الذي كان إلياس معه يقوم له أمره ويراه على هدى من بين أصحابه - يوماً: يا إلياس، والله ما أرى ما تدعو إليه إلا باطلاً، والله ما أرى فلاناً وفلاناً بعد، وملوكاً من ملوك بني إسرائيل قد عبدوا الأوثان من دون الله، إلا على مثل ما نحن عليه، يأكلون ويشربون وينعمون مملكين، ما ينقص دنياهم أمرهم الذي تزعم أنه باطل، وما نرى لنا عليهم من فضل، فيزعمون والله أعلم أن إلياس استرجع، وقام شعر رأسه وجلده، ثم رفضه وخرج عنه، ففعل ذلك الملك فعل أصحابه، عبد الأوثان وصنع ما يصنعون، فقال إلياس: اللهم إن بني إسرائيل قد أبوا إلا أن يكفروا بك والعبادة لغيرك، فغير ما بهم من نعمتك، أو كما قال.

وقوله تعالى: ﴿فكذبوه فإنهم لمحضرون إلا عباد الله المخلصين﴾ قال ابن جرير^(١) يقول: فإنهم لمحضرون في عذاب الله فيشهدونه، إلا عباد الله الذين

= والمثبت من تفسير ابن جرير (٩٢/٢٣)، وتاريخه (٢٧٣/١)، والكامل لابن الأثير

(١١٨/١)، والبداية والنهاية (٣٣٧/١).

(١) انظر «جامع البيان» (٩٤/٢٣).

أخلصهم من العذاب. ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ يقول: وأبقينا عليه الثناء الحسن في الآخرين من الأمم بعده. وعن السدي: ﴿سلام على إلياسين﴾ قال: إلياس.

قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ بَجَجْتَهُ وَآهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّا لَنُرَوِّنُهُمْ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِأَيْتِلْ أَفَلًا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

عن قتادة: ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين﴾ قال: نعم والله، صباح ومساء يطؤونها وطأ. من أخذ من المدينة إلى الشام، أخذ على سدوم قرية قوم لوط. وقال ابن زيد في قوله: ﴿أفلا تعقلون﴾ قال: أفلا تفكرون ما أصابهم في معاصي الله أن يصيبكم ما أصابهم؟.

قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلِئْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَبَلَّتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾.

عن قتادة في قوله: ﴿إلى الفلك المشحون﴾ كنا نحدث أنه الموقر. ﴿فساهم﴾ فكان من المدحضين. قال: فاحتبست السفينة فعلم القوم أنها احتبست من حدث أحدثوه، فساهموا ففرغ يونس فرمى بنفسه ﴿فالتقمه الحوت وهو ملِيم﴾، أي: في ضعة. قال ابن زيد: والمليم المذنب.

وعن ابن عباس قوله: ﴿فكان من المدحضين﴾ يقول: من المقروعين. وقال البغوي^(١): وقوله تعالى: ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾، أي: من جملة رسل الله

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣٦/٤).

﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾، يعني: هرب. قال ابن عباس ووهب: كان يونس وعد قومه العذاب، فلما تأخر عنهم العذاب خرج كالمتواري منهم، فقصد البحر فركب السفينة فاحتبست السفينة، فقال الملاحون: ههنا عبد أبق من سيده فاقترعوا ثلاثاً فوقعت القرعة على يونس، فقال يونس: أنا الآبق، وزجّ نفسه في الماء.

وقال ابن كثير^(١): ﴿فساهم﴾، أي: قارع ﴿فكان من المدحضين﴾، أي: المغلوبين؛ وذلك أن السفينة تلعب بها الأمواج من كل جانب وأشرفوا على الغرق، فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقي في البحر لتخفّ بهم السفينة، فوقعت القرعة على نبيّ الله يونس عليه الصلاة والسلام ثلاث مرات، وهم يظنون به أن يلقي من بينهم. فتجرّد من ثيابه ليلقي نفسه وهم يأبون عليه ذلك، وأمر الله تعالى حوتاً من البحر الأخضر أن يشقّ البحار وأن يلتقم يونس عليه السلام، فلا يهشم له لحماً ولا يكسر له عظماً، فجاء ذلك الحوت وألقى يونس نفسه فالتقمه الحوت وذهب به فطاف به البحار كلّها، ولما استقرّ يونس في بطن الحوت حسب أنه قد مات، ثم حرّك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حيّ، فقام فصلّى في بطن الحوت، وكان من جملة دعائه: يا ربّ اتخذت لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحد من الناس. وعن قتادة: ﴿فلولا أنه كان من المسبحين﴾ كان كثير الصلاة في الرخاء فنجاه الله بذلك. قال: وقد كان يقال في الحكمة: إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا ما عثر، فإذا صرّع ووجد مُنكراً. وعن أنس مرفوعاً: «أن يونس النبيّ حين بدا له أن يدعو الله بالكلمات، حين ناداه وهو في بطن الحوت فقال: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فأقبلت الدعوة تحت العرش، فقالت الملائكة: يا ربّ هذا صوت ضعيف معروف في بلاد غريبة، قال: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يا رب ومن هو؟ قال: ذلك عبدي يونس. قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يُرفع له عمل متقبّل ودعوة مستجابة! قالوا: يا رب أو لا يُرحم

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٠/٤).

بما كان يصنع في الرخاء فتنتجيه من البلاء؟! قال: بلى. فأمر الحوت فطرحة بالعراء^(١). رواه ابن جرير.

وعن قتادة قوله: ﴿اللبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ لصار له بطن الحوت قبراً إلى يوم القيامة. ﴿فنبذناه بالعراء﴾ قال: بأرض ليس فيها شيء ولا نبات. وعن ابن عباس قال: خرج به - يعني الحوت - حتى لفظه في ساحل البحر، فطرحة مثل الصبي المنغوس لم ينقص من خلقه شيء. وعن السدي ﴿وهو سقيم﴾ كهيئة الصبي. وعن سعيد ابن جبير في قوله: ﴿وأنبتنا عليه شجرة من يقطين﴾ قال: كل شيء ينبت على وجه الأرض ليس له ساق. قال قتادة: كنا نحدث أنها الدباء - هذا القرع الذي رأيتم - أنبتها الله عليه يأكل منها. وعن ابن عباس في قوله: ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ قال: بل يزيدون كانوا مائة ألف وثلاثين ألفاً. قال قتادة: أرسل إلى أهل نينوى من أهل الموصل، قال: قال الحسن: بعثه الله قبل أن يصيبه ما أصابه ﴿فآمنوا فمتّعناهم إلى حين﴾ الموت.



(١) أخرجه ابن جرير (٢٣/١٠٠) بسند ضعيف.

الدرس السادس والثلاثون بعد المائتين

﴿ فَاسْتَفْتِهِمَ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ ١٤٩ ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ
 إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ ١٥٠ ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴾ ١٥١ ﴿ وَلَدَ اللَّهُ وَلِيُّهُمْ
 لَكُذِبُونَ ﴾ ١٥٢ ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ ١٥٣ ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ ١٥٤ ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ١٥٥ ﴿
 أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴾ ١٥٦ ﴿ فَأَتُوا بِكُتُبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ١٥٧ ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ
 نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ ١٥٨ ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ ١٥٩ ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ
 الْمُخْلِصِينَ ﴾ ١٦٠ ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ ١٦١ ﴿ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ بِفَتْنَيْنِ ﴾ ١٦٢ ﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ
 الْجَحِيمِ ﴾ ١٦٣ ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لِمَ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ ١٦٤ ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴾ ١٦٥ ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ
 الْمُسْتَحُونَ ﴾ ١٦٦ ﴿ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴾ ١٦٧ ﴿ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴾ ١٦٨ ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ
 الْمُخْلِصِينَ ﴾ ١٦٩ ﴿ فَكْفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ١٧٠ ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ ١٧١ ﴿
 إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴾ ١٧٢ ﴿ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ ١٧٣ ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴾ ١٧٤ ﴿ وَأَبْصَرْتُمْ
 فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ ﴾ ١٧٥ ﴿ أِفْعِدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ ١٧٦ ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِبِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ ١٧٧ ﴿
 وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴾ ١٧٨ ﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ ١٧٩ ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا
 يَصِفُونَ ﴾ ١٨٠ ﴿ وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ ١٨١ ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ١٨٢ ﴿

* * *

قوله عز وجل: ﴿فَاسْتَفْتِهِمَ الرِّبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ ١٤٩ ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ ١٥٠ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ﴾ ١٥١ ﴿وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ١٥٢ ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ ١٥٣ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ١٥٤ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ١٥٥ ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ ١٥٦ ﴿فَأَتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ١٥٧ ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ ١٥٨ ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ ١٥٩ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ١٦٠ .

عن قتادة: ﴿فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون﴾ يعني مشركي قريش. قال ابن زيد: سلهم. وقال السدي: كانوا يعبدون الملائكة. قال ابن كثير^(١): وقوله تبارك وتعالى: ﴿أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون﴾، أي: كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم؟! كقوله جلّ وعلا؟ ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم سكتب شهادتهم ويُسألون﴾.

وعن قتادة: ﴿ألا إنهم من إفكهم﴾ يقول: من كذبهم: ﴿ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون، أصطفى البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون﴾؟ يقول: كيف يجعل لكم البنين ولنفسه البنات؟ ﴿أفلا تذكرون أم لكم سلطان مبین﴾، أي: عذر بين؟ وعن السدي في قوله: ﴿سلطان مبین﴾ قال: حجة: ﴿فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين﴾. ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا﴾ قال مجاهد: قال كفار قريش: الملائكة بنات الله فسأل أبو بكر: من أمهاتهن؟ فقالوا: بنات سروات الجن: ﴿ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون﴾ إنها ستحضر الحساب. وقال السدي: إن هؤلاء الذين قالوا هذا: ﴿لمحضرون﴾ لمعذبون.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٢/٤).

قال ابن كثير^(١): وقوله جلّت عظمته: ﴿سبحان الله عما يصفون﴾، أي: تعالى وتقدّس وتنزه عن أن يكون له ولد، وعما يصفه به الظالمون الملحدون علواً كبيراً.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع، وهو من مثبت إلا أن يكون الضمير في قوله تعالى: ﴿عما يصفون﴾ عائداً إلى الناس جميعهم، ثم استثنى منهم المخلصين وهم المتبعون للحق المنزل.

قوله عز وجل: ﴿فَاتَّكُرُ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مَنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأُولِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكْفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿ما أنتم عليه بفاتنين إلا من هو صال الجحيم﴾ يقول: ما أنتم بفاتنين على أوثانكم أحداً إلا من قد سبق له أنه صال الجحيم. وقال الحسن: ما أنتم عليه بمضلين إلا من كان في علم الله أنه سيصلى الجحيم. وعن السدي في قوله: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ قال الملائكة. وعن عائشة قالت: قال نبي الله ﷺ: «ما في سماء الدنيا موضع قدم إلا عليه ملك ساجد أو قائم فذلك قول الملائكة: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبِّحون﴾»^(٢). رواه ابن جرير.

وعن قتادة قوله: ﴿وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكننا عباد الله المخلصين﴾ قال: قد قالت هذه الأمة ذاك قبل أن يبعث محمد ﷺ: لو كان

(١) المصدر السابق (٢٣/٤).

(٢) أخرجه ابن جرير (١١٢/٣)، وأبو الشيخ في «العظمة» (ح/٥٠٨) بسند ضعيف، لكن له شاهد من حديث أبي ذر - وهو صحيح - وحكيم بن حزام رضي الله عنهما، وقد سبق تخريجهما.

عندنا ذكر من الأولين لكننا عباد الله المخلصين، فلما جاءهم محمد كفروا به: ﴿فسوف يعلمون﴾ وقال ابن عباس: لما جاء المشركين من أهل مكة ذكر الأولين وعلم الآخرين كفروا بالكتاب: ﴿فسوف يعلمون﴾ يقول: قد جاءكم محمد بذلك فكفروا بالقرآن، وبما جاء به محمد.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصَرْتُمْ فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصَرْتُمْ فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ ﴿١٧٩﴾ .

عن قتادة: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون﴾ قال: سبق هذا من الله لهم أن ينصرهم. وعن السدي في قوله: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون﴾ يقول: بالحجج: ﴿فتولَّ عنهم حتى حين﴾ قال: حتى يوم بدر.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿وأبصرهم فسوف يبصرون﴾ يقول: أنظرهم فسوف يبصرون ما لهم بعد اليوم، يقول: يبصرون يوم القيامة ما ضيعوا من أمر الله، وكفرهم بالله ورسوله وكتابه؛ قال: «فأبصرهم» «وأبصر» واحد. وقال البغوي^(١): ﴿وأبصرهم﴾ إذا أنزل بهم العذاب: ﴿فسوف يبصرون﴾ فقالوا: متى هذا العذاب؟ فقال الله عز وجل: ﴿أفعدابنا يستعجلون فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين﴾ قال: وذكر قول النبي ﷺ حين صبح أهل خيبر «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»^(٢)؛ ثم كرر ما ذكر تأكيداً لوعيد العذاب، فقال: ﴿وتولَّ عنهم حتى حين وأبصر﴾ العذاب إذا نزل بهم: ﴿فسوف يبصرون﴾.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤١٩٨)، ومسلم (٣/١٤٢٦ - ١٤٢٧) من حديث أنس رضي الله

قوله عز وجل: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلِّمْ عَلَى

الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ .

عن قتادة: ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾، أي: عما يكذبون، يسبح نفسه إذا قيل عليه البهتان: ﴿وسلام على المرسلين﴾ قال رسول الله ﷺ: «إذا سلمتم عليّ فسلموا على المرسلين، فإنما أنا رسول من المرسلين»^(١). وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: من أحبّ أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه في مجلسه: ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين﴾^(٢).



(١) أخرجه ابن جرير (١١٦/٢٣) عن قتادة مرسلًا، وروي موصولًا من حديث أبي طلحة رضي الله عنه مرفوعًا، أخرجه ابن أبي حاتم كما عزا له ابن كثير في تفسيره (٢٥/٤)، وسنده صحيح.

(٢) أخرجه البغوي في تفسيره (٤٠/٤) بسند ضعيف جداً.

الدرس السابع والثلاثون بعد المائتين

﴿سورة ص﴾

مكية، وهي ثمان وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ص﴾ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِي ﴿٢﴾ كَرَاهِلِكُنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرِينٍ فَنادُوا وَلَاتِ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَأَصْبَرُوا عَلَىٰ الْعِتْكَرِ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ ﴿٧﴾ أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾

وَشَدَدْنَا مُلْكَكُمْ وَأَيَّنَّا لَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ * وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضَمِ إِذْ
سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَعْضُنَا
عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُسْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ
تِسْعٌ وَسِتُّونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ
ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى نَجْمِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَحَرَّ رَاكِعًا
وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَنَاقِبٍ ﴿٢٥﴾ يٰدَاوُدُ إِنَّا
جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ
اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا
خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ
النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ
الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو
الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾ *

* * *

قوله عز وجل: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ١﴾ بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ
 وَشِقَاقِي ٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلا تِ حِينَ مَنَاصٍ ٣﴾ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ
 مُنذِرٌ مِّنْهُمْ ٤﴾ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا سِحْرٌ كَذٰبٌ ٥﴾ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلٰهًا وَّاحِدًا إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ
 لَّشَيْءٌ عَجَابٌ ٦﴾ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ ءِ الْهَيْكَلِ إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ
 يُرَادُ ٧﴾ مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هٰذَا إِلَّا أَنْخِلَاقٌ ٨﴾ أَمْ نَزَلِ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ
 بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ ٩﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ
 الْوَهَّابِ ١٠﴾ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ١١﴾ جُنْدٌ
 مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ١٢﴾ .

عن ابن عباس ﴿ص والقرآن ذي الذكر﴾ ذي الشرف. وعن قتادة ﴿ذي
 الذكر﴾ أي ما ذكر فيه. قال ابن كثير^(١): ولا منافاة بين القولين، فإنه كتاب شريف
 مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار. وعن قتادة ﴿بل الذين كفروا في عزة
 وشقاق﴾، أي: في حمية وفراق؛ قال: وهنا وقع القسم.

وقوله تعالى: ﴿كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولا تين مناص﴾ قال
 ابن عباس: ليس بحين ترو ولا فرار، ضبط القوم. وقال قتادة: نادى القوم على
 غير حين نداء، وأرادوا التوبة حين عاينوا عذاب الله، فلم يقبل منهم ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ قال قتادة: يعني محمداً ﷺ
 وقال الكافرين هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب
 قال: عجب المشركون أن دعوا إلى الله وحده وقالوا: يسمع لحاجتنا جميعاً إله

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٦/٤).

واحد؟ ﴿ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة﴾. وعن ابن عباس قال: لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل بن هشام فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهيته، فبعثت إليه، فجاء النبي ﷺ فدخل البيت، وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل، فخشي أبو جهل إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرفق له عليه، فوثب فجلس في ذلك المجلس، ولم يجد رسول الله ﷺ مجلساً قرب عمه فجلس عند الباب، فقال له أبو طالب: أي ابن أخي ما بال قومك يشكونك؟ يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول قال: فأكثروا عليه من القول، وتكلم رسول الله ﷺ فقال: «يا عم، إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب وتؤذي إليهم بها العجم الجزية!» ففزعوا لكلمته ولقوله، فقال القوم: كلمة واحدة! «نعم، وأبيك عشراً»، فقالوا: وما هي؟ فقال أبو طالب: وأي كلمة هي يا ابن أخي؟ قال: «لا إله إلا الله». قال: فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون: ﴿أجعل الآلهة آلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾! قال: ونزلت من هذا الموضع إلى قوله: ﴿لما يذوقوا عذاب﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿وانطلق الملائمة منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم﴾ قال البغوي^(٢): أي انطلقوا من مجلسهم الذي كانوا فيه عند أبي طالب، ويقول بعضهم لبعض ﴿امشوا واصبروا على آلهتكم﴾، أي: اثبتوا على عبادة آلهتكم ﴿إن هذا لشيء يُراد﴾، أي: الأمر يراد بنا، وذلك أن عمر لما أسلم وحصل للمسلمين قوة لمكانة قالوا: إن هذا الذي نراه من زيادة أصحاب محمد لشيء يُراد بنا. وعن

(١) أخرجه أحمد (١/٢٧٧)، والترمذي (ح/٣٢٣٢) وحسنه، والنسائي في الكبرى (٦/٤٤٢)، وابن جرير (٢٣/١٢٥)، والحاكم (٢/٤٣٢) وصححه، ووافقه الذهبي!! قلت: وفيه يحيى بن عمار وهو مجهول، ووقع عند أحمد - كما سيأتي تخريجه - أن اسمه: «عباد جعفر»، أخرجه أحمد (٢/٣٦٢)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٤٢)، وابن جرير (٢٣/١٢٥)، فالحديث بهذين الطريقتين حسن إن شاء الله تعالى.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٢).

ابن عباس قوله: ﴿ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة﴾ يعني النصرانية، فقالوا: لو كان هذا القرآن حقاً أخبرتنا به النصارى، وعن قتادة ﴿ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة﴾، أي: في ديننا هذا ولا في زماننا قطّ ﴿إن هذا إلا اختلاق﴾ إلا شيء تخلّقه. وقال ابن زيد قالوا: إن هذا إلا كذب.

﴿أنزل عليه الذكر﴾ قال البغوي^(١): القرآن ﴿من بيننا﴾ وليس بأكبرنا ولا أشرفنا؟ يقوله أهل مكة؛ قال الله عزّ وجلّ: ﴿بل هم في شكّ من ذكري﴾، أي: وحيي وما أنزلتُ ﴿بل لَمَّا يذوقوا عذاب﴾، أي: لم يذوقوا عذابي، ولو ذاقوه لما قالوا هذا القول ﴿أم عندهم خزائن رحمة ربك﴾ يعني نعمة ربك، يعني مفاتيح النبوة يعطونها من شاءوا؟ ونظيره ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾، أي: نبوة ربك؟ ﴿العزیز الوهاب﴾ العزيز في ملكه، الوهاب وهب النبوة لمحمد ﷺ ﴿أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما﴾، أي: ليس لهم ذلك ﴿فليرتقوا في الأسباب﴾، أي: إن ادّعوا شيئاً من ذلك فليصعدوا في الأسباب التي توصلهم إلى السماء، فليأتوا منها بالوحي إلى من يختارون. قال مجاهد وقاتدة: أراد بالأسباب أبواب السماء وطرقها من سماء إلى سماء، وكل ما يوصلك إلى شيء من باب أو طريق فهو سببه، وهذا أمر توبيخ وتعجيز.

﴿جند ما هنالك﴾، أي: هؤلاء الذين يقولون هذا القول جند هنالك، «وما» صلة ﴿مهزوم﴾ مغلوب ﴿من الأحزاب﴾، أي: من جملة الأجناد، يعني قريشاً. قال قتادة: أخبر الله تعالى نبيه ﷺ وهو بمكة أنه سيهزم جند المشركين وقال: ﴿سيهزم الجمع ويولّون الدبر﴾ فجاء تأويلها يوم بدر، وهنالك إشارة إلى بدر ومصارعهم ﴿من الأحزاب﴾، أي: من جملة الأحزاب أي هم من القرون الماضية الذين تحزّبوا وتجمّعوا على الأنبياء بالكذب، فقُهرُوا وأهلكوا. انتهى.

(١) المصدر السابق (٤/٤٣).

قوله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قَطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ أَصْبِرْ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُمْ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْكَلِمَاتِ ﴿٢٠﴾ .

عن ابن عباس: ﴿وفرعون ذو الأوتاد﴾ قال: كانت ملاعب يلعب له تحتها. وقال مجاهد: كان يمدّ الرجل مستلقياً على الأرض ثم يشدّ يديه ورجليه ورأسه على الأرض بالأوتاد، وعن قتادة ﴿إن كلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ قال: هؤلاء كلهم قد كذبوا الرسل فحقّ عليهم العذاب ﴿وما ينظر هؤلاء إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ يعني أمة محمد ﴿ما لها من فَوَاقٍ﴾ يعني الساعة ما لها من رجوع ولا ارتداد ﴿وقالوا ربنا عَجَلْنَا قَطْنَا﴾، أي: نصيينا، حطّنا من العذاب قبل يوم القيامة، قال: قد قال ذلك أبو جهل: اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم.

وقوله تعالى: ﴿اصبر على ما يقولون وادكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب﴾ يقول تعالى: اصبر يا محمد على ما يقول قومك، فإن الرفعة والعاقبة لك، كما كانت للرسل قبلك. وعن مجاهد قوله: ﴿ذا الأيد﴾ قال: ذا القوّة في طاعة الله ﴿إنه أواب﴾ إنه رجّاع عن الذنوب. وقال قتادة: كان مطيعاً لله كثير الصلاة ﴿إننا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ قال: يسبّحن مع داود إذا سبّح بالعشيّ والإشراق ﴿والطير محشورة﴾ مسخرة ﴿كلّ له أواب﴾، أي: مطيع ﴿وشددنا ملكه﴾ قال ابن كثير^(١): أي جعلنا له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٣٠).

الملوك. وقال السدي: كان يحرسه كل يوم ليلة أربعة آلاف ﴿وآتيناه الحكمة﴾ قال: النبوة ﴿وفصل الخطاب﴾ قال مجاهد: إصابة القضاء وفهمه.

قوله عز وجل: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحَكُمَ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطُ وَاهِدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجِيكَ إِلَيَّ يَمَاجِهُهُ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخَالِطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَعَفَوْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّعَآبٍ ﴿٢٥﴾ يٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾.

عن قتادة ﴿ولا تشطط﴾، أي: لا تمل ﴿واهدنا إلى سواء الصراط﴾ إلى عدله وخيره. وعن وهب بن منبه ﴿إن هذا أخي﴾، أي: على ديني ﴿له تسع وتسعون نجة ولي نجة واحدة فقال أكفلنيها﴾ قال ابن زيد: أعطيتها، طلقها لي أنكحها وخلّ سبيلها ﴿وعزني في الخطاب﴾ قال: قهربي^(١). وعن ابن عباس قوله: ﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب﴾ قال: إن داود قال: يا رب قد أعطيت إبراهيم وإسحاق ويعقوب من الذكر ما لوددت أنك أعطيتني مثله، قال: إني ابتليتهم بما لم أبتلك به، فإن شئت أبتليتك بمثل ما ابتليتهم به وأعطيتك كما أعطيتهم قال: نعم. قال له: اعمل حتى أرى بلاءك، فكان ما شاء الله أن يكون، وطال ذلك عليه فكاد أن ينساه، فبينما هو في محرابه إذ وقعت عليه حمامة من ذهب فأراد أن يأخذها، فطارت إلى كوة المحراب فذهب ليأخذها فطارت، فاطلع من

(١) في (الأصل): «فهدني»، وهو خطأ.

الكوة فرأى امرأة تغتسل فنزل نبي الله ﷺ من المحراب فأرسل إليها فجاءته، فسألها عن زوجها وعن شأنها، فأخبرته أن زوجها غائب، فكتب إلى أمير تلك السرية أن يؤمره على السرايا ليهلك زوجها، ففعل، فكان يصاب أصحابه وينجو وربما نُصروا، وإن الله عز وجل لما رأى الذي وقع فيه داود أراد أن يستنقذه، فبينما داود ذات يوم في محرابه إذ تسور عليه الخصمان من قبل وجهه، فلما رآهما وهو يقرأ فرع وسكت وقال: لقد استضعفت في ملكي حتى أن الناس يتسورون عليّ محرابي، قالوا له: ﴿لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض﴾ ولم يكن لنا بدّ من أن نأتيك فاسمع منا. قال أحدهما: ﴿إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة﴾ أنثى ﴿ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها﴾ يريد أن يتمم بها مائة ويتركني ليس لي شيء ﴿وعزّني في الخطاب﴾ قال: إن دعوتُ ودعا كان أكثر، وإن بطشتُ وبتطش كان أشدّ مني، فذلك قوله: ﴿وعزّني في الخطاب﴾ قال له داود: أنت كنت أحوج إلى نعجتك منه ﴿لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه﴾ إلى قوله: ﴿وقليل ما هم﴾ ونسي نفسه ﷺ. فنظر الملكان أحدهما إلى الآخر، فرآه داود وظنّ أنما فتن ﴿فاستغفر ربّه وخرّ راکعاً وأناب﴾^(١). وعن عكرمة عن ابن عباس أنه قال في السجدة في ص: «ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها»^(٢). رواه البخاري وغيره.

وعن قتادة ﴿فغفرنا له ذلك﴾ الذنب ﴿وإنّ له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾، أي: حسن مصير. قال ابن كثير^(٣): أي وإنّ له يوم القيامة لقربة يقربه الله عزّ وجل بها وحسن مرجع، وهو الدرجات العالية في الجنة لنبوته وعدله التام في ملكه، كما جاء في الصحيح: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه

(١) أخرجه ابن جرير (١٤٦/٢٣) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري (ح/١٠٦٩).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣٢/٤).

يمين، الذين يقسطون في أهلهم وما أولوا^(١). وعن السدي: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ ملكه في الأرض ﴿فاحكم بين الناس بالحق﴾ يعني بالعدل والإنصاف ﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾، أي: لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيَذَّبَرُوا أَيْتِيهِ وَيَسْتَدَكِّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾.

عن ابن عباس ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا﴾ قال: لا لثواب ولا لعقاب ﴿ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾. وقال مقاتل: قال كفار قريش للمؤمنين: إنا نعطي في الآخرة من الخير مثل ما تعطون، فنزلت هذه الآية ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾؟

قال ابن كثير^(٢): ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة، قال تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الأبواب﴾، أي: ذوو العقول. قال الحسن البصري: والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل.



(١) أخرجه مسلم (ح/١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه يبلغ به النبي ﷺ.
(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٣٣).

الدرس الثامن والثلاثون بعد المائتين

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ
الطَّيِّفَتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ
بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ
وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ
مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾
وَالشَّيْطَانَ كُلَّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخِرِينَ مُقَرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ
أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لَئْلَفًا وَحُسْنَ مَنَاقِبٍ ﴿٤٠﴾ ۞

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْغِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ .

عن ابن عباس ﴿نعم العبد إنه أواب﴾ قال: الأواب المسبّح. وقال قتادة: كان مطيعاً لله كثير الصلاة. وعن قتادة ﴿إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد﴾، يعني: الخيل. قال ابن زيد: والصفن أن تقوم على ثلاث وترفع رجلاً واحدة حتى يكون طرف الحافر على الأرض. قال البغوي^(١): والجياد الخيار السراع واحدها جواد. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد الخيل السوابق.

قوله تعالى: ﴿فقال إني أحببت حبّ الخير﴾، أي: آثرت حب الخير، وأراد بالخير الخيل، وسميت الخيل خيراً لأنه معقود بنواصيها الخير: الأجر والمغرم. قال مقاتل: ﴿حبّ الخير﴾، يعني: المال، فهي الخيل التي عرضت عليه، ﴿عن ذكر ربّي﴾، يعني: عن الصلاة، وهي صلاة العصر ﴿حتى توارت بالحجاب﴾، أي: توارت الشمس بالحجاب، أي: استترت بما يحجبها عن الأبصار ﴿ردوها عليّ﴾، أي: ردوا الخيل عليّ، فردوها ﴿فطفق مسحاً بالسوق والأعناق﴾. انتهى. قال إبراهيم التيمي: كانت الخيل التي شغلت سليمان عليه الصلاة والسلام عشرين ألف فرس فعقرها. وقال الحسن: فلما عقر الخيل أبدله الله خيراً منها وأسرع، وهي الريح تجري بأمره كيف يشاء.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي وَهَبٌ لِي مَلِكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَرْنَا لَهُ

(١) انظر «معالم التنزيل» (٥١/٤).

الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءَ حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيْطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَعَاخِرِينَ مُقَرَّنِينَ
فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِن لَّمْ عِنْدَنَا لُزْفٌ وَحَسَنٌ
مَّتَابٍ ﴿٤٠﴾ .

عن السدي في قوله: ﴿ولقد فتنا سليمان﴾ قال: لقد ابتلينا ﴿وألقينا على كرسیه جسدا﴾ قال: الشيطان حين جلس على كرسیه أربعين يوماً قال: كان لسليمان مائة امرأة وكانت امرأة منهن يقال لها جرادة، وهي أبر نساته عنده وأمنهن عنده، وكان إذا أجنب أو أتى حاجة نزع خاتمه ولم يأت من عليه أحداً من الناس غيرها، فجاءته يوماً من الأيام فقالت: إن أخي بينه وبين فلان خصومة وأنا أحب أن تقضي له إذا جاءك فقال لها: نعم، ولم يفعل، فابتلي وأعطاه خاتمه ودخل المخرج، فخرج الشيطان في صورته فقال: هاتي الخاتم، فأعطته فجاء حتى جلس على مجلس سليمان، وخرج سليمان بعد، فسألها أن تعطيه خاتمه، فقالت: ألم تأخذه من قبل؟ قال: لا، وخرج من مكانه تائهاً، قال: ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوماً، فأنكر الناس أحكامه، فاجتمع قراء بني إسرائيل وعلمائهم فجاءوا حتى دخلوا على نساته فقالوا: إنا قد أنكرنا هذا، فإن كان سليمان قد ذهب عقله وأنكرنا أحكامه، قال: فبكى النساء عند ذلك قال: فأقبلوا يمشون حتى أتوه فأحذقوا به ثم نشروا التوراة فقرأوا، فطار من بين أيديهم حتى وقع على شرفته والخاتم معه، ثم طار حتى ذهب إلى البحر فوق الخاتم منه في البحر فابتلعه حوت من حيطان البحر، قال: وأقبل سليمان في حالته التي كان فيها حتى انتهى إلى صياد من صيادي البحر، وهو جائع، وقد اشتد جوعه فاستطعمه من صيدهم، قال: إني أنا سليمان، فقام إليه بعضهم فضربه بعضاً فشجّه، فجعل يغسل دمه وهو على شاطئ البحر، فلام الصيادون صاحبهم الذي ضربه فقالوا: بش ما صنعت حيث ضربته، قال: إنه زعم أنه سليمان، فأعطوه سمكتين مما قد مذر^(١) عندهم، ولم

(١) مذر، أي: فسد.

يشغله ما كان به من الضرر حتى قام إلى شطّ البحر، فشقّ بطونهما فجعل يغسل، فوجد خاتمه في بطن إحداهما فأخذه فلبسه فردّ عليه بهاؤه وملكه، وجاءت الطير حتى حامت عليه، فعرف القوم أنه سليمان، فقام القوم يعتذرون مما صنعوا فقال: ما أحمدكم على عذرکم ولا ألومکم على ما كان منکم، كان هذا الأمر لا بدّ منه. قال: فجاء حتى أتى ملكه، فأرسل إلى الشيطان فجاء به، وسخر له الريح والشياطين يومئذ ولم تكن سُخِّرَتْ له قبل ذلك، وهو قوله: ﴿وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب﴾ قال: وبعث إلى الشيطان فأتى به فأمر به فجعل في صندوق من حديد ثم أطبق عليه فأقفل عليه بقفل، وختم عليه بخاتمه، ثم أمر به فألقي في البحر، فهو فيه حتى تقوم الساعة.

وقوله تعالى: ﴿ثم أناب﴾ قال البغوي^(١): أي رجع إلى ملكه بعد أربعين يوماً، فلما رجع ﴿قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب﴾. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن عفريتاً من الجنّ تفلّت عليّ البارحة — أو كلمة نحوها — ليقطع عليّ الصلاة، فأمكنني الله تبارك وتعالى منه، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتظنّوا إليه كلّكم، فذكرت قول أخي سليمان عليه السلام: ﴿رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي﴾»^(٢). قال روح: فردّه خاسئاً. متفق عليه. وفي رواية أحمد من حديث أبي سعيد: «ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة، فمن استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل»^(٣).

وقال الضحاك في قوله: ﴿وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي﴾ فإنه دعا يوم دعا ولم يكن في ملكه الريح وكل بناء وغواص من الشياطين، فدعا ربه عند

(١) المصدر السابق (٤/٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٨٠٨)، ومسلم (ح/٥٤١).

(٣) أخرجه أحمد (٣/٨٢ — ٨٣)، وأبو داود (ح/٦٩٩)، مختصراً، وهو حديث صحيح.

توبته واستغفاره، فوهب الله له ما سأل فتمّ ملكه. وعن قتادة ﴿فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب﴾ قال: سريعة طيبة، ليست بعاصفة ولا بطيئة. وقال ابن زيد: الرخاء اللينة. وعن ابن عباس: ﴿تجري بأمره رخاء﴾ قال: يعني بالرخاء المطيعة ﴿حيث أصاب﴾ يقول: حيث أراد. انتهى عليها. وعن قتادة ﴿والشياطين كلّ بناء وغوّاص﴾ قال: يعملون له ما يشاء من محارِب وتماثيل ﴿وغوّاص﴾ يستخرجون الحلّي من البحر ﴿وأخرين مقرّنين في الأصفاد﴾ قال: مرده الشياطين في الأغلال.

وعن الحسن في قوله: ﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾ قال: المُلْك الذي أعطيناك، فأعط ما شئت وامنع ما شئت، فليس عليك تبعه ولا حساب ﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾.

قال ابن كثير^(١): لما ذكر تبارك وتعالى ما أعطى سليمان عليه الصلاة والسلام في الدنيا، نبّه تعالى على أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضاً، فقال تعالى: ﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾، أي: في الدار الآخرة.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣٩/٤).

الدرس التاسع والثلاثون بعد المائتين

﴿ وَأذْكَرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَأذْكَرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَأذْكَرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَنَابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ مُمْتَحِنَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِنِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفِكَهَمِهِمْ كَثِيرَةً وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الطُّرْفِ أَنْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَكُمْ مِنْ نَفَاذٍ ﴿٥٤﴾ هَذَا لِالطَّاغِيَةِ لَشَرِّ مَنَابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا فَيَسَّ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذوقوه حَمِيمٌ وَعَسَاقُ ﴿٥٧﴾ وَءَاخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَرْوَاحٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ بِهِمْ لِيَتُوبُوا أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ آيَاتٌ أَنْتُمْ لَا تَرْجُوا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَيَسَّ الْفَرَارُ ﴿٥٩﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦٠﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦١﴾ أَخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٢﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٣﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَحْدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٦٥﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٦﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٧﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ

يَخْصِمُونَ ﴿٦٦﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا
 مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُم سٰٓجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلٰٓئِكَةُ
 كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبٰٓلِيسَ ۖ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا بٰٓلِيسُ مَا مَنَعَكَ
 أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيدِي ۗ اسْتَكْبَرْتَ ۖ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعٰلِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن
 نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَأَخْرِجْهَا مِنْهَا فَإِنَّكَ رَٰجِمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي ۖ إِلَىٰ يَوْمِ
 الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ
 الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فِعْرَنُكَ لَأُعْوِزَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ
 الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ
 أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
 لِلْعٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمَنَّ يَوْمًا بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ، وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ .

عن قتادة ﴿واذكر عبدنا أيوب﴾ حتى بلغ ﴿بُنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾، ذهاب المال والأهل والضر الذي أصابه في جسده، قال: ابتلي سبع سنين وأشهرًا مُلْقَى على كُنَاسَةِ لَبْنِي إِسْرَائِيلَ تختلف الدواب في جسده، ففرج الله عنه وعظم له الأجر وأحسن عليه الثناء. ﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾ قال: ضرب برجله الأرض فإذا عينان تنبعان، فشرب من إحداهما واغتسل من الأخرى؛ قال وهب: فأذهب الله عنه كل ما كان به من البلاء.

وعن قتادة ﴿ووهبنا له أهله ومثلهم معهم﴾ قال: قال الحسن فأحياهم الله بأعيانهم، وزادهم مثلهم ﴿رحمة منا وذكرى لأولي الأبواب﴾. وعن مجاهد قيل له: إن شئت أحييناهم لك، وإن شئت كانوا لك في الآخرة، وتعطى مثلهم في الدين، فاختر أن يكونوا في الآخرة. ومثلهم في الدين. وعن قتادة: ﴿وخذ بيدك ضغثًا فاضرب به ولا تحنث﴾ قال: كانت امرأته قد عرضت له بأمر، وأرادها إبليس على شيء فقال: لو تكلمت بكذا وكذا — وإنما حملها عليها العجز — فحلف نبي الله: لئن شفاه الله ليجلدنّها مائة جلدة قال: فأمر بغصن فيه تسعة وتسعون قضيباً، والأصل تكملة المائة فضربها ضربة واحدة، فأبرّ نبي الله وخفف الله عن أمته، والله رحيم. قال ابن كثير^(١): وهذا من الفرج والمخرج

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٠/٤).

لمن اتقى الله تعالى وأتاب إليه، ولهذا قال جلّ وعلا: ﴿إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب﴾ .

قوله عز وجل: ﴿وَأَذْكُرْ عِبَدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّمْ عِنْدَنَا لِمَنِ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْتِنَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِنِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ الْأَرْبَابُ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَهُمْ مِنْ نَفَاذٍ ﴿٥٤﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿أولي الأيدي والأبصار﴾ يقول: أولي القوة في العبادة، ﴿والأبصار﴾ يقول: الفقه في الدين. وقال مجاهد ﴿الأيدي﴾ القوة في أمر الله ﴿والأبصار﴾ العقول. وقال السدي: ﴿الأيدي﴾ القوة في طاعة الله ﴿والأبصار﴾ البصر بعقولهم. وعن قتادة ﴿إنا أخلصناهم بخالصة ذكري الدار﴾ قال: بهذه أخلصهم الله، كانوا يدعون إلى الآخرة وإلى الله.

وقوله تعالى: ﴿هذا ذكر﴾، أي: شرف وذكر جميل يُذكرون به أبداً. وعن السدي: ﴿هذا ذكر﴾ قال: القرآن. ﴿وإن للمتقين لحسن مآب﴾ قال الحسن: منقلب ﴿جَنّاتٍ عَدْنٍ مُمْتِنَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ قال الحسن: أبواب تكلم، فتكلم: انفتحي انغلقي. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، إلاّ فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء﴾^(١). رواه مسلم ﴿متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب وعندهم قاصرات الطرف أرباب﴾ قال قتادة: قصرن طرفهن على

(١) أخرجه مسلم (ح/٢٣٤).

أزواجهنّ فلا يردن غيرهم ﴿أتراب﴾ قال: سنّ واحدة ﴿هذا ما توعدون ليوم الحساب﴾ قال ابن كثير^(١): أي هذا الذي من صفة الجنة التي وعدها لعباده المتقين التي يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار. وعن قتادة: ﴿إن هذا لرزقنا ما له من نفاد﴾، أي: ما له انقطاع.

قوله عز وجل: ﴿ هَذَا وَإِلَى اللَّطِيفِينَ لَشَرٌّ مِّمَّا بَرَّ جَهَنَّمَ يَصَلُونَهَا فَيَنْسَ الْمَهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخِرُ مِنْ شَكْلِهِمْ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَنِحٌ مِّمَّكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَيَنْسَ الْفَرَارِيُّ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مَنِّي إِلَّا بِاللَّهِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْفَقْرُ ﴿٦٦﴾ .

قال البغوي^(٢): ﴿هذا﴾، أي: الأمر هذا ﴿وإن للطاغين﴾ الكافرين ﴿لشرّ مآب﴾ مرجع ﴿جهنم يصلونها﴾ يدخلونها ﴿فبئس المهاد﴾. ﴿هذا﴾، أي: هذا العذاب ﴿فليذوقوه حميم وغساق﴾ قال الفراء: أي هذا حميم وغساق فليذوقوه، والحميم: الماء الحارّ الذي انتهى حرّه. وقال ابن عباس: الغساق الزمهرير يحرقهم ببرده كما تحرقهم النار بحرّها. وقال قتادة: هو ما يغسق، أي: يسيل من القيح والصديد من جلود أهل النار ولحومهم وفروج الزناة ﴿وآخر من شكله﴾ مثله، أي: مثل الحميم والغساق ﴿أزواج﴾، أي: أصناف آخر من العذاب.

(١) المصدر السابق (٤١/٤).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٥٧/٤).

﴿هذا فوج مقتحم معكم﴾ قال ابن عباس: ﴿هذا﴾ هو أن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع قالت الخزنة للكفار ﴿هذا﴾، يعني: الأتباع ﴿فوج﴾ جماعة ﴿مقتحم معكم﴾ النار، أي: داخلوها كما أنتم دخلتموها. قال الكلبي: إنهم يُضربون بالمقامع حتى يوقعوا أنفسهم في النار خوفاً من تلك المقامع فقالت القادة ﴿لا مرحباً بهم﴾ يعني: بالأتباع ﴿إنهم صالوا النار﴾ أي داخلوها كما صلينا ﴿قالوا﴾ فقال الأتباع للقادة ﴿بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا﴾ يقول الأتباع للقادة: أنتم بدأتُم بالكفر قبلنا وشرعتم وسنتموه لنا ﴿فبئس القرار﴾، أي: فبئس دار القرار جهنم ﴿قالوا﴾، يعني: الأتباع ﴿ربنا من قدم لنا هذا﴾، أي: شرعه وسنته لنا ﴿فزده عذاباً ضعفاً في النار﴾، أي: ضعف عليه العذاب. قال ابن مسعود: يعني حيات وأفاعي.

وقالوا وهم في النار ﴿ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم﴾ في الدنيا ﴿من الأشرار﴾، يعنون: فقراء المؤمنين. ثم ذكروا أنهم كانوا يسخرون من هؤلاء فقالوا: ﴿أتخذناهم سخرية﴾؟ قال الفراء: هذا من الاستفهام الذي معناه التوبيخ والتعجب ﴿أم زاغت﴾، أي: مالت ﴿عنهم الأبصار﴾؟ ومجاز الآية: ما لنا لا نرى هؤلاء الذين اتخذناهم سخرية لم يدخلوا معنا النار؟ أم دخلوها فزاغت عنهم أبصارنا فلم نرهم حين دخلوا؟ ﴿إن ذلك لحقّ تخاصم أهل النار﴾، أي: تخاصم أهل النار في النار لحقّ. ﴿قل﴾ يا محمد لمشركي مكة ﴿إنما أنا منذر﴾ مخوف ﴿وما من إله إلا الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار﴾. انتهى ملخصاً.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ نَبَوًّا عَظِيمٌ﴾ (٧٧) ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ (٧٨) مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَائِكَةِ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٧٩) ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٧٧) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ (٧٦) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٧٦) ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٧٧) ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (٧٧)

الْكَافِرِينَ ﴿٧٦﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ
 الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ
 رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾
 قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ
 أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ
 جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ .

قال ابن كثير^(١): ﴿قل هو نبا عظيم﴾، أي: خبر عظيم وشأن بليغ، وهو
 إرسال الله تعالى إياي إليكم ﴿أنتم عنه معرضون﴾، أي: غافلون. قال مجاهد
 وشريح القاضي والسدي في قوله عز وجل ﴿قل هو نبا عظيم﴾، يعني:
 القرآن. وقوله تعالى: ﴿ما كان لي من علم بالملا الأعلى إذ يختصمون﴾،
 أي: لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملا الأعلى في شأن آدم،
 وامتناع إبليس من السجود له ومحاجته ربه في تفضيله عليه؟ انتهى. وعن
 قتادة قوله: ﴿ما كان لي من علم بالملا الأعلى﴾ قال: هم الملائكة، كانت
 خصوصتهم في شأن آدم حين قال ربك للملائكة ﴿إني خالق بشرأ من طين﴾
 حتى بلغ ﴿ساجدين﴾ وحين قال: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ حتى بلغ
 ﴿ويسفك الدماء﴾ ففي هذا اختصم الملا الأعلى. وفي حديث معاذ الطويل
 عند الإمام أحمد قال - يعني رسول الله ﷺ - : ﴿إني قمت من الليل فصليت
 ما قدر لي، فنعست في صلاتي حتى استيقظت، فإذا أنا بربي عز وجل في
 أحسن صورة، فقال: يا محمد أتدري فيم يختصم الملا الأعلى؟ قلت:
 لا أدري يا رب؟ أعادها ثلاثاً، فرأيت وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد
 أنامله بين صدري، فتجلى لي كل شيء وعرفت، فقال: يا محمد فيم يختصم
 الملا الأعلى؟ قلت: في الكفارات. قال: وما الكفارات؟ قلت: نقل الأقدام

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٢/٤ - ٤٣).

إلى الجماعات، والجلوس في المساجد بعد الصلوات»^(١). الحديث.

قال ابن كثير^(٢): وليس هذا الاختصاص هو الاختصاص المذكور في القرآن، فإن هذا قد فُسر، وأما الاختصاص الذي في القرآن، فقد فُسر بعد هذا، وهو قوله: ﴿إِذ قَالَ رَبِّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ إلى آخر القصة. وعن ابن عمر قال: «خلق الله أربعة بيده: العرش وعدن والقلم وآدم، ثم قال لكل شيء: كن فكان»^(٣). رواه ابن جرير. وعن قتادة قال ﴿فَبِعِزَّتِكَ لِأَغْوَيْتَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال: علم عدو الله أنه ليست له عزة. وعن مجاهد ﴿فَالْحَقَّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ يقول الله: الحق مني وأقول الحق. قال ابن كثير^(٤): وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(٥).

قوله عز وجل: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾^(٨٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ^(٨٧) وَلِنَعْلَمَنَّ نَبَأُ بَعْدَ حِينٍ^(٨٨).

قال ابن زيد في قوله: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين﴾ قل: لا أسألكم على القرآن أجراً تعطوني شيئاً ﴿وما أنا من المتكلفين﴾ أتخصر

(١) أخرجه أحمد (٢٤٣/٥)، والترمذي (ح/٣٢٣٥)، وقال: «حسن صحيح، وسألت محمد بن إسماعيل — أي البخاري — عن هذا الحديث فقال: حسن صحيح»، والطبراني (١٠٩/٢٠)، وبنحوه عن ابن عباس مرفوعاً أخرجه الترمذي (ح/٣٢٣٤)، والآجري في «الشرعية» (ص ٤٩٦)، وابن أبي عاصم (٣٠٤/١)، وهو حديث صحيح، وفي الباب عن أبي أمامة، وجابر بن سمرة وثوبان، وعبد الرحمن بن عائش رضي الله عنهم.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٣/٤).

(٣) أخرجه الدارمي في الرد على بشر المريسي (ص ١٧٢)، والآجري في الشرعية (ص ٣٠٣)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٤٢٩/٢)، وأبو الشيخ في العظمة (ح/٢١٣)، والحاكم (٣١٩/٢) وصححه، ووافقه الذهبي، وهو كما قالوا.

(٤) المصدر السابق (٤٤/٤).

(٥) سورة السجدة: الآية ١٣.

وأتكلف ما لم يأمرني الله به. وعن مسروق قال: أتينا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال: يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم؛ فإن الله عز وجل قال لنبية ﷺ: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين﴾.

وقوله تعالى: ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾، يعني: القرآن ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن، قاله ابن عباس رضي الله عنهما. ﴿ولتعلمن نبأه﴾ خبره وصدقه ﴿بعد حين﴾ قال عكرمة: يعني يوم القيامة. وقال الكلبي: من بقي علم ذلك إذا ظهر أمره وعلا، ومن مات علمه بعد موته. قال الحسن بن آدم: عند الموت يأتيك الخبر اليقين.



الدرس الأربعون بعد المائتين

﴿سورة الزمر﴾

مكية، وهي خمس وسبعون آية

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر»^(١). رواه النسائي.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٤﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحٰنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُوِّرُ الْعِلْدَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى الْعِلْدِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا

(١) أخرجه أحمد (٤٣٤/٢)، والترمذي (ح/٢٩٢٠ و ٣٤٠٥)، وقال: (حسن غريب)، والنسائي في الكبرى (٤٤٤/٦)، وأيضاً في المجتبى (٤/١١٩)، والحاكم (٤٣٤/٢)، وسكت عليه هو والذهبي، قلت: وهو حديث صحيح.

هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَانزَلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أزْوَاجًا يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ * وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ آمَنَ هُوَ قَلِيلٌ ءَأَنَاءَ الْآيِلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ قُلْ يَعْبادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُمْ يَعْبُدُونَ فَأَنْقُوا رَبَّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْأُولِيَاءُ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْقَرُوا رَبَّهُمْ لَهُمْ عَرْفٌ مِنْ قَوْفِهَا عُرْفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ ﴿٢٠﴾ *

قوله عز وجل: ﴿ تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۝٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۝٤﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَ اللَّهِ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٥﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّىٰ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ۝٦﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَانزَلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقَكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمَلَكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَىٰ تُصْرَفُونَ ۝٧﴾ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّكُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٨﴾ .

عن قتادة: ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ شهادة أن لا إله إلا الله. وعن مجاهد في قوله: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ قال: قريش تقول للأوثان، ومن قبلهم تقوله للملائكة ولعيسى ابن مريم ولعزير.

وعن قتادة قوله: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ قالوا: ما نعبد هؤلاء: ﴿إلا ليقربونا﴾ إلا ليشفعوا لنا عند الله. قال ابن كثير^(١):

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٥).

وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه. وعن قتادة: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق﴾ نطفة ثم علقه ثم مضغه ثم عظاماً ثم لحماً ثم أنبت الشعر؛ أطوار الخلق في ظلمات ثلاث: المشيمة والرحم والبطن.

﴿ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأتى تصرفون﴾ قال ابن كثير، أي: هذا الذي خلق السموات والأرض وما بينهما وخلقكم وخلق آباءكم، هو الرب ﴿له الملك﴾ والمتصرف في جميع ذلك: ﴿لا إله إلا هو﴾، أي: الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ﴿فأتى تصرفون﴾ فكيف تعبدون معه غيره؟ أين يُذهب بعقولكم؟

وقوله تعالى: ﴿إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر﴾، أي: لا يحبّه ولا يأمر به ﴿وإن تشكروا يرضه لكم﴾ قال السدي: إن طيعوا يرضه لكم. وقال ابن كثير^(١)، أي: يحبّه لكم ويزدكم من فضله: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ قال السدي: لا يؤخذ أحد بذنب أحد. وقال ابن كثير، أي: لا تحمل نفس عن نفس شيئاً، بل كل مطالب بأمر نفسه. ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور﴾، أي: فلا تخفى عليه خافية.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءِإِنَّا إِلِيل سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ .

عن قتادة: ﴿وإذا مس الإنسان ضرراً﴾ قال: الوجع والبلاء والشدة ﴿دعا ربه منيباً إليه﴾ قال: مستغيثاً به ﴿ثم إذا خوله نعمة منه﴾ قال السدي: إذا أصابته عافية

(١) المصدر السابق (٤/٤٦).

أو خير ﴿نسي ما كان يدعو إليه من قبل﴾ قال ابن جرير^(١): يقول: ترك دعاءه الذي كان يدعو الله من قبل أن يكشف ما كان به من ضرر: ﴿وجعل الله أندادا﴾ يعني شركاء ﴿ليضلّ عن سبيله﴾ يقول: ليزيل من أراد أن يوحد الله ويؤمن به عن توحيده: ﴿قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار﴾، أي: من أهل النار الماكثين فيها. انتهى ملخصاً.

وعن قتادة قوله: ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجدا﴾ أوله وأوسطه وآخره. وقال ابن عباس: يعني بالقنوت الطاعة. وعن ابن عمر أنه كان إذا سئل عن القنوت قال: لا أعلم القنوت إلا قراءة القرآن وطول القيام وقرأ: ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً﴾ وعن ابن عباس في قوله: ﴿يحذر الآخرة﴾ قال: يحذر عقاب الآخرة ﴿ويرجو رحمة ربه﴾ يقول: ويرجو أن يرحمه الله فيدخله الجنة. وقال ابن كثير^(٢): يقول عز وجل: أمن هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أنداداً؟ لا يستون عند الله.

وقوله تعالى: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾، أي: هل يستوي هذا والذي قبله ممن جعل الله أنداداً ليضلّ عن سبيله؟ ﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا انْقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ

(١) انظر «جامع البيان» (٢٣/١٩٩).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٧).

الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُمْ مِّنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُمْ يَعْجَبُونَ بِمَا تَكْفُرُونَ ﴿١٦﴾ .

قال مقاتل في قوله: ﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ يعني الجنة.

قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾^(١).

وعن مجاهد قوله ﴿وأرض الله واسعة﴾ فهاجروا واعتزلوا الأوثان. وعن قتادة ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ لا والله ما هناك مكيال ولا ميزان ﴿قل إنني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾ قال البغوي^(٢): مخلصاً له التوحيد لا أشرك به شيئاً ﴿وأمرت لأن أكون أول المسلمين﴾ من هذه الأمة. ﴿قل إنني أخاف إن عصيت ربي﴾ وعبدت غيره ﴿عذاب يوم عظيم﴾ وهذا حين دعي إلى دين آباءه. ﴿قل الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾ أمر توبيخ وتهديد وقال ابن كثير^(٣): يقول تعالى: قل يا محمد - وأنت رسول الله - ﴿إنني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ وهو يوم القيامة - وهذا شرط - ومعناه: التعريض بغيره بطريق الأولى والأحرى.

وعن ابن عباس قوله: ﴿قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾ قال: هم الكفار الذين خلقهم الله للنار وخلق النار لهم، فزالت عنهم الدنيا وحرمت عليهم الجنة. وقال ابن زيد: هؤلاء أهل النار خسروا أنفسهم في الدنيا وخسروا الأهل، فلم يجدوا في النار أهلاً وقد كان لهم في الدنيا أهل ﴿ألا ذلك هو الخسران المبين﴾.

(١) سورة النحل: الآية ٩٧.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٦٤).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٨).

وقوله تعالى: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾ كقوله تعالى: ﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون﴾^(١) قال ابن كثير^(٢): أي إنما يقصّ خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده، لينزحوا عن المحارم والمآثم.

قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادَ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مَالَهُمْ هُمْ عُرْفٌ مِّنْ فَوْقِهَا عُرْفٌ مَّبْنِيَةٌ تَجْرِي مِنَ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾.

قال البغوي^(٣): ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت﴾ الأوثان: ﴿أن يعبدوها وأنابوا إلى الله﴾ رجعوا إلى عبادة الله ﴿لهم البشري﴾ في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وعن قتادة ﴿بشّر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾ وأحسنه طاعة الله ﴿أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب﴾.

﴿أفمن حقّ عليه كلمة العذاب﴾ بكفره ﴿أفأنت تنقذ من في النار﴾ قال ابن كثير^(٤): يقول تعالى: أفمن كتب الله أنه شقيّ تنقذه مما هو فيه من الضلال والهلاك؟ أي لا يهديه أحد من بعد الله، لأنه من يضلّل الله فلا هادي له ومن يهده فلا مضلّ له؛ ثم أخبر عزّ وجلّ عن عباده السعداء أن لهم غرفاً في الجنة، وهي القصور الشاهقة ﴿من فوقها غرف مبنية﴾ طباق فوق طباق، مزخرفات عاليات ﴿تجري من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد﴾. وعن علي رضي الله عنه

(١) سورة الزمر: الآية ٦١.

(٢) المصدر السابق (٤٨/٤).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٦٥/٤).

(٤) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٤٩/٤).

قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغرفاً يُرى بطونها من ظهورها، وظهورها من بطونها، فقال أعرابي: لمن هي يا رسول الله؟ قال: لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وصلّى بالليل والناس نيام»^(١). رواه أحمد وغيره.



(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (١٥٦/١) - وليس كما توهمه المؤلف رحمه الله، حيث وهم أن أحمد أخرجه في مسنده - والترمذي (ح/١٩٨٥ و ٢٥٢٩)، والبخاري (ح/٧٠٢)، وابن عدي في «الكامل» (٤/١٦١٣ - ١٦١٤) بسند ضعيف. ولكن له شاهد من حديث أبي مالك الأشعري: أخرجه أحمد (٥/٣٤٣)، وابن حبان - كما في الإحسان - (١/٣٦٣)، والبخاري في «شرح السنة» (٤/٤٠)، وشاهد آخر من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أخرجه أحمد (٢/١٧٣)، والحاكم (١/٣٢١)، وصححه ووافقه الذهبي، قلت: فيه ابن لهيعة، إلا أن حديثه لا بأس به في المتابعات والشواهد. فالحديث أقل أحوال أنه حسن، والله أعلم.

الدرس الحادي والأربعون بعد المائتين

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِءَ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّبِعِ بَوَجهَهُ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَاثْنَهُمُ الْعَذَابُ مِن حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ۞

* * *

قوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِٗٔ قَوِيلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ .

قال البغوي^(١): ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ ﴾ أدخل ذلك الماء ﴿ يَنْبِيعَ ﴾ عيوناً وركايا في الأرض. قال الشعبي: كل ماء في الأرض فمن السماء. ﴿ ثُمَّ يَخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ أحمر وأصفر وأخضر ﴿ ثُمَّ يَهِيَجُ ﴾ يبس ﴿ فَتَرَاهُ ﴾ بعد خضرته ونضرته ﴿ مُصْفَرًّا ﴾ ثم يجعله حطاماً ﴿ فَتَاتًا ﴾ متكسراً ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ . ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ وسعه لقبول الحق ﴿ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ كمن قسى الله قلبه ﴿ قَوِيلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ قال مالك بن دينار: ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب، وما غضب الله عز وجل على قوم إلا نزع متهم الرحمة.

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ . قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ انشراح صدره؟ قال: إذا دخل النور القلب انشراح وانفسح! قلنا: يا رسول الله وما علامة ذلك؟ قال: الإجابة إلى دار الخلود. والتجافي عن دار الغرور، والتأهب للموت قبل نزول الموت ﴾^(٢). رواه البغوي وغيره.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٦٥).

(٢) أخرجه البغوي في تفسيره (٤/٦٦) بسند ضعيف.

قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَالْتَمُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْتَهُمُ الْعَذَابِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاهُمُ اللَّهُ أَلْغَزَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً﴾ الآية تشبه الآية، والحرف يشبه الحرف. وقال سعيد بن جبير: يشبه بعضه بعضاً، ويصدق بعضه بعضاً، ويدل بعضه على بعض. وعن ابن عباس قوله: ﴿مثاني﴾ قال: كتاب الله مثاني، ثنى فيه الأمر مراراً. وقال قتادة: ثنى الله فيه الفرائض والقضاء والحدود. وقال ابن زيد ﴿مثاني﴾ مردد، ردّد ذكر موسى في القرآن وصالح وهود والأنبياء. وقال معمر: تلا قتادة - رحمه الله - ﴿تقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ قال: هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله عز وجل بأن تقشعرّ جلودهم، وتبكي أعينهم، وتطمئنّ قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما هذا من أهل البدع، وهذا من الشيطان.

وقوله تعالى: ﴿ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هادٍ﴾. ﴿أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب﴾، أي: شدّته يوم القيامة. قال مجاهد: يجزّ على وجهه في النار؛ ومجاز الآية^(١): أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب كمن هو

(١) لعل مراد المؤلف - رحمه الله - يقوله: «مجاز الآية» أي: ما يعبر به عن الآية، كما هي طريقة أبي عبيدة معمر بن المثنى (الإيمان لابن تيمية ص ٧٣)، واعلم - وفقني الله وإياك - أن تقسيم ألفاظ اللغة إلى حقيقة ومجاز، هو اصطلاح حادث لم يكن عليه سلف الأمة من القرون الثلاثة المفضلة، فلم يتكلم به الصحابة ولا التابعون لهم بإحسان، ولا أحد الأئمة المشهورين في العلم كمالك، والثوري، والأوزاعي، والشافعي، بل ولا تكلم =

آمن من العذاب؟ وقيل: يعني تقول الخزنة للظالمين ﴿ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾، أي: وباله. ﴿كذب الذين من قبلهم﴾ من قبل كفار مكة، كذبوا الرسل ﴿فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾، يعني: وهم آمنون غافلون عن العذاب ﴿فأذاقهم الله الخزي﴾ العذاب والهوان ﴿في الحياة الدنيا وللعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٧) ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٢٨) ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٩) ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٣٠) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ (٣١).

عن مجاهد ﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج﴾ غير ذي لبس. وقال ابن عباس: غير مختلف.

وقال ابن كثير^(١): ويقول تعالى: ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾، أي: بيتاً للناس فيه بضرب الأمثال ﴿لعلهم يتذكرون﴾ فإن المثل يقرب المعنى إلى الأذهان. وقوله جلّ وعلا: ﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج﴾، أي: هو قرآن

به أئمة اللغة والنحو كالخليل، وسيبويه، وأبي عمرو بن العلاء ونحوهم، وسائر الأئمة - رحمهم الله - لم يقل أحد منهم: إن في القرآن مجازاً، فتقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز لم يشتهر إلا في المائة الرابعة، وهو تقسيم مبتدع مخترع لم ينطق به السلف. اهـ. ملخصاً من كلام ابن تيمية - رحمه الله - وقد شن ابن تيمية - رحمه الله - الفارة على القائلين بالمجاز في القرآن، واللغة أيضاً في كتابه القيم «الإيمان» من (ص ٧٢ - ٩٩) ط / المكتب الإسلامي فراجع له لزاماً، لتنجلي عنك - بإذن الله تعالى - شبه الواردة في هذا الباب.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٥٢/٤).

بلسان عربيّ مبین لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان ووضوح وبرهان؛ وإنما جعله الله تعالى كذلك وأنزله بذلك ﴿لعلهم يتقون﴾، أي: يحذرون ما فيه من الوعيد ويعملون بما فيه من الوعد.

وعن قتادة قوله: ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون﴾ قال: هذا المشرك يتنازعه الشياطين، ﴿ورجلاً سَلَمًا لرجل﴾ قال: هو المؤمن أخلص الدعوة لله والعبادة. وقال ابن زيد: رأيت الرجل الذي فيه شركاء متشاكسون؟ كلهم سييء الخلق، ليس منهم واحد إلاّ تلقاه آخذاً بطرف من مال لاستخدامه أسوأهم والذي لا يملكه إلاّ واحد، فإنما هذا مثل ضربه الله لهؤلاء الذين يعبدون الآلهة وجعلوا لها في أعناقهم حقوقاً، فضربه الله مثلاً لهم وللذي يعبده وحده ﴿هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾. قال البغوي^(١): وهذا استفهام إنكار، أي: لا يستويان، ثم قال: ﴿الحمد لله﴾، أي: الله الحمد كلّه دون غيره من المعبودين ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ ما يصيرون إليه.

﴿إنك ميت﴾، أي: ستموت ﴿وإنهم ميتون﴾، أي: سيموتون ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ قال ابن عباس: يعني، المحقّ والمبطل والظالم والمظلوم. قال ابن كثير^(٢): وقوله تعالى: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق رضي الله عنه عند موت رسول الله ﷺ، حتى تحقق الناس موته، مع قوله عزّ وجل: ﴿وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين﴾.



(١) انظر «معالم التنزيل» (٦٨/٤).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٥٣/٤).

الدرس الثاني والأربعون بعد المائتين

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۗ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَٰئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ۗ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ ۗ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَنْقُورِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۗ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۗ وَمَا أَنْتَ بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيم_Sِكِ الْتَىٰ قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَٰئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَقُولُونَ ﴿٤٣﴾ قُلِ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ

جَمِيعًا لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ
 وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ
 إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
 أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا
 فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ
 اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا
 بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَلْتَهُ نِعْمَةٌ مِنَّا قَالَ إِنَّمَا
 أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَمَا الَّذِينَ مِنْ
 قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ
 ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ
 يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
 يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ .

قال البغوي^(١): قوله عز وجل: ﴿فمن أظلم ممن كذب على الله﴾ فزعم أن له ولداً أو شريكاً ﴿وكذب بالصدق﴾ بالقرآن ﴿إذ جاءه أليس في جهنم مثوى﴾ منزل ومقام ﴿للكافرين﴾؟ استفهام بمعنى التقرير. وعن قتادة: ﴿والذي جاء بالصدق﴾ قال: هذا رسول الله ﷺ جاء بالقرآن: ﴿وصدق به﴾ المؤمنون. وقال مجاهد: هم أهل القرآن يجيئون به يوم القيامة يقولون: هذا الذي أعطيتمونا فاتبعنا ما فيه. وعن ابن عباس: ﴿أولئك هم المتقون﴾ يقول: اتقوا الشرك. وقال ابن زيد ﴿والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون﴾ ألهم ذنوب؟ أي رب، نعم ﴿لهم فيها ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون﴾، وقرأ: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ إلى أن بلغ ﴿ومغفرة﴾ لئلا ييأس من له الذنوب أن لا يكونوا منهم ﴿ورزق كريم﴾، وقرأ: ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾ إلى آخر الآية.

قوله عز وجل: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۗ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ۗ

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٦٩).

أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْقِصَارٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَنْقُورِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ .

عن السدي: ﴿أليس الله بكاف عبده﴾؟ يقول: محمد ﷺ ﴿يخوفونك بالذين من دونه﴾ يقول: بالهتَم التي كانوا يعبدون. وعن قتادة ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنَّ الله﴾ حتى بلغ ﴿كاشفات ضره﴾ يعني الأصنام ﴿أو أرادني برحمة هل هنَّ ممسكات رحمته﴾؟ قال ابن كثير^(١): كانوا يعترفون أن الله عز وجل هو الخالق للأشياء كلها، ومع هذا يعبدون معه غيره. وعن ابن عباس مرفوعاً: «من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله عز وجل أوثق منه بما في يديه، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله عز وجل»^(٢). وعن مجاهد: ﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ على ناحيتكم. وقال ابن كثير^(٣): أي على طريقكم؛ وهذا تهديد ووعيد ﴿إني عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ أَسْتَكَدَّ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تُمُتْ فِي مَنَامِهَا

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٥٤/٤).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم - كما عراه له ابن كثير في تفسيره - (٥٤/٤)، وأبو نعيم في

«الحلية» (٢١٨/٣ - ٢١٩)، والقضاعي (ح/٣٦٧ و ٣٦٨) بسند ضعيف جداً.

(٣) المصدر السابق (٥٤/٤).

فِيْمَسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْآخِرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٧﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلُوا كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٩﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٥٠﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٥١﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَبَدَأَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥٣﴾ .

عن سعيد بن جبیر في قوله: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها﴾ قال: يجمع بين أرواح الأحياء وأرواح الأموات، فيتعارف منها ما شاء الله أن يتعارف ﴿فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى﴾ إلى أجسادها. قال ابن زيد: فالنوم وفاة ﴿فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى﴾ قال السدي: إلى بقية آجالها. وعن قتادة: ﴿أم اتخذوا من دون الله شفعاء﴾ الآلهة: ﴿قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً﴾ الشفاعة. وعن مجاهد قوله: ﴿قل لله الشفاعة جميعاً﴾ قال: لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه.

وعن قتادة قوله: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمازت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾: أي كفرت قلوبهم واستكبرت: ﴿وإذا ذكر الذين من دونه﴾ الآلهة ﴿إذا هم يستبشرون﴾ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته: ﴿اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات

والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون. اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم^(١). رواه مسلم وغيره.

وقوله تعالى: ﴿ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ قال مقاتل: ظهر لهم حين بعثوا ما لم يحتسبوا في الدنيا أنه نازل بهم في الآخرة. قال السدي: ظنوا أنها حسنات فبدت لهم سيئات. قال البغوي^(٢): والمعنى أنهم كانوا يتقربون إلى الله بعبادة الأصنام، فلما عوقبوا عليها بدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴿وبدا لهم سيئات ما كسبوا﴾، أي: مساوئ أعمالهم من الشرك والظلم بأولياء الله ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾.

قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَتُولَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم﴾، أي: على خبر عندي ﴿بل هي فتنة﴾، أي: بلاء ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾. وعن السدي: ﴿قد قالها الذين من قبلهم﴾ الأمم الماضية ﴿والذين ظلموا من هؤلاء﴾ قال: من أمة محمد ﷺ.

(١) أخرجه مسلم (ح/٧٧٠).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٧١).

وقوله تعالى: ﴿أَو لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ قال ابن جرير^(١): يقول تعالى ذكره: أَوَلَمْ يَعْلَمْ — يا محمد — هؤلاء الذين كشفنا ضرّهم فقالوا: إنما أوتيناها على علم منا، أن الشدة والرخاء والسعة والضيقة والبلاء بيد الله دون كلّ من سواه؟ ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فيوسعه عليه ﴿وَيَقْدِرُ﴾ ذلك على من يشاء من عباده فيضيقه، وأن ذلك من حجج الله على عباده ليعتبروا به ويتذكروا ويعلموا أن الرغبة إليه والرغبة دون الآلهة والأنداد؟ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.



(١) انظر «جامع البيان» (١٣/٢٤).

الدرس الثالث والأربعون بعد المائتين

﴿ قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ٥٣ ﴿ وَأَيُّبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ ٥٤ ﴿ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ ٥٥ ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴾ ٥٦ ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ ٥٧ ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُوتُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ٥٨ ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَءَايُتِي فَكذَّبَتْ بِهَا وَاسْتَكْبَرَتْ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ ٥٩ ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ ٦٠ ﴿ وَيُنجِي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَقَازِنِهِمْ لَا يَمْسُهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ٦١ ﴿ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ ٦٢ ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ٦٣ ﴿ قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَ بِعِبَادِهِ لِيَأْتِيَ الْجَاهِلُونَ ﴾ ٦٤ ﴿ وَلَقَدْ أوحى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ٦٥ ﴿ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ ٦٦ ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَتَّىٰ قَدَرَهُ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِّيَمِينِهِ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ٦٧ ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي

السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ
يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالنَّبِيِّينَ
وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرَّارًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا
فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ
رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى
الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى
الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُرَّارًا حَتَّىٰ إِذَا
جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ رَبِّكُمْ طَبَعْتُمْ فَادْخُلُوهَا
خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ
الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيَةً مِنْ حَوْلِ
الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴿٥٤﴾ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لِمِنَ السَّادِحِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ نَكَأٰتِي فَكذَّبْت بِهَا وَأَسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ .

عن ابن عباس: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ وذلك أن أهل مكة قالوا: يزعم محمد أنه من عبد الأوثان ودعا مع الله إلهاً آخر، وقتل النفس التي حرم الله لم يغفر له، فكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا الآلهة وقتلنا النفس التي حرم الله ونحن أهل الشرك؟ فأنزل الله ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ يقول: لا تياسوا من رحمتي ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾، قال: ﴿وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له﴾ وإنما يعاتب الله أولي الألباب، وإنما الحلال والحرام لأهل الإيمان، فإياهم عاتب وإياهم أمر إن أسرف أحدهم على نفسه أن لا يقنط من رحمة الله، وأن ينيب ولا

يطلبىء بالتوبة من ذلك الإسراف والذنب الذي عمله؛ وقد ذكر الله في سورة آل عمران أن المؤمنين حين سألوا الله المغفرة فقالوا ﴿ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا﴾ فينبغي أن يعلم أنهم قد كانوا يصيبون الإسراف فأمرهم بالتوبة من إسرافهم^(١).

وعن القرظي أنه قال في هذه الآية ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ قال: هي للناس أجمعين. وعن قتادة قوله ﴿وأنبيوا إلى ربكم﴾، أي: أقبلوا إلى ربكم. وقال ابن زيد: الإنابة الرجوع إلى الطاعة والنزوع عما كانوا عليه، ألا تراه يقول: ﴿مبين إليه واتقوه﴾ وعن السدي ﴿وأتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾ يقول: ما أمرتم به في الكتاب ﴿من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله﴾ قال: تركت من أمر الله ﴿وإن كنت لمن الساخرين﴾ يقول: من المستهزئين. قال قتادة: فلم يكفه أن ضيغ طاعة الله حتى جعل يسخر بأهل طاعة الله، هذا قول صنف منهم ﴿أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين﴾ هذا قول صنف آخر ﴿أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرامة﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿فأكون من المحسنين﴾ قال: هذا صنف آخر؛ يقول الله ردًّا لقولهم ﴿بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم﴾ قال: بأعمالهم، والآخرين ﴿يحملون أوزارهم يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون﴾.

قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٧﴾
لَهُمْ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ

(١) أخرجه ابن جرير (١٤/٢٤) بسند ضعيف.

الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَغْوَى اللَّهُ تَأْمُرُونَني أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ .

قال البغوي: ﴿الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل﴾، أي: الأشياء كلها موكولة إليه، فهو القائم بحفظها ﴿له مقاليد السموات والأرض﴾، أي: مفاتيح خزائن السموات والأرض. ﴿والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون﴾. ﴿قل أغوي الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾ قال مقاتل: وذلك أن كفار قريش دعوه إلى دين آبائهم ﴿ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك﴾، أي: الذي عملته قبل الشرك، وهذا خطاب مع رسول الله ﷺ والمراد من غيره، وقيل: هذا أدب من الله لنبية وتهديد لغيره، لأن الله تعالى عصمه من الشرك ﴿ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين﴾ لإنعامه عليك ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ ما عظموه حق عظمتهم حين أشركوا به غيره. ثم أخبر عن عظمتهم فقال ﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾. انتهى ملخصاً.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله تعالى الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك؟ أين ملوك الأرض؟»^(١) متفق عليه.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «جاء خبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على إصبع، والأرضين

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٨١٢)، ومسلم (ح/٢٧٨٧).

على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾^(١) متفق عليه.

قوله عز وجل: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءُ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ينفخ في الصور ثلاث نفخات: الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين تبارك وتعالى، يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول: انفخ نفخة الفزع، فتفزع أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله». قال أبو هريرة: يا رسول الله فمن استثنى حين يقول: ﴿فنفزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾؟ قال: «أولئك الشهداء، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون، وقاهم الله فزع ذلك اليوم وأمنهم؛ ثم يأمر الله إسرافيل بنفخة الصعق، فيصعق أهل السموات والأرض إلا من شاء الله فإذا هم خامدون؛ ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار تبارك وتعالى فيقول: يا رب، قد مات أهل السموات والأرض إلا من شئت، فيقول له — وهو أعلم — : فمن بقي؟ فيقول: بقيت أنت الحي الذي لا تموت، وبقي حملة عرشك، وبقي جبريل وميكائيل. فيقول الله: فليمت جبريل وميكائيل. فيقول: يا رب يموت جبريل وميكائيل! فيقول الله له: اسكت إنني كتبت الموت على من كان تحت عرشي؛ ثم يأتي ملك الموت فيقول: يا رب قد مات جبريل وميكائيل، فيقول الله — وهو أعلم — : فمن بقي؟ فيقول: بقيت أنت الحي

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٨١١)، ومسلم (ح/٢٧٨٦).

الذي لا تموت، وبقي حملة عرشك وبقيت أنا. فيقول الله: فليمت حملة العرش، فيموتون، ويأمر الله العرش فيقبض الصور فيقول: أي رب قد مات حملة عرشك. فيقول — وهو أعلم — : فمن بقي؟ فيقول: بقيت أنت الحي الذي لا تموت وبقيت أنا. فيقول الله: أنت من خلقي، خلقتك لما رأيت، فمت لا تحيي. فيموت^(١). رواه ابن جرير.

وعن قتادة ﴿ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾ قال نبي الله: «بين النفختين أربعون»^(٢) قال: قال أصحابه: فما سألناه عن ذلك؛ ولا زادنا على ذلك؛ غير أنهم كانوا يرون من رأيهم أنها أربعون سنة. وذكر لنا أنه يبعث في ذلك الأربعون مطر يقال له: مطر الحياة، حتى تطيب الأرض وتهترت وتثبت أجساد الناس نبات البقل، ثم ينفخ فيه الثانية فإذا هم قيام ينظرون. وعن الحسن قال: قال النبي ﷺ: «كأنني أنفض رأسي من التراب أول خارج، فألتفت فلا أرى أحداً إلا موسى متعلقاً بالعرش، فلا أدري أضمن استثنى الله لا تصيبه النفخة لعلمه الصعقة أو بُعث قبلي»^(٣).

وعن قتادة قوله: ﴿وأشرق الأرض بنور ربها﴾ قال: فما يتضارون في نوره إلا كما يتضارون في الشمس في اليوم الصحو الذي لا دخن فيه ﴿ووضع الكتاب﴾ قال: كتاب أعمالهم ﴿وجيء بالنبيين﴾ قال ابن كثير: قال ابن عباس: يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات الله إليهم ﴿والشهداء﴾، أي: الشهداء من الملائكة، الحفظة على أعمال العباد من خير وشر ﴿وقضي بينهم بالحق﴾، أي: بالعدل ﴿وهم لا يظلمون ووقيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون﴾ قال عطاء: يريد: أني عالم بأفعالهم لا أحتاج إلى كاتب ولا إلى شاهد.

(١) سبق تخريجه، وسنده ضعيف.

(٢) روي مرفوعاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو في الصحيحين، وقد سبق تخريجه.

(٣) أخرجه ابن جرير (٣١/٢٤) عن الحسن مرسلًا.

قوله عز وجل: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٦﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٧﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُهُ مِنَ الْغَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِقِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾

عن قتادة قوله: ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً﴾ قال: جماعات حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها﴾ قال ابن كثير^(١): أي بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعاً ﴿وقال لهم خزنتها﴾ - على وجه التفریع والتوبيخ - ﴿ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين﴾، أي: ولكن كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشقوة ﴿قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مَثْوًى المتكبرين﴾.

﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً﴾ في الصحيحين من حديث جرير قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على أضواء كوكب دري، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون،

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٦٥).

أمشاطهم الذهب وورشحهم المسك ومجامرهم الإلوة وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء»^(١).

وقوله تعالى: ﴿حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾ عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول شفيع، وأنا أول من يقرع باب الجنة»^(٢). رواه مسلم. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله: ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً﴾ حتى إذا انتهوا إلى بابها إذا هم بشجرة يخرج من أصلها عينان، فعمدوا إلى إحداهما فشربوا منها كأنما أمروا بها، فخرج ما في بطونهم من قدر أو أذى أو قذى، ثم عمدوا إلى الأخرى فتوضأوا منها كأنما أمروا بها، فجرت عليهم نضرة النعيم، فلن تشعث رؤوسهم بعدها أبداً ولن تبلى ثيابهم بعدها، ثم دخلوا الجنة فتلقتهم الولدان كأنهم اللؤلؤ المكنون فيقولون: أبشر، أعد الله لك كذا، وأعد لك كذا وكذا، ثم ينظر إلى تأسيس بنيانه: جندل اللؤلؤ الأحمر والأصفر والأخضر يتلألأ كأنه البرق، فلولا أن الله قضى أن لا يذهب بصره لذهب، ثم يأتي بعضهم إلى بعض أزواجه فيقول: أبشري، قد قدم فلان ابن فلان، فيسميه باسمه واسم أبيه، فتقول: أنت رأيت، أنت رأيت؟! فيستخفها الفرح حتى تقوم فتجلس على أسكفة بابها فيدخل فيتكى على سريره ويقرأ هذه الآية ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ وعن مجاهد قوله: ﴿طبتم﴾ قال: كنتم طيبين في طاعة الله.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿وأورثنا الأرض﴾ قال: أرض الجنة وقرأ: ﴿أن

(١) ليس الحديث في الصحيحين من حديث جرير، إنما هو من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقد سبق تخريجه، فلعله وهم من المؤلف - رحمه الله - أو سبق قلم من الناسخ، أو أن المؤلف تابع ابن كثير على ذلك كما في تفسيره (٦٦/٤) حيث قال: «وأخرجه من حديث جرير!!».

(٢) أخرجه مسلم (١/١٨٨).

الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴿ وعن السدي ﴿نتبوا من الجنة حيث نشاء﴾ نزل
منها حيث نشاء. وعن قتادة ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش يستبحون
بحمد ربهم وقضي بينهم﴾، أي: بين الخلائق ﴿بالحق وقيل الحمد لله رب
العالمين﴾ قال: فتح أول الخلق بالحمد فقال: ﴿الحمد لله الذي خلق السموات
والأرض﴾ وختم بالحمد فقال ﴿وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب
العالمين﴾.



الدرس الرابع والأربعون بعد المائتين

﴿سورة المؤمن﴾

مكية، وهي خمسة وثمانون آية

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن مثل القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد لأهله منزلاً فمرّ بأثر غيث، فبينما هو يسير فيه ويتعجب منه إذ هبط على روضات دمثات فقال: عجبت من الغيث الأول فهذا أعجب منه وأعجب، فقيل له: إن مثل الغيث الأول مثل عظم القرآن، وإن مثل هؤلاء الروضات الدمثات مثل آل حم في القرآن»^(١). وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لكل شيء لباب، وللباب القرآن الحواميم»^(٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حَمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ
التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٣﴾ مَا يُجَدِلُ فِي
آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْيَلْدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ
نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا

(١) أخرجه حميد بن زنجويه كما عناه له ابن كثير في تفسيره (٦٩/٤)، ومن طريقه البغوي في تفسيره (٧٩/٤).

(٢) أخرجه البغوي في تفسيره (٧٩/٤) بسند ضعيف.

بِالْبَطْلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتَيْنَاكَ أَتَيْنَا وَأَحْيَيْتَنَا أَتَيْتَنَا فَاَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ، تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُم ءَايَاتِهِ، وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَصْفَادِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا سَفِيحٌ يَطَّاعٌ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ * أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا

فِي الْأَرْضِ فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ
الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهَهُ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرَكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْأَلْبَانِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾ .

عن أبي إسحاق قال: جاء رجل إلى عمر فقال: إني قتلت فهل لي من توبة؟ قال: نعم، اعمل لا تيأس. ثم قرأ: ﴿حَمَّ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب﴾. وعن ابن عباس قوله: ﴿ذِي الطول﴾ يقول: ذي السعة والغنى. وقال ثابت البناني: كنت مع مصعب بن الزبير في سواد الكوفة، فدخلت حائطاً أصلي ركعتين، فافتتحت حم المؤمن، حتى بلغت ﴿لا إله إلا هو إليه المصير﴾ فإذا رجل خلفي على بغلة شهباء، عليه مقطعات يمنية فقال: إذا قلت ﴿غافر الذنب﴾ فقل: يا غافر الذنب اغفر لي ذنبي، وإذا قلت ﴿قابل التوب﴾ فقل: يا قابل التوب اقبل توبتي، وإذا قلت ﴿شديد العقاب﴾ فقل: يا شديد العقاب لا تعاقبني، قال: فالتفت فلم أر أحداً.

وقوله تعالى: ﴿ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد﴾ قال قتادة: أسفارهم فيها ومجيئهم وذهابهم ﴿كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم﴾ قال: الكفار ﴿وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه﴾ ليقتلوه ﴿وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب﴾ قال: شديد والله، ﴿وكذلك حقت كلمة ربك﴾ .

قال البغوي^(١): يعني كما حقت كلمة العذاب على الأمم المكذبة، حقت على الذين كفروا من قومك ﴿أنهم أصحاب النار﴾.

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾.

قال البغوي^(٢): قوله عز وجل: ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله﴾ حملة العرش والطائفون به وهم الكروبيون، وهم سادة الملائكة. قال ابن عباس: حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى أسفل قدميه مسيرة خمسمائة عام، ويروي أن أقدامهم في تخوم الأرض، والأرضون والسماوات إلى حُجُزهم، وهم يقولون: سبحان ذي العزة والجبروت، سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان الحي الذي لا يموت، سُبُوحٌ قُدُوسٌ، رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ. قال وروى محمد بن المنكدر عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش، ما بين شحمة أذنيه إلى عاتقيه مسيرة سبعمائة عام»^(٣).

وعن قتادة: ﴿فاغفر للذين تابوا من الشرك واتبعوا سبيلك﴾، أي: طاعتك

(١) انظر «معالم التنزيل» (٨٠/٤).

(٢) المصدر السابق (٨٠/٤).

(٣) أخرجه أبو داود (ح/٤٧٢٧)، وأبو الشيخ في «العظمة» (ح/٤٧٦)، والطبراني في الأوسط كما في «مجمع البحرين» (ح/٦٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/١٤٢)، وهو حديث صحيح.

﴿وقهم عذاب الجحيم﴾ قال مطرف: وجدنا: أغشّ عباد الله لعباد الله الشياطين، ووجدنا: أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَنتَ إِنَّا نَشْكِرُ وَأَحْيَيْتَنَا أَنتَ إِنَّا نَحْيِي وَأَمَاتَنَا أَنتَ إِنَّا نَمُوتُ وَأَحْيَيْتَنَا أَنتَ إِنَّا نَحْيِي وَأَمَاتَنَا أَنتَ إِنَّا نَمُوتُ وَإِن يَشْرِكْ بِهِ تَأْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١١﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون﴾ يقول: لمقت الله أهل الضلالة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا فتركوه وأبوا أن يقبلوا، أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة. ﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل﴾؟ قال قتادة: كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم فأحياهم الله في الدنيا، ثم أماتهم الموتة التي لا بدّ منها، ثم أحياهم للبعث يوم القيامة، فهما حياتان وموتتان.

﴿فهل إلى خروج من سبيل﴾ قال: فهل إلى كربة إلى الدنيا؟ قال البغوي^(١): أي من خروج من النار فنصلح أعمالنا ونعمل بطاعتك؟ قال الله تعالى: ﴿ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم﴾ وفيه متروك استغني عنه لدلالة الظاهر عليه، مجازه: فأجيبوا: أن لا سبيل إلى ذلك.

قوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٢﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٣﴾﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٨٢).

عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ
 الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ
 إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ
 كَظِيمِينَ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ حَايَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي
 الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ
 اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ .

عن السدي: ﴿إِلَّا مِنْ نَبِيٍّ﴾ قال: من يُقبل إلى طاعة الله .

وقوله تعالى: ﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ قال ابن كثير^(١): يقول تعالى
 مخبراً عن عظمته وكبريائه وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته
 كالسقف لها، كما قال تعالى: ﴿مَنْ اللَّهُ ذِي الْمَعَارِجِ تَعْرَجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي
 يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾^(٢) . وعن قتادة قوله: ﴿يَلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾
 قال: الوحي ﴿مَنْ أَمْرُهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ قال: يوم تلتقي
 فيه أهل السماء وأهل الأرض والخالق والمخلوق .

وقال ابن زيد في قوله: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ قال: يوم القيامة، وقرأ
 ﴿أَزَفَتِ الْآزِفَةُ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾^(٣) .

﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ قال قتادة: قد وقعت القلوب في الحناجر من
 المخافة، فلا هي تخرج ولا تعود إلى أمكتها . وعن السدي: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى
 الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينَ﴾ قال: شخصت أفئدتهم عن أمكتها، فنشبت في حلوقهم فلم
 تخرج من أجوافهم فيموتوا، ولم ترجع إلى أمكتها فتستقر . ﴿مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ
 حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعَ﴾ قال: من يعنيه أمرهم ولا شفيع لهم .

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٧٣/٤) .

(٢) سورة المعارج: الآية ٤ .

(٣) سورة النجم: الآية ٥٨ .

وقال ابن كثير: وقوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾^(١)، أي: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير. وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ إذا نظرت إليها - يريد الخيانة - أم لا ﴿وما تخفي الصدور﴾ إذا قدرت عليها - أترني بها - أم لا.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾، أي: بالعدل ﴿والذين يدعون من دونه﴾ من الأصنام والأوثان والأنداد ﴿لا يقضون بشيء﴾، أي: لا يملكون شيئاً ولا يحكمون بشيء ﴿إن الله هو السميع البصير﴾.

قوله عز وجل: ﴿﴿ أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُدُونِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾.

عن قتادة: ﴿وما كان لهم من الله من واق﴾ يقيهم ولا ينفعهم.



الدرس الخامس والأربعون بعد المائتين

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَقَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُؤَلَوْنَ مَدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لِئَمْ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَهَارِلْتُمْ فِي سَكِّهِ وَمَا جَاءَكُمْ بِهِ حَقٌّ إِذَا هَلَكْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ

مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ
 كِبْرُ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ
 مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَمْنُنْ أَبْنِي لِي صَرَخًا لَعَلَّيْ أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾
 أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنٌ
 لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾
 وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَنْقُورُ أَتَيْعُونَ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَنْقُورُ إِنَّمَا
 هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْفِكْرِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً
 فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
 فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ * وَيَنْقُورُ مَا لِي
 أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَىٰ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ
 بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيمِ الْفَقْرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا
 تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ
 الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوِضُ أَمْرِي
 إِلَى اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَلَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ
 بِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ
 السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ
 الضُّعْفَتُو لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا
 نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدَّ
 حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ
 عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا

بَلَىٰ قَالُوا فَاذْعُوبُوا وَمَا دُعُوتُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ
مَعذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ
وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾
فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ
وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَقُرُونَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ .

عن قتادة: ﴿إني أخاف أن يبدل دينكم﴾، أي: أمركم الذي أنتم عليه ﴿أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾ والفساد عنده أن يعمل بطاعة الله.

قوله عز وجل: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ: أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٢٨﴾ يَقَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَضُرُّنَا مِنْ بَاسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْرَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُؤَلَّفُونَ مٰلَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِيٍّ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ

مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٢٤﴾ الَّذِينَ
يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كِبْرًا مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ
ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٢٥﴾ .

عن السدي: ﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون﴾ قال: هو ابن عم فرعون: ﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم﴾؟ قال ابن إسحاق: بعصاه ويده. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه فأخذه بمنكبيه ودفعه عن النبي ﷺ ثم قال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟^(١) رواه البخاري.

وقوله: ﴿إني أخاف عليكم يوم التناد﴾، أي: يوم القيامة. وفي حديث الصور: «فتذهل المراضع وتضع الحوامل وتشيب الولدان، وتطير الشياطين هاربة حتى تأتي الأقطار فتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع، ويولي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً، وهو الذي يقول الله: ﴿يوم التناد يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم﴾»^(٢).

وعن السدي: ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل﴾ قال موسى: ﴿من قبل﴾ بالبينات. قال البغوي^(٣): يعني قوله: ﴿أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾^(٤) ﴿فما زلتم في شك مما جاءكم به﴾ قال ابن عباس: من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿حتى إذا هلك﴾ مات ﴿قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً كذلك﴾

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٨١٥).

(٢) سبق تخريجه، وسنده ضعيف.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/٨٦).

(٤) سورة يوسف: الآية ٣٩.

يضلّ الله من هو مسرف ﴿ مشرك ﴾ مرتاب ﴿ شاك ﴾. ﴿ الذين يجادلون في آيات الله ﴾ قال الزجاج: هذا تفسير للمسرف المرتاب، يعني: ﴿ الذين يجادلون في آيات الله ﴾، أي: في إبطالها بالكذب: ﴿ بغير سلطان ﴾ حجة: ﴿ أتاهم ﴾ من الله ﴿ كبر مقتاً ﴾، أي: كبر ذلك الجدل مقتاً ﴿ عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ قال قتادة: آية الجبابة القتل بغير حق.

قوله عز وجل: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَمُنُّ ابْنِي لِي صَرَخًا لَعَلِّي آتِلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ .

عن قتادة: ﴿ وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً ﴾ وكان أول من بنى بهذا الأجر وطبخه، ﴿ لعلّي أبلغ الأسباب أسباب السموات ﴾، أي: أبواب السموات ﴿ فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً ﴾ قال ابن جرير^(١): يقول: وإني لأظنّ موسى كاذباً فيما يقول ويدعي من أن له في السماء ربّاً أرسله إلينا. ﴿ وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصدّ عن السبيل ﴾ قال قتادة: فعل ذلك به: زين له سوء عمله، وصدّ عن السبيل ﴿ وما كيد فرعون إلا في تباب ﴾، أي: في ضلال وخسار.

قوله عز وجل: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَنْقُومِ آتِيْعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرِّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَنْقُومِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴿ وَيَنْقُومِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَىٰ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ

(١) انظر «جامع البيان» (٦٤/٢٤).

الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤١﴾ لَا جَرَمَ أَنْتُمْ تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكُمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي
 الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٢﴾
 فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفِوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ
 بِالْعِبَادِ ﴿٤٣﴾ فَوَقَّهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ
 الْعَذَابِ ﴿٤٤﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ
 فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ .

عن قتادة: ﴿وإن الآخرة هي دار القرار﴾ استقرت الجنة بأهلها واستقرت النار بأهلها. ﴿من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها، ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾ قال قتادة: لا والله ما هناك مكيال ولا ميزان. وعن مجاهد قوله ﴿ما لي أدعوكم إلى النجاة﴾ قال: الإيمان بالله ﴿وتدعونني إلى النار﴾؟ قال ابن زيد: هذا مؤمن آل فرعون يدعونه إلى دينهم والإقامة معهم ﴿تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار﴾. ﴿لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة﴾ قال قتادة، أي: لا ينفع ولا يضر: ﴿وأن المسرفين هم أصحاب النار﴾، أي: المشركون. وقال ابن وهب: قال ابن زيد في قوله: ﴿فستذكرون ما أقول لكم﴾ فقلت له: أو ذلك في الآخرة؟ قال: نعم. وعن السدي: ﴿وأفوض أمري إلى الله﴾ قال: أجعل أمري إلى الله ﴿إن الله بصير العباد﴾. وعن قتادة: ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا﴾ قال: كان قبطياً من قوم فرعون، فنجى مع موسى ﴿وحاق بال فرعون سوء العذاب﴾ قال السدي: قوم فرعون: ﴿النار يعرضون عليها غدوًّا وعشيًّا﴾ قال: بلغني أن أرواح قوم فرعون في أجواف طير سود، تعرض على النار غدوًّا وعشيًّا حتى تقوم الساعة ﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدَّ العذاب﴾ قال ابن عباس: يريد آلوان العذاب، غير الذي كانوا يعدَّبون به منذ أغرقوا.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضَّعِيفَتَوُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِذْ قَالَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ .

قال البغوي^(١): ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ﴾، أي: اذكر يا محمد لقومك، إذ يختصمون يعني أهل النار في النار ﴿فَيَقُولُ الضَّعِيفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ في الدنيا ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ قال ابن كثير^(٢): أي قسطاً تتحملونه عنا ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ إن الله قد حكم بين العباد، أي: قسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا.

قال البغوي^(٣): ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ﴾ حين اشتد عليهم العذاب ﴿لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾. ﴿قَالُوا﴾ يعني خزنة جهنم لهم ﴿أَوْ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا﴾ أنتم إذا ربكم، أي: إنا لا ندعو لكم، لأنهم علموا أنه لا يخفف عنهم العذاب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾، أي: يبطل ويضل ولا ينفعهم.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾

(١) انظر «معالم التنزيل» (٨٨/٤٠).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٨٣/٤).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٨٨/٤٠).

هُدًى وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥١﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ
لِدُنْيِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٢﴾ .

عن السدي قول الله: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾ قد كانت الأنبياء المؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون، وذلك أن تلك الأمة التي تفعل ذلك بالأنبياء والمؤمنين لا تذهب حتى يبعث الله قوماً فينتصر بهم لأولئك الذين قتلوهم. وعن قتادة: ﴿ويوم يقوم الأشهاد﴾ من ملائكة الله وأنبيائه والمؤمنين به.

وقوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الهدى﴾ قال مقاتل: الهدى من الضلالة يعني التوراة: ﴿وأورثنا بني إسرائيل الكتاب هدى وذكرى لأولي الأبواب﴾، أي: العقول السليمة: ﴿فاصبر﴾ يا محمد على أذى قومك ﴿إن وعد الله حق﴾ وسينصرك عليهم ويظهر دينه ﴿واستغفر لذنبك﴾ قال البغوي^(١): هذا تعبد من الله، ليزيده به درجة وليصير سنة لمن بعده ﴿وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار﴾.



(١) المصدر السابق (٨٩/٤٠).

الدرس السادس والأربعون بعد المائتين

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِيَلْبِغِيهِ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ لَيْلًا لِتَسْكُنُوا فِيهَا وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۗ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنِي تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا يُبَايِعْتُمُ اللَّهَ يَحْمَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ۗ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴿ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ

يُنَوِّفُ مِنْ قَبْلُ وَيَلْبِغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ بَصُرُونَا ﴿٧٩﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ إِذِ الْأَعْتَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٨١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٨٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ آيَةٌ مَا كُنتُمْ تَشْرِكُونَ ﴿٨٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٨٤﴾ ذَلِكَ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٨٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبَلَّسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٨٦﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تَتَوَقَّعُكَ فَإِنَّمَا يَرْجِعُونَ ﴿٨٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٨٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٨٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٩١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٩٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٩٥﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسَوِّءُ قَلِيلًا مَّا تَنذَرْتُمْ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم﴾ لم يأتيهم بذلك سلطان ﴿إن في صدورهم إلا كبر﴾ قال ابن عباس ما يحملهم على تكذيبك إلا ما في صدورهم من الكبر والعظمة ﴿ما هم ببالغيه﴾ قال مجاهد ﴿ما هم ببالغيه﴾ مقتضى ذلك الكبر، لأن الله عز وجل مُذَلِّمٌ ﴿فاستعد بالله إنه هو السميع البصير﴾ .

وقوله تعالى: ﴿لخلق السموات والأرض﴾ مع عظمهما ﴿أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ قال البغوي^(١): حيث لا يستدلون بذلك على توحيد خالقها؛ وقال ابن كثير^(٢): يقول تعالى منبهاً على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة، وأن ذلك سهل عليه يسير لديه، بأنه خلق السموات والأرض وخلقها أكبر من خلق الناس بدءاً وإعادة، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق

(١) انظر «معالم التنزيل» (٨٩/٤).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٨٥/٤).

الأولى والأخرى، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِبْ عَنْهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمَسِيءَ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾، أي: ما أقل ما يتذكر كثير من الناس. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ﴾، أي: لكائنة وواقعة ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١٧﴾ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانِي تُوَفَّقُونَ ﴿١٨﴾ كَذَلِكَ يُؤَفِّكُ الَّذِينَ كَانُوا يَتَّيَبَتِ اللَّهُ بِجَحْدُونَ ﴿١٩﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ مِنْ قَبْلِ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلِعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢٤﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ يقول: وحدوني أغفر

لكم. وعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء هو العبادة، وقرأ رسول الله ﷺ: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي﴾»^(١). رواه ابن جرير. وعن السدي: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي﴾ قال: عن دعائي ﴿سيدخلون جهنم داخرين﴾ قال: صاغرين.

وقوله تعالى: ﴿ذلکم الله ربکم خالق کل شیء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون﴾، أي: فكيف تعبدون معه غيره؟ وعن ابن عباس قال: من قال لا إله إلا الله، فليقل على إثرها: الحمد لله رب العالمين، فذلك قوله: ﴿فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين﴾.

وقوله تعالى: ﴿قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البيّنات من ربّي وأمرت أن أسلم لربّ العالمين﴾ قال ابن كثير^(٢): يقول تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله عز وجل ينهى أن يعبد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان، وقد بين تبارك وتعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه في قوله - جلّت عظمتة - : ﴿هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً﴾، أي: هو الذي يقلبكم في هذه الأطوار كلها وحده لا شريك له، وعن أمره وتدييره وتقديره يكون ذلك كله.

وقوله تعالى: ﴿ومنكم من يتوفّى من قبل﴾ قال البغوي^(٣): من قبل أن يصير شيخاً ﴿ولتبلغوا﴾ جميعاً ﴿أجلاً مسمى﴾ وقتاً معلوماً محدوداً لا تجاوزونه، يريد

(١) حديث صحيح، وقد خرجته في «كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس على قلب داود بن جرجيس».

(٢) المصدر السابق (٨٧/٤).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٩٢/٤).

أجل الحياة إلى الموت ﴿ولعلكم تعقلون﴾، أي: لكي تعقلوا توحيد ربكم وقدرته.

قال ابن كثير^(١): ثم قال تعالى: ﴿هو الذي يحيي ويميت﴾، أي: هو المتفرد بذلك لا يقدر على ذلك أحد سواه ﴿فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾، أي: لا يخالف ولا يمانع، بل ما شاء كان لا محالة.

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْطُلُ فِي آعْتَقِهِمْ وَالسَّلْسَلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكَمِ مِمَّا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ .

قال ابن زيد في قوله: ﴿ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون﴾ قال: عن الحق، قال: هؤلاء المشركون. وعن مجاهد في قوله: ﴿يُسْجَرُونَ﴾ قال: يوحد بهم النار.

وقوله تعالى: ﴿ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً كذلك يضل الله الكافرين﴾.

قال ابن جرير^(٢) يقول: ثم قيل: أين الذين كنتم تشركون بعبادتكم إياها من دون الله من آلهتكم وأوثانكم، حتى يغيثوكم فينقذوكم مما أنتم فيه من البلاء والعذاب؟ فإن المعبود يغيث من عبده وخدمه، وإنما يقال هذا لهم توبيخاً وتقريعاً

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٨٧/٤).

(٢) انظر «جامع البيان» (٨٥/٢٤).

على ما كان منهم في الدنيا من الكفر بالله وطاعة الشيطان، فأجاب المساكين عند ذلك فقالوا: ﴿ضَلُّوا عَنَا﴾ يقول: عدلوا عنا، فأخذوا غير طريقنا وتركونا في هذا البلاء، بل ما ضلُّوا عنا ولكننا لم نكن ندعوا من قبل في الدنيا شيئاً، أي: لم نكن نعبد شيئاً؛ يقول الله تعالى ذكره: ﴿كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ يقول: كما أضل هؤلاء الذين ضلَّ عنهم في جهنم ما كانوا يعبدون في الدنيا، من دون الله من الآلهة والأوثان ألهمتهم وأوثانهم، كذلك يضلُّ الله أهل الكفر به عنه وعن رحمته وعبادته، فلا يرحمهم فينجيهم من النار، ولا يغيثهم فيخفف عنهم ما هم فيه من البلاء.

وعن مجاهد ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ قال: تطرون وتأشرون ﴿ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين﴾.

قوله عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِيَتَرَكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّمُوكُمْ فَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ

إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ إِلَيْكَ قَدْ حَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ
الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ .

قال البغوي^(١): ﴿فاصبر إن وعد الله﴾ بنصرك ﴿حق فإما نريتك بعض الذي
نعدهم﴾ من العذاب في حياتك ﴿أو نتوفيتك﴾ قبل أن يحلّ بهم ﴿فإلينا يرجعون﴾
قال ابن كثير^(٢): أي، فنذيقهم العذاب الشديد في الآخرة. ثم قال تعالى: مسلياً له
﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص
عليك﴾ وهم أكثر ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله﴾، أي: ولم يكن
لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للعادات إلا أن يأذن الله له في ذلك ﴿فإذا
جاء أمر الله﴾ وهو عذابه ﴿قضي بالحق﴾ فينجي المؤمنين ويهلك الكافرين، ولهذا
قال عز وجل: ﴿وخسر هنالك المبطلون﴾ .

وقوله تعالى: ﴿الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ولكم
فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ويريكم
آياته فأتي آيات الله تنكرون﴾ قال ابن كثير: ﴿ويريكم آياته﴾، أي: حججه وبراهينه
في الآفاق، وفي أنفسكم ﴿فأتي آيات الله تنكرون﴾؟، أي: لا تقدرّون على إنكار
شيء من آياته إلا أن تعاندوا وتكابروا. وقال البغوي^(٣): ﴿أفلم يسيروا في الأرض
فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشدّ قوة وآثاراً في
الأرض﴾، يعني: مصانعهم وقصورهم ﴿فما أغنى عنهم﴾ لم ينفعهم ﴿ما كانوا
يكسبون﴾ . ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا﴾ رضوا بما عندهم من العلم.
قال مجاهد: هو قولهم: نحن أعلم، لن نبعث ولن نُعذّب، سمى ذلك علماً على
ما يدعونه ويزعمونه، وهو في الحقيقة جهل. ﴿وحاق بهم ما كانوا به
يستهزئون﴾ .

(١) انظر «معالم التنزيل» (٩٣/٤).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٨٨/٤).

(٣) المصدر السابق (٩٤/٤).

﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين﴾، يعني:
تبرأنا مما كنا نعدّل بالله ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾ عذابنا. ﴿سنّة الله
التي قد خلت في عباده﴾ وتلك السنّة أنهم إذا عاينوا عذاب الله آمنوا ولا ينفعهم
إيمانهم عند معاينة العذاب ﴿وخسر هنالك الكافرون﴾ بذهاب نعيم الدارين. قال
الزجاج: الكافر خاسر في كل وقت، ولكنهم تبيّن لهم خسرانهم إذا رأوا العذاب.



الدرس السابع والأربعون بعد المائتين

﴿سورة فصلت﴾

مكية ، وهي أربع وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونُ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُهُ وَجِدْ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ﴿٩﴾ قُلْ أَيُّكُمْ لَنْكَفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ءَأْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسِيٍّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّالِبِينَ ﴿١١﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١٢﴾ فَفَضَّلْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٣﴾ فَإِنِ اعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٤﴾ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ

أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا
أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ
مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا
يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيَقَهُمْ عَذَابَ الْغَزِي
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابُ الْأَخِيرَ آخِرٌ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ
فَأَسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾
وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿١٨﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿حَمْرٌ ١ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي إِذَانِنَا وَقُرْءَانٍ مِّن بَيْنِنَا وَيَنبَيْكَ جِبَابٌ فَأَعْمَلْنَا عَمَلُونَ ٥ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ٦ وَأَنذَرْتُ لَلْمُشْرِكِينَ ٧ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ٨ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْتُونٍ ٩﴾ .

قال ابن إسحاق في السيرة: حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة - وكان سيداً - قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون. فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقم إليه فكلمه. فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث علمت من البسطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم وعبت آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آباتهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها؟ قال: فقال له رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد أسمع» قال: يا ابن أخي. إنما تريد بما جنت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الأطباء وبدلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع

على الرجل حتى يداوى منه - أو كما قال له - حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم. قال: «فاستمع مني». قال: أفعل. قال: «بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾»، ثم مضى رسول الله ﷺ فيها وهو يقرؤها عليه، فلما سمع عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه، حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك».

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبا الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر، ولا بالشعر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، خلّوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كُفّيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزمكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه! قال: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم^(١).

وفي رواية البغوي من حديث جابر رضي الله عنه: «قال عتبة: ولكنّي أتيتّه وقصصت عليه القصة فأجابني بشيء، والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، وقرأ السورة إلى قوله تعالى: ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ فأمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكفّ، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب»^(٢).

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/٢٠٤ - ٢٠٣) مرسلًا عن محمد بن كعب القرظي.
 (٢) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/٢٠٢ - ٢٠٣)، والبغوي في تفسيره (٤/٩٧ - ٩٨).

وقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ﴾ قال السدي: بيّنت آياته. وعن مجاهد في قوله: ﴿قلوبنا في أكتة﴾ قال: عليها أغطية كالجمعة للنبيل: ﴿وفي آذاننا وقر﴾ قال السدي: صمم.

وعن قتادة قوله: ﴿وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة﴾ قال: لا يقرّون بها، وكان يقال: إن الزكاة قنطرة الإسلام، فمن قطعها نجا ومن تخلّف عنها هلك، وقد كان أهل الردّة بعد نبيّ الله قالوا: أما الصلاة فنصلي، وأما الزكاة فوالله لا نغصب أموالنا. فقال أبو بكر: «والله لا أفرق بين شيء جمع الله بينه، والله لو منعوني عقلاً مما فرض الله ورسوله لقاتلناهم عليه»^(١). وعن السدي: ﴿وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة﴾، أي: لا يدينون بالزكاة، وقال: لو زكّوا وهم مشركون لم ينفعهم. وعن ابن عباس: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون﴾ يقول: غير منقوص.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُمُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءِ اللَّسَائِلِينَ ﴿١٢﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١٣﴾ فَفَضَّنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٤﴾﴾.

قال ابن عباس: خلق الله الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسوّاهنّ في يومين آخرين، ثم دحى الأرض، ودحيتها أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام في يومين آخرين، فذلك قوله

(١) أخرجه ابن جرير (٩٣/٢٤)، وفيه انقطاع.

تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾^(١). وعن قتادة: ﴿سواء للسائلين﴾ قال: من سأل فهو كما قال الله.

وقوله تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها والأرض اثتيا طوعاً أو كرها﴾ قال البغوي^(٢)، أي: اثتيا ما أمركما، أي: افعلاه: ﴿قالنا أتينا طائعين﴾. وعن مجاهد في قوله: ﴿وأوحى في كل سماء أمرها﴾ قال: ما أمر الله به وأراده. وعن السدي: ﴿وزيتا السماء الدنيا بمصاييح﴾ قال: ثم زين السماء. بالكواكب فجعلها زينة ﴿وحفظاً﴾ من الشياطين ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾.

قوله عز وجل: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبِّنَا لَأُنزِلَ مَلَكًا فَوَاقِنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيَهِمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْأَخْرَىٰ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةٌ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَبَجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

عن قتادة في قوله: ﴿صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ قال يقول: أنذرتكم وقية مثل وقية عاد وثمود، قال: عذاب مثل عذاب عاد وثمود: ﴿إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم﴾ قال ابن عباس: الرسل التي كانت قبل هود، والرسل الذين كانوا بعده، بعث الله قبله رسلاً، وبعث من بعده رسلاً.

(١) سورة النازعات: الآية ٣٠.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٩٧).

وعن مجاهد في قوله: ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً﴾ قال: شديدة: ﴿في أيام نحسات﴾ مشائم. قال قتادة: ﴿في أيام نحسات﴾ والله كانت مشئومات على القوم: ﴿وأما ثمود فهديناهم﴾ بيتنا لهم سبيل الخير والشر: ﴿فاستحبوا العمى على الهدى﴾ قال ابن زيد: استحبوا الضلالة على الهدى. وعن السدي: ﴿فأخذتهم صاعقة العذاب الهون﴾ قال: الهوان ﴿بما كانوا يكسبون، ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.



الدرس الثامن والأربعون بعد المائتين

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَقَّ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِيَجْلُدِ اللَّهُمَّ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُصَبِّحْتُمْ مِنَ الْخَيْرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ * وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُنذِرَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّوْنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ جَعَلَهُمَا نَحْتَهُمْ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقْبَلُوا نَزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَأِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾

قوله عز وجل: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِمَ لُجُودُنَا لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُصَبِّحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا قَالَ النَّارُ مَثْوَىٰ لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞

عن قتادة ﴿فهم يوزعون﴾ قال: عليهم وزعة ترد أولاهم على أخراهم. قال في جامع البيان ﴿حتى إذا ما جاءوها﴾ «ما» مزيدة لتأكيد ظرفيته للشهادة، أي: إنما تقع فيه البتة ﴿شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون﴾ من المعاصي. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «ألا تسألوني من أي شيء ضحكت؟» قالوا: يا رسول الله من أي شيء ضحكت؟ قال: «عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة! يقول: أي رب، أليس وعدتني أن لا تظلمني؟ قال: بلى. فيقول: فإني لا أقبل عليّ شاهداً إلا من نفسي. فيقول الله تبارك وتعالى: أليس كفى بي شهيداً وبالملائكة الكرام الكاتبين؟ قال: فيردد هذا الكلام مراراً قال: فيختم على فيه وتتكلم أركانه بما كان يعمل فيقول: بُعداً لكنّ وسحقاً، عنكنّ كنت أجادل»^(١) رواه مسلم وغيره. وعن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «تجيئون يوم القيامة على أفواهكم الفِدام، وإن أول ما

(١) أخرجه مسلم (ح/٢٩٦٩).

يتكلم من الآدمي فخذة وكفه^(١). رواه ابن جرير وغيره.

وعن السدي ﴿وما كنتم تستترون﴾، أي: تستخفون منها. وعن قتادة ﴿وما كنتم تستترون﴾ يقول: وما كنتم تظنون ﴿أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم﴾ حتى بلغ ﴿كثيراً مما كنتم تعملون﴾، واللّه إنّ عليك يا ابن آدم لشهوداً غير متهمّة من بدنك، فراقبهم واتق الله في سرّ أمرك وعلانيتك، فإنه لا يخفى عليه خافية، الظلمة عنده ضوء، والسرّ عنده علانية، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظنّ فليفعل، ولا قوّة إلاّ بالله وعن عبد الله بن مسعود قال: إنّي لمستتر بأستار الكعبة، إذ دخل ثلاثة نفر: ثقفي وختناه قرشيان، قليلٌ فقه قلبوهما، كثيرٌ شحوم بطونهما، فتحدّثوا بينهم بحديث فقال أحدهم: أترى الله يسمع ما قلنا؟ فقال الآخر: إنه يسمع إذا رفّعنا، ولا يسمع إذا خفّضنا. وقال الآخر: إذا كان يسمع منه شيئاً فهو يسمعه كلّه. قال: فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فنزلت هذه الآية ﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿وإن يستعبتوا فما هم من المعتبين﴾^(٢) رواه ابن جرير وغيره.

وعن معمر قال: تلا الحسن ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم﴾ فقال: إنما عمل الناس على قدر ظنونهم بربهم، فأما المؤمن فأحسن بالله الظنّ، فأحسن العمل. وأما الكافر والمنافق فأساء الظنّ، فأساء العمل. وعن قتادة قال: الظنّ ظنان: ظنّ مُنْجٍ، وظنّ مُرْدٍ قال ﴿الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم﴾ قال ﴿إني ظننت أنّي ملاق حساييه﴾ وهذا الظنّ المنجي ظناً يقيناً، وقال ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم﴾ هذا ظنّ مُرْدٍ، وقال الكافرون ﴿إنّ نظنّ إلاّ ظناً وما نحن بمستيقنين﴾؛ وذكر لنا أنّ نبيّ الله ﷺ كان يقول — ويروي ذلك عن ربه — :

(١) أخرجه أحمد (٣/٥ و ٥)، والنسائي في الكبرى (٤٥١/٦)، وابن جرير (١٠٧/٢٤)، وهو حديث حسن.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٨١٦ و ٤٨١٧ و ٧٥٢١)، ومسلم (ح/٢٧٧٥).

«عبدى غير ظنه بى، وأنا معه إذا دعاني»^(١). وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمَعْتَبِينَ﴾ قال البغوي ﴿وإن يستعتبوا﴾ يسترضوا ويطلبوا العتبي ﴿فما هُمْ مِنَ الْمَعْتَبِينَ﴾ المرضيَّين، والمعتب: الذي قبل أعتابه وأجيب إلى ما سأل.

قوله عز وجل: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾^(٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْمُخَلَّدِينَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾^(٢٨).

عن مجاهد ﴿وقيضنا لهم قرناء﴾ قال: شياطين ﴿فزيَّنوا لهم ما بين أيديهم﴾ قال السدي: من أمر الدنيا ﴿وما خلفهم﴾ من أمر الآخرة ﴿وحق عليهم القول﴾ قال: العذاب ﴿في أمم قد خلت من قبلهم من الجنّ والإنس إنهم كانوا خاسرين﴾ وعن ابن عباس قوله ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾ قال: هذا قول المشركين قالوا: لا تتبعوا هذا القرآن والهوا عنه. وعن مجاهد ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾ قال: المكاء والتصفير، وتخليط من القول على رسول الله ﷺ إذا قرأ، قريش تفعله.

﴿فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون﴾ قال البغوي^(٢): وهو الشرك بالله. وعن عليّ رضي الله عنه في قوله: ﴿ربنا أَرْنَا

(١) سبق تخريجه مرفوعاً بلفظ: «إذا ذكرني في نفسه...».

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/١٠١).

اللذين أضلانا من الجن والإنس ﴿ قال: إبليس وابن آدم الذي قتل أخاه ﴿ نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين ﴾ قال ابن عباس: ليكونا أشدَّ عذاباً منا .

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ تَزُولُ مِنْ عَفْوَيرِ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ .

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ قال: قد قالها الناس ثم كفر أكثرهم، فمن مات عليها فهو ممن استقام^(١). وقال عكرمة: استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله. وعن مجاهد ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ قال: أسلموا ثم لم يشركوا به حتى لحقوا به. وعن الزهري قال: تلا عمر رضي الله عنه على المنبر ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ قال: استقاموا والله بطاعته، ولم يروغوا وروغان الثعالب. وقال قتادة: استقاموا على طاعة الله. وكان الحسن إذا تلاها قال: اللهم فأنت ربنا فارزقنا الاستقامة. وعن مجاهد ﴿تنزل عليهم الملائكة﴾ عند الموت ﴿أن لا تخافوا ولا تحزنوا﴾ قال: ﴿لا تخافوا﴾ ما تقدّمون عليه من أمر الآخرة ﴿ولا تحزنوا﴾ على ما خلفتم من دنياكم، فإننا نخلفكم في ذلك كله ﴿وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾.

وعن السدي ﴿نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا﴾ نحن الحفظة الذين كنا معكم في الدنيا، ونحن أولياؤكم في الآخرة ﴿ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون﴾ قال ابن كثير^(٢): أي مهما طلبتم وجدتم وحضر بين أيديكم كما اخترتم

(١) أخرجه الترمذي (ح/٣٢٥٠)، وقال: حسن غريب، والنسائي في الكبرى (٦/٤٥٢)،

وابن جرير (١١٤/٢٤)، بسند ضعيف.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٩٩/٤).

﴿نزلاً من غفور رحيم﴾، أي: ضيافة وعطاء وإنعاماً من غفور لذنوبكم ﴿رحيم﴾ بكم. وفي الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». قلنا: يا رسول الله كلنا نكره الموت! قال: ليس ذلك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حضر جاءه البشير من الله تعالى بما هو صائر إليه، فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله تعالى فأحب الله لقاءه — قال — ، وإن الفاجر أو الكافر إذا حضر جاءه بما هو صائر إليه من الشر أو ما يلقي من الشر فكره لقاء الله، فكره الله لقاءه»^(١). رواه أحمد وغيره.



(١) أخرجه أحمد (١٠٧/٣)، وليس هذا الحديث بهذا اللفظ من رواية أنس عند مسلم؛ بل هو من رواية عائشة رضي الله عنها (ح/٢٦٨٤ و ٢٦٨٥).

الدرس التاسع والأربعون بعد المائتين

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣٣) وَلَا سَتْوَى الْحَسَنَةَ وَلَا السَّيِّئَةَ أَدْفَعُ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّمَا يَنْزِعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ الَّتِيلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِتِيَاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْعَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ أَنَّهُ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي بِنَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكِنْتُبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدِ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْتَهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَءَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ

فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكِّ
 مِنْهُ مُرِيبٌ ﴿٤٥﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ
 لِلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴿٤٦﴾ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ
 أَنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ آئِنُ شُرَكَائِهِمْ قَالُوا ءَاذَنْتَكَ مَا مِنَّا مِنْ
 شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنَ نَجِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَا
 يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَعْتُسْ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَدْقَنَّهُ
 رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا إِلَىٰ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ
 إِلَىٰ رَبِّي إِنْ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ
 عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ۚ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ
 فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تُمٌّ كَفَرْتُمْ بِهِ ۚ مَنْ
 أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَأُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ
 حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا
 إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴿٥٤﴾ ﴿٥٤﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٨﴾ وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٩﴾﴾ .

عن معمر قال: تلا الحسن ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾ قال: هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب الخلق إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحاً في إجابته وقال: إنني من المسلمين، فهذا خليفة الله .

وقوله تعالى: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ قال ابن عباس: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم ﴿كأن ولي حميم﴾ . قال قتادة: كأنه ولي قريب . وعن ابن عباس قوله: ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ يقول: الذين أعد الله لهم الجنة . قال قتادة: ذكر لنا أن أبا بكر رضي الله عنه شتمه رجل ونبي الله ﷺ شاهد، فعفا عنه ساعة، ثم إن أبا بكر جاش به الغضب فرد عليه، فقام النبي ﷺ فأتبعه أبو بكر فقال: يا رسول الله شتمني الرجل فعفوتُ وصفحْتُ وأنت قاعد، فلما أخذت أنتصر قمت يا نبي الله؟ فقال نبي الله ﷺ: «إنه كان يردُّ عنك ملك من الملائكة، فلما قرَّبت تنتصر ذهب الملك وجاء الشيطان،

فوالله ما كنت لأجالس الشيطان يا أبا بكر^(١). وقال ابن زيد: ﴿وإما ينزغتك من الشيطان نزغ﴾ قال: هذا الغضب. وقال السدي: وسوسة وحديث النفس ﴿فاستعد بالله من الشيطان الرجيم﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ الْبَلُّ وَالنَّهَارُ وَاللَّيْلُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُمُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنِ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْقِعُ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

قال ابن كثير^(٢): لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي، نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبده تحت قهره وتسخيره فقال: ﴿لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون﴾، أي: ولا تشركوا به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فإن استكبروا﴾، أي: عن أفراد العبادة له وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره ﴿فالذين عند ربك﴾، يعني: الملائكة ﴿يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون﴾.

وعن قتادة قوله: ﴿ومن آياته إنك ترى الأرض خاشعة﴾، أي: غرباء مهتزمة ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾ يعرف الغيث في صحتها وربوها. وقال مجاهد ﴿اهتزت﴾ بالنبات ﴿وربت﴾ يقول: انتفخت. ﴿إن الذي أحياها لمحيي الموتى﴾ قال السدي: كما يحيي الأرض بالمطر كذلك يحيي الموتى بالماء يوم القيامة بين النفختين ﴿إنه على كل شيء قدير﴾.

(١) أخرجه ابن جرير (١٢٠/٢٤) عن قتادة مرسلًا، وروي مسندًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أخرجه أحمد (٤٣٦/٢).

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم، (١٠٢/٤).

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا أَفَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْتُ عَزِيْزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْتَهُ قُرْءَانًا نَّجْمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتِ آيَاتُهُ أَءَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاحْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ .

قال ابن يزيد في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا﴾ قال: هؤلاء أهل الشرك، وقال: الإلحاد الكفر والشرك. وقال ابن عباس: هو أن يوضع الكلام على غير موضعه. ﴿أفمن يلقي في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة﴾. قال ابن كثير^(١): أي أيستوي هذا وهذا؟ ﴿لا يستويان﴾؛ ثم قال عز وجل للكفرة: ﴿اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير﴾. عن قتادة قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ كَفَرُوا بِالْقُرْآنِ ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾، يقول: أعزه الله لأنه كلامه، وحفظه من الباطل، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾، الباطل: إبليس، لا يستطيع أن ينقص منه حقاً ولا يزيد فيه باطلاً. وقال ابن كثير: أي ليس للبطلان إليه سبيل، لأنه منزل من رب العالمين، ولهذا قال: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. وعن قتادة ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعزى نبيّه ﷺ كما تسمعون، يقول: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾.

(١) المصدر السابق (١٠٢/٤).

وعن سعيد بن جبير في قوله: ﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي﴾ قال: الرسول عربي واللسان أعجمي. وقال السدي يقول: بيئت آياته ﴿أعجمي وعربي﴾ نحن قوم عرب ما لنا وللعجمة؟ ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾ قال: القرآن ﴿والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر﴾ قال: صمم ﴿وهو عليهم عمى﴾. قال: عميت قلوبهم عنده ﴿أولئك ينادون من مكان بعيد﴾. قال مجاهد: بعيد من قلوبهم.

قال البغوي^(١): ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه﴾ فمصدق ومكذب، كما اختلف قومك في كتابك ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ في تأخير العذاب عن المكذبين بالقرآن ﴿لقضي بينهم﴾ لفرع من عذابهم وعجل إهلاكهم ﴿وإنهم لفي شك منه مريب﴾. وقوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه﴾. قال ابن كثير^(٢): أي إنما يعود نفع ذلك على نفسه ﴿ومن أساء فعليها﴾، أي إنما يرجع وبال ذلك عليه ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾.

قوله عز وجل: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أءَازَدْتَكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِّن نَّجْوَىٰ ﴿٤٨﴾ لَا يَسْمَعُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِن أَدْقَنَهُ رَحْمَةٌ مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ جَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِن عِندِ

(١) انظر «معالم التنزيل» (١٠٤/٤).

(٢) المصدر السابق (١٠٣/٤).

اللَّهُ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ، مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَتَرِيهَمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ءَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾ .

قوله عز وجل: ﴿٥٢﴾ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ تَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءِي قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِّن مَّحِصٍ ﴿٥٤﴾ .

قال البغوي^(١): يقول: يرَدُّ إليه علم الساعة كما يرَدُّ إليه علم الثمار والنتاج. وقوله تعالى: ﴿٥٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا ءَاذَنَّاكَ . قال ابن عباس: يقول أعلمناك. وقال السدي: قالوا: أطعناك ﴿٥٣﴾ ما منا من شهيد ﴿٥٤﴾ على أن لك شريكاً ﴿٥٤﴾ وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص ﴿٥٤﴾ استيقنوا أنه ليس لهم ملجأ.

قوله عز وجل: ﴿٥٤﴾ لَّا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَعُوْثُ قَنُوطًا ﴿٥٤﴾ وَلَئِن أَدْقَنَهُ رَحْمَةٌ مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْبَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَنُنذِرُنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٥﴾ وَإِذَا أُنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِنَانِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ، مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴿٥٧﴾ سَتَرِيهَمْ

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/١٠٤).

ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيضَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا يَنْهَوُا عَنِ كُلِّ شَيْءٍ مَّحِيطٍ ﴿٥٤﴾ .

قال ابن زيد في قوله: ﴿لَا يَسَامُ الْإِنْسَانُ﴾ قال: لا يملّ ﴿من دعاء الخير وإن مسه الشر فينوس قنوط﴾ قال السدي: قانط من الخير ﴿ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولنّ هذا لي﴾ قال مجاهد: أي بعلمي، وأنا محقوق بهذا ﴿وما أظنّ الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾ قال السدي يقول: غِنَى ﴿فلننبئنّ الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه﴾ قال السدي: يقول ﴿أعرض﴾ صدّ بوجهه ﴿ونأى بجانبه﴾ يقول: تباعد ﴿وإذا مسّه الشر فذو دعاء عريض﴾ .

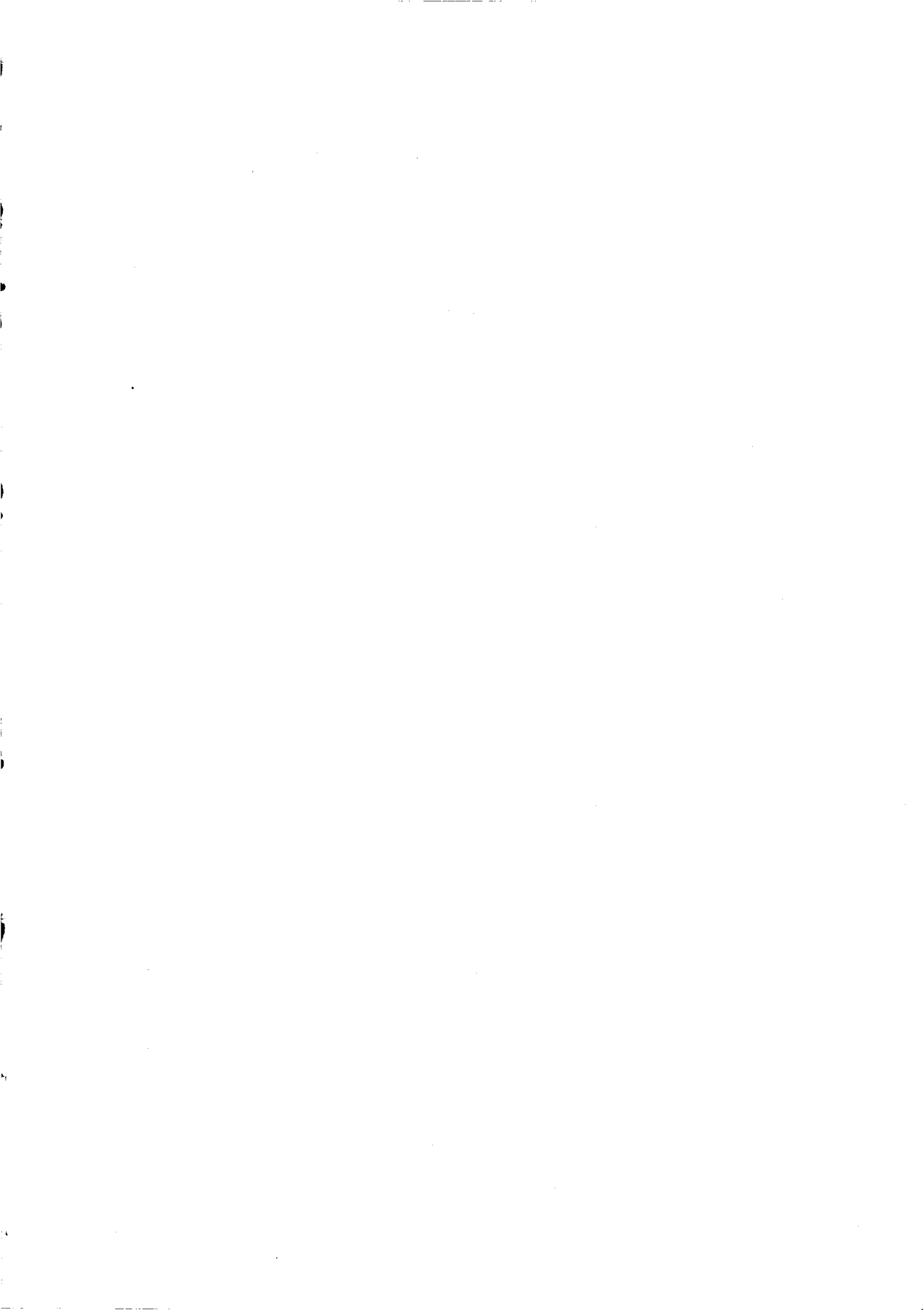
يقول ابن كثير^(١): وقوله تعالى: ﴿قل أرأيتم إن كان﴾، أي: هذا القرآن ﴿من عند الله ثم كفرتم به من أضلّ ممن هو في شقاق بعيد﴾ خلاف للحق، بعيد عنه .

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق﴾ قال قتادة: يعني وقائع الله في الأمم ﴿وفي أنفسهم﴾ يوم بدر ﴿حتى يبيّن لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ قال مقاتل: أولم يكف بربك شاهداً أن القرآن من الله؟ ﴿ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم﴾ في شكّ من البعث ﴿ألا إنه بكل شيء محيط﴾ فلا يخفى عليه خافية ولا يعجزه شيء سبحانه وتعالى .

انتهى الجزء الثالث بحمد الله،

ويليه الجزء الرابع

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/١٠٤).



فَهْرَسْتُ الْمَوْضُوعَاتِ الجزء الثالث

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣٣	الدرس الستون بعد المائة	٥	الدرس السادس والخمسون بعد المائة .
٣٥	الآيات : ٨٣ - ٨٨	٥	﴿سورة الكهف﴾
٣٦	الآيات : ٨٩ - ٩١	٨	الآيات : ١ - ٨
٣٧	الآيات : ٩٢ - ٩٧	١٠	الآيات : ٩ - ١٢
٣٩	الآيات : ٩٨ - ١٠١	١١	الآيات : ١٣ - ١٦
٤١	الآيات : ١٠٢ - ١٠٨	١٢	الآيتان : ١٧ و ١٨
٤٢	الآيتان : ١٠٩ و ١١٠	١٣	الآيات : ١٩ - ٢١
٤٤	الدرس الحادي والستون بعد المائة .	١٤	الآيات : ٢٢ - ٢٦
٤٤	﴿سورة مريم﴾	١٦	الدرس السابع والخمسون بعد المائة
٤٥	الآيات : ١ - ٦	١٨	الآيات : ٢٧ - ٢٩
٤٦	الآيات : ٧ - ١١	١٩	الآيتان : ٣٠ و ٣١
٤٧	الآيات : ١٢ - ١٥	٢٠	الآيات : ٣٢ - ٤٤
٤٨	الدرس الثاني والستون بعد المائة .	٢٢	الآيات : ٤٥ - ٤٩
٥٠	الآيات : ١٦ - ٢١	٢٣	الدرس الثامن والخمسون بعد المائة
٥١	الآيات : ٢٢ - ٢٦	٢٤	الآيتان : ٥٠ و ٥١
٥٢	الآيات : ٢٧ - ٣٦	٢٥	الآيات : ٥٢ - ٥٦
٥٣	الآيات : ٣٧ - ٤٠	٢٦	الآيات : ٥٧ - ٥٩
٥٥	الدرس الثالث والستون بعد المائة .	٢٧	الدرس التاسع والخمسون بعد المائة
٥٧	الآيات : ٤١ - ٥٠	٢٨	الآيات : ٦٠ - ٦٥
٥٨	الآيات : ٥١ - ٥٨	٢٩	الآيات : ٦٦ - ٧٦
		٣٠	الآيات : ٧٧ - ٨٢

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٩١	الآيات: ٩٠ - ٩٤	٥٩	الآيات: ٥٩ - ٦٥
٩٢	الآيات: ٩٥ - ٩٨	٦١	الدرس الرابع والستون بعد المائة ..
٩٤	الدرس الثامن والستون بعد المائة ..	٦٣	الآيات: ٦٦ - ٧٢
٩٥	الآيات: ٩٩ - ١٠٤	٦٥	الآيات: ٧٣ - ٧٦
٩٦	الآيات: ١٠٥ - ١١٢	٦٦	الآيات: ٧٧ - ٨٠
٩٩	الآيتان: ١١٣ و ١١٤	٦٧	الآيات: ٨١ - ٨٧
١٠١	الدرس التاسع والستون بعد المائة .	٦٨	الآيات: ٨٨ - ٩٥
١٠٣	الآيات: ١١٥ - ١٢٢	٦٩	الآيات: ٩٦ - ٩٨
١٠٤	الآيات: ١٢٣ - ١٢٧	٧٠	الدرس الخامس والستون بعد المائة
١٠٥	الآيات: ١٢٨ - ١٣٠	٧٠	﴿سورة طه﴾
١٠٦	الآيتان: ١٣١ و ١٣٢	٧٢	الآيات: ١ - ٨
١٠٧	الآيات: ١٣٣ - ١٣٥	٧٣	الآيات: ٩ - ١٦
١٠٩	الدرس السبعون بعد المائة	٧٤	الآيات: ١٧ - ٢٣
١٠٩	﴿سورة الأنبياء﴾	٧٥	الآيات: ٢٤ - ٣٥
١١١	الآيات: ١ - ٦	٧٦	الآيات: ٣٦ - ٤٠
١١٢	الآيات: ٧ - ٩	٧٨	الآيات: ٤١ - ٤٨
١١٣	الآيات: ١٠ - ١٥	٧٩	الآيات: ٤٩ - ٥٥
١١٤	الآيات: ١٦ - ٢٠	٨٠	الدرس السادس والستون بعد المائة
١١٥	الآيات: ٢١ - ٢٥	٨٢	الآيات: ٥٦ - ٦٤
١١٦	الآيات: ٢٦ - ٢٩	٨٣	الآيات: ٦٥ - ٦٩
١١٨	الدرس الحادي والسبعون بعد المائة	٨٤	الآيات: ٧٠ - ٧٦
١٢٠	الآيات: ٣٠ - ٣٣	٨٧	الدرس السابع والستون بعد المائة .
١٢١	الآيتان: ٣٤ و ٣٥	٨٩	الآيات: ٧٧ - ٨٢
١٢٢	الآيات: ٣٦ - ٤١	٩٠	الآيات: ٨٣ - ٨٩

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٥٨	الآيات: ١١ - ١٣	١٢٣	الآيات: ٤٢ - ٤٦
١٥٩	الآيات: ١٤ - ١٧	١٢٤	الآية: ٤٧
١٦٠	الآيات: ١٨ - ٢٤	١٢٥	الدرس الثاني والسبعون بعد المائة
١٦٣	الدرس السابع والسبعون بعد المائة	١٢٧	الآيات: ٤٨ - ٥٧
١٦٥	الآيتان: ٢٥ و ٢٦	١٢٨	الآيات: ٥٨ - ٦٧
١٦٦	الآيات: ٢٧ - ٢٩	١٣٠	الآيات: ٦٨ - ٧٠
١٦٧	الآيتان: ٣٠ و ٣١	١٣١	الآيات: ٧١ - ٧٣
١٦٨	الآيتان: ٣٢ و ٣٣	١٣٢	الآيات: ٧٤ - ٧٧
١٦٩	الآيات: ٣٤ - ٣٧	١٣٣	الدرس الثالث والسبعون بعد المائة
١٧١	الدرس الثامن والسبعون بعد المائة	١٣٥	الآيات: ٧٨ - ٨٠
١٧٣	الآيات: ٣٨ - ٤١	١٣٦	الآيات: ٨١ - ٨٤
١٧٤	الآيات: ٤٢ - ٤٦	١٣٨	الآيات: ٨٥ - ٨٨
١٧٥	الآيتان: ٤٧ و ٤٨	١٤٠	الآيات: ٨٩ - ٩١
١٧٦	الآيات: ٤٩ - ٥٤	١٤١	الآيات: ٩٢ - ٩٤
١٧٨	الآيات: ٥٥ - ٦٢	١٤٢	الدرس الرابع والسبعون بعد المائة
١٨٠	الدرس التاسع والسبعون بعد المائة	١٤٣	الآيات: ٩٥ - ٩٧
١٨٢	الآيات: ٦٣ - ٦٩	١٤٥	الآيات: ٩٨ - ١٠٤
١٨٣	الآيات: ٧٠ - ٧٢	١٤٧	الآيات: ١٠٥ - ١١٢
١٨٤	الآيات: ٧٣ - ٧٧	١٤٩	الدرس الخامس والسبعون بعد المائة
١٨٥	الآية: ٧٨	١٤٩	﴿سورة الحج﴾
١٨٧	الدرس الثمانون بعد المائة	١٥١	الآيتان: ١ و ٢
١٨٧	﴿سورة المؤمنون﴾	١٥٣	الآيات: ٣ - ٧
١٨٩	الآيات: ١ - ١١	١٥٤	الآيات: ٨ - ١٠
١٩١	الآيات: ١٢ - ١٧	١٥٦	الدرس السادس والسبعون بعد المائة

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٢٥	الآيات: ١١ - ١٣	١٩٢	الآيات: ١٨ - ٢٠
٢٣٠	الآيات: ١٤ - ١٨	١٩٣	الآيتان: ٢١ و ٢٢
٢٣١	الآيات: ١٩ - ٢٢	١٩٤	الدرس الحادي والثمانون بعد المائة
٢٣٢	الآيات: ٢٣ - ٢٦	١٩٦	الآيات: ٢٣ - ٢٥
٢٣٤	الدرس السادس والثمانون بعد المائة	١٩٧	الآيات: ٢٦ - ٣٨
٢٣٦	الآيات: ٢٧ - ٢٩	١٩٨	الآيات: ٣٩ - ٤٤
٢٣٧	الآية: ٣٠	١٩٩	الدرس الثاني والثمانون بعد المائة
٢٣٨	الآية: ٣١	٢٠١	الآيات: ٤٥ - ٥٠
٢٤٠	الآيات: ٣٢ - ٣٤	٢٠٢	الآيات: ٥١ - ٥٦
٢٤٣	الدرس السابع والثمانون بعد المائة	٢٠٣	الآيات: ٥٧ - ٦٣
٢٤٤	الآية: ٣٥	٢٠٤	الآيات: ٦٤ - ٧٢
٢٤٦	الآيات: ٣٦ - ٣٨	٢٠٦	الآيات: ٧٣ - ٧٧
٢٤٧	الآيتان: ٣٩ و ٤٠	٢٠٧	الدرس الثالث والثمانون بعد المائة
٢٤٨	الآيتان: ٤١ و ٤٢	٢٠٩	الآيات: ٧٨ - ٨٣
٢٤٩	الدرس الثامن والثمانون بعد المائة	٢١٠	الآيات: ٨٤ - ٩٢
٢٥١	الآيتان: ٤٣ و ٤٤	٢١١	الآيات: ٩٣ - ١٠٠
٢٥٢	الآيتان: ٤٥ و ٤٦	٢١٣	الآيات: ١٠١ - ١١١
٢٥٣	الآيتان: ٤٧ و ٥٢	٢١٤	الآيات: ١١٢ - ١١٦
٢٥٤	الآيتان: ٥٣ و ٥٤	٢١٥	الآيات: ١١٧ و ١١٨
٢٥٥	الآيات: ٥٥ - ٥٧	٢١٦	الدرس الرابع والثمانون بعد المائة
٢٥٧	الدرس التاسع والثمانون بعد المائة	٢١٦	﴿سورة النور﴾
٢٥٩	الآيتان: ٥٨ و ٥٩	٢١٧	الآيات: ١ - ٣
٢٦٠	الآيتان: ٦٠ و ٦١	٢١٩	الآيات: ٤ - ١٠
٢٦٢	الآية: ٦٢	٢٢٣	الدرس الخامس والثمانون بعد المائة

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٩٤	الآيات: ٥٢ - ٦٨	٢٦٤	الدرس التسعون بعد المائة
٢٩٧	الدرس الرابع والتسعون بعد المائة	٢٦٤	﴿سورة الفرقان﴾
٢٩٨	الآيات: ٦٩ - ٨٩	٢٦٧	الآيات: ١ - ٣
٣٠٠	الآيات: ٩٠ - ١٠٤	٢٦٨	الآيات: ٤ - ١٠
٣٠٢	الدرس الخامس والتسعون بعد المائة	٢٦٩	الآيات: ١١ - ١٦
٣٠٥	الآيات: ١٠٥ - ١٢٢	٢٧٠	الآيات: ١٧ - ٢٤
٣٠٦	الآيات: ١٢٣ - ١٤٠	٢٧٢	الآيات: ٢٥ - ٢٩
٣٠٨	الآيات: ١٤١ - ١٥٩	٢٧٣	الآيات: ٣٠ - ٣٤
٣٠٩	الآيات: ١٦٠ - ١٧٥	٢٧٤	الدرس الحادي والتسعون بعد المائة
٣١٠	الآيات: ١٧٦ - ١٩١	٢٧٦	الآيات: ٣٥ - ٤٤
٣١١	الدرس السادس والتسعون بعد المائة	٢٧٧	الآيات: ٤٥ - ٤٧
٣١٢	الآيات: ١٩٢ - ٢٠٩	٢٧٨	الآيات: ٤٨ - ٥٥
٣١٤	الآيات: ٢١٠ - ٢٢٣	٢٧٩	الآيات: ٥٦ - ٦٠
٣١٦	الآيات: ٢٢٤ - ٢٢٧	٢٨١	الدرس الثاني والتسعون بعد المائة
٣١٨	الدرس السابع والتسعون بعد المائة	٢٨٢	الآيتان: ٦١ - ٦٧
٣١٨	﴿سورة النمل﴾	٢٨٣	الآيات: ٦٨ - ٧١
٣١٩	الآيات: ١ - ٦	٢٨٥	الآيات: ٧٢ - ٧٦
٣٢٠	الآيات: ٧ - ١٤	٢٨٦	الآية: ٧٧
٣٢٤	الدرس الثامن والتسعون بعد المائة	٢٨٧	الدرس الثالث والتسعون بعد المائة
٣٢٦	الآيتان: ١٥ و ١٦	٢٨٧	﴿سورة الشعراء﴾
٣٢٧	الآيات: ١٧ - ٢٦	٢٩٠	الآيات: ١ - ٩
٣٢٩	الآيات: ٢٧ - ٣٧	٢٩١	الآيات: ١٠ - ١٧
٣٣١	الآيات: ٣٨ - ٤٠	٢٩٢	الآيات: ١٨ - ٣٣
٣٣٢	الآيات: ٤١ - ٤٤	٢٩٣	الآيات: ٣٤ - ٥١

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣٧٥	الدرس الرابع بعد المائتين	٣٣٤	الدرس التاسع والتسعون بعد المائة
٣٧٦	الآيات: ٤٣ - ٤٦	٣٣٦	الآيات: ٤٥ - ٥٣
٣٧٧	الآيات: ٤٧ - ٥١	٣٣٧	الآيات: ٥٤ - ٥٨
٣٧٩	الآيات: ٥٢ - ٥٥	٣٣٨	الآيات: ٥٩ - ٦٦
٣٨١	الدرس الخامس بعد المائتين	٣٤٣	الدرس المائتان
٣٨٣	الآيتان: ٥٦ - ٥٩	٣٤٥	الآيات: ٦٧ - ٧٥
٣٨٤	الآيتان: ٦٠ و ٦١	٣٤٦	الآيات: ٧٦ - ٨١
٣٨٥	الآيات: ٦٢ - ٦٤	٣٤٧	الآيات: ٨٢
٣٨٦	الآيات: ٦٥ - ٦٧	٣٥٠	الآية: ٨٣ - ٨٦
٣٨٧	الآيات: ٦٨ - ٧٣	٣٥١	الآيات: ٨٧ - ٩٠
٣٨٨	الآيتان: ٧٤ و ٧٥	٣٥٣	الآيات: ٩١ - ٩٣
٣٨٩	الدرس السادس بعد المائتين	٣٥٤	الدرس الواحد بعد المائتين
٣٩١	الآيات: ٧٦ - ٧٨	٣٥٤	﴿سورة القصص﴾
٣٩٣	الآيات: ٧٩ - ٨٢	٣٥٦	الآيات: ١ - ٦
٣٩٤	الآيات: ٨٣ - ٨٨	٣٥٧	الآيات: ٧ - ١١
٣٩٧	الدرس السابع بعد المائتين	٣٥٩	الآيتان: ١٢ و ١٣
٣٩٧	﴿سورة العنكبوت﴾	٣٦١	الدرس الثاني بعد المائتين
٣٩٩	الآيات: ١ - ٧	٣٦٣	الآيات: ١٤ - ١٩
٤٠١	الآيتان: ٨ و ٩	٣٦٤	الآيات: ٢٠ - ٢٢
٤٠٢	الآيات: ١٠ - ١٣	٣٦٥	الآيات: ٢٣ - ٢٥
٤٠٤	الدرس الثامن بعد المائتين	٣٦٦	الآيات: ٢٦ - ٢٨
٤٠٧	الآيتان: ١٤ و ١٥	٣٦٨	الدرس الثالث بعد المائتين
٤٠٨	الآيات: ١٦ - ٢٣	٣٧٠	الآيات: ٢٩ - ٣٢
٤٠٩	الآيات: ٢٤ - ٢٧	٣٧٢	الآيات: ٣٣ - ٣٧
		٣٧٣	الآيات: ٣٨ - ٤٢

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الآيات: ٢٨ - ٣٠	٤١٠	الآيات: ٣٨ و ٣٩	٤٤٥
الآيات: ٣١ - ٣٥	٤١١	الآيات: ٤٠ - ٤٢	٤٤٦
الآيات: ٣٦ - ٤٠	٤١٢	الآيات: ٤٣ - ٤٥	٤٤٧
الدرس التاسع بعد المائتين	٤١٤	الدرس الرابع عشر بعد المائتين	٤٤٨
الآيات: ٤١ - ٤٤	٤١٦	الآيات: ٤٦ و ٤٧	٤٥٠
الآية: ٤٥	٤١٧	الآيات: ٤٨ - ٥٣	٤٥١
الآيات: ٤٦ - ٤٩	٤١٨	الآية: ٥٤	٤٥٢
الآيات: ٥٠ - ٥٢	٤١٩	الآيات: ٥٥ - ٥٧	٤٥٣
الدرس العاشر بعد المائتين	٤٢٢	الآيات: ٥٨ - ٦٠	٤٥٤
الآيات: ٥٣ - ٥٥	٤٢٤	الدرس الخامس عشر بعد المائتين	٤٥٥
الآيات: ٥٦ - ٦٠	٤٢٥	﴿سورة لقمان﴾	٤٥٥
الآيات: ٦١ - ٦٤	٤٢٦	الآيات: ١ - ٩	٤٥٧
الآيات: ٦٥ - ٦٩	٤٢٧	الآيات: ١٠ و ١١	٤٥٨
الدرس الحادي عشر بعد المائتين	٤٢٩	الآيات: ١٢ - ١٩	٤٥٩
﴿سورة الروم﴾	٤٢٩	الدرس السادس عشر بعد المائتين	٤٦٢
الآيات: ١ - ٧	٤٣١	الآيات: ٢٠ - ٢٤	٤٦٤
الآيات: ٨ - ١٠	٤٣٢	الآيات: ٢٥ - ٢٨	٤٦٥
الآيات: ١١ - ١٩	٤٣٣	الآيات: ٢٩ - ٣٢	٤٦٦
الدرس الثاني عشر بعد المائتين	٤٣٥	الآيات: ٣٣ و ٣٤	٤٦٧
الآيات: ٢٠ - ٢٣	٤٣٧	الدرس السابع عشر بعد المائتين	٤٦٩
الآيات: ٢٤ - ٢٧	٤٣٨	﴿سورة السجدة﴾	٤٦٩
الآيات: ٢٨ - ٣٢	٤٣٩	الآيات: ١ - ٣	٤٧٢
الدرس الثالث عشر بعد المائتين	٤٤٣	الآيات: ٤ - ٩	٤٧٣
الآيات: ٣٣ - ٣٧	٤٤٤	الآيات: ١٠ - ١٧	٤٧٤

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٥٠٩	الآية: ٤٩	٤٧٥	الآيات: ١٨ - ٢٢
٥١٠	الآيات: ٥٠ - ٥٢	٤٧٦	الآيات: ٢٣ - ٢٥
٥١٢	الآيات: ٥٣ - ٥٥	٤٧٧	الآيات: ٢٦ - ٣٠
٥١٣	الآية: ٥٦	٤٧٨	الدرس الثامن عشر بعد المائتين
٥١٥	الدرس الثاني والعشرون بعد المائتين	٤٧٨	﴿سورة الأحزاب﴾
٥١٧	الآيتان: ٥٧ و ٥٨	٤٨٠	الآيات: ١ - ٥
٥١٨	الآيات: ٥٩ - ٦٨	٤٨٢	الآية: ٦
٥١٩	الآيات: ٦٩ - ٧١	٤٨٣	الآيتان: ٧ و ٨
٥٢٠	الآيتان: ٧٢ و ٧٣	٤٨٥	الدرس التاسع عشر بعد المائتين
٥٢٢	الدرس الثالث والعشرون بعد المائتين	٤٨٧	الآيات: ٩ - ١١
٥٢٢	﴿سورة سبأ﴾	٤٨٨	الآيات: ١٢ - ١٧
٥٢٣	الآيتان: ١ و ٢	٤٨٩	الآيات: ١٨ - ٢٠
٥٢٤	الآيات: ٣ - ٦	٤٩١	الآيات: ٢١ - ٢٤
٥٢٦	الآيات: ٧ - ٩	٤٩٢	الآيات: ٢٥ - ٢٧
٥٢٨	الدرس الرابع والعشرون بعد المائتين	٤٩٤	الدرس العشرون بعد المائتين
٥٢٩	الآيات: ١٠ - ١٣	٤٩٦	الآيتان: ٢٨ و ٢٩
٥٣١	الآيات: ١٤ - ١٧	٤٩٧	الآيتان: ٣٠ و ٣١
٥٣٣	الآيتان: ١٨ و ١٩	٤٩٨	الآيات: ٣٢ - ٣٤
٥٣٥	الدرس الخامس والعشرون بعد المائتين	٥٠٠	الآية: ٣٥
٥٣٧	الآيات: ٢٠ - ٢٣	٥٠١	الآية: ٣٦
٥٤٠	الآيات: ٢٤ - ٢٨	٥٠٢	الآيات: ٣٧ - ٤٠
٥٤١	الآيات: ٢٩ - ٣٣	٥٠٥	الدرس الحادي والعشرون بعد المائتين
٥٤٢	الآيات: ٣٤ - ٣٩	٥٠٧	الآيات: ٤١ - ٤٤
٥٤٣	الآيات: ٤٠ - ٤٢	٥٠٨	الآيات: ٤٥ - ٤٨

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٥٧٩	الآيات: ٤١ - ٤٤	٥٤٤	الدرس السادس والعشرون بعد المائتين
٥٨٠	الآيات: ٤٥ - ٤٧	٥٤٥	الآيات: ٤٣ - ٥٠
٥٨٢	الدرس الثاني والثلاثون بعد المائتين	٥٤٧	الآيات: ٥١ - ٥٤
٥٨٤	الآيات: ٤٨ - ٥٤	٥٤٩	الدرس السابع والعشرون بعد المائتين
٥٨٥	الآيات: ٥٥ - ٥٨	٥٤٩	﴿سورة فاطر﴾
٥٨٦	الآيات: ٥٩ - ٦٥	٥٥١	الآيتان: ١ و ٢
٥٨٧	الآيات: ٦٦ - ٧٠	٥٥٢	الآيات: ٣ - ٨
٥٨٨	الآيات: ٧١ - ٧٦	٥٥٣	الآيات: ٩ - ١٤
٥٩٠	الآيات: ٧٧ - ٨٣	٥٥٧	الدرس الثامن والعشرون بعد المائتين
٥٩١	الدرس الثالث والثلاثون بعد المائتين	٥٥٩	الآيات: ١٥ - ٢٦
٥٩٢	﴿سورة الصافات﴾	٥٦٠	الآيتان: ٢٧ و ٢٨
٥٩٥	الآيات: ١ - ١٠	٥٦١	الآيات: ٢٩ - ٣٥
٥٩٦	الآيات: ١١ - ٢٦	٥٦٢	الآيتان: ٣٦ و ٣٧
٥٩٧	الآيات: ٢٧ - ٣٧	٥٦٤	الدرس التاسع والعشرون بعد المائتين
٥٩٨	الآيات: ٣٨ - ٤٩	٥٦٥	الآيات: ٣٨ - ٤١
٥٩٩	الآيات: ٥٠ - ٦٠	٥٦٦	الآيتان: ٤٢ و ٤٣
٦٠٠	الآيات: ٦١ - ٧٠	٥٦٨	الآيتان: ٤٤ و ٤٥
٦٠٢	الدرس الرابع والثلاثون بعد المائتين	٥٦٩	الدرس الثلاثون بعد المائتين
٦٠٤	الآيات: ٧١ - ٨٢	٥٦٩	﴿سورة يس﴾
٦٠٥	الآيات: ٨٣ - ٩٨	٥٧١	الآيات: ١ - ١٢
٦٠٧	الآيات: ٩٩ - ١١٣	٥٧٣	الآيات: ١٣ - ٢٧
٦٠٩	الدرس الخامس والثلاثون بعد المائتين	٥٧٥	الآيات: ٢٨ - ٣٢
٦١٠	الآيات: ١١٤ - ١٣٢	٥٧٦	الدرس الحادي والثلاثون بعد المائتين
٦١٢	الآيات: ١٣٣ - ١٤٨	٥٧٧	الآيات: ٣٣ - ٤٠
٦١٥	الدرس السادس والثلاثون بعد المائتين		

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الآيات: ١٤٩ - ١٦٠	٦١٦	الآيات: ١٧ - ٢٠	٦٤٩
الآيات: ١٦١ - ١٧٠	٦١٧	الدرس الحادي والأربعون بعد المائتين	٦٥١
الآيات: ١٧١ - ١٧٩	٦١٨	الآيتان: ٢١ و ٢٢	٦٥٢
الآيات: ١٨٠ - ١٨٢	٦١٩	الآيات: ٢٣ - ٢٦	٦٥٣
الدرس السابع والثلاثون بعد المائتين	٦٢٠	الآيات: ٢٧ - ٣١	٦٥٤
﴿سورة ص﴾	٦٢٠	الدرس الثاني والأربعون بعد المائتين	٦٥٦
الآيات: ١ - ١١	٦٢٢	الآيات: ٣٢ - ٣٥	٦٥٨
الآيات: ١٢ - ٢٠	٦٢٥	الآيات: ٣٦ - ٤٠	٦٥٩
الآيات: ٢١ - ٢٦	٦٢٦	الآيات: ٤١ - ٤٨	٦٦٠
الآيات: ٢٧ - ٢٩	٦٢٨	الآيات: ٤٩ - ٥٢	٦٦١
الدرس الثامن والثلاثون بعد المائتين	٦٢٩	الدرس الثالث والأربعون بعد المائتين	٦٦٣
الآيات: ٣٠ - ٣٣	٦٣٠	الآيات: ٥٣ - ٦١	٦٦٥
الآيات: ٣٤ - ٤٠	٦٣١	الآيات: ٦٢ - ٦٧	٦٦٧
الدرس التاسع والثلاثون بعد المائتين	٦٣٤	الآيات: ٦٨ - ٧٠	٦٦٨
الآيات: ٤١ - ٤٤	٦٣٦	الآيات: ٧١ - ٧٥	٦٧٠
الآيات: ٤٥ - ٥٤	٦٣٧	الدرس الرابع والأربعون بعد المائتين	٦٧٣
الآيات: ٥٥ - ٦٦	٦٣٨	﴿سورة المؤمن (غافر)﴾	٦٧٣
الآيات: ٦٧ - ٨٥	٦٤٠	الآيات: ١ - ٦	٦٧٦
الآيات: ٨٦ - ٨٨	٦٤١	الآيات: ٧ - ٩	٦٧٧
الدرس الأربعون بعد المائتين	٦٤٣	الآيات: ١٠ - ١٢	٦٧٨
﴿سورة الزمر﴾	٦٤٣	الآيات: ١٣ - ٢٠	٦٧٩
الآيات: ١ - ٧	٦٤٥	الآيتان: ٢١ و ٢٢	٦٨٠
الآيتان: ٨ و ٩	٦٤٦	الدرس الخامس والأربعون بعد المائتين	٦٨١
الآيات: ١٠ - ١٦	٦٤٨	الآيات: ٢٣ - ٢٧	٦٨٤

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٧٠٣	الآيات: ٩ - ١٢	٦٨٥	الآيات: ٢٨ - ٣٥
٧٠٤	الآيات: ١٣ - ١٨	٦٨٦	الآيتان: ٣٦ و ٣٧
٧٠٦	الدرس الثامن والأربعون بعد المائتين	٦٨٧	الآيات: ٣٨ - ٤٦
٧٠٧	الآيات: ١٩ - ٢٤	٦٨٨	الآيات: ٤٧ - ٥٠
٧٠٩	الآيات: ٢٥ - ٢٩	٦٨٩	الآيات: ٥١ - ٥٥
٧١٠	الآيات: ٣٠ - ٣٢	٦٩٠	الدرس السادس والأربعون بعد المائتين
٧١٢	الدرس التاسع والأربعون بعد المائتين	٦٩٢	الآيات: ٥٦ - ٥٩
٧١٤	الآيات: ٣٣ - ٣٦	٦٩٣	الآيات: ٦٠ - ٦٨
٧١٥	الآيات: ٣٧ - ٣٩	٦٩٥	الآيات: ٦٩ - ٧٦
٧١٦	الآيات: ٤٠ - ٤٦	٦٩٧	الآيات: ٧٧ - ٨٥
٧١٨	الآيات: ٤٧ - ٥٤	٦٩٩	الدرس السابع والأربعون بعد المائتين
		٦٩٩	﴿سورة فصلت﴾
		٧٠١	الآيات: ١ - ٨



السلسلة السلفية للسائل والكتب النجدية (٩)

تَوْفِيقُ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فِي دُرُوسِ الْقُرْآنِ

تَأَلَّفَ

الشيخ فيصل بن عبد العزيز بن فيصل آل مبارك

(١٣١٣ - ١٣٦٦هـ)

رَحِمَهُ اللهُ

مَقَّهٌ، وَضَرَّحَ أَهْلِيهِ، وَعَلَوْا عَلَيْهِ

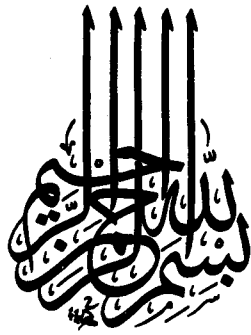
عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الزَّيْرَالِ حَمْدٌ

الجزء الرابع

من سورة الشورى إلى سورة الناس

دار العاصم
للنشر والتوزيع

دار العليان





الدرس الخمسون بعد المائتين

﴿سورة الشورى﴾

مكية وهي ثلاث وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ عَسَى ﴿٢﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَمْ يَلَمْسْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ
تَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي
الْأَرْضِ أَلَّا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ
حَفِظَ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ
الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ
وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَخْلَقْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحَكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَمْ يَمْلِكُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَسْطُرَ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُمْ

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴿١٢﴾ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى
الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْنَا اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ
يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ
مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي
شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ ﴿١٤﴾ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ
ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا
أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ
الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جُمُوعُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ
رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُتَشَفِّعُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي
السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ
الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُمْ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ
الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ
مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ
الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا
وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ
لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا اسْتَفْكَارَ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمُوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْرِفْ

حَسَنَةٌ نَّزَدْنَا لَكُمْ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كِذْبًا فَإِنِ شَاءَ
اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحْيِي الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا
تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ
وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿حَمْدٌ ۙ عَسَىٰ ۙ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْكَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣﴾ لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٥﴾ .

قال البغوي^(١): سئل الحسين بن الفضل: لِمَ قطع ﴿حم عسق﴾ ولم يقطع ﴿كهيعص﴾، فقال: لأنها سور أوائلها ﴿حم﴾ فجرت مجرى نظائرها، فكان: ﴿حم﴾ مبتدأ و ﴿عسق﴾ خبره، لأنهما عدا آيتين، وأخواتهما مثل: ﴿كهيعص﴾ و ﴿المص﴾ و ﴿المر﴾، عُدت آية واحدة. وعن قتادة قوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾، أي: من عظمة الله وجلاله.

وعن ابن عباس: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، قال: والملائكة يُسَبِّحُونَ له من عظمته. وعن السدي في قوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾، قال: للمؤمنين. يقول عز وجل: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ لذنوب مؤمني عباده، الرحيم بهم أن يعاقبهم بعد توبتهم منها.

قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۝٦﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لِأَرْبَعِ فِرْقٍ فِي الْجَنَّةِ وَفِرْقٍ فِي السَّعِيرِ ۝٧ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مِنَ الْأُمَّةِ فِي رَحْمَتِهِ ۗ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨﴾

(١) انظر: «معالم التنزيل» (٤/١٠٦).

أَيُّمَاتُ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَالَ اللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠﴾
 وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحَكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ
 أُنِيبُ ﴿١١﴾ فَاطِرُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ
 أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۗ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ
 السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۗ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٣﴾ .

قال ابن كثير^(١): وقوله سبحانه وتعالى ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾
 يعني المشركين ﴿الله حفيظ عليهم﴾، أي: شهيد على أعمالهم، يحصيها ويعدها
 عدلاً وسيجزئهم بها أوفى الجزاء. ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾، أي: إنما أنت نذير،
 والله على كل شيء وكيل.

﴿وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً﴾، قال البغوي^(٢): ﴿وكذلك﴾ مثل ما
 ذكرنا ﴿أوحينا إليك قرآناً عربياً﴾، ﴿لتنذر أم القرى﴾ مكة يعني أهلها ﴿ومن
 حولها﴾ يعني قرى الأرض كلها ﴿وتنذر يوم الجمع﴾، أي: تنذرهم بيوم
 الجمع وهو يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين وأهل السموات والأرضين
 ﴿لا ريب فيه﴾ لا شك في الجمع أنه كائن، ثم بعد الجمع يتفرقون فريق في
 الجنة وفريق في السعير، ﴿ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة﴾ قال ابن عباس:
 على دين واحد ﴿ولكن يدخل من يشاء في رحمته﴾ في دين الإسلام
 ﴿والظالمون﴾ الكافرون ﴿ما لهم من ولي﴾ يدفع عنهم العذاب ﴿ولا نصير﴾
 يمنعهم من النار.

﴿أم اتخذوا﴾ بل اتخذوا أي الكافرون ﴿من دونه﴾، أي: من دون الله
 ﴿أولياء﴾ فالله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ﴿وقال

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١٠٦/٤).

(٢) المصدر السابق (١٠٧/٤).

ابن كثير^(١): ينكر تعالى على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، ويخبر أنه هو الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، فإنه هو القادر على إحياء الموتى وهو على كل شيء قدير ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله﴾، أي: مهما اختلفتم فيه من الأمور ﴿فحكمه إلى الله﴾، أي: هو الحاكم فيه.

وعن ابن عباس قوله ﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذروكم فيه﴾ يقول: يجعل لكم فيه معيشة يعيشون بها. وعن مجاهد في قوله: ﴿يذروكم فيه﴾ قال: نسل بعد نسل من الناس والأنعام. وقال ابن كثير^(٢): أي يخلقكم فيه، أي في ذلك الخلق على هذه الصفة، لا يزال يذروكم فيه، ذكوراً وإناثاً، خلقاً من بعد خلق، وجيلاً بعد جيل، ونسلًا بعد نسل، من الناس والأنعام. ﴿ليس كمثله شيء﴾، أي: كخالق الأزواج كلها شيء، لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له ﴿وهو السميع البصير﴾.

وعن السدي ﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ قال: حزائن السموات والأرض ﴿يسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم﴾. قال ابن جرير^(٣): يقول تعالى ذكره: فإلى من له مقاليد السموات والأرض، الذي صفته ما وصفت لكم في هذه الآيات، أيها الناس فارغبوا، وإياه فاعبدوا مخلصين له الدين، لا الأوثان والآلهة والأصنام التي لا تملك ضرراً ولا نفعاً.

قوله عز وجل: ﴿﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ

(١) المصدر السابق (٤/١٠٧).

(٢) المصدر السابق (٤/١٠٨).

(٣) انظر «جامع البيان» (٢٥/١٣).

كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يُحَاجُّوكَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جُمُوعُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُسْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَإِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ .

عن مجاهد قوله: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً﴾ قال: ما أوصاك به وأنبياءه كلهم دين واحد. وعن السدي في قوله: ﴿أن أقيموا الدين﴾ قال: اعملوا به ﴿ولا تفرقوا فيه﴾ قال قتادة: اعملوا أن الفرقة هلكة وأن الجماعة ثقة. ﴿كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾ قال: أنكرها المشركون وكبر عليهم شهادة أن لا إله إلا الله فصادمها إبليس وجنوده، فأبى الله تبارك وتعالى أن يمضيها وينصرها ويفلجها ويظهرها على من ناوأها. وعن مجاهد قوله: ﴿الله يجتبي إليه من يشاء﴾، أي: يصطفي إليه من يشاء من خلقه ﴿ويهدي إليه من ينيب﴾ قال السدي: من يُقبل إلى طاعة الله. ﴿وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾ قال ابن جرير^(١): يقول: بغياً من بعضكم على بعض، وحسداً وعداوة على

(١) المصدر السابق (١٦/٢٥).

طلب الدنيا. وعن السدي: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى﴾ قال: يوم القيامة يقضي بينهم ﴿وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم﴾ قال: اليهود والنصارى ﴿لفي شك منه مربب﴾ ﴿فلذلك فادع﴾، أي: إلى ما وصينا به الأنبياء من التوحيد ﴿واستقم﴾ على الدين ﴿كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت أن أعدل بينكم﴾ كما أمرني الله.

وقوله: ﴿الله ربنا وربكم﴾، أي: هو المعبود لا إله غيره ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ كقوله تعالى: ﴿وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾؛ ﴿لا حجة بيننا وبينكم﴾ قال مجاهد: لا خصومة ﴿الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾ قال ابن كثير^(١): اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات، كلٌ منها منفصلة عن التي قبلها حكم برأسها، قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسي، فإنها أيضاً عشرة فصول كهذه. وعن مجاهد ﴿والذين يحتاجون في الله من بعد ما استجيب له﴾ قال: طمع رجال بأن تعود الجاهلية ﴿حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد﴾ وقال قتادة: هم اليهود والنصارى قالوا: كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم ونحن خير منكم. وعن مجاهد قوله: ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان﴾ قال: العدل ﴿وما يدريك لعل الساعة قريب﴾. وقال مقاتل: ذكر النبي ﷺ الساعة ذات يوم وعنده قوم من المشركين، فقالوا تكذيباً: متى تكون الساعة؟ فأنزل الله هذه الآية ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق إلا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد﴾^(٢).

قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١٠٩/٤).

(٢) ذكره البغوي في تفسيره (١١٠/٤).

الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَمْ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ
 الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ
 مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ
 الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا
 وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ
 لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ
 الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْتَرِفْ
 حَسَنَةً نَّزَدَ لَمْ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَاءِ
 اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
 الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا
 تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَسَتَجِدُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ
 وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿من كان يريد حث الآخرة نزد له في حثه﴾ إلى
 ﴿وما له في الآخرة من نصيب﴾ قال يقول: من كان إنما يعمل للدنيا نوته منها.
 وقال ابن زيد: الحث العمل، من عمل للآخرة أعطاه الله، ومن عمل للدنيا أعطاه
 الله. قال في جامع البيان ﴿أم لهم شركاء﴾ بل لهم آلهة وهم الشياطين، والهمزة
 للتحقيق والتثبيت. ﴿شرعوا﴾ أظهروا لهم ﴿من الدين﴾ غير دين الإسلام ﴿ما لم
 يأذن به الله﴾ وهذا إضراب عن قوله ﴿شرع لكم من الدين﴾ إلى آخره ﴿ولولا كلمة
 الفصل﴾ القضاء السابق بتأجيل العذاب إلى القيامة ﴿لقضي بينهم﴾ بين المؤمنين
 والكافرين في الدنيا. وعن ابن عباس قوله: ﴿قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة
 في القربى﴾ قال: كان لرسول الله ﷺ قرابة في جميع قريش، فلما كذبوه وأبوا أن
 يتابعوه قال: ﴿يا قوم إذا أبيتم أن تتابعوني فاحفظوا قرابتي فيكم، لا يكن غيركم من

العرب أولى بحفظي ونصرتي منكم»^(١).

وقال ابن زيد في قوله ﴿ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً﴾ قال: من يعمل خيراً نزد له؛ الاقتراف: العمل ﴿إن الله غفور شكور﴾ قال قتادة: غفور للذنوب شكور للحسنات ويضاعفها. قال في جامع البيان ﴿أم يقولون﴾ بل يقولون، إضراب آخر أشد من قوله ﴿أم لهم شركاء﴾. ﴿أفترى﴾ محمد ﷺ ﴿كذباً؟﴾ فإن يشأ الله يختم على قلبك ﴿قال قتادة: فينسيك القرآن. قال ابن كثير: لو افترت عليه كذباً كما يزعم الجاهلون.﴾

وقوله تعالى: ﴿ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته﴾ قال ابن جرير: وقوله: ﴿ويمح الله الباطل﴾ في موضع رفع بالابتداء، ولكنه حذف منه الواو في المصحف كما حذف من قوله: ﴿سَدَّعُ الزبانية﴾.

وقوله تعالى: ﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله﴾ قال البغوي^(٢): ﴿ويستجيب الذين آمنوا﴾، أي: ويجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات إذا دعوه ﴿ويزيدهم من فضله﴾ سوى ثواب أعمالهم، تفضلاً منه ﴿والكافرون لهم عذاب شديد﴾.



(١) أخرجه ابن جرير (٢٣/٢٥)، والطبراني (٢٥٥/١٢)، بسند ضعيف.

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (٤/١١٣).

الدرس الحادي والخمسون بعد المائتين

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَّوا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَانِ ﴿٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوقِعَهُنَّ رِيمًا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحْصِنٍ ﴿٣٥﴾ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْنِبُونَ كِبْرَ الْأَيْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا عَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصَرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاؤُا سِنْتَةٍ سِنْتَةٍ مِثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ لِإِنَّ ذَلِكَ لِمَنْ عَزِمَ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مَنْ يَبْغِيهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾

وَتَرْنَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ
الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ
الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ
مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا
أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً
فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَا قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِلَّهِ
مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ
الذَّكَورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ بَرُوجَهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ
قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ
رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذنيه ما يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٥١﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا
مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكَلْبُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ
مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَتْ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّخِصٍ ﴿٣٥﴾ .

عن قتادة ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾ الآية، قال: كان يقال: خير الرزق ما لا يطغيك ولا يلهيك؛ وقال: ذكر أن رجلاً أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين قحط المطر، وقط الناس، قال: مُطِرْتُمْ ﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته﴾^(١). وعن قتادة ﴿وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم﴾ الآية، ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «لا يصيب ابن آدم خدش عود، ولا عشرة قدم، ولا اختلاج عرق إلاً بذنوب، وما يعفو عنه أكثر»^(٢). وعن مجاهد قوله: ﴿الجواري في البحر﴾ قال: السفن

(١) أخرجه ابن جرير (٣١/٢٥).

(٢) أخرجه ابن جرير (٣٣/٢٥) عن قتادة مراسلاً وبنحوه مرفوعاً من حديث أبي موسى — رضي الله عنه —: «لا يصيب عبداً نكبة فما فوقها أو دونها إلاً بذنوب، وما يعفوا الله عنه أكثر وقرأ: ﴿وما أصابكم من مصيبة...﴾ الآية، أخرجه الترمذي (ح/٣٢٥٢) بسند ضعيف.

﴿كالأعلام﴾ قال: كالجبال. قال ابن كثير^(١): وقوله تعالى: ﴿ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص﴾، أي: لا محيد لهم عن بأسنا ونقمتنا، فإنهم مهوون بقدرتنا.

قوله عز وجل: ﴿فَأُوتِيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَنَعْتِجُ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ كَثِيرَ ٱلْإِثْمِ ٱلْفَؤْجِحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَحَرِّزُوا سَيِّئَةَ سَيِّئَةٍ مِّثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوذِيَ مِمَّا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ءَأُوذِيَ لَكُمْ لَهُمْ عَذَابٌ ٱلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنِ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

قال البغوي^(٢): ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ يتشاورون فيما يبدو لهم ولا يعجلون. وعن السدي في قوله: ﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾ قال: ينتصرون ممن بغى عليهم، من غير أن يعتدوا. ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ إذا شتمك بشتيمة فاشتمه مثلها من غير أن تعتدي. وقال الحسن: إذا كان يوم القيامة نادى مناد: من كان له على الله أجر فليقم، فلا يقوم إلا من عفا، ثم قرأ: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين﴾^(٣). قال ابن عباس: الذين يُبدؤون بالظلم.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/١١٧).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/١١٥).

(٣) وروي مسنداً من حديث أنس رضي الله عنه أخرجه البيهقي في «الشعب» (٦/٣١٥)، والطبراني في «مكارم الأخلاق» (ح/٥٥) بسند ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾، قال ابن كثير^(١): أي صبر على الأذى وستر السيئة فإن ﴿ذلك لمن عزم الأمور﴾ قال سعيد بن جبير: يعني لمن حق الأمور التي أمر الله تعالى بها.

قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأُوا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلِ ﴿٤٤﴾ وَتَرْتَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّنْ مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَبَهَا وَإِنْ نُصِيبَهُمْ سِتْنَةً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَنَثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ بُرُوجَهُمْ ذَكَرْنَا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ لِمَنْ يَشَاءُ عَاقِبَةً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ .

عن السدي في قوله: ﴿هل إلى مردّ من سبيل﴾ يقول: إلى الدنيا ﴿وتراهم يعرضون عليها﴾ قال البغوي^(٢): أي على النار ﴿خاشعين من الذلّ ينظرون من طرف خفي﴾، قال ابن عباس: يعني بالخفيّ الدليل ﴿وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾ قال السدي: غبنوا أنفسهم وأهليهم في الجنة. وقال ابن كثير^(٣): خسروا أنفسهم، وفرّق بينهم وبين أهاليهم

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/١١٩).

(٢) المصدر السابق (٤/١١٦).

(٣) المصدر السابق (٤/١٢٠).

فخسروهم ﴿ألا إن الظالمين في عذاب مقيم﴾. وعن السدي ﴿مالكم من ملجأ يومئذ﴾ تلجؤون إليه ﴿وما لكم من نكير﴾ يقول: من عزّ تعتزّون. وعن قتادة قوله: ﴿يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور﴾ قادر واللّه ربنا على ذلك، أن يهب للرجل ذكوراً ليست معهم أنثى، وأن يهب للرجل ذكراً وإناثاً فيجمعهم له جميعاً ﴿ويجعل من يشاء عقيماً﴾ لا يولد له ﴿إنه عليم قدير﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحياً أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بآذنيه مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٥٦﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً تَهْتَدِي بِهِ مِنْ نَسَاءٍ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْتَدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٧﴾﴾.

قال ابن كثير^(١): هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله عز وجل، وهو أنه تبارك وتعالى يقذف في روع النبي ﷺ شيئاً لا يتماهى فيه أنه من الله عز وجل، كما جاء في صحيح ابن حبان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن روح القدس نفث في روعي: أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿أو من وراء حجاب﴾ كما كلم موسى عليه الصلاة والسلام، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم فحجب عنها؛ وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال

(١) المصدر السابق (٤/١٢١).

(٢) أخرجه - بهذا اللفظ - أبو نعيم في «الحلية» (١٠/٢٧) من حديث أبي أمامة بسند ضعيف، لكن له الشاهد من حديث ابن مسعود رضي الله عنه بنحوه: أخرجه البغوي في «شرح السنة» (١٤/٣٠٣ - ٣٠٥)، والحاكم (٢/٤)، بسند ضعيف، وله شاهد من حديث جابر - رضي الله عنه - بنحوه: أخرجه ابن حبان (٥/٩٨ و ٩٩)، والحاكم (٢/٤) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وروي مرسلًا عن المطلب: أخرجه البغوي في «شرح السنة» (١٤/٣٠٣)، فالحديث بشواهد صحیح إن شاء الله تنبيه: لم يرد هذا الحديث بهذا اللفظ عند ابن حبان كما توهمه ابن كثير، وتبعه عليه المصنف - رحمهما الله - .

لجابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كفاحاً»^(١). كذا جاء في الحديث؛ وكان قد قتل يوم أحد، ولكن هذا في عالم البرزخ؛ والآية إنما هي في الدار الدنيا. وقوله عز وجل: ﴿أَوْ يَرْسَلْ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذَانِهِ مَا يَشَاءُ﴾ كما ينزل جبريل عليه الصلاة والسلام وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: ﴿إِنَّهُ عَلَّمِيَ حِكِيمًا﴾ فهو عليّ عليم خبير حكيم. وقوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يعني القرآن ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾، أي: على التفصيل الذي شرع لك في القرآن ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ﴾، أي: القرآن ﴿نُورًا نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يَنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾^(٢). وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ﴾، أي: يا محمد ﴿لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو الحق القويم؛ ثم فسره بقوله تعالى: ﴿صِرَاطَ اللَّهِ﴾، أي: شرعه الذي أمر به ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما، والحاكم الذي لا معقب لحكمه ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾.



(١) هذا الحديث ليس في الصحيح كما توهمه ابن كثير، وتبعه عليه المصنف رحمهما الله، فالحديث: أخرجه الترمذي (ح/٣٠١٠)، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (ح/١٩٠)، وابن خزيمة في «التوحيد» (ح/٥٩٩)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/٢٩٨ و ٢٩٩).

(٢) سورة فصلت: الآية ٤٤.

الدرس الثاني والخمسون بعد المائتين

﴿سورة الزخرف﴾

مكية، وهي تسع وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حَم ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُمْ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ
الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي
الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ
بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
لَيَقُولَنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ
فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ
بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ
وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ
وَتَقُولُوا سُبْحٰنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا
لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَرَأَىٰ
أَتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفًاكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ

لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ
 فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا
 خَلَقَهُمْ سَتُكُنَّبُ شُهَدَاؤُهُمْ وَيُسْعَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ
 بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ
 مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ
 مُتَهَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا
 آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أُولَئِكَ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا
 وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرُوا
 كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٢٥﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿حَمِّ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْأَكْتَابِ لَذِينَ الْعِلْمِ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ .

عن السدي ﴿حم والكتاب المبين﴾ هو هذا الكتاب. قال قتادة: ﴿مبين﴾ والله بركته وهده ورشده. وعن عطية بن سعد في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وإنه في أم الكتاب لدينا لعليّ حكيم﴾ يعني القرآن، في أم الكتاب الذي عند الله منه نُسخ. وعن قتادة ﴿لدينا لعليّ حكيم﴾ يخبر عن منزلته وفضله وشرفه.

وعن مجاهد في قول الله عز وجل: ﴿أفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ قال: يكذبون بالقرآن لا يعاقبون عليه. وعن ابن عباس قوله: ﴿أفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ يقول: أحسبتم أن نصفح عنكم ولما فعلوا ما أمرتم به؟ وقال قتادة: والله لو كان هذا القرآن رفع حين رَدّه أوائل هذه الأمة لهلكوا، فدعاهم إليه عشرين سنة أو ما شاء الله من ذلك. ﴿وكم أرسلنا من نبيّ في الأولين وما يأتيهم من نبيّ إلا كانوا به يستهزئون﴾ لاستهزاء قومك ﴿فأهلكنا أشدّ منهم بطشاً﴾، أي: أقوى من قومك ﴿ومضى مثل الأولين﴾ قال قتادة عقوبة الأولين.

قوله عز وجل: ﴿وَلَيْن سَأَلْنَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً

مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ
وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ
وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا
لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ .

قال ابن كثير^(١): يقول تعالى ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿من خلق السموات والأرض ليقولنّ لخلقهنّ العزيز العليم﴾ ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله وحده لا شريك له، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد؛ ثم قال تعالى: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً﴾، أي: فراشاً ﴿وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون﴾. وعن قتادة ﴿والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشربنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون﴾ كما أحيا الله هذه الأرض الميتة بهذا الماء، وكذلك تبعثون يوم القيامة.

﴿والذي خلق الأزواج كلها﴾ قال البغوي^(٢): أي الأصناف كلها ﴿وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون﴾ في البر والبحر ﴿لتمستوا على ظهوره﴾ ذكر الكناية لأنه ردها إلى «ما» ﴿ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه﴾ بتسخير المراكب في البر والبحر ﴿وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾ مطيقين ﴿وإننا إلى ربنا لمنقلبون﴾ قال ابن كثير^(٣): أي لصائرون إليه بعد مماتنا، وإليه مسيرنا الأكبر؛ وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة، كما نبّه بالزاد الدنيوي على الزاد الأخروي في قوله تعالى: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾^(٤)، وباللباس الدنيوي على الأخروي في قوله تعالى: ﴿وريشاً ولباساً﴾

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١٢٣/٤).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (١٢٠/٤).

(٣) المصدر السابق (١٢٣/٤).

(٤) سورة البقرة: الآية ١٩٧.

التقوى ذلك خير»^(١). وعن قتادة «لتستوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه» يعلمكم كيف تقولون إذا ركبت في الفلك، تقولون: «بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم»^(٢)، وإذا ركبت الإبل قلت: «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون»، ويعلمكم ما تقولون إذا نزلتم من الفلك والأنعام جميعاً تقولون: «اللهم أنزلنا منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين».

قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾^(١٥) أَرَأَيْتُمْ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَّا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ أَلَيْنَا مَكْتَبَاتِنَا مِن قَبْلِهِ فَمُ هُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أُولَئِكَ حُتَّتْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٢٥﴾

عن مجاهد في قول الله عز وجل: ﴿وجعلوا له من عباده جزءاً﴾ قال: ولداً، وبنات من الملائكة، وعن قتادة ﴿وجعلوا له من عبادة جزءاً﴾، أي: عدلاً؛ وقال

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٦.

(٢) سورة هود: الآية ٤١.

البغوي^(١): أي نصيباً وبعضاً، وهو قولهم: ﴿الملائكة بنات الله﴾؛ ومعنى الجعل ههنا: الحكم بالشيء، والقول كما تقول: جعلت زيداً أفضل الناس. ﴿إن الإنسان﴾ يعني الكافر ﴿لكفور﴾ لجحود لنعم الله ﴿مبين﴾ ظاهر الكفران. ﴿أم اتخذ مما يخلق بنات﴾ هذا استفهام توبيخ وإنكار، يقول: أتخذ ربكم لنفسه البنات وأصفاكم بالبنين؟ كقوله: ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً﴾^(٢). ﴿وإذا بُشِّرَ أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً﴾، أي: بما جعل الله بشراً، وذلك أن وَلَدَ كل شيء يُشبهه، يعني إذا بُشِّرَ أحدهم بالبنات — كما ذكر في سورة النحل — ﴿وإذا بُشِّرَ أحدهم بالأنثى ظلَّ وجهه مسوداً وهو كظيم﴾^(٣) من الغيظ والحزن. ﴿أو من ينشؤ﴾، أي: يُرَبَّى ﴿في الحليَّة﴾ في الزينة — يعني النساء — ﴿وهو في الخصام غير مبين﴾ للحجَّة، من ضعفهنَّ ومتعهنَّ. قال قتادة: قلَّما تكلم امرأة تريد أن تتكلم بحجتها، إلاَّ تكلمت بالحجَّة عليها؛ مجازة: أو من ينشؤ في الحلية، يجعلونه بنات الله؟.

﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم﴾، أي: أحضروا خلقهم حين خلقوا؟ ﴿ستكتب شهادتهم﴾ على الملائكة أنهم بنات الله ﴿ويُسألون﴾ عنها. ﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ يعني الملائكة ﴿وما لهم بذلك من علم إن هم إلاَّ يخرصون أم آتيناهم كتاباً من قبله﴾، أي: من قبل القرآن، بأن يعبدوا غير الله ﴿فهم به مستمسكون﴾، ﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾ على دين وملة ﴿وإنا على آثارهم مهتدون﴾ جعلوا أنفسهم باتباع آباؤهم مهتدين ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلاَّ قال مترفوها﴾ أغنياؤها ورؤساؤها ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ بهم ﴿قال أو لو

(١) المصدر السابق (٤/١٢١).

(٢) سورة الإسراء: الآية ٤٠.

(٣) سورة النحل: الآية ٥٨.

جئتكم بأهدى ﴿بدين أصوب﴾ ﴿مما وجدتم عليه آباءكم﴾ قال الزجاج قال لهم: أتتبعون ما وجدتم عليه آباءكم، وإن جئتكم بأهدى منه؟ فأبوا أن يقبلوه ﴿قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين﴾. انتهى ملخصاً.

وعن قتادة ﴿فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين﴾ قال: شرٌّ واللَّهِ، أخذهم بخسف وغرق، ثم أهلكهم فأدخلهم النار.



الدرس الثالث والخمسون بعد المائتين

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَتُولَاءِ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَمْ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُررًا عَلَيْهَا يَتَّكِفُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِن كُفِّلَ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَسَّ الْقَرْيَتَيْنِ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنكُرِي فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَن تَسْمِعُ الْأَصِدَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَىٰ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُزِيلَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَهُنَاءَ وَءَابَاءَهُمْ حَقًّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٥﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي﴾ قال: كأيدهم، كانوا يقولون: الله ربنا، ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن: الله، فلم يبرأ من ربه، ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾ قال: التوحيد والإخلاص، ولا يزال في ورثه من يوحد الله ويعبده ﴿لعلهم يرجعون﴾، أي: يتوبون أو يذكرون. وعن السدي: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾ قال: لا إله إلا الله. قال في جامع البيان ﴿بل متعت هؤلاء﴾، أي: قومك، فإنهم من عقب إبراهيم ﴿حتى جاءهم الحق﴾ القرآن: ﴿ورسول مبين﴾ ظاهر الرسالة ﴿ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون﴾ .

قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَاتِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهَرَّ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِن كُفُّوا لَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ قال: يعني بالعظيم الوليد بن المغيرة القرشي، أو حبيب بن عمرو الثقفي؛ وبالقريتين: مكة والطائف. وقال ابن زيد: كان أحد العظيمين عروة بن مسعود الثقفي. وعن ابن عباس قال: لما بعث الله محمداً رسولاً، أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس﴾^(١) وقال: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجلاً نوحياً إليهم فاسألوا أهل الذكر﴾ يعني أهل الكتب الماضية، أبشر كانت الرسل التي أتتكم أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أتتكم، وإن كانوا بشراً فلا ينكروا أن يكون محمد رسولاً. قال: ثم قال: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجلاً نوحياً إليهم من أهل القرى﴾، أي: ليسوا من أهل السماء كما قلتم، قال: فلما كرر الله عليهم الحجج قالوا: وإذا كان بشراً فغير محمد كان أحق بالرسالة: فلولا ﴿نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ يقولون: أشرف من محمد ﷺ، يعنون الوليد بن المغيرة المخزومي، وكان يسمى ريحانة قريش، هذا من مكة ومسعود بن عمرو الثقفي من أهل الطائف؛ قال: يقول الله عز وجل رداً عليهم: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾ أنا أفعل ما شئت.

وعن قتادة قال: قال الله تبارك وتعالى: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم﴾ فتلقاه ضعيف الحيلة عيي اللسان، وهو مبسوط له في الرزق، وتلقاه شديد الحيلة بسيط اللسان. قال جل ثناؤه: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾ كما قسم بينهم صورهم: ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً﴾ قال: ملكة. وقال السدي: يستخدم بعضهم بعضاً في السخرة. وقال ابن زيد: هم بنو آدم جميعاً وهذا عبد هذا، ورفع هذا

(١) سورة يونس: الآية ٢، والأثر أخرجه ابن جرير (٦٢/٢٥) بسند ضعيف.

على هذا درجة، فهو يسخره بالعمل يستعمله به. ﴿ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾ قال السدي يقول: الجنة خير مما يجمعون في الدنيا. وعن الحسن في قوله ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة﴾ قال: لولا أن يكون الناس كفاراً أجمعون يميلون إلى الدنيا، لجعل الله تبارك وتعالى الذي قال، ثم قال: والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها؛ وما فعل ذلك، فكيف لو فعله؟ وعن قتادة: ﴿لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة﴾ السقف أعلى البيوت ﴿ومعارج عليها يظهرون﴾، أي: درجاً عليها يصعدون. قال ابن زيد: ﴿من فضة﴾. ﴿ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون﴾ قال: الأبواب من فضة، والسرر من فضة. وعن ابن عباس: ﴿وزخرفاً﴾ وهو الذهب. وقال ابن زيد في قوله: ﴿وزخرفاً﴾ لجعلنا هذا لأهل الكفر، يعني لبيوتهم سقفاً من فضة وما ذكر معها؛ قال: والزخرف: سمي هذا الذي سمي السقف والمعارج والأبواب والسرر من الأثاث والفرش والمتاع. وعن قتادة: ﴿والآخرة عند ربك للمتقين﴾ خصوصاً. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة»^(١).

قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (٣٦) ﴿وَأَنَّهُمْ لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٣٧) ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَسَّ الْقَرِينُ﴾ (٣٨) ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (٣٩) ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٤٠) ﴿فَأِمَّا تَدَاهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ (٤١) ﴿أَوْ تُرِيكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾ (٤٢) ﴿فَأَسْتَمِمْكَ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤٣) ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (٤٤) ﴿وَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ

(١) أخرجه البخاري (ح/٥٤٢٦)، ومسلم (٢٠٦٧).

قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ .

قال البغوي^(١): قوله عز وجل: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن﴾، أي: يعرض عن ذكر الرحمن، فلم يخف عقابه ولم يرج ثوابه. قال القرطبي^(٢): يولّ ظهره عن ذكر الرحمن، وهو القرآن. قال أبو عبيدة: يُظلم بصره عنه ﴿نقيض له شيطاناً﴾ نسب له شيطاناً، ونضمه إليه ونسلطه عليه ﴿فهو له قرين﴾ لا يفارقه، يزيّن له العمى ويختل إليه أنه على الهدى ﴿وإنهم﴾ يعني الشياطين ﴿ليصدّونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون﴾ ويحسب كفار بني آدم أنهم على هدى ﴿حتى إذا جاءنا قال﴾ لقرينه ﴿يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين﴾، أي: بعد ما بين المشرق والمغرب، فغلب اسم أحدهما على الآخر، كما يقال: القمران والعمران ﴿ولن ينفعكم اليوم﴾ في الآخرة ﴿إذ ظلمتم﴾ أشركتم في الدنيا ﴿أنكم في العذاب مشتركون﴾ لا ينفعكم الاشتراك في العذاب، لأن لكل واحد من الكفار والشياطين الحظّ الأوفر من العذاب ﴿أفأنت تسمع الصمّ أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين﴾؟ يعني الكافرين الذين حقّت عليهم كلمة العذاب لا يؤمنون ﴿فإما نذهبنّ بك﴾ بأن نमितك قبل أن نعذبهم ﴿فإنا منهم منتقمون﴾ بالقتل بعدك ﴿أو نرينك﴾ في حياتك: ﴿الذي وعدناهم﴾ من العذاب ﴿فإنا عليهم مقتدرون﴾ قادرون، متى شئنا عذبناهم؛ وأراد به مشركي مكة انتقم منهم يوم بدر ﴿فاستمسك بالذي أوحى إليك إنك على صراط مستقيم وإنه﴾، أي: القرآن ﴿لذكر لك﴾ لشرف لك ﴿ولقومك﴾ من قريش ﴿وسوف تُسألون﴾ عن حقّه، وأداء شكره. وقال مجاهد: القوم هم العرب، فالقرآن لهم شرف إذ نزل بلغتهم، ثم يختصّ بذلك الشرف الأخصّ فالأخصّ من العرب، حتى يكون الأكثر لقريش ولبني هاشم. قوله: ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾؟

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/١٢٥).

(٢) في (الأصل): «القرطبي»، وهو خطأ.

قال أكثر المفسرين: سل مؤمني أهل الكتاب الذين أرسلت إليهم الأنبياء: هل جاءتهم الرسل إلا بالتوحيد؟ ومعنى الأمر بالسؤال: التقرير لمشركي قريش أنه لم يأت رسول ولا كتاب بعبادة غير الله عز وجل. انتهى ملخصاً.

وقال ابن كثير^(١): وقوله سبحانه وتعالى: ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾، أي: جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه، من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد، كقوله جلّت عظمته ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾^(٢). قال مجاهد في قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك من رسلنا، وهذا كأنه تفسير لا تلاوة. والله أعلم.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/١٢٩).

(٢) سورة النحل: الآية ٣٦.

الدرس الرابع والخمسون بعد المائتين

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا تَأْتِيهِ السَّحَابُ آدُغًا لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أَلْفِي عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُمْ لِعِلْمٌ لِلْسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرْتُمْ بِهَا وَاتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا
نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾
وَقَالُوا يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ الدَّاعِ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا
عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾ .

قال البغوي^(١): ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملائته فقال إني رسول رب العالمين فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون﴾ استهزاء ﴿وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها﴾ قرينتها وصاحبها التي كانت قبلها ﴿وأخذناهم بالعذاب﴾ بالسنين، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطمس، فكانت هذه دلالات لموسى وعذاباً لهم، فكانت كل واحدة أكبر من التي قبلها ﴿لعلهم يرجعون﴾ عن كفرهم. ﴿وقالوا﴾ لموسى لما عاينوا العذاب ﴿يا أيها الساحر﴾ يا أيها العالم الحاذق — لأن السحر عندهم كان علماً عظيماً — ﴿ادع لنا ربك بما عهد عندك﴾، أي: بما أخبرتنا من عهده إليك، إن آما كشف عنا العذاب، فأسأله يكشف عنا العذاب ﴿إننا لمهتدون﴾ مؤمنون، فدعا موسى فكشف عنهم فلم يؤمنوا، فذلك قوله عز وجل: ﴿فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون﴾ ينقضون عهدهم ويصرون على كفرهم.

قوله عز وجل: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ
مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ أَمْرًا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/١٢٧).

هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٧﴾ فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ
الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا
فَاسِقِينَ ﴿٥٩﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٦٠﴾
فَجَعَلْنَاهُمْ سُلْفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴿٦١﴾ .

عن قتادة: ﴿وهذه الأنهار تجري من تحتي﴾ قال: كانت لهم جنات وأنهار ماء. وعن السدي قوله: ﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مهين﴾ قال: بل أنا خير من هذا. وعن قتادة: ﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مهين﴾ قال: ضعيف: ﴿ولا يكاد يبين﴾، أي: عيى اللسان. ﴿فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب﴾، أي: أقلبه من ذهب ﴿أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾، أي: متتابعين. ﴿فاستخف قومه﴾ قال البغوي^(١)، أي: وجدهم جهالاً فاطاعوه ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾. ﴿فلما آسفونا﴾ أغضبونا ﴿انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين فجعلناهم سلفاً﴾ متقدمين يتعظ بهم الآخرون ﴿ومثلاً للآخرين﴾ عبرة وعظة لمن بقي بعدهم. وعن معمر ﴿فجعلناهم سلفاً﴾ قال: سلفاً إلى النار. وقال مجاهد: قوم فرعون سلفاً لكفار أمة محمد ﷺ ﴿ومثلاً للآخرين﴾ قال: عبرة لمن بعدهم.

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا يَا إِلَهُنَا خَيْرٌ أَمْهُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّكُمْ لَعَالَمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونَهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّكُمْ لَكُرْهُدٌ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي

(١) المصدر السابق (٤/١٢٨).

تَخْلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝١٣ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُواهُ هَدًا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝١٤ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ أَلِيمٍ ۝١٥

عن ابن عباس: ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾ قال: يعني قريشاً، لما قيل لهم: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ فقالت له قريش: فما ابن مريم؟ قال: «ذاك عبد الله ورسوله»، فقالوا: والله ما يريد هذا إلا أن نتخذه رباً كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم رباً، فقال الله عز وجل: ﴿ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون﴾. وعن مجاهد: ﴿إذا قومك منه يصدون﴾ قال: يضجون. وعن السدي في قوله: ﴿آلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون﴾ قال: خاصموه فقالوا: يزعم أن كل من عبد من دون الله في النار، فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى وعزيز والملائكة، هؤلاء قد عبدوا من دون الله؛ قال: فأنزل الله براءة عيسى. وعن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدي كانوا عليه، إلا أوتوا الجدل، ثم قرأ: ﴿ما ضربوه لك إلا جدلاً﴾ الآية»^(١). رواه ابن جرير وغيره.

وعن قتادة: ﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه﴾ يعني بذلك عيسى ابن مريم، ما عدا ذلك عيسى ابن مريم، إن كان إلا عبداً أنعم الله عليه ﴿وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل﴾، أي: آية ﴿ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون﴾ قال: يخلف بعضهم بعضاً مكان بني آدم: ﴿وإنه لعلم للساعة﴾ قال: نزول عيسى ابن مريم: ﴿علم للساعة﴾ القيامة. ﴿ولما جاء عيسى بالبينات﴾، أي: الإنجيل ﴿قال﴾

(١) أخرجه أحمد (٥/٢٥٢ و ٢٥٦)، والترمذي (ح/٣٢٥٣)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (ح/٤٨)، وابن جرير (٢٥/٨٨)، والحاكم، وصححه (٢/٤٤٨)، ووافقه الذهبي، قلت: وهو حديث حسن.

قد جئتمكم بالحكمة ﴿٦٦﴾ قال السدي: النبوة: ﴿ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه﴾ قال مجاهد: من تبديل التوراة. وعن السدي في قوله: ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾ قال: اليهود والنصارى ﴿فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾ عذاب يوم القيامة.

قوله عز وجل: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَنْعِبَادُ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌ إلا المتقين﴾ فكلّ خلة هي عداوة، إلا خلة المتقين. وعن قتادة قال: حدثنا المعتمر عن أبيه قال: سمعت أن الناس حين يبعثون ليس منهم أحد إلا فرح، فينادي مناد يا عباد الله: ﴿لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾ فيرجوها الناس كلهم، قال: فيتبعها ﴿الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين﴾ قال: فيس الناس منها غير المسلمين. وعن قتادة: ﴿ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون﴾، أي: تنعمون.

وقوله تعالى: ﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب﴾ قال السدي: الأكواب التي ليست لها آذان. وقال ابن كثير^(١): ﴿وأكواب﴾ وهي آنية الشراب،

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/١٣٤).

أي: من ذهب لا خراطيم لها ولا عرى. وفي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»^(١). وعن شعبة قال: أدنى أهل الجنة منزلة من له قصر فيه سبعون ألف خادم، مع كل خادم صحيفة سوى ما في يد صاحبه، لو فتح بابه فضافه أهل الدنيا لأوسعهم. وعن عبد الرحمن بن سابط قال: قال رجل: يا رسول الله أفي الجنة خيل؟ فإني أحب الخيل فقال: «إن يدخلك الله الجنة، فلا تشاء أن تركب فرساً من ياقوتة حمراء تطير بك في أي الجنة شئت إلا فعلت». وقال أعرابي: يا رسول الله أفي الجنة إبل؟ فإني أحب الإبل. فقال: «يا أعرابي، إن يدخلك الله الجنة، أصبت فيها ما اشتهدت نفسك ولذت عينك»^(٢).

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ ﴿٧٤﴾ لَا يَفْقَهُوهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسُوتُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادُوا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَنَّكُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْ آتَانَا مَبْرَمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٨٧٨ و ٤٨٨٠ و ٧٤٤٤)، ومسلم (ح/١٨٠) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن جرير (٩٧/٢٥)، والترمذي (٥٨٨/٤) وساق سنده ومتنه عن عبد الرحمن بن سابط مرسلًا، وروي مسندًا من حديث بريدة رضي الله عنه أخرجه أحمد (٣٥٢/٥)، والترمذي (ح/٢٥٤٣)، والطيالسي (ح/٢٨٣٨)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (ح/٤٢٥) بسند ضعيف، وذكر الترمذي أن حديث عبد الرحمن بن سابط المرسل أصح من حديث المسعودي المسند (٥٨٨/٤).

عن قتادة: ﴿وهم فيه مبلسون﴾ قال: آيسون. وقال السدي: متغير حالهم. وعن ابن عباس: ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك﴾ فأجابهم بعد ألف سنة: ﴿إنكم ماكثون﴾. وعن السدي ﴿لقد جنناكم بالحق﴾ قال: الذي جاء به محمد ﷺ ﴿ولكن أكثركم للحق كارهون﴾. ﴿أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون﴾ قال مجاهد: مجمعون، إن كادوا شراً كذباً مثله. وقال ابن زيد: محكمون لأمرنا. وقال بعض المفسرين: ثم عاد إلى توبيخ قريش وتجهيلهم والتعجب من حالهم فقال: ﴿أم أبرموا أمراً﴾ والإبرام: الإحكام، والمعنى أنهم كلما أحكموا أمراً بالمكر بمحمد ﷺ، فإننا نحكم أمراً في محاذاتهم. وعن السدي: ﴿بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾ قال: الحفظة.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَذَا قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ .

عن السدي: ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾ قال: لو أن له ولداً كنت أول من عبده، بأن له ولداً، ولكن لا ولد له. قال ابن كثير^(١): والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضاً، كما قال تعالى: ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً

(١) المصدر السابق (٤/١٣٦).

لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴿١﴾.

قال البغوي^(٢): ثم نزه نفسه فقال: ﴿سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون﴾ عما يقولون من الكذب ﴿فذرهم يخوضوا﴾ في باطلهم: ﴿ويلعبوا﴾ في دنياهم ﴿حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾ يعني يوم القيامة. ﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾ قال قتادة: يُعبد في السماء والأرض لا إله إلا هو ﴿وهو الحكيم﴾ في تدبير خلقه ﴿العليم﴾ بمصالحهم. وعن مجاهد قوله: ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة﴾ قال: عيسى وعزير والملائكة؛ قوله: ﴿إلا من شهد الحق﴾ قال: كلمة الإخلاص ﴿وهم يعلمون﴾ أن الله حق. وعزير والملائكة يقول: لا يشفع عيسى وعزير والملائكة ﴿إلا من شهد بالحق﴾ وهو يعلم الحق. وقال قتادة: الملائكة وعيسى والعزير قد عبدوا من دون الله، ولهم شفاعة عند الله ومنزلة.

وقال ابن كثير^(٣): ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه﴾، أي: من الأصنام والأوثان: ﴿الشفاعة﴾، أي: لا يقدر على الشفاعة لهم ﴿إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ هذا استثناء منقطع، أي: لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم، فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له. قال البغوي^(٤): وأراد بشهادة الحق قول: لا إله إلا الله كلمة التوحيد، وهم يعلمون بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم. ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنَّ الله فأنى يؤفكون﴾ يُصرفون عن عبادته: ﴿وقيله يا رب﴾ يعني قول محمد ﷺ شاكياً إلى ربه: ﴿يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾ قرأ عاصم وحمزة: وقيله بجر اللام، على معنى: وعنده علم الساعة، وعلم: قيله يا رب إن

(١) سورة الزمر: الآية ٤.

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (٤/١٣٢).

(٣) المصدر السابق (٤/١٣٦).

(٤) المصدر السابق (٤/١٣٢).

هؤلاء قوم لا يؤمنون. وعن قتادة: قال الله تبارك وتعالى يعزّي نبيّه ﷺ: ﴿فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون﴾ ثم أمره بقتالهم.

وقال ابن كثير^(١): ﴿وقل سلام﴾، أي: لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيئ، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلاً وقولاً ﴿فسوف يعلمون﴾.



(١) المصدر السابق (٤/١٣٧).

الدرس الخامس والخمسون بعد المائتين

﴿سورة الدخان﴾

مكية، وهي تسع وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حَمَّ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا
مُنذِرِينَ ٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ٥﴾ رَحْمَةً
مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ
مُوقِنِينَ ٧﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ٨﴾ بَلْ
هُمْ فِي شَكٍّ بِالْعُبُوتِ ٩﴾ فَاذْقُوا يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ
هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ١٢﴾ أَفَنُكْفَرُ بِالَّذِ كُفِرْنَا
وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّثْلُ نَحْنُونَ ١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا
إِنْ كُنْتُمْ عَابِدُونَ ١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِضُونَ ١٦﴾ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا
قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ١٧﴾ أَنْ أَدْوَأْ إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ ١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُّبِينٍ ١٩﴾ وَإِنِّي عِدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ
تَرْجُمُونِ ٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزُّ لِي ٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَبْ لِي قَوْمًا تُجْرِمُونَ ٢٢﴾ فَأَنْزَلْنَا
بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ٢٣﴾ وَاتْرِكُوا الْبَحْرَ رَهَوًّا إِنَّهُمْ مَحْدُثُ مَعْرِفُونَ ٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا

مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ ﴿٢٦﴾ كَذَلِكَ
وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٧﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٨﴾ وَلَقَدْ
نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٢٩﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِّنَ
الْمُتَسْرِفِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَقَدْ أَخَّرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَيَّ الْعَالَمِينَ ﴿٣١﴾ وَءَايَاتِنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا
فِيهِ بَلَاغٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾

* * *

قوله عز وجل : ﴿حَمَّ ۙ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۚ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۚ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۚ أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۚ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۚ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۗ إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۚ﴾ .

عن قتادة: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ ليلة القدر، ونزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، ونزلت التوراة لست ليال مضت من رمضان، ونزل الإنجيل لثمان عشرة مضت من رمضان، ونزل القرآن لأربع وعشرين مضت من رمضان. وقال ابن زيد: أنزل الله القرآن في ليلة القدر من أم الكتاب إلى السماء الدنيا، ثم نزل به جبريل على النبي ﷺ نجوماً في عشرين سنة. وقيل للحسن: ليلة القدر في كل رمضان هي؟ قال: إي والله، إنها لفي كل رمضان، وإنها الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم، فيها يقضي الله كل أجل وأمل ورزق إلى مثلها.

وقال ابن كثير^(١): وقوله: ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾، أي: في ليلة القدر، يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة وما يكون فيها ﴿أمرًا من عندنا إنا كنا مرسلين رحمة من ربك﴾ قال ابن عباس: رافة مني بخلقها ونعمة عليهم بما بعثنا إليهم من الرسل. قال ابن جرير^(٢): وقوله: ﴿لا إله إلا هو﴾ يقول: لا معبود لكم أيها الناس غير رب السموات والأرض وما بينهما، فلا تعبدوا غيره، فإنه لا تصلح العبادة لغيره، ولا تنبغي لشيء سواه.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/١٣٧).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٥/١١٠).

قوله عز وجل: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَفَنُؤْمِنُ بِالذِّكْرِىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ .

عن قتادة: ﴿فارتقب﴾، أي: فانتظر. وعن مسروق قال: دخلنا المسجد فإذا رجل يقصّ على أصحابه ويقول: ﴿ويوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ تدرّون ما ذلك الدخان؟ ذلك دخان يأتي يوم القيامة فيأخذ أسمع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام، قال: فأتينا ابن مسعود فذكرنا ذلك له وكان مضطجعاً ففزع فقعد فقال: «إن الله عز وجل قال لنيبه ﷺ: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين﴾ إن من العلم أن يقول الرجل لِمَا لَا يَعْلَمُ: الله أعلم، سأحدّثكم عن ذلك: إن قريشاً لما أبطأت عن الإسلام واستعصت على رسول الله ﷺ دعا عليهم بسنين كَسَنِي يوسف، فأصابهم من الجهل والجوع حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلاّ الدخان، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم﴾ فقالوا: ﴿ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون﴾ قال الله جلّ ثناؤه: ﴿إن كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾ قال: فعادوا يوم بدر فانتقم الله منهم^(١).

وعن مجاهد: ﴿يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ قال: الجذب، وإمساك المطر عن كفار قريش، إلى قوله: ﴿إنا مؤمنون﴾. وروى مسلم من حديث أبي سريحة حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٧٧٤).

«لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والداية، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس، تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا»^(١). وهذا الحديث لا ينافي وقوع الدخان بكفار قريش، فذلك قد وقع، وهذا منتظر.

وقوله تعالى: ﴿أنى لهم الذكرى﴾ قال البغوي^(٢): من أين لهم التذكير والاتعاظ؟ يقول: كيف يتذكرون ويتعظون ﴿وقد جاءهم رسول مبين﴾ طاهر الصدق، يعني محمداً ﷺ ﴿ثم تولوا عنه﴾ أعرضوا عنه ﴿وقالوا معلّم﴾، أي: يعلمه بشر ﴿مجنون﴾. قال الله تعالى: ﴿إنا كاشفوا العذاب﴾، أي: عذاب الجوع ﴿قليلاً﴾، أي: زماناً يسيراً، قال مقاتل: إلى يوم بدر ﴿إنكم عائدون﴾ إلى كفركم ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى﴾ وهو يوم بدر ﴿إنا منتقمون﴾ وهذا قول ابن مسعود وأكثر العلماء. وقال الحسن: يوم القيامة. قال ابن كثير^(٣): والظاهر أن ذلك يوم القيامة، وإن كان يوم بدر يوم بطشته أيضاً^(٤).

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ إِيَّائِي عَبْدَ اللَّهِ إِيَّائِي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَىٰ اللَّهِ إِيَّائِي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عٰدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاَعْتٰزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هٰنَؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَآسَرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (١٣٦/٤).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١٤٠/٤).

(٤) كما روي ذلك عن ابن مسعود قوله: «البطشة الكبرى يوم بدر، وأنا أقول يوم القيامة».

وقال ابن كثير (١٤٠/٤): «وهذا إسناد صحيح عنه».

مُتَّبِعُونَ ﴿٢٧﴾ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٨﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونٍ ﴿٢٩﴾
 وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٣٠﴾ وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَنَكِهِينَ ﴿٣١﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا
 آخَرِينَ ﴿٣٢﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ بَجَّيْنَا بَنِي
 إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٤﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ
 اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَأَيَّدْنَاهُمْ مِنَ الْأَيْدِ مَا فِيهِ بَلَاغٌ
 مُّبِينٌ ﴿٣٧﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿ولقد فتنا قلبهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم﴾ يعني موسى عليه السلام ﴿أن أدوا إليّ عباد الله﴾ قال مجاهد: أرسلوا معي بني إسرائيل ﴿إني لكم رسول أمين﴾ قال البغوي^(١): على الوحي ﴿وأن لا تعلوا على الله﴾ لا تتجبروا عليه بترك طاعته ﴿إني آتيكم بسلطان مبین﴾ ببهان بين على صدق قولي؛ فلما قال ذلك توعدوه بالقتل فقال: ﴿إني عذت بربي وربكم أن ترجمون﴾ أن تقتلون ﴿وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون﴾ فاتركون لا معي ولا عليّ. وقال ابن عباس: فاعتزلوا أذاي باليد واللسان، فلم يؤمنوا ﴿فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون﴾ فأجابه الله وأمره أن يسري فقال: ﴿فاسر بعبادي ليلاً﴾، أي: ببني إسرائيل ﴿إنكم متّبعون﴾ يتبعكم فرعون وقومه ﴿واترك البحر﴾ إذا قطعت أنت وأصحابك ﴿رهوا﴾ ساكناً على حالته وهيئته. قال قتادة: لما قطع موسى البحر عطف ليضرب البحر بعصاه ليلتئم، وخاف أن يتبعه فرعون وجنوده، فقبل له اترك البحر رهوا كما هو، إنهم جند مغرقون.

ثم ذكر ما تركوا بمصر فقال: ﴿كم تركوا﴾ يعني بعد الغرق ﴿من جنّات وعيون وزروع ومقام كريم﴾ مجلس شريف. قال قتادة: الكريم الحسن ﴿ونعمة﴾ متعة وعيش لئن ﴿كانوا فيها فاكهين﴾ ناعمين، وفاكهين: أشربين بطرين ﴿كذلك﴾

(١) المصدر السابق (٤/ ١٣٥ - ١٣٦).

قال الكلبي: كذلك أفعال بمن عصاني ﴿وأورثناها قوماً آخرين﴾ يعني بني إسرائيل ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾ وذلك أن المؤمن إذا مات تبكي عليه السماء والأرض أربعين صباحاً، وهؤلاء لم يكن يصعد لهم عمل صالح فتبكي السماء على فقدهم ولا لهم على الأرض عمل صالح فتبكي الأرض عليهم. ثم ساق بسنده عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من عبد إلا له في السماء بابان: باب يخرج منه رزقه، وباب يدخل فيه عمله، فإذا مات فقدها وبكيا عليه، ثم تلا: ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض ما كانوا منظرين﴾»^(١)، لم يُنظروا حين أخذهم العذاب لتوبة ولا غيرها ﴿ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين﴾ قتل الأبناء، واستحياء النساء، والتعب في العمل ﴿من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين ولقد اخترناهم﴾ يعني مؤمني بني إسرائيل ﴿على علم﴾ بهم ﴿على العالمين﴾ على عالمي زمانهم ﴿وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين﴾ قال قتادة: نعمة بيته من فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، والنعم التي أنعمها عليهم. قال ابن زيد: ابتلاهم بالرخاء والشدة وقرأ: ﴿ونبلونكم بالشر والخير فتنة﴾ انتهى ملخصاً. والله أعلم.



(١) أخرجه الترمذي (ح/٣٢٥٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/٣٢٧)، والبغوي في تفسيره (٤/١٣٦) بسند ضعيف.

الدرس السادس والخمسون بعد المائتين

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَنوَأِ بِعَابَابِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهْمَ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِيعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِيبِكَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُونِ ﴿٤٣﴾ طَعَامٌ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالثَّهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كغَلِي الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُدُوه فَاعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُوبُوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنتُمْ بِهِ تَمَتَّرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامِ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَرَوَّجْتُهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِينٍ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَتْهُمْ عَذَابِ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلَا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَرْتَهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞

* * *

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَنزَلْنَا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهْمَ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِيعَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينٍ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَن مَّوَلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ .

عن قتادة ﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ قال: قد قال مشركو العرب ﴿وما نحن بمنشرين﴾، أي: بمبعوثين. وعن مجاهد في قول الله عز وجل ﴿أهم خير أم قوم تبع﴾ قال الحميري.

قال البغوي^(١): وكان سار بالجيوش حتى حير^(٢) الحيرة، وبنى سمرقند، وكان من ملوك اليمن، سمي تبعاً لكثرة أتباعه، وكل واحد منهم يسمي تبعاً لأنه يتبع صاحبه، وكان هذا الملك يعبد النار فأسلم ودعا قومه إلى الإسلام وهم حَمِير فكذبوه، وكان من خبره ما ذكره محمد بن إسحاق وغيره؛ وذكر عكرمة عن ابن عباس قال: كان تبع الآخر — وهو أبو كرب أسعد بن مالك — حين أقبل من المشرق وجعل طريقه على المدينة، وقد كان حين مرّ بها خلف بين أظهرهم ابناً له فقتل غيلة، فقدمها وهو مجمع على خرابها واستئصال أهلها، فجمع له هذا الحي من الأنصار حين سمعوا ذلك من أمره، فخرجوا لقتاله، وكان الأنصار يقاتلون

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/١٣٧).

(٢) في (الأصل): «مصر»، والمثبت من تفسير البغوي.

بالنهار ويفرون بالليل، فأعجبه ذلك وقال: إن هؤلاء لكرام، فبينما هو كذلك إذ جاءه حبران اسمهما كعب وأسد، من أحبار بني قريظة عالمان وكان ابني عم، حين سمعا ما يريد من إهلاك المدينة وأهلها فقالا له: أيها الملك لا تفعل فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينهما ولم نأمن عليك عاجل العقوبة، فإنها مهاجر نبي يخرج من هذا الحي من قريش اسمه محمد، مولده مكة وهذه دار هجرته، ومنزلك الذي أنت به يكون به من القتل والجراح أمر كبير في أصحابه وفي عدوهم، قال تبع: من يقاتله وهو نبي؟! قالوا: يسير إلى قومه فيقتلون ههنا؛ فتناهى لقولهما عما كان يريد بالمدينة، ثم إنهما دعوا إلى دينهما فأجابهما وأتبعهما على دينهما وأكرمهما، وانصرف عن المدينة، وخرج بهما ونفر من اليهود عاندين إلى اليمن، فأتاه في الطريق نفر من هذيل وقالوا: إنا ندلك على بيت فيه كنز من لؤلؤ وزبرجد وفضة، قال: أي بيت؟ قالوا: بيت بمكة، وإنما تريد هذيل هلاكه لأنهم عرفوا أنه لم يرده أحد قط بسوء إلا هلك، فذكر ذلك للأحبار فقالوا: ما نعلم الله في الأرض بيتاً غير هذا البيت، فاتخذة مسجداً وانسك عنده وانحر واحلق رأسك، وما أراد القوم إلا هلاكك، لأنه ما ناواه أحد قط إلا هلك، فأكرمه واصنع عنده ما يصنع أهله، فلما قالوا له ذلك، أخذ النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم ثم صلبهم، فلما قدم مكة نزل الشعب — شعب البطائح — وكسا البيت الوصائل — وهو أول من كسا البيت — ونحر بالشعب ستة آلاف بدنة، وأقام به ستة أيام، وطاف به وحلق وانصرف، فلما دنا من اليمن ليدخلها حالت حمير بين ذلك وبينه، وقالوا: لا تدخل علينا وقد فارقت ديننا، فدعاهم إلى دينه وقال: إنه دين خير من دينكم، قالوا: فحاكمنا إلى النار، وكانت باليمن نار في أسفل جبل يتحاكمون إليها فيما يختلفون فيه، فتأكل الظالم ولا تضرّ المظلوم، فقال تبع: اتفقتم، فخرج القوم بأوثانهم وما يتقربون به في دينهم، وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما، حتى قعدوا للنار عند مخرجها الذي تخرج منه،

فخرجت النار فأقبلت حتى غشيتهم، فأكلت الأوثان وما قربوا معها، ومن حمل ذلك من رجال حمير، وخرج الحبران بمصاحفهما من أعناقهما يتلوان التوراة، تعرق جباههما لم تضرهما، ونكصت النار حتى رجعت إلى مخرجها الذي خرجت منه، فأصفت عند ذلك حمير على دينهما، فمن هناك كان أصل اليهودية في اليمن. وذكر أبو حاتم عن الرقاشي قال: كان أبو كرب أسعد الحميري من التبابعة، آمن بالنبي محمد ﷺ قبل أن يبعث بسبعمئة سنة، وذكر لنا أن كعباً كان يقول: «ذم الله قومه ولم يذمه. وكانت عائشة تقول: لا تسبوا تبعاً، فإنه كان رجلاً صالحاً»^(١). قال ابن كثير^(٢): وكان مما يُحفظ من شعره:

شهدت على أحمد أنه	رسول من الله باري النسم
فلو مدّ عمري إلى عمره	لكنت وزيراً له وابن عمّ
وجاهدت بالسيف أعداءه	وفرّجت عن صدره كلّ غمّ

قال: وذكر أنه ملك على قومه ثلاثمائة سنة وست وعشرين سنة، ولم يكن في حمير أطول مدة منه، وتوفي قبل مبعث النبي ﷺ بنحو من سبعمئة سنة؛ ثم لما توفي عاد قومه إلى عبادة النيران والأصنام، فعاقبهم الله تعالى كما ذكره في سورة سبأ.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَوْمَ الْفِصْلِ مِيقَاتِهِمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال قتادة: يوم يفصل فيه بين الناس بأعمالهم ﴿يَوْمَ لَا يَغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ إِلَّا مَنْ﴾

(١) أخرجه ابن جرير (١٢٨/٢٥)، والحاكم (٤٥٠/٢)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وروي مرفوعاً من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، أخرجه أحمد (٣٤٠/٥)، والطبراني كما في «مجمع البحرين» (٤٢٦/٦)، والبغوي في تفسيره (١٣٨/٤)، بسند ضعيف، وله شاهد به حديث ابن عباس مرفوعاً أخرجه الطبراني في «المصدر السابق» (٤٢٦/٦) بسند ضعيف.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١٤٤/٤).

رحم الله إنه هو العزيز الرحيم ﴿ قال قتادة: انقطعت الأسباب يومئذِ بآدم وصار الناس إلى أعمالهم، فمن أصاب يومئذِ خيراً سعد به آخر ما عليه، ومن أصاب يومئذِ شراً شقي به آخر ما عليه.

قوله عز وجل: ﴿ **إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ** ﴿٤٣﴾ **طَعَامٌ الْأَيْمِ** ﴿٤٤﴾ **كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ** ﴿٤٥﴾ **كَغَلِي الْحَمِيمِ** ﴿٤٦﴾ **خَذُوهُ فَاَعْتَلُوهُ إِنْ سَوَاءِ الْجَحِيمِ** ﴿٤٧﴾ **ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ** ﴿٤٨﴾ **ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ** ﴿٤٩﴾ **إِنْ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ** ﴿٥٠﴾.

عن همام بن الحارث أن أبا الدرداء كان يقرئ رجلاً ﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم﴾ فقال: طعام اليتيم، فقال أبو الدرداء قل: إن شجرة الزقوم طعام الفاجر. وعن ابن عباس في قوله: ﴿كالمهل﴾ ماء غليظ كدُردي الزيت؛ وعنه أنه رأى فضة قد أذيت فقال: هذا المهل. وعن مجاهد قوله: ﴿خذوه فاعتلوه﴾ قال: خذوه فادفعوه ﴿إلى سواء الجحيم﴾ قال قتادة: وسط النار. وعن عكرمة قال: لقي رسول الله ﷺ أبا جهل — لعنه الله — فقال: ﴿إن الله تعالى أمرني أن أقول لك ﴿أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى﴾﴾^(١) قال: فنزع ثوبه من يده وقال: ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء، ولقد علمت أنني أمتع أهل البطحاء وأنا العزيز الكريم، قال: فقتله الله تعالى يوم بدر وأذله وغيّره بكلمته وأنزل ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾^(٢). قال البغوي^(٣): ﴿إن هذا ما كنتم به تمترون﴾ تشكون فيه ولا تؤمنون به.

قوله عز وجل: ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ** ﴿٥١﴾ **فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ** ﴿٥٢﴾

(١) سورة القيامة: الآيتان ٣٤ و ٣٥.

(٢) عزاه السيوطي في «الدر» (٧٥٢/٥): إلى الأموي في مغازيه.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (١٣٩/٤).

يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ
عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ أَمِينٍ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ
إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعْنَا لَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلَّأَ مِنْ رَبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَرْتَهُ لِبَلْسَانِكَ لَعَأَهُمْ بِتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ
مُرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿إن المتقين في مقام أمين﴾ إي واللّه، أمين من الشيطان والأوصاب والأحزان. ﴿في جنّات وعيون يلبسون من سندس﴾ قال ابن كثير: وهو رقيق الحرير كالقمصان ونحوها؛ ﴿واستبرق﴾ وهو ما فيه بريق ولمعان، وذلك كالرياش وما يلبس على أعالي القماش ﴿متقابلين﴾، أي: على السرر، لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره.

﴿كذلك وزوّجناهم﴾ قال البغوي: أي كما أكرمناهم بما وصفنا من الجنّات والعيون واللباس، كذلك أكرمناهم بأن زوّجناهم ﴿بحور عِين﴾ قال قتادة: بيض عِين ﴿يدعون فيها بكل فاكهة آمين﴾ أمِنوا من الموت والأوصاب والشيطان ﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ قال ابن كثير^(١): هذا استثناء يؤكّد النفي، فإنه استثناء منقطع ومعناه: أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار ثم يذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت»^(٢). وعن أبي سعيد وأبي هريرة قالا: قال رسول الله ﷺ: «يقال لأهل الجنة: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١٤٦/٤).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٧٣٠)، ومسلم (ح/٢٨٤٧)، من حديث أبي سعيد الخدري

رضي الله عنه.

أبدأ، وإن لكم أن تنعموا فلا تأسوا أبدأ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدأ»^(١).
رواه مسلم وغيره.

وقوله تعالى: ﴿ووقاهم عذاب الجحيم﴾، أي: ومع هذا النعيم، نجّاهم من العذاب الأليم ﴿فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم﴾. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «اعملوا وسدّوا وقاربوا، واعلموا أن أحداً لن يدخله عمله الجنة»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمّدي الله برحمة منه وفضل»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فإنما يسرناه﴾، أي: القرآن ﴿بلسانك لعلهم يتذكّرون﴾ يتفهّمون ويتعظّون ويعملون؛ ثم قال تعالى مسلماً لرسوله وواعداً له بالنصر ﴿فارتقب﴾، أي: انتظر ﴿إنهم مرتقبون﴾، أي: فسيعلمون لمن تكون العاقبة.



(١) أخرجه مسلم (ح/٢٨٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٥٦٧٣ و٦٤٦٣)، ومسلم (٤/٢١٦٩ — ٢١٧٠).

الدرس السابع والخمسون بعد المائتين

﴿سورة الجاثية﴾

مكية ، وهي سبع وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حَمْدٌ ۙ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥﴾ وَيَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٦﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٨﴾ وَرَأَيْتُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُعْنَى عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١٠﴾ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٢﴾ قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٣﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٤﴾ ۝

قوله عز وجل: ﴿حَمَّ ۙ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۙ﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَأَخْلَافَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ .

قال ابن كثير^(١): يرشد تعالى خلقه إلى التفكر في آلائه ونعمه وقدرته العظيمة، التي خلق بها السموات والأرض وما فيها من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع، من الملائكة، والجن، والإنس، والدواب، والطيور، والوحوش، والسباع، والحشرات، وما في البحر من الأصناف المتنوعة ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ في تعاقبهما دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضياؤه ﴿وما أنزل الله﴾ تبارك وتعالى من السحاب من المطر في وقت الحاجة إليه، وسمّاه رزقاً لأن به يحصل الرزق ﴿فأحيا به الأرض بعد موتها﴾، أي: بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء.

وقوله عز وجل: ﴿وتصريف الرياح﴾، أي: جنوباً وشمالاً ودبوراً وصبأً، برية وبحرية، ليلية ونهارية، ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو للّقاح، ومنها ما هو غذاء للأرواح، ومنها ما هو عقيم لا ينتج. وقال سبحانه وتعالى أولاً: ﴿لآيات للمؤمنين﴾ ثم: ﴿يوقنون﴾ ثم: ﴿يعقلون﴾ وهو ترقُّ من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى، وهذه الآيات شبيهة بآية البقرة^(٢)، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/١٤٧).

(٢) سورة البقرة: الآية ١٦٤.

ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴿١١﴾.

قوله عز وجل: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١﴾ وَبَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةً بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥﴾ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجِزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾.

قال ابن كثير^(١): يقول تعالى: ﴿تلك آيات الله﴾ يعني القرآن، بما فيه من الحجج والبيّنات: ﴿تتلوها عليك بالحق﴾، أي: متضمنة الحق من الحق، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينفقون لها ﴿فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟﴾ ثم قال تعالى: ﴿ويل لكل أفّاك أثيم﴾، أي: أفّاك في قوله، كذاب حلاف مهين ﴿أثيم﴾ في فعله وقلبه، كفر بآيات الله؛ ولهذا قال: ﴿يسمع آيات الله تُنلى عليه﴾، أي: تُقرأ عليه ﴿ثم يصر﴾، أي: على كفره وجحوده استكباراً وعناداً: ﴿كان لم يسمعها﴾، أي: كأنه ما سمعها ﴿فبشره بعذاب أليم﴾ فأخبره أن له عند الله تعالى يوم القيامة عذاباً أليماً موجعاً ﴿وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزوا﴾، أي: إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به واتخذ سخرية وهزواً ﴿أولئك لهم عذاب مهين﴾، أي: في مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به؛ ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده فقال: ﴿من ورائهم جهنم﴾، أي: كل من اتصف بذلك سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة ﴿ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً﴾، أي: لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم

(١) المصدر السابق (٤/١٤٨).

﴿ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء﴾، أي: ولا تغني عنهم الآلهة التي عبدوها من دون الله شيئاً ﴿ولهم عذاب عظيم﴾. ثم قال تبارك وتعالى: ﴿هذا هدى﴾ يعني القرآن ﴿والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز اليم﴾.

قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرَىٰ أَلْفَاكٌ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَسْتَبْنَؤُا مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَن عَمِلَ صٰلِحًا فَلِنَفْسِهِ ۗ وَمَن أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

قال ابن كثير^(١): يذكر تعالى نعمه على عبده فيما سخر لهم من البحر ﴿لتجري الفلك﴾ وهي السفن ﴿فيه بأمره﴾ تعالى، فإنه هو الذي أمر البحر بحملها ﴿ولتبتغوا من فضله﴾، أي: في المتاجر والمكاسب ﴿ولعلكم تشكرون﴾، أي: على حصول المنافع المجلوبة إليكم من الأقاليم النائية والآفاق القاصية. ثم قال عز وجل: ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض﴾، أي: من الكواكب والجبال والبحار والأنهار، وجميع ما تنتفعون به، أي: الجميع من فضله وإحسانه، ولهذا قال: ﴿جميعاً منه﴾، أي: من عنده وحده لا شريك له في ذلك، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله﴾، أي: ليصفحوا عنهم ويتحملوا الأذى منهم، وكان هذا في ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب ليكون ذلك كالتأليف لهم، ثم لما أصرّوا

(١) المصدر السابق (٤/١٤٨).

(٢) سورة الرعد: الآية ٣.

على العناد شرع الله للمؤمنين الجهاد والجهاد. وقال البغوي^(١): ﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله﴾، أي: لا يخافون وقائع الله ولا يبالون نقمته. قال ابن كثير^(٢): وقوله تبارك وتعالى: ﴿ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون﴾، أي: إذا صفحوا عنهم في الدنيا، فإن الله عز وجل مجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون﴾، أي: تعودون إليه يوم القيامة، فتعرضون بأعمالكم عليه فيجزىكم بأعمالكم خيرها وشرها، والله سبحانه وتعالى أعلم.



(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/١٤٢).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/١٤٩).

الدرس الثامن والخمسون بعد المائتين

﴿ وَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيرَتِي لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُنزلتْ عَلَيْنَا آيَاتُنَا بَِيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْسِرُ الْمُجِبِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَرَأَىٰ كُلُّ أُمَّةٍ جَآئِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا

كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ
 رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٢٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَى
 عَلَيْهِمْ فَاَسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا تُجْرِمِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ
 مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿٣٣﴾ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا
 عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا
 وَمَأْوَاكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرِينَ ﴿٣٥﴾ ذَلِكَ بِأَنكُمْ أَخَذْتُمْ ءَايَةَ اللَّهِ هُرُوءًا وَغَرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ
 الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْمَعُونَ ﴿٣٦﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ
 الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
 الْحَكِيمُ ﴿٣٨﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَعَايَنَاهُمْ بِبِنْتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا يَنْهَاهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصَّارٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ .

قال ابن جرير^(١): يقول تعالى ذكره: ﴿ولقد آتينا﴾ يا محمد ﴿بني إسرائيل الكتاب﴾ يعني التوراة والإنجيل ﴿والحكم﴾ يعني الفهم بالكتاب والعلم بالسنن التي لم تنزل في الكتاب ﴿والنبوَّة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين﴾ قال ابن عباس: لم يكن أحد من العالمين في زمانهم أكرم على الله ولا أحب إليه منهم. وعن قتادة قوله: ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها﴾ والشريعة: الفرائض والحدود والأمر والنهي ﴿فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾ .

وقال ابن زيد في قوله: ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر﴾ قال: الشريعة الدين، وقرأ: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك﴾ قال: فنوح أولهم وأنت آخرهم. وقال في قوله: ﴿هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون﴾ قال: القرآن. قال: هذا كله إنما هو في القلب، قال: والسمع والبصر في القلب، وقرأ: ﴿فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور﴾

(١) انظر «جامع البيان» (١٤٦/٢٥).

وليس ببصر الدنيا ولا بسمعها.

قوله عز وجل: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عِثْرَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ .

عن قتادة ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم﴾ لعمرى لقد تفرق القوم في الدنيا، وتفرقوا عند الموت، فتباينوا في المصير. وقال البغوي^(١): ﴿أم حسب﴾ بل حسب ﴿الذين اجترحوا السيئات﴾ اكتسبوا المعاصي والكفر ﴿أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ نزلت في نفر من مشركي مكة قالوا للمؤمنين: لئن كان ما تقولون حقاً لنفضلن عليكم في الآخرة كما فضلنا عليكم في الدنيا. ﴿سواء محياهم﴾ يعني أحسبوا أن حياة الكافرين ومماتهم، كحياة المؤمنين وموتهم سواء؟ كلاً ﴿سواء ما يحكمون﴾ بش ما يقضون.

وعن ابن عباس ﴿أفرايت من اتخذ إلهه هواه﴾ قال: ذلك الكافر اتخذ دينه بغير هدى من الله ولا برهان. وقال قتادة: لا يهوى شيئاً إلا ركب، لا يخاف الله ﴿وأضله الله على علم﴾. قال ابن عباس: أضله الله في سابق علمه. قال ابن كثير^(٢): وقوله: ﴿وأضله الله على علم﴾ يحتمل قولين: أحدهما: وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك، والآخر: وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجّة عليه؛ والثاني يستلزم الأول ولا ينعكس. ﴿وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/١٤٣).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/١٥٠).

غشاوة ﴿٢٤﴾، أي: فلا يسمع ما ينفعه ولا يعي شيئاً يهتدي به، ولا يرى حجة يستضيء بها، ولهذا قال تعالى: ﴿فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

عن قتادة ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا﴾، أي: لعمرى، هذا قول مشركي العرب. وعن أبي هريرة مرفوعاً قال: «كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، هو الذي يهلكنا ويميتنا ويحيينا، فقال الله في كتابه ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾ قال: فيسبون الدهر، فقال الله تبارك وتعالى: «يؤذيني ابن آدم، سب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار»^(١). رواه ابن جرير. وقال ابن كثير^(٢): يخبر تعالى عن قول الدهرية ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا﴾، أي: ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولا قيامة؛ وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون المعاد، وتقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البداءة والرجعة، وتقوله الفلاسفة الدهرية الدورية^(٣) المنكرون للصانع، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا: ﴿وما يهلكنا إلا الدهر﴾،

(١) بهذا اللفظ أخرجه ابن جرير (١٥٢/٢٥)، والحاكم (٤٥٣/٢)، وصححه، ووافقه الذهبي، والحديث مخرج في الصحيحين؛ لكن دون طرفه الأول، وهو قوله: «كان أهل الجاهلية...»، وقد سبق تخريجه.

(٢) المصدر السابق (٤/١٥٠).

(٣) في «تفسير ابن كثير»: «الدورية».

قال الله تعالى: ﴿وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يبطون﴾، أي: يتوهمون ويتخيلون.

قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِدُ
يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَطَّقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾
وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَأَتَى تِكُنْ ءَايَتِي تَتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا تُجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا
قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ
بِمُسْتَفِيقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴿٣٣﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَقِيلَ
الْيَوْمَ نَنسَخُ مَا نَسَخْنَا كَمَا نَسَخْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوئِكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّصِيرِينَ ﴿٣٥﴾ ذَلِكَ
بِأَنَّكُمْ أَخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَعَرَّضْتُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا قَالِيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ
يُسْعَفُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ .

قال ابن زيد في قوله: ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ قال: هذا يوم القيامة، جاثية على ركبهم. قال ابن كثير^(١): وقوله عز وجل: ﴿كل أمة تدعى إلى كتابها﴾ يعني كتاب أعمالها، كقوله جل جلاله: ﴿ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء﴾^(٢) ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿اليوم تجزون ما كنتم تعملون﴾. ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾، أي: يستحضر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص، كقوله جل جلاله: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما

(١) المصدر السابق (١٥١/٤).

(٢) سورة الزمر: الآية ٤٩.

لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً^(١).

وقوله عز وجل: ﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾، أي: إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم. وعن ابن عباس ﴿وقيل اليوم ننساكم﴾ نترككم. وفي الحديث: «قال الله تعالى للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشياء، وقال للنار: أنت عذابي أعذب بك من أشياء، ولكليهما عليّ ملؤها»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فلله الحمد ربّ السموات وربّ الأرض ربّ العالمين وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾، قال ابن جرير^(٣): يقول: وله العظمة والسلطان في السموات والأرض دون ما سواه من الآلهة والأنداد، وهو العزيز في نعمته من أعدائه، القاهر كلّ ما دونه ولا يقهره شيء، الحكيم في تدبيره خلقه وتصريفه إياهم، فيما شاء كيف شاء.



(١) سورة الكهف: الآية ٤٩.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٨٥٠، و٧٤٤٩)، ومسلم (٤/٢١٨٦ — ٢١٨٧) من حديث

أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر «جامع البيان» (١٥٩/٢٥).

الدرس التاسع والخمسون بعد المائتين

﴿سورة الأحقاف﴾

مكية، وهي خمس وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ
أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ
أَتُوفَىٰ بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَتُرْفَقُونَ عَلَيْهِمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ
أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ
غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ
إِنْ افْتَرَيْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي
وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا
بِكُمْ إِنْ أُنِيعَ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ
اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَنْ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنْكَ اللَّهُ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا

إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَىٰ
 إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُبَشِّرَ
 لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
 يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا
 الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا
 حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ
 عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنْتُ إِلَيْكَ وَإِلَىٰ
 مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي
 أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا
 أَنْعَدَانِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِغِيَانِ اللَّهَ وَيَلُكُ ءَامِنٌ إِنَّ وَعْدَ
 اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي
 أَمْرِ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا
 عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَذَّيْتُمْ
 طَيِّبِينَكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ
 تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنتُمْ تَنْفُسُونَ ﴿٢٠﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿حَمَّ ۝١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ۝٣ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ۗ أَتُنَادِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٤ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝٦﴾ .

قال ابن كثير^(١): يخبر تعالى أنه أنزل الكتاب على عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، ووصف نفسه بالعزة التي لا ترام، والحكمة في الأقوال والأفعال، ثم قال تعالى: ﴿ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾، أي: لا على وجه العبث والباطل ﴿وأجل مسمى﴾، أي: وإلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص، قال البغوي^(٢): يعني يوم القيامة، وهو الأجل الذي تنتهي إليه السموات والأرض. ﴿والذين كفروا عما أُنذروا﴾ خوفاً به في القرآن ﴿معرضون﴾. ﴿قل أرايتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات اتنوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين﴾ قال الكلبي: أي بقية من علم يؤثر عن الأولين، أو سند إليهم. ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/١٥٣).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/١٤٧).

عن دعائهم غافلون ﴿ كما قال تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين﴾ .

﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ (١) كما قال تعالى: ﴿ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت وليتنا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿والذين يدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير﴾ (٣).

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنرَبُّهُ قُلٌّ إِنْ أَفَرَرْتَهُ فَلَا تَمَلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا يَكْمُرُ إِنِّي أُنبِئُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِ كَتَبُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا

(١) سورة الأحقاف: الآية ٦ .

(٢) سورة سبأ: الآية ٤٠ .

(٣) سورة فاطر: الآية ١٣ .

رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ
خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ .

قال البغوي^(١): ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين﴾ يسمون القرآن سحراً ﴿أم يقولون افتراه﴾ محمد من قبل نفسه؟ فقال الله عز وجل: ﴿قل﴾ يا محمد ﴿إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً﴾ لا تقدرون أن تردوا عني عذابه إن عذبتني على افترائي، فكيف أفترى على الله من أجلكم؟ ﴿هو أعلم﴾، أي: الله أعلم ﴿بما تفيضون فيه﴾ تخوضون فيه من التكذيب بالقرآن والقول فيه: إنه سحر ﴿كفى به شهيداً بيني وبينكم﴾ أن القرآن جاء من عنده ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ في تأخير العذاب عنكم. قال الزجاج: هذا دعاء لهم إلى التوبة، معناه: إن الله عز وجل غفور لمن تاب منكم رحيم به. ﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل﴾، أي: لست بأول مرسل، قبلي كثير من الأنبياء فكيف تنكرون نبوتي؟ ﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ قال ابن عباس: فأنزل الله بعد هذا: ﴿ليغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾.

قال ابن كثير^(٢): وقوله: ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلي﴾، أي: ما أتبع إلا ما ينزله الله علي من الوحي ﴿وما أنا إلا نذير مبين﴾، أي: بين النذارة، أمري ظاهر لكل ذي لب وعقل ﴿قل أرأيتم﴾ قال البغوي معناه: أخبروني ماذا تقولون ﴿إن كان﴾ يعني القرآن ﴿من عند الله وكفرتم به﴾ أيها المشركون ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ عن مسروق ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾ يخاصم به الذين كفروا من أهل مكة، التوراة مثل القرآن، وموسى مثل محمد ﷺ ﴿فآمن واستكبرتم﴾ قال: آمن هذا الذي من بني إسرائيل بنبيّه وكتابه ﴿واستكبرتم﴾ أنتم فكذبتم نبيكم وكتابكم. وقال

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/١٤٨).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/١٥٥).

قتادة: كنا نحدّث أنه عبد الله بن سلام، آمن بكتاب الله وبرسوله وبالإسلام، وكان من أحبار اليهود. قال ابن كثير^(١): وهذا الشاهد اسم جنس، يعمّ عبد الله بن سلام وغيره، فإن هذه الآية مكيّة نزلت قبل إسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه. وعن قتادة: ﴿وقال الذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾ قال: قال ذاك أناس من المشركين: نحن أعزّ ونحن ونحن، فلو كان خيراً ما سبقنا إليه فلان وفلان، فإن الله يختصّ برحمته من يشاء. قال البغوي^(٢): قال الله تعالى: ﴿وإذ لم يهتدوا به﴾ يعني بالقرآن، كما اهتدى أهل الإيمان ﴿فسيقولون هذا إفك قديم﴾ كما قالوا: أساطير الأولين ﴿ومن قبله﴾، أي: ومن قبل القرآن ﴿كتاب موسى﴾ يعني التوراة إماماً يقتدى به ﴿ورحمته﴾ من الله لمن آمن به ﴿وهذا كتاب مصدق﴾، أي: القرآن مصدق للكتب التي قبله ﴿لساناً عربياً﴾ نصب على الحال، وقيل: بلسان عربي لينذر الذين ظلموا وبشرو للمحسنين ﴿قال ابن كثير^(٣): أي مشتمل على النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين.

«لقد
كفرنا
بالقرآن»

قوله عز وجل: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنَيْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَحْسَنِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

عن قتادة: ﴿حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً﴾ يقول: حملته مشقةً ووضعته مشقةً. وعن ابن عباس قال: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع أحد

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١٥٦/٤).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (١٥٠/٤).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١٥٦/٤).

وعشرون شهراً، وإذا وضعته لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعته لستة أشهر فحولين كاملين، لأن الله تعالى يقول: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾. وقال ابن كثير^(١): ﴿حتى إذا بلغ أشده﴾، أي: قوي وشب وارتجل ﴿وبلغ أربعين سنة﴾، أي: تنهى عقله وكمل فهمه وحلمه، ويقال: إنه لا يتغير غالباً عما يكون عليه ابن الأربعين. قال مسروق: إذا بلغت الأربعين فخذ حذرك. وقال الحجاج بن عبد الله الحكمي أحد أمراء بني أمية بدمشق: تركت المعاصي والذنوب أربعين سنة حياء من الناس، ثم تركتها حياء من الله عز وجل. وعن قتادة: ﴿وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني﴾ حتى بلغ: ﴿من المسلمين﴾ وقد مضى من سيئ عمل ما مضى ﴿أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا﴾ قال البغوي^(٢): يعني أعمالهم الصالحة التي عملوها في الدنيا، وكلها حسن، والأحسن بمعنى الحسن، فيثيبهم عليها ﴿ونتجاوز عن سيئاتهم﴾ فلا نعاقبهم عليها ﴿في أصحاب الجنة﴾ مع أصحاب الجنة ﴿وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾ وهو قوله عز وجل: ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدَيْهِ أُفٍ لَكُمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِihanِ اللَّهِ وَبِالْكَ ءَامِنٌ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوقِفَهُمْ أَعمالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظالمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أذهبتم طيبتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون ﴿٢٠﴾﴾.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/١٥٧).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/١٥١).

عن الحسن في قوله: ﴿والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج﴾
قال: هو الكافر الفاجر العاق لوالديه، المكذّب بالبعث. وقال ابن زيد في قوله:
﴿ولكلّ درجات ممّا علموا﴾ قال: درج أهل النار يذهب سفالاً، ودرج أهل الجنّة
يذهب علوّاً. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ
فإذا هو مضطجع على رمال حصير، قد أثر الرمال بجنبه، فقلت: يا رسول الله ادع
الله ليوسّع على أمتك، فإن فارس والروم قد وسّع عليهم وهم لا يعبدون الله فقال:
«أولئك قوم قد عجلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا»^(١). وقال أبو مجلز: ليفقدنّ
أقوام حسنات كانت لهم في الدنيا، فيقال لهم: ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم
الدنيا﴾ والله أعلم.



(١) أخرجه البخاري (ح/٢٤٦٨).

الدرس الستون بعد المائتين

﴿ وَذَكَرَ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذِيرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُؤْفِكَ عَنِ الْهَيْئَةِ فَأِنَّا بِمَا نَعْبُدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِنُكُمْ قَوْمًا بَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُطْمِرٌ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ

مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعَى بِخَلْقِهِنَّ بِقَدِيرٍ
عَلَىٰ أَنْ يُجِىءَ الْمَوْتُ بَلِغٌ إِنَّهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى
النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾
فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا
يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلِغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَأَذْكُرُ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ
النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَحِثَّنَا إِنَّا فُكِّنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ
الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبْلِغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِنُكُمْ قَوْمًا
يَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا
اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى
إِلَّا مَسَكِنَتُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ
وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا
أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ
وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٢٨﴾ .

قال البغوي^(١): قوله عز وجل: ﴿واذكر أخا عاد﴾ يعني هوداً ﴿إذ أنذر قومه
بالأحقاف﴾ قال ابن عباس: الأحقاف وإد بين عمان ومهرة. وقال مقاتل: كانت
منازل عاد باليمن في حضرموت، بموضع يقال له مهرة، وإليها تنسب الإبل
المهرية، وكانوا أهل عمل سيارة في الربيع، فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم،
وكانوا من قبيلة إرم. قال قتادة: ذكر لنا أن عاداً كانوا حياً باليمن، وكانوا أهل رمل

(١) انظر معالم التنزيل (٤/١٥٣ - ١٥٤).

مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر، والأحقاف: جمع حقف، وهي المستطيل المعوجّ من الرمال؛ قال ابن زيد: هي ما استطال من الرمل ولم يبلغ أن يكون جبلاً؛ قال الكسائي: هي ما استطال من الرمل ﴿وقد خلت النذر﴾ مضت الرسل ﴿من بين يديه﴾، أي: من قبل هود ﴿ومن خلفه﴾ إلى قومهم ﴿ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم قالوا أجتئنا لتأفكنا﴾ لتصرفنا: ﴿عن آلهتنا﴾، أي: عن عبادتها: ﴿فأنتنا بما تعدنا﴾ من العذاب ﴿إن كنت من الصادقين﴾ أن العذاب نازل بنا ﴿قال﴾ هود: ﴿إنما العلم عند الله﴾ وهو يعلم متى يأتيكم العذاب ﴿وأبلغكم ما أرسلت به﴾ من الوحي إليكم ﴿ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾. ﴿فلما رأوه﴾ يعني ما يوعدون به من العذاب ﴿عارضاً﴾ سحاباً ﴿مستقبل أوديتهم﴾ فخرجت عليهم سحابة سوداء من واد لهم يقال له المغيث، وكانوا قد حبس عنهم المطر، فلما رأوها استبشروا ﴿قالوا هذا عارض ممطرنا﴾ يقول الله تعالى: ﴿بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم﴾ فجعلت الريح تحمل الفسطاط وتحمل الطعينة حتى ترى كأنها جرادة ﴿تدمر كل شيء﴾ مرت به من رجال عاد وأموالها ﴿بأمر ربها﴾ فأول ما عرفوا أنها عذاب، رأوا ما كان خارجاً من ديارهم من الرجال والمواشي تطير بهم الريح بين السماء والأرض، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم، فجاءت الريح فقلعت أبوابهم وصرعتهم، وأمر الله الريح فأملت عليهم الرمال، وكانوا تحت الرمل، سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين، ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمال، فاحتلمتهم فرمت بهم في البحر.

ثم ساق بسنده عن عائشة أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه بياض لهواته، وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرِف ذلك في وجهه فقلت: يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيها المطر، وإذا رأته عُرِف في وجهك الكراهية! فقال: «يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب، فقالوا: ﴿هذا عارض

﴿مطرنا﴾ الآية^(١). ﴿فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم﴾ لأن السكان والأنعام بادت بالريح، فلم يبق إلا هود ومن آمن معه ﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾.

﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه﴾ يعني فيما لم نمكنكم فيه من قوة الأبدان، وطول العمر، وكثرة المال ﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ولقد أهلكنا ما حولكم﴾ يا أهل مكة من القرى كحجر ثمود وأرض سدوم ونحوهما ﴿وصرفنا الآيات﴾ الحجج والبيّنات ﴿لعلهم يرجعون﴾ عن كفرهم فلم يرجعوا فأهلكناهم؛ يخوف مشركي مكة. ﴿فلولا﴾ فهلاً ﴿نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة﴾ يعني الأوثان التي اتخذوها آلهة يتقربون بها إلى الله عز وجل ﴿بل ضلوا عنهم﴾ قال مقاتل: بل ضلت الآلهة عنهم فلم تنفعهم عند نزول العذاب ﴿وذلك إفكهم﴾، أي: كذبهم الذي كانوا يقولون أنها تقربهم إلى الله عز وجل وتشفع لهم ﴿وما كانوا يفترون﴾ يكذبون أنها آلهة. انتهى ملخصاً. وقال ابن كثير^(٢): ﴿وذلك إفكهم﴾، أي: كذبهم ﴿وما كانوا يفترون﴾، أي: وافترأهم في اتخاذهم إياهم آلهة، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها واعتمادهم عليها.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِبِّ يَسْتَعْمُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَتَّقُونَ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَتَّقُونَ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ

(١) أخرجه البخاري (ج/٤٨٢٨ و ٤٨٢٩)، ومسلم (٢/٦١٦ و ٦١٧).

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم (٤/١٦٢).

مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٧﴾ .

قال البغوي^(١): قوله عز وجل: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن﴾ الآية، قال المفسرون: لما مات أبو طالب، خرج رسول الله ﷺ وحده إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصر والمنعة له من قومه، فروى محمد بن إسحاق عن يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال: لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف، عمد إلى نفر من ثقيف - وهم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم - وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل، ومسعود، وحبيب بنو عمرو بن عمير، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم به من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال له أحدهم هو يمرط ثياب الكعبة: إن كان الله أرسلك؟ وقال الآخر: ما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟ وقال الثالث: والله لا أكلّمك كلمة أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول، لأنت أعظم خطراً من أردّ عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله فما ينبغي لي أن أكلّمك، فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يش من خير ثقيف وقال لهم: «إن فعلتم ما فعلتم فاكنموه علي»، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه فيزيدهم عليه ذلك، فلم يفعلوا وأغوا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما فيه، فرجع عنه سفهاء ثقيف ومن كان تبعه، فعمد إلى ظلّ حبلّة من عنب فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من سفهاء ثقيف، ولقد لقي رسول الله ﷺ تلك المرأة من بني جمح فقال لها: «ماذا لقينا من أحمائك؟» فلما اطمان رسول الله ﷺ قال: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس وأنت أرحم الراحمين، أنت ربّ المستضعفين وأنت ربّي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أو إلى عدوّ ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي

(١) المصدر السابق (٤/١٥٥).

أوسع لي، أعود بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك، لك العتبي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك». فلما رأى ابنا ربيعة ما لقي تحركت إليه رحمهما، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عدّاس، فقالا له: خذ قطعاً من هذا العنب وضعه في ذلك الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه، ففعل ذلك عدّاس؛ ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، فلما وضع رسول الله ﷺ يده قال: «بسم الله» ثم أكل، فنظر عدّاس إلى وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة! فقال له رسول الله ﷺ: «من أيّ البلاد أنت يا عدّاس، وما دينك؟» قال: أنا نصرانيّ، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال له رسول الله ﷺ: «أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟» قال له: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبيّ». فأكبّ عدّاس على رسول الله ﷺ فقبل رأسه ويديه وقدميه. قال: فيقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك؛ فلما جاءهم عدّاس قالوا له: ويلك يا عدّاس، مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟! قال: يا سيدي ما في الأرض خير من هذا الرجل، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبيّ، فقال: ويحك يا عدّاس، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه. ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة حين يئس من خير ثقيف، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصليّ، فمرّ به نفر من جنّ أهل نصيبين فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولّوا إلى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابوا لما سمعوا، فقصّ الله خبرهم عليه فقال: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن﴾^(١) الآية.

(١) أخرجه ابن جرير في تاريخه (٥٥٤/١) عن محمد بن كعب مرسلًا، وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٤١٤/٢ — ٤١٦) عن الزهري مرسلًا، وانظر: «سيرة ابن هشام» (٧٠/٢) —

ثم ساق بسنده عن ابن عباس قال: انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، فأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاريها فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء؟ فهالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا: ﴿إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنّا به ولن نشرك بربنا أحداً﴾ فأنزل الله على نبيّه: ﴿قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن﴾ وإنما أوحى إليه قول الجن^(١).

قوله عز وجل: ﴿وإذ صرفنا إليك نفرأ من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا﴾ قالوا: صه. وروي في الحديث: «إن الجن ثلاثة أصناف: صنف لهم أجنحة يطرون بها في الهواء، وصنف حيّات وكلاب، وصنف يحلّون ويظعنون»^(٢): ﴿فلما حضروه﴾ قال بعضهم لبعض: ﴿أنصتوا﴾ اسكتوا لنستمع إلى قراءته، فأنصتوا واستمعوا القرآن ﴿فلما قضي ولّوا إلى قومهم منذرين﴾ مخوفين داعين بأمر رسول الله ﷺ ﴿قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحقّ وإلى طريق مستقيم﴾ قال عطاء: كان دينهم اليهودية، لذلك قالوا: ﴿إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى﴾، ﴿يا قومنا أجيئوا داعي الله﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجرّكم من عذاب أليم﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: فاستجاب لهم من قومهم نحو من سبعين رجلاً من الجن،

(١) أخرجه البخاري (ح/٧٧٣ و ٤٩٢١)، ومسلم (ح/٤٤٩).

(٢) أخرجه الطبراني (٢٢/٢١٥)، وأبو الشيخ في «العظمة» (ح/١٠٨٧)، والحاكم (٢/٤٥٦)، وصححه، ووافقه الذهبي، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/١٣٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/١٣٠)، من حديث أبي ثعلبة الخشني، وهو حديث صحيح.

فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فوافوه بالبطحاء، فقرأ عليهم القرآن وأمرهم ونهاهم ﴿ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض﴾ لا يعجز الله فيفوته ﴿وليس له من دونه أولياء﴾ أنصار يمنعونه من الله ﴿أولئك في ضلال مبين﴾ انتهى ملخصاً. وقال ابن كثير: فدعوا قومهم بالترغيب والترهيب، ولهذا نجح في كثير منهم، وجاءوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً وفوداً. والله أعلم.

قوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرْنَا الْأُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلِّغْ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾ .

قال البغوي ﴿ولم يعي بخلقهن﴾ لم يعجز عن إبداعهن. وقال ابن كثير: يقول تعالى: أو لم ير هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة، المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد ﴿أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن﴾، أي: ولم يلوته خلقهن، بل قال لها: كوني فكانت، بلا ممانعة ولا مخالفة بل طائعة مجيبة خائفة وجللة، أفليس ذلك ﴿بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير﴾. وقوله تعالى: ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾ قال عطاء الخراساني: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ. وقال ابن زيد في قوله: ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾ قال: كل الرسل كانوا أولي عزم، لم يتخذ الله رسولاً إلا كان ذا عزم، فاصبر كما صبروا. وقال بعضهم: الأنبياء كلهم أولوا عزم إلا يونس بن متى، لعجلة كانت منه ألا ترى أنه قيل للنبي ﷺ: ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾. وقال البغوي: قوله تعالى: ﴿ولا تستعجل لهم﴾،

أي: ولا تستعجل العذاب لهم، فإنه نازل بهم لا محالة؛ كان ضَجِرَ بعض الضجر، فأحب أن ينزل العذاب بمن أبى منهم، فأمر بالصبر وترك الاستعجال، ثم أخبر عن قرب العذاب فقال: ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون﴾ من العذاب في الآخرة ﴿لم يلبثوا﴾ في الدنيا ﴿إلا ساعة من نهار﴾، أي: إذا عاينوا العذاب صار طول لبثهم في الدنيا والبرزخ كأنه ساعة من نهار، لأن ما يمضي وإن كان طويلاً، كأنه لم يكن. ثم قال: ﴿بلاغ﴾، أي: هذا القرآن وما فيه من البيان بلاغ من الله إليكم، والبلاغ بمعنى التبليغ ﴿فهل يهلك﴾ بالعذاب إذا نزل ﴿إلا القوم الفاسقون﴾؟ الخارجون من أمر الله. قال الزجاج: تأويله: لا يهلك مع رحمة الله وفضله إلا القوم الفاسقون؛ ولهذا قال قوم: ما في الرجاء لرحمة الله آية أقوى من هذه الآية. وقال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾، أي: لا يهلك على الله إلا هالك، وهذا من عدله عز وجل أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب. والله أعلم.



الدرس الحادي والستون بعد المائتين

﴿سورة محمد ﷺ﴾

مدنية، وهي ثمان وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الرِّبَاطَ فَمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءَةٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُنُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴿٤﴾ سَيِّئَاتِهِمْ وَيُضَلِّحُ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَيُضَلِّحُ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَيُضَلِّحُ بِأَلْسِنَتِهِمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴿٦﴾ بِتَأْيِيدِ اللَّهِ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهُ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنْ اللَّهُ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾

وَكَايِنٍ مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾
 أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيْنَتٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٤﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي
 وَعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّن خَمْرٍ
 لَّذَّةٍ لِلشَّرَابِ وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَن هُوَ
 خَلَدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا
 مِّن عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنفَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا
 أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ وَقَوْهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ
 أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿١٨﴾ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
 اللَّهُ وَاسْتَغْفِرَ لِذُنُوبِكُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ
 وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۝٣﴾ .

قال البغوي^(١): ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم﴾ أبطؤها فلم يقبلها، وأراد بالأعمال ما فعلوا من إطعام الطعام وصلة الأرحام. وقال الضحاك: أبطل كيدهم ومكرهم بالنبي ﷺ، وجعل الدائرة عليهم. ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد﴾، قال سفيان الثوري: يعني لم يخالفوه في شيء ﴿وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم﴾ حالهم؛ قال ابن عباس: عصمهم أيام حياتهم ﴿ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل﴾ الشيطان ﴿وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم﴾ يعني القرآن ﴿كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾ أشكالهم. قال الزجاج: كذلك يبين الله أمثال حسنات المؤمنين، وإضلال أعمال الكافرين.

وقال ابن كثير^(٢): أي إنما أبطلنا أعمال الكفار وتجاوزنا عن سيئات الأبرار وأصلحنا شؤونهم، ﴿لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل﴾، أي: اختاروا الباطل على الحق ﴿وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾، أي: يبين لهم مآل أعمالهم وما يصيرون إليه في معادهم. والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/١٦٠).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/١٧٢).

قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ
فَشَدُّوا الْوَتَاقَ فَمَا مَتَّأَ بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ ۗ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ
مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۗ ﴿١﴾
سَيَدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۗ ﴿٢﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هَلُمَّ ﴿٣﴾ بِتَأْيِثِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَتَصَرُوا
اللَّهُ يَضْرِبْكُمْ وَيُنَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۗ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمُ الْوُجُوهُ ۗ وَأَصَلَ أَعْمَالَهُمْ ۗ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۗ ﴿٦﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ ۗ وَاللَّكْفِيرِينَ آمَثَلَهَا ۗ ﴿٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَىٰ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَأَنَّ الْكٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۗ ﴿٨﴾

قال البغوي^(١): ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فاضربوا رقابهم﴾ يعني أضربوا رقابهم يعني أعناقهم ﴿حتى إذا أتختموهم﴾ بالغتم في
القتل وقهرتموهم ﴿فشدوا الوتاق﴾ يعني في الأسر حتى لا يفلتوا منكم، والأسرى
يكون بعد المبالغة في القتل، كما قال تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى
حتى يثخن في الأرض﴾^(٢). ﴿فإما متأ بعد وإما فداء﴾ يعني بعد أن تأسروهم، فإما
أن تموتوا عليهم متاً بإطلاقهم من غير عوض، وإما أن تفادوهم فداء.

وقوله تعالى: ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾، أي: آلتها وأثقالها. وقال
الكلبي: حتى يسلموا ويسالموا. وعن مجاهد قوله ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾
قال: حتى يخرج عيسى ابن مريم، فيسلم كل يهودي نصراني وصاحب ملّة،
وتأمن الشاة من الذئب، ولا تقرض فأرة جراباً، وتذهب العداوة من الأشياء كلّها،
ذلك ظهور الإسلام على الدين كله. وعن قتادة ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾
قال: الحرب من كان يقاتلهم، ستمهم حرباً. ﴿ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم﴾،

(١) المصدر السابق (٤/١٦٠ - ١٦١).

(٢) سورة الأنفال: الآية ٦٧.

أي: والله بجنوده الكثيرة، كلَّ خلقه له جند، ولو سلَّط أضعف خلقه لكان جنداً ﴿ولكن ليلو بعضهم ببعض﴾. ﴿والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضلَّ أعمالهم سيديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم﴾ قال ابن زيد: بلغنا عن غير واحد قال: يدخل أهل الجنة الجنة، ولهم أعرفُ بمنزلهم فيها من منازلهم في الدنيا.

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ قال قتادة: حق على الله أن يعطي من سأله وينصر من نصره. وقال ابن زيد في قوله: ﴿والذين كفروا فتعسأ لهم﴾ قال: شقاء لهم ﴿وأضلَّ أعمالهم﴾ قال: الضلالة التي أضلَّهم الله، لم يهدهم كما هدى الآخرين. وعن مجاهد في قوله: ﴿وللكافرين أمثالها﴾ قال: مثل ما دمرت به القرون الأولى، وعيد من الله لهم. ﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا﴾ قال: وليهم ﴿وأن الكافرين لا مولى لهم﴾ قال ابن كثير^(١): ولهذا لما قال أبو سفيان صخر بن حرب رئيس المشركين يوم أحد، حين سأل عن النبي ﷺ وعن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فلم يُجِبْ وقال: أما هؤلاء فقد هلكوا، وأجابه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: كذبت يا عدو الله، بل أبقى الله لك ما يسوءك، وإن الذين عددت لأحياء، فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر والحرب سجال، أما إنكم ستجدون مثله لم أمر بها ولم أنه عنها، ثم ذهب يرتجز ويقول: **أَعْلُ هَبْلُ أَعْلُ هَبْلُ**، فقال رسول الله ﷺ: «ألا تجيبوه؟»، فقالوا: يا رسول الله وما نقول؟ قال ﷺ: «قولوا: الله أعلى وأجل». ثم قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال ﷺ: «ألا تجيبوه؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»^(٢).

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾

(١) المصدر السابق (٤/١٧٥).

(٢) سبق تخريجه.

وَكَايِنٍ مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾
 أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ يَدَيْهِ مِن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٤﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي
 وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنهَرٌ مِن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنهَرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنهَرٌ مِّن حَمْرٍ
 لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنهَرٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَن هُوَ
 حَدِيدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمَنَّهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا
 مِّن عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنفَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا
 أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانِسَهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ
 أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿١٨﴾ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
 اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ
 وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكتناهم فلا ناصر لهم﴾ قال: هي مكة. وعن عكرمة عن ابن عباس أن نبي الله ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار - أراه قال - التفت إلى مكة فقال: «أنت أحب بلاد الله إلى الله، وأنت أحب بلاد الله إليّ، فلو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك»؛ فأعتى الأعداء من عتا على الله في حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بدخول الجاهلية، فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكتناهم فلا ناصر لهم﴾^(١) رواه ابن جرير.

(١) أخرجه ابن جرير (٤٨/٢٦)، وفي سنده ضعف، وبنحوه من حديث عبد الله بن عدي بن الحمراء مرفوعاً: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»: أخرجه أحمد (٣٠٥/٤٠)، الترمذي (ح/٣٩٢٥)، وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٤٧٩/٢) و (٤٨٠)، وابن ماجه (ح/٣١٠٨)، والبيهقي في «الدلائل» (٥١٨/٢)، وهو حديث صحيح.

قال البغوي^(١): ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾، أي: صفتها ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن﴾ آجن متغير متن ﴿وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة﴾ لذية ﴿للشاربين﴾ لم تدنّسها الأرجل والأيدي ﴿وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار﴾، أي: من مكان في هذا النعيم، كمن هو خالد في النار؟ ﴿وسقوا ماء حميماً﴾ شديد الحرّ ﴿فقطّع أمعاءهم﴾ فخرجت من أديبارهم. ﴿ومنهم﴾ يعني من هؤلاء الكفار ﴿من يستمع إليك﴾ وهم المنافقون يستمعون قولك فلا يعونه ولا يفهمونه تهاوناً به وتغافلاً ﴿حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم﴾ من الصحابة ﴿ماذا قال﴾ محمد ﴿آفناً﴾ يعني الآن؟ ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم﴾ فلم يؤمنوا ﴿واتبعوا أهواءهم﴾ في الكفر والنفاق ﴿والذين اهتدوا﴾ يعني المؤمنين ﴿زادهم﴾ ما قال الرسول ﴿هدى وآتاهم تقواهم﴾ وفقهم للعمل بما أمرهم به وهو التقوى. قال سعيد بن جبیر: وآتاهم ثواب تقواهم. ﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة﴾ وساق بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغياً، أو فقراً مُنْسِياً، أو مرضاً مفسداً، أو هراماً مفنداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال، فشرّ غائب يُنتظر، أو الساعة، فالساعة أدهى وأمر»^(٢).

قوله عز وجل: ﴿فقد جاء أشراطها﴾، أي: أماراتها وعلاماتها؛ وكان النبي ﷺ من أشراط الساعة انتهى ملخصاً؛ ثم ساق بسنده عن النبي ﷺ أنه قال:

= وبنحوه من حديث ابن عباس مرفوعاً: «ما أطيبك من بلد، وأحبك إليّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك»، أخرجه الترمذي (ح/٣٩٢٦)، وقال: «حسن غريب».

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/١٦٣).

(٢) أخرجه الحاكم (٤/٣٢٠ و ٣٢١)، والبغوي في تفسيره (٤/١٦٤)، وأيضاً في «شرح السنة» (٢٢٥/١٤٠)، بسند منقطع، وروي بسند متصل: أخرجه الترمذي (ح/٢٣٠٧)، بسند ضعيف جداً.

«بعثت أنا والساعة كهاتين»^(١)، يعني أصبغه الوسطى والتي تلي الإبهام. وسأله أعرابي: متى الساعة؟ قال: «إذا ضيَّعت الأمانة فانظر الساعة». قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إذا وُسدَّ الأمر إلى غير أهله فانظر الساعة»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فأتى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾، أي: فمن أين لهم التذكّر والاتعاظ والتوبة إذ جاءتهم الساعة؟ نظيره ﴿ويومئذ يتذكر الإنسان وأتى له الذكرى﴾^(٣). وعن قتادة قوله: ﴿ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك﴾ هؤلاء المنافقون دخل رجلان: رجل ممن عقل عن الله وانتفع بما يسمع، ورجل لم يعقل عن الله فلم ينتفع بما سمع. كان يقال: الناس ثلاثة: فسامع عامل، وسامع عاقل، وسامع تارك. وقال في جامع البيان ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾، أي: إذا علمت حال الفريقين فأثبت على التوحيد. وقال البخاري^(٤): باب العلم قبل القول والعمل، لقول الله تعالى: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ فبدأ بالعلم. قال الحافظ ابن حجر: قوله: باب العلم قبل القول والعمل، قال ابن المنير: أراد به أن العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يعتبران إلا به، فهو متقدّم عليهما لأنه مصحّح للنّيّة المصحّحة للعمل؛ قوله: فبدأ بالعلم، أي: حيث قال: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾، ثم قال: ﴿واستغفر لذنبك﴾ والخطاب وإن كان للنبي ﷺ فهو متناول لأُمَّته، انتهى.

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي، وخطيئي

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٩٣٦ و ٥٣٠١ و ٦٥٠٣)، ومسلم (ح/٢٩٥٠) من حديث سهل بن

سعد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٥٩ و ٦٤٩٦).

(٣) سورة الفجر: الآية ٢٣.

(٤) انظر «صحيح البخاري» (١/١٩٢ - مع الفتح).

وعمدي، وكلّ ذلك عندي»^(١). وكان يقول: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فإنّي أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»^(٢). وعن عاصم الأحول قال: سمعت عبد الله بن سرخس قال: أتيت رسول الله ﷺ فأكلت معه من طعامه فقلت: غفر الله لك يا رسول الله، فقال: «ولك»، فقلت: أَسْتَغْفِرُكَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قال: نعم، ولكم وقرأ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِدُنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾^(٣)؛ قال البغوي^(٤): هذا إكرام من الله تعالى لهذه الأمة حيث أمر نبيهم ﷺ أن يستغفر لذنوبهم، وهو الشفيع المجاب فيهم. ﴿مُتَقَلِّبِكُمْ وَمُثَوِّكُمْ﴾، أي: عالم بجميع أحوالكم فلا يخفى عليه منهم شيء.



-
- (١) أخرجه البخاري (ح/٦٨٨)، ومسلم (ح/٢٧١٩) من حديث عبد الله بن أبي بردة.
 - (٢) أخرجه مسلم (٤/٢٠٧٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
 - (٣) أخرجه مسلم (ح/٢٣٤٦).
 - (٤) انظر «معالم التنزيل» (٤/١٦٥).

الدرس الثاني والستون بعد المائتين

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوَّ صَدَقُوا اللَّهُ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ آزَنُوا عَلَىٰ أَذْبَانِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنَطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَتَّبَعُوا مَا اسْتَحْطَّ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَتَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِيطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطَلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ

لَهُمْ ﴿٢١﴾ فَلَا تَهْتُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَبْرِكُمْ
أَعْمَالَكُمْ ﴿٢٢﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَنَقَّوْا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا
يَسْئَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٢٣﴾ إِنْ يَسْئَلْكُمْوهَا فَيُخْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَبَخَّلُوا وَأَخْرَجَ أَصْغَلْنَاكُمْ ﴿٢٤﴾
هَذَا أَنْتُمْ هَتُؤَلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ
فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا
غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٢٥﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ .

قال البغوي^(١): وقوله تعالى: ﴿ويقول الذين آمنوا﴾، حرصاً منهم على الجهاد ﴿لولا نزلت سورة﴾ تأمرنا بالجهاد ﴿فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال﴾، قال قتادة: كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة، وهي أشد القرآن على المنافقين ﴿رأيت الذين في قلوبهم مرض﴾، يعني المنافقين ﴿ينظرون إليك﴾ شزراً بتحديق شديد كراهية منهم للقتال، وجنباً عن لقاء العدو ﴿نظر المغشي عليه من الموت﴾، كما ينظر الشاخص بصره عند الموت ﴿فأولى لهم﴾ وعيد وتهديد، ومعنى قولهم في التهديد: أولى لك أي وليك وقاربك ما تكره.

ثم قال: ﴿طاعة وقول معروف﴾، وهذا ابتداء محذوف الخبر. وقال ابن كثير^(٢): ﴿فأولى لهم طاعة وقول معروف﴾، أي: وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا في الحالة الراهنة. ﴿فإذا عزم الأمر﴾، أي: جد الحال وحضر القتال ﴿فلو صدقوا الله﴾، أي: أخلصوا إليه النية ﴿لكان خيراً لهم﴾. وقال في

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/١٦٥).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/١٧٨).

جامع البيان ﴿فأولى لهم طاعة وقول معروف﴾، أي: كان الأولى بهم طاعة الله وقول معروف بالإجابة، أو معناه: فالويل لهم من التولي، وأصله: أولاه الله ما يكرهه، واللام مزيدة، أي: هذا الويل لهم. ثم قال ﴿طاعة﴾، أي: أمرهم طاعة، أو طاعة خير لهم ﴿فإذا عزم الأمر﴾ جد الأمر وفرض القتال ﴿فلو صدقوا الله﴾ في الإيمان والطاعة ﴿لكان﴾ الصدق ﴿خيراً لهم﴾.

وقوله تعالى: ﴿فهل عسيتم﴾، قال بعض المفسرين: هل يتوقع منكم ﴿إن توليتم﴾، وأعرضتم عن الدين، أو توليتم أمور الناس ﴿أن تفسدوا في الأرض﴾، بالمعاصي والافتراق بعد الاجتماع على الإسلام: ﴿وتقطّعوا أرحامكم﴾، بالقتل والعقوق. وعن قتادة ﴿فهل عسيتم أن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم﴾ يقول: فهل عسيتم كيف رأيتم القوم حين تولّوا عن كتاب الله، ألم يفسكوا الدم الحرام، وقطّعوا الأرحام، وعصوا الرحمن؟ ﴿أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾، إذا واللّه، يجدون في القرآن زاجراً عن معصية الله، لو تدبّره القوم فعقلوه، ولكنهم أخذوا بالمشابهة فهلكوا عند ذلك. وقال خالد بن معدان: ما من آدمي إلا وله أربع أعين: عينان في رأسه لدنياه وما يصلحه من معيشته، وعينان في قلبه لدينه وما وعد الله من الغيب، فإذا أراد الله بعبده خيراً أبصرت عيناه اللتان في قلبه، وإذا أراد الله بعبده غير ذلك طمس عليهما، فذلك قوله: ﴿أم على قلوب أقفالها﴾. وعن عروة بن الزبير قال: «تلا رسول الله ﷺ: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾، فقال شاب من أهل اليمن: بل عليها أقفالها حتى يكون الله عز وجل يفتحها؛ فما زال الشاب في نفس عمر رضي الله عنه حتى وُلِّيَ، فاستعان به»^(١).

(١) أخرجه ابن جرير (٥٨/٢٦).

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ
الْهُدَىٰ ۗ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ
كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾
فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ۗ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ
الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ
فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ ۗ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ
حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَتَبْلُوَنَّكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن
سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ
أَعْمَلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۝

عن ابن عباس ﴿إن الذين ارتدوا على أدبارهم﴾، هم أهل النفاق. وعن
قتادة ﴿الشيطان سؤل لهم﴾ يقول: زين لهم ﴿وأملى لهم﴾، قال البغوي^(١): مد
لهم في الأمل، وعن ابن عباس ﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله
أضغانهم﴾، قال: هم أهل النفاق، وقد عرفهم إياهم في سورة براءة. وقال ابن
زيد في قوله: ﴿ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم بسيماهم﴾، قال: هؤلاء المنافقون،
وقد أراه الله أيهم، وأمرهم أن يخرجوا من المسجد، قالوا: إلا إن تمسكوا بلا إله
إلا الله حُقت دماؤهم، ونكحوا ونوكحوا بها.

وقوله تعالى: ﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾، قال ابن كثير^(٢): أي فيما يبدو
من كلامهم الدال على مقاصدهم. وفي الحديث: «ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/١٦٦).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/١٨٠).

تعالى جلبابها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر^(١). وقال ابن زيد في قوله: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين﴾ قال: نختبركم البلوى الاختباري، وقرأ: ﴿ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾ لا يختبرون. ﴿ونبلو أخباركم﴾.

قال البغوي^(٢): نظرها ونكشفها.

وقوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله﴾، أي: دين الله ﴿وشاقوا الرسول﴾، خالفوه ﴿من بعدما تبين لهم الهدى﴾، كاليهود والمنافقين وغيرهم ﴿لن يضرّوا الله شيئاً﴾، فلا يضرّون إلا أنفسهم، ﴿وسيحبط أعمالهم﴾، فلا تنفعهم في الآخرة.

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهْتَفُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْآخِلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِنْ سَأَلْتُمُوهُمَا فَيُخْفِئْكُمْ بِبَخْلِهِمْ وَيُخْرِجْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا نَسْتَأْذِنُكُمْ لِنُفِيقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَفِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٨﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾ الآية، من استطاع منكم أن لا يبطل عملاً صالحاً عمله بعمل سيئ،

(١) أخرجه الطبراني (١٧١/٢) بسند ضعيف جداً من حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (١٦٧/٤).

فليفعل، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فإن الخير ينسخ الشر والشر ينسخ الخير، وإن مَلَكَ الأعمال خواتيمها. وعن مجاهد ﴿فلا تهنوا﴾، قال: لا تضعفوا، ﴿وتدعوا إلى السلم﴾، قال قتادة: لا تكونوا أول الطائفتين صرعت لصاحبتهما ودعتها إلى الموادة، ﴿وأنتم الأعلون﴾ أولى بالله منهم ﴿والله معكم﴾. قال ابن كثير^(١): ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون﴾، أي: في حال علوكم على عدوكم، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين ورأى الإمام في المهادنة والمصالحة مصلحة، فله أن يفعل ذلك كما فعل رسول الله ﷺ حين صدّه كفار قريش عن مكة. وعن ابن عباس قوله: ﴿ولن يترككم أعمالكم﴾ يقول: لن يظلمكم أجور أعمالكم. وقال مجاهد: لن ينقصكم.

وقوله تعالى: ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو﴾، أي: هذا حاصلها. ﴿وأن تؤمنوا وتتقوا﴾، أن تتركوا المعاصي وتفعلوا الطاعات ﴿يؤتكم أجوركم﴾ في الآخرة ﴿ولا يسألكم أموالكم إن يسألكموها فيحفكم﴾، بمسألة جميعها ﴿تبخلوا﴾ بها فلا تعطوها ﴿ويخرج أضغانكم﴾. قال قتادة: قد علم الله أن في مسألة المال خروج الأضغان^(٢). وقال ابن زيد في قوله: ﴿ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل، ومن يبخل وإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء﴾، قال: ليس بالله — تعالى ذكره — إليكم حاجة، وأنتم أحوج إليه. وعن قتادة: ﴿وإن تتولوا قوماً غيركم﴾، قال: إن تولوا عن طاعة الله. وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾، قالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ فحذ سلمان قال:

(١) المصدر السابق (٤/١٨١).

(٢) والأضغان: البغضاء والعداوة.

«هذا وقومه، ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس»^(١). رواه ابن جرير وغيره. والله أعلم.



(١) أخرجه الترمذي (ح/٣٢٦٠)، وقال: «حديث غريب في إسناده مقال»، وأيضاً (ح/٣٢٦١)، وابن جرير (٢٦/٦٦ و ٦٧)، والحاكم (٢/٣٥٨)، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وهو صحيح، وينحوه — أيضاً — من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «لو كان الإيمان عند الثريا لنالته رجاله — أو رجل — من هؤلاء». أخرجه البخاري (ح/٤٨٩٧)، واللفظ له، ومسلم (٤/١٩٧٣) وينحوه — أيضاً — من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «لو كان الدين عند الثريا لذهب به رجل من فارس — أو قال من أبناء فارس — حتى يتناوله» أخرجه مسلم (ح/٢٥٤٦).

الدرس الثالث والستون بعد المائتين

﴿سورة الفتح﴾

مدنية، وهي تسع وعشرون آية

عن معاوية بن قرة قال: سمعت عبد الله بن مغفل يقول: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في سيره سورة الفتح على راحلته فرجع فيها، قال معاوية: لولا أنني أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت قراءته^(١). متفق عليه.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَنَصْرًا مِنْ اللَّهِ نَصْرًا عَزِيمًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَاللَّهُ جُنُودَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُتَنَفِّقِينَ وَالْمُتَنَفِّقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَلَمَ السَّوَاءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوَاءِ وَعَظِيبَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيمًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٢٨١ و ٤٨٣٥ و ٥٠٣٤ و ٥٠٤٧)، ومسلم (ح/٧٩٤).

وَنذِيرًا ﴿٨﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُؤْذِرُوهُ وَتُقْبِرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنَانِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نِعْمًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوِيًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَفَازٍ لِّتَأْخُذُوا ذُرُوعًا وَنَدْعَبَكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ نَتَّبِعُونَكَ كَذَٰلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَبِّحُوا لَهُ بَلْ تَمَسُدُونَ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدْعُونَ إِلَىٰ قَوْمِ أُولَىٰ بِأْسٍ شَدِيدٍ تُقْبِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۗ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيَعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظُلْمَ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيمًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ۝

عن أنس بن مالك في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قال: نزلت على النبي ﷺ مرجعه من الحديبية، وقد حيل بينهم وبين نسكهم، فنحر الهدي بالحديبية، وأصحابه مخالطو الكأبة والحزن، فقال: «لقد أنزل علي آية أحب إلي من الدنيا جميعاً، فقرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ إلى قوله: ﴿عَزِيمًا حَكِيمًا﴾ فقال أصحابه: هنيئاً لك يا رسول الله، قد بين الله لنا ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فأنزل الله هذه الآية بعدها: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾»^(١). رواه ابن جرير وغيره.

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/٤٦٢)، وابن جرير (٢٦/٦٩)، والحاكم (٢/٤٥٩ و ٤٦٠)، مختصراً مطولاً، وهو صحيح، وينحوه أخرجه البخاري (ح/٤١٧٢) من حديث أنس رضي الله عنه.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: السكينة الرحمة ﴿لِيَزِدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ قال: إن الله جل ثناؤه بعث نبيه محمداً ﷺ بشهادة أن لا إله إلا الله، فلما صدقوا بها زادهم الصلاة، فلما صدقوا بها زادهم الصيام، فلما صدقوا به زادهم الزكاة، فلما صدقوا بها زادهم الحج، ثم أكمل لهم دينهم فقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ قال: فأوثق إيمان أهل الأرض وأهل السموات وأصدقه وأكمله شهادة أن لا إله إلا الله. وقال البغوي^(١): ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ الطمأنينة والوقار ﴿فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لئلا تنزع نفوسهم لما يرد عليهم.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٨﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ يقول: شاهداً على أمته على أنه قد بلغهم، ومبشراً بالجنة لمن أطاع الله، ونذيراً من النار. وعن ابن عباس ﴿وتعزروه﴾ يعني الإجلال ﴿وتوقروه﴾ يعني التعظيم. قال ابن جرير^(٢): ومعنى التعزير في هذا الموضع التقوية بالنصرة والمعونة، ولا يكون ذلك إلا بالطاعة والتعظيم والإجلال. قال البغوي^(٣): وهذه الكنايات راجعة إلى النبي ﷺ، وههنا وَقَفْتُ. ﴿وتسبحوه﴾، أي: تسبحوا الله، يريد تصلوا له ﴿بكرة وأصيلاً﴾ بالغداة والعشي. قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ليؤمنوا ويعزروه ويوقروه ويسبحوه بالياء فيهن،

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/١٧١).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٦/٧٤).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/١٧٢).

لقوله: ﴿في قلوب المؤمنين﴾، وقرأ الآخرون بالتاء فيهنّ.

﴿إن الذين يبايعونك﴾ يا محمد بالحديبية على أن لا يفروا ﴿إنما يبايعون الله﴾ لأنهم باعوا أنفسهم من الله بالجنة ﴿يد الله فوق أيديهم﴾، قال ابن عباس: ﴿يد الله﴾ بالوفاء لما وعدهم من الخير^(١) ﴿فوق أيديهم﴾. وقال السدي: كانوا يأخذون بيد رسول الله ﷺ ويبايعونه، ويد الله فوق أيديهم في المبايعة. قال ابن جرير^(٢) في قوله: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ وجهان من التأويل: أحدهما يد الله فوق

(١) قلت: استدل أهل السنة — رحمهم الله — بهذه الآية وما شابهها، على إثبات صفة اليد لله — عز وجل — حقيقة على الوجه اللائق به تعالى، من غير تكيف، ولا تشبيه ولا تعطيل، ولا تمثيل.

أما ما ذكره البغوي عن ابن عباس، فإنه لم يورده بإسناد عنه، حتى يعرف مدى صحته من ضعفه، وأيضاً فإن أكثر ما يتقل عن ابن عباس — رضي الله عنه — في التفسير، إنما هو كذب عليه كما ذكره لك ابن تيمية رحمه الله. قال ابن القيم — رحمه الله — كما في «مختصر الصواعق» (٢/٣٨٥): «وقوله: (الإيدي ثلاثة)، بيد الله العليا، ويد المعطي التي تليها، ويد السائل السفلى) فهل يصح في عقل أو لغة أو عرف أن يقال: قدرة الله، أو نعمته العليا، ويد المعطي التي تليها، فهل يحتمل هذا التركيب غير يد الذات يومه ما، وهل يصح أن يراد به غير ذلك.. وتأمل قوله: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾ فلما كانوا يبايعون رسول الله ﷺ بأيديهم، ويضرب بيده على أيديهم، كان رسول الله ﷺ هو السفير بينه وبينهم، وكانت مبايعتهم له مبايعة لله تعالى، ولما كان سبحانه فوق سماواته على عرشه فوقه الخلائق كلهم، كانت يده فوق أيديهم، كما أنه سبحانه فوقهم، فهل يصح هذا لمن ليس له يد حقيقة، فكيف يستقيم أن يكون المعنى قدرة الله ونعمته فوق قدرهم ونعمهم، أم تقتضي المقابلة أن يكون المعنى هو الذي يسبق إلى الإفهام من هذا الكلام». اهـ.

(٢) انظر «جامع البيان» (٧٦/٢٦).

والتأويل الأول: مقبول، وهو ما عليه أهل السنة في هذه الآية.

وأما التأويل الثاني: فمردود، وهو مخالف لما عليه أهل السنة رحمهم الله في هذه الآية، وراجع التعليق في الفقرة السابقة.

أيديهم عند البيعة، لأنهم كانوا يبايعون الله ببيعتهم نبيه ﷺ؛ والآخرة: قوة الله فوق قوتهم في نصرته رسول الله ﷺ، لأنهم إنما بايعوا رسول الله ﷺ على نصرته على العدو.

وقوله تعالى: ﴿فمن نكث﴾، أي: نقض العهد ﴿فإنما ينكث على نفسه﴾، أي: وباله راجع عليه ﴿ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾ وهو الجنة؛ وقرأ حفص بضم هاء عليه.

قوله عز وجل: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدْعُونَ إِلَىٰ قَوْمِ آبَائِهِمْ فِي أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ إِنْ دَخِلُوا فَدِيَارِكُمْ فَطَرِقُوا دِيَارَكُمْ فَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِأَنْفُسِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَكُمْ قُوَّةٌ فَارْحَبُوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْتَمِكُوا عَلَيْكُمْ زِينتَكُمْ لِكُنْتُمْ رِجَالًا مَسْكُوتِينَ ﴿١٦﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَعْذِبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

عن مجاهد في قوله: ﴿سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا

وأهلونا﴾ قال: أعراب المدينة كجهينة ومزينة، استتبعهم لخروجه إلى مكة، قالوا: نذهب معه إلى قوم قد جاءوه فقتلوا أصحابه فنقاتلهم، فاعتلوا بالشغل. وعن قتادة قوله: ﴿سيقول لك المخلفون من الأعراب﴾ إلى قوله: ﴿وكنتم قوماً بوراً﴾، قال: ظنوا نبي الله ﷺ وأصحابه أنهم لن يرجعوا من وجههم ذلك، وأنهم سيهلكون، فذاك الذي خلفهم عن نبي الله ﷺ ﴿وكنتم قوماً بوراً﴾ قال: فاسدين. وقال ابن زيد: البور الذي ليس فيه من الخير شيء. وعن مجاهد قال: رجع - يعني رسول الله ﷺ - عن مكة، فوعده الله مغانم كثيرة، فعجل له خير فقال المخلفون ﴿ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ وهي المغانم ﴿لتأخذوها﴾ التي قال الله جل ثناؤه: ﴿إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها﴾ وعرض عليهم قتال قوم أولي بأس شديد. وعن مقسم قال: لما وعدهم الله أن يفتح عليهم خير، وكان الله قد وعدها من شهد الحديبية، لم يعط أحداً غيرهم منها شيئاً، فلما علم المنافقون أنها الغنيمة قالوا: ﴿ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ يقول: ما وعدهم. وعن قتادة ﴿سيقول المخلفون إذا انطلقتم﴾ الآية: وهم الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ زمن الحديبية؛ ذكر لنا أن المشركين لما صدوا رسول الله ﷺ زمن الحديبية عن المسجد الحرام والهدى، قال المقداد: «إنا والله لا نقول كالمأ من بني إسرائيل إذ قالوا لنبيهم: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون»^(١)، فلما سمع ذلك أصحاب نبي الله ﷺ تبايعوا على ما قال، فلما رأى ذلك نبي الله ﷺ صالح قريشاً ورجع من عامه ذلك. وعن قتادة قوله: ﴿كذلكم قال الله من قبل﴾، أي: إنما جعلت الغنيمة لأهل الجهاد، وإنما كانت غنيمة خير لمن شهد الحديبية، ليس لغيرهم فيها نصيب.

وقوله تعالى: ﴿قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد

(١) سبق تخريجه.

تقاتلونهم أو يسلمون ﴿ قيل: هوازن وثقيف، وقيل: بنو حنيفة، وقيل: فارس والروم. قال ابن جرير^(١): وجائز أن يكون عنى بذلك بعض هذه الأجناس، وجائز أن يكون عنى بهم غيرهم، ولا قول فيه أصح من أن يقال كما قال الله جل ثناؤه: إنهم سيدعون إلى قوم أولي بأس شديد. وعن قتادة قال: ثم عذر الله أهل العذر من الناس فقال: ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾ قال: هذا كله في الجهاد.



(١) انظر «جامع البيان» (٨٢/٢٦).

الدرس الرابع والستون بعد المائتين

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَحْدُونَ وَإِنَّا لَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدْيِ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَجْلَهُ وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِبْكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ

الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ
شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ
رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ
مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ
عَلَىٰ سَوْفِهِ يُعْجَبُ الزَّرْعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَعَانِدَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَدَكُمْ اللَّهُ مَعَانِدَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾ .

عن عكرمة مولى ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ دعا عمر بن الخطاب لبيعه إلى مكة، فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب من يمنعي، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليهم، ولكني أدلك على رجل هو أعز بها مني: عثمان بن عفان؛ فدعا رسول الله ﷺ عثمان فبعته إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحرمة؛ فخرج عثمان إلى مكة فلتقاه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها، فنزل عن دابته فجعله بين يديه، ثم ردفه وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به، قال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ، فاحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل»^(١). قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ حين بلغه أن عثمان قد قتل قال: «لا تبرح

(١) أخرجه ابن جرير (٨٦/٢٦).

حتى نناجز القوم»، ودعا الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت، فكان جابر بن عبد الله يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت، ولكن بايعنا على أن لا نفرّ، فبايع رسول الله ﷺ الناس ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها، إلاّ الجدّ بن قيس أخو بني سلمة، كان جابر بن عبد الله يقول: لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته قد اختبأ إليها يستتر بها من الناس؛ ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي ذكر من أمر عثمان باطل. رواه ابن جرير.

وعن جابر قال: «كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة، فبايعنا رسول الله ﷺ على أن لا نفرّ، ولم نبايعه على الموت، قال: فبايعناه كلنا إلاّ الجدّ بن قيس»^(١). وعن قتادة قوله: ﴿فعلّم بما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم﴾، أي: الصبر والوقار ﴿وأثابهم فتحاً قريباً﴾ وهي خيبر ﴿ومغانم كثيرة يأخذونها﴾ قال البغوي: من أموال يهود خيبر ﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ وعن مجاهد قوله ﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها﴾ قال: المغانم الكثيرة التي وُعدوا: ما يأخذونها إلى اليوم. ﴿فعبّجّل لكم هذه﴾ قال: عبّجّل لكم خيبر. وعن قتادة: ﴿وكفّت أيدي الناس عنكم﴾ عن بيوتهم وعيالهم بالمدينة حين ساروا إلى الحديبية وإلى خيبر ﴿ولتكون آية للمؤمنين﴾ يقول: وذلك آية للمؤمنين: كفّت أيدي الناس عن عيالهم ﴿ويهديكم صراطاً مستقيماً﴾. وعن الحسن ﴿وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها﴾ قال: هي فارس والروم. وقال قتادة: بلغنا أنها مكة ﴿وكان الله على كل شيء قديراً﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلُوا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٢٧ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٢٨ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ

(١) أخرجه ابن جرير (٨٧/٢٦)، وبنحوه أخرجه مسلم (١٤٨٣/٣) من حديث جابر رضي الله عنه.

أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ
 الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَكْرُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ
 لَّمَّ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبِكُمْ مِنْهُم مَّعْرَةٌ بَعِيرٌ عَلِيمٌ لِّيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ
 مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَرَبَّيْنَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ
 الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ
 رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا
 وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأذبار﴾ يعني كفار قريش؛ قال الله: ﴿ثم لا يجذبون ولياً ولا نصيراً﴾ ينصرهم من الله. وعن عبد الله بن مغفل أن رسول الله ﷺ كان جالساً في أصل شجرة بالحديبية وعلى ظهره غصن من أغصان الشجرة، فرفعتهما عن ظهره، وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بين يديه، وسهيل بن عمرو - وهو صاحب المشركين - فقال رسول الله ﷺ لعليّ: «أكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فأمسك سهيل بيده فقال: ما نعرف «الرحمن» أكتب في قصتنا ما نعرف. فقال رسول الله ﷺ: «أكتب: بسمك اللهم»، فكتب فقال: «هذا ما صالح محمد رسول الله وأهل مكة»، فأمسك سهيل بيده فقال: لقد ظلمناك إن كنت رسولاً، أكتب في قصتنا ما نعرف. قال: «أكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، وأنا رسول الله»، فخرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح فناروا في وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله ﷺ فأخذ الله بأبصارهم، فقمنا إليهم فأخذناهم فقال رسول الله ﷺ: «هل خرجتم في أمان أحد؟» قالوا: لا، فخلّى سبيلهم. قال: فأنزل الله: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾^(١). رواه ابن جرير. وقال قتادة: ذكر لنا أن

(١) أخرجه أحمد (٤/٨٦ - ٨٧)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٦٥)، وابن جرير (٢٦/٩٣)، =

رجلاً يقال له ابن زنيم اطلع على الثنية من الحديدية، فرماه المشركون بسهم فقتلوه، فبعث رسول الله ﷺ خيلاً فأتوه باثني عشر من الكفار فقال لهم: «هل لكم عليّ عهد؟ هل لكم عليّ ذمة؟» قالوا: لا، فأرسلهم، وأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم﴾^(١) الآية.

قوله: ﴿هم الذين كفروا وصدّوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً﴾ قال قتادة: محبوباً ﴿أن يبلغ محلّه﴾ قال: وأقبل نبيّ الله ﷺ وأصحابه معتمرين في ذي القعدة ومعهم الهدى، حتى إذا كانوا بالحديبية صدّهم المشركون، فصالحهم نبيّ الله ﷺ على أن يرجع من عامه ذلك ثم يرجع من العام المقبل فيكون بمكة ثلاث ليال، ولا يدخلها إلاّ بسلاح الراكب، ولا يخرج بأحد من أهلها؛ فنحروا الهدى وحلقوا وقصّروا.

﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات﴾ حتى بلغ ﴿بغير علم﴾ هذا حين رُدّ محمد ﷺ وأصحابه أن يدخلوا مكة، فكان بها رجال مؤمنون ونساء مؤمنات، فكره الله أن يؤذوا ويوطؤوا بغير علم. قال البغوي^(٢): ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات﴾ يعني المستضعفين بمكة ﴿لم تعلموهم﴾ لم تعرفوهم ﴿أن تطؤوهم﴾ بالقتل وتوقعوا بهم ﴿فتصيبكم منهم معرة بغير علم﴾ قال ابن زيد: معرة يعني إثم. وقال ابن إسحاق: عزم الدية، وقيل: الكفارة، لأن الله أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب - إذا لم يعلم إيمانه - الكفارة دون الدية، فقال: ﴿فإن كان من قوم عدوّ لكم وهو مؤمن فتححرير رقبة مؤمنة﴾^(٣)، وقيل: هو أن المشركين

= والحاكم (٢/٤٦٠ - ٤٦١)، وصححه، ووافقه الذهبي، وللحديث شاهد من حديث المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم: أخرجه البخاري (٢٧٣١/١ و ٢٧٣٢) مطولاً، وشاهد آخر من حديث أنس رضي الله عنه بنحوه، أخرجه مسلم (ح/١٨٠٨).

(١) أخرجه ابن جرير (٩٤/٢٦) عن قتادة مرسلًا.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/١٨٤).

(٣) سورة النساء: الآية ٩٢.

يعيبونكم ويقولون: قتلوا أهل ديتهم؛ والمعرة: المشقة، يقول: لولا أن تطؤوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموهم، فليزكم بها كفارة ويلحقكم سببة، وجواب «لولا» محذوف تقديره: لأذن لكم في دخولها، ولكنه حال بينكم وبين ذلك ﴿ليدخل الله في رحمته من يشاء﴾ يعني حال بينكم وبين ذلك ليدخل ﴿في رحمته﴾ في دين الإسلام ﴿من يشاء﴾ من أهل مكة بعد الصلح قبل أن تدخلوا ﴿لو تزيلوا﴾ لو تميزوا يعني المؤمنين من الكفار ﴿لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾. وقال قتادة: إن الله يدفع بالمؤمنين عن الكفار، كما دفع بالمستضعفين من المؤمنين عن مشركي مكة. وعن الزهري قال: كانت حمية التي ذكر الله ﴿إذا جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية﴾ أنهم لم يقرؤا أنه: بسم الله الرحمن، الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت ﴿فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى﴾ قال: بسم الله الرحمن الرحيم. وعن علي في قوله: ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ قال: لا إله إلا الله. وعن عطاء الخراساني: ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وعن علي الأزدي قال: كنت مع ابن عمر بين مكة ومنى، فسمع الناس يقولون: لا إله إلا الله، والله أكبر، فقال: هي هي، فقلت: ما هي؟ قال: ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ الإخلاص ﴿وكانوا أحق بها وأهلها﴾ قال قتادة: وكان المسلمون أحق بها وكانوا أهلها، أي: التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ﴿وكان الله بكل شيء عليماً﴾.

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامِنِينَ مُخْلِفِينَ رُءُوسِكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾
 فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٧٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٨﴾

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ
فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ
وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ
الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً
وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ .

عن مجاهد في قوله: ﴿لقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق﴾ قال: أري
بالحديبية أنه يدخل مكة وأصحابه محلّقين؛ وقال أصحابه حين نحر بالحديبية: أين
رؤيا محمد ﷺ^(١)؟ وقال قتادة: رأى رسول الله ﷺ أنه يطوف بالبيت وأصحابه،
وصدّق الله رؤيا فقال: ﴿لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين
رؤوسكم ومقصرين لا تخافون﴾. وقال ابن زيد في قوله: ﴿فعلّم ما لم تعلموا﴾
قال: رده لمكان من بين أظهرهم من المؤمنين والمؤمنات، وأخبره ﴿ليدخل الله
في رحمته من يشاء﴾ من يريد أن يهديه. وعن الزهري قوله: ﴿فجعل من دون
ذلك فتحاً قريباً﴾ يعني صلح الحديبية، وما فتح في الإسلام فتح كأن أعظم منه،
إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة وضعت الحرب وأمن الناس
كلهم بعضهم بعضاً، التقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد في
الإسلام يعقل شيئاً إلاّ دخل فيه، فلقد دخل في تينك السنين في الإسلام مثل من
كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر. وعن مجاهد قوله: ﴿من دون ذلك فتحاً قريباً﴾
قال: النحر بالحديبية، ورجعوا فافتتحوا خيبر ثم اعتمروا بعد ذلك، فكان تصديق
رؤياه في السنة القابلة. قال ابن جرير^(٢): والصواب أن يعمّ صلح الحديبية وفتح
خيبر.

(١) أخرجه ابن جرير (١٠٧/٢٦).

(٢) انظر «جامع البيان» (١٠٨/٢٦).

وقوله تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً﴾، أي: على أنك نبي صالح صادق وسينصرك ويظهر دينك.

وقوله تعالى: ﴿محمد رسول الله﴾ قال البغوي^(١): تم الكلام ههنا. قال ابن عباس: شهد له بالرسالة. وعن قتادة في قوله: ﴿والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ ألقى الله في قلوبهم الرحمة بعضهم لبعض ﴿تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ قال عكرمة: هو أثر التراب. وقال مجاهد: هو الخشوع والتواضع. وقال مقاتل: هو النور يوم القيامة. قال عطاء الخراساني: دخل في هذه الآية كل من حافظ على الصلوات الخمس. وعن قتادة في قوله: ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ قال ﴿ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه﴾. وعن الضحاك في قول الله: ﴿محمد رسول الله والذين معه﴾ الآية قال: هذا مثلهم في التوراة، ومثل آخر في الإنجيل ﴿كزرع أخرج شطأه فأزره﴾ الآية. وعن مجاهد في قوله: ﴿كزرع أخرج شطأه﴾ قال: ما يخرج بجانب الحقله فيتم وينهى ﴿فأزره﴾ قال: فشده وأعانه. وقوله: ﴿على سوقه﴾ قال: أصوله. وقال ابن زيد في قوله: ﴿فأزره﴾ اجتمع ذلك فالتفت؛ وكذلك المؤمنون خرجوا وهم قليل ضعفاء، فلم يزل الله يزيد فيهم ويزيدهم بالإسلام، كما زيد هذا الزرع بأولاده ﴿فأزره﴾ فكان مثلاً للمؤمنين ﴿يعجب الزرع﴾ قال: يعجب الزرع حسنه ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾ بالمؤمنين لكثرتهم. قال ابن جرير^(٢): وإنما جمع الشطء لأنه أريد به من يدخل في دين محمد ﷺ إلى يوم القيامة ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيماً﴾.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/١٨٥).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٦/١١٥).

الدرس الخامس والستون بعد المائتين

﴿سورة الحجرات﴾

مدنية، وهي ثمان عشرة^(١) آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ؕ وَانْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ
بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالِكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ
يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَى لَهُم
مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا
يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴿٥﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنْهُ أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ
فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ تَدْمِينٌ ﴿٦﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ
مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ
وَالْفُسُوقَ وَالْإِعْصْيَانَ ؕ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ؕ وَاللَّهُ عَلَيْهِ
حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا

(١) في (الأصل): «ثمانية عشر»، وهو خطأ، والصواب ما أثبت.

عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفَعَلُوا لَهَا مَا كَانُوا بِهَا وَعَاظُوا بِهَا بِالْعَدَلِ
وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٦﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ
وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَتَّابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ؕ وَأَنْفُوا
 اللَّهُ إِنْ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَتَّابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا
 تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا
 تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ
 قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ
 أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ؕ وَاللَّهُ
 عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله
 ورسوله﴾ يقول: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة. وقال قتادة: ذكر لنا أن ناساً
 كانوا يقولون: لو أنزل في كذا لوضع كذا وكذا، قال: فكره الله عز وجل ذلك
 وقدح فيه. وقال مجاهد: لا تفتأتوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضيه الله على
 لسانه. وعن عبد الله بن الزبير قال: «قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ، فقال
 أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد، وقال عمر: بل أمراً لأقرع بن حابس، فقال
 أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافاً، فتماريا حتى ارتفعت
 أصواتهما، فنزلت في ذلك ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾
 حتى انقضت الآية»^(١). رواه البخاري. وعن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيران أن
 يهلكا، أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. وقال ابن الزبير: فما كان عمر يسمع
 رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه.

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٣٦٧ و ٤٨٤٧ و ٤٨٤٥ و ٧٣٠٢).

وعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك علمه، فاتاه فوجده في بيته منكساً رأسه فقال له: ما شأنك؟ فقال: شرٌّ - كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله فهو من أهل النار - فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا فقال: «أذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة»^(١). رواه البخاري وغيره. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغْضَوْنَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ قال قتادة: أخلص الله قلوبهم فيما أحب. وعن مجاهد قال: كُتِبَ إلى عمر: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها، أفضل أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها؟ فكتب عمر رضي الله عنه: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم﴾.

وقال ابن إسحاق: فلما دخل وفد بني تميم المسجد، نادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته: أن أخرج إلينا يا محمد، فأذى ذلك رسول الله ﷺ من صاحبهم، فخرج إليهم فقالوا: يا محمد جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا، قال: «قد أذنت لخطيبكم فليقل»؛ فقام عطاردين حاجب فقال: الحمد لله الذي له علينا الفضل والمنّ وهو أهله، الذي جعلنا ملوكاً ووهب لنا أموالاً عظيماً نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزّ أهل المشرق وأكثره عدداً وأيسره عدّة، فمن مثلنا في الناس؟ ألسنا برؤوس الناس وأولي فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عددنا، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكننا نحيا من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نعرف بذلك، أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا وأمر أفضل من أمرنا، ثم جلس فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن الشماس: «قم فأجب الرجل في خطبته»، فقام ثابت بن قيس فقال: الحمد لله الذي له ما في السموات والأرض، خَلَقَهُ قَضَى فِيهِنَّ أَمْرَهُ، ووسع

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٨٤٦)، ومسلم (ح/١١٩).

كرسيه علمه، ولم يك شيء قط إلا من فضله، ثم كان من فضله أن جعلنا ملوكاً، واصطفى منا خير خلقه رسولاً، أكرمه نسباً، وأصدقه حديثاً، وأفضله حسباً، فأنزل عليه كتابه، وائتمنه على وحيه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن برسول الله ﷺ من قومه وذوي رحمته أكرم الناس حسباً، وأحسن الناس وجوهاً، وخير الناس فعلاً، ثم كان أول الخلق إجابة، واستجاب لله حين دعاه رسول الله ﷺ، نحن أنصار الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبداً وكان قتله علينا يسيراً، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم. فقام الزبيرقان بن بدر فقال:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا	منا الملوك وفينا تنصب البيع ^(١)
وكم قسرنا من الأحياء كلهم	عند النهاب وفضل الغر يتبع
ونحن يُطعمُ عند القحط مُطعمُنا	من الشواء إذا لم يؤنس القزع ^(٢)
بما ترى الناس تأتينا سراهم	من كل أرض هويماً ثم نصطع ^(٣)
فنتحر الكوم ^(٤) عبطاً ^(٥) في أرومتنا ^(٦)	للنازليين إذا ما أنزلوا شبعوا
فلا ترانا إلى حي نفاخرهم	إلا استفادوا فكانوا الرأس يقطع
فمن يفاخرنا في ذلك نعرفه ^(٧)	فيرجع القوم والأخبار تستمع
إنا أبينا ولا يأبى لنا أحد	إنا كذلك عند الفخر نرتفع

(١) أي: مواضع العبادة.

(٢) أي: السحاب الخفيف.

(٣) في (الأصل): «هو يائم تصطنع»، وهو خطأ.

(٤) في (الأصل): «الكوم»، وهو خطأ، والكوم هي: الإبل العظيمة السنام.

(٥) أي: من غير علة.

(٦) أي: أصلنا.

(٧) في (الأصل): «تعرفه»، والمثبت من سيرة ابن هشام.

قال ابن إسحاق: وكان حسان غائباً فبعث إليه رسول الله ﷺ؛ قال حسان: جاءني رسوله فأخبرني أنه إنما دعاني لأجيب شاعر بني تميم، فخرجت إلى رسول الله ﷺ وأنا أقول:

منعنا رسول الله إذ دخل وسطنا على أنف راض من معد وراغم
منعناه لما حلّ بين بيوتنا بأسيفنا من كل باغ وظالم
لبيت حريد عزّه وثوراؤه بجابية^(١) الجولان وسط الأعاجم
هل المجد إلّا السود والعود^(٢) والندى وجاه الملوك واحتمال العظام

قال: فلما انتهيت إلى رسول الله ﷺ، وقام شاعر القوم فقال ما قال، عرضت في قوله، وقلت على نحو ما قال، قال: فلما فرغ الزبرقان قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت: «قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال» فقام حسان فقال:

إن الذوائب^(٣) من فھر وإخوتهم قد بيّنوا سنّة للناس تتبع
يرضى بهم كل من كانت سريرته تقوى الإله وكل الخير يصطنع
قوم إذا حاربوا ضرّوا عدوّهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجّية تلك منهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع
إن كان في الناس سباقون بعدهم فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
لا يرقع^(٤) الناس ما أوّھت^(٥) أكفهم عند الدفاع ولا يوهون ما وقعوا^(٦)

(١) في (الأصل): «بحابية»، والمثبت من سيرة ابن هشام.

(٢) في الأصل: (إلّا السود والعود)، والمثبت من سيرة ابن هشام.

(٣) أي: السادة.

(٤) في (الأصل): «لا يرفع»، وهو خطأ، والمثبت من سيرة ابن هشام.

(٥) أي: ما هدمت.

(٦) في (الأصل): «ولا يوقعون ما وقعوا»، وهو خطأ.

إن سابقوا الناس يوماً فإن سبقهم
أعفة^(١) ذكرت في الوحي عفتهم
لا يبخلون على جار بفضلهم
إذا نصبنا لحيّ لم نذبّ لهم
نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبتها
لا يفخرون إذا نالوا عدوّهم
كانهم في الوغى والموت مكتنع^(٤)
خذ منهم ما أتى عفواً إذا غضبوا

أو وازنوا أهل محمد بالندی متعوا
لا يطبعون^(٢) ولا يرديهم طمعوا
ولا يمسه من مطمع طبع
كما يدبّ إلى الوحشية الذرع
إذا الزعانف^(٣) من أظفارها خشعوا
وإن أصيبوا فلا خور ولا هلع
أسد بحلبة^(٥) في أرساغها فذع
ولا يكن همك الأمر الذي منعوا

قال ابن إسحاق: فلما فرغ حسان بن ثابت من قوله، قال الأقرع بن حابس: واللات إن هذا الرجل لمؤتى له، لخطيئه أخطب من خطيئنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا، قال: وقد كان الأقرع بن حابس وعيينة شهداء مع رسول الله ﷺ فتح مكة وحينئذ والطائف، فلما قدم وفد بني تميم كانا معهم، وقال حسان بن ثابت أيضاً:

بني دارم^(٦) لا تفخروا إن فخركم
هبلتم علينا تفخرون وأنتم
فإن كنتم جئتم لحقن دماءكم
فلا تجعلوا لله نداً وأسلموا

يعود وبالأ عند ذكر المكارم
لنا حول ما بين ظئر وخادم
وأموالكم أن تقسموا في المغانم
ولا تلبسوا زياً كزّي الأعاجم

(١) في (الأصل): «أعفته»، وهو خطأ.

(٢) أي: لا يتدنسون.

(٣) أي: أتباع الناس، خشعوا: ذلوا.

(٤) أي: قريب ودان.

(٥) ويروى: «أسد بحلبيّة».

(٦) في (الأصل): «وارم» وهو خطأ.

قال ابن إسحاق: «فلما فرغ القوم أسلموا، وجوزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم، وفيهم نزل من القرآن ﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾»^(١) انتهى ملخصاً.

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ مِّنْ بَنِي فَتَيِّتُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِحِّحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْإِصْيَانَ ءَأُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاكِبُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّامِينَ لِلَّهِ وَنِعْمَةَ ءَاللَّهِ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿٨﴾».

عن ابن عباس قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق نبأ﴾ الآية، قال: «كان رسول الله ﷺ بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق ليأخذ منهم الصدقات، وإنه لما أتاهم الخبر فرحوا وخرجوا ليتلقوا رسول الله ﷺ، وإنه لما حدث الوليد أنهم خرجوا يتلقونه، رجع إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن بني المصطلق قد منعوا الصدقة، فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً، فبينما هو يحدث نفسه أن يغزوهم، إذ أتاه الوفد فقالوا: يا رسول الله إنا حُدثنا أن رسولك رجع من نصف الطريق، وإنا خشينا أنما رده كتاب جاءه منك لغضب غضبه علينا، وإنا نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله، فأنزل الله عذرهم في الكتاب فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق نبأ فتيتوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾»^(٢). رواه ابن جرير. قال قتادة: فكان نبي الله ﷺ يقول: «التبين من الله، والعجلة من

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» بنحوه (٣١٣/٥ - ٣١٥)، وانظر السيرة لابن هشام (٢٧٦/٤ - ٢٨٣)، و«البداية والنهاية» (٤٢/٥ - ٤٤).

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٤/٢٦)، والبيهقي في سننه (٥٤/٩) بسند ضعيف.

الشیطان»^(١).

﴿واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم﴾ قال البغوي^(٢): لأنتمهم وهلكتم. قال قتادة: هؤلاء أصحاب نبي الله ﷺ، لو أطاعهم نبي الله ﷺ ﴿في كثير من الأمر لعنتم﴾ فأنتم والله أسخف رأياً وأطيش عقولاً، اتهم رجل رأيه وانتصح كتاب الله، فإن كتاب الله ثقة لمن أخذ به وانتهى إليه، وإنما سوى كتاب الله تغرير. وقال ابن زيد في قوله: ﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم﴾، قال: حبه إليهم وحسنه في قلوبهم ﴿وكره إليكم الكفر والفسوق﴾ قال: الكذب ﴿والعصيان﴾ قال: عصيان النبي ﷺ ﴿أولئك هم الراشدون﴾ من أين كان هذا؟ قال: ﴿فضلاً من الله ونعمة﴾ قال: والمنافقون ستمهم الله أجمعين في القرآن: الكاذبين، قال: والفاسق الكاذب في كتاب الله كله. وقال ابن كثير^(٣): ﴿وكره إليكم الكفر والفسوق﴾ وهي الذنوب الكبار ﴿والعصيان﴾ وهي جميع المعاصي، وهذا تدرج لكمال النعمة.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَأْيِسُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلَوْا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغْت إِحْدَهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْبِلُوا إِلَيْ تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١١﴾﴾.

قال ابن عباس: فإن الله سبحانه أمر النبي ﷺ والمؤمنين إذا اقتتل طائفتان

(١) أخرجه ابن جرير (١٢٤/٢٦) عن قتادة مرسلًا. وروي مسنداً من حديث أنس رضي الله عنه: «التأني من الله...» الحديث، أخرجه أبو يعلى (٢٠٦/٤)، والبيهقي في سننه (١٠٤/١٠) بسند حسن.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (١٩١/٤).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢١٠/٤).

من المؤمنين أن يدعوهم إلى حكم الله، وينصف بعضهم من بعض، فإن أجابوا حكم فيهم بكتاب الله حتى ينصف المظلوم من الظالم، فمن أبى منهم أن يجيب فهو باغ، فحقّ على إمام المؤمنين أن يجاهدهم ويقاتلهم حتى يفيئوا إلى أمر الله، ويقرّوا بحكم الله ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ قال البغوي^(١): في الدين والولاية ﴿فأصلحوا بين أخويكم﴾ إذا اختلفا واقتتلا ﴿واتقوا الله﴾ فلا تعصوه ولا تخالفوا أمره ﴿لعلكم ترحمون﴾. ثم ساق بسنده عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسْلَمُهُ، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله بها عنه كربة من كربة يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»^(٢).



(١) المصدر السابق (٤/١٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٢٤٤٢)، ومسلم (ح/٢٥٨٠).

الدرس السادس والستون بعد المائتين

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَEْمَعْضِكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمْئُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِنَ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَتَمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ .

وعن مجاهد: ﴿لا يسخر قوم من قوم﴾، قال: لا يهزأ قوم بقوم. وقال ابن كثير^(١): ينهى تعالى عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الكبر بطر الحق وغمص الناس»^(٢) وروي «وغمط الناس»؛ والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم. وعن ابن عباس قوله: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾ يقول: لا يطعن بعضكم على بعض. وعن الشعبي قال: حدثني أبو جبيرة بن الضحاك قال: «فيما نزلت في بني سلمة: ﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دعا أحداً منهم باسم من تلك الأسماء، قالوا: يا رسول الله إنه يغضب من هذا، فنزلت: ﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾»^(٣). رواه أحمد وغيره. وعن

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢١٢/٤).

(٢) أخرجه مسلم (ح/٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٤/٦٩ و ٢٦٠)، والبخاري في «الأدب المفرد» (ح/٣٣٠)، وأبو داود (ح/٤٩٦٢)، والترمذي (ح/٣٢٦٨)، وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/٤٦٦)، وابن ماجه (ح/٣٧٤١)، وابن جرير (٢٦/١٣٢)، والحاكم (٢/٤٦٣)، وصححه على شرط =

عكرمة في قوله: ﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾، قال: هو قول الرجل للرجل: يا فاسق يا منافق.

قال ابن كثير^(١): وقوله جلّ وعلا: ﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾، أي: بئس الصفة والاسم الفسوق، وهو التنابز بالألقاب - كما كان أهل الجاهلية يتداعون - بعدما دخلتم في الإسلام وعقلتموه. ﴿ومن لم يتب﴾، أي: من هذا ﴿فأولئك هم الظالمون﴾.

وعن ابن عباس قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن﴾ يقول: نهى الله المؤمن أن يظنّ بالمؤمن شراً ﴿إن بعض الظنّ إثم﴾، قال سفيان الثوري: الظنّ ظنّان: أحدهما إثم وهو أن تظنّ وتتكلم به، والآخر ليس بإثم وهو أن تظنّ ولا تتكلم. وعن ابن عباس ﴿ولا تجسسوا﴾ قال: نهى الله المؤمن أن يتبع عورات المؤمنين. وقال مجاهد: خذوا ما ظهر لكم ودعوا ما ستر الله.

وقوله تعالى: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾، عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ عن الغيبة قال: «ذكرك أخاك بما يكره»، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»^(٢). رواه ابن جرير وغيره. وعن ابن عباس قوله: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً؟ قال: حرّم الله على المؤمن أن يغتاب المؤمن بشيء كما حرّم الميتة. وعن قتادة: ﴿أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾؟ يقول كما أنت كاره لو وجدت جيفته مدوّدة أن تأكل منها، فكذلك فآكره غيبته وهو حيّ ﴿واتقوا الله إن الله تواب رحيم﴾، وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «يا أيها الناس، إن الله تعالى قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعظمها بأبائها، فالناس رجلان: رجل برّ تقّي كريم على الله تعالى، ورجل فاجر

= مسلم، ووافقه الذهبي، و (٤/٢٨١ - ٢٨٢)، وهو كما قال.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٢١٢).

(٢) أخرجه مسلم (ح/٢٥٨٩).

شَقِيٍّ هَيِّنَ عَلَى اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١).

وعن مجاهد قوله: ﴿شُعُوبًا﴾، قال: النسب البعيد، ﴿وَقَبَائِلَ﴾ دون ذلك، ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ قال: جعلنا هذا لتعارفوا فلان بن فلان من كذا وكذا. وعن عقبه بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أُنْسَابَكُمْ هَذِهِ لَيْسَتْ بِمَسَابٍ عَلَى أَحَدٍ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ وَلَدُ آدَمَ، طَفَتْ الصَّاعَ لَمْ تَمْلُؤُوهُ، لَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ فَضْلٌ إِلَّا بَدِينٍ أَوْ عَمَلٍ صَالِحٍ، حَسَبُ الرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ فَاحِشًا بَدِيًّا بَخِيلًا جَبَانًا» (٢). رواه ابن جرير. وعن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ: أيُّ النَّاسِ أَكْرَمُ؟ قال: «أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ»، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فَأَكْرَمُ النَّاسِ: يَوْسُفُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ»، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فَعِنَ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟» قالوا: نعم، قال: «فَخِيَارِكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارِكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَهَمُوا» (٣). رواه البخاري. وعن درة بنت أبي لهب قالت: قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر فقال: يا رسول الله أيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ فقال ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ أَقْرَبُهُمْ وَأَتْقَاهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَمْرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ،

(١) أخرجه الترمذي (ح/٣٢٧٠)، والبيهقي في «الشعب» (٤/٢٨٦)، قال الترمذي: «هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث عبد الله بن دينار عن ابن عمر إلا من هذا الوجه، وعبد الله بن جعفر يُضَعَّفُ، وضعفه يحيى بن معين وغيره...».

قلت: لكن له شاهد من حديث ابن عمر، وابن عباس رضي الله عنهما وقد خرجتهما في كتاب: «تنبيه ذوي الألباب السليمة» يسر الله نشره، فالحديث بشاهديه حسن إن شاء الله تعالى..

(٢) أخرجه أحمد (٤/١٤٥ و ١٥٨)، وابن جرير (٢٦/١٤٠)، والبيهقي في «الشعب» (٦/٢٩٢)، وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه البخاري (ح/٣٣٥٣ و ٣٣٨٣)، ومسلم (ح/٢٣٧٨).

وأوصلهم للرحم^(١)، رواه أحمد.

قوله عز وجل: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُل لَّمْ تُوْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَأَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَنْتُمْ عَلَى اللَّهِ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمْشُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ إِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ .

عن الزهري ﴿قالت الأعراب أمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ إن الإسلام الكلمة، والإيمان العمل^(٢). وعن قتادة قوله: ﴿قالت الأعراب أمنا قل لم

(١) أخرجه أحمد (٤٣١/٦ و ٤٣)، والطبراني (٢٥٧/٢٤)، بسند ضعيف.

(٢) قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٢١٩/٤): «وقد استفيد من هذه الآية الكريمة أن

الإيمان أخص من الإسلام، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة». اهـ.

فائدة: قال ابن تيمية - رحمه الله - في كتابه «الإيمان» (ص ١٩٩ و ٢٥٨ ط/ المكتب الإسلامي) معلقاً على هذه الآية: «فهذا الإسلام الذي نفى الله عن أهله دخول الإيمان في قلوبهم، هل هو إسلام يثابون عليه؟ أم هو من جنس إسلام المتناقين؟ فيه قولان مشهوران للسلف والخلف.

أحدهما: أنه إسلام يثابون عليه، ويخرجهم من الكفر والنفاق، القول الثاني: أن هذا الإسلام هو الاستسلام خوف السبي والقتل، إلى أن قال: «وحينئذ نقول: من قال من السلف: أسلمنا، أي: استسلمنا خوف السيف، وقول من قال: هو الإسلام، الجميع صحيح، فإن هذا إنما أراد الدخول في الإسلام، والإسلام الظاهر يدخل فيه المتناقون، فيدخل فيه من كان في قلبه إيمان ونفاق». اهـ ملخصاً.

تؤمنوا ﴿ ولعمري ما عمّت هذه الآية الأعراب، إن من الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر، ولكن إنما أنزلت في حيّ من أحياء العرب امتنوا بإسلامهم على نبيّ الله ﷺ فقالوا: أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان، فقال الله: ﴿ لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا ﴾، حتى يبلغ في قلوبكم ^(١).

﴿ وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً ﴾ يقول: لن يظلمكم من أعمالكم شيئاً. وعن مجاهد قوله ﴿ لا يلتكم ﴾، لا يتقصم ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾، قال قتادة: غفور للذنوب الكثيرة، رحيم بعباده ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾ لم يشكوا في دينهم ﴿ وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾، قال ابن زيد: صدقوا إيمانهم بأعمالهم.

قال ابن كثير ^(٢): وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ قل أتعلّمون الله بدينكم ﴾، أي: أتخبرونه بما في ضمائركم؟ ﴿ والله يعلم ما في السموات وما في الأرض ﴾، أي: لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾. وعن حبيب بن أبي عمرة قال: كان بشر بن غالب وليد بن عطارد عند الحجاج جالس، فقال بشر بن غالب للبيد بن عطارد: نزلت في قومك بني تميم: ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات ﴾، فذكرت ذلك لسعيد بن جبير فقال: إنه لو علم بآخر الآية أجابه ﴿ يمتنون عليك أن أسلموا ﴾، قالوا: أسلمنا ولم نقاتلك، بنو أسد. قال ابن كثير ^(٣): ثم كرّر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات وبصره بأعمال المخلوقات فقال: ﴿ إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون ﴾.



(١) أخرجه ابن جرير (١٤٢/٢٦) عن قتادة مرسلًا.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢١٩/٤).

(٣) المصدر السابق (١٢٠/٤).

الدرس السابع والستون بعد المائتين

﴿سورة ق﴾

مكية، وهي خمس وأربعون آية

قال ابن كثير^(١): هذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح. وروى أبو داود وغيره عن أوس الثقفي قال: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف يحزبون القرآن؟ فقالوا: «ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده»^(٢). وروى مسلم وغيره أن النبي ﷺ «كان يقرأ في العيد بـ «ق» و «اقتربت»، وكان يخطب بـ «بقاف» كل جمعة»^(٣). قال ابن كثير: والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجمع مع الكبار كالعيد والجمع، لاشتمالها على ابتداء الخلق، والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب. والله أعلم.

(١) المصدر السابق (٤/٢٢٠).

(٢) أخرجه أحمد (٤/٩ و ٣٤٣)، وأبو داود (ح/١٣٩٣)، وابن ماجه (١٣٤٥).

(٣) أدخل، المؤلف حديث أبي واقد الليثي - رضي الله عنه - مع حديث أم هشام بنت حارثة - رضي الله عنه - وإليك بيانه، فقوله: (كان يقرأ في العيد بـ «ق» و «اقتربت») أخرجه مسلم (ح/٨٩١) من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه، وقوله: «وكان يخطب بـ «ق» كل جمعة» أخرجه - أيضاً - مسلم (ح/٨٧٣) من حديث أم هشام بنت حارثة رضي الله عنها.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا
 نَحْنُ عٰجِبُونَ ﴿٢﴾ أَوَ ذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ
 وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ ﴿٥﴾ أَفَلَا تَنْظُرُونَ
 إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ
 مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِهَيْجٍ ﴿٧﴾ تَبَصَّرُوا وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ
 عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾
 وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذٰلِكَ
 الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيِّسِ وَشُعُوبٌ أُخْرٰى ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ
 لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبٰىءِ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعِينَا بِالْحَافِي الْأَوَّلِ
 بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ
 أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَبْلُغُ الْمَتْلَقِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ
 مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ
 تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذٰلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَاقِبٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾
 لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هٰذَا
 مَا لَدَىٰ عِتِيدٍ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَتَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي
 جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطَعَيْتُهُ وَلٰكِنْ
 كَانَ فِي ضَلٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَىٰ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ
 الْقَوْلُ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٣٠﴾
 وَأَزَلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُنْفِقِينَ خَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ

الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبِ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِمْ وَنُمِيتُهُمْ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ نَشَقُّ الْأَرْضَ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَمْ ذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيعٍ ﴿٥﴾ أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَواسِيَ وَأَشْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِهَيْجٍ ﴿٧﴾ تَبَصَّرَةٌ وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيسِ وَشَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُيُوعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ .

عن سعيد بن جبیر ﴿ق﴾ والقرآن المجید ﴿﴾ يقول: والقرآن الكريم ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ قال البغوي^(١): يعرفون نسبه وصدقه وأمانته ﴿فقال الكافرون هذا شيء عجيب﴾ غريب ﴿أنذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد﴾ قال الضحاك قالوا: كيف يحيينا الله وقد صرنا عظماً ورفاتاً وضللنا في الأرض؟ وعن ابن عباس قوله ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم﴾ يقول: ما تأكل الأرض من لحومهم وأبصارهم وعظامهم وأشعارهم ﴿وعندنا كتاب حفيظ﴾ قال البغوي: وهو اللوح المحفوظ. وقال ابن كثير^(٢): ﴿وعندنا كتاب حفيظ﴾ وحافظ لذلك، فالعلم

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/١٩٩).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٢٢٢).

شامل والكتاب أيضاً فيه كلّ الأشياء مضبوطة. وعن قتادة ﴿بل كذبوا بالحق لما جاءهم﴾، أي: كذبوا بالقرآن ﴿فهم في أمر مريج﴾ يقول: فهم في أمر مختلط عليهم ملتبس، لا يعرفون حقه من باطله ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج﴾، أي: ليس فيها شقوق، كقوله تعالى: ﴿فارجع البصر هل ترى من فطور﴾^(١). ﴿والأرض مددناها﴾، أي: بسطانها ﴿والقينا فيها رواسي﴾ قال قتادة: والرواسي الجبال ﴿وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾، أي: من كل نوع حسن.

وعن قتادة قوله: ﴿تبصرة﴾ نعمة من الله يبصرها العباد ﴿وذكري لكلّ عبد منيب﴾، أي: مقبل إلى الله بقلبه ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات﴾ بساتين ﴿وحبّ الحصيد﴾ قال ابن جرير^(٢): من البرّ والشعير وسائر أنواع الحبوب. وعن ابن عباس قوله: ﴿والنخل باسقات﴾ قال: النخل الطوال ﴿لها طلع نضيد﴾ يقول: بعض على بعض ﴿رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج﴾، أي: كما أحيينا الأرض بعد موتها، كذلك نحيي الموتى بعد ذهابهم ﴿كذّبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرست وثمرود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كلّ كذب الرسل فحقّ وعيد﴾ قال البغوي^(٣): وجب لهم عذابي. ثم أنزل جواباً لقولهم ﴿ذلك رجع بعيد﴾ ﴿أفبعينا بالخلق الأول﴾ يعني أعجزنا حين خلقناهم أولاً فنعيًا بالإعادة؟ وهذا تقريع لهم لأنهم اعترفوا بالخلق الأول وأنكروا البعث ﴿بل هم في لبس﴾، أي: في شك ﴿من خلق جديد﴾ وهو البعث بعد الموت. قال قتادة: فصار الناس فيه رجلين: مكذب ومصّدق.

(١) سورة الملك، الآية ١٧.

(٢) انظر «جامع البيان» (١٥٢/٢٦).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٢٠١/٤).

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُمَّا تَوْسُوسٍ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ مَحِيدٌ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْفَيْتَهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكَ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُنْفِقِينَ خَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْإِلَادِ هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ .

قال ابن جرير^(١): يقول تعالى ذكره: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾ ما تحدث به نفسه، فلا يخفى علينا سرائره وضمائر قلبه ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ قال مجاهد: هو الذي يكون في الحلق. قال البغوي^(٢): لأن أبعاضه وأجزائه يحجب بعضها بعضاً، ولا يحجب علم الله شيء^(٣). ﴿إذ يتلقى

(١) انظر «جامع البيان» (١٥٧/٢٦).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٢٠١/٤).

(٣) قال ابن القيم - رحمه الله - كما في «مختصر الصواعق» (٤٥٧/٢ و ٤٥٨): «فهذه الآية لها =

المتلقيان عن اليمين وعن الشمال بعيداً قال مجاهد: رصيد، عن اليمين الذي يكتب الحسنات، وعن الشمال الذي يكتب السيئات. قال سفيان: بلغني أن كاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات، فإذا أذنب قال له: لا تعجل لعله يستغفر. وقال ابن زيد في قوله: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ قال: جعل معه من يكتب كل ما لفظ به، وهو معه رقيب. قال البغوي رقيب: حافظ، عتيد: حاضر أينما كان. وعن أبي وائل قال: لما كان أبو بكر رضي الله عنه يقضي قالت عائشة رضي الله عنها: هذا كما قال الشاعر: إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر. وقال أبو بكر رضي الله عنه: لا تقولي ذلك، ولكنه كما قال عز وجل: ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت تهيد﴾. وعن عثمان رضي الله عنه أنه خطب فقرأ هذه الآية ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾ قال: سائق يسوقها إلى الله، وشاهد يشهد عليها بما عملت. وعن قتادة قوله: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك﴾ قال: عاين الآخرة ﴿فبصرك اليوم حديد﴾ قال ابن كثير^(١): أي قوي، قال الله تعالى: ﴿أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا﴾. وقال ابن زيد في قوله

= شأن، وقد اختلف فيها السلف والخلف على قولين:

فقالت طائفة: عند أقرب إليه بالعلم والقدرة والإحاطة، وعلى هذا فيكون المراد قربه سبحانه بنفسه، وهو نفوذ قدرته ومشيتته فيه وإحاطة عليه به.

والقول الثاني: أن المراد قرب ملائكته منه، وأضاف ذلك إلى نفسه بصيغة ضمير الجمع على عادة العظماء في إضافة أفعال عبيدها إليها بأوامرهم ومراسيمهم، فيقول الملك: نحن قتلناهم، وهزمناهم، قال تعالى: ﴿فإذا قرأناه فاتح قرآنه، وجبرائيل هو الذي يقرؤه على رسول الله ﷺ، وقال: «فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم» فأضاف قتل المشركين يوم بدر إليه، وملائكته هم الذين باسروه، إذ هو بأمره، وهذا القول أصح من الأول لوجوه، ثم ذكرها، وهو كلام نفيس ينبغي لك مراجعته، وانظر تفسير ابن كثير فقد رجح القول: بأن المراد بالقرب قرب الملائكة لا قرب الله تعالى (٤/٢٢٣).

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٢٢٥).

﴿وقال قرينه هذا ما لديّ عتيد﴾ إلى آخر الآية، قال: هذا سائقه الذي وكل به. وقال ابن كثير: ﴿هذا ما لديّ عتيد﴾، أي: معدّ محضر بلا زيادة ولا نقصان. واختار ابن جرير أن يعمّ السائق والشهيد. قال مجاهد يقول: هذا الذي وكلتني به من ابن آدم حاضر عندي، وقد أحضرته وأحضرت ديوان أعماله.

وقوله تعالى: ﴿الْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ قال الزجاج: هذا أمر للسائق والشهيد. وعن ابن عباس ﴿قال قرينه ربنا ما أطغيته﴾ قال: قرينه شيطانه. قال ابن زيد: تبرأ منه. وعن ابن عباس في قوله: ﴿لا تختصموا لديّ﴾ قال: إنهم اعتذروا بغير عذر، فأبطل الله حجّتهم وردّ عليهم قولهم. وقال أبو عمران في قول الله: ﴿وقد قدّمت إليكم بالوعيد﴾ قال: بالقرآن. وعن مجاهد قوله: ﴿ما يبذل القول لديّ﴾ قد قضيت ما أنا قاض ﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾. وعن ابن عباس قوله ﴿يوم نقول لجهنّم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾؟ قال ابن عباس: إن الله الملك تبارك وتعالى قد سبقت كلمته ﴿لأملأن جهنّم من الجنّة والناس أجمعين﴾ فلما بعث الناس وأحضروا، وسبق أعداء الله إلى النار زمراً، جعلوا يقتحمون في جهنّم فوجاً فوجاً، لا يلقي في جهنّم شيء إلاّ ذهب فيها، ولا يملأها شيء، قالت: ألسنت قد أقسمت لمتلأتي من الجنّة والناس أجمعين؟ فوضع قدمه، فقالت حين وضع قدمه فيها: قد قد فإني قد امتلأت فليس لي مزيد؛ ولم يكن يملأها شيء حتى وجدت مسّ ما وضع عليها، فتضايقت حين جعل عليها ما جعل فامتلأت، فما فيها موضع إبرة^(١). وعن قتادة قوله: ﴿وأزلفت الجنّة للمتقين﴾ يقول: وأدّيت ﴿غير بعيد﴾ ﴿هذا ما توعدون لكلّ أواب حفيظ﴾، قال قتادة: أي مطيع لله كثير الصلاة ﴿حفيظ﴾ لما استودعه الله من حقّه ونعمته. وقال ابن زيد: الأواب: التواب الذي يؤوب إلى طاعة الله ويرجع إليها؛ ﴿من خشى الرحمن بالغيب وجاء

(١) وضع الله - عز وجل - رجله في النار ثابت في الصحيحين وغيرهما، انظر البخاري (ح/٤٨٤٨ و ٤٨٤٩ و ٤٨٥٠)، ومسلم (٤/٢١٨٦ - ٢١٨٨).

بقلب منيب ﴿ قال قتادة: أي منيب إلى ربه مقبل ﴾ ادخلوها بسلام ﴿ قال: سلموا من عذاب الله وسلّم عليهم. ﴿ ذلك يوم الخلود ﴾ خلدوا واللّه فلا يموتون، وأقاموا فلا يظعنون، ونعموا فلا يبأسون؛ ﴿ لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ﴾ قال أنس بن مالك: هو النظر إلى وجه الله الكريم (١).

وقوله تعالى: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد﴾ قال مجاهد: عملوا. وعن قتادة قوله ﴿فنقبوا في البلاد هل من محيص﴾ قال: حاص أعداء الله فوجدوا أمر الله لهم مدركاً. ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ قال بعض المفسرين: وفي الآية ترتيب حسن، لأنه إن كان إذا قلب ذكّي يستخرج المعاني بتدبره وفكره، فذاك، وإلا فلا بد أن يكون مستمعاً مصغياً إلى كلام المنذر ليحصل له التذكر.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَأَسْبَغَ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا

(١) فسر أهل السنة — رحمهم الله — هذه الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم، وهذه الآية كقولها تعالى: «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة»، روى مسلم في صحيحه (ح/٢٩٨) من حديث صهيب — رضي الله عنه — مرفوعاً: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال: يقول الله تبارك وتعالى: «تريدون شيئاً أزيدكم، فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل»، وفي رواية: (ثم قال: «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة»).

يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ تَخَنُّنٌ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِمُجِبَّرٍ فُذِّكِرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض﴾ الآية: أكذب الله اليهود والنصارى وأهل الفري على الله، وذلك أنهم قالوا: أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استراح يوم السابع، وذلك عندهم يوم السبت وهم يسمونه يوم الراحة، قال: فأكذبهم الله وقال: ﴿وما مسنا من لغوب﴾ قال مجاهد: نَصَب. وقال ابن زيد: لم يمَسْنَا في ذلك عناء، ذلك اللغوب ﴿فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾ قال قتادة: صلاة الفجر وصلاة العصر. وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا؛ ثم قرأ ﴿فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾»^(١). متفق عليه.

وقوله تعالى: ﴿ومن الليل فسبحه﴾، أي: صلِّ له ﴿وأدبار السجود﴾ قال ابن عباس: هو التسيح بعد الصلاة. وعن قتادة ﴿واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب﴾ قال: كنا نحدِّث أنه ينادي من بيت المقدس من الصخرة، وهي أوسط الأرض، قال بريدة: ملك ينادي يقول: يا أيها الناس هلموا إلى الحساب، قال فيقبلون كما قال الله ﴿كانهم جراد منتشر﴾. ﴿يوم يسمعون الصيحة بالحق﴾ قال البغوي^(٢): وهي الصيحة الأخيرة ﴿ذلك يوم الخروج﴾ من القبور ﴿إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير نحن

(١) أخرجه البخاري (ح/٥٥٤ و ٥٧٣ و ٤٨٥١ و ٧٤٣٤ و ٧٤٣٠ و ٧٤٣٦)، ومسلم

(ح/٦٣٣).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٢٠٦/٤).

أعلم بما يقولون ﴿ فيه تهديد للكفار وتسلية للنبي ﷺ. وعن قتادة قوله ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ فإن الله عز وجل كره الجبرية ونهى عنها وقدم فيها. وعن ابن عباس قال قالوا: يا رسول الله لو خوفتنا، فنزلت ﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾^(١) وكان قتادة يقول: اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك، ويرجو موعودك يا برّ يا رحيم.



(١) أخرجه ابن جرير (١٨٥/٢٦) بسند ضعيف.

الدرس الثامن والستون بعد المائتين

﴿سورة الذاريات﴾

مكية، وهي ستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا ﴿١﴾ فَالْحَمَلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمَقْسَمَاتِ ﴿٤﴾ أَمْرًا ﴿٥﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْعِقُ ﴿٧﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوكِ ﴿٨﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٩﴾ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَافِكُ ﴿١٠﴾ قِيلَ الْفَرَاصُونَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرُقٍ سَاهُونَ ﴿١٢﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الَّذِينَ ﴿١٣﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٤﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٥﴾ إِنَّ الْمَتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٦﴾ آجِزِينَ مَاءٍ نَّاهِيَةٍ رِيشُهُمْ كَانُورٌ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٧﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٨﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٩﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴿٢٠﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢١﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢٢﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٣﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٤﴾ هَلْ أَنتَكَ حَدِيثٌ ضَعِيفٌ إِبراهيمَ الْمَكْرُمِيتِ ﴿٢٥﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلِّمْ عَلَيْنَا قَالِ سَلِّمْ قَوْمٌ مُّشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ فَرَأَى إِلَىٰ أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٧﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٨﴾ فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَاقَةٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٣٠﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ

إِنَّهُمْ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٢﴾ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا
إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾
فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا
فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَنٍ
مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّى بِرُكْبِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْتَهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْتَهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ
مُذْمُومٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ
كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ
الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِفِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ
قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ
فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفَرُّوا
إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ
مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ اتَّوَصَوْا
بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ ﴿٥٣﴾ فَنُؤَلِّعُنَّهُمْ مِمَّا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الدِّكْرَىٰ نُنْفَعُ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا
أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا
مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ ﴿٥٩﴾ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي
يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ *

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْفِعُوا بِهَا الْحَبْكَ إِنَّمَا لَئِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِنَ الْفِكْرِ ﴿٩﴾ قَبْلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ .

عن عليّ في قول الله تعالى: ﴿والذاريات ذرؤاً﴾ قال: هي الرياح. قيل له: ما ﴿الحاملات وقرأ﴾؟ قال: هي السحاب. قيل فما ﴿الجاريات يسراً﴾؟ قال: هي السفن. قيل فما ﴿المقسمات أمراً﴾؟ قال: الملائكة. وعن قتادة قوله: ﴿إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع﴾ وذلك يوم القيامة، يوم يدان الناس فيه بأعمالهم. وعن ابن عباس ﴿والسماوات الحبك﴾ قال: ذات الخلق الحسن. وعن قتادة قوله ﴿إنكم لفي قول مختلف﴾ قال: مصدق بهذا القرآن ومكذب. وقال ابن زيد يتخرصون يقولون هذا سحر، ويقولون: هذا أساطير الأولين، فبأي قولهم يؤخذ؟ ﴿قتل الخراصون﴾. وعن الحسن ﴿يؤفك عنه من أفك﴾ قال: يُصرف عنه من صرف.

وعن ابن عباس قوله: ﴿قتل الخراصون﴾ يقول: لُعن المرتابون. وعن مجاهد ﴿قتل الخراصون﴾ قال: الذين يتخرصون الكذب ﴿الذين هم في غمرة ساهون﴾ قلبه في كنانة. وقال ابن زيد: ﴿سَاهُونَ﴾ عما أتاهم وعما نزل عليهم، وعما أمرهم الله تبارك وتعالى. وعن مجاهد: ﴿يسألون أيان يوم الدين﴾ يقولون: متى يوم الدين؟ ويكون يوم الدين ﴿يوم هم على النار يُفْتَنُونَ﴾ كما يُفْتَنُ الذهب في النار. وعن ابن عباس قوله ﴿يسألون أيان يوم الدين يوم هم على النار يُفْتَنُونَ﴾

قال: ففتنتهم أنهم سألوا عن يوم الدين وهم موقوفون على النار ﴿ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾ فقالوا حين وقفوا: يا ويلنا هذا يوم الدين. قال الله تبارك وتعالى: ﴿هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون﴾ وعن قتادة ﴿ذوقوا فتنتكم﴾ ذوقوا عذابكم ﴿هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ رَبَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ قَرِيبٌ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

قال البغوي^(١): ﴿إن المتقين في جنات وعيون آخذين ما آتاهم﴾ ما أعطاهم ﴿ربهم﴾ من الخير والكرامة ﴿إنهم كانوا قبل ذلك﴾ قبل دخولهم الجنة ﴿محسنين﴾ في الدنيا. وعن ابن عباس ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾ قال: لم يكن يمضي عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئاً. وقال الحسن: كابدوا قيام الليل ﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾ قال: مدّوا في الصلاة ونشطوا، حتى كان الاستغفار يسحراً. وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾ قال: السائل الذي يسأل، والمحروم المحارف. وقال الضحاك: والمحروم هو الرجل المحارف الذي لا يكون له مال إلا ذهب، قضى الله له ذلك. وعن قتادة: ﴿وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾ هذان فقيرا أهل الإسلام: سائل يسأل في كفه وفقير متعفف، ولكليهما عليك حق يا ابن آدم. وروى ابن جرير عن الزهري [أن النبي ﷺ] قال: «ليس المسكين الذي تردّه التمرة والتمرتان، والأكلة والأكلتان». قالوا: فمن المسكين يا رسول الله؟ قال: «الذي

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٢٠٨).

لا يجد غنى ولا يعلم بحاجته فيتصدق عليه، فذلك المحروم»^(١). وقال ابن زيد: المحروم المصاب ثمره وزرعه، وقرأ: ﴿أفرايتم ما تحرثون أنتم تزرعون﴾ حتى بلغ: ﴿بل نحن محرومون﴾؛ وقال أصحاب الجنة: ﴿إنا لضالون بل نحن محرومون﴾. وقال زيد بن أسلم: ليس ذلك بالزكاة، ولكن ذلك مما ينفقون من أموالهم بعد إخراج الزكاة؛ والمحروم الذي يصاب زرعه أو ثمره أو نسل ماشيته، فيكون له حق على من لم يصبه ذلك من المسلمين. قال ابن جرير^(٢): والصواب أن الآية عامة في كل من حرم الرزق واحتاج.

وقوله تعالى: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾ قال قتادة: معتبر لمن اعتبر. وعن ابن الزبير: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ قال: سبيل الخلاء والبول. وقال ابن زيد في قوله: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ وقرأ: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تتشرون﴾^(٣) قال: وفينا آيات كثيرة: هذا السمع والبصر واللسان والقلب يجعل الله فيه العقل. وعن الضحاك في قوله ﴿وفي السماء رزقكم﴾ قال: المطر. وقال مجاهد: الجنة في السماء ﴿وما توعدون﴾ من خير أو شر. وقيل: إن أرزاقكم في الدنيا ﴿وما توعدون﴾ في العقبى كلها مقدرة مكتوبة في السماء. وعن الحسن في قوله: ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾ قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله أقواماً أقسم لهم ربهم بنفسه فلم يصدقوه»^(٤).

(١) أخرجه ابن جرير (٢٠٢/٢٦) عن الزهري مرسلًا، وروي مسنداً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أخرجه البخاري (ح/١٤٧٦ و ١٤٧٩ و ٤٥٣٩)، ومسلم (ح/١٠٣٩) بنحوه.

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٠٤/٢٦).

(٣) سورة الروم: الآية ٢٠.

(٤) أخرجه ابن جرير (٢٠٦/٢٦).

قوله عز وجل: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجَلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلَيْهِ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَخٍ فَصَكَتَ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ * قَالَ فَمَا خَطْبُكَ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْبَيْهِ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْتَهُ وَخُوذُوهُ فَنَبَذْتَهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا نَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ وَالَّذِينَ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ صِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِفِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمٌ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِيْتِهِمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ * .

قال في جامع البيان: ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم﴾ فيه تعظيم لشأن الحديث، وتنبية على أنه إنما عرفه بالوحي ﴿المكرمين﴾ عند الله تعالى وعند إبراهيم عليه السلام. قال مجاهد: أكرمهم إبراهيم وأمر أهله لهم بالعجل حينئذ. وعن قتادة قوله: ﴿فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين﴾ قال: كان عامة مال نبي الله إبراهيم عليه السلام البقر. وعن ابن عباس: ﴿فأقبلت امرأته في صرة﴾ يقول: في صيحة ﴿فصكت وجهها﴾ قال السدي: لما بشر جبريل سارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، ضربت جبهتها عجباً. ﴿وقالت عجوز عقيم﴾! قال الضحاک: لا تلد ﴿قالوا كذلك قال ربك﴾ قال البغوي، أي: كما قلنا لك قال ربك: إنك

ستلدين غلاماً ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾. ﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المرسلون، قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين، لترسل عليهم حجارة من طين، مسومة عند ربك للمسرفين﴾ قال ابن عباس: المسومة الحجارة المختومة، يكون الحجر أبيض فيه نقطة سوداء، ويكون الحجر أسود فيه نقطة بيضاء، فذلك تسويمها ﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ قال قتادة: لو كان فيها من ذلك لأنجاهم الله، ليعلموا أن الإيمان عند الله محفوظ لا ضيعة على أهله. قال البغوي^(١): وصفهم الله تعالى بالإيمان والإسلام جميعاً، لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم.

قال ابن كثير^(٢): وقوله تعالى: ﴿وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم﴾، أي: جعلناها عبرة بما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل، وجعلنا محلّتهم بحيرة متنته خبيثة، ففي ذلك عبرة للمؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿وفي موسى﴾، أي: وتركنا في إرسال موسى آية وعبرة: ﴿إذ أرسلناه إلى فرعون بسطان مبين﴾ قال ابن كثير، أي: بدليل باهر وحنة قاطعة ﴿فتولّى بركنه﴾ قال قتادة: غلب عدوّ الله على قومه. وقال ابن زيد: ﴿فتولّى بركنه﴾ قال: بمجموعته التي معه ﴿وقال ساحر أو مجنون فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليمّ وهو مليم﴾ قال ابن جرير^(٣): والمليم هو الذي قد أتى ما يلام عليه من الفعل. قال البغوي^(٤): أي آت بما يلام عليه من دعوى الربوبية وتكذيب الرسل ﴿وفي عاد﴾، أي: وفي إهلاك عاد أيضاً آية ﴿إذا أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾ وهي التي لا خير فيها ولا بركة، ولا تلقح شجراً ولا تحمل مطراً. وعن

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٢١١).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٢٣٦).

(٣) انظر «جامع البيان» (٣/٢٧).

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٤/٢١١).

ابن عباس قوله: ﴿ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم﴾ قال: كالشيء الهالك: ﴿وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون﴾ قال ابن كثير^(١): وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام، فجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بكرة النهار: ﴿فما استطاعوا من قيام﴾، أي: من هرب ولا نهوض ﴿وما كانوا منتصرين﴾ قال قتادة: ما كانت عندهم من قوة يمتنعون بها من عذاب الله عز وجل ﴿وقوم نوح من قبل﴾ قال ابن كثير: وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُونَ ﴿٥٣﴾ فَنَوَّلْ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الدِّكْرَى نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ ﴿٥٩﴾ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾.

عن ابن عباس: ﴿والسمااء بنيناها بأيدٍ﴾ يقول: بقوة ﴿وإنا لموسعون﴾ قال ابن كثير، أي: قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد ﴿والأرض فرشناها﴾ قال البغوي^(٢): بسطانها ومهدناها لكم ﴿فنعمة الماهدون﴾ الباسطون نحن. قال ابن

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٢٣٧).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٢١٢).

عباس: نِعَمَ ما وَطَّأْتُ لعبادي. وقال مجاهد في قوله: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ قال: الكفر والإيمان، والشقاوة والسعادة، والهدى والضلالة، والليل والنهار، فوالسما والأرض، والإنس والجن. وقال ابن زيد: ذكر وأثنى ذاك الزوجان. وقال البغوي^(١): ﴿لعلكم تذكرون﴾ فتعلمون أن خالق الأزواج فرد ﴿ففرّوا إلى الله﴾ فاهربوا من عذاب الله إلى ثوابه بالإيمان والطاعة ﴿إني لكم منه نذير مبين﴾ ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر ﴿إني لكم منه نذير مبين﴾. ﴿كذلك﴾، أي: كما كذّبك قومك يا محمد وقالوا: ساحر أو مجنون ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون﴾ قال البغوي^(٢): والألف فيه للتوبيخ. قال ابن كثير^(٣): أي أوصى بعضهم بعضاً بهذه المقالة ﴿بل هم قوم طاغون﴾، أي: لكن هم قوم طغاة تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم. قال الله تعالى: ﴿فأعرض عنهم﴾ يا محمد: ﴿فما أنت بمّلموم﴾ يعني فما نلومك على ذلك ﴿وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾، أي: إنما تنتفع بها القلوب المؤمنة.

وعن عليّ بن أبي طالب في قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾، أي: إلا لآمرهم أن يعبدون وأدعواهم لعبادتي. قال السدي: من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع، ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ الله﴾ هذا منهم عبادة، وليس ينفعهم مع الشرك. قال ابن كثير: ومعنى الآية: أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتمّ الجزاء، ومن عصاه عذّبه أشدّ العذاب؛ وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم. وعن أبي هريرة مرفوعاً: «قال الله

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٢١٢).

(٢) المصدر السابق (٤/٢١٣).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٢٣٨).

تعالى: يا ابن آدم، تفرّغ لعبادتي أملاً صدرك غنى، وأسدّ ففرك، وإلاً تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسدّ ففرك»^(١). رواه أحمد وغيره. وعن ابن عباس قوله: ﴿ذو القوة المتين﴾ يقول: الشديد ﴿فإن للذين ظلموا ذنوباً﴾ يقول: دلوأ ﴿مثل ذنوب أصحابهم﴾ يقول: للذين ظلموا عذاباً مثل عذاب أصحابهم. وقال ابن زيد يقول: لهم سَجَلٌ من عذاب الله، وقد فعل هذا بأصحابهم من قبلهم، فلهم عذاب مثل عذاب أصحابهم: ﴿فلا يستعجلون﴾ قال ابن كثير^(٢)، أي: فلا يستعجلون ذلك فإنه واقع لا محال ﴿فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون﴾ يعني يوم القيامة.



(١) أخرجه أحمد (٢/٣٥٨)، والترمذي (ح/٢٤٦٦)، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (ح/٤٠١٧)، بسند ضعيف. وفي (الأصل): «يتضرع»، وهو خطأ.
(٢) المصدر السابق (٤/٢٣٨).

الدرس التاسع والستون بعد المائتين

﴿سورة الطور﴾

مكية، وهي تسع وأربعون آية

في الصحيحين عن جبير بن مطعم قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، بَلْ لَا يُوقِنُونَ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْبِ أَمْ هُمُ الْمَسْيطِرُونَ﴾، كاد قلبي أن يطير»^(١)؛ قال ابن كثير^(٢): وجبير بن مطعم قد قدم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشركاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالطُّورِ ① وَكُتِبَ مَسْطُورٍ ② فِي رَقٍ مَنشُورٍ ③ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ④
وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ⑤ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ⑥ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ⑦ مَا لَهُ مِنْ
دَافِعٍ ⑧ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ⑨ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ⑩ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ⑪ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ⑫ يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ⑬
هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ ⑭ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ⑮
أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ⑯ إِنَّ

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٨٥٤)، وبنحوه ومسلم (ح/٤٦٣).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٢٣٩).

الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَكَلِمَةٍ يَمَاءِ النَّهْمِ رَبُّهُمْ وَوَقَّتَهُم رَّبُّهُمْ عَذَابَ
 الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَكِبِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ
 وَرَوَّجْتَهُمْ بِحُورٍ عَيْنٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَتَعْنَتُهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ
 وَمَا أَلْتَنَّهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهٍ
 وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَنْزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَعْنٌ فِيهَا وَلَا تَأْسِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ
 عِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا
 كُنَّا قَبْلَ فِي آهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنْ أَلَّهَ عَلَيْنَا وَوَقَّنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا
 كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكَرْنَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ
 يَكَاهِنٍ وَلَا جَمُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي
 مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْزِلِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ
 نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ
 غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ بَلْ لَا يُؤْقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ
 عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّطُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سَامٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَعِثَّهُمْ
 بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ نَسْتَلْهُمُ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ
 مُثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ
 الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ
 سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ
 لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنِ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَٰكِن
 أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾
 وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكُنْتُمْ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴿٣﴾
وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ
لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾
فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارٍ
جَهَنَّمَ دَعَاً ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا
تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَصَلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ .

قال البغوي^(١): ﴿والطور﴾ أراد به الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام. قال ابن كثير^(٢): فالطور هو الجبل الذي يكون فيه أشجار. وعن مجاهد في قوله: ﴿وكتاب مسطور﴾، قال: صحف قال قتادة: والمسطور المكتوب. ﴿في رَقٍّ منشور﴾، قال البغوي^(٣): الرَقُّ ما يكتب فيه. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رجلاً قال له: ما البيت المعمور؟ قال: «بيت في السماء يقال له الضراح، وهو بحيال الكعبة من فوقها، حرمة في السماء كحرمة البيت في الأرض»^(٤). وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال في حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة: «ثم رُفِعَ بي إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل

(١) انظر «معالم التنزيل» (٢١٥/٤).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٣٩/٤).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٢١٥/٤).

(٤) أخرجه ابن جرير (١٧/٢٧).

يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه آخر ما عليهم^(١).

وعن عليّ قال: ﴿السقف المرفوع﴾ السماء. وقال ابن زيد في قوله ﴿والبحر المسجور﴾، قال: الموقد، وقرأ ﴿وإذا البحار سجرت﴾. وعن ابن عباس في قوله ﴿والبحر المسجور﴾ قال: المحبوس. وعن عليّ ﴿والبحر المسجور﴾، قال: بحر في السماء تحت العرش. وقال قتادة: المسجور المملوء. وعن جعفر بن زيد العبيديّ قال: خرج عمر يعسّ في المدينة ذات ليلة، فمرّ بدار رجل من المسلمين، فوافقه قائماً يصلّي، فوقف يستمع قراءته فقرأ: ﴿والطور﴾ حتى بلغ: ﴿إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع﴾ قال: ﴿قسّم وربّ الكعبة حقّ﴾، فنزل عن حمارة واستند إلى حائط، فمكث ملياً، ثم رجع إلى منزله، فمكث شهراً يعودُه الناس لا يدرون ما مرضه رضي الله عنه^(٢). وعن قتادة: ﴿إن عذاب ربك لواقع﴾، وذلك يوم القيامة ﴿يوم تمور السماء موراً﴾ مورها: تحريكها. وقال مجاهد: تدور دوراً. ﴿وتسير الجبال سيراً﴾، فويل يومئذ للمكذّبين الذين هم في خوض يلعبون﴾، قال البغوي^(٣): يخوضون في الباطل، يلعبون غافلين لاهين. وعن ابن عباس ﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً﴾ قال: يُدفع بأعناقهم حتى يردّوا النار. قال البغوي: فإذا دنوا منها قال لهم خزنتها: ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذّبون﴾، في الدنيا ﴿أفسح هذا؟﴾ وذلك أنهم كانوا ينسبون محمداً ﷺ إلى السحر، وإلى أنه يغطي على الأبصار بالسحر، فويّخوا به وقيل لهم: ﴿أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها﴾، قاسوا شدتها ﴿فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم﴾، الصبر والجزع ﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾.

(١) سبق تخريجه تحت حديث الإسراء الطويل.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقّة والبكاء» (رقم/ ١٠٠).

(٣) المصدر السابق (٤/ ٢١٦).

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُنَاقِبِينَ فِي جَنَّتِ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَكَهَيَّبْنَا بِمَا آتَيْنَاهُمْ رَيْثُكُمْ وَوَقَعْتُمْ رَيْثَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كَلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِعِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَنْزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنْ لَنَا اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ .

قال البغوي^(١): ﴿إن المتقين في جنات ونعيم فاكهين﴾ معجبين بذلك ناعمين بما آتاهم ربهم ﴿ووقاهم ربهم عذاب الجحيم﴾. وعن ابن عباس في هذه الآية: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريرتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريرتهم﴾، قال: إن الله تبارك وتعالى يدفع للمؤمن ذريرته وإن كانوا دونه في العمل، ليقر الله بهم عينه؛ ﴿وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾، يقول: ما نقصناهم ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾، قال ابن كثير^(٢): أي مرتتهن بعمله، أي لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس، سواء كان أباً أو ابناً ﴿وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم﴾، قال قتادة: إنما كان اللغو والباطل في الدنيا ﴿ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون﴾، ذكر لنا أن رجلاً قال: يا نبي الله، هذا الخادم فكيف المخدوم؟ قال: «والذي نفس محمد بيده، إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»^(٣). ﴿وأقبل

(١) المصدر السابق (٢١٧/٤).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٤١/٤).

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٧/٢٩) عن قتادة مرسلًا.

بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السموم ﴿٢٩﴾ ، قال ابن زيد: عذاب النار. قال ابن جرير وقوله: ﴿إنا كنا من قبل ندعوه﴾ يقول: إنا كنا في الدنيا من قبل يومنا هذا ﴿ندعوه﴾ يقول: نعبده مخلصين له الدين لا نشرك به شيئاً ﴿إنه هو البرّ الرحيم﴾ ، يعني اللطيف بعباده، الرحيم بخلقه أن يعذبهم بعد توبتهم .

قوله عز وجل: ﴿ فَذَكَرْنَاكَ يَا مَنْعًا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبِ الْمُنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ الْمَتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَهْلَانَهُمْ بِهَدًى أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْفِقُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّطُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ هُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْتَأْجِرُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِّنْ مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ .

قال البغوي^(١): ﴿فذكر﴾ ، يا محمد بالقرآن ﴿فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾ ، نزلت في الذين اقتسموا عقبات مكة، يرمون رسول الله ﷺ بالكهانة والسحر والجنون والشعر. وعن ابن عباس: إن قريشاً لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي ﷺ ، قال قائل منهم: احبسوه في وثاق ثم تربصوا به المنون حتى يهلك، كما هلك من قبله من الشعراء زهير والنابعة، إنما هو كأحدهم، فأنزل الله في ذلك من قولهم ﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾^(٢)؛ قال

(١) المصدر السابق (٤/٢١٨).

(٢) أخرجه ابن جرير (٣١/٢٧) بسند ضعيف.

البغوي^(١): حوادث الدهر. ﴿قل تربصوا﴾، انتظروا ﴿فإني معكم من المتربصين﴾ حتى يأتي أمر الله فيكم. ﴿أم تأمرهم أحلامهم﴾ عقولهم ﴿بهذا﴾ وذلك أن عظماء قريش كانوا يوصفون بالأحلام والعقول، فأزرى الله بعقولهم حين لم تميز لهم معرفة الحق من الباطل ﴿أم هم﴾ بل هم ﴿قوم طاغون أم يقولون تقوله﴾، أي: تخلق القرآن من تلقاء نفسه ﴿بل لا يؤمنون﴾ بالقرآن ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾. وقوله تعالى: ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾، يعني: أوجدوا من غير مؤجد أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأوجدهم. ﴿أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون﴾، قال ابن كثير^(٢): وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله، وهم يعلمون أنه الخالق وحده لا شريك له. ﴿أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون﴾؟، أي: المحاسبون للخلائق؟ ليس الأمر كذلك. وعن ابن عباس قوله: ﴿أم هم المسيطرون﴾، يقول: المسلطون. ﴿أم لهم سلم يستمعون فيه﴾ الوحي ﴿فليأت مستمعهم بسطان مبین﴾، حجة بيّنة. ﴿أم له البنات ولكم البنون﴾؟

قال البغوي^(٣): هذا إنكار عليهم حين جعلوا الله ما يكرهون. وعن قتادة قوله: ﴿أم تسألهم أجرأ فهم من مغرم مثقلون﴾، يقول: هل سألت هؤلاء القوم أجرأ فجهدهم فلا يستطيعون الإسلام؟ ﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾؟ قال ابن عباس معناه: أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس به؟ ﴿أم يريدون كيداً﴾ مكرأ بك ليهلكوك ﴿فالذين كفروا هم المكيدون﴾، قال البغوي: أي هم المجزيون بكيدهم، يريد أن ضرر ذلك يعود عليهم ﴿أم لهم إله غير الله يرزقهم وينصرهم سبحانه الله عما يشركون﴾.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٢١٩/٤).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٤٤/٤).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٢٢٠/٤).

قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِن لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَٰكِن أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿إِنْ يَرَوْا كِسْفًا﴾، يقول: وإن يروا قطعاً ﴿من السماء ساقطاً﴾ يقولوا سحاب مركوم﴾، يقول: لا يصدقوا بحديث ولا يؤمنوا بآيات ﴿فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون﴾؛ قال ابن كثير: وذلك يوم القيامة ﴿يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون﴾. وقوله تعالى: ﴿وَإِن لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾، أي: ما يصيبهم في الدنيا من المصائب، فإنما عذاب للفاجر وكفارة للمؤمن ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾. ﴿واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾، قال ابن جرير: يقول جل ثناؤه: فإنك بمرأى منا، نراك ونرى عملك، ونحن نحوطك ونحفظك^(١). ﴿وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾، قال أبو الأحوص: سبحان الله ويحمده. وقال ابن زيد: إذا قام لصلاة ليل أو نهار. ﴿ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم﴾، قال الضحاك: صلاة الصبح.



(١) قلت: وفي هذه الآية: إثبات صفة العين لله عز وجل حقيقة على الوجه اللائق به تعالى من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل.

الدرس السبعون بعد المائتين

﴿سورة النجم﴾

مكية، وهي اثنان وستون آية

في الصحيحين عن ابن مسعود قال: «أول سورة أنزلت فيها سجدة ﴿والنجم﴾، فسجد النبي ﷺ وسجد من خلفه، إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً»^(١).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَبْطِئُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِن هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتَمْنُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۝١٤ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا رَآعَ الْبَصَرُ وَمَا طَعَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٨ أَفَرَأَيْتُمْ أَكَلْتُمْ الْبُرُوقَ ۝١٩ وَمَنْوَةَ الثَّلَاثَةِ الْأُخْرَىٰ ۝٢٠ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۝٢٢ إِن هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٨٦٣)، ومسلم - بنحوه - (ح/٥٧٦).

وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَعْبَى ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ
 الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ * وَكَرَّ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تَعْبَى شَفَعْنَهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ
 أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴿٢٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونَ أَلَلَّتِكُمْ تَسْمِيَةَ
 الْأُنثَى ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾
 فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ
 رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا
 فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَفَوْا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ
 يَحْتَبُونَ كَثِيرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّهُمَّ إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْعَفْوَ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ
 أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُشْرِكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ
 بِمَنِ اتَّقَى ﴿٣٢﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ
 يَرَى ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُبْنَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَا نَزَرُ وَزِرَّةٌ
 وَزَرٌ أُخْرَى ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنْ سَعَيْهِمْ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ
 يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٤١﴾ وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴿٤٢﴾ وَأَنْتُمْ هُوَ أَضْحَكٌ وَأَبْكَى ﴿٤٣﴾ وَأَنْتُمْ
 هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنْتُمْ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٤٥﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴿٤٦﴾ وَأَنْ عَلَيْهِ
 النَّشْأَةُ الْآخِرَى ﴿٤٧﴾ وَأَنْتُمْ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴿٤٨﴾ وَأَنْتُمْ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَى ﴿٤٩﴾ وَأَنْتُمْ أَهْلَكَ عَادًا
 الْأُولَى ﴿٥٠﴾ وَتَمُودًا فَمَا أَتَقَى ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى ﴿٥٢﴾
 وَالْمُؤَفِّكَةَ أَهْوَى ﴿٥٣﴾ فَفَسَّخْنَا مَا عَشَى ﴿٥٤﴾ فَيَأْتِيءَ آيَاتِ رَبِّكَ نَتَمَارَى ﴿٥٥﴾ هَذَا نَذِيرٌ مِنْ
 النَّذْرِ الْأُولَى ﴿٥٦﴾ أَرَفَتِ الْآزِفَةَ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَنْ هَذَا الْحَدِيثِ
 تَعْجِبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاتَّعَدُوا لِلَّهِ
 وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾

* * *

قوله عز وجل : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَاقٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتَمْنُونَهُ عَلَيَّ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۝١٤ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٨﴾ .

عن ابن عباس ﴿والنجم إذا هوى﴾ يعني الثريا إذا سقطت وغابت. وقال مجاهد: هي نجوم السماء كلها حين تغرب. وقال الضحاك: ﴿والنجم إذا هوى﴾ إذا رمى به الشياطين. وعن ابن عباس: يعني النجوم التي يرمى بها الشياطين. قال ابن القيم^(١): «وهذا قول الحسن وهو أظهر الأقوال، لما بين المقسم به والمقسم عليه من التناسب». انتهى. قال الشعبي وغيره: الخالق يقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق. وعن قتادة أن النبي ﷺ تلا ﴿والنجم إذا هوى﴾ فقال عتبة بن أبي لهب: كفرتُ بربِّ النجم، فقال: «أما تخاف أن يأكلك كلب الله؟» فخرج في تجارة إلى اليمن، فبينما هم قد عرسوا إذ يسمع صوت الأسد فقال لأصحابه: إني مأكول، فأحدقوا به، وضرب على أصمختهم فناموا، فجاء حتى أخذه فما سمعوا إلا صوته^(٢).

قال البغوي^(٣): وجواب القسم قوله: ﴿ما ضلَّ صاحبكم﴾ يعني محمداً ﷺ،

(١) انظر: «التبيان في أقسام القرآن» (ص ٢٤٢).

(٢) أخرجه ابن جرير (٤٠١/٢٧) عن قتادة مرسلًا.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٢٢٣/٤).

ما ضلَّ عن طريق الهدى ﴿وما غوى﴾. قال ابن كثير^(١): والغاوي هو العالم بالحق العادل عنه إلى غيره. وعن قتادة قوله: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾، أي: ما ينطق عن هواه ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾ قال: يوحى الله تبارك وتعالى إلى جبريل، ويوحى جبريل إلى محمد ﷺ. ﴿علّمه شديد القوى﴾ يعني جبريل ﴿ذو مرة فاستوى﴾ ذو خلق طويل حسن ﴿وهو بالأفق الأعلى﴾ الأفق: الذي يأتي منه النهار. وعن الربيع ﴿وهو بالأفق الأعلى﴾ قال: السماء ﴿الأعلى﴾ يعني جبريل عليه السلام. وعن قتادة ﴿ثم دنا فتدلى﴾ يعني جبريل ﴿فكان قاب قوسين﴾ قال مجاهد: قيد أو قدر قوسين. وعن ابن مسعود في هذه الآية ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل له ستمائة جناح»^(٢). وعن مسروق قال: قلت لعائشة: ما قوله: ﴿ثم دنا فتدلى﴾ فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى؟ فقالت: «إنما ذلك جبريل، كان يأتيه في صورة الرجال، وإنه أتاه هذه المرة في صورته فسَدَّ أفق السماء»^(٣).

وقال ابن زيد في قوله: ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ قال: أوحى جبريل إلى رسول الله ﷺ ما أوحى الله إليه. وعن قتادة في قوله: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ قال: رأى جبريل في صورته، وهو الذي رآه نزلة أخرى. وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل عند سدره المنتهى له ستمائة جناح»^(٤). وقال البغوي^(٥): ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ قرأ أبو جعفر: ما كذب أي ما كذب قلب محمد ﷺ ما رأى بعينه تلك الليلة، بل صدقه وحققه؛ وقرأ الآخرون

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٤٦/٤).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٨٥٦ و ٤٨٥٧)، ومسلم (ح/١٧٤).

(٣) أخرجه ابن جرير (٤٦/٢٧).

(٤) أخرجه أحمد (١/٣٩٥)، وابن جرير (٤٩/٢٧)، وقال ابن كثير في تفسيره عن سننه

(٤/٢٥١): «إسناد جيد».

(٥) المصدر السابق (٤/٢٢٥).

بالتخفيف: أي ما كَذَبَ فؤاد محمد ﷺ الذي رأى بل صدقه، مجازه: ما كذب الفؤاد فيما رأى^(١). انتهى ملخصاً. وعن قتادة قال: قال نبي الله ﷺ: «لما انتهيت إلى السماء السابعة أتيت على إبراهيم فقلت: يا جبريل من هذا؟ قال: هذا أبوك إبراهيم فسلمت عليه فقال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح، قال: ثم رفعت لي سدرة المنتهى. فحدث نبي الله أن نبقتها مثل قلال هجر، وأن ورقها مثل آذان الفيلة»^(٢).

وعن ابن عباس: ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيتها حتى استبثتها، ثم حال دونها قرأش من ذهب»^(٣). وعن الربيع ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾ قال: غشيتها نور الرب، وغشيتها الملائكة، من حب الله مثل الغربان حين يقعن على الشجرة. قوله: مثل الغربان: أي الغرائق البيض. وعن ابن عباس في قوله: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ قال: ﴿ما زاغ﴾ يميناً ولا شمالاً ﴿ولا طغى﴾ ولا جاوز ما أمر به ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ قال ابن

(١) وهذا على قول من يقول: أن الذي رآه فؤاده جبريل عليه السلام، وهناك قول آخر في هذه المسألة وهو: أن الذي رآه بفؤاده رب العالمين.

قال ابن تيمية - رحمه الله - : (وأما الرؤية فالذي ثبت في الصحيح عن ابن عباس أنه قال: «رأى محمد ربه بفؤاده مرتين»، وعائشة أنكرت الرؤية، فمن الناس من جمع بينهما فقال: عائشة أنكرت رؤية العين، وابن عباس أثبت رؤية الفؤاد.

والألفاظ الثابتة عن ابن عباس هي مطلقة أو مقيدة بالفؤاد، تارة يقول: رأى محمد ربه، وتارة يقول رآه محمد، ولم يثبت عن ابن عباس لفظ صريح بأنه رآه بعينه، وكذلك الإمام أحمد... وليس في الأدلة ما يقتضي، ولا في الكتاب والسنة ما يدل على ذلك، بل النصوص الصحيحة على نفسه أول، كما في صحيح مسلم عن أبي ذر قال: «سألت رسول الله ﷺ، هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أني أراه»». اهـ.

(٢) روي مسنداً من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه أخرجه البخاري (ح/٣٨٨٧)، وقد سبق تخريجه.

(٣) أخرجه ابن جرير (٥٦/٢٧) بسند ضعيف.

مسعود: «رأى النبي ﷺ رفرفاً أخضر من الجنة قد سدّ الأفق»^(١). وقال ابن زيد في قوله: «لقد رأى من آيات ربه الكبرى» قال: جبريل، رآه في خلقه الذي يكون به في السموات، قدر قوسين من رسول الله ﷺ فيما بينه وبينه.

قوله عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١١﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ ﴿١٢﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿١٣﴾ تِلْكَ إِذَا قَسَمَةٌ ضَيْرَىٰ ﴿١٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا آتَمٌ ﴿١٥﴾ وَآبَاؤُهُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ﴿١٦﴾ أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿١٧﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمَعُونَ الْمُكَلِّمَةَ تَسْمِيَةَ الْإِنثَىٰ ﴿٢٠﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢١﴾

قال البغوي قوله: «أفرايتم اللات والعزى» هذه أسماء أصنام اتخذوها آلهة يعبدونها، اشتقوا لها أسماء من أسماء الله تعالى فقالوا: من الله اللات، ومن العزيز العزى. وقال ابن عباس: كان اللات رجلاً يلت السويق للحاج، فلما مات عكفوا على قبره. قال ابن إسحاق: وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، وتهدى لها كما تهدي للكعبة، وتطوف بها كطوافها بها، وتنحر عندها، وهي تعرف فضل الكعبة عليها، فكانت لقريش؛ ولبنى كنانة العزى بنخلة، وكان سدنتها وحجابها بني شيبان من سليم حلفاء بني هاشم؛ وكانت اللات لثقيف بالطائف، وكان سدنتها وحجابها بني معتب، وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب، على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد؛ وكانت ذو الخلصة لدوس وختعم وبجيلة ومن كان

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٨٥٨).

ببلادهم من العرب بتبالة؛ وكانت قلّس لطيء ومن يليها بجبل طيء بين سلمى وأجأ؛ وكان لحمير وأهل اليمن بيت بصنعاء يقال له ريام؛ وكانت رضاء بيتاً لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم؛ وكان ذو الكعبات لبكر وتغلب ابني وائل وإياد بسنداد.

وقال البغوي^(١): ومعنى الآية: أفرأيتم أخبرونا أيها الزاعمون أن اللات والعزى ومناة بنات الله تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً. وقال الكلبي: كان المشركون بمكة يقولون: الأصنام والملائكة بنات الله؛ وكان الرجل منهم إذا بشر بالأنثى كره ذلك، فقال الله تعالى منكرأ عليهم ﴿الكم الذكر وله أنثى تلك إذا قسمة ضيزى﴾ قال ابن عباس: جائرة.

﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس﴾ قال ابن كثير^(٢): أي ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بأبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم، وإلا حظّ نفوسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ أي البيان بالكتاب والرسول أنها ليست بآلهة، وأن العبادة لا تصلح إلا لله الواحد القهار. ﴿أم للإنسان ما تمنى﴾ أيظن الكافر أن له ما يتمنى ويشتهي من شفاعة الأصنام؟ ﴿فلله الآخرة والأولى وكم من ملك في السموات﴾ ممن يعبدهم هؤلاء الكفار ويرجون شفاعتهم عند الله ﴿لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله﴾ في الشفاعة ﴿لمن يشاء ويرضى﴾، أي: من أهل التوحيد. وقال ابن كثير: ﴿أم للإنسان ما تمنى﴾، أي: ليس كل من تمنى خيراً حصل له، ﴿ليس بأمانيتكم ولا أمانتي أهل الكتاب﴾.

(١) المصدر السابق (٤/٢٢٧).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٢٥٤).

قوله عز وجل: ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ٢٩﴾
 ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن أَهْتَدَىٰ ٣٠﴾
 وَيَلَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا
 بِالْحَسَنَىٰ ٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ
 هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْتَهَ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوْا
 أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن اتَّقَىٰ ٣٢﴾ .

عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدركه ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»^(١). وعن قتادة قوله «الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم» ما كان بين الحدين لم يبلغ حد الدنيا ولا حد الآخرة موجبة قد أوجب الله لأهلها النار، أو فاحشة يقام عليه الحد في الدنيا. وقال ابن زيد في قوله «إن ربك واسع المغفرة» قد غفرت ذلك لهم إذ «هو أعلم بكم أنشأكم من الأرض» قال مجاهد: كنحو قوله: «وهو أعلم بالمهتدين». «وإذ أنتم أجته في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى»، أي: ترك المعاصي وفعل الطاعات. قال البغوي: «فلا تزكوا أنفسكم» لا تبرئوها عن الآثام ولا تمدحوها بحسن أعمالها «هو أعلم بمن اتقى».

قوله عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ٣٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يُرَىٰ ٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُبْنَأْ بِمَا فِي صُحُفٍ مُّوسَىٰ ٣٦﴾ وَإِنزِيلِهِمَ الَّذِي وَفَّىٰ ٣٧﴾
 إِلَّا نَزْرُورًا وَزَرَ أُخْرَىٰ ٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ٤٢﴾ وَأَنَّ هُوَ أَصْحٰكُ

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٦٢٤٣ و ٦٦١٢) معلقاً، ومسلم (ح/ ٢٦٥٧).

وَأَبْكَ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن تَطْفَافٍ إِذَا
تَمَنَّيَ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْفَىٰ وَأَقْبَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾
وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَتَمُودًا فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ
وَأَطْفَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤَنَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَفَسَّنَاهَا مَا عَشِيَتْ ﴿٥٤﴾ فَيَأْتِي آءِ الْآءِ رَبِّكَ نَسَارَىٰ ﴿٥٥﴾
هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِيرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَرَأَيْتِ الْأَرْفَةَ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنَ
هَذَا الْغَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ﴿٦١﴾ فَاتَّبِعُوا اللَّهَ
وَأَعْبُدُوا ﴿٦٢﴾ .

قال البغوي^(١) قوله عز وجل: ﴿أفرايت الذي تولّى﴾ نزلت في الوليد بن المغيرة، كان قد اتبع النبي ﷺ على دينه، فغيره بعض المشركين وقال له: أتركت دين الأشياخ وضللتهم؟ قال: إني خشيت عذاب الله؛ فضمن الذي عاتبه إن هو أعطي كذا من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله، فرجع الوليد إلى الشرك وأعطى الذي غيره بعض ذلك المال الذي ضمن ومنعه تامه، فأنزل الله عز وجل: ﴿أفرايت الذي تولّى﴾ أدبر عن الإيمان ﴿وأعطى﴾ صاحبه ﴿قليلاً وأكدي﴾ بخل بالباقي؛ وأصله من الكدية، وهي حجر يظهر في البئر يمنع من الحفر؛ ﴿أعنده علم الغيب فهو يرى﴾ ما غاب عنه، ويعلم أن صاحبه يتحمل عنه عذابه؟ ﴿أم لم ينبأ﴾ يخبر ﴿بما في صحف موسى﴾ يعني أسفار التوراة ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ تمم وأكمل ما أمر به؛ ثم بين ما في صحفهما فقال: ﴿ألا تزر وازرة وزر أخرى﴾، أي: لا تحمل نفس حاملة حمل أخرى، ومعناه: لا تؤخذ نفس بإثم غيرها ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ عمل ﴿وأن سعيه سوف يرى﴾ في ميزانه يوم القيامة ﴿ثم يُجزاه الجزاء الأوفى﴾ الأكمل الأتم ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾، أي: انتهى الخلق ومصيرهم إليه.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٢٣١).

﴿وأنه هو أضحك وأبكى﴾ قال مجاهد: أضحك أهل الجنة في الجنة، وأبكى أهل النار في النار ﴿وأنه هو أمات وأحيا وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى﴾ من كل حيوان ﴿من نطفة إذا تمنى وأن عليه النشأة الأخرى﴾، أي: الخلق الثاني للبعث يوم القيامة ﴿وأنه هو أغنى وأقنى﴾ قال أبو صالح ﴿أغنى﴾ الناس بالأموال ﴿وأقنى﴾، أي: أعطى القنية وأصول الأموال وما يدخرونه بعد الكفاية ﴿وأنه هو رب الشعري﴾ وهو كوكب خلف الجوزاء وكانت خزاعة تعبدها ﴿وأنه أهلك عاداً الأولى﴾ وهم قوم هود وثمود ﴿فما أبقي وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى﴾ لطول دعوة نوح إياهم وعتوهم على الله بالمعصية والتكذيب ﴿والمؤتفة﴾ يعني قري قوم لوط ﴿أهوى﴾ أسقط، أي أهواها جبريل بعد ما رفعها إلى السماء ﴿فغشاها ما غشى﴾ يعني الحجارة ﴿فبأي آلاء ربك﴾ نعم ربك أيها الإنسان ﴿تتمارى﴾ تشك وتجادل؟ ﴿هذا نذير﴾ يعني محمداً ﴿من النذر الأولى﴾، أي: رسول من الرسل، أرسل إليكم كما أرسلوا إلى أقوامهم. ﴿أزفت الآزفة﴾ دنت القيامة واقتربت الساعة ﴿ليس لها من دون الله كاشفة﴾، أي: لا يكشف عنها ولا يظهرها غيره ﴿أفمن هذا الحديث﴾ يعني القرآن ﴿تعجبون وتضحكون﴾ استهزاء ﴿ولا تبكون﴾ لما فيه من الوعد والوعيد ﴿وأنتم سامدون﴾ لاهون غافلون. وقال عكرمة: هو الغناء بلغة أهل اليمن، وكانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا. ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾، أي: واعبدوه. انتهى ملخصاً، والله أعلم.



الدرس الحادي والسبعون بعد المائتين

﴿سورة القمر﴾

مكية، وهي خمس وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَةٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ التُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ ﴿٦﴾ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِرَ ﴿١٣﴾ تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءٌ لِّمَن كَانَ كٰفِرٌ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحِيسُ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ

بِالنُّذْرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّا وَجَدْنَا نَتَّبِعُهُمْ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴿٢٤﴾ أَمْ لِنَلِيَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ
 مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِيرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا
 النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَبَيِّنْهُمْ أَنْ الْمَاءَ قَسَمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرِبٍ مُحَضَّرٌ ﴿٢٨﴾
 فَادَّوَا صَاحِبَهُمْ فَنَعَاطَى فَعَفَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَبِيحَةً
 وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْمُحْطَبِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ
 قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذْرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا نَالَ لُوطٌ بِمَجْنَنِهِمْ بِسِحْرِ ﴿٣٤﴾ نَعْمَةً مِنْ
 عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذْرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ
 رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِيهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَحَهمُ بُكْرَةً عَذَابٌ
 مُسْتَقَرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ
 جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذْرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكْفَارُكُمْ
 خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّتِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيَهْرَمُ
 الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي
 ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ
 خَلَقْتُهُ بِقَدْرِ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا
 أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ
 وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ
 مُقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أُمَّرٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ التُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكْرٍ ﴿٦﴾ خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ .

عن أنس بن مالك: «أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقّتين، حتى رأوا حراء بينهما»^(١). متفق عليه. وعند ابن جرير من حديث ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة، فسلوا الشفّار فسألوهم فقالوا: نعم، قد رأيناه فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾^(٢). وعن قتادة قوله: ﴿وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾ قال: إذا رأى أهل الضلالة آية من آيات الله قالوا: إنما هذا عمل السحر، يوشك هذا أن يستمر ويذهب ﴿وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر﴾، أي: واقع، بأهل الخير والخير وبأهل الشر الشر ﴿ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر﴾، أي: هذا القرآن. قال سفيان: المزدجر المنتهي.

﴿حكمة بالغة﴾ قال البغوي^(٣): يعني القرآن حكمة تامة، وقد بلغت الغاية

(١) أخرجه البخاري (ح/٣٨٦٨)، ومسلم (ح/٢٨٠٢).

(٢) أخرجه ابن جرير (٨٥/٢٧)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/٢٦٦).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/٢٣٦).

في الزجر ﴿فما تغني النذر﴾ وهذه كقوله تعالى: ﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾^(١). ﴿فتولّ عنهم﴾ قال ابن كثير^(٢): أعرض عنهم وانتظرهم ﴿يوم يدع الداع إلى شيء نُكِر﴾ وهو موقف الحساب ﴿خشعاً أبصارهم﴾، أي: ذليلة أبصارهم ﴿يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر مهطعين إلى الداع﴾ قال قتادة: عامدين إلى الداعي ﴿يقول الكافرون هذا يومٌ عسيرٌ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ويومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً﴾^(٣).

قوله عز وجل: ﴿كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنوناً وازدجر﴾^(٤) فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴿١١﴾ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ﴿١٢﴾ وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمرٍ قد قدر ﴿١٣﴾ وحملناه على ذات ألواح ودسرٍ ﴿١٤﴾ تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفرٍ ﴿١٥﴾ ولقد تركناها آية فهل من مدكرٍ ﴿١٦﴾ فكيف كان عدابي ونذرٍ ﴿١٧﴾ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكرٍ ﴿١٧﴾.

عن مجاهد: ﴿وقالوا مجنون وازدجر﴾ قالوا: استطير جنونا. وقال ابن زيد في قوله: ﴿وقالوا مجنون وازدجر﴾ قال اتهموه وزجروه وأوعدوه، وقرأ: ﴿لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين﴾. وعن سفيان: ﴿فالتقى الماء على أمرٍ قد قدر﴾ قال: ماء السماء وماء الأرض. وعن قتادة في قوله: ﴿ذات ألواح﴾ قال: معارض السفينة: ﴿ودسر﴾ قال: دسرت بمسامير. وقوله تعالى: ﴿تجري بأعيننا﴾ قال ابن كثير^(٤)، أي: بأمرنا، بمرأى منا وتحت حفظنا

(١) سورة يونس: الآية ١٠١.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٢٦٣).

(٣) سورة طه: الآية ١٠٨.

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٢٦٤).

وكلاءتنا^(١) ﴿جزاء لمن كان كُفِرًا﴾، أي: جزاء لهم على كفرهم بالله، وانتصاراً لنوح عليه السلام. وعن قتادة في قوله: ﴿ولقد تركناها آية﴾ قال: ألقى الله سفينة نوح على الجودي حتى أدركها أوائل هذه الأمة. وقال البغوي^(٢): ﴿ولقد تركناها آية﴾ يعني الفعلة التي فعلنا. قال ابن كثير^(٣): والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن، كقوله تعالى: ﴿وآية لهم أنا حملنا ذرّيتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿إننا لما طغى الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية﴾^(٥).

وقوله تعالى: ﴿فهل من مدكر﴾ قال البغوي^(٦)، أي: متذكر متعظ خائف مثل عقوبتهم ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾، أي: إنذاري. وقال ابن كثير^(٧)، أي: كيف كان عذابي لمن كفر بي وكذب رسلي، ولم يتعظ بما جاءت به نذري، وكيف انتصرت لهم وأخذت لهم بالثأر ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾، أي: سهلنا لفظه ويسرنا معناه لمن أراه ليتذكر الناس، كما قال: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾. ﴿فهل من مدكر﴾، أي: فهل من متذكر بهذا القرآن الذي قد يسر الله حفظه ومعناه؟ وعن ابن عباس: لولا أن الله يسره على لسان

(١) قلت: وفي هذه الآية إثبات صفة للعين لله — عز وجل — حقيقة على ما يليق بجلاله تعالى، وهذا هو قول أهل السنة سلفاً وخلفاً. أما أذئاب الجهمية كالمعتزلة والأشاعرة، فأولوها بالحفظ والرعاية، فراراً من التشبيه فوقعوا في شر مما فروا منه، وهو التعطيل، فنعوذ بالله من الأهواء والبدع، والقول على الله بلا علم.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٢٣٧/٤).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٦٤/٤).

(٤) سورة يس: الآية ٤٢.

(٥) سورة الحاقة: الآية ١٢.

(٦) انظر «معالم التنزيل» (٢٣٨/٤).

(٧) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٦٤/٤).

الآدميين، ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عز وجل. وعن قطر الوراق في قوله: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ قال: هل من طالب علم فيعان عليه؟ قال الحافظ ابن حجر^(١): وقد تكرر في هذه السورة قوله: ﴿فهل من مدكر﴾ بحسب تكرر القصص من أخبار الأمم، استدعاء لأفهام السامعين ليعتبروا.

قوله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنُذِرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنُذِرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿٢٢﴾ .

قال ابن زيد في قوله: ﴿ريحا صرصرًا﴾ قال: الصرصر الشديدة. وقال قتادة الصرصر الباردة. قال ابن جرير^(٢): وهي الشديدة العصف في برد التي لصوتها صرير. وعن قتادة: ﴿في يوم نحس﴾ قال: النحس الشؤم ﴿مستمر﴾ يستمر بهم إلى نار جهنم. وعن مجاهد في قوله: ﴿تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾ قال: سقطت رؤوسهم كأمثال الأخبية، وتفردت عن أعناقهم.

قوله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِّمَّا وَجَدْنَا نَبِّعُهُمْ إِنَّا إِذًا لَنُنَبِّئُكَ وَشُعْرٍ ﴿٢٤﴾ أَلَيْسَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ عَدَا مَنِ الْكَذَابِ الْأَشْرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَنِنَّةً لَهُمْ فَأَرْتَقِبْهُمْ وَأَصْطِرِ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّخَضَّرٌ ﴿٢٨﴾ فَادَّوَا صَاحِبَهُمْ فَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنُذِرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿٣٢﴾ .

(١) انظر فتح الباري (٨/٤٨٥).

(٢) انظر جامع البيان (٢٧/٩٧).

قال البغوي^(١): ﴿كذبت ثمود بالنذر﴾ بالإنذار الذي جاءهم به صالح: ﴿فقالوا أبرأ﴾ آدمياً ﴿منا واحداً نتبعه﴾ ونحن جماعة كثيرة ﴿إنا إذا لفي ضلال﴾ ميين، ضلال: خطأ وذهاب عن الصواب ﴿وسعر﴾ قال ابن عباس: عذاب، وقال الفراء: جنون. ﴿أءلقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر﴾ بطر متكبر ﴿سيعلمون غدا﴾ حين ينزل بهم العذاب ﴿من الكذاب الأشر إنا مرسلوا الناقة﴾، أي: باعوثها ومخرجوها من الهضبة التي سألوا أن يخرجها منها ﴿فتنة لهم﴾ محنة واختباراً ﴿فارتقبهم﴾ فانتظر ما هم صانعون ﴿واصطبر ونبئهم أن الماء قسمة بينهم﴾ وبين الناقة ﴿كل شرب محتضر﴾ قال مجاهد: يعني يحضرون الماء إذا غابت الناقة، فإذا جاءت حضروا اللبن ﴿فنادوا صاحبهم فتعاطى﴾ فتناول الناقة بسيفه: ﴿فعفر﴾ انتهى ملخصاً.

وعن الضحاك في قوله: ﴿كهشيم المحتظر﴾ قال: هو الشوك الذي تحظر به العرب حول مواشيها من السباع.

قوله عز وجل: ﴿كذبت قوم لوط بالنذر﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿إنا أرسلنا عليهم حصيباً إلا آل لوط مجئهم بسحر﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿ولقد أنذرهم بطشنا فتماروا بالنذر﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿ولقد صببهم بكرة عذاب مستقر﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿فذوقوا عذابي ونذر﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿ولقد يسترنا﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿القرءان للذكر فهل من مدكر﴾ ﴿٤٠﴾.

عن قتادة قوله: ﴿فتماروا بالنذر﴾ لم يصدقوه ﴿ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم﴾ وذكر لنا أن جبريل عليه السلام استأذن ربه في عقوبتهم ليلة أتوا لوطاً، وأنهم عالجوا الباب ليدخلوا عليه، فصفقهم بجناحه وتركهم عمياً يترددون

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٢٣٨).

﴿فذوقوا عذابي ونذر ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر﴾ يقول: استقر بهم إلى نار جهنم.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكْفَارَكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيَّتِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرٌ ﴿٤٦﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر﴾ يقول: عزيز في نعمته إذا انتقم: ﴿أكفاركم خير من أولئكم﴾ يقول: ليس كفاركم خيراً من قوم نوح ولوط. وقال ابن زيد في قوله: ﴿أم لكم براءة في الزبر﴾ في كتاب الله براءة مما تخافون ﴿أم يقولون نحن جميع منتصر﴾ سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ قال عمر: لما نزلت: ﴿سيهزم الجمع﴾ جعلت أقول: أي جمع يهزم؟ فلما كان يوم بدر رأيت النبي ﷺ يثب في الدرع ويقول: «سيهزم الجمع ويولون الدبر»^(١). ﴿بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾ قال البغوي^(٢): أي أعظم داهية وبلية، وأشد مرارة من الأسر والقتل يوم بدر.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ

(١) أخرجه ابن جرير (١٠٨/٢٧)، وبنحوه عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أخرجه البخاري (ح/ ٢٩١٥ و ٣٩٥٣ و ٤٨٧٥).

(٢) المصدر السابق (٤/٢٤١).

وَتَهَرَّجُوا فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ .

قال الحسين بن فضل: ﴿إن المجرمين في ضلال﴾ في الدنيا ونار في الآخرة ﴿يوم يُسْجَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وجوههم﴾ قال ابن عباس: إني أجد في كتاب الله قوماً يسحبون في النار على وجوههم، يقال لهم: ﴿ذوقوا مسَّ سقر﴾ لأنهم كانوا يكذبون بالقدر. وعن أبي هريرة أن قريشاً خاصمت النبي ﷺ في القدر، فأنزل الله: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾^(١) قال ابن عباس: يريد أن قضائي في خلقي أسرع من لمح البصر^(٢). وقال ابن زيد في قوله: ﴿ولقد أهلكنا أشياعهم فهل من مذكر﴾ قال: أشياعكم من أهل الكفر من الأمم الماضية، يقول: فهل من أحد يتذكر وكل شيء فعلوه في الزبر؟ قال ابن كثير: أي مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة عليهم السلام ﴿وكل صغير وكبير﴾، أي: من أعمالهم ﴿مستطر﴾، أي: مجموع عليهم ومسطر في صحائفهم. ذكر أن رجلاً عمل ذنباً فاستصغره، فأتاه آت في منامه فقال له:

لا تحقرن من الذنوب صغيراً	إن الصغير غداً يعود كبيراً
إن الصغير ولو تقادم عهده	عند الإله مسطر تسطيراً
فازجر هواك عن البطالة لا تكن	صعب القياد وشمّرن تشميراً
إن المحب إذا أحبّ إلهه	طار الفؤاد وألهم التفكيراً
فاسأل هدايتك الإله بنية	فكفى بربك هادياً ونصيراً

(١) أخرجه مسلم (ح/٢٦٥٦).

(٢) قال ابن كثير في تفسيره: «ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة أهل السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها، وكتابتها لها قبل برئها، ورووا بهذه الآية، وبما شاء كلها من الآيات وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتات على الفرقة القدرية الذين بلغوا في أواخر عصر الصحابة» (٤/٢٦٧).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صَدَقٍ عِنْدَ مُلْكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ قال جعفر الصادق: مدح الله المكان بالصدق، فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق. وروى مسلم وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولّوا»^(١). والله أعلم.



(١) سبق تخريجه.

الدرس الثاني والسبعون بعد المائتين

﴿سورة الرحمن﴾

مكية، وهي ثمان وسبعون آية

عن جابر قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها، فسكتوا فقال: «لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد»^(١). رواه الترمذي. وعن عليّ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لكل شيء عروس، وعروس القرآن: الرحمن»^(٢). رواه البيهقي في شعب الإيمان.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾
الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا وَوَضَعَ
الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا

(١) أخرجه الترمذي (ح/٣٢٩١)، وقال: «حديث غريب»، والحاكم (٤٧٣/٢) وصححه ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/٢٣٢)، وفي سنده ضعف، وله شاهد من حديث ابن عمر مرفوعاً بنحوه: أخرجه البزار كما في «مختصر زوائد البزار» (ح/١٥١٤)، وابن جرير (١٢٤/٢٧)، فهو حديث حسن.
(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢/٤٩٠) بسند ضعيف.

الْمِيرَانَ ﴿١﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿٢﴾ فِيهَا فَكِكْهُةٌ وَالنَّخْلَ ذَاتَ الْأَكْمَامِ ﴿٣﴾
 وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿٤﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٥﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ
 مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَحَّارِ ﴿٦﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ﴿٧﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ
 رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿٩﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿١٠﴾ مَرَجَ
 الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١١﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿١٢﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿١٣﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا
 اللَّوْزُ وَالْمَرْجَاتُ ﴿١٤﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿١٥﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ
 كَالْأُظْلَمِ ﴿١٦﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿١٧﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿١٨﴾ وَسَبَقَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو
 الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿١٩﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٢٠﴾ يَسْتَلُّهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ
 يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢١﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٢٢﴾ سَتَفْرُغُ لَكُمْ آيَةُ الْفَلَاقِ ﴿٢٣﴾ فَيَأْتِي
 ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٢٤﴾ يَتَمَعَّرَ الْمِجَنِّ وَالْإِنْسُ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٢٥﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٢٦﴾
 يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٢٧﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٢٨﴾
 فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ زُرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٢٩﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٣٠﴾ فَيَوْمَئِذٍ
 لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣١﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٣٢﴾ يُعْرَفُ
 الْمُجْرِمُونَ بِسِمْتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٣٣﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٣٤﴾ هَذِهِ
 جَهَنَّمُ الَّتِي يُكْذَبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ يَطُوفُونَ فِيهَا بَيْنَ أُودِيَّةٍ حَمِيمَةٍ آتٍ ﴿٣٦﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا
 تُكْذِبَانِ ﴿٣٧﴾ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٣٨﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٣٩﴾ ذَوَاتَا
 أَفْنَانٍ ﴿٤٠﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٤١﴾ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٤٢﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا
 تُكْذِبَانِ ﴿٤٣﴾ فِيهَا مِنْ كُلِّ فَكِكْهُةٍ رَوْجَانِ ﴿٤٤﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٤٥﴾ مُكْجِبِينَ عَلَى
 فُرُشٍ بَطَّائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٤٦﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٤٧﴾ فِيهِنَّ

قَلَّصِرْتُ الْغَرْفَ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِسْ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٧﴾ فَيَأْتِي ءالَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾
 كَأْتِهِنَّ أَلْبَابُهُ وَالْمَرَجَانُ ﴿٥٨﴾ فَيَأْتِي ءالَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٨﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا
 الْإِحْسَنُ ﴿٥٩﴾ فَيَأْتِي ءالَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَانٌ ﴿٦٠﴾ فَيَأْتِي ءالَاءَ
 رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٠﴾ مُدْهَامَتَانِ ﴿٦١﴾ فَيَأْتِي ءالَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ
 نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٢﴾ فَيَأْتِي ءالَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٢﴾ فِيهِمَا فَنَكُهُتٌ وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ ﴿٦٣﴾ فَيَأْتِي
 ءالَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٦٤﴾ فَيَأْتِي ءالَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٤﴾ حُورٌ
 مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٦٥﴾ فَيَأْتِي ءالَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِسْ قَبْلَهُمْ وَلَا
 جَانٌّ ﴿٦٦﴾ فَيَأْتِي ءالَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٦﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٦٧﴾
 فَيَأْتِي ءالَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ بَنَرَكُ أَتَمُّ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٦٨﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣
 عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦
 وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ
 بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَكَاهَةٌ
 وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝١١ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِآيَةِ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا
 تَكْذِبَانَ ۝١٣﴾ .

عن قتادة أنه قال في تفسير قوله: ﴿الرحمن علم القرآن﴾ نعمة والله عظمة
 ﴿خلق الإنسان علمه البيان﴾ قال ابن زيد: البيان الكلام ﴿الشمس والقمر
 بحسبان﴾ قال ابن عباس: يجريان بعدد وحساب ومنازل ﴿والنجم والشجر
 يسجدان﴾ قال مجاهد: النجم هو الكوكب، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ألم تر أن
 الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال
 والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿والسمااء رفعها ووضع الميزان﴾ قال مجاهد: العدل ﴿الأ
 تطغوا في الميزان﴾ قال قتادة: اعدل يا ابن آدم كما تحب أن يعدل عليك، وأوف
 كما تحب أن يوفى لك، فإن بالعدل صلاح الناس. وكان ابن عباس يقول:
 يا معشر الموالي، إنكم قد وليتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم، هذا المكيال
 والميزان ﴿وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾؛ قال ابن زيد: تخسیره
 نقصه ﴿والأرض وضعها للأنام﴾ قال مجاهد: للخلائق ﴿فيها فاكهة والنخل ذات

(١) سورة الحج: الآية ١٨.

الأكمام ﴿ قال ابن زيد: هو الطلع قبل أن ينفلق ﴾ والحب ذو العصف والريحان ﴿ قال مجاهد: العصف الورق من كل شيء، والريحان الرزق؛ وقال الحسن: هو ريحانكم الذي يشم. قال البغوي^(١): كلها مدفوعات بالرد على الفاكهة؛ وقرأ ابن عامر بنصب الباء والنون، و «ذا» بالألف؛ وقرأ حمزة والكسائي «والريحان» بالجر عطفاً على «العصف»؛ فذكر قوت الناس والأنعام، ثم خاطب الجن والإنس فقال: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ أيها الثقلان؟ يريد من هذه الأشياء المذكورة؛ وكرر هذه الآية في هذه السورة تقريراً للنعمة وتأكيداً في التذكير بها، على عادة العرب في الإبلاغ والإشباع، يعدد على الخلق آلاءه ويفصل بين كل نعمتين بما ينبتهم عليها.

قوله عز وجل: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آءِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آءِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آءِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آءِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آءِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبانِ ﴿٢٥﴾ .

عن قتادة: ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار﴾ قال: من طين له صلصلة كان يابساً. وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجن من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»^(٢). رواه مسلم وغيره. وقال ابن زيد: المارج اللهب. وعن مجاهد قوله: ﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾ قال: مشرق الشتاء ومغربيه، ومشرق الصيف ومغربيه.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٢٤٤).

(٢) سبق تخريجه.

وعن ابن عباس قوله: ﴿مرج البحرين﴾ يقول: أرسل. وقال ابن زيد في قوله: ﴿مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان﴾ قال منعهما أن يلتقيا بالبرزخ الذي جعل بينهما من الأرض. قال ابن كثير^(١): والمراد بقوله البحرين: الملح والحلو، فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس. قال وقوله تعالى: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾، أي: من مجموعهما، فإذا وجد ذلك من أحدهما كفى، كما قال تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم﴾^(٢) والرسل إنما كانوا في الإنس خاصة دون الجن. وعن ابن عباس قال: إذا أمطرت السماء فتحت الأصداف في البحر أفواهاها، فما وقع فيها — يعني من قطر — فهو اللؤلؤ. وعن قتادة: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ قال: اللؤلؤ: الكبار من اللؤلؤ، والمرجان: الصغار منه. وعن ابن مسعود قال: المرجان الخرز الأحمر. وعن قتادة قوله: ﴿وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام﴾ يعني السفن. وقال مجاهد: ما رفع قطعة من السفن فهي منشآت، وإذا لم يرفع قلعها فليست بمنشآت.

قوله عز وجل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَيَأْتِيءَ آءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْتَأْذِنُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلِّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَيَأْتِيءَ آءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَيَأْتِيءَ آءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَمَعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَآنْفُذُوا وَلَا تَنْفُذُوا إِلَّا بِإِطْنِي ﴿٣٣﴾ فَيَأْتِيءَ آءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَيَأْتِيءَ آءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا أَنْشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَيَأْتِيءَ آءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٧٢/٤).

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٣٠.

إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَيَأْتِيءُ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسْمِهِمْ
فِيؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَيَأْتِيءُ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا
الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ إِنْ ﴿٤٤﴾ فَيَأْتِيءُ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ .

قال ابن عباس: ﴿ذو الجلال﴾ العظمة والكبرياء^(١). وعن قتادة قوله:
﴿يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن﴾ لا يستغني عنه أهل السماء
ولا أهل الأرض، يحيي حياً ويميت ميتاً، ويربّي صغيراً ويذلّ كبيراً، وهو مسأل
حاجات الصالحين ومنتهى شكواهم. وروى ابن جرير عن منيب بن عبد الله الأزدي
قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿كلّ يوم هو في شأن﴾ فقلنا: يا رسول الله وما
ذاك الشأن؟ قال: «من شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرّج كرباً، ويرفع أقواماً، ويضع
آخرين»^(٢).

وعن ابن عباس قوله: ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾ قال: وعيد من الله للعباد،
وليس بالله شغل. وقال الضحاك بن مزاحم: إذا كان يوم القيامة، أمر الله السماء
الدنيا فتشقق بأهلها، وتنزل من فيها من الملائكة فأحاطوا بالأرض ومن عليها، ثم
بالثانية ثم بالثالثة ثم بالرابعة ثم بالخامسة ثم بالسادسة ثم بالسابعة، فصقوا صفّاً
دون صفّ، ثم ينزل الملك الأعلى على مجنّبه اليسرى جهنم، فإذا رآها أهل

(١) قلت: وقد استدل أهل السنة — رحمهم الله — بهذه الآية وما شابهها على إثبات صفة الوجه لله
حقيقة، بلا تشبيه، ولا تعطيل ولا تمثيل ولا تكييف.

(٢) أخرجه البزار — كما في مختصر زوائد البزار (ح/١٥١٦)، وابن جرير (٢٧/١٣٥)،
وأبو الشيخ في «العظمة» (ح/١٤٩) بسند ضعيف. وينحوه من حديث أبي الدرداء مرفوعاً:
أخرجه ابن ماجه (ح/٢٠٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١/١٢٩)، وأبو الشيخ في
«العظمة» (ح/١٤٨)، وابن حبان — «كما في الإحسان» — (٢/٣٨)، وأبو نعيم في «الحلية»
(٥/٢٥٢)، وهو حديث حسن، وينحوه من حديث ابن عمر مرفوعاً: أخرجه البزار كما في
«مختصر زوائد البزار» (ح/١٥١٦) بسند ضعيف.

رَبِّكُمْ كَذِبَانَ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمْ تُكذَّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمْ تُكذَّبَانِ ﴿٦١﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ قال: وعد الله جل ثناؤه المؤمنين الذين خافوا مقامه فأدوا فرائضه الجنة؛ قال: والخائف من ركب طاعة الله وترك معصيته. وقال ابن زيد: مقامه حين يقوم العباد يوم القيامة، وقرأ: ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾. وعن مجاهد: ﴿ذواتا أفنان﴾ أغصان. وقال عكرمة: ظلّ الأغصان. وقال الضحاك: ذواتا ألوان من الفاكهة ﴿فيهما عينان تجريان﴾ قال الحسن: إحداهما التسنيم والأخرى السلسبيل. وقوله تعالى: ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾ قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: فيهما من كل نوع من الفاكهة ضربان ﴿متكئين على فرش بطائنها من إستبرق﴾ قال ابن مسعود: قد أخبرتم بالبطائن، فكيف لو أخبرتم بالظواهر؟ وعن قتادة قوله: ﴿وجنى الجنتين دان﴾ ثمارهما دانية لا يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك؛ ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لا يقطع رجل ثمرة من الجنة فتصل إلى فيه، حتى يبذل الله مكانها خيراً منها»^(١). وعن مجاهد في قوله: ﴿فيهنّ قاصرات الطرف﴾ قال: قصرن طرفهنّ عن الرجال، فلا ينظرن إلا إلى أزواجهنّ ﴿لم يطمثهنّ إنس قبلهم ولا جان﴾ قال: لم يمسهنّ. وروى ابن جرير عن ابن مسعود مرفوعاً قال: «إن المرأة من أهل الجنة ليُرى بياض ساقها من وراء سبعين حلّة من حرير، وذلك أن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿كأنهنّ الياقوت والمرجان﴾؛ أما الياقوت فإنه لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيته من ورائه»^(٢). وعن السدي في قوله: ﴿كأنهنّ الياقوت

(١) أخرجه ابن جرير (١٤٩/٢٧) عن قتادة مرسلًا.

(٢) أخرجه الترمذي (ح/٢٥٣٣)، وابن جرير (١٥٢/٢٧)، وأبو الشيخ في «العظمة» (ح/٥٨٤) بسند ضعيف. وينحوه من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «إن للمؤمن زوجتين يرى في سوقهما من فوق ثيابهما»، أخرجه البخاري (ح/٣٢٤٥ و٣٢٤٦)، ومسلم (ح/١٧٠ و١٧٣).

والمرجان ﴿ قال: صفاء الياقوت وحسن المرجان. وعن قتادة: ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ صفاء الياقوت في بياض المرجان ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟﴾ قال: عملوا خيراً فجازوا خيراً.

قوله عز وجل: ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَيَأْتِي ٱلْآءَ رِيكْمًا ٱتَّكَدِبَانِ ﴿٦٣﴾ مَدَّهَامَتَانِ ﴿٦٤﴾ فَيَأْتِي ٱلْآءَ رِيكْمًا ٱتَّكَدِبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَاحَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَيَأْتِي ٱلْآءَ رِيكْمًا ٱتَّكَدِبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فِكْهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَيَأْتِي ٱلْآءَ رِيكْمًا ٱتَّكَدِبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ ﴿٧٠﴾ فَيَأْتِي ٱلْآءَ رِيكْمًا ٱتَّكَدِبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي ٱلْجَنَّاتِ ﴿٧٢﴾ فَيَأْتِي ٱلْآءَ رِيكْمًا ٱتَّكَدِبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ ٱلْإِنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَيَأْتِي ٱلْآءَ رِيكْمًا ٱتَّكَدِبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِبِينَ عَلَى رُفُوفٍ خُضِرَ وَعَبَقَرِيُّ حَسَانِ ﴿٧٦﴾ فَيَأْتِي ٱلْآءَ رِيكْمًا ٱتَّكَدِبَانِ ﴿٧٧﴾ بَنَرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِي ٱلْجَلَدِ ٱلْأَكْرَامِ ﴿٧٨﴾ .

قال ابن زيد في قوله: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ جنتا السابقين، فقراً: ﴿ذواتا أفنان﴾ فقراً حتى بلغ: ﴿كأنهن الياقوت﴾ ثم رجع إلى أصحاب اليمين فقال: ﴿ومن دونهما جنتان﴾ فذكر فضلها وما فيهما. وعن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة أنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب أنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»^(١). متفق عليه. وقال ابن زيد في قوله: ﴿ومن دونهما جنتان﴾ هما أدنى من هاتين، لأصحاب اليمين. وعن ابن عباس قوله: ﴿مدهامتان﴾ قال خضراوان من الرّي ﴿فيهما عينان نضاحتان﴾ بالماء. قال ابن جرير: يعني فؤارتان. وعن سعيد بن جبیر قال: نخل الجنة جذوعها من ذهب، وعروقها من ذهب، وكرانيها من زمرد، وسعفها كسوة لأهل الجنة، ورطبها

(١) سبق تخريجه.

كالدلاء أشدّ بياضاً من اللبن، وألين من الزبد وأحلى من العسل ليس له عجم وعن قتادة في قوله: ﴿خيرات حسان﴾ قال: خيرات في الأخلاق، حسان في الوجوه ﴿حور مقصورات في الخيام﴾ قال الضحاك: الحوراء العيناء الحسناء. وقال مجاهد: ﴿حور﴾ بيض: ﴿مقصورات﴾ على أزواجهنّ فلا يردنّ غيرهم ﴿في الخيام﴾ قال: لا يبرحن الخيام. وقال عمر بن الخطاب: الخيام درّ مجوّف. وعن سعيد بن جبير في قوله: ﴿متكئين على رفرف خضر﴾ قال: رياض الجنة. وقال ابن عباس: الرفرف فضول المجالس والبسط ﴿وعبقريّ حسان﴾ قال: الزرابي. وقال مجاهد هو الديباج. وعن ابن عباس قوله: ﴿تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾ يقول: ذو العظمة والكبرياء.



الدرس الثالث والسبعون بعد المائتين

﴿سورة الواقعة﴾

مكية، وهي ست وتسعون آية

عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شئت! قال: «شيئتي هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون»^(١). رواه الترمذي. وعن جابر بن سمرة قال: «كان رسول الله ﷺ يصلي الصلوات كنحو من صلاتكم التي تصلون اليوم، ولكنه كان يخفف، كانت صلاته أخف من صلاتكم، وكان يقرأ في الفجر «الواقعة» ونحوها من السور»^(٢). رواه أحمد.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِقَوْمِهَا كَازِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ
الْأَرْضُ رَجًا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۝٦ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا
ثَلَاثَةً ۝٧ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ
الْمَشْأَمَةِ ۝٩ وَالسَّيْفُونَ السَّيْفُونَ ۝١٠ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ۝١٢ ثَلَّةٌ مِنَ
الْأُولَئِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ۝١٤ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ۝١٥ مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا
مُتَقَابِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ۝١٧ بَاكِرَاتٍ وَأَبَارِيْقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ۝١٨ لَا

(١) سبق تخريجه، وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (١٠٤/٥)، وابن خزيمة (٢٦٥/١).

يُصَدِّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَكَهَرَهُمَا يَسْحَابٌ مِمَّا يَسْحَابُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَبُونَ ﴿٢١﴾
 وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا
 لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَمًا سَلَمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي
 سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلِّ مَتْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَكَهَرَهُ
 كَثِيرٌ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾
 جَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثَلَاثَةٌ
 مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلِّ مِّنْ
 يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى
 الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوْ
 ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّا الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾
 ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكُونُ مِن شَجَرٍ مِّن زُقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَالِثُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾
 فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْعَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُوا مِن شَرِبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزِّلَتْ يَوْمَ الْدِينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ
 خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ ؕ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾
 نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَنْ يُبَدَّلَ آمَنَّاكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا
 تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُوثُونَ ﴿٦٣﴾
 ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ؕ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا
 لَمُعْرِمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مُحْرِمُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِن
 السَّمَاءِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ جَارِبًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ
 الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا
 وَرَمَقًا لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۙ لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ ۖ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۚ إِذَا رَجَعْتَ الْأَرْضُ رَجًا ۙ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۙ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۖ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۗ فَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۗ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ ۗ وَالسَّيْفُونا السَّيْفُونَ ۗ وَأُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۗ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ۗ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۗ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ۗ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ۗ مُتَّكِعِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ۗ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ۗ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكُؤُوسٍ مِّن مَّعِينٍ ۗ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ۗ وَفَكَهَنَ مِمَّا يَخْتارُونَ ۗ وَلَحِيرَ ظِلْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۗ وَخُورٍ عَيْنٍ ۗ كَأَمْثَلِ اللَّوْثِ الْمَكُونِ ۗ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۗ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا ۗ إِلَّا قِيلًا سَلَمًا سَلَمًا ۗ ۝ ٢٦ ۝ .

عن ابن عباس في قوله: ﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾ و ﴿ الطامة ﴾ و ﴿ الصاخة ﴾ ونحو هذا من أسماء ﴿ القيامة ﴾، عظمه الله وحذره عباده. وعن قتادة ﴿ ليس لوقعتها كاذبة ﴾، أي: ليس لها مثنوية ولا رجعة ولا ارتداد. وقوله ﴿ خافضة رافعة ﴾ قال: أسمع القريب والبعيد. ﴿ خافضة ﴾ أقواماً إلى عذاب الله و ﴿ رافعة ﴾ أقواماً إلى كرامة الله ﴿ إذا رجعت الأرض رجاً ﴾ قال: زلزلت زلزلاً. وعن مجاهد ﴿ وبست الجبال بساً ﴾ قال: كما يسُّ السويق^(١). وقال ابن زيد: صارت كثيباً مهيباً كما قال الله. وعن مجاهد في قوله: ﴿ فكانت هباءً منبثاً ﴾ قال: شعاع الشمس يدخل من الكوة ليس بشيء. وعن علي رضي الله عنه في قوله:

(١) قال ابن عباس ومجاهد، وعكرمة، وقاتدة في قوله تعالى: ﴿ وبست الجبال بساً ﴾: «فتت الجبال فتاً».

﴿فكانت هباءً منبثاً﴾ كوهج الغبار يسطح ثم يذهب، فلا يبقى منه شيء. وعن قتادة ﴿وكنتم أزواجاً ثلاثة﴾ قال: منازل الناس يوم القيامة ﴿فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة﴾، أي: ماذا لهم وماذا أعدّ لهم ﴿وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة﴾، أي: ماذا لهم وماذا أعدّ لهم ﴿والسابقون السابقون﴾، أي: من كلّ أمة. وعن عثمان بن أبي سودة أنه قرأ هذه الآية ﴿والسابقون السابقون أولئك المقربون﴾ ثم قال: أولهم رواحاً إلى المسجد وأولهم خروجاً في سبيل الله. وروى الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من السابقون إلى ظلّ الله يوم القيامة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «الذين إذا أعطوا الحقّ قبلوه، وإذا سُئِلوه بذلوه، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم»^(١). وعن الحسن أنه أتى على هذه الآية ﴿والسابقون السابقون أولئك المقربون﴾ فقال: أما السابقون فقد مضوا، ولكن: اللهم اجعلنا من أصحاب اليمين. وعن ابن عباس ﴿على سرر موضونة﴾ قال: مرمولة بالذهب. وقال عكرمة: مشبّكة بالدرّ والياقوت. ﴿متكئين عليها متقابلين﴾ قال مجاهد: لا يناظر أحدهم في قفا صاحبه ﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون﴾ قال: لا يموتون. وعن قتادة في قوله: ﴿بأكواب وأباريق﴾ قال: الأكواب التي دون الأباريق ليس لها عرى ﴿وكأس من مَعِين﴾، أي: من خمر جارية ﴿لا يصدّعون عنها﴾ ليس لها وجع رأس ﴿ولا ينزفون﴾ لا يغلب أحد على عقله. وقال البغوي^(٢): ﴿ولا ينزفون﴾ ولا يسكرون؛ هذا إذا قرىء بفتح الزاي، ومن كسرهما فمعناها: لا ينفد شرابهم. وقال ابن عباس: في الخمر أربع خصال: السكر، والصدع، والقيء، والبول، فذكر الله تعالى خمر الجنة ونزّهاها عن هذه الخصال. وعن أم سلمة قالت: قلت: يا رسول الله أخبرني عن قوله الله: ﴿كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ قال: «صفاؤهنّ كصفاء الدرّ الذي في الأصداف الذي لا تمسه

(١) أخرجه أحمد (٦٧/٦، ٦٩) بسند ضعيف.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٢٥٦).

الأيدي»^(١). رواه ابن جرير. قال البغوي^(٢): ويروى أن الحوراء إذا مشت، ليسمع تقديس الخلائيل من ساقها، وتمجيد الأسورة من ساعديها، وأن عقد الياقوت ليضحك من نحرها، وفي رجليها نعلان من ذهب، شراكهما من لؤلؤ، يصران بالتسيح. ﴿جزاء بما كانوا يعملون لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلاّ قبلاً سلاماً سلاماً﴾ قال عطاء: يحيي بعضهم بعضاً بالسلام.

قوله عز وجل: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفِكَهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَعَلَّنَهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرْبًا أَرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

عن قتادة في قوله: ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين﴾، أي: ماذا لهم وماذا أعد لهم ﴿في سدر مخضود﴾ قال: كنا نحدث أنه الموقر الذي لا شوك فيه. ﴿وطلح منضود﴾ كنا نحدث أنه الموز. وقال معمر بن المثنى: هو عند العرب شجر عظام كثير الشوك. وقال مجاهد ﴿منضود﴾ أي متراكم الثمر. قال ابن عباس: يشبه طلح الدنيا، ولكن له ثمر أحلى من العسل. وروى النجار^(٣) عن سليم بن عامر قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم^(٤)، قال: أقبل أعرابي يوماً فقال: يا رسول الله ذكر الله في الجنة شجرة تؤذي صاحبها، فقال رسول الله ﷺ: «وما هي؟» قال: السدر، فإن له شوكةً

(١) أخرجه ابن جرير (١٧٨/٢٧) بسند ضعيف.

(٢) المصدر السابق (٢٥٦/٤).

(٣) في (الأصل): «النجاد» بالدال، والمثبت من تفسير ابن كثير، وهو الصواب.

(٤) في (الأصل): «وما مثلهم»، وهو خطأ.

مؤذياً؛ فقال رسول الله ﷺ: «أليس الله تعالى يقول: ﴿في سدر مخضود﴾ خضد الله شوكة، فجعل مكان كل شوكة ثمرة، فإنها لتنبت ثمراً وتنفق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونا من طعام، ما فيها لون يشبه الآخر»^(١). وعن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، اقرأوا إن شئتم ﴿وظلّ ممدود﴾»^(٢). متفق عليه. وعن سفيان ﴿وماء مسكوب﴾ قال: يجري في غير أخدود. وعن قتادة في قوله ﴿وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾ قال: لا يمنعه شوك ولا بعد.

وقوله تعالى: ﴿وفرش مرفوعة﴾ قال ابن كثير: أي عالية وطيبة ناعمة. وقوله تعالى: ﴿إنا أنشأناهنّ إنشاء﴾ قال أبو عبيدة: يعني بذلك الحور العين. وعن الحسن قال: أتت عجوز فقالت: يا رسول الله ادع الله تعالى أن يدخلني الجنة، فقال: «يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز»، فولّت تبكي، قال: «أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله تعالى يقول: ﴿إنا أنشأناهنّ إنشاء فجعلناهنّ أبكارا﴾»^(٣). رواه الترمذي. وعن ابن عباس: ﴿عرباً أترابا﴾ قال: العرب المتحبيبات المتودّعات إلى أزواجهنّ، والأتراب المستويات. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشدّ كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يتمخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة،

(١) أخرجه أبو بكر النجار كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٢٨٨/٤) عن سليم بن عامر مرسلًا، وروي مسنداً من حديث أبي أمامة رضي الله عنه أخرجه الحاكم (٤٧٦/٢) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الترمذي في (المسائل) (ح/٢٤١)، والبغوي في تفسيره (٢٥٨/٤) عن الحسن مرسلًا.

وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، هم على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء»^(١). متفق عليه. وقوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ﴾، أي: جماعة ﴿من الأولين وثلاثة من الآخرين﴾ قال الحسن: ﴿ثَلَاثَةٌ من الأولين﴾ من الأمم ﴿وثلاثة من الآخرين﴾ أمة محمد ﷺ.

قوله عز وجل: ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِهْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَّابًا أُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْتَا الضَّالِّينَ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٥١﴾ لَا كَلِمَ مِنْ شَجَرَ مِنْ زُفُورٍ ﴿٥٢﴾ فَالْتَوْنَ مِنْهَا الْبَطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ اللَّعِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُوا مِنْ شَرَبِ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزُّمْتُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ مَخْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ مَخْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا مَخْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَيَّ أَنْ تُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال﴾، أي: ماذا لهم وماذا أعد لهم ﴿في سموم وحميم وظل من يحموم﴾ كنا نحدث أنها ظل الدخان ﴿لا بارد ولا كريم﴾ قال: لا بارد المنزل ولا كريم المنظر. وقال الضحاك: كل شراب ليس بعذب فليس بكريم. وعن ابن عباس ﴿إنهم كانوا قبل ذلك مترفين﴾ يقول: منعمين ﴿وكانوا يصرون على الحنث العظيم﴾ قال الضحاك: يعني الشرك. وقال مجاهد: يدمنون على الذنب. وعن ابن عباس قوله: ﴿شرب الهيم﴾ قال:

(١) سبق تخريجه.

الإبل العطاش . وقال عكرمة: هي الإبل المراض تمص الماء مصاً ولا تروى .

وقوله تعالى: ﴿هذا نزلهم يوم الدين﴾ قال ابن كثير^(١): أي هذا الذي وصفنا هو ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم، كما قال تعالى في حق المؤمنين: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً﴾^(٢). وقال البغوي: ﴿هذا نزلهم﴾ يعني ما ذكر من الزقوم والحميم رزقهم وغذاؤهم، وما أعد لهم يوم الدين، يوم يجازون بأعمالهم؛ ثم احتج عليهم في البعث فقال تعالى: ﴿نحن خلقناكم﴾ قال مقاتل: خلقناكم ولم تكونوا شيئاً وأنتم تعلمون ذلك ﴿فلولا﴾ فهلاً ﴿تصدقون﴾ بالبعث؟ ﴿أفرأيتم ما تمنون﴾ ما تصبّون في الأرحام من النطف ﴿أنتم تخلقونه﴾ يعني أنتم تخلقون ما تمنون بشراً ﴿أم نحن الخالقون﴾؟ ﴿نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين﴾ بمغلوبين عاجزين عن إهلاككم وإبدالكم بأمثالكم، فذلك قوله عز وجل ﴿على أن نبذل أمثالكم﴾ يعني نأتي بخلق مثلكم بدلاً منكم . ﴿وننشئكم﴾ نخلقكم ﴿فيما لا تعلمون﴾ من الصور . وقال الحسن: أي نبذل صفاتكم فنجعلكم قردة وخنازير . ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى﴾ ولم تكونوا شيئاً ﴿فلولا تذكرون﴾ إني قادر على إعادتكم كما قدرت على إيدائكم .

قوله عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ﴿٦٣﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ
الَّذِينَ نَزَرَعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا فَظَلَّمْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُعْرِمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ
مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ
الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي
تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَرَمَتَا
لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ .

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٩٥/٤).

(٢) سورة الكهف: الآية ١٠٧.

قال البغوي^(١): ﴿أفأرأيتم ما تحرثون﴾ يعني تثيرون من الأرض وتلقون فيها من البذور ﴿ءأنتم تزرعون﴾ تبتونه ﴿أم نحن الزارعون﴾ المنبتون؟ وعن حجر المنذري أنه كان إذا قرأ ﴿ءأنتم تزرعون أم نحن الزارعون﴾ وأمثالها ويقول: بل أنت يا رب. ﴿لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلمتم تفكّهون﴾ قال الكسائي: هو تلهّف على ما فات، وهو من الأضداد. وقال ابن كثير^(٢): أي لو جعلناه حطاماً لظلمتم تفكّهون في المقالة، تنوعون كلامكم فتقولون تارة: إنا لمغرمون، وتارة تقولون: بل نحن محرومون. قال البغوي^(٣): والغرام العذاب. وقال الضحاك وابن كيسان: غرمتنا أموالنا وصار ما أنفقنا غمماً علينا، والمغرم الذي ذهب ماله بغير عوض، وهو قوله: ﴿بل نحن محرومون﴾ محدودون ممنوعون أي حُرِّمنا ما كنا نطلبه من الربح في الرزق. وقال ابن زيد: المزن السحاب. وقال الحسن ﴿أجأجأ﴾ مرأً. وقال ابن عباس: شديد الملوحة.

وعن قتادة قوله: ﴿أفأرأيتم النار التي تورون﴾ أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشؤون نحن جعلناها تذكرة ﴿للنار الكبرى﴾. ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: «ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم»، قالوا: يا نبي الله إن كانت لكافية. قال: «قد ضربت بالماء ضربتين لينتفع بها بنو آدم ويدنوا منها»^(٤). ﴿ومتاعاً للمقيمين﴾ قال: للمرمل المسافر. وعن مجاهد ﴿ومتاعاً للمقيمين﴾ للمستمتعين، المسافر والحاضر، لكلّ طعام لا يصلحه إلاّ النار. وقال ابن زيد: المقوي الجائع.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٢٦١/٤).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٩٦/٤).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٢٦٢/٤).

(٤) أخرجه ابن جرير (٢٧/٢٠١) عن قتادة مرسلًا.

وقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال ابن كثير^(١): أي الذي بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة المتضادة: الماء الزلال العذب البارد، ولو شاء جعله ملحاً أجاجاً كالبحار المغرقة، وخلق النار المحرقة وجعل ذلك مصلحة للعباد، وجعل هذه منفعة لهم في معاش دنياهم وزجراً لهم في المعاد.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٢٩٧).

الدرس الرابع والسبعون بعد المائتين

﴿ فَلَا أَسْأَلُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾
 إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّنْ
 رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفِيهِذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾
 فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْمُلُكُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا
 تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينٍ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِنْ
 كَانَ مِنَ الْمُفْرَبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّاتٌ نَّعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ
 الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْذِبِينَ
 الصَّالِينَ ﴿٩٢﴾ فَنَزَلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَنَصْلَةٌ جَمِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾
 فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ ٧٥ ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ ٧٦ ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ ٧٧ ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ ٧٨ ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ ٧٩ ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٨٠ ﴿أَفِيهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾ ٨١ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ ٨٢ .

قال جمهور المفسرين: هذا قسم من الله تعالى يقسم بما شاء من خلقه، و«لا» مزيدة لتأكيد القسم. وعن مجاهد قوله: ﴿بمواقع النجوم﴾، قال: في السماء؛ وهذه الآية كقوله: ﴿فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس﴾^(١). وعن ابن عباس قال: نزل القرآن في ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة، ثم فرق في السنين بعد، وتلا هذه الآية: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾، قال: نزل متفرقاً. وقال الحسن: أراد انكدار النجوم وانتثارها يوم القيامة.

وقال ابن كثير^(٢): وقوله: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾، أي: وإن هذا القسم الذي أقسمت به ﴿لقسم﴾ عظيم ﴿لو تعلمون﴾ عظمته لعظمتهم المقسم به عليه ﴿إنه لقرآن كريم﴾، قال البغوي: ﴿إنه﴾، يعني هذا الكتاب، وهو موضع القسم ﴿لقرآن كريم﴾ عزيز مكرم لأنه كلام الله؛ قال بعض أهل المعاني: الكريم الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير. ﴿في كتاب مكنون﴾ مصون عند الله في اللوح المحفوظ. وعن ابن عباس قال: إذا أراد الله أن ينزل كتاباً نسخته السفارة ف﴿لا يمسّه إلا المطهرون﴾، يعني الملائكة. وعن قتادة قوله: ﴿لا يمسّه إلا المطهرون﴾، ذاكم عند رب العالمين، فأما عندكم فيمسّه المشرك النجس والمنافق

(١) سورة التكوير: الآية ١٦.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٢٩٨).

الرجس. وفي الموطأ أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمر بن حزم: «أن لا يمس القرآن إلا طاهر»^(١).

وعن جابر بن زيد في قوله: ﴿تنزيل من رب العالمين﴾، قال: القرآن ينزل من ذلك الكتاب. وقال الضحاك: زعموا أن الشياطين تنزلت به على محمد، فأخبرهم الله أنها لا تقدر على ذلك وما تستطيعه، وما ينبغي لهم أن ينزلوا بهذا وهو محجوب عنهم، وقرأ قول الله: ﴿وما ينبغي لهم وما يستطيعون﴾.

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون تنزيل من رب العالمين﴾^(٢). وعن ابن عباس قوله: ﴿أفبهذا الحديث أنتم مدهنون﴾ يقول: مكذبون غير مصدقين ﴿وتجعلون رزقكم﴾ يقول: شكركم ﴿أنكم تكذبون﴾، وقال الحسن في هذه الآية: خسر عبد لا يكون حظّه من كتاب الله إلاّ التكذيب. وعن ابن عباس أنه كان يقرأ: ﴿أو تجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾، ثم قال: ما مطر الناس ليلة قطّ إلاّ أصبح بعض الناس مشركين يقولون: مُطِرْنَا بِنَوْءٍ كذا وكذا. وفي الصحيحين عن زيد بن خالد الجهني قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرّون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطِرْنَا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مُطِرْنَا بِنَوْءٍ كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»^(٣).

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١/١٩٩) عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم مرسلًا.

(٢) سورة الحاقة: الآية ٤٢.

(٣) أخرجه البخاري (ح/٨٤٦ و ١٠٣٨ و ٤١٤٧ و ٧٥٠٣)، ومسلم (ح/٧١).

قوله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَمٌ لَكَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْفِرِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنَزَلَ مِنْ جَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصَلِيَةٌ جَمِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ .

قال ابن كثير^(١) يقول تعالى: ﴿فلولا إذا بلغت الروح الحلقوم﴾، أي: الحلق ﴿وأنتم حينئذ تنظرون﴾، أي: إلى المحتضر وما يكابده من سكرات الموت ﴿ونحن أقرب إليه منكم﴾، أي: بملائكتنا ﴿ولكن لا تبصرون﴾، أي: ولكن لا ترونهم، كما قال تعالى: ﴿وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾^(٢). وعن ابن عباس قوله: ﴿فلولا إن كنتم غير مدينين﴾، يقول: غير محاسبين. وقال ابن زيد في قوله: ﴿ترجعونها﴾، قال: لتلك النفس ﴿إن كنتم صادقين﴾، قال البغوي^(٣): أي تردون نفس هذا الميت إلى جسده بعدما بلغت الحلقوم، فأجاب عن قوله: ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم﴾. وعن قوله: ﴿فلولا إن كنتم غير مدينين﴾ بجواب واحد معناه: إن كان الأمر كما تقولون: أنه لا بعث ولا حساب ولا إله يجازي، فهلا تردون نفس من يعز عليكم إذا بلغت الحلقوم؟ وإذا لم يمكنكم ذلك فاعلموا أن الأمر إلى غيركم وهو الله عز وجل، فأمنوا به. ثم ذكر طبقات الخلق عند الموت وبين درجاتهم فقال: ﴿فأما إن

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٩٩/٤).

(٢) سورة الأنعام: الآية ٦٢.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٢٦٤/٤).

كان من المقرّبين فروح وريحان وجنّة نعيم وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين وأما إن كان من المكذبين الضالّين فنزل من حميم وتصلية جحيم ﴿١﴾.

وعن سعيد بن جبير في قوله: ﴿فروح وريحان﴾، قال: الروح الفرح، والريحان الرزق؛ قال قتادة: يتلقّى به عند الموت. ﴿وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين﴾، قال سلام من عند الله، سلّمت عليه ملائكة الله. وقال ابن زيد: سلّم مما يكون. وقال مقاتل: هو أن الله تعالى يتجاوز عن سيئاتهم ويقبل حسناتهم. وعن البراء بن عازب قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتبهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأنّ على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به الأرض فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر - مرتين أو ثلاثاً ثم قال - : إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزلت إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس المطمئنة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان - قال - : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرّون بها - يعني على ملاء من الملائكة - إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمّونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كلّ سماء مقرّبوها إلى السماء التي تليها، حتى يُنتهى به إلى السماء السابعة فيقول الله: اكتبوا كتاب عبدي في علّين وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى

— قال — : فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت، فينادي منادٍ من السماء: أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مدّ بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه وحسن الثياب طيب الريح فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعده، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يأتي بالخير، فيقول: أنا عمك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزلت إليه ملائكة من السماء سود الوجوه معهم المسوح، فجلسوا منه مدّ البصر، ثم يجيء ملك الموت فيجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، فيخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرّون على ملاء من الملائكة — إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمّى بها في الدنيا، حتى يُنتهى بها إلى السماء الدنيا، فيستفتح له فلا يفتح له — ثم قرأ رسول الله ﷺ — ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾، فيقول الله: اكتبوا كتابه في سبعين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرْحاً — ثم قرأ — ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾ فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له: من ربك؟ فيقول: هاهاه! لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاهاه! لا أدري، فيقولان له: ما

هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه! لا أدري، فينادي منادٍ من السماء: أن كذب عبدي فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرّها وسُمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلّاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب متنن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوءك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: ومن أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر! فيقول: أنا عمك الخبيث، فيقول: رب لا تُقِم الساعة^(١). رواه أحمد وغيره. وفي رواية: «ثم يقبض له أعمى أصم أبكم، وفي يده مرزبة، لو ضرب بها جبلاً لكان تراباً، فيضربه ضربة فيصير تراباً، ثم يعيده الله عز وجل كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعا كل شيء إلا الشياطين».

وله من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، قال: فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان فيقولون: مرحباً بالروح الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، قال: فلا يزال يقال لها ذلك حتى يُنتهى بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل. وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج^(٢). الحديث.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾، قال البغوي^(٣): ﴿إِنْ هَذَا﴾، يعني ما ذكر من قصة المحتضرين ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾، أي: الحقّ اليقين. وقال ابن

(١) سبق تخريجه، وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه أحمد، (٢/٣٦٤)، وابن ماجه (ح/٤٢٦٢)، وهو حديث صحيح.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/٢٦٥).

كثير^(١): أي أن هذا الخبر لهو حق اليقين الذي لا مرية فيه ولا محيد لأحد عنه ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾. وعن عقبة بن عامر الجهني قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾، قال: «اجعلوها في ركوعكم»، ولما نزلت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في سجودكم»^(٢). رواه أحمد وغيره. وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»^(٣).



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣٠١/٤).

(٢) أخرجه أحمد (١٥٥/٤)، وأبو داود (ح/٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧)، والحاكم (٤٧٧/٢) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه البخاري (ح/٦٤٠٦ و ٦٦٨٢ و ٧٥٦٣)، ومسلم (ح/٢٦٩٤).

الدرس الخامس والسبعون بعد المائتين

﴿سورة الحديد﴾

مدنية، وهي تسع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ
وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ
اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ
فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ ﴿٦﴾ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا
مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا
بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ
لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ
وَقَتْلَ أَوْلِيائِكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا كُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَ

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَنَفِقُونَ وَالْمُتَنَفِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُمْ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرٌ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُتَادَوْنَهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَهُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ أَتَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمْ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ قَالِيَوْمَ لَا يُؤَخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَانُكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَانُكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضْعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ .

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم: «اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، منزل التوراة والإنجيل والفرقان، فائق الحب والنوى، لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر»^(١). رواه أحمد وغيره. وعن عكرمة في قوله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ قال: قصر هذا في طول هذا، وطول هذا في قصر هذا. ﴿وهو عليم بذات الصدور﴾ قال ابن كثير^(٢): أي يعلم السرائر إن دقت وإن خفيت.

قوله عز وجل: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى

(١) أخرجه أحمد (٢/٣٨١ و ٤٠٤ و ٥٣٦)، وبنحوه مسلم (ح/٢٧١٣).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٣٠٥).

عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَتَّبِعِ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُم لَأَرُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾
 وَمَا لَكُم مَّا لَأَنْتُمْ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَّنْ أَنْفَقَ
 مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّتِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكُلًّا وَعَدَّ
 اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ .

قال ابن كثير: أمر تعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل، والدوام والثبات على ذلك والاستمرار، وحث على الإنفاق: ﴿مما جعلكم مستخلفين فيه﴾، أي: مما هو معكم على سبيل العارية، فإنه قد كان في أيدي من قبلكم ثم صار إليكم، وقال: فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفاً عنك؛ وساق حديث عبد الله بن الشخير قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: ﴿ألهاكم التكاثر﴾ يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفريت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟ وما سوى ذلك فذهب وتاركه للناس^(١). رواه مسلم. وعن مجاهد قوله: ﴿من الظلمات إلى النور﴾ قال: من الضلالة إلى الهدى.

وقوله تعالى: ﴿وما لكم أن لا تنفقوا في سبيل الله والله ميراث السموات والأرض﴾ قال البغوي^(٢): أي شيء لكم في ترك الإنفاق فيما يقرب من الله، وأنتم ميتون تاركون أموالكم. ثم بين فضل من سبق بالإنفاق في سبيل الله وبالجهاد فقال: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح﴾ يعني فتح مكة في قول أكثر المفسرين. وقال الشعبي: هو صلح الحديبية. قال ابن كثير^(٣): وقد يستدل لهذا القول بما روى الإمام أحمد عن أنس قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام

(١) أخرجه مسلم (ح/٢٩٥٨).

(٢) انظر معالم التنزيل، (٤/٢٦٨).

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم، (٤/٣٠٦).

سبقتمونا بها، فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي ﷺ فقال: «دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد ذهباً ما بلغت أعمالهم»^(١). قال ابن كثير^(٢): ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد كان بين صلح الحديبية وفتح مكة. وعن قتادة: ﴿وكلاً وعد الله الحسنی﴾ قال: الجنة ﴿والله بما تعملون خبير﴾ قال ابن كثير: أي فلخبرته فاوت بين ثوابهم.

قوله عز وجل: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَفْرِضُ اللَّهُ قَرَضًا حَسَنًا فَيَضُوفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾^(١١) يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ^(١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِبَ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَمْ يَأْبُ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ^(١٣) يُنَادُوا لَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ^(١٤) قَالِيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَكُمْ أَلِنَارُ هِيَ مَوْلَانُكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ^(١٥).

قال البغوي^(٣): ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم﴾ يعني على الصراط ﴿بين أيديهم وبأيمنهم﴾ يعني عن أيمنهم؛ قال بعضهم: أراد جميع جوانبهم، فعبّر بالبعض عن الكل، وذلك دليلهم إلى الجنة. وقال قتادة: ذكر لنا

(١) أخرجه أحمد (٢٦٦/٣) بسند صحيح، وبنحوه عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً: «لا تسبوا أحداً من أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً، ما أدرك مد أحدهم ولا نصفه»، أخرجه البخاري (ح/٣٦٧٣)، ومسلم (ح/٢٥٤١) وبنحوه - أيضاً - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: أخرجه مسلم (ح/٢٥٤٠).

(٢) المصدر السابق (٣٠٦/٤).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٢٦٩/٤).

أن نبي الله ﷺ قال: «إن من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن أبين وصنعاء ودون ذلك، حتى أن من المؤمنين من لا يضيء نوره إلا موضع قدميه»^(١). وقال ابن مسعود: «يؤتون من نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة، ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم، وأدناهم نوراً من نوره على إبهامه فيطفا مرة ويوقد مرة»^(٢). وقال الضحاك ومقاتل: «يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم» كتبهم، يريد أن كتبهم التي أعطوها بأيمانهم ونورهم بين أيديهم، وتقول لهم الملائكة: «بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم».

﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم﴾ نستضيء من نوركم، وذلك أن الله تعالى يعطي المؤمنين نوراً على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط، ويعطي المنافقين أيضاً نوراً خديعة لهم، وهو قوله عز وجل: ﴿وهو خادعهم﴾ فبينما هم يمشون إذ بعث الله عليهم ريحاً وظلمة فأطفأت نور المنافقين، فذلك قوله: ﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا﴾ مخافة أن يُسلبوا نورهم كما سلب نور المنافقين: ﴿قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً﴾ فاطلبوا هناك لأنفسكم نوراً، فإنه لا سبيل لكم إلى الاقتباس من نورنا، فيرجعون في طلب النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم ليلقوهم فيميز بينهم وبين المؤمنين؛ وهو قوله: ﴿فضرب بينهم بسور﴾ وهو حائط بين الجنة والنار: ﴿له باب باطنه فيه الرحمة﴾، أي: في باطن ذلك السور الرحمة وهي الجنة ﴿وظاهره من قبلة العذاب﴾ وهو النار: ﴿ينادونهم ألم نكن معكم﴾ في الدنيا نصلي ونصوم؟ ﴿قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم﴾ أهلكتموها بالنفاق والكفر، واستعملتموها في المعاصي والشهوات وكلها فتنة ﴿وتربصتم﴾ بالإيمان والتوبة ﴿وارتبتم﴾ تشككتم ﴿وغرتكم الأماني﴾ الأباطيل وما كنتم تتمنون من نزول الدوائر

(١) أخرجه ابن جرير (٢٧/٢٢٢) عن قتادة مرسلًا.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٧/٢٢٣)، والحاكم (٢/٤٧٨)، وصححه ووافقه الذهبي.

بالمؤمنين ﴿حتى جاء أمر الله﴾ يعني الموت: ﴿وغرّكم بالله الغرور﴾ يعني الشيطان. قال قتادة: ما زالوا على خدعة من الشيطان حتى قذفهم الله في النار ﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا﴾ يعني المشركين: ﴿مأواكم النار هي مولاكم﴾ صاحبكم وأولى بكم لما أسلفتم من الذنوب ﴿وبئس المصير﴾ انتهى ملخصاً. والله أعلم.

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمُضْذِقِينَ وَالْمُضْذِقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾ الآية، ذكر لنا أن شداد بن أوس كان يروي عن رسول الله ﷺ قال: «إن أول ما يرفع من الناس الخشوع»^(١). قال ابن كثير^(٢) يقول تعالى: أما أن للمؤمنين: ﴿أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾، أي: تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن، فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه؟ ﴿ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم﴾ قال ابن عباس: مالوا إلى الدنيا وأعرضوا عن مواعظ الله. قال البغوي^(٣): والمعنى أن الله عز وجل ينهى المؤمنين أن يكونوا في صحبة القرآن كاليهود والذين قست قلوبهم لما طال عليهم الدهر ﴿وكثير منهم فاسقون﴾ يعني

(١) أخرجه ابن جرير (٢٢٨/٢٧) بسند منقطع، ووصله الطبراني (٢٩٥/٧).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣١٠/٤).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٢٧١/٤).

الذين تركوا الإيمان بعمى ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

وقوله تعالى: ﴿اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ فيه إشارة إلى أن الله تعالى يلبس القلوب بعد قسوتها برحمته كما يحيي الأرض بعد جذبها ﴿إن المصدّقين والمصدّقات﴾، أي: المتصدّقين والمصدّقات ﴿وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾ بالصدقة والنفقة في سبيل الله عز وجل ﴿يضاعف لهم﴾ ذلك القرض ﴿ولهم أجر كريم﴾ ثواب حسن وهو الجنة ﴿والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون﴾ قال مجاهد: كل من آمن بالله ورسله فهو صديق، وتلا هذه الآية. وعن ابن عباس في قوله: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون﴾ قال: هذه مفصلة. قال ابن كثير^(١): وقوله تعالى: ﴿والشهداء عند ربهم﴾، أي: في جنات النعيم، كما جاء في الصحيحين: ﴿إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال: ماذا تريدون؟ فقالوا: نحب أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فيك فنقتل كما قُتلنا أوّل مرّة، فقال: إني قضيت أنهم إليها لا يرجعون﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿لهم أجرهم ونورهم﴾، أي: لهم عند الله أجر جليل ونور عظيم ﴿يسعى بين أيديهم﴾ وهم في ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا في الدار الدنيا من الأعمال.

وقوله تعالى: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ لما ذكر السعداء ومآلهم، عطف بذكر الأشقياء وبين حالهم. والله المستعان.



(١) المصدر السابق (٤/٣١٢).

(٢) أخرجه مسلم (ح/١٨٨٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، ووهب ابن كثير، وتبعه المؤلف — رحمهما الله — فعزى هذا الحديث إلى البخاري أيضاً، وليس كذلك.

الدرس السادس والسبعون بعد المائتين

﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي
الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَتهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ
حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ
الْعُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو
الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَا أَصَابَ مَن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي
كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا
فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ
يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ
أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ
بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ
وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي
ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ
فَقَيْنَا عَلَىٰ ءَاثِرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَيْنَا بِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ
وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِنَاءَ تَبَدَّعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا
عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَءَاتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ

أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَالسِّقُونَ ﴿٢٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرِسُولِهِ
يُؤْتِكُمْ كَفْلًا مِّن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَعْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ ءَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ
الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ .

قال البغوي^(١): قوله عز وجل: ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا﴾، أي: أن الحياة في هذه الدار ﴿لعب﴾ باطل لا حاصل له ﴿ولهو﴾ فرح ثم ينقضي ﴿وزينة﴾ منظر تتزينون به ﴿وتفاخر بينكم﴾ يفخر به بعضكم على بعض ﴿وتكاثر في الأموال والأولاد﴾، أي: مباحاة بكثرة الأموال والأولاد؛ ثم ضرب لها مثلاً فقال: ﴿كمثل غيث أعجب الكفار نباته﴾، أي: الزرع ﴿نباته﴾ ما نبت من ذلك الغيث ﴿ثم يهيج﴾ يبس ﴿فتراه مصفراً﴾ بعد خضرته ونضرته ﴿ثم يكون حطاماً﴾ يتحطم ويتكسر بعد يبسه ويفنى ﴿وفي الآخرة عذاب شديد﴾ قال مقاتل: لأعداء الله ﴿ومغفرة من الله ورضوان﴾ لأوليائه وأهل طاعته ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ قال سعيد بن جبير ﴿متاع الغرور﴾ لمن لم يشتغل فيها بطلب الآخرة، ومن اشتغل بها فله ﴿متاع﴾ بلاغ إلى ما هو خير منه.

وقال في جامع البيان ﴿أعجب الكفار﴾ الزرع، أو الكافرون، فإنهم أشد إعجاباً بخضرة الدنيا، ولم يذكر ابن جرير غير الثاني؛ وقال بعض المفسرين:

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٢٧٢).

ومعنى إعجاب الكفار أنهم جحدوا نعمة الله فيه بعد أن راق في نظرهم، فبعث الله عليهم العاهة فصيره كلاً شياً، ومن جعل الكفار بمعنى الزراع فظاهر، قاله ابن مسعود.

وقال ابن كثير^(١): يقول تعالى موهناً أمر الحياة الدنيا ومحقراً لها: ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد﴾، أي: إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا، كما قال تعالى: ﴿زین للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾^(٢).

قال: وقوله تعالى: ﴿أعجب الكفار نباته﴾، أي: يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث، وكما يعجب الزراع ذلك، كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار، فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها.

وقوله تعالى: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله﴾ قال ابن جرير^(٣) يقول تعالى ذكره: ﴿سابقوا﴾ أيها الناس إلى عمل يوجب لكم ﴿مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت﴾ هذه الجنة ﴿للذين آمنوا بالله ورسوله﴾ يعني الذين وحدوا الله وصدقوا رسوله ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ قال البغوي: فبين أن أحداً لا يدخل الجنة إلا بفضل الله.

قوله عز وجل: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٦﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٣١٢).

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٤.

(٣) انظر «جامع البيان» (٢٧/٢٣٣).

يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾ قال: هو شيء قد فرغ منه من قبل أن تبرأ النفس. قال قتادة: أما ﴿مصيبة في الأرض﴾ فالسنون، وأما ﴿في أنفسكم﴾ فهذه الأمراض والأوصاب ﴿من قبل أن نبرأها﴾ من قبل أن نخلقها. وقال الحسن: كل مصيبة بين السماء والأرض ففي كتاب الله من قبل أن تبرأ النسمة ﴿إن ذلك على الله يسير﴾ قال ابن كثير^(١): أي أن علمه تعالى الأشياء قبل كونها، وكتابته لها طبق ما يوجد في حينها، سهل على الله عز وجل، لأنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن، لو كان كيف يكون. وعن ابن عباس: ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم﴾ من الدنيا ﴿ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ منها. وقال عكرمة: ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً.

﴿والله لا يحب كل مختال فخور﴾ قال البغوي^(٢): ﴿مختال﴾ متكبر بما أوتي من الدنيا ﴿فخور﴾ يفخر به على الناس. وقوله تعالى: ﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾، أي: يبخلون بالواجب ويأمرون الناس بذلك. وقال ابن كثير: أي يفعلون المنكر ويحضون الناس عليه ﴿ومن يتولَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ .

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿٢٥﴾ .

عن قتادة ﴿الكتاب والميزان﴾ قال: الميزان العدل. وقال ابن زيد: الميزان

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٣١٣).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٢٧٣).

ما يعمل الناس ويتعاطون عليه في الدنيا من معاشهم التي يأخذون ويعطون، يأخذون بميزان ويعطون بميزان، يعرف ما يأخذ وما يعطي، قال: والكتاب فيه دين الناس الذي يعملون ويتركون، فالكتاب للأخرة والميزان للدنيا. ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ قال: البأس الشديد السيوف والسلاح الذي يقاتل الناس به. ﴿ومنافع للناس﴾ بعد يحفرون به الأرض والجبال وغير ذلك. قال البغوي: روي عن ابن عمر يرفعه: «إن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض: الحديد، والنار، والماء، والملح»^(١). وقال أهل المعاني: معنى قوله: ﴿أنزلنا الحديد﴾ أنشأنا وأحدثنا أي أخرج لهم الحديد من المعادن وعلمهم صنعته. وعن مجاهد قوله: ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس﴾ وجنة وسلاح، وأنزله ليعلم الله من ينصره. وقال البغوي^(٢): أي أرسلنا رسلنا وأنزلنا معهم هذه الأشياء ليتعامل الناس بالحق والعدل ﴿وليعلم الله﴾ وليرى الله ﴿من ينصره﴾، أي: دينه ﴿ورسله بالغيب﴾، أي: قام بنصرة الدين ولم ير الله ولا الآخرة، وإنما يحمد ويثاب من أطاع الله بالغيب ﴿إن الله قوي عزيز﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

عن ابن عباس قال: كانت ملوك بعد عيسى بدلوا التوراة والإنجيل، وكان

(١) لم أقف عليه.

(٢) المصدر السابق (٤/٢٧٣).

فيهم مؤمنون يقرأون التوراة والإنجيل، فقيل لملكهم: ما نجد شيئاً أشدّ علينا من شتم يشتمنا هؤلاء، إنهم يقرأون ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ هؤلاء الآيات مع ما يعيونا به في قراءتهم، فادعهم فليقرأوا كما نقرأ وليؤمنوا كما آمنّا به، قال: فدعاهم فجمعهم وعرض عليهم القتل أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل إلّا ما بدّلوا منها، فقالوا: ما تريدون إلى ذلك؟ فدعونا، قال: فقالت طائفة منهم: ابنوا لنا أسطوانة ثم ارفعونا إليها ثم أعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا فلا نردّ عليهم، وقالت طائفة منهم: دعونا نسيح في الأرض ونهيم ونشرب كما تشرب الوحوش فإن قدرتم علينا بأرضكم فاقتلونا، وقالت طائفة: ابنوا لنا دوراً في الفيافي ونحترق الآبار ونحترق البقول فلا نردّ عليكم ولا نمربكم، وليس أحد من أولئك إلّا وله حميم فيهم، قال: ففعلوا ذلك فأنزل الله جلّ ثناؤه: ﴿ورهبانية ابتدعوها وما كتبناها عليهم إلّا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حقّ رعايتها﴾ والآخرون قالوا: نتعبّد كما تعبّد فلان ونسيح كما ساح فلان ونتخذ دوراً كما اتخذ فلان، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم، قال: فلما بعث النبيّ ﷺ ولم يبق منهم إلّا قليل، انحطّ رجل من صومعته، وجاء سائح من سياحته، وجاء صاحب الدار من داره، وآمنوا وصدّقوه فقال الله جلّ ثناؤه ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته﴾.

قال ابن جرير^(١): لإيمانهم بعيسى وتصديقهم بالتوراة والإنجيل، وإيمانهم بمحمد ﷺ وتصديقهم به. قال: ﴿ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ القرآن واتباعهم النبيّ ﷺ. وقال: ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب ألاّ يقدرّون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾. وعن قتادة ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة﴾ فهاتان من الله، والرهبانية ابتدعها القوم من أنفسهم ولم تكتب عليهم، ولكن ابتغوا بذلك وأرادوا رضوان الله ﴿فما رعوها حقّ

(١) انظر «جامع البيان» (٢٤٢/٢٧).

رعايتها ﴿ ذكر لنا أنهم رفضوا النساء واتخذوا الصوامع . وقال ابن زيد: ابتدعوها ابتغاء رضوان الله تطوعاً ﴾ ﴿ فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ﴾ قال: الذين رعوها ذلك الحق .

قال ابن كثير^(١) وقوله تعالى: ﴿ فما رعوها حق رعايتها ﴾، أي: فما قاموا بما التزموه حق القيام، وهذا ذم لهم من وجهين، أحدهما: الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله، والثاني: عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قرينة. وقال ابن جرير^(٢) وقوله: ﴿ فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ﴾ يقول تعالى ذكره: فأعطينا الذين آمنوا بالله ورسله، من هؤلاء الذين ابتدعوا الرهبانية، ثوابهم على ابتغائهم رضوان الله وإيمانهم به وبرسوله في الآخرة ﴿ وكثير منهم ﴾ أهل معاص وخروج عن طاعته والإيمان به انتهى. قال بعضهم: الصوفية وزان أولئك.

قوله عز وجل: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِر لَكُمْ ؕ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾
لِتَلْبَعُوا أَهْلَ الْكِتَابِ ؕ أَلَّا يَفْقَهُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ .

عن مجاهد قوله: ﴿ يؤتكم كفلين من رحمته ﴾ قال: ضعفين. وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله أجران، ورجل آذب أمته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران»^(٣). وعنه أيضاً عن النبي ﷺ قال: «مثل المسلمين واليهود

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٣١٥).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٧/٢٤١).

(٣) سبق تخريجه.

والنصارى، كمثل رجل استعمل قوماً يعملون له عملاً، يوماً إلى الليل على أجر معلوم، فعملوا إلى نصف النهار فقالوا: لا حاجة لنا في أجرك الذي شرطت لنا، وما عملنا باطل، فقال لهم: لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً، فأبوا وتركوا واستأجر آخرين بعدهم فقال أكملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت لهم من الأجر، فعملوا حتى إذا كان حين صلوا العصر قالوا: ما عملنا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه، فقال: أكملوا بقية عملكم فإنما بقي من النهار شيء يسير، فأبوا فاستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس، فاستكملوا أجر الفريقين كليهما، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور^(١). رواه البخاري.

وعن ابن عباس ﴿ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ قال: الفرقان، واتباعهم النبي ﷺ ﴿ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾. ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرين على شيء من فضل الله﴾ قال قتادة: حسد الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب المؤمنين منهم فأنزل الله تعالى: ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ وقال مجاهد: قالت اليهود: يوشك أن يخرج منا نبيّ يقطع الأيدي والأرجل، فلما خرج من العرب كفروا به فأنزل الله تعالى ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ قال البغوي^(٢): أي ليعلم، و«لا» صلة ﴿ألا يقدرين على شيء من فضل الله﴾، أي: ليعلم الذين يؤمنوا أنهم لا أجر لهم ولا نصيب لهم في فضل الله ﴿وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾.



(١) أخرجه البخاري (ح/٥٥٨ و ٢٢٧١).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٢٧٥).

الدرس السابع والسبعون بعد المائتين

﴿سورة المجادلة﴾

مدنية، وهي اثنتان^(١) وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِمَّن نَسَأَ بِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّيْءُ وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَ تَوَعَّظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَبِالَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤﴾﴾

(١) في (الأصل): «اثنتان»، والصواب ما أثبت.

ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ التَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْأَيْمِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُ الْعَصِيدُ ﴿٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْأَيْمِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْيَمِ وَالنَّقْوَىٰ وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا التَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَأَفْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُحُودِكُمْ صَدَقَةٌ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرٌ فَإِن لَّمْ يَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُحُودِكُمْ صَدَقَتٍ فَإِذ لَّمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُم وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَن نُّغْفِرَ عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّمَا هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَّا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبُكَ أَنَا وَمُرْسِيٌّ إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَا يَجِدُ

قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا
ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ
الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ
الْمُقْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ مَخَاوِرُكُمْ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِمَّن نَسَايَهُمْ مَا هُمْ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكَ نُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

روى الإمام أحمد وغيره عن عائشة قالت: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها﴾ إلى آخر الآية»^(١). وفي رواية ابن أبي حاتم قالت: «تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول: يا رسول الله أكل مالي وأفنى شبابي ونشرت له بطني، حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني! اللهم إني أشكو إليك. قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في

(١) أخرجه أحمد (٤٦/٦)، والبخاري تعليقاً (رقم/ ٧٣٨٥)، والنسائي في المجتبى (١٦٨/٦)،

وأيضاً في الكبرى (٤٨٢/٦)، وابن ماجه (ح/ ١٨٨ و ٢٠٦٣)، وابن جرير (٥/٢٨ و ٦)،

والحاكم (٤٨١/٢)، وصححه، ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي (٢/٣٨٢)، وهو حديث

زوجها ﴿ قالت: وزوجها أوس بن الصامت ﴾^(١). وفي رواية: «وقد ندم، فهل من شيء يجمعني وإياه تنعشني به؟ فقال رسول الله ﷺ: «حرمت عليه». فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووحدي. فقال رسول الله ﷺ: «ما أراك إلا قد حرمت عليه، ولم أومر في شأنك شيء». فقالت: أشكو إلى الله فاقتي وشدة حالي، وإن لي صبية صغاراً إن أرسلتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إليّ جاعوا، اللهم إني أشكو إليك؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير﴾ الآيات. وعن قتادة في قول الله: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما﴾ قال: ذاك أوس بن الصامت ظاهر من امرأته خولة بنت ثعلبة؛ قالت: يا رسول الله كبر سنّي ورق عظمي وظاهر منّي زوجي؛ قال: فأنزل الله: ﴿الذين يظاهرون من نساءهم﴾ إلى قوله: ﴿ثم يعودون لما قالوا﴾ يريد أن يغشى بعد قوله: ﴿فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا﴾ فدعاه إليه نبيّ الله ﷺ فقال: «هل تستطيع أن تعتق رقبة؟» قال: لا، قال: «أفتستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟»، قال: إنه إذا أخطأه أن يأكل كلّ يوم ثلاث مرات لَكَلَّ بَصْرُهُ، قال: «أنتستطيع أن تطعم ستين مسكيناً؟»، قال: لا، إلا أن يعينني فيه رسول الله ﷺ بعون وصلاة؛ فأعانه رسول الله ﷺ بخمسة عشر صاعاً^(٢)، وجمع الله له أمره ﴿والله غفور رحيم﴾. وعن أبي قلابة قال: كان الظهار طلاقاً في الجاهلية، الذي إذا تكلم به أحدهم لم يرجع في امرأته أبداً، فأنزل الله عز وجل فيه ما أنزل. وعن قتادة ﴿منكراً من القول وزوراً﴾ قال: الزور الكذب: ﴿وإن الله لعفو غفور﴾.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كِتُوتًا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا

(١) انظر الحديث الذي قبله.

(٢) أخرجه ابن جرير (٣/٢٨)، عن ابن عباس بسند ضعيف.

فَيَنْبِتُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ
اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا
خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَىٰ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ
يَنْبِتُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿إن الذين يحادون الله ورسوله﴾ يقول: يعادون الله ورسوله:
﴿كتبوا كما كتبت الذين من قبلهم﴾ خُزُوا كما خزي الذين من قبلهم. قال ابن كثير: كما
فعل بمن أشبههم ممن قبلهم ﴿وقد أنزلنا آيات بينات﴾، أي: واضحات ﴿وللكافرين
عذاب مهين﴾، أي: في مقابلة ما استكبروا عن اتباع شرع الله ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً
فينبتهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه﴾، أي: ضبطه الله وحفظه عليهم، وهم قد نسوا ما
كانوا عملوا ﴿والله على كل شيء شهيد﴾، أي: لا يغيب عنه شيء.

ثم قال تعالى مخبراً عن إحاطة علمه بخلقه وإطلاعه عليهم: ﴿ألم تر أن الله
يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة﴾، أي: من سرّ
ثلاثة: ﴿إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا
هو معهم أينما كانوا﴾ كما قال تعالى: ﴿أم يحسبون أنا لا نسمع سرّهم ونجواهم
بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾^(١) فهو سبحانه وتعالى مطلع على خلقه لا يغيب عنه
من أمورهم شيء. ثم قال تعالى: ﴿ثم ينبتهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل
شيء عليم﴾ قال الإمام أحمد: افتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم. وقال الضحاك:
هو فوق العرش، وعلمه معهم أينما كانوا^(٢).

(١) سورة الزخرف: الآية ٨٠.

(٢) قلت: وهذا هو مذهب أهل السنّة والجماعة سلفاً وخلفاً: أن معية الله عز وجل لخلقه معية علم
وإحاطة، وهو قول ابن عباس، والضحاك والثوري وأحمد، ومالك وإسحاق بن راهويه،
ونعيم بن حماد الخزاعي وأبو عمر بن عبد البر، وأبو عمر والظلمنكي، ونقل الإجماع في هذه
المسألة ابن عبد البر، وأبو عمر الظلمنكي، وابن تيمية، وابن كثير وغيرهم رحمهم الله.

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْنَا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِنْمِرِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يَحِيَّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فِئْتَسِ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْإِنْمِرِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبُرِّ وَالنَّقْوَى وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ .

عن مجاهد في قوله: ﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى﴾ قال: اليهود. وقال مقاتل: كان بين النبي ﷺ وبين اليهود مودة، وكانوا إذا مرّ بهم الرجل من أصحاب النبي ﷺ جلسوا يتناجون بينهم حتى يظنّ المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره المؤمن، فإذا رأى المؤمن ذلك خشيهم فترك طريقه عليهم، فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى فلم يتهوا، فأنزل الله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه﴾. وعن مجاهد في قوله: ﴿وإذا جاءوك حيّوك بما لم يحيك به الله﴾ قال يقولون: سام عليكم. وفي حديث أنس عن النبي ﷺ: «إذا سلّم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا: وعليك»^(١). قال ابن زيد: السام الموت.

وقوله تعالى: ﴿ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول﴾ قال البغوي: يريدون: لو كان نبياً حقاً لعذبنا الله بما نقول. قال الله عز وجل: ﴿حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير﴾. وعن قتادة قوله: ﴿إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا﴾ كان المنافقون يتناجون بينهم، وكان ذلك يغيظ المؤمنون ويكبر عليهم، فأنزل الله في ذلك القرآن. وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال

(١) أخرجه البخاري (ح/٦٩٢٦)، ومسلم (ح/٢١٦٣).

رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالثهما، فإن ذلك يحزنه»^(١).

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطَهَرَ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم﴾ كانوا إذا رأوا من جاءهم مقبلاً ضنوا بمجلسهم عند رسول الله ﷺ، فأمرهم أن يفسح بعضهم لبعض ﴿وإذا قيل انشروا فانشروا﴾ يقول: إذا دعيتم إلى خير فأجيبوا ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ إن بالعلم لأهله فضلاً، وإن له على أهله حقاً، ولعمري للحق عليك أيها العالم فضل، والله معطي كل ذي فضل فضله. وكان مطرف بن عبد الله بن الشخير يقول: فضل العلم أحب إلي من فضل العبادة، وخير دينكم الورع.

وعن مجاهد في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة﴾ قال: نهوا عن مناجاة النبي ﷺ حتى يتصدقوا، فلم يناجيه إلا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قدم ديناراً فتصدق به، ثم أنزلت الرخصة. وعن قتادة قال: ﴿أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ فريضتان واجبتان لا رجعة لأحد فيهما، فنسخت هذه الآية ما كان قبلها من أمر الصدقة في النجوى.

(١) أخرجه البخاري (ح/٦٢٩٠)، ومسلم (ح/٢١٨٤).

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَّا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَنْ نُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنْتُمُ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ أَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَّا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذْلَلِينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَّا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم﴾ إلى آخر الآية. قال: هم المنافقون تولوا اليهود وناصحوهم ﴿ما هم منكم ولا منهم﴾ قال البغوي^(١): يعني المنافقين ليسوا من المؤمنين في الدين والولاية، ولا من اليهود والكافرين، كما قال: ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾^(٢).
﴿ويحلفون على الكذب وهم يعلمون﴾ أنهم كذبة ﴿أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ يستجنون بها من القتل ويدفعون بها عن

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٢٨٤).

(٢) سورة النساء: الآية ١٤٣.

أنفسهم وأموالهم. وعن قتادة في قوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ قال: إن المنافق يحلف له يوم القيامة كما حلف لأوليائه في الدنيا ﴿وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ اسْتَحُودَ﴾ قال البغوي^(١): غلب واستولى ﴿عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَّا إِنْ حِزْبُ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ. إِنْ الَّذِينَ يَحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذْلَلِينَ﴾ الأسفلين ﴿كَتَبَ اللَّهُ لِأَعْلَبِ بْنِ أَنَا وَرَسُولِي إِنْ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قال الزجاج: غلبه الرسل على نوعين: من بُعث منهم بالحرب فهو غالب في الحرب، ومن لم يؤمر بالحرب فهو غالب بالحجة.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ قال ابن كثير^(٢): أي لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين. وقال في جامع البيان: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني لا يجتمع الإيمان ومحبة أعداء الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين لم يوادوهم ﴿كَتَبَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ أثبتة فيها ﴿وَأَيْدِهِمْ بَرُوحَ مِنْهُ﴾. قال ابن جرير يقول: وقواهم ببرهان منه ونور وهدى ﴿وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ قال ابن جرير^(٣): رضي الله عنهم بطاعتهم إياه في الدنيا: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ في الآخرة بإدخاله إياهم الجنة ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ يقول: أولئك الذين هذه صفتهم جند الله وأوليائه ﴿أَلَّا إِنْ حِزْبُ اللَّهِ هُمُ الْمَفْلُحُونَ﴾.



(١) المصدر السابق (٤/٢٨٤).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٣٢٩).

(٣) انظر «جامع البيان» (٢٨/٢٧).

الدرس الثامن والسبعون بعد المائتين

﴿سورة الحشر﴾

مدنية ، وهي أربع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي
أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا
وَوَدَّوْنَ أَنَّهُمْ مَا نَعْتُهُمْ حُضُوتُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنزَلَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي
قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾
وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ
النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا
قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَ
الْفَلْسَفِينَ ﴿٥﴾ وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ
وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَا آفَاءَ اللَّهُ عَلَى
رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْاَقْرَبِي فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ
كُنْ لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ
فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ

وَيَدْرِهْمٌ وَأَمْوَالُهُمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ
 الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَن هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا
 يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ
 خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن
 بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ
 فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا
 يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الْكِنْدِ لَئِن أَخْرَجْتُمُنَا لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ
 وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِن
 أَخْرَجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُولِيَنَّ الْأَدْبَرَ
 ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا
 يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يَقْنَلُوكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ
 بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا
 يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾
 كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَنِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي
 أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ
 جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ
 وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَهُمْ
 أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ
 أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا
 مُّثَصَّدًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ لِنَاسٍ لَّعَلَّهُمْ

يَنْفَكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ
الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ
الْمُهَيِّمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾
هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿سَجَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوْا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنزَلَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَائَةَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَمَا آفَاةُ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦)

عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر؟ قال: سورة النضير. وقال البغوي^(١): قال المفسرون: نزلت هذه السورة في بني النضير، وذلك أن النبي ﷺ دخل المدينة، فصالحته بنو النضير على أن لا يقاتلوه ولا يقاتلوا معه، فقبل ذلك رسول الله منهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدرًا وظهر على المشركين قالت بنو النضير: والله إنه النبيّ وجدنا نعتة في التوراة، لا نردّ له رأيه، فلما غزا أحداً وهزم المسلمون ارتابوا وأظهروا العداوة لرسول الله ﷺ والمؤمنين، ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، وركب كعب بن الأشرف في أربعين راكباً من اليهود إلى مكة، فأتوا قريشاً فحالفوهم وعاقدوهم على أن تكون

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٢٨٦).

كلمتهم واحدة على محمد، ودخل أبو سفيان في أربعين، وكعب في أربعين من اليهود المسجد الحرام، وأخذ بعضهم على بعض الميثاق بين الأمتار والكعبة، ثم رجع كعب وأصحابه إلى المدينة، ونزل جبريل فأخبر النبي ﷺ بما تعاقد عليه كعب وأبو سفيان، فأمر النبي ﷺ بقتل كعب بن الأشرف فقتله محمد بن مسلمة، وكان النبي ﷺ أطلع منهم على خيانة، حين أتاهم يستعينهم في دية المسلمين الذين قتلها عمرو بن أمية الضمري في منصرفه من بئر معونة، فهموا بطرح حجر عليه من فوق الحصن، فعصمه الله وأخبره بذلك، فلما قتل كعب بن الأشرف أصبح رسول الله ﷺ وأمر الناس بالمسير إلى بني النضير، وكانوا بقرية يقال لها زهرة.

فلما سار إليهم النبي ﷺ وجدهم ينوحون على كعب بن الأشرف، فقالوا: يا محمد داهية على إثر داهية، وباكية على إثر باكية؟ قال: «نعم» قالوا: ذرنا نبكي شجوناً ثم ائتمر بأمرك، فقال النبي ﷺ: «اخرجوا من المدينة» فقالوا: الموت أقرب إلينا من ذلك، فتنادوا بالحرب وأذنوا بالقتال، ودس المنافقون عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه إليهم أن لا يخرجوا من الحصن، فإن قاتلوكم فنحن معكم ولا نخذلكم ولننصرنكم، ولئن أخرجتم لنخرجن معكم، فدرّبوا على الأزقة وحصنوها، ثم إنهم أجمعوا على الغدر برسول الله ﷺ، فأرسلوا إليه: أن أخرج في ثلاثين رجلاً من أصحابك وليخرج منا ثلاثون، حتى نلتقي بمكان نصّف بيننا وبينك، فيستمعوا منك فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا كلنا، فخرج النبي ﷺ في ثلاثين من أصحابه، وخرج إليه ثلاثون حبراً من اليهود، حتى إذا كانوا في براز من الأرض قال بعض اليهود لبعض: كيف تتخلصون إليه ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه، كلهم يحب أن يموت قبله؟ فأرسلوا إليه: كيف نفهم ونحن ستون رجلاً؟ أخرج في ثلاثة من أصحابك ونخرج إليك في ثلاثة من علمائنا فيستمعوا منك، فإن آمنوا بك آمنا كلنا بك وصدقناك، فخرج النبي ﷺ في ثلاثة من أصحابه، وخرج

ثلاثة من اليهود، واشتملوا على الخناجر وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ، فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى أخيها، وهو رجل مسلم من الأنصار، فأخبرته بما أراد بنو النضير من الغدر برسول الله ﷺ، فأقبل أخوها سريعاً حتى أدرك النبي ﷺ، فسارّه بخبرهم قبل أن يصل إليهم فرجع النبي ﷺ، فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة، فقذف الله في قلوبهم الرعب وأيسوا من نصر المنافقين، فسألوا رسول الله ﷺ الصلح فأبى عليهم إلا أن يخرجوا من المدينة، فصالحهم على الجلاء وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من أموالهم إلا الحلقة وهي السلاح، ففعلوا وخرجوا من المدينة إلى الشام إلى أذرعات وأريحا، إلا أهل بيتين منهم آل الحقيق وآل حيّ بن أخطب، فإنهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة منهم بالحيرة، فذلك قوله عز وجل: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر﴾. قال ابن عباس: من شك أن المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية. انتهى ملخصاً.

وعن قتادة قوله: ﴿يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾ جعلوا يخربونها من أجوافها، وجعل المؤمنون يخربون من ظاهرها. قال الزهري: لما صالحوا النبي ﷺ كانوا لا يعجبهم خشبة إلا أخذوها. وعن يزيد بن رومان ﴿ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء﴾ وكان لهم من الله نعمة ﴿لعذبهم في الدنيا﴾، أي: بالسيف ﴿ولهم في الآخرة عذاب النار﴾ مع ذلك. وعن مجاهد في قوله ﴿ما قطعتم من لينة﴾ قال: نخلة. قال: نهى بعض المهاجرين بعضاً عن قطع النخل وقالوا: إنما هي مغنم المسلمين، ونزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعه، وتحليل من قطعه من الإثم، وإنما قطعه وتركه بإذنه. وعن قتادة قوله: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب﴾ الآية. يقول: ما قطعتم إليها وادياً ولا سرتم إليها سيراً، وإنما كان حوائط لبني النضير، طعمة أطعمها الله رسوله. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «كانت أموال بني النضير مما

أفاء الله على رسوله مما لم يوجب المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة، فكان ينفق منها على أهله نفقة سنة، وما بقي جعله في الدراع والسلاح عدة في سبيل الله عز وجل^(١). متفق عليه.

قوله عز وجل: ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ يَبْتَغُونَ قَضَاءًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَبْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞

عن قتادة قوله: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى﴾ بلغني أنها الجزية، والخراج خراج أهل القرى. وعن مالك بن أوس بن الحدثان قال: «قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ حتى بلغ ﴿عليم حكيم﴾ ثم قال: هذه لهؤلاء؛ ثم قال: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى﴾ الآية. ثم قال: هذه الآية لهؤلاء؛ ثم قرأ: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى﴾ حتى بلغ ﴿للفقراء﴾. ﴿والذين تبوءوا الدار﴾ ﴿والذين جاؤوا من بعدهم﴾ ثم قال: استوعبت هذه الآية المسلمين عامة، فليس

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٨٨٥)، ومسلم (١٧٥٧).

أحد إلا له فيها حق، ثم قال: لئن عشت لياتين الراعي وهو يسير حمرة نصيبه لم يعرق فيها جبينه»^(١).

وقوله تعالى: ﴿والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم﴾ وهم الأنصار توطّأوا المدينة وأمنوا قبل قدوم المهاجرين عليهم ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة﴾، أي: حزاة وغيطاً وحسداً ﴿مما أوتوا﴾، أي: مما أعطى المهاجرون دونهم من الفداء ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾. وعن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «بريء من الشح من أدى الزكاة، وقرى الضيف، وأعطى في النائبة»^(٢). رواه ابن جرير. وعن أبي هريرة: «أن رجلاً من الأنصار بات به ضيف فلم يكن عنده إلا قوته وقوت صبيانه، فقال لامرأته: نومي الصبية وأطفئي المصباح، وقرّبي للضيف ما عندك، قال: فنزلت هذه الآية»^(٣).

وعن قتادة قال: ثم ذكر الله الطائفة الثالثة فقال: ﴿والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا﴾ حتى بلغ ﴿إنك رؤوف رحيم﴾ إنما أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي ﷺ، ولم يؤمروا بسبهم قال ابن كثير^(٤): وما أحسن ما استنبط الإمام مالك رحمه الله من هذه الآية الكريمة: أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفداء نصيب.

(١) أخرجه ابن جرير (٣٧/٢٨).

(٢) أخرجه ابن جرير (٤٤/٢٨)، والبيهقي في «الشعب» (٤٢٧/٧) بسند ضعيف.

وأخرجه الطبراني في الصغير (ح/١٢)، من حديث جابر رضي الله عنه - مرفوعاً، وسنده ضعيف جداً.

وبنحوه عن خالد بن زيد بن جارية مرسلًا: «ثلاث من كن فيه وقى شح نفسه: من أدى الزكاة...». الحديث أخرجه الطبراني في الكبير (١٨٨/٤) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير (٤٣/٢٨).

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣٣٩/٢٨).

قوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيَأْتِيَنَّكَ الْأَذْبَانُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقِنُّ لِيُؤْنَسُكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ ۞

عن قتادة ﴿بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾ قال: تجد أهل الباطل مختلفة شهادتهم، مختلفة أهواؤهم، مختلفة أعمالهم، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق. وعن ابن عباس قوله: ﴿كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم﴾ يعني بني قينقاع. وعن مجاهد ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر﴾ عامة الناس. وعن علي رضي الله عنه قال: «إن راهباً تعبد ستين سنة، وإن الشيطان أَرَادَهُ فَأَعْيَاهُ، فَعَمِدَ إِلَى امْرَأَةٍ فَأَجْنَهَا وَلَهَا إِخْوَةٌ، فَقَالَ لِإِخْوَتِهَا: عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقَسِّ فَيَدَاوِيهَا، فَجَاؤُوا بِهَا قَالَ: فِدَاوَاهَا وَكَانَتْ عِنْدَهُ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَوْمًا عِنْدَهَا إِذْ أَعْجَبَتْهُ، فَأَتَاهَا فَحَمَلَتْ فَعَمِدَ إِلَيْهَا فَقَتَلَهَا، فَجَاءَ إِخْوَتَهَا فَقَالَ الشَّيْطَانُ لِلرَّاهِبِ: أَنَا صَاحِبُكَ، إِنَّكَ أَعْيَيْتَنِي، أَنَا صَنَعْتُ بِكَ هَذَا فَاطْعَنِي أَنْجَلَكَ مِمَّا صَنَعْتُ بِكَ، اسْجُدْ لِي سَجْدَةً، فَسَجَدَ لَهُ فَلَمَّا سَجَدَ لَهُ قَالَ: إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ»^(١).

(١) أخرجه ابن جرير (٤٩/٢٨)، والحاكم (٤٨٤/٢ و ٤٨٥)، والبيهقي في «الشعب»

(٤/٣٧٣)، قال الحاكم: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي.

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضَرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾ ما زال ربكم يقرب الساعة حتى جعلها كغد، وغد يوم القيامة. وعن سفيان ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾ قال: نسوا حق الله ﴿فأنساهم أنفسهم﴾ قال: حظ أنفسهم. وعن ابن عباس قوله: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾ قال يقول: لو أتى أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه، تصدع وخشع من ثقله ومن خشية الله، فأمر الله عز وجل الناس إذا أنزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع، قال: ﴿كذلك يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون﴾. وقوله تعالى: ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون﴾ قال ابن جرير^(١): يقول تعالى ذكره: هو المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له، الملك الذي لا ملك فوقه ولا

(١) انظر «جامع البيان» (٥٤/٢٨).

شيء إلاّ دونه. وقال قتادة: ﴿القدّوس﴾، أي: المبارك. وقال وهب بن منبه: أي الطاهر. وقال ابن جريج: تقدّسه الملائكة. وقال قتادة في قوله: ﴿السلام﴾ الله السلام. قال ابن كثير^(١): ﴿السلام﴾، أي: من جميع العيوب والنقائص لكمالته في ذاته وصفاته وأفعاله. ﴿المؤمن﴾ قال قتادة: آمن بقوله أنه حق. وقال ابن زيد ﴿المؤمن﴾ المصدّق الموقن؛ آمن الناس بربهم فسماهم مؤمنين، وآمن الربّ الكريم لهم بإيمانهم، صدّقهم أن يسمى بذلك الاسم. وعن ابن عباس في قوله: ﴿المهيمن﴾ قال: الشهيد. وقال قتادة: ﴿الجبار﴾ الذي جبر خلقه على ما يشاء^(٢). ﴿المتكبر﴾ يعني عن كل سوء. ﴿سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣٤٢/٤).

(٢) قال ابن جرير في تفسيره (٥٥/٢٨): وقوله: (الجبار) يعني: المصلح أمور خلقه، المصرفهم فيما فيه صلاحهم...».

وإطلاق لفظ: «الجبر»، ليس أصل في الكتاب والسنة، فهو لفظ مبتدع، وإن كان القائل يريد به صحيحاً، فإثباته ونفيه لا يجوز، قال ابن تيمية — رحمه الله — في كتابه «درء تعارض العقل والنقل» (١/٦٦ — ٧١): (ولهذا ترجم الإمام أبو بكر الخلال في كتاب «السنة» فقال: الرد على القدرية وقولهم: إن الله أجبر العباد على المعاصي، ثم روى عن عمرو بن عثمان عن بقية بن الوليد قال: سألت الزبيدي والأوزاعي عن الجبر، فقال الزبيدي: أمر الله أعظم، وقدرته أعظم من أن يجبر أو يعضل، ولكن يقضي ويقدر، ويخلق ويحيل عبده على ما أحب.

وقال الأوزاعي: ما أعرف للجبر من القرآن ولا السنة، فأهاب أن أقول ذلك، ولكن القضاء، والقدر، والخلق، والجبر، فهذا يعرف في القرآن والحديث عن رسول الله ﷺ، وإنما وضعت هذا مخافة أن يرتاب رجل تابعي من أهل الجماعة والتصديق».

ثم قال ابن تيمية — رحمه الله — معلقاً على هذا الأثر: «وأما الأوزاعي فإنه منع من إطلاق هذا اللفظ، وإن عني به هذا المعنى، حيث لم يكن له أصل في الكتاب والسنة، فيفضي إلى إطلاقه لفظ مبتدع ظاهر في إرادة الباطل، وذلك لا يسوغ، وإن قيل: إنه يراد به معنى صحيح... قال الخلال: أنكر سفيان الثوري «جبر»، وقال: الله جبل العباد...».

الباريء المصوّر ﴿ قال ابن كثير: الخَلْقُ التقدير، والبرء هو الفرى وهو التنفيذ وإبراز ما قدره وقرّره إلى الوجود. وعن جابر بن زيد قال: إن اسم الله الأعظم هو «الله» ألم تسمع الله يقول: ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون﴾. وعن معقل بن يسار عن النبي ﷺ قال: «من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر، وكلّ الله به سبعين ألف ملك يصلّون عليه حتى يمسي، وإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة»^(١). رواه أحمد والترمذي. والله أعلم.



إلى أن قال: «وجواب الأوزاعي أقوم من جواب الزبيدي، لأن الزبيدي نفى الجبر، والأوزاعي منع إطلاقه، إذ هذا اللفظ قد يحتمل معنى صحيحاً، فنفية قد يقتضي نفى الحق والباطل، فإذا امتنع من إطلاق اللفظ المجمل المحتمل المشبه زال المحذور، وكان أحسن من نفيه، وإن كان ظاهراً في المحتمل المعنى الفاسد، خشية أن يظن أنه ينفي المعنيين جميعاً.

وقال المروزي: قلت لأبي عبد الله: رجل يقول: إن الله أجبر العباد فقال — يعني أحمد بن حنبل رحمه الله —: «هكذا لا نقول» وأنكر هذا، وقال: «يضل من يشاء ويهدي من يشاء»، وأنكر أبو عبد الله على علي بن رجاء عندما قال: جبر العباد، وعلى القدري حين قال: «لم يجبر». اهـ. ملخصاً، وراجع إن شئت، فهو مبحث نفيس.

(١) أخرجه أحمد (٢٦/٥)، والترمذي (ح/٢٩٢٢)، والدارمي (٤٥٨/٢)، والطبراني في «الدعاء» (ح/٣٠٨)، والبيهقي في «الشعب» (٢/٤٩٢ — ٤٩٣)، والبغوي في تفسيره (٢٩٨/٤)، بسند ضعيف جداً.

الدرس التاسع والسبعون بعد المائتين

﴿سورة الممتحنة﴾

مدنية ، وآياتها ثلاث عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخْذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ ءَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَآبِيَغَاءَ مَرْضِيَائِي فَسُرُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَتَقَوَّمْ بِكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءَ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوْءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن نَفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمُ وَلَا ءَؤُلَادَكُمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ ءُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرءُؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ ءُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ ءَآخِرَٔ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَفِيفُ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ ءَادَيْتُمْ مِنهُمْ مَوَدَّةً

وَاللَّهُ فَذِيرٌ عَظِيمٌ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ ۗ إِنَّهُنَّ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَنَّهُنَّ كَلِمَةً وَلَا هُنَّ يُحِلُّونَ لَهِنَّ وَهَاتُوهُنَّ مَا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَابَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسَأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلَسْتَلُوا مَا أَنفَقُوا ۗ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَمَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَرْوَاحُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ۗ وَأَنْفَقُوا اللَّهُ الَّذِي أَنتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِمَّنْ أَحْصَى الْقُبُورَ ﴿١٣﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُوا إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَن يَقْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوَىٰ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ .

قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير وغيره من علمائنا قال: لما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكة، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر في السير إليهم، ثم أعطاه امرأة وجعل لها جعلاً على أن تبلغه لقريش، فجعلته في رأسها ثم قتلت عليه قرونها ثم خرجت به، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام فقال: «أدركا امرأة قد كتبت معها حاطب كتاباً إلى قريش، يحذّرهم ما قد أجمعنا له من أمرهم».

فخرجوا حتى أدركاها بالحليفة - حليفة بني أبي أحمد - فاستنزلاها بالحليفة فالتمسا في رحلها فلم يجدا شيئاً، فقال لها علي بن أبي طالب: إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ وما كُذِّبنا، ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك، فلما رأت الجد منه قالت: أعرض، فأعرض فحلّت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها فدفعته إليه، فأتى به رسول الله ﷺ فدعا رسول الله ﷺ حاطباً فقال: «يا حاطب ما حملك على هذا؟» قال: يا رسول الله، والله إني لمؤمن بالله وبرسوله ما غيرت ولا بدلت، ولكني كنت امرأة ليس لي في القوم من أهل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم. فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله دعني فلاضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر؟ لعل الله قد أطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»؛ فأنزل الله عز وجل في حاطب ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة﴾ إلى قوله: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده﴾ إلى آخر القصة^(١).

قال البغوي^(٢): ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق﴾ يعني القرآن ﴿يخرجون الرسول وإياكم﴾ من مكة ﴿أن تؤمنوا﴾، أي: لأن آمتم، كأنه قال: يفعلون ذلك لإيمانكم بالله ربكم ﴿إن كنتم خرجتم﴾ هذا شرط، جوابه متقدّم وهو قوله: ﴿لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة﴾ قال مقاتل:

(١) انظر القصة في صحيح البخاري (ح/٣٠٧ و ٤٢٧٤ و ٤٨٩٠)، ومسلم (ح/٢٤٩٤).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٢٩٩).

بالنصيحة ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سِوَى السَّبِيلِ﴾ أخطأ طريق الهدى ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ﴾ يظفروا بكم ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالضرب والقتل ﴿وَأَلْسِنَتُهُمُ بِالسُّوءِ﴾ بالشتم ﴿وَوَدَّوْا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ كما كفروا، يقول: لا تناصحوهم فإنهم لا يناصحونكم ولا يوادونكم. ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ الذين عصيتهم الله لأجلهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ﴾ فيدخل أهل طاعته الجنة وأهل معصيته النار ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه ﴿من أهل الإيمان﴾ إذ قالوا لقومهم ﴿من المشركين﴾ إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم ﴿جحدنا وأنكرنا دينكم﴾ وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴿يأمر حاطباً والمؤمنين بالاعتداء بإبراهيم عليه الصلاة والسلام والذين معه من المؤمنين في التبرؤ من المشركين﴾ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك ﴿يعني لكم أسوة حسنة في إبراهيم وأموره إلا في استغفاره لأبيه المشرك، فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان قد قال لأبيه: لأستغفرنّ لك ثم تبرأ منه﴾ وما أملك لك من الله من شيء ﴿يقول إبراهيم لأبيه: ما أغني عنك ولا أدفع عنك عذاب الله إن عصيته وأشركت به﴾ ربنا عليك توكلنا ﴿يقوله إبراهيم ومن معه من المؤمنين: وإليك أنبنا وإليك المصير ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا﴾ قال الزجاج لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على الحق فيفتنوا. وقال مجاهد: لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولون: لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم ذلك، ﴿واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم﴾. ﴿لقد كان لكم فيهم﴾، أي: في إبراهيم ومن معه ﴿أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ هذا بدل من قوله ﴿لكم﴾، وبيان أن هذه الأسوة لمن يخاف الله ويخاف عذاب الآخرة ﴿ومن يتول﴾ يُعرض عن الإيمان ويوالي الكفار ﴿فإن الله هو الغني الحميد﴾ عن خلقه ﴿الحميد﴾ إلى أوليائه وأهل طاعته. اهـ. ملخصاً.

قال ابن كثير^(١) وقوله تعالى ومن يتولّ، أي: عما أمره الله به ﴿فإن الله هو الغنيّ الحميد﴾ كقوله تعالى: ﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغنيّ حميد﴾^(٢). وقال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس: «الغنيّ الذي قد كمل في غناه وهو الله، هذه صفة لا تنبغي إلاّ له، ليس له كفؤ وليس كمثلته شيء سبحان الله الواحد القهار، والحميد: المستحمد إلى خلقه، أي: هو المحمود في جميع أقواله وأفعاله لا إله غيره ولا ربّ سواه».

قوله عز وجل: ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنِّيهِمْ مَّوَدَّةً ۗ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَا يَنْهَكُكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾».

قال ابن زيد في قوله: ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتهم منهم مودة﴾ قال: هؤلاء المشركون وقد فعل، قد أدخلهم الله في السلم وجعل بينهم مودة حين كان الإسلام حين الفتح. وقال البغوي^(٣): قال مقاتل: فلما أمر الله المؤمنين بعبادة الكفار عادى المؤمنون أقرباؤهم المشركين وأظهروا لهم العداوة والبراءة، فعلم الله شدة وجد المؤمنين بذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتهم منهم﴾، أي: من كفار مكة مودة، ففعل الله ذلك بأن أسلم كثير منهم، فصاروا لهم أولياء وإخواناً وخالطوهم وناكحوهم ﴿والله قدير والله غفور رحيم﴾.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٣٤٨).

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٨.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٠٢).

ثم رخص الله عز وجل في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوه
فقال: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم
أن تبرؤهم﴾، أي: لا ينهاكم الله عن برّ الذين لم يقاتلوكم ﴿وتقسطوا إليهم﴾
تعدلوا فيهم بالإحسان والبرّ ﴿إن الله يحبّ المقسطين﴾. قال ابن عباس: نزلت في
خزاعة، كانوا قد صالحوا النبي ﷺ على أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحداً،
فرخص الله في برّهم. وعن مجاهد ﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين﴾
قال: كفار أهل مكة.

قوله عز وجل: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ
فَأَمْتَحِنُوهُنَّ ۗ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۗ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ جِلَّ لَهُمْ
وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَانَيْتُمُوهُنَّ بِجُورِهِنَّ
وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ بِعَصِمِ الْكُوفَرِ وَسَأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلَسْتَلُوا مَا أَنفَقُوا ۗ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَخَكِّمُ
بَيْنَكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا
الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَرْوَاحُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ۗ وَآتُوا اللَّهَ الَّذِي آتَيْتُمْ بِهِهُ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ۝

عن أبي نضرة الأسدي قال: سئل ابن عباس: كيف كان امتحان
رسول الله ﷺ النساء؟ قال: «كان يمتحنهنّ بالله ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما
خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، وبالله ما خرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجت
إلاً حبّاً لله ورسوله»^(١). وعن المسور بن مخرمة ومروان [بن الحكم] - في قصة
الحديبية - قالوا: «لما كاتب سهيل بن عمرو يومئذٍ، كان فيما اشترط سهيل بن
عمرو على النبي ﷺ: أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلاّ رددته إلينا
وخلّيت بيننا وبينه، فكره المؤمنون ذلك وأبى سهيل إلاّ ذلك، فكاتبه النبي ﷺ
على ذلك، فردّ النبي ﷺ يومئذٍ أبا جندل إلى أبيه سهيل بن عمرو، ولم يأته أحد

(١) أخرجه ابن جرير (٦٧/٢٨).

من الرجال إلا رده في تلك المدة وإن كان مسلماً، وجاءت المؤمنات مهاجرات، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذ مهاجرة وهي عاتق، فجاء أهلها يسألون النبي ﷺ أن يرجعها إليهم فلم يرجعها إليهم لما أنزل الله فيهن ﴿إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن﴾^(١). وعن مجاهد ﴿وآتوهم ما أنفقوا﴾ وآتوا أزواجهن صدقاتهن.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿ولا جناح عليكم أن تنكحوهن﴾ ولها زوج، ثم لأنه فرق بينهما الإسلام، إذا استبرأتم أرحامهن، ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾ قال الزهري: فطلق عمر امرأتين كانتا له بمكة، وعن مجاهد في قول الله: ﴿واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا﴾ قال: ما ذهب من أزواج أصحاب محمد ﷺ إلى الكفار فليعطهم الكفار صدقاتهن وليمسكوهن، وما ذهب من أزواج الكفار إلى أصحاب النبي ﷺ بمثل ذلك في صلح كان بين محمد ﷺ وبين قريش ﴿ذلك حكم الله يحكم بينكم﴾ قال الزهري: فأمسك رسول الله النساء ورد الرجال، وسأل الذي أمره الله أن يسأل من صدقات النساء من حبسوا منهن وأن يردوا عليهم مثل الذي يردون عليهم إن هم فعلوا ولولا الذي حكم الله به من هذا الحكم رد رسول الله ﷺ النساء كما رد الرجال، ولولا الهدنة والعهد الذي كان بينه وبين قريش يوم الحديبية أمسك النساء ولم يرد إليهم صداقاً، وكذلك يصنع بمن جاءه من المسلمات قبل العهد. قال الزهري: أما المؤمنون فأقرؤا بحكم الله، وأما المشركون فأبوا أن يقرؤا فأنزل الله عز وجل: ﴿وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتهم فآتوا الذين ذهب أزواجهم مثل ما أنفقوا﴾ فأمر الله المؤمنين أن يردوا الصداق إذا ذهبت امرأة من المسلمين ولها زوج، أن يرد المسلمون إليه صداق امرأته من صداق، إن كان في أيديهم، مما أمروا أن يردوا إلى المشركين.

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٢٧١١ و ٢٧١٢).

قال مجاهد ﴿فعاقتهم﴾ أصبتم غنيمة من قريش أو غيرهم ﴿فأتوا الذين ذهبوا أزواجهم مثل ما أنفقوا﴾ يعني مهر مثلها. قال ابن كثير^(١): وهذا لا ينافي الأول، لأنه إن أمكن الأول فهو الأول، وإلا فمن الغنائم التي تؤخذ من أيدي الكفار.

قوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعَنَّكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسُؤُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبِئَسَ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٧﴾﴾.

عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية: ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يباعدنك﴾ إلى قوله: ﴿غفور رحيم﴾ فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتك كلاماً»، ولا والله ما مسّت يده يد امرأة في المبايعة قط، ما يباعدنك إلا بقوله: «قد بايعتك على ذلك»^(٢). رواه البخاري. وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: جاءت أميمة بنت ربيعة إلى رسول الله ﷺ تباعده على الإسلام فقال: «أبايعك على أن لا تشركي بالله شيئاً، ولا تسرقني، ولا تزني، ولا تقتلي ولدك، ولا تأتي بهتان فتفترينه بين يديك ورجليك، ولا تنوحني، ولا تبرّجي تبرّج الجاهلية الأولى»^(٣). وعن ابن عباس قوله: ﴿ولا يأتيهن بهتان يفتريهن بين أيديهن وأرجلهن﴾ يقول: لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن. وقال البغوي^(٤): ليس المراد منه نهيهن عن

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣٥٢/٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٨٨) تعليقاً، ومسلم (ح/١٨٦٦).

(٣) أخرجه أحمد (١٩٦/٢) بسند حسن.

(٤) انظر: «معالم التنزيل» (٣٠٥/٥).

الزنا، لأن النهي عن الزنا قد تقدم ذكره، بل المراد منه أن تلتقط مولوداً وتقول لزوجها: هذا ولدي منك؛ فهو البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن، لأن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها.

وعن ابن عباس قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾ يعني من مات من الذين كفروا فقد يئس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم، أو يبعثهم الله. وقال الحسن: الكفار الأحياء قد يئسوا من الأموات. وعن مجاهد في قوله: ﴿قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾ قال: من ثواب الآخرة، حين تبين لهم عملهم وعابنوا النار. قال ابن كثير^(١): ينهى تبارك وتعالى عن موالاته الكافرين في آخر هذه السورة كما نهى عنها في أولها فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم﴾ يعني اليهود والنصارى وسائر الكفار، ممن غضب الله عليه ولعنه، فكيف توالوا منهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء و﴿قد يئسوا من الآخرة﴾، أي: من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله عز وجل.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٣٥٦).

الدرس الثمانون بعد المائتين

﴿سورة الصف﴾

مدنية، وآياتها أربع عشرة آية

عن عبد الله بن سلام قال: «تذاكرنا: أيكم يأتي رسول الله ﷺ فيسأله، أي الأعمال أحب إلى الله؟ فلم يبق أحد منا، فأرسل رسول الله ﷺ إلينا رجلاً رجلاً فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة»^(١)، رواه أحمد.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا
تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانْتَهُم بَيِّنِينَ
مَرْتَضُونَ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْلَمُونَ
رَسُولَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾
وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ
وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ
أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين ﴿٧﴾

(١) أخرجه أحمد (٤٥٢/٥)، والترمذي (ح/٣٣٠٩).

يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُنِمْ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ
رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينٍ الْمَعْقُوبِ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
هَلْ أَذُكُّكُمْ عَلَىٰ بَعْزِكُمْ تُنَجِّيْكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُوَمِّنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَبِأَنَّكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِر لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْمَوْزِعُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ يُحِبُّونَهَا
نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ
عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ مَن أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَنَامَنَّا طَائِفَةٌ
مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَنِينَ مَرْصُوصًا ﴿٤﴾ .

عن ابن عباس في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن الله دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمله، فأخبر الله نبيه: أن أحب الأعمال إليه إيمان بالله لا شك فيه، وجاهد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقرؤا به، فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين وشق عليهم أمره، فقال الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾^(١). وعن مجاهد في قول الله: ﴿لم تقولون ما لا تفعلون﴾ إلى قوله: ﴿مرصوص﴾ فيما بين ذلك، في نفر من الأنصار فيهم عبد الله بن رواحة، قالوا في مجلس: لو نعلم، أي الأعمال أحب إلى الله لعملنا بها حتى نموت، فأنزل الله هذا فيهم، فقال عبد الله بن رواحة: لا أزال حبيساً في سبيل الله حتى أموت، فقتل شهيداً. وعن قتادة قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ يؤذّبهم ويعلمهم كما تسمعون ﴿كبر مقتاً عند الله﴾ وكانت رجال تخبر في القتال بشيء لم يفعلوه ولم يبلغوه، فوعظهم الله في ذلك موعظة بليغة.

قال ابن كثير^(٢): وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ إنكار على من يعد وعداً أو يقول قولاً لا يفي به، ولهذا استدلّ بهذه الآية الكريمة، من

(١) أخرجه ابن جرير (٨٣/٢٨)، بسند ضعيف.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣٥٧/٤).

ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً، سواء ترتب عليه عزم للموعد أم لا، واحتجوا أيضاً من السنة بما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا وعد أخلف، وإذا حدث كذب، وإذا أؤتمن خان»^(١).

وقوله تعالى: ﴿كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ قال البغوي^(٢): أي، عظم ذلك في المقت والبغض عند الله، أي: إن الله يبغض بغضاً شديداً أن تقولوا ما لا تفعلون، بأن تعدوا من أنفسكم شيئاً ثم لم تفوا به؛ ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً﴾، أي: يصفون أنفسهم عند القتال صفاً ولا يزولون عن أماكنهم ﴿كانهم بنيان مرصوص﴾. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يضحك الله إليهم: الرجل يقوم من الليل، والقوم إذا صفوا في الصلاة، والقوم إذا صفوا للقتال»^(٣). رواه أحمد وابن ماجه. وقال قتادة: ﴿كانهم بنيان مرصوص﴾ ألم تر إلى صاحب البنيان كيف لا يحب أن يختلف بنيانه، كذلك الله تبارك وتعالى لا يحب أن يختلف أمره، وإن الله وصف المؤمنين في قتالهم وصفهم في صلاتهم، فعليكم بأمر الله فإنه عصمة لمن أخذ به.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لِقَوْمٍ آلْفَنسِينَ ۗ وَإِذْ قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعَنِ إِسْرَءِيلَ يَنْبِيَّ ۗ أَوْ لِمَ تُؤَدُّونَنِي وَقَدْ كَفَرْتُمْ بِي وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ۗ وَإِذْ قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَخَذْتُكِ بِالْحَبْلِ الْعَظِيمِ ۗ وَإِذْ قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَخَذْتُكِ بِالْحَبْلِ الْعَظِيمِ ۗ وَإِذْ قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَخَذْتُكِ بِالْحَبْلِ الْعَظِيمِ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ ۗ﴾

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣٠٧/٤ - ٣٠٨).

(٣) أخرجه أحمد (٨٠/٣)، وابن ماجه (ح/٢٠٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢٢١/٢)،

بسند ضعيف.

الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيطْهَرَهُ عَلَىٰ الَّذِينَ كُفِرَ عَلَيْهِمْ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ .

قال ابن كثير^(١): يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى بن عمران عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿لم تؤذوني وقد تعلمون أنني رسول الله إليكم﴾، أي: لم تصلون الأذى إليّ وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة؟ وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم، وأمر له بالصبر ولهذا قال: «رحمة الله على موسى، لقد أؤذي بأكثر من هذا فصبر»^(٢) وفيه نهي للمؤمنين أن ينالوا من النبي ﷺ، أو يوصلوا إليه أذى، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾، أي: فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى وأسكنها الشك والحيرة والخذلان، كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾^(٥)، ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾.

وقوله تعالى: ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يديّ من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ يعني التوراة قد بشرت بي وأنا مصداق ما أخبرت عنه، وأنا مبشّر بمن بعدي وهو

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٣٥٩).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٦٩.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١١٠.

(٥) سورة النساء: الآية ١١٥.

الرسول النبيّ الأميّ العربيّ المكيّ أحمد، فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في ملاء بني إسرائيل مبشراً بمحمد، وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا رسالة بعده ولا نبوة. وفي الصحيحين عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»^(١)؛ وقد قال الله تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبيّ الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾^(٢) الآية. وقال محمد بن إسحاق حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى ابن مريم، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام»^(٣).

﴿فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام﴾ قال ابن كثير^(٤) يقول تعالى: أي ألا أحد أظلم ممن يفترى الكذب على الله ويجعل له أنداداً وشركاء، وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص، ولهذا قال تعالى: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾. ثم قال تعالى: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم﴾، أي: يحاولون أن يردّوا الحقّ بالباطل، ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفىء شعاع الشمس بفيه، وكما أن هذا مستحيل كذلك ذلك مستحيل، ولهذا قال تعالى: ﴿والله متمّ نوره ولو كره الكافرون، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون﴾.

(١) أخرجه البخاري (ح/٣٥٣٢ و٤٨٩٦)، ومسلم (ح/٢٣٥٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) المصدر السابق (٤/٣٦٠).

قال ابن جرير^(١): يقول تعالى ذكره: الله ﴿الذي أرسل رسوله﴾ محمداً ﴿بالهدى ودين الحق﴾ يعني ببيان الحق ﴿ودين الحق﴾ يعني وبدين الله وهو الإسلام، وقوله: ﴿ليظهره على الدين كله﴾ يقول: ليظهر دينه الحق الذي أرسل به رسوله على كل دين سواه، وذلك عند نزول عيسى ابن مريم، وحين تصير الملة واحدة، فلا يكون دين غير الإسلام، كما حدثنا ابن حميد قال: حدثنا مهرا بن سفيان عن أبي المقدم ثابت بن هرم عن أبي هريرة: ﴿ليظهره على الدين كله﴾ قال: خروج عيسى ابن مريم.

قوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذَلُّكُمْ عَلَىٰ تَجَارِعِكُمْ مِنَ عَذَابِ آلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِر لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَيَسِّرُ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارًا لِلَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَمَا مَنَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾

عن قتادة قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم﴾ فلولا أن الله بيئها ودل عليها المؤمنين لتلهف عليها رجال أن يكونوا يعلمونها، وقد دللكم الله عليها وأعلمكم إياها فقال: ﴿تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ قال ابن كثير^(٢): أي من تجارة الدنيا والكذب لها والتصدّي لها وحدها. ثم قال تعالى: ﴿يغفر لكم ذنوبكم﴾، أي: إن فعلتم ما أمرتكم به ودللتكم عليه غفرت لكم

(١) انظر «جامع البيان» (٨٨/٢٨).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٣٦٢).

الزلاّت، وأدخلتكم الجنّات والمسكن الطيّبات والدرجات العاليات، ولهذا قال تعالى: ﴿ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومسكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم﴾. ثم قال تعالى: ﴿وأخرى تحبونها﴾، أي: وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها وهي: ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾، أي: إذا قاتلتم في سبيله ونصرتهم دينه تكفل الله بنصركم، قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾، ﴿ولينصركم الله من ينصره إن الله لقويّ عزيز﴾.

وقوله تعالى: ﴿وفتح قريب﴾، أي: عاجل، فهذه الزيادة هي: خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة لمن أطاع الله ورسوله ونصر الحقّ ودينه، ولهذا قال تعالى: ﴿وبشّر المؤمنين﴾. وعن قتادة: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريّين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله﴾ قال: قد كانت لله أنصار من هذه الأمة تجاهد على كتابه وحقّه، وذكر لنا أنه بايعه ليلة العقبة اثنان وسبعون رجلاً من الأنصار، ذكر لنا أن بعضهم قال: هل تدرّون علام تبايعون هذا الرجل؟ إنكم تبايعونه على محاربة العرب كلّها أو يسلموا. ذكر لنا أن رجلاً قال: يا نبيّ الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت قال: «أشترط لربّي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما منعتم منه أنفسكم وأبناءكم»، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا يا نبيّ الله؟ قال: «لكم النصر في الدنيا والجنة في الآخرة»، ففعلوا ففعل الله^(١). وقال: إن الحواريّين كلّهم من قريش: أبو بكر، وعمر، وعليّ، وحزمة، وجعفر، وأبو عبيدة، وعثمان بن مظعون، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعثمان، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام. وعن مجاهد في قوله: ﴿من أنصاري إلى الله﴾ قال: من يتبعني إلى الله؟ ﴿قال الحواريون نحن أنصار الله فأمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين﴾ عن مجاهد: ﴿فأيدنا

(١) أخرجه ابن جرير (٩١/٢٨)، عن قتادة مرسلًا.

الذين آمنوا على عدوهم ﴿ قال: قوينا: ﴿ فأصبحوا ظاهرين ﴾ من آمن مع عيسى ﷺ. قال النخعي: أصبحت حجة من آمن بعيسى ظاهرة بتصديق محمد ﷺ كلمة الله وروحه.

وعن ابن عباس قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج إلى أصحابه - وهم في بيت اثنا عشرة رجلاً - من عين في البيت ورأسه يقطر ماء فقال: إن منكم من سيكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي، ثم قال: أيكم يلقى عليه شبيهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سناً فقال: أنا، فقال له: اجلس، ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا، قال: نعم أنت ذاك، فألقي عليه شبه عيسى، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء، وجاء الطلب من اليهود وأخذوا شبهه فقتلوه وصلبوه، وكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به، فتفرقوا ثلاث فرق، فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء اليعقوبية؛ وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه إليه، وهؤلاء النسطورية؛ وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء المسلمون؛ فتظاهرت الطائفتان الكافرتان على المسلمة فقتلواها، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ: ﴿ فأمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة ﴾ يعني الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى والطائفة التي آمنت في زمن عيسى: ﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ في إظهار محمد دينهم على دين الكفار: ﴿ فأصبحوا ظاهرين ﴾^(١).



(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٤٨٩/٦)، وابن جرير (٩٢/٢٨).

الدرس الحادي والثمانون بعد المائتين

﴿سورة الجمعة﴾

مدنية، وهي إحدى عشرة آية

روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة سورة الجمعة والمنافقين»^(١).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لِنِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَمَنَّوَنَّهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الَّذِي تُقَرَّرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ

(١) أخرجه مسلم (ح/٨٧٧).

وَالشَّهَدَةَ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ
الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِنَ رَسُوْلًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ
وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْل لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ
مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو
الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾.

عن قتادة: ﴿هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم﴾ قال: كان هذا الحي من العرب امة امية ليس فيها كتاب يقرؤونه، فبعث الله نبيه محمداً ﷺ رحمة وهدى يهديهم به ﴿يتلو عليهم آياته ويزكيهم﴾ قال ابن جرير^(١) يقول: ويطهرهم من دنس الكفر ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ قال قتادة: السنة. وقال ابن زيد: ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ كما صنع بالاولين ﴿وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ قال ابن كثير^(٢): وذلك ان العرب كانوا قديماً متمسكين بدين ابراهيم الخليل عليه السلام، فبدلوه وغيروه وقلبوه وخالفوه، واستبدلوا بالتوحيد شركاً وباليقين شكاً، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم وحرّفوها وغيروها وأولوها، فبعث الله محمداً صلوات الله وسلامه عليه بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق، فيه هدايتهم والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من معاشهم ومعادهم، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ورضا الله عنهم، والنهي عما يقربهم إلى النار وسخط الله تعالى، حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب في الأصول والفروع.

(١) انظر (جامع البيان) (٩٤/٢٨).

(٢) انظر (تفسير القرآن العظيم) (٣٦٣/٤).

وعن مجاهد في قوله: ﴿وآخرين منهم لم يلحقوا بهم﴾ قال: الأعاجم. وعن أبي هريرة قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فنزلت عليه سورة الجمعة، فلما قرأ: ﴿وآخرين منهم لم يلحقوا بهم﴾ قال رجل من هؤلاء: يا رسول الله، قال: فلم يراجعه النبي ﷺ حتى سأله مرتين أو ثلاثاً، قال: وفينا سلمان الفارسي، فوضع النبي ﷺ يده على سلمان فقال: «لو كان الإيمان عند الثريا، لناله رجال من هؤلاء»^(١). رواه ابن جرير. وقال ابن زيد: «هؤلاء» كل من كان بعد النبي ﷺ إلى يوم القيامة، كل من دخل في الإسلام من العرب والعجم. وعن مجاهد في قول الله: ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾ قال: من ردف الإسلام من الناس كلهم. وعن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في أصلاب أصلاب أصلاب رجال ونساء من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب، ثم قرأ: ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾»، يعني: بقية من بقي من أمة محمد ﷺ^(٢). رواه ابن أبي حاتم. قال في جامع البيان: وكل من أسلم صار منهم، قال: المسلمين كلهم أمة واحدة.

قال ابن كثير^(٣) وقوله تعالى: ﴿وهو العزيز الحكيم﴾، أي: ذو العزة والحكمة في شرعه وقدره. وقوله تعالى: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾، يعني: ما أعطاه محمداً ﷺ من النبوة العظيمة، وما خص به أمته من بعثه ﷺ.

قوله عز وجل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٦٦﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ

(١) سبق تخريجه وهو في الصحيحين.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما عزاه ابن كثير في تفسيره (٤/٣٦٤).

(٣) المصدر السابق (٤/٣٦٤).

النَّاسِ فَتَمَنُّوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿مثل الذين حُمَلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾ قال: يحمل كتاباً لا يدري ماذا عليه ولا ماذا فيه. قال الضحاك: ضرب الله هذا مثلاً للذين أعطوا التوراة ثم كفروا. وقال ابن عباس: والأسفار الكتب، فجعل الله مثل الذي يقرأ الكتاب ولا يتبع ما فيه كمثل الحمار يحمل كتاب الله الثقيل لا يدري ما فيه، ثم قال: ﴿بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله﴾ الآية. وفي الحديث الصحيح: «من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفارا»^(١).

قال ابن كثير^(٢): ثم قال تعالى: ﴿قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾، أي: إن كنتم تزعمون أنكم على هدى، وأن محمداً وأصحابه على ضلالة، فادعوا بالموت على الضال من الفتنين ﴿إن كنتم صادقين﴾، أي: فيما تزعمونه؛ قال الله تعالى: ﴿ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم﴾، أي: بما يعملون لهم من الكفر والظلم والفجور ﴿والله عليم بالظالمين﴾.

وقوله تعالى: ﴿قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾، كقوله تعالى: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾^(٣) قال قتادة: إن الله أذل ابن آدم بالموت. وفي معجم الطبراني عن الحسن عن سمرة مرفوعاً: «مثل الذي يفر من

(١) أخرجه أحمد (٢٣٠/١)، وابن أبي شيبة (١٢٥/٢)، والطبراني (٩٠/١٢)، بسند ضعيف.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣٦٤/٤).

(٣) سورة النساء: الآية ٧٨.

الموت كمثل الثعلب تطلبه الأرض بدين فجاء يسعى، حتى إذا أعيا وانبهر دخل جحره فقالت له الأرض: يا ثعلب ديني، فخرج له حصاص، فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه فمات^(١).

قوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله﴾ والسعي يا ابن آدم أن تسعى بقلبك وعملك، وهو السير إليها. وعن سالم بن عبد الله قال: كان عمر رضي الله عنه يقرأها: فامضوا إلى ذكر الله. وقال ابن زيد: إذا سمعتم الدعاء الأول فأجيبوا إلى ذلك وأسرعوا ولا تبطئوا، ولم يكن في زمان النبي ﷺ إلا أذانان: أذان حين يجلس على المنبر، وأذان حين تقام الصلاة. وعن سعيد بن المسيب: ﴿إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله﴾ قال: فهي موعظة الإمام. وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من اغتسل يوم الجمعة ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر»^(٢). وعن أبي أيوب الأنصاري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(١) أخرجه الراهرمزي في «أمثال الحديث» (ح/٧٢)، والطبراني (٢٢٢/٧) بسند ضعيف

(٢) أخرجه البخاري (ح/٨٨١)، ومسلم (ح/٨٥٠).

«من اغتسل يوم الجمعة، ومسّ من طيب أهله إن كان عنده، ولبس من أحسن ثيابه، ثم خرج حتى يأتي المسجد فيركع إن بدا له، ولم يؤذ أحداً، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلي، كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى»^(١). رواه أحمد.

قال ابن كثير^(٢): اتفق العلماء رضي الله عنهم على تحريم البيع بعد النداء الثاني وقال: فأما النداء الأول الذي زاد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، فإنما كان هذا لكثرة الناس، كما رواه البخاري عن السائب بن يزيد قال: كان النداء يوم الجمعة أوّله إذا جلس الإمام على المنبر، على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما كان عثمان بعد زمن وكثر الناس، زاد النداء الثاني على الزوراء، يعني: يؤدّن على الدار التي تسمى الزوراء، وكانت أرفع دار بالمدينة بقرب المسجد^(٣).

وعن الضحاك في قوله: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض﴾ قال: هذا إذن من الله، فمن شاء خرج ومن شاء جلس. وقال ابن زيد: أذن الله لهم إذا فرغوا من الصلاة فقال: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾. وكان عراك بن مالك إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال: «اللهم إني أجتب دعوتك، وصلّيت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين». وعن أبي مالك قال: «قدم دحية بن خليفة بتجارة زيت من الشام، والنبويّ ﷺ يخطب يوم الجمعة، فلما رأوه قاموا إليه بالبيع، خشوا أن يُسبّقوا إليه، قال: فنزلت ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انقضوا إليها

(١) أخرجه أحمد (٤٢٠/٥ - ٤٢١)، والطبراني (٤/١٦٠ - ١٦١)، وهو حديث صحيح، وفي الباب من حديث أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وأبي ذر، وعبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٢) المصدر السابق (٤/٣٦٧).

(٣) أخرجه البخاري (برقم ٩١٣).

وتركوك قائماً»^(١). وعن جابر ابن عبد الله قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في الجمعة، فمرّت غير تحمل الطعام، فخرج الناس إلّا اثني عشر رجلاً، فنزلت آية الجمعة»^(٢). قال قتادة: لو اتّبع آخرهم أولهم لألتهب عليهم الوادي ناراً. وعن مجاهد قال: اللهم الطبل. وروى أبو داود في المراسيل عن مقاتل بن حيان قال: «كان رسول الله ﷺ يصلي يوم الجمعة قبل الخطبة مثل العيدين، حتى إذا كان يوم والنبي ﷺ يخطب وقد صلّوا الجمعة قبل الخطبة مثل العيدين، حتى إذا كان يوم والنبي ﷺ يخطب وقد صلّوا الجمعة، فدخل رجل فقال: إن دحية بن خليفة قد قدم بتجارة، يعني: فانفضّوا ولم يبق معه إلّا نفر يسير».

قال ابن كثير^(٣) وقوله تعالى: ﴿قل ما عند الله﴾، أي: الذي عند الله من الثواب في الدار الآخرة ﴿خير من اللّهُ من التجارة والله خير الرازقين﴾، أي: لمن توكل عليه وطلب الرزق في وقته.



(١) أخرجه ابن جرير (١٠٣/٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٩٣٦ و ٢٠٥٨ و ٢٠٦٤ و ٤٨٩٩)، ومسلم (ح/٨٦٣).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣٦٨/٤).

الدرس الثاني والثمانون بعد المائتين

﴿سورة المنافقون﴾

مدنية، وهي إحدى عشرة (١) آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ
وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ أَخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ
اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ
لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهم
خُشِبٌ مُّسْنَدَةٌ يُحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ فَنَلَّهمُ اللَّهُ أَنَّى
يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ
يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ
لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا
تُفِضُوا عَلَيَّ مِن عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ حَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ
الْأَعْرَضُ مِنَّا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالِكُمْ وَلَا أَوْلَادِكُمْ عَن ذِكْرِ

(١) في (الأصل): «إحدى عشر»، وهو خطأ، والصواب ما أثبت.

اللَّهُ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ
أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن
مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١﴾ وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهمُ خَشَبٌ مُسْتَدَدٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ فَنَلَّهمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤفَكُونَ ﴿٤﴾ .

قال البغوي^(١): ﴿ إذا جاءك المنافقون ﴾، يعني: عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه ﴿ قالوا نشهد أنك لرسول الله والله يعلم أنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ لأنهم أضمرنا خلاف ما أظهروا و ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة ﴾ ستره ﴿ فصدوا عن سبيل الله ﴾ منعوا الناس عن الجهاد والإيمان بمحمد ﷺ ﴿ إنهم ساء ما كانوا يعملون ذلك بأنهم آمنوا ﴾ أقرؤا باللسان ﴿ ثم كفروا ﴾ إذا خلوا إلى المشركين ﴿ فطبع على قلوبهم ﴾ بالكفر ﴿ فهم لا يفقهون ﴾ الإيمان ﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ﴾، يعني: أن لهم أجساماً ومناظر ﴿ وإن يقولوا تسمع لقولهم ﴾ فتحسب أنه صدق. قال عبد الله بن عباس: كان عبد الله بن أبي جسيماً فصيحاً ذلق اللسان، فإذا قال سمع النبي ﷺ قوله: ﴿ كأنهم خشب مستدء ﴾ أشباح بلا أرواح، وأجسام بلا أحلام ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ﴾، أي: لا يسمعون صوتاً في العسكر، بأن نادى مناد، أو انفلتت دابة، أو أنشدت ضالة إلاً ظنوا من جنبهم وسوء ظنهم أنهم يرادون بذلك، وظنوا أنهم قد أتوا لما في قلوبهم من الرعب. ثم

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣١٨).

قال: ﴿هم العدو﴾ هذا ابتداء، وخبره ﴿فاحذرهم﴾ ولا تأمنهم ﴿قاتلهم الله﴾ لعنهم الله ﴿أني يؤفكون﴾ يصدفون عن الحق. وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن للمنافقين علامات يُعرفون بها: تحيَّتهم لعنة، وطعامهم نهباً، وغنيمتهم غلول، ولا يقربون المساجد إلاَّ هجرأً، ولا يأتون الصلاة إلاَّ دبرأً، مستكبرين لا يألِفون ولا يؤلِفون، خشب بالليل، صخب بالنهار»^(١). رواه أحمد.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا نُسْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لِنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

قال ابن إسحاق: ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة - يعني مرجعه من أحد - وكان عبد الله بن أبي سلول له مقام يقومه كل جمعة، لا ينكر شرفاً له من نفسه ومن قومه، وكان فيهم شريفاً، إذا جلس النبي ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام فقال: أيها الناس هذا رسول الله بين أظهركم، أكرمكم الله به وأعزكم به فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس؛ حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع - يعني مرجعه بثلاث الجيش - ورجع الناس، قام يفعل ذلك كما كان يفعله، فأخذ المسلمون بشيابه من نواحيه وقالوا: اجلس أي عدو الله، لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت، فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: والله لكأنما قلت بحراً

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٩٣) بسند ضعيف.

أن قمت أشدد أمره، فلقية رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا: ويلك مالك؟ قال: قمت أشدد أمره فوثب عليّ رجال من أصحابه يجذبونني ويعتفونني، لكنما قلت بحراً أن قمت أشدد أمره قالوا: ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ، قال: والله ما أبتغي أن يستغفر لي.

وقال قتادة: «أنزلت هذه الآية في عبد الله بن أبيّ، وذلك أن غلاماً من قرابته انطلق إلى رسول الله ﷺ فحدّثه بحديث عنه وأمر شديد، فدعاه رسول الله ﷺ فإذا هو يحلف بالله ويتبرأ من ذلك، وأقبلت الأنصار على ذلك الغلام فلاموه وعذلوه، وأنزل الله فيه ما تسمعون، وقيل لعبد الله: لو أتيت رسول الله ﷺ، فجعل يلوي رأسه أي لست فاعلاً»^(١).

وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق: حدّثني محمد بن يحيى ابن حبان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة في قصة بني المصطلق: فيينا رسول الله ﷺ مقيم هناك، اقتتل على الماء جهجاه بن سعيد الغفاريّ - وكان أجيّراً لعمر بن الخطاب - وسان بن يزيد، قال ابن إسحاق: فحدّثني محمد بن يحيى ابن حبان قال: ازدحما على الماء فاقتتلا، فقال سنان: يا معشر الأنصار، وقال الجهجاه: يا معشر المهاجرين، وزيد بن أرقم ونفر من الأنصار عند عبد الله بن أبيّ، فلما سمعها قال قد شااورونا في بلادنا، والله ما مثّلنا وجلايب قريب هذه إلّا كما قال القائل: سمّن كلبك يأكلك، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ، ثم أقبل على من عنده من قومه وقال: هذا ما صنعتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو كففتهم عنهم لتحوّلوا عنكم من بلادكم إلى غيرها؛ فسمعها زيد بن أرقم رضي الله عنه، فذهب بها إلى رسول الله ﷺ وهو غلّيمٌ، وعنده عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأخبره الخبر فقال عمر: يا رسول الله مر عبّاد بن بشر فليضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ:

(١) أخرجه ابن جرير (١١٣/٢٨).

«فكيف إذا تحدّث الناس يا عمر أن محمداً يقتل أصحابه؟ لا، ولكن نادِ يا عمر بالرحيل».

فلما بلغ عبد الله بن أبيّ أن ذلك قد بلغ رسول الله ﷺ، أتاه فاعتذر إليه وحلف بالله ما قال ما قال عليه زيد بن أرقم، وكان عند قومه بمكان فقالوا: يا رسول الله عسى أن يكون هذا الغلام أوهم ولم يثبت ما قال الرجل؛ وراح رسول الله ﷺ مهجراً في ساعة كان لا يروح فيها، فلقبه أسيد بن الحضير رضي الله عنه فسلم عليه بتحية النبوة ثم قال: والله لقد رحمت في ساعة منكراً ما كنت تروح فيها! فقال رسول الله ﷺ: «أما بلغك ما قال صاحبك ابن أبيّ؟ زعم أنه إذا قدم المدينة سيخرج الأعرز منها الأذل»، قال: فأنت يا رسول الله العزيز وهو الذليل؛ ثم قال: أرفق به يا رسول الله، فوالله لقد جاء الله بك وإننا لننظم له الخرز لتتوجه، فإنه ليرى أن قد سلبته ملكاً. فسار رسول الله ﷺ بالناس حتى أمسوا وليلته حتى أصبحوا، وصدر يومه حتى اشتدّ الضحى، ثم نزل بالناس يشغلهم عما كان من الحديث، فلم يأمن الناس أن وجدوا مسّ الأرض فناموا، ونزلت سورة المنافقين. وفي روايته عند الإمام أحمد قال: فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فحلف عبد الله بن أبيّ أنه لم يكن شيء من ذلك، فلأمني قومي وقالوا: ما أردت إلى هذا؟ فانطلقت فمنت كثيراً حزينا، فأرسل إليّ نبيّ الله ﷺ فقال: «إن الله قد أنزل عذرك وصدقك»، قال: فنزلت هذه الآية ﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا﴾ حتى بلغ ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعرز مخنها الأذل﴾. وذكر عكرمة وغيره أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله على باب المدينة واستل سيفه، فجعل الناس يمرّون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبيّ قال له ابنه: وراءك، فقال: مالك ويملك؟! فقال: والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، فإنه العزيز وأنت الذليل، فلما جاء رسول الله ﷺ^(١).

(١) أخرجه ابن جرير (٢٨/١١٥ - ١١٦).

وكان إنما يسير ساقفة فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه، فقال ابنه: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له رسول الله ﷺ. وعن عاصم بن عمرو بن قتادة أن عبد الله بن عبد الله بن أبي أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمروني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان فيها رجل أبرّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: «بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا». وجعل بعد ذلك اليوم إذا أحدث الحدث، كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعتفونه ويتوعدونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب، حين بلغه ذلك عنهم من شأنهم: «كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم أمرتني بقتله، لأزعدت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته»، فقال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري^(١). رواه ابن جرير.

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

عن الضحاك ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله﴾ قال: الصلوات الخمس. وعن ابن عباس قال: ما يمنع أحدكم إذا كان له مال يجب عليه فيه الزكاة أن يزكي؟ وإذا أطاق الحج أن يحج من قبل أن يأتيه الموت

(١) أخرجه ابن جرير (١١٦/٢٨ - ١٧).

فيسأل ربه الكثرة فلا يُعطاها؟ فقال رجل: أما تتقى الله؟ يسأل المؤمن الكثرة؟ قال: نعم، أقرأ عليكم قرآناً؟ فقرأ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق﴾ قال: أوذي زكاة مالي.

﴿وأكن من الصالحين﴾ قال: أحج، فقال الرجل: فما الذي يوجب عليّ الحج؟ قال: راحلة تحمله ونفقة تبلغه. وقال الضحاك في قوله: ﴿لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله﴾ إلى آخر السورة: هو الرجل المؤمن، نزل به الموت وله مال كثير لم يزكّه ولم يحجّ منه ولم يعط منه حقّ الله، يسأل الرجعة عند الموت ليتصدق من ماله ويزكّي، قال الله: ﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون﴾ قال ابن جرير^(١) يقول: والله ذو خبرة وعلم بأعمال عبده هو يجمعها، محيط لا يخفى عليه شيء، وهو مجازيهم بها، المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.



(١) انظر «جامع البيان» (١١٩/٢٨).

الدرس الثالث والثمانون بعد المائتين

﴿سورة التغابن﴾

مدنية، وهي ثمان (١) عشرة آية

وقال عطاء: مكية إلا قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِن آزْوَاجِكُمْ﴾ إلى آخر
السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَسْبِغُ لَكَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنفَخَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ
الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا
وَاسْتَعْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثَنَّ ثُمَّ
لَتُنَبَّؤَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنَّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَابِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمَلَ

(١) في (الأصل): ثمانين، وهو خطأ، والصواب ما أثبت.

صَلِحًا يُكْفِرُ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
 ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
 النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبَشَ الْأَمْصِرُ ﴿١٠﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ
 وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ
 فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَىٰ اللَّهِ
 فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن مِنْ أَرْوَاجِكُمْ
 وَأَوْلَادِكُمْ عُدُوًّا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَّ
 اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ
 عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ
 وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ قَرَّبْنَا
 يُضَاعِفَهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ
 الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ
الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ
وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ
وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ .

قال ابن عباس: إن الله خلق بني آدم مؤمناً وكافراً، ثم يعيدهم يوم القيامة
كما خلقهم مؤمناً وكافراً، والمعنى أن الله تعالى علم ما هم عاملون، فخلقهم على
ذلك وأمرهم بالإيمان، وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال،
وهو الشهيد على أعمالهم، ولهذا قال تعالى: ﴿والله بما تعملون بصير﴾ .

﴿خلق السموات والأرض بالحق﴾، أي: بالعدل والحكمة ﴿وصوركم
فأحسن صوركم﴾، أي: أحسن أشكالكم ﴿والله المصير﴾، أي: المرجع والمآب
﴿يعلم ما في السموات والأرض ويعمل ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات
الصدور﴾ قال ابن جرير^(١): يقول جل ثناؤه: والله ذو علم بضمائر صدور عباده
وما تنطوي عليه نفوسهم الذي هو أخفى من السر، لا يعزب عنه شيء من ذلك .

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَأْتِكُمْ بَنُو الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهمْ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا
وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَفِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثَنَّ

(١) انظر «جامع البيان» (٢٨/١٢٠).

ثُمَّ لَتُبْتَوْنَ بِمَا عَمَلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ
وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفَرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبئسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ .

قال ابن كثير^(١): يقول تعالى مخبراً عن الكفار والمشركين والملحدين، أنهم يزعمون أنهم لا يبعثون ﴿قل بلى وربّي لتبعثنّ ثم لتتّبون بما عملتم﴾، أي: لتخبرنّ بجميع أعمالكم، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها ﴿وذلك على الله يسير﴾، أي: بعثكم ومجازاتكم، وهذه هي الآية الثالثة التي أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه عزّ وجلّ على وقوع المعاد ووجوده. ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا﴾ وهو القرآن ﴿والله بما تعملون خبير يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن﴾ قال قتادة: هو يوم القيامة، وهو يوم التغابن غبن أهل الجنة أهل النار. وقال مقاتل بن حيان: لا غبن أعظم من أن يدخل هؤلاء الجنة ويذهب بأولئك إلى النار. قال ابن كثير^(٢): وقد فسر بذلك قوله تعالى: ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾^(٣)، ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير﴾.

قوله عز وجل: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا يَأْتِيَنَّ اللَّهُ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٣٧٤).

(٢) المصدر السابق (٤/٣٧٥).

(٣) سورة التغابن: الآية ٩.

فَاتِمَّا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾، يعني: يهد قلبه لليقين، فيعلم أنما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. وعن أبي ظبيان قال: كنا عند علقمة فقرأء عنده هذه الآية ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾ فسئل عن ذلك فقال: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيسلم لذلك ويرضى. وفي الحديث المتفق عليه: «عجباً للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»^(١).

قال ابن كثير^(٢) وقوله: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ أمر بطاعة الله ورسوله فيما شرع، وفعل ما به أمر، وترك ما عنه نهى وزجر.

ثم قال تعالى: ﴿فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين﴾، أي: إن نكلتم عن العمل، فإنما عليه ما حُمِّل من البلاغ، وعليكم ما حُمِّلتم من السمع والطاعة، قال الزهري: من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم. ثم قال تعالى مخبراً أنه الأحد الصمد الذي لا إله غيره، فقال تعالى: ﴿الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ فالأول خبر عن التوحيد، ومعناه معنى الطلب، أي: وحدوا الإلهية له وأخلصوها لديه، وتوكلوا عليه، كما قال تعالى: ﴿رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذة وكيلاً﴾^(٣).

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِن آتٍ مِّنَ أَرْوَاحِكُمْ

(١) سبق تخريجه.

(٢) المصدر السابق (٤/٣٧٥).

(٣) سورة الشعراء: الآية ٢٨.

وَأَوْلَادِكُمْ وَعَدُوَّكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ^{١٤} وَإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ
 اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ
 عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ
 وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تَقْرِبُوا اللَّهَ فَقَرَّبْنَا
 يَضْعَفُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ
 الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ .

عن عكرمة قال: سأل رجل ابن عباس عن هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوًّا لكم فاحذروهم﴾ قال: هؤلاء رجال أسلموا فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم يأتوا رسول الله ﷺ، فلما أتوا رسول الله ﷺ فرأوا الناس قد فقهاوا في الدين هموا أن يعاقبهم، فأنزل الله جلّ ثناؤه ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم﴾^(١) الآية. وقال عطاء: «نزلت سورة التغابن كلها بمكة إلّا هؤلاء الآيات ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوًّا لكم فاحذروهم﴾ نزلت في عوف بن مالك الأشجعي، كان ذا أهل وولد فكان إذا أراد أن يغزو، بكوا إليه ورققوه، وقالوا: إلى ما تدعنا؟ فirq وقيم، فنزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوًّا لكم فاحذروهم﴾ الآية كلها بالمدينة في عوف بن مالك، وبقية الآيات إلى آخر السورة بالمدينة»^(٢). وعن قتادة قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوًّا لكم فاحذروهم﴾ الآية، قال: منهم من لا يأمر بطاعة الله ولا ينهى عن

(١) أخرجه الترمذي (ح/٢٣١٧)، وقال: «حسن صحيح»، وابن جرير (١٢٤/٢٨)، والطبراني

(١١/٢٧٥ - ٢٧٦)، والحاكم (٢/٤٩٠)، وصححه ووافقه الذهبي، وعزاه ابن كثير

(٤/٣٧٦)، إلى ابن أبي حاتم، قلت: وهو من رواية سماك عن عكرمة، وروايته عنه

خاصة فيها ضعف، والله أعلم.

(٢) أخرجه ابن جرير (١٢٥/٢٨).

معصيته، وكانوا يبطنون عن الهجرة إلى رسول الله ﷺ وعن الجهاد. وقال ابن زيد في قوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ﴾ قال يقول: عدوًّا لكم في دينكم فاحذروهم على دينكم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، أي: اختبار وابتلاء ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَأْبِ﴾^(١). وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: رأيت رسول الله ﷺ يخطب، فجاء الحسن والحسين رضي الله عنهما عليهما فميصان أحمران يعثران ويقومان، فنزل رسول الله ﷺ فأخذهما فرفعهما فوضعهما في حجره ثم قال: «صدق الله ورسوله ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ رأيت هذين فلم أصبر، ثم أخذ من خطبته»^(٢). رواه ابن جرير وغيره.

وعن قتادة قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا﴾ هذه رخصة من الله والله رحيم بعباده. وكان الله جلّ ثناؤه أنزل قبل ذلك ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ وحقّ تقاته أن يطاع فلا يعصى، ثم خفف الله تعالى ذكره عن عباده فأنزل الرخصة بعد ذلك فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا﴾ فيما استطعت يا ابن آدم، عليها بايع رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، فيما استطعت.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْفَقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ﴾ قال ابن كثير^(٣): أي وابتدؤا مما رزقكم الله على الأقارب والفقراء والمساكين وذوي الحاجات، وأحسنوا إلى خلق

(١) سورة آل عمران: الآية ١٤.

(٢) أخرجه أحمد (٣٥٤/٥)، وأبو داود (ح/١١٠٩)، والترمذي (ح/٣٧٧٦) وحسنه، والنسائي (١٠٨/٣)، وابن ماجه (ح/٣٦٠٠)، وابن جرير (١٢٦/٢٨)، والحاكم

(١/٢٨٧)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٣٧٦).

الله كما أحسن الله إليكم يكن خيراً لكم في الدنيا والآخرة، وإن لا تفعلوا يكن شراً لكم في الدنيا والآخرة. قال البغوي^(١): ﴿ومن يوق شح نفسه﴾ حتى يعطي حق الله من ماله ﴿فأولئك هم المفلحون﴾. وعن ابن مسعود: ﴿ومن يوق شح نفسه﴾ قال: أن يعمد إلى مال غيره فيأكله. وقوله تعالى: ﴿إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم﴾ يكفر عنكم سيئاتكم ﴿والله شكور﴾، أي: يجزي على القليل بالكثير ﴿حليم﴾ يستر ويصفح ويغفر ﴿عالم الغيب والشهادة﴾، أي: ما يغيب عن أبصار الناس وما يشاهدونه ﴿العزیز الحكيم﴾، أي: العزيز في ملكه، الحكيم في أمره.



(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٣٤).

الدرس الرابع والثمانون بعد المائتين

﴿سورة الطلاق﴾

مدنية، وهي اثنتا عشرة^(١) آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقْتُمُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبِينَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغَنَّ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَالَّتِي يَبْسُنُ مِنَ الْمَجِيزِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعَدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأَوْلَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَتَكُونُونَ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِضَيْقِهِنَّ عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ

(١) في (الأصل): اثنا عشر آية، وهو خطأ، والصواب ما أثبت.

أُولَاتِ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمَلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَمْرُهُمْ
 بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمَّ فَاسْتَرْضِعْ لَهُنَّ أُخْرَى ۖ ﴿٦﴾ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن
 قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَنهَاءً سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ
 عُسْرٍ يُسْرًا ۖ ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرِيْبٍ عَدَتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَهَا
 عَذَابًا نُكْرًا ۖ ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرَهَا خُسْرًا ۖ ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا
 فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۖ ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ
 آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن
 يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ
 أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُمْ رِزْقًا ۖ ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ
 لِنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ۖ ﴿١٢﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغٌ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ .

قال ابن كثير^(١): خوطب النبي ﷺ أولاً تشريفاً وتكريماً، ثم خاطب الأمة تبعاً فقال تعالى: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن﴾. وقال ابن مسعود: الطلاق للعدّة طاهراً من غير جماع. وعن مجاهد أن رجلاً سأل ابن عباس فقال له أنه طلق امرأته مائة، فقال: عصيت ربك وبانت منك امرأتك، ولم تتق الله فيجعل لك مخرجاً، وقرأ هذه الآية: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾، وقال: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن﴾ من قبل عدتهن.

وعن الحسن في قوله: ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ قال: طاهراً من غير حيض، أو حاملاً قد استبان حملها. وعن مجاهد في قول الله عز وجل: ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ قال: لظهرهن. وعن الضحاك في قول الله: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن﴾ قال: العدة القرء، والقرء الحيض، والطاهر الطاهر من

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٣٧٧).

غير جماع، ثم تستقبل ثلاث حيضات. وعن قتادة قوله: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن﴾ والعدة أن يطلقها طاهراً من غير جماع. وقال ابن طاووس: إذا أردت الطلاق فطلقها حين تطهر قبل أن تمسها تطليقة واحدة، لا ينبغي لك أن تزيد عليها، حتى تخلو ثلاثة قروء فإن واحدة تبينها. وقال ابن زيد في قوله: ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ قال: إذا طلقها للعدة كان ملكها بيدك، من طلق للعدة جعل الله له في ذلك فسحة، وجعل له مُلكاً إن أراد. أن يرجع قبل أن تنقضي العدة ارتجع. وعن السدي في قوله: ﴿إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن﴾ قال: طاهراً في غير جماع، فإن كانت لا تحيض فعند غرة كلِّ هلال. وعن ابن عمر قال: طَلَّقت امرأتي وهي حائض، فأتى عمر رسول الله ﷺ يخبره بذلك فقال: «مره فليراجعها حتى تطهر، ثم تحيض ثم تطهر، ثم إن شاء طلقها قبل أن يجامعها، وإن شاء أمسكها، فإنها العدة التي قال الله عز وجل»^(١). رواه ابن جرير وغيره. وعن ابن عباس في قوله: ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ يقول: لا يطلقها وهي حائض، ولا في طهر قد جامعها فيه، ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة، فإن كانت تحيض فعدتها ثلاث حيضات، وإن كانت لا تحيض فعدتها ثلاث أشهر، وإن كانت حاملاً فعدتها أن تضع حملها.

وعن السدي قوله: ﴿وأحصوا العدة﴾ قال: احفظوا العدة: ﴿واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن﴾ حتى تنقضي عدتهن وقال ابن جريج: قال عطاء: إن أذن لها أن تعتد في غير بيته فتعتد في بيت أهلها فقد شاركها إذا في الإثم، ثم تلا: ﴿لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ قلت: هذه الآية في هذه؟ قال: نعم. وقال الضحاك: ليس لها أن تخرج إلا بإذنه، وليس للزوج أن يخرجها ما كانت في العدة، فإن خرجت فلا سكنى لها ولا نفقة. وعن قتادة: ﴿لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن﴾ وذلك إن طلقها واحدة أو اثنتين،

(١) أخرجه البخاري (ح/٥٢٥١)، ومسلم (ح/١٤٧١).

لها العدة والنفقة والسكنى، ما لم يطلقها ثلاثاً. وعن ابن عباس قال الله: ﴿لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ قال: الفاحشة المبينة أن تذبذوا على أهلها. وفي رواية: الفاحشة هي المعصية. قال ابن جرير^(١): فالزنا من ذلك، والسرق والبداء على الأحماء، وخروجها متحوّلة عن منزلها الذي يلزمها أن تعتدّ فيه منه، فأبى ذلك فعلت وهي في عدتها فلزوجها إخراجها من بيتها، ذلك لإتيانها بالفاحشة التي ركبتها.

وعن الضحاك في قول الله: ﴿وتلك حدود الله﴾ يقول: تلك طاعة الله فلا تعتدوها، يقول: من كان على غير هذه فقد ظلم نفسه. عن الزهري: «أن فاطمة بنت قيس كانت تحت أبي حفص المخزومي، وكان النبي ﷺ أمر علياً على بعض اليمن، فخرج معه فبعث إليها بتطبيقه كانت بقيت لها، وأمر عياش بن أبي ربيعة المخزومي والحارث بن هشام أن ينفقا عليها، فقالا: لا والله ما لها علينا نفقة إلا أن تكون حاملاً، فأنت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فلم^(٢) يجعل لها نفقة إلا أن تكون حاملاً، واستأذنته في الانتقال فقالت: أين أنتقل يا رسول الله؟ قال: عند ابن أم مكتوم، وكان أعمى تضع ثيابها عنده ولا يبصرها، فلم تزل هناك حتى أنكحها النبي ﷺ أسامة بن زيد حين مضت عدتها، فأرسل إليها مروان بن الحكم يسألها عن هذا الحديث فأخبرته، فقال مروان: لم نسمع هذا الحديث إلا من امرأة، وسنأخذ بالعصمة التي وجدنا الناس عليها، فقالت فاطمة: بيني وبينكم الكتاب، قال الله جل ثناؤه: ﴿فطلّقوهن لعدتهن﴾ حتى بلغ: ﴿لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾ قالت: فأبى أمر يحدث بعد الثلاث؟ وإنما هو في مراجعة الرجل امرأته^(٣). رواه ابن جرير. وعن قتادة: ﴿لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾، أي: مراجعة. وقال ابن زيد: لعل الله يحدث في قلبك تراجع زوجتك.

(١) انظر «جامع البيان» (١٣٤/٢٨).

(٢) في (الأصل): «عله يجعل»، والمثبت من تفسير ابن جرير وهو الصواب.

(٣) أخرجه ابن جرير (١٣٥/٢٨) عن الزهري مرسلًا.

وعن الضحاك قوله: ﴿فإذا بلغن أجلهن﴾ يقول: إذا انقضت عدتها قبل أن تغتسل من الحيضة الثالثة، أو ثلاثة أشهر إن لم تكن تحيض يقول: فراجع إن كنت تريد المراجعة قبل أن تنقضي العدة بإمساك بمعروف، والمعروف أن تحسن صحبتها، أو تسريح بإحسان، والتسريح بإحسان أن تدعها حتى تمضي عدتها ويعطيها مهراً إن كان لها عليه إذا طلقها، فذلك التسريح بإحسان، والمتعة على قدر الميسرة. وقال ابن عباس: إن أراد مراجعتها قبل أن تنقضي عدتها أشهد رجلين كما قال الله: ﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم﴾ عند الطلاق وعند المراجعة، فإن راجعها فهي عنده على تطليقتين، وإن لم يراجعها فإذا انقضت عدتها فقد بانت منه بواحدة، وهي أملك بنفسها ثم تتزوج من شاءت هو أو غيره. وعن السدي في قوله: ﴿وأقيموا الشهادة لله﴾ قال: أشهدوا على الحق: ﴿ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ قال عكرمة: من طلق كما أمره الله يجعل له مخرجاً.

وعن ابن عباس قوله: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ يقول سبحانه: من كلّ كرب في الدنيا والآخرة: ﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ قال مسروق: من حيث لا يدري. وعن الضحاك في قوله: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً﴾ قال: يعني بالمخرج واليسر إذا طلق واحدة ثم سكت عنها، فإن شاء راجعها بشهادة رجلين عدلين فذلك اليسر الذي قال الله، وإن مضت عدتها ولم يراجعها كان خاطباً من الخطاب، وهذا الذي أمر الله به وهكذا طلاق السنّة؛ فأما من طلق عند كل حيضة فقد أخطأ السنّة وعصى الربّ وأخذ العسر. وعن سالم بن أبي الجعد في قوله: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ قال: نزلت في رجل من أشجع أصابه الجهد فأتى النبي ﷺ فقال له: «أتق الله وأصبر»، فرجع فوجد ابناً له كان أسيراً قد فقد من أيديهم وأصاب أعترأ، فجاء فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: هل تطيب لي يا رسول الله؟ قال:

«نعم»^(١). وعن الربيع بن خيثم: ﴿يجعل له مخرجاً﴾ قال: من كل شيء ضاق على الناس. وعن قتادة: ﴿يجعل له مخرجاً﴾ قال: من شبهات الأمور، والكره عند الموت: ﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ من حيث لا يأمل ولا يرجو: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ قال البغوي^(٢): يتق الله فيما نابه، كفاه ما أهّمه. وروينا أن النبي ﷺ قال: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً»^(٣) ﴿إن الله بالغ أمره﴾، أي: منفذ أمره، مُمضٍ في خلقه قضاءه: ﴿قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾، أي: جعل الله لكل شيء من الشدة والرخاء أجلاً ينتهي إليه. وفي حديث ابن عباس: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك»^(٤). الحديث.

قوله عز وجل: ﴿وَالَّتِي بَيَّنَّ مِنَ الْمَجِيزِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أُرْبِتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ﴿٤﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾ اسْكُنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكُنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا نَضَازُوهُنَّ لِيُضَيِّقُوا عَلَيْكُمْ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ

(١) أخرجه ابن جرير (١٣٨/٢٨ - ١٣٩) عن سالم بن أبي الجعد مرسلًا. وروي مسنداً من حديث جابر رضي الله عنه: أخرجه الحاكم (٤٩٢/٢) وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: «بل منكر»، وعباد رافضي جبل، وعبيد متروك قاله الأزدي». اهـ.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣٢٨/٤).

(٣) أخرجه أحمد (٣٠/١)، والترمذي (ح/١٣٤٥)، وابن ماجه (ح/٤١٦٤)، والحاكم (٣١٨/٤)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) هو طرف حديث، وأوله: «احفظ الله يحفظك...»، أخرجه أحمد (٢٩٣/١ و ٣٠٧)، والترمذي (ح/١٥١٦)، وأبو يعلى (ح/٢٥٤٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنه، وهو حديث صحيح، وتخريجه مستوفياً في كتاب: «كشف ما ألفاه إبليس» (ص ٨٧).

أَرْضَعَنَّ لَكُمْ فَمَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَتَمَّرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاَسَرْتُم فَسَرِّضْهُ لَكُمْ
 أُخْرَى ﴿٦﴾ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آَنَدَهُ اللَّهُ لَا
 يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آَتَاهَا سَيِّجَعُلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ .

عن الزهري: ﴿إن ارتبتم﴾ قال: في كبرها، أن يكون ذلك من الكبر، فإنها تعتد حين ترتب ثلاثة أشهر، فأما إذا ارتفعت حيضة المرأة وهي شابة، فإنه يتأتى بها حتى ينظر حامل هي أم غير حامل، فإن استبان حملها فأجلها أن تضع حملها، فإن لم يستبين حملها فحتى يستبين بها، وأقصى ذلك سنة. وعن أبي بن كعب أنه قال: يا رسول الله إن عدداً من عدد النساء لم تُذكر في الكتاب: الصغار، والكبار، وأولات الأحمال، فأنزل الله: ﴿واللاني يثن من المحيض من نسائك إن ارتبتم فعدتن ثلاثة أشهر واللاني لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾^(١)؛ وفي رواية: «لما نزلت هذه الآية: ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾ قلت: يا رسول الله المتوفى عنها زوجها، والمطلقة؟ قال: «نعم»^(٢). رواه ابن جرير. وعن عكرمة قال: إن من الريبة المرأة المستحاضة، والتي لا يستقيم لها الحيض، تحيض في الشهر مراراً وفي الأشهر مرة، فعدتها ثلاثة أشهر.

﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً﴾ قال البغوي^(٣): يسهل عليه أمر الدنيا والآخرة: ﴿ذلك﴾ يعني ما ذكر من الأحكام، ﴿أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً﴾. وعن السدي في قوله: ﴿أسكنوهن من حيث سكتن من وُجدكن﴾ قال: المرأة يطلقها، فعليه أن يسكنها وينفق عليها. وعن

(١) أخرجه ابن جرير (١٤١/٢٨)، والحاكم (٤٩٢/٢ - ٤٩٣)، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي! قلت: وعمرو بن سالم لم يخرج له البخاري ولا مسلم، وأيضاً هو لم يسمع من أبي بل أرسل عنه، فهو منقطع.

(٢) أخرجه ابن جرير (١٤٣/٢٨) بسند ضعيف.

(٣) المصدر السابق (٣٢٩/٤).

مجاهد في قوله: ﴿من وجدكم﴾ قال: من سعتكم. وعن سعيد قوله: ﴿أسكنوهن من حيث سكتن من وجدكم ولا تضاروهن لتضيّقوا عليهن﴾ فإن لم تجد إلا ناحية بيتك فأسكنها فيه. وعن مجاهد: ﴿ولا تضاروهن لتضيّقوا عليهن﴾ قال: في المسكن.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿وإن كنّ أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يرضعن حملهن﴾ فهذه المرأة يطلقها زوجها فيبّ طلاقها وهي حامل، فيأمره الله أن يسكنها وينفق عليها حتى تضع، وإن أرضعت فحتى تظلم؛ وإن أبان طلاقها وليس بها حمل، فلها السكنى حتى تنقضي عدتها ولا نفقة. وكذلك المرأة يموت عنها زوجها، فإن كانت حاملاً أنفق عليها من نصيب ذي بطنها إذا كان ميراث، وإن لم يكن ميراث أنفق عليها الوارث حتى تضع وتظلم ولدها، كما قال الله عز وجل: ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾ فإن لم تكن حاملاً فإن نفقتها كانت من مالها.

وعن قتادة قوله: ﴿فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن﴾ هي أحق بولدها أن تأخذه بما كنت مسترضعاً به غيرها. وعن الضحاك أنه قال في الرضاع: إذا قام على شيء فأمّ الصبي أحق به، فإن شاءت أرضعته وإن شاءت تركته، إلا أن لا يقبل من غيرها، فإذا كان كذلك أجبرت على رضاعه. وعن السدي في قوله: ﴿واثمروا بينكم بمعروف﴾ قال: اصنعوا المعروف فيما بينكم: ﴿وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى﴾ قال: إن أبت الأم أن ترضع ولدها إذا طلقها أبوه، التمس له مرضعة أخرى؛ الأم أحق إذا رضيت من أجر الرضاع بما يرضى به غيرها، فلا ينبغي لها أن يُتزع منها. وقال سفيان: إن هي أبت أن ترضعه ولم تُؤاتك فيما بينها وبينك، عاسرتك في الأجر فاسترضع له أخرى. وقال ابن زيد في قول الله: ﴿وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله﴾ قال: فرض لها من قدر ما يجد، فقالت: لا أرضى هذا، قال: وهذا بعد الفراق، فأما وهي زوجته فإنها ترضع له طائعة ومكرهة إن شاءت وإن أبت، فقال لها: ليس

لي زيادة، على هذا، إن أحببت أن ترضعي بهذا فأرضعي، وإن كرهت استرضعت ولدي، فهذا قوله: ﴿وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى﴾. وعن السدي: ﴿لينفق ذو سعة من سعته﴾ قال: من سعة موجدته: ﴿ومن قدر عليه رزقه﴾ قال: من قدر عليه رزقه: ﴿فلينفق مما آتاه الله﴾ قال ابن زيد: فرض لها من قدر ما يجد.

وعن مجاهد: ﴿لينفق ذو سعة من سعته﴾ قال: على المطلقة إذا أرضعت له. وعن السدي في قوله: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها﴾ قال يقول: لا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغني. وعن سفيان: ﴿سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ بعد الشدة الرخاء. وعن أبي سنان قال: سأل عمر بن الخطاب عن أبي عبيدة فقيل له: «إنه يلبس الغليظ من الثياب، ويأكل أحسن الطعام، فبعث إليه بألف دينار، وقال للرسول: انظر ما يصنع إذا هو أخذها؛ فما لبث أن لبس ألين الثياب، وأكل أطيب الطعام، فجاء الرسول فأخبره فقال: رحمه الله، تأول هذه الآية: ﴿لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله﴾» (١).

قوله عز وجل: ﴿وَكَايُنَ مِنْ قَرْيَةٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا﴾ (٨) ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا خُسْرًا﴾ (٩) ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ (١٠) ﴿رَسُولًا يَنْتَلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لِمَنْ رَزَقًا﴾ (١١) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (١٢).

عن السدي في قوله: ﴿وكأين من قرية عنت عن أمر ربها ورسوله﴾ قال: غيرت وعصت. وعن ابن عباس قوله: ﴿فحاسبناها حساباً شديداً﴾ يقول: لم

(١) أخرجه ابن جرير (١٤٩/٢٨) بسند ضعيف.

نرحم: ﴿وعذبناها عذاباً نكراً فذاقت وبال أمرها﴾ قال السدي: عقوبة أمرها، وقال ابن زيد: ذقت عاقبة ما عملت من الشر: ﴿وكان عاقبة أمرها خسراً﴾ قال مجاهد: جزاء أمرها؛ ﴿أعد الله لهم عذاباً شديداً فاتقوا الله يا أولي الألباب﴾ قال السدي: ذوي العقول: ﴿الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً﴾ قال ابن كثير^(١): يعني القرآن، كقوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبيّات﴾ قال بعضهم: ﴿رسولاً﴾ منصوب على أنه بدل اشتمال وملابسة، لأن الرسول هو الذي بلغ الذكر؛ وقال ابن جرير^(٣): الصواب أن الرسول ترجمة عن الذكر، يعني تفسيراً له، ولهذا قال تعالى: ﴿رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبيّات﴾، أي: في حالة كونها بيّنة واضحة جليّة: ﴿ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور﴾ وقال تعالى: ﴿الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾^(٤)، أي: من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم: ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً﴾ قال البغوي^(٥): يعني الجنة التي لا ينقطع نعيمها؛ ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن﴾ قال ابن جرير^(٦): يقول تعالى: ذلك الله الذي خلق سبع سموات لا ما تعبده المشركون من الآلهة والأوثان التي لا تقدر على خلق شيء. وعن ابن مسعود قال: «خلق الله سبع سموات غلظ، كلّ واحدة مسيرة خمسمائة عام، وبين

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٣٨٤).

(٢) سورة الحجر: الآية ٩.

(٣) انظر «جامع البيان» (٢٨/١٥٢).

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥٧.

(٥) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٣١).

(٦) انظر «جامع البيان» (٢٨/١٥٣).

كلّ واحدة منهنّ خمسمائة عام، وفوق السبع السموات الماء، والله جلّ ثناؤه فوق الماء، لا يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم، والأرض سبع، وبين كلّ أرض خمسمائة عام^(١)، وغلظ كلّ أرض خمسمائة عام. وعن مجاهد قوله: ﴿يُنزَّلُ الأمرُ بينهنّ﴾ قال: بين الأرض السابعة إلى السماء السابعة.

قال ابن كثير^(٢): وقوله تعالى: ﴿ومن الأرض مثلهنّ﴾، أي: سبعة أيضاً، كما ثبت في الصحيحين: «من ظلم قيد شبر من الأرض طوّقه من سبع أرضين»^(٣)؛ وفي صحيح البخاري: «خسف به إلى سبع أرضين»^(٤). ومن حمل ذلك على سبعة أقاليم، فقد أبعد النجعة وأغرق في النزاع وخالف القرآن والحديث.

وقال البغوي^(٥): ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهنّ﴾ في العدد: ﴿يُنزَّلُ الأمرُ بينهنّ﴾ بالوحي من السماء السابعة إلى الأرض السفلى. قال أهل المعاني: هو ما يدبّر فيهنّ من عجيب تدبيره، فينزل المطر، ويخرج النبات، ويأتي بالليل والنهار والصيف والشتاء، ويخلق الحيوان على اختلاف هيئاتها وينقلها من حال إلى حال. وقال قتادة: في كلّ أرض من أرضه وسماء من سمائه خلق من خلقه، وأمر من أمره، وقضاء من قضائه: ﴿لتعلموا أنّ الله على كلّ شيء قدير وأنّ الله قد أحاط بكلّ شيء علماً﴾ فلا يخفى عليه شيء.



(١) أخرجه الدارمي في «الرد على بشر المريسي» (ص ١٠٥)، وأيضاً في الرد على الجهمية (ص ٢١)، والطبراني (٢٨٨/٩)، وابن خزيمة في التوحيد (١/٢٤٢ و ٣٤٣)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/٦٨٨)، وصححه ابن القيم، انظر: «الجيوش».

(٢) المصدر السابق (٤/٣٨٥).

(٣) أخرجه البخاري (ح/٢٤٥٣)، ومسلم (ح/١٦١٢)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه البخاري (ح/٢٤٥٤).

(٥) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٣١ - ٣٣٢).

الدرس الخامس والثمانون بعد المائتين

﴿سورة التحريم﴾

مدنية ، وهي اثنا عشرة (١) آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَنَّى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾
 قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى
 بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا
 نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَبْأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ نُبُؤًا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ
 صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحَ الْمُؤْمِنِينَ
 وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِمَّنْ
 مُسَلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ فَنِنِّتِ تَبَنَّى عِيدَاتٍ سَيَحِبَّنَّ تَبَنَّى وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 قُورًا أَنْفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا
 يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا نَعْتَدِرُوا الْيَوْمَ
 إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى
 رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

(١) في (الأصل): «اثنا عشر»: وهو خطأ.

يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ
يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا رَبَّنَا نُورًا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَتَأْتِيهَا
النَّيُّ جَهْدِ الْكُفَّارِ وَالْمُنْفِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُشَسُّ
الْمَصِيدُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا
تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا
وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ
فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ
وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرِيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا
فَنفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ فِيهَا وَكَانَتْ مِنَ
الْقَانِنِينَ ﴿١٢﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذَا أَسَرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ نُبُوا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمْ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مَسْلَمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ فَمِنْتَ فَمِنْتَ عِدَاتٍ سَيَحْتَبِنَ ثَبَّتَتْ وَاتَّكَرَا ﴿٥﴾ .

عن زيد بن أسلم: «أن رسول الله ﷺ أصاب أم إبراهيم في بيت بعض نسائه، قال فقالت: أي رسول الله في بيتي وعلى فراشي؟ فجعلها عليه حراماً، فقالت: يا رسول الله كيف تحرّم عليك الحلال؟ فحلف لها بالله لا يصيبها، فأنزل الله عز وجل: ﴿يا أيها النبي لم تحرّم ما أحلّ الله لك تبتغي مرضات أزواجك﴾؟ قال زيد: فقوله: «أنت عليّ حرام»^(١) لغو. رواه ابن جرير. وعن مسروق قال: آلى رسول الله ﷺ وحرّم، فعوتب في التحريم وأمر بالكفارة في اليمين. وعن ابن عباس في قوله: ﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾ أمر الله النبي ﷺ والمؤمنين إذا حرّموا شيئاً مما أحلّ الله لهم، أن يكفروا أيمانهم بإطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، وليس يدخل ذلك في طلاق. وعن سعيد بن جبیر أن ابن عباس كان يقول: في الحرام يمين يكفرها، وقال ابن عباس: ﴿لقد كان لكم

(١) أخرجه ابن جرير (١٥٥/٢٨) عن زيد بن أسلم مرسلًا.

في رسول الله أسوة حسنة. وعن قتادة: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾؟ الآية قال: «كان حرم فئاته القبطية - أم ولده إبراهيم يقال لها مارية - في يوم حفصة، وأسر ذلك إليها، فأطلعت عليه عائشة، وكانتا تظاهران على نساء النبي ﷺ، فأحل الله له ما حرم على نفسه، فأمر أن يكفر عن يمينه، وعوقب في ذلك فقال: ﴿قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم﴾. قال قتادة: وكان الحسن يقول: حرّمها عليه فجعل الله فيها كفارة يمين»^(١).

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «أناه رجل فقال: إني جعلت امرأتي عليّ حراماً، قال: كذبت ليست عليك بحرام، ثم تلا هذه الآية ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾؟ أغلظ الكفارات عتق رقبة»^(٢). رواه النسائي. وعن مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾؟ قال: حرّم رسول الله ﷺ سرّيته.

قال ابن كثير^(٣): ومن ههنا ذهب من ذهب من الفقهاء ممن قال بوجوب الكفارة على من حرّم جاريته أو زوجته، أو طعاماً أو شراباً، أو ملبساً أو شيئاً من المباحات، وهو مذهب الإمام أحمد وطائفة؛ وذهب الشافعي إلى أنه لا تجب الكفارة فيما عدا الزوجة والجارية، إذا حرّم عينيها أو أطلق التحريم فيهما، في قول؛ فأما إذا نوى بالتحريم طلاق الزوجة أو عتق الأمة، نفذ فيهما. انتهى.

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلاً، فتواطأت أنا وحفصة: أن أيتنا دخل عليها رسول الله ﷺ فلتقل له: إني أجد منك ريح مغاير، أكلت مغاير؟ فدخل على إحدهما فقالت ذلك له

(١) أخرجه ابن جرير (١٥٨/٢٨) عن قتادة مرسلًا.

(٢) أخرجه النسائي (١٥١/٦)، والطبراني (٤٤٠/١١)، والحاكم (٤٩٣/٢ - ٤٩٤)، وصححه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، والبيهقي في سننه (٣٥٠/٧ - ٣٥١).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣٨٧/٤).

فقال: «لا، بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش، ولن أعود له وقد حلفت، لا تخبري بذلك أحداً». وفي رواية: فتزلت ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إن تتوبا فقد صغت قلوبكما﴾ لعائشة وحفصة. ﴿وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً﴾ لقوله: «بل شربت عسلاً»^(١). رواه البخاري.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً﴾ قوله لها: «لا تذكره» ﴿فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض﴾ وكان كريماً ﷺ ﴿فلما نبأها به قالت من أنباك هذا؟﴾. ولم تشك أن صاحبها أخبرتها عنها ﴿قال نبأني العليم الخبير﴾. وعن ابن عباس قوله: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾ يقول: زاغت قلوبكما، يقول: قد أثمت قلوبكما وعن قتادة: ﴿فقد صغت قلوبكما﴾، أي: مالت قلوبكما. قال في جامع البيان: أي إن تتوبا فقد حق لكما ذلك، فإنه قد عدلت عن الحق قلوبكما وصدر منكما ما يوجب التوبة. ﴿وإن تظاهرا عليه﴾ بما يسوءه ﴿فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ولم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾ حتى حج عمر وحججت معه، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة، فتبرز ثم أتاني فسكبت على يديه فتوضأ، فقلت: يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله تعالى: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾؟ فقال عمر: واعجباً لك يا ابن عباس - قال الزهري كره والله ما سأله عنه، ولم يكتمه، قال - هي عائشة وحفصة. قال: ثم أخذ يسوق الحديث، قال: كنا معشر قريش قوماً تغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نساؤهم، قال: وكان منزلي في دار

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٩١٢ و ٥٢٦٧)، ومسلم (ح/١٤٧٤).

أمية بن زيد بالعوالي، قال: فغضبت يوماً على امرأتي فإذا هي تراجعني فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج رسول الله ﷺ ليراجعنه، وتهجره إحداهنّ اليوم إلى الليل، قال: فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت: أتراجعين رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم، قلت: وتهجره إحدائكنّ اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم، قلت: قد خاب من فعل ذلك منكّن وخسر، أفتأمن إحدائكنّ أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت؟ لا تراجعني رسول الله ﷺ ولا تسأليه شيئاً، وسليني من مالي ما بدا لك، ولا يغرّتك أن كانت جارتك هي أوسم وأحبّ إلى رسول الله ﷺ منك - يريد عائشة - قال: وكان لي جار من الأنصار وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ ينزل يوماً وأنزل يوماً، فيأتيني بخبر الوحي وغيره وآتيه بمثل ذلك، وكنا نتحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا، فنزل صاحبي يوماً ثم أتى عشاء فضرب بابي ثم ناداني فخرجت إليه، فقال: حدث أمر عظيم، فقلت: وما ذلك؟ جاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم من ذلك وأطول، طلق رسول الله ﷺ نساءه، فقلت: قد خابت حفصة وخسرت، قد كنت أظنّ هذا كائناً؛ حتى إذا صليت الصبح شددت عليّ ثيابي، ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي فقلت: أطلّقكّن رسول الله ﷺ؟ فقالت: لا أدري، هو هذا معتزل في هذه المشربة، فأتيت غلاماً له أسود فقلت: استأذن لعمّه، فدخل الغلام ثم خرج إليّ فقال: ذكرتك له فصمت، فانطلقت حتى أتيت المنبر، فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم، فجلست عنده قليلاً ثم غلبني ما أجد فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر، فدخل ثم خرج إليّ فقال: قد ذكرتك له فصمت، فخرجت فجلست إلى المنبر ثم غلبني ما أجد فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر، فدخل ثم خرج إليّ فقال: قد ذكرتك له فصمت، فولّيت مدبراً فإذا الغلام يدعوني فقال: ادخل قد أذن لك، فدخلت فسلمت على رسول الله ﷺ فإذا هو متكىء على رمل حصير - وفي رواية رمال حصير - قد أثر في جنبه، فقلت: أطلّقت يا رسول الله نساءك؟ فرفع رأسه

إليّ وقال: «لا» فقلت: الله أكبر، لو رأيتنا يا رسول الله، وكنا معشر قريش، قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، ففطق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، فغضبت على امرأتي يوماً فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وتهجره إحداهنّ اليوم إلى الليل، فقلت: قد خاب من فعل ذلك منكنّ وخسرت، أفتأمن إحدانك أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت؟ فتبسّم رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله قد دخلت على حفصة فقلت: لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم وأحبّ إلى رسول الله ﷺ منك، فتبسّم أخرى، فقلت: أستأنس يا رسول الله؟ قال: «نعم» فجلست فرفعت رأسي في البيت، فوالله ما رأيت في البيت شيئاً يرد البصر إلّا أهبه مقامه فقلت: ادع الله يا رسول الله أن يوسّع على أمتك، فقد وسّع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالساً وقال: «أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا»، فقلت: استغفر لي يا رسول الله. وكان أقسم أن لا يدخل عليهنّ شهراً من شدة موجدهته عليهنّ، حتى عاتبه الله عز وجل. (١) متفق عليه واللفظ لأحمد.

وفي رواية لمسلم: «لما اعتزل نبيّ الله ﷺ نساءه دخلت المسجد، فإذا الناس ينكتون بالحصى ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، وذلك قبل أن يؤمر بالحجاب، فقلت: لأعلمن ذلك اليوم. فذكر الحديث في دخوله على عائشة وحفصة ووعظه إياهما، إلى أن قال فقالت: يا رسول الله ما يشقّ عليك من أمر النساء؟ فإن كنت طلقتهنّ فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، وكلّما تكلمت - وأحمد الله - بكلام إلّا رجوت أن يكون الله يصدّق قولي، فنزلت هذه الآية، آية التخيير: ﴿عسى ربه إن طلقكنّ أن يبدله

(١) أخرجه أحمد (١/٣٣ - ٣٤)، والبخاري (ح/٢٤٦٨ و ٤٩١٣)، ومسلم (٢/١١١١ -

أزواجاً خيراً ممنكن ﴿ وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ فقلت: أطلّقتهن؟ قال: «لا»، فقامت على باب المسجد فنادت بأعلى صوتي: لم يطلق نساءه، ونزلت هذه الآية ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر. وعند البخاري عن أنس قال: قال عمر: اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه فقلت لهن: ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً ممنكن ﴾ فنزلت هذه الآية. وعند أبي حاتم قال عمر بن الخطاب: بلغني شيء كان بين أمهات المؤمنين وبين النبي ﷺ، فاستقرتتهن أقول: لتكفنّ عن رسول الله ﷺ أو ليدلته الله أزواجاً خيراً ممنكن، حتى أتيت على آخر أمهات المؤمنين – يعني أم سلمة – فقالت: يا عمر أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن؟ فأمسكت، فأنزل الله عز وجل ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً ممنكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً ﴾^(١).

وقال ابن زيد في قول الله: ﴿ قانتات ﴾ قال: مطيعات. وعن ابن عباس في قوله: ﴿ سائحات ﴾ قال: صائحات. قال ابن كثير^(٢): وقوله تعالى: ﴿ ثيبات وأبكاراً ﴾، أي: منهن ثيبات وأبكاراً، ليكون ذلك أشهى إلى النفس، فإن التنوع ييسط النفس، ولهذا قال: ﴿ ثيبات ﴾ ومنهن ﴿ أبكاراً ﴾.

قوله عز وجل: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْأ أَنفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾^(٦) يَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا نَعْدِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

(١) أخرجه مسلم (ج/١٤٧٩).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٩٠).

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ
سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا لَنَا
نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ .

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله: ﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة﴾ قال: علموهم وأدبوهم. وقال ابن عباس: اعملوا بطاعة الله، واتقوا معاصي الله، ومروا أهليكم بالذكر ينجيكم الله من النار. وقال قتادة: مروهم بطاعة الله، وانهوهم عن معصية الله. وعن قتادة ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً﴾ قال: هي الصداقة الناصحة. وقال عمر بن الخطاب: هو العبد يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه أبداً. وقال مجاهد: يستغفرون ثم لا يعودون. وعن أبي بن كعب قال: «قيل لنا أشياء تكون في آخر هذه الأمة عند اقتراب الساعة منها: نكاح الرجل امرأته أو أمته في دبرها، وذلك مما حرّم الله ورسوله ويمقت الله عليه ورسوله، ومنها نكاح المرأة المرأة، وذلك مما حرّم الله ورسوله ويمقت الله عليه ورسوله، وليس لهؤلاء صلاة ما أقاموا على هذا حتى يتوبوا إلى الله توبة نصوحاً». قال زرّ فقلت لأبي بن كعب: فما التوبة النصوح؟ فقال: سألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «هو الندم على الذنب حين يفرط منك، فتستغفر الله بندا منك منه عند الحاضر، ثم لا تعود إليه أبداً»^(١). رواه ابن أبي حاتم. قال العلماء: التوبة النصوح أن يقلع عن الذنب في الحاضر، ويندم على ما سلف منه في الماضي، ويعزم على أن لا يفعل في المستقبل؛ ثم إن كان الحقّ لآدمي رده إليه بطريقة. ﴿عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما عراه له ابن كثير في تفسيره (٣٩٢/٤)، والبيهقي في الشعب:

﴿٣٧٥/٤﴾ بسند ضعيف.

جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه ﴿ قال البغوي: أي لا يعذبهم الله بدخول النار ﴾ نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ﴿ على الصراط ﴾ يقولون ﴿ إذا طغىء نور المنافقين ﴾ ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير ﴿ .

قوله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ سِتًّا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٧﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِخِّي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَبِخِّي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ وَتَمِيمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا وَقَانَتْ مِنَ الْفٰسِقِينَ ﴿١٩﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين ﴾ قال: أمر الله نبيه عليه السلام أن يجاهد الكفار بالسيف، ويغلظ على المنافقين بالحدود ﴿ وأغلظ عليهم ﴾ قال ابن جرير^(١) يقول: واشدد عليهم في ذات الله ﴿ وماواهم جهنم وبئس المصير ﴾ . وعن ابن عباس ﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ﴾ قال: كان خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما، فكانت امرأة نوح تطلع على سر نوح، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابة من قوم نوح به، فكان ذلك من أمرها؛ وأما امرأة لوط فكانت إذا أضاف لوط أحداً أخبرت به أهل المدينة ممن يعمل سوء ﴿ فلم يغنيا عنهما من الله

(١) انظر «جامع البيان» (١٦٦/٢٨).

شيئاً. وقال عكرمة: كانت خيانتها أنهما كانتا مشركتين ﴿وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾ قال قتادة: لم يغن صلاح هذين عن هاتين شيئاً، وامرأة فرعون لم يضرها كفر فرعون.

قال في جامع البيان: ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط﴾، أي: جعل امرأة نوح وامرأة لوط مثلاً لهم، أو مثل لهم مثلاً مثل امرأة نوح في أن قرابة أحد وإن كان نبياً لا ينفع مع الكفر؛ قيل: هذا تخويف لعائشة وحفصة. انتهى. وقال بعضهم: وفي ضمن التمثيلين تعريض بما مرّ في أول السورة من حال عائشة وحفصة، وإشارة إلى أن من حقهما أن يكونا في الإخلاص كهاتين المؤمنتين لا الكافرتين.

وقال البغوي^(١): ﴿فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً﴾ لم يدفعا عنهما مع نبوتهما عذاب الله ﴿وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾ قطع الله بهذه الآية طمع كل من يركب المعصية أن ينفعه صلاح غيره؛ ثم أخبر أن معصية غيره لا تضره إذا كان مطيعاً فقال: ﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون﴾ وهي آسية بنت مزاحم، قال المفسرون: لما غلب موسى السحرة آمنت امرأة فرعون، فلما تبين لفرعون إسلامها أوتد يديها ورجليها بأربعة أوتاد وألقاها في الشمس، قال سلمان: «كانت امرأة فرعون تعذب بالشمس، فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة، ﴿إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة﴾ فكشف الله لها عن بيتها في الجنة حتى رآته^(٢). وفي القصة أن فرعون أمر بصخرة عظيمة لتلقى عليها، فلما أتوها بالصخرة ﴿قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة﴾ فأبصرت بيتها في الجنة من درة وانتزع روحها، فألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه ولم تجد ألماً.

قال ابن كثير^(٣): ﴿رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة﴾ قال العلماء:

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٣٨).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٧١/٢٨).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٣٩٤).

اختارت الجار قبل الدار ﴿ونجني من فرعون وعمله﴾، أي: خلصني منه فإني أبرا إليك من عمله ﴿ونجني من القوم الظالمين﴾. ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربه﴾ قال قتادة يقول: آمنت بعيسى وهو كلمة الله ﴿وكتبه﴾، يعني: التوراة والإنجيل ﴿وكانت من القانتين﴾ من المطيعين، وفي الصحيح عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «كامل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا: آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»^(١). وعن ابن عباس قال: خط رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط وقال: «أتدرون ما هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون»^(٢). رواه أحمد. وروى ابن عساکر عن ابن عمر قال: «جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ فمرت خديجة فقال: إن الله يقرئها السلام، ويبشّرها ببيت في الجنة من قصب، بعيد من اللهب، لا نصّب فيه ولا صحّب، من لؤلؤة جوفاء، بين بيت مريم بنت عمران وبيت آسية بنت مزاحم»^(٣). والله أعلم.



(١) أخرجه البخاري (ح/٣٤٣٣)، ومسلم (ح/٢٤٣١) تنبيه: قول المؤلف - رحمه الله - «في

الصحيح» وهم منه؛ بل هو عند مسلم أيضاً، وقد يكون خطأ من الناسخ، والله أعلم.

(٢) أخرجه أحمد (١/٢٩٣ و ٣١٦ و ٣٢٢)، والطبراني (١١/٣٣٦ و ٤١٥)، والحاكم (٢/٥٩٤

و ٣/١٦٠ و ١٨٥)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) أورده ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/٦٢)، وذكر أنه بهذا السياق غريب جداً، وأن في

إسناده نظر.

الدرس السادس والثمانون بعد المائتين

﴿سورة الملك﴾

مكية، وهي ثلاثون آية

روى أحمد وأهل السنن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «سورة في القرآن ثلاثين آية، شفعت لصاحبها حتى غفر له ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾»^(١).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَأَنْجِبِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ أَنْجِبِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسُوسُ الْمُصِيرِ ﴿٦﴾ إِذَا الْقُوفُ فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورٌ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٩٩ و ٣٢١)، وأبو داود (ح/١٤٠٠)، والترمذي (ح/٢٨٩١) وحسنه، والنسائي في الكبرى (٦/١٧٨ و ٤٩٦)، وابن ماجه (ح/٣٧٨٦)، والحاكم (١/٥٦٥ و ٢/٤٩٧ - ٤٩٨) وصححه ووافقه الذهبي.

قلت: وفيه عباد الجسمي لم يوثقه غير ابن حبان؛ لكن للحديث شاهد من حديث أنس بنحوه، وابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم، فهو حديث حسن.

كَلَّمَ اللَّهُ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَأَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَنَسَحُوا لَأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّكُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَذِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفْتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمْ نَ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ نَ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِي اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِن عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَن هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿بَرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾.

قال ابن كثير^(١): يمجّد تعالى نفسه الكريمة ويخبر أنه بيده الملك، أي هو المتصرف في جميع المخلوقات بما يشاء، لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: ﴿وهو على كل شيء قدير﴾. وعن قتادة في قوله: ﴿الذي خلق الموت والحياة﴾ قال: أذلّ الله ابن آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياة ودار فناء، وجعل الآخرة دار جزاء وبقاء.

وقوله تعالى: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ قال الفضيل بن عياض: ﴿أحسن عملاً﴾ أخلصه وأصوبه، وقال: العمل لا يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، فالخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان على السنة. ﴿الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ قال قتادة: من اختلاف ﴿فارجع البصر هل ترى من فطور﴾ يقول: هل ترى من خلل يا ابن آدم؟ ﴿ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً﴾ قال: صاغراً ﴿وهو حسير﴾ يقول: معي، لم ير خللاً ولا تفاوتاً: ﴿ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾ قال: إن الله جلّ ثناؤه إنما خلق هذه النجوم لثلاث خصال:

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣٩٦/٤).

خلقها زينة للسماء الدنيا، ورجوماً للشياطين، وعلامات يُهتدى بها، فمن ينال منها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم به.

قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ ٦ إِذَا الْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ ٧ تَكَادُ تَمَيَّرُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ٨ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ٩ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ١٠ فَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسَحَقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ١١ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ١٢ .

عن مجاهد ﴿سمعوا لها شهيقاً وهو تفور﴾ يقول: تغلي كما يغلي القدر ﴿تَكَادُ تَمَيَّرُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ قال ابن عباس: تكاد يفارق بعضها بعضاً وتتفطر؛ وقال ابن زيد: ﴿من الغيظ﴾ على أهل معاصي الله غضباً لله وانتقاماً له. وعن ابن عباس قوله: ﴿فسحقا لأصحاب السعير﴾ يقول: بعداً.

وقوله تعالى: ﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير﴾ قال ابن جرير^(١): يقول تعالى ذكره: إن الذين يخافون ربهم بالغيب يقول: وهم لم يروه ﴿لهم مغفرة﴾ يقول: لهم عفو من الله عن ذنوبهم ﴿وأجر كبير﴾ يقول: وثواب من الله لهم على خشيتهم إياه بالغيب جزيل. وقال ابن كثير^(٢): يقول تعالى مخبراً عن من يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه، إذا كان غائباً عن الناس، فينكف عن المعاصي ويقوم بالطاعات حيث لا يراه أحد إلا الله تعالى، بأنه له ﴿مغفرة وأجر كبير﴾، أي: تكفر عنه ذنوبه ويجازى بالثواب الجزيل، كما ثبت في الصحيحين: «سبعة يظلهم الله في ظلّ عرشه يوم لا ظلّ إلا ظله، فذكر منهم رجلاً دعت امرأه

(١) انظر «جامع البيان» (٦/٢٩).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٣٩٧).

ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجلاً تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه^(١).

قوله عز وجل: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَقَتِ وَيَقِضْنَ مَا يَمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُم بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمْ نَظُنُّكَ أَنَّكَ رَبُّكَ فَاتْلُ مَا يُرْسِلُ رَبُّكَ لَكَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمِنَ الظُّلُمَاتِ وَمِنَ النُّجُومِ أَلَمْ تَكُنْ تُبْقِصُ وَتُنْفِثُ ﴿٢٠﴾ أَمْ نَظُنُّكَ أَنَّكَ رَبُّكَ فَاتْلُ مَا يُرْسِلُ رَبُّكَ لَكَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمِنَ الظُّلُمَاتِ وَمِنَ النُّجُومِ أَلَمْ تَكُنْ تُبْقِصُ وَتُنْفِثُ ﴿٢١﴾ أَمْ نَظُنُّكَ أَنَّكَ رَبُّكَ فَاتْلُ مَا يُرْسِلُ رَبُّكَ لَكَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمِنَ الظُّلُمَاتِ وَمِنَ النُّجُومِ أَلَمْ تَكُنْ تُبْقِصُ وَتُنْفِثُ ﴿٢٢﴾

قال البغوي^(٢): ﴿وأسروا قولكم أو أجهروا به إنه عليم بذات الصدور﴾ قال ابن عباس: نزلت في المشركين، كانوا ينالون من رسول الله ﷺ فيخبره جبريل عليه السلام بما قالوا، فقال بعضهم لبعض: أسروا قولكم كي لا يسمع إله محمد، فقال الله جل ذكره ﴿ألا يعلم من خلق﴾ ألا يعلم ما في الصدور من خلقها؟ ﴿وهو اللطيف الخبير﴾.

﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا﴾ سهلاً لا يمتنع المشي فيها ﴿فامشوا في مناكبها﴾ قال مجاهد: في طرقها وفجاجها ﴿وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾، أي: وإليه تبعثون من قبوركم. ثم خوف الكفار فقال: ﴿أأمنتم من في السماء﴾ قال ابن عباس: أي عذاب من في السماء إن عصيتموه ﴿أن يخسف بكم الأرض فإذا هي

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٦٦٠ و ١٤٢٣ و ٦٤٧٩ و ٦٨٠٦)، ومسلم (ح/ ١٠٣١).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٢٤٢).

تمور ﴿ قال الحسن: تتحرك بأهلها ﴾ أم أمتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً ﴿ ريحاً ذات حجارة كما فعل بقوم لوط ﴾ فستعلمون ﴿ في الآخرة وعند الموت ﴾ كيف نذير ﴿، أي: إنذاري إذا عانيتم العذاب ﴾ ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير ﴿، أي: إنكاري عليهم بالعذاب ﴾ أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ﴿ تصف أجنتها في الهواء ﴾ ويقبضن ﴿ أجنتهن بعد البسط ﴾ ما يمسكن ﴿ في حال القبض والبسط ﴾ إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير ﴿.

﴿ آمن هذا الذي هو جند لكم ﴾؟ استفهام إنكار ﴿ ينصركم من دون الرحمن ﴾ يمنعكم من عذابه ﴿ إن الكافرون إلا في غرور ﴾، أي: في غرور من الشيطان. ﴿ آمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ﴾، أي: من الذي يرزقكم المطر إن أمسك الله عنكم؟ ﴿ بل لجوا في عتو ﴾ تماد في الضلال ﴿ ونفور ﴾ تباعد من الحق. ثم ضرب مثلاً فقال: ﴿ أفمن يمشي مكباً على وجهه ﴾ ركباً رأسه في الضلالة والجهالة، أعمى العين والقلب لا يبصر يميناً ولا شمالاً وهو الكافر؛ قال قتادة: ركباً على المعاصي في الدنيا، فحشره الله على وجهه يوم القيامة ﴿ أهدى آمن يمشي سويّاً ﴾ معتدلاً يبصر الطريق وهو ﴿ على صراط مستقيم ﴾ وهو المؤمن؛ قال قتادة: يمشي يوم القيامة سويّاً. انتهى ملخصاً.

قوله عز وجل: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّتَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِي اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُحْيِي الْكَافِرِينَ مَن عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسْتَعْلَمُونَ مَن هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾.

قال ابن كثير^(١) وقوله تعالى: ﴿قل هو الذي أنشأكم﴾، أي: ابتداء خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾، أي: العقول والإدراك ﴿قليلاً ما تشكرون﴾، أي: قلماً تستعملون هذه القوى التي أنعم الله بها عليكم في طاعته وامثال أوامره وترك زواجه. ﴿قل هو الذي ذرأكم في الأرض﴾، أي: بثكم ونشركم في أقطار الأرض وأرجائها، مع اختلاف ألسنتكم في لغاتكم وألوانكم، وحلأكم وأشكالكم وصوركم ﴿والله يحشرون﴾، أي: تجمعون بعد هذا التفرق والشتات، يجمعكم كما فرقكم ويعيدكم كما بدأكم.

ثم قال تعالى مخبراً عن الكفار المنكرين للمعاد المستعبدين وقوعه ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾، أي: متى يقع هذا الذي تخبرنا بكونه من الاجتماع بعد هذا التفرق؟ ﴿قال إنما العلم عند الله﴾، أي: لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلا الله عز وجل، لكنه أمرني أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة فاحذروه ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾، أي: وإنما عليّ البلاغ وقد أديته إليكم. قال الله تعالى: ﴿فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا﴾، أي: لما قامت القيامة وشاهدها الكفار ورأوا أن الأمر كان قريباً، لأن كل ما هو آتٍ آتٍ وإن طال زمنه، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك لما يعلمون ما لهم هناك من الشر، أي: فأحاط بهم ذلك وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال ولا حساب، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، وبداهم سيئات ما عملوا وحق بهم ما كانوا به يستهزئون، ولهذا يقال لهم على وجه التقرير والتوبيخ ﴿هذا الذي كنتم به تدعون﴾، أي: تستعجلون.

﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعمه ﴿أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمتنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم؟﴾، أي: خلصوا أنفسكم فإنه لا منقذ لكم من الله إلا بالتوبة والإنابة والرجوع إلى دينه، ولا ينفعكم

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٣٩٩).

وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والنكال، فسواء عذبنا الله أو رحمننا فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم.

ثم قال تعالى: ﴿قل هو الرحمن آمنّا به وعليه توكلنا﴾، أي: آمنا برب العالمين الرحمن الرحيم، وعليه توكلنا في جميع أمورنا، كما قال تعالى: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾^(١) ولهذا قال تعالى: ﴿فستعلمون من هو في ضلال مبين﴾، أي: منا ومنكم، ولمن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا﴾، أي: ذاهباً في الأرض إلى أسفل فلا ينال بالفؤوس الحداد ولا السواعد الشداد، والغائر عكس النابح، ولهذا قال تعالى: ﴿فمن يأتيكم بماء معين﴾؟، أي: نبع سائح جار على وجه الأرض، أي: لا يقدر على ذلك إلا الله عز وجل، فمن فضله وكرمه أن أنبع لكم المياه وأجزاها في سائر أقطار الأرض بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلّة والكثرة، فله الحمد والمنة.



(١) سورة هود: الآية ١٢٣.

الدرس السابع والثمانون بعد المائتين

﴿سورة نون﴾

مكية، وهي اثنتان^(١) وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا
عَبْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِآيَاتِكُمْ
الْمَقْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا
تُطِيعُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٨﴾ وَذُؤًا لَوْ تَذَهْنُ فَيَذْهَبُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴿١٠﴾
هَمَّازٍ مَمَّامٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَمَّاعٍ لِلنَّخِيرِ مُعْتَدٍ أَيْمٍ ﴿١٢﴾ عُمَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ رَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ
ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تَنَلَى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِفُهُ عَلَى
الْمَرْطُورِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْبَلْعَةِ إِذْ أَسْمَأُوا بَصِيرَتَهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾
فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَنَادُوا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ
أَعِدُوا عَلَيْنَا حُرُوبًا إِنَّكُمْ سَرِيمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ
مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَعَدُوا عَلَى حَرِّ قَدِيرٍ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَأَصَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾
قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَوْ أَقْبَلْ لَكُم لَوْلَا سَيْحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ

(١) في (الأصل): «أثنا»، وهو خطأ، والصواب ما أثبت.

بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلُوهُمْ ۖ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا بُولَلَاءَ إِنَّا كُنَّا طَائِفِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا
 إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ
 رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ
 كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخْتَرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ آيْمَانُ عَلَيْنَا بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يَوْمَ أَلْقَيْنَا
 لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلَّمْتُمْ أَنفُسَكُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَكُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا
 صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ
 تَرَهِقَهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ
 سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ قَسَمْتَ لَهُمْ جَزَاءً فَهُمْ
 مِن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ
 كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ تَوَلَّىٰ أَنْ تَدْرِكهُمُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبْدِيَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ
 مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَنِبْهُ رَبُّهُمُ فَجَعَلَهُم مِّن الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ
 لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُمْ لَمَجْثُونَ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتَبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تَطَّعِ الْمُكْذِبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تَطَّعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَذَا مَثَلٌ بَنِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَيْمٍ ﴿١٢﴾ عُنْتَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِفُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ .

عن ابن عباس قال: «أول ما خلق الله من شيء القلم، فجرى بما هو كائن، ثم رفع بخار الماء فخلقت منه السموات، ثم خلق النون فبسطت الأرض على ظهر النون، فتحركت الأرض فمادت فأنبتت بالجبال، فإن الجبال لتفخر على الأرض، وقرأ: ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾»^(١). وعن مجاهد قال: كان يقال: النون الحوت الذي تحت الأرض السابعة.

وقال ابن زيد في قول الله: ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾ قال: هذا قسم أقسم الله به: ﴿وما يسطرون﴾ وما يكتبون.

(١) أخرجه ابن جرير (١٤/٢٩)، وابن منده في «التوحيد» (رقم/١٥ و ٦٥)، وأبو الشيخ في «العظمة» (ح/٨٩٧)، والحاكم (٤٩٨/٢)، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١١٧/٢ - ١١٨)، وروي أوله مرفوعاً: «أول ما خلق الله تعالى القلم... كل شيء حتى تقوم الساعة». أخرجه أحمد (٣١٧/٥)، وأبو داود (ح/٤٧٠٠)، والترمذي (ح/٢١٥٥ و ٣٣١٩) عن ابن عباس مرفوعاً، وهو صحيح.

قال ابن القيم^(١): «أقسم بالكتاب وآلته وهو القلم، والأقلام متفاوتة في الرتب، فأعلاها وأجلها قدراً. قلم القدر السابق الذي كتب الله به مقادير الخلائق، الثاني: قلم الوحي هو الذي يكتب به وحي الله إلى أنبيائه، الثالث: قلم التوقيع عن الله ورسوله، وهو قلم الفقهاء والمفتين، الرابع: قلم طبّ الأبدان، الخامس: قلم التوقيع عن الملوك أو نوابهم، السادس: قلم الحساب، السابع: قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق، الثامن: قلم الشهادة، التاسع: قلم التعبير، العاشر: قلم تواريخ العالم، الحادي عشر: قلم اللغة، الثاني عشر: القلم الجامع، وهو قلم الردّ على المبطلين ورفع سنّة المحقّين». انتهى ملخصاً.

﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ قال البغوي^(٢): هذا جواب لقولهم: ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾.

وقوله تعالى: ﴿وإن لك لأجراً غير ممنون﴾ قال ابن جرير^(٣): غير منقوص ولا مقطوع؛ ﴿وإنك لعلی خلق عظیم﴾ قال ابن عباس يقول: إنك على دين عظيم وهو الإسلام. وقالت عائشة: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن^(٤). وقال ابن زيد في قوله: ﴿وإنك لعلی خلق عظیم﴾ قال: أدب القرآن. قال ابن كثير^(٥): ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن أمراً ونهياً سجيّة له، وخلقاً تطبّعه وترك طبّعه الجليّ، فمهما أمره القرآن فعله ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم، وكلّ خلق جميل. وفي الصحيحين عن أنس قال: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما

(١) انظر «البيان في أقسام القرآن» (٢٠٣ - ٢٠٩).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣٤٦/٤).

(٣) انظر «جامع البيان» (١٨/٢٩).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٠٢/٤).

قال لي: أف قط، ولا قال لشيء فعلته: لِمَ فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: إلاّ فعلته^(١).

وعن الضحاك في قوله: ﴿فستبصر ويبصرون﴾ يقول: ترى ويرون: ﴿بأيكم المفتون﴾ يقول: إنكم أولى بالشیطان: ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين فلا تطع المكذّبين ودّوا لو تدهن فيدهنون﴾ قال مجاهد: ودّوا لو تركن إلى آلهتهم وتترك ما أنت عليه من الحقّ فيما يسألونك. وعن ابن عباس: ﴿ولا تطع كلّ حلاف مهين﴾ والمهين الكذاب: ﴿همّاز﴾ يعني الاغتياب؛ وقال قتادة: يأكل لحوم المسلمين: ﴿مشاء بنميم﴾ ينقل الأحاديث من بعض الناس إلى بعض: ﴿مناع للخير﴾ قال ابن جرير^(٢): يقول تعالى ذكره: بخيل بالمال ضنين به عن الحقوق: ﴿معتد﴾ قال قتادة: معتد في عمله: ﴿أثيم﴾ برّته: ﴿عتلّ بعد ذلك زنيم﴾ قال الحسن: فاحش الخلق لثيم الضريبة. وروى ابن جرير عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «تبكي السماء من عبد أصحّ الله جسمه، وأرحب جوفه، وأعطاه من الدنيا معصماً، فكان للناس ظلوماً، فذلك العتلّ الزنيم»^(٣). قال ابن جرير: ومعنى «بعد» في هذا الموضع معنى «مع»، أي: مع العتلّ زنيم. وقال سعيد بن جبیر: الزنيم الذي يُعرف بالشرّ كما تُعرف الشاة بزنمتها، الملتصق. وقال سعيد بن المسيّب: هو الملتصق على القوم ليس منهم. وقال الكلبيّ هو الأخنس بن شريق وأصله من ثقيف وعداده في بني زهرة. وقال أبو زین: الزنيم الفاجر. وفي الصحيحين عن حارثة بن وهب قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعّف؛ ألا أنبئكم بأهل النار؟ كلّ عتلّ جواظ مستكبر»^(٤). قال أهل اللغة: الجواظ الجموع المنوع.

(١) أخرجه البخاري (ح/١٩٧٣ و ٢٧٦٨ و ٣٥٦١)، ومسلم (ح/٢٣٠٩ و ٢٣١٠ و ٢٣٣٠).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٣/٢٩).

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٤/٢٩) عن زيد بن أسلم مرسلًا.

(٤) أخرجه البخاري (ح/٤٩١٨ و ٦٠٧١ و ٦٦٥٧)، ومسلم (ح/٢٨٥٣).

وقوله تعالى: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ﴾ قال ابن كثير^(١) يقول تعالى: هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين، كفر بآيات الله عز وجل وأعرض عنها وزعم أنها كذب. وعن قتادة: ﴿سنسمة على الخرطوم﴾ قال: سنسمة على أنفه. وعن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ الْعَبْدَ يَكْتُبُ مُؤْمِنًا أَحْقَابًا ثُمَّ أَحْقَابًا ثُمَّ يَمُوتُ وَاللَّهِ عَلَيْهِ سَاطِطٌ، وَإِنَّ الْعَبْدَ يَكْتُبُ كَافِرًا أَحْقَابًا ثُمَّ أَحْقَابًا ثُمَّ يَمُوتُ وَاللَّهِ عَلَيْهِ رَاضٍ، وَمَنْ مَاتَ هَمَّازًا لَمَّازًا مُلَقَّبًا لِلنَّاسِ كَانَ عِلْمُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَسْمَهُ اللَّهُ عَلَى الْخُرطومِ مِنْ كَلَامِ الشَّفِيعِينَ»^(٢). رواه ابن أبي حاتم.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْرِمِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادُوا مُصْرِمِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ آغِدُوا عَلَيْنَا حَرَثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَوْنَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسْمِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا بُولَلَاءَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبِّنَا أَنْ يَبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ .

قال البغوي^(٣): ﴿إنا بلوناهم﴾ يعني اختبرنا أهل مكة بالقحط والجوع: ﴿كما بلونا﴾ ابتلينا: ﴿أصحاب الجنة﴾. وقال قتادة: كانت الجنة لشيخ وكان

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٠٥).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٤/٤٠٥)، بسند ضعيف.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٤٩).

يتصدق، فكان بنوه يهونه عن الصدقة، وكان يمسك قوت سنة وينفق ويتصدق بالفضل، فلما مات أبوهم غدوا عليها فقالوا: ﴿لا يدخلها اليوم عليكم مسكين﴾. وقال سعيد بن جبير: هي أرض باليمن يقال لها خضروان من صنعاء على ستة أميال.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿فأصبحت كالصريم﴾ قال: الصريم الليل؛ وفي رواية كالرماد الأسود. وعن قتادة قوله: ﴿فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين فانطلقوا وهم يتخافتون﴾ يقول: يسرون: ﴿أن لا يدخلها اليوم عليكم مسكين وغدوا على حرد قادرين﴾ قال مجاهد: على جدّ قادرين في أنفسهم. وقال سفيان: على حنق. ﴿فلما رأوها قالوا إنا لضالون﴾ قال قتادة، أي: أضللنا الطريق: ﴿بل نحن محرومون﴾ بل جوزينا فحرمنا. ﴿قال أوسطهم﴾ قال ابن عباس أعذلُّهُم: ﴿ألم أقل لكم لولا تسبحون﴾ قال مجاهد يقول: تستنون، فكان التسبيح فيهم الاستثناء.

قال ابن جرير^(١): هو قول القائل: إن شاء الله. قال ابن كثير^(٢): وقيل معناه، أي: هلاً تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم؟ ﴿قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين﴾ أتوا بالطاعة حيث لا تنفع. ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون﴾ قال ابن كثير: قيل: رغبوا في بدلها لهم في الدنيا، وقيل: احتسبوا ثوابها في الدار الآخرة. وقال البغوي^(٣): قال عبد الله بن مسعود: بلغني أن القوم أخلصوا وعرف الله منهم الصدق، فأبدلهم بها جنة يقال لها الحيوان، فيها عنب يحمل البغل منها عنقوداً واحداً. قال الله تعالى: ﴿كذلك العذاب﴾، أي: كفعلنا

(١) انظر «جامع البيان» (٣٥/٢٩).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٠٦).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٥١).

بهم نفعل بمن تعدى حدودنا وخالف أمرنا: ﴿ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ قال ابن كثير^(١)، أي: هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم، وعذاب الآخرة أشق. وقال ابن جرير^(٢) وقوله: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ يقول: لو كان هؤلاء المشركون يعلمون أن عقوبة الله لأهل الشرك به أكبر من عقوبته لهم في الدنيا، لارتدعوا وتابوا وأنابوا، ولكنهم بذلك جهال لا يعلمون.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُتْسِلِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلَّمْتُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَكُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَشَعَةَ أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ .

قال البغوي^(٣): ثم أخبر بما أعدّه للمتقين فقال: ﴿إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم﴾ فقال المشركون: إنا نعطي في الآخرة أفضل مما تعطون، فقال الله تكذيباً لهم: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون أم لكم كتاب﴾ نزل من عند الله: ﴿فيه تدرسون﴾ تقرأون: ﴿إن لكم فيه﴾ في ذلك الكتاب: ﴿لما تخيرون﴾ تختارون وتشتبهون: ﴿أم لكم أيمان﴾ عهود ومواثيق: ﴿علينا بالغة﴾ مؤكدة عاهدناكم عليها فاستوثقتم بها منا فلا تنقطع إلى يوم القيامة. ﴿إن لكم كسر﴾ إن لدخول اللام في الخير في ذلك العهد: ﴿لما تحكمون﴾ لأنفسكم من الخير والكرامة.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٠٧).

(٢) انظر «جامع البيان» (٣٦/٢٩).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٥١).

﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ﴾ قال ابن كثير^(١)، أي: قل لهم: من هو المتضمن المتكفل بهذا؟ قال ابن عباس يقول: أيهم بذلك كفيل؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾، أي: من الأصنام والأنداد: ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾. ﴿يَوْمَ يَكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ قال ابن عباس: «عن أمر عظيم، يقول: حين يكشف الأمر وتبدو الأعمال، وكشفه دخول الآخرة وكشف الأمر عنه، وهي أشد ساعة في يوم القيامة»^(٢). وعن عبد الله بن مسعود قال: «ينادي مناد يوم القيامة: أليس عدلاً من ربكم أن خلقكم ثم صوركم ثم رزقكم ثم توليتم غيره، أن يولي كل عبد منكم ما تولّى؟ فيقولون: بلى، قال: فيمثل لكل قوم آلهتهم التي كانوا يعبدونها حتى توردهم النار، ويبقى أهل الدعوة فيقول بعضهم لبعض: ماذا تنتظرون؟ ذهب الناس، فيقولون: نتظر أن ينادي بنا، فيجيء إليهم في صورة، قال: فذكر منها ما شاء الله، فيكشف عما شاء الله أن يكشف، قال: فيخرون سجداً إلا المنافقين، فإنه يصير فقار أصلابهم عظماً واحداً مثل صياصي البقر، فيقال لهم: ارفعوا رؤوسكم إلى نوركم»^(٣)؛ ثم ذكر قصة فيها طول. رواه ابن جرير. وفي رواية قال: «يتمثل الله للخلق يوم القيامة حتى يمرّ المسلمون، فيقول: من تعبدون؟ فيقولون: نعبد الله لا نشرك به شيئاً، فينتهرهم مرتين أو ثلاثاً، فيقول: هل تعرفون ربكم؟ فيقولون: سبحانه، إذا اعترف إلينا عرفناه، قال: فعند ذلك يكشف عن ساق فلا يبقى مؤمن إلا خرّ لله ساجداً، ويبقى المنافقون ظهورهم طبق واحد كأنما فيها السفايد، فيقولون: ربنا، فيقول: «قد كنتم تدعون إلى السجود وأنتم سالمون»^(٤).

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٠٧).

(٢) أخرجه ابن جرير (٣٨/٢٩) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير (٣٩/٢٩ - ٤٠)، والحاكم (٤/٥٨٩ - ٥٩٢) وصححه، وهو كما قال:

وتعقبه الذهبي بكلام مردود، وقد تناقض.

(٤) أخرجه ابن جرير (٣٩/٢٩)، وابن خزيمة في «التوحيد» (رقم ٢٥٢) بسند لا بأس به.

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً»^(١). وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ياخذ الله للمظلوم من الظالم، حتى إذا لم يبق تبعه لأحد عند أحد، جعل الله ملكاً من الملائكة على صورة عزيز فتبعه اليهود، وجعل الله ملكاً من الملائكة على صورة عيسى فتبعه النصارى، ثم نادى مناد أسمع الخلاق كلهم فقال: ألا ليلحق كل قوم بآلهتهم وما كانوا يعبدون من دون الله، فلا يبقى أحد كان يعبد من دون الله شيئاً، إلا مثل له آلهته بين يديه ثم قادتهم إلى النار، حتى إذا لم يبق إلا المؤمنون فيهم المنافقون، قال الله جل ثناؤه: أيها الناس ذهب الناس ذهب الناس، ألحقوا بآلهتكم وما كنتم تعبدون، فيقولون: والله ما لنا إله إلا الله، وما كنا نعبد إلهاً غيره، وهو الله ثبتهم، ثم يقول لهم الثانية مثل ذلك: ألحقوا بآلهتكم وما كنتم تعبدون، فيقولون مثل ذلك، فيقال: هل بينكم وبين ربكم من آية تعرفونها؟ فيقولون: نعم، فيتجلى لهم من عظمتها ما يعرفونه أنه ربهم، فيخرون له سجداً على وجوههم، ويقع كل منافق على قفاه، ويجعل الله أصلابهم كصياصي البقر»^(٢). وعن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون﴾ قال: كانوا يسمعون: حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح، فلا يجيبوك.

قوله عز وجل: ﴿قَدَرْنَا وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْكَلِمِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأَمْلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٩١٩)، ومسلم (ح/١٨٣) مطولاً.

(٢) أخرجه ابن جرير (٤١/٢٩) بسند ضعيف. قلت: وفي هذه الأحاديث الصحيحة، دلالة صريحة على إثبات صفة الساق لله عز وجل، على الوجه اللائق به تعالى وهذا هو مذهب أهل السنة سلفاً وخلفاً، وليس في هذا خلاف بين الصحابة، كما توهمه جهمية عصرنا لعنهم الله.

عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ
مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَن تَدَارَكُمُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَنِبْهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ
مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ
لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾ .

قال البغوي^(١): ﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث﴾، أي: فدعني
والمكذبين بالقرآن وخلّ بيني وبينهم. قال الزجاج: معناه لا تشغل قلبك وكلّهُ إليّ
فإني أكفيك أمره: ﴿سنستدرجهم﴾ سنأخذهم بالعذاب من حيث لا يشعرون. وقال
ابن جرير^(٢): يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: كلّ يا محمد أمر هؤلاء المكذبين
بالقرآن إليّ، وهذا كقول القائل لآخر غيره يتوعّد رجلاً: دعني وإياه، وخلّني
وإياه، بمعنى أنه من وراء مساعته. ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم
إن كيدي متين﴾ قال ابن جرير: قويّ شديد. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال:
«إن الله ليملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته - ثم قرأ - : ﴿وكذلك أخذ ربك إذا
أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾»^(٣).

قال في جامع البيان: سمى الاستدرج كيداً لأنه في صورة الكيد. ﴿ألم
تسألهم﴾ يا محمد: ﴿أجراً﴾ على الهداية: ﴿فهم من مغرم مثقلون﴾ غرامة مثقلون
بحملها فلذا يعرضون عنك؛ و «أم» منفصلة والهمزة للإنكار: ﴿أم عندهم الغيب﴾
علم الغيب: ﴿فهم يكتبون﴾ فلا يحتاجون إليك وإلى علمك. ﴿فاصبر لحكم
ربك﴾ بإمهالهم: ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ يونس عليه السلام في العجلة
والضجر: ﴿إذ نادى﴾ في بطن الحوت: ﴿وهو مكظوم لولا أن تداركه نعمة من

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٥٣).

(٢) انظر «جامع البيان» (٤٣/٢٩).

(٣) أخرجه البخاري ح/٤٦٨٦، ومسلم ح/٢٥٨٣.

ربه ﴿ بقبول توبته: ﴿ لبئذ بالعراء ﴾ ل طرح بالقضاء من بطن الحوت: ﴿ وهو مذموم ﴾ حال كونه مجرماً ملوماً، يعني لَمَا تداركه برحمته نبذه على حال غير حال الذم واللوم: ﴿ فاجتباه ربه ﴾ اصطفاه: ﴿ فجعله من الصالحين ﴾ من الأنبياء.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ﴾ يقول: ينفذونك بأبصارهم من شدة النظر، وعن ابن مسعود أنه كان يقرأ: ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزهقونك ﴾. وقال الكلبي: ﴿ ليزلقونك ﴾ ليصرعونك. وقال الضحاك: ينفذونك بأبصارهم من العداوة والبغضاء. وقال ابن كثير^(١)، أي: يعينونك بأبصارهم، بمعنى يحسدونك لبغضهم إياك لولا وقاية الله لك وحمايته إياك منهم؛ وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل. وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين وإذا استغسلتم فاغسلوا»^(٢). رواه مسلم وغيره.

وقوله تعالى: ﴿ لَمَا سمعوا الذكر ﴾، أي: أن هذا النظر كان يشتد منهم في حال قراءة النبي ﷺ القرآن، حسداً على ما أوتي من النبوة: ﴿ ويقولون إنه لمجنون ﴾ تنفيراً عنه مع علمهم بأنه أعقلهم؛ ثم قال تعالى: ﴿ وما هو ﴾، أي: القرآن: ﴿ إلا ذكر للعالمين ﴾ الجن والإنس، فكيف يمكن نسبة من جاء بمثله إلى الجنون؟ والله المستعان.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٠٩).

(٢) أخرجه مسلم (ح/٢١٨٨).

الدرس الثامن والثمانون بعد المائتين

﴿سورة الحاقة﴾

وهي اثنتان^(١) وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِوَاعِدِ
 بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَتَا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ
 عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى
 كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ مُخْلِ حَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ
 قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكِثُ بِالْحَاطِثَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ
 حَمَلْنَاكُم فِي الْبَازِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِبَاءَ أُذُنٍ وَعِيسَةٍ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ
 وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾
 وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ
 يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابًا بِرَيْبٍ
 فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْثَبَةٌ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسْبَاءِ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي
 جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا آسَفْتُمُ فِي الْآيَاتِ

(١) في (الأصل): «اثنتي»، وهو خطأ.

لَخَالِيَةٍ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ بَلَيْتَنِي لَرَأُوتَ كِتَابِيَةَ ﴿٢٥﴾ وَلَرَأُوتَ مَا
 حِسَابِيَةَ ﴿٢٦﴾ بَلَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَخْفَىٰ عَنِّي مَا لِيهِ ﴿٢٨﴾ هَلَاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ ﴿٢٩﴾
 خَذُوهُ فَعُوقُوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُمْ
 كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَاهَا
 حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسَلِينَ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُمْ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ فَلَا أُقِيمُ بِمَا بُصِّرُوا ﴿٣٨﴾
 وَمَا لَا بُصُرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا
 يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ
 الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ
 حَنُوزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُمْ لَلْمُنْكَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُمْ لَحَسِرَةٌ عَلَىٰ
 الْكُفْرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُمْ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿ الْحَاقَّةُ ١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ٢﴾ وَمَا أُدْرِكُ مَا الْحَاقَّةُ ٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ٥﴾ وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكِثُ بِالْحَاطِئَةِ ٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُم أَخَذَةً رَّابِيَةً ١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْبَارِيَةِ ١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أذُنٌ وَعِيَةٌ ١٢﴾ .

قال ابن عباس: ﴿الحاقة﴾ من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذره عباده. وقال قتادة: ﴿الحاقة﴾، يعني: الساعة أحقت لكلّ عامل عمله. وقال البغوي^(١): سميت حاقة لأنها حُقت فلا كاذبة لها ﴿ما الحاقة﴾ هذا استفهام معناه التفخيم لشأنها ﴿وما أدراك ما الحاقة﴾ قال سفيان: ما في القرآن ﴿وما يدريك﴾ فلم يخبره، وما كان ﴿وما أدراك﴾ فقد أخبره. ﴿كذّبت ثمود وعاد بالقارعة﴾ قال قتادة: أي بالساعة ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾ قال: بعث الله عليهم صيحة فأهدمتهم ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية﴾ قال ابن عباس يقول: بريح مهلكة باردة، عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة، دائمة لا تفتت؛ وقال: ما أرسل الله من ريح قطّ إلاّ بمكيال، ولا أنزل قطرة قطّ إلاّ بمثقال، إلاّ يوم نوح ويوم عاد، فإن الماء يوم نوح طغى على خزانه فلم يكن لهم عليه سبيل، ثم قرأ ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية﴾، وإن الريح عتت على خزانها فلم يكن لهم عليها سبيل، ثم قرأ ﴿بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما﴾

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٥٥).

يقول: **﴿تَبَاعاً﴾** فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية **﴿﴾**. وفي الصحيحين: **﴿نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأَهْلِكْتُ عَادَ بِالدَّبُورِ﴾** (١).

﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾؟ قال ابن كثير (٢): أي هل تحسّ منهم من أحد من بقاياهم أو من ينتسب إليهم؟ بل بادوا عن آخرهم، ولم يجعل الله لهم خلفاً. وعن قتادة قوله: **﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ﴾** قرية قوم لوط **﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾** قال مجاهد: الخطايا **﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾** قال ابن كثير: أي كلّ كذب رسول الله إليهم **﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾** قال ابن عباس: يعني أخذة شديدة. وعن قتادة قوله: **﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾** ذاكم زمن نوح، طغى الماء على كلّ شيء خمس عشرة ذراعاً بقدر كلّ شيء. قال ابن زيد: والجارية سفينة نوح التي حملهم فيها **﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾** قال قتادة: فأبقاها الله تذكرة وعبرة وآية، حتى نظرت إليها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة قد كانت بعد سفينة نوح قد صارت رماداً **﴿وَتَعْيِهَا أَذْنَ وَعَاقِبَةُ﴾** إن غفلت عن الله فانتفعت بما سمعت من كتاب الله.

وقال ابن كثير (٣): **﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾** وهي السفينة الجارية على وجه الماء **﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾** عاد الضمير على الجنس لدلالة المعنى عليه، أي: وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء في البحار، كما قال تعالى: **﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾** (٤).

(١) أخرجه البخاري ح/ ١٠٣٥ و ٣٢٠٥ و ٣٣٤٣ و ٤١٠٥، ومسلم (ح/ ٩٠٠).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤١٢).

(٣) المصدر السابق (٤/ ٤١٣).

(٤) سورة يس: الآية ٤١.

قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ .

قال البغوي^(١): ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة﴾ وهي النفخة الأولى ﴿وحملت الأرض والجبال﴾ رفعت عن أماكنها ﴿فدكتتا﴾ كسرتا ﴿دكة﴾ كسرة ﴿واحدة﴾ فصارتا هباء منثوراً. ﴿وانشقت السماء فهي يومئذ واهية﴾ قال ابن عباس: يعني ضعيفة ﴿والملك على أرجائها﴾ يقول: والملك على حافات السماء حين تشقق. وعن سعيد بن جبير ﴿والملك على أرجائها﴾ قال: على ما لم يه منها. ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ قال ابن إسحاق: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «هم اليوم أربعة - يعني حملة العرش - وإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة آخرين فكانوا ثمانية، وقد قال الله تعالى: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾»^(٢)؛ قال ميسرة: أرجلهم في التخوم لا يستطيعون أن يرفعوا أبصارهم من شعاع النور، وعن جابر ابن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «أذن لي أن أحدث عن ملكٍ من ملائكة الله تعالى من حملة العرش: إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام»^(٣). رواه أبو داود وغيره.

وقوله تعالى: ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ قل ابن كثير^(٤): أي

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣٥٧/٤).

(٢) أخرجه ابن جرير (٥٩/٢٩) مختصراً، وأبو الشيخ في «العظمة» (ح/١٤٦) مطولاً، وهو منقطع.

(٣) أخرجه أبو داود (ح/٤٧٢٧)، وأبو الشيخ في «العظمة» (ح/٤٧٦)، والخطيب في «تاريخه» (١٠/١٩٥)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/١٤٢)، وهو حديث صحيح.

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤١٤).

تعرضون على عالم السرّ والنجوى الذي لا يخفى عليه شيء من أموركم، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر، ولهذا قال تعالى: ﴿لا تخفى منكم خافية﴾. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، فإنه أخفّ عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم وتزينوا للعرض الأكبر ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾^(١). وروى الإمام أحمد عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات: فأما عرضتان فجداول ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي، فأخذُ بيمينه وأخذُ بشماله»^(٢).

قوله عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْقَىٰ كِتَابِهِ بِيَمِينِهِ، فَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْنِيبَةُ ۝١٩﴾
 إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْتَقٍ بِحَسَابِيَةِ ۝٢٠ فَهُوَ فِي عَيْشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قَطُوفُهَا
 دَانِيَةٌ ۝٢٢ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِيَةِ ۝٢٣ وَأَمَّا مَنْ أَوْقَىٰ كِتَابَهُ
 بِشِمَالِهِ، يَقُولُ يَلْتَنِنُنِي لَرَأُوتِ كِتَابِيَةِ ۝٢٤ وَلَرَأُوتِ مَا حَسَابِيَةِ ۝٢٥ يَلْتَنِنُهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ۝٢٦
 مَا أَغْفَىٰ عَنِّي مَالِي ۝٢٧ هَلَّاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ ۝٢٨ خَذُوهُ قَعْلُوهُ ۝٢٩ ثَرُ الْجَحِيمِ صَلْوُهُ ۝٣٠ ثَرُ فِي
 سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝٣١ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۝٣٢ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ
 طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۝٣٣ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ۝٣٤ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِن غِسْلِينٍ ۝٣٥ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا
 الْخَاطِئُونَ ۝٣٦﴾.

قال ابن جرير^(٣): يقول تعالى ذكره: فأما من أعطي كتاب أعماله بيمينه

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا، كما عزاه له ابن كثير في «تفسيره» (٤/٤١٤)، وأيضاً في «مسند الفاروق» (٢/٦١٨) وقال: «أثر مشهور، وفيه انقطاع».

(٢) أخرجه أحمد (٤/٤١٤)، والترمذي (ح/٢٤٢٧)، وابن ماجه (ح/٤٢٧٧)، قال الترمذي: «ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي موسى».

(٣) انظر «جامع البيان» (٢٩/٦٠).

فيقول: تعالوا اقرؤوا كتابيه. وقال ابن كثير^(١): يخبر تعالى عن سعادة من يؤتى كتابه يوم القيامة بيمينه وفرحه بذلك، وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه: ﴿هاؤم اقرؤوا كتابيه﴾، أي: خذوا اقرؤوا كتابي، لأنه يعلم أن الذي فيه خير؛ قال: ومعنى ﴿هاؤم﴾ هاكم. وعن قتادة: ﴿إني ظننت أني ملاقٍ حساييه﴾ ظن ظناً يقيناً فنفعه الله بظنه ﴿فهو في عيشة راضية في جنة عالية قطوفها دانية﴾ قال قتادة: دنت فلا يردّ أيديهم عنها بُعدٌ ولا شوك. وروى الطبراني عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل أحد الجنة إلاّ بجواز: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من الله لفلان بن فلان، أدخلوه جنة عالية قطوفها دانية»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ قال قتادة: إن أيامكم هذه أيام خالية تؤدّي إلى أيام باقية، فاعملوا في هذه الأيام وقدموا فيها خيراً إن استطعتم، ولا قوة إلاّ بالله. وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «اعملوا وسددوا وقاربوا، واعلموا أن أحداً منكم لن يدخله عمله الجنة»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: «ولا أنا، إلاّ أن يتغمّدني الله برحمته منه وفضل»^(٣).

﴿وأما من أوتي كتابه بشماله﴾ قال ابن السائب: تلوى يده اليسرى خلف ظهره ثم يعطى كتابه ﴿فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حساييه يا ليتها كانت القاضية﴾ قال البغوي^(٤) يقول: يا ليت الموتة التي متها في الدنيا ﴿كانت القاضية﴾ الفارغة من كلّ ما بعدها، والقاطعة للحياة، فلم أحيّ بعدها. قال قتادة: يتمنى الموت، ولم يكن شيء في الدنيا عنده أكره من الموت. ﴿ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه﴾ قال ابن زيد: سلطان الدنيا. وعن مجاهد قوله: ﴿هلك عني

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٢٥).

(٢) أخرجه الطبراني (٦/٢٧٢)، والخطيب في تاريخه (٥/٥) بسند ضعيف.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٥٨).

سلطانيه ﴿ قال: حجتني. وقال قتادة: أما والله ما كل من دخل النار كان أمير قرية يجيئها، ولكن الله خلقهم وسلطهم على أقرانهم، وأمرهم بطاعة الله، ونهاهم عن معصية الله. وقال الفضيل بن عياض: إذا قال الرب عز وجل: ﴿خذوه فغلوه﴾ ابتدره سبعون ألف ملك أيهم يجعل الغل في عنقه ﴿ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾ قال ابن عباس: تسلك في دبره حتى تخرج من منخرية، حتى لا يقوم على رجلية.

﴿إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين فليس له اليوم ههنا حميم﴾ قال ابن جرير^(١): يعني في الدار الآخرة، قريب يدفع عنه ويعينه مما هو فيه من البلاء.

قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾^(٢). وعن قتادة قوله: ﴿ولا طعام إلا من غسلين﴾ شر الطعام وأخبثه وأبشعه. وعن ابن عباس قوله: ﴿ولا طعام إلا من غسلين﴾ صديد أهل النار ﴿لا يأكله إلا الخاطئون﴾ قال البغوي^(٣): أي الكافرون.

قوله عز وجل: ﴿فَلَا أُقِيمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّكُمْ لَقَوْلَ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا يَقُولُ كَآهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَدَّكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَنِيزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَذَكَّرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَتَعَالَمُونَ أَنَّا مُكْتَسِبُونَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّكُمْ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّكُمْ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

(١) انظر «جامع البيان» (٦٤/٢٩).

(٢) سورة غافر: الآية ١٨.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣٥٩/٤).

قال ابن زيد في قوله: ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾ أقسم بالأشياء، حتى أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون. قال ابن القيم^(١): «وهذا أعم قسم وقع في القرآن، فإنه يعم العلويات والسفليات، والدنيا والآخرة».

﴿إنه﴾ قال البغوي^(٢): يعني القرآن ﴿لقول رسول كريم﴾، أي: تلاوة ﴿رسول كريم﴾، يعني: محمد ﷺ. قال ابن كثير^(٣): أضافه إليه على معنى التبليغ، لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل، ولهذا أضافه في سورة التكوير إلى الرسول الملكي. وعن قتادة ﴿وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون﴾ طهره الله من ذلك وعصمه.

﴿ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون﴾ طهره من الكهانة وعصمه ﴿تنزيل من رب العالمين ولو تقول علينا بعض الأقاويل﴾ قال ابن كثير يقول تعالى: ﴿ولو تقول علينا﴾، أي: محمد ﷺ؛ لو كان كما يزعمون مفترياً علينا فزاد في الرسالة أو نقص منها، أو قال شيئاً من عنده فنسبه إلينا، وليس كذلك لعاجلناه بالعقوبة. وقال ابن جرير^(٤): ﴿ولو تقول علينا﴾ محمد بعض الأقاويل الباطلة، وتكذب علينا ﴿لأخذنا منه باليمين﴾ يقول: أخذنا منه بالقوة منا والقدرة ﴿ثم لقطعنا منه﴾ نياط القلب. وعن ابن عباس: ﴿ثم لقطعنا منه الوتين﴾ يقول: عرق القلب. وقال مجاهد: حبل القلب الذي في الظهر ﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾. وعن قتادة ﴿وإنه لتذكرة للمتقين﴾ قال: القرآن ﴿وإننا لنعلم أن منكم مكذبين وإنه لحسرة على الكافرين﴾ قال قتادة: ذاكم يوم القيامة.

(١) انظر «البيان في أقسام القرآن» (ص ١٧٤).

(٢) المصدر السابق (٤/٣٥٩).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤١٧).

(٤) انظر «جامع البيان» (٢٩/٦٦).

﴿وإنه لحقّ اليقين﴾ قال ابن كثير^(١): أي الخبر الصدق الحقّ، الذي لا مريّة فيه ولا شكّ ولا ريب ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾. وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال: خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقامت خلفه فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن، فقلت: هذا والله شاعر كما قالت قريش، فقرأ ﴿إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون﴾ فقلت: كاهن، فقرأ ﴿ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون تنزيل من رب العالمين ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ إلى آخر السورة، فوقع الإسلام في قلبي كلّ موقع^(٢).



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤١٧).

(٢) أخرجه أحمد (١/١٧) وفيه انقطاع.

الدرس التاسع والثمانون بعد المائتين

﴿سورة المعارج﴾

مكية، وهي أربع وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنْ أَثَمِ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَمْرُجُ الْمَلَيْكَةِ وَالرُّوحِ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالهَلِّهِلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْتَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ تَوَاقِعُ مِنْ عَذَابٍ يَوْمِيذٍ بَيْنَهُ ﴿١١﴾ وَصَنْجِبْتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَكَّلُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْلَبُ ﴿١٥﴾ نِزَاعَةً لِّلشَّوْىِ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا مِنْ آدْبَرِ وَتَوَلَّى ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴿١٨﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مِّمَّا لَمَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْعَمَلِ ﴿٢٤﴾ فَلَلْأُولَئِكَ نَدْعُونَ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يَبْذُرُونَ بَخِيلًا ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَعْيُنِنَا قَبِيضُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُؤَمَّنَةٌ بِأَعْيُنِنَا ﴿٣٠﴾ فَنَنْزِلُ الرِّسَالَاتِ سَوَاءً ﴿٣١﴾ وَإِلَى رَبِّنَا أَنتِجُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ

بَشِّرْهُمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ يَحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ قَالَ
 الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِكَ مَهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطَّعُ كُلُّ امْرِئٍ مَنَّهُمْ أَنْ
 يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا ۗ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
 إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا
 يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانْتُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِصُونَ ﴿٤٣﴾ خَشِيعَةً
 أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴿

* * *

قوله عز وجل : ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقَعِ ۖ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ۖ﴾
 مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٢﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ
 خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٣﴾ فَأَصْبَرَ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٥﴾ وَرَأَاهُ قَرِيبًا ﴿٦﴾ يَوْمَ
 تَكُونُ السَّمَاءُ كَالرَّهْلِ ﴿٧﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٨﴾ وَلَا يَسْتَلُّ حِمِيمٌ حِمِيمًا ﴿٩﴾
 يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ تَوَّافِتِي مِّنْ عَذَابٍ يَوْمِيذٍ بَيْنِيهِ ﴿١٠﴾ وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١١﴾
 وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَبَعُ ﴿١٢﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ إِنَّهَا لَطْفٌ ﴿١٤﴾ نَزَاعَةٌ
 لِّلشَّوْءِ ﴿١٥﴾ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ تَوَلَّى ﴿١٦﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴿١٧﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ قال: ذاك سؤال الكفار عن عذاب الله، وهو واقع. وعن قتادة قوله: ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ قال: سأل عذاب الله أقوام، فبين الله على من يقع فقال: ﴿للكافرين ليس له دافع من الله ذي المعارج﴾ قال مجاهد: معارج السماء ﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾، قال: انتهى أمره من أسفل الأرض ومن الأرض إلى منتهى أمره من فوق السموات مقدار خمسين ألف سنة، ويوم كان مقداره ألف سنة يعني بذلك نزول الأمر من السماء إلى الأرض ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد، فذلك مقداره ألف سنة، لأن ما بين السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام. وعن ابن عباس قال: ﴿غلظ كل أرض خمسمائة عام، وبين كل أرض إلى أرض خمسمائة عام، فذلك سبعة آلاف عام؛ وغلظ كل سماء خمسمائة عام، وبين السماء إلى السماء خمسمائة عام، فذلك أربعة عشر ألف عام؛ وبين السماء السابعة وبين العرش مسيرة ستة وثلاثين ألف عام، فذلك قوله تعالى: ﴿في يوم كان مقداره

خمسين ألف سنة^(١).

قلت: ويشهد لهذا القول ما رواه الإمام أحمد وغيره عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «الجنة مائة درجة، ما بين كلّ درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تخرج الأنهار الأربعة، والعرش فوقها، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس»^(٢). وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»^(٣).

وقال البغوي^(٤): «تخرج الملائكة والروح»، يعني: جبريل عليه السلام إليه، أي: إلى الله عز وجل «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» من سني الدنيا، لو صعد غير الملك من بني آدم، من انتهى أمر الله تعالى من أسفل الأرض السابعة إلى انتهى أمر الله تعالى من فوق السماء السابعة، لما صعد في أقلّ من خمسين ألف سنة، والملك يقطع ذلك كلّ في ساعة واحدة. وقال ابن زيد في قوله: «فاصبر صبراً جميلاً» قال: هذا حين كان يأمره بالعفو عنهم لا يكافئهم، فلما أمر بالجهاد والغلظة عليهم أمر بالشدة والقتل حتى يتركوا، ونسخ هذا. قال ابن جرير^(٥): وهذا الذي قاله ابن زيد أنه كان أمر بالعفو بهذه الآية ثم نسخ ذلك، قول لا وجه له، لأنه لا دلالة على صحّة ما قال من بعض الأوجه التي تصحّ منها الدعاوى، وليس في أمر الله نبيه ﷺ بالصبر الجميل على أذى المشركين ما يوجب أن يكون ذلك أمراً منه له به في بعض الأحوال، بل كان ذلك أمراً من الله له به في

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٤/٤١٩)، بسند ضعيف جداً.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٦٢).

(٥) انظر «جامع البيان» (٢٩/٧٢).

كلّ الأحوال، لأنه لم يزل ﷺ من لدن بعثه الله إلى أن اخترمه في أذى منهم، وهو في كلّ ذلك صابر على ما يلقي منهم من أذى، قبل أن يأذن الله له بحربهم وبعد إذنه له بذلك.

وقال ابن كثير^(١) وقوله تعالى: ﴿فاصبر صبراً جميلاً﴾، أي: اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك واستعجالهم العذاب استبعاداً لوقوعه، كقوله: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق﴾^(٢) ولهذا قال: ﴿إنهم يرونه بعيداً﴾، أي: وقوع العذاب وقيام الساعة يراه الكفرة بعيد الوقوع، بمعنى: مستحيل الوقوع ﴿ونراه قريباً﴾ قال البغوي^(٣): لأن ما هو آت قريب، وهو يوم القيامة.

﴿يوم تكون السماء كالمهل﴾ قال مجاهد: كعكر الزيت، وقال قتادة: تتحوّل يومئذ لونهاً آخر إلى الحمرة ﴿وتكون الجبال كالعهن﴾ قال: كالصوف ﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾ يشغل كلّ إنسان بنفسه عن الناس. وعن ابن عباس قوله: ﴿يبصرونهم﴾ قال: يعرف بعضهم بعضاً، ويتعارفون بينهم، ثم يفرّ بعضهم من بعض، يقول: ﴿لكلّ امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾. وقال ابن كثير^(٤): وقوله تعالى: ﴿ولا يسأل حميم حميماً يبصرونهم﴾، أي: لا يسأل القريب قريبه عن حاله وهو يراه في أسوأ الأحوال، فتشغله نفسه عن غيره ﴿يوذّ المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ بينه وصاحبه وأخيه وفصيلته التي تؤويه﴾ قال ابن زيد: فصيلته عشيرته ﴿ومن في الأرض جميعاً ثم ينجي﴾ ذلك الفداء من عذاب الله. قال قتادة: الأحبّ فالأحبّ، والأقرب فالأقرب من أهله وعشيرته لشدائد ذلك اليوم.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٢٠).

(٢) سورة الشورى: الآية ١٨.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٦٢).

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٢٠).

قال البغوي^(١): ﴿كلا﴾ لا ينجيه من عذاب الله شيء، ثم ابتداءً فقال: ﴿إنها لظى﴾ وهي اسم من أسماء جهنم ﴿نزاعة للشوى﴾ قال قتادة: أي نزاعة لهامته ومكارم خلقه وأطرافه. وقال الضحاك: تبري اللحم والجلد عن العظم حتى لا تترك منه شيئاً. وقال الحسن: تحرق كل شيء منه ويبقى فؤاده نضيجاً. وعن قتادة قوله: ﴿تدعو من أدبر وتولى﴾ أدبر عن طاعة الله وتولى عن كتاب الله وعن حقه ﴿وجمع فأوعى﴾ كان جمعاً قوموا للخبيث. وقال ابن عباس: ﴿تدعو﴾ الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحب. وقال البغوي: ﴿وجمع﴾، أي: جمع المال ﴿فأوعى﴾ أمسكه في الوعاء ولم يؤذ حق الله منه.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَا مُنِئُوا وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٨﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٢٩﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَهُ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٣﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً﴾ قال: هو الذي قال الله ﴿إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً﴾ قال ابن جرير^(٢): والهلع شدة الجزع مع شدة الحرص والضجر. وقال ابن كيسان: خلق الله الإنسان يحب ما يسره ويهرب مما يكره، ثم تعبد به بإنفاق ما يحب والصبر على ما يكره. وعن قتادة قوله: ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً﴾ إلا المصلين الذين

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٦٣).

(٢) انظر «جامع البيان» (٧٨/٢٩).

هم على صلاتهم دائمون ﴿ ذكر لنا أن دانيال نعت أمة محمد ﷺ قال: يصلون صلاة لو صلاها قوم نوح ما غرقوا، أو عاد ما أرسلت عليهم الريح العقيم، أو ثمود ما أخذتهم الصيحة، فعليكم بالصلاة فإنها خلقت للمؤمنين حسنًا ^(١) . وعن إبراهيم ﴿ الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ قال: المكتوبة.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿ والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾ يقول: هو سوى الصدقة، يصل بها رحماً، أو يقري بها ضعيفاً، أو يحمل بها كلاً، أو يُعين بها محروماً؛ وقال: المحروم هو المحارف الذي يطلب الدنيا وتدبر عنه، فلا يسأل الناس. وقال ابن زيد: المحروم المصاب ثمره وزرعه. وقال قتادة: السائل الذي سأل بكفه، والمحروم المتعفف، ولكليهما عليك حق يا ابن آدم.

﴿ والذين يصدقون بيوم الدين والذين هم من عذاب ربهم مشفقون إن عذاب ربهم غير مأمون ﴾. قال ابن كثير ^(٢): أي لا يأمنه أحد ممن غفل عن الله أمره إلا بأمان من الله تبارك وتعالى.

﴿ والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملك أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ قال ابن جرير ^(٣): فمن التمس لفرجه منكم سوى زوجته أو ملك يمينه، ففاعلو ذلك هم العادون الذين عدوا ما أحل الله لهم إلى ما حرّم عليهم، فهم الملمومون.

﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ قال ابن كثير ^(٤): أي إذا أوتمنوا لم يخونوا وإذا عاهدوا لم يغدروا. وقال ابن جرير ^(٥): راعون: يرقبون ذلك

(١) أخرجه ابن جرير (٧٩/٢٩).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٢٢/٤).

(٣) انظر «جامع البيان» (٨٤/٢٩).

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٢٢/٤).

(٥) انظر «جامع البيان» (٨٤/٢٩).

ويحفظونه فيضيّعونه. ﴿والذين هم بشهاداتهم قائمون﴾ قال ابن كثير^(١): أي محافظون عليها لا يزيدون فيها ولا ينقصون منها ولا يكتمونها.

قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾^(٢).

﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾ قال ابن كثير^(٣): أي على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها؛ فافتتح الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها، فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها، ولهذا قال: ﴿أولئك في جنّات مكرمون﴾.

قوله عز وجل: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيْطَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أَقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَيْهِ أَنْ نَبْدِلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْبَسُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلُّكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿فمال الذين كفروا قبلك مهطعين﴾ قال: قبلك ينظرون ﴿عن اليمين وعن الشمال عزين﴾ قال: العزين العصب من الناس، عن يمين وشمال معرضين عنه يستنبئون به. وقال قتادة: ﴿عزين﴾، أي: فرق حول النبي ﷺ لا يرغبون في كتاب الله ولا في نبيه. وروى ابن جرير عن أبي هريرة أن النبي ﷺ خرج على أصحابه وهم حلق حلق فقال: «مالي أراكم

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٢٢).

(٢) سورة النساء: الآية ١٣٥.

(٣) المصدر السابق (٤/٤٢٢).

عزيرين^(١)؟ قال البغوي^(٢): والعزيرين جماعات في تفرقة، واحدها عزة.

﴿أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم﴾ قال ابن عباس: معناه أيطمع كل رجل منهم أن يدخل جنتي كما يدخلها المسلمون ويتنعم فيها، وقد كذب نبي؟ ﴿كلاً﴾ لا يدخلونها؛ ثم ابتداء فقال: ﴿إنا خلقناهم مما يعلمون﴾، أي: من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، نبه الناس على أنهم خلقوا من أصل واحد، وإنما يتفاضلون ويستوجبون الجنة بالإيمان والطاعة. وعن قتادة قوله: ﴿إنا خلقناهم مما يعلمون﴾ إنما خلقت من قدر يا ابن آدم، فاتق الله. ﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب، إنا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين﴾ ما يفوتنا منهم أحد، وعن ابن عباس في قوله: ﴿رب المشارق والمغارب﴾ قال: «إن الشمس تطلع كل سنة في ثلاثمائة وستين كوة، تطلع كل يوم في كوة، لا ترجع إلى تلك الكوة إلا ذلك اليوم من العام المقبل، ولا تطلع إلا وهي كارهة، تقول: رب لا تطلعي على عبادك، فإني أراهم يعصونك»^(٣).

﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون﴾ عن قتادة ﴿يوم يخرجون من الأجداث﴾، أي: من القبور ﴿سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون﴾ قال: إلى علم يسعون ﴿خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة﴾ قال ابن كثير^(٤): أي في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة ﴿ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون﴾ قال قتادة: ﴿ذلك اليوم﴾ يوم القيامة ﴿الذي كانوا يوعدون﴾.

(١) أخرجه ابن جرير (٨٦/٢٩)، وفيه سنده ضعف، لكن له شاهد من حديث جابر — رضي الله عنه — أخرجه مسلم (ح/٤٣٠) بنحوه.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٦٤).

(٣) أخرجه ابن جرير (٨٧/٢٩)، وأبو الشيخ في «العظمة» (ح/٦٤٦).

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٢٤).

الدرس التسعون بعد المائتين

﴿سورة نوح﴾

مكية، وهي ثمان وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾
قَالَ يَاقَوْمِ إِنَّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أِنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ۖ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن
ذُنُوبِكُمْ وَيُخَوِّضْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٤﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٥﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا
دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغُرًا ۚ أَيَذَبُونَهُمْ وَإِذَا نَادَيْتُهُمْ لِيُاسْتَجِيبُوا لِي
أَسْتَجِيبُوا ۖ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٦﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٧﴾
فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿٨﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿٩﴾ وَيُمَدِّدُكُمْ
بِأَمْوَالٍ وَيَبِينُ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٠﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١١﴾ وَقَدْ
خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٢﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٣﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ
نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٤﴾ وَاللَّهُ أُنَبِّئُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٥﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا
وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٧﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا
فِجَابًا ﴿١٨﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي نَادَيْتُكَ وَاتَّبَعْتُكَ وَأَتَّبَعُوا مِن لَّدُنِّي مَالَهُمْ وَوَلَدَهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿١٩﴾

وَمَكْرُوا مَكْرًا كُبَرًا ﴿٢٧﴾ وَقَالُوا لَا نَدْرُنَّ هِيَ إِلَهْتِكُمْ وَلَا نَدْرُنَّ وِدًّا وَلَا سُوءًا وَلَا يَعْثُونَ
وَيَعُوقُونَ وَنَسْرًا ﴿٢٨﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٩﴾ مِمَّا خَطَبْتَهُمْ
أَغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٣٠﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى
الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٣١﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِاجِرًا
كَفَّارًا ﴿٣٢﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٣٣﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَوْيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿ أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ﴾ قال: أرسل الله المرسلين بأن يعبد الله وحده، وأن تتقي محارمه، وأن يطاع أمره. وعن مجاهد في قول الله: ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ قال: ما قد خط من الأجل، فإذا جاء أجل الله لا يؤخر. وقال ابن كثير^(١): يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام أنه أرسله إلى قومه، أمراً له أن يندرهم بأس الله قبل حلوله بهم، فإن تابوا وأنبأوا رفع عنهم، ولهذا قال: ﴿ أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم قال يا قوم إني لكم نذير مبين ﴾، أي: بين النذارة ظاهر الأمر واضحه: ﴿ أن اعبدوا الله واتقوه ﴾، أي: اتركوا محارمه واجتنبوا مآثمه ﴿ وأطيعون ﴾ فيما أمركم به وأنهاكم عنه ﴿ يغفر لكم ذنوبكم ﴾، أي: إذا فعلتم ما أمركم به وصدقتم ما أرسلت به إليكم غفر الله لكم ذنوبكم ﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾، أي: يمد في أعماركم، ويدرأ عنكم العذاب ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ﴾، أي: بادروا بالطاعة قبل حلول النعمة. انتهى ملخصاً.

قوله عز وجل: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاؤِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِي مَا ذَانِبِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٢٤).

ثِيَابِهِمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ
وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ
عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِيئٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ
لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ
طَبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ
نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾
لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿فلم يزدهم دعائي إلا فراراً﴾ قال: بلغنا أنهم كانوا يذهب
الرجل بابنه إلى نوح فيقول لابنه: احذر هذا لا يغويتك، فأراني قد ذهب بي أبي
إليه وأنا مثلك فحذرتني كما حذرتك. وقال ابن زيد في قوله: ﴿جعلوا أصابعهم
في آذانهم﴾ لئلا يسمعوا كلام نوح عليه السلام: ﴿وأصروا﴾ قال: الإصرار إقامتهم
على الشر والكفر. وعن مجاهد قوله: ﴿ثم إنني دعوتهم جهاراً﴾ قال: الجهار
الكلام المعلن به: ﴿ثم إنني أعلنت لهم﴾ قال: صحت: ﴿وأسررت لهم إسراراً﴾
قال: فيما بيني وبينهم. وعن قتادة في قوله: ﴿ثم إنني دعوتهم جهاراً﴾ إلى قوله:
﴿ويجعل لكم أنهاراً﴾ قال: رأى نوح قوماً تجرعت أعناقهم حرصاً على الدنيا،
فقال: هلموا إلى طاعة الله، فإن فيها درك الدنيا والآخرة.

وعن مجاهد: ﴿مالكم لا ترجون لله وقاراً﴾ قال: لا ترون لله عظمة. وقال
ابن عباس: مالكم لا تعظمون الله حق عظمتة؟ وقال ابن زيد: الوقار الطاعة. وعن
قتادة: ﴿وقد خلقكم أطواراً﴾ طوراً نطفة، وطوراً علقة، وطوراً مضغة، وطوراً
عظاماً، ثم كسى العظام لحماً ثم أنشأه خلقاً آخر أنبت به الشعر، فبارك الله أحسن
الخالقين.

قوله تعالى: ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهنّ

نوراً وجعل الشمس سراجاً والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴿١﴾ قال ابن كثير (١): وكل هذا مما ينتههم به نوح عليه السلام، على قدرة الله وعظمته في خلق السموات والأرض، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية، فهو الخالق الرازق، جعل السماء بناء والأرض مهاداً، وأوسع على خلقه من رزقه، فهو الذي يحب أن يعبد ويوحّد ولا يشرك به أحد، لأنه لا نظير له ولا عديل له، ولا ندّ ولا كفؤ، ولا صاحبة ولا ولد، ولا وزير ولا مشير، بل هو العليّ الكبير.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّمَّ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُمْ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكْرُوهًا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾﴾.

قال البغوي (٢): ﴿قال نوح ربّ إنهم عصوني﴾ يعني لم يجيبوا دعوتي: ﴿واتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا خساراً﴾ يعني اتبع السفلة والفقراء القادة والرؤساء الذين لم يزددهم كثرة المال والولد إلا ضلالاً في الدنيا، وعقوبة في الآخرة: ﴿ومكرواً مكرأ كبراً﴾، أي: كبيراً عظيماً. قال ابن عباس: قالوا قولاً عظيماً. وقال الضحاك: افتروا على الله وكذبوا رسله.

﴿وقالوا لا تذرّن آلهتكم ولا تذرّن ودأ ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾ قال محمد بن قيس: كانوا قومأ صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس فقال:

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٢٦).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٦٨).

إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسقون المطر فعبدهم. وعن قتادة: ﴿لا تذرْ أَلهتكم ولا تذرْ وَدًّا ولا سُواعاً ولا يَغوثَ وَيَعوقَ ونَسراً﴾ قال: كان وَدَ لهذا الحي من كلب بدومة الجندل، وكانت سُواع لهذيل برياط، وكان يَغوث لبني غطيف من مراد بالجُرف، وكان يَعوق لهمدان، وكان نَسر لذي الكلاع من حِمير، قال: كانت آلهة تعبدها قوم نوح ثم عبدتها العرب بعد ذلك. وعن ابن عباس أن تلك الأوثان دفنها الطوفان وطمها التراب، فلم تزل مدفونة حتى أخرجها الشيطان لمشركي العرب.

قال ابن كثير^(١) وقوله تعالى: ﴿وقد أضلوا كثيراً﴾ يعني الأصنام التي اتخذوها، أضلوا بها خلقاً كثيراً، فإنه استمرت عبادتها في القرون إلى زماننا هذا في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم؛ وقد قال الخليل عليه السلام في دعائه: ﴿واجنبي وبني أن نعبد الأصنام، رب إنهن أضللن كثيراً من الناس﴾^(٢). وقوله: ﴿ولا تزد الضالين إلا ضلالاً﴾ دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم، كما دعا موسى على فرعون وملئه في قوله: ﴿ربنا اطمس على أموالهم وأشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾^(٣) وقد استجاب الله لكل من النبيين في قومه، وأغرق أمته لتكذيبهم بما جاءهم به.

قوله عز وجل: ﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾^(٤) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا^(٥) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِاجِرًا كَفَّارًا^(٦) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا^(٧).

عن سفيان قوله: ﴿مما خطيئاتهم أغرقوا﴾ وعن قتادة في قوله: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ أما والله ما دعا عليهم حتى أتاه الوحي من السماء

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٢٧).

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٣٥.

(٣) سورة يونس: الآية ٨٨.

أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، فعند ذلك دعا عليهم نبي الله نوح فقال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾؛ ثم دعا دعوة عامة فقال: ﴿رب اغفر لي ولوالدي وللمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تباراً﴾ قال مجاهد: إلا خساراً. وعن عبيد بن عمير الليثي أنه كان يحدث أنه بلغه: «أنهم كانوا يبطشون به — يعني قوم نوح — فيخنقونه حتى يغشى عليه، فإذا أفاق قال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، حتى إذا تمادوا في المعصية، وعظمت في الأرض منهم الخطيئة، وتناول عليه عليهم الشأن، واشتد عليه منهم البلاء، وانتظر النجل بعد النجل، فلا يأتي قرن إلا كان أخيب من القرن الذي قبله، حتى أن الآخر منهم ليقول: قد كان هذا مع آبائنا ومع أجدادنا هكذا مجنوناً، لا يقبلون منه شيئاً، حتى شكى ذلك من أمرهم نوح إلى الله تعالى، كما قص الله علينا في كتابه: ﴿رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدتهم دعائي إلا فراراً﴾ إلى آخر القصة، حتى قال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾ إلى آخر القصة.

فلما شكى ذلك منهم نوح إلى الله واستنصره عليهم، أوحى الله إليه: ﴿أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾^(١)، أي: بعد اليوم: ﴿إنهم مغرقون﴾ فأقبل نوح على عمل الفلك، ولهى عن قومه، وجعل يقطع الخشب، ويضرب الحديد، ويهيء عدة الفلك من القار وغيره مما لا يصلحه إلا هو، وجعل قومه يمزون به وهو في ذلك من عمله فيسخرون منه ويستهزئون به فيقول: ﴿إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾^(٢).

(١) سورة هود: الآية ٣٧.

(٢) سورة هود: الآية ٣٨.

قال: ويقولون له فيما بلغني: يا نوح قد صرت نجاراً بعد النبوة؟ قال: وأعقم الله أرحام النساء فلا يولد لهم ولد؛ قال: ويزعم أهل التوراة أن الله أمره أن يصنع الفلك من خشب الساج، وأن يصنعه أزور، وأن يطليه بالقار من داخله وخارجه، وأن يجعل طوله ثمانين ذراعاً، وأن يجعله ثلاثة أطباق سفلاً ووسطاً وعلوياً، وأن يجعل فيه كوى؛ ففعل نوح كما أمره الله، حتى إذا فرغ منه، وقد عهد الله إليه: ﴿إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورَ فَاحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلِكْ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلَ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(١).

وروى ابن جرير عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «لو رحم الله أحداً من قوم نوح لرحم أم الصبي». قال رسول الله ﷺ: «كان نوح مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله، حتى كان آخر زمانه غرس شجرة فعظمت وذهبت كل مذهب، ثم قطعها ثم جعل يعمل سفينته فيسخرن منه ويقولون: يعمل سفينة في البر فكيف تجري؟! فيقول: سوف تعلمون؛ فلما فرغ منها وفار التنور وكثر الماء في السكك، خشيت أم الصبي عليه وكانت تحبه حباً شديداً، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء خرجت حتى بلغت ثلثي الجبل، فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بين يديها حتى ذهب بها الماء، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي»^(٢). والله أعلم.



(١) سورة هود: الآية ٤.

(٢) سبق تخريجه، وسنده ضعيف.

الدرس الحادي والتسعون بعد المائتين

﴿سورة الجن﴾

مكية، وهي ثمان وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أُوْحَىٰ إِلَىٰ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي
إِلَى الرُّشْدِ فَتَأْمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَلَّىٰ جَدًّا رَبَّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا
وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّن نَقُولَ الْإِنْسُ
وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ
رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَا
مُلَاقَاتَ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴿٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ
آلَانَ يَجِدْ لَمْ يُشَاهَبَا رَصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرٌ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ
رَشْدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ﴿١١﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّن
نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ءَأْمَنَّا بِهِ فَمَنْ
يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَحْسَ وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَا وَمِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَلِيسُطُونَ
فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشْدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَلِيسُطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَالْو
اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لَتَقِينَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ

يَسْأَلُكَ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنْ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنْتُمْ لِمَا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفَ نَاصِرًا وَأَقْلَمَ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُمُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ ﴿٢٨﴾

* * *

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَاقُولُ سَفِيهًا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّن نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلَمَّتًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴿٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنهَا مَقْعِدَ اللَّسَمِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَحِدْ لَهَا شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّن نَعْمَرَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نَعْمِرَهُمْ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى ءَامَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ .

قال ابن عباس: «انطلق رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب، فقالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فانطلقوا فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حدث. قال: فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء؛ فانطلق نفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة وهو عامد إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا والله الذي

حال بينكم وبين خير السماء. قال: فهناك حين رجعوا إلى قومهم قالوا يا قومنا: ﴿إنا سمعنا قرآناً عجيباً يهدي إلى الرشد فأماناً به ولن نشرك بربنا أحداً﴾. قال: فأنزل الله إلى نبيه ﷺ ﴿قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن﴾ وإنما أوحى إليه قول الجن^(١). وقال الضحّاك في قوله قال: ﴿أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن﴾ هو قول الله: ﴿وإذ صرفنا إليك نفرأ من الجن﴾^(٢).

وعن ابن عباس في قوله: ﴿وأنه تعالى جدّ ربنا﴾ يقول: فعله وأمره وقدرته. وعن مجاهد في قوله: ﴿وأنه تعالى جدّ ربنا﴾ قل: جلال ربنا. وقال الحسن: غنى ربنا. وعن مجاهد أيضاً قال: ذكره. وقال سعيد بن جبيرة: أي تعالى ربنا. قال البغوي^(٣) يقال: جدّ الرجل أي عَظَمَ، ومنه قول أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا أي عَظَمَ قدره. ﴿وأنه كان يقول سفيهاً﴾ قال البغوي^(٤): جاهلنا ﴿على الله شططاً﴾ كذباً وعدواناً، وهو وصفه بالشريك والولد. ﴿وأنا ظننا أن لن تقول الإنسا والجنّ على الله كذباً﴾ قال البغوي^(٥): أي ما حسبنا أن الإنس والجنّ يتمالون على الكذب على الله في نسبة الصاحبة والولد إليه. وعن معمر قال: تلا قتادة ﴿وأنه كان يقول سفيهاً على الله شططاً وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجنّ على الله كذباً﴾ فقال: عصاه والله سفيه الجنّ كما عصاه سفيه الإنس. وعن الحسن في قوله: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجنّ﴾ قال: كان الرجل منهم إذا نزل الوادي فبات به قال: أعوذ بعزير هذا الوادي من شرّ سفهاء قومه. ﴿فزادوهم رهقاً﴾ قال ابن زيد: خوفاً. وقال قتادة: قال الله ﴿فزادوهم

(١) أخرجه البخاري (ح/٧٧٣ و ٤٩٢١)، ومسلم (ح/٣٣٢٣).

(٢) سورة الأحقاف: الآية ٢٩.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٧٠ - ٣٧١).

(٤) المصدر السابق (٤/٣٧٠ - ٣٧١).

(٥) المصدر السابق (٤/٣٧٠ - ٣٧١).

رهقاً، أي: إثماً، وازدادت الجنّ عليهم بذلك جراءة.

﴿وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً﴾ بعد موته. وقال الكلبيّ. ظنّ كفّار الجنّ كما ظنّ كفرة الإنس: أن لا يبعث الله رسولاً. ﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً﴾ قال سعيد بن جبیر: «كانت الجن تستمع، فلما رُجموا قالوا: إن هذا الذي حدث في السماء لشيء حدث في الأرض. قال: فذهبوا يطلبون حتى رأوا النبيّ ﷺ خارجاً من سوق عكاظ يصلّي بأصحابه الفجر، فذهبوا إلى قومهم منذرين». وقال ابن زيد في قوله: ﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً﴾ حتى بلغ ﴿فمن يستمع الآن بحد له شهاباً رصداً﴾ فلما وجدوا ذلك رجعوا إلى إبليس فقالوا: منع منا السمع، فقال لهم: بأن السماء لم تحرس قطّ إلاّ على أحد أمرين: إما لعذاب يريد الله أن ينزله على أهل الأرض بغتة، وإما نبيّ مرشد مصلح. قال: فذلك قول الله ﴿وإنا لا ندرى أشرّ أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً﴾.

﴿وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قديداً﴾ قال ابن عباس: أهواء شتى، منا المسلم ومنا المشرك. وقال قتادة: أهواء مختلفة. ﴿وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً﴾ قال البغوي^(١): ﴿وأنا ظننا﴾ علمنا وأيقنا ﴿أن لن نعجز الله في الأرض﴾، أي: لن نفوته إن أراد بنا أمراً ﴿ولن نعجزه هرباً﴾ إن طلبنا. ﴿وأنا سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً﴾ قال ابن عباس: لا يخاف نقصاً من حسناته ولا زيادة في سيئاته. ﴿وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون﴾ قال: العادلون عن الحقّ الذين جعلوا لله نداءً ﴿فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً﴾ قال البغوي^(٢): أي قصدوا طريق الحقّ وتوخّوه ﴿وأما القاسطون﴾ الذين كفروا ﴿فكانوا لجهنّم حطباً﴾ كانوا وقود النار يوم القيامة.

(١) المصدر السابق (٤/٣٧٠ - ٣٧١).

(٢) المصدر السابق (٤/٣٧٠ - ٣٧١).

قوله عز وجل: ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لَنَفْسِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفَ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾.

قال البغوي^(١): ثم رجع إلى كفار مكة فقال: ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة﴾ قال مجاهد: طريقة الإسلام ﴿لأسقيناهم ماء غدقاً﴾ قال: نافعاً كثيراً، لأعطيناهم مالا كثيراً ﴿لنفنتهم فيه﴾ قال: لنبتليهم به. وقال عمر رضي الله عنه: أينما كان الماء كان المال، وأينما كان المال كانت الفتنة. ﴿ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً﴾ قال ابن عباس: شاقاً. وقال قتادة: عذاباً لا راحة فيه. وعن ابن عباس ﴿عذاباً صعداً﴾ قال: جبل في جهنم. وعن قتادة قوله ﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله﴾ أحداً كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله، فأمر الله نبيه أن يوحد الله وحده. وقال ابن جرير^(٢): يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ ﴿قل أوحى إلي أني أنه استمع نفر من الجن﴾: ﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا﴾ أيها الناس ﴿مع الله أحداً﴾ ولا تشركوا به فيها شيئاً، ولكن أفردوا له التوحيد وأخلصوا له العبادة.

وعن قتادة ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً﴾ قال: تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفثوه، فأبى الله إلا أن ينصره ويمضيه

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٧٠ - ٣٧٢).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٩/١١٦).

ويظهره على من ناوأه. وقال الحسن: لما قام رسول الله ﷺ يقول: «لا إله إلا الله»، ويدعو الناس إلى ربهم، كادت العرب تكون عليه جميعاً. وقال ابن عباس ﴿لبدا﴾ أعواقاً. وقال العوفي عن ابن عباس: «لما سمعوا النبي ﷺ يتلو القرآن، كادوا يركبونه من الحرص لما سمعوه يتلو القرآن، ودنوا منه فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول، فجعل يقرئه ﴿قل أوحى إليّ أنه استمع نقر من الجن﴾»^(١) يستمعون القرآن. ﴿كادوا﴾ يعني الجن ﴿يكونون عليه لبدا﴾ أي يركب بعضهم بعضاً ويزدحمون حرصاً على استماع القرآن. قال ابن حجر العسقلاني^(٢): «والمعنى أن الجن تزاحموا على النبي ﷺ لما استمعوا القرآن، وهو المعتمد». انتهى.

﴿قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا﴾، أي: قال لهم الرسول لما آذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه، ليبتلوا ما جاء به من الحق، واجتمعوا على عدواته ﴿وإنما أدعو ربي﴾، أي: إنما أعبد ربي وحده لا شريك له، وأستجير به، وأتوكل عليه ﴿ولا أشرك به أحدا﴾.

وقوله تعالى: ﴿قل إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشدا﴾، أي: إنما أنا بشر مثلكم يوحي إليّ، وعبد من عباد الله ليس لي من الأمر شيء في هدايتكم ولا غوايتكم، بل المرجع في ذلك كله إلى الله عز وجل. ثم أخبر عن نفسه أيضاً أنه لن يجيره من الله أحد: أي لو عصيته فإنه لا يقدر أحد على إنقاذه من عذابه ﴿ولن أجد من دونه ملتحدا﴾ قال مجاهد: ملجأ. وعن قتادة ﴿إلا بلاغاً من الله ورسالاته﴾ فذلك الذي أملك بلاغاً من الله ورسالاته.

﴿ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عددا﴾ قال ابن كثير^(٣): أي حتى إذا

(١) أخرجه ابن جرير (١١٨/٢٩) بسند ضعيف.

(٢) انظر «فتح الباري» (٥٣٨/٨).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٣٢/٤).

البغوي^(١): أي ليعلم الرسول أن الملائكة قد أبلغوا رسالات ربهم ﴿وأحاط بما لديهم﴾، أي: علم الله ما عند الرسل، فلم يخفَ عليه شيء.

﴿وأحصى كل شيء عددا﴾. قال ابن كثير^(٢): ويحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الله عز وجل، وهو قول حكاه ابن الجوزي في زاد المسير، ويكون المعنى في ذلك: أنه يحفظ رسله بملائكته ليتمكّنوا من أداء رسالاته، ويحفظ ما ينزله إليهم من الوحي ﴿ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾، ويكون ذلك كقوله تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾^(٣)، وكقوله تعالى: ﴿وليعلمنّ الله الذين آمنوا وليعلمنّ المنافقين﴾^(٤) إلى أمثال ذلك من العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعاً لا محالة؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا﴾ قال ابن عباس: أحصى ما خلق وعرف عدد ما خلق، فلم يفته علم شيء حتى مثاقيل الذرّ والخردل.



(١) انظر «معالم التنزيل» (٣٧٤/٤).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٣٣/٤).

(٣) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

(٤) سورة العنكبوت: الآية ١١.

الدرس الثاني والتسعون بعد المائتين

﴿سورة المزمل﴾

مكية، وهي عشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَأْتِيهَا الْمُرْزَلُ ﴿١﴾ قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوْ أَنْقِصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ
وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا
وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَأذْكَرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾
رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ
هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا
وَحَجِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ
كَيْبًا مَهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾
فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَنْقُوتُ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ
الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ
شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ﴿٢٠﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُمُ ثُلُثَهُمْ
وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنَّنَا نَحْنُوهُ فَنَابَ عَلَيْكَ فَاقْرَأْ وَمَا
يَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن

فَضَّلِ اللَّهَ ۗ وَآخِرُونَ يَفْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَقْرَعُوا مَا تَشَاءُ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا
الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا نُقِذِمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَحَدُّوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ
أَجْرًا ۗ وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ ۝١ قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ يَصْفَهُ ۝٣ أَوْ انْقُصَ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٤ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ۝٥ وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ ترتيلاً ۝٦ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٧ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٨ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٩ وَأذْكَرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝١٠ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝١١ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٢ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهْلَهْز قَلِيلًا ۝١٣ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحِمَامًا ۝١٤ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٥ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلًا ۝١٦﴾ .

عن قتادة: ﴿يا أيها المزمل﴾، أي: المترمل في ثيابه. وعن ابن عباس قوله: ﴿قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً﴾ فأمر الله نبيه والمؤمنين بقيام الليل إلا قليلاً، فشق ذلك على المؤمنين، ثم خفف عنهم فرحمهم، وأنزل الله بعد هذا: ﴿علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله﴾ إلى قوله: ﴿فأقرأوا ما تيسر منه﴾ فوسع الله - وله الحمد - ولم يضيق. وعن عكرمة عن ابن عباس قال: «لما نزلت أول المزمل، كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان، وكان بين أولها وآخرها نحو من سنة».

وعن مجاهد في قول الله: ﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾ قال: ترسل فيه ترسلاً. وقال ابن عباس: بيته بياناً. وعن الحسن في قوله: ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ قال: العمل به. وقال قتادة: ثقیلاً واللّه، فرائضه وحدوده. وعن هشام ابن عروة عن أبيه: «أن النبي ﷺ كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته، وضعت جرائنها فما

تستطيع أن تحرك، حتى يسرى عنه»^(١). وقال ابن زيد: هو والله ثقیلاً مباركُ القرآن، كما نُقِلَ في الدنيا ثقل في الموازين يوم القيامة.

وعن مجاهد: ﴿إن ناشئة الليل﴾ قال: إذا قمت من الليل فهو ناشئة. وقال قتادة: ما كان بعد العشاء فهو ناشئة، وقالت عائشة: القيام بعد النوم. وقال ابن زيد في قوله: ﴿إن ناشئة الليل هي أشد وطأ﴾ قال: إن مصلي الليل القائم بالليل: ﴿أشد وطأ﴾ طمأنينة، أفرغ له قلباً: ﴿وأقوم قِيلاً﴾ قال: أقوم قراءة لفراغه من الدنيا.

﴿إن لك في النهار سبْحاً طويلاً﴾ قال: لحوائجك: ﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً﴾ قال ابن عباس: أخلص له إخلاصاً. وقال قتادة: أخلص له العبادة والدعوة. وقال الحسن: ابتل نفسك واجتهد. ﴿ربّ المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً﴾ قال البغوي^(٢): قِيماً بأمورك ففوضها إليه: ﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرأ جميلاً﴾ قال ابن كثير^(٣): يقول تعالى آمراً رسوله بالصبر على ما يقول من كذبه من سفهاء قومه، وأن يهجرهم: ﴿هجرأ جميلاً﴾ وهو الذي لا عتاب معه. ثم قال متوعداً لهم: ﴿وذرنى والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً﴾، أي: دعني والمكذبين المترفين أصحاب الأموال، فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم، وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم. ﴿ومهلهم قليلاً﴾، أي: رويداً، كما قال تعالى: ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾^(٤)

(١) أخرجه ابن جرير (١٢٧/٢٩) عن عروة مرسلأ. وروي مسندأ من حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه أحمد (١١٨/٦)، والحاكم (٥٠٥/٢)، وصححه، ووافقه الذهبي.

تنبيه: وقع في (الأصل): «جراتها» بالياء، وهو خطأ.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣٧٨/٤).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٣٧/٤).

(٤) سورة لقمان: الآية ٢٤..

وعن قتادة: ﴿إِن لَدِينَا أَنْكَالًا﴾، أي: قيوداً. ﴿وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غِصَّةٍ﴾ قال ابن عباس: شرك يأخذ بالحلق فلا يدخل ولا يخرج. ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿يَوْمَ تَرْجَفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ قال ابن عباس: الكثيب المهيل الرمل السائل؛ قال ابن كثير^(١)، أي: تصير ككثبان الرمل بعدما كانت حجارة صماء، ثم إنها تنسف نفساً فلا يبقى منها شيء إلا ذهب، حتى تصير الأرض: ﴿قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنْقَطِرَةٌ بِهِمْ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَذَا مِن ذِكْرِهِ فَمَنْ شَاءَ أَخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.

قال ابن كثير^(٢): ثم قال تعالى مخاطباً لكفار مكة، والمراد سائر الناس: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَىٰ فِرْعَوْنَ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً﴾ قال قتادة: شديداً: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ يقول: كيف تتقون يوماً وأنتم قد كفرتم به ولا تصدقون به؟ وقال الضحاك في قوله: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ كان ابن مسعود يقول: إذا كان يوم القيامة دعا ربُّنا الملكُ آدمَ فيقول: يا آدم قم فابعث بعث النار، فيقول آدم، أي: رب لا علم لي إلا ما علّمتني، فيقول الله له: أخرج من كل ألف تسعمائة وتسعة تسعين، فيساقون إلى النار سوداً مقرنين زرقاً كالحين، فيشيب هنالك كل وليد^(٣).

(١) المصدر السابق (٤/٤٣٧ - ٤٣٨).

(٢) المصدر السابق (٤/٤٣٨).

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٩/١٣٧).

قال البغوي: ثم وصف هول ذلك اليوم فقال: ﴿السماء منفطر به﴾ متشقق لنزول الملائكة؛ ﴿به﴾، أي: بذك المكان. ﴿كان وعده مفعولاً﴾. ﴿إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ قال قتادة: بطاعة الله. وقال البغوي^(١): ﴿إن هذه﴾، أي: آيات القرآن: ﴿تذكرة﴾ تذكير وموعظة: ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ بالإيمان والطاعة.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِ أَيْلٍ وَنِصْفِهِمْ وَأَنْتَ مُطَافِيَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ تُحِصُّهُ فَنَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَقَرِّضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا نُقِذِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

قال البغوي^(٢): ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى﴾ أقل. ﴿من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك﴾ يعني المؤمنين، وكانوا يقومون معه. ﴿والله يقدر الليل والنهار﴾ قال عطاء: يريد: لا يفوته علم ما تفعلون، أي: أنه يعلم مقادير الليل والنهار، فيعلم القدر الذي تقومون من الليل. ﴿علم أن لن تحصوه﴾ قال الحسن: قاموا حتى انتفخت أقدامهم: فنزل ﴿علم أن لن تحصوه﴾ لن تطبيقه. ﴿فتاب عليكم فاقرأوا ما تيسر من القرآن﴾ يعني في الصلاة.

﴿علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله﴾ قال قتادة: ثم أنبأنا بخصال: ﴿علم أن سيكون

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٧٨).

(٢) المصدر السابق (٤/٣٧٩).

منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فافروا ما تيسر منه ﴿ فإن الله افترض القيام في أول هذه السورة، فقام نبيّ الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم، وأمّسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء، ثم أنزل التخفيف في آخرها فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة. ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ فهما فريضتان واجبتان لا رخصة لأحد فيهما فأدّوهما إلى الله تعالى ذكره.

﴿وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾ قال ابن زيد: القرض النوافل سوى الزكاة: ﴿وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً﴾ قال البغوي^(١): تجدوا ثوابه في الآخرة أفضل مما أعطيتم: ﴿وأعظم أجراً﴾ من الذي أخذتم ولم تقدّموه. ثم ساق بسنده عن الحارث بن سويد قال: قال عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «أيكم ماله أحبّ إليه من مال وارثه؟» قالوا: يا رسول الله ما ممّا أحد إلّا ماله أحبّ إليه من مال وارثه، قال: «اعلموا ما تقولون»، قالوا: ما نعلم إلّا ذلك يا رسول الله، قال: «ما منكم رجل إلّا مال وارثه أحبّ إليه من ماله»، قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: «إنما مال أحدكم ما قدّم، ومال وارثه ما أخر»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿واستغفروا الله﴾، أي: لذنوبكم: ﴿إن الله غفور رحيم﴾ وفي الصحيحين وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله تبارك وتعالى في كلّ ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: هل من سائل فأعطيته؟ هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟»^(٣) وروى أحمد وغيره عن أبي هريرة قلنا: يا رسول الله إذا رأيناك رقت قلوبنا وكنا من أهل الآخرة، وإذا فارقتنا أعجبتنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد، فقال: «لو أنكم تكونون على كلّ

(١) المصدر السابق (٤/٣٧٩).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (ح/١١٤٥)، ومسلم (ح/٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

حال على الحال التي كنتم عليها عندي، لصافحتكم الملائكة بأكفهم، ولزارتكم في بيوتكم، ولو لم تذبوا لجاؤ الله بقوم يذنبون كي يغفر لهم»، قلنا: يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: «لَبِنَةٌ ذهب وَلَبِنَةٌ فضة، وملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم لا يبأس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه. ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام وتفتح لها أبواب السماء، ويقول لها الرب عز وجل: وعزتي وجلالي لأنصرتك ولو بعد حين»^(١).



(١) أخرجه أحمد (٢/٣٠٤ - ٣٠٥)، والترمذي (ح/٣٥٩٨)، وابن ماجه (ح/١٧٥٢) كلاهما مقتصر على طرفه الأخير: «ثلاثة لا ترد دعوتهم...»، وسنده ضعيف، لكن طرفه الأول: «لو أنكم... ولزارتكم في بيوتكم». له شاهد من حديث أنس وحنظلة الأسدي فهو صحيح، وطرفه الآخر: «ولم تذبوا لجاؤ... كي يغفر لهم» له شاهد من حديث أبي أيوب عند مسلم. وطرفه الآخر: «لبنة ذهب... ولا يفنى شبابه» له شاهد من حديث ابن عمر عند الطبراني وابن أبي شيبة، بسند ضعيف.

الدرس الثالث والتسعون بعد المائتين

﴿سورة المدثر﴾

مكية، وهي ست (١) وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿بِأَيِّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُرْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَذِبْ ﴿٣﴾ وَبِأَبِكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّحْمَزُ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَنْتَكِرَهُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُمَ مَا لَا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُمْ تَسْهِيلًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا ﴿١٦﴾ سَأَرْهَقُهُمْ صعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَسَكَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴿٢٧﴾ لَا بُقْيَ وَلَا نَذْرٌ ﴿٢٨﴾ لَوْأَنَّ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَبَرِّدَا الَّذِينَ آمَنُوا إِيْمَانًا وَلَا يَرْثَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا

(١) في (الأصل): «سته»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي هي بخط المؤلف - رحمه الله - ، وهو الصواب.

كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ
 لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرَ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلَ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحَ إِذَا أَتَقَرَّ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾
 نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا
 أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا
 لَوْ نَكُنَّ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ نَكُنَّ نَاطِقِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحُوضُ مَعَ الْغَائِضِينَ ﴿٤٥﴾
 وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ
 عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَانَهُمْ حُرٌّ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ
 أَمْرٍ مِنْهُمْ أَنْ يُوَفَّى صُحْفًا مُنْشَرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ
 تَذْكَرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ
 الْغَفْرَةِ ﴿٥٦﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَتَابَهَا الْمَدَّثِرُ ﴿١﴾ قُرْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرَّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَمُنَّ تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا يُقْرَأْ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠﴾ .

عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي: «بينا أنا أمشي، سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي، فإذا أنا بالملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجنشت منه فرقاً، وحنث فقلت: زملوني زملوني، فدثروني فأنزل الله: ﴿يا أيها المدثر قم فأندر وربك فكبر﴾ إلى قوله: ﴿والرجز فاهجر﴾ - قال - ثم تتابع الوحي»^(١).

وعن قتادة: ﴿قم فأندر﴾، أي: أندر عذاب الله ووقائعه في الأمم وشدة نعمته. ﴿وربك فكبر﴾ قال ابن جرير^(٢): يقول تعالى ذكره: وربك يا محمد فعظم بعبادته والرغبة إليه في حاجاتك دون غيره من الآلهة والأنداد. ﴿وثيابك فطهر﴾ قال قتادة يقول: طهرها من المعاصي. وعن ابن عباس: ﴿وثيابك فطهر﴾ قال: من الإثم ثم قال: نقي الثياب في كلام العرب. وعن مجاهد في قوله: ﴿وثيابك فطهر﴾ قال: عملك فأصلح. وقال ابن زيد: كان المشركون لا يتطهرون، فأمره أن يتطهر ويطهر ثيابه. وعن مجاهد قوله: ﴿والرجز فاهجر﴾ قال: الأوثان. ﴿ولا تمنن تستكثر﴾ قال ابن عباس: لا تعط عطية تلمس بها أفضل منها. قال الضحاك: هما ربوان: حلال وحرام، فأما الحلال فالهدايا، وأما الحرام فالربا. وقال: هي

(١) أخرجه البخاري (ح/٤ و ٣٢٣٨ و ٤٩٢٢ و ٤٩٢٣)، ومسلم (ح/١٦١).

(٢) انظر «جامع البيان» (١٤٤/٢٩).

للنبي ﷺ خاصة. ﴿ولربك فاصبر﴾ قال ابن زيد: حُمِّلَ أمراً عظيماً: محاربة العرب ثم العجم من بعد العرب، في الله.

وعن مجاهد: ﴿فإذا نقر في الناقور﴾ قال: إذا نفخ في الصور: ﴿فذلك يومئذ يوم عسير﴾ قال ابن عباس يقول: شديد. قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى^(١) جبهته يستمع متى يؤمر ينفخ فيه؟» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: كيف نقول؟ فقال: «تقولون: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»^(٢). وعن قتادة: قال الله تعالى ذكره: ﴿فذلك يومئذ يوم عسير﴾ فبين الله على من يقع على الكافرين غير يسير.

قوله عز وجل: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَمْ مَالًا مَمْدُودًا ۗ وَيَنْبَغُ شُهُودًا ۗ وَمَهَّدْتُ لَمْ تَمَهِيدًا ۗ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۗ كَلَّا ۗ إِنَّمَا كَانَ لِأَيْدِينَا عَيْنًا ۗ سَاءَ هَقْمُهُ صَعُودًا ۗ إِنَّمَا فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۗ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۗ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۗ ثُمَّ نَظَرَ ۗ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۗ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۗ فَكَانَ إِذَا سَمِعَ بِئُورِ ۗ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۗ سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ ۗ وَمَا أَزِيدُكَ مَا سَقَرُ ۗ لَا بُقْيَ وَلَا نَذْرٌ ۗ لَوْ أَعَا لِلْبَشَرِ ۗ عَلَيَّاسَ عَشْرَ ۗ﴾.

عن مجاهد: ﴿ذرنني ومن خلقت وحيداً﴾ قال: نزلت في الوليد بن المغيرة. قال قتادة: أخرجته الله من بطن أمه وحيداً لا مال له ولا ولد، فرزقه المال والولد والثروة والنساء: ﴿وجعلت له مالاً ممدوداً وبنين شهوداً﴾ قال مجاهد: كان بنوه عشرة لا يغيبون: ﴿ومهدت له تمهيداً﴾ من المال والولد. قال سفيان: بسط له. ﴿ثم يطمع أن أزيد كلاً﴾.

(١) في (الأصل): «وحتى»، وهو خطأ.

(٢) أخرج ابن جرير (١٥١/٢٩) بسند ضعيف.

قال البغوي^(١): ﴿ثم يطمع﴾ يرجو: ﴿أن زيد﴾، أي: أزيده مالاً وولداً وتمهيداً: ﴿كلاً﴾ لا أفعل ولا أزيده؛ وقالوا: فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله وولده حتى هلك. وعن ابن عباس قوله: ﴿إنه كان لآياتنا عنيداً﴾ قال: جحوداً. ﴿سأرهقه صعوداً﴾ قال مجاهد: مشقة من العذاب. وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفاً، ثم يهوي كذلك منه أبداً»^(٢). رواه ابن جرير.

﴿إنه فكر وقدر﴾ قال البغوي^(٣): وذلك أن الله تعالى لما أنزل على النبي ﷺ: ﴿حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم﴾ إلى قوله: ﴿المصير﴾^(٤) قام النبي ﷺ في المسجد، والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته، فلما فطن النبي ﷺ لاستماعه لقراءته، أعاد قراءة الآية، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه بني مخزوم فقال: والله لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يُعلَى. ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش: صباً والله الوليد، والله لتصبأَنَّ قريش كلهم - وكان يقال للوليد: ريحانة قريش - فقال لهم أبو جهل: أنا أكفيكموه؛ فانطلق فقعد إلى جنب الوليد حزيناً، فقال له الوليد مالي أراك حزيناً يا ابن أخي؟ قال: وما يمنعني أن لا أحزن، وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كبر سنك، ويزعمون أنك زيتت كلام محمد، وأنتك تدخل على

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٨٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣/٧٥)، والترمذي (ح/٢٥٧٦ و ٣٣٢٦)، وابن جرير (٢٩/١٥٥)، والحاكم

(٢/٥٠٧) وصححه ووافقه الذهبي! قلت: وهذا الحديث من رواية أبي السمح: دراج،

عن أبي الهيثم، وروايته عنه ضعيفة، كما حكاه غير واحد من الحفاظ، والله أعلم.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٨٣).

(٤) سورة غافر: الآيات ١ - ٣٢.

ابن أبي كبشة وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهم؟ فغضب الوليد فقال: ألم تعلم قريش أني من أكثرهم مالا وولداً؟ وهل يشيع محمد وأصحابه من الطعام، فيكون لهم فضل؟

ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه فقال لهم: تزعمون أن محمداً مجنون، فهل رأيتموه يخنق قط؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كاهن، فهل رأيتموه قط تكهن؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه ينطق بشعر قط؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كذاب، فهل جرّبتم عليه شيئاً من الكذب؟ قالوا: لا — وكان رسول الله ﷺ يسمّى الأمين قبل النبوة من صدقه — قالت قريش للوليد: فما هو؟ فتفكر في نفسه ثم نظر وعبس فقال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ فهو ساحر، وما يقوله سحر يؤثر^(١)؛ فذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ﴾ في محمد والقرآن ﴿وقَدَّرَ﴾ في نفسه ماذا يمكنه أن يقول في محمد والقرآن: ﴿فَقُتِلَ﴾ لُعن. وقال الزهري: عُدّب: ﴿كيف قدّر﴾ على طريق التعجب والإنكار والتوبيخ: ﴿ثم قتل كيف قدّر﴾ كرّره للتأكيد: ﴿ثم نظر﴾ في طلب ما يدفع من القرآن ويرده: ﴿ثم عبس وبسر﴾ كلح وقطب وجهه فنظر بكرامية شديدة كالمتهم المتفكر في شيء.

﴿ثم أدبر﴾ عن الإيمان: ﴿واستكبر﴾ تكبر حين دعي إليه: ﴿فقال إن هذا﴾ ما هذا الذي يقرأه محمد: ﴿إلا سحر يؤثر﴾ يروى ويحكى عن السحرة: ﴿إن هذا﴾ إلا قول البشر ﴿يعني يساراً وجبراً﴾ فهو يآثره عنهما. قال الله تعالى: ﴿سأصليه﴾ سأدخله: ﴿سقر﴾ وسقر: اسم من أسماء جهنم: ﴿وما أدراك ما سقر لا تبقي ولا تذر﴾ قال السدي: ﴿لا تبقي﴾ لهم لحماً: ﴿ولا تذر﴾ لهم عظماً. وقال مجاهد:

(١) أخرجه الحاكم بنحوه (٥٠٧/٢)، وصححه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه ابن جرير (١٥٦/٢٩) بنحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما بسند ضعيف.

كلما احترقوا جُددوا: ﴿لَوْاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ قال ابن عباس: تحرق بشرة الإنسان. وقال ابن زيد: النار تغير ألوانهم: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال ابن زيد: خزنتها تسعة عشر.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْفَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرَ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلَ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحَ إِذَا أَشْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُم أَن يُقَدَّمَ أَوْ يُؤَخَّرَ ﴿٣٧﴾ .

قال ابن عباس وغيره: لما نزلت: ﴿عليها تسعة عشر﴾ قال أبو جهل لقريش: نكلتكم أمهاتكم، أسمع ابن أبي كبشة يخبر أن خزنة جهنم تسعة عشر، وأنتم الذم — أي الشجعان — أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد من خزنة جهنم؟ قال أبو الأشد الجمحي: أنا أكفيكم منهم سبعة عشر، فاكفوني أنتم اثنين، فأنزل الله عز وجل: ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً﴾^(١). قال ابن عباس: وإنما في التوراة والإنجيل: تسعة عشر، فأراد الله أن يستيقن أهل الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً.

﴿ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون﴾ قال ابن جرير^(٢): ولا يشك أهل التوراة والإنجيل في حقيقة ذلك، والمؤمنون بالله من أمة محمد ﷺ: ﴿وليقول الذين في قلوبهم مرض﴾ نفاق: ﴿والكافرون﴾ بالله من مشركي قريش: ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلاً؟﴾ قال ابن زيد يقولون: حين يخوفنا بهؤلاء التسعة عشر.

(١) أخرجه ابن جرير (١٥٩/٢٩) بسند ضعيف جداً.

(٢) انظر «جامع البيان» (١٦٠/٢٩).

﴿كذلك﴾ قال البغوي^(١)، أي: كما أضلَّ الله من أنكر عدد الخزنة وهدى من صدَّق: ﴿كذلك يضلُّ الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ قال مقاتل: هذا جواب أبي جهل حين قال: أما لمحمد أعوان إلا تسعة عشر؟ قال عطاء: ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ يعني من الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار، لا يعلم عدتهم إلا الله؛ والمعنى: أن تسعة عشر هم خزنة النار، ولهم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمهم إلا الله عز وجل.

ثم رجع إلى ذكر سقر فقال: ﴿وما هي﴾ يعني النار: ﴿إلا ذكرى للبشر﴾ إلا تذكرة وموعظة للناس. ﴿كلًّا والقمر﴾ هذا قسم، يقول: حقًّا. ﴿والليل إذا أدير والصبح إذا وسفّر﴾ إنها لإحدى الكبر. قال مجاهد: يعني جهنم: ﴿نذيرًا للبشر﴾ قال الحسن: والله ما أنذر الناس بشيء أدهى منها. ﴿لمن شاء منكم أن يتقدّم أو يتأخّر﴾ قال ابن عباس: من شاء اتبع طاعة الله، ومن شاء تأخر عنها.

قوله عز وجل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّتٍ يَسَاءَ لُونٌ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَرَنَّا مِنْ مَنِ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَرَنَّا نَكُ نَطُومُ الْمَسْكِينِ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْخَائِيضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٤٦﴾ حَقٌّ أَتَيْنَا الْقِيَمِ ﴿٤٧﴾ فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَانَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَّةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ تَذْكَرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرُوهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْعَفْوَرةِ ﴿٥٦﴾ .

عن ابن عباس: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ يقول: مأخوذة بعملها. ﴿إلا﴾

(١) المصدر السابق (٤/٣٨٧).

أصحاب اليمين ﴿ قال قتادة: علق الناس كلهم إلا أصحاب اليمين. وقال ابن زيد: لا يرتنون بذنوبهم، ولكن يغفرها الله لهم. ﴿ في جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ قال قتادة يقول: كلما غوى غاؤ غوينا معه: ﴿ وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين ﴾ قال البغوي^(١): وهو الموت، قال الله: ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ روى ابن جرير عن ابن مسعود في قصة ذكرها من الشفاعة قال: «ثم تشفع الملائكة والنبيون والشهداء والصالحون والمؤمنون، ويشفعهم الله فيقول: أنا أرحم الراحمين، فيخرج من النار أكثر مما أخرج من جميع الخلق من النار، ثم يقول: أنا أرحم الراحمين»؛ ثم قرأ عبد الله يا أيها الكفار: ﴿ ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين ﴾ وعقد بيده أربعاً ثم قال: هل ترون في هؤلاء من خير؟ إلا ما يُترك فيها أحدٌ فيه خير^(٢).

وعن قتادة: ﴿ فمالهم عن التذكرة معرضين ﴾، أي: في هذا القرآن؟ ﴿ كأنهم حمر مستنفرة فرّت من قسورة ﴾ قال ابن عباس: هي الرماة. قال قتادة: وهم الرماة القناص. وقال أبو هريرة: هو الأسد. قال ابن كثير^(٣)، أي: كأنهم في نفارهم عن الحق وإعراضهم عنه حمر من حمر الوحش، إذا فرّت ممن يريد صيدها. وعن مجاهد: ﴿ بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منسّرة ﴾ قال: إلى فلان من رب العالمين. وقال قتادة: قال ذلك قائلون من الناس: يا محمد إن سرّك أن نتبعك فأتنا بكتاب، خاصّة إلى فلان وفلان نؤمر فيه باتباعك. قال البغوي: فقال الله تعالى: ﴿ كلاً ﴾ لا يؤتون الصحف: ﴿ بل لا يخافون الآخرة ﴾ قال قتادة: إنما

(١) أخرجه ابن جرير (١٦٧/٢٩).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٤٧).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٨٨).

أفسدهم أنهم كانوا لا يصدّقون بالآخرة ولا يخافونها. قال البغوي^(١): والمعنى أنهم لو خافوا النار لما اقترحوا هذه الآيات بعد قيام الأدلة. ﴿كَلَّا﴾ حقّاً. ﴿إِنَّهُ﴾ يعني القرآن. ﴿تَذَكَّرَ﴾ موعظة. ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ اتعظ به. ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ قال مقاتل: إلا أن يشاء الله لهم الهدى. ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾، أي: أهل أن تتقي محارمه، وأهل أن يغفر لمن اتقاه. ثم ساق بسنده عن أنس أن رسول الله ﷺ قال في هذه الآية: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ قال: ﴿قال ربكم عز وجل: أنا أهل أن أتقى ولا يشرك بي غيري، وأنا أهل لمن اتقى أن يشرك بي أن أغفر له﴾^(٢).



(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٨٨).

(٢) أخرجه أحمد (٣/٢٤٣)، والترمذي (ح/٣٣٢٨)، وقال: «حديث غريب، وسنده ليس بالقوي»، والنسائي في الكبرى (٦/٥٠١)، وابن ماجه (ح/٤٢٩٩)، والحاكم (٢/٥٠٨)، وصححه، ووافقه الذهبي!! قلت: بل فيه سهيل بن أبي حزم، وهو ضعيف.

الدرس الرابع والتسعون بعد المائتين

﴿سورة القيامة﴾

مكية، وهي أربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣ بَلَىٰ قَدَرِينٌ عَلَيَّ أَنْ تُسَوِّىَ بَنَانَهُ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۝٥ يَتَنَبَّأُ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝٦ فَإِذَا يَرَىٰ الْبَصُرَ ۝٧ وَحَسَفَ الْقَمْرَ ۝٨ وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ ۝٩ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُبْئِئُوا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ۝١٥ لَا تُحْرِكُهُ بِيءَ لِسَانِكَ لِنَتَجَلَ بِهِنَّ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُمْ وَقُرْءَانَهُ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَحَ قُرْءَانَهُ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۝١٩ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ۝٢١ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ۝٢٣ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَطَّئُونَ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝٢٥ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّارَاقَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ۝٢٨ وَاللَّفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ۝٣٠ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ۝٣٣ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٥ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُنْ مِنْ مَعْنَىٰ يَمَعَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَمَخْلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣٩ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُخْجِيَ الْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾

قوله عز وجل: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَدَرِينٌ عَلَيَّ أَنْ تُسَوِّىَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا رَاقَ الْبَصُرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُبْتَوًى الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْفَىٰ مَعَادِيرُهُ ﴿١٥﴾ .

قال أبو هشام الرفاعي: سمعت أبا بكر بن عياش يقول: قوله: ﴿لا أقسم﴾ توكيد للقسم، كقوله: لا والله. وعن سعيد بن جبير قال: قال لي ابن عباس: ممن أنت؟ فقلت: من أهل العراق، فقال: أيهم؟ فقلت: من بني أسد، فقال: من حريهم أو ممن أنعم الله عليهم؟ فقلت: لا بل ممن أنعم الله عليهم، فقال لي: سل، فقلت: ﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾ فقال: يقسم ربك بما شاء من خلقه. وعن قتادة قوله: ﴿لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾ قال: أقسم بهما جميعاً. وعن سعيد بن جبير في قوله: ﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾ قال: تلوم على الخير والشر. وقال مجاهد: تندم على ما فات من الخير وتلوم عليه. وقال الحسن: أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة. قال مقاتل: هي النفس الكافرة تلوم نفسها في الآخرة على ما فرطت في أمر الله في الدنيا.

﴿أيحسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه﴾ قال البغوي^(١): نزلت في عدي بن ربيعة حليف بني زهرة ختن الأخنس بن شويق الثقفي، وكان النبي ﷺ يقول: «اللهم اكفني جاري السوء» يعني عدياً والأخنس، وذلك أن عدي بن ربيعة أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد حدثني عن القيامة، متى تكون وكيف حالها وأمرها؟ فأخبره النبي ﷺ فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك ولم أومن بك، أو يجمع الله العظام؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿أيحسب الإنسان﴾ يعني الكافر: ﴿أن لن نجتمع

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٨٩).

عظامه ﴿ بعد التفريق والبلى فنحييه: ﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾ قال الزجاج وابن قتيبة: معناه ظن الكافر أن لا نقدر على جمع عظامه، بلى نقدر على أن نعيد السلاميات على صغرها فنؤلف بينها حتى نسوي البنان، فمن قدر على جمع صغار العظام فهو على جمع كبارها أقدر. وعن ابن عباس قوله: ﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾ قال: نجعله خفياً أو حافراً. وقال الضحاك: البنان الأصابع. وعن عكرمة.

﴿بل يريد الإنسان ليفجر أمامه﴾ قال: قدماً لا يتزع عن فجور. وقال ابن عباس يقول: الكافر يكذب بالحساب يسأل أيان يوم القيامة. قال قتادة يقول: متى يوم القيامة؟ ﴿فإذا برق البصر﴾ قال مجاهد: عند الموت. وقال قتادة: شخص البصر: ﴿وخسف القمر﴾ قال: ذهب ضوؤه فلا ضوء له: ﴿وجمع الشمس والقمر﴾ قال مجاهد: كوراً يوم القيامة: ﴿يقول الإنسان يومئذ أين المفر﴾، أي: المهرب. وعن ابن عباس قوله: ﴿كللاً لا وزر﴾ يعني لا حصن ولا ملجأ: ﴿إلى ربك يومئذ المستقر﴾ قال قتادة، أي: المنتهي. وقال ابن زيد: استقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار. ﴿ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾ قال مجاهد: بأول عمله وآخره. وعن ابن عباس قوله: ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾ يقول: سمعه وبصره ويداه ورجلاه. وقال قتادة: شاهد عليها بعملها. وعن سعيد بن جبير: ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره﴾ قال: شاهد على نفسه ولو اعتذر.

قوله عز وجل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾.

عن ابن عباس: «أن النبي ﷺ كان إذا نزل عليه القرآن تعجل، يريد حفظه، فقال الله تعالى ذكره: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه﴾. وقال ابن عباس: هكذا، وحرك شفثيه. ﴿إن علينا جمعه﴾ قال: في صدرك: ﴿وقرآنه﴾ قال: تقرؤه بعد. ﴿فإذا قرأناه﴾ أنزلناه إليك. ﴿فاتبع قرآنه﴾ قال:

فاستمع قرآنه. ﴿ثم إن علينا بيانه﴾ قال: تبيانه بلسانك، فكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله عز وجل^(١).

قوله عز وجل: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِأَسْرَةٍ ﴿٢٤﴾ تَنْظُرُ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ﴾ اختار أكثر الناس العاجلة إلا من رحم الله وعصم. ﴿وجوه يومئذ ناصرة﴾ قال ابن زيد: الناصرة الناعمة. وقال الحسن: حسنة. وقال مجاهد: مسرورة. ﴿إلى ربها ناظرة﴾ قال الحسن: تنظر إلى الخالق، وحق لها أن تنظر وهي تنظر إلى الخالق. وقال عطية العوفي: هم ينظرون إلى الله، لا تحيط أبصارهم به من عظمته، وبصره محيط بهم؛ فذلك قوله: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾. وفي الصحيحين عن جرير قال: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا»^(٢). وفي الصحيحين أيضاً عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آتيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»^(٣). وروى مسلم عن جابر في حديثه «أن الله يتجلى للمؤمنين، يضحك - يعني في عرصات يوم القيامة -»^(٤). قال ابن كثير^(٥): ففي هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم عز وجل في العرصات، وفي روضات الجنات.

(١) أخرجه البخاري (ح/٥ و ٤٩٢٧ و ٤٩٢٨ و ٥٠٤٤ و ٧٥٢٤)، ومسلم (ح/٤٤٨).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه مسلم (ح/١٩١).

(٥) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٥٠).

عن مجاهد: ﴿ووجوه يؤمئذ بأسرة﴾ قال: كاشرة. وقال قتادة: كالحة. وقال ابن زيد: عابسة. ﴿تظنّ أن يفعل بها فاقرة﴾ قال مجاهد: واهية. وقال قتادة: شرّ. وقال ابن زيد: تظنّ أنها ستدخل النار، قال: تلك الفاقرة. قال البغوي: الفاقرة الداهية العظيمة، والأمر الشديد يكسر فقار الظهر.

قوله عز وجل: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَافِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالنَّفْسَ السَّاقِطَ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمْتَطِعُ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عِلقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ جَعَلَ مِنهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ .

قال البغوي^(١): ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ﴾ يعني النفس، كناية عن غير مذكور: ﴿التراقي﴾ تحشرج بها عند الموت. ﴿وقيل من راق﴾ قال ابن جرير^(٢): يقول تعالى ذكره: وقال أهله: من ذا يرقيه ليشفيه مما قد نزل به؟ وطلبوا له الأطباء والمداوين، فلم يغنوا عنه من أمر الله الذي قد نزل شيئاً. وعن قتادة: ﴿وظنّ أنه الفراق﴾، أي: استيقن. وقال ابن زيد: ليس أحد من خلق الله يدفع الموت ولا ينكره، ولكن لا يدري يموت من ذلك المرض أو من غيره، فالظنّ كما ههنا هذا. ﴿والتفت السابق بالساق﴾ قال الحسن: لفهما أمر الله. وقال أبو مالك: هما ساقاه إذا ضمت إحداهما بالأخرى. وقال قتادة: ماتت رجلاه فلا يحملانه إلى شيء، فقد كان عليهما جوالاً. وعن ابن عباس قوله: ﴿والتفت السابق بالساق﴾ يقول: آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة، فتلقتي الشدة بالشدة إلا من رحم الله. وقال مجاهد هو أمر الدنيا والآخرة عند الموت.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٩٢).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٩/١٩٤).

﴿إلى ربك يومئذ المساق﴾ قال البغوي^(١)، أي: مرجع العباد إلى الله يساقون إليه. وعن قتادة: ﴿فلا صدق ولا صلى﴾ لا صدق لكتاب الله، ولا صلى لله. ﴿ولكن كذب وتولى﴾ كذب بكتاب الله، وتولى عن طاعة الله. ﴿ثم ذهب إلى أهله يتمطى﴾، أي: يتبختر، وهو أبو جهل بن هشام كانت مشيته. قال ابن جرير^(٢): ﴿ومنه الخبر عن رسول الله ﷺ: «إذا مشت أمتي المطيطاء»^(٣)، وذلك أن يلقي الرجل بيديه ويتكفأ. وقال سعيد عن قتادة: ﴿أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى﴾ وعيد على وعيد كما تسمعون، زعم أن هذا أنزل في عدو الله أبي جهل، ذكر لنا أن نبي الله ﷺ أخذ بمجامع ثيابه فقال: ﴿أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى﴾ فقال عدو الله أبو جهل: أيوعدني محمد؟ والله ما تستطيع لي أنت ولا ربك شيئاً، والله لأنا أعز من مشى بين جبلية. قال: فلما كان يوم بدر أشرف عليهم فقال: لا يصد الله بعد هذا اليوم؛ وضرب الله عنقه وقتله شر قتلة.

وعن ابن عباس قوله: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾؟ قال: هملاً وقال مجاهد: لا يؤمر ولا ينهى؟ ﴿أم يك نطفة من متي يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى﴾ قال البغوي^(٤): ﴿فجعل فيه الروح وسوى خلقه: ﴿فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ليس ذلك﴾ الذي فعل هذا: ﴿بقادر على أن يحيي الموتى﴾؟ وعن ابن عباس: أنه مر بهذه الآية: ﴿ليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾؟ قال: سبحانك فبلى.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٩٣).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٩/١٩٩).

(٣) وتمامه: «وخدمها أبناء الملوك: أبناء فارس والروم، سلط شرارها على خيارها». أخرجه الترمذي (ح/٢٢٦١)، والعقيلي في «الضعفاء» (٤/١٦٢)، وابن عدي في «الكامل» (٦/٣٣٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنه بسند ضعيف، لكن له شاهد من حديث أبي هريرة: أخرجه الطبراني في الأوسط كما عراه الهيثمي (١٠/٢٤٠)، وقال: «إسناده حسن» قلت وفي سنده ابن لهيعة، ولا بأس به في الشواهد والمتابعات.

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٩٢).

الدرس الخامس والتسعون بعد المائتين

﴿سورة الإنسان﴾

مكية، وهي إحدى وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ عَلَىٰ الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ
مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا
وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ
يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا
تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالْآذَانِ وَالْأَنْفِ وَالْأَنْوَامِ وَمَا كَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٧﴾ وَيُطْعَمُونَ مِن مَّا رَزَقْنَاهُمْ
غَيْرَ حَسِبِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُزِيدُكُمْ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا نُكْفِرُكُمْ بِهِ إِنَّا خَائِفُونَ
مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا ﴿٩﴾ فَوَقَّعْنَاهُم لَأَن نَّشُرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمَ وَلَقَّعْنَاهُم نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١٠﴾
وَجَزَّعْنَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١١﴾ مُتَّكِفِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَابِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا
زَهْرًا وَلَا حَرًّا ﴿١٢﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٣﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِمِائِينَ مِن فِضَّةٍ
وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٤﴾ قَوَارِيرًا مِن فِضَّةٍ قَدْرُوهَا نَقِيرًا ﴿١٥﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا
زَنْجَبِيلًا ﴿١٦﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٧﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ
لُؤْلُؤًا مَّنشُورًا ﴿١٨﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ نَمًّا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ مِّن سُندُسٍ خُضْرٍ

وإِسْتَبْرَقُوا^ط وَحَلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً
وَكَانَ سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا
تُطِعْ مِنْهُمْ ءِثْمًا أَوْ كْفُورًا ﴿٢٤﴾ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ
لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ هَلْؤَلَاءُ يَجِبُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا
قَبِيلًا ﴿٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمْتَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ
هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا نَشَاءُ وَنُؤْتِيهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿٣١﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿هَلْ أُنِى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مَنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ (١) ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٢) ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (٣).

عن قتادة: ﴿هل أتى على الإنسان﴾ آدم أتى عليه. ﴿حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾؟ قال: كان آدم ﷺ آخر ما خلق من الخلق. ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج﴾ قال مجاهد: خلق الله الولد من ماء الرجل وماء المرأة. وقال الربيع: إذا اجتمع ماء الرجل وماء المرأة فهو أمشاج. وقال ابن جرير^(١) وقوله: ﴿نبتيه﴾ نختبره. ﴿فجعلناه سميعاً بصيراً﴾ قال ابن كثير^(٢)، أي: جعلنا له سمعاً وبصراً يتمكن بهما من الطاعة والمعصية. وقوله جلّ وعلا: ﴿إنا هديناه السبيل﴾، أي: بيناه له ووضحناه وبصّرناه به، كقوله جلّ وعلا: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾^(٣)، وكقوله جلّ وعلا: ﴿وهديناه النجدين﴾^(٤)، أي: بيناه طريق الخير وطريق الشر.

وقوله تعالى: ﴿إما شاكراً وإما كفوراً﴾ منصوب على الحال من الهاء في قوله: ﴿إنا هديناه السبيل﴾ تقديره: فهو في ذلك إما شقي وإما سعيد، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «كلّ

(١) انظر «جامع البيان» (٢٩/٢٠٢).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٥٣).

(٣) سورة فصلت: الآية ١٧.

(٤) سورة البلد: الآية ١٠.

الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»^(١).

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلْسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾
 إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ
 يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُؤْتُونَ بِالنَّدْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيَطْعَمُونَ الْأَطْعَامَ عَلَى
 حَيْثُهَا مَسْكِنَاتُهَا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نَطَعُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٩﴾ إِنَّا
 خَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعَهُمْ نَصْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾
 وَجَزَّئَهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْكَانِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا
 زَمَهْرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَيْدِيهَا نَدْبِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِبَنَاتٍ مِّنْ فَضَّةٍ
 وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا
 زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ
 لُؤْلُؤًا مَّنشُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلَكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ مِّنْ سُندُسٍ خُضْرٍ
 وَإِسْتَبْرَقٍ وَحُلُوعًا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَدَهُمْ رُبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً
 وَكَانَ سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ۞ .

قال ابن كثير^(٢): يخبر تعالى عما أُرصد له للكافرين — من السلاسل والأغلال

والسعير، وهو اللهب والحريق — في نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي
 أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾^(٣). ولما ذكر ما
 أعدّه لهؤلاء الأشقياء من السعير، قال بعده: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ
 مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ وقد علم ما في الكافور من التبريد والرائحة الطيبة، مع ما يضاف

(١) أخرجه مسلم (ح/٢٢٣)، وأوله: «الطهور شرط الإيمان».

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٥٤).

(٣) سورة غافر: الآية ٧١

إلى ذلك من اللذاذة في الجنة. قال الحسن: برد الكافور في طيب الزنجبيل، ولهذا قال: ﴿عِيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً﴾، أي: هذا الذي مزج لهؤلاء الأبرار من الكافور، هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله، صرفاً بلا مزج. وعن قتادة: ﴿يفجرونها تفجيراً﴾ قال: مستقيد ماؤها لهم، يفجرونها حيث شاءوا.

﴿يوفون بالنذر﴾ قال: كانوا يندرون طاعة الله من الصلاة والزكاة والحج والعمرة وما افترض عليهم، فسماهم الله بذلك: ﴿الأبرار﴾ فقال: ﴿يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً﴾ استطار والله شر ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض. وفي الحديث الصحيح: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»^(١). وعن مجاهد: ﴿ويطعمون الطعام على حبه﴾ قال: وهم يشتهونه: ﴿مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾ قال قتادة: كان أسراهم يومئذ المشرك، وأخوك المسلم أحق أن تطعمه. وقال مجاهد: الأسير هو المحبوس. ﴿إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً﴾ قال: أما أنهم ما تكلموا به، ولكن الله علمه من قلوبهم فأثنى به عليهم، ليرغب في ذلك راغب.

﴿إننا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطيراً﴾ قال ابن عباس: طويلاً. وقال قتادة: عبست فيه الوجوه وقبضت ما بين أعينها كراهية ذلك اليوم. ﴿فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً﴾ نضرة في وجههم وسروراً في قلوبهم. ﴿وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً﴾ يقول: ﴿وجزاهم بما صبروا﴾ على طاعة الله وصبروا عن معصيته ومحارمه. ﴿جنة وحريراً متكئين فيها على الأرائك﴾ كنا نحدث أنها الحجال فيها الأسرة. قال الله: ﴿لا يرون فيها شمساً ولا زمهرياً﴾ يعلم الله أن شدة الحر تؤذي، وشدة القر تؤذي، فوقاهم الله أذاهما. ﴿قوارير من فضة﴾ قال: هي من فضة وصفائها صفاء القوارير وبياض الفضة: ﴿ودانية عليهم ظلالها وذلّت قطوفها تذليلاً﴾ قال: لا يرذ أيديهم عنها بعد ولا شوك.

(١) أخرجه البخاري (ح/٦٦٩٦ و ٦٧٠٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريراً﴾، أي: صفاء القوارير في بياض الفضة. ﴿قدروها تقديراً﴾ قدرت على ري القوم. ﴿ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً﴾ قال ابن كثير^(١)، أي: يسقون — يعني الأبرار أيضاً — في هذه الأكواب: ﴿كأساً﴾، أي: خمراً. ﴿كان مزاجها زنجبيلاً﴾ فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور وهو بارد، وتارة بالزنجبيل وهو حارّ ليعتدل الأمر، وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة، وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صرفاً. وعن قتادة قوله: ﴿ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً عيناً فيها تسمى سلسبيلاً﴾ رقيقة، يشربها المقربون صرفاً، وتمزج لسائر أهل الجنة، وعن مجاهد: ﴿عيناً فيها تسمى سلسبيلاً﴾ قال: سَلِسَةُ الجرية. وعن قتادة: ﴿ويطوف عليهم ولدان مخلدون﴾، أي: لا يموتون.

﴿إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً﴾ قال: من كثرتهم وحسنهم. ﴿وإذا رأيت ثمّ﴾ قال البغوي^(٢)، أي: إذا رأيت يبصرك ونظرت به: ﴿ثمّ﴾ يعني في الجنة: ﴿رأيت نعيماً﴾ لا يوصف: ﴿وملكاً كبيراً﴾ قال ابن كثير^(٣): وثبت في الصحيح: أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجا، وآخر أهل الجنة دخولا إليها: «إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها»^(٤). ﴿عالِيهم﴾، أي: فوقهم: ﴿ثياب سندس خضر واستبرق﴾ قال ابن كثير^(٥)، أي: لباس أهل الجنة فيها الحرير، ومنه سندس وهو رفيع الحرير، كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم، والاستبرق منه ما فيه بريق

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٥٦).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٩٨).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٥٧).

(٤) أخرجه مسلم (ح/١٨٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وانظر البخاري (ح/٨٠٦)، ومسلم (ح/١٨٨ و ١٨٩ و ١٩١).

(٥) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٥٧).

ولمعان، وهو مما يلي الظاهر، كما هو المعهود في اللباس. ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ وهذه صفة الأبرار، وأما المقربون فكما قال تعالى: ﴿يَحُلُّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ لَوْلُؤًا وَلِبَاسَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلي قال بعده: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾، أي: طهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى، وسائر الأخلاق الرديئة؛ كما روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «إذا انتهى أهل الجنة إلى باب الجنة، وجدوا هنالك عينين، فكأنما ألهموا ذلك، فشربوا من إحداهما فأذهب الله ما في بطونهم من أذى، ثم اغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم»؛ فأخبر سبحانه وتعالى بحالهم الظاهر وجمالهم الباطن. وعن قتادة قوله: ﴿إِنْ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعِيكُمْ مَشْكُورًا﴾ غفر لهم الذنب وشكر لهم السعي؛ وقال: لقد شكر الله سعياً قليلاً.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مَنْهُمْ ءِثْمًا أَوْ كُفُورًا ﴿٢٤﴾ وَأذْكَرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَجُنُودٌ أَلْعَاجِلَةُ وَيَذْرُونَ وراءَهُمْ يَوْمَما نَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أُمَّتَهُمْ بِدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾.

قال البغوي^(١): قوله عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ قال ابن

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٩٩).

عباس: متفرقاً آية بعد آية، ولم ينزل جملة واحدة. ﴿فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم أثماً أو كفوراً﴾ قال ابن كثير^(١): فالآثم هو الفاجر في أفعاله، والكفور هو الكافر قلبه. ﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً﴾ إلى أول النهار وآخره: ﴿ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً﴾ كقوله تعالى: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾^(٢).

﴿إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون راءهم يوماً ثقيلاً﴾ يعني يوم القيامة: ﴿نحن خلقناهم وشددنا أسرهم﴾ قال ابن عباس: خلقهم. وقال الحسن: يعني أوصالهم، شددنا بعضهما إلى بعض بالعروق والعصب: ﴿وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً﴾ كقوله تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً﴾^(٣). وعن قتادة في قوله: ﴿إن هذه تذكرة﴾ قال: إن هذه السورة تذكرة: ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ قال البغوي^(٤): وسيلة للطاعة. ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾، أي: لستم تشاءون إلاّ بمشيئة الله عز وجل، لأن الأمر إليه: ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ قال ابن كثير^(٥)، أي: عليم بمن يستحق الهداية فيسرها له ويقبض له أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة: ﴿يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً﴾.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٥٨).

(٢) سورة الإسراء: الآية ٧٩.

(٣) سورة النساء: الآية ١٣٣.

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٠٠).

(٥) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٦١).

الدرس السادس والتسعون بعد المائتين

﴿سورة المرسلات﴾

مكية، وهي خمسون آية

عن أم الفضل: «أنها سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالمرسلات عرفاً»^(١). متفق عليه.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١﴾ فَأَلْمِصْنَتِ عَضْفًا ۝٢﴾ وَالنَّشْرِتِ نَشْرًا ۝٣﴾ فَأَلْفَرَقَاتِ فَرَقًا ۝٤﴾
 فَأَلْمُلَقَاتِ ذِكْرًا ۝٥﴾ عُدْرًا أَوْ نَذْرًا ۝٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ۝٧﴾ فَإِذَا الشُّجُمُ طُمِسَتْ ۝٨﴾
 وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ۝٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِفَتْ ۝١٠﴾ وَإِذَا الرَّسُلُ أُنقَتْ ۝١١﴾ لِأَنِّي يَوْمَ أُنجِلْتِ ۝١٢﴾
 لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۝١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ ۝١٤﴾ وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ أَلَمْ تُهْلِكِ
 الْأَوَّلِينَ ۝١٦﴾ ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخَرِينَ ۝١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۝١٨﴾ وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ
 لِلْمُكَذِّبِينَ ۝١٩﴾ أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ
 مَّعْلُومٍ ۝٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ۝٢٣﴾ وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٤﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ
 كِفَاتًا ۝٢٥﴾ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ۝٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوْاسِيَ شَاخِصَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ۝٢٧﴾ وَبَلِّغْ
 يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٨﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝٢٩﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي تُلُوتٍ ۝٣٠﴾

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٧٦٣ و ٤٤٢٩)، ومسلم (ح/ ٤٦٢).

شَعْبٍ ﴿٣٢﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٧﴾ كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ
 صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤَدُّنَ لَهُمْ
 فِعْعَنَدِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمٌ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكَ وَالْأُولَىٰ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ
 لَكُمُ كَيْدٌ فَكِيدُوا ﴿٣٩﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوْكَاهَ
 مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كَسَبْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي
 الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَنَّوْا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ
 لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ
 حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَأَلْصَقْنَ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّشْرَاتِ ﴿٣﴾ فَأَلْفَرَقْنَ فَرَاقًا ﴿٤﴾ فَأَلْمَلَقَيْنِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عَذْرًا أَوْ نَذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعَ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِّتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرَّسُلُ أُقِنَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُحِلَّتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ .

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غار بمنى، إذ نزلت عليه ﴿والمرسلات﴾ فإنه ليلتها وإني لأتلقاها من فيه، وإن فاه لرطب بها، إذ وثبت علينا حية، فقال النبي ﷺ «اقتلوها» فابتدرناها فذهبت، فقال النبي ﷺ «وقيت شركم كما وقيت شرها»^(١). متفق عليه.

وعن ابن عباس قوله: ﴿والمرسلات عرفاً﴾ يعني الريح. وعن صالح بن بريدة في قوله: ﴿عرفاً﴾ قال: يتبع بعضها بعضاً. وقال البغوي^(٢): ﴿والمرسلات عرفاً﴾ يعني الرياح أرسلت متتابعة كعرف الفرس. وعن قتادة ﴿فالعاصفات عصفاً﴾ قال الرياح. وعن مجاهد: ﴿والناشرات نشراً﴾ قال: الريح. وقال الحسن: هي الرياح التي يرسلها الله بشراً بين يدي رحمته.

وعن ابن عباس ﴿فالفارقات فرقاً﴾ قال: الملائكة. قال البغوي: تأتي بما يفرق بين الحق والباطل ﴿فالملقىات ذكراً﴾ قال قتادة: هي الملائكة تلقي الذكر على الرسل وتبلغه ﴿عذراً أو نذراً﴾ قال: ﴿عذراً﴾ من الله: ﴿ونذراً﴾ منه إلى

(١) أخرجه البخاري (ح/٣٣١٧ و ٤٩٣٠ و ٤٩٣١).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٠١).

خلقه. وقال في جامع البيان أي: لإعذار المحققين، وإنذار المبطلين ﴿إنما توعدون لواقع﴾ قال ابن كثير^(١): هذا هو المقسم عليه بهذه الأقسام، أي: ما وعدتم به من قيام الساعة، والنفخ في الصور، وبعث الأجساد، وجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، ومجازاة كلّ عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر، إن هذا كله: ﴿لواقع﴾، أي: لكائن لا محالة.

قال البغوي^(٢): ثم ذكر متى يقع فقال ﴿فإذا النجوم طمست﴾ محي نورها: ﴿وإذا السماء فرجت﴾ شقت ﴿وإذا الجبال نسفت﴾ قلعت من أماكنها ﴿وإذا الرسل أقتت﴾ جمعت لميقات يوم معلوم. وقال في جامع البيان: ﴿وإذا الرسل أقتت﴾ جمعت وعين لها وقت ينحصرون فيه للشهادة على أممهم ﴿لأتي يوم أجلت﴾ قال البغوي: أخرت، وضرب الأجل لجمعهم؛ تعجب العباد من ذلك اليوم؛ ثم بين فقال: ﴿ليوم الفصل﴾ قال ابن عباس: يوم فصل الرحمن بين الخلائق. وقال ابن كثير^(٣): يقول تعالى ﴿لأتي يوم أجلت﴾ الرسل وأرجى أمرها، حتى تقوم الساعة كما قال تعالى ﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار﴾^(٤) وهو يوم الفصل، كما قال تعالى: ﴿ليوم الفصل﴾. ثم قال تعالى معظماً لشأنه ﴿وما أدراك ما يوم الفصل ويل يومئذ للمكذبين﴾: أي ويل لهم من عذاب الله غداً.

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ وَنُسَبَتِهِمْ الْأُولَىٰ ۚ ثُمَّ نُنسَبُ لَهُمُ الْآخِرِينَ ۗ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۗ وَيَلُومُ الْيَوْمَئِذٍ الْمُكَذِّبِينَ ۗ﴾ أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ۚ فَجَعَلْنَاهُ فِي

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، (٤/٤٥٩).

(٢) انظر معالم التنزيل، (٤/٤٠٢).

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم، (٤/٤٥٩).

(٤) سورة إبراهيم: الآية ٤٨.

قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعَمَ الْقَدَرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شِمَخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءَ فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ .

قال ابن كثير^(١): يقول تعالى ﴿ألم نهلك الأولين﴾ يعني من المكذبين للرسول المخالفين لما جاؤوهم به ﴿ثم نتبعهم الآخريين﴾: أي ممن أشبههم، ولهذا قال تعالى ﴿كذلك نفعل بالمجرمين ويل يومئذ للمكذبين﴾ .

قال ابن جرير^(٢): ثم قال تعالى ممتنا على خلقه ومحتجا على الإعادة بالبداء ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين﴾ قال البغوي^(٣): يعني النطفة ﴿فجعلناه في قرار مكين﴾ يعني الرحم ﴿إلى قدر معلوم﴾ وهو وقت الولادة ﴿فقدرنا فنعم القادرون﴾، أي: المقدرون ﴿ويل يومئذ للمكذبين ألم نجعل الأرض كفاتا﴾ قال ابن عباس: كنا أحياء وأمواتا. قال الشعبي: بطنها وأمواتكم وظهرها لأحيائكم ﴿وجعلنا فيها رواسي شامخات﴾ يعني الجبال ﴿وأسقيناكم ماء فراتا﴾ عذبا ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ قال مقاتل: وهذا كله أعجب من البعث الذي تكذبون به .

قوله عز وجل: ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٢٩﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلِّ ذِي تِلْكَ شُعْبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ يَمَلُّهُ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْتُمْ وَالْأُولَىٰ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ﴿٣٩﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ .

(١) المصدر السابق (٤/٤٥٩).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٩/٢٣٥).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٠٢).

قال البغوي^(١): ثم أخبر أنه يقال لهم يوم القيامة ﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون﴾ في الدنيا ﴿انطلقوا إلى ظلّ ذي ثلاث شعب﴾ يعني دخان جهنّم إذا ارتفع انشعب وافترق ثلاث فرق ﴿لا ظليل﴾ يظلّ من الحرّ ﴿ولا يغني عن اللهب﴾ قال الكلبي: لا يردّ جهنّم عنكم، والمعنى أنهم إذا استظلوا بذلك الظلّ لم يدفع عنهم حرّ اللهب ﴿إنها﴾ يعني جهنّم ﴿ترمي بشرر كالقصر﴾ قال ابن عباس يقول: كالقصر العظيم ﴿كأنه جمالة صفر﴾ قال البغوي: جمع الأصفر، يعني لون النار؛ وقيل: الصفر معناها السواء، لأنه جاء في الحديث: «أن شرر نار جهنم أسود كالقير»^(٢)؛ والعرب تسمى سود الإبل صفراً، لأنه يشرب سوادها شيء من صفرة.

﴿ويل يومئذ للمكذّبين هذا يوم لا ينطقون﴾: أي في القيامة لأن فيها مواقف، ففي بعضها يختصمون ويتكلمون، وفي بعضها يختم على أفواههم فلا ينطقون ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ قال ابن كثير^(٣): وعرضات القيامة حالات، والربّ تعالى يخبر عن هذه الحالة تارة وعن هذه الحالة تارة ليذلل على شدة الأهوال والزلازل يومئذ، ولهذا يقول بعد كلّ فصل من هذا الكلام ﴿ويل يومئذ للمكذّبين﴾.

وقوله تعالى: ﴿هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين فإن كان لكم كيد فكيّدون﴾ وهذه مخاطبة من الخالق تعالى لعباده، يقول لهم ﴿هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين﴾ يعني أنه جمعهم بقدرته في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر.

وقوله تعالى: ﴿فإن كان لكم كيد فكيّدون﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد، أي: إن قدرتم على أن تخلصوا من قبضتي وتنجوا من حكمي فافعلوا، فإنكم لا تقدرون

(١) المصدر السابق (٤/٤٠٣).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٦٠).

على ذلك، كما قال تعالى ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ وَإِلََّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾^(١). وقال عبد الله بن عمرو: إنا نحدّث يومئذ «أنها تخرج عنق من النار فتنتقلق، حتى إذا كانت بين ظهراي الناس نادى: أيها الناس إني بعثت إلى ثلاثة، أنا أعرف منهم من الأب بولده: الذي جعل مع الله إلهاً آخر، وكلّ جبار عنيد، وكلّ شيطان مريد؛ فتطوى عليهم فتقذف بهم في النار»^(٢).

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كَسَبْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَإِلََّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾

قال ابن كثير^(٣): يقول تعالى مخبراً عن عباده المتقين الذين عبده عبدوه بأداء الواجبات وترك المحرمات، أنهم يوم القيامة يكونون في جنّات وعيون، أي: بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من ظلّ اليعموم، وهو الدخان الأسود الممتن. وقوله ﴿وفواكه مما يشتهون﴾: أي من سائر أنواع الثمار مهما طلبوا وجدوا ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون﴾: أي يقال لهم ذلك على سبيل الإحسان إليهم. ثم قال تعالى مخبراً خبيراً مستأنفاً ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾: أي هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾.

قوله عز وجل: ﴿كُلُوا وَتَمَنَعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِلََّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَرْكِعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِلََّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِذَا قِيلَ لَهُمْ سَبِّحُوا لِلَّهِ حَمْدًا كَمَا سَبَّحْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَا تَسْبِّحُونَ ﴿٥٠﴾

(١) سورة الرحمن: الآية ٣٣.

(٢) عزاه ابن كثير في تفسيره (٤٦١/٤) إلى ابن أبي حاتم، وعزاه السيوطي إلى سعيد بن منصور وابن أبي شيبة، وابن المنذر.

(٣) المصدر السابق (٤٦١/٤).

قال ابن كثير^(١): وقوله تعالى ﴿كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون﴾ خطاب للمكذّبين بيوم الدين؛ وأمرهم أمر تهديد ووعيد، فقال تعالى ﴿كلوا وتمتعوا قليلاً﴾: أي مدة قليلة قريبة قصيرة ﴿إنكم مجرمون﴾: أي ثم تساقون إلى نار جهنم التي تقدم ذكرها. ﴿ويل يومئذ للمكذّبين﴾ كما قال تعالى ﴿نمتّعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾: أي إذا أمر هؤلاء الجهلة من الكفار أن يكونوا من المصلّين مع الجماعة امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه، ولهذا قال تعالى: ﴿ويل يومئذ للمكذّبين﴾. ثم قال تعالى: ﴿فبأيّ حديث بعده يؤمنون﴾: أي إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن فبأيّ كلام يؤمنون به؟ كقوله تعالى: ﴿فبأيّ حديث بعد الله وآياته يؤمنون﴾^(٤)؟ انتهى. آمنا بالله وآياته.

وعن أبي هريرة مرفوعاً: «من قرأ منكم والتين والزيتون فانتهى إلى آخرها ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ فليقل: بلى، وإنا على ذلك من الشاهدين. ومن قرأ ﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾ فانتهى إلى ﴿أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾ فليقل: بلى. ومن قرأ والمرسلات فبلغ ﴿فبأيّ حديث بعده يؤمنون﴾ فليقل: آمنا بالله^(٥). رواه البغوي وغيره. والله أعلم.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٦١).

(٢) سورة لقمان: الآية ٢٤.

(٣) سورة يونس: الآية ٧٠.

(٤) سورة الجاثية: الآية ٦.

(٥) أخرجه أحمد (٢/٢٤٩)، وأبو داود (ح/٨٨٧)، والترمذي مختصراً (ح/٣٣٤٧)، والبغوي

في «شرح السنة» (٣/١٠٤)، بسند ضعيف.

الدرس السابع والتسعون بعد المائتين

﴿سورة النبا﴾

مكية، وهي أربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخَالِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ تُوًى كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْتَنَاهُ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجِبًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَابًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلْنَا أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُفْعَلُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُيْحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاعِنِينَ مَتَابًا ﴿٢٢﴾ لِلْيَشِيرِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِمَّنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾
ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ
يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُوَ فِيهِ
مُخْتَلَفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ تُوًّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ
أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا
النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ
الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَمَجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلْنَا أَلْفَاقًا ﴿١٦﴾ ۝

قال الحسن: «لما بعث النبي ﷺ جعلوا يتساءلون بينهم، فأنزل الله ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ عن النبا العظيم» يعني: الخبر العظيم^(١). قال قتادة: وهو البعث بعد الموت. وقال ابن زيد في قوله ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ عن النبا العظيم الذي هم فيه مختلفون ﴿قال: يوم القيامة؛ قال قالوا: هذا اليوم الذي تزعمون أنا نحيا فيه وآباؤنا؟ قال: فهم فيه مختلفون لا يؤمنون به، فقال الله ﴿بل هو نبا عظيم أنتم عنه معرضون﴾ يوم القيامة لا يؤمنون به. قال قتادة: فصار الناس فيه فريقين: مصدق ومكذب، فأما الموت فقد أقرؤا به لمعايتهم إياه، واختلفوا في البعث بعد الموت.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ثم كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿قال البغوي^(٢): ﴿كَلَّا﴾ نفي، يقول: هم سيعلمون عاقبة تكذيبهم حين تكشف الأمور ﴿ثم كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ وعيد على أثر وعيد. وقال في جامع البيان ﴿كَلَّا﴾ ردع عن هذا التساؤل والاختلاف ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ ثم كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿تكرير للمبالغة و ﴿ثم﴾ للإشعار بأن الوعيد الثاني أشد.

(١) أخرجه ابن جرير (١/٣٠) عن الحسن مرسلًا.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٠٥).

قال ابن كثير^(١): ثم شرع تبارك وتعالى يبين قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة والأمور العجيبة الدالة على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره فقال ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً﴾: أي ممهدة للخلائق ذلولاً لهم قارة ساكنة ثابتة ﴿والجبال أوتاداً﴾: أي جعلها لها أوتاداً أرساها بها وثبتها وقررها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها؛ ثم قال ﴿وخلقناكم أزواجاً﴾ يعني ذكراً وأنثى يتمتع كل منهما بالآخر ويحصل التناسل، كقوله تعالى ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمةً﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وجعلنا نومكم سباتاً﴾: أي قطعاً للحركة لتحصل الراحة من كثرة الترداد والسعي في المعاش في عرض النهار ﴿وجعلنا الليل لباساً﴾: أي يغشى الناس ظلامه وسواده: ﴿وجعلنا النهار معاشاً﴾: أي جعلناه مشرقاً نيراً مضيئاً، ليتمكن الناس من التصرف فيه والذهاب والمعاش والتكسب.

وقوله تعالى: ﴿وبيننا فوقكم سبعاً شداداً﴾ يعني السموات السبع في اتساعها وارتفاعها، وإحكامها وإتقانها، وتزينها بالكواكب الثوابت والسيارات، ولهذا قال تعالى ﴿وجعلنا سراجاً وهاجاً﴾ يعني الشمس المنيرة على جميع العالم، التي يتوهج ضوءها لأهل الأرض كلها.

وقوله تعالى: ﴿ وأنزلنا من المعصرات﴾: أي السحاب، كما قال تعالى ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله﴾. وقوله جلّ وعلا ﴿ماء ثجاجاً﴾ قال مجاهد: منصّباً.

وقوله تعالى: ﴿لنخرج به حباً ونباتاً وجنّات ألفافاً﴾: أي لنخرج بهذا الماء الكثير الطيب النافع المبارك حباً يدخر للإناسي والأنعام ﴿ونباتاً﴾: أي خضراً يؤكل

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٦٢).

(٢) سورة الروم: الآية ٢١.

رطباً ﴿وجنات﴾: أي بساتين وحدائق من ثمرات متنوعة وألوان مختلفة وطعوم وروائح متفاوتة، وإن كان ذلك في بقعة واحدة من الأرض مجتمعاً، ولهذا قال ﴿وجنات ألفافاً﴾ قال ابن عباس وغيره ﴿ألفافاً﴾ مجتمعة، وهذه كقوله تعالى ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد وفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتَنَا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُفْخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسِيرَتِ الْجِبَالُ كَسَرَابٍ ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَنَابًا ﴿٢٢﴾ لِيَبْئِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حِيمًا وَعَسَاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿إن يوم الفصل كان ميقاتاً﴾ وهو يوم عظمه الله يفصل الله فيه بين الأولين والآخرين بأعمالهم ﴿يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا﴾ قال مجاهد: زمراً زمراً ﴿وفتحت السماء فكانت أبواباً﴾ قال ابن كثير^(٢): أي طرقاتاً ومسالك لتزول الملائكة ﴿وسيرت الجبال فكانت سراباً﴾: أي يخيل إلى الناظر أنها شيء وليست بشيء. وكان الحسن إذا تلا هذه الآية ﴿إن جهنم كانت مرصاداً﴾ قال: ألا إن على الباب الرصد، فمن جاء بجواز جاز، ومن لم يجيء بجواز احتبس. وقال قتادة: يعلمنا أنه لا سبيل إلى الجنة حتى يقطع النار. ﴿للطاغين مآباً﴾: أي نزلاً ومأوى ﴿لابئين فيها أحقاباً﴾ وهو مالا انقطاع له، كلما مضى

(١) سورة الرعد: الآية ٤.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٦٣).

حقب جاء حقب بعده، وذكر لنا أن الحقب ثمانون سنة من سني الآخرة. وعن الربيع ﴿لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً﴾ فاستثنى من الشراب الحميم، ومن البرد الغساق. وقال مجاهد: هو الذي لا يستطيعون أن يذوقوه من برده. وعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «لو أن دلواً من غساق يهراق إلى الدنيا لأنتن أهل الدنيا»^(١). رواه ابن جرير.

وعن ابن عباس قوله ﴿جزاء وفاقاً﴾ يقول: وافق أعمالهم. قال قتادة وافق الجزاء أعمال القوم، أعمال السوء: ﴿إنهم كانوا لا يرجون حساباً﴾ قال ابن زيد لا يؤمنون بالبعث ولا بالحساب. وقال قتادة: لا يخافون حساباً ﴿وكذبوا بآياتنا كذاباً﴾ قال البغوي^(٢): ﴿وكذبوا بآياتنا﴾: أي بما جاء به الأنبياء ﴿كذاباً﴾ يعني تكذيباً. ﴿وكلّ شيء أحصيناه كتاباً﴾: أي وكلّ شيء من الأعمال بيّناه في اللوح المحفوظ. وقال ابن كثير^(٣): أي وقد علمنا أعمال العباد وكتبناها عليهم، وسنجزئهم على ذلك إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وعن قتادة ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾ ذكر لنا أن عبد الله بن عمرو كان يقول: ما نزلت على أهل النار آية أشدّ منها ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾ فهم في مزيد من عذاب الله أبداً.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَبِّ رَحِيمًا ﴿٣٧﴾﴾

(١) أخرجه أحمد (٢٨/٣ و ٨٣)، والترمذي (ح/٢٥٨٤)، وابن جرير (١٤/٣٠)، والحاكم (٤/٦٠١ و ٦٠٢)، والبغوي (١٥/٢٤٥)، قال الترمذي: «هذا حديث نعرفه من حديث رشدين بن سعد، وفي رشدين مقال، وقد تكلم فيه قبل حفظه»، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي! قلت: هو من رواية أبي السمح: دراج عن أبي الهيثم، وقد حكم غير واحد من الحفاظ بضعف روايته عنه والله أعلم.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٠٨).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٦٤).

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾ .

عن قتادة ﴿إن للمتقين مفازاً﴾ إي والله مفازاً من النار إلى الجنة، ومن عذاب الله إلى رحمته ﴿حدائق وأعناباً وكواعب أتراباً﴾ يعني بذلك النساء أتراباً لسنّ واحدة. وقال ابن جريج: الكواعب النواهد. وقال ابن زيد: هي التي قد نهدت وكعب ثديها ﴿وكأساً دهاقاً﴾ قال: الدهاق المملوءة. وقال ابن عباس: الملقى المتتابعة. وعن قتادة ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً﴾ قال: باطلاً وإثماً ﴿جزاء من ربك عطاء حساباً﴾: أي عطاء كثيراً، فجزاهم بالعمل اليسير الخير الجسيم الذي لا انقطاع له.

﴿رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً﴾: أي كلاماً. قال مقاتل: لا يقدر الخلق على أن يكلموا الرب إلا بإذنه. ﴿يوم يقوم الروح﴾: أي جبريل عليه السلام ﴿والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً﴾ قال ابن عباس يقول: إلا من أذن له الرب بشهادة أن لا إله إلا الله، وهي منتهي الصواب. وعن مجاهد ﴿وقال صواباً﴾ قال: حقاً في الدنيا وعمل به.

﴿ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً﴾ قال البغوي^(١) ﴿ذلك اليوم الحق﴾ الكائن الواقع، يعني يوم القيامة ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً﴾ مرجعاً وسبيلاً بطاعته: أي فمن شاء رجع إلى الله بطاعته. ﴿إنا أنذركم عذاباً قريباً﴾ يعني العذاب في الآخرة، وكل ما هو آت قريب ﴿يوم ينظر المرء ما قدم يده﴾:

(١) المصدر السابق (٤/٤٠٩).

أي كلّ امرئ يرى في ذلك اليوم ما قدّم من العمل مثبتاً في صحيفته ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾ قال عبد الله بن عمرو: «إذا كان يوم القيامة مدّت الأرض مدّ الأديم، وحشر الدوابّ والبهائم والوحوش، ثم يجعل القصاص بين البهائم حتى يقتصّ للشاة الجلحاء من الشاة القرناء تنطحها، فإذا فرغ من القصاص قيل لها: كوني تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً»^(١).



(١) أخرجه ابن جرير (٢٦/٣٠).

الدرس الثامن والتسعون بعد المائتين

﴿سورة النازعات﴾

مكية، وهي ست^(١) وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّشِيطَاتِ فَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّيِّحَاتِ سَبَعًا ﴿٣﴾ فَالسَّيِّدَاتِ
سَبَقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ
وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَيْنَا كُنَّا
عِظْمًا فِجْرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّا كَرِهْنَا خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَجِدَةٌ ﴿١٣﴾ فإِذَا هُمْ
بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِاللَّيْلِ إِذْ أُوذِيَ الْمُؤْمِنِينَ سِطْرًا ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَى
فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنَا تَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَخَشَى ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ
الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ يَتْسَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ
الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى ﴿٢٦﴾ أَنتُمْ أَشَدُّ
خَلْقًا أَرِ السَّمَاءَ بَنِينًا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَعْيَكُمَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ
بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَكُمْ
وَلِأَنْعِمَ لَكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾ وَتُرْزِقُ

(١) في (الأصل): «سته»، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف، وهو الصواب.

الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ
الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ
الْمَأْوَى ﴿٤١﴾ يَشْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنَهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ
مُنْهِنَهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَانَتْهُمْ يَوْمَ بَرُونَهَا لَمَّا يَلْبِثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ
ضُحًى ﴿٤٦﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْاقًا ﴿١﴾ وَالنَّدِيَّاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّيِّقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتَّبِعُنَّ الرَّادِفَةَ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَيْ نَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْكَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَيْ ذَا كُنَّا عِظْمًا نَخْرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّهَ حَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ .

عن ابن مسعود ﴿والنازعات غرقاً﴾ قال: الملائكة. قال ابن عباس: تنزع الأنفس. قال البغوي^(١): يعني الملائكة تنزع أرواح الكفار من أجسادهم، كما يفرق النازع في القوس فيبلغ به غاية المدى. وقال سعيد بن جبير: نزعت أرواحهم ثم غرقت ثم قذف بها في النار. وعن ابن عباس ﴿والناشطات نشطاً﴾ قال: الملائكة حين تنشط نفسه. قال البغوي: هي الملائكة تنشط نفس المؤمن، أي: تحلّ حلاً رقيقاً، فتقبضها كما ينشط العقال من يد البعير. وقال ابن القيم: النازعات التي تنزع الأرواح من الأجساد، والتنزع اجتذاب النفس بقوة؛ والناشطات التي تنشطها أي تخرجها بسرعة وخفة؛ والتنزع مشترك بين نفوس بني آدم، والإغراق يختص بالكافر.

وعن مجاهد ﴿والسابحات سبحاً﴾ قال: الملائكة ينزلون من السماء مسرعين. وعن مجاهد ﴿فالسابقات سبقاً﴾ قال: الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح ﴿فالمدبرات أمراً﴾ قال ابن عباس: هم الملائكة وكلوا بأمر عرفهم الله عز وجل العمل بها. قال البغوي^(٢): وجواب هذه الأقسام محذوف على تقدير: لتبعثنّ ولتحاسبنّ. وعن ابن عباس قوله ﴿يوم ترجف الراجفة﴾ يقول:

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤١٠).

(٢) المصدر السابق (٤/٤١١).

النفخة الأولى، وقوله ﴿تبعها الرادفة﴾ يقول: النفخة الثانية. قال الحسن: أما الأولى فتميت الأحياء، وأما الثانية فتحي الموتى، ثم تلا ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾^(١). وعن قتادة ﴿قلوب يومئذ واجفة﴾ يقول: خائفة، وجفت مما عاينت يومئذ ﴿أبصارها خاشعة﴾ يقول: ذليلة.

وقوله تعالى: ﴿يقولون أئننا لمردودون في الحافرة أئننا كنا عظاماً نخرة﴾ قال البغوي^(٢): يقولون - يعني المنكرين للبعث، إذا قيل لهم: إنكم مبعوثون من بعد الموت -؟ ﴿أئننا لمردودون في الحافرة﴾؟ قال ابن عباس يقول: أئننا لنحيا بعد موتنا، ونبعث من مكاننا هذا؟ وقال قتادة أي مردودون خلقاً جديداً؟ وقال البغوي: ﴿أئننا لمردودون في الحافرة﴾: أي إلى أول الحال وابتداء الأمر، فنصير أحياء بعد الموت كما كنا؟ تقول العرب: رجع فلان في حافرته: أي رجع من حيث جاء، والحافرة عندهم اسم لابتداء الشيء وأول الشيء. وعن ابن عباس ﴿أئننا كنا عظاماً نخرة﴾ فالنخرة: الفانية البالية. وعن قتادة ﴿أئننا كنا عظاماً﴾ تكذيباً بالبعث ناخرة بالية ﴿قالوا تلك إذا كرة خاسرة﴾: أي رجعة خاسرة. قال ابن زيد: وأي كرة أخسر منها؟ أحيو ثم صاروا إلى النار فكانت كرة سوء.

﴿فإنما هي زجرة واحدة﴾ قال: الزجرة النفخة في الصور ﴿فإذا هم بالساهرة﴾ قال: ظهر الأرض فوق بطنها. قال قتادة: لما تباعد البعث في أعين القوم قال الله ﴿فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة﴾ يقول: فإذا هم على الأرض بعد ما كانوا في جوفها. قال البغوي: والعرب تسمي الفلاة ووجه الأرض: ساهرة، قال بعض أهل اللغة: تراهم سموها ساهرة لأن فيها نوم الحيوان وسهرها.

(١) سورة الزمر: الآية ٦٨.

(٢) المصدر السابق (٤/٤١٢).

قوله عز وجل: ﴿ هَلْ أُنذِرُكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَرْكَأَ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرِنَهُ آيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ .

قال ابن كثير^(١) قوله تعالى ﴿هل أتاك حديث موسى﴾: أي هل سمعت بخبره ﴿إذ ناداه ربه﴾: أي كلمه نداء ﴿بالواد المقدس﴾: أي المطهر ﴿طوى﴾ وهو اسم الوادي. قال قتادة: كنا نحدث أنه قدس مرتين ﴿أذهب إلى فرعون إنه طغى فقل هل لك إلى أن تزكى﴾ قال ابن زيد: إلى أن تُسَلِّمَ؛ قال: والتركي في القرآن كله الإسلام.

﴿وأهديك إلى ربك فتخشى﴾ قال البغوي^(٢): أدعوك إلى عبادة ربك وتوحيده، فتخشى عقابه ﴿فأراه الآية الكبرى﴾ قال مجاهد: عصاه ويده ﴿فكذب وعصى ثم أدبر يسعى﴾ قال مجاهد: يعمل بالفساد ﴿فحشر فنادى﴾ قال ابن زيد: صرخ وحشر قومه فنادى فيهم، فلما اجتمعوا قال ﴿أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾ قال قتادة: عقوبة الدنيا والآخرة ﴿إن في ذلك لعلبة لمن يخشى﴾ قال ابن كثير^(٣): أي لمن يتعظ وينتجر.

قوله عز وجل: ﴿ ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنُنَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَعْيَكُمَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُغْنَهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَنَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمُ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾ .

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٦٨).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤١٢).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٦٨).

قال ابن كثير: يقول تعالى محتجاً على منكري البعث في إعادة الخلق بعد بدئه ﴿أأنتم﴾ أيها الناس ﴿أشدّ خلقاً أم السماء﴾؟ يعني بل السماء أشدّ خلقاً منكم، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾^(١). قال البغوي ﴿أأنتم أشدّ خلقاً أم السماء﴾ يعني أخلقكم بعد الموت أشدّ عندكم وفي تقديركم أم السماء؟ وهما في قدرة الله واحد.

قال ابن كثير^(٢) وقوله تعالى: ﴿بناها﴾ فسرّه بقوله ﴿رفع سمكها فسواها﴾ قال مجاهد: رفع بناءها بغير عمد ﴿وأغطش ليلها﴾ قال ابن عباس: أظلم ليلها ﴿وأخرج ضحاها﴾ قال مجاهد: نورها. ﴿والأرض بعد ذلك دحاهها﴾ قال ابن عباس: وذلك أن الله خلق الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات، ثم دحى الأرض بعد ذلك ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها﴾.

قال ابن كثير^(٣) وقوله تعالى: ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾: أي دحى الأرض، فأنبع عيونها، وأظهر مكنونها، وأجرى أنهارها، وأنبت زروعها وأشجارها وثمارها، وثبت جبالها لتستقرّ بأهلها ويقرّ قرارها، كل ذلك متاعاً لخلقه، ولما يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم إليها في هذه الدار، إلى أن ينتهي الأمد وينقضي الأجل.

قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَوَرِثَتِ الْجَحِيمُ لِمَن بَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ

(١) سورة غافر: الآية ٥٧.

(٢) المصدر السابق (٤/٤٦٨).

(٣) المصدر السابق (٤/٤٦٩).

﴿٤١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَا لَمْ يَلْبِثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾ .

عن ابن عباس قوله ﴿فإذا جاءت الطامة الكبرى﴾ من أسماء يوم القيامة، عظمه الله وحذره عباده. قال البغوي^(١): والطامة عند العرب الداهية التي لا تستطاع ﴿يوم يتذكر الإنسان ما سعى﴾ ما عمل في الدنيا من خير وشر ﴿وبرزت الجحيم لمن يرى﴾ قال مقاتل: يكشف عنها الغطاء فينظر إليها الخلق ﴿فأما من طغى﴾ قال مجاهد: عصى وآثر الحياة الدنيا ﴿فإن الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى﴾ قال مقاتل: هو الرجل يهتّم بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها ﴿فإن الجنة هي المأوى﴾ .

﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها﴾ قال البغوي: متى ظهورها وثبوتها ﴿فيم أنت من ذكرها﴾ لست في شيء من علمها وذكرها: أي لا تعلمها ﴿إلى ربك منتهاها﴾: أي انتهى عملها عند الله ﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾: أي إنما ينفع إنذارك من يخافها ﴿كانهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾ قال قتادة: وقت الدنيا في أعين القوم حين عاينوا الآخرة.



(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤١٤).

الدرس التاسع والتسعون بعد المائتين

﴿سورة عبس﴾

مكية، وهي اثنتان^(١) وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ ﴿٤﴾ الذِّكْرَى ﴿٥﴾ أَمَا مِنْ أَسْتَفْتَى ﴿٦﴾ فَأَنْتَ لَمْ تَصْدَى ﴿٧﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبَ ﴿٨﴾ وَأَمَا مِنْ جَاءَكَ ﴿٩﴾ يَسْعَى ﴿١٠﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿١١﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَى ﴿١٢﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١٣﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٤﴾ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴿١٥﴾ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴿١٦﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٧﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٨﴾ قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ ﴿١٩﴾ مِنْ أَى شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿٢٠﴾ مِنْ تَطْفِئَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَمَانَهُ ﴿٢٣﴾ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢٤﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴿٢٥﴾ كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُوهُ ﴿٢٦﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٧﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٨﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٩﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٣٠﴾ وَعَبْنَا وَقَضْبًا ﴿٣١﴾ وَزَيْتُونًا ﴿٣٢﴾ وَفَخْلًا ﴿٣٣﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٤﴾ وَفَلَكْهًا وَأَبَا ﴿٣٥﴾ مَتَلَعًا لَكْرًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَعْمِكُمْ ﴿٣٧﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ ﴿٣٨﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٩﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٤٠﴾ وَصَنْجَبِيهِ وَبَنِيهِ ﴿٤١﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٤٢﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴿٤٣﴾ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٤٤﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴿٤٥﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤٦﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ ﴿٤٧﴾ .

(١) في الأصل: «اثنتان»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف، وهو الصواب.

قوله عز وجل : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ۙ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهِ يُزَكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّيَ (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مُرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) ۝ .

عن ابن عباس قوله ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ﴾ قال: بينما رسول الله ﷺ يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب، وكان يتصدى لهم كثيراً رجاء أن يؤمنوا، فأقبل إليه رجل أعمى يقال له عبد الله ابن أم مكتوم يمشي وهو يناجيهم، فجعل عبد الله يستقرئ النبي ﷺ آية من القرآن وقال: يا رسول الله علمني مما علمك الله، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وعبس في وجهه وتولى، وكره كلامه وأقبل على الآخرين، فلما قضى رسول الله ﷺ وأخذ ينقلب إلى أهله، أمسك الله بعض بصره ثم خفق برأسه، ثم أنزل الله ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴾. فلما نزل فيه أكرمه رسول الله ﷺ وكلمه وقال له: «ما حاجتك؟ هل تريد من شيء؟» وإذا ذهب من عنده قال له: «هل لك حاجة في شيء؟» وذلك لما أنزل الله ﴿ أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى ﴾ (١).

(١) أخرجه ابن جرير (٥١/٣٠) بسند ضعيف جداً. وبنحوه - مختصراً - من حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه الترمذي (ح/٣٣٣١) وحسنه، وابن جرير (٥٠/٣٠)، وصححه ابن حبان «موارد الظمان» (ح/١٧٦٩)، والحاكم (٥١٤/٢)، وقال: «حديث صحيح» على شرط الشيخين ولم يخرجاه، فقد أرسله جماعة عن هشام بن عروة، قال الذهبي: وهو الصواب، وفي الباب من حديث أنس، وكعب بن عجرة، وأبي أمامة رضي الله عنهم.

قال ابن زيد: كان يقال: لو أن رسول الله ﷺ كتّم من الوحي شيئاً كتّم هذا عن نفسه؛ قال: وكان يتصدّق كهذا الشريف في جاهليته رجاء أن يسلم، وكان عن هذا يتلهّى.

قال البغوي^(١): ﴿عبس﴾ كلعج ﴿وتولى﴾ أعرض بوجهه ﴿أن جاءه الأعمى﴾ وهو ابن أم مكتوم ﴿وما يدريك لعله يزكى﴾ يتطهر من الذنوب بالعمل الصالح وما يتعلّمه منك ﴿أو يذكرك﴾ يتعظ ﴿فتنفعه الذكرى﴾. ﴿أما من استغنى﴾ قال ابن عباس: عن الله وعن الإيمان بماله من المال ﴿فأنت له تصدى﴾ تتعرض له وتقبل وتصغي إلى كلامه ﴿وما عليك ألا يزكى﴾ أن لا يؤمن ويهتدي، إن عليك إلا البلاغ. ﴿وأما من جاءك يسعى﴾ يمشي يعني ابن أم مكتوم ﴿وهو يخشى﴾ الله عز وجل ﴿فأنت عنه تلهى﴾ تتشاغل وتعرض عنه. ﴿كلّا﴾ زجر: أي لا تفعل بعدها مثلها ﴿إنها﴾ يعني هذه الموعظة؛ وقال مقاتل: آيات القرآن ﴿تذكرة﴾ موعظة وتذكير للخلق ﴿فمن شاء﴾ من عباد الله ﴿ذكره﴾: أي اتعظ به. ثم أخبر عن جلالة عنده فقال ﴿في صحف مكرمة﴾ يعني اللوح المحفوظ ﴿مرفوعة مطهرة﴾ لا يمسّها إلا المطهرون ﴿بأيدي سفرة﴾ قال ابن عباس: هم الملائكة ﴿كرام بررة﴾ قال البغوي^(٢): أي كرام على الله بررة مطيعين. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه وهو عليه شاق له أجران»^(٣). رواه الجماعة.

قوله عز وجل: ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيْ شَوْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ تُطْفَأِ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُوهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ

(١) انظر «معالم التنزيل» (ح/٤١٥).

(٢) المصدر السابق (٤/٤١٦).

(٣) سبق تخريجه.

شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غَلَبًا ﴿٣٠﴾ وَفَكَهْمَةً
وَأَبًا ﴿٣١﴾ مَتَّعْنَا لَكُمْ وَلَا تَعْمَلِكُمْ ﴿٣٢﴾ .

قال مجاهد: ما كان في القرآن: قتل الإنسان أو فعل بالإنسان، فإنما عني به الكافر. قال البغوي^(١): ﴿ما أكفره﴾ ما أشد كفره بالله مع كثرة إحسانه إليه وأياديه عنده، على طريق التعجب. قال الزجاج معناه اعجبوا أنتم من كفره. وقال الكلبي ومقاتل: هو «ما» الاستفهام يعني أي شيء حملة على الكفر؟ ثم بين من أمره ما كان ينبغي معه أن يعلم أن الله خلقه فقال ﴿من أي شيء خلقه﴾.

وقال ابن كثير^(٢): ثم بين تعالى له كيف خلقه من الشيء الحقيق، وأنه قادر على إعادته كما بدأه فقال تعالى ﴿من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدّره﴾ قال البغوي^(٣): أطواراً: من نطفة ثم علقه إلى آخر خلقه ﴿ثم السبيل يسره﴾ قال ابن عباس: يعني بذلك خروجه من بطن أمه، يسره له. وقال مجاهد هو كقوله: ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾^(٤).

﴿ثم أماته فأقبره﴾ قال البغوي: جعل له قبراً يوارى فيه ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ أحياء بعد موته ﴿كلّاً لما يقض ما أمره﴾ قال البغوي ﴿كلّاً﴾ ردّ عليه: أي ليس كما يقول ويظنّ هذا الكافر. وقال الحسن: حقاً ﴿لما يقض ما أمره﴾: أي لم يفعل ما أمره به ربه، ولما يؤدّ ما فرض عليه. ولما ذكر خلق ابن آدم ذكر رزقه ليعتبر فقال ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾ كيف قدره ربه ودبره له وجعله سبباً لحياته. وقال مجاهد: إلى مدخله ومخرجه. ثم بين فقال ﴿أنا صبينا الماء صبّاً﴾ يعني المطر ﴿ثم شققنا الأرض شقّاً﴾ بالنبات ﴿فأنبتنا فيها حبّاً﴾: أي الحبوب التي يتغذى بها

(١) المصدر السابق (٤/٤١٦ - ٤١٧).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٧١ - ٤٧٢).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤١٧).

(٤) سورة الإنسان: الآية ٣.

عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءتِ الصَّاعَةَ﴾ قال: «هذا من أسماء يوم القيامة، عظّمه الله وحذّره عباده»^(١). قال البغوي^(٢): ﴿فَإِذَا جَاءتِ الصَّاعَةَ﴾ يعني صيحة القيامة، سمّيت بذلك لأنها تصخّ الأسماع: أي تبالغ في إسماعها حتى تكاد تصمّها ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ لا يلتفت إلى واحد منهم لشغله بنفسه. وقال عكرمة: يلقي الرجل زوجته فيقول: يا هذه أيُّ بعل كنت لك؟ فتقول: نعم البعل، وتشي بخير ما استطاعت، فيقول لها: فإنّي أطلب إليك اليوم حسنة واحدة تهيبها لي لعلّي أنجو مما ترين، فنقول له: ما أيسر ما طلبت، ولكنّي لا أطيق أن أعطيك شيئاً، أتخوّف مثل الذي تحاف. قال: وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلّق به فيقول: يا بنيّ: أيُّ والد كنت لك؟ فيشي بخير فيقول له: يا بنيّ إنّي احتجت إلى مثقال ذرّة من حسناتك لعلّي أنجو بها مما ترى، فيقول ولده: يا أبت ما أيسر ما طلبت، ولكنّي أتخوّف مثل الذي تخوّف، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً؛ يقول الله تعالى ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾. وعن عروة عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً»، فقالت: يا رسول الله فكيف بالعورات؟ فقال: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يَغْنِيهِ﴾^(٣). رواه النسائي. وقال ابن زيد في قول الله ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يَغْنِيهِ﴾ قال: شأن قد شغله عن صاحبه.

﴿وَجَوْهَ يَوْمَئِذٍ مَسْفَرَةٍ ضَاحِكَةٍ مُسْتَبْشِرَةٍ﴾ قال: هؤلاء أهل الجنة: ﴿وَوَجْوهَ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ قال: هذه وجوه أهل النار؛ قال: والفترة من الغبرة وهما واحد، فأما في الدنيا فإن الفترة ما ارتفع فحلقت بالسماء رفعته الريح، تسمّيه

(١) أخرجه ابن جرير (٦١/٣٠)، وفيه انقطاع.

(٢) المصدر السابق (٤١٨/٤).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٥٠٧/٦)، والحاكم (٥٦٤/٤) وصححه، وسكت عليه الذهبي؛ وهو حديث صحيح. وبنحوه أخرجه البخاري (ح/٦٥٢٧)، ومسلم (ح/٢٨٥٩).

العرب: القتره؛ وما كان أسفل في الأرض فهو الغبرة. وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «يلجم الكافر العرق، ثم تقع الغبرة على وجوههم - قال - فهو قوله ﴿ووجوه يومئذ عليها غبرة﴾»^(١). وقال ابن عباس ﴿ترهقها قتره﴾: أي يغشاها سواد الوجوه.

وقال البغوي^(٢): ﴿وجوه يومئذ مسفرة﴾ مشرقة مضيئة. ﴿ضاحكة﴾ بالسرور ﴿مستبشرة﴾ فرحة بما نالت من كرامة الله عز وجل. ﴿ووجوه يومئذ عليها غبرة﴾ سواد وكآبة مما يشاهدون من الغمّ والهَمّ ﴿ترهقها قتره﴾ تعلوها وتغشاها ظلمة وكسوف: ﴿أولئك﴾ الذين يصنع بهم هذا ﴿هم الكفرة الفجرة﴾.



(١) أخرجه ابن أبي حاتم، كما عزاه ابن كثير في تفسيره (٤/٤٧٤)، عن علي بن الحسين مرسلًا.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤١٨).

الدرس الثلاثمائة

﴿سورة التكوير﴾

مكية، وهي تسع^(١) وعشرون آية

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين، فليقرأ إذا الشمس كورت، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقت»^(٢). رواه أحمد وغيره.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّتَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُنِلَتْ ۝٩ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ۝١٤ فَلَا أَقِيمُ بِالْخُسُفِ ۝١٥ الْجَوَارِ الْكُنُفِ ۝١٦ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ ۝١٨ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١﴾

(١) في (الأصل) «تسعة»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف رحمه الله.
(٢) أخرجه أحمد (٢/٢٧ و ٣٦ و ١٠٠)، والترمذي (ح/٣٣٣٣) وحسنه، والحاكم (٤/٥٧٦) بتمامه و (٢/٥١٥) مختصراً، وقال: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي.

وَمَا صَاحِبُكُمْ يَمْحُوتُونَ ﴿٢٧﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِ الْمِيِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينِ ﴿٢٤﴾ وَمَا
هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ
يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ .

* * *

قوله عز وجل : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ١ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ٤ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ٥ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ٦ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ٧ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ ٨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ٩ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ١٠ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ١١ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ١٢ وَإِذَا الْجَنَّةُ أَزْلِفَتْ ١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ١٤ ﴾ .

عن أبي العالية قال: قال أبي بن كعب: «ست آيات قبل يوم القيامة، بينا الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واحترقت، وفزعت الجن إلى الإنس والجن، واختلطت الدواب والطيور والوحوش، وماجأ بعضهم في بعض. ﴿ وإذ الوحوش حشرت ﴾ قال: اختلطت ﴿ وإذ البحار سُجِّرَتْ ﴾ قال: أهملها أهلها. ﴿ وإذ البحار سُجِّرَتْ ﴾ قال: قالت الجن للإنس: نحن نأتيكم بالخبر، قال: فانطلقوا إلى البحار فإذا هي نار تأجج، قال فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى، وإلى السماء السابعة العليا، قال: فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الرياح فأماتتهم»^(١).

وعن ابن عباس. ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ يقول: أظلمت. قال قتادة: ذهب ضوءها فلا ضوء لها. وقال الزجاج: لفت كما تلفت العمامة ﴿ وإذ النجوم انكدرت ﴾ قال البغوي^(٢): أي تناثرت من السماء وتساقطت على الأرض ﴿ وإذ

(١) أخرجه ابن جرير (٤١٩/٣٠).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤١٩/٤).

الجبال سيرت ﴿ قال ابن جرير: سيرها الله فكانت سراياً وهباءً منبثاً ﴾ وإذا العشار عطلت ﴿ قال الحسن: سييها أهلها فلم تصر ولم تحلب، ولم يكن في الدنيا ما أعجب إليهم منها ﴾ وإذا الوحوش حشرت ﴿ قال ابن عباس: حشر البهائم موتها ﴾ وإذا البحار سجرت ﴿ قال ابن عباس: كور الله الشمس والقمر والنجوم في البحر، فبعث عليها ريحاً دبوراً فنفضه حتى يصير ناراً، فذلك قوله ﴾ وإذا البحار سجرت ﴿ . ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ قال عمر بن الخطاب: هما الرجلان يعملان العمل يدخلان به الجنة أو النار، وقرأ ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ ^(١) قال: ضرباءهم. وقال مجاهد: الأمثال من الناس جمع بينهم. وقال قتادة: لحق كل إنسان بشيعته. وقال الشعبي: زوجت الأرواح الأجساد. وعن أبي العالية في قوله ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ قال: سيأتي أولها والناس ينظرون وسيأتي آخرها ﴿ إذا النفوس زوجت ﴾ .

وعن قتادة ﴿ وإذا المؤمنة قتلت ﴾ هي في بعض القراءة: سألت ﴿ بأيّ ذنب قتلت ﴾ لا بذنب؛ كان أهل الجاهلية يقتل أحدهم ابنته ويغذو كلبه، فعاب الله ذلك عليهم. قال البغوي ^(٢): ومعناه تسأل المؤمنة فيقال لها: بأيّ ذنب قتلت؟ ومعنى سؤالها توبيخ قاتلها، لأنها تقول: قتلت بغير ذنب. ﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ قال قتادة: صحفك يا ابن آدم تملّي ما فيها ثم تطوى، ثم تنشر عليك يوم القيامة. ﴿ وإذا السماء كشطت ﴾ قال السدي: كسفت. وقال الفراء: نزع فتويت. وعن قتادة. ﴿ وإذا الجحيم سعرت ﴾ سعرها غضب الله وخطايا بني آدم.

﴿ وإذا الجنة أزلفت ﴾ قال ابن جرير ^(٣): قرّبت وأدّنت. ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ قال قتادة: من عمل. وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال: لما نزلت ﴿ إذا

(١) سورة الصافات: الآية ٢٢.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤١٩).

(٣) انظر «جامع البيان» (٣٠/٧٣).

الشمس كوّرت ﴿ قال عمر لما بلغ ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾: لهذا جرى الحديث. قال البغوي: وهذا جواب قوله ﴿إذا الشمس كوّرت﴾ وما بعدها.

قوله عز وجل: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالْخَنَسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذَهِبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾.

عن قتادة قوله ﴿فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس﴾ قال: هي النجوم تبدو بالليل وتخس بالنهار. وقال: الخنس هي النجوم تخس بالنهار، و﴿الجوار الكنس﴾ سيرهن إذا غبن. وقال ابن زيد: الخنس إنها تخس: تتأخر عن مطلعها، هي تتأخر كل عام، لها في كل عام تأخر عن تعجيل ذلك الطلوع تخس عنه. والكنس تكس بالنهار فلا ترى. قال: والجواري تجري بعد؛ فهذا ﴿الخنس الجوار الكنس﴾.

قال ابن القيم^(١): «أقسم سبحانه بالنجوم في أحوالها الثلاثة: من طلوعها وجريانها وغروبها». وعن ابن عباس قوله ﴿والليل إذا عسعس﴾ يقول: إذا أدبر. وقال الحسن يقول: أقبل بظلامه، ويشهد لهذا قوله تعالى ﴿والليل إذا يغشى﴾^(٢) ورجحه ابن كثير^(٣). ﴿والصبح إذا تنفس﴾ قال قتادة: إذا أضاء وأقبل ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ يعني جبريل. قال ابن كثير: يعني أن هذا القرآن لتبليغ ﴿رسول

(١) انظر «التيبان في أقسام القرآن» (ص ١٢٠).

(٢) سورة الليل: الآية ١.

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٧٩).

كريم ﴿: أي ملك شريف ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ كقوله تعالى ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ﴾: أي شديد الخلق شديد البطش والفعل ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾: أي له مكانة عند الله عز وجل ومنزلة رفيعة ﴿مَطَاعٌ نَّمًّا﴾: أي له وجاهة وهو مسموع القول في الملأ الأعلى ﴿أَمِينٌ﴾ قال البغوي^(١): على وحي الله ورسالته إلى أنبيائه. ﴿وَمَا صَاحِبِكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ يقول لأهل مكة ﴿وَمَا صَاحِبِكُمْ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿بِمَجْنُونٍ وَلَقَدْ رَآهُ﴾ يعني رأى النبي ﷺ جبريل عليه السلام على صورته ﴿بِالْأَفْقِ الْمَبِينِ﴾ وهو الأفق الأعلى من ناحية المشرق؛ قاله مجاهد وقتادة.

قال ابن كثير^(٢): وقوله تعالى ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ﴾: أي وما محمد على ما أنزله الله إليه بظنين: أي بمتهم؛ ومنهم من قرأ ذلك بالضاد: أي ببخيل، بل يبذله لكل أحد. قال قتادة: كان القرآن غيباً فأنزله الله على محمد، فما ضنّ به على الناس بل نشره وبلغه وبذله لكل من أراه. ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ يقول: فأين تعدلون عن كتابي وطاعتي ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ قال مجاهد: يتبع الحق ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ قال البغوي^(٣): أعلمهم أن المشيئة في التوفيق إليه، وأنهم لا يقدرُونَ على ذلك إلا بمشيئة الله، وفيه إعلَامُ أَنَّ أَحَدًا لَا يَعْمَلُ خَيْرًا إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ، وَلَا ضَرًّا إِلَّا بِخِذْلَانِهِ.



(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٢١ — ٤٢٢)،

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٨٠).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٢٣).

﴿سورة الانفطار﴾

وهي تسع عشرة^(١) آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ ﴿٥﴾ بِنَائِهَا الْإِنْسَانُ مَّا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالذِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَنِينِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الذِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الذِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الذِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾

* * *

(١) في (الأصل): «تسعة عشر آية»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف - رحمه الله - وهو الصواب.

قوله عز وجل: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَثِيرِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ .

قال البغوي^(١): ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ انشقت ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ تساقطت. ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ فجر بعضها في بعض، واختلط العذب بالمالح فصارت بحراً واحداً. ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ﴾ قال ابن عباس: بحثت^(٢). ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ﴾ قال القرظي ﴿مَّا قَدَّمْتَ﴾ ما علمت، وأما ما ﴿أَخَّرْتَ﴾ فالسنة يستها الرجل يعمل بها من بعده ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ قال قتادة: شيء ما غرَّ ابن آدم، هذا العدو الشيطان. سمع عمر رجلاً يقرأ ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾؟ فقال عمر: الجهل.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ روى الإمام أحمد عن بشر بن جحاش القرشي أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه، فوضع عليها أصبعه ثم قال: «قال الله عز وجل: يا ابن آدم أتى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه؟ حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين، وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٢٤).

(٢) في (الأصل): «بحشت»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف - رحمه الله - وهو الصواب.

إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق؛ وأتي أو ان الصدقة؟^(١) وعن مجاهد في قول الله ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ قال: في أي شبه أب أو أم أو عم أو خال ﴿كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالذِّينِ﴾ قال: بالحساب.

﴿وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾ عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ينهاكم عن التعري، فاستحيوا عن التعري، فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالات: الغائط، والجنابة، والغسل، فإذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستر بثوبه، أو بجرم حائط، أو ببعيره»^(٢). رواه البزار. وفي رواية ابن أبي حاتم: «أو ليستره أخوه»^(٣).

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

قال البغوي^(٤): قوله عز وجل: ﴿إن الأبرار لفي نعيم﴾ الأبرار: الذين برّوا وصدقوا في إيمانهم، بأداء فرائض الله عز وجل واجتناب معاصيه. ﴿وإن الفجار لفي جحيم﴾ روي أن سليمان بن عبد الملك قال لأبي حازم: ليت شعري، ما لنا عند الله؟ قال: أعرض عملك على كتاب الله، فإنك تعلم مالك عند الله. قال: فأين أجده في كتاب الله؟ فقال: عنده قوله ﴿إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي

(١) أخرجه أحمد (٢١٠/٤)، وابن ماجه (ح/٢٧٠٧) وصححه بعضهم إسناده.

(٢) أخرجه البزار، كما في «مختصر زوائد البزار» (ح/٢٠٥) وقال: «لا نعلمه يروى عن ابن

عباس إلا من هذا الوجه، وحفص لين الحديث»، قلت وسنده ضعيف جداً

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٤٨٢/٤) عن مجاهد مرسلًا

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٤٢٥/٤).

جحيم ﴿ قال سليمان: فأين رحمة الله؟ قال: رحمة الله قريب من المحسنين.

قوله عز وجل: ﴿ يصلونها ﴾ يدخلونها ﴿ يوم الدين ﴾ يوم القيامة ﴿ وما هم عنها بغائبين ﴾؛ ثم عظم ذلك اليوم فقال: ﴿ وما أدراك ما يوم الدين ﴾؛ ثم كرّر تفخيماً لشأنه فقال: ﴿ ثم ما أدراك ما يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾ قال قتادة: والأمر والله اليوم لله، ولكنه يومئذ لا ينازعه أحد؛ ليس ثم أحد يومئذ يقضي شيئاً ولا يصنع إلاّ رب العالمين؛ قال ابن كثير^(١): ولهذا قال ﴿ والأمر يومئذ لله ﴾، كقوله ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾^(٢).



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٨٣).

(٢) سورة غافر: الآية ١٦.

الدرس الواحد بعد الثلاثمائة

﴿سورة المطففين﴾

مكية، وهي ست^(١) وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ
وَزَنُوهُمْ يَخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ
النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾
كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا
كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِ مَا أَنشَأَ قَالِ اسْطِطِرُّ الْأَوْلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحْجُورُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ
هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا
عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ
يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَّخْحُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَمُهُ
مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِرَاجُهُمْ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا

(١) في (الأصل): «سته»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف — رحمه الله —

وهو الصواب.

الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا
بِهِمْ يَنْغَامِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ
هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ
يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَىٰ الْأَرَءَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ .

* * *

قوله عز وجل ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾
وَلِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ .

عن هلال بن طلق قال: بينما أنا أسير مع ابن عمر فقلت: من أحسن الناس هيئة وأوفاهم كيلا، أهل مكة وأهل المدينة؟ قال: حق لهم، أما سمعت الله تعالى يقول ﴿ويل للمطففين﴾. وعن ابن عباس قال: «لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أحبب الناس كيلا، فأنزل الله تعالى ﴿ويل للمطففين﴾ فحسبوا الكيل بعد ذلك»^(١). وعن ابن عمر أنه قال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، إن أهل المدينة ليوفون الكيل، قال: وما يمنعهم أن يوفوا الكيل، وقد قال الله تعالى ﴿ويل للمطففين﴾ حتى بلغ ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾؟ وعن عكرمة قال: أشهد أن كل كيال ووزان في النار، فليل له في ذلك فقال: إنه ليس منهم أحد يزن كما يتزن، ولا يكيل كما يكتال، وقد قال الله ﴿ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون﴾. قال الزجاج: المعنى إذا اكتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل.

﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾؛ قال البغوي^(٢): أي كالوا لهم ووزنوا لهم ﴿يخسرون﴾: أي ينقصون، ﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾؟ وعن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «يقوم الناس لرب

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٥٠٨/٦)، وابن ماجه (ح/٢٢٣)، وابن جرير (٩١/٣٠)،

والطبراني (٣٧١/١١)، والحاكم (٣٣/٢)، وصححه ووافقه الذهبي، وهو كما قالا.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤٢٧/٤).

العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه»^(١). متفق عليه. وعن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل، ويزاد في حرها كذا وكذا، تغلي منها الهوام كما تغلي القدور، يعرقون فيها على قدر خطاياهم، فمنهم من يبلغ إلى كعبيه، ومنهم من يبلغ إلى ساقيه، ومنهم من يبلغ إلى وسطه، ومنهم من يلجمه العرق»^(٢). رواه أحمد. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لبشير الغفاري: «كيف أنت صانع في يوم يقوم الناس فيه لرب العالمين مقدار ثلاثمائة سنة من أيام الدنيا، لا يأتيهم خبر من السماء ولا يؤمر فيهم بأمر؟» قال بشير: المستعان الله يا رسول الله. قال: «إذا أنت أويت إلى فراشك فتعوذ بالله من كرب يوم القيامة وسوء الحساب»^(٣). رواه ابن جرير.

قوله عز وجل ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُنْفَخَتِ الصُّفُوفُ إِذَا نُفِخَ الْسُّنْفُورُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ .

عن قتادة قوله ﴿إن كتاب الفجار لفي سجين﴾ ذكر أن عبد الله بن عمر كان يقول: هي الأرض السفلى، فيها أرواح الكفار، وأعمالهم أعمال السوء. وقال ابن

(١) أخرجه البخاري (ح/٦٥٤١)، ومسلم (ح/٢٨٦٢).

(٢) أخرجه أحمد (٥/٢٥٤)، والطبراني (٨/٢٢٢) بسند حسن، وله شاهد من حديث المقداد بن عمر رضي الله عنه: أخرجه مسلم (ح/٢٨٦٤) بنحوه، وشاهد من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه: أخرجه الحاكم (٤/٥٧١) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه ابن جرير (٣٠/٩٣) بسند ضعيف.

كثير^(١) يقول تعالى: حَقًّا إِنَّ كِتَابَ الْكُفَّارِ ﴿لَفِي سَجِينٍ﴾: أي أن مصيرهم ومأواهم لفي سجين، مأخوذ من السجن وهو الضيق ولهذا عظم أمره فقال تعالى ﴿وما أدراك ما سَجِينٌ﴾: أي هو أمر عظيم وسجن مقيم وعذاب أليم. انتهى ملخصاً. وقال الزجاج في قوله ﴿وما أدراك ما سَجِينٌ﴾: أي ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت ولا قومك.

﴿كتاب مرقوم﴾ قال البغوي^(٢): ليس هذا تفسير السجين، بل هو بيان الكتاب المذكور في قوله ﴿إن كتاب الفجار﴾ قال قتادة: رقم لهم بشر. ﴿ويل يومئذ للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين وما يكذب به إلا كل معتمد أتيم إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ قال ابن كثير^(٣): أي ليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا أن هذا القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله، ووحيه، وتنزله على رسوله ﷺ، وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به، ما عليها من الرين الذي قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا، ولهذا قال تعالى ﴿كلّاً بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب صقل منها، فإن عاد عادت حتى تعظم في قلبه، فذلك الران الذي قال الله ﴿كلّاً بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾^(٤). رواه ابن جرير. وعن قتادة قوله ﴿كلّاً بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ أعمال السوء: أي والله ذنب على ذنب وذنب على ذنب حتى مات قلبه واسود. وقال ابن

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٨٤).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٢٩).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٨٥).

(٤) أخرجه أحمد (٢/٢٩٧)، والترمذي (ح/٢٣٣٤)، وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٦/٥٠٩)، وابن ماجه (ح/٤٢٤٤)، وابن جرير (٣٠/٩٨)، والحاكم (٢/٥١٧)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. قلت: ومداره على محمد بن عجلان، وهو صدوق، وقد اختلطت عليه أحاديث أبي هريرة، فهو حديث حسن

زيد: غلب على قلوبهم ذنوبهم فلا يخلص إليها معها خير. وعن قتادة ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ هو لا ينظر إليهم ولا يزيكهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وقال الحسين بن الفضل: كما حجبهم في الدنيا عن توحيد حجبهم في الآخرة عن رؤيته. وقال الإمام مالك: لما حجب أعداءه فلم يروه تجلّى لأوليائه حتى رأوه^(١).

قال البغوي^(٢): ثم أخبر أن الكفار مع كونهم محجوبين عن الله يدخلون النار فقال ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا﴾: أي هذا العذاب ﴿الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَكذِّبُونَ﴾.

قوله عز وجل ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلْتَيْنَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلْتُونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتْمُهُ مِسْكٌَ ﴿٢٦﴾ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمَرْاجِعُهم مِّن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

عن قتادة قوله ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلْتَيْنِ﴾ قال: عليّون فوق السماء السابعة عند قائمة العرش اليمنى، وقال ابن عباس: أعمالهم في كتاب عند الله في السماء. وقال كعب الأحبار: إن الروح المؤمنة إذا قبضت صعد بها، ففتحت لها أبواب السماء وتلقّتها الملائكة بالبشرى، ثم عرجوا معها حتى ينتهوا إلى العرش، فيخرج لها من عند العرش رَقٌّ فيرقم ثم يختم بمعرفتها النجاة بحساب يوم القيامة، وتشهد الملائكة المقربون.

(١) وبمفهوم هذه الآية، استدل أهل السنة - رحمهم الله - على رؤية المؤمنين لربهم عز وجل يوم القيامة كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَجُوهُهم يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾، وقوله ﴿﴾:

«أنكم سترون ربكم لا تضامون في رؤيته كما ترون...» وأحاديث كثيرة.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٢٩).

وقال البغوي^(١): ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ يُنظَرُونَ﴾ إلى ما أعطاهم الله من الكرامة والنعمة ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ قال الحسن: النضرة في الوجه، والسرور في القلب. ﴿يسقون من رحيق مختوم﴾ قال ابن عباس: يعني بالرحيق الخمر، طيب الله لهم الخمر فكان آخر شيء جعل فيها حتى تختم بمسك. وعن قتادة ﴿ختامه مسك﴾ قال: عاقبته مسك يمزج لهم بالكافور ويختم بالمسك. ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ قال عطاء: فليستبق المستبقون. وعن ابن عباس قوله ﴿ومزاجه من تسنيم عيناً يشرب بها المقربون﴾ صرفاً، ويمزج فيها لمن دونهم. وعن الحسن في قوله ﴿ومزاجه من تسنيم﴾ قال: خفايا أخفاها الله لأهل الجنة. وقال ابن عباس: هذا مما قال الله تعالى ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾^(٢).

قوله عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿٣٤﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٥﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يُنظَرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾.

عن قتادة قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ في الدين، يقولون: والله إن هؤلاء لكذبة وما هم على شيء، استهزاء بهم ﴿وإذا مروا بهم يتغامزون﴾ قال ابن جرير^(٣): يقول: كان بعضهم يغمز بعضاً بالمؤمن استهزاء به وسخرية ﴿وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين﴾ قال ابن عباس: معجبين ﴿وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون﴾ قال ابن كثير^(٤): أي لكونهم على غير دينهم، قال

(١) المصدر السابق (٤/٤٣٠).

(٢) سورة السجدة: الآية ١٧.

(٣) انظر «جامع البيان» (٣٠/١١٠).

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٨٧).

الله تعالى ﴿وما أرسلوا عليهم حافظين﴾ قال ابن جرير^(١): يقول تعالى ذكره: وما بعث هؤلاء الكفار القائلون للمؤمنين ﴿إن هؤلاء لضالون﴾ حافظين عليهم بأعمالهم، يقول: إنما كُلفوا بالإيمان بالله والعمل بطاعته، ولم يُجعلوا رقباء على غيرهم يحفظون عليهم أعمالهم وينتقدونها.

وعن ابن عباس قوله ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون﴾ قال: يعني السرر المرفوعة عليها الحجال. وكان ابن عباس يقول: «إن السور الذي بين الجنة والنار يفتح لهم فيه أبواب، فينظر المؤمنون إلى أهل النار، والمؤمنون على السور ينظرون كيف يعذبون فيضحكون منهم»^(٢)، فيكون ذلك مما أقرّ به أعينهم كيف ينتقم الله منهم.

وعن مجاهد ﴿هل ثوب الكفار﴾؟ قال: جزي. وعن سفيان ﴿هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون﴾ حين كانوا يسخرون؟ قال البغوي^(٣): ومعنى الاستفهام وهنا التقرير. وقال ابن كثير وقوله تعالى ﴿هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون﴾؟: أي هل جوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنون من الاستهزاء والتنقيص أم لا؟ يعني قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمّه وأكمّله.



(١) انظر «جامع البيان» (١١٠/٣٠).

(٢) أخرجه ابن جرير (١١١/٣٠) بسند ضعيف.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤٣٢/٤).

﴿سورة الانشقاق﴾

مكية، وهي خمس (١) وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا
وَحَخَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَتَأَيَّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا
فَمُلْقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَتَنقَلِبُ
إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ
سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَن لَّنْ يَمُورَ ﴿١٤﴾ بِلَآئِ إِنْ رَبُّهُ كَانَ بِهِ
بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِالْشَفَقِ ﴿١٦﴾ وَالْأَيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ
طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾
بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكْذِبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾
إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْتُونٍ ﴿٢٥﴾ .

* * *

(١) في (الأصل): «خمسة»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف — رحمه الله — وهو الصواب.

قوله عز وجل ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ ﴿٥﴾ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْفٍ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْفٍ كِتَابُهُ وِرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصَلِّي سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّكُمْ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَمُورَ ﴿١٤﴾ بَلَّغْ إِنَّ رَبِّيُمْ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ .

عن أبي رافع قال: صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ ﴿إذا السماء انشقت﴾ فسجد فقلت له، فقال: «سجدت خلف أبي القاسم عليه السلام، فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه»^(١). متفق عليه.

قال البغوي^(٢): ﴿إذا السماء انشقت﴾ انشقاقها من علامات القيامة ﴿وأذنت لربها﴾: أي سمعت أمر ربها بالانشقاق وأطاعته، من الإذن: وهو الاستماع: ﴿وحققت﴾: أي وحق لها أن تطيع ربها ﴿وإذا الأرض مدت﴾ مد الأديم وزيد في سعتها ﴿وألقت ما فيها وتخلت﴾ قال مجاهد: أخرجت ما فيها من الموتى؛ وقال قتادة: أخرجت أثقالها وما فيها ﴿وأذنت لربها وحققت﴾.

﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾ قال قتادة: إن كدحك يا ابن آدم لضعيف، فمن استطاع أن يكون كدحه في طاعة الله فليفعل، ولا قوة إلا بالله. وقال ابن زيد ﴿كدحاً﴾ العمل ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب

(١) أخرجه البخاري (ح/٧٦٨)، ومسلم (١/٤٠٧).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٣٣).

الأولى: ﴿فما لهم لا يؤمنون﴾ قال: بهذا الحديث وبهذا الأمر. ﴿وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون بل الذين كفروا يكذبون والله أعلم بما يوعون﴾ قال مجاهد: يكتمون ﴿فبشّروهم بعذاب أليم﴾ قال ابن كثير^(١): أي فأخبرهم يا محمد بأن الله عز وجل قد أعدّ لهم عذاباً أليماً.

وقوله تعالى: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ هذا استثناء منقطع، يعني: لكن ﴿الذين آمنوا﴾: أي بقلوبهم ﴿وعملوا الصالحات﴾: أي بجوارحهم ﴿لهم أجر﴾: أي في الدار الآخرة ﴿غير ممنون﴾ قال البغوي^(٢): غير مقطوع ولا منقوص.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٩١).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٣٥).

الدرس الثاني بعد الثلاثمائة

﴿سورة البروج﴾

مكية، وهي اثنتان وعشرون آية

عن أبي هريرة: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج، والسماء والطارق»^(١). رواه أحمد.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُلْ أَصْحَابُ الْأَعْدُدِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَنَوُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ هُمُ الْبَاقِيُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ الْجَنَّاتِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قَوْلٌ مِّنْ عِجْدٍ ﴿٢١﴾ فِي لُجٍّ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ .

(١) أخرجه أحمد (٣٢٧/٢) بسند ضعيف جداً.

قوله عز وجل ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ مَّشْهُودٍ ﴿٣﴾ قِيلَ أَصْحَابُ الْأَخْضُدِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَبْتُؤُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ .

عن مجاهد ﴿والسمااء ذات البروج﴾ قال: النجوم. وقال ابن جرير^(١): ذات منازل الشمس والقمر وقال ابن عباس: قصور في السماء. ﴿واليوم الموعود﴾ قال قتادة: يعني يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وشاهد ومشهود﴾ قال ابن عباس: «الشاهد محمد، والمشهود يوم القيامة، ثم قرأ ﴿ذلك يوم مجموع له لناس وذلك يوم مشهود﴾»^(٢). وقال مجاهد: الشاهد ابن آدم، والمشهود يوم القيامة. وعن ابن عباس في قوله ﴿وشاهد﴾ يقول: الله ﴿ومشهود﴾ يقول: يوم القيامة. وقال وابن عمرو بن الزبير: الشاهد يوم الذبح، والمشهود يوم الجمعة. وعن أبي هريرة أنه قال في هذه الآية ﴿وشاهد ومشهود﴾ قال: الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، والموعود يوم القيامة. وروى مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿واليوم الموعود﴾ يوم القيامة ﴿وشاهد﴾ يوم الجمعة، وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلاّ

(١) انظر «جامع البيان» (٣٠/١٢٧).

(٢) سورة النساء: الآية ٤١.

أعطاه إياه، ولا يستعيز فيها من شرِّ إلاّ أعاده، ﴿ومشهود﴾ يوم عرفة^(١). وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثرُوا عليّ الصلاة يوم الجمعة، فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة»^(٢). رواه ابن جرير.

قال ابن القيم^(٣): (فالشاهد هو المطلّع والرقيب والمخبر، والمشهود هو المطلّع عليه المخبر به المشاهد، إلى أن قال: فكلّ ما وقع عليه اسم: شاهد ومشهود، فهو داخل في هذا القسم، فلا وجه لتخصيص بعض الأنواع أو الأعيان إلاّ على سبيل التمثيل).

وعن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم ملك، وكان له ساحر، فلما كبر الساحر قال للملك: إنّي كبر سنّي وحضر أجلي، فادفع إليّ غلاماً لأعلّمه السحر، فدفّع إليه غلاماً كان يعلمه السحر؛ وكان الساحر وبين الملك راهب، فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه فأعجبه نحوه وكلامه، وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال: ما حبسك؟ وإذا أتى أهله ضربه وقالوا: ما حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا أراد الساحر أن يضربك فقل: حبسني أهلي، وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل: حبسني الساحر. قال: بينما هو ذات يوم، إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا، فقال: اليوم أعلم أمر الراهب أحبّ إلى الله أم أمر الساحر؛ فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحبّ إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل

(١) أخرجه الترمذي (ح/٣٣٣٩)، وقال: «حسن غريب لا نعرفه إلاّ من حديث موسى بن عبيدة، وموسى بن عبيدة يُضعف في الحديث»، وابن جرير (١٢٩/٣٠)، والبيهقي في سننه (١٧٠/٣) بسند ضعيف. وروي موقوفاً عن أبي هريرة: أخرجه الحاكم (٥١٩/٢)، وصححه ووافقه الذهبي، ومن طريقه البيهقي في سننه (١٧٠/٣)، وفي الباب من حديث أبي مالك الأشعري وجبير بن مطعم رضي الله عنهم.

(٢) أخرجه ابن جرير (١٣١/٣٠) بسند ضعيف.

(٣) انظر «التبيان في أقسام القرآن» (ص ٩٦).

هذه الدابة حتى يجوز الناس، ورماها فقتلها ومضى الناس، فأخبر الراهب بذلك فقال: أي بني أنت أفضل مني وإنك ستبتلي، فإن ابتليت فلا تدلّ عليّ.

فكان الغلام يبصر الأكمة والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم، وكان للملك جليس فعمي، فسمع به فأتاه بهدايا كثيرة فقال: اشفني ولك ما ههنا أجمع، فقال: ما أنا أشفي أحداً، وإنما يشفي الله عز وجل، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك، فآمن فدعا الله فشفاه، ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس، فقال له الملك: يا فلان من ردّ عليك بصرك؟ فقال: ربّي، فقال: أنا؟ قال: لا، ربّي وربك الله، قال: أولك ربّ غيري؟ قال: نعم، ربّي وربك الله، فلم يزل يعدّبه حتى دلّ على الغلام فبعث إليه فقال: أي بني بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمة والأبرص وهذه الأدواء؟ قال: ما أشفي أحداً إنما يشفي الله عز وجل، قال: أنا؟ قال: لا، قال: أولك ربّ غيري؟ قال: ربّي وربك الله، فأخذه أيضاً بالعذاب، فلم يزل به حتى دلّ على الراهب؛ فأتي بالراهب فقال: ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه؛ وقال لأعمى: ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه إلى الأرض؛ وقال للغلام: ارجع عن دينك فأبى، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا وقال: إذا بلغت ذروته، فإن رجع عن دينه وإلّا فدهدوه، فذهبوا به فلما علوا به الجبل قال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فدهدوها أجمعون، وجاء الغلام يتلمّس حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى.

فبعث به مع نفر في قرقور فقال: إذا ليجتتم به البحر، فإن رجع عن دينه وإلّا فغرقوه في البحر، فلججوا به البحر فقال الغلام: اللهم اكفنيهم بما شئت، فغرقوا أجمعون؛ وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى؛ ثم قال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به، فإن أنت فعلت ما أمرك به قتلتني، وإلّا فإنك لا تستطيع قتلي؛ قال: وما هو؟ قال:

تجمع الناس في صعيد واحد، ثم تصلبني على جذع وتأخذ سهماً من كنانتي، ثم قل: بسم الله رب الغلام، فإنك إن فعلت ذلك قتلتي، ففعل ووضع السهم في كبد قوسه ثم رماه، وقال: بسم الله رب الغلام، فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات. فقال الناس: آمنا برب الغلام، فقيل للملك: أرايت ما كنت تحذر؟ فقد والله نزل بك، قد آمن الناس كلهم. فأمر بأفواه السكك فخذت فيها الأخاديد وأضرمت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه، وإلاً فأقحموه فيها. قال: فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكانها تقاعست أن تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أمه فإنك على الحق^(١). رواه أحمد وغيره.

وعن ابن عباس ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات﴾ حرّقوا المؤمنين والمؤمنات ﴿ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾ قال ابن كثير^(٢): وذلك أن الجزاء من جنس العمل. قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أوليائه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير﴾.

قوله عز وجل ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ هُوَ بِيَدَيْ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ الْجَنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾.

قال البغوي^(٣): ﴿إن بطش ربك لشديد﴾ قال ابن عباس: إن أخذه بالعذاب إذا أخذ الظلمة لشديد. ﴿إنه هو بيديء ويعيد﴾: أي يخلقهم أولاً في الدنيا ثم

(١) أخرجه أحمد (١٧/٦ - ١٨)، وبنحوه مسلم (ح/٣٠٠٥).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٩٦).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٤٠).

يعيدهم أحياء بعد الموت، ﴿وهو الغفور الودود﴾ قال ابن عباس يقول: الحبيب ﴿ذو العرش المجيد﴾ قال البغوي: قرأ حمزة والكسائي: المجيد بالجر على صفة العرش: أي السرير العظيم؛ وقيل: أراد حسنه فوصفه بالمجد كما وصفه بالكرم، فقال «رب العرش الكريم» ومعناه الكمال، والعرش أحسن الأشياء وأكملها. وقرأ الآخرون بالرفع على صفة ذو العرش؛ فقال: لَمَا يريد لا يعجزه شيء يريد، ولا يمتنع منه شيء طلبه^(١).

قال ابن كثير^(٢): وقوله تعالى ﴿هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود﴾: أي هل بلغك ما أحلّ الله بهم من البأس، وأنزل عليهم من النعمة التي لم يردّها عنهم أحد؟ وهذا تقرير لقوله تعالى ﴿إن بطش ربك لشديد﴾. وعن عمرو بن ميمون قال: مرّ النبي ﷺ على امرأة تقرأ ﴿هل أتاك حديث الجنود﴾ فقام يسمع فقال: «نعم قد جاءني»^(٣). رواه ابن أبي حاتم.

﴿بل الذين كفروا في تكذيب﴾ قال البغوي^(٤): ﴿بل الذين كفروا﴾ من قومك يا محمد ﴿في تكذيب﴾ لك وللقرآن، كدأب من قبلهم، ولم يعتبروا بمن كان قبلهم من الكفار ﴿والله من ورائهم محيط﴾ عالم بهم لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، يقدر أن ينزل بهم ما أنزل بمن كان قبلهم. ﴿بل هو قرآن مجيد﴾ كريم شريف كثير الخير، ليس كما زعم المشركون أنه شعر وكهانة ﴿في لوح محفوظ﴾ وهو أم الكتاب ومنه تنسخ الكتب ﴿محفوظ﴾ من الشياطين ومن الزيادة فيه والنقصان. قال مقاتل: اللوح المحفوظ عن يمين العرش.



(١) قال ابن كثير في تفسيره (٤/٤٩٦): «وكلاهما معنى صحيح».

(٢) المصدر السابق (٤/٤٩٦).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٤/٤٩٦) عن عمرو بن ميمون مرسلًا.

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٤٠).

﴿سورة الطارق﴾

مكية، وهي سبع عشرة آية^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَتِهَا
حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ
وَالْتَرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُمْ عَلَى رَجَمِهِمْ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَبَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَا لَكُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ
ذَاتِ الرَّجَمِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّلَعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ لَقَوْلٌ فَصَلِّ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْمَهِزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ
كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُؤِيدًا ﴿١٧﴾ .

* * *

(١) في (الأصل): «سبعة عشر»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف - رحمه الله - وهو الصواب.

قوله عز وجل ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَا لَمَّا مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ .

قال ابن كثير^(١): يقسم تبارك وتعالى بالسماء وما جعل فيها من الكواكب النيرة، ولهذا قال تعالى ﴿والسما والطارق﴾ ثم قال ﴿وما أدراك ما الطارق﴾ ثم فسره بقوله ﴿النجم الثاقب﴾ قال قتادة وغيره: إنما سمي النجم طارقاً لأنه إنما يرى بالليل ويختفي بالنهار. ﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾ قال البغوي^(٢): ما كل نفس إلا عليها حافظ؛ وهي لغة هزيل يجعلون «لما» بمنزلة «إلا» يقولون: نشدتك الله لما قمت: أي إلا قمت. وعن قتادة ﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾ حفظة يحفظون عملك ورزقك وأجلك، إذا توفيته يا ابن آدم قبضت إلى ربك. وقال الكلبي: حافظ من الله يحفظها ويحفظ قولها وفعلها، حتى يدفعها ويسلمها إلى المقادير، ثم يخلي عنها.

﴿فلينظر الإنسان مم خلق﴾ قال البغوي^(٣): أي فليفتكر من أي شيء خلقه ربه ﴿خلق من ماء دافق﴾ مدفوق: أي مصبوب في الرحم، وهو المنى. وقال ابن كثير^(٤): يخرج دفقاً من الرجل ومن المرأة، فيتولد منهما الولد بإذن الله عز وجل؛

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٩٧).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٤٢).

(٣) المصدر السابق (٤/٤٤٣).

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٩٨).

ولهذا قال ﴿يُخْرِجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ ، يعني: صلب الرجل وترائب المرأة وهو صدرها. وقال قتادة: يخرج من بين صلب الرجل ونحره.

﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لِقَادِرٌ﴾ قال: على بعثه وإعادته. ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ قال: إن هذه السرائر مختبرة، فأسرّوا خيراً أو أعلنوه إن استطعتم، ﴿وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾. فماله من قوّة ولا ناصر ﴿قال﴾ من قوّة ﴿يمتنع بها﴾ ولا ناصر ﴿ينصره من الله﴾.

قوله عز وجل ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ ۗ وَالْأَرْضَ ذَاتِ الصَّدْعِ ۗ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ آمَهُلَّتُمْ رُؤْيَا ﴿١٧﴾ .

عن قتادة قوله ﴿والسمااء ذات الرجع﴾ قال: ترجع بأرزاق العباد كلّ عام، لولا ذلك هلكوا وهلكت مواشيهم. وقال الضحاك: يعني المطر. ﴿والأرض ذات الصدع﴾ قال قتادة: تصدع عن الثمار وعن النبات كما رأيتم. ﴿إنه لقول فصل﴾ قال ابن عباس يقول: حق.

﴿وما هو بالهزل﴾ قال مجاهد: باللعب، وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنها ستكون فتن»، قلنا: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخير ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله^(١). الحديث.

قال ابن كثير^(٢): ثم أخبر عن الكافرين بأنهم يكذبون به ويصدّون عن سبيله فقال ﴿إنهم يكيدون كيداً﴾: أي يمكرون بالناس في دعوتهم إلى خلاف القرآن

(١) سبق تخريجه، والصواب أنه موقوف من قول علي رضي الله عنه.

(٢) المصدر السابق (٤/٤٩٨).

﴿وأكيد كيداً﴾ قال البغوي^(١): وكيد الله استدراجه إيّاهم من حيث لا يعلمون. قال ابن كثير: ثم قال تعالى ﴿فمهّل الكافرين﴾: أي أنظرهم ولا تستعجل لهم ﴿أمهلهم رويداً﴾: أي قليلاً: أي وسترى ماذا حلّ بهم من العذاب والنكال والعقوبة والهلاك، كما قال تعالى ﴿نمتّعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾^(٢). وقال في جامع البيان ﴿أمهلهم رويداً﴾ إمهالاً يسيراً، كرّر وخالف بين الفعلين لزيادة التسكين والتصبير، والحمد لله رب العالمين.



(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٤٣).

(٢) سورة لقمان: الآية ٢٤.

الدرس الثالث بعد الثلاثمائة

﴿سورة الأعلى﴾

مكية، وهي تسع عشرة^(١) آية

عن النعمان بن بشير: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بـ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ و ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما»^(٢). رواه مسلم وغيره.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي
أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾ سَنُقَرِّثُكَ فَلَا تَنْسَى ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ
الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴿٧﴾ وَنُبَيِّنُكَ لِّلنَّاسِ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ﴿٩﴾ سَيَذَكِّرْ مَنْ
يَخْشَى ﴿١٠﴾ وَنَجْنِبُهَا لِّلشَّقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا
يَحْيَى ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾
وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ
وَمُوسَى ﴿١٩﴾﴾.

(١) في (الأصل): «تسعة عشر»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف

— رحمه الله — وهو الصواب.

(٢) أخرجه مسلم (ح/٨٧٨).

قوله عز وجل: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غَنَاءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنَقِرُكَ فَلَآ تَنْسَىٰ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكَرْنَاكَ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيِّدُكَرَّمَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَنَجِّنَبَهَا الْأَشْفَىٰ ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ .

عن قتادة ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان إذا قرأها قال: «سبحان ربي الأعلى»^(١). وعن عقبه بن عامر الجهني قال: لما نزلت ﴿سَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال لنا رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم»، فلما نزلت: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾: أي خلق الخليقة وسوى كل مخلوق على هيئته ﴿والذي قدر فهدى﴾: أي قدر قدراً وهدى الخلائق إليه. ﴿والذي أخرج المرعى فجعله غناء أحوى﴾ قال قتادة: يعود يبساً بعد خضرة. وقال ابن عباس: هشيماً متغيراً. وعن مجاهد قوله ﴿سنقرتك فلا تنسى﴾ قال: كان يتذكر القرآن في نفسه مخافة أن ينسى. وقال قتادة: كان ﷺ لا ينسى شيئاً إلا ما شاء الله؛

(١) أخرجه ابن جرير (١٥١/٣٠) عن قتادة مرسلًا، وروي مسندًا عن ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه أحمد (٢٣٢/١)، وأبو داود (ح/٨٨٣)، ومن طريقه البيهقي في سننه (٣١٠/٢)، قال أبو داود: «خولف وكيع في هذا الحديث، رواه أبو وكيع وشعبة عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفًا»، قال أحمد شاکر: «إسناده صحيح ثم أورد كلام أبي داود المتقدم، ومال: «وما هذه بعللة». اهـ.

(٢) سبق تخريجه.

قال البغوي^(١): وهو ما نسخ الله تلاوته من القرآن، كما قال تعالى ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾^(٢).

﴿إنه يعلم الجهر وما يخفى ونيسرك لليسرى﴾ قال ابن عباس: نيسرك لأن تعمل خيراً ﴿فذكر إن نفعت الذكرى﴾ قال ابن كثير^(٣): أي ذكر حيث تنفع التذكرة، ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم، فلا يضعه عند غير أهله. ﴿سيدرك﴾ سيتعظ ﴿من يخشى﴾ الله عز وجل ﴿ويتجنبها﴾: أي الذكرى، ويتباعد عنها ﴿الأشقى الذي يصلي النار الكبرى ثم لا يموت فيها﴾ فيستريح ﴿ولا يحيى﴾ حياة تنفعه.

قوله عز وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ۖ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ۝١٥ بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝١٦ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۝١٧ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ۝١٩﴾.

عن ابن عباس قوله ﴿قد أفلح من تزكى﴾ يقول: من تزكى من الشرك ﴿وذكر اسم ربه فصلّى﴾ يقول: الصلوات الخمس. وعن الحسن في قوله ﴿قد أفلح من تزكى﴾ قال: من كان عمله زاكياً. ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى﴾ قال قتادة: فاختر الناس العاجلة إلا من عصم الله.

﴿إن هذا لفي الصحف الأولى﴾ قال: تابعت كتب الله كما تسمعون: إن الآخرة خير وأبقى. وعن أبي الخلد قال: «أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست ليال خلون من رمضان، وأنزل الزبور لاثنتي عشرة ليلة، وأنزل الإنجيل لثمانية عشرة ليلة، وأنزل الفرقان لأربع وعشرين». وفي

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٤٥).

(٢) سورة البقرة: الآية ١٠٦.

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٥٠٠).

حديث أبي ذرّ المشهور قلت: يا رسول الله فهل في الدنيا شيء مما كان في أيدي إبراهيم وموسى؟ قال: «نعم، اقرأ يا أبا ذرّ: ﴿قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلّى بل تؤثر الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى إنّ هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى﴾»^(١).



(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٥٧١/٦) إلى عبد بن حميد، وابن مردويه، وابن عساكر، وفي سنده كذاب، وسيأتي تخريجه أيضاً في آخر الكتاب.

﴿سورة الغاشية﴾

مكية، وهي ست^(١) وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وَجُوهٌُ يُومِذُ خَشِيعَةً ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾
تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُشْقَى مِنْ عَيْنِ عَائِنَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ
وَلَا يُغْنِي مِنَ الْجُوعِ ﴿٧﴾ وَجُوهٌُ يُومِذُ نَاعِمَةً ﴿٨﴾ لَسَعِيَهَا رَاضِيَةً ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا
تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيْبَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَمَنَارِقُ
مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَائِبُ مِثْثُونَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ
كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ
إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ
اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾ .

* * *

(١) في (الأصل): «سته» وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف — رحمه الله — وهو الصواب.

قوله عز وجل : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝١ وَجُوهُ يُومِذُ خَشِيعَةً ۝٢ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۝٣ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ۝٦ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ۝٧ وَجُوهُ يُومِذُ نَاعِمَةٌ ۝٨ لَسَعِيَهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِلْغِيَةِ ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَارٌ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزُرَابٌ مَبْنُوتَةٌ ۝١٦ ﴾ .

قال ابن عباس: «الغاشية من أسماء يوم القيامة، عظمه الله وحذره عباده»^(١). ﴿وجوه يومئذ خاشعة﴾ قال قتادة: ذليلة ﴿عاملة ناصبة﴾ قال الحسن: لم تعمل لله في الدنيا فأعملها في النار ﴿تصلى ناراً حامية تسقى من عين آنية﴾ قال ابن عباس: الضريح الشبرق. قال عكرمة: هي شجرة ذات شوك لاطئة بالأرض، فإذا كان الربيع سمّتها قريش الشبرق، فإذا هاج العود سمّتها الضريح. ﴿لا يسمن ولا يغني من جوع﴾.

﴿وجوه يومئذ ناعمة﴾: أي يعرف النعيم فيها. ﴿لسعيها راضية﴾ قال سفيان: قد رضيت بعملها. ﴿في جنة عالية لا تسمع فيها لاغية﴾ قال ابن عباس يقول: لا تسمع أذى ولا باطلاً: ﴿فيها عين جارية﴾. أي سارحة، قال ابن كثير^(٢): وهذه نكرة في سياق الإثبات، وليس المراد بها عيناً واحدة، وإنما هذا جنس يعني فيها عيون جاريات؛ ﴿فيها سرر مرفوعة﴾ قال ابن عباس: ألواحها من ذهب، مكلّلة بالزبرجد والدرّ والياقوت مرتفعة ما لم يجيء أهلها، فإذا أراد أن

(١) أخرجه ابن جرير (١٥٩/٣٠)، وفيه انقطاع.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٥٠٣/٤).

يجلس عليها تواضعت له حتى يجلس عليها ثم ترتفع إلى موضعها؛ ﴿وأكواب موضوعة﴾ عندهم؛ ﴿ونمارق مصفوفة﴾ قال قتادة: والنمارق الوسائد؛ ﴿وزرابي مبثوثة﴾ قال ابن عباس: الزرابي البسط، قال البغوي: يعني البسط العريضة، قال ابن عباس هي الطنافس التي لها خمل، واحدها زربية، ﴿مبثوثة﴾ مبسوطة. انتهى.

قلت: وهي الزوالي بلسان بعض أهل الوقت.

قوله عز وجل: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾.

قال البغوي^(١): قال أهل التفسير: لما نعت الله تعالى في هذه السورة ما في الجنة، عجب من ذلك أهل الكفر وكذبوه، فذكر لهم الله تعالى صنعه فقال ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾. وكانت الإبل أعظم عيش العرب لهم فيها منافع كثيرة، فلما صنع لهم ذلك في الدنيا صنع لأهل الجنة فيها ما صنع، وتكلمت الحكماء في وجه تخصيص الإبل من بين سائر الحيوان فقال مقاتل: لأنهم لم يروا بهيمة قط أعظم منها، ولم يشاهدوا الفيل إلا الشاذ منهم؛ وقال الكلبي: لأنها تنهض بحملها وهي باركة. وقال قتادة: ذكر الله ارتفاع سرر الجنة وفرشها فقالوا: كيف نصعدوها؟ فأنزل الله هذه الآية. وسئل الحسن عن هذه الآية، وقيل له: الفيل أعظم في الأعجوبة، فقال: أما الفيل فالعرب بعيدة العهد بها، ثم هو خنزير لا يركب ظهرها ولا يؤكل لحمها ولا يحلب درها، والإبل من أعز مال العرب وأنفسها، تأكل النوى والقت وتخرج اللبن، وهو مع عظمها تلين للحمل الثقيل، وتتقاد للقائد الضعيف، حتى أن الصبي الصغير يأخذ بزمامها فيذهب بها حيث شاء. وكان شريح القاضي

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٤٨).

يقول: اخرجوا بنا إلى الكناسة حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت.

وقوله تعالى: ﴿وإلى السماء كيف رفعت﴾: أي عن الأرض حتى لا ينالها شيء يغيرها، كما قال تعالى ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج﴾^(١)؟ وعن قتادة ﴿وإلى الجبال كيف نصبت﴾ تصاعد إلى الجبل الصخر عامة يومك فإذا أفضيت إلى أعلاه أفضيت إلى عيون متفجرة وثمار مهذلة ثم لم تحرثه الأيدي ولم تعمله نعمة من الله وبلغه إلى أجل ﴿وإلى الأرض كيف سطحت﴾: أي بسطت يقول: أليس الذي خلق هذا يقادر على أن يخلق ما أراد في الجنة؟

﴿فذكّر إنما أنت مذكّر لست عليهم بمسيطر إلاّ من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾ قال ابن كثير^(٢): أي فذكّر يا محمد الناس بما أرسلت به إليهم، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب؛ ولهذا قال ﴿لست عليهم بمسيطر﴾ قال ابن عباس يقول: لست عليهم بجبار. وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلاّ الله، فإذا قالوا: لا إله إلاّ الله، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحقّها، وحسابهم على الله. ثم قرأ ﴿إنما أنت مذكّر لست عليهم بمسيطر﴾»^(٣). رواه ابن جرير وغيره.

وعن مجاهد قوله ﴿إلاّ من تولى وكفر﴾ قال: حسابه على الله ﴿فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾ قال ابن جرير^(٤): وهو عذاب جهنّم. وعن قتادة ﴿إنّ إلينا إيابهم ثم إنّ علينا حسابهم﴾ يقول: إنّ إلى الله الإياب وعليه الحساب.



(١) سورة ق: الآية ٦.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٥٠٤).

(٣) هو في مسلم (ح/٢١).

(٤) انظر «جامع البيان» (٣٠/١٦٧).

الدرس الرابع بعد الثلاثمائة

﴿سورة الفجر﴾

مكية، وهي ثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْفَجْرِ ١ ﴾ وَيَالِ عَشِيرِ ٢ ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣ ﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ٤ ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ ٥ ﴾ قَسَمٌ لِّدَىٰ جَبْرِ ٦ ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٧ ﴿ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ٨ ﴾ الَّتِي لَمْ يُخَلِّقْ ٩ ﴿ مِثْلَهَا فِي الْعَالَمِينَ ١٠ ﴾ وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ١١ ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ١٢ ﴾ الَّذِينَ ١٣ ﴿ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ١٤ ﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ١٥ ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ١٦ ﴿ إِنَّ ١٧ ﴿ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ ١٨ ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَّهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّيَ ١٩ ﴿ أَكْرَمَنِ ٢٠ ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَّهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّيَ أَهَنَنِ ٢١ ﴿ كَلَّا بَلْ لَا ٢٢ ﴿ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ٢٣ ﴿ وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ٢٤ ﴿ وَتَأْكُلُونَ ٢٥ ﴿ الثَّرَاتِ أَخْلَافًا ٢٦ ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ٢٧ ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا ٢٨ ﴿ دَكًّا ٢٩ ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ٣٠ ﴿ وَجِئَئْ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ ٣١ ﴿ الْإِنْسَانَ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ٣٢ ﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ٣٣ ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَنَابَهُ ٣٤ ﴿ أَحَدٌ ٣٥ ﴿ وَلَا يُؤْتِيهِمْ وَتَأْفَهُ أَحَدٌ ٣٦ ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ٣٧ ﴿ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً ٣٨ ﴿ مَرْضِيَّةً ٣٩ ﴿ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ٤٠ ﴿ وَادْخُلِي جَنَّتِي ٤١ ﴿ ۞

قوله عز وجل ﴿ وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حَجْرِ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ ۝١٤ ﴾ .

وعن عبد الله بن الزبير أنه قال ﴿ والفجر ﴾ قسم أقسم الله به . وقال عكرمة : الفجر فجر الصبح . ﴿ وليالٍ عشر ﴾ قال ابن عباس : هنّ الليالي الأولى من ذي الحجة . قال مسروق : هي أفضل أيام السنة . وعن مجاهد ﴿ والشفع والوتر ﴾ قال : كلّ خلق الله شفع : السماء والأرض ، والبرّ والبحر ، والجنّ والإنس ، والشمس والقمر ، والله الوتر وحده . وعن قتادة قوله ﴿ والشفع والوتر ﴾ إن من الصلاة شفعا ، وإن منها وترأ . وعن ابن عباس ﴿ والليل إذا يسر ﴾ يقول : إذا ذهب . ﴿ هل في ذلك قسم لذي حجر ﴾ قال : لذي عقل ، لذي نهى .

قال ابن جرير^(١) : وقوله ﴿ هل في ذلك قسم لذي حجر ﴾ ، يقول تعالى ذكره : هل فيما أقسمت به من هذه الأمور مقنع لذي حجر؟ وإنما عنى بذلك أن في هذا القرآن مكتفى لمن عقل عن ربه بما هو أغلظ منه في الأقسام . وقال ابن كثير^(٢) : وقوله تعالى ﴿ هل في ذلك قسم لذي حجر ﴾ : أي لذي عقل ولبّ ودين وحجى ، وإنما سمّي العقل حجراً لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به من

(١) انظر «جامع البيان» (١٧٣/٣٠) .

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٥٠٧/٤) .

الأفعال والأقوال. انتهى. قال بعض الحكماء: العقل للقلب بمنزلة الروح للجسد.

وعن قتادة قوله ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد﴾ قال: كنا نحدث أن إرم قبيلة من عاد مملكة عاد. وقال ابن إسحاق: عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح. وعن قتادة قوله ﴿ذات العماد﴾ قال: كانوا أهل عمود لا يقيمون، سيارة. وقال الكلبي: وكانوا أهل عمِدٍ وخيام، وماشية سيارة في الربيع، فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم، وكانوا أهل جنان وزرع.

وعن قتادة قوله ﴿التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ ذكر أنهم كانوا اثنتي عشرة ذراعاً طولاً في السماء. وقال البغوي^(١): أي لم يخلق مثل تلك القبيلة في الطول والقوة، وهم الذين قالوا ﴿من أشد منا قوة﴾؟ وعن ابن عباس ﴿وتمود الذين جابوا الصخر بالواد﴾ يعني: تمود قوم صالح كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً، وقال قتادة: نقبوا الصخر. وعن مجاهد قوله ﴿وفرعون ذي الأوتاد﴾ قال: كان يوتد الناس بالأوتاد، ﴿الذين طغوا في البلاد﴾ قال البغوي^(٢): يعني عاداً وتمرود وفرعون عملوا في الأرض بالمعاصي وتجبّروا ﴿فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب﴾ قال مجاهد: ما عذبوا به. ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ قال ابن عباس يقول: يرى ويسمع.

قوله عز وجل ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ الْثَرَثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ .

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٥١).

(٢) المصدر السابق (٤/٤٥٢).

عن قتادة قوله ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربّي أكرمن﴾ وحق له ﴿وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربّي أهانن﴾ ما أسرع كفر بني آدم! يقول الله جلّ ثناؤه ﴿كلّا﴾ إني لا أكرم من أكرمت بكثرة الدنيا، ولا أهين من أهنت بقلتها، ولكن إنما أكرم من أكرمت بطاعتي، وأهين من أهنت بمعصيتي.

﴿بل لا تكرمون البيتيم ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلاً لماً﴾ قال: الميراث ﴿أكلاً لماً﴾: أي شديداً. وقال بكر بن عبد الله: اللّم الاعتداء في الميراث، يأكل ميراثه وميراث غيره. ﴿وتحبّون المال حباً جماً﴾ قال قتادة: أي حباً شديداً.

قوله عز وجل: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِئْتَهُ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ وَاقْنٌ لَهُ الذِّكْرُ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَاقِفُهُ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ يَنْتَأِنُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ .

قال ابن كثير^(١): يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأحوال العظيمة، فقال تعالى ﴿كلّا﴾: أي حقاً ﴿إذا دكّت الأرض دكّاً دكّاً﴾ قال ابن جرير^(٢): يعني إذا رجّت وزلزلت وحرّكت تحريكاً بعد تحريك، ﴿وجاء ربك والملك صفّاً صفّاً﴾ يقول تعالى ذكره: وإذ جاء ربك يا محمد وأملاكه صفوفاً صفّاً بعد صفّ. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إذا كان يوم القيامة مدّت الأرض مدّ الأديم، وزيد في سعتها كذا وكذا، وجمع الخلائق بصعيد واحد جنّهم وإنسهم، فإذا كان ذلك اليوم قبضت هذه السماء الدنيا عن أهلها على وجه الأرض، ولأهل السماء وحدهم أكثر

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٥١٠).

(٢) انظر «جامع البيان» (٣٠/١٨٥).

من أهل الأرض جئهم وإنسهم بضعف، فإذا نثروا على وجه الأرض فزعوا منهم فيقولون: أفيكم ربنا؟ فيفزعون من قولهم ويقولون: سبحان ربنا، ليس فينا وهو آت؛ ثم تقاض السماء الثانية، ولأهل السماء الثانية وحدهم أكثر من أهل السماء الدنيا ومن جميع أهل الأرض بضعف جئهم وإنسهم.

فإذا نثروا على وجه الأرض فزع إليهم أهل الأرض فيقولون: أفيكم ربنا؟ فيفزعون من قولهم ويقولون: سبحان ربنا، ليس فينا وهو آت، ثم تقاض السموات سماء سماء، كلما قيضت سماء عن أهلها كانت أكثر من أهل السموات التي تحتها ومن جميع أهل الأرض بضعف، فإذا نثروا على وجه الأرض فزع إليهم أهل الأرض فيقولون لهم مثل ذلك، ويرجعون إليهم مثل ذلك حتى تقاض السماء السابعة، فلأهل السماء السابعة أكثر من أهل ست سموات ومن جميع أهل الأرض بضعف، فيجيء الله فيهم والأمم جيّ صفوف، وينادي مناد: ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم، ليقم الحمّادون لله على كلّ حال.

قال: فيقومون فيسرحون إلى الجنة؛ ثم ينادي الثانية: ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم، أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون؟ فيسرحون إلى الجنة؛ ثم ينادي الثالثة: ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم، أين الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب في القلوب والأبصار؟ فيقومون فيسرحون إلى الجنة.

فإذا أخذ من هؤلاء ثلاثة، خرج عنق من النار فأشرف على الخلائق له عينان تبصران ولسان فصيح فيقول: إني وكّلت منكم بثلاثة: بكلّ جبار عنيد فيلقطهم من الصفوف لقط الطير حبّ السمسم فتحبس بهم في جهنّم ثم يخرج ثانية فيقول: إني وكّلت منكم بمن آذى الله ورسوله فيلقتهم لقط الطير حبّ السمسم فيحبس بهم في جهنّم، ثم يخرج ثالثة؛ قال عوف: قال أبو المنهال: حسبت أنه يقول: وكّلت

بأصحاب التصاوير فيلتقطهم من الصفوف لقط الطير حبّ السمسم فيحبس بهم في جهنم، فإذا أخذ من هؤلاء ثلاثة ومن هؤلاء ثلاثة نشرت الصحف ووضعت الموازين ودعي الخلائق للحساب»^(١). رواه ابن جرير.

وقال الضحاك ابن مزاحم: إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا بأهلها ونزل من فيها من الملائكة وأحاطوا بالأرض ومن عليها، ثم الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة، فصفاً صفاً دون صفّ، ثم ينزل الملك الأعلى على مجنبيه اليسرى جهنم، فإذا رآها أهل الأرض ندّوا فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلّا وجدوا سبعة صفوف من الملائكة، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه، فذلك قول الله ﴿إني أخاف عليكم يوم التناد يوم تولّون مدبرين ما لكم من الله من عاصم﴾^(٢)، وذلك قوله ﴿وجاء ربك والملك صفاً صفاً وجيء يومئذ بجهنم﴾. وعن ابن مسعود في قوله ﴿وجيء يومئذ بجهنم﴾ قال: «جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يقودونها»^(٣).

﴿يومئذ يتذكّر الإنسان وأني له الذكرى﴾ قال ابن عباس يقول: وكيف له؟ وعن الحسن في قوله ﴿يومئذ يتذكّر الإنسان وأني له الذكرى يقول يا ليتني قدّمت لحياتي﴾ قال: علم الله أنه صادق، هناك حياة طويلة لا موت فيها آخر ما عليه؛ ﴿فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد﴾ قال: قد علم الله أن في الدنيا عذاباً ووثاقاً فقال: ﴿فيومئذ لا يعذب عذابه أحد﴾ في الدنيا ﴿ولا يوثق وثاقه أحد﴾ في الدنيا.

وعن قتادة قوله ﴿يا أيها النفس المطمئنة﴾ هو المؤمن اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾ قال ابن جرير: حدّثنا أبو كريب قال:

(١) أخرجه ابن جرير (١٨٥/٣٠ - ١٨٦) بسند حسن.

(٢) سورة غافر: الآية ٣٢.

(٣) أخرجه مسلم (ح/٢٨٤٢).

حدّثنا ابن يمان عن أسامة بن زيد عن أبيه قال: «بشّرت بالجنّة عند الموت، ويوم الجمع، وعند البعث»^(١). وعن قتادة قوله ﴿فادخلي في عبادي﴾ قال: ادخلي في عبادي الصالحين ﴿وداخلي جنّتي﴾.



(١) أخرجه ابن جرير (٣٠/١٩١) بسند ضعيف.

﴿سورة البلد﴾

مكية، وهي عشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا
الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا لُبْدًا ﴿٦﴾
أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَلْ لَمْ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ
النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا أَفْئَحَمَ الْعُقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُ رَقَبَةً ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمَةً فِي
يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْإِيمَانِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
يَتَائِبِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾ .

قوله عز وجل ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا
الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا لُبْدًا ﴿٦﴾
أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَلْ لَمْ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا
وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ .

عن ابن عباس في قوله ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾: يعني مكة ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا
البلد﴾: يعني بذلك نبي الله ﷺ، أحل الله له يوم دخل مكة أن يقتل من شاء
ويستحي من شاء، وقال في جامع البيان: قيل معناه: أقسم بمكة حين حلولك

فيها، فيكون تعظيماً للمقسم به. قال ابن القيم^(١): (وعلى كل حال فهي جملة اعتراض في أثناء القسم، موقعها من أحسن موقع وألطفه، فهذا القسم متضمن لتعظيم نبيّه ورسوله). ﴿ووالد وما ولد﴾ قال مجاهد: الوالد آدم ﴿وما ولد﴾ ولده.

﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ قال ابن عباس يقول: في نَصَب؛ وقال قتادة: لا يُلقى ابن آدم إلا مكابداً أمر الدنيا والآخرة. وعن ابن عباس قال: يعني حمله وولادته، ورضاعه وفضاله، ونبت أسنانه وحياته ومعاشه، كل ذلك شدة؛ قال ابن القيم^(٢): (ولا راحة له إلا في الجنة). ﴿أيحسب أن لن يقدر عليه أحد﴾ قال قتادة: ابن آدم يظن أن لن يُسأل عن هذا المال: من أين اكتسبه؟ وأين أنفق؟ ﴿يقول أهلكت مالا لبدا﴾: أي كثيراً. ﴿أيحسب أن لم يره أحد ألم نجعل له عينين ولساناً وشفيتين؟﴾ قال: نعم من الله متظاهرة بقرّك بها كيما تشكره ﴿وهديناه النجدين﴾ قال مجاهد: سبيل الخير والشر.

قوله عز وجل ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۚ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۚ فَكُّ رَقَبَةٍ ۚ أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ ۚ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۚ أَوْ مَسَّ كَيْدًا مَرْبِيًّا ۚ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمُنْتَهَىٰ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَائِبِينَ ۚ هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۚ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ۚ﴾.

عن قتادة قوله: ﴿فلا اقتحم العقبة﴾ إنها فحمة شديدة فاقتموها بطاعة الله ﴿وما أدراك ما العقبة فك رقة﴾ ذكر لنا أن نبي الله ﷺ سئل عن الرقاب أيها أعظم أجراً؟ قال: «أكثرها ثمناً»^(٣). قال قتادة: ثم أخبر عن اقتحامها فقال ﴿فك رقة

(١) انظر «التيان في أقسام القرآن» (ص ٤٨).

(٢) المصدر السابق (ص ٤٦).

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٠٢/٣٠)، وروي مسنداً من حديث أبي ذر رضي الله عنه: أخرجه

البخاري (ح/٢٥١٨)، ومسلم (ح/٨٤).

أو إطعام في يوم ذي مسغبة ﴿ يقول: يوم يشتهي فيه الطعام؛ وقال ابن عباس ﴿ في يوم ذي مسغبة ﴾ قال: ذي مجاعة. ﴿ يتيماً ذا مقربة ﴾ قال ابن زيد: ذا قرابة ﴿ أو مسكيناً ذا متربة ﴾ قال ابن عباس: الذي ليس له شيء يقيه من التراب.

﴿ ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر ﴾ على أمر الله ﴿ وتواصوا بالمرحمة ﴾ لعباد الله: أي ثم هو مع هذه الأوصاف الجميلة، مؤمن بقلبه محتسب ثواب ذلك عند الله. ﴿ أولئك أصحاب الميمنة ﴾: أي أصحاب اليمين الذين يؤخذ بهم إلى الجنة. ﴿ والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة ﴾: أي يؤخذ بهم ذات الشمال ﴿ عليهم نار مؤصدة ﴾ قال قتادة: أي مطبقة أطبقها الله عليهم، فلا ضوء فيها ولا فرج ولا خروج منها آخر الأبد.



الدرس الخامس بعد الثلاثمائة

﴿سورة الشمس﴾

مكية، وهي خمس^(١) عشر آية

في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هَلَّا صَلَّيْتَ بِـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾^(١)، ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾^(٢)، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾^(٣)؟» يعني في العشاء الآخرة^(٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾^(١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا^(٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا^(٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا^(٤) وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا^(٥) وَالْأَرْضَ وَمَا طَرَاهَا^(٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا^(٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا^(٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا^(٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا^(١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا^(١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا^(١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا^(١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا^(١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا^(١٥).

* * *

(١) في (الأصل): «خمس»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف - رحمه الله - وهو الصواب.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٧٠٥)، ومسلم (١/٣٤٠) من حديث جابر رضي الله عنه.

قوله عز وجل ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ (١) ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا نَلَّهَا﴾ (٢) ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا﴾ (٣) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ (٤) ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾ (٥) ﴿وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَّهَا﴾ (٦) ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (٧) ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (٨) ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (٩) ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (١٠).

عن قتادة ﴿والشمس وضحاها﴾ قال: هذا النهار ﴿والقمر إذا تلاها﴾ يتلوهما صبيحة الهلال، فإذا سقطت الشمس رؤي الهلال، ﴿والنهار إذا جلاها﴾ قال: إذا غشيها النهار. قال البغوي^(١): يعني إذا جلى الظلمة، كناية عن غير مذكور. ﴿والليل إذا يغشاها﴾ قال قتادة: إذا غشاها الليل. ﴿والسما وما بناها﴾ وبنائها خلقها. وعن مجاهد ﴿والسما وما بناها﴾ قال: الله بنى السماء. ﴿والأرض وما طحاها﴾ قال: دحاها؛ وقال ابن زيد: بسطها. ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾ قال مجاهد: عرفها؛ وقال ابن عباس: علمها الطاعة والمعصية.

﴿قد أفلح من زكاها﴾ يقول: قد أفلح من زكى الله نفسه؛ ﴿وقد خاب من دساها﴾ يقول: وقد خاب من دسى الله نفسه فأضله. وقال قتادة: من عمل خيراً زكاها بطاعة الله؛ قال: قد وقع القسم ههنا ﴿قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾. وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾ قال: اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها^(٢). وقال قتادة ﴿قد أفلح﴾ من زكى نفسه بعمل صالح ﴿وقد خاب من

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٥٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٤/٥١٦) بسند ضعيف، وابن مردويه =

دساها ﴿ قال: أثمها وأفجرها؛ وقال الحسن: أهلكتها وأضلها وحملها على المعصية.

قال ابن القيم^(١): «وهذا يستلزم القول الأول، فإن العبد إذا زكى نفسه ودساها، فإنما يزكيها بعد تزكية الله لها بتوفيقه وإعانتة، وإنما يدسها بعد تدسية الله لها بخذلانه والتخليه بينه وبين نفسه، فتضمنت الآياتان الرد على القدرية والجبرية». انتهى ملخصاً.

قوله عز وجل ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَنِهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدمدمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾ ﴾ .

قال ابن زيد في قوله ﴿ كذبت ثمود بطغواها ﴾ قال: بطغيانهم وبمعصيتهم. ﴿ إذا انبعث أشقاها ﴾ قدار بن سالف، قال النبي ﷺ: «انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في رهطه مثل أبي زمعة»^(٢). رواه ابن جرير وغيره. وعن قتادة في قوله ﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾: يعني أحيمر ثمود. ﴿ فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ﴾ قسم الله الذي قسم لها من هذا الماء ﴿ فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبيهم فسواها ﴾: أي فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء.

﴿ ولا يخاف عقباها ﴾ قال الحسن: لا يخاف الله من أحد تبعة في إهلاكهم. وعن أبي الطفيل قال: «قالت ثمود لصالح: ائتنا بآية إن كنت من الصادقين، فقال لهم صالح: اخرجوا إلى هضبة من الأرض، فخرجوا فإذا هي تمتخص كما

= كما عزاه له السيوطي في «الدرر المنثور» (٦/٦٠٠) وله شاهد من حديث زيد بن أرقم أخرجه مسلم (ح/٢٧٢٢) بنحوه وليس ف سياقه قراءة النبي ﷺ لهذه الآية.

(١) انظر «التيان في أسام القرآن» (ص ٣٧).

(٢) هو في البخاري (ح/٤٩٤٢ و ٣٣٧٧)، ومسلم (ح/٢٨٥٥).

تمتخض الحامل، ثم إنها انفرجت فخرجت من وسطها الناقة، فقال صالح ﴿هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب اليم﴾^(١) ﴿لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾^(٢) فلما ملّوها عقروها؛ فقال لهم ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾^(٣).

وعن جابر قال: لما مرّ رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات، فقد سألتها قوم صالح فكانت - يعني الناقة - ترد من هذا الفجّ وتصدر من هذا الفجّ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً، فعقروها فأخذتهم صيحة أهدم الله من تحت أديم السماء منهم، إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله»، فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه»^(٤). رواه أحمد. وعن قتادة: «أن صالحاً قال لهم حين عقروا الناقة: تمتعوا ثلاثة أيام؛ قال لهم: آية هلاككم أن تصبح وجوهكم مصفرة، ثم تصبح اليوم الثاني محمرة، ثم تصبح اليوم الثالث مسودة، فأصبحت كذلك».

قال ابن كثير^(٥): وأصبح ثمود يوم الخميس، وهو اليوم الأول من أيام النظرة، ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح عليه السلام، وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة ووجوههم محمرة، وأصبحوا في اليوم الثالث من

(١) سورة الأعراف: الآية ٧٢.

(٢) سورة الشعراء: الآية ١٥٥.

(٣) سورة هود: الآية ٦٥.

(٤) أخرجه أحمد (٢٩٦/٣)، وابن جرير (٢٣٠/٨)، والحاكم (٣٢١/٢)، وصححه، ووافقه

الذهبي وقال: «على شرط البخاري ومسلم»! قلت: وهو من طريق أبي الزبير عن جابر،

وأبو الزبير إنما احتج به مسلم فقط.

(٥) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٥١٧/٤).

أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا، وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه - عياداً بالله من ذلك - لا يدرون ماذا يفعل بهم، ولا كيف يأتيهم العذاب، وأشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس في ساعة واحدة، فأصبحوا في دارهم جاثمين.



﴿سورة الليل﴾

مكية، وهي إحدى وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ① وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ② وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ③ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ④ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ⑤ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ⑥ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ⑦ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ⑧ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ⑨ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ⑩ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ⑪ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ⑫ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ⑬ فَأَنْذَرْتُمْ نَارًا تَلْفَظِي ⑭ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ⑮ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ⑯ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ⑰ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ⑱ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ⑲ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ⑳ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ㉑﴾ .

قوله عز وجل ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ① وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ② وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ③ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ④ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ⑤ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ⑥ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ⑦ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ⑧ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ⑨ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ⑩ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ⑪﴾ .

عن قتادة قوله ﴿والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى﴾ قال: آيتان عظيمتان يكورهما الله على الخلائق. ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾ قال في بعض الحروف: والذكر والأنثى. وعن الحسن أنه كان يقرؤها: وما خلق الذكر والأنثى، يقول:

والذي خلق الذكر والأنثى. قال أبو عمرو: وأهل مكة يقولون للرب: سبحان ما سبّحت له.

وعن قتادة قوله ﴿إن سعيكم لشتى﴾ يقول: لمختلف؛ قال وقع القسم ههنا ﴿إن سعيكم لشتى فأما من أعطى﴾ حق الله واتقى محارم الله التي نهى عنها ﴿وصدّق بالحسنى﴾: أي بالمجازاة على ذلك. وقال ابن عباس ﴿وصدّق﴾ بالخلف من الله. وقال مجاهد: بالجنة. ﴿فسيئره لليسرى﴾ قال ابن عباس: يعني للخير. قال ابن القيم^(١): (فسّرت الحسنى بلا إله إلا الله، وبالجنة، وبالخلف، وهي ترجع إلى أفضل الأعمال وأفضل الجزاء، فرجع التصديق بالحسنى إلى التصديق بالإيمان وجزائه). انتهى ملخصاً.

﴿وأما من بخل واستغنى﴾: أي بخل بماله، واستغنى عن ربه عز وجل ﴿وكذّب بالحسنى﴾: أي بالجزاء في الدار الآخرة ﴿فسيئره لليسرى﴾: أي لطريق الشرّ ﴿وما يغني عنه ماله إذا تردى﴾ قال قتادة: إذا تردى في النار. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة في بقيع الغرقد، فأتى رسول الله ﷺ فقعده وقعدنا حوله ومعه مخصرة، فنكس فجعل ينكت بمخصرته ثم قال: «ما منكم من واحد، وما من نفس منفوسة، إلا كتب مكانها من الجنة والنار - أو - إلا قد كتبت شقية أو سعيدة». فقال رجل: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة، ومن كان منا من أهل الشقاء فسيصير إلى أهل الشقاء. فقال: «أما أهل السعادة فيسترون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاء فيسترون إلى عمل أهل الشقاء - ثم قرأ - ﴿فأما من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى فسيئره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذّب بالحسنى فسيئره لليسرى﴾»^(٢). رواه الجماعة. وفي

(١) انظر «التبيان في أقسام القرآن» (ص ٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٩٤٨)، ومسلم (ح/٢٦٤٧).

رواية: «اعملوا فكلّ ميسر لما خلق له»^(١).

قوله عز وجل: ﴿إِن عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٦﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٧﴾ فَأَنْذَرْتُمْ نَارًا تَلَدَّنَىٰ ﴿١٨﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٩﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٢٠﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿٢١﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿٢٢﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿٢٣﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢٥﴾ .

عن قتادة قوله ﴿إِن عَلَيْنَا لِلْهُدَى﴾ يقول: على الله البيان: بيان حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته. ﴿وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى فَأَنْذَرْتُمْ نَارًا تَلَدَّنَى﴾ قال مجاهد: توهج ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ قال ابن كثير^(٢): أي لا يدخلها دخولا يحيط به من جميع جوانبه ﴿إِلَّا الْأَشْقَى﴾ ثم فسره فقال ﴿الَّذِي كَذَّبَ﴾: أي بقلبه ﴿وَتَوَلَّى﴾: أي عن العمل بجوارحه وأركانه؛ ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ قال البغوي^(٣): يطلب أن يكون عند الله زاكياً لا رياء ولا سمعة.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ يد يكافئه عليها ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ بما يعطيه الله عز وجل في الآخرة من الجنة والكرامة جزاء على ما فعل. قال ابن إسحاق: «كان بلال لبعض بني جمح، وكان صادق الإسلام طاهر القلب، وكان أمية بن خلف يخرججه إذا حميت الظهرية فيطرحه على ظهره ببطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد أحد. قال: فمرّ به أبو بكر يوماً وهم يصنعون به ذلك، وكانت دار أبي بكر في بني جمح، فقال لأمية: ألا تتق الله تعالى في هذا المسكين؟ قال: أنت أفسدته فأنقذه مما

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٩٤٩)، ومسلم (٤/٢٠٤٠).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٥٢٠).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٦٣).

تري. قال أبو بكر: أفعل، عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى، على دينك أعطيته. قال: قد فعلت. فأعطاه أبو بكر غلامه وأخذه فأعتقه، ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر ستّ رقاب، بلال سابعهم، فقال المشركون: ما فعل ذلك أبو بكر لبلال إلا ليدّ كانت لبلال عنده، فأنزل الله ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزي إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى﴾^(١).



(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/١٨٤) من طريقه ابن إسحاق عن عروة مرسلًا: ولم يرد في سياقه ذكر سبب نزول هذه الآية، وانظر: «سيرة ابن هشام» (١/٣٩٢ - ٣٩٣)، قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره (٤/٥٢١): «وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك، ولا شك أنه داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها». اهـ.

الدرس السادس بعد الثلاثمائة

﴿سورة الضحى﴾

مكية وهي إحدى عشرة (١) آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ ﴿٤﴾ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٥﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٦﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٨﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١١﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١٢﴾ .

عن قتادة ﴿الضحى﴾ ساعة من ساعات النهار ﴿والليل إذا سجي﴾ سكن بالخلق: ﴿ما ودَّعك ربك وما قلى﴾ قال ابن عباس يقول: ما تركك ربك وما أبغضك. قال قتادة: «أبطأ عليه جبريل فقال المشركون: قد فلاه ربه وودَّعه، فأنزل الله ﴿ما ودَّعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى﴾» (٢) قال ابن

(١) في (الأصل): «عشر» وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف - رحمه الله - وهو الصواب.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٣١/٣٠) عن قتادة مرسلًا. وقد روي نحوه من حديث جندب البجلي - رضي الله عنه - قال: «أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ، فقالت امرأة من قريش، لقد =

كثير^(١): وللدار الآخرة خير لك من هذه الدار، ولهذا كان رسول ﷺ أزهّد الناس في الدنيا وأعظمهم لها إطراحاً كما هو معلوم بالضرورة من سيرته. وعن قتادة ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ وذلك يوم القيامة ﴿ألم يجدك يتيماً فأوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى﴾ قال: كانت هذه منازل رسول الله ﷺ قبل أن يبعثه الله سبحانه وتعالى.

قال ابن كثير^(٢) وقوله تعالى: ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ كقوله ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾^(٣). وعن قتادة ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾: أي لا تظلم ﴿وأما السائل فلا تنهر﴾ قال: ردّ السائل برحمة ولين ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ قال مجاهد: بالنبوة، وعن أبي نضرة قال: «كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يحدث بها».



= تركه صاحبه، فأنزلت: ﴿والضحى والليل إذا سجى...﴾ الآية. أخرجه البخاري (ح/١١٢٤ و ١١٢٥ و ٤٩٨٣ و ٤٩٥٠ و ٤٩٥١)، ومسلم (ح/١٧٩٧).

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٥٢٢).

(٢) المصدر السابق (٤/٥٢٣).

(٣) سورة الشورى: الآية ٥٢.

﴿سورة الشرح﴾

مكية ، وهي ثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ أَلَيْسَ أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾
وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾
وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾ .

* * *

قال ابن كثير^(١) يقول تعالى: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ يعني أما شرحنا لك صدرك؟ أي نورناه وجعلناه فسيحاً رحيباً واسعاً؟ كقوله ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾. وعن أبي هريرة أنه قال: يا رسول الله ما أول ما رأيت من أمر النبوة؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالساً وقال: «لقد سألت يا أبا هريرة، إني في الصحراء ابن عشر سنين وأشهر، وإذا بكلام فوق رأسي، وإذا رجل يقول لرجل: أهو هو؟ فاستقبلاني بوجوه لم أرها قط، وأرواح لم أجدها من خلق قط، وثياب لم أرها على أحد قط، فأقبلا إليّ يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي لا أجد لأحدهما مساً، فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه، فأضجعاني بلا هصر ولا قصر، فقال أحدهما لصاحبه: أفلق صدره، فهوى أحدهما إلى صدري ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغل والحسد، فأخرج شيئاً كههيئة العلقه،

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٥٢٤).

ثم نبذها فطرحها، فقال له: أدخل الرأفة والرحمة، فإذا مثل الذي أخرج شبه الغضة، ثم هزّ إبهام رجلي اليمنى، فقال: أُعِدُّ وأسلم، فرجعت بها أعدو رقة على الصغير ورحمة للكبير^(١). رواه عبد الله ابن الإمام أحمد.

وعن قتادة قوله ﴿ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك﴾ كان للنبي ﷺ ذنوب قد أثقلته فغفرها الله له. وقال ابن زيد: شرح له صدره وغفر له ذنبه الذي كان قبل أن ينبأ، فوضعه. وعن مجاهد ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ قال: لا أذكر إلاّ ذُكِرْتَ معي: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله. وعن قتادة في قوله ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ قال النبي ﷺ «ابدؤوا بالعبودية وثنوا بالرسالة»^(٢)؛ قال معمر: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله. وعن الحسن قال: خرج النبي ﷺ يوماً مسروراً فرحاً وهو يضحك، وهو يقول: «لن يغلب عسر يسرين، لن يغلب عسر عشرين» ﴿فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً﴾^(٣). قال مجاهد: يتبع اليسر العسر.

وعن ابن عباس قوله ﴿فإذا فرغت فانصب﴾ يقول: فإذا فرغت مما فرض عليك من الصلاة، فسل الله وارغب إليه وانصب له. وعن مجاهد ﴿فإذا فرغت فانصب﴾ قال: إذا فرغت من أمر الدنيا فانصب، قال: فصل ﴿وإلى ربك فارغب﴾ قال: اجعل رغبتك ونبئتك إلى ربك. وفي الحديث: «لا صلاة بحضرة طعام، ولا هو يدافعه الأخبثان»^(٤).



(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١٣٩/٥) بسند ضعيف، وحديث شق الصدر ثبت من وجه آخر عند مسلم وغيره.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٣٥/٣٠) من قتادة مرسلًا.

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٣٦/٣٠) من الحسن مرسلًا.

(٤) أخرجه مسلم (ح/٥٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿سورة التين﴾

مكية، وهي ثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾ .

عن البراء بن عازب قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في سفره في إحدى الركعتين بالتين والزيتون، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه»^(١). متفق عليه. وعن الحسن في قول الله ﴿والتين والزيتون﴾ قال: تينكم هذا الذي يؤكل، وزيتونكم هذا الذي يعصر. ﴿وطور سينين﴾ قال: جبل موسى. ﴿وهذا البلد الأمين﴾ قال: البلد الحرام. قال مجاهد: مكة. ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ قال قتادة: وقع القسم ههنا؛ قال ابن عباس: في أعدل خلق؛ وقال قتادة: في أحسن صورة. ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ قال ابن عباس: إلى أرذل العمر. وعن عكرمة قال: من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر، ثم قرأ ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾. وعن مجاهد ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ قال: إلى النار.

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٩٥٢ و ٧٥٤٦)، ومسلم (ح/٤٦٤).

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إِلَّا مَنْ آمَنَ؛ وَقَالَ الْحَسَنُ هُوَ كَقَوْلِهِ ﴿وَالْعَصْرَ إِنْ الْإِنْسَانَ لِفِي خَسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾^(١).

قال ابن القيم^(٢): (والصحيح أن أسفل سافلين النار). وعن الكلبي ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ بِالْدِينِ﴾؟ إِنَّمَا يَعْنِي الْإِنْسَانَ، يَقُولُ: خَلَقْتِكَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ﴾ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ﴿بَعْدَ بِالْدِينِ﴾؟ قَالَ عِكْرِمَةُ: الْحِسَابُ.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾؟ قَالَ الْبَغَوِيُّ^(٣): وَالْمَعْنَى أَلَّا تَتَفَكَّرَ فِي صَوْرَتِكَ وَشَبَابِكَ وَهَرْمِكَ فَتَعْتَبِرَ وَتَقُولَ: أَنْ الَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ قَادِرٌ عَلَيَّ أَنْ يَبْعَثَنِي وَيَحَاسِبَنِي، فَمَا الَّذِي يَكْذِبُكَ بِالْمَجَازَاةِ بَعْدَ هَذِهِ الْحَجَجِ؟ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ أَقْضَى الْقَاضِيَيْنِ؟ وَرَوَيْنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ ﴿وَالْتِينَ وَالزَّيْتُونَ﴾ فَانْتَهَى إِلَى آخِرِهَا ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ فَلْيَقُلْ: بَلَى وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ»^(٤).



(١) سورة العصر: الآيات ١ - ٣.

(٢) انظر «التبيان في أقسام القرآن» (ص ٥٦).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٧٣).

(٤) سبق تخريجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وسنده ضعيف.

الدرس السابع بعد الثلاثمائة

﴿سورة العلق﴾

مكية، وهي تسع^(١) عشر آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③
الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ
أَشْتَقَى ⑥ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ ⑦ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ⑧ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ⑨ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ
عَلَىٰ الْهَدَىٰ ⑩ أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَىٰ ⑪ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ⑫ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ⑬ كَلَّا لَئِنْ لَمْ
يَنْتَهَ لِنُفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ⑭ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ⑮ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ⑯ سَنَدْعُ الزَّبَانَةَ ⑰ كَلَّا
لَا نُطِيعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ⑱ ﴾ .

قوله عز وجل: ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② أَقْرَأْ
وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ ﴾ .

عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: «أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من

(١) في (الأصل): «تسعة»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف - رحمه الله - وهو الصواب.

الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حَبَّبَ إليه الخلاء، فكان يأتي حراء فيتحنَّث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد، ويتزوَّد لذلك ثم يرجع إلى خديجة فتزوِّده لمثلها، حتى فجأه الوحي وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ، قال رسول الله ﷺ: «فقلت: ما أنا بقارىء - قال - فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارىء، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ حتى بلغ ﴿ما لم يعلم﴾» قال: فرجع بها ترجف بواديه حتى دخل على خديجة فقال: «زملوني زملوني»، فزملوه حتى ذهب عنه الروع؛ فقال: «يا خديجة ما لي؟» وأخبرها الخبر وقال: «قد خشيت على نفسي»، فقالت له: كلاً أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل وهو ابن عم خديجة أخي أبيها، وكان امرأً قد تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت خديجة: أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك. فقال ورقة: ابن أخي ما ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أَوْ مُخْرِجِي هُمْ؟» فقال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به ألا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرأ مؤزراً؛ ثم لم ينشب ورقة أن توفي. وفتّر الوحي فترة حتى حزن رسول الله ﷺ فيما بلغنا حزناً، غداً منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهد الجبال، فكلمنا أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدي له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً، فيسكن بذلك جأشه وتقرّ نفسه، فيرجع فإذا طالت

عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذورة الجبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك^(١). متفق عليه واللفظ لأحمد.

وعن قتادة ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ قرأ حتى بلغ ﴿علم بالقلم﴾ قال: القلم نعمة من الله عظيمة، لولا ذلك لم يقم ولم يصلح عيش. وقال ابن زيد في قوله ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾ قال: علم الإنسان خطأ بالقلم. قال ابن كثير^(٢): والقلم تارة يكون في الأذهان، وتارة في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبنان.

قوله عز وجل ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴿٦﴾ إِنَّ رَأْيَهُ أَسْتَفْتَى ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَتْ حَاطِقًا ﴿١٦﴾ فَنُدَّعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدُّعُ الزَّابَانَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا نُطِيعُهَا وَلَا نَسْجُدُ وَأَقْرَبُ ﴿١٩﴾ .

قال البغوي^(٣): ﴿كَلَّا﴾ حقاً ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ ليتجاوز حده وليستكبر على ربه ﴿أَنَّ﴾ لأن ﴿رَأْيَهُ أَسْتَفْتَى﴾ أن رأى نفسه غنياً ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ﴾: أي المرجع في الآخرة. وعن قتادة ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ نزلت في عدو الله أبي جهل، وذلك لأنه قال: لئن رأيت محمداً يصلي لأطأن على عنقه، فأنزل الله ما تسمعون. وكان يقال: لكل أمة فرعون، وفرعون هذه الأمة أبو جهل.

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَىٰ﴾ قال: محمد كان على الهدى وأمر بالحق. ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾: يعني أبا جهل. ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾

(١) أخرجه أحمد (١٥٣/٦ و ٢٣٢)، والبخاري (ح/٣ و ٤٩٥٣ و ٦٩٨٢)، ومسلم (ح/١٦٠).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٥٢٨).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٧٥).

كلّا لئن لم يتنه لنسفعاً بالناصية ناصية كاذبة خاطئة ﴿ قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام فمرّ به أبو جهل بن هشام فقال: يا محمد ألم أنكه عن هذا؟ وتوعده، فأغظ له رسول الله ﷺ وانتهره، فقال: يا محمد بأي شيء تهدّني؟ أما والله إنّي لأكثر هذا الوادي نادياً، فأنزل الله ﴿ فليدع ناديه سندع الزبانية ﴾ قال ابن عباس: لو دعا ناديه أخذته زبانية العذاب من ساعته^(١)

﴿كلّا لا تطعه واسجد واقترب﴾ قال البغوي^(٢): ﴿كلّا﴾ ليس الأمر ما عليه أبو جهل ﴿لا تطعه﴾ في ترك الصلاة ﴿واسجد﴾ وصلّى الله ﴿واقترّب﴾ من الله. وساق الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء»^(٣). قال: ومعنى «أرأيت» ههنا: تعجبياً للمخاطب، وكرّر هذه اللفظة للتأكيد؛ قال: وتقدير نظم الآية: أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلّى وهو على الهدى أمر بالتقوى، والناهي مكذب متولّ عن الإيمان؟ أي: فما أعجب من هذا! ﴿ألم يعلم﴾: يعني أبا جهل ﴿بأن الله يرى﴾ ذلك فيجازيه؟ ﴿كلّا﴾ لا يعلم ذلك ﴿لئن لم يتنه﴾ عن إيذاء محمد ﷺ وتكذيبه ﴿لنسفعاً بالناصية﴾ لناخذنّ بناصيته فلنجرّته إلى النار، كما قال ﴿فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾^(٤)؛ يقال: سفعت بالشيء إذا أخذته وجذبتة جذباً شديداً، والنصاية: شعر مقدّم الرأس. ثم قال على البدل ﴿ناصية كاذبة خاطئة﴾: أي صاحبها كاذب خاطيء. قال ابن عباس: «لما نهى أبو جهل رسول الله ﷺ عن الصلاة، انتهره رسول الله ﷺ، فقال أبو جهل: انتتهرني؟ فوالله لأملأنّ عليك هذا الوادي إن شئت

(١) أخرجه أحمد (١/٣٢٩)، والترمذي (ح/٣٣٤٩)، وقال: «حديث حسن غريب صحيح»،

والنسائي في «الكبرى» (٦/٥١٨)، وابن جرير (٣٠/٢٥٤)، وهو حديث حسن.

(٢) المصدر السابق (٤/٤٧٦).

(٣) أخرجه مسلم (ح/٤٨٢).

(٤) سورة الرحمن: الآية ٤١.

خيلاً جرداً ورجالاً مردأً؛ قال الله عز وجل ﴿فليدع ناديه﴾: أي قومه وعشيرته: أي فليتنصر بهم.

﴿سندع الزبانية﴾ قال ابن عباس: يريد زبانية جهنم، سموا بها لأنهم يدفعون أهل النار إليها. وروى ابن جرير وغيره عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم، فقال: واللوات والعزى لئن رأيته يصلي كذلك لأطأنّ على رقبته، ولأعقرنّ وجهه في التراب، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليطأ على رقبته، فما فجأهم منه إلاّ وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، فقيل له: مالك؟ فقال: إنّ بيني وبينه خندقاً من نار، وهولاً وأجنحة؛ فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا منّي لاختطفته الملائكة عضواً عضواً»^(١).



(١) أخرجه مسلم (ح/٢٧٩٧).

﴿سورة القدر﴾

مكية، وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ
مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُوتُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَّمَ هِيَ
حَتَّىٰ مَطَلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾ .

* * *

عن ابن عباس قال: «نزل القرآن كله جملة واحدة في ليلة القدر في رمضان إلى السماء الدنيا، فكان الله إذا أراد أن يحدث في الأرض شيئاً، أنزله منه حتى جمعه، وكان بين أوله وآخره عشرون سنة».

وقال ابن كثير^(١): يخبر تعالى أنه أنزل القرآن ليلة القدر، وهي الليلة المباركة التي قال الله عز وجل ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا فِي لَيْلَةِ مَبْرُوكَةٍ﴾ وهي ليلة القدر، وهي من شهر رمضان، كما قال تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾. قال ابن عباس وغيره: أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفصلاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ.

ثم قال تعالى معظماً لشأن ليلة القدر التي اختصها بإنزال القرآن العظيم فيها

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٥٢٩).

فقال ﴿وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ وعن مجاهد ﴿ليلة القدر﴾ ليلة الحسن ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾ فيها يقضي الله كل أجل وعمل ورزق إلى مثلها. وعن مجاهد ﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ قال: عملها وصيامها وقيامها خير من ألف شهر. قال قتادة ﴿خير من ألف شهر﴾ ليس فيها ليلة القدر. ﴿تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر﴾ قال قتادة: يقضي فيها ما يكون في السنة إلى مثلها. ﴿سلام هي﴾ قال: خير كلها ﴿حتى مطلع الفجر﴾ إلى مطلع الفجر، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «تحرّوا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر»^(١).

وقال ﷺ: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدّم من ذنبه»^(٢).

وقد اختلف العلماء في تعيينها، والجمهور أنها ليلة سبع وعشرين، وما استنبطه بعضهم من عدد كلمات السورة وقد وافق قوله فيها ﴿هي﴾ سبع كلمة بعد العشرين؛ قال ابن عطية: «إنه من ملح التفسير، وليس من متين العلم». والله أعلم.



(١) أخرجه البخاري (ح/٢٠١٧ و ٢٠٢٠)، ومسلم (ح/١١٦٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٢٠٠٨ و ٢٠٠٩)، ومسلم (ح/٧٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الدرس الثامن بعد الثلاثمائة

﴿سورة البينة﴾

مكية ، وهي ثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ
الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ
الَّذِينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾
إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ
جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ
خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾

* * *

قوله عز وجل ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءً وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ .

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب﴾»، قال: وسماني لك؟ قال: «نعم» فبكى (١). متفق عليه. وفي حديث مالك بن عمرو بن ثابت (٢) عند الإمام أحمد قال: «لما نزلت ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ إلى آخرها قال جبريل: يا رسول الله إن ربك يأمرك أن تقرئها آياتاً» (٣). الحديث. وعن الترمذي أن رسول الله ﷺ قال لي: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن»، فقرأ ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ فقرأ فيها «ولو أن ابن آدم سأل وادياً من مال فأعطيه لسأل ثانياً، ولو سأل ثانياً فأعطيه لسأل ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب. وإن ذات الدين عند الله الحنيفية غير المشركة ولا اليهودية ولا النصرانية، ومن يفعل خيراً فلن يكفره» (٤).

(١) سبق تخريجه.

(٢) في (الأصل)، والنسخة التي بخط المؤلف: «عمرو بن ثابت»، وهو خطأ.

(٣) أخرجه أحمد (٤٨٩/٣)، والطبراني (٣٢٧/٢٢)، والدولابي في «الكنى» (٢٤/١ - ٢٥)

بسند ضعيف، لكنه صح من وجه آخر من حديث أنس وأبي رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه أحمد (١٣١/٥ و ١٣٢)، وأبو داود والطيالسي (ح/٥٣٩)، ومن طريقه الترمذي

(ح/٣٧٩٣)، وقال: «حسن صحيح»، وأيضاً (ح/٣٨٩٨) وقال: «حسن»، والحاكم

(٥٣١/٢)، وصححه ووافقه الذهبي.

قال ابن كثير^(١): وإنما قرأ عليه النبي ﷺ هذه السورة تثبيتاً له وزيادة لإيمانه، فإنه كان قد أنكر على عبد الله بن مسعود قراءة شيء من القرآن على خلاف ما أقرأه رسول الله ﷺ، فرفعه إلى النبي ﷺ فاستقرأهما وقال لكلّ منهما: «أصبّت» قال: أبّي: فأخذني من الشكّ ولأءٍ إذ كنت في الجاهليّة، فضرب رسول الله ﷺ في صدري، قال أبّي: ففضت عرقاً وكأنما أنظر إلى الله فرقاً؛ وأخبره رسول الله ﷺ أن جبريل أتاه فقال: «إن الله يأمرك أن تقرء أمتك القرآن على حرف، فقلت: أسأل الله معافاته ومغفرته، فقال: على حرفين، فلم يزل حتى قال: إن الله يأمرك أن تقرء أمتك القرآن على سبعة أحرف»^(٢)، فلما نزلت هذه السورة وفيها ﴿رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة﴾ قرأها عليه رسول الله ﷺ قراءة إبلاغ وتثبيت وإنذار، لا قراءة تعلّم واستذكار. والله أعلم. وهذا كما أن عمر بن الخطاب لما سأل رسول الله ﷺ يوم الحديبية عن تلك الأسئلة، وكان فيها قال: أو لم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟» قال: لا، قال: فإنك آتية ومطوّف به». فلما رجعوا من الحديبية وأنزل الله على النبي ﷺ سورة الفتح، دعا عمر بن الخطاب فقرأها عليه وفيها قوله ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين﴾ الآية. انتهى.

وعن مجاهد في قول الله ﴿منفكين﴾ قال: لم يكونوا لينتهوا حتى يتبين لهم الحق. وعن قتادة في قوله: ﴿منفكين﴾ قال: منتهين عما هم فيه ﴿حتى تأتيهم البينة﴾: أي هذا القرآن ﴿رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة﴾ يذكر القرآن بأحسن الذكر ويثني عليه بأحسن الثناء. وقال ابن كثير^(٣): أما أهل الكتاب فهم اليهود والنصارى، والمشركون عبدة الأوثان والنيران من العرب والعجم. وقال مجاهد:

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٥٣٦).

(٢) أخرجه مسلم (ح/٨٢٠ و ٨٢١).

(٣) المصدر السابق (٤/٥٣٧).

لم يكونوا ﴿منفكّين﴾ يعني منتهين حتى يتبين لهم الحق؛ وهكذا قال قتادة ﴿حتى تأتيهم البيّنة﴾: أي هذا القرآن، ولهذا قال تعالى ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكّين حتى تأتيهم البيّنة﴾ ثم فسّر البيّنة بقوله ﴿رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة﴾ يعني محمداً ﷺ وما يتلوه من القرآن العظيم الذي هو مكتتب في المأ الأعلى في صحف مطهرة، كقوله ﴿في صحف مكرّمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿فيها كتب قيّمة﴾ قال ابن جرير^(٢): أي في الصحف المطهرة ﴿كتب﴾ من الله ﴿قيّمة﴾ عادلة مستقيمة ليس فيها خطأ، لأنها من عند الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿وما تفرّق الذين أوتوا الكتاب إلّا من بعد ما جاءتهم البيّنة﴾ كقوله ﴿ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيّنات أولئك لهم عذاب﴾^(٣) يعني بذلك أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا، ما أقام الله عليهم الحجج والبيّنات تفرّقوا واختلفوا في الذي أراه الله من كتبهم، واختلفوا اختلافاً كثيراً كما جاء في الحديث المرويّ من طرق: «أن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وأن النصارى اختلفوا على ثنتين وسبعين فرقة، وستفرق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلّها في النار إلّا واحدة»، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»^(٤). انتهى.

قال البغوي^(٥): ثم ذكر ما أمروا به في كتبهم فقال: ﴿وما أمروا﴾ يعني هؤلاء الكفار: ﴿إلّا ليعبدوا الله﴾ يعني إلّا أن يعبدوا الله ﴿مخلصين له الدين﴾ قال

(١) سورة عبس: الآية ١٣.

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٦٣/٣٠).

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٠٥.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) انظر «معالم التنزيل» (٤٨٢/٤).

ابن عباس: ما أمروا في التوراة والإنجيل إلا بالإخلاص للعبادة لله موحدين: ﴿حنفاء﴾ مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام ﴿ويقيموا الصلاة﴾ المكتوبة في أوقاتها ﴿ويؤتوا الزكاة﴾ عند محلها و ﴿ذلك﴾ الذي أمروا به ﴿دين القيمة﴾: أي الملة والشريعة المستقيمة.

قوله عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾.

وهذه الآيات كقوله تعالى ﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم﴾^(١). وكقوله تعالى ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ذلك لمن خشي ربه﴾: أي هذا الجزاء لمن خاف ربه واتقاه، بفعل طاعته وترك معصيته. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم عط أحدنا من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»^(٣). متفق عليه.



(١) سورة التوبة: الآية ٦٨.

(٢) سورة التوبة: الآية ٧٢.

(٣) سبق تخريجه.

﴿سورة الزلزلة﴾

مدنية، وهي ثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ
مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ
الْإِنْسَانُ أَشْنَاءًا لِّئُرْوَىٰ أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾
وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾.

* * *

عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿قل هو الله أحد﴾ تعدل ثلث القرآن،
﴿وإذا زلزلت﴾ تعدل ربع القرآن^(١). رواه البزار. قال ابن جرير^(٢): يقول تعالى

(١) أخرجه البزار كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٥٣٨/٤)، وفي سننه ضعف. وبنحوه
— أيضاً — عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «إذا نزلت تعدل نصف القرآن، وقل يا أيها
الكافرون تعدل ربع القرآن، وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن»، أخرجه الترمذي
(ح/٢٨٩٣)، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث هذا الشيخ الحسن بن
مسلم»، والعقيلي في (الضعفاء) (٢٤٣/١) بسند ضعيف، وبنحوه عن ابن عباس: أخرجه
الترمذي (ح/٢٨٩٤)، وقال: «حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة»،
والحاكم (١/٥٦٦)، وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: «قلت: بل يمان ضعيف» قلت:
وسنده ضعيف.

(٢) انظر «جامع البيان» (٣٠/٢٦٥).

ذكره ﴿إذا زلزلت الأرض﴾ لقيام الساعة ﴿زلزالها﴾ فرجت رجاً. وعن سعيد قال: زلزلت الأرض على عهد عبد الله فقال لها عبد الله: مالك؟ أما إنها لو تكلمت قامت الساعة. وعن ابن عباس ﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾ قال: الموتى. وقال الإنسان مالها﴾ قال: الكافر: ﴿يومئذ تحدث أخبارها﴾ قال سفيان: ما عمل عليها من خير أو شر: ﴿بأن ربك أوحى لها﴾ قال: أعلمها ذلك؛ وقال ابن عباس: أوحى إليها. وعن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يومئذ تحدث أخبارها﴾ قال: «أتدرون ما أخبارها؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا، يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها»^(١). رواه أحمد والترمذي.

وقوله تعالى: ﴿يومئذ يصدر الناس أشتاتاً﴾ كقوله تعالى ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ليروا أعمالهم﴾ قال ابن عباس: ليروا جزاء أعمالهم ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ وعن صعصعة بن معاوية أنه أتى النبي ﷺ فقرأ عليه ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ قال: حسبني، لا أبالي أن لا أسمع غيرها»^(٣). رواه أحمد وغيره.

(١) أخرجه أحمد (٣٧٤/٢)، والترمذي (٢٤٢٩/ح)، وأيضاً (ح/٣٣٥٣)، والنسائي في الكبرى (٥٢٠/٦)، والحاكم (٢٥٦/٢) وصححه، وسكت عنه الذهبي، وأيضاً أخرجه (٢/٥٣٢)، وصححه وتعقبه الذهبي بقوله: «يحيى هذا منكر الحديث قاله البخاري»، قلت: وسنده ضعيف.

(٢) سورة الروم: الآية ١٤ - ١٦.

(٣) أخرجه أحمد (٥٩/٥)، والنسائي في الكبرى (٥٢١/٦)، والطبراني (٩٠/٨)، والحاكم (٦١٣/٣).

قال البغوي^(١): وكان رسول الله ﷺ يسميها الجامعة الفاذة، حين سئل عن زكاة الحمير فقال: «ما أنزل عليّ فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾»^(٢).



(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٨٤).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٩٦٢ و ٤٩٦٣)، ومسلم (ح/٩٨٧).

الدرس التاسع بعد الثلاثمائة

﴿سورة العاديات﴾

مكية، وهي إحدى عشرة^(١) آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ .

* * *

عن ابن عباس في قوله ﴿والعاديات ضبحاً﴾ قال: الخيل؛ قال قتادة: هي الخيل عدت حتى ضبحت. ﴿فالموريات قدحاً﴾ قال: هي الخيل؛ قال الكلبي: تقدح بحوافرها حتى يخرج منها النار. ﴿فالمغيرات صباحاً﴾ قال: أغارت حين أصبحت. ﴿فأثرن به نقعاً﴾ قال: أثرن بحوافرها نقع التراب. ﴿فوسطن به جمعاً﴾ قال: وسطن جمع القوم.

(١) في (الأصل): «عشر»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف - رحمه الله - وهو الصواب.

﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ قال: لكفور. قال ابن كثير^(١): هذا هو المقسم عليه، بمعنى أنه لنعم ربه لكفور جحود. وقال الحسن: الكنود هو الذي يعدّ المصاب وينسى نعم الله عليه. قال ابن القيم^(٢): (وأصل اللفظ: منع الحق والخير، وعبارات المفسرين تدور على هذا المعنى. وقيل: هو البخيل الذي يمنع رفته، ويجمع عبده، ولا يعطي في النائة). انتهى ملخصاً.

وقوله تعالى: ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾ قال قتادة يقول: إن الله على ذلك شهيد. قال ابن كثير^(٣): ويحتمل أن يعود الضمير على الإنسان، قاله محمد بن كعب القرظي؛ قلت: وهذا هو المتبادر للذهن، ويؤيده سياق الضمائر، فإن قوله ﴿وإنه لحبّ الخير لشديد﴾ للإنسان، فافتتح الخير عن الإنسان بكونه كنوداً، ثم ثناه بكونه شهيداً على ذلك، ثم ختمه بكون بخيلاً بماله لحبه إياه. وقال ابن زيد في قوله ﴿وإنه لحبّ الخير لشديد﴾ قال: الخير الدنيا، وقرأ ﴿إن ترك خيراً الوصية﴾^(٤).

﴿أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور﴾ قال البغوي^(٥): ﴿أفلا يعلم﴾ هذا الإنسان إذا بعثر أثير وأخرج ما في القبور وحصل ما في الصدور﴾ قال ابن عباس يقول: أبرز. ﴿إن ربهم بهم يومئذ لخبير﴾ قال الزجاج: الله خبير بهم في ذلك اليوم وفي غيره، ولكن المعنى أنه يجاريهم على كفرهم في ذلك اليوم.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٥٤٢).

(٢) انظر «التيان في أقسام القرآن» (ص ٨٦).

(٣) المصدر السابق (٤/٥٤٢).

(٤) وتامه قوله: «فقلت - أي ابن وهب - : إن ترك خيراً: بالمال؟ قال: نعم، وأي شيء هو إلا المال؟»

(٥) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٨٦).

﴿سورة القارعة﴾

مكية، وهي إحدى عشرة (١) آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْقَارِعَةُ ١ مَا الْقَارِعَةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ يَوْمَ يَكُونُ
النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ
الْمَنْفُوشِ ٥ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧
وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ١٠
نَارُ حَامِيَةٍ ١١ ﴾ .

* * *

عن ابن عباس في قوله ﴿القارعة ما القارعة﴾ قال: هي الساعة. قال
البغوي (٢): ﴿القارعة﴾ اسم من أسماء القيار إلى ﴿كلاً سوف تعلمون﴾. قال
الحسن: هذا وعيد بعد وعيد.

﴿كلاً لو تعلمون علم اليقين﴾. قال قتادة: كنا نحدث أن علم اليقين أن يعلم
أن الله باعته بعد الموت. قال البغوي (٢): وجواب «لو» محذوف: أي لو تعلمون
علماً يقيناً، لشغلكم ما تعلمون عن التكاثر والتفاخر. ﴿لترون الجحيم ثم لترونها

(١) في (الأصل): «عشر»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف، رحمه الله -
وهو الصواب.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٨٧).

عين اليقين ﴿ قال البغوي: أي ترونها بأبصاركم من بعيد، ثم لترونها مشاهدة. وقال ابن كثير^(١): هذا تفسير الوعيد المتقدم، وهو قوله ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ توعدهم بهذا الحال، وهو رؤية النار التي إذا زفرت زفرة واحدة خرَّ كلَّ مالكٍ مقرَّبٍ ونبيٍّ مرسلٍ على ركبتيه من المهابة والعظمة ومعاناة الأهوال. ﴿ثم لتسئلنَّ يومئذٍ عن النعيم﴾ قال قتادة: إن الله عز وجل سائل كلَّ عبدٍ عما استودعه ممن نعمه وحقَّه.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٨٩).

﴿سورة العصر﴾

مكية، وهي ثلاث آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٣﴾ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٤﴾﴾

قال ابن كثير^(١): ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب، وذلك قبل أن يسلم عمرو، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة؟ فقال: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة، فقال: وما هي؟ فقال ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وبالصبر﴾؛ ففكر مسيلمة هنيهة ثم قال: وقد أنزل عليّ مثلها، فقال له عمرو: وما هو؟ فقال: يا وِبر يا وِبر، إنما أنت أذنان وصدر، وسائر كحقر نقر. ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أنني أعلم أنك تكذب.

قال الشافعي رحمه الله: لو تدبّر الناس هذه السورة لوسعتهم. وعن ابن عباس في قوله ﴿والعصر﴾ قال: العصر ساعة من ساعات النهار.

وقوله تعالى: ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾: أي خسران. ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ قال مجاهد: إلا من آمن. ﴿وتواصوا بالحق وتواصوا

(١) المصدر السابق (٤/٤٨٩).

بالصبر ﴿ قال قتادة: الحقّ كتاب الله، والصبر طاعة الله. وقال ابن القيم^(١): (ولمّا كان الإنسان له قوتان: قوّة العلم، وقوّة العمل؛ وله حالتان: حالة يَأْتَمِرُ فيها بأمر غيره، وحالة يأمر فيها غيره، استثنى سبحانه من كَمَلَّ قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وانقاد لأمر غيره له بذلك، وأمر غيره به، من الإنسان الذي هو في خسر؛ فإن العبد له حالتان: حالة كمال في نفسه، وحالة تكميل لغيره، وكماله وتكميله موقوف على أمرين: علم بالحقّ، وصبر عليه؛ فتضمّنت الآية جميع مراتب الكمال الإنسانيّ من العلم النافع، والعمل الصالح، والإحسان إلى نفسه بذلك، وإلى أخيه به، وانقياده، وقبوله لمن يأمره بذلك).



(١) انظر «التبيان في أقسام القرآن» (ص ٩٢).

﴿سورة الهمزة﴾

مكية، وهي تسع (١) آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يُحَسِّبُ أَنَّ مَالَهُ
أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ
الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَسَّدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ
مُمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾ .

عن قتادة ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾ أما الهمزة فأكل لحوم الناس، وأما اللمزة فالطعان عليهم. قال ابن إسحاق: ما زلنا نسمع أن سورة الهمزة نزلت في أمية بن خلف. وقال مجاهد: هي عامة في حق كل من هذه صفته.

قال البغوي (٢): ثم وصفه فقال ﴿الذي جمع مالا وعدده﴾ أحصاه ﴿يحسب﴾ أن ماله أخلده ﴿في الدنيا، يظن أنه لا يموت مع يساره.﴾ ﴿كلا﴾ رد عليه، أي لا يخلده ماله. ﴿لينبذن﴾ ليطحرن ﴿في الحطمة﴾ في جهنم، والحطمة من أسماء النار، سميت حطمة لأنها تحطم العظام وتكسرها. ﴿وما أدراك ما الحطمة نار الله﴾

(١) في (الأصل): «تسعة»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف — رحمه الله — وهو الصواب.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٩٢).

الموقدة التي تطلع على الأفئدة ﴿: أي التي يبلغ ألمها ووجعها إلى القلوب ﴾ إنها عليهم مؤصدة ﴿ مطبقة مغلقة ﴾ في عمد ممددة ﴿ قال مقاتل: أطبقت الأبواب عليهم ثم سدّت بأوتاد من حديد من نار، حتى يرجع عليهم غمّها وحرّها، فلا يفتح عليهم باب ولا يدخل عليهم روح. والممددة: من صفة العمد: أي مطوّلة، فتكون أرسخ من القصيرة؛ عياداً بالله من ذلك.



الدرس العاشر بعد الثلاثمائة

﴿سورة الفيل﴾

مكية، وهي خمس^(١) آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾
وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ
مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ .

* * *

عن ابن مسعود في قوله ﴿طيراً أبابيل﴾ قال: فرق. وقال ابن عباس: هي

التي يتبع بعضها بعضاً. وقال قتادة: الأبابيل الكثيرة.

قال ابن عباس: وكانت طيراً لها خراطيم الطير، وأكف كأكف الكلاب.

وقال عبد بن عمير: هي طير سود بحرية، في أظافرها ومناقرها الحجارة.

قال ابن إسحاق: ثم إن أبرهة بنى القُلَيْس بصنعاء، فبنى كنيسة لم ير مثلها

في زمانها بشيء من الأرض، ثم كتب إلى النجاشي: إني قد بنيت لك أيها الملك

كنيسة لم بين مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنتته حتى أصرف إليها حج العرب،

(١) في (الأصل): «خمسة»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف، — رحمه

الله — وهو الصواب.

فلما تحدّثت العرب بذلك غضب رجل من النسأة الذين كانوا ينسأون الشهور على العرب في الجاهلية، فخرج حتى أتى القليس فقعد فيها - يعني أحدث - ثم خرج فلحق بأرضه، فأخبر بذلك أبرهة، قال: من صنع هذا؟ فقيل له: صنع هذا رجل من العرب من أهل هذا البيت الذي تحج العرب إليه بمكة، لما سمع قولك: أصرف إليها حاج^(١) العرب؛ فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرنّ إلى البيت حتى يهدمه.

ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهّزت، ثم سار وخرج معه بالفيل، وسمعت بذلك العرب فأعطوه وقطعوا به، ورأوا جهاده حقاً عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام، فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نَفَر، دعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده، فأجابه إلى ذلك من أجابه ثم عرض له فقاتله، فهزم ذو نَفَر وأصحابه وأخذ فأتي به أسيراً، فلما أراد قتله قال له ذو نفر: أيها الملك لا تقتلني، فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من قتلي، فتركه من القتل وحبسه عنده في وثاق، وكان أبرهة رجلاً حليماً.

ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب في قبيلتي خثعم شهران وناهس ومن تبعه من قبائل العرب، فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ نفيل أسيراً، فأتي به فلما همّ بقتله قال له نفيل: أيها الملك لا تقتلني فإنني دليلك بأرض العرب، وهاتان يداي لك على قبيلتي خثعم وناهس بالسمع والطاعة؛ فخلّى سبيله وخرج به معه يدله، حتى إذا مرّ بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب في رجال ثقيف فقالوا له: أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون، ليس عندنا لك خلاف، وليس بيننا هذا البيت الذي تريد - يعنون اللات - إنما تريد البيت الذي بمكة، ونحن نبعث معك من يدلك عليه، فتجاوز عنهم فبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة؛ فخرج معه حتى أنزله المغمس، فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك فرجمت قبره العرب.

(١) في (الأصل): «حج»، وكذا في النسخة التي بخط المؤلف، والمثبت من تفسير ابن جرير.

فلما نزل^(١) أبرهة المغمّس بعث رجلاً من الحبشة على خيل له حتى انتهى إلى مكّة، فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم، وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم - وهو يومئذ كبير قريش وسيدها - فهتمّت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك، وبعث أبرهة حنّاطة الحميريّ إلى مكّة وقال له: سل عن سيّد أهل هذا البلد وشريفها ثم قل له: إن الملك يقول لك: إنّي لم آت لحربكم، إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم ترضوا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم، فإن هو لم يرد حربي فأنتني به. فلما دخل حنّاطة مكّة سألت عن سيّد قريش وشريفها فقيل له: عبد المطلب بن هاشم، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة، فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه، وإن يخلّ بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه. فقال حنّاطة: فانطلق معي إليه فإنه قد أمرني أن آتيه بك.

فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر، فسأل عن ذي نفر - وكان له صديقاً - حتى دخل عليه وهو في محبسه فقال له: يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا؟ فقال له ذو نفر: وما غناء رجل أسير بيدي ملك ينتظر أن يقتله غدوّاً أو عشياً؟ ما عندنا غناء في شيء مما نزل بك، إلّا أن أنيساً سائس الفيل صديق لي، وسأرسل إليه فأوصيه بك وأعظم عليه حقك، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلّمه بما بدا لك، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك. فقال حسبي. فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له: إن عبد المطلب سيّد قريش وصاحب غير مكّة، يطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤوس الجبال، وقد أصاب له الملك مائتي بعير، فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت. فقال: أفعّل.

فكلّم أنيس أبرهة فأذن له، وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم

(١) في (الأصل): «نزله» وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف، وهو الصواب.

وأعظمهم، فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه وأكرمه عن أن يجلسه تحته، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه، فنزل أبرهة عن سيره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه، ثم قال لترجمانه: قل له: ما حاجتك؟ فقال: حاجتي أن يرده عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي. فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه: قل له: قد كنت أعجبتي حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟ قال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه. قال: ما كان لمتنع مني قال: أنت وذاك. فردّ أبرهة على عبد المطلب الإبل التي أصاب له.

فلما انصرف عبد المطلب إلى قريش أخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرّز في شعف الجبال والشعاب تخوفاً عليهم من معرة الجيش، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب وهو أخذ بحلقة باب الكعبة:

لا همّ إن العبد يمنع رحله فامنع حلالك
لا يغلبن صليهم ومحالهم أبدأ محالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدالك

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال، فتحرّزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها؛ فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله وعباً جيشه - وكان اسم الفيل محموداً - وأبرهة مجمع لهدم البيت ثم الانصراف إلى اليمن. فلما وجّهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل، ثم أخذ بأذنه فقال: ابرك محمود وارجع راشداً، فإنك في بلد الله الحرام. ثم أرسل أذنه فبرك الفيل وخرج نفيل بن حبيب يشتدّ حتى أصعد في الجبل. وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا رأسه بالطبرزين ليقوم فأبى، فأدخلوا محاجن لهم في مراره فترعوه بها ليقوم فأبى، فوجّهوه

راجعاً إلى اليمن فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فبرك؛ فأرسل الله تعالى عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحداً إلاً هلك، وليس كلهم أصابت؛ وخرجوا هارين يتبدرون الطريق الذي منه جاؤوا، ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلّهم على الطريق إلى اليمن، فقال نفيل حين رأى ما أنزل الله بهم من نعمته.

أين المفرّ والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب؟
وقال أيضاً:

ألا حُيِّتَ عنا يا رُدَيْنَا	نَعْمَنَّاكُمْ مع الإصباح عَيْنَا
أتانا قابس منكم عشاء	فلم يقدر لقابسكم لَدَيْنَا
رُدَيْنَةُ لو رأيت ولا تريه	لدى جَنبِ المحصَّب ما رأينا
إذا لعذرتني وحمدتِ أمري	ولم تنأسي على ما فات بينا
حمدتُ الله إذ أبصرت طيراً	وخفت حجارة تلقى علينا
وكلُّ القوم يسأل عن نفيل	كأنَّ عليَّ للحبشان دَيْنَا

فخرجوا يتساقطون بكلّ طريق ويهلكون بكلّ مهلك على كلّ منهل، وأصيب أبرهة في جسده وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، كلما سقطت منه أنملة اتبعنها منه مدة تمت قيحاً ودماً، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه. فلما بعث الله تعالى محمداً ﷺ، كان مما يعدّ الله على قريش من نعمته عليهم وفضله ما ردّ عنهم من أمر الحبشة، فقال الله تبارك وتعالى ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول﴾. وقال ﴿لا يلاف

قريش لإفهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا ربّ هذا البيت الذي إطعمهم من جوع
وأمنهم من خوف﴿: أي لئلا يغيّر شيئاً من حالهم التي كانوا عليها، لما أراد الله
بهم من الخير لو قبلوه، فلما ردّ الله الحبشة عن مكة وأصابهم بما أصابهم من
النقمة، أعظمت العرب قريشاً وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم وكفاهم مؤونة
عدوهم، فقالوا في ذلك أشعاراً، فقال عبد الله بن الزبير:

تنكلوا عن بطن مكة إنها
لم تخلق الشعري ليالي حرمت
سائل أمير الجيش عنها ما رأى
ستون ألفاً لم يؤوبوا أرضهم
كانت بها عادٌ وجُرهُمُ قبلهم

وقال أبو قيس بن الأسلت:

فقوموا فصلّوا ربكم وتمسّحوا
فعدكم منه بلاء مصدّق
كتيبة بالسهل تمشي ورجله
فلما أتاكم نصر ذي العرش ردهم
فولّوا سراعاً هارين ولم يؤب
بأركان هذا البيت بين الأخشاب
غداة أبي يكسوم^(١) هادي الكتائب
على القاذفات في رؤوس المناقب
جنودُ المليك بين سافٍ وحاصب
إلى أهله ملحش غير عاصب

[انتهى ملخصاً]^(٢)



(١) في (الأصل): «يكوم»، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف، وسيرة ابن هشام (١٠٠/١).

(٢) ما بين المعقوفتين: إضافة من النسخة التي بخط المؤلف وانظر هذه القصة - قصة الفيل - في سيرة ابن هشام (٨٢/١ - ١٠١).

﴿سورة قريش﴾

مكية، وهي أربع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ لَإِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ .

* * *

قال الزجاج: المعنى جعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش: أي أهلك أصحاب الفيل لتبقى قريش وما ألفوا من رحلة الشتاء والصيف.

وعن مجاهد ﴿لإيلاف قريش﴾ قال: نعمتي على قريش ﴿إيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾ قال: إيلافهم ذلك فلا يشقّ عليهم. وعن ابن عباس في قوله ﴿إيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾ يقول: لزومهم. وعن أبي صالح ﴿لإيلاف قريش إيلافهم﴾ قال: كانوا تجاراً، فعلم الله حبّهم للشام. وعن قتادة ﴿لإيلاف قريش﴾ قال: عادة قريش، عادتهم رحلة الشتاء والصيف. قال ابن زيد: كانت لهم رحلتان: الصيف إلى الشام، والشتاء إلى اليمن.

﴿فليعبدوا ربّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ قال قتادة: كانوا يقولون: نحن من حرمة الله، فلا يعرض لهم أحد. قال ابن كثير^(١) وقوله تعالى: ﴿فليعبدوا ربّ هذا البيت﴾: أي فليؤخّده بالعبادة وحده لا شريك

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٥٥٣).

له، ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا ندّاً ولا وثناً؛ ولهذا من استجاب لهذا الأمر جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة، ومن عصاه سلبهما منه؛ كما قال تعالى ﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾^(١). انتهى ملخصاً.



(١) سورة النحل: الآية ١١٢.

الدرس الحادي عشر بعد الثلاثمائة

﴿سورة الماعون﴾

مكية، وهي سبع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أرأيتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾
وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ
سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يَرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ .

* * *

قال في جامع البيان ﴿أرأيت﴾ الاستفهام للتعجب ﴿الذي يكذب بالدين﴾
بالجزاء والبعث. ﴿فذلك الذي يدع اليتيم﴾ قال قتادة: يقهره ويظلمه ﴿ولا يحض على
طعام مسكين﴾ قال ابن كثير^(١): يعني الفقير الذي لا شيء له يقوم بأوده وكفايته.

﴿فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ قال ابن عباس: الذين
يؤخرونها عن وقتها. وقال ابن أبيزى: الذين يؤخرون الصلاة المكتوبة حتى تخرج من
الوقت. وعن مجاهد ﴿عن صلاتهم ساهون﴾ قال: لاهون. وقال الضحاك في قوله
﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون﴾ يعني المنافقين، ﴿ويمنعون
الماعون﴾ قال ابن عباس: العارية. وقال ابن عباس: ﴿الماعون﴾ ما يتعاطى
الناس بينهم من القاس، والقدر، والدلو، وأشباه ذلك.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٥٥٤).

﴿سورة الكوثر﴾

مكية، وهي ثلاث آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ
هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ .

* * *

قال ابن عمر: «الكوثر نهر في الجنة حافتاه ذهب وفضة، يجري على الدرّ والياقوت ماؤه، أشدّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل»^(١). وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة فإذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ، فضربت بيدي إلى ما يجري فيه الماء فإذا مسك أذفر، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاكه الله عز وجل»^(٢). متفق عليه واللفظ لأحمد.

وعن مجاهد ﴿فصلّ لربّك وانحر﴾ قال: الصلاة المكتوبة ونحر البدن. ﴿وإن شانئك هو الأبتر﴾ قال ابن عباس يقول: عدوك. وعن يزيد بن رومان قال: كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول: «دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له فإذا هلك انقطع ذكره، فأنزل الله هذه السورة»^(٣).

(١) أخرجه ابن جرير (٣٢٠/٣٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢٦٣/٣)، وبنحوه والبخاري (ح/٤٩٦٤)، ومسلم (١/٣٠٠ و ٣٠١).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٥٥٩)، وبهذا روي عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير وقتادة. وقال بعضهم: إنها نزلت في عقبه بن أبي معيط، وبهذا روي عن شمر بن عطية، وعكرمة وغيرهم. وقال بعضهم: إنها نزلت في كعب الأشرف، وبهذا روي عن ابن عباس، قلت: وهذه الآية وإن كانت قد نزلت في شخص معين، إلا أنها عامة لجميع من أبغض وعادى رسول الله ﷺ على العصور والدهور، والله أعلم.

﴿سورة الكافرون﴾

مكية، وهي ست آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ
مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ
وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ .

* * *

روى مسلم عن أبي هريرة: «أن النبي ﷺ قرأ في ركعتي الفجر ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و ﴿قل هو الله أحد﴾»^(١). وروى أحمد وغيره أن أبي بن كعب قال: كان رسول الله ﷺ يوتر بـ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ و: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و ﴿قل هو الله أحد﴾»^(٢).

قال البغوي^(٣): نزلت في رهط من قريش قالوا: يا محمد هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك ونشرك في أمرنا كله، تعبد آلهتنا ونعبد إلهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيراً كنا قد شركناك فيه أخذنا حظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظك منه؛ فقال: «معاذ الله أن أشرك به غيره»، قالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك، فقال: «حتى أنظر ما يأتي من عند

(١) أخرجه مسلم (ح/٧٢٦).

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٥/١٢٣)، وأبو داود (ح/١٤٢٣)، والنسائي

(٣/٣٤٤)، وابن ماجه (ح/١١٧)، وله شاهد من حديث ابن عباس رضي الله عنه، أخرجه

مسلم (ح/٢٩٨٦) بنحوه.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/٥٠٥).

ربّي»، فأنزل الله عز وجل ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ إلى آخر السورة؛ فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملاً من قريش، فقام على رؤوسهم ثم قرأها عليهم حتى فرغ من السورة، فأيسوا منه عند ذلك وأذوه وأصحابه^(١).

ومعنى الآية: ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ في الحال ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ في الحال ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾ في الاستقبال ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ في الاستقبال؛ وهذا الخطاب لمن سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون. ﴿لكم دينكم﴾ الشرك ﴿ولي دين﴾ الإسلام.



(١) أخرجه ابن جرير (٣٣١/٣٠) عن ابن عباس.

﴿سورة النصر﴾

مدنية، وهي ثلاث آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّكُمْ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ .

* * *

عن مجاهد ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فتح مكة ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ قال: زمراً زمراً ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ إنه كان تواباً قال: اعلم أنك ستموت عند ذلك. وعن قتادة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قرأها كلها، قال ابن عباس: «هذه السورة عَلَّمٌ وَحَدٌّ حَدَّهُ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ ونعى له نفسه: أي أنك لن تعيش بعدها إلا قليلاً»، قال قتادة: «والله ما عاش بعد ذلك إلا قليلاً، سنتين ثم توفي ﷺ». وقال مجاهد: «لما نزلت [﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾]»^(١) ونعيت إلى النبي ﷺ نفسه، [كان]^(٢) لا يقوم من مجلس يجلس فيه حتى يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»^(٣)، وروى الطبراني وغيره عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ حتى ختم

(١) ما بين المعقوفتين إضافة من تفسير ابن جرير.

(٢) ما بين المعقوفتين إضافة من النسخة التي بخط المؤلف رحمه الله.

(٣) هذا الحديث من رواية أبي العالية، لا من رواية مجاهد كما توهمه المؤلف رحمه الله، فقد أخرجه ابن جرير (٣٣٠/٣٠) عن أبي العالية مرسلًا.

السورة قال: نعت لرسول الله ﷺ نفسه حين نزلت؛ قال: فأخذ بأشد ما كان قطّ اجتهاداً في أمر الآخرة. وقال رسول الله ﷺ: «بعد ذلك جاء الفتح ونصر الله وجاء أهل اليمن» فقال رجل: يا رسول الله وما أهل اليمن؟ قال: «قوم رقيقة قلوبهم، لينة طباعهم، الإيمان يمان والفقه يمان»؛ وفي رواية: «والحكمة يمانية»^(١).



(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٥٢٥/٦)، وابن جرير (٣٣٢/٣٠)، والطبراني (٣٢٨/١١)، وهو صحيح.

﴿سورة المسد﴾

مكية، وهي خمس آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾
سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ
مَّسْكِ ﴿٥﴾﴾ .

عن قتادة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾: أي خسرت ﴿وتَبَّ﴾ قال ابن كثير^(١):
الأول دعاء عليه، والثاني خبر عنه. وقال ابن عباس: لما نزلت ﴿وأنذر عشيرتَكِ
الأقربين﴾ قام رسول الله ﷺ على الصفا ثم نادى: «يا صباحاه». فاجتمع الناس
إليه، فبين رجل يجيء وبين آخر يبعث رسوله، فقال: «يا بني هاشم، يا بني
عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني يا بني، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا
الجبل تريد تغير عليكم صدقتموني؟» قالوا: نعم. قال: «فإني نذير لكم بين يدي
عذاب شديد». فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا دعوتنا؟ فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا
أبي لهب وتَبَّ﴾^(٢). وعن ربيعة بن عباد الديلي^(٣) قال: رأيت النبي ﷺ في

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٥٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (ح/١٣٩٤ و ٣٥٢٥ و ٤٨٠١ و ٤٩٧١ و ٤٩٧٢ و ٤٩٧٣)، ومسلم (ح/٢٠٨).

(٣) في (الأصل): «الديلمي»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف - رحمه الله - وهو الصواب.

الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: «يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا». والناس مجتمعون عيله، ووراءه رجل وضيء الوجه أحول ذو غديرتين يقول: إنه صابىء كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا: هذا عمّه أبو لهب»^(١).

وعن مجاهد ﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ قال: ما كسب: ولده، وعن ابن عباس أنه رأى يوماً ولد أبي لهب يقتلون فجعل يحجز بينهم ويقول: هؤلاء مما كسب. ﴿سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب﴾ قال ابن عباس: كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق النبي ﷺ ﴿في جيدها﴾: أي عنقها: ﴿حبل من مسد﴾ قال ابن زيد: من شجر ينبت باليمن يقال له مسد. قال الضحاك وغيره: في الدنيا من ليف، وفي الآخرة من نار.

وعن أسماء بنت أبي بكر قالت: «لما نزلت ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة وفي يدها فهد وهي تقول: مذمماً أبينا ودينه قلبنا وأمره عصينا. ورسول الله ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله قد أقبلت وأنا أخاف عليك أن تراك، فقال رسول الله ﷺ: «إنها لن تراني» وقرأ قرآناً اعتصم به، كما قال تعالى ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حججاً مستوراً﴾، فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله ﷺ فقالت: يا أبا بكر إني أخبرت أن صاحبك هجاني، قال: لا ورب هذا البيت ما هجاك؛ فولت وهي تقول: قد علمت قريش أنني ابنة سيدها»^(٢). رواه ابن أبي حاتم. والله أعلم.



(١) أخرجه أحمد (٣/٤٩٢ و ٤/٣٤١).

(٢) أخرجه الحميدي في مسنده (١/١٥٤)، ومن طريقه ابن أبي حاتم كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٤/٤٦٤ - ٤٦٥)، والحاكم (٢/٣٦١)، وصححه، ووافقه الذهبي.

الدرس الثاني عشر بعد الثلاثمائة

﴿سورة الإخلاص﴾

مكيّة، وهي أربع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾
وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ .

* * *

عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد انسب لنا ربك،
فأنزل الله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدُ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا
أَحَدٌ﴾. رواه أحمد وغيره. زاد ابن جرير: قال: «الصمد» الذي لم يلد ولم
يولد، لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله عز
وجل لا يموت ولا يورث. ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ ولم يكن له شبيه ولا عديل
وليس كمثلته شيء^(١).

(١) أخرجه أحمد (١٣٣/٥ - ١٣٤)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٢٤٥/١)، والترمذي
(ح/٣٣٦٤)، وابن جرير (٣٤٢/٣٠)، وابن أبي عاصم (٢٩٧/١)، وأبو الشيخ في
«العظمة» (ح/٨٨)، والحاكم (٥٤٠/٢) وصححه ووافقه الذهبي، قلت: وفي سنده
أبو سعد محمد بن ميسر الصاغانبي، وهو ضعيف، وكذلك أبو جعفر الرازي، وهو سيء
الحفظ، قال البخاري: «فيه اضطراب» ثم أورده الترمذي مراسلاً (رقم ٣٣٦٥) عن =

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء نسبة، ونسبة الله ﴿قل﴾ هو الله أحد الله الصمد ﴿والصمد ليس بأجوف﴾»^(١). رواه الطبراني.

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ ﴿قل﴾ هو الله أحد ﴿فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟» فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن عز وجل، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: «أخبروه أن الله تعالى يحبه»^(٢). متفق عليه.

وعن أبي سعيد أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قل﴾ هو الله أحد ﴿يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له - وكان الرجل يتقلها - فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها تعدل ثلث القرآن»^(٣). رواه البخاري.

وعن أبي هريرة قال: أقبلت مع النبي ﷺ فسمع رجلاً يقرأ ﴿قل﴾ هو الله أحد ﴿فقال رسول الله ﷺ: «وجبت» قلت: وما وجبت؟ قال: «الجنة»^(٤). رواه مالك والترمذي والنسائي.

وعن عبد الله بن خبيب قال: أصابنا عطش وظلمة فانتظرنا رسول الله ﷺ

= أبي العالية بنحو وقال: «فذكر نحوه، ولم يذكر فيه عن أبي بن كعب، وهذا أصح من حديث أبي سعد...». اهـ.

فالترمذي أعل الحديث بالإرسال، بل قبله البخاري - رحمه الله - في تاريخه (١/٢٤٥).

(١) أخرجه الطبراني كما في «مجمع البحرين» (٦/٩٠) بسند ضعيف جداً.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٧٣٧٥)، ومسلم (ح/٨١٣).

(٣) أخرجه البخاري (ح/٥٠١٣ و ٦٦٤٣ و ٧٣٧٤)، ومسلم (ح/٨١١ و ٨١٢).

(٤) أخرجه مالك في الموطأ (١/٢٠٨)، والترمذي (ح/٢٨٩٧) وقال: «حسن غريب»،

والنسائي في الكبرى (٦/٥٢٦)، والحاكم (١/٥٦٦)، وصححه ووافقه الذهبي، قلت:

وسنده حسن، وله شاهد من حديث أبي أمامة، ومن حديث شيخ أدرك النبي ﷺ.

يصلّي بنا، فخرج فأخذ بيدي فقال: «قل» فسكت قال: «قل» قلت: ما أقول؟ قال: «قل هو الله أحد» والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاثاً، تكفيك كل يوم مرتين^(١). رواه عبد الله بن الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي.

وعن معاذ بن أنس الجهني عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ قل هو الله أحد حتى يخطمها عشر مرات، بنى الله له قصرًا في الجنة»، فقال عمر: إذا نستكثر يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكثر وأطيب»^(٢).

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه أنه دخل مع رسول الله ﷺ المسجد فإذا رجل يصلّي يدعو يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، قال: «والذي نفسي بيده لقد سأله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب»^(٣). رواه أهل السنن.

وعن عائشة: «أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفيه ثم نفث فيهما وقرأ فيهما قل هو الله أحد و قل أعوذ برب الفلق و قل أعوذ برب الناس ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرّات»^(٤). رواه البخاري وغيره.

قوله عز وجل: قل هو الله أحد قل ابن جرير^(٥): قل يا محمد لهؤلاء

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٣١٢/٥)، وأبو داود (ح/٥٠٨٢)، والترمذي (ح/٣٥٧٠)، وقال: «حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، والنسائي (٢٥١/٨)، وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (٤٣٧/٣) بسند ضعيف.

(٣) سبق تخريجه في كتاب «كشف ما ألغاه إبليس» (ص ٩٢ - ٩٣) وهو حديث صحيح.

(٤) أخرجه البخاري (ح/٥٠١٧ و ٥٧٤٨ و ٦٣١٩).

(٥) انظر «جامع البيان» (٣٠/٣٤٣).

السائلين عن نسب ربك وصفته ﴿هو الله﴾ الذي له عبادة كل شيء، لا تنبغي العبادة إلا له ولا تصلح لشيء سواه. وقال ابن كثير ﴿قل هو الله أحد﴾: يعني هو الواحد الأحد الذي لا نظير له، ولا وزير ولا نديد ولا شبيه ولا عديل؛ ولا يطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله عز وجل، لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله.

قوله عز وجل: ﴿الله الصمد﴾ قال ابن عباس: «الصمد الذي ليس بأجوف». وقال الشعبي: «الصمد الذي لا يطعم الطعام». وقال أبو العالية: «الصمد الذي لم يلد ولم يولد». وعن ابن عباس في قوله ﴿الصمد﴾ يقول: «السيد الذي قد كمل في سؤده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والغني الذي قد كمل في غناه، والجبار الذي قد كمل في جبروته، والعالم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه هذه صفته لا تنبغي إلا له»، وقال قتادة: «الصمد الدائم».

قال ابن كثير^(١): وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في كتاب السنة له، بعد إيراده كثيراً من هذه الأقوال: وكل هذه صحيحة، وهي صفات ربنا عز وجل، هو الذي يصمد إليه في الحوائج، وهو الذي قد انتهى سؤده، وهو الصمد الذي لا جوف له ولا يأكل ولا يشرب، وهو الباقي بعد خلقه.

قوله عز وجل: ﴿لم يلد ولم يولد﴾: أي ليس له ولد ولا والد؛ قال تعالى ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إداً تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هدأً أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدّهم عدداً

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٥٧٠).

وكلّهم آتية يوم القيامة فرداً^(١)؛ وقال تعالى ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدّلّ وكبّره تكبيراً﴾^(٢). وفي صحيح البخاري عن النبي ﷺ قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم»^(٣).

قوله عز وجل: ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ قال ابن عباس: ليس كمثله شيء، فسبحان الله الواحد القهار. وعن مجاهد ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ قال: صاحبة؛ وقد قال تعالى ﴿وجعلوا لله شركاء الجنّ وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون بديع السموات والأرض أني يكون لله ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كلّ شيء وهو بكلّ شيء عليم ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كلّ شيء فاعبدوه وهو على كلّ شيء وكيل﴾^(٤) وروى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل كذّبي ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذّبيه إيتاي فقلوه: لن يعيدني كما بداني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته؛ وأما شتمه إيتاي فقلوه: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد»^(٥).

قال أبو العباس بن سريج^(٦) في تفسير قوله ﷺ في سورة قل هو الله أحد إنها تعدل ثلث القرآن: «إن الله أنزل القرآن على ثلاثة أقسام: ثلث منه أحكام، وثلث

(١) سورة مريم: الآية ٨٨ - ٩٥.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١١١.

(٣) أخرجه البخاري (ح/٦٠٩٩ و ٧٣٧٨)، ومسلم (ح/٢٨٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٤) سورة الأنعام: الآيات ١٠٠ - ١٠٢.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) انظر: «جواب أهل العلم والإيمان» لابن تيمية (ص ٩ و ٦٢).

منه وعد ووعد، وثلاث منه الأسماء والصفات؛ وهذه السورة جمعت القسم الثالث». قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وهذا القول هو الصواب.

قلت: ويحسن إعادة ذكر الأسماء الحسنی هنا، ففي الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر»^(١).

زاد الترمذي بعد قوله وهو قوله: «وهو وتر يحب الوتر: هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرفع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العليّ الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحقّ الوكيل القويّ المتين الوليّ الحميد المحصي المبدئ المعيد المحي المميت الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البرّ التوّاب المنتقم العفوّ الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغنيّ المغني المعطي المانع الضارّ النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور».



(١) الحديث سبق تخريجه، والزيادة التي رواها الترمذي وغيره، إنما هي مدرجة من بعض الرواة، وليست من قول النبي ﷺ.

الدرس الثالث عشر بعد الثلاثمائة

﴿سورة الفلق﴾

مكية، هي خمس آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ .

﴿سورة الناس﴾

مكية، وهي ست آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ .

عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط؟ ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ و ﴿قل أعوذ برب الناس﴾»^(١). رواه مسلم وغيره. وفي رواية لأحمد: بينا أنا أقود برسول الله ﷺ في نقب من تلك النقاب، إذ قال لي: «يا عقبة ألا تركب؟» قلن: فأشفقت أن تكون معصية، فنزل رسول الله ﷺ وركبت هنية ثم قال: «يا عقبة، ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس؟» قلت: بلى يا رسول الله. فأقرأني ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ و ﴿قل أعوذ برب الناس﴾؛ ثم أقيمت الصلاة فتقدم رسول الله ﷺ فقرأ بهما، ثم مرّ بي فقال: «كيف رأيت يا عقبة؟ اقرأ بهما كلّما نمت وكلّما قمت»^(٢).

وفي رواية: «أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذات في دبر كل صلاة»^(٣).

وللسائي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الناس لم يتعوذوا بمثل هذين ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ و ﴿قل أعوذ برب الناس﴾»^(٤).

وروى الترمذي وغيره عن أبي سعيد: «أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ من أعين الجنّ وأعين الإنسان، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما»^(٥).

قوله عز وجل ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِنْ شَرِّ

(١) أخرجه مسلم (ح/٨١٤).

(٢) أخرجه أحمد (٤/١٤٤)، وأبو داود (ح/١٤٦٢)، والنسائي (٨/١٥٣).

(٣) أخرجه أحمد (٤/١٥٥)، وأبو داود (ح/١٥٢٣)، والترمذي (ح/٢٩٠٥)، وقال: «حسن غريب»، والنسائي (٣/٦٨).

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى (٤/٤٤٢).

(٥) أخرجه الترمذي (ح/٢٠٥٩) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٨/٢٧١)، وابن

ماج (ح/٣٥١١)، قال ابن كثير في تفسيره (٥٧٧٤) بعدما أورد هذه الأحاديث مع طرقها:

«فهذه طرق عن عقبة كالمتواترة عنه تفيد القطع عند كثير من المحققين في الحديث».

غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ .

عن الحسن في هذه الآية ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ قال: الفلق الصبح. ﴿من شر ما خلق﴾ قال ابن كثير^(١): أي من شر جميع المخلوقات. ﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾ قال الحسن: أول الليل إذا أظلم. ﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾ قال: السواحر والسحرة. ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾ قال قتادة: من شر عينه ونفسه. وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ سحر، حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن - قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا - فقال: «يا عائشة أعلمت أن الله قد أفتاني فيما أستفتيته؟ أتاني رجلان فقعدا أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: محبوب، قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم - رجل من بني زريق حليف لليهود كان منافقاً - قال: وفيم؟ قال: في مشط ومشاطة، قال: وأين؟ قال: في جفّ طلعة ذكر، تحت راعوفة في بئر ذروان». قالت: فأتى البئر حتى استخرجه، فقال: «هذه البئر التي أريئنها، وكان ماءها نقاعة الحناء، كأن نخلها رؤوس الشياطين»، قال: فاستخرج فقلت: أفلا تنشرت؟ وفي رواية لمسلم: أفلا أحرقتة؟ - قال القرطبي: يعني لبيد - فقال: «أما الله فقد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً»^(٢). رواه البخاري.

وروى البغوي عن زيد بن أرقم قال: «سحر النبي ﷺ رجل من اليهود فاشتكى لذلك أياماً، فأتاه جبريل فقال: إن رجلاً من اليهود سحرك وعقد لك عقداً، فأرسل رسول الله ﷺ علياً فاستخرجها فجاء بها، فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك حقة، فقام رسول الله ﷺ كأنما نشط من عقال؛ فما ذكر لليهودي ولا

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٥٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٣٢٦٨ و ٥٧٦٣ و ٥٧٦٥ و ٥٧٦٦)، ومسلم بنحوه (ح/٢١٨٩).

رآه في وجهه قطاً^(١). قال مقاتل والكلبي: كان في وتد عقد عليه إحدى عشرة عقدة؛ وقيل: كانت العقد مقرونة بالإبر، فأنزل الله هاتين السورتين، وهي إحدى عشرة آية، كلما قرأ آية انحلت عقدة، حتى انحلت العقد كلها، فقام النبي ﷺ كأنما نشط من عقال.

وساق بسنده عن أبي سعيد أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد اشتكيت؟ قال: «نعم». قال: بسم الله أريقك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك، بسم الله أريقك^(٢).

قوله عز وجل ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾.

قال ابن كثير^(٣): هذه ثلاث صفات من صفات الرب عز وجل: الربوبية، والملك، والإلهية، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له، مملوكة عبيد له، فأمر المستعبد أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات من شر الوسواس الخناس وهو الشيطان الموكل بالإنسان، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يزين له الفواحش ولا يألوه جهداً في الخبال، والمعصوم من عصمه الله. وعن ابن عباس في قوله ﴿الوسواس الخناس﴾ قال: «الشيطان جائم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، وإذا ذكر الله خنس^(٤)». وقال قتادة: يعني الشيطان يوسوس في صدر ابن آدم ويخنس إذا ذكر الله.

(١) أخرجه أحمد (٣٦٧/٤)، والنسائي (١١٣/٧)، والبغوي في تفسيره (٥١٦/٤).

(٢) أخرجه مسلم (ح/٢١٨٦).

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم (٥٧٤/٤).

(٤) أخرجه ابن جرير (٣٥/٣٠)، وبمعناه موقوفاً عن ابن عباس أيضاً: أخرجه البخاري معلقاً (٣٣٥/٣).

قال البغوي^(١): ﴿الذي يوسوس في صدور الناس﴾ بالكلام الخفي الذي يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع. ﴿من الجنة والناس﴾ يعني يدخل في الجنّي كما يدخل في الإنسي، ويوسوس الجنّي كما يوسوس الإنسي. قال الكلبي وقوله: ﴿في صدور الناس﴾ أراد بالناس ما ذكر من بعد، وهو الجنة والناس، فسّمى الجن ناساً كما سمّاهم رجالاً فقال ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن﴾^(٢). وقد ذكر عن بعض العرب أنه قال وهو يحدث: جاء قوم من الجنّ فوقوا فقيل: من أنتم؟ قالوا: أناس من الجنّ. وهذا معنى قول الفراء: قال بعضهم: ثبت أن الوسواس للإنسان من الإنسان كالوسوسة للشيطان من الشيطان؛ فجعل الوسواس من فعل الجنة والناس جميعاً، كما قال ﴿وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدواً شياطين الإنس والجن﴾^(٣)؛ كأنه أمر أن يستعيز من شرّ الجنّ والإنس جميعاً. انتهى. وقال بعضهم: فكما أن شيطان الجنّ يوسوس تارة ويخنس أخرى، فكذلك شيطان الإنس يرى نفسه كالناصح المشفق.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني لأحدث نفسي بالشيء لأن أخّر من السماء أحبّ إليّ من أن أتكلم به، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر الله أكبر، الحمد لله الذي ردّ كيده إلى الوسوسة»^(٤). رواه أحمد وغيره. والله أعلم.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٥١٨).

(٢) سورة الجن: الآية ٦.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١١٢.

(٤) أخرجه أحمد (١/٢٣٥)، وأبو داود (ح/٥١١٢)، وهو حديث صحيح.

(مناسبة لطيفة)

وقع في حديث أبي ذرّ الطويل المشهور: أن عدد الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر؛ وفي رواية خمسة عشر؛ وفي رواية بضعة عشر. وقد رواه أحمد وغيره مختصراً ومطوّلاً.

قال محمد بن الحسين الأجرّي: حدّثنا أبو بكر جعفر بن محمد الفريابي^(١) إملاءً في شهر رجب سنة سبع وتسعين ومائتين، حدّثنا إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، حدّثنا أبي عن جدّه عن أبي إدريس الخولانيّ عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال: دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس وحده فجلست إليه فقلت: يا رسول الله إنك أمرتني بالصلاة. قال: «الصلاة خيرٌ موضوع، فاستكثر أو استقل». قال قلت: يا رسول الله فأيّ الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله، وجهاد في سبيله». فقلت: يا رسول الله فأيّ المؤمنين أفضل؟ قال: «أحسنهم خلقاً». قلت: يا رسول الله فأيّ المسلمين أسلم؟ قال: «من سلم الناس من لسانه ويده» فقلت: يا رسول الله فأيّ الهجرة أفضل؟ قال: «من هجر السيئات». قلت: يا رسول الله أيّ الصلاة أفضل؟ قال: «طول القنوت». قلت: يا رسول الله أيّ الصيام أفضل؟ قال: «فرض مجزئ، وعند الله أضعاف كثيرة». قلت: يا رسول الله فأيّ الجهاد أفضل؟ قال: «من عقر جواده وأهريق دمه». قلت: يا رسول الله فأيّ الرقاب أفضل؟ قال: «أغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها». قلت: يا رسول الله فأيّ الصدقة أفضل؟ قال:

(١) في (الأصل): «الغريابي»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف - رحمه

الله - وهو الصواب.

«جهد من مقلّ أوسر إلى فقير». قلت: يا رسول الله فأَيّ آية ما أنزل عليك أعظم؟ قال: «آية الكرسي - ثم قال - يا أبا ذرّ، وما السموات السبع مع الكرسيّ إلاّ كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسيّ كفضل الفلاة على الحلقة». قال قلت: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً». قال قلت: يا رسول الله كم المرسل من ذلك؟ قال: «ثلاثمائة وثلاثة عشر، جمّ غفير كثير طيّب». قلت: فمن كان أولهم؟ قال: «آدم». قلت: أنبيّ مرسل؟ قال: «نعم خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه وسوّاه قبيلًا - ثم قال - يا أبا ذرّ، أربعة سريانيّون: آدم، وشيث، وخنوخ - وهو إدريس وهو أول من خطّ بقلم - ونوح؛ وأربعة من العرب: هود، وشعيب، وصالح، ونيّك يا أبا ذرّ؛ وأول أنبياء بني إسرائيل موسى، وآخرهم عيسى، وأول الرسل آدم، وآخرهم محمّد». قال قلت: يا رسول الله كم كتاب أنزل الله؟ قال: «مائة كتاب وأربعة كتب: أنزل الله على شيث خمسين صحيفة، وعلى خنوخ ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وأنزل على موسى من قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان». قال قلت: يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم؟ قال: «كانت: يا أيها الملك المسلّط المبتلى المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكني بعثتك لتردّ عني دعوة المظلوم، فإني لا أردّها ولو كانت من كافر. وكان فيها أمثال. وعلى العاقل أن يكون له ساعات، ساعة ينجي فيها ربّه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفكّر في صنع الله، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب، وعلى العاقل أن لا يكون ضاغناً إلاّ لثلاث: تزوّد لمعاد، ومرمرة لمعاش، ولذّة في غير محرم. وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه، ومن حسب كلامه من عمله قلّ كلامه إلاّ فيما يعنيه». قال قلت: يا رسول الله فما كانت صحف موسى؟ قال: «كانت عبراً كلّها: عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح، عجبت لمن أيقن بالمقدّر ثم هو ينصّب،

وعجبت لمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم يطمئن إليها، وعجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثم هو لا يعمل». قال قلت: يا رسول الله فهل في أيدينا شيء مما كان في أيدي إبراهيم وموسى مما أنزل الله عليك؟ قال: نعم، اقرأ يا أبا ذر: ﴿قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربك فصلّى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى إنّ هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى﴾. قال قلت: يا رسول الله فأوصني، قال: «أوصيك بتقوى الله فإنه رأس أمرك». قال قلت: يا رسول الله زدني، قال: عليك بتلاوة القرآن وذكر الله، فإنه ذكر لك في السماء ونور لك في الأرض». قال قلت: يا رسول الله زدني، قال: «إياك وكثرة الضحك، فإنه يميّت القلب ويذهب بنور الوجه». قلت: يا رسول الله زدني، قال: «عليك بالجهاد، فإنه رهبانية أمتي». قلت: زدني، قال: «عليك بالصمت إلّا من خير، فإنه مطردة للشيطان وعون لك على أمر دينك». قلت: زدني، قال: «أنظر إلى من هو تحتك ولا تنظر إلى من هو فوقك، فإنه أجدر لك لا تزدرى نعمة الله عليك». قلت: زدني، قال: «أحبّ المساكين وجالسهم، فإنه أجدر لك أن لا تزدرى نعمة الله عليك». قلت: زدني، قال: «صل قرابتك وإن قطعوك». قلت: زدني، قال: «قل الحقّ وإن كان مرّاً». قلت: زدني، قال: لا تخف في الله لومة لائم». قلت: زدني، قال: «يردّك عن الناس ما تعرف من نفسك، ولا تجذّ عليهم فيما تحبّ، وكفى بك عيباً أن تعرف من الناس ما تجهل من نفسك، أو تجذّ عليهم فيما تحبّ — ثم ضرب بيده صدري فقال — يا أبا ذر، لا عقل كالتيبير، ولا ورع كالكفّ، ولا حسب كحسن الخلق»^(١). انتهى. والله أعلم.



(١) أخرجه الآجري في «الأربعون حديثاً التي حدّ النبي ﷺ على حفظها» (ح/٤٠)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (ح/٧٤٠)، وابن حبان في الموارد (ح/٩٤ و ٢٠٧٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/١٦٦ — ١٦٨)، بسند موضوع.

خاتمة

الحمد لله رب العالمين، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما يحبّه ربنا ويرضى؛
والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا
بالحقّ.

وقد وقع الفراغ من تأليف هذا الكتاب المبارك، في اليوم المبارك، من الشهر
المبارك، في يوم الجمعة لستّ وعشرين خلت من رمضان سنة ألف وثلاثمائة
وخمس وستين. وابتداؤه في جمادى سنة أربع وستين، فكانت مدّة تأليفه ستة عشر
أو سبعة عشر شهراً.

نسألك اللهم يا واسع الفضل والإحسان، منزل التوراة والإنجيل والقرآن، أن
لا تدع لنا ذنباً إلاّ غفرته، ولا همّاً إلاّ فرّجته، ولا غمّاً إلاّ كشفته، ولا غيظاً إلاّ
أذهبته، ولا غلاً إلاّ نزعته، ولا ديناً إلاّ قضيته، ولا مريضاً إلاّ شفّيته وعافيته، ولا
حاجة من حوائج الدنيا والآخرة هي لك رضى ولنا صلاح إلاّ قضيتها يا ربّ
العالمين. اللهم إنا نسألك من الخير كلّ عاجله وآجله، ما علمنا منه وما لم نعلم،
ونعوذ بك من الشرّ كلّ عاجله وآجله، ما علمنا منه وما لم نعلم، ونسألك من خير
ما سألك منه عبدك ورسولك محمد ﷺ وعبادك الصالحون، ونعوذ بك من شرّ ما
استعاذ منه عبدك ورسولك محمد ﷺ وعبادك الصالحون، ونسألك الجنة وما قرّب
إليها من قول وعمل، ونعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول وعمل، ونسألك
أن تجعل كلّ قضاء تقضيه لنا خيراً. سبحان ربك ربّ العزة عما يصفون وسلام
على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

يا منزل الآيات والفرقان
 اشرح به صدري لمعرفة الهدى
 يسر به أمري واقض مآربي
 واحطط به وزري وأخلص نيتي
 واكشف به ضرتي وحقق توبتي
 طهر به قلبي وصف سريرتي
 واقطع به طمعي وشرف همتي
 أسهر به ليلي وأضم جوارحي
 أمزجهُ ربي بلحمي مع دمي
 أنت الذي صوّرتني وخلقنتني
 أنت الذي علمتني ورحمتني
 أنت الذي أطعمتني وسقيتني
 وجبرتني وسترنتني ونصرتني
 أنت الذي أويتني وجبوتني
 وزرعت لي بين القلوب مودة
 وزرعت لي في العالمين محاسناً
 وجعلت ذكري في البرية شائعاً
 لكن سترت معايبي ومثالي
 ولقد مننت عليّ ربّ بأنعم
 فلك المحامد والمدائح كلّها

بينني وبينك حرمة القرآن
 واعصم به قلبي من الشيطان
 وأجز به جسدي من النيران
 واشدد به أزري وأصلح شاني
 وأريح به بيعي بلا خسراني
 أجمل به ذكرى وأغلّ مكاني
 كثر به ورعي وأخي جناني
 أسبل بفيض دموعها أجفاني
 واغسل به قلبي من الأضغاني
 وهديتني لشرائع الإيمان
 وجعلت صدري واعي القرآن
 من غير كسب يد ولا دكان
 وغمرتني بالفضل والإحسان
 وهديتني من حيرة الخذلان
 والعطف منك برحمة وحنان
 وسترت عن أبصارهم عصياني
 حتى جعلت جميعهم إخواني
 وحملت عن سقطي وعن طغياني
 مالي بشكر أفلهنّ يدان
 بخواطري وجوارحي ولساني^(١)

(١) من نونية القحطاني الأندلسي، ثم كتب بعد ذلك في هامش (الأصل) ما نصه:

بعون الله تم الجزء الرابع من توفيق الرحمن في دروس القرآن تأليف العلامة الشيخ فيصل
 ابن عبد العزيز آل مبارك قاضي المحكمة الشرعية بالجوف آخر ما كتبه من خطه بقلم الفقير =

إلى ربه والمعترف بذنبه عبد العزيز العقل غفر الله له ولوالديه ولمشايقه، وللمسلمين والمسلمات، وصلى الله على محمد وآله أصحابه وسلم أمين، في ٤ من شهر ذي القعدة عام ١٣٧٥ هـ.

قال محققه عفى الله عنه بمتة وكرمه: وكان الفراغ من تحقيق هذا الكتاب المبارك - حسب الوسع الطاقة - للشيخ الجليل فيصل بن عبد العزيز آل مبارك في اليوم المبارك: يوم الجمعة، الموافق للثاني والعشرين من شهر ربيع الأول، من عام ستة عشر وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية المباركة، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

وكتبه

أبو عبد الله عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزبير آل حمد

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين من أهل السنة

الرياض

فَهْرَسْتُ الْمَوْضُوعَاتِ الجزء الرابع

الدرس الخمسون بعد المائتين ٥	الآيات: ٥١-٥٦ ٣٨
﴿سورة الشورى﴾ ٥	الآيات: ٥٧-٦٥ ٣٩
الآيات: ١-٥ ٨	الآيات: ٦٦-٧٣ ٤٠
الآيات: ٦-١٢ ٩	الآيات: ٧٤-٨٠ ٤١
الآيات: ١٣-١٨ ١١	الآيات: ٨١-٨٩ ٤٢
الآيات: ١٩-٢٦ ١٣	الدرس الخامس والخمسون بعد المائتين ٤٥
الدرس الحادي والخمسون بعد المائتين ١٥	﴿سورة الدخان﴾ ٤٥
الآيات: ٢٧-٣٥ ١٧	الآيات: ١-٨ ٤٧
الآيات: ٣٦-٤٣ ١٨	الآيات: ٩-١٦ ٤٨
الآيات: ٤٤-٥٠ ١٩	الآيات: ١٧-٣٣ ٥٠
الآيتان: ٥١ و ٥٢ ٢٠	الدرس السادس والخمسون بعد المائتين ٥٢
الدرس الثاني والخمسون بعد المائتين ٢٢	الآيات: ٣٤-٤٢ ٥٣
﴿سورة الزخرف﴾ ٢٢	الآيات: ٤٣-٥٠ ٥٦
الآيات: ١-٨ ٢٤	الآيات: ٥١-٥٩ ٥٧
الآيات: ٩-١٤ ٢٥	الدرس السابع والخمسون بعد المائتين ٥٩
الآيات: ١٥-٢٥ ٢٦	﴿سورة الجاثية﴾ ٥٩
الدرس الثالث والخمسون بعد المائتين ٢٩	الآيات: ١-٥ ٦٠
الآيات: ٢٦-٣٥ ٣٠	الآيات: ٦-١١ ٦١
الآيات: ٣٦-٤٥ ٣٣	الآيات: ١٢-١٥ ٦٢
الدرس الرابع والخمسون بعد المائتين ٣٥	الدرس الثامن والخمسون بعد المائتين ٦٤
الآيات: ٤٦-٥٠ ٣٧	الآيات: ١٦-٢٠ ٦٦

١١١ الآيات: ١١-١٧	٦٧ الآيات: ٢١-٢٣
١١٤ الدرس الرابع والستون بعد المائتين	٦٨ الآيات: ٢٤-٢٦
١١٦ الآيات: ١٨-٢١	٦٩ الآيات: ٢٧-٣٧
١١٨ الآيات: ٢٢-٢٦	٧١ الدرس التاسع والخمسون بعد المائتين
١٢١ الآيات: ٢٧-٢٩	٧١ ﴿سورة الأحقاف﴾
١٢٣ الدرس الخامس والستون بعد المائتين	٧٣ الآيات: ١-٦
١٢٣ ﴿سورة الحجرات﴾	٧٥ الآيات: ٧-١٤
١٢٥ الآيات: ١-٥	٧٦ الآيتان: ١٥ و ١٦
١٣٠ الآيات: ٦-٨	٧٧ الآيتان: ١٧-٢٠
١٣١ الآيتان: ٩ و ١٠	٧٩ الدرس الستون بعد المائتين
١٣٣ الدرس السادس والستون بعد المائتين	٨١ الآيات: ٢١-٢٨
١٣٤ الآيات: ١١-١٣	٨٤ الآيات: ٢٩-٣٢
١٣٧ الآيات: ١٤-١٨	٨٧ الآيات: ٣٣-٣٥
١٣٩ الدرس السابع والستون بعد المائتين	٨٩ الدرس الحادي والستون بعد المائتين
١٣٩ ﴿سورة ق﴾	٨٩ ﴿سورة محمد﴾
١٤٢ الآيات: ١-١٥	٩١ الآيات: ١-٣
١٤٤ الآيات: ١٦-٣٧	٩٢ الآيات: ٤-١١
١٤٨ الآيات: ٣٨-٤٥	٩٤ الآيات: ١٢-١٩
١٥٠ الدرس الثامن والستون بعد المائتين	٩٨ الدرس الثاني والستون بعد المائتين
١٥٠ ﴿سورة الذاريات﴾	١٠٠ الآيات: ٢٠-٢٤
١٥٢ الآيات: ١-١٤	١٠٢ الآيات: ٢٥-٣٢
١٥٣ الآيات: ١٥-٢٣	١٠٦ الدرس الثالث والستون بعد المائتين
١٥٥ الآيات: ٢٤-٤٦	١٠٦ ﴿سورة الفتح﴾
١٥٧ الآيات: ٤٧-٦٠	١٠٨ الآيات: ١-٧
١٦٠ الدرس التاسع والستون بعد المائتين	١٠٩ الآيات: ٨-١٠

١٩٧ الآيات: ٦٢-٧٨	١٦٠ ﴿سورة الطور﴾
١٩٩	الدرس الثالث والسبعون بعد المائتين	١٦٢ الآيات: ١-١٦
١٩٩ ﴿سورة الواقعة﴾	١٦٤ الآيات: ١٧-٢٨
٢٠١ الآيات: ١-٢٦	١٦٥ الآيات: ٢٩-٤٣
٢٠٣ الآيتان: ٢٧-٤٠	١٦٧ الآيات: ٤٤-٤٩
٢٠٥ الآيات: ٤١-٦٢	١٦٨ الدرس السبعون بعد المائتين
٢٠٦ الآيات: ٦٣-٧٤	١٦٨ ﴿سورة النجم﴾
٢٠٩	الدرس الرابع والسبعون بعد المائتين	١٧٠ الآيات: ١-١٨
٢١٠ الآيات: ٧٥-٨٢	١٧٣ الآيات: ١٩-٢٨
٢١٢ الآيات: ٨٣-٩٦	١٧٥ الآيات: ٢٩-٣٢
٢١٧	الدرس الخامس والسبعون بعد المائتين	١٧٦ الآيات: ٣٣-٦٢
٢١٧ ﴿سورة الحديد﴾	١٧٨	الدرس الحادي والسبعون بعد المائتين
٢١٩ الآيات: ١-٦	١٧٨ ﴿سورة القمر﴾
٢٢٠ الآيات: ٧-١٠	١٨٠ الآيات: ١-٨
٢٢١ الآيات: ١١-١٥	١٨١ الآيات: ٩-١٧
٢٢٣ الآيات: ١٦-١٩	١٨٣ الآيات: ١٨-٣٢
٢٢٥	الدرس السادس والسبعون بعد المائتين	١٨٤ الآيات: ٣٣-٤٠
٢٢٧ الآيتان: ٢٠ و ٢١	١٨٥ الآيات: ٤١-٤٦
٢٢٩ الآيات: ٢٢-٢٥	١٨٦ الآيات: ٤٧-٥٥
٢٣٠ الآيتان: ٢٦ و ٢٧	١٨٨ الدرس الثاني والسبعون بعد المائتين
٢٣٢ الآيتان: ٢٨ و ٢٩	١٨٨ ﴿سورة الرحمن﴾
٢٣٤	الدرس السابع والسبعون بعد المائتين	١٩١ الآيات: ١-١٣
٢٣٤ ﴿سورة المجادلة﴾	١٩٢ الآيات: ١٤-٢٥
٢٣٧ الآيات: ١-٤	١٩٤ الآيات: ٢٦-٤٥
٢٣٩ الآيات: ٥-٧	١٩٦ الآيات: ٤٦-٦١

٢٨٣	الدرس الثاني والثمانون بعد المائتين	٢٤٠	الآيات: ٨-١٠
٢٨٣	﴿سورة المنافقون﴾	٢٤١	الآيات: ١١-١٣
٢٨٥	الآيات: ١-٤	٢٤٢	الآيات: ١٤-٢٢
٢٨٦	الآيات: ٥-٨	٢٤٤	الدرس الثامن والسبعون بعد المائتين
٢٨٩	الآيات: ٩-١١	٢٤٤	﴿سورة الحشر﴾
٢٩١	الدرس الثالث والثمانون بعد المائتين	٢٤٧	الآيات: ١-٦
٢٩١	﴿سورة التغابن﴾	٢٥٠	الآيات: ٧-١٠
٢٩٣	الآيات: ١-٤	٢٥٢	الآيات: ١١-١٧
٢٩٤	الآيات: ٥-١٠	٢٥٣	الآيات: ١٨-٢٤
٢٩٥	الآيات: ١١-١٣	٢٥٦	الدرس التاسع والسبعون بعد المائتين
٢٩٦	الآيات: ١٤-١٨	٢٥٦	﴿سورة الممتحنة﴾
٢٩٩	الدرس الرابع والثمانون بعد المائتين	٢٥٨	الآيات: ١-٦
٢٩٩	﴿سورة الطلاق﴾	٢٦١	الآيات: ٧-٩
٣٠١	الآيات: ١-٣	٢٦٢	الآيتان: ١٠ و ١١
٣٠٦	الآيات: ٤-٧	٢٦٤	الآيتان: ١٢ و ١٣
٣٠٨	الآيات: ٨-١٢	٢٦٦	الدرس الثمانون بعد المائتين
٣١١	الدرس الخامس والثمانون بعد المائتين	٢٦٦	﴿سورة الصف﴾
٣١١	﴿سورة التحريم﴾	٢٦٨	الآيات: ١-٤
٣١٣	الآيات: ١-٥	٢٧٠	الآيات: ٥-٩
٣١٩	الآيات: ٦-٨	٢٧٢	الآيات: ١٠-١٤
٣٢٠	الآيات: ٩-١٢	٢٧٥	الدرس الحادي والثمانون بعد المائتين
٣٢٣	الدرس السادس والثمانون بعد المائتين	٢٧٥	﴿سورة الجمعة﴾
٣٢٣	﴿سورة الملك﴾	٢٧٧	الآيات: ١-٤
٣٢٥	الآيات: ١-٥	٢٧٩	الآيات: ٥-٨
٣٢٦	الآيات: ٦-١٢	٢٨٠	الآيات: ٩-١١

٣٧٠	الدرس الحادي والتسعون بعد المائتين	٣٢٧	٢٢-١٣	الآيات:
٣٧٢	٣٢٨	٣٠-٢٣	الآيات:
٣٧٥	٣٣١	الدرس السابع والثمانون بعد المائتين	
٣٧٧	٣٣١	﴿سورة نون﴾	
٣٧٩	الدرس الثاني والتسعون بعد المائتين	٣٣٣	١٦-١	الآيات:
٣٧٩	٣٣٦	٣٣-١٧	الآيات:
٣٨١	٣٣٨	٤٣-٣٤	الآيات:
٣٨٣	٣٤١	٥٢-٤٤	الآيات:
٣٨٤	٣٤٣	الدرس الثامن والثمانون بعد المائتين	
٢٧٥	الدرس الثالث والتسعون بعد المائتين	٣٤٣	﴿سورة الحاقة﴾	
٣٨٧	٣٤٥	١٢-١	الآيات:
٣٨٩	٣٤٧	١٨-١٣	الآيات:
٣٩٠	٣٤٨	٣٧-١٩	الآيات:
٣٩٣	٣٥٠	٥٢-٣٨	الآيات:
٣٩٤	٣٥٣	الدرس التاسع والثمانون بعد المائتين	
٣٩٧	الدرس الرابع والتسعون بعد المائتين	٣٥٣	﴿سورة المعارج﴾	
٣٩٧	٣٥٥	١٨-١	الآيات:
٣٩٨	٣٥٨	٣٥-١٩	الآيات:
٣٩٩	٣٦٠	٤٤-٣٦	الآيات:
٤٠٠	٣٦٢	الدرس التسعون بعد المائتين	
٤٠١	٣٦٢	﴿سورة نوح﴾	
٤٠٣	الدرس الخامس والتسعون بعد المائتين	٣٦٤	٤-١	الآيات:
٤٠٣	٣٦٥	٢٠-٥	الآيات:
٤٠٥	٣٦٦	٢٤-٢٢	الآيات:
٤٠٦	٣٦٧	٢٨-٢٥	الآيات:

٤٤٣ الآيات: ١-١٤	٤٠٩ الآيات: ٢٣-٣١
٤٤٥ الآيات: ١٥-٢٩	٤١١	الدرس السادس والتسعون بعد المائتين
٤٤٧ ﴿سورة الانفطار﴾	٤١١ ﴿سورة الرسالات﴾
٤٤٨ الآيات: ١-١٢	٤١٣ الآيات: ١-١٥
٤٤٩ الآيات: ١٣-١٩	٤١٥ الآيات: ١٦-٢٨
٤٥١ الدرس الواحد بعد الثلاثمائة	٤١٥ الآيات: ٢٩-٤٠
٤٥١ ﴿سورة المطففين﴾	٤١٧ الآيات: ٤١-٥٠
٤٥٣ الآيات: ١-٦	٤١٩	الدرس السابع والتسعون بعد المائتين
٤٥٤ الآيات: ٧-١٧	٤١٩ ﴿سورة النبأ﴾
٤٥٦ الآيات: ١٨-٢٨	٤٢١ الآيات: ١-١٦
٤٥٧ الآيات: ٢٩-٣٦	٤٢٣ الآيات: ١٧-٣٠
٤٥٩ ﴿سورة الانشقاق﴾	٤٢٥ الآيات: ٣١-٤٠
٤٦٠ الآيات: ١-١٥	٤٢٧	الدرس الثامن والتسعون بعد المائتين
٤٦١ الآيات: ١٦-٢٥	٤٢٧ ﴿سورة النازعات﴾
٤٦٣ الدرس الثاني بعد الثلاثمائة	٤٢٩ الآيات: ١-١٤
٤٦٣ ﴿سورة البروج﴾	٤٣١ الآيات: ١٥-٢٦
٤٦٤ الآيات: ١-١١	٤٣١ الآيات: ٢٧-٣٣
٤٦٧ الآيات: ١٢-٢٢	٤٣٣ الآيات: ٣٤-٤٦
٤٦٩ ﴿سورة طارق﴾	٤٣٤	الدرس التاسع والتسعون بعد المائتين
٤٧٠ الآيات: ١-١٠	٤٣٤ ﴿سورة عبس﴾
٤٧١ الآيات: ١١-١٧	٤٣٥ الآيات: ١-١٦
٤٧٣ الدرس الثالث بعد الثلاثمائة	٤٣٧ الآيات: ١٧-٣٢
٤٧٣ ﴿سورة الأعلى﴾	٤٣٨ الآيات: ٣٣-٤٢
٤٧٤ الآيات: ١-١٣	٤٤١	الدرس الثلاثمائة
٤٧٥ الآيات: ١٤-١٩	٤٤١ ﴿سورة التكوير﴾

٥٠٨ الآيات: ٦-١٩	٤٧٧ ﴿سورة الغاشية﴾
٥١١ ﴿سورة القدر﴾	٤٧٨ الآيات: ١-١٦
٥١٣ الدرس الثامن بعد الثلاثمائة	٤٧٩ الآيات: ١٧-٢٦
٥١٣ ﴿سورة البينة﴾	٤٨١ الدرس الرابع بعد الثلاثمائة
٥١٤ الآيات: ١-٥	٤٨١ ﴿سورة الفجر﴾
٥١٧ الآيات: ٦-٨	٤٨٢ الآيات: ١-١٤
٥١٨ ﴿سورة الزلزلة﴾	٤٨٣ الآيات: ١٥-٢٠
٥٢١ الدرس التاسع بعد الثلاثمائة	٤٨٤ الآيات: ٢١-٣٠
٥٢١ ﴿سورة العاديات﴾	٤٨٨ ﴿سورة البلد﴾
٥٢٣ ﴿سورة القارعة﴾	٤٨٨ الآيات: ١-١٠
٥٢٥ ﴿سورة العصر﴾	٤٨٩ الآيات: ١١-٢٠
٥٢٧ ﴿سورة الهمزة﴾	٤٩١ الدرس الخامس بعد الثلاثمائة
٥٢٩ الدرس العاشر بعد الثلاثمائة	٤٩١ ﴿سورة الشمس﴾
٥٢٩ ﴿سورة الفيل﴾	٤٩٢ الآيات: ١-١٠
٥٣٥ ﴿سورة قريش﴾	٤٩٣ الآيات: ١١-١٥
٥٣٧ الدرس الحادي عشر بعد الثلاثمائة	٤٩٦ ﴿سورة الليل﴾
٥٣٧ ﴿سورة الماعون﴾	٤٩٦ الآيات: ١-١١
٥٣٨ ﴿سورة الكوثر﴾	٤٩٨ الآيات: ١٢-٢١
٥٣٩ ﴿سورة الكافرون﴾	٥٠٠ الدرس السادس بعد الثلاثمائة
٥٤١ ﴿سورة النصر﴾	٥٠٠ ﴿سورة الضحى﴾
٥٤٣ ﴿سورة المسد﴾	٥٠٢ ﴿سورة الشرح﴾
٥٤٥ ﴿سورة الإخلاص﴾	٥٠٤ ﴿سورة التين﴾
٥٥١ ﴿سورة الفلق﴾	٥٠٦ الدرس السابع بعد الثلاثمائة
٥٥١ ﴿سورة الناس﴾	٥٠٦ ﴿سورة العلق﴾
٥٥٦ مناسبة لطيفة	٥٠٦ الآيات: ١-٥
٥٥٩ خاتمة	٥٠٦	